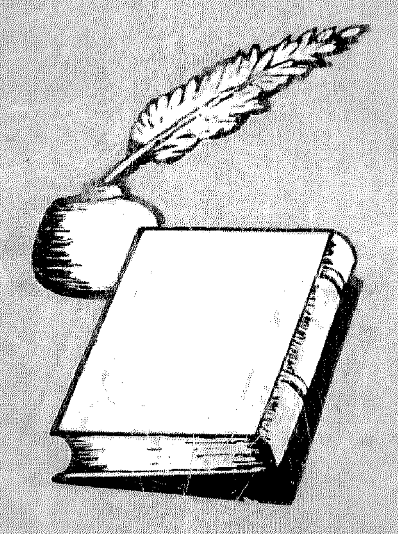
موسوعة

التاريخ الإسلامي والحضارة الإسلامية

٥

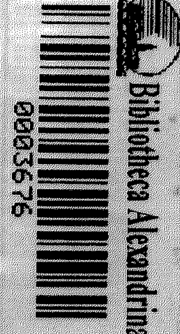
— تاريخ مصر وسوريا من مطلع الإسلام حتى الآن :
(إنصاف تاريخ مصر — دورها الحضارى — أهم آثارها)
— الحروب الصليبية : دوافعها — أدوارها — نتائجها
(الجهاد الإسلامى فى مواجهة العدوان الصليبى)
— الإمبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن
(الإمبراطورية العثمانية : مالها وما عليها)



تأليف
الدكتور أحمد شلبى
دكتوراه من جامعة كمبردج
أستاذ ورئيس قسم التاريخ الإسلامى والحضارة الإسلامية
بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة



مكتبة النهضة المصرية
٩ شارع عدلى — القاهرة



الطبعة السابعة (١٩٨٦) مع إضافات واسعة وتحقيقات مهمة

موسوعة

التاريخ الإسلامي

والحضارة الإسلامية

دراسة تحليلية شاملة فى عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامى كله ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر ، مع دراسة الجوانب الحضارية التى اسهم بها المسلمون فى ترقية العمران وتطوير الفكر البشرى

٥

— تاريخ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن .

(انصاف تاريخ مصر — دورها الحضارى — اهم آثارها)

— الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها .

(الجهاد الاسلامى فى مواجهة العدوان الصليبى)

— الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشاتها حتى الآن .

(الامبراطورية العثمانية : ما لها وما عليها)

تأليف

الدكتور أحمد شلبي

دكتوراه من جامعة كمبردج (انجلترا)

استاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية

بكلية دار العلوم — جامعة القاهرة

الطبعة السابعة (١٩٨٦)

مع زيادات واسعة وتحقيقات مهمة



ملتزمة الطبع والنشر

مكتبة النهضة المصرية

لأصحابها حسن محمد وأولاده

٩ شارع عدلى باشا بالقاهرة

بسم الله الرحمن الرحيم

وبه نستعين

التـــاريخ . . . .

شعاع من المـــاضي ينير الحاضر والمستقبل

احمد شلبي

الطبعة الأولـــى — ١٩٦٧

الطبعة الثانيـــة — ١٩٧٢

الطبعة الثالثـــة — ١٩٧٧

الطبعة الرابعـــة — ١٩٧٩

الطبعة الخامسة — ١٩٨٢

الطبعة السادسة — ١٩٨٤

الطبعة السابعة — ١٩٨٦

خطة البحث فى هذه الموسوعة

ان خطة البحث التى اتبعتها فى كتابة « التاريخ الاسلامى » خطة جديدة ومريحة ، ويسرنى أن ابرزها فى التخطيط التـالى ليعرف القـارىء كنهها ، وليسهل عليه متابعتها :

دراسة زمنية فى هذه الأجـزاء الثـلاثة اذ أن العـالم الاسلامى وحـدة واحـدة .	الجزء	المحتوى
	ج ١	العرب قبل الاسلام — السيرة النبوية العطرة — عصر الخلفاء الراشدين
	ج ٢	الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية خلالها
	ج ٣	الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسى الأول ودور المسـلمين خلاله فى خدمـة الدراسـات الاسلامية والحضارة العالمية

ثم دراسة مكانية (قطاعات جغرافية) فى الأجزاء الخمسة التالية لأن العـالم الاسـلامى انقسـم الى دويلات كثيرة ، ويشمل كل جزء من هذه الأجزاء قطاعا من العالم الاسلامى ، بحيث يتناول تاريخه من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر مبتدئين من الغرب ومتجهين الى الشرق كالتخطيط التـالى :

الجزء الرابع
- الاندلس الاسلامية وانتقال الحضارة الاسلامية منها الى اوروبا
- المغرب — الجزائر — تونس — ليبيا ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر
- السنوسية : مبادئها وتاريخها

الجزء الخامس
- مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر
- الحروب الصليبية : دوافعها — ادوارها — نتائجها
- الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ ظهورها حتى الآن

الجزء السادس
- الاسلام والدول الاسلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن
- وسائل انتشار الاسلام بقلب افريقية
- دراسة عن { — الدول الاسلامية قبل الاستعمار الأوربى . — الدول الاسلامية الحالية :

موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال

الجزء السابع

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

دول الجزيرة العربية : المملكة العربية السعودية — عمان — اليمن — جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية ، دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت — العراق

الجزء الثامن

التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا : ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا — الاقليات الاسلامية بالصين والاتحاد السوفيتى والهند والفليبين وسنغافورة .

وتختم الموسوعة بدراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر :

الجزء التاسع : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد نجيب وعصر عبد الناصر عصر المظالم والهزائم

الجزء العاشر : ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمد انور السادات

كتب للمؤلف

أولا : موسوعة التاريخ الاسلامي

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء لتاريخ العالم الاسلامي كله من مطلع الاسلام حتى الآن ، مع دراسة الجوانب الحضارية التي اسهم بها المسلمون في ترقية العمران ، وتطوير الفكر البشري :

١ ـ الجزء الأول : (الطبعة الثانية عشرة)

ـ مقدمة الموسوعة : نطاق التاريخ الاسلامي ـ تفسير التاريخ ـ هل التاريخ علم ؟ .. فلسفة التاريخ ـ فائدة التاريخ ـ مراحل تدوين التاريخ ـ قضية الالتزام في كتابة التاريخ الاسلامي ـ علم التاريخ بين المسيحية والاسلام ...
ـ تاريخ العرب قبل الاسلام : البدو والحضر ـ حياة العرب السياسية والاقتصادية والاجتماعية .
ـ السيرة النبوية العطرة : جوانب من السيرة تدون لأول مرة
ـ الدعوة الاسلامية وفلسفتها ـ عصر الخلفاء الراشدين

٢ ـ الجزء الثاني : (الطبعة الثامنة)

الدولة الأموية والحركات الفكرية والثورية في عهدها .
انصاف تاريخ الأمويين وابراز جهودهم السياسية والحضارية .

٣ ـ الجزء الثالث : (الطبعة الثامنة)

الخلافة العباسية مع اهتمام خاص بالعصر العباسي الأول ، وبدور المسلمين خلاله في خدمة الدراسات الاسلامية والحضارة العالمية .

٤ ـ الجزء الرابع : (الطبعة الثامنة)

ـ الأندلس الاسلامية ، وانتقال الحضارة الاسلامية الى أوربا عن طريقها .
ـ المغرب ـ الجزائر ـ تونس ـ ليبيا (من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر) .
ـ السنوسية : مبادئها وتاريخها .

٥ ـ الجزء الخامس : (الطبعة السابعة)

ـ مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر .
(تدوين جديد لتاريخ مصر ـ دورها الحضاري ـ أهم آثارها) .
ـ الحروب الصليبية : دوافعها ـ ادوارها ـ نتائجها .
ـ الامبراطورية العثمانية (تركيا) منذ نشأتها حتى الآن .

كتب للمؤلف

سادسا : تعليم اللغة العربية لغير العرب

وقواعد اللغة العربية

- برنامج شامل ميسر لتعليم اللغة العربية بكل فروعها لغير العرب .
- أول سلسلة من نوعها فى المكتبة العربية تملأ هذا الفراغ .
- دراسات شاملة سهلة لقواعد اللغة العربية من نحو وصرف .
- تضم هذه السلسة الكتابين التاليين :

٤٧ ـ **تعليم اللغة العربية لغير العرب :** (الطبعة الرابعة)

يبدأ هذا الكتاب من المرحلة الأولى : مرحلة الهجاء ، ويتطور للقراءة ، فالتعبير ، فالاملاء ، فالخط والنصوص ، ثم يقفز بالطالب الى مرحلة متقدمة فى القراءة والمحادثة والكتابة ، مستعملا فى هذه المرحلة موضوعات جذابة من الفكر الاسلامى والعربى اختيرت من أمهات الكتب العربية ثم صيغت فى أسلوب مناسب ، مع أسئلة وتمرينات مفيدة .

٤٨ ـ **قواعد اللغة العربية والتطبيق عليها :** (الطبعة الرابعة)

عرض لجميع أبواب النحو العربى بطريقة تربوية سهلة
ودراسة واضحة لأهم أبواب الصرف

هذا الكتاب ضرورى للمثقف العربى وغير العربى

كتب نفدت ولن يعاد طبعها

٤٩ ـ فى قصور الخلفاء العباسيين :
أكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٣ من هذه القائمة .

٥٠ ـ مصر فى حربين (١٩٦٧ و ١٩٧٣) دراسة مقارنة :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ٩ من هذه القائمة .

٥١ ـ الحكومة والدولة فى الاسلام :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٣ من هذه القائمة .

٥٢ ـ الاشتراكية : دراسة علمية نقدية يدعمها اليقين الروحى .

٥٣ ـ النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .
وأكثر مادة هذين الكتابين تضمنها الكتاب رقم ١٤ من هذه القائمة .

٥٤ ـ الجهاد والنظم العسكرية فى التفكير الاسلامى :
وأكثر مادة هذا الكتاب تضمنها الكتاب رقم ١٩ من هذه القائمة .

٦ — **الجزء السادس :** (الطبعة الخامسة)

الاســلام والدول الاســلامية جنوب صحراء افريقية منذ دخلهـا الاســلام حتى الآن :

— دراسة عن وسائل انتشار الاسلام :
مراكز الشمال — هجرات عربية وغير عربية — التجار — الطرق الصوفية — مراكز داخلية .

— الدول الاسلامية قبل الاستعمار الاوربي :
غانة — مالى — صنغى — دول الهوسا — برنو — باجـرمى — واداى — الفونج — مقدشو — مملكة الزنج .

— الدول الاسلامية الحالية :
موريتانيا — السنغال — جامبيا — غينيـا — مالى — النيجر — نيجيريا — تشاد — السودان — الصومال — جيبوتى .

٧ — **الجزء السابع :** (الطبعة الرابعة)

الاسلام والدول الاسلامية بالجزيرة العربية والعراق :

— دول الجزيرة العربية من مطلع الاسلام حتى الآن :
المملكة العربية السعودية — اليمن — جمهورية اليمن الجنوبية — عمان — دولة الامارات العربية — قطر — البحرين — الكويت .

— العراق من مطلع الاسلام حتى الآن .

٨ — **الجزء الثامن :** (الطبعة الثالثة)

الاسلام والدول الاسلامية غير العربية بآسيا من مطلع الاسلام حتى الآن :

ايران — افغانستان — الباكستان — بنجلاديش — ماليزيا — اندونيسيا الأقليات الاسلامية فى الهند والصين وروسيا والفيلبين ..

دراسات تفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر

٩ — **الجزء التاسع :** (الطبعة الثالثة)

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر محمـد نجيب — عصر جمـال عبد الناصر (عصر المظالم والهزائم) .

١٠ — **الجزء العاشر :**

ثورة ٢٣ يوليو من يوم الى يوم : عصر أنور السادات .

(ترجمت اكثر اجزاء هذه الموسوعة لعدة لغات)

كتب للمؤلف

ثانيا : موسوعة الحضارة الاسلامية

دراسة تحليلية شاملة في عشرة اجزاء ، تبرز الاتجاهات الحضارية التى جاء بها الاسـلام لهداية البشرية فى شـئون العقيدة ، والسياسة ، والاقتصـاد ، وفى مجـال الحيـاة الاجتماعية والتربوية والعسـكرية ، والتشريعية والقضائية ، كما تبرز جهود المسلمين فى الحضارة التجريبية ،

واجزاؤها هى :

١١ ـ الجزء الأول : تاريخ المناهج الاسلامية (الطبعة الرابعة)

مناهج التعليم فى صدر الاسلام ـ انحرافاتها فى عصـور الظلام ـ وجوب تصحيحها (*)

١٢ ـ الجزء الثانى : الفكر الاسلامى : منابعه وآثاره
مآثر المسلمين فى مجال الدراسات العلمية والفلسفية
(الطبعة السابعة)

١٣ ـ الجزء الثالث : السـياسة (الطبعة السابعة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم السياسية المعاصرة (*)

١٤ ـ الجزء الرابع : الاقتصـاد (الطبعة السابعة)

فى الفـكر الاسـلامى

مع المقارنة بالنظم الاقتصادية المعاصرة ، ومع دراسة شاملة للنقاط التالية :

١ ـ الاسلام والمسلمون فى مواجهة المشكلة الاقتصادية .

٢ ـ مبادىء الاسلام الاقتصادية .

٣ ـ الاسلام والقضايا الاقتصادية الحديثة (شهادات الاستثمار ...) .

٤ ـ من تاريخ الاقتصاد فى الاسلام (بيت المال : موارده ومصارفه ...) .

٥ ـ النظم الاقتصادية فى العالم عبر العصور وأثر الفكر الاسلامى فيها .

١٥ ــ الجزء الخامس : التربية الاسلامية (الطبعة الثامنة)

نظمها ــ تاريخها ــ فلسفتها

دراسة عميقة وشاملة لفلسفة التربية عند المسلمين ، ومناهج التعليم وأمكنته ، ولحالة المدرسين المالية والاجتماعية ، والاجازات العلمية ، والعقوبات ، والجوائز ، والمكافآت ، وملابس المدرسين ، ونقابة المعلمين ، وتكافؤ الفرص بين التلاميذ ، وتوجيههم حسب مواهبهم ..

١٦ ــ الجزء السادس : المجتمع الاسلامى (الطبعة السابعة)

اسس تكوينه .. اسباب ضعفه .. وسائل نهضته

ابتداء من الطبعة السابعة : رؤية جديدة ــ تخطيط جديد ــ أداء جديد .

١٧ ــ الجزء السابع : الحياة الاجتماعية (الطبعة الخامسة)

فى الفكر الاسلامى

ــ فى نطاق الأسرة : كالختان وتحديد النسل وعمل المرأة ...

ــ وفى نطاق المجتمع : كالأفراح والمآتم والموسيقى والغناء ...

١٨ ــ الجزء الثامن : تاريخ التشريع الاسلامى (الطبعة الرابعة)

وتاريخ النظم القضائية فى الاسلام

مع بحوث واسعة عن القرآن الكريم : المصدر الأول للتشريع

ومع دراسة شاملة لمصادر التشريع الأخرى

الاسلام

١٩ ــ الجزء التاسع : والعلاقات الدولية (الطبعة الرابعة)

دراسات علمية توضح النهج الاسلامى فى تنظيم العلاقات بين الدول الاسلامية والدول غير الاسلامية فى المجالات السياسية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية .

٢٠ ــ الجزء العاشر : رحلة حياة (الطبعة الرابعة)

تجربة تعرض مجموعة من قضايا الحضارة الاسلامية

كتب المؤلف

ثالثا : مقـــارنة الأديـــان

سلسلة من الكتب فى مقارنة الاديان ، تعتمـد على ادق المراجـع بمختلف اللغات ، وتمتاز دراستها بالحيدة والعمق ، وتشمل :

٢١ ـ الجزء الأول : اليهـودية : (الطبعة التاسعة)

ـ دراسة لشتى المسائل اليهودية : اليهـود فى التاريخ من عهـد ابراهيم حتى الآن : الصهيونية ، أنبياء بنى اسرائيل، عقيدة بنى اسرائيل، يهوه اله بنى اسرائيل ، التعدد والتوحيد فى الفكر اليهودى ، التابوت والهيكل ، الكهنة والقرابين ...

ـ مصادر الفكر اليهودى : العهد القديم ، التلمود ، بروتوكولات حكماء صهيون .

ـ اليهود فى الظلام : الماسونية ، والروتارى ، الاغتيال ، التجسس ، البابية والبهائية .

ـ من صور التشريع فى اليهودية .

٢٢ ـ الجزء الثانى : المسيحية : (الطبعة التاسعة)

ـ المسيح والمسيحية فى نظر المسلمين واليهود والمفكرين الغربيين والكنيسة .

ـ بولس واضع المسيحية الحالية ، التثليث ، صلب المسيح للتكفير عن خطيئة البشر .

ـ شعائر المسيحية ، المصادر الحقيقية للمعتقدات المسيحية ، المجامع ، طبيعة المسيح والآراء فيها ، الطوائف المسيحية ، الرهبنة والاديرة ، خرافة ظهور العذراء فى كنيسة الزيتون ، حركة الاصلاح الدينى ونتائجها ونقدهـا .

٢٣ ـ الجزء الثالث : الاسـلام : (الطبعة التاسعة)

ـ الله فى التفكير الاسلامى ، النبوة فى التفكير الاسلامى ، غير المسلمين فى المجتمع الاسلامى ، الدين المعاملة ، المراة فى الاسلام ، الرق وموقف الاسلام منه ، السياسة والاقتصـاد فى الاسـلام . آراء المفكرين الغربيين فى الاسلام ورسول الاسلام .

٢٤ ـ الجزء الرابع : اديان الهند الكبرى : (الطبعة التاسعة)

« الهندوسية ـ الجينية ـ البوذية »

ـ تقديم عن : جغرافية الهند ، سكان الهند ، اللغات فى الهند ، الاديان فى الهند .

ـ دراسة الكتب المقدسة الهندية : الويدا : مهابهارتا : بوجاواسـتها ، كيتـا .

ـ اهم العقائد الهندية : الكارما والتناسخ ، الانطلاق والنرفانا ، وحدة الوجـود .

ـ تاريخ الهندوسية والجينية والبوذية وتاريخ واضعيها .

كتب للمؤلف

رابعا : كتب فى الثقافة العامة وكتب بلغات أجنبية

٢٥ ــ كيف تكتب بحثا أو رسالة (الطبعة الثامنة عشرة) مع ثلاثة ملاحق مهمة

دراسة منهجية لكتابة البحوث واعداد رسائل الماجستير والدكتوراه

٢٦ ــ الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام ، واستمرارها حتى الآن
عرض للهجمات الصليبية الغربية عسكرية وفكرية على العالم الاسلامى عبر العصور .

كتابان باللغة الانجليزية هما :

مكتبة النهضة المصرية

٢٧ ــ ISLAM : Belief - Legislation - Morals

٢٨ ــ History of Muslim Education

وكتب باللغة الاندونيسية والماليزية :

Pustaka National (Singapore)

٢٩ ــ Negara dan Pemerintahan Dalam Islam

٣٠ ــ Masjarakat Islam

٣١ ــ Hukum Islam

٣٢ ــ Sedjarah dan Kebudajaan Islam 1

٣٣ ــ Sedjarah dan Kebudajaan Islam 11

٣٤ ــ Sedjarah dan Kebudajaan Islam 111

٣٥ ــ Perbandingan Agama (Jahudi)

٣٦ ــ Perbandingan Agama (Masihi)

٣٧ ــ Perbandingan Agama (Islam)

٣٨ ــ Perbandingan Agama (Agama2 yang Terbeser di India : Hindu-Jaina-Buddha)

٣٩ ــ Sadjarah Pendidikan Islam

٤٠ ــ Politik dam Ekonomi Dalan Islam

٤١ ــ Kehidupan Social Dalam Pemikiran Islam

٤٢ ــ Perkembangan Keagamaan Dalam Islam dan Masehi

٤٣ ــ Perang Salib

٤٤ ــ Kurikulum Islam Dalam Perkembangan Sedjarah

٤٥ ــ Pengajian Al Quraan

٤٦ ــ Sedjarah Kehakiman Dalam Islam

كتب للمؤلف

خامسا : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار

١٠٠ جزء من سير عظماء الاسلام ، ومن التاريخ ، والحضارة ، وقصص القرآن .... للأولاد والشباب والسيدات والرجال ظهر منها الأجزاء التالية :

المجموعة الأولى : السيرة النبوية العطرة : (١٦ جزءا)

الطبعة الثانية مع زيادات وأسئلة وتحسينات شاملة

ج ١ محمد قبل البعثة

ج ٢ من غار حراء .. الى غار ثور (قصة الاسلام فى مكة)

ج ٣ الاسراء والمعراج : دراسة تصحيح للقضاء على الشطحات .

ج ٤ الهجرة للمدينة ووسائل الاستقرار بها

ج ٥ الرسول الداعية ومربى الدعاة

ج ٦ (أ) الرسول فى بيته : زوجات الرسول — اسباب تعدد الزوجات

ج ٧ (ب) الرسول فى بيته : مشكلات الزوجات وكيف عالجها — الحجاب — أولاد الرسول — أحفاده — خدمه

ج ٨ الرسول بين اصحابه — الرسول يربى الفرد المسلم — الرسول يربى المجتمع الاسلامى .

ج ٩ الرسول يربى القضاة ، ويربى القوة العسكرية ، ويربى الولاة والحكام ...

ج ١٠ الرسول والشباب — الرسول والعمل

ج ١١ توجيهات طبية يقدمها الرسول — مكرمات للرسول — الرسول والمنافقون

ج ١٢ الرسول والنصارى — الرسول واليهود

ج ١٣ الاسلام والقتال ، وهل انتشر الاسلام بالقوة او بالدعوة — غزوة بدر ودراسات جديدة حولها — أهم احداث غزوة بدر

ج ١٤ غزوة احد والهزيمة التى اخافت المنتصر — غزوة الاحزاب وكلمة عن سلمان الفارسى

ج ١٥ صلح الحديبية — كتب الرسول للملوك والرؤساء — غزوة مؤتة وبدء الصراع ضد الروم .

ج ١٦ فتح مكة — غزوة حنين والطائف — غزوة تبوك — الفترة الأخيرة فى حياة الرسول

المجموعة الثانية : العشرة المبشرون بالجنة : (٧ اجزاء)

ج ١٧ (١) أبو بكر الصديق : حياته وعصره والمشكلات التى واجهها
ج ١٨ (٢) عمر بن الخطاب والتوسع فى عهده — عمر بانى الدولة الاسلامية
ج ١٩ (٣) عثمان بن عفان : حياته واخلاقه والفتنة فى عهده
ج ٢٠ (٤) على بن أبى طالب : شخصيته وحياته والمشكلات التى واجهها
ج ٢١ (٥) طلحة بن عبيد الله (٦) الزبير بن العوام
ج ٢٢ (٧) سعد بن أبى وقاص (٨) ابو عبيدة بن الجراح
ج ٢٣ (٩) عبد الرحمن بن عوف (١٠) سعيد بن زيد بن عمرو

المجموعة الثالثة : دراسات قرآنية : (٥ اجزاء)

ج ٢٤ نظرة عامة للقرآن الكريم — طريقة الوحى — نزول القرآن وتدوينه — أسماء السور وترتيبها — قراءات القرآن — فضائل القرآن — القرآن والعلم — فضائل قراءة القرآن وحكم التطريب فى أدائه والتكسب به .

ج ٢٥ خصائص القرآن والأصول التى جاء بها لخير الناس فى الدنيا والآخرة — اعجاز القرآن ومظاهر الاعجاز — معجزات الرسل والمقارنة بينها .

ج ٢٦ غير العرب والاعجاز البلاغى للقرآن — وجوه الاعجاز فى القرآن — مواجهة واقعية بين العرب والقرآن — التكرار فى القرآن : أسراره واعجازه .

ج ٣٤ و ٣٥ **الأخلاق الاسلامية من القرآن الكريم**
جمع الآيات القرآنية عن الأخلاق ، وتصنيفها ، وشرحها شرحا ميسرا .
(الترقيم مؤقت ، وفى الطبعة الثانية ان شاء الله سيأخذان رقم ٢٧ و ٢٨ وتتسلسل الأرقام بعد ذلك) .

المجموعة الرابعة : من قصص القرآن الكريم : (٧ أجزاء)

ج ٢٧ دراسات عن القصص فى القرآن — قصة أصحاب الكهف .
ج ٢٨ قصة الرجلين والجنتين — قصة ذى القرنين ويأجوج ومأجوج .
ج ٢٩ قصة موسى والخضر — قصة اصحاب الجنة .
ج ٣٠ قصة عزير — قصة أيوب عليه السلام
ج ٣١ قصة قارون — قصة أصحاب الأخدود .
ج ٣٢ قصة اسماعيل عليه السلام .
ج ٣٣ قصة يوسف عليه السلام .

المجموعة الخامسة : الدولة الأموية : تاريخ يحتاج الى انصاف :
(٥ أجزاء)

ج ٣٦ تاريخ الدولة الأموية : الانحراف فى تدوينه ومحاولة انصافه
معاوية الخليفة الأموى الأول :عام الجماعة — الدهاء —
الاصلاحات الداخلية — التوسع .

ج ٣٧ عبد الملك بن مروان :
احد فقهاء المدينة الأربعة .
البطولة — السياسة — الاصلاحات الداخلية — التوسع

ج ٣٨ نموذجان فريدان متعاصران :
الوليد بن عبد الملك .
عمر بن عبد العزيز .

ج ٣٩ التوسع العظيم فى العهد الأموى واهم ميادينه .
ج ٤٠ الشيعة ومدعو التشيع .
قصة استشهاد الامام الحسين .

المجموعة السادسة : صراع وشهداء وانتصارات (٦ أجزاء) كالآتى :

ج ٤١ جزء عن « من شهداء الاسلام » : حمزة بن عبد المطلب —
جعفر بن ابى طالب — عمار بن ياسر — عمر المختار
ومحاكمته .

ج ٤٢ و
٤٣ و ٤٤ ثلاثة اجزاء فى مجلد واحد عن :
الهجمات الصليبية : على العالم الاسلامى من مطلع الاسلام
حتى الآن .

ج ٤٥و٤٦ جزءان فى مجلد واحد عن :
شهر رمضان وانتصارات المسلمين فيه .
انتصارات المسلمين فى شهور رمضان على : قريش —
الروم — الفرس — القوط — الصليبيين — المغول —
الصهاينة .

المجموعة السابعة : الاسلام والمراة (٤ اجزاء) :

ج ٤٧ حالة المراة قبل الاسلام فى الحضارات المختلفة .
ج ٤٨ ماذا قدم الاسلام للمراة .
ج ٤٩ نماذج من السيدات المسلمات فى مجال السياسة والعلوم .
ج ٥٠ زيجات شهيرة فى التاريخ الاسلامى (بوران — قطر الندى) .

(الأجزاء التالية ستظهر تباعا ان شاء الله)
(لم تدخل اعداد المكتبة الاسلامية ضمن العدد الخاص بكتب المؤلف)

محتويات الكتاب

الموضــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

الدولـــة الأيوبيـــة

المـــــماليك

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع	الصفحة

الموضـــــوع | الصفحة

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــــوع | الصفحة

منشآت حديثة بمصر

الموضـــــوع | الصفحة

مصر والحضارة الاسلامية

تاريخ سوريا من الفتح العثمانى

الموضـــــوع	الصفحة

الحـــروب الصليبيـــة

دوافعها — ادوارهـا — نتائجها

الموضـــــوع	الصفحة

الموضـــــوع الصفحة

فهرست الخرائط والصور

مقدمة مهمـة

باسم الله العلى العظيم أقدم هذا الجزء للقارىء العزيز ، ويعتبر هذا الجزء من الكتب التى فرحت بإخراجها فرحاً شديداً ، إنه حديث عن مصر التى رُبيتُ على أرضها ونشأتُ بين ناسها ، وتعلمت بما أنفقت من مالها ، ولعلى أديّت لها بعض الديّن إذ دونت تاريخها بأمانة وصـدق ، مغتبطاً بما تحقق من أمجاد ، وكاسف البال كلما كَبَتْ أو استبدّ بها الطامعـون .

ويشمل هذا الجزء تاريخ مصر منذ دخلها الاسلام فى مطلع الاسلام حتى الآن ، وهو تاريخ حافل لعبت فيه مصر دوراً واسعاً فى خدمة الاسلام وأصبحت خلال فترة طويلة جدا مركز الفكر الاسلامى من جانب والقوة الاسلامية من جانب آخر ، ومن طول معايشتى لتاريخ مصر ودورهـا الحضارى باحثا وكاتبا ومعلّما ؛ اتضحت لى حقيقة مهمة هى :

أن تاريخ مصر يجب أن يكتب من جديد لإيضاح قضايا مهمة أوشكت الحقيقة حولها أن تختفى بسبب أو لآخر مثل :

— الحركات الاستقلالية المبكرة بمصر ودوافعها ونتائجها .

— مصر تقود النشاط الحضارى الإسلامى .

— رد الخطأ الذى يرى أن الطولونيين والاخشيديين والفاطميين والمماليك وأسرة محمد على ليسوا مصريين .

— المماليك المصريون لم يكونوا رقيقاً ، وصفقات بيعهم باطلة.

— رد الزّعْم الذى يرى أنْ الحملة الفرنسية أيقظت مصر وكانت لها نتائج حضارية .

ـ كتابة تاريخ أسرة محمد على بعيداً عن الزيف والتعصب •

ـ هل صحيح أن الامام محمد عبده كان تلميذا للأفغانى ؟

ـ سيناء : معالمها ومكانها من تاريخ مصر •

ـ حقيقة ثورة ٢٣ يوليو التى دمرت مصر والمصريين •

ـ وقضايا أخرى كثيرة ومهمة كان لابدّ مـن عرضها ودراستها ، ويسرنى أننى قمت بذلك كله فى هذه الطبعة الجديدة (الطبعة السادسـة) •

ولاقى عصر الجبرتى عناية هامة فى هذا الجزء استقيتها من التاريخ الحافل الذى كتبه عن مصر هذا المؤلف الكبير •

ومن مميزات هذا الكتاب أنه يشمل تاريخ مصر ودورها الحضارى من مطلع الاسـلام حتى الآن ، وهو ـ مع التحقيقات والتصحيحـات السابقة ـ مالم يجمعه سِفْرٌ من قبل •

وقد امتد الحديث فيه حتى شمل عدة سنوات من حكم محمد حسنى مبارك حتى سنة ١٩٨٦ •

ومن مميزات هذه الطبعة أن أوردت بها دراسة عن آثار مصر مرتبطة بفترات تاريخها ، ولم يكن المؤرخون من قبل يهتمون بالآثار اهتماما كافيا •

وفى هذا الجزء حديث عن سوريا الحبيبة (١) ، وهى شقيقة لبلادى على مر التاريخ ، وقلب الوطن العربى الخفاق ، فإلى دمشق الشامخة ،

---

(١) سوريا التى نعنيها هنا هى التى انفرط عقدها فأصبحت سوريا ـ لبنان ـ المملكة الاردنية الهاشمية ـ فلسطين (بمـا فى ذلك المنطقة التى استولى عليها الصهاينة) .

والغوطة الفيحاء أقدم هذا التاريخ الذى دُوِّن بإحساس طيب ولكن بصدق بالغ ، وقد أضفت لتاريخ سوريا كثيرا من المعلومات الجديدة على نحو ما فعلت مع مصر .

وسيمتد حديثنا عن سوريا حتى العصر الحاضر لنرى إسرائيل تعربد ضد لبنان وفلسطين ، وترتكب جرائم وصل من عنفها أن أدانها الإسرائيليون أنفسهم ، **وسنرى كذلك دراسات عن الدروز والنصيرية .**

وفى هذا الجزء حديث عن الحروب الصليبية ، وعن صراع الوطن العربى والوطن الاسلامى ضد الصليبيين الطامعين ، الذين ينتسبون أنفسهم ظلما إلى دين السيد المسيح وهو منهم براء ، واذا كنت لم أحضر بنفسى هذه المعارك ، فقد حضرتها بفكرى ، واستوعبتها ، ودونتها بدقة وإيجاز متخذا من الماضى عبرة للحاضر والمستقبل ، وراسماً للجيل الحاضر الطريق الذى سلكه أجدادهم ، فأبعدوا عن أرضنا الطيبة أقدام الفاتحين .

وفى هذا الجزء كذلك حديث عن الامبراطورية العثمانية ، وكانت مدى عدة قرون تمثل الاسلام والمسلمين ، ولها من الحسنات والمساوىء ما يدفعنا الى التعرف عليها وعلى تاريخها الذى ارتبط بتاريخ العرب حوالى أربعة قرون .

ونحن بهذا الجزء نحقق خطوة جديدة ومهمة فى خطتنا التى رسمناها ، فنستكمل دراسة قطاع جغرافى أو منطقة من أبرز مناطق العالم الاسلامى ، وهى مصر وسوريا من مطلع الاسلام حتى الآن ، والامبراطورية العثمانية منذ نشأتها حتى العهد الحاضر ، مع الحديث عن الحضارات التى قامت بهذه الأقطار على مر القرون ، وقد أفردنا الحروب الصليبية بحديث لأنها كانت طعنة موجهة الى العالم الاسلامى بأسره ، ثم إن إفرادها بحديث كان تنفيذا لخطتنا التى قررناها فى مقدمة الجزء الأول من هذه الموسوعة ،

بأن نخصّ الموضوعات ذات الشأن فى التاريخ الاسلامى بعناية خاصة ، وأن ندرسها مجتمعة ، ليكون ذلك أقرب الى تناولها وفهمها .

وتشمل هذه الطبعة تصوير الأحداث فى فلسطين ، واقتحام اسرائيل أرض لبنان ، والصراع المرير فى هذه المنطقة الحبيبة .

* * *

وبعد الجزء الخامس صدر الجزء السادس ، وهو خاص بالإسلام والدول الإسلامية جنوب صحراء إفريقية منذ دخلها الاسلام حتى الآن ، وهو مجلد كبير الحجم ، دقيق التخطيط ، كثير المراجع ، أزال الغموض والحدس عن تاريخ هذه المنطقة وغمره بالضوء .

وصدر كذلك الجزء السابع ، وهو يشمل التاريخ الاسلامى لدول الجزيرة العربية والعراق .

ثم ظهر الجزء الثامن : ويشمل التاريخ الاسلامى للدول الاسلامية غير العربية بآسيا .

إيران — أفغانستان — الباكستان — بنجالادش — ماليزيا — إندونيسيا ، كما يشمل تاريخ الأقليات الاسلامية بالهند والصين والاتحاد السوفييتى والفيلبين .

كما ظهر الجزء التاسع الذى يشمل تاريخ فترة كالحة فى حياة مصر هى فترة الحكم العسكرى الظالم إبان عهد عبد الناصر .

وأوشك أن يظهر الجزء العاشر الذى يشمل تاريخ عهد أنور السادات بما به من نجاح وفشل .

وأدعو الله معى أيها القارىء الكريم أن يمدّنا بعونه وتوفيقه لنصل إلى الغاية التى رسمناها ، أما أنا فأعد أن أبذل أقصى الجهـد

للوصول الى هذه الغاية ، مضحيا بكل ما يستلزمه هذا العمل الكبير من جهد مادى وأدبى .

* * *

ومن الواضح أن هذا الجزء جولة طويلة فى أخطر منطقة فى العالم الاسلامى ، تدارسنا خلالها عددا من الدول ، وطوينا عددا من القرون ، وقد استدعى ذلك مراجع جمة متسلسلة ، واستدعى متابعة الأحداث فى العصر الحديث والرجوع الى الوثائق والصحف بعناية ومثابرة .

وهناك شىء عانيناه بصعوبة فى هذا الجزء بوجه خاص ، ذلك هو اختصار الأحداث الضخمة فى هذا الحيز المحدود من الورق ، وكانت أمامنا موضوعات واسعة ذات مراجع متعددة يمكن أن تكتب فى مجلدات كثيرة ، ولكن كان أمامنا التخطيط الذى رسمناه منذ بدأنا هذه الموسوعة ، والذى يقضى بإيجاز القول دون اخـلال ، لنضمن بذلك كتابة التـاريخ الاسلامى كله فى هذه الأجزاء العشرة ، ولكن بدون أن نغفل أى حدث ذى بال ، وقد كنت أترك الإيجاز كلما طرقت باب موضوع مهم ، فكنت أصوره تصويرا دقيقا ، وأعلق عليه بإفاضة .

* * *

وهناك صعوبة دقيقة للغاية فى التأريخ للحياة المعاصرة ، جعلت أكثر المؤرخين يتحاشون التأريخ لهذه الفترة ، حتى لا يقع الواحد منهم تحت تأثير رغبة أو رهبة ، ثم لأن الصورة لا تكتمل عن الحاكم أو المسئول وهو لا يزال فى معركة الحياة ، فقد يزل بعد رشد ، أو يرشد بعد الزلل .

ومن أجل هذا نوجز القول عن تاريخ الأحياء عندما نصل للحديث عنهم ، فاذا أخلوا مناصبهم بالوفاة أو بغيرها درسناهم دراسة كاملة ، وكانت الموضوعية هى المسيطرة على منهج الدراسـة ، فليس هنـاك مدح أو هجوم ، وانما سرد الأحداث بدقة والتعليق عليها بإنصاف .

وتحقيقا لهذه الخطة فقد أوجزت هنا القول عن عصر عبد الناصر وعصر الساداتى ، أما الدراسة الشاملة عن هذين العهدين فقد سبق أن ذكرت أننى خصصت لها جزأين من هذه الموسوعة هما :

١ — الجزء التاسع عن عصر عبد الناصر : عصر المظالم والهزائم

٢ — الجزء العاشر عن عصر الساداتى : عصر الرجل الذى نجح ثم تألّه ، فخسر بالنجاح كما خسر سواه بالفشل •

* * *

وبعد ، لقد حوى هذا الجزء — فيما حوى — تاريخ بلادى الحبيبة ، وهو تاريخ كتبته بكل الود ولكن مع كل الدقة ، بكل الحب ولكن مع الانصاف والحق •

فاللهم أدعوك أن تنفع بهذا الكتاب قارئه وكاتبه ، وأن تجعله خالصا لوجهك الكريم •

دكتور أحمد شلبى

المعادى فى أبريل سنة ١٩٨٤ •

مِصْرَ وسُورْيَا

عهد الولاة

« من الفتح إلى قيام الدولة الطولونية »

من الفتح (١٢ إلى ٢١هـ) حتى سنة ٢٥٤هـ

(٦٤١ — ٨٦٨) م

تقـديم :

فتحت سوريا ومصر فى عهد عمر بن الخطاب ، وأصبحتا منذ ذلك الحين تمثلان مركزين مـن أهم المراكز السياسية والفكرية فى العـالم الاسلامى ، وقد ارتبط تاريخهما ارتباطا وثيقا فى أكثر الفترات بعد هذا التاريخ ، وقد جمعهما Stanley Lane - Poole (١) فى مبحث واحد ووضح فيه أنه فى فترات الاستقلال كانت مصر وسوريا تكونان دولة واحدة ، فقد تمت هذه الوحدة إبان العهـد الطولونى والإخشـيدى والفاطمى والأيوبى وعهد المماليك ، وحققها ابراهيم باشـا بن محمد على ، حتى تدخلت أوربا وأرغمته على أن يتخلى عن سوريا ، اما عهد التبعية فكان عهد انفصال ، كما حدث فى زمن الحكم العثمانى أو الزحف الأوربى ، وواضح من هذا أن الانفصال يخدم الراغبين فى إضعاف الجبهة التى تجعلها الوحدة مهيبة الجـانب عظيمة السـلطان .

وتاريخ مصر وسوريا يستحق اهتماما كبيرا لمكانتيهما فى المنطقة ، وفى العالم العربى والاسـلامى ، وفى المحيط الدولى ، ولذلك سـنعنى بدراسة هذا التاريخ وسنهتم بالأحداث الكبرى المتصلة بهذه المنطقة كالحروب الصليبية ، والنشاط الحضارى الذى رعته هذه المنطقة وغذته .

الفتح الإسلامى لمصر وسوريا :

وقد تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (٢) عن العوامل التى ساعدت على فتح سوريا ومصر ، وفيما يلى خلاصة هذه العوامل :

١ — كانت سوريا ومصر أرضا محتلة بالرومان ، وكان فى هؤلاء غطرسة عالية ، فوضعوا أنفسهم موضع السادة بالنسبة لأهل البلاد ، وفى

(١) Mnhammadan Dynustis pp. 67 ff

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى جـ١ ص ٥٧٢ وما بعدها من الطبعة الثانية عشرة .

نفس الوقت كان السكان فى سوريا ومصر يسمعون عن عـدالة العـرب وحسـن سيرتهم •

٢ ـ لم يكن الجنود الرومان مخلصين فى الحروب ، لأن الجند كانـوا يحاربون عن نظام يدركون أنه لاحق لهم فيه ، يدافعون عن وطن يملكه السادة ••• حتى اضطر القواد أحيانا إلى أن يقيدوا الجنود بالسلاسل حتى لا يفروا •

٣ ـ كانت مصر تعرف بمزرعة القمح ••••

٤ ـ أغار القوط على أسبانيا وأخذوها من الرومان فبدأت الامبراطورية فى التصـدع •

٥ ـ خلو الكنيسة من الحب والإخاء الروحى ، واختلاف الكنيسة القبطية عن الكنيسة الرومانية فى موضوع « طبيعة المسيح » •

٦ ـ قدم بعض المصريين وبعض السوريين مساعدات للجيش الزاحف كانت من أسباب تيسير الفتح •

سيناء طريق الزحف العربى :

وقد وصل العرب مصر عن طريق سيناء،وسيناء طريق عبره أكثر الذين زحفوا على مصر من الشرق ، أو زحفوا من مصر الى الشام ، فعن طريق سيناء جاء الهكسوس الى مصر ، وجاء الفرس والرومان والمسلمون العرب والأتراك ، وعن طريق سيناء تحـرك الفراعنة الى الشام كما تحـرك الطولونيون والأخشيديون والفاطميون والأيوبيون والمماليك ومحمد على باشا ، ولهذا كانت سيناء منطقة مهمة بالنسبة لتاريخ مصر ، وتجب العناية بها أعظم عناية ليكون سكانها عمالا وزراعا •••• من جانب وجنودا من جانب آخر •

أهم آثار سيناء :

وتحوى سيناء معالم وآثارا قديمة وحديثة أهمها :

— دير سانت كاترين : وقد أنشىء سنة ٢٦٠م باسم دير السيدة العذراء ، وقد زارته القديسة هيلانة فى مطلع القرن الرابع وبنى له جوستنيان سورا فى القرن الخامس ، وسمى باسم كاترين فى القرن التاسع اذ قيل ان رفات قديسة من الاسكندرية أعدمها الرومان سنة ٣١٧ أنتقل الى هذا الدير ، وأن أحد الرهبان رأى فى المنام ان جثمانها على قمة جبل قريب من الدير ، فنقل جثمانها للدير .

وبالدير مكتبة نفيسة ، وتابوتان من الفضة ، رسم على غطائهما صورة كاترين بالذهب ، وصندوقان من الفضة فى أحدهما رأس القديسة وعليه تاج ذهبى مرصع بالجوهر ، وفى الثانى ذراعها مع خواتم مرصعة أيضا .

— وداخل الدير يوجد مسجد بناه الخليفة الفاطمى الآمر بن المستعلى (ت ٥٢٤هـ ت ١١٣٠م) .

— ومن الأماكن الأثرية بسيناء جبل الطور وجبال التيه وعيون موسى

— ومن الأشياء الحديثة المهمة التى تربط مصر بسيناء نفق أحمد حمدى .

ولنا حديث فيما بعد عن سيناء .

بعد الفتح :

وبعد فتح الشام ومصر أصبحت مصر والشام ولايتين طيلة ما تبقى من عهد الخلفاء الراشدين ، ولما جاء العهد الأموى أصبحت دمشق عاصمة الخلافة وظلت مصر ولاية تابعة للخلافة ، ولهذه الفترة خصص الجزء الثانى من هذه الموسوعة ، وجاء العهد العباسى فانتقلت الخلافة إلى بغداد ، وأصبحت سوريا ومصر ولايتين تابعتين لخلفاء العاصمة المدورة ،

وفى الجزء الثالث من هذه الموسوعة حديث مستفيض عن سوريا بعد أن انتقلت عنها الخلافة ، وبخاصة تصوير المقاومة التى أبداها بقايا الأمويين ومَن والاهم ، والصراع بين الدولة الناشئة والدولة الذاهبة (١) ، ولمصر فى هذا العصر حركات ثورية شملها الجزء الثالث أيضا وسنعود لها هنا بمزيد من البيان ، وبعد اثنين وعشرين عاما من مطلع العصر العباسى الثانى بدأت حياة الاستقلال لمصر ولسوريا ، وكان أحمد بن طولون أول من حقق ذلك الاستقلال .

ذلك قول موجز ، نتبعه بشىء من التفصيل ، مبتدئين بعصر الولاية ، سائرين الى عصور الاستقلال .

العرب فى مصر وسوريا :

كان السوريون والمصريون يعتبرون العرب الفاتحين قوما من بنى جنسهم ، فقد هاجر العرب من الجزيرة العربية الى سوريا ومصر قبل الاسلام بآلاف السنين ، ويقرر أكثر المؤرخين أن أجداد « مينا » مؤسس أول أسرة من الأسر الفرعونية هم من الأجناس السامية بدليل أن ما وصل الينا من لغة الفراعنة تشاهد فيه العنصر الإفريقى والعنصر السامى وأن الأخير غالب على الأول (٢) ، وعلى هذا فعندما دخل العرب المسلمون مصر وسوريا لم يَعُدّهم السكان الأصليون من الأجانب الغاصبين ، ولذلك يمكن القول ان الفتوحات الاسلامية هى عند التحقيق انقلاب اجتماعى سياسى استرد به الشرق الأدنى مجده السامى الغابر ، فقد جاء الاسلام مُهيبا بالشرق الى النهوض من كبوته بعد ألف سنة اجتاحته فيها سطوة الغريب ، فاستطاع الشرق بالاسلام أن يسترجع ماضيه المجيد لا فى

---

(١) ص ٢٠ — ٤٣ ، ١٥٠ — ١٥٣ .

(٢) عمر الاسكندرى وميجراج سفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ص ٦ وانظر دراسة واسعة عن هذا الموضوع فى الجزء السادس من هذه الموسوعة ص ٦٢ وما بعدها .

ميدان السياسة فحسب بل فى ميدان الثقافة أيضا حيث تسنى له أن يعيد سيادته الفكرية (١) .

ويمكن القول إن الفرس والمصريين والسوريين رأوا فى الاسلام متنفسا وسماحة أنقذتهم من الطغيان والإكراه والاستغلال التى عاشوا تحت ضغطها مدة طويلة ، فلقد ضمن الاسلام لهم حرية الأديان ، وأعفاهم من الأعمال العسكرية نظير دفع جزية ضئيلة الا من شاء أن يدخل صفوف المدافعين عن البلاد فله أن يدخل ويعفى من الجزية مع بقائه على دينه ، وترك المسلمون الأرض لأصحابها على أن يدفعوا خراجها وهو أقل بكثير مما كان يأخذه الأكاسرة والقياصرة الذين كانوا يعتبرون أنفسهم ملاكا للأرض ولرقيق الأرض ، وأمّن المسلمون الأهلين على أموالهم ونسائهم وأولادهم ، ورأى الأهلون فى المسلمين المساواة التى كانوا لا يحلمون بها (٢) ، وقد كان لرابطة الدم ورابطة التعاون والمساواة أكبر الأثر فى خلق جو من التقرب بين العرب وبين المصريين والسوريين فى أغلب فترات التاريخ الاسلامى بهذه البلاد .

نصوص من البردى تصف الفتح الاسلامى لمصر :

ونصوص البردى المعاصرة لعهد الفتح تظهر لنا أن الغزاة المسلمين لم يكونوا مجرد غزاة مغامرين ، وانما كانوا يحملون حضارة ، كما كانوا محاربين منظمين أقوياء يحملون أسلحة من الحديد والرصاص ، ويقاتلون ببسالة فى سبيل عقيدة اعتنقوها باخلاص ، وقد تحررت مصر بهم من الضغط البيزنطى ورحبت بأبناء الصحراء الذين نادوا فيها بحرية العقيدة كما تشهد بذلك وثائق من البردى احداها مؤرخة فى ٨/١/٦٤٢م —

---

(١) Hitti : History of the Arabs vol. I pp. 194.198

(٢) Kirk : A Short History of the Middle East p 29

وانظر التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف جا ص ٥٩٣ من الطبعة الثانية عشرة .

الثلاثاء أخر المحرم سنة ٢٢ وتشهد نصوص أخرى من عصر الفتح بأن المسلمين الفاتحين حموا دماء المصريين وأملاكهم واحترموا شخصية البلد العريقة النابعة من حضارة قديمة . وفى كتابة الأسقف يوحنا ، المعاصر لتاريخ الفتح ، اعتراف بأن عمرو بن العاص لم ينزع شيئا قط من أملاك الكنيسة .

ولاة مصر قبل الطولونيين :

تولى إمارة مصر منذ الفتح الاسلامى حتى استقل الطولونيين بها ستة وستون واليا ، وقد تولى بعضهم مرتين ، وبعضهم تولى ثلاث مرات ، فبلغ عدد العهود التى صدرت للولاة بمصر مائة عهد ؛ وفيما يلى أشهر هؤلاء الولاة :

عصر الخلفاء الراشدين :

— عمرو بن العاص	سنة ٢١
— عبد الله بن سعد بن أبى سرح	« ٢٥
— قيس بن سعد بن عبادة	« ٣٥
— محمد بن أبى بكر	« ٣٦

العصر الأموى :

— عتبة بن أبى سفيان	« ٤٣
— مَسْلمة بن مَخْلَد	« ٤٧
— عبد العزيز بن مروان	« ٦٥
— عبد الله بن عبد الملك بن مروان	« ٨٤
— قرّة بن شَريك	« ٩٠

- محمد بن عبد الملك بن مروان « ١٠٥
- حفص بن الوليد « ١٠٨
- الحكم بن قيس « ١١١
- عبد الملك بن مروان بن موسى بن نصير « ١٣٢

العصر العباسى :

- صالح بن على سنة ١٣٣
- عبد الملك بن زيد الخراسانى « ١٣٣
- يزيد بن حاتم بن قبيصة « ١٤٤
- عبد الصمد بن على بن عبد الله بن العباس « ١٤٥
- مطر مولى المنصور « ١٥٩
- واضح مولى المهدى « ١٦٢
- ابراهيم بن صالح بن على بن عبد الله بن العباس « ١٦٥
- الفضل بن صالح « ١٦٩
- على بن سليمان بن على « ١٦٩
- موسى بن عيسى بن موسى « ١٧١
- جعفر البرمكى « حاكم فخرى أناب عنه عمرو بن مهران » « ١٧٦
- هرثمة بن أعين « ١٧٨
- عبد الملك بن صالح « ١٧٨
- اسماعيل بن صالح « ١٨١
- السرى بن الحكم « ٢٥٠

— ابنا السرى (محمد فعبد الله)	« ٢٠٥
— عبد الله بن طاهر بن الحسين	« ٢١١
— إيتاخ التركى	« ٢٣٥
— عنبسة بن إسحق	« ٢٣٨
— الفتح بن خاقان	« ٢٤٢
— مزاحم بن خاقان	سنة ٢٥٣
— باكباك التركى	« ٢٥٤
— يارجوخ التركى	« ٢٥٦ (١)

وسنتكلم كلمة موجزة عن الولاة الذين ارتبطت باسمهم أحداث ذات بال (٢) ، وكان للولاة على العموم مطلق التصرف فيما يوافق سنن الاسلام وتقتضيه العدالة ، ولكن كان لوجوه الناس وأهل الرأى وأكابر العلماء والفقهاء عند الوالى قول مسموع ورأى متبع (٣) .

عمرو بن العاص :

وأبرز الولاة عمرو بن العاص وهو أول من ولى مصر بعد أن قاد بنجاح جيش الفتح ، وقد ظل واليا عليها طيلة عهد عمر ، وعزله عثمان ، ولكنه عاد لولاية مصر من قبل معاوية مكافأة له على وقوفه بجانبه فى صراعه ضد على بن أبى طالب . ولعمرو بن العاص منشآت مهمة بمصر ، وله كذلك مواقف اجتماعية طيبة ، فهو الذى أسس مدينة الفسطاط ، وبنى

---

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى ج١ ص ٣٨ — ٤٢ .

(٢) مرجعنا الرئيسى للحديث عن هؤلاء الولاة هو كتاب الولاة والقضاة للكندى .

(٣) عمر الاسكندرى : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ص ١٧٢ .

جامعه الشهير ، وأعاد حفر القناة التى تصل النيل بالبحر الأحمر وأطلق عليها « خليج أمير المؤمنين » ، وأنشأ مقاييس النيل فى مواضع مختلفة .

ومن مواقفه الاجتماعية حسن سياسته مع المصريين غير المسلمين ، فقد أعطى البطريرك بنيامين كتاب أمان ، وأعاده إلى كرسيه بعد ان أقصاه عنه الرومان حوالى ثلاث عشرة سنة ، وترك له إدارة شئون الكنيسة الدينية والإدارية ، وحث عمرو الجند العرب على الاختلاط بالسكان الأصليين والتحبب إليهم ، ونظم عمرو جباية الخراج بدون ظلم ، وأنقص المقدار الذى كان يرسله منه للمدينة ليستطيع إتمام المنشآت التى كان يشيدها بمصر ، وعرف عنه تأجيله لجمع الخراج عند ما اقتضى الصالح العام ذلك ، كما أنه جعل تحديد الخراج مشروطا بزيادة النيل ، وقرر فى العهد الذى كتبه للمصريين أنه « إن نقص نهرهم عن غايته رفع عنهم بقدر ذلك » (١) .

ومن ولاة مصر المشاهير فى عهد الخلفاء الراشدين عبد الله بن سعد ابن أبى السرح وقيس بن عبادة الأنصارى ومحمد بن أبى بكر وقد مر ذكرهم فى الجزء الأول من هذه الموسوعة .

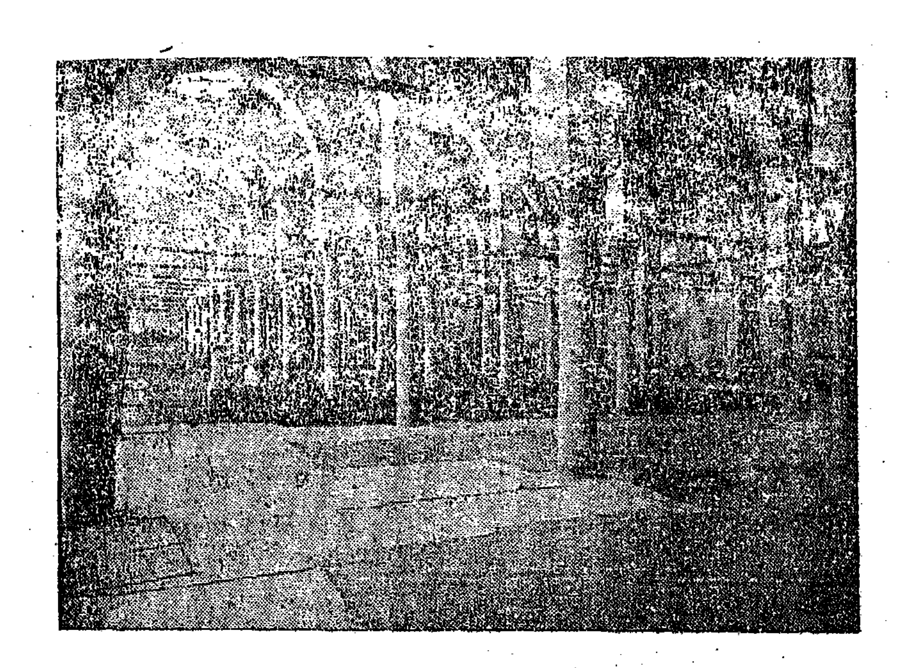
الاسلام فى بلاد النوبة :

وعلى يد عمرو بن العاص وخلفه عبد الله بن سعد بن أبى السرح دخل الإسلام بلاد النوبة ، فقد قاد الثانى جيش الأول وغزا بلاد النوبة سنة ٢١هـ وحقق بعض النصر ، ثم عاد إبان ولايته فغزا بلاد النوبة غزوة موفقة سنة ٣١هـ ، ووصل فى هذه الغزوة إلى دنقلة ووقع مع حكام النوبة معاهدة « البقط » وقد ظلت معمولاً بها حتى عهد المماليك (٢) ، وسنعود

---

(١) ابو يوسف : الخراج ص ٨٨ ، ١٠١ والقلقشندى : صبح الأعشى جـ١٣ ص ٣٢٤ .

(٢) انظر تاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بركلمان جـ٤ ص ١٣١ .



مسجد عمرو بن العاص بالفسطاط

من الداخل

لهذا الموضوع بمزيد من التفصيل فيما بعد (١) ٠

مسلمة بن مخلد :

ومن الولاة المشاهير فى العهد الأموى مسلمة بن مخلد الأنصارى (٤٧ — ٦٠ ﻫ) وهو الذى أعاد بناء جامع عمرو بعد أن تشققت بعض جدرانه ، وبنى مساجد أخرى كثيرة ، وجعل لها كلها منارات عالية ، وسمح للقبط ببناء كنيسة فى الفسطاط ٠

عبد العزيز بن مروان :

ومن أشهر الولاة إبان العهد الأموى عبد العزيز بن مروان الذى أمضى أطول مدة قضاها وال بمصر (٦٥ — ٨٤ ﻫ) وكان شقيق الخليفة عبد الملك بن مروان وولى عهده ، ولكن الخليفة أغراه بالتنازل عن ولاية العهد ليجعلها فى أبنائه ، فقبل ، وأعطاه الخليفة مصر نظير ذلك لتكون طعمة له ، فلم يكن يبعث الى دمشق بشىء من الخراج ، وقد تربى بمصر ابنه طيب الذكر عمر بن عبد العزيز ، وقد اتخذ عبد العزيز بن مروان مدينة حلوان عاصمة للبلاد ، فغرس فيها الأشجار والنخل وبنى المساجد والأبنية الضخمة التى تكلفت حوالى مليون من الدنانير (٢) ٠

عبد الله بن عبد الملك وتعريب الدواوين :

عبد الله من أشهر ولاة مصر ، ففى عهده ترجمت الدواوين بمصر الى العربية بدل القبطية ٠ وفى عهده بدأ كثيرون من أهل الذمة يهجرون قراهم ليتهربوا من دفع الجزية ٠

---

(١) عند الكلام عن « المماليك » عقدنا فصلا بعنوان « المماليك وبلاد النوبة » تتبعنا فيه علاقة شمال الوادى بجنوبية ٠

(٢) Stanley Lane-- poole : Egypt in the Middle Ages p. 29

قرة بن شريك :

ومن ولاة مصر المشاهير قرة بن شريك ، وقد انتشرت الأساطير عنه بأنه كان واليا ظالما ، والحقيقة أنه كان سمحا عادلا ، وكل مافى الموضوع أن مسألة الهرب من دفع الجزية والضرائب التى بدأت فى عهد سلفه عبد الله بن عبد الملك زادت فى عهده ، واندفع الزراع من أهل الذمة يتنقلون من مكان الى مكان حتى لا يلتزموا بدفع ما وجب عليهم ، وتتبعهم قرة ليعيدهم الى مقارهم ، ليس فقط ليأخذ منهم الجزية بل ليتابعوا الزراعة التى أوشكت أن تتوقف وتهدد ثروة مصر ، ومع إلزام أهل الذمة بالاقامة فانه اهتم بأن تكون العدالة أبرز أخلاق حكام الأقاليم ، وكان يعاقب ولاته على الأجحاف والقسوة مع الأهالى ، وكان يتجاوز عما يتعذر على دافعى الضرائب أن يدفعوه ، ويبدو أن أهل الذمة هم الذين روجوا الإشاعة التى تتهمه ظلما بأنه ظالم .

صالح بن على العباسى :

ومن أشهر ولاة العصر العباسى صالح بن على عم الخليفة العباسى الأول ، وهو الذى تبع مروان بن محمد على إثر فراره من موقعة الزاب . وظل يلاحقه حتى قتل بمصر سنة ١٣٢ (١) . وظل صالح واليا على مصر بعد أن أصبحت تابعة لبنى العباس ، ومن أهم المنشآت التى تنسب إليه تشييده عاصمة جديدة للجند هى « العسكر » التى أصبحت ثانى عاصمة إسلامية بمصر ، وقد بنى بها دارا للامارة ومسجدا كبيرا يعد ثانى المساجد الجامعة بعد المسجد العتيق (مسجد عمرو) .

موسى بن عيسى بن موسى :

ومن الولاة العباسيين المشاهير موسى بن عيسى بن موسى وهو

---

(١) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة ص ٥٢ — ٥٣ من الطبعة السابعة .

أيضا من بيت الخلافة العباسية وكان أبوه وليا للعهد ، ولكنه أرغم على التنازل ، وقد عرف موسى بالعدل مع المصريين ، وكان حسن المعاملة للقبط .

السرى بن الحكم وبدء الحركة الاستقلالية :

ومنهم كذلك السرى بن الحكم (٢٠٠ — ٢٠٥ هـ) وقد اتخذ مقره في مدينة تنيس قرب بحيرة المنزلة ، وجعل ولاية مصر إرثاً في أسرته ، ونجح في ذلك فتولى بعده ابناه محمد فعبد الله ، وكان السرى بذلك أول من طمع في الاستقلال بشئون مصر الداخلية .

وفى عهد السرى بن الحكم بدأت الحركة الاستقلالية بمصر تلك الحركة التى تقرر اعتناق الاسلام والاستقلال السياسى ، وقد نمت هذه الحركة فى عهد الطولونيين والاخشيديين ، وكملت فى العهد الفاطمى كما سنرى فيما بعد .

عنبسة بن اسحق آخر الولاة العرب :

ومنهم كذلك عنبسة بن إسحق الذى ولى مصر أربع سنوات (٢٣٨ — ٢٤٢) وعرف بالعدل والورع والكفاءة العالية ، وفى عهده حاول « على بابا » ملك النوبة أن يتمرد على المعاهدة التى كانت بين بلاده وبين مصر ، بل زحف تجاه مصر غازيا ، ولكن عنبسة هزمه ، ورده على عقبه ، وحمله على الاستمرار فى الأخذ بالمعاهدة . وقد اتهم عنبسة بمشايعة الخوارج ، فكانت هذه التهمة سببا فى ابعاده عن ولاية مصر .

وكان عنبسه آخر من ولى مصر من العرب ، فإن الأتراك الذين جلبهم المعتصم أصبح لهم السلطان ابتداء من عهد المتوكل ، وتبعا لذلك أصبحت المناصب الكبيرة والولايات العظيمة خاصة للأتراك ، وأسقط العرب والفرس من الديوان ، وكانت مصر من هذه الولايات التى أسندت للأتراك ، ولم تمض فترة طويلة حتى آلت ولاية مصر لأحد هؤلاء الأتراك ، ولكن هذا

الوالى (هو أحمد بن طولون) استقل بمصر ثم زحف الى سوريا فشملها الاستقلال أيضا تحت سلطانه ، وبذلك انتقل بتاريخ البلدين من عهد إلى عهــد •

ولاة سوريا قبل الطولونيين :

أما سوريا فقد سبق أن ذكرنا فى الجزء الأول من هذا الكتاب أن أبا عبيدة بن عامر الجراح تسلم قيادة الجيش من خالد بن الوليد وبعد موقعة اليرموك اتجه أبو عبيدة ببعض الجيش الى الشمال ، وتم له فتح المنطقة الشمالية الى حلب ، وقد مات أبو عبيدة فى عهــد عمر •

وكان يزيد بن أبى ســفيان قائداً لأحد الجيوش الأربعــة التى وجههــا أبو بكــر لفتح الشــام ، وكانت وجهته دمشــق ، ولما أراد أبو بكر أن يرسل مدداً لهذه الجيوش كان معاوية على رأس المدد الذى أرسل ليزيد ، وحارب معاوية تحت إمرة أخيه ، وتولى قيادة الفيلق الذى فتح صيدا وبيروت وغيرها من سواحل الشام ، ولما تم النصر للمسلمين فى عهد عمر ولى عمر يزيد ولاية دمشــق ، كما جعل معاوية واليا عــلى الأردن ،فلما توفى يزيد ضم عمر الى معاوية ولاية دمشق ، وفى عهد عثمان جمعت لمعاوية ولاية الشام كله ، وظل أميرا للشام عشرين عاما حتى آلت إليه الخلافة عقب عصر الخلفاء الراشدين (١) •

وأصبحت الشام مركز الخلافة الأموية فلم يعد بها ولاة بطبيعة الحال ، ولما سقطت خلافة الأمويين وقامت دولة بنى العباس ، حرص الخلفاء الجدد على أن تكون الشام لأفراد منهم أو لأقوى أنصارهم حتى يمكنهم إخضاع من تراوده نفسه بالثورة ضد الحكم الجديد سواء من الأمويين أنفسهم أو من أتباعهم والمتعصبين لهم ، ومن ولاة الشام المشاهير فى العصر العباسى نذكر :

---

(١) انظر الجزء الثانى من هذه الموسوعة .

— عبد الله بن على	سنة ١٣٢
— صالح بن على	« ١٣٦
— عبد الوهاب بن ابراهيم الإمام	« ١٣٦
— ابراهيم بن صالح بن على	« ١٧٥
— موسى بن يحيى بن خالد البرمكى	« ١٧٦
— عبد الملك بن صالح	« ١٧٧
— جعفر البرمكى	« ١٨٠
— طاهر بن الحسين	سنة ١٩٨
— عبد الله بن طاهر	« ٢٠٥
— المعتصم	« ٢١٣
— العباس بن المأمون	« ٢١٤

. . . .

— على بن أماجور	« ٢٦٤

[هزمه أحمد بن طولون واستولى على دمشق (١)]

وهؤلاء الولاة — فيما عدا الوالى الأخير — مرّ ذكرهم فيما سبق من أحاديث فى الأجزاء السابقة ، إنهم صفوة أعلام ، وهم من بيت الخلافة العباسية أو من المقربين لبنى العباس ، ولهذا لسنا فى حاجة لنعيد القول عنهم ، أما الوالى الأخير فليس فى تاريخه ما يستحق الذكر .

---

(١) زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسـلامى جـ١ ص ٤٣ .

أشهر الأحداث فى عهد الولاة

.. هناك أحداث كبرى جرت بمصر وسوريا خلال عهد الولاة ، واهتم بها الباحثون والمؤرخون اهتماما كبيرا ، وسنذكر هنا أبرز هذه الأحداث .

مكتبة الإسكندرية وموضوع حرقها

لعل من الأوفق أن نبدأ استعراض هذه الأحداث بالكلام عن مكتبة الإسكندرية ، فإن التاريخ الذى يذكره أولئك الذين ينسبون حرقها للعرب تاريخ يرجع الى عهد مبكر والى مطلع حياة العرب بمصر ، ومن هنا لزم أن نبدأ بالحديث عن هذا الاتهام ومداه .

والاسكندرية — كما هو معروف — كانت عاصمة مصر قبل الفتح الاسلامى ، وكانت مركزا مهما من مراكز الثقافة فى العالم ، وقد استدعى ذلك أن وجدت بها مكتبة عظيمة حوت مجموعة كبيرة من الكتب فى مختلف العلوم والفنون ، وهناك قصة تقول إن عمرو بن العاص أحرق هذه المكتبة بإشارة من الخليفة عمر بن الخطاب ، وهذه القصة ينكرها البحث العلمى ، فمن الثابت أن يوليوس قيصر هو الذى أحرق مكتبة البطالسة العظمى حين غزا البلاد المصرية سنة ٤٨ق‌م ، أما المكتبة الصغرى التى نشأت بعد ذلك فقد أتلفت بأمر الامبراطور تيودوزر حوالى سنة ٣٨٩م ، واندثرت مكتبات الاسكندرية بعد ذلك ، فلم يكن فى الاسكندرية حين الفتح مكتبة ذات شأن (١) .

وبالإضافة إلى ذلك فإن أحدا من الكتّاب المعاصرين للفتح لم يتّهم الخليفة أو عامله بإحراق هذه المكتبة ، ولم يذكرها ثقات المؤرخين السابقين أمثال اليعقوبى والبلاذرى وابن عبد الحكم والطبرى والكنـــدرى ، ومن أخذ عنهم كابن الأثير وابن تغرى بردى والسيوطى مع أن ما كتبه هؤلاء عن تاريخ مصر يُعَدّ من أوثق المصادر وأدقها .

(١) Gibbon : The Decline and Fall of the Roman Impire vel. 6 p. 275.

وأول من تحدث عن حادثة إحراق عمر للمكتبة هـو عبد اللطيف البغدادي المتوفى سنة ٦٢٦هـ ولم يذكر لكلامه مرجعا ، وكان حديثه عابرا ، فقد كان يصف عمود السواري والمساحة المحيطة به ، ثم قال عن هـذه المساحة انه كان بها الرواق الذي جلس به أرسطو وشيعته للتعلم ، وبه دار العلم التي بناها الإسكندر ، وفيها كانت خزانة الكتب التي أحرقها عمرو بن العاص بأمر من عمر رضى الله عنه (١) ، وقد التقط هذا الخبر منه مؤرخ مسيحي هو أبو الفرج بن العبرى فنمّاه وأذاعه (٢) وجعله أسطورة منمقة مفصلة دون أن يكون له أساس . وقد عرف عن العرب حرصهم على كتب العلوم والفنون ، فهم الذين أخرجوا كتب اليونان من مخابئها ، وكانت هذه الكتب عند المسيحيين هرطقة وضلالا (٣) .

ويمكن أن نزيد اتجاهنا تأكيدا بمسألة مهمة ، فقد ذكرت الروايات التي تنسب للعرب حرق المكتبة « أن يوحنا النحوى قابل عمرو بن العاص بشأن هذه المكتبة » ولكن يوحنا هـذا مات قبل استيلاء العرب عـلى الاسكندرية بثلاثين أو أربعين عاما ، وهذا ينقض الرواية من أساسها (٤) .

ويسخر الباحثون المسلمون من رواية ابن العبرى وبخاصة أن بها عناصر القضاء عليها ، فهو يقول « فشرع عمرو فى تفريقها على حمامات الاسكندرية واحراقها فى مواقدها فاستنفدت فى مدة ستة أشهر ، فاسمع ما جرى واعجب » ويرى هؤلاء الباحثون أن الخليفة لو طلب من عمرو احراق هذه الكتب لما كان له أن يفرقها على الأفران لأن أصحاب الأفران كـانوا يستطيعون بيعها أو الاحتفاظ بهـا ، ثم انها كانت مكتوبة عـلى « الكاغد » وهى مادة لا تصلح للاحتراق ، وكيف يتصور أن تبقى ستة

---

(١) الافادة والاعتبار ص ٢٨ .

(٢) تاريخ مختصر الدول ص ١٧٥ — ١٧٦ .

(٣) Hitti : History the Arabs vol. I p. 222

(٤) Butler : The Arab Conquest of Egypt pp. 401 ff

أشهر مع أن حمامات الاسكندرية كانت حوالى أربعة آلاف (١) .

وقد اتجه جورجى زيدان فى كتابه « تاريخ آداب اللغة العربية » الى الدفاع عن المسلمين وتبرئتهم من هذا العمل البربرى ولكنه فى كتابه « تاريخ التمدن الاسلامى » عدل عن هذا الرأى ومال الى اتهام المسلمين بحرق هذه المكتبة لأسباب ينقصها الحق ، أهمها أن المسلمين كانوا يرون ان القرآن الكريم صفوة العلوم والمعارف ، ولم يجدوا حاجة لسواه (٢) ، وهو استنتاج ناقص متأثر بالاتجاه المسيحى فى هذا الكاتب ، فالمسيحية هى التى رأت أن الكتاب المقدس (التوراه والإنجيل) هو كل شىء ولا حاجة لســـــــواه .

أما المؤرخون الأجانب فقد ناقشوا هذا الاتهام وانتهوا الى رفضه ، وأن عبد اللطيف البغدادى ، ذكر ذلك عرضا عند كلامه عن عمود السوارى ، ولعله سمع كلاما كهذا من العوام أو من الحانقين على العرب ، ومن هؤلاء المؤرخين جبون وبتلر وســـديو ، وفى ذلك يقول سديو انه لـــم يقع فى الاسكندرية انتهاب قط ، ويتعذر علينا أن نعتقد صدور أمر بدم بارد بمثل هذا العمل الهمجى ، ولا تجد مؤرخا معاصرا لفتح الاسكندرية يروى هذا الخبر ، ويقرر التاريخ أن مكتبة الاسكندرية دمرت فى عهد يوليوس قيصر وفى عهد تيودور (٣) .

ومما يؤكد هذا الاتجاه قول أورازيوس انه وجد رفوف المكتبة خالية من الكتب عنـــد زيارته مدينة الاســـكندرية فى أوائل القرن الخـــامس الميـــــلادى (٤) .

---

(١) دكتور حسن ابراهيم . عمرو بن العاص ١١٤ — ١١٥ .

(٢) تاريخ التمدن الاسلامى ج٣ ص . ٤٠ — ٤٦ .

(٣) History Dèuèral des Arabes p. 150

(٤) نقلا عن : تاريخ الاسلام للدكتور حسن ابراهيم ج ١ ص ٣٦٣ .

وعلى هذا فاتهام المسلمين بحرق المكتبة اتهام ظالم لا يقوم على أى أساس سليم •

وقد نقل الباحث العلامة الأستاذ محمد كرد علي بعض أقوال المستشرقين التى تنفى عن المسلمين هذه التهمة نفيا قاطعا ، ونقتبس بعض العبارات منه (١) •

— إن أفتيكوس بطريرك الاسكندرية ، مع توسعه فى الكلام على استيلاء المسلمين على ثغر مصر لم يذكر كلمة واحدة عن حريق عمرو ابن العاص لهذه الخزانة •

— ذكر إرفنج وكريستون وفلين وغيرهم أن ما أشيع حول حرق الخزانة ، ونسبة ذلك للمسلمين لم يكن له ذكر لدى الباحثين فى أوربا قبل نقل كتاب مختصر الدول الى اللاتينية ، ومنذ ذلك الحين تمسك بعض الباحثين بهذه الفكرة ، وبدأوا يهاجمون المسلمين •

— قال فوت و اهلوبلر فى كتابهما (جنايات الأوروبيين) : إن الأسقف تيوفيل هو الذى أحرق خزانة الاسكندرية لا المسلمين ، فالدين الاسلامى لا يبيح إحراق الكتب •

— وقال بونة مورى : يجب أن نصحح خطأ شاع طوال القرون الوسطى ، وهو أن العرب أحرقوا خزانة الاسكندرية بأمر الخليفة عمر ، والحال أن العرب فى ذلك العصر كانوا أشد اعجابا بعلوم اليونان وفنونهم فما كان لهم مع ذلك أن يقدموا على عمل كهذا ، وقد أحرقت هذه الخزانة قبل ذلك بزمن طويل • • • •

— ويعلق الأستاذ محمد كرد على على حماسة المستشرقين الذين قبلوا هذا الاتهام دون بحث واستقصاء بقوله : إن هؤلاء المستشرقين

---

(١) الاسلام والحضارة العربية ج١ ص ٤٦ وما بعدها .

يتمسكون بتهمة لا أساس لها ، ومن ناحية أخرى تعرض أمامهم حقائق عن حرق الكردينال كسيمنس كتب المسلمين فى ساحات غرناطة ، فيمرون على ذلك مرورا عابرا أو يحاولون تبرئة هذا الكاردينال من هذه الوصمة كما أن علماء الغرب لم يكتبوا قليلا أو كثيرا عما فعله الصليبيون بمكتبة طرابلس حين أمر سنجيل بإحراق كتب دار العلم وكان عددها أكثر من مائة ألف مجلد .

انتشار الإسلام فى سوريا ومصر

إن انتشار الاسلام فى سوريا ومصر يرتبط بما كان البلدان يعانيانه فى ظل الاحتلال البيزنطى قبل الاسلام ، وقد اتضح لنا من دراسة ظروف الفتح (١) أن السكان بمصر وسوريا تعاونوا فى حالات كثيرة مع العرب الزاحفين للقضاء على الحكم البيزنطى ، وما إن تم الفتح حتى بدأ دخول المصريين والسوريين دين الاسلام ، بل تشير المصادر التى عاصرت الفتح الى أن عددا من المصريين من بينهم أحد رهبان دير بسينا قد أسلم قبل أن يتم فتح مصر بصفة نهائية ، وكان هؤلاء أكبر عون للعرب فى تقدمهم (٢) .

وما إن تم فتح مصر حتى وقعت حادثة كانت شديدة الأثر فى نشر الاسلام فى مصر ، فقد حدث أن ثارت قرية من قرى البحيرة ضد المسلمين ، ووقعت معركة بين المسلمين وهؤلاء ، وانتصر المسلمون فى المعركة ، وأسروا بعض الأهالى ، وأرسلوا الأسرى الى المدينة المنورة ، ولكن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه كان حريصا على أن تكون المعارك ضد الروم لا ضد المصريين ، فكرم الأسرى وأعادهم الى مصر احرارا ، وأمر أن يترك لهم الأمر ليدخلوا الاسلام ويكون لهم ماللمسلمين وعليهم ما على المسلمين ، أو أن يبقوا على دينهم ويدفعوا الجزية .

وقد كان هذا الموقف شديد الأثر على هذه الأسر وعلى كل من سمع عن هذه المعاملة ، فدخل عدد كبير الاسلام (٣) .

وكان المصريون والسوريون قد أنهكتهم الأعباء المالية التى فرضها عليهم الرومان ، وكان هناك ضغط عدائى سياسى واجتماعى لا يقل عن

---

(١) فى الجزء الاول من هذه الموسوعة .

(٢) حنا النقيوسى : تاريخ حنا النقيوسى ص ٥٨٥ .

(٣) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٢٢ — ١٢٣ .

الضغط الاقتصادى ، وعندما استقر العرب بسوريا ومصر ظهر الفرق واضحا بينهم وبين البيزنطيين ، فلم يَضَعْ العرب أنفسهم موضع السادة ، ولم يعاملوا السوريين والمصريين معاملة المنهزم ، بل أحس السوريون والمصريون بفيض من الحرية الدينية والاجتماعية ، وبتنظيم اقتصادى بعيد عن العسف والطغيان فجذبهم ذلك إلى الإسلام .

وكان هناك اختلاط يتم بطبيعة الحال بين المسلمين والأقباط لسبب أو لآخر ، وقد نتج عن هذا الاختلاط أن تعرف الأقباط على دين الاسلام ، فأخذت وفودهم تدخل هذا الدين من حين لآخر ، ومن هؤلاء جماعة من المصريين تعاونوا مع المسلمين فى حراسة الأقاليم الشرقية لمصر ، وأدى ذلك الى أن اختلط هؤلاء بالحراس المسلمين ، ويوما بعد يوم أبدى المصريون إعجابهم بالاسلام والمسلمين ، وأعلنوا دخولهم دين الله (١) .

ومثل هذا الاختلاط حدث فى المدن ، فقد سكن بعض المسلمين فى الدور التى أخلاها الرومان بين دور المصريين وبخاصة فى دمياط ورشيد ، وأتاح الاختلاط فرصة للدعوة للاسلام فاعتنقه الكثيرون من الجيران (٢) .

وكان الجيش العربى يشمل كثيرا من الفقهاء والعلماء وطلاب العلم والدارسين ، ولما تم النصر للعرب أخلى السيف المجال للفكر ، فبدأت الدعوة الاسلامية تنساب وتتسع ، وتوالى دخول الناس فى الدين الجديد .

وهناك ظروف ساعدت على انتشار الاسلام ، منها أن المسيحية لم تكن عميقة فى نفوس السكان ، فأكثرهم دخلها بعد أن أعترف بها قسطنطين ، فأصبحت دين المستعمر ، وكان السكان لذلك لا يقبلون عليها إقبالا كاملا . ومنها ما يذكره H.R. Hall من أن السكان غيروا ديانتهم مرة فسهل ذلك عليهم تغييرها مرة أخرى ، فالدين الأقوى فى الحالين جرف الدين

---

(١) الكندى : الولاة والقضاة ص ٣٩٧ .

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب فى اماكن مختلفة .

الأضعف الذى تصدى له (١) ثم إن المسيحية كانت حافلة بالارتباك والانقسامات والفرص فتزعزع الاعتقاد بها فى نفوس كثير من السكان ، ورحبوا بالاسلام عندما تعرفوا عليه واستساغوا مبادئه .

ثم جاءت موجة الزحف العربى الى مصر أرض النيل المتدفق ، والمياه كانت أمل العرب ، وكان تاريخ مصر وأمجاد مصر معروفة وشائعة فى المنطقة ، ومن هنا انهالت القبائل الى مصر ، وفى بعض الحالات حدثت خلافات بين هذه القبائل وبين مركز الخلافة ، فلم تجد هذه القبائل بدا من الاشتغال بالزراعة وغيرها والاندماج بالمصريين ، وهذا أتاح الفرصة للمصريين ليتعرفوا على الاسلام ويعتنقوه . وقد بدأ ذلك عندما قتل الخليفة الثالث عثمان رضى الله عنه ، فثارت بعض قبائل لخم وجذام على ذلك ، ورفضوا البيعة لأمير المؤمنين الجديد على بن أبى طالب حتى يتم القصاص من القتلة (٢) . وسنرى نماذج أخرى لذلك بعد قليل .

ثم جاءت الى مصر هجرة عربية كبرى أيام ولاية عبيد الله بن الحبحاب فى خلافة هشام بن عبد الملك ، فقد استقدم عبيد الله جماعات كثيرة من قيس وبنى نصر وبنى عامر وهوازن وسليم ، وأسكنهم بلبيس والحوف الشرقى ، وسرعان ما انتشر هؤلاء فى المناطق الشرقية للنيل واختلطوا بالناس فانتشر بهم الاسلام انتشارا واسعا (٣) .

وكانت هناك وظائف جذابة لا يتولاها إلا المسلمون ، ولا شك أن بعض الطامعين الموهوبين دخلوا الاسلام حتى لا يحال بينهم وبين هذه الوظائف ، وتجلت هذه الظاهرة بوضوح فى خلافة عمر بن عبد العزيز الذى أمر بألا تسند المناصب الادارية بمصر لغير المسلمين (٤) ، مما حمل

(١) History of the World vol. II p. 304

(٢) ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب ص ١٩٥ .

(٣) الكندى : الولاة والقضاة ص ٧٧ .

(٤) أبو المحاسن : النجوم الزاهرة جا ص ٢١٠ و ٢٦٨ .

كثيرا من أهل الذمة على الدخول فى الاسـلام وتعلم اللغة العربية حتى يتيسر لهم الاشتغال بالوظائف المدنية ، وأخذ المسلمون منذ ذلك الوقت فى الازدياد حتى أصبحت مصر فى القرن الثالث الهجرى دولة إسلامية (١) .

ويتجه Butler الى إبراز أن ضريبة الجزية كانت من أهم العوامل التى دعت المصريين لدخول الاسلام (٢) ، والحق إن هذا رأى لم يصدر عن دقة وإنصاف ، فالجزية مقدار ضئيل ، ولو فر منها الانسان ودخل الاسلام ليتخلص من دفعها لكان عليه أن يدفع الزكاة ، والزكاة أكبر بكثير ، فليس هذا القول إلا من الأقوال العابرة التى تقـال دون تحقيق علمى عميق (٣) .

وتذكر بعض المراجع أن من المحتمل أن بعض السكان الاصليين أسلموا فرارا من الأوامر التى أصدرها بعض خلفاء المسلمين بإلزام غير المسلمين بلباس معين ومظاهر خاصة ، ونحن نتساءل : إذا كان حمل الصليب مثلا من هذه المظاهر فلماذا يتهرب منه المسيحيون ؟ مع أننا نراهم اليـوم يحتفون بالصلبان ويجعلون منها حليهم ، وعلى كل حال فإن رواة هذه الأمور هم من المؤرخين المسيحيين (٤) ، ومن الطبيعى أن تبدو فى كتاباتهم آثار لتعصبهم لدينهم ، ومن الثابت أن خلفاء المسلمين أو أكثرهم على الأقل عاملوا أهل الكتاب فى كل مكان معاملة طيبة كانت فى كثير من الأحوال من أسباب دخول هؤلاء دين الاسلام (٥) .

---

(١) Stanley Lane - pool : A History of Egypt in tho Middle Ages p. 38

(٢) The Arab Gonquest to gygt pp. 340 341

(٣) اقرأ الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف (باب الجزية والخراج) .

(٤) انظر سير الآباء البطاركة لساويرس ابن المقفع فى أمكنة متعـددة وفيليب حتى فى كتابه تاريخ سوريا وسنورد بعد قليل اقتباسنا منه فيه هـذا الاتجـاه .

(٥) انظر المجتمع الاسلامى للمؤلف .

ومن أسباب انتشار الاسلام فى سوريا ومصر اندماج العرب فى السكان الأصليين هنا وهناك ، وكان سقوط الدولة الأموية معناه ذوبان أتباعهم وجيوشهم بمصر وسوريا فى السكان الأصليين ، إذ توقفت وظائف هؤلاء وانقطعت رواتبهم ، وكان عليهم أن يعملوا ليعيشوا ، وحدث مثل ذلك فى عهد المعتصم العباسى عندما أسقط العرب من ديوان العطاء ، فدخل العرب فى غمار الناس واختلطوا بهم ، وعن طريق هذا الاختلاط انتشر الاسلام وانتشرت اللغة العربية انتشارا ظل يتزايد من يوم إلى يوم .

ومما ساعد على انتشار الاسلام بسوريا أن خمسة آلاف من نصارى بنى تنوخ كانوا يعيشون فى جوار حلب وعلى ساحل لبنان عملوا بإشارة المهدى العباسى واعتنقوا الاسلام ، ويبدو أن العباسيين أغدقوا عليهم من المكرمات ووثقوا صلتهم بهم حتى حببوا لهم الاسلام ، واستغل العباسيون ذلك فيهم فأقاموهم حاجزا فى وجه الروم إن جاءوا من البحر (١) . ويضيف Philip Hitti (٢) الى الدوافع التى حببت المسيحيين دخول الاسلام بسوريا ، حرصهم على الظفر بالكرامة الاجتماعية والنفوذ السياسى .

مَنْ هم أحفاد الفراعنة :

وفى ضوء هذه الدراسة الموثقة يتحتم علينا أن نعرض بإيجاز لموضوع أثاره الأستاذ زكى شنوده المحامى مرتبطا بالجزأين الثالث والرابع من كتابه « تاريخ الأقباط » ، فقد خصص المؤلف هذين الجزأين للحديث عن تاريخ الفراعنة وحضارتهم ، بادعاء أنهم أجداد الأقباط ، وأن الأقباط وحدهم ، أحفاد الفراعنة .

وهو يقول فى الجزء الثالث (٣) « فتاريخ الأقباط هو تاريخ المصريين »

---

(١) ابن العبرى جـ٢ ص ١٣٣ .
(٢) History of Syria vol. II. p. 170
(٣) تاريخ الأقباط جـ٣ ص ٢ .

ويقول الدكتور باهور لبيب فى تقديمه لهذا الجزء « ولا شك أن الأقباط هم السلالة المباشرة لقدماء المصريين ، وأن تراثهم ما هو إلا امتداد لتراث أولئك الأجداد » .

وهذه الفكرة بعيدة — فيما نرى — كل البعد عن الحقائق العلمية ، ومن الواضح أنها خطرت للمؤلف متأخرة ، فقد سار فى الجـزء الأول سيرا طبيعيا حين تحدث عن المسيحية فى مصر ، وأشهر الاضطهادات وأشهر الشهداء والبدع والهرطقات والرهبنة ... ، وسار الجزء الثانى فى هذا الطريق أيضا حين تكلم عن عقيدة الأقباط ، ثم خطرت له فكرة ربط الأقباط بالمصريين فخصص الجزء الثالث والرابع لهذا الغرض ، ولو كانت هذه الفكرة أصيلة عنده لكان الجزء الأول هو مكانها الطبيعى ، فذلك الترتيب هو من دواعى التسلسل التاريخى الذى يعرفه كل من تعرض لكتابة التاريخ .

ويبدو أنه خطر ببال الأستاذ زكى شنودة أن المصريين جميعا تحولوا من أفكارهم الدينية التى كانوا عليها قبل المسيحية إلى المسيحية ، وهو خاطر لا تؤيده الشواهد التاريخية ، فان المسيحية كانت تعانى اضطهادا عنيفا فى القرون الثلاثة الأولى ، وكان انتشارها فى فلسطين ضعيفا جدا ، حتى أنكرها بعض الحواريين (١) ولم يعترف بها الرومان الا فى القرن الرابع ، وبدأت تخطو فى أمن من السلطة ابتداء من القرن الخامس .

ومعنى هـذا أن المسيحية مر عليها حوالى قـرنين قبل أن يجيء الاسلام مصر ، ولايمكن أن تكون المسيحية قد غمرت المصريين أو نصفهم فى هذين القرنين ، بدليل بطء تحولهم إلى الاسلام ، وأنه لاتزال نسبة منهم تعتنق المسيحية بعد أن دخل الاسلام مصر بأكثر من أربعة عشر قرنا .

والحق أن ربط الدين بالجنس ببلادنا الحبيبة عمل لا يمكن القطع به ولا ترجيحه ، فبعض المسيحيين الموجودين فى مصر وفدوا لها فرارا من

---

(١) Religions of the World : Berry . ويقول Wells : بعد عيسى انهارت دعوته وتخلى عن فكرته أتباعه جميعا ، ولمـا اتهم بطرس بأنه واحد منهم قال : لا أعرف هذا الرجل (Outline of History 3 : 698) .

الاضطهادات التى عاناها المسيحيون من الرومان ، على نحو ما فعل السيد المسيح نفسه وأمه العذراء كما ورد فى إنجيل متى (١) ، وعلى نحو ما فعل كثير من خلفاء السيد المسيح مثل القديس مرقص وسواه من القديسيين والمعلمين .

أما المسلمون فى مصر فاكثرهم أحفاد الفراعنة استجابوا للاسلام كما استجاب أجدادهم من قبل للمسيحية ، ولو جاز لنا أن نقول قولة الأستاذ زكى شنودة بأن المسلمين وافدون من الخارج لجاز بالتأكيد أن نقول إن المسيحيين وافدون من الخارج قبلهم ، وهذا يعنى اتهام المصريين بالتشبث بفكرهم الدينى القديم وعدم الاستجابة للدعوات الدينية الوافدة من الخارج وهذا خطأ كبير يصور العقلية المصرية بالجمود .

والذى لا شك فيه ان بعض المصريين مزيج من الدم الفرعونى والدم العربى الذى هاجر الى مصر والذى كان شديد الرغبة فى الاختلاط ، وبخاصة إذا لاحظنا أن المرأة العربية قلما غادرت الجزيرة العربية ، وأن الرجل العربى هو الذى هاجر جنديا ومعلما ، وتزوج حيث أقام ، ومن هذا المزيج يوجد عدد كبير من أبناء مصر .

أما الكثرة الغالبة من مسلمى مصر فهى تمثل أسرا مصرية كانت قبطية ثم دخلت الاسلام ، وأحيانا كانت الأسر القبطية تنشعب فيدخل الاسلام جماعة وتبقى على المسيحية جماعة أخرى منها ، وذلك ما يحدث حتى الآن . وكان بعضهم يتجه الى علوم القرآن ويبرع فيها ، ومن هؤلاء عثمان بن سعيد (ورش) الذى تقرر المراجع أنه ينحدر من أصل قبطى ومع هذا برع فى علم القراءات وانتهت إليه رياسة القراء فى مصر كما سيأتى .

وانتشار الاسلام بين الأقباط هو ما يحدث نظيره فى العالم كله ، فقد انتشر الاسلام بين الهنود وبين الفرس وبين الصينيين ، وليست مصر بدعا عن غيرها .

وما أجدرنا ألا نستعمل العلم سلاحا للرغبات الخاصة .

---

(١) انجيل متى : الاصحاح الثانى ، الفقرات ١٣ — ١٥ .

انتشار اللغة العربية

في مجال نشر اللغة العربية نجد العرب يمرون بخطوتين هامتين ؛ ففي الخطوة الأولى عملوا على إحياء اللغات المحلية ، الآرامية بسوريا والقبطية بمصر ، وذلك ليتم لهم القضاء على اليونانية التي تخلفت عن البطالسة واللاتينية لغة الرومان ، وسرعان ما تم لهم ذلك إذ رحب به السوريون والمصريون • وتجيء الخطوة الثانية وهي نشر اللغة العربية بعد ذلك ، ولا نزاع أن الإسلام وهو ينتشر أخذ معه اللغة العربية ، فإذا جاز نشر المسيحية بدون لغة أو نشر اليهودية والبوذية كذلك ، فإن نشر الاسلام ينشر اللغة العربية كذلك لضرورة الصلاة وقراءة آيات من القرآن الكريم ، ولذلك نجد أنه بعد حوالي سبعين عاما من الفتح أصبحت اللغة العربية هي اللغة العامة في الأقطار المفتوحة •

ثم تأتي نقطة أخرى نشرت اللغة العربية ودعمت جانبها حتى مع غير المسلمين ، تلك هي تعريب الدواوين في عهد الوليد بن عبد الملك ،فقد أصبح لزاما أن تتم الحسابات والمكاتبات باللغة العربية ، وكان على طلاب الوظائف في الدواوين أن يجيدوا هذه اللغة ، وقد فتح العرب باب الخدمة في الدولة لكل السكان على اختلاف أديانهم ونحلهم ، غير أن اللغة العربية كانت وسيلتهم لهذه الخدمة ، ولذلك فإننا نجد أنه بمرور الزمن وجدت طوائف غير مسلمة لا تعرف إلا اللغة العربية مما أدى إلى ضرورة ترجمة الإنجيل وبعض الكتب المسيحية الأخرى لهؤلاء •

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية سعة هذا اللسان وسلامته ، فإن هذه اللغة لم تقف ولم تجمد ؛ هضمت ألفاظا من الفارسية والرومية والسريانية والعبرانية والقبطية والهندية وتركت ألفاظا عربية كانت مألوفة في عصر الجاهلية ، واتجهت ببعض الكلمات العربية لأداء معان أخرى غير تلك التي كانت تؤديها قبل الإسلام ، وسعى العرب بحماسة ليجعلوا لغتهم لغة علم ، كما كانت لغة دين وأدب وسياسة ، ويقرر رينان أن هذه

اللغة ظهرت فجأة فى غاية الكمال والسلاسة والغنى بحيث يمكن القول إنها ليس لها عهد بالطفولة (١) .

ومما ساعد على انتشار اللغة العربية بمصر وفود القبائل العربية التى هاجرت إليها وامتزجت بسكانها ، فقد استقبلت مصر فى مطلع عهدها بالاسلام كثيرا من عرب الجنوب ، ثم استقبلت إبان خلافة هشام ابن عبد الملك وفودا كثيرة من قبيلة قيس ، وقد نزل هؤلاء فى منطقة بلبيس وما حولها بمحافظة الشرقية ، وفى القرن الثالث هاجرت الى مصر وفود من ربيعة واستقرت بالصعيد .

وتم امتزاج العرب بالمصريين على نطاق واسع عقب سقوط الأمويين وفى خلال عهد المعتصم كما ذكرنا آنفا ، ونزل العرب ميدان الزراعة والصناعة والتجارة ، وعن هذا الطريق وكذلك عن طريق التزاوج اندمج هؤلاء بأولئك وأصبح عسيرا بعد فترة أن نفرق بين السكان الأصليين وبين الوافدين على مصر وسوريا من العرب .

وكمل النصر للغة العربية عندما نزح كثير من العرب الرحل من البادية وانخرطوا فى غمار حياة الاستقرار بالمدن الغنية المفتوحة ، وبشيوع اللغة العربية بين السكان الأصليين اضطر رجال الكنيسة فى القرن العاشر أن يضعوا كتاباتهم باللغة العربية حتى يفهمها أتباعهم (٢) .

ويبدو على العموم أن انتصار العربية الفصحى ، تمَّ قبل انتصار العامية ، وبالتالى انتشر التأليف باللغة العربية وكذلك انتشر الحديث بها فى المجالات العلمية والأدبية ، قبل انتشار العامية ولغة الشارع ، ففى مصر كتب ابن الداية سنة ٣٣٩هـ سيرة أحمد بن طولون ، وحوالى هذا الوقت كتب ابن البطريق كتابه فى التاريخ ، ثم كتب ساويرس أسقف الأشمونين

---

(١) نقلا عن محمد كرد علي : الاسلام والحضارة العربية جـ١ ص ١٨٠ .

(٢) Kilk : A Short Hictory of the Middle East p 37

سير الأبطال البطارقة ، وازدهرت اللغة العربية فى بلاط الإخشيد ، حيث ظهر الأدباء والشعراء ، وكذلك فى البلاط الفاطمى خلال القرن الرابع ، وفى سوريا بدأت الكتابة باللغة العربية مبكرة أيضا ، وأقدم ما وصل إلينا مخطوطة ألفها أبو قرة فى مطلع القرن الثالث الهجرى (سنة ٢٠٥) ، وكتب عبد الله ابن محمد البلوى من مؤرخى دمشق سيرة أحمد بن طولون فى الثلث الثانى من القرن الرابع . ومما ساعد على انتشار اللغة العربية ، أن التحول من لغة سامية الى لغة سامية أخرى ليس به مشكلات لغوية مستعصية .

أما اللغة العامية فقد تأخر انتشارها بين الجماهير ، فالمقريزى (١) يقرر أن المأمون (١٩٨ — ٢١٨) عندما زار مصر كان يمشى والتراجمة بين يديه ، ومن الواضح أن انتشار العربية الفصحى سبق ذلك بكثير ، وبدأت الدواوين تستعمل هذه اللغة منذ آخر عهد عبد الملك (٦٥ — ٨٦) ، ثم انتشرت بعد ذلك فكتبت بها الرسائل ، ثم أصبحت لغة التأليف والتصنيف والأدب ، وعلى العموم فان من الطبيعى أن سير الفصحى كان سريعا ، أما العامية فكان سيرها بطيئا ، وكانت مصر أسبق من سوريا فى القضاء على لغتها المحلية ، أما سوريا فقد عاشت اللغات المحلية بها عهودا أطول ، فيذكر فيليب حتى أن انتصار اللغة العربية على اللغات المحلية بها لم يكتمل إلا فى القرن الثالث عشر ، ومع هذا فقد بقيت هناك « جزر لغوية » لأقوام غير مسلمين كاليعاقبة والنساطرة والموارنة ، وفى عهد الصليبيين كان هناك كثير من هذه « الجزر اللغوية » وفى لبنان المارونى دافعت اللغة السوريانية المحلية عن نفسها دفاعا مريرا وطويلا حتى القرن السابع عشر ، ولا تزال السوريانية لغة الحديث فى ثلاث قرى فى لبنان الشرقى هى معلولا وبخعة وجبعادين ، وهى لا تزال لغة الطقس الكنسى لدى الموارنة ، وفى بعض الكنائس السوريانية الأخرى ، أما السوريان الناطقون باليونانية فلم يظهر منهم مثل هذا التعلق بلغتهم الأم (٢) .

---

(١) الخطط : جـ١ ٨١ .

(٢) History of Syria pp 171 - 172

نظم الحكم فى عهد الولاة

يمكن القول إن المسلمين استفادوا بالنظم والتقسيمات الادارية التى كانت موجودة فى سوريا ومصر قبل الاسلام ، ولكن شيئا رئيسيا حدث هو إدخال الطابع الاسلامى على نظام الحكم ، وقد شمل هذا الطابع الاسلامى الاتجاهات السياسية والادارية والمالية ، فأصبح أهم عمل يؤديه الوالى هو إمامة الصلاة ، وأصبحت الضرائب تتبع التعاليم الاسلامية ، وهكذا ، وسنتكلم هنا كلمة عن أبرز الوظائف التى كانت تدير جهاز الحكم فى عهد الولاة :

الجهاز السياسى :

كانت البلاد مقسمة الى مناطق ، وكل منطقة كانت مقسمة الى قرى وكور ، وفى قمة الجهاز السياسى كان يجلس الوالى الذى وضعت بيده مقاليد الأمور كلها ، فكان ينوب عن الخليفة فى شئون الدين وإمامة الصلاة ، وكانت له قيادة الجيش التابع له ، والإشراف على الشرطة والأمن ، وتنفيذ أحكام القضـــاء •

وفى الأقاليم والقرى التابعة للوالى كان هناك تقريبا جهاز مصغر الصورة للجهاز الذى يرأسه الوالى بالعاصمة ، فرئيس الإقليم أو القرية كان له فى دائرته سلطة الوالى فى ولايته ، أى كان يؤم الناس فى الصلاة ويشرف على استتباب الأمن وتنفيذ أحكام القضاء ، وبهذا كان فى نظام الحكم نوع من اللامركزية •

وكان الوالى يعين صــاحب البريد الذى كان يقــوم بدور مهم فى الإشراف على الكور والقرى والمناطق المختلفة ، إذ كــان يحمل للوالى أخبار هذه المناطق وأخبار القائمين باسم الوالى على الأمر بها ، فكان بذلك يمثل عين الوالى التى تبصر له الأحداث فى جميع أركــان الولاية ، وهذا يوضح مدى أهمية هذه الوظيفة للوالى ، وبجانب ذلك كان صاحب

البريد يحمل الأوامر من الوالى إلى الأقاليم ، وكان الوالى يعين عددا من الموظفين الذين يتولون عمليات التدوين والرسائل .

وهناك وظيفتان كبيرتان حرصت عاصمة الخلافة فى أكثر الأحوال على إبقائهما فى يدها وهما : وظيفة جابى الخراج ، والقاضى ، وكان ولاة الأقاليم يحرصون من جهة أخرى أن يترك لهم الأمر فى هاتين الوظيفتين أيضا ، وكان الوالى اذا أشرف على شئون المال يقوى سلطانه ، وقد يهدد بسبب ذلك بالاستقلال عن عاصمة الخلافة ، ولذلك كان الخلفاء يحرصون على أن يستبقوا سلطة المال فى أيديهم ، وأن يعينوا لهذه المهمة موظفا يكون تابعا لهم مباشرة ، وسنرى أن أحمد بن طولون وجد من الضرورى أن يتخلص من ابن المدبر عامل الخراج ، إذ رأى أن سلطانه لا يتم مع وجود هذا الموظف بجانبه .

وفيما عدا هذه الوظائف الرئيسية نجد المسلمين يفسحون الطريق للمصريين والسوريين ليشغلوا عدة وظائف ، وقد استعان المسلمون فى أول الأمر بمن كانوا يشغلون الوظائف المتصلة بالمال والضرائب من بيزنطيين ومصريين ، ولكنهم أتاحوا الفرصة ليحل المصريون والسوريون محل البيزنطيين من حين الى حين ، فلم تمض فترة طويلة حتى أصبحت هذه الوظائف فى أيدى السوريين والمصريين ، ولكن لما تعلم العرب فنون الإدارة ، وكتبت الدواوين بالعربية فى عهد الدولة الأموية أخذ العرب من المصريين هذه الوظائف ، فثار المصريون عليهم ، وحدث صدام كانت الوظائف من أهم أسبابه وكان النصر فيه للعرب ، فلجأ المصريون الى تعلم اللغة العربية واعتناق الاسلام لتتم مساواتهم بالعرب ، وبالتالى لينالوا حقوقهم فى هذه الوظائف (١) .

وقد تحدثنا حديثا مفصلا عن الولاية وأنواعها ، والأمور التى يكل

---

(١) عمر الاسكندرى : تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ص ١٧٢ .

الخليفة النظر فيها الى ولاته فى كتابنا « السياسة فى الفكر الاسلامى » (١) .

النظــام المــالى :

قلنا فيما سبق إن كثيرين من المصريين والسوريين أسرعوا فى اعتناق الإسلام ، وقد وجب على هؤلاء ما يجب على المسلمين من دفع الزكاة وغيرها مما يحتمه الفكر الاسلامى ، أما أولئك الذين لم يدخلوا الاسلام فقد التزموا بالجزية على الرءوس والتزموا بالخراج على الأرض : ويتضح لنا مما يذكره المؤرخون أن العرب ساروا فى مصر وفق نصوص الصلح التى عقدوها مع المقوقس عند حصار حصن بابليون ، فلم يثقلوا أهلها بالضرائب ولم يفرضوا على المصريين والسوريين نظاما ماليا قاسيا ، ويذكر ابن عبد الحكم أن مصر فتحت صلحا بفريضة دينارين على كل رجل ، وأن الاسكندرية فتحت عنوة ، ولكن عمرو بن العاص كتب الى عمر بن الخطاب يسأل عن طريقة معاملة أهل الاسكندرية ، فأجابه عمر بأن يضرب عليهم الخراج والجزية دون أن يستعبد أحدا ، أو أن يجعل أموالهم فيئا (٢) .

وهكذا ألحق عمر الاسكندرية بسواها فى المعاملة ، وحدث مثل ذلك أيضا فى الشام ، فان عمر لم يقبل أن تقسم الأرض والسكان على الفاتحين وانما أشار بأن يكتفى بالخراج على الأرض وبالجزية على الرءوس (٣) .

وفى كتابنا « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » دراسة حافلة عن الخراج والجزية ومقدار كل ... فليرجع اليه من يشاء (٤) ، وقد وضحنا بشكل خاص أن الخراج على مصر كان يتفاوت بتفاوت فيضان النيل (٥) .

---

(١) السياسة فى الفكر الاســلامى للمؤلف ص ١٨٩ وما بعدها من الطبعــة الســادسة .

(٢) ابن الحكم : فتوح مصر ص ٥٥ — ٥٦ .

(٣) البلاذرى فتوح البلدان ص ٢٢١ والخراج ليحيى بن آدم ص ٤٥ .

(٤) الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف ص ٢٢٨ وما بعدها من الطبعة السادسة .

(٥) انظر الطبــرى جـ٤ ص ٢٢٩ ؛ والقلقشندى : صبح الأعشى جـ١٣ — ص ٢٣٤ .

وهناك ضرائب أخرى التزم بها المصريون فى وثيقة الصلح وهى حق الضيافة مدة ثلاثة أيام للعرب الوافدين لأمور رسمية الذين ينزلون على أهل هذه البلاد .

والنظرة السريعة للنظم المالية فى العهد الاسلامى بمصر والشام تقرر أن الضرائب كانت ميسرة ، وكانت أقل كثيرا مما التزم بـه المصريون والسوريون للرومان قبل الفتح الاسلامى ، ومن مقارنة ما ذكره Lane Poole والسيوطى يتضح لنا أن ما كان يحصله المسلمون من ضرائب كل عام كان حوالى نصف ما كان يجمعه المقوقس قبل الفتح الاسلامى (١) . ولكن بتلر ينقل عن حنا النقيوسى ما يفيد أن العرب كانوا قساة فى معاملة المصريين وتحصيل الضرائب منهم . وليس عسيرا على أى باحث أن يدرك ان حنا النقيوسى كان متعصبا ، وأن حكمه يحمل بذور رفضه ، فعباراته تنم عن السخط والكراهية وشدة التذمر والانفعال ، مما يجعل كلامه لا يقبل بحال فى ميزان التاريخ ، وليسمح لنا القارىء أن ننقل هنا سطرا واحدا من كلامه ليرى الى أى مدى كان هذا الكاتب حانقا ، فهو يقول عند وصف الأيام الأخيرة من حياة المقوقس « إن عمرا لم تكن فى قلبه رحمة بالمصريين ولم يرع العهد الذى عقده معهم ، إذ كان رجلا من الهمج » ومن الواضح أن مثل هذا التحامل يسقط قيمة البحث ، وبالتالى لا يجعله مصدرا جديرا بالاعتبار ، واعتماد « بتلر » عليه يجعلنا نحكم عليه حكمنا على المصدر الذى استمد منه معلوماته (٢) .

وإذا كانت هناك دوافع تعصب دينى جعلت حنـا النقيوسى وبتلر يحملان على العرب والحكم العربى ، فاننا كنا نود أن تتحاشى الأقلام العربية المسلمة هذا الاتجاه وبخاصة اذا لم تكن هناك مصادر علمية موثوق بها ويمكن الاعتماد عليها اعتمادا تاما ، أقول هذا وأمامى مؤلفان عـن

---

(١) انظر حسن المحاضرة جا ص ٦٤ .
(٢) انظر فتح العرب لمصر لبتلر ص ٢٦٧ وما بعدها .

هذه الحقبة بقلم واحد ، وأشهد أن روح التحامل واضحة فيهما ، وتنساب بين سطورهما دون أساس علمي على الاطلاق ، وبدون مراجع حيث تتحتم المراجع ، ولأكتف بهذه الاشارة دون تعريف بالكتابين فلست أحب أن أتتبع سقطات الناس ، وأرجو أن يعود كل كاتب الى رشده ، فقد نلنا بالاسلام مكانة مادية وأدبية كان يستحيل علينا أن ننالها بدونه •

النظــام القضائي :

منصب القاضي — كما أشرنا من قبل — كان يتبع الخليفة غالبا ، وكان الخليفة أحيانا يترك للوالي سلطة تعيين قاضي ولايته ، وعندما ظهر منصب قاضي القضاة بالعاصمة كان يقوم باسم الخليفة بتعيين قضاة الأقاليم (١) •

وكان الخليفة يتدخل أحيانا فيلغي حكما أصدره قــاض اذا رأى الخليفة أن الحكم لم يكن منصفا لسبب من الأسباب ، بل كان الخليفة يعزل القاضي اذا رأى في أحكامه بعدا عن العدالة ، ويروى لنا الكندي نماذج من هذه التصرفــات (٢) •

إذا أشكل أمر على القاضي بعث لقاضي القضاة أو إلى الخليفة يسأل رأيه ، وكان الخليفة يجيبه عنه من عنده أو يعقد مجلسا للعلماء لإصدار رأي فيه ، وكانت المساجد هي دور القضاء يتجمع فيها المتقاضون ، وكان جامع عمرو بن العاص مكانا مختارا في القاهرة لمجلس القضاء •

وطبيعي أن القضاء في الاسلام كان يستمد أحكامه من المصــادر الاسلامية الرئيسية ، فكان بذلك أبعد النظم عن نظيره البيزنطي ، وكان القاضي يعتمد على القرآن والحديث والإجماع • • • وكان أحيانا يجتهد

---

(١) انظر تاريخ التشريع والقضاء في الاسلام للمؤلف ص ٢٦٢ ومــا بعدهــــا •

(٢) الولاة والقضاة ص ٣٤١ و ٤١٣ •

إذا لم يجد فى المصادر المذكورة ما يشفى غلته ، وبعد أن انتشرت المذاهب الأربعة كان للقاضى أن يصدر فتواه تبعا للمذهب الذى يرتضيه •

أما غير المسلمين فكانوا يتبعون قضاة منهم فى قضايا الأحوال الشخصية والخاصة ، وكانت أحكام هؤلاء تصدر وفق أديانهم •

وكان قاضى الولاية يقوم بالاشراف على أموال اليتامى وعلى الأوقاف الخيرية ، ويتزعم الاحتفالات الدينية •

ومن أعظم من اشتهر من القضاة بالفضل والاستقامة والعدل القاضى غوث بن سليمان المتوفى سنة ١٦٨ ، وكان لا يمنع عن الوصول إليه متظلم قط ، ومنهم كذلك خلفه المفضل ، وهو أول من أمر بتدوين الأسباب الكاملة التى بنى عليها الحكم (١) •

وبجانب القاضى كان يوجد المحتسب ، ومهمة المحتسب معاقبة المذنب الذى لم تتجه خطيئته ضد فرد معين ، وإنما اتجهت ضد النظام العام والآداب العامة ، وعلى هذا كان المحتسب يعاقب من يسبب الازدحام فى الطرقات ، كما كان يحارب الغش ويراقب الموازين (٢) •

---

(١) انظر تفاصيل واسعة عن التشريع والقضاء فى الجزء الثامن من موسوعة النظم والحضارة الاسلامية وهو المخصص لتاريخ التشريع والقضاء فى الاسلام •

(٢) انظر الحديث عن الحسبة فى كتابنا « السياسة فى الفكر الاسلامى » ص ٢٣٥ •

الحركات بمصر وسوريا
حتى العهـد الطولونى

أخذت مصر نصيبا كبيرا فى الحركات السياسية والدينية التى كانت تضطرب فى العالم الاسلامى إبان فترة الولاية ، ونقصد بمصر سكانهـا الذين اتخذوها وطنا لهم سواء أكانوا منحدرين من أرومة مصرية أو كانوا من قبائل العرب التى هاجرت الى مصر ، أو من الجنود والموظفين الذين ارتبطوا بمصر وامتزجت بأهليها عروقهم • وسنلم هنا المامة سريعة بالدور الذى قامت به مصر فى هذه الحركات •

الفتنة فى عهد عثمان :

تحدثنا فى الجزء الأول من هذه الموسوعة عن الفتنة التى هبت فى عهد عثمان ، وعن أسـبابها وركائزها السياسية والاقتصادية ، ودور عبد الله ابن سبأ اليهودى الذى ادعى الاسلام فيها (١) ، ولعبت مصر دورا خطيرا فى هذه الفتنة ، فقد كان الوالى حينذاك عبد الله بن أبى سرح ، وفى أثناء الفتنة وقبلها كان مشغولا بحروب خارجية ، فقد غزا إفريقية سنة ٢٧هـ واشتبك فى حرب مع بلاد النوبة وعقد مع ملكها معاهدة سنة ٣١هـ وحارب الروم فى موقعة ذات السوارى سنة ٣٤هـ ، وقد وجد ابن سبأ فى غياب عبد الله بن سعد بن أبى سرح عن مصر فرصة له لينشر آراءه ويضم حوله الصفوف •

ولمـا علم عبد الله بن سعد بتفاقم هـذه الفتنة أسرع عائدا الى مصر ، ولكن يبدو أن الأمر كان على وشك أن يفلت زمامه أو أفلت فعلا ،

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى جـ١ ص ٥٩٨ وما بعدها من الطبعة الثانيـة عشرة •

ولذلك رحل عبد الله بن سعد الى المدينة ليشرح خطورة الأمر للخليفة ، وليتفق معه على خطة للقضاء على هذه الفتنة ، وأناب عنه من يتولى أمور البلاد فى أثناء غيابه .

وقد وجدت الفتنة فى هذا التصرف فرصة لها فتفاقمت وتزعمها محمد ابن أبى حذيفة الذى استطاع أن يطرد نائب عبد الله بن سعد ، وأن يمنع عبد الله نفسه من دخول مصر عندما حاول أن يرجع اليها ، ثم خرج من مصر جماعة الثوار الذين اشتركوا اشتراكا فعليا فى قتل الخليفة عثمان كما وضحنا هذا الأمر فى الجزء الأول .

الصراع بين على ومعاوية :

بعد مقتل عثمان قام صراع عنيف بين على الخليفة الرابع وبين معاوية الذى ادعى أنه يطالب بدم عثمان ، واتسع هذا الخلاف وتشعب ، وظهر الخوارج فأضعفوا جبهة على ، وقد تحدثنا عن هذا النزاع ونتائجه فى الجزء الأول من هذه الموسوعة (١) ، ونريد هنا أن نبرز دور مصر فى هذا الصراع .

أعلن محمد بن أبى حذيفة البيعة لعلى ، ولكن أنصار عثمان التفوا حول معاوية بن خديج ، وحصلت مناوشات بين الجماعتين لم تسفر عن حل حاسم ، وجاء معاوية بن أبى سفيان الى مصر سنة ٣٦هـ ، وأجرى مفاوضة مع محمد بن أبى حذيفة لتظل مصر على الحياد ولم يقبل على ابن أبى طالب هذه النتيجة ، وولى على مصر قيس بن سعد بن عبادة ، وهو رجل مشهود له بالكفاءة والحنكة ، فلم يطمع معاوية أن يتغلب عليه فى ميدان السياسة ولا فى الميدان العسكرى ، وبخاصة أنه لم يكن ينوى الدخول فى حرب ضد مصر فى هذه الأثناء لانشغاله فى الاستعداد لمواجهة على ، فلجأ الى وسيلة أخرى ليتخلص من قيس ، تلك هى أن أطلق

---

(١) جـ١ ص ٦١٢ وما بعدها ، الطبعة الثانية عشرة .

الشائعات عن صلته به وتعاونه معه ، وصدّق علىّ هذه الفرية فعزل قيس بن سعد ، وخسر بذلك كفاءة ممتازة واخلاصا جما ، وولى مكانه محمد بن ابى بكر الذى كان أقل منه كفاءة وموهبة ، وبعد نهاية موقعة صفين وانشغال على بالخوارج أرسل معاوية لمصر جيشا بقيادة عمرو بن العاص فاستطاع أن يكسب النصر دون كبير عناء وقتل محمد بن أبى بكر ، وعقب ذلك أعلنت خلافة معاوية وأصبحت مصر ولاية أموية .

دعوة ابن الزبير :

تحدثنا عن أطماع ابن الزبير فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة (١) ، وعن مدى نجاحه وامتداد سلطانه عقب وفاة يزيد بن معاوية ، حتى اقتحم أتباعه الشام على الأمويين ، ونريد هنا أن نقول إن مصر كانت ضمن الولايات التى بايعت ابن الزبير ، وقد أرسل هذا عبد الرحمن بن جحدم واليا له عليها ، فاعتزل سعيد بن يزيد والى الأمويين وبدا أن الأمر تم لابن الزبير بمصر .

وظهر مروان بن الحكم وبدأ الأمويون يستعيدون مكانتهم تحت قيادته ، وكانت مصر من أهم البلاد التى وجه لها عنايته بعد أن استتب له الأمر بالشام ، فأرسل لها ابنه عبد العزيز على رأس جيش كبير ، ثم جاءها مروان نفسه ، وقد دارت معارك متعددة بين عبد الرحمن ومروان من أشهرها معركة حول الفسطاط تعرف بموقعة الخندق (٢) وانتهت بفوز مروان ، وقد أقام مروان بعد ذلك شهرين بمصر وطد فيها سلطانه وقضى على أعداء الحكم الأموى .

مصر والحركات الأموية والهاشمية :

ذكرنا من قبل أن مصر كانت تؤيد على بن أبى طالب ، ولكن سياسة معاوية ودهاء عمرو بن العاص أصبحت مصر تابعة لبنى أمية ، بيد أن

---

(١) جـ ٢ ص ٢٢٢ وما بعدها من الطبعة السابعة .

(٢) المقريزى : الخطط جـ٢ ص ٣٣٧ .

شـيعة آل البيت ظلوا ينتظرون الفرص للثورة مـن جديد ، وفى أثناء النشاط الشيعى بخراسان بدأ صداه يظهر بمصر ، وعندما تفاقمت الأمور ضد الأمويين بقيادة أبى مسلم الخراسانى بدأ الجند فى مصر يخرجون عن طاعة القادة الأمويين ويعصون أوامر الخليفة مروان بن محمد ، وعندما فر هذا الى مصر لم يجد من يحسن استقباله ويقاوم بحرارة معه فواصل تقهقره حتى قتل •

وعلى إثر نهاية الأمويين وقيام العباسيين أحس أتباع أهل البيت بخيبة أمل ، فقد كانوا يظنون أن سقوط الأمويين سيعقبه قيـام دولة علوية ، ولذلك نجد مصر تشهد خلال العهد العباسى حركات تدعو للعلويين أو تؤيد الثائرين العلويين ، كما هبت بمصر حركات أموية قام بها بقايا الأمويين أو أتباعهم •

ومن الحركات الأموية تلك التى قام بها دحية بن مصعب بن الأصبغ بن عبد العزيز بن مروان ، وقد خرج فى الصعيد إبان ولاية ابراهيم بن صالح (١٦٥ — ١٦٧ هـ) وقد نجحت دعوته الى حد كبير ولم يستطع ابراهيم إيقافها ، فأرسل الخليفة العباسى المهدى واليا آخر هو الفضل بن صالح بن على الذى استطاع بعد نضال طويل أن يقضى على حركة دحيـــة (١) •

أما أتباع العلويين فقد أخذوا يظهرون من حين الى آخر وكان من أبرز حركاتهم تأييدهم لمحمد بن عبد الله « النفس الزكية » ولأخيـه ابراهيم ، وقد حضر الى مصر فى خلال هذه المعركة على بن محمد واستطاع أن يضم الكثيرين الى دعوة أبيه ، وحاول أن يرسل الميرة للثائرين بالمدينة عن طريق خليج أمير المؤمنين مما حدا بالمنصور أن يردم هذا الخليج ، ولم يستطع والى مصر حميد بن قحطبة أن يقضى على هذه الحركة ، ولكن

---

(١) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جـ٢ ص ٥٧ — ٦٠ — ٦١ .

سرعان ما جاءت الأخبار بمقتل النفس الزكية وأخيه ابراهيم ، فخبا بذلك نشاط الحركة بمصر

وفى أثناء الاضطهاد القاسى الذى صبه العباسيون على العلويين هاجر كثير من العلويين الى مصر والشمال الافريقى ، وممن هاجر الى مصر السيدة نفيسة بنت الحسن بن زيد بن الحسن بن على ، فقد جاءت مع زوجها إسحق بن جعفر الصادق ، ويبدو أن المصريين رحبوا بالعلويين والتفوا حولهم ، ولذلك نجد الخليفة المتوكل على الله يأمر والى مصر أن يخرج آل على بن أبى طالب من مصر فأخرجوا الى العراق والمدينة ، وممن هربوا أيضا من وجه العباسيين إدريس بن عبد الله الذى كوّن دولة الأدارسة ببلاد المغرب ، وعلى كل حال فان ثورات العلويين لقيت فى مصر والشمال الإفريقى أخصب الأمكنة للازدهار ، وفى هذه المنطقة الأخيرة قامت دولة الأدارسة والدولة الفاطمية .

مصر فى النزاع بين الأمين والمأمون :

وفى خلال النزاع بين الأمين والمأمون اعتمد على قوة أخواله الفرس ، واصطبغت حركته فى مطلعها بصبغة فارسية ، وعُدّ مغلوبا على أمره تسيّره قوى العناصر الفارسية ، ومن هنا انتصرت للأمين أكثر العناصر العربية فأصبح النزاع بين الأمين والمأمون الى حد كبير نزاعا بين الفرس الطامعين والعرب المدافعين عن كيانهم ، وقد ظهر بمصر الاتجاهان جميعا ، فكانت هناك قوة تناصر الأمين وقوة أخرى تناصر المأمون ، ولكن مركز الأمين بدأ يضعف بسبب ما عرف عنه من خلاعه وحنث بالعهود ، ثم بسبب عودة المأمون من خراسان وقضائه على طغيان الفضل بن سهل عليه ، وقد ظهر فى أثناء هذه الفتنة عدد من القواد منهم عبد العزيز الجاروى الذى استولى على شرقى الدلتا ، والسرى بن الحكم الذى استولى على الوجه القبلى ، وقبيلتا لخم وجذام اللتان أصبح لهما السيطرة على الاسكندرية والبحيرة ، وظل هؤلاء المتغلبون يباشرون نفوذهم حتى استقر

الأمر للخليفة المأمون ، فاضطر الخليفة أن يرسل الى مصر خيرة قواده : عبد الله بن طاهر بن الحسين ، وكان واليا على الشام ، وقد استطاع عبد الله أن يعيد الأمن والنظام ، وقام بعدة اصلاحات نافعة ولكنه عندما غادر مصر عادت الفتنة من جديد ولم تهدأ هذه المرة إلا بحضور المأمون نفسه (١) :

* * *

تلك هي أبرز الحركات التي هبت بمصر في عهد الولاة وظروف سوريا تختلف عن ظروف مصر إبان هذه الفترة ، فقد كانت سوريا تحت إمرة معاوية أميرا فخليفة ، ثم ظلت عاصمة العالم الاسلامي حتى سقوط الأمويين ، حيث أصبحت ولاية عباسية ، وفي أثناء هذه الولاية قامت بها حركات ثائرة ، فقد اتخذ السوريون في العصر العباسي دستورهم من الكلمات التي صاح بها قائد من بني كلب في قومه يحثهم على مقاومة بني العباس ، مهما كانت ضحايا هذه المقاومة ، وهذه الكلمات هي : يا معشر كلب ... إنها الراية السوداء ... اقتلوا الشر قبل أن يعظم ... الموت الفلسطيني خير من العيش الجزري (٢) .

وقد استجاب بنو كلب لهذا الهتاف ، فتوالت ثورات الأمويين وثورات أتباعهم بسوريا ، كما أوضحنا ذلك في الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، بل إن بعض العباسيين المتمردين على الخلافة العباسية استغلوا سخط سوريا على الخلافة الجديدة فاتخذوا من سوريا مركزا لتمردهم ،

---

(١) في كتاب الولاة والقضاة للكندي دراسة واسعة لهذه الحركة وقد وضحناها في الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

(٢) الطبري : ج٣ ص ٨٤٤ .

كما حدث بالنسبة لعبد الله بن على ، وقد فصلنا الكلام عنه فى الجزء الثالث أيضـا .

ومن الثورات التى نسبت للأمويين ، ثورة الثائر المقنع ، وهو رجل مجهول النسب ، وإن ادعى بعض أتباعه أنه سفيانى وكان هذا الثائر لا يظهر للناس إلا مقنعا فعرف بالثائر المقنع أى البرقع ، وقد اتسع نفوذه فتبعه حوالى مائة ألف رجل أكثرهم من الفلاحين ، مما يدل على أن بذورا اقتصادية كانت تغذى هـذه الثورة ، وقد حقق كثيرا مـن الانتصارات حتى أوقع به الخليفة المعتصم (1) .

(1) ابن عساكر : الجزء الخامس ص ٣١١ .

حضارة مصر فى عهد الولاة
والمدرسة الإسلامية المبكرة

كانت مصر تعانى أزمة ثقافية قبيل الفتح الإسلامى ، فالأديرة التى كانت تمثل مراكز للثقافة أصبحت قبيل الفتح تقف موقف العداء من الفكر الإغريقى بسبب الاختلاف حول طبيعة المسيح ، وقد أدى ذلك إلى أن وصلت الحضارة الإغريقية الى درجة الاحتضار والذبول فى القرن السادس ، وكما انصرف الرهبان عن الثقافة الإغريقية إنصرفوا كذلك عن اللغة اليونانية واتجهوا الى إحياء اللغة القبطية (١) ، التى أولاها العرب كثيرا من عنايتهم بعد الفتح كما سبق القول .

وجاء الاسلام بأفانين من الفكر ، وللاسلام ثقافته وحضارته ، ولمصر تاريخها المجيد فلا عجب أن وجد الاسلام فى مصر أرضا خصبة يزرع بها مبادىء فكره وثقافته ، وسنلم هنا بحضارة مصر فى هذا العصر :

العلوم الإسلامية :

جذبت مصر إلى رباها مجموعة من المحدثين والفقهاء والأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقل عن الوافدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى فى مختلف العواصم الإسلامية ، وكان على رأس هذه المدرسة عبد الله بن عمرو بن العاص الذى يقال إنه أسلم قبل أبيه ، وكان محدثا وفقيها ممتازا ، ويجىء بعده فقيه مصر وشيخها يزيد بن أبى حبيب الذى وكل له عمر بن عبد العزيز أمور الفتيا وقد مات سنة ١٢٨هـ ، وعبد الله بن لهيعة الذى تولى القضاء بمصر حوالى عشر سنوات من سنة ١٥٥ حتى وفاته سنة ١٦٤هـ (٢) ، ثم الليث بن سعد الذى وصل

---

(١) بل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى ص ٢٤٨ وما بعدها .
(٢) السيوطى : حسن المحاضرة جـ١ ص ١٢٠ .

القمة بين الفقهاء والمفكرين وكان سريا نبيلا سخيا فقيها يجيد الحديث والشعر ، وقد عرض عليه المنصور ولاية مصر فامتنع ، ولكنه كان أعلى مقاما من الوالى والقاضى ، وكان إذا رابه من أحد المسئولين شيء كاتب فيه الخليفة فيعزل ، وتوفى سنة ١٧٥هـ .

ومن علماء مصر سعيد بن عبد الله بن أسعد المغافرى (١٧٣) وعبد الرحمن بن القاسم بن جنادة (١٩١) وعبد الله بن وهب (١٩٧) وعبد الله بن عبد الحكم (٢١٥) وأبناؤه عبد الحكم (٢٣٧) وعبد الرحمن (٢٦٨) الذى خلف لنا كتابه القيم « فتوح مصر » .

ويعتبر الإمام الشافعى مصريا فى الفترة الأخيرة من عمره ، فقد قدم إلى مصر سنة ١٩٨ وجلس فيما يصنف ويعلم حتى مات بها سنة ٢٠٤ ، ومن أشهر مؤلفاته بمصر كتاب الأم والأمالى الكبرى والرسالة والسنن ، وقد اتبع المصريون مذهب الشافعى وأحلوه محل مذهب مالك الذى كان واسع الانتشار بمصر قبل ذلك ، وترك الشافعى بمصر تلاميذ أجلاء واصلوا ما بدأه من دراسات وأبحاث ، منهم أبو يعقوب يوسف البويطى وعبد العزيز ابن عمران الخزاعى والربيع بن سليمان الأزدى .

وبرزت مصر بوجه خاص فى علم القراءات ، ومن علماء مصر المشهورين فى هذا المجال عثمان بن سعيد (ورش) الذى ينحدر من أصل قبطى ، والذى انتهت إليه رياسة القراء بمصر ، وقد توفى سنة ١٩٧ ، ومنهم كذلك أبو يعقوب يوسف بن عمرو المصرى الذى خلف ورشا فى علم القراءات وقد توفى سنة ٢٤٠ هـ .

علوم اللغة والأخبار :

نهضت مدرسة اللغة والأدب والأخبار بمصر على نحو ما نهضت مدرسة الدراسات الاسلامية ، ومن زعماء هذه المدرسة ابن ناظر المغافرى المصرى (١٢٨) ، وأحمد بن يحيى التجيبى المصرى (٢٠٥) ،

وعبد الملك بن هشام مؤلف سيرة ابن هشام الشهيرة (٢١٨) وهو عراقى الأصل ، ولد بالبصرة ، ثم هاجر الى مصر عندما سمع عن مدرستها العلمية المبكرة ، وظل بها حتى مات ، وسرح الغول الذى كان إماما فى العربية وعلوم الدين ، وكان معاصرا للشافعى ، وكان الشافعى يعجب به وبفصاحته (١) .

وقد تخطت الحركة الثقافية بمصر حدود مصر فأثرت على الشرق والغرب جميعا ، وذلك عن طريق الذين وفدوا الى مصر واغترفوا من معين المعرفة بها وعادوا بمعارفهم إلى الأندلس أو إلى الشرق .

التصوف :

يزدان هذا العصر بظهور ثوبان بن ابراهيم المصرى المشهور بذى النون المصرى ، وقد تلقى العلم عن مالك والليث بن سعد وعبد الله بن لهيعة ثم صار وحيد زمانه فى العلم والورع والزهد ، واتجه ذو النون إلى التصوف فجلّى فيه ، ولكن أهل مصر أنكروا عليه اتجاهه وشكوه للخليفة المتوكل ، فطلب الخليفة أن يرسل له ذو النون مقيدا ، ولكن ذا النون لم يأبه ولم يخف ، وراح وهو فى القيد يقول : هذا من هبات الله تعالى وعطاياه ، وكل فعاله عذب حسن طيب ، وأخذ ينشد :

لك من قلبى المكان المصون　　كل لوم علىّ فيك يهون

ولما أدخل على المتوكل وعظه حتى أبكاه ، فأطلق الخليفة وثاقه وأعاده مكرما (٢) .

ويعتبر ذو النون من مؤسسى مذهب الفيض والعقيدة الصوفية .

---

(١) السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنجاة ص ٢٥٢ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان ج١ ص ١٠١ .

دراسات فى العلوم :

وبجانب الدراسات الاسلامية والأدبية كانت بمصر دراسة علمية شملت الطب والكيمياء ، وممن تذكر أسماؤهم فى هذا المجال أبحر الطبيب الذى كان بارعا فى الطب إبان خلافة عمر بن عبد العزيز وذو النون المصرى الذى يروى أنه اشتغل بالفلسفة والكيمياء بجانب التصوف .

نشاط فى المجال الاقتصادى :

واهتم ولاة مصر اهتماما كبيرا بالزراعة إذ أن مصر خصبة الأرض ، ونيلها دائم الجريان ، ويقرر المؤرخون المصريون أن الولاة العرب اهتموا اهتماما واضحا بحفر الترع وإقامة الجسور وبناء القناطر ، وبنى العرب مقاييس للنيل لمعرفة مقدار الزيادة والنقصان فى مياهه ، ليكون ذلك مقياسا واضحا للزراعة وللضرائب التى تجبى من الزراعين (١) .

وازدهرت فى مصر أنواع من الصناعة ، ومن أهمها صناعة البناء ، وللمصريين تاريخ مجيد فى العمران عرفوا به منذ عهد الفراعنة ، فلا غرو أن ظهر هذا الفن فى طابع اسلامى ، ومن أجل ذلك كانت المساجد والعواصم التى بنيت فى عهد الولاة تعتبر آية فى الفخامة والإبداع ، ومن الصناعات التى ازدهرت كذلك فى مصر فى عهد الولاة صناعة الزجاج والنسيج والجلود والحلى والعطور والفخار .

ونشطت التجارة أيضا فى عهد الولاة ، وكان موقع مصر داعيا إلى هذا النشاط ، يصف النويرى هذا الموقع كما يصف حاصلات مصر ، وصلاتها التجارية فى عبارة تدل على إحاطة بالخطوط التجارية التى ترتبط مصر بها وتتبادل عن طريقها حاصلاتها فيقول : إنها فرضة الدنيا يحمل من خيرها الى سواحلها ، وذلك أن من ساحلها بالقلزم (السويس) ينقل

---

(١) ابن عبد الحكم : فتوح مصر ص ١٥١ والخطط للمقريزى ج ١ ص ٧٦ .

إلى الحرمين وإلى جدة وإلى عمان وإلى الهند وإلى الصين وصنعاء وعدن والسند وجزائر البحر ، ومن جهة تنيس ودمياط والفرما ينتقل إلى فرضة بلد الروم وأقاصي الإفرنجة وقبرص ، وسائر سواحل الشام والثغور إلى حدود العراق ، ومن جهة الإسكندرية يحمل إلى فرضة إقريطش وصقلية والمغرب كله حتى طنجة ومغرب الشمس ، ومن جهة الصعيد فرضة بلد النوبة والبجة والحبشة والحجاز واليمن (١) .

وفي مجال التجارة كذلك كانت مصر تقوم بدور الوسيط التجاري ؛ أي تشتري وتبيع مستغلة موقعها الممتاز ؛ كما كانت تصدر منتجاتها من الحبوب والمنسوجات وتشتري لوازمها من الأخشاب والمعادن .

حضارة سوريا في ذلك العهد

كانت سوريا في مكان خطير هيأ لها أن تصبح مركزا لمد المسلمين بأنواع من الفكر في علوم شتى ، فقد كان العلماء السريان يجيدون اللغة اليونانية وعلى صلة وطيدة وقديمة باليونان ، فعملوا على ترجمة علوم اليونان إلى السوريانية ، ونشطت بذلك مدارسهم الشهيرة في الرها وحران وأنطاكية قبل الاسلام ، وفي ظل الاسلام وبخاصة في العصر العباسي الأول وجد السريان تشجيعا عظيما من الخلفاء فراحوا يترجمون إلى العربية خير ما حفلت به السوريانية واليونانية ، وشملت إضافات وتعليقات فيها طابع الخلق والابتكار .

وفي الدراسات الإسلامية يبرز في سوريا في هذا الامام الأوزاعي (عبد الرحمن بن عمرو) ، وقد ولد في بعلبك سنة ٨٨هـ ثم انتقل إلى بيروت ، وفي مطلع العصر العباسي الأول كان يعتبر من خيرة الأعلام المشاهير ، ويروي ابن خلكان (٢) أن سفيان الثوري بلغه مقدم الأوزاعي

---

(١) النويري : نهاية الأرب ١ ص ٣٦١ .

(٢) وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٧٥ .

فخرج حتى لقيه وسار فى مقدم ركبه ، وكان كلما مر بزحام صاح فى الناس : الطريق للشيخ ، وقد اشتهر الأوزاعى بالعلم والزهد وتميز بالجرأة الأدبية ، وكان إمام أهل الشام ولم يكن بالشام أعلم منه ، وعندما قدم المنصور سوريا سمع الأوزاعى يعظ فأعجب به إعجابا شديدا ، وكان له مذهب شائع فى الشام ، وقد بقى بعده حوالى القرنين ثم حل محله المذهب الحنفى ، وسار مذهبه إلى الأندلس ثم حل محله المذهب المالكى .

ومن الشعراء المشاهير الذين ظهروا فى سوريا فى ذلك الوقت أبو تمام والبحترى ، وقد زار أبو تمام بقاعا كثيرة بالعالم الاسلامى ، فزار مصر حيث اشتغل بسقاية الماء ، ثم زار الحجاز وأرمينية وفارس والعراق ، ثم استقر أخيرا ببغداد واتصل ببلاط المعتصم وأصبح من شعرائه ، وقد رافقه فى حملته على عمورية ، ووصف انتصاراته أروع وصف ، فسجلت قصائده الخلود لوقعة عمورية ، وقد تحدثنا عن ذلك فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة ، ويقول ابن خلكان عنه انه كان وحيد عصره فى ديباجة لفظه ورصانة شعره وحسن أسلوبه ، وله كتاب الحماسة الذى يدل على غزارة فضله ، وإتقان معرفته بالشعر (١) .

أما البحترى فأحد فحول الشعراء ، يضعه النقاد بين أبى تمام والمتنبى ، ويروى ابن خلكان (٢) عن أبى بكر الصولى أن البحترى كان يقول : أول أمرى فى الشعر ونباهتى فيه أنى صرت إلى أبى تمام وهو بحمص فعرضت عليه شعرى ، وكان يجلس ولا يبقى شاعر إلا قصده وعرض عليه شعره ، فلما سمع شعرى أقبل على وترك سائر الناس ، فلما تفرقوا قال لى : أنت أشعر من أنشدنى ، فكيف حالك ؟ فشكوت خلة ، فكتب إلى أهل معرة النعمان وشهد لى بالحذق وشفع لى إليهم ، وقال لى امتدحهم . فصرت إليهم فأكرمونى بكتابه ، ووظفوا لى أربعة آلاف

---

(١) وفيات الأعيان ج١ ص ١٢١ — ١٢٣ .

(٢) المرجع السابق ج٢ ص ١٧٥ .

درهم ، فكانت أول مال أصبته ، ولما ظهر نبوغ البحترى اتخذ طريقه إلى بغداد حيث أصبح شاعرا مشهورا فى بلاط المتوكل ومن جاء بعده من الخلفاء ، وبرع البحترى فى وصف القصور والبرك وحيوان الفلاة وهو مما يندر وجوده فى الشعر العربى (١) .

وفى مجال الصناعة والتجارة كانت سوريا تلعب دورها الهام بسبب مكانها الاستراتيجى الممتاز بين الشرق والغرب وبين الشمال والجنوب ، وقد لعبت هذا الدور على مر التاريخ كما تحدثنا فى عدة مناسبات ، وعلى ساحل سوريا كان يعيش الفينيقيون ولهم فى ميدان التجارة والمال باع طويل ، وكانت أسواق حلب ودمشق وبيروت عامرة بأصناف العطور والتوابل والنسيج المصبوغ والخزف المطلى بالميناء وغيرها .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سورية جـ٢ ص ١٨٢ .

عواصم مصر فى عهد الولاة

الاسكندرية :

كانت الاسكندرية عاصمة مصر قبل الفتح الاسلامى ، وقد فكر عمرو ابن العاص أن يتخذها عاصمة له عقب الفتح ، وبخاصة أن الروم حاولوا مهاجمتها من البحر ، فأراد عمرو أن يستقر بها ليكون أقرب إلى حمايتها والدفاع عنها ، وكتب عمرو بذلك إلى عمر بن الخطاب ، فكتب إليه عمر يسأله : هل يحول بينى وبين المسلمين ماء ؟ فلما أجاب عمرو بالإيجاب نهاه عمر عن ذلك ، وكان مما قاله بناء على رواية السيوطى : إنى لا أحب أن تنزل المسلمين منزلا يحول الماء بينى وبينهم فى صيف أو شتاء (١) ؛ فتحول عمرو إلى مكان الفسطاط حيث بنى العاصمة التى ظلت عاصمة الديار المصرية أكثر عهد الولاة .

الفسطاط :

وتنسب الفسطاط — فى أوضح الاتجاهات — الى فسطاط عمرو ابن العاص الذى كان قد أقامه بالقرب من حصن بابليون إبان حصار هذا الحصن .

ويروى السيوطى (٢) أنه عقب الصلح أراد عمرو أن يجمع فسطاطه ليرحل الى الاسكندرية ، ولكنه وجد يمامة قد اتخذت لها عشا فوق الفسطاط وأفرخت به ، فقال عمرو ، قد تحرمت اليمامة بنا ، وأمر أن يبقى الفسطاط حتى تطير فراخها ، وسافر الى الاسكندرية ، فلما رفض الخليفة أن تتخذ الاسكندرية عاصمة عاد عمرو الى مكان الفسطاط وقرر أن يقيم به عاصمته .

---

(١) حسن المحاضرة ج١ ص ٥٧ .
(٢) المرجع السابق .

ويروى بعض المؤرخين أن كلمة الفسـطاط غير عربية بـل يونانية ومعناها المدنية العسكرية ، وقد اقتبسها العرب لمدينتهم التى أقاموها فى مواجهة حصن بابليون .

وتقع الفسطاط بين النيل وجبل المقطم ، فتجمع بذلك بين القرب من الماء وللعرب حرص عليه ، والقرب من الصحراء ولهم بالصحراء شغف ، ومن مميزات هذا الموقع سهولة اتصاله بالمدينة عاصمة الخلافة بواسطة قناة تربط بين النيل عند القاهرة وبين البحر الأحمر عند السويس (القلزم) ويرجع تاريخ هذه القناة للفراعنة ، وقد اهتم بها الرومان فأعادوا حفرها وسميت قناة تراجان ، ولما ردمت أعاد عمرو بن العاص حفرها وسماها قناة أمير المؤمنين ، وقد ظلت ممرا مهما حتى ردمها أبو جعفر المنصور حتى لا ترسل الميرة عن طريقها الى محمد بن عبد الله بن الحسن بن الحسن (النفس الزكية) الذى قاد الشيعة فى احدى ثوراتهم ضد العباسيين كمـا سبق .

وقد بنى عمرو الجامع المنسوب إليه فى مركز الدائرة على مساحة طولها ٢٩ مترا وعرضها ١٧ مترا ، ثم اتخذت كل قبيلة من قبائل الجيش العربى خطة (قسما) أقامت فيها مساكنها ، ومن هذه الخطط ، خطة بنى تميم وبنى وائل وبنى عقبة وهكذا ، وسرعان ما اتسعت الأبنية فى الفسطاط وامتدت ، وأعد العرب غير بعيد من الفسطاط مكانا ليدفن به موتاهم ، وقد دفن به عمرو بن العاص وبعض الصحابة (١) .

حلـوان :

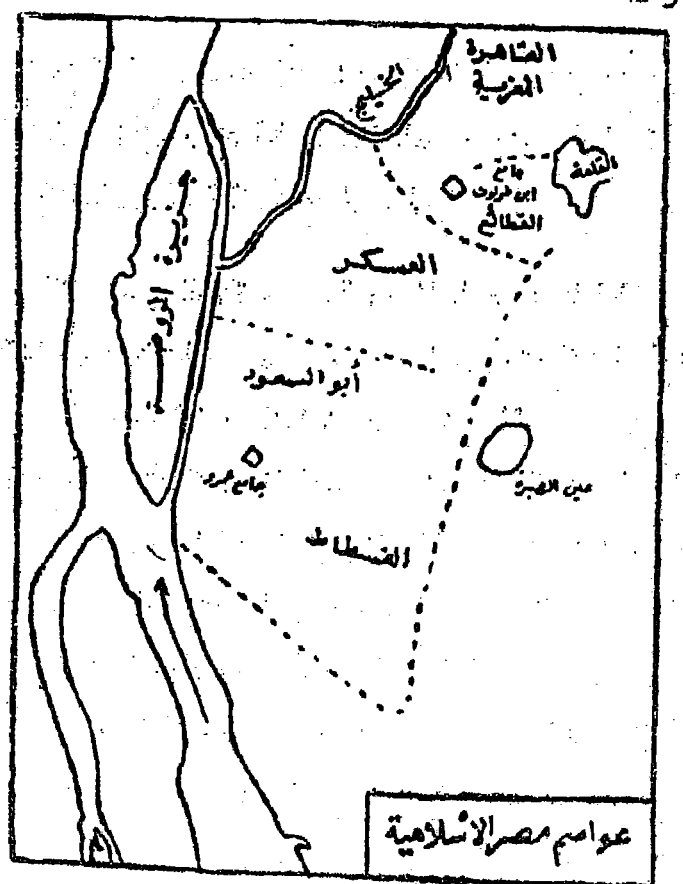
وظلت الفسطاط تمثل العاصمة الرئيسية إبان هذه الحقبة ، وقـد تحول عبد العزيز بن مروان عنها لأسباب صحية ، يقول ياقوت انه وقع بمصر طاعون سنة ٧٠هـ وواليها عبد العزيز ، فخرج هذا يبحث عن موقع

(1) Butler : The Arab Conquest to Egypt p. 257

جديد يقيم به ، فلما وصل حلوان استحســن موقعها ، فبنى بهـا دورا وقصورا ، واستوطنها وزرع بها بســاتين وغرس كروما ونخــلا (١) ، ويعتبر هذا انتقالا مؤقتا لهذا السبب الطارىء ، ومعنى هذا أن الفسطاط ظلت العاصمة الحقيقية طيلة حكم بنى أمية حتى مع انتقال بعض الولاة عنهـا .

العســكر :

وعند سقوط الدولة الأموية وقيام دولة العباسيين ، بنى ولاة مصر مـن قبل العباسيين مدينة جديدة الى الشرق من الفسطاط ، سموهـا « العسكر » .



---

(١) معجم البلدان جـ٣ ص ٣٢٦ .

القطـائع :

وصارت العسكر مقر ولاة مصر الى سنة ٢٥٤هـ حيث بنى ابن طولون مدينة القطائع واتخذها عاصمة له كما سنرى ، ويمكن فى الحقيقة أن تعد العسكر ضاحية من ضواحى الفسطاط أو امتدادا لها ، وموقعها الآن البغالة وزين العابدين .

* * *

آثار عصر الولاة :

من أهم الآثار المصرية التى شاهدها المسلمون الزاحفون « حصن بابليون » وكان الرومان قد أقاموا هذا الحصن جنوب القاهرة الحالية ، وقد حاصره المسلمون ستة أشهر ، ولا تزال بقاياه فى قصر الشمع .

ومن آثار عصر الولاة مجموعة من المساجد أشرنا لها عند الكلام عن منشئيها . وفى قمتها مسجد عمرو بن العاص ، وقد اشترك فى تأسيسه مجموعة من الصحابة الذين كانوا ضمن الجيش الاسلامى ، وهـو أول مسجد بافريقية ، وقد كان هذا المسجد موضع اهتمام الحكام على مـر العصور ، وجرت فيه زيادات كثيرة وبخاصة أيام عبد العزيز بن مروان ، وفى العهد الفاطمى لم يفقد جامع عمرو مكانته بـل ظل موضع اهتمـام الخلفاء الفاطميين والعلماء ، وقد أهداه الخليفة الحاكم نجفة كبيرة ، وكان الخلفاء الفاطميون المتأخرون يصلون به الجمعة اليتيمة ، وكان التدريس بهذا المسجد حسبة ، وكان به ثمانى زوايا يجلس فيها خيرة العلماء ومن أهمها زاوية الامام الشافعى ، ولم يبق الآن من المسجد الذى بناه عمرو الا أرضه وبعض أجزاء فى جداره القبلى .

المقطم :

والفسطاط ، أول عاصمة اسلامية بمصر ، وجامع عمرو ، يقعان بوجه عام فى سفح جبل المقطم ، ومن هنا لزم أن نتكلم كلمة عن آثار هذا الجبل التى منها القديم ومنها ما يرتبط بعدة عصور اسلامية ، وأول ما نذكره عنه أن هناك رواية تقول إنه يدفن فيه غراس الجنة ، ومن هنا وجدت بجوانب منه مقابر للصالحين ومن التمس بركتهم .

ومن الآثار القديمة بالمقطم « تنور فرعون » وقد أقيم مكانه مسجد التنــور .

وبالمقطم وادى دجلة وكهف السودان ، وبه كذلك دير القصير . وقد تكلمنا عنه فى كتابنا « المسيحية » ضمن حديثنا عن الأديرة وما كان بها من لهو وعبث .

ومن أهم الآثار الاسلامية بالمقطم مسجد « دكة القضاة » حيث كان استطلاع الهلال يتم فوقها ، ومنها كذلك مسجد الجيوشى (نسبة لأمير الجيوش بدر الجمالى) وكان عمر بن الفارض (العصر الأيوبى) يخلو للعبادة بالمقطم فيما سمى « سياحة التفرغ لله » .

وفى الجانب الغربى من المقطم توجد قلعة صلاح الدين ومسجد القلاوون ، ومسجد سارية الجبل ، ومسجد محمد على .

* * *

وبعد هذه الدراسة السريعة عن عصر الولاة ، نعبر خطوة أخرى انتقلت من أول فترة استقلال فى تاريخ مصر وسوريا فى عهد الاسلام .

الدولة الطولونية

(٢٥٤ - ٢٩٢ هـ = ٨٦٨ - ٩٠٥ م)

الحركات الاستقلالية بمصر

مع نهاية العصر العباسى الأول (سنة ٢٣٢هـ) بدأ مركز الخلافة يضعف ، وبدأت بعض المناطق التابعة للخلافة الاسلامية تتطلع الى الاستقلال ، وبخاصة تلك المناطق التى كان لها أمجاد وتاريخ ناصع قبل الاسلام ، فلقد اعتنقت هذه المناطقُ الدينَ الجديدَ وتبنّت ثقافته وحضارته ، ولكن ذلك لم يلزمها بالتبعية السياسية ، وبخاصة إذْ كان مركز الخلافة قد تسلّط عليه من لا يمثّلون الاسلام ثقافةً وحضارةً ، وكانت مصر من أبرز الدول التى اتجهت هذا الاتجاه ، فمصر لها تاريخها الفرعونى الطويل الذى يعود الى الوراء عدة آلاف من السنين ، والذى سجل الوانا من التقدم فى مختلف الاتجاهات ٠

وعندما جاء الاسلام أحسنت مصر استقباله ، واحتضنت فكره ، فكان اضافةً مهمة لحضارة المصريين ، وفى نفس الوقت كانت المراكز الاسلامية الأولى « الحجاز ودمشق وبغداد » قد بدأت تعانى من المشكلات الداخلية ، وأصبح واضحا أنها ليست أقدر من القاهرة على حمل مسئولية الفكر الاسلامى ونشره ، وهكذا بدأ تراجع فى هذه المناطق وتقدّمٌ فى مصر ، وصادف أن جاء أحمد بن طولون الى مصر فى ذلك الوقت فقابل استعدادا كبيرا لحركة استقلالية ترمى الى أن تستعيد مصر استقلالها السياسى من جانب ، وتحمل مسئولية احتضان الاسلام ونشره من جانب آخر ، فكانت الدولة الطولونية أول هذه الحركات الاستقلالية ، وقد استمرت هذه الحركات الاستقلالية فى عهد الطولونيين ، ثم فى عهد الإخشيديين ، وأخيرا حققت نجاحها الكامل فى عهد الفاطميين ٠

ولما جاء العهد الأيوبى بعد العهد الفاطمى اعترف الأيوبيون بالخلافة العباسية اعترافا شكليا ، ولكن قيادة المسلمين ضد الصليبيين اتخذت مصر مقرا لها ، ولما جاء المماليك انتقلت الخلافة العباسية لمصر بعد أن قضى المغول على الخلافة ببغداد ٠

والمهم أن مصر بدأت بها الحركات الاستقلالية مبكرة ، منذ عهد السرى بن الحكم الذى تولى ابناه امارة مصر بعده ، ولكن الحركة تمت فى العهد الطولونى وسرعان ما أصبحت مصر مركز القوة والعلم للعالم الاسلامى كله •

ونضيف هنا أن المصريين حرصوا على هذه الحركة الاستقلالية منذ قيامها ، فلما سقطت الدولة الطولونية سنة ٢٩٢هـ وعادت مصر لتكون ولاية تابعة للخلافة فى بغداد ثار أحد المصريين وهو محمد بن على الخلنجى وكان ضابطا بالجيش الطولونى ، وقاد ثورة ضد الوالى العباسى (عيسى النوشرى) وانضم آلاف المصريين للثائر ، واستطاع الثوار أن يهزموا الوالى العباسى ويستقلوا بمصر حوالى ثمانية شهور (١) •

ويصف مؤرخ معاصر (٢) هذه الثورة بانها كانت « تنفيسا عن رغبة المصريين فى الإستقلال » •

وقد اتخذ الاتجاه الاستقلالى مظاهر مهمة خلاصتها :

١ — أصبح الوالى يخطب له ويذكر اسمه بعد اسم الخليفة •

٢ — وضع الوالى اسمه على السكة مع اسم الخليفة •

٤ — تكون لمصر جيش خاص ، وأحيانا وجهة الوالى لحرب ممثل الخلافة كما حدث ضد الموفق وضد ابن رائق كما سنرى •

٤ — أصبح لمصر أسطول خاص قوى •

٥ — أصبح والى مصر يعين القضاة بنفسه ويعين كل موظفى الدولة

٦ — وأصبح الحكم وراثيا ، فعاصمة الخلافة لا ترسل واليا جديدا للبلاد عقب وفاة واليها •

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ١٥٢ •

(٢) دكتور حسن محمود : مصر فى عهد الطولونيين والاخشيديين ص ٨٦ •

وبعد هذا الايجاز عن الحركات الاستقلالية بمصر ، نتجه الى تفصيل القول في هذه الحركات :

وقد اشتركت سوريا مع مصر في هذه الحركات الاستقلالية في جميع مراحلها .

تعريف بالدولة الطولونية

تنسب هذه الدولة إلى طولون ، وهو ينحدر من أسرة كانت تقيم في بخارى ببلاد تركستان ، وجاء طولون الى بغداد سنة ٢٠٠هـ إبان خلافة المأمون ضمن مجموعة من الأسرى أرسلهم نوح بن أسد السامانى الى الخليفة ، وقد وجد المأمون فى طولون بسطة فى الفكر والجسم فجعله رئيسا لحرسه الخاص ، وخطا بذلك طولون نحو الجاه ومهد الطريق لابنه أحمد وأجفاده نحو المجد والسيادة .

وأمراء الطولونيين هم :

١ — أحمد
٢٥٤ — ٢٧٠

العباس | ٢ — خمارويه ٢٧٠ — ٢٨٢ | ٥ — شيبان ٢٩٢

(أبناء خمارويه:)

٣ — أبو العساكر جيش ٢٨٢ — ٢٨٣ | ٤ — أبو موسى هارون ٢٨٣ — ٢٩٢

تعريف بأمراء الطولونيين

أحمد بن طولون :

ولد أحمد بن طولون سنة ٢٢٠هـ وعنى أبوه بتربيته عناية كبيرة ، فرباه كما يربى أولاد الأمراء الأتراك فى ذلك الوقت ، دربه على الشجاعة وعلمه العلوم العسكرية فى سامرا ، وأضاف الى ذلك تعليمه علوم اللغة والدين ، وتلقى أحمد الفقه على مذهب الإمام الأعظم أبى حنيفة النعمان ، ثم تردد على علماء طرسوس وأخذ من معارفهم وروى عنهم الأحاديث ولما مات أبوه سنة ٢٤٠ عهد له المتوكل بالقيام ببعض الأعمال التى كان أبوه يقوم بها ، ثم ولى إمرة الثغور وإمرة دمشق (١) .

وقفز المعتز إلى الخلافة بعد عزل المستعين (٢٥٢هـ) وسجن المعتز المستعين فى دار بواسط وجعل أحمد بن طولون حارسا عليه ، ولكن السجان احترم فى السجين مكانته ، فلم يشدد الرقابة عليه ، واكتفى منه ألا يزاول نشاطا ضد الخليفة القائم بالأمر ، ولكن قبيحة أم المعتز لم تكتف بسجن المستعين وقررت قتله حتى لا يثب على ابنها ، وأرسل رجال القصر بذاك الى أحمد بن طولون ، ولكن هذا رفض أن يقتله وكتب بذلك الى رجال القصر (٢) ، وآثر أن يتخلى عن هذا المكان الى من يستطيع تنفيذ أوامر القتل ، وعظم أحمد بن طولون بذلك فى أعين الفضلاء ، وغادر ابن طولون واسط الى سر من رأى .

وكان خلفاء بنى العباس منذ عهد المعتصم يعينون الأتراك ولاة على أهم الولايات ، ولكن الأتراك كانوا يحرصون على أن يبقوا بعاصمة الخلافة لينعموا فيها بحياة الترف وليكونوا على صلة بمنطقة النفوذ والسيادة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء الولاة يعينون نوابا عنهم ليحكموا الأقاليم باسمهم ويبقون هم بعاصمة الخلافة (٣) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج٣ ص ٤ .

(٢) ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥ — ٧ والبلوى ص ٤٠ .

(٣) لعل هارون الرشيد هو الذى ابتدع هذه البدعة منذ جعل ولاية مصر لجعفر البرمكى ، ولكنه فى الوقت نفسه استبقاه بجانبه ، فأناب جعفر عنه نائبا لحكم مصر هو عمرو بن مهران .

خطوات ابن طولون للسلطة :

وجاء أحمد بن طولون الى مصر نائبا عن واليها التركى باكباك أو « بقبق » الذى كان قد تزوج أمه بعد وفاة أبيه ، وخُصّ ابن طولون بالعاصمة ، ولم يَدْخل باكباك الاسكندرية فى دائرته ، ولما مات باكباك حرص يارجوخ حمو ابن طولون على أن تكون له ولاية مصر ، وما إن تمّ له ذلك حتى كتب الى أحمد بن طولون زوج ابنته يقول له : تسلم من نفسك لنفسك ، وضم له الاسكندرية وكان ذلك سنة ٢٥٦هـ (١) ، وعرف ابن طولون بالقوة والميل الى الاصلاح ، ثم انه جاء بعد مجموعة من الولاة عرفوا بالأنانية والنزق فكان ذلك مما حبب الناس فيه ، وربطهم به ، وكان ابن طولون حسن الصلة بالخليفة العباسى يرسل له طرف مصر ومنتجاتها ، ولذلك ما ان مات يارجوخ حتى أقره الخليفة واليا لمصر حيث واصل إصلاحاته وهيأ لنفسه جوا يضمن له الاستقلال (٢) .

اتساع ملك ابن طولون :

وفى هذه الأثناء كان بالشام عدة ولاة يتبعون الخلافة العباسية ، وكان من بين هؤلاء عبد الله بن رشيد عامل الثغور ، وقد هزم هذا فى إحدى المعارك ضد البيزنطيين وأسره الروم ، فطلب الخليفة المعتمد سنة ٢٦٤ من أحمد بن طولون أن يسير لمحاربة البيزنطيين ، فلبى ابن طولون طلبه وسار بجحفله من مصر ، وقد ضمنت هيبة ابن طولون له أن يمد نفوذه حتى طرسوس ونهر الفرات ، وأن يستولى على دمشق من على ابن أماجور وبهذا أصبح ملك الطولونيين يشمل مصر والشام والجزيرة ومناطق الثغور وأقره الخليفة العباسى على ذلك .

وسنفصل القول فيما بعد عن علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية ، ونسرع هنا بأن نقرر أن ابن طولون صارع الموفق أخا الخليفة والقائم

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٧ .

(٢) الطبرى : ج٣ ص ١٦٧٠ .

بأمر الخلافة وانتصر عليه ، وقرر لعنه فى الخطبة وهكذا فعل خمارويه ، ووضع كهذا معناه استقلال تام عن بغداد ، وعندما تم صلح بين الموفق وخمارويه كان به نص أن ولاية مصر وسوريا حتى طرسوس حق لخمارويه ولأولاده مدة ثلاثين عاما .

صعوبات فى طريق ابن طولون

شئون الخراج والبريد :

وقد واجه ابن طولون كثيراً من الصعوبات وهو يبنى ملكه ، ومن هذه الصعوبات أن شئون الخراج بمصر كانت فى أول عهده فى يد أحمد ابن محمد بن المدبر الذى كان واسع الثراء والنفوذ ، ثم كان عامل البريد الذى يكتب للعاصمة بأخبار أحمد بن طولون يسمى « شقير » وهو من أصفياء ابن المدبر ، واذا اجتمع عامل الخراج وعامل البريد ضد الوالى شالت كفته ، ولكن أحمد بن طولون صبر وفكر حتى تخلص من الاثنين ، ويروى أنه عقب اسناد ولاية مصر لابن طولون أرسل له ابن المدبر مبلغا كبيرا من المال ، ولكن ابن طولون رفض تسلمه ، فأحس ابن المدبر أنه أمام وال صعب القياد ، فبدأ يدس عليه ، وكان لابن المدبر مجموعة كبيرة من الحرس تحيطه بالهيبة ، فأرسل له ابن طولون يذكر أن الدفاع عن الدولة يحتاج لهؤلاء الجنود ، فدفعهم اليه ابن المدبر كارها ، وازداد الشد والجذب .

وحدث أن طلب الخليفة المعتمد من ابن طولون مزيدا من الأموال ، فأجاب ابن طولون قائلا : كيف أطيق ذلك والخراج فى يد غيرى ؟ فنحى الخليفة ابن المدبر ، ونقله الى خراج سوريا ، ووافق ابن المدبر على هذا لكثرة ما عانى من ابن طولون ، وضعف بذلك جانب شقير فاستطاع ابن طولون أن يقضى عليه ، ولما امتد سلطان ابن طولون الى سوريا التقى بابن المدبر مرة أخرى وسرعان ما كان الغلب لابن طولون أيضا فاستسلم ابن المدبر ورضى أن يفارق سوريا ببعض ماله (١) .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ٣ ص ٤٠ .

ثورة شيعية :

ومن الصعوبات التى هبت فى وجه ابن طولون ثورة شيعية فى الوجه القبلى يتزعمها شخص اسمه ابراهيم بن محمد وهو من نسل الإمام على ابن أبى طالب ، ويعرف بابن الصوفى ، وقد قضى ابن طولون على هذه الثورة بعد صراع طويل ، وثار بمنطقة أسوان ثائر آخر يعرف بالعمرى نسبة الى عمر بن الخطاب ، ولم يهزمه ابن طولون الا بأن دس عليه أحد خدمه فقتله غدرا وقدم رأسه الى ابن طولون .

ثورة العباس :

بيد أن أعظم الثورات التى عاناها أحمد بن طولون هى ثورة ابنه العباس ، وهذه الثورة — بجانب ما سببته من صعوبات عسكرية واقتصادية — كان لها جانب عاطفى لا يقل صعوبة عن جوانبها الأخرى ؛ فالثائر هو الابن الأكبر لأحمد بن طولون وهو قرة عينه ، وقد استخلفه أبوه على مصر عندما سار الى الشام وانطاكية .

ويتحدث المؤرخون كثيرا عن أسباب هذه الثورة :

هل هى غيرة العباس من أحمد بن محمد الواسطى كاتب أبيه وصاحب الحظوة عنده ؟

هل هى أطماع الابن أن يكون لنفسه مملكة تماثل أو تفوق مملكة أبيه ؟

هل هى بدفع من أعداء أحمد بن طولون ؟

على أى حال لقد خرج ذلك الابن العاق وأخذ معه ما كان بخزانة الدولة من أموال ، كما أخذ قروضا من بعض التجار واتجه الى برقة والشمال الافريقى وأخذ معه الواسطى مكبلا بالسلاسل ، ولكن سرعان ما وجد ذلك الابن العاق نفسه مطوقا بقوى تفوق قواه ، فالأغالبة بتونس ، وإلياس بن منصور زعيم البربر بجبل نفوسة ، قاما فى وجهه ، ومطاردة

أبيه لحقته بعد أن عجز الترغيب والترهيب عن إعادة الابن العاق الى رشده ، ثم هرب الواسطى وعاد الى مصر ، وانفض كثير من أتباع العباس عنه ، وأخيرا أحاطت به جيوش ابن طولون وقبضت عليه وعلى كبار أتباعه ، وأرغم العباس أن يقتل بيده كثيرين من معاونيه ، أما العباس فقد زج به فى السجن حيث بقى فيه حتى اعتلى أخوه خمارويه العرش فقتله الحراس ، لأن العباس امتنع عن مبايعة خمارويه (١) .

من صفات ابن طولون :

كان ابن طولون سمحا كثير الصدقات ، فياض الكرم ، يمد سماطه كل يوم لآلاف الطاعمين ، وكان يميل للجد ولا تجذبه أنواع اللهو ، وهكذا يكون مؤسسو الدول ، وكان ابن طولون ذكيا فطنا ، أدرك أن أخباره تنتقل الى دار الخلافة ببغداد ، فوضع له عيونا هناك تحذره وتنقل له ما يدور بعاصمة الخلافة من أحداث واتجاهات ، وكان ابن طولون مع ذلك طائش السيف يقتل بالظنة ، ويعتمد على الجواسيس فى كثير من الأحوال .

الأمراء الطولونيون بعد أحمد :

يمكن القول إن دولة الطولونيين كانت دولة أحمد بن طولون فقط ، وأن بقاء سلطان الطولونيين بعد وفاته لم يكن الا بقوة الدفع التى بعثها منشىء الدولة ، اذ لا يكاد الباحث يجد بين الأمراء الطولونيين بعد أحمد مَنْ يستحق الذكر أو تحمد له مأثرة ، واذا كان ابنه العباس عق وثار ، فان أبناءه وأحفاده الآخرين كان فيهم عقوق من نوع آخر ، ذلك هو عدم

---

(١) عن هذا الموضوع اقرأ : البلوى : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٦٠ وما بعدها .

ابن الداية : سيرة ابن طولون ص ٥٩ — ٦٠

ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٣ ص ٤٩

وعن كتب ابن طولون لابنه العباس اقرأ : القلقشندى : صبح الأعشى جـ٧ ص ٥ — ١٠ .

احتفاظهم بتراثه ، وعدم سَيْرهم سيرته ، وعدم حرصهم على أن يكونوا امتدادا صالحا للرجل المكافح .

وأول من نصادف من هؤلاء الأمراء هو خمارويه الذى تولى السلطان بعد أبيه باجماع الجند ورجال الدولة ، وكان فى هذا المطلع الهادىء المستقر ما يمكن أن يساعد الأمير على حياة صالحة ناجحة ، ولكن الأمير — على الرغم مما حقق من شجاعة وانتصارات سنتحدث عنها فيما بعد — كانت حياته سرفا ونزقا تصل الى أبعد الحدود ، ويقص التاريخ ما يصعب تصديقه من عطاءات سخية للشعراء والمغنيين ، ومن أنه كان لا يلبس الرداء إلا مرة واحدة ، وإذا ركب الحصان مرة فانه لا يعود الى ركوبه مرة أخرى ، وحتى القصور كان يسكن كل قصر عاما واحدا ثم يستبدل به سواه ، وبهذا سخر آلاف الناس ليخيطوا ثيابه ويدربوا خيوله ويبنو قصوره ، ومن نزقه ما تحدثنا عنه فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة بخصوص زواج ابنته أسماء (قطر الندى) من الخليفة المعتضد العباسى ، وما بذله خمارويه من سرف فى هذا الزواج حتى صار هذا الزواج سببا من أسباب التدهور الاقتصادى للبلاد (١) .

وكانت أخلاقه الشخصية منحلة الى أبعد حدود الانحلال ، ويقال إن نهايته كانت نتيجة لهذا الانحلال الفاحش ، فقتله خدمه وهو منغمس فى ممارسة هذا الباطل (٢) .

وبعد خمارويه تولى ابنه أبو العساكر جيش ، وهو صبى فى الرابعة عشرة من عمره ، وكان كأبيه فى نزقه والبحث عن مسراته وسرعان ما أبعد رجال السياسة والأدب وقرّب الجهلة والمصارعين ، وأوقع بمن شك فى ولائه التنكيل والدمار ، وأساء الى أبناء الأسرة الطولونية ، بل قتل بعض

---

(١) موسوعة التاريخ الاسلامى ج٣ ص ٤١١ — ٤١٣ .
(٢) ابن عساكر : تاريخ دمشق ج٥ ص ١٧٨ .

كبار هذه الأسرة ، وكل هذا أثار عليه الناس ، فهاجم الثائرون قصره وقتلوه ونهبوا القصر واعتدوا على ما سواه من الأملاك ، وكان ذلك بعد عام واحد من توليته الحكم .

واختار الثائرون أبا موسى هارون ، وكان أيضا فى الرابعة عشرة وجعلوا عليه وصيا ، ولم يكن هناك من سبيل لإصلاح الحال ، فقد انهارت الأسرة ، وكثرت الطوائف بين رجالها ، وعم الدس والفتك ، وآذنت الأمور بنهاية الدولة .

نشاط القرامطة بسوريا :

القرامطة من الشيعة المتطرفة ، لهم صلة نسب بالاسماعيلية والفاطميين الذين سيظهرون فيما بعد ، ويقال إنهم ينسبون إلى حمدان قرمط (١) ، ويرجح الباحثون أن لفظ قرمط لفظ سوريانى معناه « المعلم السرى » (٢) ، ولم يكن يتقبل أحد فى جماعتهم إلا بعد اختبارات طويلة ومراسم خاصة ، وقد بدأ نشاط القرامطة حوالى سنة ٢٢٧هـ بالقرب من الكوفة ، وبعد حوالى تسع سنوات أصبح للقرامطة دولة مستقلة على الضفة الغربية للخليج العربى،ومن هذين المركزين نشر القرامطة الخراب فى كل مكان ، ويبدو أن سوريا تناست اتجاهها السنى ورحبت بالاتجاهات المتطرفة بسبب ما عانته من اضطهاد العباسيين ، وبالاضافة الى هذا فقد وجد القرامطة الفرصة سانحة لهم ليسيطروا على سوريا بعد أن ضعف الأمراء الطولونيون ، وكانت فيالق القرامطة يقودها ابن ذكرويه ، وقد حاصر دمشق واحتل حمص وحماة ومعرة النعمان وبعلبك وسلمية حيث أصبحت الأخيرة مركزا للحشاشين من الاسماعيلية ، ودعى لابن ذكرويه على كثير من منابر سوريا ، وفى أثناء زحف القرامطة على سوريا قتل هارون بن خمارويه ،

---

(١) Bernard Lewis The Origins of Iama'ilism pp 122

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٩ بالهامش .

وازدادت الحال ســوءا ، ولكن الزحف العباسى قضى على القرامطـة وأنهى عهد الطولونيين (١) .

نهاية الطولونيين :

كانت الدولة الطولونية تنهار بسرعة بعد أحمد بن طولون كما ذكرنا . ويبدو أن صلة النسب بين المعتضد الخليفة العباسى وبنى طولون قد أطالت عمر هذه الدولة بعض الشىء ، ولذلك نجد أنه بعد وفاة المعتضد يسرع الخليفة المكتفى بارسال جيش للقضاء على الطولونيين وبخاصة ليوقف زحف القرامطة ، وكان هذا الجيش بقيادة محمد بن سليمان الكاتب ، تؤيده قوة بحرية سارت فى النيل حتى واجهت الفسطاط ، وفى أثناء هذا الزحف العباسى ، قتل أبو موسى هارون على يد رجاله وتولى شيبان بن أحمد بن طولون عرش مصر ، وقد حاول هذا أن يجمع حوله الجيوش لصد الزحف العباسى ، ولكن الذين استجابوا له كانوا قليلين ، وانضمت الكثرة الغالبة إلى محمد بن سليمان ، ولم يجد شيبان بداً من التسليم للزحف الجـارف .

وقد قبض محمد بن سليمان على أفراد الأسرة الطولونية وبعث بهم مكبلين إلى بغداد ، كما صادر أموالهم وأموال قادتهم والأغنياء بدولتهم ، ويبدو أن الخليفة المكتفى اتهم قائده (محمد بن سليمان) باختلاس بعض هذه الأموال ، فأمر به فقبض عليه وصودرت أمواله .

وبذلك انتهت الدولة الطولونية ســنة ٢٩٢هـ وعادت مصر ولايـة عباســية .

علاقة الطولونيين بالخلافة العباسية

كان الخليفة العباسى إبان عهد أحمد بن طولون هو المعتمد ، وكان ابنه « المفوض » ولىّ عهده ، وكان السلطان الحقيقى فى مطلع عهد المعتمد وقبله منذ عهد المتوكل فى يد المماليك ، وقد تسبب عن قبض هؤلاء على

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ٢ ص ١٨٩ .

السلطة أن اضطربت الأحوال فى الدولة الاسلامية وتفككت عراها ، ورأى المماليك أن السبيل الوحيد لاعادة الوحدة الاسلامية والقوة للدولة أن يترك السلطان الحقيقى لبنى العباس ، فاختار المعتمد أخاه الموفق ليكون المسيطر على الأمر والقائد العام للجيش ، وقد استبد الموفق بالسلطة ، فلم يكن للمماليك معه سلطان ، ولم يكن للخليفة معه سلطان كذلك ، حتى ليروى أن الخليفة قال شعرا يصف فيه أحواله وبؤسه فى حين استبد أخوه بالسلطان والثراء ، وفيما يلى هذه المقطوعة الشعرية :

أليس من العجائب أن مثلى ... يرى ما قلّ ممتنعاً عليه
وتؤخذ باسمه الدنيا جميعاً ... وما مـن ذاك شىء فى يديه

وبعد وفاة الموفق تولى ابنه المعتضد الذى كان أكثر أطماعا من أبيه ، فخلع المفوض بن المعتمد من ولاية العهد ، وأخذ ولاية العهد لنفسه ، فلما مات المعتمد انتقلت اليه الخلافة .

ويبدو أن [illegible] أن صلة أحمد بن طولون بالخليفة المعتمد كانت طيبة حتى ليقال إنه حاول أن يذهب إلى مصر ليعيش فى حمى ابن طولون ، وقد رحب ابن طولون بالفكرة وشجع أمير المؤمنين على ذلك ليتقوى به [illegible] الموفق الذى كان يسيطر على السلطة به كما سبق أن رأينا [illegible] ، وبدأ المعتمد [illegible] رحلته إلى مصر خفية ، ولكن الموفق علم بذلك ، فكتب إلى إسحاق بن كنداج عامل الموصل والجزيرة ، فلحق بالخليفة عند الرقة وأعاده إلى سامراء [illegible]

أما النفرة التى كانت بين الموفق وأحمد بن طولون ، فيرجع سببها الى أن الموفق أحس باتجاه ابن طولون الى الاستقلال ، ثم ان الموفق كان مشغولا بحرب الزنج واحتاج من أجل ذلك إلى أموال كثيرة فكتب الى ابن طولون بذلك ، بيد أن ابن طولون لم يرسل ما كان الموفق يطمع فيه ؛ وإنما أرسل أقل منه بكثير ، ولما بعث له الموفق يؤنبه ويحاسبه ردّ عليه ابن طولون ردا شديدا جاء فيه : « وإن العمل الذى أنا بسبيله ليس له ، والمكاتبة فى

أموره ليست إليه ، وتقليدى ليس من قبله ، ولا أنا من ولاته (١) » وكان ذلك تمردا من أحمد بن طولون على مكانة الموفق ، فآذن ذلك بحرب طويلة قادها إسحق ابن كنداج سالف الذكر ، ولم تسفر الحرب عن نتيجة ، وبخاصة لأن الموفق كان مشغولا بثورة صاحب الزنج (٢) .

ومن الواضح أن خطاب أحمد بن طولون للموفق ، و... له يعتبران أدلة واضحة على الاتجاهات الاستقلالية لمصر وسوريا .

ومات ابن طولون وورث خمارويه عداء أبيه مع الموفق ، وقد أراد الموفق أن يقضى على خمارويه وعلى سلطان الطولونيين ، وكتب له بعض النصر فى مطلع الأمر ، ولكن خمارويه أظهر شجاعة نادرة ، وهزم جيوش الموفق وجيوش أميرى الموصل والأنبار اللذين أيداه ، ثم عقد صلحا مع الموفق على أن يكون حكم مصر والشام والثغور لخمارويه وأولاده مدة ثلاثين عاما ، وحددت المبالغ التى تدفعها مصر سنويا لعاصمة الخلافة (٣) وأصبح سلطان الطولونيين ممتدا من برقة إلى الفرات بل إلى أبعد من ذلك (٤) .

وعندما آلت الخلافة الى المعتضد أراد خمارويه أن يدعم صلته به فعرض عليه أن يتزوج ابنه علىّ (الخليفة المكتفى فيما بعد) من ابنته قطر الندى ، ولكن الخليفة وافق على المصاهرة على أن تزف الفتاة إليه هو ، وقد سببت هذه الزيجة — التى تحدثنا عنها فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة — مزيدا من القرب بين القاهرة وبغداد .

ونسرع هنا بأن نذكر أنه كما حارب الطولونيون الموفق صاحب النفوذ فى الخلافة العباسية ، فقد حارب الإخشيديون محمداً بن رائق الذى كان له النفوذ فى بغداد آنذاك ، والموقفان من أكبر الأدلة على حرص مصر على الحركة الاستقلالية التى وضحناها من قبل .

---

(١) ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون ص ٢٠ — ٢٤ .

(٢) Lane-poole : History of Egypt in the Middle Ages p. 69

(٣) IBiD P. 73

(٤) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٨ .

حضارة الطولونيين

النظم : السكة والحسبة والشرطة ... :

كان الطولونيون كما سبق القول أول حكام مستقلين بمصر ، فليس عجيبا أن يهتموا بدعم سلطانهم ، وأن يضعوا الخطط لتنظيم سياسى واستقرار اقتصادى ، ومن أهم المظاهر السياسية التى ابتدعها أحمد بن طولون ليدعم سلطانه أن وضع اسمه فى الخطبة بعد اسم الخليفة ووضع اسمه على السكة ، واتخذ الحجاب والكتاب والموائد والمواكب ، ونظم ابن طولون الشرطة ليعتمد عليها فى حفظ النظام واستتباب الأمن ، كما نظم القضاء والحسبة ، وكان يولى القضاة بنفسه ، لأن ذلك مظهر مهم من مظاهر الاستقلال ، ومن أشهر القضاة بكار بن قتيبة الذى رفض الموافقة على لعن الموفق على المنابر عندما طلب ابن طولون منه ذلك ، مما جعل ابن طولون يزج بـه فى السـجن .

الجيش والاسطول :

ومن مظاهر الاستقلال تكوين الجيش ، وقد عنى ابن طولون بذلك عناية كبيرة ، فبلغ تعداد جنوده مائة ألف من السودان والترك والعرب والمصريين ، وقد زاد عدد الجيش فى عهد خمارويه زيادة كبيرة ، وكـان الجيش الطولونى مزوّدا بأحدث الأسلحة التى كانت معروفة فى هذا العصر .

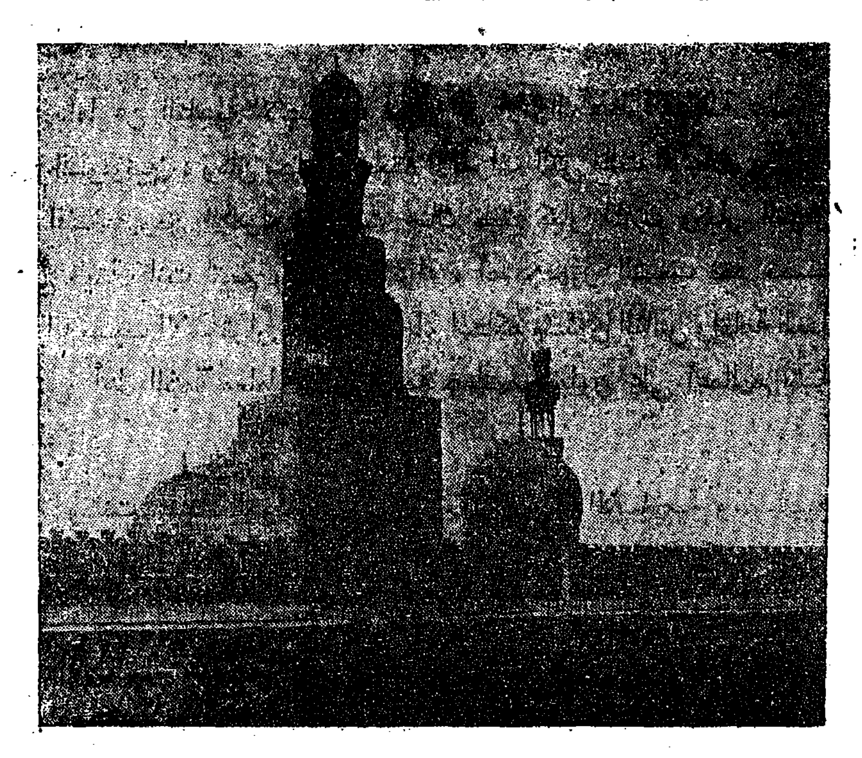
واقتضت السواحل الطويلة التى كانت تابعة للطولونيين أن يكون لهم أسطول عظيم ، وقد عنى أحمد بن طولون من أجل ذلك بدار الصناعة بجزيرة الروضة ، وبنى بها عددا كبيرا من السفن ، كما عنى خمارويه بالأسطول عناية كبيرة . وحصّن ابن طولون مدينة عكا ، وأنشأ بها قاعدة بحرية ، وكان البرجُ الذى يعلو سورَها المزدوج من القوة بحيث صمد بعد ذلك بثلاثة قرون فى وجه ملكين من ملوك الصليبيين مدة سنتين ، كما صمد سنة ١٧٩٩ أمام هجمة نابليون البرية (١) .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ١٨٧ .

عاصمة جديدة :

ومن مظاهر الاستقلال أن اقام أحمد بن طولون عاصمة خاصة به هى القطائع شمال الفسطاط ، وقد بناها على نظام مدينة سامراء عاصمة العباسيين آنذاك ، وبنى بها مستشفى عظيما ، ومسجدا فخما ، وكثيرا من المبانى الرائعة ، وقد بقيت القطائع مزدهرة حتى قدم الجيش العباسى بقيادة محمد بن سليمان فخربها وأحرق دورها .



مسجد أحمد بن طولون

النواحى الاقتصادية والاجتماعية :

أما الناحية الاقتصادية فكانت موضع عناية الطولونيين ليضمنوا للبلاد الرخاء والاستقلال ، ولهذا شجعوا الصناعة ، وكانت صناعة النسيج أهم الصناعات فى هذا العهد ، كما أسسوا مصانع للأسلحة ، وتقدمت فى عهدهم صناعة ورق البردى ، وصناعة الصابون والسكر والخزف .

وفى مجال التجارة ظلت مصر وسوريا تزاولان نشاطهما التجارى مستغلين موقعهما فى ذلك الشأن ، فأصبحتا حلقة اتصال بين تجارة الشرق

والمغرب ، وكانتا تتقاضيان ضرائب جمركية على البضائع التى تمر بهما ، وكانت هذه الضرائب تصل أحيانا الى مبالغ كبيرة .

واهتم الطولونيون بالزراعة وقد استلزم ذلك أن يعنوا بتطهير نهر النيل واقامة الجسور وشق الترع ، وشجع أحمد بن طولون الفلاحين على امتلاك الأرض ، وقلل من الضرائب وكل ذلك أدى إلى تنشيط الزراعة وبلوغها مبلغا عظيما .

أما عن الناحية الاجتماعية فيبدو أن الأتراك حظوا بمكانة عظيمة فى عهد الطولونيين ، وكان بجانبهم طبقة الأشراف التى نالت الإجلال والتعظيم من الشعب ومن الأمراء ، وكانت هناك طبقة كبار الملاك وكبار التجار ، وهى طبقة كانت تنعم بالغنى والثراء ، أما جمهور الشعب فقد تحسنت أحواله بسبب الاستقرار وبسبب اهتمام الحاكم بشئون الناس وإقامة العدل ، ولقى أهل الذمة معاملة طيبة كريمة جعلتهم يقبلون على أعمالهم بشغف واطمئنان .

وكانت عناية الدولة كبيرة بإحياء الأعياد الاسلامية والمسيحية والوطنية كعيد الفطر وعيد الأضحى ، وعيد الميلاد وعيد الغطاس ، ووفاء النيل ، وكان من أهم المظاهر فى هذه الأعياد ، ألعاب الفروسية التى اهتم بها الطولونيون اهتماما كبيرا ، كما اهتم الطولونيون بالعمارة وبالآداب والعلوم ، ولا يزال الجامع الطولونى شاهد صدق على اهتمامهم بالعمران والأمور الهندسية ، وجدير بالذكر أن مئذنة هذا المسجد هى أقدم المآذن التى لا تزال قائمة فى مصر ، وهذا المسجد هو المسجد الوحيد بمصر الذى غلب عليه الطراز العراقى ، أما المساجد الأخرى فقد غلب عليها الطراز الذى تأثر إلى حد ما بالفن اليونانى المعمارى (١) ، وكان هذا الجامع مدرسة تعقد بها حلقات العلم ويجلس فيه كبار الفقهاء والمعلمون للتدريس والافتاء ، كما كان البلاط الطولونى مركزا يجتذب اليه الشعراء والأدباء ويشع بالعلوم والمعارف .

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ٢ ص ١٨٧ .

بين عهدى الطولونيين والإخشيديين

عادت مصر وسوريا ولايتين تابعتين إلى العباسيين بعد سقوط الدولة الطولونية ، وظلتا كذلك احدى وثلاثين سنة حتى قامت دولة الإخشيديين فاستقلت بهما من جديد ، وقد انفصلت مصر عن سوريا فى أغلب سنى عهد الولاية ، ووقعت معظم بقاع سوريا خلال أطول فترة منها فى يد مغتصب مغامر هو ابن رائق ، وقد توالى الحكم فى مصر عدة ولاة جمع بعضهم بين ولاية مصر وسوريا كلها أو أجزاء منها ، وأول وال فى هذه الحقبة هو محمد بن سليمان الكاتب الذى قضى على الطولونيين ولكن سرعان ما استدعاه الخليفة المكتفى وقبض عليه وعين بدله عيسى بن محمد النوشرى ، وظلت ولايته حوالى خمس سنوات ، ومن الولاة كذلك تكين التركى ، وقد حكم مصر أربع مرات ، ومنهم أيضا زكا الرومى وهلال بن بدر وأحمد بن كيغلغ ومحمد بن طغج .

عودة الاتجاه الاستقلالى :

وفى عهد عيسى النوشرى قامت محاولة لاستعادة السلطة للطولونيين ، وقد تزعم هذه المحاولة محمد بن على الخالنجى ، وكان أحد قواد الطولونيين ثم انضم الى محمد بن سليمان الكاتب وخرج معه من مصر الى حلب ولكنه هناك فارقه وعاد إلى مصر وقاد جماعة من المصريين ودعا لإبراهيم بن خمارويه ، ودعا لنفسه نائبا عنه فى ظل الخلافة العباسية ، وقد لقيت دعوته كثيراً من النجاح واستطاع أن يستولى على العاصمة ، وفر من وجهه عيسى النوشرى ، ولكن الخليفة العباسى أرسل له من العراق جيشا إثر جيش حتى استطاع أن يقضى على حركته ويقبض عليه ، وبلغت المدة التى سيطر فيها الخالنجى حوالى ثمانية أشهر (١) .

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٣ ص ١٥٢ .

حملات الفاطميين على مصر :

وكانت الخلافة الفاطمية قد أعلنت بتونس سنة ٢٩٧هـ أى بعد سنوات قليلة من سقوط الطولونيين ، وتطلع الفاطميون إلى مصر ، وسرعان ما أرسلوا جيوشهم لاحتلالها ، وفى الفترة بين سقوط الطولونيين وقيام الإخشيديين بلغت الحملات الفاطمية على مصر ثلاثة (٣٠١ ، ٣٠٧ ، ٣٢١) وقد فصلنا القول عن هذه الحملات من الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) ، وقد تسبب عن هذه الحملات وعن حياة الضعف التى كانت تمر بها الخلافة العباسية ببغداد ، أن اضطرب الأمن بمصر وسوريا ، وعجز الولاة عن السيطرة على الأمور ، وبخاصة أن الخلافة العباسية حرصت ألا تدع الخراج فى يد الوالى مخافة أن تتكرر حركة الاستقلال الطولونية ، وقد سبب ذلك مزيدا من الضعف للولاة .

ولم يبق من شيء يذكر عن هذه الفترة إلا إشارة للأسرة الماذرائية التى تولت أعمال الخراج ، وكان لها دفع مرتبات الجنود فنافست بذلك الولاة فى أكثر سنوات هذه الحقبة ، ومن أشهر أفراد هذه الأسرة الحسين بن أحمد الماذرائى (٢) .

آثار مصر فى العهد الطولونى :

من أهم أعمال أحمد بن طولون أنه بنى مدينة القطائع التى ذكرناها عندما تكلمنا عن عواصم مصر الاسلامية ، ولم تكن القطائع على نسق المدن الاسلامية ، أى لم تكن دوائر يقع المسجد وبيت الإمارة فى مركزها ، وانما كانت مقسمة الى « قطائع » أى حارات تبعا للسكان .

وكان بالقطائع قصر عظيم لابن طولون ، ولكن ضاعت معالمه ، فقد هدمت الخلافة العباسية آثار الطولونيين ، إذ اعتبرتهم متمردين ،

---

(١) انظر ص ٢٩٣ — ٢٩٥ من الطبعة الثامنة .

(٢) Lane poole : Hiotory of Egypt in the Middle Agos p. 77

فأرادت الخلافة أن تضربهم حتى لا يسير الآخرون سيرتهم ، ولم يبق من آثار الطولونيين الا المسجد الذى لم تستطع أيدى الغضب أن تمتد اليه .

والمسجد الطولونى طراز عراقى لتأثر أحمد بن طولون بحياته فى سُرَّ مَنْ رأى ، وتعتبر مئذنته أقدم مئذنة بالقاهرة .

وإنها لخسارة عظيمة فى نطاق الآثار أن تضيع معالم ما شيده الطولونيون ، فان الوصف الذى وصل الينا عن القصر الشاهق الذى بناه أحمد بن طولون ووسّعه ابنه خمارويه يدل دلالة عظيمة على مدى التقدم التى وصلت له مصر آنذاك ، وعلى رقى العمارة وفخامة الزخرفة وابداع الحدائق .

الدولة الإخشيدية

(٣٢٣ - ٣٥٨ هـ = ٩٤٥ - ٩٦٩ م)

تعريف بالدولة الإخشيدية

لقب الإخشيد لقب كان يحمله ملوك فراعنة فى بلاد ما وراء النهر (١) ، وقد استطاع محمد بن طغج بن جف أن يحصل على هذا اللقب من الخليفة الراضى تقديرا لخدماته وتكريما له ، إذ كان ينحدر من الأسرة المالكة بهذه البقاع ، فعرفت الدولة التى أقامها بمصر وسوريا بالدولة بالإخشيدية .

وقد اتصل « جف » جد الإخشيد بخلفاء العباسيين : المعتصم فالواثق فالمتوكل ، أما طغج أبو الإخشيد فقد اتصل بخدمة الطولونيين فى عهد خمارويه ، ولمع فى بلاطهم ، وحقق انتصارات عظيمة ضد الروم ، فكافأه خمارويه بأن جعله واليا لدمشق وقد استطاع أن يرد القرامطة عنها ، ولكن طغج أظهر الخيلاء والكبر فساءت علاقته بخمارويه مما أدى إلى دفعه الى السجن بدمشق ومعه محمد ابنه ، ومات طغج فى السجن ، وأطلق سراح محمد فبدأ يعمل من جديد لخلافة بغداد ليستعيد مكانته ، وقد رضى عنه الخليفة المقتدر فولاه دمشق بعد سقوط الطولونيين ، ثم أضاف له الخليفة القاهر ولاية مصر بشكل مؤقت ، ولكن سوء الأحوال فى دمشق لم يسمح له بمغادرتها فأناب عنه من يحكم مصر باسمه ، وفى هذه الأثناء كانت الأحوال فى مصر تسير من سيىء إلى أسوأ ، وكان الفاطميون يندفعون نحوها ، فلم يجد الخليفة الراضى الذى جاء بعد القاهر بدأ من اللجوء إلى محمد بن طغج ليلى أمورها ولاية أصيلة حتى يوقف أطماع الفاطميين ويعيد لمصر حياة الاستقرار ، فجاء محمد سنة ٣٢٣ وبدأ يؤسس دولته ، ثم ضمت الحجاز لدولة الإخشيديين ، وظلت الحجاز مرتبطة بمصر عدة قرون بعد

---

(١) من الألقاب التى اقتبسها الخلفاء العباسيون ومنحوها لبعض أتباعهم للتكريم على نمط الاخشيد لقب خاقان وهو لقب ملوك الترك ، والأفشين وهو لقب ملوك اشروسنة ، وتلك تشبه لقب القيصر لملك الروم وكسرى لملك الفرس والنجاشى لملك الحبشة وفرعون لملك مصر .

ذلك ، وفى سنة ٣٣٣ حصل الإخشيد على حقوق وراثية لأسرته فى البلاد التى كانت تحت يده ، ودخل بذلك فى عداد الدول المستقلة •

وفيما يلى تخطيط بأمراء الإخشيديين :

١ — محمد بن طغج ٣٢٣ — ٣٣٥هـ

٢ — أبو القاسم انوجور ٣٣٥—٣٤٩هـ ٣ — أبو الحسن على ٣٤٩—٣٥٤هـ

بوصاية كافور للاثنين

٤ — كافور ذاتيا ٣٥٤—٣٥٦هـ ٥ — أبو الفوارس احمد بن على ٣٥٦—٣٥٨هـ

وكان كافور العبد الحبشى ومعلّم ولدى الإخشيد وصيا على كل منهما ، مستبداً بالأمر دونهما ، فلما مات أبو الحسن على عيّن كافور واليا على مصر والشام ، وانتسب لسادته فأصبح يعرف بكافور الإخشيدى ، ولما مات بعد سنتين تولى أبو الفوارس أحمد بن على ، ولكن الأحداث كانت أكبر منه ، فأخلى الطريق بعد عام أو نحو العام إلى جحافل الفاطميين •

تعريف بحكام الإخشيديين

محمد بن طغج الإخشيدى :

جاء الإخشيد الى مصر سنة ٣٢٣هـ واليا عليها وعلى الشام ، وكانت قد اضطربت أحوال هذه الولاية من الداخل وهددها الغزاة من الخارج ، وكان عليه أن يبذل جهداً كبيرا ليعيد الاستقرار والسلام لهذه الولايــة الكبيرة ، ومن المشكلات التى صادفها فى الداخل مقاومة عامل الخراج محمد ابن على الماذرائى الذى ينحدر من أسرة الماذرائى التى تحدثنا عنها من قبل ، والتى كان لها نفوذ وأطماع ، وهو من هذه الوجهة قريب الشبه بابن طولون عندما قابل نفوذ ابن المدبر ، ومن المشكلات كذلك مقاومة أنصار الوالى السابق أحمد بن كيغلغ ، وقد استطاع أن يقضى على المقاومة قضاء تاما ويقضى على عناصر الشغب بالداخل •

وتطلع الإخشيد بعد ذلك الى ردّ العدوان الخارجى ، فاستطاع أن يردّ الفاطميين عن مصر وأن يوقف زحفهم عليها (١) ، وانشغلت الخلافة الفاطمية عن مصر بثورة ابن كيداد ، وقد حاول الفاطميون أن يجذبوا لهم الإخشيد وأن يحثوه على نشر دعوتهم بولايته ، لكن الاخشيد حرص على أن تبقى علاقته طيبة مع العباسيين وأن يظل فى نطاق المذهب السنى .

علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية :

أما علاقة الإخشيد بالخلافة العباسية فكانت قريبة الشبه بعلاقة أحمد بن طولون بها ، فكما كان الموفق متغلبا على الخليفة العباسى وعدواً لابن طولون فاننا نجد هنا شخصا آخر يشغل نفس المكانة ، وذلك الشخص هو محمد بن رائق أمير الأمراء الذى كانت له الغلبة على الخليفة « المتقى » آنذاك والذى حاول أن يستولى على الشام بل أن يمد سلطانه الى مصر ، أما الخليفة فقد وقف موقفا سلبيا ، ويبدو أن هواه كان مع الاخشيد ، حتى أن الإخشيد أغراه بالقدوم إلى مصر والإقامة بها ، ولكن الخليفة لم يستطع ذلك ، ودارت معارك بين ابن رائق والاخشيد لم يكن النصر فيها حاسما لأى من الطرفين ، وعقد صلح بينهما بأن يكون شمالى الشام لابن رائق وجنوبيه مع مصر تابعا للاخشيد ، ثم أن الاخشيد استرد شمالى الشام عقب وفاه ابن رائق (٢) .

وهذا الموقف أيضا هو امتداد للحركة الاستقلالية التى تكلمنا عنها من قبل على أن الاخشيد لم ينعم بذلك النصر الذى حققه ، فقد هاجمه الحمدانيون الذين أصبح لهم النفوذ فى بغداد ، وتكونت لهم دولة فى الموصل سنة ٣١٧ ثم استولت على حلب سنة ٣٣٣ ، وسرعان ما أرسل الاخشيد جيشا كبيرا بقيادة غلامية فاتك وكافور ، ثم سار بنفسه الى ميدان المعركة سنة ٣٣٣هـ ، واستطاع أن يحقق نصرا كبيرا وأن يوقع بجيش سيف الدولة ،

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ٤ ص ٣٩ .

(٢) الكندى : تاريخ مصر وولاتها ص ٢٨٨ — ٢٩١ وابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ٨ ص ٢٩٢ .

ويقول الدكتور فيليب حتي (١) إن سيف الدولة قام بمحاولات عديدة للاستيلاء على سائر سوريا ، ولكن حاكم مصر الداهية أفسد خططه ، وهزم جيوشه فى اشتباكين كبيرين ولم يبق له غير منطقة حلب ، وأجبره على الخضوع فيها لسيادة مصر .

وينبغى ألاّ ننسى شبها بين الأحداث هنا والأحداث التى مرّ ذكرها عن علاقة الطولونيين ببغداد ، ذلك الشبه هو أن مصاهرة تمت بين الاخشيديين من جانب وبين ابن رائق من جانب آخر ، ثم بين الاخشيديين من جانب وبين الحمدانيين من جانب آخر ، وهذا يدل على أن المصاهرة كانت تلعب دورا كبيرا فى عالم السياسة .

وكما قلنا من قبل كان الخليفة المتقى على صلة طيبة بالاخشيد ، وقد خطر له أن يتقبل دعوة الاخشيد للانتقال إلى مصر والتخلص من سلطة الأتراك ولكن ظروفا متعددة حالت دون ذلك ، ومع هذا فقد حرص الخليفة أن يقوّى جانب الاخشيد ماديا وادبيا ليلجأ له عند الحاجة ، فمدّ سلطانه بأن ولاه مكة والمدينة بالاضافة إلى مصر والشام ، كما جعل هذه الولاية له ولأولاده مدة ثلاثين عاما ، ومضت بعد ذلك قرون عديدة ومقدرات الحجاز رهن بمقدرات مصر (٢) .

وينبغى أن نختم كلامنا عن الاخشيد بعبارة نقتبسها من أبى المحاسن ابن تغرى بردى قال : وكان الاخشيد ملكا شجاعا مقداما حازما متيقظا ، حسن التدبير ، عارفا بالحروب ، مكرما للجند ، شديد البطش ، ذا قوة مفرطة لا يكاد أحد يجرّ قوسه ، وله هيبة عظيمة فى قلوب الرعية ، وكان متجملا فى مركبه وملبسه ، وكان موكبه يضاهى موكب الخلافة ، وبلغ عدد مماليكه ثمانية آلاف مملوك ، وكان قوى التحرز على نفسه ، وكان

---

(١) تاريخ سوريا ومصر وفلسطين ج٢ ص ١٩١ .
(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٩١ .

مماليكه يحرسونه بالنوبة عندما ينام ، ويوكل الخدم بجوانب خيمته ، ثم لا يثق بأحد حتى يمضى الى خيمة الفراشين فينام فيها (١) .

وتوفى الاخشيد بدمشق سنة ٣٣٥هـ ودُفِن ببيت المقدس .

بعد الإخشيد :

يمكن القول إن دولة الاخشيدين بمصر كانت تتكون من شخصين اثنين ، أحدهما منشىء هذه الدولة محمد بن طغج الذى تحدثنا عنه آنفا ، والثانى خَلَفه كافور ، وبجانب كافور كان هناك اثنان من الدمَى لا يُحسب لهما حساب فى تاريخ الدول ، هما أبو القاسم أنوجور وأبو الحسن على ابنا الاخشيد ، وكان الاخشيد قد أخذ البيعة قبل وفاته للأول على القواد والجند والأعيان ، فلما مات الاخشيد صارت الولاية إلى أنوجور ، وكان فى الرابعة عشرة من عمره وتولى كافور الوصاية عليه ، واستمرت مدة ولايته أربع عشرة سنة ، أى أنه فى خلالها تجاوز عهد الصبا الى الشباب والرجولة ، ولكنه مع ذلك لم ينل من السلطان طائلا ، وظل كافور ممسكا بزمام الأمور بيد من حديد ، وأطلق للشاب المال لينعم به وبما يحققه من متع رخيصة ، ويقال إن أنوجور فكر مرة فى السيطرة الحقيقية على الأمور ، وبدرت منه بوادر ثورة على كافور ، واستعد للخروج الى الشام ليطلب من حاميتها أن تساعده ضد كافور ، ولكن أمه خافت عليه ، فأخبرت كافورا بذلك وسعت للصلح بين الاثنين : ومات أنوجور عقب ذلك مما دعا الى الظن بأن كافورا دس له سمًا فى الطعام .

وبعد أنوجور تولى أخوه أبو الحسن على ، ومع أنه كان فى الحادية والعشرين من العمر ، إلا أن كافورا نصب نفسه وصيا عليه واستبد بالأمر دونه ، ولما تحركت نفسه لإبعاد هذا الوصى المتسلط ، اشتد كافور عليه وحال بينه وبين الناس ، فأصبح سجينا فى قصره ، ثم قيل إنه مات

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ٣ ص ٢٣٠ .

وأنطلق الظن أيضا بأن كافوراً قضى عليه كما انطلق عقب وفاة أنوجور ، وكانت مدة ولايته خمس سنتين وشهرين .

وظل كافور بعد موت أبى الحسن يدير الولاية مدة سنتين كما كان يديرها من قبل بمعاونة الوزير جعفر بن الفضل بن الفرات ، وبعد فترة أظهر كافور كتاب بيعة من الخليفة العباسى له ، فأصبح حاكما مباشرا على مصر وسوريا وبلاد الحجاز ، وهكذا أصبحت مقاليد الأمور فى هذه المنطقة الحساسة فى يد عبدٍ أسود اشتراه الاخشيد بثمانية عشر دينارا ، ويصفه ابن خلكان بأنه كان شديد السواد ، بصَّاصاً ، مثقوب الشفة العليا ، بطينا قبيح المنظر ، مشقوق القدمين ، ثقيل البدن (١) ، ولكنه الاسلام الذى فرض المساواة بين أتباعه : فرفع بذلك الى أوج الشهرة أناسا من أوضع الأصول (٢) .

وكان عهد كافور قاتما مثله ، فقد كثرت فيه الزلازل ، وشبت النيران ، وتعرضت بلاد الشام لغزوات القرامطة مرة أخرى ، وتعرضت مصر لغارات ملك النوبة ، وانخفض ماء النيل ، واشتد الغلاء (٣) .

وإذا كنا قد اقتبسنا من ابن خلكان الأوصاف الخَلْقية المزرية لكافور ، فمن الحق أن نقتبس من ابن تغرى بردى حديثا عن مواهب كافور وأوصافه الخُلُقية ، قال : أبو المحاسن : كان كافور يدنى الشعراء ويجيزهم ، وكانت تقرأ عنده فى كل ليلة السير وأخبار الدولة الأموية والعباسية ، وكان عظيم الحرمة ، له من الغلمان الروم والسود ما يتجاوز الوصف ، زاد ملكه على ملك مولاه الاخشيد ، وكان كثير الخِلَع والهبات ، خبيرا بالسياسة ، فطنا ذكيا ، جيد العقل ، داهية ، كان يهادى المعز صاحب

---

(١) وفيات الأعيان : جـ١ ص ٤٣١ .
(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ٢ ص ١٩٢ .
(٣) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٢٣١ .

المغرب ويظهر ميله اليه ، ويذعن بالطاعة لبنى العباس ، ويدارى ويخادع هؤلاء وهؤلاء ، ويتم له الأمر [١] .

بعد كـافور :

توفى كافور بعد سنتين من ولايته فأسندت الأمور الى أبى الفوارس أحمد بن على بن الاخشيد ، وكان صبيا فى الحادية عشرة ، فتولى الحسن ابن عبيد الله بن طغج الوصاية عليه ، واستبد هذا بالأمر وقبض على جعفر ابن الفرات ، ولكنه ضعف عن تسيير الأمور وبخاصة وسط المجاعة القاسية التى أصابت البلاد ، فثار عليه الناس ، ففر من مصر الى الشام ، وكـان هذا التدهور فى مصر ، وما صحبه من تدهور فى الخلافة العباسية من الأسباب التى يسرت على الفاطميين الزحف إلى مصر ، ذلك الزحف الذى شرحناه فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة .

حضارة الإخشيديين

يمكن القول إجمالاً إن اتجاهات الحضارة فى العهد الاخشيدى ليست بعيدة عن اتجاهاتها فى العهد الطولونى ، لقرب الصلة الزمنية بين العهدين ولكثرة وجوه التشابه ، ولكن يلاحظ أن الصلة بين الاخشيديين والخلافة العباسية كانت أقوى من الصلة بين الطولونيين وهذه الخلافة ، ولعل من مظاهر ذلك أن الاخشيد لم ينشىء عاصمة خاصة ينافس بها عاصمة الخلافة ، وإنما اكتفى بزيادة العمران بالفسطاط ومد ضواحيها ، ومن منشآته بها القصر الجميل الذى بناه فى الروضة وسماه المختار ، والبستان الذى أطلق عليه فيما بعد البستان الكافورى ، وبجوار هذا البستان أنشأ الاخشيد ميدانا فسيحا سُمِّى ميدان الاخشيد ، **ومن المظاهر الاستقلالية التى برزت فى العهد الإخشيدى ضرب السكة وعليها أسماء الاخشيديين بجانب اسم الخليفة ، وظهور منصب الوزارة فى مصر لأول مرة منذ الفتح الاسلامى ،** وقد تولاها أبو الفتح الفضل بن جعفر بن الفرات ، ولما مات سنة ٣٢٧ عيّن

---

(١) النجوم الزاهرة جـ٤ ص ٦ .

ابنه جعفر مكانه ، وظل يشغل هذا المنصب حتى نهاية الدولة الاخشيدية ، ويُعرف عنه أنه صادر بعض أموال البارزين ، ومنهم يعقوب بن كِلّس مما حدا بيعقوب الى الهرب الى الشمال الافريقى وحثّ الفاطميين على الزحف إلى مصر .

منصب الحاجب :

ومن المناصب التى ظهرت فى البلاط الاخشيدى منصب الحاجب أيضا ، ومن أهم الذين شغلوا هذا المنصب فاتك الرومى .

القضاء فى العهد الإخشيدى :

وقد عنى الاخشيديون بالقضاء ، واختاروا لهذا المنصب أعظم العلماء ، ومن أشهر قضاة الأخشيد محمد بن بدر الصيرفى ، والحسين بن أبى زرعة الدمشقى ، ومن أشهر قضاة كافور عمرو بن الحسن الهاشمى ، وأبو الطاهر الزهلى ، الذى ظل على قضاء مصر حتى دخلها الفاطميون ، وكان الاخشيد يجلس للنظر فى المظالم كل يوم أربعاء ، وحذا حذوه كافور فى ذلك .

جيش الإخشيديين :

وكان جيش الأخشيديين كبيرا بلغ أربعمائة ألف جندى فيما عدا حرس الإخشيد الخاص ، وكان الاستقرار والقوة طابع هذا الجيش .

الناحيــة الماليــة :

وقد نعمت البلاد بالرخاء والثراء خلال أكثر عهد الاخشيديين ، ولكن يؤخذ على الإخشيد أنه كثيرا ما كان يلجأ لمصادرة الأموال ، وربما يُعْتَذَر عنه بأنه كان ينفق هذه الأموال فى الأعمال النافعة التى تحتاج لها الدولة ، كما أن أكثر من صادر أموالهم كانت تحوم الشبه حول ثرواتهم ، ومما أثر عنه حول المصادرة قوله : المصادرة مشئومة وأنا مضطر إليها ، وما أنفقتها قط إلا فى سفر إلى عدو» (١) ، وإذا كان الاخشيد قد صادر أموال

---

(١) ابن سعيد : كتاب المغرب ص ٣٦ .

بعض الأغنياء فإنه كان — مع ما عُرِف عنه من الحرص — يُعنى بالفقراء ويقدم لهم العون المالى من حين لآخر ، وقد سار كافور فى مضمار السخاء على الفقراء شوطا طويلا ، فيروى أنه كان فى عيد الأضحى يُخْرِج حمل بغل من الذهب وكشوفا بأسماء المحتاجين ، ويُنيب عنه من يمرّ على هؤلاء ويدق أبوابهم ، ويسلم كلاًّ منهم نصيبه من هذه المنحة قائلاً : الأستاذ أبو المسك كافور الاخشيدى يهنئك بالعيد، ويقول له اصرف هذا فى منفعتك (١) .

العلم فى البلاط الإخشيدى :

وكان للعلم والأدب دولة ذات بال فى البلاط الاخشيدى ، وقد نبغ من العلماء عدد كبير فى هذه الحقبة منهم أبو إسحق المروزى (٣٤٠هـ) وكان من أئمة الدين واسع المعرفة كثير التآليف ، ومنهم علىّ بن عبد الله المعافرى قاضى الاسكندرية (٣٣٩) ومن المحدّثين الحسن بن رشيق المصرى الذى ولد سنة ٢٨٣ وتوفى سنة ٣٧٠هـ . ومن النحاة أحمد بن الوليد التميمى المصرى ، ومن المؤرخين أبو عمرو الكندى ، ومن الشعراء كشاجم ، وكثيرون سواهم من أهل العلم والأدب .

كافور والمتنبى :

وقد عاش الشاعر النابه أبو الطيب المتنبى أربع سنوات فى بلاط كافور ، ومدحه بأخلد القصائد ، وكان أبو الطيب يطمع أن يسند له كافور ولاية أو عملا كبيرا ، وقد أغدق عليه كافور العطايا ، ولكنه لم يكل له ما كان يطمع فيه من أعمال ، ولما سئل كافور عن ذلك أجاب : إن من ادعى النبوة يستطيع أن يدعى الملك والسيادة ، فغضب عليه المتنبى وهجر مصر وهجا كافور بأقذع أنواع الهجاء .

---

(١) دكتور على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٤٥٧ .

من مدائحه لكافور :

ومن مدائح المتنبى لكافور فى فترة اقباله وآماله قصيدته الىائية ذات الشهرة الواسعة والمعانى الرائعة ، ومنها :

قواصد كافور توارك غيره ومن قصد البحر استقل السواقيا
فجاءت بنا إنسان عين زمانه وخلت بياضا خلفها ومآقيا
أبا كل طيب لا أبا المسك وحده وكل سحاب لا أخص الغواديا
إذا كسب الناس المعالى بالندى فإنك تعطى فى نداك المعاليا
وغير كثير أن يزورك راجل فيرجع ملكا للعراقين واليا

المتنبى يتعجل تحقيق أمله :

فلما طال انتظار المتنبى للولاية التى طمع فيها كتب لكافور يتعجله :

وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب
وما أنا بالباغى على الحب رشوة ضعيف هوى ، يرجى إليه ثواب
وما شئت إلا أن أدل عواذلى على أن رأيى فى هواك صواب
وأعلم قوماً خالفونى فشرقوا وغربت ، أنى قد ظفرت وخابوا
وما كنت لولا أنت إلا مهاجراً له كل يوم بلدة وصحاب

هرب وهجاء :

ثم يئس من أن ينال ما تمناه فغادر مصر وكان من هجائه لكافور قوله :

إنى نزلت بكذابين ، ضيفهم عن القرى وعن الترحال مردود
جود الرجال من الأيدى وجودهم من اللسان فلا كانوا ولا الجود
أكلما اغتال عبد السوء سيده أو خانه فله من مصر تمجيد
صار الخصى أمام الآبقين بها فالحر مستعبد والعبد معبود
لا تشتر العبد إلا والعصا معه إن العبيد لأنجاس منا كيد

من علم الأسود المخصى مكرمــة أقومه البيض أم آباؤه الصيد ؟
أم أذنه فى يــد النخاس داميــة أم قدره وهو بالفلســين مردود
وذاك أن الفحول البيض عــاجزة عن الجميل فكيف الخصية السود

آثــار الإخشيديين بمصر :

ليس للإخشيديين بمصر آثار باقية سوى مشهد آل طباطبا .

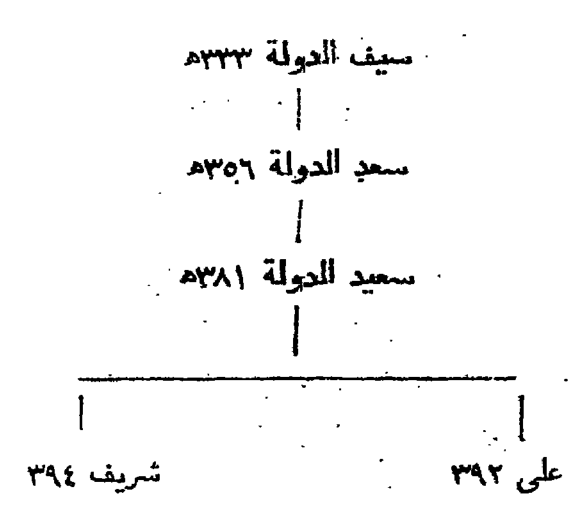
الحمدانيون فى شمالى سوريا

أشرنا عند الكلام عن محمد بن طغج إلى الحمدانيين ونشاطهم بين الموصل وحلب ، ونريد هنا أن نذكر مزيدا من التفصيل عن هذه الأسرة التى حكمت جزءاً من سوريا فترة من الزمن .

تنتسب هذه الأسرة الى حمدان بن حمدون من قبيلة تغلب التى كانت مسيحية الديانة ، ومنها الشاعر الأموى الأخطل : وقد استطاع حمدان إبان فترة اضمحلال الخلفاء العباسيين أن يستقل بقبيلته فى منطقة قريبة مــن الموصل حوالى سنة ٢٦٠هـ . وفى سنة ٢٩٢هـ عيّن أبو الهيجاء عبد الله ابن حمدان حاكما للموصل وما حولها ، وقــد أتاح هذا الوضع الفرصة للحمدانيين ليقوى جاههم وتبرز قوتهم ، وفى سنة ٣٠٧ عيّن ابراهيم ابن حمدان حاكما لديار ربيعة ، وخلفه أخوه داود سنة ٣٠٩هـ . وفى سنة ٣١٢هـ أصبح سعيد بن حمدان حاكما لمنطقة نهاوند كما عيّن آخرون من الأسرة فى منــاصب متعددة ، وخلف حســن أباه عبد الله عــلى ولاية الموصل ، ثم أضيفت له ديار بكر وديار ربيعة ، وفى سنة ٣٣٠هـ أنعم عليه الخليفة العباسى بلقب ناصر الدولة ، كما أنعم على أخيه على بلقب سيف الدولة ، وجعله حاكما لواسط ، ولكن هذا استطاع أن يأخذ حلب مــن الاخشيديين سنة ٣٣٣هـ كما ذكرنا من قبل ، وبهذا أصبح مواجها لقوى البيزنطيين ، ودار صراع طويل بين سيف الدولة وبين البيزنطيين كانت به

انتصارات وهزائم للحمدانيين (١) ، ولكن المتنبى شاعر سيف الدولة استطاع بشعره أن يجعل الهزيمة نصرا ، وأن يسجل مواقف للبطولة لممدوحه : وكان سيف الدولة شيعيا غير متطرف ولذلك استطاع بعـد سقوط الاخشيديين ودخول الفاطميين مصر والشام أن يكون على علاقة طيبة بالخلافة العباسية والخلافة الفاطمية ،وبعد سيف الدولة بدأت دولة الحمدانيين فى الانحلال ، ثم امتد ملك الفاطميين فشمل منطقة حلب معيدا بذلك وحدة مصر وجميع مناطق سـوريا •

وأمراء الحمـدانيين بحلب هم :



العلم والفكر فى بلاط سيف الدولة :

وقد ازدان بلاط سيف الدولة بنخبة ممتازة من رجال الأدب والفن تكاد لا تباريها إلا حلقات خلفاء بغـداد فى أيام عزهم ، فقـد ضمّت الفيلسوف الشهير والموسيقى البارع أبا نصر الفارابى ، ومؤرخ الأدب العربى اللامع أبا الفرج الأصفهانى ، والواعظ البليغ ابن نباته،والعالم اللغوى ابن خالويه ، والنحوى الشاعر ابن جنى ، والشاعر الفارسى أبا فراس ،

(١) Stanley Lane - Poole : Muhamadan Dynasties p. 111.

وفوق هؤلاء جميعا الشاعر الأشهر أبا الطيب المتنبى (١) ، وكان سيف الدولة بين هؤلاء — كما يقول الثعالبى — واسطة قلادتهم وعزة الزمان ودعامة الاسلام ، وكان به سِداد الثغور وسَداد الأمور (٢) .

ولنسر الآن الى عهد جديد حافل بالازدهار فى مطلعه ، وملىء بالصراع فى خاتمته ، ذلك هو العهد الفاطمى بمصر وسوريا .

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ١٩٧ .
(٢) يتيمة الدهر : جـ ١ ، ص ٨ — ٩ .

الدولة الفاطمية

(٣٥٨ - ٥٦٧ هـ = ٩٦٩ - ١١٧١ م)

نسب الفاطميين وقيام دولتهم

فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة (١) تحدثنا بإفاضة عن نسب الفاطميين ، وأثبتنا أنهم من نسل السيدة فاطمة الزهراء ، ورددنا الادعاء الذى يقول بغير ذلك .

وتحدثنا هناك أيضا عن قيام دولتهم بالشمال الافريقى ، وكان **الشمال الافريقى أو اليمن هو المكان المختار لقيام الدولة الفاطمية على أمل أن يكون بعدهم عن مركز الخلافة العباسية ضمانا للسلامة والنجاح فى اقامة الدولة الجديدة .**

وكان الشمال الافريقى أهم لدى الفاطميين من اليمن ، لأن وجودهم فى الشمال الافريقى سيفتح لهم المجال للتحرك الى مصر ليحققوا طموحهم الأكبر فى تكوين دولة اسلامية كبرى تتخذ مصر مركزا لها .

وفى الجزء الرابع كذلك حديث عن المحاولات الفاشلة التى قام بها الفاطميون لضم مصر إلى سلطانهم ، ثم عن المحاولة التى حقق بها جوهر الصقلى هذا الهدف،وتحدثنا كذلك عن انتقال المعز لدين الله اليها ليجعلها مركز سلطانه وقاعدة تتسع منها دولته لتصل الى أقصى الشرق كما وصلت فى افريقية الى أقصى الغرب ، وهناك فى ذلك الجزء واصلنا كلامنا عن افريقية بعد انتقال المعز لمصر ، وهنا سنتكلم عن سلطان الفاطميين بمصر بعد انتقالهم **إليها ، وعهدهم يُعَدّ قمة الاتجاهات الاستقلالية التى ظهرت مبكرة ثم برزت مع قيام الدولة الطولونية والاخشيدية ، وفى العهد الفاطمى اتجه الاهتمام للحضارة الاسلامية فأضافت الى الاتجاه الاستقلالى اتجاها حضاريا بقى زمامه فى مصر على مر التاريخ عقب ذلك .**

---

(١) ص : ٢٨٥ وما بعدها من الطبعة السادسة .

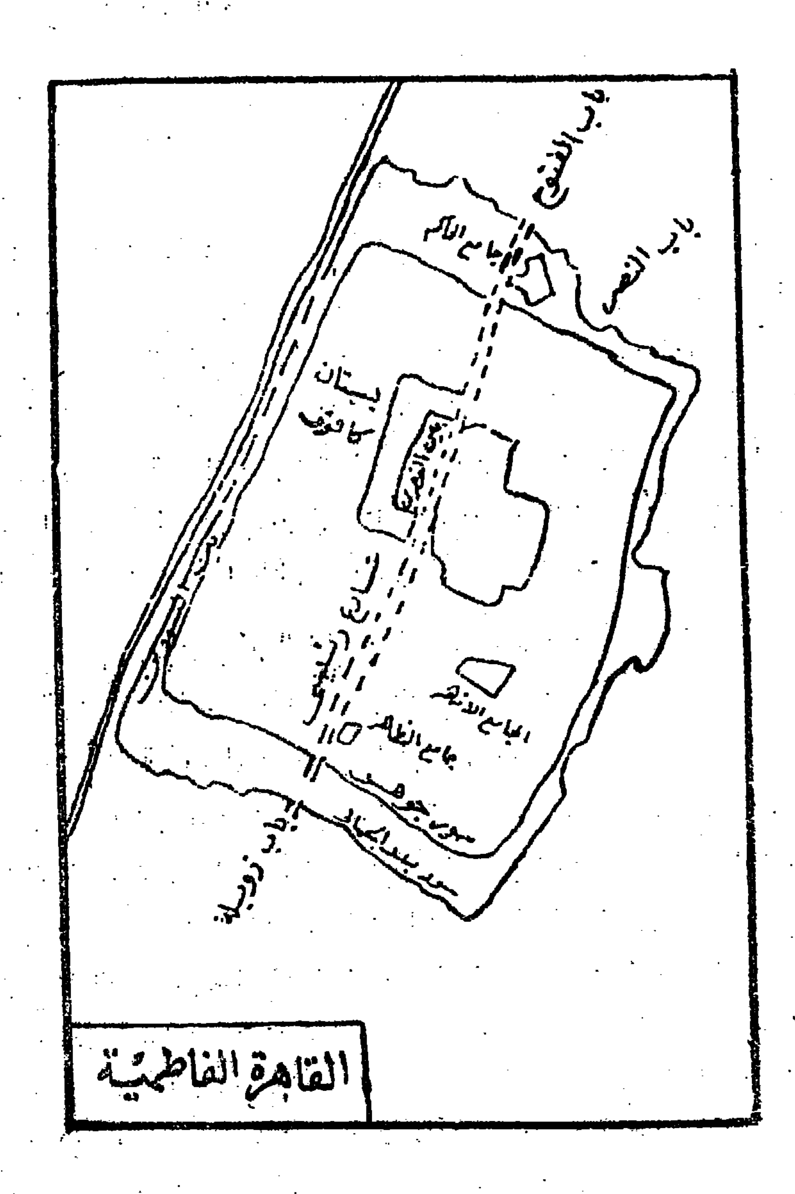
جوهر يمهد لاستقبال المعز :

حكم جوهر مصر باسم الخلافة الفاطمية منذ فتحها حتى قـدوم المعز ، وهى مدة أربع سنوات (٣٥٨ — ٣٦٢) وقد تغلب جوهر خلال هذه المدة على العقبات ، وقضى على المتاعب ، وأعـد العـدة لاستقبال الخليفة الفاطمى بما يليق به من جلال وعظمة ، فقـد خط جوهر فى أول امسية له بالعاصمة مدينة جديدة الى الشمال من القطائع سماها المنصورية وقسمها خططا ، ولما دخل المعز لدين الله البلاد خلع عليها اسم القاهرة المعزية ، أى مدينة المعز التى تقهر كل المدن (١) .

وفى نفس الأمسية وضع جوهر أساس قصر فخم لينزل به الخليفة عند قدومه (٢) ، وبنى جوهر الجامع الأزهر : (وأقيمت الصلاة فيه لأول مرة فى السابع من رمضان سنة ٣٦١) ، وجعل على رأس كل مصلحة من المصالح الحكومية اثنين من الموظفين أحدهما مصرى ليرعى شئون المصريين والثانى مغربى ليرعى مصالح المغاربة الذين استقدمهم جوهر معه .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص١٠٣ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيـان جـ١ ص ١٢٠ ، المقريزى : اتعـاظ الحنفا ص ٧٢ .


باب الفتوح
باب النصر
جامع الحاكم
بستان كافور
الجامع الأزهر
جامع الظافر
باب زويلة
القاهرة الفاطمية

جوهر والدعوة الشيعية :

ومن ناحية الدعوة الشيعية عمل جوهر بتؤدة على نشرها وتقويتها بمصر ، ففى أول الأمر نجد جوهرا ينشر وثيقة (١) يشترط فيها على نفسه العدل واسقاط الرسوم الجائرة ، وتَرْكَ الناس على مذهبهم الذى يريدونه ، فلما استقر له الأمر منع جوهر لبس السواد وهو شعار العباسيين وحاول نشر الخضرة وهى لبس آل البيت ، وأمر جوهر أن يزاد فى الأذان العبارة « حى على خير العمل » ، وأن يزاد فى خطبة الجمعة الصلوات والتسليم على الإمام علىّ المرتضى ، وفاطمة البتول ، والحسن والحسين سبطى الرسول ، والأئمة الراشدين آباء أمير المؤمنين ، وقَصَرَ جوهر المناصب المهمة على الشيعة منمصريين أو مغاربة ، فتدفق الطامعون على اعلان قبولهم لهذا المذهب ، بل أظهر بعضهم التعصب له (٢) .

وينبغى أن يتضح أن الفاطميين فى مصر أحسُّوا أنهم يعاملون شعباً له ثقافة وفكر ، فقلَّلوا من تعصبهم للتشيع ليضمنوا لأنفسهم الاستقرار والهدوء وبخاصة فى أول عهدهم بدخول مصر .

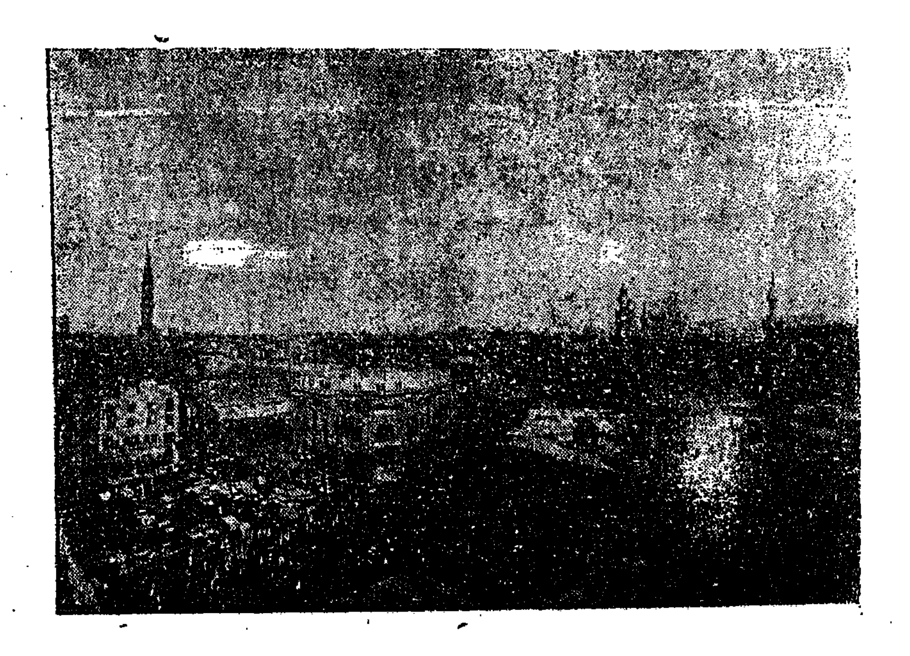
وفيما يتعلق بالاضطرابات الداخلية قضى جوهر على كل المناوئين للسلطة الجديدة ، فقاوم جماعة القرامطة التى كانت تتقاضى إتاوة من حكام دمشق ، ثم قُطِعَت الاتاوة بامتداد ملك الفاطميين الى الشام ، فأثار هذا التصرف زعماء القرامطة ، وقاموا بحملة عنيفة استولوا بها على دمشق وحاولوا مهاجمة مصر ، ولكن جوهرا تصدَّى لهم بجيش كبير ، فشتت شملهم واستعاد دمشق منهم ، وقد جدد القرامطة نشاطهم ضد الفاطميين بعد حضور المعز لمصر ، ولكن المعز استمال بعض قادتهم بالمال ، الذى كان أكثره مزيفا ، وانتصر بالسلاح على الباقين (٣) . وسنزيد هذا الموضوع شرحا فيما بعد .

---

(١) اقراها فى اتعاظ الحنفا للمقريزى ص ١٤٨ — ١٥٣ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ١٢٠ .

(٣) انظر تاريخ مصر الى الفتح العثمانى تأليف عمر الاسكندرى والميجر سفدج ص ١٩٤ .



الجـامع الأزهر ومنطقته

وسار جوهر شوطا واسعا فى الفتوحات والتوسع ، فضم بلاد النوبة ، واعترفت مكة والمدينة بسلطان الفاطميين ، واعترف له الأمير الحمدانى والى حلب بالسيادة .

ورأى جوهر بعد هذا أنه آن الأوان لحضور المعز الى مصر ، فكتب اليه بذلك فخرج المعز من المنصورية فى شوال سنة ٣٦١ ووصل القاهرة فى رمضان سنة ٣٦٢ وتسلم زمام الأمور من جوهر ، وخلع على هـذا القائد خلعة مذهبة وقلده سيفا ، وقدم اليه عشرين فرسا مسرجة ، وخمسين ألف دينار تقديرا لمـا حققه من نجاح وما قدمه للدولة من خدمـات ، ولكن السيفان لا يجتمعان فى جراب واحد كما يقولون ، فلم يكن هناك بد من أن يتوارى جوهر عن الأنظار ليكمل تألق الخليفة . وليتجه كل الاجلال اليه ، ولذلك صرف جوهر عن دواوين مصر وجباية أموالها والنظر

فى أحوالها (١) ، وبدأ نجمه يختفى ، ثـم توارى بعد قليل عـن مسرح السياسة المصرية (٢) . ولكن نفوذه العسكرى استمر بعد ذلك فقد قاد جيوش الفاطميين للقضاء على افتكين والحسن زعيم القرامطة بالشام سنة ٩٧٦ ووطد سلطان الفاطميين فيها ، ثم عاد الى مصر سنة ٩٧٩ حيث توفى بالقاهرة فى نفس العام .

المعز لدين الله فى مصر (٣٦٢ ــ ٣٦٥ = ٩٧٢ ــ ٩٧٥) :

حمل المعز معه الى مصر أهله وذويه وحمل كذلك جثث آبائه ، وهذا يدل على أنه كان ينوى أن يتخذ من مصر عاصمة له يحكم منها امبراطورية كبيرة كان يحلم بها ، فلم تكن مصر بالنسبة له أرضا ضمها لسلطانه ، وانما كانت مركزا يتبعها ما خضع له من بلدان .

وعهدُ المعز بمصر عهد قصير ، فقد توفى بعد ثلاث سنوات من وصوله ، ولكن هذه الفترة كانت حافلة بالاصلاحات وبوضع النظم الطيبة السمحة ، فقد أطلق سراح المسجونين من الاخشيديين وأتباع كافور ، ونشر العدل وحسْن الادارة ، وكبح جماح جنده ، ومنعهم من البقاء خارج ثكناتهم بعد الغروب ، وألغى نظام الالتزام وجعل الصلة مباشرة بين الدولة ودافعى الضرائب ، وكان شديد التسامح مع المسيحيين ، واستعمل كثيرين منهم فى المناصب المهمة ، وعمل كسوة للكعبة فى غاية الفخامة والعظمة ، وأمر بعمل خريطة للعالم من الحرير الأزرق وضّح عليها كافة أقطار العالم (٣) .

وفى ضوء هذه الاصلاحات أصبح عهد المعز عهدا نضرا ، نمت فيه ثروة البلاد نموا محسوسا ، واستقرت الأمور ، وعم الأمن ، وأصبحت القاهرة مركزا للعلم والضوء فى عالم تلك الأيام .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جا ص ١١٨ .
(٢) دكتور على ابراهيم حسن : جوهر الصقلى ص ١٠٨ ــ ١١٠ .
(٣) دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٥٣ .

المعز ووسائل الدعوة للتشيع :

وبذل المعز نشاطا ملحوظا لخدمة الدعوة الشيعية ونشرها ، واستعمل لذلك العلماء والشعراء ، فجلس العلماء يحاضرون الخاصة ، وراح الشعراء يتحدثون للخاصة والعامة عن المبادىء الشيعية ووجوب اتباعها ، فقد كان الشعر صحافة تلك الأيام ، كما اقترح الفاطميون مناسبات متعددة يحتفلون بها ، حيث تجرى فى هذه الاحتفالات رسوم ونظم تجدد الدعوة وتقربها الى القلوب ، فكانوا يحتفلون بستة موالد : مولد النبى ، ومولد على ، ومولد فاطمة ومولد الحسن ، ومولد الحسين ، ومولد الخليفة الحاضر ، وكانوا يحتفلون كذلك بعاشوراء وعيد الغدير وغيرها من المناسبات (١) .

وتوفى المعز لدين الله سنة ٣٦٥ فخلفه ابنه العزيز .

العزيز بالله (٣٦٥ — ٣٨٦ = ٩٧٥ — ٩٩٦ م) :

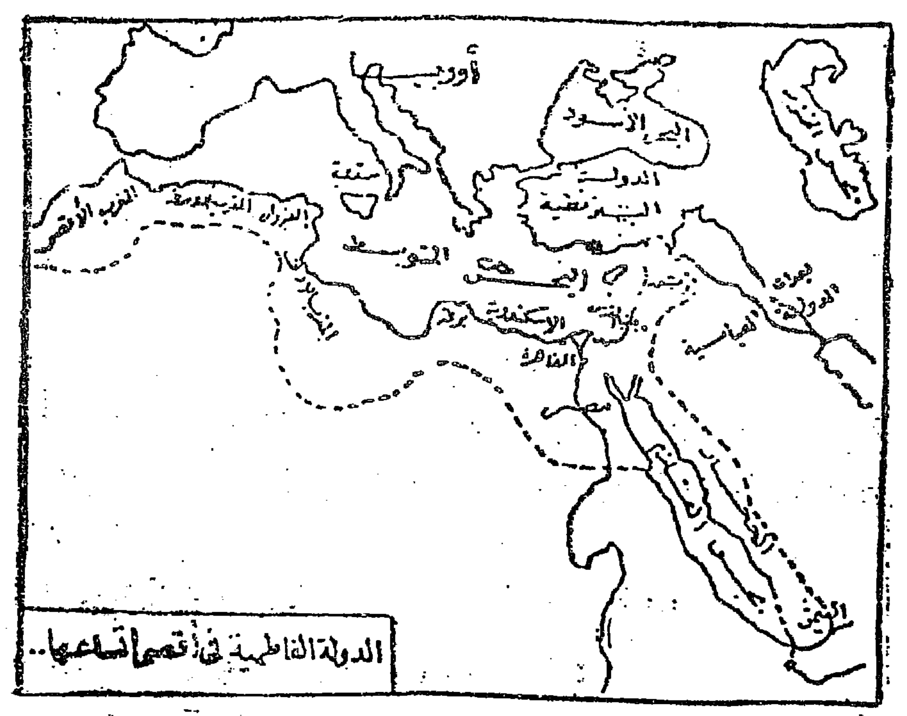
تولى العزيز بعد أبيه وكانت سنه عشرين سنة ، ومع أنه كان فى مطلع الشباب يميل للصيد ويولع به فقد كان شهما نبيلا جريئا ، ساس البلاد بحكمة وتسامح ، وقاد الجيوش ببطولة وشجاعة . ويعتبر عصر العزيز أزهى عصور الدولة الفاطمية بمصر .

وقد اتسع ملك الفاطميين فى عهده اتساعا عظيما ، فقد خطب له فى جميع الأقطار الواقعة ما بين المحيط الأطلسى والبحر الأحمر ، بالإضافة لليمن والحجاز ودمشق ، حتى الموصل أحيانا ، ولم تكن خلافة مصر فى عهده منافسة لخلافة بغداد فحسب ، بل إنها فاقت هذه الأخيرة وأخملت ذكرها ، واكتسبت لنفسها قوة بحرية بحيث أصبحت الدولة الاسلامية الكبرى الوحيدة فى شرقى البحر المتوسط (٢) .

---

(١) انظر ما كتبه المؤلف بافاضة عن المذهب الاسماعيلى فى مصر وجهود الفاطميين لنشره فى كتابه : تاريخ التربية الاسلامية ص ٣٧٨ — ٤٢٠ من الطبعة الثامنة .

(٢) Hitti : History of the Arabs pp. 734 - 735.



الدولة الفاطمية فى أقصى اتساعها

ولعل هذا التوسع هو الذى دفع بالخليفة ليرتكب الخطيئة التى ارتكبها من قبله خلفاء بنى العباس وعانوا من شرها كثيرا ، وتلك الخطيئة هى أنه بدأ يجلب الترك والزنج ويعتمد عليهم فى الأمور العسكرية بجانب البربر الذين قدموا مع جوهر ثم مع أبيه ، وعلى هذا وجد فى مصر أصناف من الرجال العسكريين أصبحوا فيما بعد سبب اضطراب الدولة وانحلالها عندما جاء خلفاء لم يستطيعوا أن يتحكموا عليهم النفوذ والسلطان .

اصلاحات العزيز :

وللعزيز اصلاحات اجتماعية وثقافية مهمة ، فهو الذى بدأ ببناء الجامع الذى أتمه من بعده ابنه الحاكم وعرف باسمه ، وانشأ بالقصر مكتبة عظيمة بلغ عدد ما بها من مجلدات مئات الآلاف ، ويقول أبو شامة (١) إنه كان بها مليونا كتاب فى مختلف العلوم والفنون ، كالفقه

---

(١) الروضتين جـ١ ص ١٠٠ .

واللغة العربية والحديث والتاريخ والسير والفلك والدين والكيمياء ، وهو الذى حول الجامع الأزهر الى جامعة تلقى بها الدروس والمحاضرات .



منارة مسجد الحاكم

وينسب للعزيز أنه تشدد فى نشر المذهب الشيعى ، وألزم المصريين أن يعتنقوه كما حتم على القضاة أن يصدروا أحكامهم وفق قوانينه .

وعرف عن العزيز تسامحه الواسع مع أهل الذمة ، ولعل ذلك راجع الى زواجه من سيدتين مسيحيتين ، أو الى أنه كان يخاف أهل السنة على دعوته الشيعية أكثر من خوفه عليها من أهل الكتاب ، وكان من بين وزرائه

يعقوب بن كلس وهو يهودى أسلم وأجاد مذهب آل البيت وكتب فيه ، وجلس يعلمه فى الأزهر ، وهو الذى نصح للعزيز بتحويل الجامع الأزهر الى جامعة دينية (١) ، ومن بين وزراء العزيز وزير مسيحى هو عيسى بن نسطورس وقد ظل على مسيحيته على الرغم من شغله هذا المنصب الكبير ، وكان متعصبا لبنى دينه مما أثار عليه جماعة المسلمين ، وتولى وزارة العزيز كذلك منشا اليهودى ، وكان طبيب العزيز بالله وطبيب ولده الحاكم من بعده نصرانيا يدعى أبو الفتح منصور بن معشر المصرى وكانت له مكانة سامية فى الدولة (٢) .

وقد أحس العزيز خطر هذه السياسة فتخلى عن أهل الذمة وغرمهم أموالا كثيرة ثم عاد فصفح عنهم بشفاعة ابنته ست الملك وتأثير زوجته النصرانية (٣) .

وتوفى العزيز فى رجب سنة ٣٨٦ ه فى مدينة بلبيس وهو فى الطريق الى الشام قاصدا غزو الروم .

الحاكم بأمر الله (٣٨٧ — ٤١١ = ٩٩٦ — ١٠٢٠) :

نحن الآن أمام شخصية غامضة هى شخصية الحاكم بأمر الله ، شخصية كثرت عنها الأبحاث كثرة بالغة اشترك فيها المستشرقون والشرقيون ، ولا يزال الباحثون حتى اليوم يكتبون عنه دراسات مقتضبة أو مستفيضة ، ومع هذا فلا يزال الحاكم بأمر الله غامضا حتى ليبدو أنه انطوى ومعه كثير من الأسرار والأخبار .

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان : جـ٢ ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

(٢) ابن العبرى : مختصر تاريخ الدول ص ٣١٦ . ويقول الدكتور عبد المنعم ماجد (نظم الفاطميين ورسومهم فى مصر ص ٤٨) انه فى عهد العزيز والحاكم لم يحمل لقب الوزير الا ابن كلس .

(٣) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٨١ .

ويوشك هؤلاء الباحثون أن يتفقوا على شذوذ فى الحاكم بل اضطراب فى عقله وانحراف فى تفكيره ، واعتقادى أن مصدر ذلك الاتفاق بين الباحثين أن الواحد منهم يأخذ قضية من الآخر فيسلم بها ويحاول أن يجد مزيدا من الأدلة لتأكيدها ، ومع أن طبيعة هذا الكتاب الاختصار والايجاز فاننى أريد أن أسلك فى بحثى عن الحاكم طريقا جديدا بالا" أدرسه تحت تأثر بكاتب أو باحث ، وبالا أجعل قضية من القضايا عنوانا لدراساتى ثم أحاول أن أدلل عليها بما يؤيدها ، اننى أريد أن أسلك طريقا آخر ، أريد أن اجمع المعلومات من هنا ومن هناك حتى تقود هذه المعلومات الى نتيجة من النتائج نعتنقها أو نؤيدهـــا :

صبا الحاكم بين الأهواء والاضطراب :

وبادىء ذى بدء نذكر أن الحاكم تولى الخلافة وعمره احدى عشرة سنة ، وفتح عينيه فوجد نفسه خليفة على مُلك فسيح مهَّده لـه أبوه وجدُّه ، وعَيَّن عليه بَرْجَوان التركى وصيا ، وكانت السلطة بينه وبين ست الملك أخت الحاكم لأبيه وقضى هذا الوصى كما قضت ظروف القصر والحياة الشيعية أن يتلقَّن الحاكم علوما خاصة، فى قمتها التشيع والمبالغة فيه ، ومنها كذلك علوم الفلسفة وعلوم الفلك ، وطبيعى أن الحاكم اطلع بوسيلة أو بأخرى على علومٍ غير علوم الشيعة ، فأثرت هذه فيه ، وأوقفه ذلك أمام طريق مزدوج ، ولعل الحاكم رغب فى مزيد من العلوم المعتدلة ومن الدراسات الهادئة ، ولكن رجال القصر والمشرفين على تعليمه وتثقيفه ، ما كان لهم أن يتجهوا به هذه الوجهة فحرموه ما شاء ، ومنحوه ما شاءوا ، فقد كان اتجاهه يحمل فى طياته انهيارَ النظام الفاطمى وبالتالى انهيارَ سلطان أصحاب الجاه فى مصر ، واندماجَ مصر من جديد فى اطار النظام السنّى

زحام العناصر فى القصر والمجتمع :

ونما الحاكم فتفتحت عيناه على قصر يعج بعناصر متعددة من الناس : بربر وعرب ومصريين وأتراك وزنج ، ولكل من هؤلاء أهداف واتجاهات ، وفى القصر كذلك أديان متعددة ، فأم الحاكم مسيحية وزوجة أبيه أم أخته

ست الملك مسيحية كذلك ، وبه أيضا عناصر يهودية وشيعية وسنية ولا دينية محايدة ولا دينية هدامة متطرفة ، والقصر صورة مما فى المجتمع الفاطمى من اتجاهات وأديان ومذاهب ، وكان المجتمع الاسلامى فى عهده — وليس فقط المجتمع الفاطمى — يمر بأقسى فتراته ، ففى أسبانيا ضعف وانحلال بعد عصر المنصور بن أبى عامر وأولاده ، وفى العراق تفكك البويهيين وتشيعهم وعدوانهم على خلفاء بنى العباس ، وعدم قبولهم فى الوقت نفسه الالتحاق بالفـاطميين الشـيعة .

جوانب مضيئة فى حياة الحاكم

جهود اجتماعية للحاكم :

وتؤكد كل المراجع التى بين أيدينا أن الحاكم كان فى السنوات الأولى من حكمه شديد العناية بأداء واجباته كرئيس للدولة ، متفانيا فى خدمة البلاد والعمل على إسعادها وازدهارها ، فكان يختلط بالناس فى الشوارع والأسواق ، يتعرف على مشكلاتهم ، ويحاول حلها ، ولم يُعْنَ بما عُرِف عن الخلفاء السابقين من ترف فى اللباس والمراكب والحرس ، وأصبح الناس فى عهده يعيشون فى أمان ، وينامون فى بيوتهم وأبوابهم مفتوحة .

يقول المقريزى فى حوادث احدى وتسعين وثلاثمائة : ان الحاكم واصل الركوب فى الليل فى كل ليلة وكان يسير من موضع الى موضع ومن شارع الى شارع ومن زقاق الى زقاق ، وأمر الناس بإضاءة الشوارع والأزقة .. .. .. ومنع حرسه من أن يحولوا بينه وبين الناس ، وقال : لا تمنعوا أحدا ، فأحدق الناس به وأكثروا من الدعاء له (١) .

وفى سنة ٣٩٢هـ أصدر الحاكم قرارا بمنع كل المنكرات وإبطالها ، وبذلك قضى على المسكرات وأراقها ، كما قضى على القمار بكل أنواعه (٢) .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٣٨ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٤ .

وفى سنة ٣٩٥ أصدر الحاكم أوامر مشددة للنظافة ، فأمر بكنس الشوارع والأزقة ، كما أمر بقتل الكلاب الضالة (١) .

وفى سنة ٣٩٩ أمر ألا يدخل أحد الحمامات العامة بدون مئزر ، وكُبِسَت الحمامات بعد ذلك وقبض على من خالف هذا الأمر وشُهِّر بهم (٢) .

جهود اقتصادية للحاكم :

واهتم الحاكم اهتماما كبيرا بالتجارة ، وحرص على سلامة الطرق ، وقضى على اللصوص والمحتالين ، كما حرص على سلامة المكاييل والموازين ، وأخذت الحسبة فى عهده مكانا مرموقا .

واتجه الحاكم للزراعة التى ازدهرت مع الاهتمام بالنيل وفروعه وببعض الأنواع الزراعية الجديدة التى استقدمها ، ووصل من عنايته بالزراعة أن استقدم من البصرة الحسن بن الهيثم العالم الطبيعى والرياضى الشهير ، الذى نقض فى كتابه الرئيسى « كتاب المناظر » نظرية أقليدس القديمة القائلة بأن الإبصار يكون بخروج شعاع من البصر الى المبصَرات ، وقرر عكس ذلك ، وهو الأمر الذى انتهى اليه الفكر الحديث ، والحق أن الحسن تعهد للحاكم بأن يعدل فيضان النيل الذى كان أساس خصوبة التربة المصرية (٣) .

ويرى بعض الباحثين أن مشروع الحسن بن الهيثم كان نواة التفكير فى العمل الذى تمَّ فى عصرنا الحديث وهو السد العالى .

وربما نسأل عن الأسباب التى جعلت ابن الهيثم لا يعمل على تنفيذ هـذه الفكـرة ؟

---

(١) المرجع السابق ص ٥٦ .
(٢) المرجع السابق ص ٨٦ .
(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ١٩٤ .

والذى تشير له المصادر أن ابن الهيثم عندما رأى الآثار المصرية العظيمة خطر له أن ذلك المشروع لو كان ممكنا لما غفل عنه المصريون القدماء مع براعتهم فى ألوان من النحت والفنون والعلوم .

وبجوار الحسن بن الهيثم ازدان بلاط الحاكم بمجموعة من العلماء سنتحدث عنهم عند حديثنا عن الحضارة الاسلامية فى العهد الفاطمى

اهتمام بالعدالة فى القضاء :

ويقرر الكندى أن الخليفة الحاكم أراد أن يحول بين القضاة وبين أخذ الأموال بغير حق ، فأمر بأن يضاعف للحسين بن على بن النعمان رزقه وصلاته واقطاعياته ، وشرط عليه ألا يتعرض من أموال الرعية لدرهم فما فوقه (١) وفى ملحق الكندى (٢) أن الحاكم مرة أجاز بعض الرجال للشهادة بأن أقر عدالتهم ، ولكن قاضى القضاة أعلمه أن بعض هؤلاء لا يستحقون التقدير ولا يوثق بهم فى شهادة ، فأذن له بتصفحهم ، وإقرار من يرى اقراره منهم ، ولم يتمسك برأيه فيهم .

وهذه النصوص واضحة الدلالة على أن هذا الحاكم كان مخلصا لدولته كفئا لحمل أعبائها ، عالما يكرم العلماء .

دار الحكمة :

وموضوع آخر ينسب للحاكم فيضعه فى القمة من المفكرين المثقفين هو إنشاؤه دار الحكمة سنة ٣٩٥هـ أى وهو فى العشرين من عمره ، وكانت دار الحكمة التى أنشأها هذا الخليفة مركزا علميا عالى المستوى ، جمع له الخليفة خيرة العلماء فى جميع الفنون والعلوم ، وأجرى عليهم المرتبات الكبيرة ، وهيأ لهم الوسائل ليتفرغوا للبحث والدراسة والتأليف ، فالحق

---

(١) الولاة والقضاة ص ٢٩٧ .

(٢) ملحق الكندى ص ٨٢ .

بدار الحكمة مكتبة عظيمة حوت ما لم يجتمع مثله فى مكتبة أخرى فى ذلك العهد ، وهيأ للملتحقين بدار الحكمة من طلاب ومطالعين أرزاقا كافية ، ووضع تحت تصرفهم الأوراق والمداد (١) ، فورثت بذلك ما كان لبيت الحكمة فى بغداد من نشاط علمى زاخر وزادت عليه ، ويمكن القول إنه لما يئس من اصلاح الدراسة فى الأزهر آنذاك تركه فى دراسته المذهبية المتعصبة وأنشأ دار الحكمة تخدم العلم للعلم بدون تأثير مذهبى أو سياسى .

الحاكم والمرأة :

وفى سنة ٣٩٤هـ حظر الحاكم على النساء كشف وجوههن وراء الجنائز والبكاء والعويل وخروج النائحات خلف الجنازة (٢) .

ثم اتجه الحاكم الى مزيد من الدقة ومزيد من الغيرة على النساء ، فقرر أن تقر النساء فى بيوتهن ، وألا يخرجن منها لغير ضرورة ، وتنفيذا لذلك منع صانعى الأحذية من صنع أحذية لهن ، بل قتل بعض من خالفن تعليماته (٣) .

يقول المقريزى فى ذلك : لما أفرطت النساء فى الخروج بالليل أمر الحاكم ألا تخرج امرأة بعد العشاء ، فان ظهرت نكل بها ، كما أعلن ألا تكشف إمرأة وجهها فى طريق ولا خلف جنازة ، ولا تتبرج ، ومنع النساء كذلك من الاقامة فى المقابر واطالة الزيارة (٤).

---

(١) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٥٦ .

(٢) يحيى بن سعيد الورقة ١١٥ ب .

(٣) المرجع السابق ١٢٤ والخطط للمقريزى جـ٢ ص ٢٨٩ ووفيات الأعيان لابن خلكان جـ٢ ص ١٢٧ واتعاظ الحنفا للمقريزى جـ٣ ص ١٢٠ .

(٤) اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٣٨ ، ٥٣ ، ٧٣ .

إيقاف سب السلف :

وأمر الحاكم أن يكف الناس عن سب السلف ، وعاقب من ارتكب هذا الانحراف ، بل وصل الأمر الى قتل واحد لأنه تمادى فى ضلاله فسب السيدة عائشة ، وأصدر أمره للشرطة بأن يقبضوا على من يقوم بسب السلف فكف الناس عن هذا العمل ، وفى سنة ٣٩٧هـ أمر بمحو ما هو مكتوب على المساجد والأبواب وغيرها من سب السلف فمحى ذلك كله ، وطالب متولى الشرطة حتى أزال سائر ما كان منه (١) .

الحاكم الخليفة الزاهد :

وفى سنة ٤٠٠هـ أعلن الحاكم منهاجا جديدا لم تعرفه سيرة أكثر الخلفاء ، فقد قرر أن يعيش على طريقة الزهاد الأولين من المسلمين ، وأن يطرح الدنيا وشئونها بعيدا ، فاقتصر فى مطعمه ومشربه على ما تدعوه اليه الحاجة لتماسك الجسم دون زيادة أو مغالاة ، وأغلق مطبخ دار الخلافة ، ومنع الناس من تقبيل الأرض بين يديه ، ومن السجود له ، ومن مخاطبته بمولانا ، وترك ركوب الخيل ، وصار يركب الحمير ويختلط بالناس بلا مظلة وبلا طراد (٢) بين يديه ، وأسقط الألقاب وجميع الرسوم والمكوس المستحدثة ، وأعاد للناس كل ما كان قد أخذ من أملاكهم وعقارهم فى عهده أو عهد أسلافه بمصادرة أو بغير حق ، واعتق سائر مماليكه من الاناث والذكور ، وحررهم جميعا لوجه الله تعالى (٣) ومنع الحاكم زراعة العنب ، واتهم المزارعين أنهم يزرعون الكروم لعمل الخمور .

---

(١) المرجع السابق ص ٦٧ ، ٦٩ .

(٢) الطراد هم الذين يفسحون الطريق امام الملوك .

(٣) يحيى بن سعيد الانطاكى : مخطوط بباريس رقم ٢٩١ ورقة ١٢٢ أ — ١٢٩ أ نقلا عن الحضارة الاسلامية لآدم متز جـ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ والمقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ [illegible]

جوانب قاتمة تنسب للحاكم ومناقشتها

ذكرنا فيما سبق الجوانب المضيئة فى حياة الحاكم ، ولكن هناك جانبا آخر أميل الى الظلام نذكره فيما يلى ونناقشه :

سفك الدماء :

يذكر عن الحاكم أنه كان مولعا بسفك الدم ، قتل الوصى برجوان ودبر اغتيال الوزراء الستة الذين جاءوا بعد هذا الوصى ، أو على الأقل دبر اغتيال أكثرهم ، وقتل قائد قواته الحسين بن جوهر ، والقاضى حسين ابن النعمان ، والفضل بن صالح من أعظم قواد الجيش ، وهو الذى قضى على ثورة أبى ركوة ، وقتل رجاء بن أبى الحسين ، وقتل غلاب بن مالك قائد الشرطة ، وقاضى القضاة مالك بن سعيد .

والحاكم قد فعل ذلك كله ، ولكن المقريزى يذكر أسباب هذه التصرفات مما يتيح فرصة واسعة للحاكم للدفاع عن نفسه ، فمثلا يذكر أن برجوان استقل بلذاته وأقبل على سماع الغناء ، وكان شديد الطرب يجمع المغنيين من الرجال والنساء ، ويكون معهم كأحدهم ، ولا يخرج من داره حتى يمضى صدر من النهار ، واذا عرضت عليه الأمور آمضى منها ما يختار من غير مشاورة ، وكان كثير الدالة على الحاكم ، ويقول الحاكم أنه كان سيء الأدب جدا ، وأنه فى بعض الحالات كان يجعل خفه مقابلا لوجه الحاكم وغير ذلك من الأمور التى كانت تحتم القضاء عليه (١) .

ويروى المقريزى قصة مؤامرة قام بها بعض رجال الحاكم ضده وقد نقلت أخبارها الى الحاكم ، فلقى المتآمرون جزاء خيانتهم (٢) .

---

(١) اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ٢٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٤٧ .

وقُتِلَ القاضى حسين بن النعمان لأنه استولى على أموال اليتامى وكان قدرها عشرين ألف دينار (١) .

وقُتِلَ مالك بن سعيد لأنه أخذ جانب ست الملك التى كانت شديدة العداء للخليفة الحاكم وقد خافه الحاكم على نفسه (٢) .

— وينسب له أنه أصدر أوامر مضحكة لأسباب تافهة ، فقد حرّم الملوخية لأن معاوية كان يحبها ، وحرّم الجرجير لأن عائشة كانت تستطيبه ، كما ينسب اليه أنه أصدر أوامر متناقضة ، فقد أوصى بمزاولة النشاط بالليل ، والنوم بالنهار ، ثم عدل عن رأيه .

وليس هناك أبدا ما يدلّ على صحة هذه الادعاءات واغلب الظن أن أعداءه نسبوها اليه لمهاجمته أو اخترعوها بعد وفاته .

وينسب للحاكم أنه اصطنع نظام التجسس فجعل له عيونا من النساء يدخلن البيوت وينقلن اليه أخبارها ، وكان يلقى بهذه الأخبار أمام ذويها على أنها من معارفه هو ومن صور مقدرته التى تمكنه من معرفة الغيب (٣) .

* * *

تلك خلاصة موجزة لما أورده المؤرخون عن أعمال الحاكم خيرها وشرها ويجب أن ننظر لها نظرة علمية محايدة محللين وباحثين لتقودنا هذه الأعمال الى نتيجة أقرب ما تكون الى الحقيقة .

وبادىء ذى بدء نستطيع أن نقول بيقين لا يحتمل شكا مما اقتبسناه آنفا من المقريزى والكندى ويحيى بن سعيد وكارل بروكلمان ومن انشاء

---

(١) و (٢) اتعاظ الحنفا جـ ٢ ص ٥٩ .

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ١٠٦ .

الحاكم لدار الحكمة وهو فى سن العشرين أن الرجل كان ذكيا وطموحا ، وكان لا يسير على النسق الذى أريد له أو سارت الدولة عليه ، فالوصى تركى الجنس وأمه مسيحية وهما يوجهانه وجهة لا يرتضيها ، والأزهر يسير فى دائرة شيعية لا تقنعه ، وفى نفسه رغبة الى الاصلاح عبّر عنها فى عدة صور كما رأينا ، ولكن التقاليد تسيطر على القصر ، ورجالُ البلاط يرون فى اتجاهاته قضاء على نفوذهم وعلى كيانهم ، وتعارضت اتجاهات الحاكم مع نفوذ أخته ست الملك تلك التى سنراها تدبِّر جريمة قتله ، وقد ذكرنا أن الحاكم قد اكتشف مؤامرة أو مؤامرات ضده للقضاء عليه من هذا النوع ، وأنه أنزل سخطه وعقابه على من اشترك فيها من القادة والوزراء مما يفسر لنا قتل الوصى برجوان وغيره من القادة والزعماء ، وعندما تلوثت يد الحاكم بالدم لحقته الشكوك ، ولم تعد الثقة متوفرة بينه وبين رجال قصره .

ويبدو أن المرأة جانبها الصواب فى عهده حتى أنه اتهم أخته ست الملك بما يشينها ، فراح الحاكم يضع القيود التى يحمى بها المرأة أو يكبح جماحها فعُدّ ذلك نزقا منــه ، وليس بنزق اذا قيس بمقيـاس عصره وبمقياس الخلل الذى دب فى القصور فى تلك الأثناء .

أما نظام التجسس فهو وسيلة اتبعت ولا تزال تتبع فى أرقى الممالك ، ولا شك أنها كانت نتيجة للشكوك التى عاشها الحاكم فى أخريات أيامه ، فالحاكم فى رأينا كان فى أول حياته طرازا ممتازا ولكن اتجاهاته اصطدمت بالآراء التى كانت سائدة فى قصره ولدى كبار رجالاته ، وأحدث ذلك صراعا فى نفس الحـاكم وفى المجتمع ، وكانت وفاة الحـاكم غامضة كحياته ، والأرجح إن أخته ست الملك دبرت قتله بعد أن اتهمها بما يشينها وخافت من سخطه ، وقد خرج مرة ليلا راكبا حمارا الى مرصد كان يخلو فيه

لنفسه بجبل المقطم ، ولم يعد الحاكم من هذه الرحلة ، وعثر الناس على حماره وملابسه ملوثة بالدماء فعرفوا أنه قتل (١) .

نهاية الحـاكم :

يصف لنا المقريزى أحداث الأيام التى تلت غيبة الحاكم وصفا يؤكد مسئولية أخته عن قتله وتدبيرها لنهايته ، كما يفيد هذا الوصف أن هذه الجريمة نزل قصاصها بالأخت بعد فترة قصيرة ، يقول المقريزى (٢) :

ولليلتين بقيتا من شوال سنة ٤١١ هـ فقِدَ الحاكم ، وسبب فقده أن أخته ست الملك كانت امرأة حازمة ، وكانت أسن منه ، وكان الأمـر بيدها طيلة طفولة الحاكم ، فلما بلغ الحاكم الرشد ، وتخلص من برجوان ، وأراد أن يأخذ كل السلطة من أخته قام صراع بينهما ، واستمر هـذا الصراع طويـلا حتى بلغت العلاقـة بينهما نهاية السـوء ، وفى بعض المناقشات سنة ٤١٠ دار كلام بينهما فرماها بالفجور ، وقال لها أنت حامل ، ووصلت العلاقة بذلك الى قمة الجفاء ، فراسلت ستُّ الملك سيفَ الدين حسن بن على بن دواس من مقدمى كتامة ، وكان قد تخوَّف من الحاكم ، وتواعدا عـلى قتل الحاكم وتحالفا عليه ، وأحضرت سـت الملك عبدين وحلفتهما على كتمان الأمر ، ودفعت اليهما ألف دينار ليقتلاه .

ولمـا أراد الحاكم الصعود للجبل كعادته حاولت أمه منعه لتخوفها عليه ، ولكنه أصر على ما أراد وركب حماره ، ودخل الشِّعْب الذى كان يدخله ، وكان العبـد ان يختفيان فيه ، فخرجا عليه وضرباه حتى مات ، وقتلا تابعه وحماره ، وحملا جثته الى أخته فدفنته ، وقتلت أعوانه الذين خافت أن يثوروا لغيبته .

واضطرب الناس لغيبة الحاكم ، فأرسلت اليهم : انه أخبرنى أنه

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ١٢٧ — ١٢٨ .
(٢) اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١١٥ — ١١٧ .

سيغيب سبعة أيام وأنه يواصلنى بأوامره ، ورتبت رسلا يتظاهرون بالمضى للحاكم والعودة بأوامره ، وفى أثناء ذلك اشتدت شوكتها وكف الناس عن الاستقصاء فى المسألة ، فأحضرت ابن دواس واتفقت معه على البيعة للظاهر بن الحاكم ، وأظهرته للجماهير ، وعلى رأسه تاج جده العزيز ، فنفذ ابن دواس ذلك ، وبايع الناس الا غلاما تركيا فانه قال : لا أبايع حتى أعرف خبر مولاى الحاكم ، فقتل هذا الغلام .

نهاية ست الملك :

اتجهت ست الملك للقضاء على ابن دواس فقتلته ، وقتلت جميع من عرف سر نهاية الحاكم ، ولكن أيامها لم تطل بعد ذلك فماتت بعد فترة قصيرة .

وكتب تاريخ الحاكم إثر وفاته ، وقد عادت السلطة الى من اضطهدهم ، أولئك الذين كان يهمهم أن يبرزوه معتوها أو مجنونا أو مدعيا للألوهية ، ليصرفوا الناس عن البحث عن القتلة ، أو الكشف عما فى القضية من أسرار ، وقد فطن الدكتور فيليب حتى لموقف التاريخ من الحاكم فقال : اتهمه مدونو الأخبار من خصومه بغرابة الأطوار (١) .

الدرزية

كانت بايران طوائف تدبر المكايد ضد الاسلام والمسلمين ، وهؤلاء ظهروا منذ قهر الاسلام بلاد ايران ، وحول جماهير شعبها من عبادة النار والملوك الى عبادة الله الواحد الأحد .

فقد كان بايران آنذاك بقايا يهود « سجن بابل » وقد تحالف هؤلاء مع الذين أفلتوا من رجال القصور ، وتظاهر هذا الحلف بالاسلام وكونوا ما أسميناه فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة « مدعى التشيع »

---

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ٢ ص ٢٢٢ .

وأخذ هؤلاء يعملون بجدٍّ لإفساد العقيدة الاسلامية كما أفسد اليهود من قبل العقيدة المسيحية عن طريق بولس وحوّلوها الى التثليث ، وحولوا عيسى الى إلـه . . . .

والمهم هنا أن هذه الطائفة عندما سمعت عن اضطراب الحاكم ، لم تضيع وقتا ، وأوفدت أحد أشرارها ليزيد النار اشتعالا ، فحضر الى مصر سنة ٤٠٨هـ داعية أعجمي ، أو كما يقول الأنطاكي غامض النشأة (١) وكان الهدف من حضوره أن يعيد للحياة نشاط القرامطة المنحرف الذى كان قد خبا وتوقف (٢) .

وهذا الداعية اسمه محمد بن اسماعيل الدّرزى ، ويلقب « أنوشتكين » ، واتصل هذا بالحاكم ، وكان الحاكم آنذاك فى حاجة الى من يساعده فى الصراع الذى كان يواجهه ، ومعنى هذا أنه اتصل به فى فترة ضعف بشرى .

الدرزية تؤلّه الحاكم :

وبدأ الدرزى يعلن تعظيم الحاكم ، وانتقل من التعظيم الى رفعه عن مستوى البشرية ، ثم اندفع ليعلن ألوهية الحاكم ، على نحو الادعاء بألوهية عيسى أو ألوهية الإمام علي ، فالنمط هو هو يهودى النشأة والأسلوب ، ومما قاله الدرزى فى هذا المجال « الحذر الحذر أن يقول واحد منكم بأن مولانا جل ذكره هو ابن العزيز أو أبو علي ، لأن مولانا سبحانه هو هو فى كل عصر وزمان ، يظهر بطريقة بشرية عندما يشاء » وقد أنكر عليه الناس ذلك ، وقامت فتنة ضده قتل فيها هو وبعض من معه ، ونُهِبَتْ داره (٣) .

وانتساب هذا الى العجم يربط بينه وبين الانحرافات التى ظهرت فى فارس ، والتى تولى كِبْرها مَنْ أسميناهم آنفا « مدعى التشيع »

(١) تاريخ يحيى بن سعيد الانطاكى ص ٢٢٠ .
(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣١٥ .
(٣) المقريزى : اتعاظ الحنفا جـ٢ ص ١١٣ .

فهؤلاء المنحرفون لم يقتنعوا بما فعلوا فى مناطق ايران ، بل خرج منهم هذا الداعية لينفث السم فى مصر ، وليجعل من بَشَرٍ إلهاً ، ولكن طبيعة مصر لم تقنع بهذا الانحراف الذى وجد له أرضا خصبة فى ايران ، فثار المصريون على هذا الداعية وقتلوه .

وظهر بعد ذلك داعية آخر اسمه حمزة بن أحمد وتلقب بالهادى ودعا الى مقالة الدَّرَزى ، ولم ينجح مذهبه فى مصر أيضا ، فعبرها الى جبال لبنان حيث البداوة والبساطة التى مهدت له سبل النجاح ، فظهر مذهب الدرزية ببلاد صيدا وبيروت وساحل الشام (١) وفى حوران وجبل لبنان الغربى والجبل الأعلى من أعمال حلب (٢) .

واذا كان المقريزى يجعل محمد بن اسماعيل سابقا لحمزة بن أحمد ، فان بعض المراجع الأخرى تقول بالعكس ، وهناك مراجع تذكر أنهما متعاصران وأنهما اختلفا لأن الدرزى تعجل فى الكشف عن المذهب الجديد بمصر قبل الوقت المناسب .

وهناك طبقة ثانية من دعاة الدروز يذكر المؤرخون منها بهاء الدين السموتى ، وأبا ابراهيم التميمى ، وأبا عبد الله بن وهب .

وتتجه العقيدة الدرزية الى أن الله تجسّد فى صورة الحاكم ، وفكرة تجسد الله فى صورة انسان فكرة وُجدت قبل ذلك بأمدٍ طويل منحدرة من الفكر الهندى ، أو من التعاليم المسيحية ، ووَجَدت لدى الباطنية والقرامطة والاسماعيلية مجالا بصورة أو بأخرى وقد انتهز الدرزى فرصة الاضطراب فى عهد الحاكم الذى أشرنا اليه من قبل وفرصة تأييده ومعارضته ، فراح يتظاهر بتأييده تظاهرا قريب الشبه بما ادعاه

(١) المرجع السابق ونفس الصفحة .
(٢) محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ج٤ ص ٢٦ .

« مدعو التشيع » مع علىّ بن أبى طالب كرم الله وجهه اذ عدوه الها أو صورةً للاله (١) .

وقد وقف على كرّم الله وجهه موقفا حاسما من هؤلاء الكفرة ، أما عن الموقف من الدرزى فقد اتضح لنا أن المصريين ثاروا عليه وأنه لم يجد فى مصر تربة مناسبة لأفكاره فرحل مَنْ لم يُقْتَل الى بعض مناطق الشام كما ذكرنا ، أما موقف الحاكم نفسه من الدرزى وفِكْرِه فلم توضحه المراجع توضيحا كافيا ، ويبدو أن الحاكم لم يؤيّد هذا القول بدليل أنه لم يجد له تابعين فى القصر ، وربما جاز لنا أن نظن أن الحاكم لم يعارضه معارضة صريحة لحاجته إلى الأعوان آنذاك .

الخلافة الفاطمية تتبرأ من الانحراف :

وعقب نهاية الحاكم اتجهت الخلافة الفاطمية الى سحق بقايا هـذا المذهب وطهّرت مصر من دعاته ، وأعلن الظـاهر بن الحكـام تبرئته وتبرئة ذويه من هذا الانحراف ، وأعلن « أنه هو وأسلافه الماضين وأخلافه الباقين مخلوقون لله العلى العظيم ، ولا يملكون لأنفسهم موتا ولا حياة ، وأن من خرج منهم على حد العبودية فعليهم لعنة الله والملائكة والناس أجمعين » (٢) .

لماذا لبنان ؟

والذى ساعد على أن يجد هذا المذهب له أتباعا فى جبال لبنان ، أنه كان يعيش فى هذه المناطق رجال كانت الآراء الشيعية المتطرفة قـد غزتهم من قبل ، وقد مهّدت هذه الآراء الشيعية الطريق للدرزية لتنجح فى هذه الجبال .

---

(١) انظر الجزء الثانى من موسوعة التاريخ الاسلامى للمؤلف عنـد الحديث عن « مدعى التشيع » .

(٢) يحيى الأنطاكى : ص ٢٣٦

ويعيش الدروز حياة شبه قبلية فى سوريا ولبنان ومن أشهرهم بنو الأطرش وآل جنبلاط ، وبنو أرسلان .

التشابه بين العقيدة الدرزية والمسيحية :

وعقيدة الدروز فى أصلها ترى أن للحاكم بأمر الله لاهوتا وناسوتا (كالمسيح) وهو وان كان بشرا فى الظاهر فهو فى الحقيقة الاله المعبود وقد اتخذ لنفسه صورة انسية كما ذكرنا .

وعندما اغتيل الحاكم أشاع قادة الدروز أنه تحول الى « غيبة » مؤقتة تعقبها « رجعة » فـ « طفرة » وذلك هو نفس التخطيط الشيعى الذى قال به مدعو التشيع فى عدة مناسبات ، ومع عدة أشخاص .

ويقول الاستاذ محمد فريد وجدى : (١) ان معتقدات الدروز ظلت فى طى الكتمان حتى استولى ابراهيم باشا على معابدهم عندما فتح الشام فوجد فى كتبهم كنه مذهبهم تفصيلا ، وكلمة الشهادة عندهم توحى بهذا المذهب المنحرف لأنها تتضمن الإيمان بأن الحاكم إله جاء فى صورة بشر .

بعض التشريعات الدرزية :

ومما وجد فى وثائقهم فيما يتعلق بالشريعة عدم الموافقة على تعدد الزوجات ، وعلى اباحة الطلاق بكثير من اليسر ، ولا ترد المطلقة لمن طلقها ولو تزوجت شخصا آخر ، وهم يحرصون على حجاب المرأة حجابا كاملا ، ولا يتبع الدروز نظام المواريث فى الاسلام (٢) .

وقد أسقط الدروز عنهم بعض العقائد الاسلامية كالصلاة والصوم والحج ، والتزموا بخصال بديلة تسمى الخصال التوحيدية أهمها صدق اللسان ، وحفظ الاخوان ، والبراءة من الطغيان ، والتوحيد لله والخضوع

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين (مادة درزية) .

(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٣١٨ — ٣١٩ .

التام للارادة الالهية ، وقد أصبحت هذه القاعدة الاخيرة المشتملة على عقيدة القضاء والقدر عاملا فعالا فى التعليم الدرزى •

وللدروز كتب مقدسة تتسم بالبدائية ، وتردد هذه الشعارات ، وهم يرون أن الحاكم تجلّى لهم وقرر لهم هذه التعاليم •

اجاويد واتباع :

وينقسم المجتمع الدرزى من حيث العقيدة قسمين ، قسم الأجاويد وهم الذين يعرفون أسرار الدعوة ، وقسم الأتباع وهم الذين يتبعونها دون معرفة الأسرار ، ومن الممكن أن يتطور التابع ويتعلم ليصبح من الأجاويد •

الأمير شكيب أرسلان :

وهناك عالم شهير من علماء العصر الحديث ينسب للدروز وهو شكيب أرسلان مؤلف كتاب « حاضر العالم الاسلامى » وهذا العالم لم تستوعبه الأفكار الضالة التى تنسب للدرزية بل هو معتدل كل الاعتدال فى فكره ، وهو يصفهم وصفا يوحى بالاعتدال فيهم ، يقول فى ذلك : الدروز فرقة من الفرق الاسلامية أصلهم من الشيعة الاسماعيلية الفاطمية ، واذا قيل ان الدروز من الفرق الباطنية التى لا يحكم لها بالاسلام ، فالجواب أن الدروز يعلنون أنهم مسلمون ، وأنهم يقيمون جميع شعائر الاسلام ، ويعلنون أن من خرج على ذلك فهو ليس بمسلم •

والاتجاه المعتدل للدروز يرى أن الحاكم ليس بمعبود ، وانما هو ولىّ الله وخليفته ، وأنه أمير المؤمنين ، ولدى الدروز طبقة تعرف بالمنزهين ، وهم أهل ورع وزهد ، وبعضهم لا يتزوج ، ومنهم من يصوم الدهر كله ، ومنهم من لا يذوق اللحم ولا يشرب الخمر •

والمعتقد أن الفكر الذى عبّر عنه شكيب أرسلان يمثل جمهورا كبيرا

بين الدرزية الآن ، فالفكر الاسلامى الصحيح عرف طريقه لهذه المناطق فى فترات متعددة على مر التاريخ واستطاع أن يعيد إلى الرشد كثيرا من الدروز .

الظاهر (٤١١ — ٤٢٧ = ١٠٢١ — ١٠٣٦) :

تولى الظاهر بعد أبيه وكان فى السادسة عشرة من العمر ، فقامت عمته ست الملك بادارة شئون الخلافة ، ولما ماتت أمسك الظاهر بمقاليد الأمور بمساعدة الوزراء الذين بدأ نفوذهم فى الظهور ، وقد عاد الظاهر الى السياسة التقليدية التى تمرد عليها أبوه ، فتساهل مع أهل الذمة وأطلق للمرأة العنان ، وعنى بأمور الزراعة (١) ، ولكن مجاعة اجتاحت البلاد بسبب انخفاض ماء النيل فعرقلت الاتجاه الاصلاحى فى الزراعة ، وفى عهد الظاهر قامت فتن فى الشام ضد الحكم الفاطمى ولكنها أخمدت ، بل أضاف ولاة الفاطميين بالشام مزيدا من المناطق الى سلطان الظاهر .

وتوفى الظاهر سنة ٤٢٧ .

المستنصر (٤٢٧ — ٤٨٧ = ١٠٣٥ — ١٠٩٤) :

كان المستنصر فى السابعة من عمره عندما مات أبوه الظاهر ، وكان الجرجرائى الوزير صاحب النفوذ عند موت هذا الخليفة ، فأعلن البيعة للمستنصر ، وقد ظل المستنصر فى الحكم ستين سنة ، وهى مدة لم يعمرها فى الحكم خليفة مسلم ، ثم هى مدة حافلة بالحركات والاضطرابات والتغييرات ، وفى أثنائها نقلت السلطة الفاطمية نهائيا من أيدى الخلفاء الى أيدى الوزراء ، وجاء ما يعرف فى التاريخ الفاطمى بعهد نفوذ الوزراء .

ويمكن القول ان المستنصر لم تتطل حياته مع الترف خلال هذا الحكم

---

(١) تاريخ يحيى بن سعيد ص ٢٣٥ .

المديد ، ففى عهد طفولته استبد به الوزراء ، ولما نما قابلته اضطرابات الجيش بسبب قادته وفرقه المتعددة الأجناس والمشارب ، وفى العهد المعروف بعهد الشدة المستنصرية أخذ المستنصر نصيبه كاملا كأى فرد من الشعب فى المجاعة والحاجة ، وعندما زالت هذه الشدة وعاد شعاع الرخاء كان السلطان قد تحول الى الوزراء نهائيا ، وعاش المستنصر بقية عمره قانعا بما يمنحه له الوزراء •

الجيش الفاطمى وعناصره :

كان الجيش الفاطمى مبعث قلق وفوضى خلال عهد المستنصر ، ومن ثمّ يجمل بنا أن نتحدث عن عناصر هذا الجيش وعن حركاته المدمرة :

كان البربر هم عماد الجيش الفاطمى الأول ، فعلى أكتافهم قام سلطان الفاطميين بالشمال الافريقى ، وبسيوفهم فتحت مصر ، فكوّنوا بذلك العنصر الرئيسى للجيش الفاطمى الأول •

ولما جاء العزيز استعان بالأتراك كما سبق القول ، وسرعان ما أصبح هؤلاء عنصرا مهما من عناصر الجيش الفاطمى •

وكان بنو حمدان على رأس قوة عربية ضاربة يكوّنون عنصرا ثالثا فى هذا الجيش •

وجاء عنصر جديد للجيش إبان عهد المستنصر ، فقد كانت أمه سودانية ، فأكثرت من جلب السودان ومنحتهم السلطة والنفوذ فأصبحوا قوة رابعة يحسب حسابها •

وبين هذه العناصر وُجد فريق عسكرى مصرى الجنسية بدأ يأخذ مكانه بين تلك العناصر •

وكان الوزراء فى العهد الأول يقلّلون من سلطة قادة هذه الفيالق ، فقد كان للوزراء الكلمة الأولى ، ولكن السلطة المدنية انهارت بعد الوزير الحسن اليازُورى (٤٤٢) فوضح الخلاف بين عناصر الجيش ، وقامت

المعارك الحربية بين هؤلاء وأولئك ، ومن أهم المعارك التى حدثت فى هذا المضمار معركة كوم الريش سنة ٤٥٤ بين الأتراك والبربر والغرب فى جانب بقيادة ناصر الدولة الحمدانى وبين السودان فى جانب آخر ، وهزم السودان فى المعركة ولكن هزيمتهم لم تكن حاسمة ، فقد انسحبوا الى الصعيد ، واكتفى المنتصرون بذلك فلم يلحقوا بهم لإبادتهم . وترك الصعيد تحت رحمة السودان يعبثون به وينشرون الفوضى . أما المنتصرون فقد عادوا يعيشون بالقصور ويغيرون الوزراء ، على أن الحلف بين ناصر الدولة والأتراك لم يطل عهده ، فقد ثار الأتراك عليه لاستهانته بهم ، وطلب الأتراك من الخليفة عزله ففعل ، ولكن ناصرا رفض الرضوخ لقرار الخليفة ووقعت معارك حربية بين الخليفة والترك من جانب وناصر الدولة وأتباعه من العرب والبربر من جانب ، وقد هزم ناصر الدولة أولا ولكنه عاد وانتصر ، بيد أن الأيدى الخفية استطاعت أن تفتك به وبأهله فى الظلام ، وكان من نتائج هذه المعارك وتلك الفوضى المترتبة عليها أن توقفت الزراعة وأصبحت السرقة وقطع الطريق من معالم العصر ، ولم ينقذ البلاد الا بدر الجمالى الذى استدعاه الخليفة وأسلمه زمام الأمر .

ويمتاز عهد المستنصر ببعض المتناقضات والمفارقات : تسامح دينى وتعصب ، رخاء وجوع ، توسع وانكماش ، ويجدر بنا أن نوضح هذه المفارقات ، ففى توضيحها اظهار لمعالم هذا العصر .

التسامح الدينى والتعصب :

فى مطلع عهد المستنصر كانت العلاقات طيبة مع المسيحيين فى الداخل ومع بيزنطة المسيحية ، فترك للمسيحيين حرية العبادة ، وواصل المستنصر سياسة أبيه فى رفع القيود عن المسيحيين وحسن معاملاتهم ، أما مع بيزنطة فقد كانت هناك معاهدة سلم ، كانت بيزنطة بمقتضاها تورد القمح لمصر إبان أزمتهـــا .

غير أن بيزنطة توقفت عن تنفيذ هذه المعاهدة ، ومالت الى مصادقة

العباسيين الأقوياء واهمال الفاطميين الذين لم تعد بيزنطة فى حاجة لاتقاء شرهم لضعفهم ، وكان من نتيجة ذلك أن وقف المستنصر موقف عداء من بيزنطة ومن المسيحيين بالداخل لاتهامهم بالإيعـاز لحكام القسطنطينية باتباع هذه السياسة الجديدة ٠ ففرضت عليهم الضرائب ، وأقفلت بعض الكنائس وألقى القبض على بعض القسس ٠

الرخاء والجوع :

نعم الخليفة والشعب برخاء واسع فى مطلع عهد المستنصر ، وقد وصف ناصرو خسرو هذا الرخاء وصفا مفصلا ، وكان قد زار مصر سنة ٤٣٩ فرأى حوانيت الصاغة مكتظة بما فيها من جواهر ثمينة ، ورأى محلات تغيير العملة وبها كميات كبيرة من العملات المتعددة ، وهذه المحلات وتلك كثيرا ما كانت تترك مفتوحة ويدعها أصحابها ويذهبون للصلاة أو لأمر من الأمور فقد كان الأمن منتشرا ، والرخاء شـاملا ، فلم يكن بالناس حاجة الى السرقة أو الخطف ٠

ويتحدث ناصرو خسرو عن ثراء الخليفة فيروى أنه بالاضافة الى القصور والدور والأرض كان يملك صندوقا به عشرة أرطال مـن أندر الجوهر ، ٢٥٠ رطلا من الأحجار الكريمة ، وثلاثين ألف قطعة من البللور الفاخر ، وآلاف الأثواب الحريرية الغالية وسيوفا من الذهب ، وسيف الرسول محمد صلى الله عليه وسلم ، وسيف الحسين بن على ، وسيف جعفر الصادق ، ومسبحة من الأحجار الكريمة قيمتها ثمانون ألف دينار ، وسروجا لا تحصى وأسلحة ورماحا وأكوابا وصحافا كلها مـن الذهب الخالص أو مطعمة بأندر الجوهر ، وكانت لـه حصيرة من الذهب زنتها ثمانية عشر رطلا ، وفى خزانته ثلاثون مليون دينار من الذهب (١) ٠٠٠٠

---

(١) اقرأ خطط المقريزى جـ١ ص ٤١٤ وكنوز الفاطميين للدكتور زكى حسن ص ٤٣ — ٤٥ ٠

ويقول ابن الميسر ان قوائم هذه الممتلكات شغلت كتابا كبيرا رآه بنفسه (١) ، ومما زاد فى ثراء المستنصر أنه ورث عمتيه الأميرتين ابنتى المعز ، وكانت ثروتهما تقدر بحوالى خمسة ملايين من الدنانير .

وضاع هذا الثراء كله من الخليفة ومن الشعب بسبب اضطراب الجند وتوقف الزراعة وماتلا ذلك من نهب وسلب وتدمير ، وقد أرغم الجند الخليفة أن يبيع ممتلكاته ليدفع لهم أجورهم ، فكان يبيعها لهم حسبما يقدرون ، وندر الخبز وانتشرت المجاعات ، فأصبح رغيف الخبز يباع بخمسة عشر دينارا ، وشارك الخليفة شعبه فى الجوع ، فالقصر خلا من أثاثه اللهم الا من حصيرة قديمة ، أما طعامه فكان رغيفين كل يوم ، تبعث له بهما بنت أحد العلماء ، أما أسرة الخليفة وأمه فقد هاجرتا من مصر لاتقاء الجوع وعصيان الجند ، وفى وسط هذه الأزمات أكل الناس الكلاب والقطط ، ودمر الجند المكتبة التليدة ، واستعملوا جلودها أحذية لهم (٢) .

التوسع والانكماش :

امتد سلطان المستنصر الى اليمن وحضر موت وقوى سلطانه فى الحجاز بالاضافة الى مصر وسوريا والشمال الافريقى ، ووصل امتداد سلطانه الى غايته عندما تغلب البساسيرى على بغداد وخطب للخليفة المستنصر (٣) .

ولكن هذا التوسع بدأ يتوقف ويحل محله انكماش وانحسار ، فالمعز بن باديس أعلن استقلاله بالشمال الافريقى ، بل أعلن تبعية بلاده للمذهب السنى ، والبساسيرى آلت حركته للفشل وعادت بغداد لخلفاء

---

(١) تاريخ مصر ص ١٤ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ٢ ص ١٠٣ .

(٣) انظر الجزء الرابع من موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف .

العباسيين ، وحركات آل مدراس بدأت تحكم سوريا حكماً استقلالياً لا يربطه بالمستنصر الا خيط ضئيل ، ونشط السلاجقة فاقتطعوا الحجاز من الفاطميين ، وضاعت صقلية واستولى عليها النورمانديون سنة ٤٦٣ وحتى فى مصر حاول الحمدانيون إبان إنتصاراتهم أن يخطبوا لخلفاء العباسيين ، ولكن هذه المحاولة لم يكتب لها النجاح •

وفى وسط هذا الاضطراب قرر المستنصر أن يستدعي بدراً الجمالى حاكم عكا الأرمنى وأن يسلمه زمام الأمر لعل فى يده يكون الدواء ، فكتب اليه بذلك سرا ، واشترط بدر أن يحضر بجنوده فوافق الخليفة ، وجاء بدر الى مصر سنة ٤٦٥ فى ثوب زائر ، وسرعان ما تسلم السلطة بنجاح ، وانتقل بذلك السلطان من أيدى الخلفاء الفاطميين الى أيدى الوزراء ، وسنخص هذا العهد بدراسة خاصة فيما بعد •

باقى خلفاء الفاطميين

إبان العهد الفاطمى الثانى ، أو عهد نفوذ الوزراء ، تولى الخلافة ستة من الفاطميين ، نكتفى هنا بأن نورد أسماءهم ، أمـا حديثنا فيتجه الى الوزراء الذين أصبحوا فى الغالب رؤساء الدولة ، وفى يدهم كل السلطان ، واتجهت لهم كل الأضواء ، حتى أنهم كانوا يعزلون خليفة ويعينون آخر ، فهم بذلك أجدر بأن تكون أسماؤهم عناوين البحث مكان أسماء الخلفاء التى انزلقت الى الظل فى أكثر الأحوال •

ونحن نميل الى هذا الاتجاه مخالفين الاتجاه العام للمؤرخين الذين ظلوا يديرون الحديث تحت عنوان الخلفـاء ، وما كان الخلفـاء آنذاك رؤساء للدولة بالمعنى الحقيقي ولا مدبّرين لأمرها ، وبخاصة أن أكثرهم تولوا الخلافة وهم دون سن الرشد ، فالآمر كان فى الخامسة والظافر فى السابعة عشرة ، الفائز فى الخامسة والعاضد فى التاسعة •

وخلفاء هذا العهد هم — مع أرقامهم — في سلسلة خلفاء الفاطميين بعد المهدى والقائم والمنصور والمعز والعزيز والحاكم والظاهر والمستنصر :

٩ — المستعلى بن المستنصر (٤٨٧ — ٤٩٥ = ١٠٩٤ — ١١٠١) ووزر له : الأفضل بن بدر الجمالى (كان وزير المستنصر بعد موت بدر واستمر في الوزارة بعد موت المستنصر) .

١٠ — الآمر بن المستعلى (٤٩٥ — ٥٢٤ = ١١٠١ — ١١٣٠) ووزر له . الأفضل (بقي بعد موت المستعلى حتى سنة ٥١٥ فاغتيل) ثم وَزَرَ له المأمون البطائحي من ٥١٥ الى ٥١٩ (صلب)

١١ — الحافظ بن محمد بن المستنصر (٥٢٤ — ٥٤٤ — ١١٣٠ — ١١٤٩)
وحالة الوزارة في عهده كانت كالآتى :
بدون وزراء من سنة ٥٢٤ — ٥٢٥ .
أبو على أحمد بن الأفضل من ٥٢٥ الى ٥٢٦ (اغتيل) .
يانس (مملوك أرمنى) ٥٢٦ (سُمَّ في نفس العام) .
الحسن بن الحافظ من ٥٢٦ الى ٥٢٨ .
سليمان بن الحافظ ٥٢٨ (مات بعد شهرين)
(ابنا الخليفة)
أبو المظفر بهرام من ٥٢٩ الى ٥٣١ (مسيحى أرمنى انتخبه الجنـــد) .
رضوان بن الولخشى ٥٣١ (فر في نفس العام) .
بدون وزراء من ٥٣١ الى ٥٤٤ .

١٢ — الظافر بن الحافظ (٥٤٤ — ٥٤٩ = ١١٤٩ — ١١٥٤) ووزر له :
سليمان بن محمد بن مصال ٥٤٤ — ٥٤٨
على بن السلار ٥٤٤ — ٥٤٨
تنافس وعدم استقرار
العباس بن أبي الفتوح ٥٤٨ — ٥٤٩

١٣ — الفائز بن الظافر (٥٤٩ — ٥٥٥ = ١١٥٤ — ١١٦٠) ووزر له :
طلائع بن رزيك (طيلة عهد الفائز) .

١٤ — العاضد بن يوسف بن الحافظ (٥٥٥ — ٥٦٧ = ١١٦٠ — ١١٧١)
ووزر له : رزيك بن طلائع ٥٥٥ — ٥٥٨
شاور بن مجير بن نزار ٥٥٨
ضرغام بن عامر اللخمى ٥٥٨ (قتل سنة ٥٥٩)
شاور (مرة أخرى بعد قتل ضرغام) (٥٥٩ — ٥٦٤)
شيركوه ثم صلاح الدين ابتداء من سنة ٥٦٤ (١)

وقبل أن نتحدث عن وزراء هذا العهد نذكر الملاحظات الآتية :

١ — خلال هذا العهد قام بعض الخلفاء بمحاولات لاستعادة السلطة ، وتبدو هذه المحاولات مما نلاحظه فى القوائم السابقة حيث خلت بعض العهود من الوزراء أو جعل الخلفاء وزراءهم من بنيهم ، وقد دبر الآمر مؤامرة قتل فيها الأفضل ، ولكن هذه المحاولات كانت تنتهى بالفشل وتعود السلطة للوزراء مرة أخرى .

٢ — بعض وزراء هذا العهد — حتى قبل شيركوه وصلاح الدين — عارضوا الفكر الشيعى وأظهروا ميلهم للمذهب السنى ، ومع هذا أبقوا على الخلفاء الفاطميين ليظل السلطان فى أيدى هؤلاء الوزراء ، فقد خافوا أن يكون التحاقهم بخلفاء بغداد معناه نهاية سلطانهم ، ومن هؤلاء الأفضل ابن بدر الجمالى وأحمد بن الأفضل ، وترتب على هذا توقف تسلسل الخلفاء فانه بناء على الفكر الشيعى تكون ولاية العهد لابن الخليفة الأكبر ، فلما توقف الفكر الشيعى أهملت هذه الفكرة ، وحال الأفضل دون تولية نزار أكبر أبناء المستنصر وولى بدله المستعلى .

(١) هذه القوائم من معجم الانساب والأسرات الحاكمة لزامباو ج١ ص ١٤٨ — ١٥٠ .

٣ ـ قلنا ان هذا العصر هو عصر نفوذ الوزراء ، ولكن مع هذا كان هناك وزراء لم يلعبوا دورا ذا بال فى الحياة العامة ، فجرفهم التيار ليخلوا الطريق الى سواهم •

٤ ـ فى هذا العصر بدأت الحروب الصليبية التى كانت سببا فى إ. تاط وزراء وقيام آخرين ، بل فى إسقاط أسر حاكمة وقيام أخرى محلها ، ولن نتحدث عن هذه الحروب هنا بل سنتحدث عنها حديثا مستقلا عقب الانتهاء من الحديث عن تاريخ مصر وسوريا •

عصر نفوذ الوزراء

بـدر الجمـالى :

بدأ عصر نفوذ الوزراء بسلطة بدر الجمالى ، وقد حضر فى ثوب زائر كما قلنا آنفا ، ومعه جنده ، وكان حضوره عن طريق البحر ، وخدع الأتراك وقادة جيش المستنصر فاستأذنهم فى زيارة الساحل ، فاذنوا له وأحسنوا استقباله ، وبعد قليل أقام حفلا كبيرا لهؤلاء القادة وعيَّن لكل منهم رجلا من رجاله ليأتى له برأس هذا القائد ، ونجحت المؤامرة ، ووقف رجال بدر فى اليوم التالى أمامه وكل منهم يحمل رأس القائد الذى كلف بقتله ، وأعلن بدر حينئذ عن مهمته التى جاء من أجلها وتسلم قيادة الجيش كما تسلم ادارة البلاد ، ولذلك سمى رب السيف والقلم ، وسرعان ما قضى عـلى عناصر أخرى من المشاغبين والمنافسين ، فلما دانت له العاصمة والوجه البحرى صعد إلى مصر العليا فقضى على نفوذ السودانيين ، وعادت البلاد الى السكون والسلام ، واستطاع أن يستعيد كثيرا من أمتعة الخلفاء التى كان الجند نهبوها أو أخذوها نظير مرتباتهم ، ويقال أن قارىء قرآن تلا فى حضرة الخليفة المستنصر قوله تعالى « ولقد نصركم الله ببدر » ولم يكمل الآية فأحسن لـه الخليفة والوزير (١) •

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٢٢٢

وبدأت الحياة من جديد تسير فى طريقها الطبيعى ، فعاد الزراع الى أرضهم وباشر التجار تجارتهم ، وأعفاهم بدر من الضرائب ريثما يستعيدون نشاطهم ويجددون ثراءهم ، فلما أعيد فرض الضرائب بعد ذلك كان الدخل أوسع مما كان عليه قبل الشدة .

ولم يستطع بدر أن يستعيد بلاد الشام لانشغاله بالأمور الداخلية ولظهور قوة السلاجقة التى امتدت الى هذه المناطق .

ومن أعمال بدر الجمالى ذلك السور الفخم الذى أحاط به القاهرة ، وتجديد أبواب زويلة والفتوح والنصر ، وبناء جامع الجيوشى على ظهر المقطم ، وقد نسب له هذا الجامع إذ كان يدعى أمير الجيوش .

ومات بدر الجمالى سنة ٤٨٧ ومات بعده فى نفس العام الخليفة المستنصر .

الأفضل بن بدر الجمالى :

عين بدر الجمالى ابنه الأفضل وليا للعهد ، وهى ظاهرة هامة فى هذا العصر أن تكون تولية الوزارة بعهد من الوزير السابق ، وهذا يدل على مدى ما وصل له هؤلاء الوزراء من نفوذ ، ولم يكتف الأفضل بأن يزاول نفوذ أبيه وسلطاته الواسعة مع الابقاء على الدواوين كما كانت فى عهد أبيه ومع ترك بعض المظاهر للخليفة ، بل خطا خطوة جديدة ، فنقل دواوين الحكومة الى داره ، واستبد باقامة الولائم فى الأعياد ، واتخذ مجالس للعظاء (١) .

ومات المستنصر — كما قلنا — والأفضل وزير الدولة فحرص الأفضل على أن تكتمل السلطة له ، ولذلك لم يضع فى كرسى الخلافة « نزارا » الابن الأكبر للخليفة السابق بل تجاوزه ارشده وعين المستعلى ، وكان

(١) دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر ص ٢٣٠ .

ضعيفا فى العشرين من عمره ، وثار نزار لهذا التصرف وساعده فريق من الإسماعيلية هم « الباطنية » ولكن كان النصر للأفضل ودفع نزار رأسه ثمن هذه الثورة .

وفى عهد الأفضل مات المستعلى سنة ٤٩٥ فولى مكانه ابنه الآمر وعمره خمس سنوات ، فكان الأمر كله للأفضل ، ولما شب الآمر وجد نفسه مسلوب السلطة ، فحاول أن يستعيد بعض السلطان ولكنه صادف تحديا سافرا من الأفضل ، وذهب الأفضل فى تحديه الى حد التخلى عن مذهب الشيعة وابطال الاحتفالات بالأعياد الشيعية بما فيها عيد ميلاد الخليفة واغلاق دار العلم ، وكانت وسيلة الآمر الوحيدة لاستعادة السلطان هى أن يدبر مؤامرة للتخلص من الأفضل ، وتم له ذلك بمساعدة المأمون بن البطائحى وبعض الباطنية سنة ٥١٥ ، وتظاهر الآمر بالسخط على اغتيال وزيره وقتل قاتليه من الباطنية (١) .

ومن منشآت الآمر جامع الأقمر ، ومسجد آخر داخل كاتدرائية سانت كاترين بسيناء .

ويقول ابن خلكان ان الأفضل خلف من الأموال والجواهر والخيول والرقيق مالم يسمع بمثله ، ويعدد ابن خلكان بعضها وهى تدل على عودة الثراء للقصور بعد ما أصاب مصر من أزمات اقتصادية فى عهد المستنصر (٢) .

المأمون بن البطائحى :

أخذ المأمون بن البطائحى مكان الأفضل بعد مصرعه ، وفى عهده استعاد الآمر شيئا من نفوذه ، ولكن البطائحى لم يهنأ طويلا بالسلطان ، فقد عاش بين أطماع الخليفة من جهة وظهور أحمد بن الأفضل من جهة أخرى ، وقد استطاع أحمد أن يثأر لأبيه فقتل المأمون بموافقة الآمر ،

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٢٢٢ .

(٢) وفيات الاعيان : جـ١ ص ٢٢٢ .

ولكن الآمر حرص على أن يظل السلطان فى يده ، فلم يمنح الوزارة لأحمد ، بيد أن هذا أصبح له نفوذ وأضح فى الحياة العامة ، حتى نال الوزارة بعد الآمر .

أحمد بن الأفضل :

استطاع أحمد أن يستعيد السلطان لبيت بدر الجمالى عقب وفاة « الآمر » ، وكان الخليفة فى عهده هو « الحافظ » ، ويبدو أن أحمد كان يدرك أن المؤامرة التى سقط فيها أبوه دبرت بمعرفة القصر الفاطمى ، ولذلك اشتد أحمد فى الاستهانة بالخلفاء ، وحرمهم السلطة نهائيا ، ومنع الناس من زيارة الخليفة إلا باذن منه ، واستولى على ما فى القصور من تحف ، ومنع ذكر اسم الخليفة فى الخطبة ووضع اسمه بدل اسم الخليفة ، وقلل من الاهتمام بالمذهب الشيعى وجعل بعض القضاة من رجال السنة .

ومرة أخرى دبر الحافظ مؤامرة للتخلص من أحمد بن الأفضل وتم لـه ذلك ، ولكن السلطان لم يجد طريقة للخليفة بل رسا على الوزير الأرمنى بهـرام .

أبو المظفر بهرام الأرمنى :

انتخبه الجند بعد أحمد ، ولذلك سرعان مـا أكثر من عدد الجنود الأرمن ، و فى عهده عبث هؤلاء بالأمور واعتدوا على الأهالى وأموال الناس ، وكان الوزير مسيحيا فجار عـلى المسلمين ، فاستنجد المسلمون بوالى الغربية رضوان بن الولخشى ، فاستجاب لهم هذا ، وحدث صراع بين الاثنين وهزم بهرام فى هذا الصراع وآل السلطان لرضوان ، وهرب بهرام الى أسوان .

رضوان بن الولخشى :

لقب رضوان نفسه بلقب الملك ، وهو أول وزير يحمل هذا اللقب فى

العهد الفاطمى (١) ، ومن أهم أعماله القضاء على سلطان الأرمن ومصادرة أموالهم ، وتجريد الخليفة من السلطة ، وثار عليه الخليفة لذلك ، واستعان الخليفة ببهرام ، فهـزم رضوان وقتل : وظل بهرام فى القصر مستشارا للخليفة دون أن يعيده للوزارة .

ابن السلار وابن مصال :

اثنان يتنافسان على الوزارة مع مطلع عهد الظافر بن الحافظ ، واتخذ هذا التنافس دورا جديدا ، فقد بدأت الاستعانة بالسـلطات الأجنبية ، وكانت تتمثل آنذاك فى سلطة نور الدين صاحب حلب ودمشـق ، وفى الصليبيين بإمارات الشام ، وكانت الاستعانة بالأجانب فى هذا الدور مقصورة على الاستعانة بنور الدين ، ولكن الصليبيين حرصوا على ألا يتيحوا لنور الدين أن يسيطر على مصر ، ففى ذلك ، تطويق لهم وهزيمة لاماراتهم ، ومن ثم دخل الصليبيون حلبة السباق لتكون لهم مصر كما سنشرح هذا عند الكلام عن الحروب الصليبية .

وفى النزاع المسلح بين ابن السلار وابن مصال أخذ الخليفة جانب الأخير حتى قتل ابن السلار ، ولكن ابن مصال قتل بعده بقليل ، ثم قتل الخليفة بيد نصر بـن عبـاس وراح عباس هـذا يقتل ابنى الخليفة وأقاربه (٢) . فثار لذلك أهل القاهرة فهرب عباس وابنه نصر ، وقتـل عباس وقبض على ابنه الذى مثل به وصلب .

طلائع بن رزيك وابنه :

طلائع بن رزيك أصله من الشيعة الإمامية بالعراق ، وقد وفد لمصر وتقرب للفاطميين ، فولاه الخليفة الفاطمى منية بنى خصيب بالصعيد ،

---

(١) المقريزى : الخطط جـ١ ص ٤٤٠ وابو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٣ ص ٤٦٨ .

(٢) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٧٨ .

فلما زادت الفوضى عقب مقتل الخليفة الظافر استنجد نساء القصر بطلائع بن رزيك ، فحضر طلائع وتسلم الوزارة وتلقب بالملك الصالح ، وعين الفائز ابن الظافر خليفة ، وكان فى الخامسة من عمره واستبد بالأمر وقضى على الفوضى ، وأعاد الأمن إلى نصابه ، وتوفى الفائز بعد ست سنين فعيَّن طلائعُ العاضدَ خليفة سنة ٥٥٥ ، وتزوج العاضد بنت طلائع ، ثم نجح العاضد فى تدبير مؤامرة قتل فيها طلائع ليتخلص من تسلطه ولكن العادل بن طلائع تسلَّم مكانة أبيه ، فثار عليه شاور أمير الصعيد وقتله بعد سنتين من وزارته وتولى مكانه (١) .

شاور وضرغام ونهاية الخلافة الفاطمية :

يمثل شاور وضرغام آخر حلقة فى فوضى الوزارة الفاطمية ، وشاور كان ذا نفوذ فى الصعيد ، فخافه العادل بن طلائع فعزله ، ولكنه جمع جموعه وهاجم القاهرة ، واحتل قصر العادل وقتله ، وجعل نفسه وزيرا مكانه ، وطغى وهو وأولاده ، أما ضرغام فمن المغاربة ، وقد رأى كبرياء شاور وطغيان أولاده ، فثار عليه وخلعه وأرغمه على الهرب ، ولكن شاور ذهب يستنجد بنور الدين ، ويحثه على فتح مصر ، فاستنجد ضرغام بالصليبيين ، واستجاب نور الدين والصليبيون ، وأصبحت مصر هدف عدوان من الخارج ، وبلغت حملات نور الدين ثلاثا ، وكانت بقيادة شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وفى الحملة الأولى قتل ضرغام ، وفى الثالثة قتل شاور كما سنشرح ذلك عند الكلام عن الأسرة الأيوبية ، وتقلد أسد الدين شيركوه وزارة العاضد ، ولكنه مات سريعا فتولى صلاح الدين هذه الوزارة ، وقضى على ثورات الجند السودانيين وقتل زعماءهم ، وأعاد البلاد الى الأمن والهدوء ، ثم قطع اسم الخليفة من الخطبة ودعا للخليفة العباسى « المستضىء » ، وكان العاضد مريضا ، فسرعان ما مات ، واستقل صلاح الدين بمصر باسم نور الدين زنكى .....

---

(١) ابن خلكان : وفيات الاعيان جـ١ ص ٢٢٠ و ٢٣٩ .

أسباب سقوط الخلافة الفاطمية

١ — الحروب الصليبية :

تعتبر الحروب الصليبية العامل الأساسى لسقوط الدولة الفاطمية ، فقد اتجهت كل القوى لتخليص البلاد الاسلامية من طغيان الصليبيين ، وأصبح انتقال السلطة من أسرة مسلمة الى أسرة مسلمة أخرى أمرا هينا مادام فى ذلك النجاة من الفرنجة ، ومما يدل على ذلك أن بعض الحكام أسلموا بلادهم للسلطان نور الدين طواعية ليحميها من غزو الصليبيين ، ومن أجل موقع مصر وثرائها اتجه الصليبيون اليها وعرفوا أن بقاءهم بإمارات الشام رهن بتسلطهم على مصر ، وبالتالى اتجه المصريون الى الترحيب بأية قوة اسلامية تدفع هذا الخطر ، وكان نور الدين هو هذه القوة المأمولة فلم يقاوموا الانضمام اليه بل أيدوه .

٢ — المغالاة فى التشيع :

ومن الأسباب كذلك مغالاة الفاطميين فى التعصب للتشيع التى عادت للظهور مما جعل المصريين يؤيدون أية حركة تعيدهم للفكر السنى .

٣ — ضياع الشمال الافريقى :

وقد اتجه الفاطميون فى توسعهم الى المشرق وأهملوا الى حد ما الشمال الافريقى حيث أتباعهم الأولون ، فكان ذلك من أسباب ضياع هذه المنطقة ، أو قل ضياع جناح مهم من جناحى القوة الفاطمية .

٤ — أزمات داخلية :

وكانت سلطة الوزراء ، وعناصر الجيش ، والأزمات الاقتصادية ، وتولية كثير من الخلفاء وهم أطفال ، من دواعى انحلال الدولة وسرعة زوالها .

سوريا والحكم الفاطمى

تحدثنا فيما سبق عن ضــم سوريا لمصر فى مطلع العهد الفاطمى ، ونريد هنا ونحن نؤرخ لمصر وسوريا أن نذكر الخطوط التاريخية لسوريا خلال الخلافة الفاطمية .

كان الفاطميون يعدون سوريا جسرا يصلهم لتحقيق أغراضهم فى تكوين امبراطورية لهم فى بلاد المشرق الاسلامى ، وكانت سوريا قبلهم تابعة للاخشيديين ، فرأوا أن من حقهم وقد ورثوا الاخشيديين فى مصر أن يرثوهم فى الشـــــام أيضا .

ومن عوامل الرغبة فى فتح الشام كذلك أن الفاطميين اعتبروا سوريا خط الدفاع عن مصر ضد أى هجوم عباسى ، كذلك رأى الفاطميون أن سوريا هى المركز الذى يمكن منــه القضاء على القرامطــة الذين بدءوا يتمردون على الفاطميين وكانوا من أعوانهم من قبل ، ومن علامات هــذا التمرد مهادنة القرامطة للاخشيديين نظير ضريبة اتفقوا مع الوالى الاخشيدى على دفعها لهم (١) .

هــذا من جهة الفاطميين ، ولكن عقبات كثــيرة وقفت فى وجههم ، واستلزمت منهم جهودا كبيرة لينالوا هذا الأمل ، بل أثارت سوريا عليهم كلما بدا لهم أنهم سيطروا عليها ، وهذه العقبات هى الخلاف المذهبى ، وقوة القرامطة ، وقلة الحنكة السياسية فى القائد الفاطمى جعفر بن فلاح الذى عهد له بالزحف الى سوريا ، ثم بروز السلاجقة الذين كانوا فى قمة قوتهم فى حين كـــان العهد الفاطمى يــؤذن بالانهيار ، وأخيرا ظهور الصليبيين فى هذه المنطقة فى أخريات هذا العهد .

---

(١) دكتور حسن ابراهيم ودكتور طه شرف : المعز لدين الله ص ٩٢ .

وبين الشد والجذب من هنا وهناك ، وقفت سوريا • وفيما يلي أبرز الحركات التاريخية المرتبطة بسوريا خلال هذا العهد :

الفاطميون ونشاط القرامطة بسوريا :

عندما استقر جوهر بمصر أرسل القائد جعفر بن فلاح ليأخذ سوريا من الولاة الاخشيديين ، وكان هؤلاء الولاة من أسرة الاخشيد ، فالحسن الإخشيدى كان واليا على الرملة ، وشمول الاخشيدى كان والى دمشق ، وفاتك الاخشيدى كان واليا على طبرية ، وقد تحقق النصر لجعفر ، بيد أنه لم يحسن معاملة الأهلين ، ولم يطمئنهم الى حرية الاعتقاد ، فهبوا ثائرين ضده واستنجدوا بالقرامطة الذين ساءهم أن تنقطع عنهم الاتاوة التي كانوا يأخذونها من حاكم دمشق نظير عدم هجومهم عليها ، وقدر هذه الجزية ٣٠٠,٠٠٠ دينار ، وقامت معركة بين جعفر بن فلاح والحسن بن أحمد القرمطى انتصر فيها الأخير وقتل جعفر واستولى القرامطة على دمشق (١) •

ولم يكن القرامطة ينوون الاستمرار فى احتلال دمشق لبعدها عن مقرهم بالاحساء ، ولذلك أخلوها بعد أن نالوا ما استطاعوا حمله من المال ، ووقعت دمشق فريسة فى أيدي الروم المسيحيين ثم فى أيدى أفتكين التركى الشرابى غلام معز الدولة بن بويه ، وكان من أكابر الجند فى بلاط بغداد ، واستطاع بمؤازرة بعض العناصر الناقمة فى دمشق أن يستولى على المدينة ، ودعا أفتكين للخليفة العباسى ، وتحالف مع القرامطة الذين تناسوا اتجاههم العقائدى فى سبيل المال والثراء (٢) •

وظهر القرامطة مرة أخرى يهاجمون يافا وصيدا وعكا ، وكانوا هم وأفتكين مصدر قلق طوال عهد المعز ، فلما جاء العزيز حاول جوهر أن

---

(١) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر ج٢ ص ٣٤٨ — ٣٥٠ .
(٢) محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله ص ٧٩ (انظر الهامش) .

يتغلب عليهما ولكنه لم يفلح لأن التحالف بينهما ومؤازرة سكان الشام لهما جعل هذا الجانب يرجح الجانب الفاطمى ؛ ومن أجل هـذا سار العزيز بنفسه ونازلهما سنة ٣٦٨ وحقق عليهما نصرا مؤزرا فقتل من جيشهما حوالى ٢٠,٠٠٠ جنـدى وأسر أفتكين وهرب الحسن القرمطى بعـد الهزيمة ، ثـم استولى الفاطميون على حلب من الحمدانيين ، وأصبحت سوريا بذلك ضمن ملك الفاطميين (١) .

مصر تقضى على القرامطة :

وفى الجزء السابع من هذه الموسوعة تفاصيل الحروب بين المصريين والقرامطة ، وتصوير الانتصارات الهائلة التى حققها المصريون ضـد القرامطة والتى وضعت نهاية لدولة القرامطة ، فليرجع لذلك من يشاء (٢) .

انحسار ملك الصليبيين بسوريا :

وابتداء من عهد المستنصر بدأت الدولة الفاطمية تتقلص شيئا فشيئا ، وتعرضت أملاكها فى سوريا الى زحف من المرداسيين والسلاجقة الذين بدأت دولتهم فى النمـو والتطلع الى الشام ، كمـا تعرضت الى زحف الصليبيين ، فاستولى المرداسيون عـلى حلب سـنة ٤١٤هـ (١٠٢٣) ، واستولى السلاجقة على بقاع شتى من سوريا ابتداء من منتصف القرن الخامس الهجرى ، وآلت أملاك السلاجقة فى سوريا ـــ عقب انحلال هؤلاء ـــ الى الدولة البورية والى آل زنكى ، واستولى الصليبيون على بيت المقدس من الفاطميين كما استولوا على مدن أخرى بالساحل كما سنشرح ذلك فيما بعد . وتقلص بذلك سلطان الفاطميين فلم يعد يشمل مع مصر الا شريطا ضيقا جنوبى فلسطين .

وسنتكلم فيما يلى كلمة عن كل من المرداسيين والبوريين وآل زنكى :

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٧ ـــ ١٩ .

(٢) موسوعة التاريخ الاسلامى جـ٧ ص ٤٠٩ وما بعدها .

المرداسيون

(حلب)

٤١٤ — ٤٧٢ = ١٠٢٣ — ١٠٧٩

ينتسب المرداسيون الى أسد الدولة صالح بن مرداس من قبيلة بنى كلاب العربية ، وقد هاجم هذا بأتباعه من البدو بلدة حلب حوالى سنة ١٠١١ ، ثم انسحب منها ، وفى سنة ١٠٢٣ قام سكان الشام بثورة ضد الفاطميين كما سبق القول ، فسلم أهل حلب المدينة الى صالح ، وظل صالح يدافع عن المدينة حتى قتل سنة ١٠٢٩ فى معاركه مع المصريين ، فقام ابنه شبل الدولة مقامه ، ولكن جيوش الفاطميين قتلته أيضا سنة ١٠٣٧ ، بيد أن ابنا آخر لصالح هو معز الدولة استطاع أن يسيطر مؤقتا على المدينة ، ولكن الفاطميين عادوا فأخذوها منه ، ولكن ملك الفاطميين تقلص عنها نهائيا سنة ٤٥٢ (١٠٦٠) فاستعادها رشيد الدولة بن شبل الدولة .

ولم تعرف حلب الاستقرار بعد ذلك ، فقد كانت تعيش بين أطماع البيزنطيين والمرداسيين والعقيليين . وسقطت أخيرا فى أيدى العقيليين سنة ٤٧٢ (١٠٧٩) (١) ولكن سرعان ما احتواها ملك السلاجقة وانحدرت منهم الى الأتابك ، فكانت دمشق من نصيب البوريين ، وحلب من نصيب آل زنكى ثم امتد سلطان آل زنكى الى دمشق أيضا .

---

(1) Stanley Lane-poole .: Muhammadan Dynasties pp : 114-115.

البوريون

(دمشق)

٤٩٧ — ٥٤٩ = ١١٠٣ — ١١٥٤

كان طوغتكين أحد القادة فى جيش السلاجقة التابع للسلطان تتش ، وفى سنة ٤٨٨ (١٠٩٥) عين أتابك للأمير دقاق بن تتش أمير دمشق ، وسرعان ما سلب السلطة منه ، وطوغتكين جد أسرة البوريين التي تنتسب الى ابنه وخليفته (بورى) وأمراؤها هم :

سيف الاسلام ظاهر الدين طوغتكين	٤٩٧ = ١١٠٣
تاج الملوك بورى	٥٢٢ = ١١٢٨
شمس الملوك اسماعيل	٥٢٦ = ١١٣١
شهاب الدين محمود	٥٢٩ = ١١٣٤
جمال الدين محمود	٥٣٣ = ١١٣٨
مجير الدين أبتى	٥٣٤ = ١١٣٩(١)

واستولى عليها نور الدين زنكى سنة ٥٤٩ (١١٥٤)

آل زنكى

(الموصل — الجزيرة — سوريا — مصر)

كان عماد الدين زنكى أتابك الى تتش السلجوقى أمير حلب ، وبعد تتش عين عماد الدين حاكما للموصل والجزيرة وحران وحلب سنة ٥٢١ — ٥٢٢ وكانت الحروب الصليبية على أشدها ، وكانت كفة الصليبيين راجحة

---

(١) المرجع السابق ١٦٦ .

فتزعم عماد الدين جماعة المسلمين المكافحين ، وحقق نصرا عظيما ضـد الفرنجة — كما سنرى عند الكلام عن الحروب الصليبية — وبعد عماد الدين انقسمت مملكته بين ولديه نور الدين محمود الذى آل له شمال سوريا والذى حل محل أبيه فى زعامة الجبهة الاسلامية ضد المسيحيين الصليبيين ، وسيف الدين غازى الذى حكم الموصل ومناطق أخرى من العراق (١) ، وقد اتسعت مملكة نور الدين فشملت دمشق ثم امتدت الى مصر ، وبعد موته آل السلطان لابنه اسماعيل وهو فى الحادية عشرة ، ولكن صـلاح الدين الأيوبى كان قد استقر بمصر حتى قبل موت نور الدين ، ومـد سلطانه بعد موته فشمل سوريا واليمن والحجاز وصدر قـرار الخليفة العباسى بتوليته هذه البقاع •

وفيما يلى قوائم الأمراء من آل زنكى كما أوردها ستانلى لين بول (٢)

اتابكة الموصـل

عماد الدين زنكى	٥٢١ = ١١٢٧
سيف الدين غازى (الأول)	٥٤١ = ١١٤٦
قطب الدين محمود	٥٤٤ = ١١٤٩
سيف الدين غازى (الثانى)	٥٦٥ = ١١٦٩
عز الدين مسعود (الأول)	٥٧٦ = ١١٨٠
نور الدين أرسلان شاه (الأول)	٥٨٩ = ١١٩٣
عز الدين مسعود (الثانى)	٦٠٧ = ١٢١٠
نور الدين أرسلان شاه (الثانى)	٦١٥ = ١٢١٨
نصير الدين محمود	٦١٦ = ١٢١٩

(١) Stanley Lane Poole : Muhammadan Dynasties pp 162 - 163

(٢) المرجع السابق ص ١٨٣ •

بدر الدين لؤلؤ (وزير متغلب) ٦٣١ = ١٢٣٣
اسماعيل بن لؤلؤ ٦٥٧ = ١٢٥٩
الى ٦٦٠ = ١٢٦٢

استولى عليها المغول

أتابكية الجزيرة

معز الدين سنجر شاه ٥٧٦ = ١١٨٠
معز الدين محمود ٦٠٥ = ١٢٠٨
مسعود ؟ ؟

ضمها الأيوبيين

أتابكية سوريا

نور الدين محمود بن زنكى ٥٤١ = ١١٤٦
الصالح اسماعيل ٥٦٩ = ١١٧٣ الى ٥٧٧ = ١١٨١

ضمها الأويوبيون

الدور الثقافى لملكة نور الدين زنكى

أشرنا آنفا الى الدور السياسى الضخم الذى قام به نـور الدين لخدمة العالم الاسلامى ولتجميع كلمته أمام الزحف الصليبى ، وسيأتى لنا مزيد من هذا الحديث عند الكلام عن الحروب الصليبية وعن الدولة الأيوبية ، ولكن دور نور الدين لم يكن عسكريا فقط ، بل انه لعب دورا ثقافيا مهما للغاية ينبغى أن نشير إليه هنـا •

فى آخر القرن الثالث الهجرى بدأ الفاطميون يكوّنون دولة فى الشمال الافريقى ثم زحفوا الى مصر سنة ٣٥٩ ، وهنا وهناك بدءوا ينشرون مذهب

الشيعة ويقاومون مذهب أهل السنة ، وفى نفس الفترة كان البويهيون قد حققوا انتصارا على بقايا الأتراك المماليك وبدءوا سلطانهم على الخلافة العباسية سنة (٣٣٤) وبالتالى عملوا على نشر التشيع ومقاومة المذهب السنى ، وهكذا حقق الشـيعة نجاحا فى الشرق والغرب وتقهقر أمـام سلطانهم النفوذ السنى .

وجاء السلاجقة للحكم (٤٤٧) فبدءوا يعيدون الأمور الى نصابها ، وقام الوزير السلجوقى الشهير نظام الملك بدور كبير فى احياء الدراسات السنية والقضاء على بقايا التشيع ، وتنسب الى هذا الوزير « المدارس النظامية » التى جلس الغزالى يعلم فى إحداها والتى كان لها نصيب كبير فى تنشيط المذهب السنى ومقاومة التشيع ، واقتبس نـور الدين زنكى هذا الاتجاه من نظام الملك ، فنشر فى مملكته بحلب ودمشق مدارس كتلك التى أنشأها نظام الملك ، فكان بذلك امتدادا له ، كما كان امتداداً لأبيه « عماد الدين » فى الانتصارات العسكرية ، وجاء صلاح الدين الأيوبى فـورث مملكة نور الدين فى الأمرين جميعا ، أى حل محله فى مقاومة الصليبيين ، كما نقل اتجاهاته الثقافية الى مصر فأنشأ بها مدارس لخدمة المـذهب السنى امتدادا لمدارس نظام الملك فى العراق ومدارس نور الدين فى الشام ، وعلى هذا نجد نور الدين زنكى فصلاح الدين الأيوبى يمثلان الحلقتين الثانية والثالثة فى الصراع العسكرى ضد الصليبيين وفى إحياء الدراسات السنية ، أما الحلقة الأولى فيمثلها عماد الدين زنكى فى الصراع العسكرى ويمثلها نظام الملك فى إحياء الدراسات السنية (١) .

---

(١) اقرأ تفاصيل هذا النشاط الثقافى بكتابنا « تاريخ التربية الاسلامية » .

الحضارة الفاطمية بمصر وسوريا

الأزهر الشريف :

اهتم الفاطميون اهتماما كبيرا بالحركة العلمية فى اتجاهاتها المختلفة ، وأبرز هذه الاتجاهات كان تنظيم الفكر الشيعى ونشره على أوسع نطاق كما سبق القول ، ويمكن اعتبار يعقوب بن كلس مثالا لهذا النشاط المذهبى ، فعلى الرغم من انشغاله بشئون الوزارة نجده يخصص وقتا ليؤلف الكتب والرسائل فى عقيدة المذهب وفقهه ، ويطلب من العزيز تحويل مسجد الأزهر الى جامعة شيعية تدرس فيها مبادىء التشيع ، بل يجلس هو فى الأزهر لتدريس هذه المبادىء ، وبعد فترة اتسع الأزهر لألوان من الفكر بجانب تدريس التشيع .

مجالس القصر ومجالس الدعوة :

اتخذ الخليفة من داره أحيانا ندوة يجتمع فيها علية القوم وسادتهم لدراسة أصول المذهب وطرق نشره . ومن الوظائف المهمة التى استحدثها الفاطميون وظيفة داعى الدعاة ، وهى تشبه وزارة الدعاية والاعلام فى الدول الحديثة ، وكانت يختار لها الضالعون فى الفكر الشيعى والعارفون بأسرار الدعوة ، وكان داعى الدعاة يشرف على الدعاية للمذهب ونشره فى العاصمة والأقاليم عن طريق المجالس والندوات والمحاضرات والمؤلفات ، وكثيرا ما كان داعى الدعاة هو قاضى القضاة .

وشجع الفاطميون شعراء المذهب لينشروا قصائدهم بين الجماهير .. وكان الشعر آنذاك يمثل صحافة العصر ، فاذا كانت الندوات والمجالس العلمية اتجهت للمثقفين فان الشعر كان وسيلة الدعاية للمذهب بين العامة .

علماء فى الفلك والصيدلة والطب ... :

وبجانب المذهب الشيعى اهتم الفاطميون بخدمة فروع أخرى من العلم والمعرفة ، وقد سبق أن تحدثنا عن دار العلم التى أنشأها الحاكم

وكيف كانت مركزا للثقافة والفكر ، وبجانب ذلك عنى الحاكم بدراسات أخرى ، فلقد ازدان بلاطه بعلى بـن يونس ألمع من أنجبتهم مصر مـن الفلكيين • وبالحسن ابن الهيثم كبير علماء الطبيعيات المسلمين والاخصائى فى علم البصريات والذى لا تقل المصنفات المنسوبة اليه فى الرياضيات والفلك والفلسفة والطب عن المائة (١) ، وأهم الكتب التى اشتهر بهـا كتاب المناظر الذى ترجم الى اللاتينية وطبع سنة ١٥٧٢ ، وكان لـه أثر كبير فى نشر علم البصريات فى العصور الوسطى ، وأغلب كتّاب العصور الوسطى الذين عالجوا هذا الموضوع يبنون مؤلفاتهم على كتاب ابن الهيثم المذكور ، وفى مؤلفات روجر بـاكون وليونارد دى فنشى ويوحان كيلر آثار لهذا الكتاب ، ولقد ناقض ابن الهيثم نظريـة إقليدس وبطليموس القائلة بأن العين ترسل شعاعا بصريا الى الشىء المرئى ، وقال إن شعاعا ينبعث من الشىء للعين ، وقارب فى بعض تجاربه حد اكتشاف العدسات المكبرة نظريا (٢) •

ومن العلماء الذين ظهروا فى هذا العصر أيضا عمار بن الموصلى ولـه كتاب فى أمراض العيون عنوانه « المنتخب فى علاج العين » وهو مخطوط يوجد قسم منه بمكتبة الاسكوريال (٣) •

كما اشتهر عدد من الأطباء والفلاسفة من أعظمهم على بن رضوان الذى تولى منصب رئيس الأطباء فى بلاط الخليفة العزيز ، وألف كثيرا من الكتب فى الفلسفة والمنطق •

مؤرخـون :

واشتهر كذلك فى العصر الفاطمى بعض المؤرخين ، منهم ابن زولاق

---

(١) ابن أبى أصيبعة جـ٢ ص ٩١ وما بعدها ، والقفطى ص ١٦٧ — ١٦٨ ، وابن خلكان جـ٢ ص ١٢٧ •

(٢) Hitti : History of the Arabs pp 744 - 745

(٣) نفس المرجع •

الذى ألف كثيرا من الكتب فى تاريخ مصر زمن الاخشيديين والفاطميين ، ومنهم أيضا ابن منجب الصيرفى الذى تولى ديوان الانشاء أواخر العصر الفاطمى ، ويعتبر كتابه « الإشارة الى من نال الوزارة » حجة فى تاريخ هـــذا العصر .

شعـــراء :

وفى هذا العصر ظهر كذلك عدد من الشعراء فى مقدمتهم ابن هانىء الأندلسى الذى نظم ديوانا فى مدح الخليفة المعز لدين الله الفــاطمى ، ومنهم كذلك عمارة اليمنى صاحب الديوان المشهور باسمه الذى مدح فيه الخليفة العاضد آخر الخلفاء الفاطميين ، وعمارة هذا هو الذى دبَّر ثورة ضد الحكم الأيوبى لقوة تعصبه للفاطميين (١) .

شاعر سوريا الفيلسوف :

ومن أبرز شعراء سوريا فى هذا العصر أبو العلاء المعرى (٣٦٣ = ٩٧٣ — ٤٤٩ — ١٠٥٧) الشاعر الفيلسوف رهين المحبسين (البيت والعمى) ، وكان قد رحل الى بغداد فى طلب العلم ، ويبدو أنه اتصل فيها ببعض الشيوخ الذين يتجهون اتجاه المعتزلة وببعض الفلاسفة المتأثرين بالمذاهب اليونانية وبفلاسفة الهنود ، وكان لهؤلاء أثر فى حياته وشعره ، ولم يكن المعرى مداحا للعظماء والخلفاء ، بل كان زاهدا ، ويروى أنه عندما احتل جيش المستنصر الفاطمى بلدة المعرة قدم قائد الجيش الى المعرى ما فى خزانة المدينة من مال ، ولكن المعرى رفضه (٢) ، وكانت لـه هيبة عظيمة عند الحكام ، فيروى أنه ذهب مرة ليتوسط لدى صالح بن مرداس ليطلق سراح ستين من وجهاء المدينة كان صالح يهدد باعتقالهم ، فاستجاب له صالح فى الحال وأطلق سراحهم (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٧٤٥ .

(٢) ياقوت : معجم الادباء ج١ ص ٥٩ .

(٣) فيليب حتى تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ج٢ ص ٢٠٥ .

والمعرى هو مؤلف رسالة الغفران التى يُعْتَقَد أن دانتى ألف الكوميديا الالهية على غرارها : وقد التزم المعرى فى أكثر شعره الاتجاه الفلسفى ، وله معان سبق بها عمر الخيام ، ومن ناحية القافية التزم المعرى فى أكثر شعره ما لا يلزم ، أى جعل قافيته مكوّنة من حرفين ؛ ولذلك سمّى ديوانه « اللزوميات ، أو لزوم لا يلزم » ومن شعره على هذا النسق قوله :

ضحكنا ، وكان الضحك منا سفاهة — وحق لأبناء البسيطة أن يبكوا
يحطمنا ريب الزمان كأننا — زجاج ، ولكن لا يعاد له سبك

الهندسة والعمران :

وفى الفن وهندسة البناء ترك الفاطميون آثارا خالدة فى قمتها مدينة القاهرة والأزهر والمساجد الكثيرة التى تحمل أسماء خلفائهم ووزرائهم ، ولا يزال باب زويلة ، وباب النصر ، وباب الفتوح شاهد صدق على ما وصلت له عظمة البناء فى هذا العصر ، وقد بلغت القاهرة فى عهد الفاطميين شأوا بعيدا من الرقى والتقدم ، فكانت بها الأسواق العامرة والبساتين الغناء ، والعمائر الشامخة وغيرها مما أفاض المقريزى فى وصفها فى خططه .

الزخرفة الإسلامية :

أخذت الزخرفة الاسلامية عناصرها من ثلاثة أشياء :

١ — آيات من القرآن الكريم تكتب بالخطوط الجميلة .

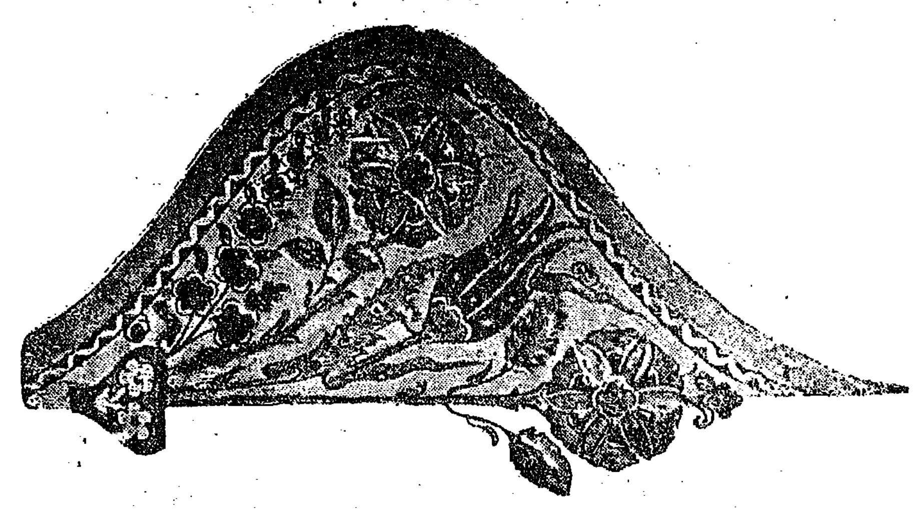
٢ — الأشكال الهندسية .

٣ — أوراق الشجر .

ومع هذا بعض نماذج الزخرفة التى ظهرت فى الجامع الأزهر وفى غيره من الآثار الإسلامية بالقاهرة .

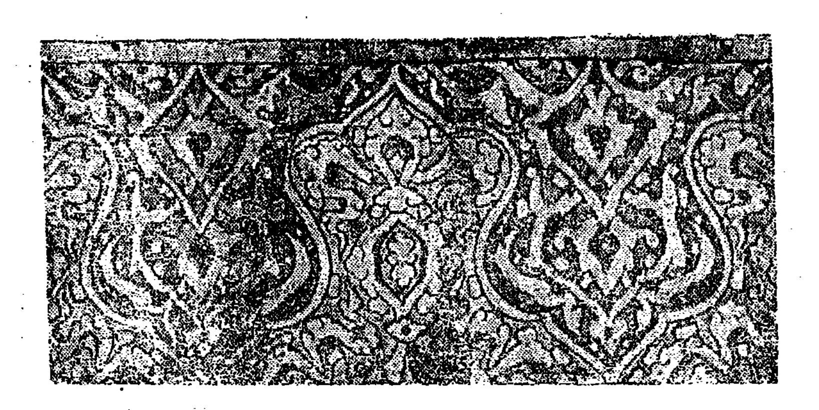


باب زويلة وجزء من سور القاهرة القديم



آثار زخرفية بمصر





آثار زخرفية بالأزهر

البحرية والترسانة :

وقد ورث الفاطميون بحرية الأغالبة ، كما قلنا فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة ، ولما جاءوا الى مصر أدركوا ضرورة تقوية بحريتهم ، إذ هددتهم بحرية الروم دائما ، ولهذا أنشأ المعز لدين الله ومن جاء بعده ترسانة لإنشاء المراكب الحربية فى الروضة وفى الاسكندرية ودمياط ، وكانت بعض وحداتها تسير للمرابطة فى الموانى الشامية مثل عكا وصور وعسقلان،وكذلك فى عيذاب على البحر الأحمر : وأنشأ المعز أيضا داراً لصناعة السفن بالمقس بنى بها ستمائة سفينة ، وكان على رأس الأسطول الفاطمى عشرة قواد ، عليهم رئيس يدعى أمير الأسطول ، وأفرد للأسطول ميزانية ضخمة (١) .

وعنى الفاطميون عناية كبيرة بالصناعات المتعلقة بتجهيز الجيوش واعداد العدة الحربية التى كانت عمادهم فى المحافظة على دولتهم وفى محاولة توسيعها .

صناعات مدنية :

ومن الصناعات المدنية التى اشتهرت فى العصر الفاطمى صناعة المنسوجات ، وقد بلغت الذروة فى الجودة والجمال ، واشتهرت بها مدينة دمياط ، وكانت منسوجات مصر تصدر الى العراق وغيره من البلدان : ولعل من أسباب الاهتمام بالمنسوجات أن عادة الفاطميين كانت تجرى بتقديم الأكسية لجميع موظفى الدولة فى الشتاء والصيف ، ومن أجل هذا أنشأ المعز لدين الله دارا عرفت بدار الكسوة ، وكانت منسوجاتها تتناسب مع مراكز الذين ستمنح لهم هذه الملابس ، ومنهم الوزراء والقضاة ، وكان للفاطميين بجانب دار الكسوة دار تعرف بدار الديباج لصناعة الحرير ، وقد بلغت مخصصات دار الكسوة لعمل الملابس سنة

(١) دكتور على ابراهيم مصر فى العصور الوسطى ص ٣٢٢ — ٣٢٣ .

٥١٦٠ هـ مبلغ ٦٠٠٫٠٠٠ دينـار ، وكانت الحلل تقدم للأمـراء والوزراء والأشراف فى عيد الفطر ، ولذلك سمى هذا العيد بعيد الحلل [١] ، وكان الخلفاء يتنافسون فى الإنعام على كبـار الدولة ؛ وقد روى عن العزيز قوله : **أحب أن أرى النعم عنـد الناس ظاهرة ، وأرى عليهم الذهب والفضة والجوهر ، ولهم الخيل واللباس والضياع والعقار** [٢] .

وعنى الخلفاء بزركشة الملابس وتطريزها بخيوط من الذهب ومن الفضة أحيانا ، وكانت كسوة الكعبة وملابس كبار الرجال تزدان بالطراز الفاخر ، وامتدت الزركشـة الى الفرش والبسط والخيام وشراعـات السفن ، وكان من أمتعة قصر الخليفة المستنصر الذى نهبه الثوار فى أثناء الشدة فسطاط الخليفة الظاهر ، وكان منسوجا من خيوط الذهب ومقاما على أعمدة من الفضة ، وبلغت قيمته أربعة عشر ألف دينار [٣] .

صناعات معادن :

وعنى المصريون فى هذا العصر عناية كبيرة بصناعة المعادن وبخاصة من الذهب والفضة ، كما عنوا بالنقش عـلى الخشب وحفره وتطعيمه بمختلف الأحجار ، وكـانت لهم عناية بالغة بصـناعة الزجاج والخزف وبالرسم الرائع على هـذه الصناعات المهمة ، وقد خلف العهد الفاطمى ألوانا مـن الصحاف ومجموعة رائعة من أوانى الذهب ذات النقـوش البديعة والأوانى الخزفية ذات الرسوم العجيبة مما يشهد لهذا العصر بالنبوغ والمجـد .

أهم آثار الفاطميين :

يعتبر عصر الفاطميين أغنى فترة مصرية بالآثار ، وهو عهد طويل وعريض بإنجازاته وآثاره ، وأهم آثـار الفاطميين مدينة القـاهرة التى

---

(١) دكتور على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ٣٧٤ .
(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة جا ص ٤١٨ .
(٣) دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين ص ٦٣ .

كانت تسمى قبل وصول المعز « مدينة المنصورية » ثم أطلق المعز لدين الله عليها « القاهرة المعزية » .

الأزهر : التاريخ والفكر :

على أن أهم آثار الدولة الفاطمية هو « الأزهر » الذى لعب دورا كبيرا فى خدمة الاسلام والمسلمين ، وتجاوز عمره ألف سنة ، وقد وضع أساسه سنة ٣٥٩هـ وافتتح للصلاة سنة ٣٦١هـ ، وجلس به على بن النعمان مدرسا سنة ٣٦٥ ثم أعلن يعقوب بن كلس نقله الى جامعة سنة ٣٧٨ وعين لـه هيئة تدريس .

وكان يجلس بـه قاضى القضاة والمحتسب .

وكان الأزهر فى أكثر تاريخه يهيىء لطلاب العلم كل وسائل الراحة ، فما ان يصـل الطالب الى الأزهر حتى يجد أن مشـكلاته قد حُلَّت ، فالرواق يضمن له السكنى ، والجراية تضمن لـه الطعام ، والحلقـات مفتوحة ليختار منهـا مـا يناسبه .

وكـان يدرس بالأزهر الفقه الشيعى ويقوم بتدريسه آل النعمان : ويدرس بـه التاريخ الاسلامى ويقـوم بتدريسه المسبحى المصرى ، ويدرس به الحديث ويقوم بتدريسه القضاعى ، وكان هذا يدرس به أيضا أنباء الأنبياء ، وهو العلم الذى يسمى الآن « مقارنة الأديان » بعد نوع من التعديل فى طرق تدريس هذه الأنباء .

وكان يُدْرَس بـه النحو ، وممـن مشاهير من جلسوا لتعليمـه ابن بابشاذ والشاطبى .

وكان يُدْرَس بـه الطب وممن علم بـه هذه المـادة الحسـن بن الخطيب [illegible] البغدادى .

و[illegible] التاريخ لقى الأزهر عناية الخلفاء والسلاطين المصريين وبخاصة خلفاء الفاطميين وسلاطين المماليك ، فحظى الأزهر بمزيد من

الأوقاف وأضافوا له أروقة إلى أروقته وزينوا محاريبه ، كما وهبوا له المنابر والقناديل الثمينة ، وأنتشرت به زخارف غاية فى الروعة والجمال ، ولكنه عانى بعض الإهمال فى العهد الأيوبى وفى العهد العثمانى •

وبالأزهر ٢٩ رواقا للصعايدة والشراقوة والبحاروة ••• ثم للجرمين وجاوة والسليمانية والمغاربة والأتراك والسنارية والجبرتية والأكـراد والهنود والشوام • • • •

وبه ١٣ محرابا و ٦ مآذن و ٧ مزاول لمعرفة الوقت و ٩ أبـواب أهمها باب المزينين والمغاربة والعباسى والجوهرية •

ومن أهم مساجد العصر الفاطمى مسـجد الحاكم ، وقد أسسـه العزيز وأتمه وخطب به وصلى فيه ، ولكن الحاكم أتمّ ملحقاته وزينه وفرشه فنسب له ، وكان هذا المسجد يقع خارج سور القاهرة ، فلما بنى بدر الجمالى سوره أدخل هذا المسجد داخل السور مما يلى باب الفتـوح •

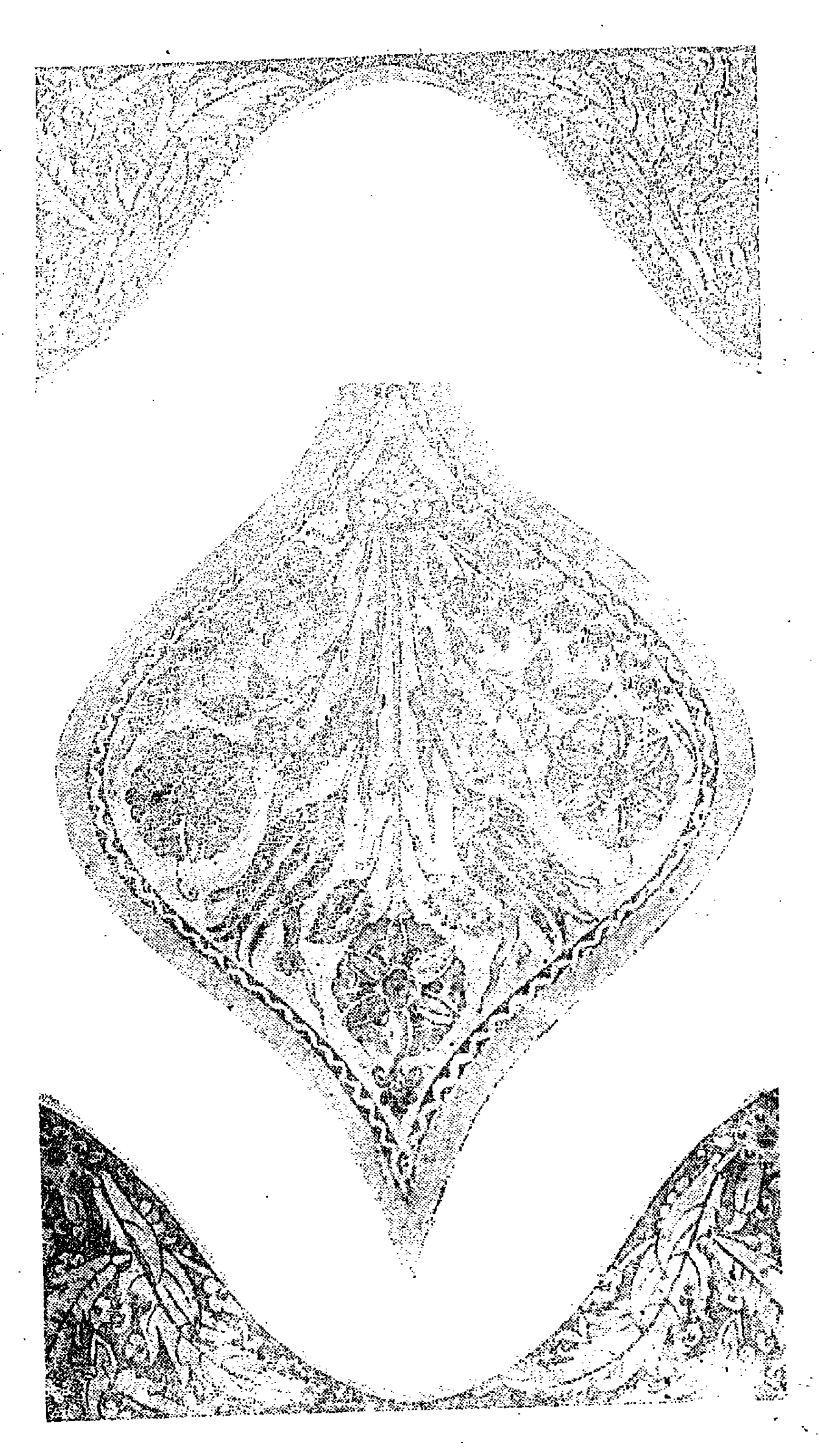
وكان للحاكم مدفن بناه بإشرافه ليدفن به ، ولكنه قُتِلَ وأُخفيت جثته فلم يدفن فيه ، ومسجد الحاكم يسمى أيضا الجامع الأنور •

ومن مساجد العهد الفاطمى جامع الصالح طلائع بن رزيك ومشهد الجيوشى وكثير من المشاهد •

ومن الآثار الفاطمية أسوار القاهرة المنيعة ، وأبواب القاهرة : بـاب الفتوح وباب النصر وباب زويلة •

ملك الفاطميين :

امتد ملك الفاطميين فى فترات ازدهارهم من نهر العاصى بالشام حتى حدود مراكش ، ومن منطقة الخرطوم بالسودان الى آسيا الصـغرى ؛ مما جعل سلطانهم يفوق كثيرا من ممالك ذلك العصر •



آثار زخرفية بالأزهر

الدَّوْلَةُ الأيُّوبيَّة

(٥٦٤ ـ ٦٤٨هـ = ١١٦٩ ـ ١٢٥٠م)

أصل الأيوبيين :

يُعدُّ وفيات الأعيان لابن خلكان من أهم المراجع التى عنيت عناية كبيرة بالأيوبيين ، وبخاصة صلاح الدين ، فقد ترجم ابن خلكان لأكثر أمراء هـذه الأسرة وقادتها ، وذكر كل ما يتصل بها فى هذه التراجم ، وخص صلاح الدين بأطول ترجمة وردت فى هذا المؤلف ا..... : حتى يمكن أن تصبح كتابا قائما بذاته ، وتمتاز بأنها جمعت من المعلومات ما لم يورده مرجع آخر حتى ابن شداد فى كتابه عن صلاح الدين « المحاسن اليوسفية » ، وبجانب ابن خلكان هناك كتب كثيرة اهتمت بالأيوبيين إذ كان هؤلاء قادة الدفاع عن الاسلام فى الحروب الصليبية ، فوجدوا من المؤرخين المسلمين وغير المسلمين عناية كبيرة ، ومن الكتب الكثيرة عـن الأيوبيين نقتبس خلاصة وافية نؤرخ بها لهذا العصر :

تنحدر الأسرة الأيوبية من أصل كردى ، وكان شادى جد صلاح الدين وأقدم من نعرف معرفة واضـحة فى الأسرة (١) ، يعيش فى بلدة « دوين » من بلاد أذربيجان قريبا من الكرخ ، وكان شادى من خيرة الرجال وذوى الهمة ، وكان له صديق اسمه بهروز ينزل منه منزلة الأخ ؛ وحدث أن بهروز وقع منه خطأ عوقب عليه ، فلم يستطع بعد ذلك البقاء فى دوين ، فهجرها الى العراق حيث عمل فى خدمة السلطان مسعود بن غياث الدين السلجوقى ، وفى هذا البلاط لمع بهروز ؛ فأسند له السلطان ولاية بغداد وأقطعه مدينة تكريت : وفى هذا المجد لم ينس بهروز رفيق صباه شادى ، فاستدعاه هو وأهله وجعله حاكم تكريت بالنيابة عنه ، وكان مع شادى ولداه نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) وشيركوه ، وتنسب الأسرة الأيوبية الى نجم الدين أيوب سالف الذكر ، ومات شادى بعد فترة فتولى مكانه ابنه الأكبر نجم الدين ، ولكن حدث خلاف بـين

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٧٦ وقد اورد ابن خلكان لـه نسبا وصله الى آدم ، ولكنه غير موثوق به .

شيركوه وبين أحد بطانة بهروز المقيمين بتكريت ، فقتله شيركوه : وغضب بهروز لذلك، وأرسل حاكما جديدا الى تكريت وطلب من نجم الدين أن يسلمه السلطان وأن يهاجر من تكريت هو وأهله ، وفى تكريت ولد صلاح الدين ويقال انه ولد فى نفس الليلة التى بدأت فيها رحلة أهله وذويه منها (١) • ولعل موقف بهروز لم يكن فقط بسبب اعتداء شيركوه على أحد بطانته ، بل لإحساسه بنمو نفوذ نجم الدين وأهله ، وخوفه من عاقبة صلات الود التى كانت تتطور بين هؤلاء وبين سكان المدينة •

الخير لا يضيع :

وقبل أن ندع تكريت نذكر حادثا وقع بها ، وكان ذا أثر فيما جاء بعد ذلك من أحداث :

كان عماد الدين زنكى أتابك الموصل قد سار بجيشه لمساعدة السلطان مسعود ضد الخليفة العباسى المسترشد ، ولكن عماد الدين زنكى هزم فى المعركة ، وعاد ومعه فلول جيشه يحمل أعباء الهزيمة وخوف المستقبل ، وفى الطريق الى الموصل مر بتكريت فى حالة من الألم واليأس ، فألقى بعصاه بها : وأسلم أمره الى حاكمها نجم الدين بن شادى ، فأكرم نجم الدين وفادته وأحسن استقباله وساعده على اجتياز دجلة ، وقدم له الزاد والعون ، وأنهى بذلك حيرته ويأسه ، وكان ذلك أيضا مما أغضب بهروز ، فقد كان بهروز فى صف الخليفة ضد عماد الدين زنكى (٢) •

ولهذا نجد نجم الدين عقب خروجه من تكريت سنة ٥٣٢هـ يتجه الى الموصل ليستعين على مشكلات الحياة بالرجل المدين له بالعون والمساعدة ، بعماد الدين زنكى (٣) •

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ١ ص ٨٤ — ٨٥ .
(٢) ابن خلكان جـ١ ص ٣٧٧ .
(٣) قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ص ٢٨ — ٢٩ .

وفى رحاب عماد الدين تألقت الأسرة الأيوبية ، فقد أصبح نجم الدين وأخوه شيركوه من خيرة القواد ، وقتل عماد الدين بعد ذلك واقتسم أولاده من بعده ملكه ، فورث نور الدين حلب على رأس إخوته وأصبح صاحب اليد الطولى ، وكان ذلك بمساعدة الأيوبيين ، واستطاع بعد ذلك أن يضم دمشق الى ملكه ، وفى دمشق نما صلاح الدين وتلقى علومه الدينية والاسلامية ، حتى صارت لغته العربية قوية فى الفصاحة والبيان ، كما حفظ القرآن الكريم وتلقى علوم الشريعة ، بالإضافة الى ممارسته للفروسية والصيد والرمى بالسهام وغيرها من ضرورات البطولة .

الأيوبيون فى مصر :

سيطر نور الدين على حلب ثم على دمشق كما سبق القول ، ورأى أن سيطرته على مصر ضرورية ليكمل التفافه حول الصليبيين حتى يستطيع أن يقضى عليهم ، وليستعين بثراء مصر فى مشروعاته ، ثم لينشر المذهب السنى بها بدل مذهب الفاطميين .

وقد أتاحت فوضى الوزارة فى مصر إبان عهد العاضد الفرصة لنور الدين ليتدخل فى شئونها ، وبلغت حملات نور الدين على مصر ثلاثا كانت كلها بقيادة أسد الدين شيركوه ومعه ابن أخيه صلاح الدين ، وكانت الحملة الأولى سنة ٥٥٩ استجابة لطلب شاور الذى هرب الى الشام من وجه ضرغام واستنجد بنور الدين ، وحضرت هذه الحملة الى مصر مع شاور وقضت على ضرغام ، ولكن شاورا لم يوف بوعده لنور الدين ، وسرعان ما أنقلب ضد الذين أعادوه الى السلطة ، وبلغ من خيانته أن استعان بالصليبيين لينقذوا البلاد من جيش نور الدين ، فحضر له الجيش الصليبى الذى كان قد أعد لمساعدة ضرغام ضد شاور ، وطوق الصليبيون

جيش أسد الدين شيركوه فى بلبيس ، ولكن نور الدين أعد العدة لمهاجمة الصليبيين فى الشام فخاف هؤلاء ، وأخيرا اتفق الطرفان على إخلاء مصر ، ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثانية فكانت سنة ٥٦٢ هـ ، وقد حضرت لمقاومة الصليبيين الذين عادوا الى مصر بناء على طلب شاور ليثبتوا عرشه الذى كان يهتز تحته ، وحدثت بين الجيشين معركة كبرى هى معركة « البابين » بالقرب من المنيا ، وقد انتصرت جيوش نور الدين انتصارا كبيرا ، وعقب ذلك انسحبت جيوش الصليبيين تجاه الشمال كأنها تريد العودة إلى فلسطين ، وبقى شيركوه ببعض الجيش فى المنيا أما باقى الجيش فقد قاده صلاح الدين إلى الاسكندرية لرد هجوم صليبى آخر وافد من صقلية ، وانتهز الجيش الصليبى المنهزم هذه الفرصة فأسرع خلف صلاح الدين ، وبذلك حوصر جيش صلاح الدين بالاسكندرية ، ومرت فترات قاسية بصلاح الدين أظهر خلالها ضروربا من البسالة وظهرت فيها شخصيته وحسن ادارته ، وتحطم الحصار لاصراره من جهة ، ولإسراع عمه لمساعدته من جهة أخرى ثم لهجوم نور الدين على القدس من جهة ثالثة ، وتم الاتفاق بين جيش نور الدين وبين الصليبيين على إخلاء مصر مرة أخرى : ونفذ الاتفاق .

أما الحملة الثالثة فكانت سنة ٥٦٤ ، وكان سببها أن خلافا وقع بين شاور والفرنجة لأنه لم يوف لهم بما تعهد به اليهم من أموال ، فهاجم الفرنجة مصر واحتلوا بلبيس ، وأعملوا فى سكانها القتل والسلب ، وحينئذ اتصل الخليفة العاضد سرا بنور الدين زنكى وطلب عونه ضد الصليبيين وضد شاور ، فحضر شيركوه لثالث مرة ، وتردد صلاح الدين هذه المرة فى مصاحبته لما عاناه إبان الحصار فى الاسكندرية ، ولكنه عاد وقَبِلَ

الحضور ، وقد تظاهر شاور بالترحيب بهـذه الحملة وذهب لاستقبال شيركوه ، ولكن صلاح الدين قبض عليه وصدرت أوامر الخليفة بالقضاء عليه فقتل ، وأسندت الوزارة الى شيركوه ، ولكن هذا مات بعد شهرين فآلت الوزارة الى صلاح الدين ، وتوالت الأحـداث على مـا ذكرنا في نهاية الدولة الفاطمية ، فقد قطع صلاح الدين الخطبة للفاطميين ، وخطب باسم الخليفة العباسي واسم نور الدين ومات الخليفة العاضد عقب ذلك ، وعادت مصر الى أحضان المذهب السنّي .

صلاح الدين يمكّن لسلطانه :

بدأت سلطة صلاح الدين بمصر سنة ٥٦٤هـ ولكنه لم يُسْقط الخلافة الفاطمية إلا سنة ٥٦٧ ، ومعنى هذا أنه مرت ثلاث سنوات كان السلطان على مصر من الناحية العملية في يد صلاح الدين ، ولكنه كان يعترف بالخليفة الفاطمي ، وكان في نفس الوقت تابعا لنور الدين زنكي وقائدا من قواده ، وكان صلاح الدين لهذا يدعو للاثنين في الخطبة ، كما كـان يضع الخطط للتخلص من الاثنين جميعا ، ولكن كان عليه قبل كل شيء أن يمكن لسلطانه في البلاد ليكون ذلك عونا له فيما سيقابله من مشكلات .

بدأ صلاح الدين ذلك بأن أظهر العدل بين الناس وعاملهم بكريم السجايا ونبيل الصفات ، وأظهر التسامح مع أتباع المذهب الشيعي الذي كان منتشرا بالبلاد ، كما سوى في معاملته بين أتباع الديانات المختلفة فأبرز صفة أصيلة في نفسه هي التسامح الديني ، وأتاح للأقباط حرية التدين الى أقصى حد ، وكان من نتائج ذلك أن أحبه الأقباط محبة شديدة حتى ليذهب أحمد زكي (باشـا) الى أنهم وضـعوا صورته في كنائسهم ، ويستشهد على ذلك بأدلة كثيرة منها أن الشاعر عبد المنعم الأندلسي زار

مصر فى ذلك الحين فدهش لما رآه من حب القبط لصلاح الدين ، فنظم قصيدة طويلة فى هذا المعنى جاء فيها :

فَحَطّوا بأرجاء الهياكل صورة لك اعتقدوها كاعتقاد الأقانم (١)

واتجه كذلك بجهوده نحو المصريين جميعا فرفع عنهم المظالم ، وخفف الضرائب والمكوس التى كانت ترهقهم ، وأصدر أوامره بأن تكون جباية الضرائب بمصر بيسر وسهولة ، واستمال بذلك قلوب الناس ، كما بذل الأموال مما كان أسد الدين شيركوه قد جمعه ، وطلب من العاضد شيئا يخرجه للناس فاستجاب له العاضد راضيا أو كارها ، وفى هذه الأثناء كان صلاح الدين يقف من الصليبيين موقفا حازما ، فقد رد بعنف عدوانهم على دمياط ولم يقف طويلا موقف المدافع ، وانما راح يهاجم الصليبيين فى معاقلهم ، فابتدأ بذلك طور جديد فى تاريخ الحروب الصليبية ، وأصبح الفرنجة مدافعين وكانوا من قبل مهاجمين ، وطالما غنم منهم الغنائم فى هجماته وأمَّن منهم تجار المسلمين وأرضهم ، وبهذا أقبل المصريون على صلاح الدين وأحبوه واتخذوه لهم زعيما وقائدا ، ناصروه والتفوا حول رايته وتهيأ له بذلك أن يخطو فى أمن نحو أهدافه .

عـزل العاضد :

أصبح العاضد مسلوب السلطة ، ولم يبق له إلا اسم هزيل يذكر فى الخطبة ، وبجواره اسم نـور الدين السنى الـذى يخطب فى بلاده لخلفاء بنى العباس ، وأصبح أمر مصر بيد صلاح الدين السنى كذلك ، فكان ذلك أمرا عجبا ، ولهذا ما ان أحس صلاح الدين باستقرار الأمر لـه حتى فكر فى القضاء على هذا الخيط الضئيل الباقى من الفاطميين ، وبخاصة أن نور الدين زنكى كان يحث صلاح الدين من حين الى حين

---

(١) نقلا عن صلاح الدين الأيوبى لقدرى قلعجى ص ٤٣ .

أن يخطو هذه الخطوة . وكان العاضد آنذاك مريضا منزويا فى بيته ، ويروى أن صلاح الدين أحس بشىء من التردد فى اعلان عزل العاضد وإسقاط الخلافة الفاطمية ، فأوعز الى أحد أتباعه أن يفعل ذلك فى أحد المساجد ليرى رد الفعل عند الجماهير ، ولكن أحدا لم يحرك ساكنا ، مما دعا صلاح الدين أن يأمر جميع خطباء المساجد أن يفعلوا ذلك فى الجمعة التالية ، وكان ذلك سنة ٥٦٧ هـ (١) .

وكان العاضد آنذاك قد اشتد مرضه فلم يعلمه أهله وأصحابه بذلك ، وقالوا إن سلم فهو يعلم وإن توفى فلا ينبغى أن ننغص عليه هذه الأيام التى بقيت من أجله ، فتوفى يوم عاشوراء ولم يعلم ، ولما توفى جلس صلاح الدين للعزاء ثلاثة أيام واستولى على قصره فوزع بعض ما بالقصور على قومه وأتباعه ، وأعتق بعض الجوارى ، ونقل أهل العاضد الى مكان خاص ووكل بهم من يحفظهم وأغدق عليهم الخيرات ، أما مكتبة القصر فقد وكلها صلاح الدين الى القاضى الفاضل فأبقى منها ما أبقى ، وأحرق ما يبالغ فى التشيع ، وباع بعض محتوياتها وأدخل ثمنه فى بيت المال (٢) ولم ينتقل صلاح الدين الى دار الخلافة وانما بقى بدار الوزارة حيث كان .

وسار صلاح الدين فى استكمال الخطوات التى تتبع اسقاط الفاطميين والحاق مصر بالخلافة العباسية ، فخطب للخليفة المستضىء بالله العباسى ، وعزل القضاة الشيعة وأقام قاضيا شافعيا فى القاهرة ، فاستناب هذا عنه القضاة الشافعية فى جميع البلدان (٣) ، ويقول المقريزى إن صلاح الدين فوّض القضاء لصدر الدين عبد الملك بن درباس الشافعى ، فلم يستنب هذا عنه فى اقليم مصر الا من كان شافعى المذهب ، فاختفى

---

(١) ابو شامة : الروضتين جـ١ ص ٢٩٤ .
(٢) ابن خلكان : المرجع السابق ص ٣٨٣ .
(٣) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٥٦٧ .

مذهب الشيعة حتى فُقِدَ من مصر كلها ، ومن منشآت صلاح الدين المرتبطة بذلك مدارسه الشافعية التى أقامها فى مصر ، ومنها المدرسة الناصرية بجوار الجامع العتيق والقمحية والسيوفية والناصرية بالقرافة ، والصلاحية ببيت المقدس ، والصلاحية بدمشق (١) .

ذيول الفاطميين :

على الرغم من أن مصر قد استجابت لصلاح الدين وأسدلت الستار على التشيع ، الا أن فئات خاصة أحست بخسارة تصيبها بسبب زوال الفاطميين ، فلا غرو أن يبدأ هؤلاء بإثارة المتاعب فى وجه صلاح الدين لعله يكون من الممكن أن يعودوا بعقارب الساعة الى الوراء ، وأهم هذه المؤامرات تلك التى قام بها نجاح الخصى الأسود الملقب « مؤتمن الخلافة » الذى كان زعيما للسودانيين فى مصر ، فيروى أنه كتب للفرنجة يطلب منهم الزحف على مصر ، ووعدهم بأن يضرب صلاح الدين من الخلف عندما يتجه هذا لمقابلتهم ، بيد أن رسالة مؤتمن الخلافة وقعت فى يد رجال صلاح الدين ، فأدرك صلاح الدين ما يراد به ، وعرف ما يكنه له مؤتمن الخلافة من خيانة وغدر ، فأوعز الى بعض رجاله بالقضاء عليه ، وتمَّ له ما أراد .

ولكن القضاء على مؤتمن الخلافة أثار الجند السودان ، وكانوا أكثر من خمسين ألفا ، وكانوا اذا قاموا على وزير أذلوه واستباحوه وربما قتلوه (٢) ولكن صلاح الدين لم يكن من طراز هؤلاء الوزراء الضعفاء ، بل هبَّ يكسر صولة هؤلاء الثائرين وأوعز الى بعض اخوته فاتجهوا الى المحلة التى يعيش بها السودان وأشعلوا فيها النار ، وهرع

(١) الخطط جـ٢ ص ٣٦٣ — ٣٦٥ والنعيمى ٣ : ١٠ والأنس الجليل ٢ : ٣٩٣ واقرأ كذلك تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٠٤ — ١٠٥ .

(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٤٧ .

السودان لينقذوا نساءهم وأطفالهم ، وطاردهم صلاح الدين فى تقهقرهم فقضى على الكثيرين منهم وقبض على بعضهم ، ولكن سطوة السودان لم تنته بهذه المعركة فان كثيرين منهم فروا الى الوجه القبلى ، وبذلك ظل الصعيد مثار شغب واضطراب على صلاح الدين حوالى ست سنوات ، وكان يتزعم السودانيين فى هذه الحركات رجل يسمى كنز الدولة ، وهو من أبناء الصعيد ، ولم تنته هذه الفتن بالصعيد إلا سنة ٥٧٠هـ وكان الملك العادل أخو صلاح الدين قائدا لجيوش أخيه فى هذه المعارك .

ومن الحركات التى أثارت المتاعب فى وجه صلاح الدين تلك الحركة التى قام بها الشاعر عمارة اليمنى ، فقد استطاع عمارة أن يضم إليه كثيرين من الثائرين على الدولة وبعض السودانيين والتركمان وبعض الأكراد الذين دب فى نفوسهم الحسد ضد صلاح الدين ، وأن يضم كذلك بعض الذين كانوا كبار موظفى الدولة الفاطمية : أمثال عبد الجبار بن إسماعيل داعى الدعاة ، وابن كامل قاضى القضاة وغيرهما ، ثم اتصل عمارة اليمنى بقوى الأعداء بالخارج يستجدى تعاونهم معه ، فاتصل بملك الفرنجة ببيت المقدس ، وبملك صقلية النورماندى ، وبراشدالدين سنان رئيس الاسماعيلية الحشاشين ، ويمكن القول إن هذه كانت أعنف الحركات التى تعرض لها صلاح الدين ، وبخاصة هجوم أسطول صقلية الذى حاصر الاسكندرية وقسا فى ضربها بالمجانيق والدبابات مدة ثلاثة أيام ، ولكن صلاح الدين استطاع أن يتغلب على هذه الفتنة ، وساعدته الظروف إذ اضطرب توقيت الحملات الخارجية ، وقضى صلاح الدين على الهجوم الصقلى قبل أن يبدأ زحف الفرنجة ، ثم قبض على المتآمرين وأنزل بهم صوراً من العقاب ، وقتل عمارة اليمنى سنة ٥٦٩هـ .

بين صلاح الدين ونور الدين :

عندما تخلص صلاح الدين من الفاطميين ، كان عليه — ليكمل سلطانه — أن يتخلص من سيادة نور الدين زنكى ، وكان نور الدين زنكى

يحس بأن صلاح الدين بدأ يعمل لحساب نفسه أكثر مما يعمل لحساب السلطة التى أرسلته إلى مصر ، وقد ظل صلاح الدين يعمل فى جبهتين فى وقت واحد ، فهو من جهة يدعم سلطانه ويقوى نفسه ، وهو من جهة أخرى لا يقطع حبل الود مع نور الدين بل يذكر اسمه فى الخطبة ، وينقشه على السكة ، ويسترضيه بالهدايا والتحف النفيسة (١) ، ولعل أولى الخطوات التى أثارت الشكوك فى نفس نور الدين كانت ذلك الطلب الذى تقدم به صلاح الدين الى نور الدين بطلب إيفاد والده إليه ، وتبع ذلك مطالب مماثلة كطلب إيفاد اخوته وذويه ، وقد أحس نور الدين من ذلك أن صلاح الدين يريد تثبيت نفسه ودعم سلطانه واستقراره بمصر ، ولكن نور الدين لم يمانع فى إرسال أسرة صلاح الدين حتى لا يعلن تخوفه من قائده (٢) .

وأخذ صلاح الدين بعد ذلك يعد نفسه لمواجهة مستقبل علاقاته بنور الدين ، مع احتمال الدخول فى مشكلات حربية ضده إذا عجزت أساليب السياسة عن التوفيق ، ولذلك أخذ ينشىء قلعة عظيمة على إحدى قمم المقطم لينقل لها مسكنه ودواوينه وليتحصن بها إذا دهمه خطر ، كما أخذ يبنى سوراً حول العواصم الاسلامية الكبرى بمنطقة القاهرة ، وهى الفسطاط والعسكر والقطائع والقاهرة .

وراح صلاح الدين يضع المناصب الكبيرة فى الجيش والإدارة فى أيدى أهله وذويه وصفوة أتباعه ليجعل منهم ستارا بشريا يحميه بالاضافة الى الحصون والأسوار .

ويلاحظ فى هذه الفترة أن نور الدين كان يضع الخطط ليلتقى بصلاح الدين فى فلسطين ، وأن صلاح الدين كان يتهرب من هذا اللقاء مخافة أن

---

(١) ابن واصل : مفرج الكروب ص ٥٠ .
(٢) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٨١ .

يعزله نور الدين أو يقبض عليه وهو بعيد عن مصر حصنه الحصين ، وقد تكررت محاولة نور الدين وتكرر معها تهرب صلاح الدين ؛ ومن ذلك أن صلاح الدين خرج مرة ليهاجم الفرنجة فى مدينة الشوبك بفلسطين رجاء أن يستعيدها منهم حتى يعيد الطريق التجارى بين مصر والشام ، وقد نجح صلاح الدين فى حملته ، ولكنه علم أن نور الدين قادم لمساعدته فأسرع بالعودة الى مصر ، وقد كان فى هذا دليل على اتجاه صلاح الدين مما أحفظ نور الدين عليه •

على أن نور الدين أراد أن يتثبت من الأمر فأرسل الى صلاح الدين يأمره بجمع العساكر المصرية والمسير بها الى منازلة الفرنجة عند مدينة الكرك وذكر أنه هو سيقدم ليساعد صلاح الدين فى هذه المعركة من ناحية الشمال ، وقد قبل صلاح الدين فى بادىء الأمر ، ثم عاد ونكص مدعيا أن خروجه سيتيح الفرصة لشيعة العلويين ليقوموا بحركة مضادة له ، ولكن هذا العذر لم يكن مقبولا لدى نور الدين وتأزمت الأمور ، وأشيع أن نور الدين سيقدم على مصر ليستردها من قائده المتمرد ، فجمع صلاح الدين أهله وذويه ليستشيرهم فى الأمر ، فقال تقى الدين عمر ابن أخى صلاح الدين : إذا جاء نور الدين قاتلناه ومنعناه من دخول البلاد ، ووافقه غيره من أهله ، ولكن نجم الدين أيوب (والد صلاح الدين) صاح فيهم منكرا ذلك ، واستعظم هذا القول ، وقال : لو حضر نور الدين لترجلنا له وقبلنا الأرض بين يديه ، ولو أمرنى أن أضرب عنق ابنى لفعلت ، وهذه البلاد لنور الدين ، ولو أراد عزل صلاح الدين لسمعنا له ولأطعنا ، ونصح نجم الدين ابنه أن يرسل لنور الدين يقول له : بلغنى أنك تريد التحرك لتسترد مصر منى فأى حاجة الى هذا ؟ يرسل المولى مندوبا يضع فى رقبتى منديلا ويأخذنى إليك ، فما هنا من يمتنع عليك •

وكتب صلاح الدين بذلك ، وكتب عيون نور الدين اليه ما سمعوه

من نجم الدين ، فهدأت الأحوال وتحسنت العلاقـات (١) • عـلى أن انتظار صلاح الدين لم يطل فإن نور الدين مات سنة ٥٦٩ وخلا الجـو لصلاح الدين من هذا الخصم الخطير •

بعـد نور الدين :

لقد تركت وفاة نور الدين فراغا كبيرا فى هذه المنطقة الخطيرة والفترة الحرجة ، فقد كان رجلا عظيما أرهق الفرنجة ، وأنزل بهم كثيرا مـن الهزائم ، ولم يكن هناك من يملأ هذا الفراغ بسهولة ، فابنه اسماعيل الذى نودى له بالسلطان بعده كان فى الحادية عشرة من العمر ، وكانت حمايته والإشراف عليه موضع نزاع بين كمشتكين الأتابك وشمس الدين محمد عبد الله بن المقدم ، وكان سيف الدين غازى بن قطب الدين مودود بن عماد الدين زنكى (ابن عم إسماعيل) مستبدا بالموصل وشمس الدين على بن الداية على قلعة حلب : ولم يكن صلاح الدين حتى ذلك الوقت أعظم شهرة من هؤلاء ولا أثبت قدما ، بل كان واحدا من الطامعين ، ولكن حركة التنازع بالشام كانت خطيرة ، إذ كان الفرنجة واقفين بالمرصاد ، يتحينون الفرص للكسب والتدخل ، وكـان المتنازعون للأسف يلجأون للفرنجة طالبين العون والنجدة ضد بعضهم البعض ، وقد وصف صلاح الدين هـذه الحال للخليفة العبـاسى أبلغ وصف بقوله : وتوافت الينا الأخبار بما المملكة النورية عليه مـن تشعب الآراء وتوزعها ، وتشتت الأمور وتقطعها ، وإن كل قلعة حصل فيها صاحب ، وكل جانب قد طمع إليه طالب ، والإفرنج قد بنوا قلاعا يتخطفون بها الأطراف الاسلامية ، ويضايقون بها البلاد الشامية ، وأمراء الدولة النورية قد سجن كبارهم وعوقبوا وصودروا ... (٢) •

---

(١) ابن خلكان : وفيات الأعيان جـ٢ ص ٣٨٥ •

(٢) عماد الدين بن شداد : المحاسن اليوسفية ص ٦٧ •

وفى وسط النزاع بين قواد نور الدين رأى ابن المقدم بدمشق أن كفة كمشتكين رجحت فاستطاع أن يسجن ابن الداية ويستولى على حلب ، ثم خاف ابن المقدم عاقبة ذلك على نفسه وأتباعه فأرسل الى سيف الدين غازى يطلب منه أن يحضر الى دمشق ليحكمها وينجيها من كمشــتكين ، ولكن سيف الدين لم يستجب له ، فأرسل هذا يدعو صلاح الدين لذلك ، وكانت مصر آنذاك تنعم فى ظله بالاستقرار ، مما رجح كفته إذا قيست بالاضطراب الذى غمر بلاد الشام ، وأيد الخليفة العباسى هذه الدعوة فزحف صلاح الدين للشام سنة ٥٧٠هـ بعد أن هادن الفرنجة ، وخاض فى الشام بعض المعارك كتب له فى نهايتها النصر المؤزر ، ودانت له بلاد الشام فيما بين ٥٧٠ و ٥٧٢ وامتد نفوذه إلى الموصل ، ثم استولى على حلب سنة ٥٧٩ بعد وفاة اسماعيل ابن نور الدين (٥٧٧) : وبذلك امتد سلطانه من النيل الى الفرات فيما عدا معاقل الفرنجة ، وقد أحسن صلاح الدين الى الأمراء المهزومين وتصالح مع بعضهم ومنحهم المال والإقطاع ، وكتب له الخليفة العباسى بالولاية على مصر والشام .

صلاح الدين يوسع مملكته :

تكلمنا آنفا عــن تأسيس مملكة صلاح الدين على أنقــاض مملكة نور الدين زنكى ، ولكن صلاح الدين كان أبعد طموحا ، فقد أراد أن يضم الى المملكة التى ورثها عن نور الدين ممالك أخرى وبقاعا لم يسبق لنور الدين أن حكمها ، وقد استطاع صلاح الدين أن يحقق هذا الحلم خلال سلطانه بمصر ، وكان أبرز هذه البقاع ما استعاده صلاح الدين من الفرنجة بالشام وما أنزله بهم من خسائر سارت بذكرها الركبان وقوضت صرح حياتهم ، وفتحت الطرق لمن جاء بعده ليكمل رسالته وليزيل هــذا الكابوس من أرضنا المقدسة : وسنتكلم عن هذه الانتصارات فى بحثنا عن « الحروب الصليبية » .

وبجانب الأرض المقدسة التى استعادها صلاح الدين من الفرنجة

مدّ صلاح الدين مملكته الى بقاع أخرى خلال حكمه بمصر ، فقد أرسل أخاه طوران شاه الى شواطىء شمالى إفريقية فاستولى على سواحل طرابلس وتونس حتى مدينة قابس من النورمانديين سنة ٥٦٨ ، ثم أرسله الى بلاد النوبة والسودان فاستولى عليها ، ثم بعث به إلى اليمن فاحتلها وضمها إلى سلطانه سنة ٥٦٩ ودانت له كذلك الحجاز التى كانت تابعة لمن يستولى على السلطة بمصر منذ العهد الإخشيدى كما سبق القول •



دولة صلاح الدين

رجال صلاح الدين :

أنتجت أسرة صلاح الدين الأيوبى مجموعة من الأبطال فى السياسة والحرب ، كانوا خير عون لصلاح الدين فى المهام التى حملها ، ويعتبر

والده نجم الدين أيوب رجل حكمة من الطراز الأول ، وقد لعب دورا كبيرا فى تهدئة الأحوال بل توثيق العلاقات بين ابنه وبين نور الدين على ما رأينا ، وقاد إخوة صلاح الدين جيوشه وحققوا له ألوانا من النصر فى معارك عهده ضد الصليبيين وفى اليمن وشمالى إفريقية : ويعتبر العادل سيف الدين وطوران شاه أخوا صلاح الدين فى القمة بين رجاله .

ومن رجال صلاح الدين كذلك وزيره بهاء الدين قراقوش ، وكان بطلا عظيما ، خاض المعارك مع صلاح الدين ، وبنى سور القاهرة وقلعة الجبل (قلعة صلاح الدين) وقناطر الجيزة ، وكان واليا على عكا عندما اقتحمتها جيوش الصليبيين ، فوقع فى الأسر وافتداه صلاح الدين بعشرة الاف دينار ، وقد جرت الأساطير بتعسفه وظلمه ، ولكنه فى الحقيقة ليس كذلك ، ولا يوجد دليل على صحة هذا الادعاء ، ومن رجال صلاح الدين الكاتب الشهير ابن العماد الأصفهانى الذى خدم من قبل نور الدين ، ثم رافق صلاح الدين فى حملاته جميعا ، وقد كتب مؤلفا أرخ به لفتح القدس يسمى « الفتح » أو « الفتح القسى فى الفتح القدسى » ، ومع عنايته بالمحسنات اللفظية فيه ، يعد من أوثق ما يصور هذا الفتح العظيم ، وله ديوان شعر كبير ، وأعظم شعره ما صور به الحروب الصليبية ، وترجم عن الفارسية كتاب « فتور زمان الصدور وصدور زمان الفتور » لأنوشروان بن خالد فى تاريخ السلاجقة .

ومن رجال صلاح الدين كذلك بهاء الدين بن شداد الذى كتب سيرة صلاح الدين ، والقاضى الفاضل وكان أيضا من رجال الفاطميين ، ثم عنى بالإدارة فى عهد صلاح الدين ، ومنهم الفارس أسامة ابن منقذ ، مؤلف كتاب الاعتبار ، وقد كان من رجال نور الدين ثم انضم تحت لواء صلاح الدين ، وهو يصور فى كتابه هذا مغامراته فى الحرب والسلم ، وفى الطرد بصورة خاصة .

إن رجال صلاح الدين كانوا صفوة ممتازة ساعدت الرجل العظيم على تحقيق آماله .

شخصية صلاح الدين

يبْرِز الغربيون عند حديثهم عن صلاح الدين أنه كان كرديا ، ويريدون بذلك خلق عملية انعزال بينه وبين العرب ، وهذه مغالطة ينبغى إبراز زيفها ، ففى المجتمع الاسلامى التقت جنسيات عدة ، وأغلبها انماع فى هذا المجتمع وأصبح جزءا منه • حتى هؤلاء الذين تماسكوا حينا كالماليك والبويهيين والسلاجقة آل أمرهم إلى الذوبان فى هذا الخضم الزاخر ، ولقى حتفه منهم من حاول أن يستمر على انعزاليته وهو فى وسط البحر الصاخب •

على أن صلاح الدين الأيوبى ولد فى أرض عربية ، ودرج فى الفلوات العربية ، وتربى على التقاليد الاسلامية ، وتطورت حياته على النمط العربى الاسلامى ، وكانت الآداب العربية متعته ، أفسح لها فازدهرت فى قصره وعهده أيما ازدهار ، وكان أكثر جنده من العرب ، وبعضهم من قوميات مختلفة ، ولكن اللغة العربية كانت لغة الجميع ، والثقافة الاسلامية كانت البوتقة التى انصهرت فيها كل هذه الجموع ، فغدوا يعْرِفون بها وفى ظلها يجاهدون (١) •

وتأثر صلاح الدين بالجماعة التى عاش بينها وأصبح فى النهاية قائدا لها ، وأثّر فى هذه الجماعة كذلك ، وإن الباحث إذا عدّ صفات صلاح الدين وأخلاقه ، يجدها مزيجا من شهامة العرب وسماحة الاسلام ، ومن مواهب صلاح الدين الشخصية ، القيادة الماهرة ، والسياسة البارعة ، وحب العفو ، والوفاء للصديق ، والنبل مع العدو مع الكرم السابغ والعلم الزاخر ، ومع تشجيع العلم ورعاية العلماء ، وهذه كلها صفات نجدها فى كثير من القادة المسلمين متقاربة أو متفاوتة بتفاوت شخصياتهم ، وقد احتفى كتاب الغرب وملوك الغرب بصلاح الدين وسيرته على نحو ما

---

(١) قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى ص ٥٥ .

احتفى به المسلمون ، فقد كان الجانب الإنسانى بصلاح الدين موضع دهشة الغربيين فى فترة لم يكن للجانب الإنسانى فيها مجال .

أما بطولة صلاح الدين ، واحتماله الشدائد ، وتخطيطه للنجاح ، فقد فاقت كل وصف ، لقد أحدث صدعا ضخما بجبهة الفرنجة ، ولم يلتئم هذا الصدع بعده ، بل ظل يتسع فى عهد من جاءوا بعده وساروا سيرته ، حتى هوى ذلك الصرح الذى بناه الفرنجة فى أرضنا الطيبة .

وليس من شك فى أن قلة ضئيلة من أمراء المسلمين يمكن أن تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة الى الكسب الشخصى ، ومن حيث انصرافه الى خدمة الدولة ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم إلا الإقرار له بالشهامة والنبل فى معاملة الخصم المغلوب (١) .

ومما يدل على زهد صلاح الدين ، وبعده عن الكسب الشخصى أنه وزّع على أتباعه وعلى المسلمين جميع الكنوز التى وقعت فى يده من قصور الفاطميين ، عقب نهاية الخلافة الفاطمية ولم يترك لنفسه شيئا منها (٢) ، وعندما مات إسماعيل ابن نور الدين واستولى صلاح الدين على ملكه ، عفّ عن كل ثروته وتركها لأهل الملك الراحل ، وهكذا لم يخلّف هذا السلطان العملاق إلاّ سبعة وأربعين درهما وقطعة واحدة من الذهب (٣) ، كما لم يخلف دارا ولا عقارا ، وكان يقول . إن بقيت الديار لنا فلنا كل ما فيها ، وإن ضاعت منا ضاع ما يملكه كل فرد واستولى عليه العدو (٤) ، ولكن الذكرى التى خلفها صلاح الدين لا تزال كنزا يفوق كل تقدير فى الشرق والغرب على السواء .

وتوفى صلاح الدين سنة ٥٨٩هـ ، وله من العمر خمس وخمسون سنة تاركا ذكرا معطرا وسيرة زاهية ستبقى على مر الزمن .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ٢ ص ٢٣٢ .
(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ٢ ص ٢٤١ .
(٣) أبو الفدا : المختصر فى تاريخ البشر جـ٨ ص ٩ .
(٤) شاهنشاه بن ايوب : ذيل النوادر ص ٢١٩ .

خلفاء صلاح الدين

يمكن القول إن بذور انهيار دولة صلاح الدين قد بدأت مع وفاته ؛ فإن ملكه الفسيح سرعان ما تقطعت أوصاله ، إذ قسّم المملكة بين أولاده وإخوته وغيرهم من فروع الأسرة ، فجعل السلطنة العامة لابنه الأفضل أكبر أولاده وجعل له دمشق وجنوبى سوريا ، وجعل مصر لابنه العزيز ، وحلب لابنه الظاهر ، وكانت العراق وديار بكر لأخيه العادل ، وتولى أفراد من أسرته حماه وحمص وبعلبك واليمن ، ولكن سرعان ما دب الشقاق بين هؤلاء بعضهم البعض مما أضعف الدولة وقلل نشاطها .

ولقد كانت الدولة مقسمة على هذا النحو فى عهد صلاح الدين ، بمعنى أنه ولىّ إخوته وأفراد أسرته أجل الولايات وأعظم الأعمال كما قلنا من قبل ، ولكنّ كلا من هؤلاء كان تابعا له يعلن تبعيته ، ولا يقوى أن يبدى أى اتجاه استقلالى ، ولعل صلاح الدين كان يعتقد أن ولاء هؤلاء سيظل للسلطان الأفضل ، وسيبقون جميعا حوله خاضعين له مكوّنين معه كتلة إسلامية قوية ، ولكن هذا الأمل لم يتحقق ، وحلّ محل الوئام خصام ، إذ لم يكن الأفضل يشبه صلاح الدين فى مواهبه العسكرية والادارية أو يقرب منه .

وعلى العموم فقد رجحت كفة الملك العادل على منافسيه ، فضمّ تحت سلطانه أكثر بقاع مملكة صلاح الدين ، فقد ضم دمشق سنة ٥٩٢هـ من الملك الأفضل ، كما استطاع أن يستولى على مصر سنة ٥٩٦هـ من المنصور بن العزيز ، ولم تبق من بلاد الشام إلاّ حلب التى ظلت خاضعة لذرية صلاح الدين حتى سنة ٦٥٨هـ ، وحوالى سنة ٥٩٧هـ استولى على شمال العراق وعيّن من أولاده مَنْ حكمها باسمه ، ومات العادل سنة ٦١٥هـ ، وتولى أبناؤه السلطان فى مملكته فى فروع متعددة على نحو ما تم بعد موت صلاح الدين ، غير أن السلطان ظل فى أبناء العادل بهذه

البقاع حتى سقوط الدولة الأيوبية ، ولم يتحول عنهم كما تحول عن أبناء صلاح الدين ، مع ملاحظة أن الناصر يوسف من سلالة صلاح الدين وهو ملك حلب ضم إليه دمشق سنة ٦٤٨هـ عند سقوط الأيوبيين وقيام دولة المماليك بمصر ، وقد استردها المماليك فيما بعد ؛ أما حماه وحمص واليمن ، فقد كانت تابعة لأمراء من الأسرة الأيوبية ينحدرون من أبناء عمومة صلاح الدين .

وبسقوط الأفضل سنة ٥٩٢هـ عادت مصر لتكون المركز الرئيسى لسلطان الأيوبيين بزعامة أولاد الملك العادل الذين استطاع أكثرهم أن يمدوا نفوذهم الى سوريا ، وقد عاشت سلطة الأيوبيين بمصر حتى سنة ٦٤٨هـ ثم أفسحت الطريق للمماليك الذين كان اشتراهم الملك الصالح نجم الدين أيوب وجعلهم خاصته وبطانته ، وقضى على غالبية أمرائه وعين المماليك محلهم ، وكان هؤلاء يظهرون غاية الاخلاص لسيدهم ، ولكنهم بعد موته لم يستطيعوا أن يظلوا على ولائهم لابنه توران شاه ، واتخذوا جانب شجرة الدر زوجة أبيه والتى تنحدر من المعين الذى انحدروا منه وتآمروا معها على توران شاه وقتلوه ، وبدأ بذلك سلطانهم سنة ٦٤٨هـ .

ولما استبد المماليك بمصر تبعت دمشق وحلب مدة عشر سنوات حتى اكتسحها المغول سنة ٦٥٨ فى زحفهم المدمر ، وبعد معركة عين جالوت عاد سلطان المماليك الى دمشق وحلب ، ومن سلاطين « حَماة » الأيوبيين ينبغى أن نذكر المؤرخ الكبير « أبو الفدا » الذى حكم من سنة ٧١٠هـ الى سنة ٧٣٢هـ ، أما سلطان الأيوبيين بالحجاز فقد انتقل سنة ٦٢٥ هـ إلى الدولة الرسولية باليمن .

وكانت الحروب الصليبية أهم الأحداث التى شغلت العهد الأيوبى ، ولذلك نكتفى الآن بهذا القدر من الكلام عن صلاح الدين وخلفائه ، وسيمتد لهم الحديث مرة أخرى عند الكلام عن الحروب الصليبية .

والقوائم الآتية تبين اهم ملوك الأيوبيين فى البقاع المختلفة :

صلاح الدين ٥٦٤ — ٥٨٩

وأولاد صلاح الدين

الأفضل بدمشق
٥٨٢ — ٥٩٢
كانت معه فى حياة أبيه ،
ثم عزله العادل واستولى
على دمشق سنة ٥٩٢
(توفى الأفضل سنة ٦٢٢)

العزيز بمصر
٥٨٩ — ٥٩٥
|
منصور
٥٩٥ — ٥٩٦
عزله العادل واستولى
على مصر سنة ٥٩٦

الظاهر بحلب
٥٨٢ — ٦١٣
(كانت معه فى حياة ابيه
وبعده)
|
العزيز بن الظاهر
٦١٣ — ٦٣٤
|
الناصر يوسف (*)
٦٣٤ — ٦٥٨

(*) استولى ايضا على دمشق سنة ٦٤٨ عقب قيام دولة المماليك بمصر كما سبق القول .

العادل : الموصل ٥٨٩ — دمشق ٥٩٢ — مصر ٥٩٦ — توفى سنة ٦١٥

أهم أولاد العادل

الأشرف موسى
— الموصل ٦٠٧
(قبل وفاة العادل)
ثم بعد وفاته
— ضم حمص سنة ٦١٧
— ضم دمشق سنة ٦٢٦
(توفى سنة ٦٣٥)

المعظم عيسى
دمشق ٦١٥ حتى
وفاته سنة ٦٢٤
|
الناصر داود
دمشق ٦٢٤ — ٦٢٦
عزله الأشرف موسى وضم دمشق

الصالح اسماعيل
دمشق ٦٣٧ — ٦٤٣

الكامل محمد
مصر ٦١٥ — ٦٣٥
دمشق ٦٣٥
|
الصالح نجم الدين أيوب
— مصر ٦٣٧
— دمشق ٦٤٣ حتى وفاته
سنة ٦٤٧
المعظم توران شاه
مصر ودمشق ٦٤٧ — ٦٤٨
|
الملك الأشرف مظهر الدين موسى
مصر ودمشق ٦٤٨ (عزله ايبك)

المسعود يوسف
اليمن ٦١٢ — ٦٢٥

العادل الثانى
مصر ودمشق
٦٣٥ — ٦٣٧
(أخذها منه الصالح اسماعيل بن العادل)

(اولاد شاهنشاه اخي صلاح الدين)

المظفر الأول تقى الدين
حماه ٥٧٤ — ٥٨٧

فروخشاه داود
بعلبك ٥٧٥ — ٥٧٨

سليمان المظفر
اليمن ٦١١ — ٦١٢

المنصور الأول
حماه ٥٨٧ — ٦١٧

بهرام شاه
بعلبك ٥٧٨ — ٦٢٧

المظفر الثانى محمود
حماه ٦٢٦ — ٦٤٢

الناصر
حماه ٦١٧ — ٦٢٦

المنصور الثانى
حماه ٦٤٢ — ٦٨٣

الأفضل على

المظفر الثالث
حماه ٦٨٣ — ٦٩٨
تبعت المماليك بمصر
٦٩٨ — ٧١٠

المؤيد ابو الفدا (المؤرخ)
حماه ٧١٠ — ٧٣١

الأفضل محمد
٧٣٢ — ٧٤٢
تبعت المماليك بمصر نهائيا

سيف الاسلام (اخو صلاح الدين) اليمن ٥٧٧ — ٥٩٣

معز الدين اسماعيل
اليمن ٥٩٤ — ٥٩٨

الناصر ايوب
اليمن ٥٩٨ — ٦١١

اولاد اسد الدين شيركوه (عم صلاح الدين) فى حمص

محمد ٥٧٤ — ٥٨١
مجاهد شيركوه الثانى ٥٨١ — ٦٣٧
المنصور ابراهيم ٦٣٧ — ٦٤٤
الأشرف موسى ٦٤٤ — ٦٦١

الأقطار التى حكمها الأيوبيون

مصر : صلاح الدين	٥٦٤
العزيز عثمان	٥٨٩
المنصور محمد	٥٩٥
العادل سيف الدين	٥٩٦
الكامل محمد	٦١٥
العادل الثانى	٦٣٥
الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٧
المعظم توران شاه	٦٤٦ — ٦٤٨

وقد حكم السلاطين الخمس الأخيرون سوريا أيضا — وانتقل السلطان بعد توران شاه اسميا الى الملك الأشرف مظهر الدين موسى وعمليا الى شجرة الدر ، ثم عزل ايبك الملك الأشرف وتزوج من شجرة الدر ، وانتقل السلطان الى المماليك .

دمشق : الملك الأفضل	٥٨٢
العادل سيف الدين	٥٩٢ (ثم أخذ مصر سنة ٥٩٦)
المعظم شرف الدين عيسى	٥١٦
الناصر صلاح الدين داود	٦٢٤
الأشرف موسى	٦٢٦(كان حاكما للعراق سنة ٦٠٧)
الصالح إسماعيل	٦٣٥
الكامل	٦٣٥ (سلطان مصر)
العادل الثانى	٦٣٥ (سلطان مصر)
الصالح نجم الدين أيوب	٦٣٧ (سلطان مصر)
الصالح إسماعيل	٦٣٧ (استعاد السلطة)

الصالح نجم الدين أيوب ٦٤٣ (سلطان مصر مرة أخرى)
توران شـاه ٦٤٧ (سلطان مصر)
الناصر صلاح الدين يوسف ٦٤٨ (سلطان حلب)
إلى ٦٥٨
(اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك)

حلب : الظاهر غيـاث الدين ٥٨٢
العزيز غياث الدين ٦١٣
الناصر صلاح الدين يوسف ٦٣٤
(ضم دمشق سنة ٦٤٨ كما سبق)
إلى ٦٥٨
(اكتسحها المغول ثم استعادها المماليك)

الموصل : الأوحد نجم الدين أيوب ٥٩٧
الأشرف موسى ٦٠٧ (ضم دمشق)
المظفـر غـازى ٦٢٨
إلى ٦٤٣
(اكتسحها المغول)

حماه : المظفر الأول تقى الدين عمر ٥٧٤
المنصور الأول ٥٨٧
الناصر كلج أرسـلان ٦١٧
المظفر الثـانى ٦٢٦
المنصور الثـانى ٦٤٢
المظفر الثالث ٦٨٣
(سلاطين المماليك) ٦٩٨
المؤيد أبو الفدا ٧١٠ (المؤرخ الشهير ، استقل بحماه عن المماليك)
الأفضل ٧٣٢ — ٧٤٢
(عادت السلطة للمماليك)

حمص : محمد بن شيركوه ٥٧٤
مجاهد شيركوه ٥٨١
المنصور ابراهيم ٦٣٧
الأشرف موسى ٦٤٤
إلى ٦٦١
(آلت السلطة للمماليك)

الحجاز : المعظم توران شاه بن أيوب ٥٦٩
سيف الاسلام بن أيوب ٥٧٧
معز الدين إسماعيل ٥٩٣
الناصر أيوب ٥٩٨
المظفر سليمان ٦١١
مسعود صلاح الدين يوسف ٦١٢ إلى ٦٢٥
(آلت السلطة لبني رسول باليمن الذين بدءوا سلطانهم نوابا عن الأيوبيين)

كلمة ختامية

عن الدولة الأيوبية

فى هذه الكلمة نجيب عن سؤالين مهمين :

١ — هل اقتصر نشاط الأيوبيين على الناحية العسكرية أو كان لهم مجال فى الناحية الحضارية ؟

٢ — هل كان صلاح الدين فى نضاله يسعى لتكوين مجد شخصى له ؟

فى الإجابة عن السؤال الأول نقرر أن الناحية العسكرية لم تشغل الأيوبيين عن النشاط الحضارى ، وقد أشرنا من قبل الى أنهم ساروا بمصر ودمشق سيرة نور الدين فى فتح المدارس وذلك ليوجهوا عقول الناس الى التفكير السنى بعد أن عاشت مصر ودمشق زهاء قرنين فى إطار التفكير الشيعى ، وكانت مدارس الأيوبيين كثيرة العدد بحيث تمكنت من تحقيق أهدافها فى وقت قصير ، ويمتاز هذا العهد بأن الأمراء والأميرات والتجار وغيرهم من الأهلين حتى الخدم أسهموا فى انشاء المدارس ورعاية العلم (١) .

وبالاضافة الى المدارس حدث تطور حضارى فى مصر وسوريا نتيجة التفاعل بين المسلمين والصليبيين ، وسندرس هذا التفاعل بشىء من التفصيل عقب الحديث عن الحروب الصليبية .

وخدم صلاح الدين فن العمارة خدمات عظيمة فى القدس والقاهرة ، فأما فى القدس فقد كان له فضل تجديد المسجد الأقصى الذى اتخذه الصليبيون قصرا لهم ، وتزيينه بالفسيفساء والرخام ، ليس هذا فقط بل لقد أقام فيه منبرا نفيسا لا يزال باقيا حتى اليوم .

أما فى القاهرة فقد شيد القلعة الشاهقة المعروفة باسمه ، وبدأ فى إنشاء السور الذى يصون القاهرة من كل هجوم قد تتعرض إليه .

---

(١) انظر تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ١٢١ من الطبعة الثامنة .

وللإجابة عن السؤال الثانى نقرر أننا لا نستبعد على أى قائد أو زعيم أن يكون له طموحه الشخصى أو آماله الخاصة ، ولكن براعة الزعيم تبدو لو استطاع أن يوفق بين هذا الطموح وبين آمال الشعب الذى يتزعمه • وقد كان صلاح الدين يسير فى هذا الاتجاه ؛ فقد كان العالم العربى يميل الى الوحدة ، إذ أن التفكك سبب الكارثة والاحتلال الصليبى ، وكان العالم الاسلامى يميل الى التكتل ليقف فى وجه التكتل الصليبى ، وليستعيد الأرض السليبة ، وقد وجد العالم العربى والاسلامى فى صلاح الدين خير معبر عن هذه الآمال •

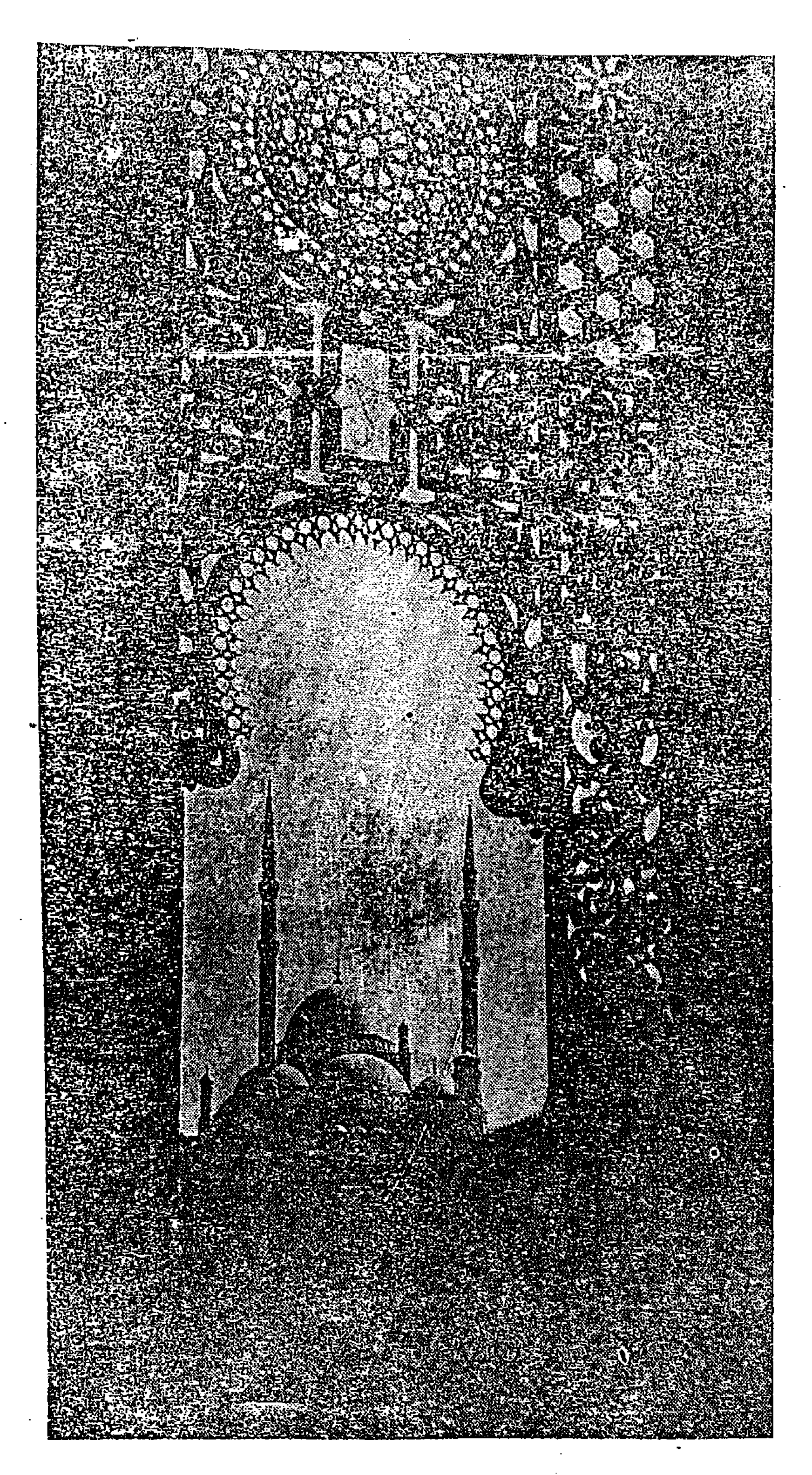
* * *

آثار مصر من العهد الأيوبى :

قلت آثار الدولة الأيوبية لانشغالها بالحروب الصليبية من جانب ، ولاهتمامها بنقل البلاد الى المذهب السنى من جانب آخر ، وأهم آثار مصر فى هذا العهد قلعة صلاح الدين الأيوبى ، وهى آية فى الدقة والاتقان ، وقد دخل عليها كثير من التغيير •

ومن آثارها كذلك مشهد الإمام الشافعى الذى مات بمصر سنة ٢٠٤هـ ثم بُنِىَ مشهده فى عهد الدولة الأيوبية ، ولعل ذلك كان جزءا من نشر المذهب السنى والحفاوة بالعلماء السنيين • وقد بنى الأيوبيين مجموعة كبيرة من المدارس التى كانت امتدادا لمدارس نور الدين زنكى بالشام ، تلك التى كانت بالتالى امتدادا لمدارس نظام الملك الوزير السلجوقى بالعراق وإيران ولا تزال بمصر آثار وامتدادات لهذه المدارس الأيوبية •

أما الآثار المعنوية لصلاح الدين فهى تلك التى ترتبط بزهده فى المال العام ، وبطولاته التى دمرت الصليبيين ، وتلك آثار لن تنساها الأجيال الإسلامية ، وسيظل الباحثون المسلمون يتمنون أن يحاكيها القادة والرؤساء على مر الأجيال إن أرادوا أن يعطروا سيرتهم ، وأن يضمنوا رضاء الله ورضاء الأجيال عنهم • إنها آثار شامخة تتضاءل أمامها كل الآثار •



قلعة صلاح الدين الأيوبى

المماليك

(٦٤٨ - ٩٢٣ هـ = ١٢٥٠ - ١٥١٧ م)

المماليك

نحن الآن أمام عصر لا يزال يكتنفه الغموض ، وبالتالى يحتاج إلى دراسات جديدة تبعث فيه الضوء ، وسنثير فيما يلى نقاطا مهمة ترتبط بالمماليك ونحاول تجلية غموضها :

مملوك أو رقيق ؟ ؟

مماليك جمع مملوك وهو شخص اشترى بالمال ، وحقيقة اشترى بعض الخلفاء والسلاطين أناسا بالمال ، ولكن السؤال المهم هو : هل هؤلاء كانوا حقيقة مماليك وأرقاء يبيح الشرع بيعهم وشراءهم ؟

ويذكرون ان العز بن عبد السلام امتنع عن المبايعة للظاهر بيبرس لأن بيبرس رقيق مملوك للأمير علاء الدين البندقدار ، ومن ثم لا تجوز ولايته ، ولم يبايع له العز بن عبد السلام حتى ثبت له أن البندقدار باع بيبرس الى الملك الصالح نجم الدين الذى اعتقه بعد ذلك .

والذى نحب أن نقرره أن هؤلاء ليسوا مماليك ولا أرقاء ، وأنهم أحرار تماما ، وأن بيعهم باطل ، لقد كانوا جميعا صفقات غير مشروعة ، كان الأب يبيع ابنه ليدفعه الى المجد فى القصور وهو ما يسمى « الرق الصناعى » وكان الأقوياء والنخاسون يخطفون الأطفال ويستولون عليهم عنوة ، ثم يعرضونهم للبيع ، والاسلام يرفض هاتين الوسيلتين ولا يقبل أيا منهما لتكون مصدرا للرق .

فالرق فى الإسلام يجىء عن طريق الحرب الدينية التى يقصد بها الجهاد فى سبيل الله لرد اعتداء يقوم به غير المسلمين على المسلمين ، بشرط ألا يكون الأسير وقت أسره مسلما ولو كان فى جيش الأعداء ، وبشرط أن يضرب الإمام عليه الرق (١) .

---

(١) انظر موضوع « الرق وموقف الاسلام منه » بكتاب الاسلام للمؤلف

ذلك وحده هو مصدر الرق فى الاسلام ، مع ملاحظة أن الرسول لم يسترق حرًا قط (١) ومع ملاحظة الآية الكريمة التى توضح أنه بعد الحرب والأسر يكون المن على الأسرى أو اطلاقهم نظير فدية ، قال تعالى : « فإذا لقيتم الذين كفروا فضرب الرقاب ، حتى إذا أثخنتموهم فشدوا الوثاق ، فإما منًا بعد وإما فداء » (٢) .

فإذا جئنا لتطبيق هذه المبادىء الاسلامية يتضح لنا بشكل لا يوجد معه الشك أن هؤلاء ليسوا أرقاء ولا مماليك ، ونسوق فيما يلى بعض الاقتباسات التاريخية التى توضح حقيقة الأمر .

يذكر المقريزى (٣) أن الأطفال الذين كانوا يعْرَضون للبيع كانوا ينتمون الى قبائل بدائية بسيطة جاهلة ، تعيش فى فقر وشظف من العيش ، حتى كان الآباء يضطرون لبيع أبنائهم للتخلص من تحمل تبعاتهم ، ولكى يضمنوا لهم مستقبلا أفضل مما ينتظرهم فى بلادهم .

وهكذا كانت تتم هذه الصفقة تخلصا من نفقات الأولاد وعجزا عن أداء الالتزامات نحوهم ، أو كانت وسيلة لدى الآباء ، ليدفعوا أبناءهم الى القصور والمجد وهو فى الحالتين « رق صناعى » كما أسميناه فى مكان آخر (٤) ، وليس رقا يعترف به الاسلام ، ولا يمكن فى مجال اسلامى أن ينتقل الانسان من الحرية للرق عن هذا الطريق .

وهناك أطفال اختطفوا من ديارهم وأسرهم ، يذكر ابن تغرى بردى (٥) أن حكام بعض الولايات وبخاصة السامانيون فيما وراء

---

(١) ابن القيم : زاد المعاد ج ٣ص ٢٩٠ .
(٢) محمد الآية الرابعة .
(٣) السلوك لمعرفة دول الملوك ج١ ص ٥٢٥ تحقيق الدكتور زياده .
(٤) انظر بحثا عن « الرق الصناعى » فى كتاب « الاسلام » للمؤلف .
(٥) النجوم الزاهرة ج٣ ص ١ ، ٣ .

النهر دأبوا على إرسال بعض المماليك هدايا للخلفاء ، أو جزءا من الخراج المفروض على هذه المناطق التى لم تكن دخلت الاسلام بعد . ولا يعرف الاسلام خراجا يشمل « الانسان » ، فالخراج والجزية **مقادير مالية** تدفع تبعا لقوانين دقيقة (١) .

وفى أسبانيا كان يباع للأمراء صبيان خطفوا أيضا بما يسمى « السبى » فقد دأب الجرمان على سبى الصبيان والنساء من بلغاريا وألبانيا ويوغسلافيا ... وكانوا يبيعونهم للمسلمين بالأندلس ، وقد أطلق المسلمون عليهم اسم « الصقالبة » (٢) .

ويقص لنا التاريخ الافريقى (٣) أن بعض الزعماء الأفارقة وبعض النخاسين كانوا يحترفون اختطاف الأطفال ، أو يأخذونهم فدية لبعض الأمور ، أو يرغمون الآباء على تسليم بعض أطفالهم ليُترك لهم باقى الأطفال على نحو ما كان يتبع فى السخرة ثم يباع هؤلاء فى سوق النخاسة للملوك والسلاطين والقادرين على العموم ، ومن الأطفال الأفارقة الذين اختطفوا عنوة تكوّن الملايين من زنوج الولايات المتحدة فيما بعد ، ومنهم كانت تتكون بعض فرق الجيش بالبلاد الاسلامية .

واذا كانت بلاد تركستان وبلاد ما وراء النهر والديلم والخزر والسودان والنوبة ... هى المراكز الرئيسية لجلب الرقيق . فى القرن الثالث الهجرى والقرون التالية ، فان من المؤكد أن هذه البلاد لم تكن فيها حروب شرعية تبيح الاسترقاق .

ثم — وهذا شىء مؤكد أيضا — أن المماليك كانوا يجلبون الى مصر والى غيرها وهم فى أعمار الزهور ، فيذكر المقريزى (٤) أن الرسم كان

---

(١) انظر الاقتصاد فى الفكر الاسلامى للمؤلف .

(٢) دكتور احمد الصاوى : الصقالبة فى اسبانيا ص ١٢ — ١٣ .

(٣) انظر الجزء السادس من هذه الموسوعة .

(٤) الخطط جـ٢ ص ٢١٣ .

ألا يجلب التجار الا المماليك الصغار ، ويذكر ابن إياس (١) أن الأشرف برسباي جلبه بعض التجار الى البلاد الشامية فاشتراه الأمير دقماق مع جملة مماليك صغار ، .

ونتيجة هذه الدراسة فان من نسميهم مماليك هم فى الحقيقة أحرار ولا يقبل الاسلام أن نزج بهم فى مجال الرق ، ولنتذكر قولة عمر بن الخطاب : كيف استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارا ، ولنتذكر تصرف عمر عندما اقتحم الجيش الاسلامى بلاد فارس وبلاد الشام ومصر ، فقد رفض الخليفة أن يَعُدَّ المغلوبين أرقاء ، وتركهم أحرارا على أن يدفعوا الجزية الا اذا دخلوا الاسلام فيكون لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين .

إن الاسلام يسعى الى الحرية ، وحرام أن يتجه المسلمون للرق والاسترقاق ، وقد عاش هذا التصرف المقيت فى العالم الاسلامى اندفاعا الى ما كان معمولا به فى البلاد غير الاسلامية ، ومعنى هذا أن المسلمين اتجهوا فى هذا الطريق وجهة غير المسلمين ، وهذا مالا يقره الاسلام .

وكان الدافع على رواج هذه التجارة أنها — كما يقول ابن حوقل (٢) كانت مصدر اليسر والغنى للنخاسين الذين كانوا يتخذون من خوارزم وسمرقند وغيرها مراكز لهذه التجارة ، ومن الدوافع أيضا أن الملوك والسلاطين والأغنياء ، وجدوا بغيتهم فى هؤلاء الأرقاء ، فراغب الخدمة وجدها فى صبيانهم ، وراغب الحراسة وجدها فيهم عندما يتقدمون للشباب ، والمتجه للعاطفة رأى فى الفتيات الرقيقات تحقيق أمنيته ، والاسترقاق كله بهذه الطرق حرام وليس من الاسلام فى شيء .

---

(١) بدائع الزهور جـ٢ ص ١٥ .

(٢) صورة الأرض ص ٤٨١ — ٤٨٢ .

فلنقلها الآن كلمة قوية ؛ ان المماليك الذين سنتكلم عنهم هنا لـم يكونوا من وجهة نظر الشرع الاسلامى أرقاء ، حتى اذا جهلوا ذلك أو غفل عنه علماء ذلك الزمان ٠

مصريون ؟ ؟

موضوع آخر نطرحه هنا هو جنسية هؤلاء المماليك ، فهم قد جىء بهم من أمكنة مختلفة كما رأينا ، وبذلك كانوا ينتمون الى جنسيات متعددة ، ولكن يجب أن يلاحظ ما يلى :

أولا ــ ينتمى هؤلاء الى مناطق اسلامية غالبا ، والعالم الاسلامى عالم واحد ، والمسلمون أمة واحدة قال تعالى « ان هذه امتكم أمةً واحدة » وكان العالم الاسلامى فى القرون الأولى لا تفصل حدودٌ بين أجزائه ، وكان العالِمُ ينتقل بين ربوعه من حلقة علمية بقطر إلى حلقة أخرى بقطر آخر ، وكذلك كان الطالب والتاجر والعامل ينتقل دون حواجز ، ولم يكن انتقال المسلم من بلاد فارس أو ما وراء النهر الى مصر الا كالانتقال من أسيوط للقاهرة أو من حلب الى دمشق أو نحو ذلك ولذلك فإن المؤرخين يسمون مماليك مصر « الأمراء المصريون » (١) ٠

وكانوا هم أيضا يسمون أنفسهم « مصريين » يذكر ابن حجر (٢) أن الأمير تنكز نائب الشام قال ذات يوم لأحد موظفى ديوان الانشـاء بدمشق : « ما فى دمشق مصرى الا أنا وأنت » وكانوا كذلك يفتخرون بالانتساب لمصر ، ففى مراسلات التهديد بين تيمورلنك وبرقوق قال برقوق نحن سهامنا عربية ، وسيوفنا يمنية ، وقلوبنا مصرية (٣) ٠

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج١٦ ص ٢٠٧ السـخاوى : الضوء اللامع ج٣ ص ٤٤ الجبرتى حوادث سنة ١٢٣٠ ٠

(٢) الدرر الكامنة ج١ ص ٥٠٤ ٠

(٣) النجوم الزاهرة ج١٢ ص ٥١ ٠

ثانيا — لم يأت هـؤلاء الى مصر غزاة محتلين كالفـرس والروم والانجليز ، وانما جاءوا أفرادا ، وكانوا فى الغالب فى سن الصبا ونشأوا لا يعرفون لهم وطنا الا مصر ، وكانوا — عندما آل لهم السلطان — يحكمون مصر من الداخل أى لا يخضعون لتعليمات من الخارج ، كما كانوا يحكمونها لصالحها ، فلا يرسلون ثراءها لموطن آخر .

ثالثا — ارتبط هؤلاء بمصر ارتباطا وثيقا لدرجة أن بعضهم وقع فى أسر تيمورلنك عندما هاجم الشام وبقى هؤلاء مدة مع تيمورلنك الذى عنى بهم ووكل لهم وظائف ممتازة ، ومع هذا فقد تسللوا عندما استطاعوا ، وعادوا الى مصر (١) .

رابعا — وصل المماليك الى درجة عالية من القوة والنفوذ ، ولكن لم يحاول أى منهم أن يعود الى بلده على الرغم مـن معرفته لمصـدر أسرته ، بل إن الكثيرين منهم أرسلوا يطلبون آباءهم وأهليهم للاستقرار بمصر (٢) .

خامسا — اتجه الباحثون المصريون الى اعتبار المماليك شـخصيات عربية إسلامية فشملت سلسلة أعلام العرب عددا منهم مثل العدد ٢٨ عن الناصر محمد بن قلاوون والعدد ٥٢ عن الأشرف قنصوه الغورى .

سادسا — تمت زيجات كثيرة بين المماليك وبنات العلماء والمفكرين مما يدل على اندماجهم بالمصريين فى حالات كثيرة (٣) ، وكان الذين يزول سلطانهم السياسى من المماليك ينضوون فى طيات الشعب تماما .

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة ج ١٥ ص ٥٢٦ — ٥٢٧ .

(٢) المرجع السابق ج١١ ص ١٨٣ والسخاوى : الضوء اللامع ج٣ ص٢٨٤

(٣) انظر نماذج فى « المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر » ص ١٠٠ رسالة دكتوراه للمرحوم الدكتور محمد عامر باشراف .

سابعا — عائلات كثيرة وقبائل متعددة وفدت الى مصر على مر التاريخ من بلاد شتى ، ثم ذاب هؤلاء وأولئك فى الشعب المصرى ، وأصبحوا جزءا منه تماما ، ولم يبق مما يربطهم بجذورهم البعيدة الا ألقاب تنمئ عن هذه الجذور وعن الأقطار التي وفدوا منها ، ولا يلتفت الناس عادة الى هذه الألقاب الا عند التعمق والتخصص ، ومن هذه الألقاب الجبرتى والحلبى واليمنى والحجازى والنجدى والشامى والتلمسانى والمغربى ، وكثير من المصريين لهم جذور تركية أو عربية أو سودانية وان لم يظهر فى اسمائهم لقب ينمئ عن ذلك ، وقد حدث العكس أيضا فبعض المصريين رحلوا الى أقطار أخرى واستقروا بها ومعهم لقب « المصرى » الذى تراه بوضوح فى السودان والعراق •

وعلى هذا فالطولونيون والاخشيديون والفاطميون والأيوبيون ومن نسميهم المماليك وأسرة محمد على مصريون مائة فى المائة ، وقد نقل الفاطميون معهم جثث آبائهم وأجدادهم عندما جاءوا من تونس الى مصر ، وكتب الملك السابق فاروق وصيته أن يدفن بتراب مصر بعد أن نفى من البلاد •

وقد يكون بعض هؤلاء ضعيفا أو حتى خائنا ، ولكن هذا شيء آخر ، فالخيانة تحدث أحيانا فى كل البلاد من المواطن الأصلى أو الوافد ، وهى نقص فى التربية والخلق ، وعندما تكتمل التربية والخلق فالانسان لا يخون وطنه ولا أوطان الآخرين ، ولا يرتكب هذا الانحراف •

وقد اندفع أنور الساداتى فى يوم من الأيام فقال ان عبد الناصر كان أول حاكم مصرى لمصر منذ حوالى ألفى عام ، وذلك ادعاء باطل ، كان نوعا من الملق من جانب ، وكان من جانب آخر ليثبت أنه هو نفسه ثانى حاكم لمصر من المصريين ، وذلك قول لا يتفق مع العلم ولا مع التاريخ وبخاصة إذا لاحظنا أن بعض الأسر المالكة فى أوربا وافدة من أقطار أخرى •

ديكتاتورية المماليك :

فى احدى المحاضرات العامة التى ألقاها استاذ تاريخ قـال : إن المماليك كانوا يحكمون مصر حكمـا دكتاتوريا ، وعلى الرغم مـن نفوذ العلماء الذى كان واضحـا طيلة عصر المماليك ، فاننى سـألت المحاضر سؤالا هادئا هو : كيف كانت نظم الحكم فى الأقطار الأخرى خلال عصر المماليك ؟ وهل كانت الديمقراطية سائدة فى تلك الأقطار ؟ وذكرت المحاضر بأسماء بعض ملوك الانجليز فى القرن الثالث عشر مثل الملك هنرى الثانى وابنه الملك جون حيث خلع الابن أبـاه بمؤامرة خائنة ، وتسلط عـلى الأمراء ورجال الكنيسة .. ومثل هذا حدث فى فرنسا وألمانيا .

ما أشد الخطأ عندما نحكم على عصر سابق بقيم عصر حاضر ، لقد خلق الاسلام الشورى وجعلها مبدأ من مبادىء الحكم ، ولكن المسلمين تخلوا كثيرا من المبادىء الاسلامية فى عصور الظلام ، وطغت عليهم موجة العصر الذى عاشوه ، لقد كانت الديكتاتورية هى سياسة ذلك العصر للأسف فى كل البلاد والأوطان ، أو على الأقل فى أكثرها .

المهام التى قام بها المماليك :

فى مطلع الإسلام كان العرب مسيطرين على أمور الشرطة والحرب ، ولم يكونوا يسمحون للموالى بشىء من ذلك ، فلما بـدأ الرقيق يظهر كان عملهم يتجه للخدمة ، وقد ظل هذا حتى سقوط الدولة الأموية ، وفى مطلع الخلافة العباسية ظهر موالى الترك والروم والبربر ، وكانوا — وبخاصة فى عهد المهدى والرشيد — بطانة للخلفاء ، فملئوا بهم المواكب فى الأعياد وأصبحوا زينة فى أيام السلم ، واكتافا العصبية الخليفة (١) ، ثم أسندت لهم حراسة الخليفة وضمان سلامته .

---

(١) ابن خلدون : العبر جـ ٥ ص ٣٧٠ .

فلما جاء المعتصم تغير الأمر ، فلقد واجه الخليفة حروبا كثيرة فى الداخل والخارج واجه الزط ، وبابك الخرمى ، والروم ، فاحتاج الى تقوية جيشه ، ولم يكن يثق بالعرب مخافة أن يكون اتجاههم علويا ، ولم يكن يثق بالفرس لأنهم حاولوا الاستيلاء على السلطة من المأمون قبل أن يعود الى بغداد من مرو ، وكان الذى تولى ذلك الفضل بن سهل وأخوه الحسن ، ولهذا رأى ضرورة تقوية جيشه بعناصر عرفت بالشجاعة والبطولة من غير العرب والفرس ، فلجأ الى الأتراك وكون منهم جيشه .

وبدأ بذلك تدفق الأتراك ونظائرهم ليكونوا عناصر الجيوش فى كثير من البلدان ، وبدأ ظهورهم فى مصر فى عهد الطولونيين وفى عهد الاخشيديين والفاطميين والأيوبيين ، وكانت جنسياتهم متعددة .

وهنا نعود الى مصر لنسأل سؤالا مهما هو : لماذا لم يتكون جيش من الشباب المصرى عندما بدأت الحركة الاستقلالية بمصر ؟

والاجابة أن التاريخ القديم والحديث يذكر أنه كانت هناك جماعات تستأجر للدفاع والحرب ، سميت فى الماضى « أحابيش » أو تجمعات عسكرية ، وسميت فى الحاضر « مرتزقة » ولم يكن هناك فى العصور الوسطى من ضرر فى الاعتماد على هؤلاء فى شئون الحرب لتخصصهم وبطولاتهم ، فكما تشترى الدول الآن الآلات الحربية ، كانت الدول تستأجر الرجال .

أما أهل البلاد فكانوا يعملون فى التنمية الاقتصادية والثقافية ، فكانت شئون الزراعة والتجارة والصناعة تشغلهم ، كما كانوا يعملون فى ميدان الفكر والبحوث والعلم .[٢]

ومع هذا فاننا نجد أن خمارويه عندما وجد من بين المصريين من لا يشغله العمل الاقتصادى أو الثقافى ، تقدم وجمع هؤلاء وكون منهم

(٢) انظر الجزء الثالث من هذه الموسوعة .

فرقة مهمة من فرق الجيش سماها « المختارة » وكان أعضاؤها معروفين بالشجاعة وشدة البأس وعظم الأجسام (١) ومثل هذا حدث فى مختلف العصور ، وبخاصة فى جيوش صلاح الدين وقطز وبيبرس ومحمد على ، فكان المصريون يمثلون نسبة كبيرة فى هذه الجيوش وأحيانا النسبة العظمى •

عيوب :

إن حديثنا السابق عن المماليك لا يعنى الانحياز لهم أو خلوهم من العيوب ، فقد كانت فيهم عيوب واضحة مصدرها أنهم جاءوا من مناطق مختلفة ، وبذلك كونوا جماعات كثيرا ما ظهر التنافر فيها ، وطالما نشأت عن التنافر حروب وصراعات •

ومن عيوبهم أنهم كانوا يعتزلون عن الشعب ، عند استقدامهم ويعيشون فى معسكرات خاصة ، مما جعلهم يحسون بالانعزالية من جانب ، وبالتفوق من جانب آخر لارتباطهم بسلطان البلاد ارتباطا وثيقا •

وقد ذكرنا من قبل أن بيعهم كان صفقة باطلة من وجهة النظر الاسلامية ، ولكن هذا التفكير لم يصل الى عقولهم ، وربما لم يعرف آنذاك ، ومن هنا فكان إحساسهم أنهم رقيق اشتروا بالمال ، وقد تكون عند الكثيرين منهم عقدة نقص لهذا السبب ، وكان لها رد فعل عنيف فى تطلعاتهم للسيادة •

ومن عيوبهم أن القوة كانت المسيطرة على مجتمعهم ، ولا سيطرة للحكمة أو للموهبة غالبا ، وعلى هذا فهم كانوا مستعدين للخضوع للقوة كما فعلوا مع المعتصم والموفق والمعتضد ، وابن طولون ، كما كانوا مستعدين أن يخضعوا الآخرين لقوتهم اذا شاهدوا فى الآخرين جوانب ضعف أو تخاذل ، ومن [illegible] كان القلق طابع الحياة فى العصر المملوكى ،

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ ٣ ص ٥٩ •

فإذا لم يكن السلطان قويا مهيب الجانب فإنه يكون عرضة للثورات وضياع النفوذ .

عصر المماليك فى العالم :

لقد تحدثنا عن المماليك فى مصر ، ونحب أن نقول ان عصرا طويلا كان المماليك فيه هم نواة الجيوش فى بقاع مختلفة وأقطار متعددة ، ولعل بدء ظهورهم مع العباسيين فى عهد المعتصم كما ذكرنا من قبل ، ثم حذا حذوهم السامانيون ، وسبكتكين فى الدولة الغزنوية وأمراء الأندلس وخلفاؤها ، كما كان العبيد والمماليك يكوّنون الجيوش فى العهد الاقطاعى بأوربا .

جنسيات المماليك :

والمماليك الذين نتحدث عنهم الآن لا يسمون أتراكا لأنهم ليسوا من بلاد تركستان فحسب ، وانما هم من شبه جزيرة القرم وبلاد القوقاز والقفجاق وآسيا الصغرى وفارس وتركستان وبلاد ماوراء النهر ، ففيهم عنصر الأتراك وفيهم الشراكسة والروم والأكراد ، وبعضهم من البلاد الأوربية أيضا .

طريقة تربيتهم :

وكانت تربية هؤلاء المماليك وتدريبهم تمر بمراحل متعددة ، فكان تجار الرقيق يجلبون أعدادا منهم ويعرضونهم على السلاطين ، وكان السلاطين يختارون منهم أحسنهم قامة وصحة ، ومن يبدو عليه الذكاء والنجابة ، فاذا تمت عملية الشراء وضعهم السلاطين فى أبراج خاصة بهم ، ورتبوا لهم من الفقهاء والعلماء من يلقنونهم الدين والعلوم ويأخذونهم بملازمة الفرائض ، فاذا تمّ ذلك وتقدمت بالمماليك السن تجاه الشباب ، وُكِلوا الى مدربين عسكريين لتلقينهم النظم العسكرية وفنون الحرب ، فاذا تتم للملوك ذلك انتقل لخدمة سيده ليلحق بحرسه

الخاص أو بديوانه أو بجيشه ، وسواء كان عمله هنا أو هناك فان مواهبه قد تدفعه الى الصدارة .

مماليك مصر نوعان :

ولنعد للحديث عن المماليك الذين حكموا مصر وسوريا بعد الدولة الأيوبية ، وقد اتفق المؤرخون على تقسيم هؤلاء المماليك قسمين ، القسم الأول يعرف بالمماليك البحرية ، وهؤلاء جلبهم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذى جمع من المماليك ما لم يجمع غيره من أهل بيته ، حتى كان أكثر أمراء العسكر من مماليكه (١) ، وبنى لهم قلعة بجزيرة الروضة وحشدهم بها ، ومعظم هؤلاء المماليك من الأتراك ، واختار منهم الصالح فرقة للأسطول سميت الفرقة البحرية أو الفرقة الصالحية ، ولذلك يسمى هؤلاء المماليك : المماليك البحرية ، أو المماليك الأتراك ، والتسمية الأولى أشهر . ويرى فيليب حِتّى أنهم سموا البحرية لأنهم كانوا يقيمون بجزيرة الروضة التى يحيط بها النيل ، وكان النيل يُدْعَى عندهم بالبحر (٢) . وقد حكم هؤلاء المماليك من سنة ١٢٥٠ الى سنة ١٣٨٢ ، ومن الواضح أن هؤلاء المماليك انحدروا من أصول مختلفة ، ولا يربطهم دم ولا عنصر ، وانما يربطهم شىء واحد هو أنهم مماليك اشتروا بالمال ، وان كان أكثرهم أتراكا كما ذكرنا .

أما القسم الثانى فمجموعة أخرى من المماليك ليست مما جلبه الأيوبيون ، وليسوا أشتاتا ينتسبون الى عناصر مختلفة ، وانما هم شراكسة اشتراهم السلطان قلاوون أحد المماليك البحرية الذين تحدثنا عنهم آنفا ، وقد كان يطمع فى إقرار السيادة فى ذريته وتمّ له ما أراد ، فقد حكم هو وأولاده وأحفاده أكثر من قرن (من سنة ١٢٧٩ الى سنة

---

(١) العينى : عقد الجمان حوادث سنة ٦٤٧ .

(٢) تاريخ سوريا : ص ٢٦٨ .

١٣٨٢) ثم استولى أحفاد مماليكه البرجية علي الحكم سنة ١٣٨٢ وظلوا يحكمون مصر حتى سنة ١٥١٧ ٠

وسمّى هؤلاء شراكسة نسبة الى بلادهم ، وهى بعض بلاد الكرج « جورجيا » بين بحر قزوين والبحر الأسود ، وهى جزء من أقاليم الاتحاد السوفيتى فى العصر الحاضر ، وتوجد منطقة تعرف باسم شركس (Circassia) تمتد على الشاطى الشرقى للبحر الأسود ، سكانها يعرفون بالشراكسة ، وهم مشهورون بالشجاعة والفروسية والجمال ، وكانت تجارة الرقيق بينهم رائجة حتى أنهم كانوا يبيعون أبناءهم وبناتهم ٠

ويسمى هؤلاء المماليك أيضا « المماليك البرجية » وقد أطلق عليهم هذه التسمية السلطان الأشرف خليل بن قلاوون عندما قسّم المماليك السلطانية الى طوائف ، وأسكن طائفة الشركس فى أبراج القلعة ، وكان عددهم آنذاك ٣٧٠٠ مملوك [١] وسلاطين المماليك الشراكسة كلهم من أصل شركسى ، ماعدا اثنين هما خشقدم وتمربغا ، فقد كانا من أصل يونانى ٠

وسلاطين المماليك البحرية هم :

أولا : السلاطين قبل قلاوون

١ — أيبك	٦٤٨هـ = ١٢٥٠م
٢ — على بن أيبك	٦٥٥هـ = ١٢٥٧م
٣ — قطز	٦٥٧هـ = ١٢٥٩م
٤ — الظاهر بيبرس	٦٥٨هـ = ١٢٦٠م

---

(١) الدكتور ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٨ — ٩ ٠

٥ ـ بركة خـان بن بيبرس	٦٧٦هـ = ١٢٧٧م
٦ ـ سلامش بن بيبرس	٦٧٨هـ = ١٢٧٩م

ثانيا : عهد قلاوون وابنيه خليل والناصر

٧ ـ قلاوون	٦٧٩هـ = ١٢٧٩م
٨ ـ الأشرف خليل بن قلاوون	٦٨٩هـ = ١٢٩٠م
٩ ـ الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الأولى]	٦٩٣هـ = ١٢٩٣م
١٠ ـ كتبغا	٦٩٤هـ = ١٢٩٤م
١١ ـ لاجين	٦٩٦هـ = ١٢٩٦م
الناصر محمد قلاوون [سلطنته الثانية]	٦٩٨هـ = ١٢٩٨م
١٢ ـ بيبرس الجاشنكير	٧٠٨هـ = ١٣٠٨م
الناصر محمد بن قلاوون [سلطنته الثالثة]	٧٠٩هـ = ١٣٠٩م

ثالثا : أولاد الناصر

١٣ ـ أبو بكر بن الناصر محمد	٧٤١هـ = ١٣٤٠م
١٤ ـ كجك بن » »	٧٤٢هـ = ١٣٤١م
١٥ ـ أحمد بن » »	٧٤٢هـ = ١٣٤٢م
١٦ ـ إسماعيل بن » »	٧٤٣هـ = ١٣٤٢م
١٧ ـ شعبان بن الناصر محمد	٧٤٦هـ = ١٣٤٥م
١٨ ـ حاجى بن » »	٧٤٧هـ = ١٣٤٦م
١٩ ـ حسن بن » »	٧٤٨هـ = ١٣٤٧م
٢٠ ـ صالح بن » »	٧٥٢هـ = ١٣٥١م
حسن بن الناصر محمد [سلطنته الثانية]	٧٥٥هـ = ١٣٥٤م

رابعا : أحفاد الناصر

٢١ — صلاح الدين بن حاجى ٧٦٢هـ = ١٣٦١م

٢٢ — شعبان بن حســن ٧٦٤هـ = ١٣٦٣م

٢٣ — على بن شــعبان ٧٧٨هـ = ١٣٧٦م

٢٤ — حاجى بن شعبان ٧٨٣ — ٧٨٤هـ = ١٣٨١ — ١٣٨٢م

وسلاطين المماليك البرجية هم :

١ — برقوق ٧٨٤ — ٨٠١هـ = ١٣٨٢ — ١٣٩٨م

فى خلال سلطنة برقوق اســتطاع يلبغا أن يتغلب عليه ويعيد للسلطة حاجى المملوك البحرى لمدة عام واحد (٧٩١ — ٧٩٢هـ) ثم استطاع برقوق أن يستعيد مكانته •

٢ — فرج بن برقوق ٨٠١هـ = ١٣٩٨م

٣ — عبد العزيز بن برقوق ٨٠٨هـ = ١٤٠٥م

فرج للمرة الثانية ٨٠٩هـ = ١٤٠٦م

٤ — العادل المستعين بالله (الخليفة العباسى) ٨١٥هـ = ١٤١٢م
[أصبح سلطانا مع الخلافة] •

٥ — المؤيد شيخ ٨١٥هـ = ١٤١٢م

٦ — أحمد بن المؤيد [لم يكمل العام فى الحكم] ٨٢٤هـ = ١٤٢١م

٧ — سيف الدين ططر ٨٢٤هـ = ١٤٢١م

٨ — محمد بن ططر [لم يكمل العام فى الحكم] ٨٢٤هـ = ١٤٢١م

٩ — الأشرف بارســباى ٨٢٥هـ = ١٤٢٢م

١٠ — يوسف بن بارسباى [حكم ٩٤ يوما] ٨٤٢هـ = ١٤٣٨م

١١ — جقمق [تشقمق] ٨٤٢هـ = ١٤٣٨م

١٢ — عثمان بن جقمق [لم يكمل العام فى الحكم] ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م

١٣ — سيف الدين إينال ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م

١٤ — أحمد بن إينال [حكم أربعة أشهر] ٨٦٥هـ = ١٤٦٠م

١٥ — خشقدم ٨٦٥هـ = ١٤٦١م

١٦ — بلباى ٨٧٢هـ = ١٤٦٧م

١٧ — تيمور بغا (*) ٨٧٢هـ = ١٤٦٨م

١٨ — قايتباى ٨٧٣هـ = ١٤٦٨م

١٩ — محمد بن قايتباى (**) ٩٠١هـ = ١٤٩٥م

٢٠ — الظاهر قانصوه الأشرفى ٩٠٤هـ = ١٤٩٨م

٢١ — أشرف جانبلاط ٩٠٥هـ = ١٤٩٩م

(حاول مملوك اسمه طومان باى الاستيلاء على السلطة ولكن الأمر لم يستقر له) .

٢٢ — الأشرف قانصوه الغورى ٩٠٦هـ = ١٥٠٠م

٢٣ — طومان باى [الثانى إذا اعتبرنا سلطة الأول] ٩٢٢هـ = ١٥١٦م
إلى ١٥١٢ (١)

(*) عزله خير بك وتسلطن ليلة واحدة ثم زحف قايتباى .

(**) عزله قانصوه خمسمائة وتولى بدله مدة ثلاثة ايام .

(١) هذه القوائم من زامباورو Stanley Lane-Poole

وفيما يلى دراسة عن أهم الأحداث فى العصر المملوكى :

من الأيوبيين إلى المماليك

استطاعت الحملة الصليبية التى قادها لويس التاسـع أن تحتل دمياط واتجهت الى القاهرة ، وسار الملك الصالح لمقابلة الحملة ، ورابط فى المنصورة ، ولكنه مرض هناك مرض الموت ، بيد أن السيدة أم خليل شجرة الدر سُرِّيَّة الملك الصالح أرسلت تستدعى توران شاه بن الملك الصالح ، ودارت المعارك بين الجيش المصرى وبين الصليبيين ، ومـات الملك الصالح والمعارك تدور ، فأخفت شجرة الدر وفاته : وظلت تصدر الأوامر باسمه ، وأبدى الجيش المصرى بقيادة المماليك براعة فـائقة ودارت المعركة فى أزقة المنصورة وشوارعها ، فسقط من جيش الفرنجة ألف وخمسمائة قتيل ، وأسر عدد كبير كان من بينهم لويس التاسع نفسه ، وقد سِيق مكبلا بالأغلال الى دار فخر الدين ابراهيم بـن لقمان حيث سُجن (١) ، وحضر توران شاه عقب الموقعة فأسلمته شجرة الدر السلطة وأعلنت وفاة الملك الصالح •

شجرة الدر :

وكانت شجرة الدر ذكية حازمة مخلصة خلال هذا الموقف الدقيق كما رأينا ، وكانت تتطلع الى اعتراف بالجميل من توران شاه ، ولكنه بدلا من ذلك ظهرت عليه علامات الريبة فأخذ يتشكك فى أمانتها تجاه ثروة أبيه ، كما أنه لاحظ بوادر غرور من المماليك فأظهر النية لكبح جماحهم ، وتهديدهم • ويروى أنه كان يشرب الخمر ويَصُفّ مجموعة من الشموع أمامه وهو سكران ، ثم يمسك بسيفه ويضربها واحدة واحدة وهـو يردد : « هكذا أفعل بالبحرية » ، وكان كلما ضرب شمعة ذكر اسم واحد

---

(١) المقريزى : السلوك جـ١ ص ٣٥٦ وابن تغرى بردى : النجـوم الزاهرة جـ٦ ص ٣٦٧ •

من الزعماء (١) . وكان أن تآمرت عليه شجرة الدر والمماليك فقتلوه بعد سبعين يوما من توليته الملك .

واتفقت كلمة المماليك على أن تتولى شجرة الدر سلطان البلاد ، وتولته فعلا حوالى ثلاثة أشهر (٢) ، ولكن الخلافة العباسية استنكرت أن تَلِىَ الأمر امرأة ، ويقول المقريزى أن الخليفة أرسل للمماليك يقول :

إن كان الرجال قد عَدِموا عندكم فأعلمونا لنرسل إليكم رجلا (٣) . ونتيجة لذلك فكرت شجرة الدر فى التخلى عن عرش مصر ، فتزوجت عز الدين أيبك وتنازلت له عن العرش ، ولم يكن أيبك ذا شخصية قوية ، مما يفيد أن شجرة الدر اختارته ستارا لتحكم من ورائه ، ولكن أيبك أراد أن يستبد بالسلطان دونها ، فحصل بينهما صراع انتهى بأن دبرت شجرة الدر قتله ، ثم قتلها فيه ابنه .

بقى اسم صغير ينبغى أن نذكره قبل أن يتم الأمر للمماليك ، ذلك هو الصبى الأيوبى الأشرف موسى وهو ابن توران شاه الذى وضعه المماليك مع أيبك كسلطان شرعى على أن يكون أيبك وصيا عليـه ، ولكن أيبك سرعان ما عزله واستبد بالأمر ، وبعزل الأشرف واستبداد أيبك بالأمر دون شجرة الدر ، انتهى ملك الأيوبيين وأصبح الأمر فى مصر للمماليك .

وفى هذه الأثناء زحف الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب وضمَّ اليه دمشق ، بل انه زحف على الديار المصرية للقضاء على ما اعتقده تمردا من المماليك على أسرته « سبتمبر ١٢٥٠ » ، وقد دار نضال بين الأيوبيين والمماليك انتصر المماليك فى نهايته « فبراير ١٢٥١ » ، بيد أن الخلافة

---

(١) السلوك للمقريزى . جـ١ ص ٣٥٩ .

(٢) أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر جـ١٩٠٣ وخطط المقريزى جـ٢ ص ٣٢٧ .

(٣) كتاب السلوك جـ١ ص ٣٦٨ وحسن المحاضرة للسيوطى جـ٢ ص٣٩ .

العباسية أحست بالخطر الذى يهدد العالم الاسلامى بسبب زحف التتار تجاه العراق ، فتدخلت بين المماليك والأيوبيين ، وتم اتفاق فى أبريل ١٢٥٣ على أن تكون مصر وفلسطين حتى نهر الأردن بما فى ذلك غزة والقدس والساحل للمماليك وتكون بقية الشام للأيوبيين (١) .

ولكن التتار تقدموا وقضوا على الخلافة العباسية وزحفوا تجاه الشام ، فأسرع الناصر يوسف الأيوبى صاحب حلب الى اعلان خضوعه للتتار ، وأرسل ابنه بذلك الى هولاكو ومعه مجموعة من التحف والهدايا ، ولكن هولاكو تغلب عليه حرصه على سفك الدم والتدمير فادعى أن عدم حضور الناصر بنفسه يعد إهانة شخصية له وزحف على حلب فدمرها ، واتجه الى دمشق فأنزل بها مثل ما فعل بحلب ، ولم يوقف زحفهم إلا المصريون فى موقعة عين جالوت التى سنتكلم عنها فيما بعد ، والمهم هنا أنه بهزيمة التتار على يد المماليك التقت الشام ومصر مرة أخرى تحت حكم واحد ، وأعيد الحصار حول الصليبيين .

وظلت السلطة فى أيدى المماليك البحرية مدة ١٣٢ عاما كما رأينا فى القوائم السابقة ، وكان المماليك البرجية منذ اشتراهم قلاوون وأسكنهم برج القلعة بعيدين عن معركة السلطان ، ولكن عندما اضطربت الأحوال إبان عهد أحفاد الناصر ، بسبب تولية الأطفال وثورات العربان وتمرد الحكام فى الشام ، بدأ المماليك البرجية يزجون بأنفسهم فى المعمعة ، فتولى برقوق الوصاية على حاجى حفيد الناصر وكان طفلا فى التاسعة من عمره ، وقد استطاع برقوق أن يحث الخليفة العباسي والقضاة والأمراء على عزل هذا السلطان الصبى وإسناد الأمر له رجاء أن يعيد الاستقرار والأمن للبلاد ، وقد انتقلت بذلك السلطة من المماليك البحرية الى المماليك البرجية .

---

(١) المقريزى : السلوك جا ص ٣٨٦ .

تولية السلطة وأساليبها

بملاحظة الحديث عن سلاطين دولتى المماليك نقرر أن المماليك البحرية حاولوا تقليد سادتهم الأيوبيين فى نظام الوراثة ، وقد بدأ الظاهر بيبرس بخلق نظام ولاية العهد فجعلها لأولاده من بعده ، وإذا كان الظاهر لم ينجح فى تثبيت ولاية العهد فى أسرته ، فإن قلاوون نجح فى ذلك فبقى الملك فى بيته حوالى مائة عام حتى سقوط المماليك البحرية كما ذكرنا من قبل .

ويبدو أن نظام التوارث فشل ، ولذلك لم يأخذ به المماليك البرجية أخذا حقيقيا ، مع أن أكثر السلاطين حاولوا تعيين أولادهم ليلوا الأمر بعدهم ، وكان المماليك الآخرون يتظاهرون بالموافقة ويقدمون البيعة ويقسمون عليها الأيمان ، بل ينفذونها فعلا عقب وفاة السلطان ، ولكنهم سرعان ما يضيقون بالسلطان الصبى ويعزلونه ليتولى الأمر متغلب منهم وهو ما نشاهده بملاحظة قائمة المماليك البرجية ، ويقول Lane - Poole فى ذلك بعد أن أورد قائمة المماليك البرجية إنه لا يوجد أكثر من ملكين من أسرة واحدة ولذلك فليس هناك ما يدعوه الى رسم شجرة للسلاطين .

وقد تسبب عن هذا الموقف من السلاطين البرجية أن كثر الخلاف بينهم ، وأصبحت ولاية السلطة معركة لا تنقطع ، ويزيد أوارها إذ خلا العرش أو تولاه طفل من أبناء السلاطين ، وقد دعا ذلك بعض العقلاء الى ازدراء هذا المنصب والحرص على عدم نيله ، لما يحوطه من قلق وصخب ، ومن الذين زهدوا فيه الأمير أزبك الذى أريد لهذا المنصب ، فاقسم بالطلاق ألا يقبله ، كما رفض السلطان قايتباى أن يعهد لابنه محمد بولاية العهد خلال مرضه لإدراكه أنه يضعه — لو فعل — فى أتون دائم اللهب .

وليس العدول عن إخضاع هذا المنصب للتوارث ناشئا عن ديمقراطية ، بل كان ناشئا عن أطماع غمرت الجميع وجعلت كل واحد

من المماليك يحس أنه جدير بشغل هذا المنصب ، وعلى هذا كان ذلك العهد عهد مؤامرات وعمل فى الظلام ، وخيانات دنيئة ، وهذا النظام على العموم كان سائدا خلال العصور الوسطى فى المجتمعات الاقطاعية ، فالسلطان وملكية الاقطاع يجتمعان لمن يستطيع أن ينالهما بمؤامراته وسيوفه ، وكما ينالهما الاقطاعى يفقدهما بنفس الوسيلة •

تعريف بأشهر السلاطين

من مراجعة القوائم السابقة عن سلاطين المماليك ، نلاحظ أن بعض السلاطين لم يظهر لهم دور يستحق الذكر ، وكان عدد كبير منهم فى سن الطفولة والصبا ، فلم يكن غير ستار تحكم من خلفه قوى متضاربة ، ومن أجل هذا سنقصر هنا كلامنا على السلاطين الذين لعبوا دورا مهما فى التاريخ •

الظاهر بيبرس :

إذا كان قُطُز قد انتصر على التتار فى موقعة عين جالوت ، فقد شاركه فى تحقيق هذا النصر قائدُ جيشه الظاهر بيبرس ، ولذلك فنحن نتخطى قُطُز لنقف وقفة عند بيبرس الذى يُعَدُّ فى القمة من سلاطين المماليك ، وسنرى اسمه بارزا فى النضال ضد التتار ، وفى النضال ضد الصليبيين ، وسنراه كذلك مؤسسا للخلافة العباسية فى القاهرة ، وطموحا فى استعادة بغداد من التتار ، ونَدَعُ هذا إلى حينه لنتكلم عن نواح غيرها فى هذا السلطان العظيم •

كان بيبرس إداريا حازما ، دائب العمل لترقية شئون بلاده وتنمية مواردها ، حَفَرَ الترع وأصلح الحصون ، وأسس المعاهد وبنى المساجد ، وكان له مقام كبير بين أمراء مصر حتى هابوه وخشوا بأسه ، ولم يكن أحدٌ منهم يجرؤ على الدخول عليه إلا بإذنه ، وكان شجاعا ضُربت الأمثال ببطولته وشهامته ، وكان مثالاً للحاكم العادل ، يجلس للنظر فى

المظالم بنفسه ، ويعطف على الفقراء والمعوزين ، وكانت حكومته استبدادية ولكنها كانت مستنيرة ، وقد وضع بيبرس أسس دولة المماليك ، وابتدع طرقا لحكمها ، واستحدث كثيرا من الوظائف الهامة ، ووجه عنايته للجيش ، ورفع شأن الأسطول المصرى بعد أن اضمحل فى أواخر عهـد الدولة الأيوبية ، وأصلح نظام القضـاء بأن عيّن قضاة مـن المذاهب الأربعة للفصل فى الخصومات ، وأصدر عدة قوانين لرفع المستوى الخلقى فى مصر ، ومنها أن أمـر بمنع بيع الخمـور وأقفل الحانات ونفى كثيرين مـن المفسدين (١) •

ومن أعمـاله المجيدة القضاء على فرقة الحشاشين بسـوريا ، تلك الفرقة التى عبثت بالقيم والمبادىء ، وامتد نشاطها فى الدس والاغتيال حتى أصبحت خطرا جسيما ، وقد تم لبيبرس سحق هذه الفرقة فى سوريا إلى الأبـد (٢) •

وفى سنة ٦٧٤هـ استدار بيبرس الى بلاد النوبة التى بدأ بها لون من التمرد على المعاهدة التى تربطهم بمصر والتى تحدثنا عنها من قبل وقد استطاع بيبرس أن يقضى على هذا التمرد ، ويرغم الثائرين على الخضوع لنصوص المعاهدة ، وسنرى تفصيل ذلك فيما بعد •

وقد امتد ملك مصر فى عهد بيبرس من الفرات الى الحجاز وجنوب الجزيرة العربية وشمل كذلك بلاد الشام وبيت المقدس وسواكن وغيرها على البحر الأحمر ، وخضع له عرب الصحراء وكثير من سلاطين المغول ، وتبادل السفراء مع امبراطور الروم وشيد مسجدا فى الأستانة ، وأرسل له خان المغول ابنته ايترونجها •

---

(١) دكتور على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى ص ١٦٥ بتصرف :

(٢) انظر ما كتبناه عن هذه الفرقة فى الجزء الثامن ص ١١٨ — ١٢٢ وانظر تاريخ سوريا لفيليب حتى جـ٢ ص ٢٤٧ .

وقد عُنِيَ بيبرس عناية كبيرة بالعلوم والمعارف ، وإصلاح الرى والزراعة ، ولم يغال فى فرض الضرائب مع كثرة حروبه ، بل خَفَّضَهَا إلى أصغر حد كاف للقيام بمشروعاته العظيمة (١) .

ومن آثاره مسجده بالحسينية المعروف بجامع الظاهر ، والمستشفى المعروف بمستشفى قلاوون بالنحاسين .

أما ما عُرِفَ عنه أحيانا من القسوة والميل الى الغدر فيمكن أن يُعدّ نتيجة طبيعية للظروف المحيطة به ، وللفوضى التى كانت طابع المماليك .

وهناك عَلَمٌ شهير عاصر الظاهر بيبرس ، ويقال إنه اتصل به ، وهو السيد أحمد البدوى ، وينسب الرواة لهذا الولى ألوانا من المكرمات يتصل بعضها بالحرب وأسرى الحروب التى ملأت تاريخ هذه الحقبة ، ولسنا هنا نتحدث عن كرامات الأولياء فلهذه حديث مفصل فى مكان آخر (٢) ؛ ولكنا هنا نقرر أن التاريخ الصحيح لم يَرْوِ شيئا عن صلات السيد البدوى بهذه الحروب ولا بنتائجها ، ويروى بعض الباحثين (٣) أن السيد البدوى مفترى عليه ، وأن رواة الأخبار وخَدَمَ الضريح على مر الزمان اختلقوا كثيرا مما نسب اليه لتنهال عليهم النذور .

قلاوون :

بعد ثلاثين عاما من قيام دولة المماليك البحرية تولى قلاوون الحكم ، وبقى السلطان فى بيته حتى نهاية هذه الدولة ، وسنرى صراع قلاوون

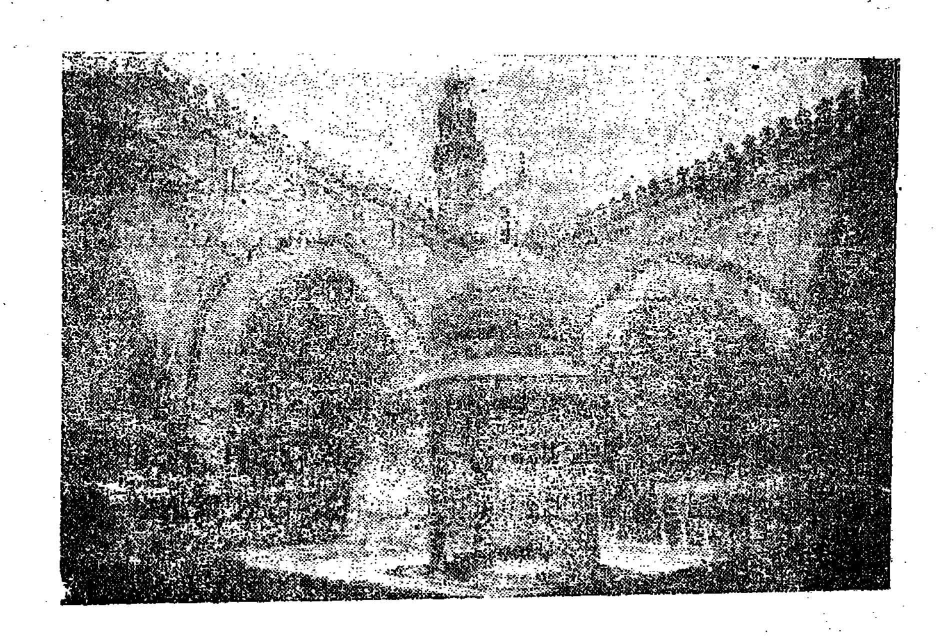
---

(١) عمر الاسكندرى وسيفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ص٢٣٤ .

(٢) الحياة الاجتماعية فى التفكير الاسلامى للمؤلف .

(٣) انظر « السيد احمد البدوى : شيخ وطريقة » للدكتور سعيد عاشور ص ١٤٥ .

ضد الصليبيين وضد التتار ، ولكنا هنا نتحدث عن مظاهر أخرى ترتبط به ، فقد سار قلاوون سيرة بيبرس فى العدالة وادارة شـئون البـلاد والتقرب الى الشعب ، وهو الذى جلب المماليك الشراكسة كما ذكرنا من قبل ، ويبدو أنه عاش فى حراستهم فى أمْنٍ فلم يلجأ كثيرا الى سفك الدماء ، وتنسب له كثير من المنشآت العظيمة ، ومن أهمها المسجد والضريح والمستشفى التى أقامها على رقعة من أرض القصر الفاطمى الصـغير الغربى بشارع المعز لدين الله بالنحاسين ، ومكان المستشفى الآن مصحة لأمراض العيون أقامتها وزارة الأوقاف سنة ١٩١٥ .



مسـجد قلاوون

وكان لقلاوون ثلاثة أبناء هم : علاء الدين وخليل والناصر ، وكان علاء الدين ممتازا ، وكان موضع حب الجميع حتى أن أباه فكّر فى توليته السلطة بدله وهو حيّ ، ويقال إن أخاه خليلا نفس عليه هذه المكانة فدس له السم فمات . ولم يعين قلاوون خليلا وليا لعهده لهذا السبب ، وقال عندما عرض عليه هذا الأمر : أنا ما أولّى خليلا على المسلمين (١) . كما أن قلاوون لم يول ابنه الثالث لصغر سنه ، وترك الأمر لقادة المسلمين ؛ وهو موقف طيب يحسب لقلاوون فى الميزان ، ولكن السلطة بعد قلاوون آلت على كل حال لابنه خليل (الأشرف خليل) الذى كان له دور عظيم فى القضاء على الصليبيين وسنذكره فيما بعد .

الناصر محمد بن قلاوون :

هو الابن الثالث لقلاوون ، تولى بعد أخيه الأشرف خليل ، وقد تولى الناصر الحكم ثلاث مرات ، وكان عندما تولى فى المرة الأولى فى التاسعة من عمره ، وقد استمرت ولايته هذه المرة عاما واحدا ، ثم اغتصب كتبغا فالمنصور لاجين الملك منه مدة أربع سنوات ، وكان عهدهما مليئا بالفتن والاضطراب ، وأعيد الناصر للسلطة للمرة الثانية ، ولكنه كان لايزال دون سن الرشد (فى الرابعة عشرة) ، فاستخف به الأمراء ، وعلى الرغم من أن سلطانه امتد هذه المرة عشر سنوات إلا أنه لم يستطع أن يوقف الاستهانة التى بدأ الأمراء يعاملونه بها منذ مطلع هذه السلطنة ، فاضطر الى الرحيل الى الكرك تاركا حياة المؤامرات والدسائس والاستخفاف ، واغتصب بيبرس الجاشنكير « بيبرس الثانى » ، السلطان لنفسه مدة عام ، ولكن الناس كانوا يدركون أن الناصر أكثر اخلاصا منه وكفاءة ، فكتبوا له يطلبون عودته ، وعاد الناصر ليتولى السلطة للمرة الثالثة وابتدأ هذه السلطة وقد اكتمل نضجه وازدهر شبابه إذ أصبح فى منتصف العقد الثالث ، وقد دامت ولايته هذه ثمانية وثلاثين عاما ، وكانت —

---

(١) المقريزى : السلوك جـ٤ ص ٧٤٥ .

بالاضافة الى طولها الزمنى — حافلة بجلائل الأعمال ، وسندع الآن موقفه الجبار ضد التتار والصليبيين لنتحدث عن بعض اصلاحته واتجاهاته ، ويقول المؤرخون إن القاهرة فى عهد الناصر كانت حاضرة لإمبراطورية شاسعة متحدة ، وبسطت نفوذها على اليمن والحجاز بالاضافة الى مصر والشام ، وخطب ودها ملوك من أوربا وآسيا .

ولم يكن نشاط الناصر مقصورا على الحروب والغزوات ، بل امتد الى الناحية الاجتماعية والعمرانية ، فَعُنِيَ بالشئون الداخلية للبلاد ، ومما يذكره له التاريخ أنه حَدَّدَ الأثمان حتى لا تصعب على الفقراء ، وألغى كثيرا من الضرائب التى كان يلتزم بها جماهير الشعب ، واستعاض عنها بضرائب على كبار الموسرين ، وتشدد فى منع شرب الخمر وفى حفظ الآداب ، ونشط فى نشر العلوم والمعارف ، واهتم بفن المبانى وبالنقوش العربية اهتماما كبيرا ، وهو المنشىء لقناطر المياه الموصلة بين القلعة والنيل ، وإن كانت قد نسبت خطأ الى صلاح الدين ، ووصل بين النيل والاسكندرية بترعة ، وأنشأ طريقا عظيما بجانب النيل ، كان بالاضافة إلى فائدته كطريق ، يَرُدُّ المياه وقت الفيضان (١) .

وليس بعد الناصر سلاطين يستحقون الذكر إلاّ كلمة صغيرة عن السلطان حسن بن الناصر الذى بنى المدرسة العظيمة المعروفة الآن بجامع السلطان حسن بجانب القلعة .

---

(١) عمر الاسكندرى وسيفدج : تاريخ مصر حتى الفتح العثمانى ص ٢٣٦ .



مسجد الرفاعي والسلطان حسن

أما المماليك البرجية فليس بينهم من يستحق أن نقف عنده ، وكان عهدهم عهد اضطراب وقلق ، كثر تغيير السلاطين حتى كان منهم من حكم ليلة واحدة أو بضعة أيام أو بضعة شهور ، ومن بين سلاطين الجراكسة يمكن أن نذكر برسباى ، ولعله أقوى من ولي السلطنة منهم ، وان لم يكن أفضلهم ، ونذكر كذلك برقوق وجقمق ، وقايتباى وهم أطول السلاطين عهداً ولهم آثار ذات شأن من أهمها مسجد برقوق ومسجد قايتباى ، وقلعة قايتباى بالاسكندرية .

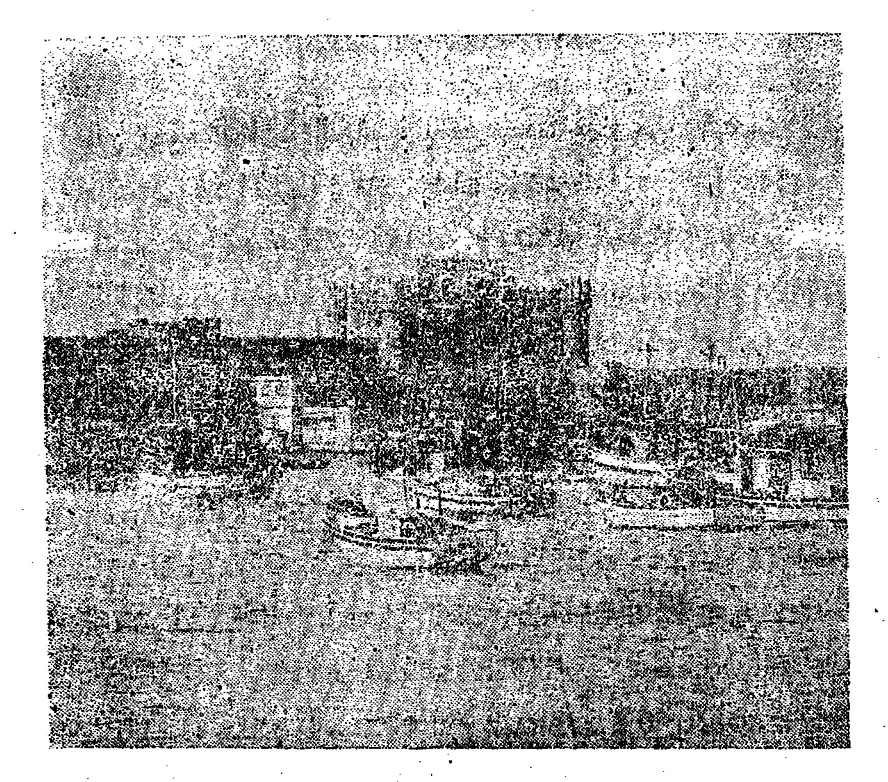
وكان من أسباب عدم الاستقرار فى هذا العهد — بالاضافة الى الاضطراب الداخلى — غارات البدو التى تكررت على مصر فى عهدهم ، وغارات قراصنة الفرنجة فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، وكشف طريق رأس الرجاء الصالح ، ومنافسة العثمانيين للمماليك ، تلك المنافسة التى انتهت بزوال دولة المماليك ودخول مصر وسوريا ضمن الإمبراطورية العثمانية كما سنرى فيما بعد .



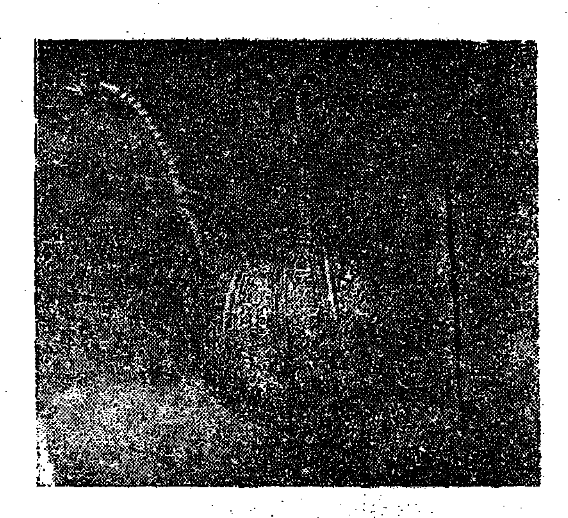
منارة مسجد برقوق



منارة مسجد قايتباى



قلعة قايتباى بالاسكندرية



إبريق من الفضة مطعم بالنحاس — العهد المملوكى

الخلافة العباســية فى مصر

كان إحياء الخلافة العباسية بمصر حدثا مهما من الأحداث الكبرى التى جرت فى عهد المماليك ، فقد سقطت بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) فى أيدى التتار على يد هولاكو وجنوده ، وقُتِل الخليفة العباسى وانتهت الخلافة العباسية ببغداد ، وبعد سنتين من ذلك بدأت سلطنة الظـاهر بيبرس ، وسرعان ما فكر فى اعادة الخلافة العباسية ، فاستدعى سـنة ٦٥٩هـ (١٢٦١م) أحد أبناء العباسيين الذين فروا من وجه الزحف المغولى واسمه أبو القاسم ، وعقد مجلسا حافلا حضره القضاة ورجـال الدين والأمراء والعظماء ، وثَبَتَ فى هذا الاجتماع نسب هذا الوافد ، وبايعه الحاضرون بالخلافة ليكون خليفة الاسلام والمسلمين ، ولقب « المستنصر بالله » ، ثم أخِذت له البيعة على الناس على اختلاف طبقاتهم ، وبعد أن تمت هذه المراسم والتقاليد قلد الخليفةُ الظاهرَ بيبرس حُكْم البلاد جميعها باسمه ، وحكم ما سيفتحه الله عليه بالدعوة أو بالسيف ، ونقشت السكة باسم الخليفة والسلطان ، ودعا لهما الخطباء فى المساجد فى صلاة الجمعــة (١) •

وبهذا التصرف أحاط بيبرس عرش المماليك بالقداسة والإجــلال وأصبحت سلطتهم شرعية •

وقد زادت أطماع بيبرس ، فأراد أن يسترجع بغداد مــن المغول وبخاصة أنه كان قد أوقع بهم حديثا (سنة ١٢٦٠م) هزيمة ساحقة فى عين جالوت فأعد جيشا كبيرا جعل الخليفة العباسى قـائده ، وسيَّره ليسترجع عاصمة آبائه وأجداده ، ولكن المغول تصدوا له وقضوا عليه ، ولما علم بيبرس بمقتل الخليفة حزن عليه واستدعى عباسيا آخر هو أبو العباس أحمد ، وبعد أن ثبت نسبه تمت بيعته على النحو الســابق ،

---

(١) المقريزى : كتاب السلوك جا ص ٤٥٠ ، وابن اياس جا ص ١٠١ •

وبالتالى أعاد الخليفة تقليد بيبرس الولاية على البلاد الاسلامية ، ثم أدرك بيبرس أن من الخير له أن يستبقى الخليفة فى القاهرة ، ليكـون الخليفة منفذا لرغباته ، فذلك أحسن من انتقال الخليفة الى بغداد على فرض الانتصار على المغول ، لأن الخليفة فى بغداد سيتصرف على نحو مغاير لتصرفه وهو فى القاهرة ، أو ستتحكم فيه قوى أخرى كتلك التى تحكمت فى الخلفاء العباسيين ابتداء من العصر العباسى الثانى .

وهكذا أعيدت الخلافة العباسية فى القاهرة ، وعاشت بها طيلة حكم المماليك البحرية والبرجية ، ولكنها لم يكن لها حول ولا طول ولا رأى فى سياسة الأمور ، وانما كان عملها أن تبارك سلطة من حصل على السلطة بسيفه ، وقد ظلت هذه الخلافة العباسية بمصر حتى الفتح العثمانى .

المماليك والتتار

اذا كان الأيوبيون قد مهدوا الطريق للمماليك لينتصروا فى النضال ضد الصليبيين ، فان أحدا لم يمهد الطريق للمماليك ليوقعوا بالمغول ، وعلى العكس خرت قوى كثيرة فى آسيا وأوربا أمام زحف المغول المدمر ، ولذلك عُدّ انتصار المماليك عليهم حماية للحضارة العالمية التى كانت — لولا مصر والمماليك — على وشك أن تنهار وأن تدوسها أقدام المغـول المخربة التى أتت على كل مدينة فى كل وطن حلت فيه ، ولنعد للمسألة من أولها :

كان المغول قبائل همجية وحشية تتنقل فى الهضبة الآسيوية الشاسعة التى تمتد من أطراف الصين الى أواسط آسيا ، باحثين عن الرزق والمراعى ويبدو أن المراعى الحرة التى لا يملكها أحد لم تف بحاجتهم ، فعمدوا الى الاستيلاء على المراعى والمزارع المملوكة للآخرين ، ولم يكن استيلاؤهم عليها استيلاء من يرغب فى الاستقرار والاستثمار ، وانما كان استيلاء الباحث عن الفائدة السريعة دون عناء أو جهد .

هذا مظهر من مظاهر حياة المغول فى حركاتهم الأولى ، ومظهر آخر أنهم كانوا مدمرين يأتون على كل ما يقابلهم من مظاهر الحضارة ؛ فقد كانوا يرون الحضارة وسيلة للقضاء عليهم ، فأخذوا يهدمون المبانى ، ويحـرقون الكتب ، ويقتلون المفكرين والعلمـاء .

وفى أوائل القرن الثالث عشر الميلادى ، استطاع جنكيز خان أحد زعماء هذه القبائل أن يكوّن منها وحدة ، أصبحت آنذاك خطرا عـلى الحضارة الانسانية ، وقدر له النجاح فبسط سلطانه على معظم الصين وبلاد التركستان حتى حدود إيران .

وقف خلفاء جنكيز خان على أبواب العالم الاسـلامى ، وآلت قيادتهم الى هولاكو حفيد جنكيز خان الذى زحف بجيوشه الجرّارة على العالم الاسلامى حتى وصل بها بغداد عاصمة الخلافة العباسية ، وقبض على الخليفة وأباح العاصمة لرجاله مدة أربعة أيام ، ثـم قتل الخليفة نفسه وكثيرا من أفراد أسرته ، وزالت بذلك الخلافة العباسية من بغداد سنة ٦٥٦هـ (١٢٥٨م) .

ومن بغداد زحف هولاكو الى الشام ، فاحتل حلب وأعمل السيف فى خمسين ألفا من سكانها ، ثم احتل حماه ودمشق وعقد معاهدة مـع أنطاكية اللاتينية للتعاون ضد المسلمين ، ولاقى المسلمون فى دمشـق وغيرها من مدن الشام ألوانا مـن الذلة ، وأظهر المسيحيون الشرقيون التشفى فيهم والانتقام منهم ، فسارت مواكبهم تحمل الصلبان ، وألزموا المسلمين القيام لهذه المواكب واحترام هذه الصلبان ، ومما سـاعدهم ذلك أن « كيتوبوقا » نائب هولاكو كان مسيحيا متعصبا ، ومغوليا شديد القسوة على المسلمين (١) .

وعقب احتلال دمشق تقدم المغول بسرعة فاحتلوا نابلس وقتلوا

---

(١) الذهبى : دول الاسلام جـ٢ ص ١٢٥ . وانظر الجزء السابع مـن هذه الموسوعة للمؤلف .

حاميتها ، ثم تقدموا الى غزة دون أن يلقوا مقاومة ، وأصبحوا بذلك بالقرب من حدود مصر ، ويتجه ابن العبرى الى أن المسيحيين الشرقيين ألحوا على هولاكو ليندفع بجنوده الى مصر ، ولم يكن هولاكو يريد ذلك ، وتحت ضغط المسيحيين وافق هولاكو على أن يتجه قائده وخليفته لتحقيق هذه الأطماع (١) وعاد هولاكو الى إيران ليسهم فى تدبير أمر العاصمة بعد وفاة أخيه الأكبر منكوقا آن سنة ٦٥٥هـ وقيام خلاف بين أخويه قوبيلاى وأريق بوكا ، وكان هولاكو يؤيد تولية الأول عرش السلطة ، وقبل أن يبرح هولاكو الشام أرسل الى قطز سلطان مصر رسالة قاسية يهدد فيها ويتوعد ، ومما جاءه فيها قوله : قد سمعتم أننا قد فتحنا البلاد وقتلنا معظم العباد ، فعليكم بالهرب ، وعلينا الطلب ، ولكن أى أرض تؤويكم وأى بلاد تحميكم ، خيولنا سوابق ، وسيوفنا صواعق ، وقلوبنا كالجبال وعددنا كالرمال (٢) .

وتلقت مصر هذه الرسالة ، ودار حولها نقاش ، وكان معنى الاستسلام أن يضيع العالم الاسلامى ، إذ لم يكن قد بقى إلا مصر بعد سقوط العديد من دول الاسلام تحت سلطان المغول ، وأحست مصر بمسئوليتها تجاه الاسلام والمسلمين مع ما فى ذلك من مخاطرة ، ولم يكن من الممكن الاتفاق مع المغول فقد عرف هؤلاء بنقض العهود ، والقضاء على المسالمين ، ولم تبق إلا المواجهة ، وعلى هذا اتفق السلطان قطز وأمير الأمراء قائد الجيوش بيبرس ، وكل القادة المصريين ، وتنفيذا لذلك صدرت الأوامر بقتل سفراء المغول الذين حملوا التهديد ، وكان ذلك إيذانا بقيام الحرب .

ولم يقنع الجيش المصرى بموقف الدفاع من داخل الحصون ، ذلك النظام الذى كان يلجأ له الأمراء فى البلاد المختلفة التى هاجمها المغول ، فقد كان ذلك يتيح للمغول أن يسحقوا الحصون ويدفنوا أعداءهم فى

---

(١) تاريخ مختصر الدول ص ٢٨٠ .

(٢) الرسالة فى السلوك للمقريزى جـ١ ق٢ ص ٤٢٧ ، ٤٢٩ .

حصونهم ، وتحاشيا لذاك لجأ المصريون للهجوم ، فزحف بيبرس ، واقتحم غزة وقضى على حاميتها ثم زحف قطز الى عكا ، وسمح له الفرنجة باجتياز طرقهم إذ كانوا يثقون فى المسلمين أكثر مما يثقون فى المغول .

عين جالوت :

شهدت عين جالوت التى تقع بين بيسان ونابلس معركة من أخطر معارك التاريخ ، فقد اتجه لها كيتوبوقا مزمجرا عندما وصلته أنباء اندحار جيشه فى غزة واتجه لها كذاك جيش مصر اللجب ، وكان اللقاء فى يوم ١٥ رمضان سنة ٦٥٨هـ (١) ، وقد أعد قطز خطته للمعركة اعدادا عبقريا ، فقدم بعض جيشه بقيادة بيبرس ، واختفى مع بقية الجيش خلف بعض التلال القريبة ، ونزل كيتوبوقا المعركة بكل جيشه ، وعندما حميت المعمعة تقدم قطز من مكمنه فأحاط بجيش المغول وكانت معركة

---

(١) بمناسبة هذه الموقعة الخطيرة التى حدثت فى رمضان نذكر أن هذا الشهر المبارك شهد عدة مواقع فاصلة خاضها المسلمون بنجاح عظيم ، ومن هذه المواقع :

— غزوة بدر الكبرى فى سنة ٢ للهجرة .
— فتح مكة سنة ٨ للهجرة .
— غذوة تبوك سنة ٩ للهجرة .
— فتح المسلمين لجزيرة رودس سنة ٥٣ هـ .
— نزول المسلمين شواطىء اسبانيا وغزو بعض الثغور الجنوبية سنة ٩١ هـ .
— انتصار طارق بن زياد على الملك رودريك فى ٢٨ رمضان سنة ٩٢هـ .
— ونصل الى قمة النجاح فى العصر الحديث فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣ هـ حيث الانتصار العظيم على اليهود وعبور القناة وتدمير خط برليف ..

واعتقادى ان حدوث هذه المعارك فى شهر رمضان لم يكن مصادفة ، بل كان منحة من الله الكريم لهذا الشهر المبارك ، واعتقادى كذلك أن النجاح فى هذه المعارك كان بعون الله مثلته الآية الكريمة التى نزلت فى غزوة بدر وهى قوله تعالى « فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم ، وما رميت اذ رميت ولكن الله رمى » ولو حدثت هذه المعارك فى عهد نزول القرآن لكان من الممكن تكرار هذا المعنى .

هائلة بدأت من الفجر وظلت حتى منتصف النهار ، ويقال أن قطـز أحس باضطراب فى جيشـه والمعركة تدور فخلع خوذته وألقاها عـلى الأرض وصرخ : وا إسـلاماه واندفع يضرب فى استماتة وقـوة حتى هزم المغول هزيمة كاملة ، وسقط الجيش المغولى بين قتيل وأسـير وجريح ، ولـما اتضح النصر للمصريين عرض بعض المغول على قائدهم أن يهرب بحياته ولكنه رفض ، وظل يصارع وحده حتى سقط جـواده وأخذ اسيرا ، وعندما وقف بين يدى قطز أطلق لسانه بكلمات قـذف وسباب فصدر الأمر بالقضاء عليه (١) .



ولم يثمل بيبرس — وقد آل له سلطان مصر — بالنصر الذى أحرزه مع قطز فى عين جالوت ، بل انه لاحق المغول تجاه الشمال حتى أوقع

---

(١) ابن تغرى بردى : النجوم الزاهرة جـ٧ ص ٧٩ .

بهم هزيمة أخرى فى قيسارية (قيصرية) بآسيا الصغرى واسترد بذلك مملكة الروم السلجوقيين التى كان المغول قد استولوا عليها [١] •

نتائج انتصارات عين جالوت :

يمكننا أن نوجز نتائج عين جالوت فى النقاط التالية :

١ — عودة الوحدة بين مصر وسوريا ، فقد كانت بعض ولايات سوريا تأبت على سلاطين مصر إثر قيام دولة المماليك كما قلنا من قبل •

٢ — يعتبر انتصار المماليك فى عين جالوت انتصارا للحضارة وإنقاذا للبشرية من هؤلاء الهمج الذين لو لم تدر عليهم الدائرة لامتد ضررهم ، ولما كان من السهل درء خطرهم عن العالم والانسانية •

٣ — القضاء على الفكرة التى كانت سائدة عند الدول المسيحية بأن الجيش المغولى جيش لا يقهر •

٤ — عجلت عين جالوت بزوال الصليبيين من الشام •

٥ — سلمت مصر وآثارها من الخراب الذى كان طبيعة النصر المغولى •

٦ — ارتفعت سمعة مصر بسبب ما حققته من انتصار على المغول وعلى الصليبيين •

٧ — أعادت الهزيمة بعض الرشد الى المغول ففكروا فى الاسلام ، ودخل الكثيرون منهم فيه •

---

(١) عمر الاسكندرى والميجر سيفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى ٢١١ .

بعد عين جالوت :

لم يكن النصر فى عين جالوت ومـا بعدها مصادفة ، إذ تكرر هـذا النصر عدة مرات ، فقد أعد المغول عدتهم من جديد للزحف على مصر والشام ولكن شعبنا العظيم كان يصدهم ، وينزل بهم هزيمة إثر هزيمة ، ففى عهد السلطان قلاوون هاجم المغول حمص فزحف عليهم قـلاوون وأوقع بهم هزيمة كبيرة ، أوقفت هجومهم عدة سنوات ، وفى عهـد الناصر أغار المغول على دمشق واحتلوها ، ولكن الناصر أعد لهم جيشا ضخما والتقى بهم بالقرب من دمشق فى موقعة « عين الصفر » فأوقع بهم هزيمة كبرى وأسر منهم عشرة آلاف جندى واستعاد دمشق ، وأدرك المغول صعوبة انتصارهم على شعب مصر فعقدوا مع سلاطين مصر صلحا سنة ٧٢٢هـ (١٣٢٢م) وعاشت مصر حتى نهاية هذا القرن فى مأمن من غـارات المغـول .

المغول فى عهد تيمورلنك :

فى مطلع القرن التاسع الهجرى (الخامس عشر الميلادى) ظهـر تيمورلنك فى أواسط آسيا ، وقاد جحافل المغول مرة أخـرى ، واحتل بغداد وصار الى حلب فاحتلها ، ولكن بعد أن ضحى بعدد ضخم من رجاله ملأت جثثهم الخندق المحيط بالمدينة ، وكان ذلك فى عهد السلطان فرج بن برقوق ؛ ومن حلب زحف تيمورلنك الى حمص وبعلبك ودمشق فاحتلها بعد صراع طويل ، ودمر منشآتها ومظاهر الحضارة بها ، ثم اتجه الى العثمانيين بآسيا الصغرى فسحق جيشهم عند أنقره واجتاح بروسـا وأزمير وأسر بايزيد الأول [١] ، ومن حسن حظ المماليك والعثمانيين أن تيمورلنك لاقى حتفه سنة ٤٠٤ ، وشب نزاع بين خلفائه انتهى الى فتنة داخلية استنفدت قواهم جميعا ، وأتاحت للمماليك استعادة شمال الشام .

* * *

---

(١) ابن عربشاه : عجائب المقدور فى أخبار تيمور ص ٦ ، وابن اياس جـ١ ص ٣٣٤ .

مواكب النصر :

وقد عنيت المراجع العربية بوصف مواكب النصر المملوكية العائدة من حرب المغول ، وفيما يلى وصف لموكب من هذه المواكب ، ذلك هو موكب السلطان الناصر بن قلاوون فى عودته الظافرة من المعارك التى أشرنا اليها آنفا ، يقول أبو المحاسن (ابن تغرى بردى) إن القاهرة تزينت من باب النصر الى باب السلسلة بالقلعة ، وتفاخر الناس فى الزينة ونصب الأقواس والقلاع ، واتصلت الزينات فى منظر بهيج ، وحضر أهل الريف الى القاهرة للفرجة ، على الزينة وعلى موكب السلطان ، وحضر العرب بخيولهم وخرجت جماهير الشعب مزينة بالحلى والجواهر واللآلى والحرير ، واحتشد الناس فى الطرقات وعلى أسطح المنازل .

ولما وصل السلطان الناصر باب النصر ترجل سائر الأمراء ، وكان أصحاب الزينات يقدمون لعسكر السلطان شراب الليمون من أحواض أعدوها لهذا الغرض (١) .

ويضيف المقريزى وصفه للأسرى ورءوس القتلى فيقرر أن الأسرى كانوا آلافا وكانوا مقيدين بالسلاسل ، وكانت رءوس القتلى معلقة فى رقابهم وكانت طبولهم تسير أمامهم تعلن عن هزيمتهم وانتصارات السلطان المظفرة (٢) .

المماليك والصليبيون

سنتحدث فيما بعد حديثا منفصلا عن الحروب الصليبية ، نفصل فيه القول عن الدور الذى قام به المماليك فى هذه الحروب العنيفة ، وفى كلمة موجزة هنا نقرر أن المماليك عندما انتصروا فى عين جالوت أعادوا وحدة

---

(١) النجوم الزاهرة : جـ٨ ص ١١٦ .

(٢) السلوك جـ١ قسم ٣ ص ٩٣٨ — ٩٤٠ .

مصر والشام ، أو قل أعادوا احكام الحصار حول الصليبيين ، فكان ذلك وسيلة لإكمال الانتصارات الضخمة التى بدأها صلاح الدين الأيوبى ، والمماليك هم الذين أسقطوا امارة انطاكية وامارة طرابلس والجزء الذى كان باقيا من مملكة بيت المقدس ، وأهم أبطال المماليك الذين لعبوا دورا فى هذه الحروب هم الظاهر بيبرس وقلاوون والأشرف خليل الذى على يـده سقطت عكا ودمرت آخر الحصون الصليبية واستسلمت كل البلاد التى كانت باقية لهم ، وانتهى عهد الصليبيين فى الشرق •

المماليك وبـلاد النوبـة

نقرر أولا أن بلاد النوبة فى التاريخ الوسيط تشمل ما يعرف الآن بشمال السودان تقريبا ، فهى تمتد من أسوان حتى مكان التقاء النيل الأبيض بالنيل الأزرق « الخرطوم حاليا » ثم تمتد مشتملة مناطق من حوض النيل الأزرق ضاربة الى الشرق حتى أطراف الحبشة ، وضاربة الى الغرب مشتملة أجزاء واسعة من كردفان ودارفور •

وكان المصريون القدماء يطلقون على هـذه البقاع اسم « خنت » ، ومعناها الأراضى الجنوبية ، إذ كان وادى النيل شماله وجنوبه يكوّن مملكة الراعنة (١) ، ثم ظهرت كلمة « نوبة » ابتداء من عصر البطالمة حوالى سنة ٢٠٠ق٠م ، وقد ظهرت هذه الكلمة فيما يبدو متصلة باسم شعب كان يعيش بها آنذاك ، وعلى مرّ التاريخ ظلت هذه البلاد متفاعلة تماما مع الأجزاء الشمالية من الوادى ، أو متحدة معها ، وكانت الوحدة هى الغالبة ، زاحفة من الشمال أو منبثقة من الجنوب ، وكان الانفصال يوجد أحيانا إذا خضع الوادى لسلطان أجنبى ، وفى هذه الحالة كانت حركات الاستقلال والوحدة تسير جنبا الى جنب ، وأوضح مثال لذلك ما قامت به دولة كوش فى الجنوب ، فانه على إثر تولية الملك شاشنق الأول الليبى

(١) Budge E. A : History of Ethiopla, Nubia, and Abyssinia Vol, I p, I.

حكم مصر هجر طيبة مجموعة من سلالة الكهنة الى الجنوب ، وأنشئوا دولة كوش واتخذوا « ناباتا » عاصمة لها ، ثم أخذوا يعملون لتحرير الشمال ووحدته مع الجنوب ، ونجحوا فى هذه المحاولة ، وعاد ملوك كوش الى العاصمة الموحدة طيبة وأسسوا الأسرة الخامسة والعشرين ، ولما زحف الآشوريون على مصر انكمش الكوشيون وعادوا الى الجنوب والى عاصمتهم القديمة (١) .

ولم يكن الانفصال يستطيع أن يمس الصلات الثقافية والاجتماعية التى تربط بين الشمال والجنوب برباط وثيق ، ويمكننا أن نرى ذلك فى كثير من العادات المشتركة واللهجات .

ودخلت المسيحية مصر منذ مطلع العهد بالمسيحية ، وقد وجد الهاربون من عنت اليهود وطغيان الرومان فى مصر مأوى أسوة بالسيد المسيح وأمه اللذين لجآ الى مصر والمسيح طفل هربا من هؤلاء وأولئك واضطهد الرومان المسيحيين فى مصر كما اضطهدوهم فى كل البلاد التى حكموها ، فلجأ الى الجنوب جمع من القسس هاربين من الاضطهاد ، وبدأت المسيحية بذلك تدخل جنوب الوادى ، واتخذ سكان الوادى شماله وجنوبه الدين وسيلة لمقاومة الرومان واظهار سخطهم على حكمهم ، وفى القرن السادس الميلادى كانت المسيحية قد استطاعت أن تعم أكثر شعب النوبة وتكون مملكتين ، احدهما مملكة مَقُرّة فى الشمال وعاصمتها دنقلة ، والثانية مملكة عَلْوَة فى الجنوب وعاصمتها سوبا ، وفى سنة ٥٨٠م أصبحت المسيحية الدين الرسمى لهاتين المملكتين ، أما شرقى السودان (البجة) وغربه وجنوبه فقد ظلت على وثنيتها فترة طويلة ، وانتقلت غالبا من الوثنية الى الاسلام فيما بعد (٢) .

---

(١) دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ٢٣ — ٢٤ .

(٢) محجوب زيادة : الاسلام فى السودان ص ١٦ .

ودخل الاسلام مصر فى عهده المبكر ، وسرعـان ما أدرك قـادة المسلمين أن الزحف لابد أن يسير من الشمال الى الجنوب ، فأرسـل عمرو بن العاص قائده عقبة بن نافع لبلاد النوبة ، ولكن هـذه الحملة لم تحقق نجاحا يذكر ، وان كانت قد أبرزت ضرورة الارتباط بين الشمال والجنوب ، وعاد المسلمون لدخول بلاد النوبة مرة أخرى بقيادة عبد الله بن سعد بـن أبى سرح ، وانتصرت هذه الحملة ودخلت دنقلة سـنة ٦٥٢ م ، ثم عقدت مع مملكة مقرة اتفاقية « البقط » وتعتبر معاهدة تبادل اقتصادى بين مصر ومقره ولا تحقق هذه المعاهدة فوائد ذات بال لمصر ، ولكن كانت رباطا بين الجارتين ، ولذلك حرصت مصر على أن يظل العمل بها قائما كرمز للعلاقات بين شطرى الوادى ، وقد كان ايقـاف العمل بها مدعاة لحملات حربية تقوم بها مصر على النوبة ، كتلك التى قام بها صلاح الدين الأيوبى بقيادة أخيه توران شاه ، وإن كانت هناك أسباب أخرى لهذه الحملة ، وقد ظلت هذه المعاهدة معمولا بها حوالى ستة قرون .

وجاء عهد المماليك والارتباط بين الشمال والجنوب يتخذ معاهدة البقط أساسا له ، وكان الاسلام قد انتشر فى بلاد النوبة بين الأفراد ، وكانت مجموعات عربية قد هاجرت من الشمال الى الجنوب تحت ضغوط مختلفة (١) ومع هذا فالممالك التى كانت قائمة حتى مطلع عهد المماليك ظلت على المسيحية ، وقد أخذ المماليك أنفسهم بالقضاء على الصليبيين

---

(١) عند سقوط الدولة الأموية هرب كثير من بنى امية وانصارهم ، واتخذ بعضهم طريقه الى بلاد النوبة عبر مصر أو عبر البحر الاحمر ، وهاجر من مصر الى النوبة عدد كبير من العرب عندما بدأت دولـة احمد بن طولون بمصر ، وكان أحد شيوخ ربيعة واسمه ابو المكارم هبة الله حظيا عند الحاكم بامر الله الفاطمى لانه قضى على الثائر (ابى ركوة) ، وقد منح الحاكم هبة الله لقب كنز الدولة ، واصبحت ربيعة تعترف ببنى كنز ، ونعم اولاد كنز الدولة بمكانة عظيمة فى جنوب مصر حول اسوان ، ولكن العادل سيف الدين الأيوبى هاجمهم فهاجروا الى بلاد النوبة .

فى مصر ، فالقضاء على الصليبيين وعلى التتار كان هو النسب الذى يتقدم به المماليك لينالوا السلطة على مصر وما يتبعها من أقطار ، وفى هذا الصراع بين المماليك والصليبيين ظهر بشكل أو بآخر تأييد الممالك المسيحية بالنوبة للصليبيين ، وبخاصة عندما اقتحم الظاهر بيبرس ميناء سواكن واستولى عليها إثر اعتداء حاكمها على بعض التجار المصريين ؛ وكانت هذه الميناء هى التى يبحر منها مسيحيو النوبة فى طريقهم الى الأمكنة المقدسة بفلسطين ، وبدأ على إثر ذلك توتر بين الشمال والجنوب ، وزاد التوتر حدة عندما قام الملك داود ملك مقرة بهجوم على أسوان أسر فيه جمعا كبيرا من المسلمين سنة ١٢٧٢ م ونهب ثروات الناس ، كما اعتدى على ميناء عيذاب ، وكانت من موانى مصر الكبرى على البحر الأحمر فى ذلك العصر [١] ، وكان الظاهر بيبرس مشغولا فى معارك كبرى عند حدوث هذه الغارة ، فاكتفى بإرسال حملة تأديبية ردت المعتدين وحرست الحدود وعادت بالأسرى النوبيين ، ثم جاء دور الحملات المنظمة التى تمت فى عهد بيبرس وقلاوون والأشرف خليل والملك الناصر ، وقد تطورت نتائج هذه الحملات بالعلاقة بين النوبة ومصر تطورا انتهى بسقوط الممالك المسيحية وقيام مملكة اسلامية فى النوبة ، وفيما يلى حديث به شىء من التفصيل عن هذه الحملات :

ويبدأ حديثنا التفصيلى بالكلام عن الظاهر بيبرس وجهوده فى هذا المجال ، ويعتبر الظاهر بيبرس قمة سلاطين المماليك ، وقد قلنا من قبل إن نسب المماليك كان بما يحققونه للاسلام من انتصارات ، وقد وقعت تبعة هذا الهدف فى أول أمرها على الظاهر بيبرس ، وقد حقق الظاهر أهدافا ضخمة ضد التتار والصليبيين ، فلا غرو أن ينثنى تجاه الجنوب وبخاصة ليثأر من داود الذى كانت عواطفه مع الصليبيين ، وقد أتيحت للظاهر بيبرس الفرصة عندما استنجد رجل اسمه « شكندة » يطالب

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ٢٨ ص ١٠٩ .

بمرشن « مقرة » سالفة الذكر ، وكان ابن أخيه « داود » قد انتزعه منه ، فانتهز الظاهر بيبرس هذه الفرصة ليقضي على داود ، فأعد جيشا ضخما زحف على بلاد النوبة سنة ١٢٧٦ ، والتقى هذا الجيش بجيش داود فهزمه وفر داود ، وتم تتويج « شكندة » في دنقلة في نفس العام ، وعقدت معاهدة معه تعيد الرباط الوثيق بين النوبة ومصر ، وتجعل سلطان مصر هو في الحقيقة سلطانا على كل الوادي ، وأهم شروط هذه المعاهدة ما يلي :

١ — يصبح الملك شكندة تابعا لسلطان مصر ونائبا عنه في حكم بلاد النوبة .

٢ — على سكان بلاد النوبة بعد أن طلبوا الأمان أن يدخلوا الاسلام أو يدفعوا الجزية .

٣ — أن تكون بلاد العلا وبلاد الجبل ملكا خاصا لمصر .

وهناك شروط أخرى يمكن أن تدخل ضمن الشرط الأول ، ولكن المهم أن « مقرة » أضحت جزءا من السلطة المصرية وأن سلطان مصر أصبح بيده عزل ملوك النوبة وتعيينهم ، وأن مصر استعادت استعادة تامة بلاد العلا وبلاد الجبل ، وهي حوالي ربع بلاد النوبة ، وكانت جزءا من مصر ضاع منها عقب انسحاب القوات الرومانية في عهد دقلديانوس (١) ، ثم إن النوبيين بهذه المعاهدة أصبحوا أهل ذمة ، ولهذا أنشأ السلطان بيبرس ديوانا سماه ديوان النوبة لمراقبة جمع الجزية والخراج وتعيين العمال (٢) .

---

(١) دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة ص ١٤٩ — ١٥٠ وانظر الهامش .

(٢) المقريزي : السلوك جـ١ القسم الثاني ص ٦٢٣ .

وقتل شكندة فى العام الذى توفى فيه بيبرس ، فقفز على عرش النوبة أمير يدعى « برك » متجاهلا أن تعيين الملوك بالنوبة لابد أن يتم بموافقة القاهرة ، وكان السلطان فى مصر قد آل الى قلاوون فأرسل هذا جيشا قبض على برك وقتله وولى مكانه أميرا يدعى سيمامون • وهـذا الوضع أقنع ملوك علوة بالنوبة العليا بقوة سلطنة مصر واصرار ملوكها على مكانتهم بالنسبة لبلاد النوبة ، فتقرب ملوك علوة أيضا من سلاطين مصر وأعلنوا لهم الولاء ، وتمت بذلك تبعة مملكتى النوبة لمصر ، ولكن سيمامون كان كثير الحنث والغدر فاستهدفت بلاده لعدة حملات كان يفر منها ويختفى ثم يعود للظهور عقب عودة الحملة ، فتعود الحملة ازجره وهكذا ، وانتهى الأمر بأن أقر قلاوون سيمامون على الملك بعد أن أقسم على الولاء والطاعة والامتثال ودفع الجزية •

وفى أثناء عهد قلاوون كان الاسلام قد زاد انتشاره فى الجهة الغربية وظهرت دول اسلامية مثل الكانم وبرنو ، وكانت تربطها بمصر علاقات وتفاهم مما جعل المملكة المسيحية شبه محصورة وسط نطاق من الدول الاسلامية المتفاهمة (١) •

وعقب وفاة قلاوون انتهز سيمامون الفرصة فتمرد على سلطة مصر من جديد ولم يرسل ما تعهد به من جزية وضرائب ، فأرسل له الأشرف حملة كبيرة ، ففر هذا كعادته منها ، وسارت الحملة حتى وصلت أرض الفيلة والقردة والخنازير والزرافات والنعام ، **مما يشير الى أن سلطة مصر وصلت الى جنوب السودان** ، واختفى سيمامون فلم يظهر لـه أثر بعد ذلك ، وولت سلطات مصر ملكا جديدا هو Boudemma وكان مـن الأمراء المسجونيين بمصر قبل ذلك •

وجاء دور الناصر محمد ، وفى عهده كان ملك النوبة المسيحى اسمه كرنبس وهو آخر الملوك المسيحيين ، وقد ظهر منه تنكر لسيادة مصر

(١) دكتور سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٨٢ •

سنة ١٣١٦ فامتنع عن تنفيذ معاهدة البقط ، وقد رأى السلطان الناصر أن الوقت قد حان لتعيين ملك مسلم على بلاد النوبة ، إذ كانت جموع المسلمين قد كثرت ، وانتهز الملك الناصر فرصة تمرد كرنبس فأرسل حملة بقيادة الأمير عز الدين أيبك واصطحبت الحملة معها أحد النوبيين المسلمين واسمه عبد الله برشنبو ، وكان قد تربى فى مصر واعتنق بها الاسلام ، ورأى الملك الناصر أن تعيينه سيضع العلاقات بين مصر والنوبة وضعا جديدا ، وعندما أحس الملك كرنبس بهذه الرغبة من السلطان الناصر ، أرسل ابن أخته كنز الدولة بن شجاع الدين الى السلطان الناصر ومعه رسالة جاء فيها : إذا كان يقصد مولانا السلطان بأن يولى البلاد لمسلم فهذا مسلم وهو ابن أختى ، والملك ينتقل اليه من بعدى (١) ، ولم يسمع الملك الناصر لهذه الرغبة وعين برشنبو ملكا ، ودارت عدة مناورات انتهت بأن استقر الملك لكنز الدولة الذى نشر الاسلام وتوطدت أقدام العرب فى عهده بصورة واضحة ، فكنز الدولة — كما سبق أن ذكرنا — ينحدر من أرومة عربية أصيلة وهو مسلم وأمه من أسرة ملوك النوبة : وسرعان ما بنى المسلمون مسجدا كبيرا على أنقاض الكنيسة المسيحية بدنقلة ، وكان ذلك فى شهر يونيو سنة ١٤١٨ ، وبذلك انتهت المسيحية من مملكة مقرة ، وبإسلام هذه البلاد انتقلت العلاقات بينها وبين مصر الى طابع جديد ، هو طابع التعاون والود والتبادل الثقافى والتجارى ، وتوقفت الجزية بطبيعة الحال ، وفى الجزء السادس واصلنا دراستنا فشرحنا نهاية دولة علوة أيضا وقيام مملكة اسلامية تحل محل الدولتين المسيحيتين (٢) .

---

(١) النويرى : نهاية الأرب جـ ٣٠ ص ٩٥ — ٩٦ .

(٢) جـ٦ ص ٣٠٥ وما بعدها .

استيلاء المماليك على قبرص وتهديد رودس

استولى المماليك فى عهد السلطان بارسباى على جزيرة قبرص وهددوا جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قد خضعت لسلطة ريتشارد قلب الأسد منذ عهد الحروب الصليبية ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت هذه الجزيرة ملجأ للشراذم الأخيرة من الصليبيين الذين طُردوا من الأرض الاسلامية ، وبخاصة الاسبتارية (فرسان القديس يوحنا) ، كما أصبحت الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد اضطر بارسباى أن يفكر فى احتلال قبرص ، فأرسل لها بضعة سفن لجسّ نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى ، مما شجع بارسباى الى الزحف للاستيلاء عليها ، وقد تمّ ذلك سنة (٨٣٠هـ = ١٤٢٦م) وخضعت الجزيرة أمام قوى مصر وأسر ملكها وجىء به الى القاهرة ، وظل بها حتى افتدى نفسه بفدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة مصر ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر (١) .

أما رودس — وكان الاسبتارية قد انتقلوا اليها — فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى المماليك تصدت لها فى عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاث مرات حتى أسكتت حسها (٢) ، ثم خضعت رودس أخيرا للسيادة العثمانية سنة ١٥٢٢ ، ومنذ ذلك التاريخ انتقل مركز الإسبتارية الى جزيرة مالطة ، حيث ظلوا الى أيام نابليون بونابرت الذى

---

(١) دكتور سعيد عاشور : قبرص والحروب الصليبية ص ١٠٤ وما بعدها .

(٢) السيوطى : غزوات قبرص ورودس ص ١٤ — ١٥ .

قضى عليهم متخذا من ذلك وسيلة للدعاية لدى المسلمين (١) .

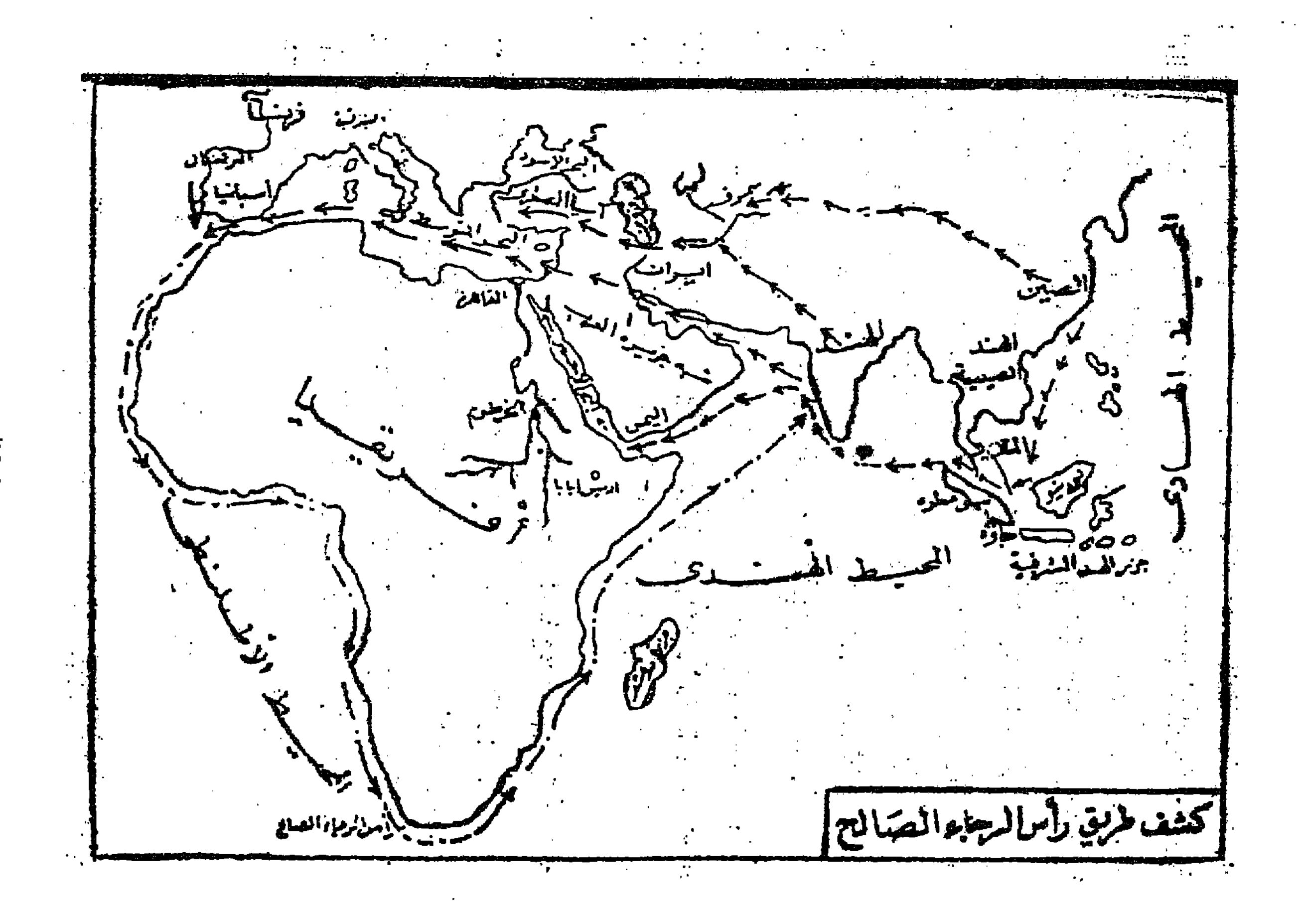
كشف طريق رأس الرجاء الصالح وأثره

فى أواخر القرن الخامس عشر استطاع البحارة البرتغاليون أن يجدوا طريقا الى الهند والشرق الأقصى بالدوران حول إفريقية ، وبدون المرور فى البحر المتوسط والبحر الأحمر ، ويعرف الطريق الجديد بطريق رأس الرجاء الصالح ، وقد اشترك عدد من البحارة البرتغاليين فى المحاولة التى أدت لهذا الكشف ، وكان النجاح النهائى على يد « فاسكودى جاما » الذى بدأ رحلته سنة ١٤٩٦ .

وقد سبب هذا الكشف لمصر وسوريا خسارة مالية فادحة ، فقد كانت التجارة عَبْرَ دولة المماليك رائجة رواجا كبيرا ، لأن مصر والشام حلتا محل المراكز التجارية الصليبية التى كانت موجودة قبل سقوط الصليبيين ، ثم لأن الطرق البرية بين أوربا وآسيا (عبر الأناضول) قد دمرتها تحركات المغول فأصبحت التجارة بين آسيا وأوربا بحرية ، ومعنى ذلك أن أصبحت مصر والشام تلعبان دورا هاما فيها بواسطة البحر الأحمر والبحر المتوسط ، وهكذا كانت سواحل مصر الشمالية أسواقا يَرِدُ لها الأوربيون من حين الى آخر ليبيعوا من حاصلاتهم ، وليبتاعوا من حاصلات الهند والصين والهند الصينية وإندونيسيا ، هذه البضائع التى كانت تفد الى الاسكندرية والى الموانى العربية الأخرى ، ولكن البرتغاليين استطاعوا أن يكتشفوا الطريق الى الهند والشرق الأقصى بواسطة الدوران حول إفريقية ، ودون حاجة الى الموانى المصرية ، وقد خسر المماليك بذلك خسارة فادحة ، إذ كان جل اعتمادهم على الضرائب التى يجبونها من هذه التجارة العظيمة .

---

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر فى عهد المماليك الشراكسة ص ١١٤ .


كشف طريق رأس الرجاء الصالح
المحيط الهندي
الصين
الهند الصينية
الهند
ايران
القاهرة
البحر الأسود
البحر المتوسط
اسبانيا
البرتغال
فرنسا
البندقية
جزيرة العرب
اليمن
الخرطوم
اديس ابابا
سومطرة
جاوة
جزر الهند الشرقية
رأس الرجاء الصالح

ولم تكن الخسارة بإهمال البحر المتوسط وتحول التجارة العالمية عنه واقعة على دولة المماليك فحسب ؛ وإنما أصيبت بها كذلك المراكز التجارية بجنوب أوربا وبخاصة البندقية ، ولذلك اتفق السلطان الغورى مع البنادقة على حرب البرتغال فى محاولة لاستعادة مكانة البحر المتوسط ، وأنشأ السلطان الغورى لذلك أسطولا كبيرا ، أسهم فيه البنادقة بالأخشاب اللازمة ، وسرعان ما ظهر هذا الأسطول فى المحيط الهندى وتصدى للأسطول البرتغالى ، ووقعت معه موقعة بحرية بالقرب من شواطىء بمباى ، انتصر فيها المصريون انتصارا كبيرا ، ولكن البرتغاليين سرعان ما أعدوا أسطولا آخر لمواجهة المصريين ، وحدثت موقعة أخرى أمام بمباى سنة ١٥٠٩ م انتصر فيها البرتغاليون انتصارا ثبتت مركزهم الحربى وكسب النصر للطريق الجديد ، وكان من عوامل هذا الانتصار أن دولة المماليك كانت تمر فى هذه الأثناء بفترة الصراع التى سبقت الصدام بينها وبين العثمانيين .

وقد أدرك السلطان سليم — بعد فتح مصر — خطورة هذه الخسارة وبخاصة أن البرتغال أغرت المراكز التجارية بشمال البحر المتوسط بالتحول للخط الجديد ، فحاول أن يستعيد للبحر المتوسط مكانه التجارى ، لا عن طريق الحرب مع البرتغاليين ، وانما عن طريق إغراء المراكز التجارية بجنوب أوربا باستمرار استعمال الطريق القديم وعدم التعامل مع الطريق الجديد ، فعقد مع البنادقة معاهدة تجارية سنة ١٥١٧ كانت روح التساهل فيها واضحة رجاء جذبهم مرة أخرى ، وكان مما ضمنته لهم هذه المعاهدة أن منح قناصلهم فى الاسكندرية والموانى الأخرى حق الفصل فى قضايا رعاياهم ، كما ضمن تيسير وصول سفنهم للموانى المصرية ، وتيسير التعامل مع ممثليهم على العموم ، وفى سنة ١٥٢١ م

عقد السلطان سليمان معاهدة أخرى مع البندقيين فى ثلاثين فصلا ، ثبت فيها الامتيازات السابقة وزاد عليها ، وحصل الفرنسيون على امتيازتهم الأولى سنة ١٥٣٥ والإنجليز سنة ١٥٨٠ م ، والعجيب أن هذه الامتيازات لم تأت بطائل فيما يختص بإحياء الخط التجارى عبر البحر المتوسط ، وعلى العكس أصبحت أساسا للامتيازات التى صارت فيما بعد شيئا عذلا للترك والبلاد التابعة لهم ، ولم تتخلص منها هذه البلاد إلا بعد صراع طويل .

نهاية حكم المماليك

إن نهاية المغول فى العراق وغربى آسيا ، أوقفت قوتين كبيرتين وجها لوجه ، هما قوة العثمانيين وقوة الدولة الصفوية ببلاد فارس ، ومع أن كلا منهما قوة إسلامية ، إلا أن الصفويين كانوا من غلاة الشيعة ، وكان الأتراك سنيين ، وهذا فرّق بينهما الى حد كبير ، وكانت دولة المماليك بحكم موقعها تتوسط هاتين القوتين ، وقد شب نزاع طويل بين العثمانيين والصفويين انتصر فيه العثمانيون فى النهاية ، ودخل سليم الأول العراق سنة ١٥١٢ م وكان سلطان المماليك آنذاك هو قانصوه الغورى (١٥٠٠ — ١٥١٦) وقد اتهمه سليم بممالأة الصفويين ، وبأنه آوى بعض اللاجئين السياسيين من الأمراء العثمانيين الخارجين عليه ، وأخذ لذلك يعد العدة للهجوم على مصر ، وقد استطاع سليم الأول أن يرشو بعض أتباع الغورى مثل خير بك نائب حلب وجان بردى الغزالى نائب حماة ، كما كان الجيش الانكشارى يستعمل الأسلحة النارية ذات المرمى البعيد فى وقت كان المماليك لا يزالون يعتمدون على البطولة الشخصية ، ولما دارت المعركة فى مرج دابق سنة ١٥١٦ أظهر قانصوه الغورى ورجاله بطولة خارقة ، ولكن خير بك الخائن قائد الجناح الأيسر انهزم برجاله فى ساعة حاسمة ، فدارت الدائرة على المماليك وسقط قانصوه ميتا ، واستولى الجيش العثمانى على رجاله وأمواله (١) .

وتولى طومان باى السلطنة بعد قانصوه ، والتقى بجيش العثمانيين عند الريدانية (العباسية) سنة ١٥١٧ . وخانه أيضا بعض أتباعه فحاقت عليه الهزيمة ، ولجأ طومان باى الى حسن بن مرعى وأخيه شكرى من زعماء العربان وكانت له عليهم يد ، وعلى الرغم من أنهم أقسموا ألا يخونوه ، فانهم سرعان ما أسلموه للسلطان سليم الفاتح الذى شنقه على

---

(١) ابن اياس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور جـ٣ ص ٤٤ وما بعدها .

باب زويلة فى إبريل من نفس العام ، وانتهت بذلك دولة المماليك ، وبدأ حكم العثمانيين بمصر ، **والمؤرخ المصرى فى العصر الحديث يضع تعليقا قصيرا على هذا الانتقال هو أن مصر تحولت من الاستقلال الى التبعية .**

عاقبة الغـدر :

بقيت كلمة خاصة بالغدر الذى قام به حسـن بن مرعى وأخـوه بالسلطان الذى لجأ لهما ، فإن يد القدر عاقبت الغادر وثأرت منـه ، فقد انتهت حياة حسن بن مرعى وأخيه شكرى على نحو ما انتهت عليه حياة طومان باى بل بمزيد من التشفى والسخرية ، فقد أصدر خير بك أمره بإعدامهما لتمرد ظهر منهما وخيانة بدت فى تصرفاتهما ، فأعدمهما الشراكسة وشرب بعضهم من دمهما ، وقطعت أجسامهما بالسيف قطعا وعلقت رأساهما فى عنق فرس طومان باى ، الذى كان يركبه يوم لجأ إليهما ، وطيف بهما فى القاهرة بين فرح النـاس وسرورهم ، ويقول ابن إياس إن عيال السلطان طومان باى لما رأوا رأس حسن بن مرعى معلقـة فرحوا وأطلقوا الزغاريد وتخلقوا بالزعفران (١) .

وينبغى أن نوضح حقيقة كبيرة الأهمية هى أن الاسلام كان عاملا مهما من بين العوامل التى كسبت للعثمانيين النصر ، وقد وقفت مصر وسوريا بنجاح أمام الصليبيين وأمام المغول ، وباسم الاسلام انتصرت فى نضالها مع هؤلاء وأولئك ، ولكن الزاحف هذه المرة كان مسلما ويشيد باجتماع كلمة المسلمين وانتصار السنة ، ولا شك أن هذا كان له ثقل يذكر فى ميزان القوى المتناضلة .

---

(١) تاريخ ابن اياس جـ٤ ص ٥٩ .

حضارة مصر فى عهد المماليك

التجارة والمال فى عهد المماليك :

تحدثنا من قبل عن التجارة وكيف أن دولة المماليك كانت تستغل موقعها أروع استغلال بعد سقوط الإمارات الصليبية وبعد تدمير المغول للطرق البرية ، ونضيف هنا أن تجار مصر وسوريا أصبحوا وسطاء فى هذه التجارة الرائجة ، واستخدموا فى ذلك رءوس أموال كبيرة ، واتخذوا لهم وكلاء فى عدن والخليج الفارسى والهند والشرق الأقصى ، ورحل بعضهم ليعيش فى هذه المراكز ، ليباشر النشاط التجارى الهائل الذى كانت دولة مصر تحميه وتربح عن طريقه ثروة كبيرة ، وقد توقف جل هذا النشاط — كما قلنا من قبل — بعد كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، إذ باشرت أوربا التجارة مع الهند بواسطة هذا الطريق الجديد وحلت لشبونة محل الاسكندرية والسواحل العربية وانقطع بذلك مصدر كبير من مصادر الثروة الى حكومة مصر والشعب العربى ، وخاصة أن التجارة بين أوربا وبين الهند عن طريق رأس الرجاء الصالح كانت — مع بعد المسافة — أيسر من التجارة عبر مصر ، فهنا كان يلزم أن تنقل البضاعة من السفن بالبحر الأبيض الى السفن بالبحر الأحمر بواسطة القوافل البرية ، وأما عن طريق رأس الرجاء الصالح فان السفن تنقل البضاعة مباشرة الى هدفها دون حاجة الى تحكم المماليك وتكاليف الوسطاء والعمال ولذلك نجد أن التجارة تحولت كلها أو أكثرها الى هذا الطريق الجديد (١) .

---

(١) يلاحظ أن فتح قناة السويس اعاد لهذا الخط التجارى قيمته ، فقد أصبحت المسافة من أوربا الى الهند متصلة اتصالا مائيا واقرب بكثير من طريق رأس الرجاء الصالح ، بيد أن الفائدة هنا هى فقط فى دفع ضرائب العبور فى القناة ، وليس فيها من حاجة لأيد مصرية كثيرة كما كانت الحال ابان عهد المماليك .

الزراعــة :

وتحدثنا من قبل عن الزراعة ، وأشرنا الى ما بذله أكثر سلاطين المماليك من العناية بالترع والجسور ، ونهضت الزراعة نهضة واسعة فى ظل الأمن ، ولكن الاضطرابات التى حدثت فى بعض العهود قللت مــن النشاط الزراعى ، على أن الفلاح على العموم كان مظلوما مهمــلا ، فاذا اهتم المماليك بالزراعة فان مصدر ذلك رغبتهم فى الحصول على ثروات أكبر ، أما الفلاح الكادح فلم يكن ينال مما تخرجه الأرض إلا الكفاف ، وعاش فى دولة المماليك تابعا وكل أمره كان فى يد مالك الإقطاع .

الإقطــاع :

والحديث عن الإقطاع الذى أشرنا إليه آنفا يحتــاج الى تفصيل وإبانة ، ومن العجيب أن الاقطاع فى العصر المملوكى لم يكن مقصــورا على الأرض ، وإنما تعداها الى موارد الدولة الأخرى ، فكما تقطع مساحة من الأرض الى أمير من الأمراء ، تقطع جزية مجموعة من أهل الذمة أو ضرائب المكوس الى أمير آخر ، ولم يقبل الناصر محمد بن قلاوون هذه السياسة ، فقصر الإقطاع على الأرض ، ولكن هذا لم يستمر بعده فعادت جميع الموارد تقطع حتى نهاية عهد المماليك (١) .

وكان الإقطاع يتبع سياسة القراريط على اعتبــار أن الدخل كله أربعة وعشرون قيراطا ، للسلطان أربعة قراريط وللامراء والمنح عشرة ، وللأجناد عشرة ، هذا من ناحية الكم ، أما ناحية الكيف فتتبع هذا الترتيب التنازلى بمعنى أن السلطان يخص نفسه بأجود الأراضى وأيسر الإيرادات تحصيلا ويليه الأمراء ثم الأجناد .

وكانت هناك مساحة محدودة للأوقاف ، ولكن هذه كثيرا ما كانت تمتد لها يد الإقطاع ، بأن يحلها السلطان ثم يقطعها .

---

(١) صبح الأعشى : جـ٦ ص ٤٥٠ .

وطبيعى أن الاضطراب الذى شمل عصر المماليك ، مس التنظيم الإقطاعى بمعنى أن أحدا لم يكن يضمن استمرار الاقطاع له أية فترة من الفترات ، فكل انقلاب يعقبه إعـادة التوزيع بقصد حرمان أتبـاع السلطان السابق ومنح أتباع السلطان الجديد ، وكان هناك إعادة توزيع أحيانا فى عهد السلطان نفسه ، ويكون ذلك جزئيا أو كليا حتى يتمكن السلطان من مكافأة المجدين وتقليل الاقطاع الممنوح لمن نسب لهم الإهمال أو ضعفوا عن القيام بتبعاتهم ، وكان الاقطاع أحيانا يؤخذ كله من هؤلاء ، وقد تكون إعادة التوزيع ناتجة عـن حاجة السلطان لإقطاعات جديدة يمنحها لبعض أنصاره أو لبعض الطامعين المطالبين بمزيد من الدخل ، وفى هذه الحالة يستولى السلطان على بعض إقطاعات من أصحابها ، وممن عوملوا كذلك ابن إياس المـؤرخ الشهير فقد اسـترد السلطان بعض إقطاعاته ليمنحها الى بعض عبيده الذين ما فتئوا يطالبون مزيدا مـن العطاء (١) .

والإقطاعات التى أشرنا اليها آنفا كانت كما رأينا مرتبطة بالوظائف ، ومن هنا كان ينتقل الاقطاع من شخص الى آخر تبعا لوظيفته ، وهو بذلك إقطاع استغلال لا إقطاع تمليك ، ومن هنا كذلك حرص كثير من الناس على أن يكون لهم مال ثابت يورثونه ذويهم خوفا على الاقطاع الذى يمنح ويمنع ، وكان طريقهم للحصول على ذلك المال الثابت أن يشتروا من بيت المال قطعة من الأرض بمدخراتهم الخاصة ، وإن كان هذا المال أيضا عرضة للمصادرة ، إذا شاء السلطان ذلك .

وكانت وفاة شخص من المقطع اليهم فرصة للطامعين لينالوا ما كان بيده ، ومن هنا تعجل بعض الناس وفاة المرضى أو كبار السن ، بل ربما قتلوا ذلك الشخص بطريق أو بآخر كما حدث فى عهد السلطان الغورى

---

(١) بدائع الزهور : جـ٤ ص ١٥٠ و ١٧٥ .

الذى ثبت له ذلك فحرم القتلة من الإقطاع الذين ارتكبوا ذلك الجرم الأثيم من أجله (١) .

حياة الإقطاعيين :

وكان الأمير المملوكي في اقطاعه يبدو كأنه سلطان فى مملكة صغيرة ، تكاد تكون مستقلة ، فهو يقيم فى قصر ضخم ، حوله الحشم والأتباع ، وله حرسه الخاص وله كذلك مماليكه ، الذين يشتريهم بماله ويربيهم ليكونوا حرسه وأتباعه ، وهو يدبّر شئون إقطاعه ، فهو حاكم مطلق بين فلاحيه وموظفيه ، يقضى بينهم أو يعين لهم القضاة ، ويفرض عليهم الضرائب ، وليس من حقهم مغادرة الاقطاع ، فان غادروه أعيدوا له قسرا وربما عوقبوا على هذا التصرف .

الصناعة :

ومن جهة الصناعة فقد نشطت بعض الصناعات فى هذا العصر ، كصناعة النسيج والأوانى المعدنية والزجاج والجلود وأصبحت لمصر شهرة واسعة فيها ، وكصناعة الأسلحة والسفن ، واشتهرت فى هذا العهد الصناعات الدقيقة وفن الزخرفة ، وقد تحدّر الينا من هذا العهد نماذج رائعة من المصنوعات الفنية الحديدية ، والأدوات النحاسية والأوانى الزجاجية والمحفوظات الخشبية ، ومما يستحق إشارة خاصة هنا الأدوات النحاسية ، والزهريات ، والأباريق والأطباق والشماعد والمباخر وغلافات القرآن ، وجميعها زاخرة بضروب الزركشة والترويق (٢) .

الطبقات فى العصر المملوكى :

وقد أشرنا فى أحاديثنا السابقة الى الطبقات فى المجتمع المملوكى ،

---

(١) دكتور ابراهيم طرخان : مصر فى عصر دولة المماليك الشراكسة ص ٢٥٧ .

(٢) فيليب حتى : تاريخ سوريا ص ٢٨٧ — ٢٨٨ .

وقد كان الفلاح فى القاع بين هذه الطبقات ، وكان التاجر والصانع فى منزلة أعلى من الفلاح ، إذ أن التجار والصناع كانوا يعيشون غالبا فى المدن بعيدين عن الإقطاع وما فيه من إذلال وقد يكون لبعضهم ثــراء جدير بالذكر ، أما أمــراء المماليك فكانوا فى القمة فى هــذا المجتمع ، ويغلب أن يكون أعضاء الجيش من المماليك المستوردين ، أما أبناء المماليك فلم يكن لهم أن يلتحقوا بالجيش وإنما كانوا يباشرون العمليات الإدارية والكتابية ، أما النابهون من السكان الأصليين ، فكان يمكن أن توكل لهم الوظائف الحسابية والقضائية والتعليمية •

وهناك طبقة أخرى ظهرت فى المجتمع المصرى فى مطلع عهد المماليك وهى طبقة طوائف التتار التى فرّت من حكم قادتهم ولجأت الى مصر ، وقد اعتنقت هذه الطوائف الدين الاسلامى وأخذَتْ على أخلاقه ، وقد رحب بهم سلاطين المماليك وبخاصة بيبرس رجاء أن يتخذهم أعوانا له وينتفع بما عُرِف عنهم من قوة وشجاعة ضد منافسيه فى الداخل وأعدائه فى الخارج ، وقد أسكنهم حىّ (الحسينية) وكان فيهم جمال رائع مما جعل هذا الحى يشتهر بالجمال •

وطبيعى أن المماليك وهم يعيشون فى جو عسكرى اهتموا بألعاب الفروسية وسباق الخيل ولعب الكرة بالصولجان ، كمــا اهتموا بإحياء الحفلات فى الأعياد الاسلامية والمسيحية والوطنية •

الآثار والمنشآت :

وقد نهض فن العمارة إبان عهد المماليك نهضة واسعة ، وآية ذلك تلك المؤسسات العظيمة من مدارس ومساجد ومستشفيات التى تزدان بها القاهرة والاسكندرية وغيرهما حتى الآن ، وهى بما تحويه من هندســة وزخرفة تدل على مدى الرقى الذى وصل اليه فن العمارة فى هذا العهد •

وقد ذكرنا أهم منشآت المماليك البحرية عند الكلام عن أشــهر

سلاطينهم أما مؤسسات المماليك البرجية وآثارهم فأهمها قبة يشبك الدوادار التى أنشأها خلال سلطنة قايتباى ، والمعروف مكانها اليوم بالقبة الفداوية ، وكثيرا ما استضاف الأمير بشبك السلطان قايتباى بها ، وكانت هذه القبة مكانا ينزله السلاطين للاستراحة والاستجمام عند خروجهم من القاهرة أو عودتهم إليها •

وكان للأمير أزبك قصر ضخم فى المنطقة التى عرفت باسمه وهى الأزبكية •

واهتم هؤلاء المماليك ببناء المساجد وبخاصة السلطان قايتباى الذى بنى عدة مساجد منها مسجد باب الخرق (الخلق) ومسجد وحوض سبيل بالعباسية ومسجد بالصحراء ، ومدرسة وضريح بالقرافة الشرقية •

ومن المساجد الشهيرة جامع المؤيد بجوار باب زويلة وكانت به مكتبة كبيرة ، ومسجد الغورى بالقرب من الأزهر ، وله مسجد آخر خلف ميدان القلعة وهو الذى بنى مئذنة الأزهر ذات الرأسين (١) •

ووجه المماليك عنايتهم للمدارس فبنى برقوق مدرسته بين القصرين ؛ وبنى الأمير جمال الدين الأستادار فى عهد السلطان فرج مدرسته التى نسبت إليه فعرفت بالجمالية ، وبنى الأشرف بارسباى ثلاث مدارس إحداها بسرياقوس والثانية بالقاهرة وهى المعروفة بالأشرفية والثالثة بالصحراء وقد دفن بها •

---

(١) مجالس السلطان الغورى : نشره الدكتور عبد الوهاب عزام ص ٢٣ وما بعدها وانظر تاريخ المساجد الأثرية للأستاذ حسن عبد الوهاب : ج١ ص ١٢١ — ١٢٢ •

ومن أهم آثار برقوق وابنه فــرج الضريح والخانقــاه بمقــابر المماليك • والعجيب أن المماليك كانوا كثيرا ما يستعملون فى مدارســهم ومساجدهم مواد للبناء يأخذونها قسرا مــن أصحابها أو ينهبونها مــن مؤسسات أخرى ، وكانوا كثيرا ما يلجئون الى السخرة فيرغمون العمال على العمل دون أجر فى هذه المنشآت التى كان المفروض أنها خيرية •

ومن منشآت هؤلاء المماليك مجموعة من الأبراج والقلاع الحربية ، ومجموعة من القناطر والجسور والخلجان •

وكان لكل أمير أو سلطان شارة تسمى « رنك » ينقشها على سلاحه وأدوات منزله ومبانيه ، فكان منهم من اتخذ الأسد شارة له ، أو الصقر وهكذا •

مزيد من الكلام عن آثار مصر فى عهد المماليك :

يعتبر عهد المماليك عهداً غنيا بالآثار ، وقد امتدت هذه الآثار مــن مطلع عهد المماليك حتى نهايته كما ذكرنا آنفا ، فمن مطلع عهد المماليك يبرز مسجد قاهر التتار (قطز) فى القصير احدى قرى فاقوس ، ومن نهاية عهد المماليك تبرز آثار السلطان الغورى وبخاصة مئذنته ومدرسته بالغورية وبين هذين توجد مجموعة ضخمة من المساجد من أهمها :

— مسجد الظاهر بيبرس بحى الظاهر •

— مسجد وقبة قلاوون بالنحاسين •

— مسجد السلطان حسن بالقلعة •

— مسجد برقوق •

— مسجد قايتباى •

ويكثر فى العهد المملوكى تشييد الخوانق والتكايا والسبل ، والخانقاه تعتبر أهم هذه المنشآت ، ومعنى الخانقاه : دار موقوفة لسكنى الزهاد والصوفية ، وينفق عليهم من أوقاف يحددها أهل الخير ، ولعل أقدم خانقاه بالقاهرة هى خانقاه سعيد السعداء التى أوقفها صلاح الدين الأيوبى على فقراء الصوفية الوافدين على مصر ، ورتب لهم جميع حاجاتهم من طعام وأكسية .

ومن خوانق مصر خانقاه بيبرس الجاشنكير وهو السلطان رقم (١٢) فى قائمة سلاطين المماليك البحرية ، وخانقاه الناصر محمد بن قلاوون ولا تزال موجوده حتى الآن وتعرف « بالخانكة » .

أما التكايا فمؤسسات عرفت فى العصر المملوكى أيضا ، وكانت أمكنة تضم العاطلين حيث يجدون بها حاجاتهم فلا يقدمون على مغامرات وحركات اضطرابات ضد السلطة .

أما السبل فأمكنة تقدم الشراب للمارين مرورا سريعا حيث يجدون مكانا يستظلون به وقتا قصيرا ويشربون أو يأخذون حاجتهم من الماء ثم يواصلون رحلتهم ومسيرتهم .

ولا تزال آثار التكايا والسبل موجودة فى حى الدراسة والعباسية .

العلوم والمعارف :

يزدان عصر المماليك فى مصر وسوريا بنخبة ممتازة من الفحول والعلماء فى مختلف الميادين ، بحيث يصعب أن ينافسه عصر آخر ، وان اسم كل واحد من هؤلاء العلماء يحمل معانى كثيرة ، ويشير الى تفوق ونضج فى ميدان الثقافة والفكر ، وسنذكر بعض هؤلاء فيما يلى مرتبين حسب تواريخ وفاتهم :

وأول من نقابل الطبيب العظيم « ابن أبى أصيبعة » (١٢٦٩ م) وقد تعلم الطب على أبيه فى دمشق ثـم استكمل دراساته الطبيـة فى البيمارستان الناصرى فى القاهرة ، وقد وضع تراجم للأطباء فى كتابه « عيون الأنباء فى طبقات الأطباء » ويحوى ٤٠٠ ترجمة .

ويجىء فى تاريخ الوفاة بعـده ابن خلكان (١٢٨٢م) وهو أبرز مؤلفى السِّير فى الاسلام ، وقد جمع فى كتابه العظيم « وفيات الأعيان » ترجمة حياة ٨٦٥ مـن الأعيان والعظمـاء ، ويُعَدُّ كتابه مرجعا هاما للباحثين والدارسين .

وعمل ابن خلكان أوحى لمؤلفَيْنِ متعاصرَيْنِ أن يسيرا على نهجه ، أحدهمـا الكتبى الحلبى (١٣٦٣ م) الذى أكمل عمل ابن خلكان بكتـابه « فوات الوفيات » وهو يضم ٥٠٦ تراجم ، أما الكاتب الآخر فهو الصفدى (١٣٦٣ م) وقد كتب كتابا بعنوان « الوافى بالوفيات » وبه ١٤٫٠٠٠ سيرة .

ثم يجىء على بن النفيس (١٢٨٨) وكان رئيسا للأطباء فى مستشفى قلاوون .

وبعد ذلك يجىء الدمشقى (١٣٢٦) وقد ألف « نخبة الدهر فى عجائب البر والبحر » .

ومن علماء هذا العصر المشهورين ابن تيمية (١٣٢٨) وهو يقف فى القمة بين الشيوخ والفقهاء ، وقد رفع صوته ضد تقـديس الأولياء وتقديم النذور لهم ، وهو المذهب الذى اعتنقه الإصلاحيون فى نجـد فيمـا بعد .

ومن مؤرخى هذا العصر « أبو الفدا » (١٣٣٢) صاحب التاريخ والسير ، ومؤلفاته تدعو للإعجاب والتقدير : والحديث عن أبى الفـدا

يشدنا للحديث عن صديقه ابن نباته المصرى (١٣٦٦) الذى كان من الشعراء الممتازين .

ومن علماء هذا العصر ابن فضل الله العمرى (١٣٤٩) الذى شغل منصب صاحب الخاتم فى بلاط المماليك بالقاهرة ، وهو مؤلف « مسالك الأبصار فى ممالك الأمصار » .

ومن فقهاء العصر السبكى (١٣٥٥) وقد ولد فى بيت بالمنوفية ، وكان رئيس الشافعية فى عصره ، ومن مؤلفاته طبقات الشافعية وشفاء السقام فى زيارة خير الأنام الذى يرد به على ابن تيمية .

وقد عاش فى هذا العصر ابن خلدون (١٤٠٥) المؤرخ والباحث الاجتماعى العظيم ، وهو الذى قرر لأول مرة أن الأحداث التاريخية تقوم على أسس اقتصادية وجغرافية واعتبارات محددة ، وألزم دراسة ذلك عند دراسة التاريخ .

ومن مفكرى هذا العصر محمد بن عيسى الدميرى (١٤٠٥) مؤلف كتاب : حياة الحيوان .

ومن مفكرى هذا العصر كذلك ابن دقماق المصرى (١٤٠٦) وهو مؤلف : الانتصار لواسطة عقد الأمصار .

ونصل الى القلقشندى (١٤١٨) صاحب الموسوعة العظيمة المسماة : صبح الأعشى فى صناعة الأنشاء .

ثم المؤرخ المصرى العظيم المقريزى (١٤٤٢) وهو مؤلف الخطط والسلوك واتعاظ الحنفا ورسالة عن النقود . . .

ويجىء بعد ذلك إمام العصر ابن حجر العسقلانى المولد المصرى

حياة (١٤٤٩) وهو مؤلف : الدرر الكامنة فى علماء المائة الثامنة ، والاصابة فى تاريخ الصحابة وفتح البارى فى شرح أحاديث البخارى •

ثم يجىء العينى (١٤٥١) وقد ولد فى حلب وولى التدريس والقضاء فى القاهرة ، وكان يجيد التركية والعربيـة وساعده ذلك عـلى تأليف موسوعته العظيمة « عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان » •

ونصل الى مؤرخ شهير وهو من عنصر المماليك وهو ابن تغرى بردى (١٤٦٩) وكتابه : النجوم الزاهرة مـن أشهر الكتب فى تـاريخ مصر والقاهرة •

ومن علماء العصر الإمام السخاوى (١٤٩٦) مؤلف عدة كتب من أهمها الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع (الهجرى) •

ويجىء بعد السخاوى تلميذه وندّه الإمام السيوطى (١٥٠٥) وهو صاحب الموسوعات الكثيرة وبخاصة فى الدراسات القرآنية •

وتختم هذه الدراسة بنموذج مملوكى شهير هو ابن اياس (١٥٢٣) مؤلف كتاب « بدائع الزهور » فى تاريخ مصر •

علماء من صفوف المماليك :

أشرنا فيما سـبق الى بعض المؤرخين الذين برزوا مـن صفوف المماليك واشتغلوا بتدوين التاريخ ، ولم يكن التاريخ وحده هو الذى جذب بعض المماليك ليتركوا السيادة والسلطة ولينخرطوا فى صـفوف العلماء ، فان كثيرين من المماليك اتجهوا للعلوم الشرعية كالأمير علم الدين سنجر ، وتمر بن عبد الله الشهاب ، واتجه آخرون الى الأدب مثل شهاب الدين بـن بلبك والسلطان قنصوه الغورى ، بـل اتجهوا كذلك للرياضة والفلك والطب والكيمياء ، وقد خصصتُ دراسة علمية لذلك

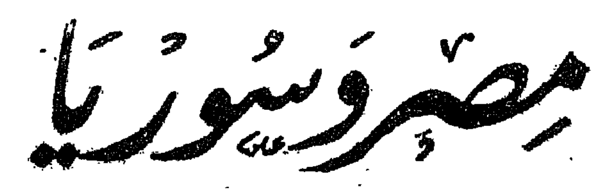
فاقترحت موضوعها وأشرفت عليها حتى اكتملت وحصل المرحوم محمد محمد عامر على درجة الدكتوراه من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وعنوانها « المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر » فليرجع إليها من أراد المزيد من المعرفة عن نشاط المماليك فى هذا المجال .

وهناك مجموعة من الأبطال برعوا فى كتابة المؤلفات فى الشئون الحربية ومن هؤلاء :

— عماد الدين موسى اليوسفى ١٣٥٧ وهو مؤلف كتاب « كشف الكروب فى معرفة الحروب » .

— محمد بن منكلى (١٣٧٧) مؤلف « التدبيرات السلطانية فى سياسة الصنائع الحربية » .

— سيف الدين الماردينى (١٣٧٨) مؤلف « بقية القاصدين فى العمل بالميادين » .



من الفتح العثماني حتى العهد الحاضر

الخلاف بين المماليك والعثمانيين

سنتحدث فى هذا الجزء فيما بعد عن نشأة العثمانيين ، وتطورهم من إمارة صغيرة الى امبراطورية شاسعة ، فلندع ذلك الآن لنتحدث عن الأحداث التى سبقت وعاصرت قضاءهم علـى دولة المماليك ودخولهم سوريا ومصر .

ولا ننسى أننا أوردنا عند الكلام عن نهاية المماليك تصويرا لعلاقاتهم مع العثمانيين التى انتهت بالحرب وهزيمة المماليك ، ولن نكرر هنا ما سبق أن أوردناه ، وانما سنضيف بضع نقاط كانت ذات أثر كبير فى مجريات الأمور آنذاك .

لقـد رحب المماليك ترحيبا واضحـا بالانتصارات التى حققهـا العثمانيون ضد بيزنطة ، وعندما سـقطت القسطنطينية شـاركت مصر وسوريا العثمانيين فى أفراحهم وفى مواكب النصر التى ازدهرت هنا وهناك بمناسـبة هـذا الحـدث البهيج ، ولكن إسـقاط القسـطنطينية زاد أطماع العثمانيين ، ولذلك حرصوا — وقد ورثوا الامبراطورية البيزنطية — أن يثروا الامبراطورية الاسلامية ، وبخاصة أنهم من حماة الاسلام ، ومن العاملين على انتشاره وانتصاره ، وتحقيقا لهذا الهدف احتلوا بغـداد التى كانت عاصمة الاسلام فترة طويلة من الزمن ، ثم اتجهوا الى مصر قلب العالم الاسلامى آنذاك ، حيث تتخذ الخلافـة العباسية مركزهـا الجديد .

أما الأحداث التى سبقت الحـرب ومهدت لها فهى اتهـام مصر بممالأة الصفويين ، وحماية اللاجئين الأتراك أعداء السلطان سـليم ، وهناك إمارة صغيرة ساعدت على حدة الخلاف بين المماليك والعثمانيين ، تلك هى الإمارة الغادرية إحدى الامارات التى قامت على أنقاض دول التتار فى أرمينيا وديار بكر ، وكان أميرها من أبناء ذى الغادر ، وكـان

لمصر نفوذ فى هذه الولاية ، وللمماليك حق تعيين أمرائها ، وحدث أن أحد الأمراء من أسرة ذى الغادر المناوئين للأمير الذى عينه المماليك ، لجأ الى العثمانيين وطلب عونهم لتصبح الامارة له ، فاستجاب له العثمانيون وأمدوه بالعتاد والرجال ، حتى قضى على منافسه التابع للمماليك وأخذ الولاية لنفسه ، واعترف بنفوذ العثمانيين على ولايته ، ولما احتج السلطان الغورى على ذلك ، كان رد السلطان سليم على هذا الاحتجاج أن أرسل له رأس الوالى الذى كان تابعا له ، وكان معنى ذلك إعلان الحرب .

ونقطة أخرى يجدر بنا أن نوضحها ، هى أن جيش العثمانيين كان — بالاضافة الى العُدَد الحديثة التى تكلمنا عنها من قبل — كثير العَدَد وافر الحماس ومتحد الكلمة والغاية ، ولكن جيش المماليك آنذاك كان قليلا ، وكانت عناصر الفرقة واضحة به ، فَمُعتَنقى الغورى ومماليكه كانوا فى جانب ، وكان المماليك الآخرون فى جانب آخر ، ثم إن دولة المماليك كانت تعانى اضطرابا اقتصاديا قاسيا بسبب تحول التجارة الى طريق رأس الرجاء الصالح كما ذكرنا .

ومع كل هذا فقد استطاع الغورى أن يصمد وأن يكسب النصر فى عدة جولات فى مرج دابق سنة ١٥١٦ ، لولا انسحاب الخونة فى الساعات الحرجة ، وبهزيمة مرج دابق أصبحت سوريا خاضعة للعثمانيين .

وسقط الغورى قتيلا ولم يتعرف أحد على جثته ، ويقال ان بعض رجاله قطع رأسه حتى تسلم جثته من التشويه .

وقد حاول السلطان سليم بعد انتصاره فى مرج دابق أن يسترضى طومان باى الذى خلف الغورى ، فراسله ليحكم مصر باسمه ، ولكن طومان باى رفض ذلك ، وأعد نفسه لمعارك أخرى ، ومع أنه هُزِم فى موقعة الريدانية (العباسية) فقد واصل الصراع فى أمكنة أخرى بأحياء القاهرة ، وظلت المعارك تدور فى شوارع القاهرة عدة أيام . وشهدت

أحياء الصليبة والسيدة زينب وبولاق ووردان مواقف جديرة بالتقدير ، ولكن العثمانيين انتصروا فى النهاية ، وعندما لم يجد طومان باي وسيلة للكفاح لجأ الى أحد رؤساء الأعراب بالبحيرة واسمه حسن بن مرعى واختفى عنده واستحلفه ألا يخونه ، ولكن ذلك البدوى خان أميره وبعث للسلطان العثمانى بأمره كما ذكرنا من قبل ، فأرسل السلطان جنده فقبضوا عليه ، وجاءوا به الى السلطان ، وقد استبقاه السلطان عدة أيام ، وكان يحسن استقباله ويسأله عن شئون مصر وإدارتها وجباية خراجها ، حتى إذا عرف منه ما أراد أسلمه الى حبل المشنقة فى ربيع الأول سنة ٩٢٣هـ (١٥١٧) ، وانتهت بذلك دولة المماليك وأصبحت مصر وسوريا خاضعتين للحكم العثمانى .

وقد بقى السلطان سليم بمصر ثمانية أشهر ، سن خلالها بعض الأنظمة الادارية ، ونقل الى القسطنطينية أكثر ما فى القلعة ومنازل الأمراء والسلاطين والمساجد والزوايا والأربطة من النفائس والذخائر والكتب حتى أعمدة الرخام ومركباته .

ونفى من مصر الى القسطنطينية الخليفة العباسى وأكثر العلماء والقضاة وكل من لـه نفوذ وإمرة بمصر .

ثم أمر بجمع رؤساء الصناعات المشهورين باجادة العمل فيها من كل الطوائف ، فجمع له منهم نحو ألف صانع فنقلهم الى الاستانة لينشروا الصناعات الدقيقة فيها ، وقد رجع بعضهم الى مصر بعد عهده وبقى آخرون هناك ، ويقال إنه قضى فى مصر بذلك على نحو خمسين صناعة ، فكان كل ذلك سببا فى تأخر مصر فى مجال الصناعات .

أما ولاية مصر فاختار لها السلطان سليم فى أثناء إقامته أكبر وزرائه (يونس باشا) واليا عليها ، ثم رجع عن ذلك قبل سفره من مصر وولى

عليها الخائن « خير بك » وولىّ على الشام الخائن الآخر « جان بردى الغزالى » •

نظام الحكم العثمانى بمصر وسوريا :

إن فلسـفة الحكم عند العثمانيين كانت تقوم — كما يقول فيليب حتى — على أن الشعوب المغلوبة رعيّة يتعهدهم الراعى لمصلحته ، فهم بمثابة المواشى الإنسانية (يُحْلَبُون) أو (يُجَزّون) حسبما يشاء الـراعى ، ولهم أن يعيشوا مـاداموا أولا لا يسببون المتـاعب وثانيا يستَغَلّون ، وفى مصر وسوريا كان هناك شـعب أكثره من الفلاحـين والصناع والتجار لا يطمحون الى الانخراط فى سلك الجندية ، ولا يسعون لتولى المناصب الكبرى ، فليعيشـوا ليكدحوا ولينالوا خَشِن الطعـام والثياب ليؤخذ منهم ما تبقى بعد ذلك للسيد الراعى ، ولكن (القطيع) لابد له من (كلاب حراسة) غير أن الكلاب هناك لا تتولى فقط الحراسة كالشأن فى الكلاب مع الغنم ، بل تتولى كذلك جمع المال لنفسها وللراعى ، وردع من يتوق للحرية أو يفكر فيها (١) •

تلك هى خلاصة فلسفة الحكم عند العثمانيين فى جميع البلاد التى فتحوها ، فلا يعنيهم أمر البلاد فى قليل أو كثير ، وانما يعنيهم أن يتخذوا الوسائل لدوام خضوعها اليهم ، والعجيب أنهم عادوا المماليك وحاربوهم ، ولكنهم سرعان ما اتخذوهم سلاحا أو جلادين يطعنون به الشعب المصرى والسورى ، حتى ليروى أن السلطان سليم حاول أن يستبقى طومان باى لولا أن المماليك الذين كانوا حوله خافوا من ذلك على أنفسهم وأخافوا السلطان سليم منه فأعدمه ، وكـان إعدامه حدثـا فرديا ، أما مـوقف السلطان سليم بوجه عام من المماليك فيوضحه وصيته بهم ألا ينالهم

---

(١) انظر تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى حـ ٢ ص ٣١٢ .

أذى ، ويوضحه تركه السلطة فى أيديهم وعدم المساس باقطاعاتهم وبتقاليدهم بعد أن أطمأن اليهم ، ونتيجة لذلك كان ترف المماليك فى العهد العثمانى يفوق ترفهم قبل ذلك ، فقد تخلص المماليك فى العهد العثمانى من المسئولية ، فاذا كانوا إبان سيطرتهم الكاملة مسئولين عن البلاد فانهم فى هذا العهد غير مسئولين ، إذ أنهم فى الظاهر يعملون لحساب سواهم وبناء على توجيهاته ، ولذلك انغمسوا فى الترف فى المسكن والملبس بعد أن كان فى حياتهم الأولى كثير من الخشونة وشظف العيش شأن الجندى المكافح .

ولما جاء السلطان سليمان بعد أبيه السلطان سليم زاد تقريبه للمماليك ، إذ استعان بهم فى حروبه بجزر البحر الأبيض ، فأبدوا فى الحروب ضروبا من الشجاعة والاستبسال فكافأهم السلطان سليمان بأن أذن لمن شاء منهم أن يعود الى مصر ليعيش فى ظل السيادة العثمانية ويدين بالطاعة للباشا الوالى ممثل هذه السيادة ، فأسرع أكثرهم الى العودة لمصر (١) .

وعلى هذا فنحن أمام اتفاقية غير مكتوبة ، وقد أغفل المؤرخون أو أكثرهم إبرازها ، وخلاصتها إضعاف الشعب العربى لتدوم تبعيته للعثمانيين ، واقتسام خيرات البلاد بين المماليك والعثمانيين .

وفى ضوء هذه الفلسفة رسم السلطان سليم سياسته بمصر وسوريا ، فبعد أن تمّ له فتح مصر ، أمضى بها ثمانية أشهر للتعرف على أحوالها كما سبق القول ، ووضع قواعد الحكم الجديد بها ، وتنظيم العلاقة الاقتصادية بينها وبين العاصمة العثمانية ، وفى طريق عودته من مصر

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار « التمهيد للكتاب » .

الى بلاده توقف طويلا بسوريا لنفس الأغراض ، ونتيجة لهذه الدراسة أعلن نظام الحكم الجديد الذى يقضى بأن تكون هناك سلطات ثلاث بيدها مقاليد الحكم ، وهذه السلطات هى :

أولا — الوالى :

ويلقب الوالى بالباشا وهو نائب السلطان ، ووظيفته إبلاغ أوامر السلطان الى عمـال الحكومة ، والإشراف على تنفيذهـا ، وعليه جمع الضرائب ، وإرسال المقررات المفروضة على الولاية الى الخزانة العـامة بالقسطنطينية ، ومن واجباته أيضا ارسال المؤن والكسوة الى الحرمين الشريفين ، وكذلك الاشراف على دار سك النقود التى بالقلعة ، وتقديم حسابها ، وتدبير أرزاق جنود الانكشارية بمصر وأرزاق رجال الشرطة ، ويتولى تعيين شيوخ البلد والصناجق من المماليك بعد موافقة السلطان ، وهو المسئول عن حفظ الأمن ونشر العدالة .

ثانيا — الديوان :

ترك السلطان سليم بمصر حامية تتألف مـن نحو اثنى عشر ألف جندى ، يتكون منها ست فرق « وجاقات » ورؤساء كل فرقة يسـمون « الوجاقية » ورئيس الوجاقية يسمى « الأغا » ونائبه أو وكيله يطلق عليه الكخيا أو « الكتخذا » ويتكون من الوجاقية مجلس شورى الباشا المعروف بالديوان ، ويجتمع الديوان أربع مرات فى الأسبوع ، ومهمته النظر فى الشئون الاقتصادية والادارية ، ولا يجوز للوالى أن يتخـذ قرارا فى أمر من الأمور إلا بعد الحصول على موافقة الديوان .

ثالثا — السناجق :

السناجق هم حكام الأقاليم ، ولكل منهم فى إقليمه سلطة كاملة ، وهو يباشر رياسة جميع الشئون الادارية والاقتصادية ، ويكون السناجق

من المماليك ، ورئيسهم فى مصر هو سنجق القاهرة ، وفى الشام سنجق دمشق ، ويلقب « شيخ البلد » وهـو يلى الوالى فى الأهمية ، ويشغل مكانه لو خـلا لسبب من الأسباب حتى يجىء الوالى الجديد ، ولذلك كان يطلق عليه « كخيا الوالى » أى نائبه ، كما كان للاغا كخيا فى تنظيمات الوجاقية ، وبالاضافة الى السنجقة كان المماليك يشغلون عدة مناصب كبرى فى مصر منذ مطلع العهد العثمانى ، منهـا وظيفة « الدفتردار » ويشبه وزير المالية فى العهد الحاضر ، و « الخازندار » ووظيفته تسليم الخراج سنويا الى الحكومة العثمانية ، وأمير الحج ووظيفته مصاحبة الكسوة وقيادة الحجاج الى بيت الله الحرام وتوزيع الصدقات بالأماكن المقدسة ، وأمراء البحر الثلاثـة وهم قباطين ثغور دميـاط والسويس والاسكندرية التى تمثل أبواب مصر البحرية .

وتبعا لهذا التقسيم عين خير بك واليا لمصر مكافأة له على خيانته ، أما سوريا فقد قسمت الى ثلاث ولايات هى : ولاية حلب وولاية دمشق وولاية طرابلس ، وتضم كل منها عدة سناجق ، وقد جعلت ولاية دمشق وهى أهم ولايات الشام مكافأة للخائن الثانى جان بردى غزالى ، وجعل له الاشراف على الولايتين الأخيرتين بحيث أصبح النائب عن السلطان فى سوريا كلهـا .

التنظيم الاقتصادى :

ذلك مجمل القول عن التنظيم السياسى ، أما التنظيم الاقتصادى وهو الهدف الأسمى للعثمانيين فقد سار على النحو الذى كان متبعا إبان عهد المماليك ، وقد كان من أهم ما عنى به السلطان سليم القيام بمسح الأراضى فى مصر وسوريا وتخصيص مقدار منها للأجناد ومقدار لنفقات الوالى ، ومقدار للسناجق ، وما عدا ذلك سمى بالأراضى الديوانية أى التابعة للديوان الأعظم بالآستانة ، وسـار العثمانيون سيرة سـلاطين المماليك فى استغلال هذه الأراضى بطريق الالتزام بالمزايدة ، بحيث يتعهد

الملتزم بدفع مقدار محدد من المال كل عام عن مساحة محددة من الأرض ، يَجْبى من فلاحى هذه الأرض ما يستطيع من أموال ، وكان يشترك فى المزايدة أغنياء المماليك وكبار التجار وبعض الموظفين[1] .

ومن الواضح أن هذا التنظيم الاقتصادى كان قاسيا جدا على الفلاح ، وركز الثراء كله فى أيدى الملتزمين وأيدى السناجق ، فكان هؤلاء وأولئك سادة يحيون فى بذخ وترف ، أما الفلاح فكان عبدا يعمل بعنف ولا يكاد يجد الكفاف .

تاريخ لمصر وتاريخ لسوريا :

فى ظل هذا النظام أو فى إطار هذا التخطيط انفصلت سوريا عن مصر ، بعد أن ظلت مرتبطة بها طيلة العهود الاستقلالية منذ حكم الطولونيين ، وأصبح لكل من مصر وسوريا قدر وتاريخ ، صحيح أن التنظيم كان واحدا ، ولكن الولاة كانوا مختلفين ، وجدت أحداث هنا وأحداث هناك وسعت الهوة بين الشقيقتين ، وقد ذكرنا فى مطلع هذا الكتاب أن الاستعمار كان يفرق بين مصر وسوريا ، ونحن الآن فى فترة استعمار مرير فرق بين الشقيقتين ، ومن هنا كان لزاما علينا أن ندرس تاريخ كل منهما على حدة فى هذه الفترة حتى نعود فنلتقى فى ظل وحدة ستضم الشقيقتين مرة أخرى .

---

(١) انظر رأى الاسلام فى الالتزام بكتابنا « الاقتصاد فى الفكر الإسلامى » .

تاريخ مصر من الفتح العثماني

تقـــديم :

دخل العثمانيون مصر سنة ١٥١٧ وفى سنة ١٩١٤ أعْلِنَتْ الحماية الانجليزية على مصر وقُطِع آخــر خيط كان يربط مصر بالإمبراطورية العثمانية ، قرون أربعة طويلة ومريرة ارتبطت خلالها مصر بهؤلاء الغزاة الذين لم يكن لهم همٌّ إلا خدمة مصالحهم ، وهناك فى الاستانة قام رجل ادعى الخلافة الاسلامية ، رجل يعيش فى كثير من الأحوال لنفسه ولنزواته وخليلاته ، يزعم أنه يجلس فى المكان الذى جلس فيه يوما أبو بكر وعمر بن الخطاب ، وباسم هذا اللقب طال عمر حامل هذا اللقب بالاستانة ، وكانت رائحة الفضائح تفوح أحيانا فتزكم الأنوف ، ولكن المسلمين يرونها خطيئة فردية ويتمنون لو جاء لهذا خلف جدير بهذا اللقب ويحمل مسئولياته ، ويجيء سلطان على هذا النمط ، ولكن المسلمين أيضا يظلون على أملهم رغبة فى الحرص على بقاء الوحدة الاسلامية ، وربما هبّت ثورات فى وجه هؤلاء الخلفاء ، ولكنا كنا نشاهد مقاومة لهذه الثورات نابعة أحيانا من الأرض التى نبعت فيها الثورة ، حفاظا على الوحدة الاسلامية أن تنحل .

شيء مهم نريده أن يثبت فى نفوس القراء والمفكرين ، هو أن الانضواء تحت الخلافة العثمانية لم يكن يُنْظَر اليه على أنه تبعية أو احتلال ، وأكبر دليل على هذا أن وفود الجزائر سارت من تلقاء نفسها تطلب الانضواء أيضا تحت الخلافة العثمانية ، وكانت هنـــاك فى الشرق الأقصى مملكة إسلامية فى جزيرة سومطرة فى حرب مع هولندا فطلب أن تحتويها الخلافة العثمانية ، وهكذا استطاعت هــذه السلطة العثمانية أن تستغل هــذا اللقب الكريم ، وأن تستغل دين الاسلام لتحقيق مآربها الذاتية ، بوسيلة واحدة هى خداع هذه الشعوب .

ولنعد الى مصر لنقرر أن هذه القرون الأربعة لم تَسِرْ على نمط

واحد ، وانما تغيرت الملامح فيها من حين الى حين ، ويمكننا بوجه التقريب أن نقسم هذه المدة الى أربع فترات ، لكل منها طابع يكاد يكون خاصا بها ، وهذه الفترات هى :

١ — من الفتح العثمانى الى على بك الكبير (١٧٦٣ م) ، وأبرز طابع لهذه الفترة (أنها فترة عثمانية) بكل ما فى الحكم العثمانى من خصائص وخلل ، وقد طالت هذه الفترة بسبب تنافس المماليك كما سنرى بعد قليل •

٢ — من على بك الكبير الى محمد على (١٨٠٥ م) وأبرز خصائص هذه الفترة (أنها فترة مملوكية) رجحت فيها سلطة المماليك على سلطة العثمانيين ، ومن أهم أحداث هذه الفترة سياسيا الحملة الفرنسية ، ومن أهم أحداثها الفكرية الدراسة الرائعة التى قدمها عنها الجبرتى المؤرخ العظيم ، وقد عنينا عناية تامة بهذين الموضوعين •

٣ — من محمد على الى الاحتلال (١٨٨٢ م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة الاستقلال) فان العلاقات بين مصر وتركيا كانت قد ضعفت الى درجة جعلت محمد على يهاجم الأرض التركية ، ويحقق نصرا عليها •

٤ — من الاحتلال الى مطلع الحرب العالمية الأولى (١٩١٤م) ويمكن أن نسمى هذه الفترة (فترة تعدد السلطات) ، فالاحتلال الانجليزى كان يمثل أقوى حلقات النفوذ ، ولكن العثمانيين لا يزال لهم حقوق شرعية فى البلاد ، وبجانب هذين هناك الحكام من أسرة محمد على ، ولهم على كل حال لقب السلطان ، ثم هناك سلطة الشعب التى بدأت تبرز فى هذه الفترة فى صورة حركات شعبية لها تخطيط وغاية ، من أهمها نضال الحزب الوطنى •

تلك هى أهم الأقسام التى يمكن أن نقسم لها فترة الحكم العثمانى ولكن تبقى فترتان متميزتان صارعتا الاستعمار الانجليزى الذى خلف

الحكم العثمانى ، وينبغى أن نتحدث عنهما لنصل بحديثنا عن مصر الى العهد الحاضر وهاتان الفترتان هما :

— من الحرب العالمية الأولى حتى ثورة يوليو سنة ١٩٥٢ وأهم طابع لهذه الفترة أنها كانت فترة (صراع) وقد ختم هذا الصراع بالثورة المذكورة .

— فترة الاستقلال من سنة ١٩٥٢ حتى الآن ، ومن الواضح أن الاحتلال البريطانى لم ينته سنة ١٩٥٢ ، ولكنه فى الحقيقة انتهى حكما ، من سنة ١٩٥٢ حتى تم الاتفاق على تصفيته على ما سنوضحه فى حينه ، ويدخل فى هذه الفترة تلك السنوات المريرة التى احتل فيها العدو الصهيونى جزءا من أرضنا (سيناء) عقب حرب يونيو سنة ١٩٦٧ . وقد ظل جاثما حتى زعزعت حرب ١٩٧٣ حياته وكيانه ، وقد استطاع جيش مصر أن يعبر القناة ويقيم له مراكز فى سيناء ، ثم تدخلت الولايات المتحدة فأوقفت زحف مصر ، ولكن المفاوضات أكملت جانب النصر ، فجلت إسرائيل عن سيناء وعادت لنا أرضنا الطيبة تماما فى ابريل سنة ١٩٨٢ .

وسنتحدث عن هذه الفترات كل على حدة فيما يلى :

١ — الفترة العثمانية ١٥١٧ — ١٧٦٣

يبدو لأول وهلة أن هذه الفترة طـالت ، ولم يقفز المماليك قفـزة واضحة لاسترداد السلطة من العثمانيين خلالها ، ولكن الواقع أن العثمانيين إبان هذه الفترة ضعف سلطانهم ، ولكن القوى الأخرى حرصت عـلى الإبقاء عليهم ستارا تحكم من ورائه ، وكـانت المنافسة بـين العناصر الطامعة فى الحكم هى التى أطالت هذه الفترة الى هذه الحد ، وقد زار مصر فى سنة ١٧٦١ — أى قبيل الحركة الاستقلالية التى قام بها على بك الكبير الذى كان شـيخا للبلد — رحالة دانمـركى اسـمه « كارستن نيبور Neibuhr » ، ووصف حالة مصر إذ ذاك قائلا : « إن القاهرة كانت مسرحا للشغب والقلاقل ، والأحزاب فى حروب داخلية مستمرة ، وكانت تلك الأحزاب تضم فيما بينها أنصارا من رجال الحامية يقتتلون فى بعض الأحيان فى الشوارع والطرقات ، وكانت منافسات أولئك الزعماء هى السبيل الوحيد الذى حفظ للدولة العثمانية ظلا من السلطة والسيادة ، إذ كان كل زعيم يخشى على نفوذه من وصول زعيم آخر الى حكم مصر ، ويفضل وجود الباشا العثمانى الذى فقد سلطانه وضعف نفوذه على مجىء زميل يتحكم فى مصير البلاد ، ويكون له من القوة ما يقضى بـه على منافسيه ، وظل الباشا ألعوبة فى يد هؤلاء الزعماء من المماليك والقواد حتى أن نيبور يقول انه فى خلال اقامته القصيرة فى مصر خلع ثلاثة باشوات مـن الولاية على أثر ثورات قـام بهـا الزعماء يعضـدهم أنصارهم » (١) .

ويوضح الجبرتى التنافس بين زعماء المماليك بقولـه : إن المماليك استفحل سلطانهم فى القرن الأول للحكم العثمانى ، ولكنهم كانوا فريقين ، فريق « الفقارية » نسبة الى زعيم اسمه ذو الفقار ، وفريق « القاسمية »

---

(١) نقلا عن الأمة العربية للدكتور عبد الحميد البطريق ص ١٧ — ٨١ .

نسبة الى زعيم اسمه قاسم ، وكان التنافس شديدا بين الفقارية والقاسمية ، وقامت بين الفريقين حروب طويلة (١) •

وينبغى أن نحاول تتبع خطوات الضعف الذى انتاب العثمانيين بمصر ، ونتعرف على أسبابه ، ويبدو لنا أن البذور الأساسية لهذا الضعف تكمن فى الخلاف الذى نشب منذ عهد مبكر بين الوجاقية والوالى ، فقد كان طابع الجنود العثمانيين التمرد ، ولذلك لم يستكينوا لسلطان الوالى ، وظلوا يناوئونه من حين الى حين ، حتى فكر « أويس باشا » الذى أصبح واليا سنة ١٥٨٧ م **أن يسمح للمصريين وللعرب بالانخراط فى سلك الجيش ، وكان يقصد بذلك أن يربى جيلا لا يميل الى التمرد** ، وأن يتخذ من هؤلاء قوة ضد الجنود العثمانيين ، ولكن الجنود العثمانيين لم يسمحوا بذلك ، وقاموا باضطراب وفتن واسعة أرغمت أويس على التراجع عما قصد •

وفى هذا النضال بين الوالى وبين الجنود العثمانيين رجحت كفة الجنود ، حتى أصبح الوالى لعبة فى أيديهم يعزلونه أو يبقونه ، ويردون الولاة الجدد إذا لم يرضوا عنهم •

وقد وقف المماليك موقف المشاهد للأحداث السعيد بها ، وكان الخلاف بين القوتين العثمانيتين يزيد فى قوة المماليك ونفوذهم ، بيد أن الخلافات الداخلية بين المماليك ، تلك التى أشرنا لها فيما سبق أرجأت استعادتهم للسلطة ، كما أرجأها كذلك ترقب الأحداث ليمكنهم استعادة السلطان دون صراع طويل ، وحدث أن حروب العثمانيين فى أوربا استلزمت سحب أكثر الجنود العثمانيين من مصر للاشتراك فى هذه الحروب ، وقد تسبب عن ذلك أن وقف المماليك وجها لوجه أمام الوالى ، ولكن هذا كان سلطانه قد أصبح ضئيلا متهاويا من شدة ما عانى من تمرد الجنود

---

(١) الجبرتى : تمهيد المؤلف لكتابه عجائب الآثار .

العثمانيين ، وقد أتاح ذلك للمماليك أن يستكملوا نفوذهم ، وبخاصة أن على بك الكبير كان قد ظهر عـلى مسرح الأحداث كما سـنرى ، وكان شخصية جديرة بهذا الانتقال الذى سنشرحه فى الفترة التالية من فترات الحكم العثمانى وهى الفترة المملوكية .

والآن نواصل كلامنا عن أهم مظاهر الفترة العثمانية :

الباشـا :

سبق أن تكلمنا عن الباشا الوالى ومهامه ، ونريد هنا أن نقتبس من الجبرتى مزيدا من الحديث عن ممثل الحكومة العثمانية بمصر ، يقول الجبرتى : كان إذا عين أحد رجال الدولة العثمانية واليا على مصر ، ينتقل اليها بأهله وحشمه ، فاذا بلغ القاهرة أعدوا له دارا ينزلها ليقضى بها ليلته الأولى ، ثـم يخرج لاستقباله رؤساء الحجاب يمسـكون بأيديهم عصيا طويلة ، ولذلك سموا « أرباب العكاكيز » ويتلوهم فى الموكب رؤساء الجنود الإنكشارية وترجمان الوالى وأمراء المماليك ، ويذهب هذا الموكب الى الدار التى نزل بها الوالى ليلته الأولى فيصطحبه ليدخل به القاهرة من باب النصر ويسير به وسط جموع الرجـال والنساء الذين يقفون فى الطرقات والشرفات لتحية الوالى الجديد ، فاذا وصل الركب الى القلعة ، المقر الرئيسى للوالى أطلقت المدافع تحية للوالى ، وبعد أن يستريح ثلاثة أيام يعقد الديوان ، ويجتمع أصحاب الشأن كالأمراء والعلماء وشيخ الأزهر ونقيب الأشراف وشيخ السادة البكرية وكبار التجار ، ويتلى فرمان التولية عليهم جميعا ، ويخلع الباشا عليهم خلعا ، تتناسب مع مقام كل منهم ، ويضيف الجبرتى قوله : إن ولاة مصر كانوا لا يقيمون فى مناصبهم غالبا إلا سنة أو بعض سنة ، إذ كانت الاستانة تخشى أن يستبدوا بالسلطة ، ويستقلوا عن الخلافة ، وكان إذا زاد حكم الوالى عن السنة الواحدة صدر له فرمان جديد بتثبيته فى عمله سنة أخـرى ، وإذا عزل تقدم إليه أرباب العكاكيز يبلغونه أمر العزل ، ويمشون أمامه

فى نزوله من القلعة ، ويستولون منه على مهام دار سك النقود ، ولا يجوز له أن يبارح القاهرة حتى يحاسب على أموال الدولة الموكولة إليه ، ويبادر الأمراء بتعيين نائب الوالى من بينهم حتى يحضر الوالى الجديد (١) .

الالتزام :

فيما يتعلق بسياسة العثمانيين نحو الأرض الزراعية بمصر ، ألغى السلطان سليم النظام الإقطاعى الذى كان سائدا فى عهد المماليك ، وأحل محله نظام الالتزام ، ومعنى الالتزام أن الحكومة كانت تملك كل أرض مصر ، وتعطى بعضها للحاكم والبعض لنفقات الجند وللسناجق ، وتطرح الباقى للمزايدة مقسمة الى أجزاء بين الراغبين فيها مقابل مبلغ محدد يدفعه فورا أو منجما من ترسو عليه المزايدة ، وفى مقابل ذلك كان الملتزم يحل محل الحكومة فى السيادة والإمارة على الأرض التى رست عليه ، فيجبى من الزراعين ما يشاء ، وكان نصيب أمراء المماليك من الالتزام عظيما ، وكان لبعضهم حق الالتزام على أرض قرية أو عدة قرى ، وكثيرا ما أصبح الالتزام حقا يتجدد للملتزم أو يرثه أبناؤه من بعده ، ومن الواضح أن حال الفلاح فى ظل الالتزام كان بؤسا وألما وشقاء (٢) .

أشهر الولاة فى هذه الفترة

يمكن القول عموما إن الولاة لم يكونوا فى مناصب يحسدون عليها ، فقد وضعوا منذ أول العهد بين شقى الرحى ، فقد كانت الاستانة تخشى استقلالهم ولا تثق بهم ثقة كاملة ، ومن هنا قيدت سلطانهم ، وحددت فترة ولايتهم ، وكان هناك الجنود ينتقصون سلطة الوالى من حين الى حين ، وهناك كذلك المماليك الذين كانت لهم سيطرة كاملة

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار ص ١٦ وما بعدها .
(٢) نفس المرجع ص ٢١ وما بعدها .

على الأقاليم ، ومن هنا لم يسجل التاريخ لأىٍّ من الولاة مكانة ممتازة ، ولم يكن همُّ أكثرهم — وقد دفعوا إتاوة كبيرة لتعيينهم — إلاّ أن يغنموا أكبر مغنم قبل أن تنسحب السلطة منهم ، وكان كثير منهم ينهبون ويختلسون ، حتى إذا أحسوا بالعزل أو الإبعاد بنوا المساجد والأربطة ليتظاهروا بالخير ولينالوا عطف الناس وربما غفران الله على ما ارتكبوا من آثـام .

وعلى العموم فاستكمالا للدراسة التى نقوم بها ينبغى أن نذكر عددا من أشهر الولاة فى هذه الفترة .

خير بك :

هو أول الولاة العثمانيين ، وقد أشرنا اليه من قبل وذكرنا أنه تولى الولاية مكافأة على خيانته ، وقد انصرف عنه الناس إبان ولايته ، وظهر ازدراؤهم له واحتقارهم للإثم الذى ارتكبه ، وقد اضطر نكاية فى المسلمين الذين انصرفوا عنه أن يقرب اليه اليهود والنصارى ، ولكن ذلك زاد من كراهية الناس له ، فراح يحاول أن يسترضى الناس بإطلاق المسجونين وتوزيع الأموال على المساكين وتشجيع المعاهد الدينية ، ولكن ذلك لم يغن عنه شيئا ، وقد ظل فى كمده حتى مات بعد خمس سنوات من ولايته ودفن فى مسجده بالتبانة بالقرب من باب الوزير بجهة الخيربكية المسماة باسمه ، ومن الملاحظ أن مدته كانت طويلة لتناسب الجهد الذى قدمه للزحف العثمانى ، ولم يلقب بالباشا وإنما ترك له اللقب الذى كان مستعملا مع المماليك وهو لقب « بك » ، وبدأ لقب الباشا مع الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية بعده .

وخير بك اشتراه قايتباى وانتقل فى الوظائف من سلطان الى سلطان حتى أصبح صاحبا للسلطان الغورى فنائبا لمدينة حلب ، حيث بدأ يحوك مؤامرة ضد سيده .

مصطفى باشا :

هو أول الولاة الذين أوفدتهم القسطنطينية ، وكان زوج أخت السلطان سليمان القانونى ، وكانت تتمثل فيه العنجهية التركية بأدق مظاهرها ، فكان لا يعرف اللغة العربية ولم يحاول تعلمها ، بل كان يظهر احتقاره للمتكلمين بها ، وكان يتعاظم على المصريين ويترفع عن التعرف عليهم .

أحمد باشا :

أهم ما ينسب الى أحمد باشا الوالى الثالث أنه حاول الاستقلال بمصر ، فأمر بضرب السكة باسمه والدعاء له فى الخطبة وقد دفع رأسه ثمنا لذلك .

سليمان باشا :

تولى سليمان باشا سنة ١٥٢٥ م ، وله اصلاحات اقتصادية وادارية ذات بال ، فهو الذى مسح الأراضى ورتب الضرائب ، وشيد كثيرا من المبانى النافعة ، وقد اشتبك فى حرب مع البرتغال تنفيذا لأمر القسطنطينية لأن سفن البرتغال اعتدت على بعض موانى البحر الأحمر ، وفى أثناء الحرب ناب عنه خسرو باشا فى ولاية مصر ، ثم عادت الولاية لسليمان باشا بعد انتهاء الحملة وظل بها حتى استدعى للآستانة ليصبح الصدر الأعظم بها .

سنان باشا :

تولى ولاية مصر مدة عامين فتح فى خلالها بلاد اليمن سنة ١٥٦٨م ، ومن منشآته مسجده ببولاق وهو من أعظم مساجد العصر العثمانى بمصر ، وقد بنى على النمط البيزنطى ، وكان محبوبا من الأهلين كثير الاصلاحات والمبرات .

مسـيح باشا :

تولى سنة ١٥٧٤ م ، واستمرت مدة ولايته ست سنوات ، وكان من أكثر الولاة عفة واسـتقامة ، وكان شـديد الحرص على نشر الأمـن وإقامة العدل •

اويس باشا :

إن أعظم حادث ينسـب لأويس باشا — هو كما ذكرنا من قبل — محاولته تجنيد المصريين وثورة الجنود العثمانيين عليه لهذا ، وفى عهده حدث زلزال ضخم انفلق بسببه جبل المقطم •

قرة مصطفى باشا :

ولى مصر سنة ١٦٢٢م ، وبدأ عهده بشدة أعادت الأمن الى نصابه ، وأخافت الجنود العثمانيين الذين دأبوا على الفتن منذ عهد أويس باشا ، ولكنه أخذ يرتكب مع الأهالى ما كان يرتكبه معهم الجنود الثائرون من سلب ونهب حتى أنه عدّ نفسه وارثا لكل الموتى أو لأكثرهم ، مما جعل الناس يضجون بالشكوى منه ، وفى عهده ظهر وباء شديد وتلته أوبئة متعددة فى العهود التى جاءت بعده ؛ فقضت على كثير من القرى بالخراب والدمار ، وأتاحت الفرصة مرة أخرى للجنود العثمانيين ليستأنفوا الفوضى التى كانت ديدنهم كلما أتيحت الفرصة وخفّ ضغط الولاة •

أشهر المماليك فى هـذه الفتـرة

من الطبيعى أن أسماء المماليك اختفت فى القرن الأول للفتح ، واتجه التاريخ الى تسجيل المظاهر العثمانية لهذا العهد ، وكان المماليك يعيشون خلف الستار ، ينظمون أنفسهم ويعدون قوتهم للبروز من جديد ، وقبيل نهاية القرن السابع عشر ، أخذوا يبرزون للحياة العامـة ويلعبون دورا

فيها ، ذلك الدور الذى أكمله على بك الكبير كما سنرى عند دراسة الفترة التالية .

والآن نعطى صورة سريعة لأمراء المماليك الذين برزوا فى هذه الفترة العثمانية التى نحكى الآن قصتها .

الأمير إيواز بك :

اسمه العربى كما يقول الجبرتى « عوض » وحرّفته اللغة التركية التى ليس بها حرفا العين والضاد الى إيواز ، وقد تولى منصب شيخ البلد سنة ١٦٩٥ م ، وقد ظهرت شهرته على إثر انتصاره فى مكافحة الفوضى التى أثارها بعض الأعراب بالوجه القبلى ، ثم انتدبته الآستانة لمحاربة والى الحجاز وهو أحد الأشراف الثائرين على سلطان القسطنطينية ، فقاتلهم وانتصر عليهم ، ولما عاد كبر شأنه وعلا صيته فنفس عليه بقية المماليك هذه المكانة ، فاحتالوا عليه حتى قتلوه ، ومن مماليكه الأمير محمد بك جركس الذى سنتكلم عنه فيما يلى :

محمد بك جركس :

ظهرت كفاءته قبيل موت سيده الأمير إيواز ، وفى سنة ١٧١٦م قاد فيلقا من الجنود لمساعدة الدولة العثمانية فى حروبها بأوربا ، ولما عاد بعد سنتين كان سيده قتل ، ولم يقنع الأمير جركس بابن سيده إسماعيل بك وثار عليه ، ولكن هذا انتصر على جركس وقبض عليه ونفاه من مصر ، بيد أن جركس استطاع أن يدخل البلاد متنكرا ، كما استطاع بمعاونة أصدقائه أن يغتالوا إسماعيل بك ، وبذلك خلا الجو لجركس .

ويقول الجبرتى عنه إنه كان عسوفا جبارا سار فى الناس أسوأ سيرة ، وكان له أتباع على شاكلته ، يأخذون ما يحبون من الباعة بغير

ثمن ومَنْ امتنع منهم قتلوه ، ويخطفون النساء والأبنـاء ، ويدخلون حوانيت التجار ثم لا ينصرفون حتى ينالوا ما يريدون .

واشتد الخلاف بين الوالى وبين الأمير جركس ، وحاول كل منهما أن يضم الى جانبه العلماء ، قادة الشعب بالإغراء أو التهديد ، وظهر من بين الأمراء الفقارية أمير اسمه عثمان بك ذو الفقار ، فقاتل جركس قتالا طويلا واستطاع فى النهاية أن يحيط به من كل جانب فسقط جركس فى النيل ومات ، واسترسل الفقاريون فى التنكيل بالقاسميين الذين كان جركس ينتسب لهم فقتلوا منهم الألوف وكان ذلك سنة ١٧٢٩ م .

عثمان بك ذو الفقار :

لقد ظهر فى أفق القاهرة خلال حكم الإرهاب الذى نشره جركس بك القاسمى طائفة من الأمراء الفقارية ، وكان سيد الموقف فيهم عثمان بك ذو الفقار الذى تولى الإمارة سنة ١٧٢٥ .

وكان عثمان بك طاهر اليد واللسان ، كريما عادلا ، أنصف المظلومين وجعل للفصل فى خصومات النساء ديوانا خاصا ، وكانت أحكامه وفقا للشريعة الاسلامية ، وكان يباشر الحسبة بنفسه ، واختفت الرشوة فى عهده أو قلت بعد أن كانت عملا شائعا قبله ، ولم يصادر أحدا فى ماله ، ولا أخذ إتاوة على ميراث كما كان يفعل غيره من أمراء المماليك والعثمانيين .

وحولت السلطة بالآستانة لحسابه إيراد بعض الأوقاف التى كانت وقفا على الفقراء ، ولكن عثمان بك نفر من هذا وقال عن هذه الموارد إنها دموع الفقراء ، ولا تقبلها نفسى ، واتخذ عثمان بك من أهل العلم والفضل جلساءه ومعاونيه ، ويقول الجبرتى انه أول من دعا الباشا الوالى الى وليمة بقصره الخاص ، وكان الأمراء قبله يـدعون الوالى الى ولائمهم بقصور الحكومة .

ومع هذه الفضائل حسده المماليك وتجمعوا ضده ، فآثر أن يدع مصر الى الآستانة ليقضي بها بقية عمره ، وفي سنة ١٧٤٤ غادر مصر الى القسطنطينية وقد امتد به العمر هناك فمات بعد ثلاثين عاما ، ويقول الجبرتي ان خروجه من البلاد أصبح تاريخا لمعاصريه ، يؤرخون به أحداثهم وأخبارهم (١) •

رضوان بك كتخذا :

كان رضوان بك صنوا للأمير عثمان ورفيقا له في صباه ، وقد أعانه عثمان بك بجاهه حتى جعله كتخذا الوالي ، وعرف رضوان بك ذلك الجميل لعثمان بك فترك له رتبة الرياسة وقنع بالقصور والترف ووظيفته الجديدة • وكان من أجمل قصوره قصره الذي كان يشرف على بركة الأزبكية ، وقد أباح للناس دخول حدائقه ، والاستمتاع بمفاتنها ، وكان هذا الأمير كريما سخيا سمحا ، مدحه شعراء مصر فكان منهم ندماؤه وجلساؤه •

عبد الرحمن كتخذا :

يعتبر عبد الرحمن كتخذا صنيعة من صنائع عثمان بك ذو الفقار ، فمع أن عبد الرحمن كان ينحدر من معدن عريق ، إذ كان أبوه سيدا للامراء المعاصرين له ، لكن ثراء الأب وجاهه استولى عليهما أحد عتقائه واسمه سليمان بك ، وعاش عبد الرحمن في ضيق من العيش حتى سنة ١٧٣٩م ، حيث استطاع عثمان بك ذو الفقار أن يرد له ما سلب من أموال أبيه منتهزا فرصة موت سليمان بك ، وبسبب هذه المساعدة أصبح عبد الرحمن أحد أعوان عثمان بك ذو الفقار •

ولعبد الرحمن كتخذا مآثر عظيمة إذ ينسب له إنشاء عدد كبير من

---

(١) الجبرتي : عجائب الاثار ص ٢٩ — ٣٠ •

المساجد وتجديد عدد آخر ، كما ينسب له إنشاء كثير من الملاجىء ومكاتب التعليم والزوايا • وهو الذى بنى المشهد الحسينى ومسجده والمشهد الزينبى ومشهد السيدة نفيسة ، وأضاف الى بناء الجامع الأزهر زيادة كبيرة من ممتلكاته •

صالح بك القاسمى :

أحد الأمراء القاسمية كان عظيما سيدا سليم الصدر لا يحب الأذى ، وقد عاش فى عصر واحد مع على بك الكبير ، ولذلك جرت بينهما أحداث ستكون موضع حديثنا فى الفترة التالية وهى فترة الاستقلال •

أشهر الأحداث فى هذه الفترة

لقد رأينا فيما سبق بعض صور الاضطراب والفوضى بين جماعتى المماليك ، القاسمية والفقارية ، ويبرز لنا الجبرتى مصدرا آخر من مصادر النفوذ فى هذا العهد الذى تعددت مصادر النفوذ فيه وسببت الاضطراب والفوضى ، وذلك المصدر الجديد هو بعض القبائل العربية التى كانت موجودة فى مصر ، وبخاصة عرب الهوارة بالوجه القبلى وبنو حبيب بالوجه البحرى ، وكان زعيم الهوارة هو همام بن يوسف ، وقد اتخذ عاصمته قرية فرشوط إحدى قرى مركز نجع حمادى ، وامتد نفوذه على باقى القبائل التى كانت تعيش فى مصر من أسوان الى بنى سويف ، وقد تحالف هذا الزعيم مع الأمراء القاسمية الذين يتزعمهم صالح بك القاسمى ، وقد سلك همام بن يوسف مسلك زعماء المماليك فى شرائه مماليك لحسابه وتدريبهم وتجنيدهم لحمايته ، حتى أصبح واسع البأس مرهوب الجانب ، فنافس بذلك المماليك ، ولكن سماحة العرب وجودهم كانا بارزين فى خلقه •

أما زعيم بنى حبيب فهو الشيخ سويلم بن حبيب ، وقد اتخذ بلدة

دجوة بمديرية القليوبية مركزا له ، وكان له السلطان على كثير من مناطق الوجه البحرى وبخاصة على مديريتى القليوبية والشرقية ، وكانت لـــه سيطرة على فرعى النيل من بولاق الى رشيد ودمياط ، وكان له بالنيل مراكب تسمى الخراجات عليها رجـــال علاظ شداد يجبون باسمه مـــن السفن الصاعدة والهابطة ما يفرضون من ضرائب وإتاوات .

٣ — الفترة المملوكية (١٧٦٣ — ١٨٠٥)

لماذا سُميت مملوكية ؟

أطلقنا على هذه الفترة « الفترة المملوكية » إذ بدأنا نرى فيها أمراء المماليك يفوق سلطانهم سلطان الولاة ، وقد بدأ هذه السياسة على بك الكبير الذى لم يكتف بالتمرد على سلطان العثمانيين ، بل راح يرسل قواده للتعمق فى بلاد الدولة العثمانية ، ومنذ ذلك العهد أصبح الولاة يخافون المماليك ويخضعون لسلطانهم ، فمراد بك كان يصعد الى القلعة ليُملىَ على الوالى ما يشاء بل كانوا يعزلون الوالى أحيانا ، وطالما كانت القسطنطينية توافقهم على ذلك وترسل لهم واليا جديدا ، ولا شك أن مثل هذا الوالى الجديد كان لابد أن يسير فى الطريق الذى يرسمه المماليك وإلا كان نصيبه العزل كسلفه .

وشهد هذا العصر مظهراً آخر من سلطان المماليك ، ذاك هو منعهم الجزية السنوية التى كانت تُحمَل إلى القسطنطينية ، ثم إنهم كثيرا ما صرحوا بأن البلاد بلادهم وأن العثمانيين دخلاء عليهم .

وجاءت الحملة الفرنسية فى أخريات هذه الفترة ، وكان من أهدافها القضاء على المماليك ، ولكن الحملة فشلت ، وعاد السلطان مرة أخرى الى المماليك .

وقد اضطر العثمانيون الى اعادة غزو مصر لاسترداد سلطانهم ، وخاصة عندما توقف إرسال الجزية السنوية . وقد قابلهم المماليك يدفعونهم بالقوة ، صحيح أنهم انهزموا ولكن مواجهتهم القوة بالقوة تضعهم ، لا فى موقف التابع كما كانوا من قبل ، بل فى موقف المنافس وصاحب الحق ، ولما خرج الجيش العثمانى بعد هذه الجولة ليشترك فى الحرب ضد روسيا عاد المماليك يستأنفون سلطانهم مرة أخرى .

من أجل ذلك أطلقنا على هذه الفترة « الفترة المملوكية » وتبدأ هذه الفترة بعلى بك الكبير الذى آن لنا أن نتحدث عنه .

على بك الكبير :

قبل الحديث عن على بك الكبير يجدر بنا أن نذكر لمحة عن الحقبة التى سبقته والتى مهدت الطريق اليه ليصل الى السلطة ، ففى سنة ١٧٤٥م كان على رأس المماليك ابراهيم بك ورضوان بك وينتميان الى المماليك الفقارية ، وكان النفوذ فى مصر قد أصبح فى أيدى المماليك ، فــدبرت الآستانة مؤامرة يمكن أن تسمى بالسهم الأخــير فى جعبتها ، تلك هى إرسال والٍ عُرِف بالشجاعة والكياسة للقضاء عــلى المماليك بطــريق التآمر ، وقد اختير لهذا العمل محمد راغب باشا ، الذى شغل منصب الصدارة العظمى فى بلاده فترة من الزمن ، واستطاع راغب باشا فعلا أن يقضى على عدد كبير من المماليك ، ولكن ابراهيم بك ورضوان بك أدركا ما يراد بهما وبذويهما ، فثاروا على الوالى وحاصروه وعزلوه ، وأمسك المماليك بالسلطة علانية ولم يَعُد للوالى بعد ذلك أى نفوذ ، وابراهيم بك هو أستاذ على بك الكبير ومربيه ، فلما مات ابراهيم سنة ١٧٥٥ م وتلاه نده رضوان بك فى نفس العام بدأ على بك يظهر مع طبقته من الأمراء الذين جاءوا بعد هذين الزعيمين •

وعندما أصبح على بك الكبير فى الطبقة الأولى بين مماليك مصر ، كانت الأحوال بالبلاد قد ساءت الى أبعد حد ، فالخصومة بين زعمــاء المماليك شديدة ، وزعماء القبائل العربية يكوّنون بمصر دولا داخل الدولة ، وقطاع الطريق منتشرون هنا وهناك ، والرّشوة سائدة بين الموظفين ورجال الحسبة ، ولعل هذه الأحداث هى التى صبغت على بك بالصبغة القاسية التى سنراها واضحة فيه •

وكان على بك كما يقول الجبرتى شديد المراس قوى الشكيمة ، عظيم الهمة ، لا يحب اللهو ولا المزاح ، ولا يعرف إلاّ الجد ، ويُرْوى أنه جرت مشاورة لتقليده مشــيخة البلد ، فزكاه بعض المماليك وعــارض آخرون ، ولما بلغه الأمر صاح قائلا : إنى لا أتقلد الإمارة إلاّ بسيفى ،

ولا أرضى العون من غيرى ، وظل يعمل مع عبد الرحمن كتخذا وتظاهر بحبه والاخلاص له ، فاعتز به عبد الرحمن وركن اليه وجمع عليه قلوب الأمراء ، فخلع عليه الباشا الوالى خلعة الرياسة ومشيخة البلد ، وكان ذلك سنة ١١٧٧هـ = ١٧٦١م ، وكان على بك عظيم الهيبة متوقد الذكاء حادق الفراسة كثير القراءة لكتب التاريخ وسير الملوك ، وكان يرى فى العثمانيين مغتصبين ، وأن السلطة ينبغى أن تعود لأصحابها الشرعيين « المماليك فى رأيه » .

وقد بدأ على بك نضاله فأوقع بقطاع الطريق والمفسدين ، وقطع دابرهم ، وعرج على الموظفين الذين يقبلون الرشاوى ، فأنزل بهم أقسى العقاب ، وراح للعابثين بالأمن والمستهترين يضربهم بيد لا ترحم .

وكان فى أثناء ذلك يكثر شراء المماليك وتربيتهم ، حتى أصبح لــه بهم جاه عظيم ، وكان فى قمتهم مملوكه الكبير محمد أبو الذهب ، فانبرى بسلطانه وبأتباعه يضرب بقسوة كل من يقف فى طريقه ، ويصادر ما احتاج له من مال ليقوّىَ نفسه ، ويعدّ جنده ، ولما وصل الى غاية عظمى فى القوة والبأس ، انبرى الى أعدائه الكبار من زعماء المماليك وأخذ يضربهم الواحد بعد الآخر ؛ يستصفى أموالهم ويقتلهم أو ينفيهم ويرد على رجاله ما كان بأيدى هؤلاء من الأموال ، بل وصل به أن أوقع بسيده عبد الرحمن كتخذا فنفاه الى الحجاز ، وقد بقى هذا فى منفــاه اثنى عشر عاما ولم يرجع الا وهو حطام لم يلبث أن مات ، وكان كبير المماليك القاسمية يدعى صالح بك القاسمى ، وكان على بك يضمر له السوء ، فلما نَفَى عبد الرحمن كتخذا أمر القاسمىّ أن يشيعه الى منفاه ، فلما خرج صالح بك يشيع عبد الرحمن كتخذا أرسل على بك فى أعقابه أمرا ثانيا بنفى صالح بك الى غزة ، ولكن صالح بك استطاع أن يفر والتف حوله أبناء شيعته ، وفى الوقت نفسه تخلى أتباع على بك عنه وحاولوا القضاء عليه ، ولكن على بــك فرّ منهم ولجأ الى عدوه السابق صالح بــك وطلب حمايته ، وأعطاه المواثيق على الود والاخلاص ، فصدقه صالح بك القاسمى ،

وساعده حتى استعاد مكانته ، وحينئذ أخذ يقتل أولئك الذين تخلوا عنه ، وأسرف فيهم قتلا وخنقا بلا رحمة ولا شفقة ، ووصل الى قمة جحوده إذ أسرع وتآمر ضد صالح بك الذى حماه وخرّ صالح قتيلا بسيوف أتباع على بك (١) .

ولم يسلم شيوخ العرب من فتك على بك الكبير ، فقد قَتَلَ شيخ الحبايبة ونهب أمواله وخرّب دياره ، وقتل شيخ الهوارة وخرّب عاصمته وبدّد أعوانه .

وبهذا دانت له البلاد من أسوان الى الاسكندرية ، ولم يعد فى مصر من ينافسه ، ودفعه ذلك الى أن يتجه صوب سوريا عقابا لواليها عثمان بك العظم الذى أفسح صدره للمماليك الفارين من على بك وقسوته ، وقد سار فى غزْوه حتى وصل حلب ، بل أمر قواده أن يتقدموا الى الأرض العثمانية فاتحين ، وبسبب هذه الانتصارات مُنِحَ لقب الكبير فأصبح يسمى على بك الكبير .

ويبدو أن أكثر قواده ملّوا القتال وسفك الدماء ، فاتفقوا على مخالفة سيدهم ، وفى مقدمتهم ربيبه وزوج ابنته محمد أبو الذهب ، وأيدت القسطنطينية هؤلاء الخارجين ، وأمدتهم بالمال والسلاح ، فانتصروا على على بك وألقوا القبض عليه على الرغم من مساعدة ظاهر العمر حاكم الشام وحليف على بك الكبير ، وعلى الرغم من مساعدة الروس الذين كانوا يؤيدون الثوار ضد الحكم العثمانى ، وكانت معركة الصالحية هى المعركة الفاصلة بين على بك والثائرين عليه ، وفيها سقط على بك جريحا ، وحمل الى منزله حيث مات بعد عدة أيام سنة ١١٨٧م = ١٧٧٢م ، وخلا

---

(١) أنف أحد أتباع على بك من أن يشترك فى هذه الخيانة وهرب الى الشام خوفا من سيده وسنراه فيما بعد واليا لعكا ومدافعا عنها ضد هجمات نابليون ، وهو أحمد باشا الجزار .

الجو لمحمد بك أبو الذهب وقد استطاع هذا أن يستصدر أمرا من الآستانة بمحاربة ظاهر العمر عقابا له على تأييده لعلى بك ، ولما صدر له هذا الأمر فتحت له بلاد الشام البلدة تلو البلدة دون عناء كبير ، ولكن أيام أبى الذهب كانت قصيرة فقد مات سنة ١٧٧٥ وأسلم موته البلاد الى خلاف مرير •

من أبى الذهب الى الحملة الفرنسية :

بعد موت محمد بك أبو الذهب برز فى مصر ثالوث من المماليك هو : إسماعيل بك ، وابراهيم بك ، ومراد بك ، وقد طمع اسماعيل بك فى أن تكون السيادة فى يده لأنه أقدم الثلاثة ، وأقواهم علاقة بعلى بك الكبير ومحمد بك بو الذهب ، ولكن اتحاد ابراهيم بك ومراد بك أبعده عن السيادة وضمنها لهما ، واعتكف اسماعيل كأنه يعتزل السياسة ، ولكن كثيرا من المماليك الساخطين التفوا حوله ، وأدرك مراد بك ذلك فدبر مؤامرة للقضاء عليه ولكن اسماعيل فر من المؤامرة ، ثم عاد يقود جيشا كبيرا اقتحم به القاهرة واستولى على السلطان ، ولكن أحد أتباعه واسمه حسن الجداوى خانه وهو فى أوج انتصاره وانضم الى خصومه ، فهرب اسماعيل الى الشام وآل السلطان الى ابراهيم ومراد بك مرة أخرى ، وعاشت مصر فترة مليئة بالنكبات والآلام فقد كان مراد بك غسوفا ظالما محبا للمال مبغضا للعدالة ، يقتل ويصادر وينهب ويعذب من لحظة الى لحظة ، وقست الطبيعة على الشعب كما قسا عليه الأمراء فاجتاحت الأوبئة البلاد وهبط منسوب النيل واشتدت المجاعة •

ولم يجد الناس ملجأ من هذا العسف الا العلماء ، دقوا أبوابهم واستعانوا بهم لرد الظلم عنهم ، ومن أبرز علماء هذا العصر الشيخ عبد الله الشرقاوى ، والشيخ أحمد العروسى شيخ الأزهر والبكرى

نقيب الأشراف ، والشيخ أحمد الدرديرى من كبار العلماء ، وكان هؤلاء يحاولون — دون جدوى ايقاف تيار الظلم والطغيان •

وتعالت صيحات الشعب واتجه بهتافه نحو الاستانة ، ولكن هذه كانت فى شغل عنهم ، بيد أن الجزية المقررة لم تصل الى الاستانة منتظمة ، وهنا فقط تحركت وأرسلت بعض الكتائب البحرية بقيادة القبطان حسن باشا الى الاسكندرية وفرح الناس ظانين أنها حملة انقاذ وسلامة ، وتظاهرت الحملة بذلك فى بادىء الأمر ، فأصدر حسن باشا منشورات قال فيها •

— لا تخشوا شيئا فان أول ما أوصانى مولاى السلطان أوصانى بالرعية •

— كيف ترضون أن يملككم مملوكان كافران وتقبلونهما حكاما عليكم يسومونكم العذاب والظلم •

وأحسن الناس استقبال الحملة ، ولكن الحملة التى جاءت لرفع الظلم أنزلت مزيدا من الظلم بالناس ، فقد انتشر الجنود ينهبون ويسلبون ، وصادر حسن باشا أموال المماليك ونساءهم وذويهم وراح يبيعهم فى الأسواق ، ولم يكتف حسن باشا بما صادر من أموال المماليك ، بل راح يفرض الضرائب الباهظة ويجبى الأموال بكثرة ، فضج الناس منه وعلا صراخهم ، ولم تطل إقامته فى مصر على أى حال ، فقد اشتبك العثمانيون فى حرب مع روسيا ، فاستدعى حسن باشا وفيلقه للاشتراك فى هذه المعمعة الكبرى ، فغادر مصر بعد أن عيّن اسماعيل بك شيخا للبلد والجداوى أميرا للحج ، وعاد الصراع غير المباشر بين اسماعيل من جهة وبين ابراهيم ومراد من جهة أخرى ، ولكن الطاعون الكبير الذى اجتاح البلاد سنة ١٧٩١ التَهَمَ اسماعيل بك فيمن التهم ، وكان ابراهيم

بك ومراد بك يتربصان فى الصعيد ، وظن علماء مصر ومعهم السيد عمر مكرم أن المملوكين قد تهذبت أخلاقهما ، فأوفدوا السيد عمر مكرم لاستدعائهما الى القاهرة ، ولكن هذين جاءوا الى القاهرة ليستأنفا حياة القوة وابتزاز الأموال من جديد ، وكان الشعب يثور ولكن الثورة كانت تخمد بالقوة ، أو بالسياسة وظلت هذه الفترة على أى حال « فترة مملوكية » ، وبقيت مصر فى هذا العناء ، ثم جاءت الحملة الفرنسية التى تستحق عملا يكاد يكون مستقلا وسنقوم به فيما يلى :

الحملة الفرنسية

مقدمة :

يعتقد بعض الباحثين أن الحملة الفرنسية استمرار للحروب الصليبية التى سيأتى ذكرها والتى تعد مشروعا فرنسيا ، وكان طابع الانتصارات فيها طابعا فرنسيا ، ومنذ فشلت الحروب الصليبية ظل الفرنسيون يتطلعون الى مصر لموقعها الاستراتيجى من جانب ، ولثرائها من جانب آخر ، ثم ليوضع فى يد فرنسا مصير الدول الأوربية التى كونت امبراطوريات شرق السويس كبريطانيا فى الهند وهولندا والبرتغال فى الشرق الأقصى ، وهناك سبب رابع ينبغى أن نذكره هنا ، وهو اضطراب السلطة فى مصر وضعف جيشها ، مما أوحى للفرنسيين أن فتح مصر لن يأخذ منهم جهدا كبيرا ، وتنفيذا لهذه الأسباب فكر لويس الرابع عشر سنة ١٦٧٢ م فى غزو مصر ولكنه عدل عن هذه الفكرة إبقاء على علاقاته بتركيا ، وفى عهد لويس السادس عشر كتب سفير فرنسا بالأستانة سنة ١٨٧١ يحث حكومته على فتح مصر ، وكان مما جاء فى رسالته قوله : « إن جيش مصر ضئيل ، والجنود لم يقفوا فى ميدان حرب منظمة ، وليس لديهم مدفع واحد » •

وهكذا كان هناك تدبير قديم لترحف فرنسا لاحتلال مصر ، وقد رأى نابليون أن يحقق أمل فرنسا فى هذا المضمار ، فأعد العدة لهذا الزحف الذى كان يقصد استعمار مصر أولا ، ويقصد ثانيا السيطرة على الطريق الذى يصل بين دول أوربا ومستعمراتها فى الشرق الأقصى ، حتى تكون هذه الدول تحت رحمته •

إعداد الحملة :

تولى قيادة الحملة نابليون بونابرت أنبغ قواد العصر الحديث ، وكانت تتألف من ٣٦ ألف جندى ، ومن عدة سفن حربية ، وصحب نابليون

معه عددا من الضباط الأكفاء ، وطائفة من العلماء المتخصصين فى مختلف العلوم والفنون ؛ من تاريخ واثار ومن هندسة وطب وكيمياء وغيرها .

سير الحملة وانتصاراتها الأولى :

وأبحرت الحملة من ميناء طولون الفرنسية فى ١٩ مايو سنة ١٧٩٨ ووصلت الى ميناء الاسكندرية فى أول يوليو من العام نفسه بعد أن استولت على جزيرة مالطة فى الطريق ، ولما أحس السيد محمد كريم حاكم الاسكندرية بالخطر أرسل يخبر ابراهيم بك ومراد بك ويطلب مساعدات حربية ، وتقدمت الحملة تجاه الاسكندرية فاحتلتها على الرغم من المقاومة العنيفة التى أبرزها السكان بقيادة حاكمها البطل ، وسنتحدث عن محمد كريم بعد قليل .

وعقب احتلال الاسكندرية تقدمت الحملة تجاه القاهرة ، ولما وصلت « دمنهور » واجهت استعدادا سلبيا وايجابيا من السكان سنشير اليه عند حديثنا عن محمد كريم بعد قليل ، وقد اضطرت الحملة لذلك أن تعود الى الاسكندرية لمزيد من الاستعداد .

وتقدم نابليون للقاهرة بعد ذلك فوقعت أولى المعارك عند شبراخيت بين الفرنسيين والمماليك بقيادة مراد بك ، ولكن المماليك لم يستطيعوا الثبات أمام المدفعية الفرنسية ، فانسحبوا تجاه القاهرة .

وعند امبابة وقعت الموقعة الثانية ، وفيها أبدى المماليك والمصريون الذين كانوا معهم بسالة وشجاعة أدهشت الفرنسيين ، ولكن ذلك لم يغْنِ شيئا أمام الأسلحة الفتاكة الحديثة .

محمد كريم ونضاله ونهايته :

أشرنا آنفا الى مقاومة محمد كريم حاكم الاسكندرية للحملة الفرنسية ، ومن حق هذا الرجل علينا أن نبرز جهوده فى هذا المجال ، فهو أسوة طيبة للمكافحين المخلصين .

ويقرر التاريخ أن محمد كريم عندما أحسّ باتجاه الاسطول الفرنسى الى الاسكندرية ، قام بتحصين المدينة بقدر ما وسعته الحيلة ، ولما قرب الاسطول من المدينة دافع عنها دفاعا مستميتا من قلعة قايتباى ، وعندما دخلت الحملة الاسكندرية جمع محمد كريم القوى الوطنية حوله ، حتى أدخل القلق فى حياة المعتدين بسبب الهجمات المتتالية التى تعرضوا لها منه ومن رجاله ، ورفض تسليم المدينة ، وقاوم المعتدين حتى آخر سهم فى كنانته .

وقد قبض عليه نابليون ، ولكنه سرعان ما أطلقه ليخدعه بذلك ، وليجذبه ويجذب المصريين للترحيب بالحملة والتعاون معها ، ولكن محمد كريم انطلق يحرض أهل البلاد على المقاومة ، ويحثهم على عدم التعاون مع الفرنسيين ، ومنع الماء والدواب عنهم ، ومواجهتهم بالحرب والمقاومة فى كل مكان ، ومضى يكتّل الشباب سرا ويدفعه الى حمل السلاح والتصدى للفرنسيين فى كمين وكمين للإدالة بهم ، ولم يدّخر فى سبيل ذلك وسعا ، ووضع ماله كله فى سبيل هذه الغاية ، ولم يعرف الراحة ، وظل يعمل جاهدا على إقلاق هؤلاء المحتلين وتنغيص اقامتهم ، وتمزيق كل جبهة يحاولون إقامتها .

ولم يقف الأمر عند هذا ، بل تزعم حركة واسعة فى سبيل المقاومة السلبية عندما عول نابليون على احتلال « دمنهور » إذ سرعان ما اختفت دواب الحمل وقِرَبُ الماء ولم يجد الفرنسيون رجلا واحدا يعاونهم ، أو يقدم لهم شيئا ، وقد أشرنا لذلك من قبل .

وكان من نصيب هذه الحملة الهزيمة المحققة والعودة من منتصف الطريق ، وقد وصف الجزال « ديموى » ما لقيه هو وكتيبته من المشقة ، ووصف الخسائر التى لحقتها وكيف نال ذلك من هيبة الجيش الفرنسى فى الاسكندرية .

قال ديموى : لقد منعوا تزويد الكتائب بالماء ، وهرّبوا الجمال

لكيلا يستعين بها الفرنسيون ، ولقيت القافلة عنتا ومشقة بعملهم هذا •

ولم يجد نابليون بدا من اعادة اعتقال البطل محمد كريم ، فقبض عليه فى ٢٠ يوليو وحكم عليه بالاعدام ، إلاّ أن يفتدى نفسه بفدية مالية ، ولكنه رفض أن يدفع الفدية مع امكان ذلك ، ورفض أن يجمعها الشعب له ، وقال : إن دمه سيكون معولاً يقوّض قوة المحتل الأثيم •

وعندما سيق الى المقصلة كان يهتف بالشعب قائلا : قاوموا : اليوم بى ، وغدا بكم ، ونُفّذ فيه حكم الاعدام فى السادس من سبتمبر سنة ١٧٩٨ (١) •

بيان نابليون :

دخل نابليون القاهرة عقب انتصاره فى موقعة إمبابة ، واتجه بعد ذلك لتثبيت سلطانه ، فأصدر بيانه الذى أراد به خداع المصريين وتهدئتهم ، وفيه أبرز أن اتجاهه الحقيقى هو القضاء على المماليك الذين كان يعتقد أنهم غرباء عن مصر وأن المصريين يسعدون بطردهم •

وقد أورد الجبرتى نص البيان كاملا ، وأهم النقاط التى وردت فيه هى :

١ — إدعاؤه الايمان بالله وبقرآنه وبنبيّه •

٢ — إدعاؤه الوفاق مع السلاطين العثمانيين والتقدير لهم حتى لا يستجلب سخطهم •

٣ — إغراؤه المصريين بالالتفاف حوله لينالوا المراكز السامية والمراتب الرفيعة •

٤ — إنذار من تسول له نفسه معارضة الفرنسيين •

---

(١) انظر ما كتبه عنه الاستاذ أنور الجندى فى كتابه « من أعلام الحرية فى العصر الحديث » .

٥ — يبرز البيان أن المماليك درجوا على اضطهاد الرعايا الفرنسيين والتنكيل بهم ، وتعويق تجارتهم ٠

٦ — ويبرز البيان كذلك فساد المماليك وانحرافاتهم وأن الحملة جاءت لإنقاذ البلاد منهم ٠

٧ — وبالبيان نقطة دقيقة يجدر بنا أن نوردها فى نصها ، يقول البيان :

خبرونى بالله عن الميزة التى تفرد بها المماليك عن بقية الناس حتى اختصوا بملك مصر وحدهم ، ونعموا دون سائر الخلق بمحاسنها من الجوارى الغانيات والخيل المسومة والقصور العالية ٠

وكأن نابليون يريد بذلك منافسة المماليك أو أن يحل محلهم لينعم بما فى مصر من محاسن ٠

سياسة نابليون فى مصر وإنشاء الديوان والمجمع :

ظن نابليون أن انتصاره فى موقعة إمبابة وضع حداً لمقاومة المماليك والمصريين ، فأخذ يتجه لبعض الأعمال التى توحى بالاستقرار ، فاتجه لاسترضاء الباب العالى والاتصال به مع ابداء الود والاحترام ، ثم اتجه الى المصريين يسترضيهم ويجذبهم نحوه ، فأنشأ الديوان ، وكان الديوان يمثل حكومة أهلية فى مصر وأعضاؤه تسعة يختارون بالانتخاب ، وقد اختير له المشايخ : الشرقاوى والبكرى والصاوى والفيومى والعريشى والسرسى والسادات ومحمد الأمير والسيد عمر مكرم ٠

وأعلن نابليون أن من سلطات هذا الديوان تعيين رؤساء البوليس والاشراف على الأسواق وبعض التنظيمات الاجتماعية ٠

وأنشأ نابليون بجانب الديوان المجتمع العلمى ليقوم بالأبحاث الصناعية والطبيعية والتاريخية التى ترتبط بمصر ، وجعل له أربع لجان للرياضة ، والاقتصاد السياسى ، والآداب ، والفنون ٠

وأمر برسم خرائط لمصر وللنيل ولفروعه ، وأنشأ مطبعة عربية وفرنسية ، وأصدر صحيفة فرنسية ، واهتم المجتمع بإنشاء المحاجر الصحية ، ومنع دفن الموتى فى المنازل والمساجد ...

والذى يتابع هذه الأعمال من نابليون فى ذلك الوقت المبكر يدرك أنه كان متفائلا ، وأنه ظن أن الأمور قد استقرت له ولكن ذلك كان شيئا بعيد المنال ، فان المصريين لم يكونوا يقبلون أن تحتل بلادهم جماعة من « الكفار » ولذلك وقفوا موقف المتربص .

أحداث المقاومة وجوانبها

ونتوقف الآن لنتابع التحركات التى أحاطت بالحملة الفرنسية ولنشرح نتائجها :

أولا — المماليك وحرب العصابات ضد الحملة :

اتضح للمماليك أن الجيش الفرنسى يملك من الأسلحة ما لا يملكون وأن مواجهته المباشرة ستكون شديدة الضرر بهم وبأتباعهم ، لأن الفرنسيين يستطيعون ضرب التجمع المصرى بما فى أيديهم من أسلحة جديدة ، ومن هنا فقد اتجه المماليك الى خطة جديدة كان واضحا أنهم يستطيعون بها أن يتغلبوا على القوة الفرنسية وهذه الخطة هى الاعتماد على حرب العصابات التى لا يمكن أن ينتصر فيها الفرنسيون لأنهم لا يستطيعون تجزئة حملتهم الى فرق كثيرة تتابع العصابات المصرية المملوكية .

ونفذ المماليك هذه الفكرة ، وقسموا أنفسهم الى عصابات كثيرة غمرت القطر كله تقريبا ، وانضم لهم عدد هائل من المصريين لمكافحة « الكفار » الذين اقتحموا البلاد ، وقد أنزلت هذه العصابات بالفرنسيين هزائم متعددة ، وهذا المعنى هو ما قصده الأستاذ اسماعيل عبد الله فى بحثه عن « الجوانب العسكرية للحملة الفرنسية » ، وهو فى ذلك يقول :

إن مهارة المماليك وقدراتهم القيادية ، وثقافتهم العسكرية مكنتهم من التغلب على نقص التسليح كماً ونوعاً وقلة عدده بالقياس الى عدوهم ، فاستخدموا حرب العصابات فى المدن لتفتيت قوة نابليون الذى كان يعتمد على الضربة المكثفة التى تثير الذعر وتدعو للاستسلام ، وهى التى اتبعها فى معركة إمبابة ، وقد استطاع المماليك أن يكتشفوا أسلوبه ، ولم يمكنوه من تكرار هذه الضربة بعد ذلك ، كما كانوا على درجة عالية من التنظيم فى معاركهم ، وأكبر دليل على ذلك اخلاء كثير من المدن أمام الغازى .

ويقرر الأستاذ اسماعيل عبد الله أن ما أشيع من طعون فى المماليك لم يكن الا من اختلاق الحملة لاضعاف المقاومة المصرية ، واحداث خلافات بين أبطالها أو إحداث نوع من عدم الثقة بين المصريين والمماليك .

وقد أستمرت حرب العصابات حتى انتهت الحملة ، وخلال هذه الحملة أدرك المصريون براعة الدور الذى قام به أكثر المماليك ، ولذلك اتجهوا لإعادتهم للقاهرة عقب جلاء الفرنسيين كما سنرى فيما بعد .

ثانيا — موقعة أبى قير البحرية (أغسطس سنة ١٧٩٨) :

قلنا آنفا إن الحملة الفرنسية وصلت الاسكندرية فى يوليو سنة ١٧٩٨ وقد كان الأسطول الانجليزى يتابع من بُعْدٍ تحركات الأسطول الفرنسى منذ أبحر من ميناء طولون ، وكان نلسن يقود الأسطول الانجليزى فى البحر المتوسط ، فلما أدرك هدف الأسطول الفرنسى تركه فترة من الزمن حتى تعمق نابليون فى مصر بجنوده وأحس بحارة الأسطول بالأمن على الساحل ، وبحينئذ تقدم نلسن البحار ذو المواهب الفذة وحاصر الأسطول الفرنسى فى خليج أبى قير ، ودارت بين الأسطولين معركة أحالت البحر الى جحيم متقد ، وقد بدأت المعركة فى الساعة الثالثة بعد الظهر من أول أغسطس ، وفى الساعة الثامنة أصيب بروديس قائد الأسطول الفرنسى بقنبلة قضت عليه ، وفى منتصف الليل كان الأسطول الفرنسى

حطاما ، ولم ينج منه إلا ما أسره الانجليز أو سفن قليلة فرّت الى مالطة .

وكانت نتائج موقعة أبى قير البحرية عميقة،فقد وضعت الأساس لانهيار آمال الفرنسيين فى اقامة امبراطورية فى الشرق ، وعزلت جنودهم بمصر عن بلادهم ، وقضت بالتفوق المطلق للأسطول الانجليزى على سواه ، ولولا شخصية نابليون القوية لما كان للفرنسيين أى بقاء فى مصر بعد هذه الموقعة .

ثالثا — ثورة القاهرة الأولى (أكتوبر ١٧٩٨) :

ترك المصريون زمام الأمر فى فترة من الفترات للعثمانيين باسم الاسلام ، وتركوا زمام الدفاع عن البلاد للمماليك باعتبارهم متخصصين فى الشئون العسكرية ، ومتحملين مسئولية السياسة ، ولكن المصريين فوجئوا باحتلال البلاد بجيش من الكفار « كما أطلق عليهم المصريون » ينحدر من أحفاد الصليبيين ، وفى الفترة الأولى من هذا الاحتلال لم يظهر للأتراك العثمانيين نشاط فى مواجهة الفرنسيين ، بل أدّعى نابليون فى بيانه إنه على وفاق معهم ، مما قلل الأمل فى الاعتماد عليهم .

وانحل جيش المماليك بعد معركة امبابة ، وهذا وذاك جعل مسئولية الدفاع عن البلاد تقع على عاتق المصريين ، وكان علماء الأزهر هم قادة العهد الجديد ، وقد تعاون هؤلاء العلماء مع الحملة فى مطلع عهدها بمصر ظانين أنها جاءت لغير الاستقرار ، ولكن سرعان ما اتضح لهم أن نابليون يريد الاستقرار بمصر ، وهذا دفعهم لتحمل المسئولية فى الدفاع عن البلاد ، وشجعهم على ذلك هزيمة الفرنسيين فى موقعة أبى قير البحرية ، كما شجعهم على ذلك أيضا تشدد الفرنسيين فى جمع الضرائب واستيلاؤهم على أموال الأوقاف ، وهدم كثير من المبانى الأثرية بحجة التنظيم ، وهدم أبواب الحارات والدروب ، وميل الجنود الفرنسيين للخلاعة والفجور ، وإعدام حاكم الاسكندرية السيد محمد كريم .

الأزهر مركز القيادة لثورة القاهرة :

وقد اتخذت الثورة مركزها فى الأزهر الشريف حيث تجمعت الجموع الكثيرة يحملون أسلحتهم ، ويحضون الناس على مقاومة العدو المستعمر ، وكانت هذه الثورة مفاجئة للفرنسيين لأنهم ظنوا أنهم استمالوا المصريين وخدعوهم بما قاموا به من دعاية ، وفى ضوء هذا الظن خرج الجنرال (ديبوى) حاكم القاهرة العسكرى ومعه بعض رفاقه يقتحم جموع المتظاهرين ، وكان يظن أنهم سينفضون ، ولكن الجموع تكاثفت عليه ، وطعنه الثائرون طعنة أردته قتيلا ، وكان ذلك شرارة أثارت العاصفة ، فقد صدرت الأوامر للجيش الفرنسى أن يدمر الأزهر ، وأن يقتل الجماهير دون رحمة • ويصف الجبرتى ما فعله الجيش الفرنسى بقوله : تتابع الرمى من القلعة والكيمان حتى تزعزعت الأركان ، وهدمت حيطان الدور وسقطت بعض القصور (١) ، ولما انتهى الضرب زحف الفرنسيون الى الجامع الأزهر فدخلوه بخيولهم وعاثوا بالأروقة والحارات وكسروا القناديل وهشموا خزائن الطلبة ، وصدرت تعليمات نابليون بقتل كل من نسب له الاشتراك الفعلى فى المعركة ، ويقول نابليون فى مذاكراته : فقد الثائرون ألفى قتيل وفى كل ليلة كانت تقطع رءوس حوالى ثلاثين من الرجال وكثير من زعماء الأهالى ، وأظن أن هذا سيكون درسا قاسيا لهم ، وفقدت مصر فى الثورة وذيولها حوالى أربعة آلاف قتيل ، وقضت هذه الثورة على خيوط الثقة الضئيلة التى ظن أنها وجدت بين المصريين والفرنسيين ، وأصبح واضحا أن استقرار الفرنسيين بمصر مستحيل ، وأن المسألة لا تتعدى إجراءات تنظيمية يعقبها الجلاء •

وباندلاع ثورة القاهرة أصبح واضحا أن هناك قوتين مصريتين تناضلان الحملة ، وهاتان القوتان هما :

١ — المماليك فى حرب العصابات الشاملة •

٢ — الأزهر بعلمائه وطلابه وأتباعهم من الأهالى •

---

(١) الجبرتى : عجائب الآثار . احداث شهر صفر سنة ١٢١٣ هـ .

من نتائج ثورة القاهرة الأولى :

قضت ثورة القاهرة الأولى على خيوط الثقة الضئيلة التى كانت بين المصريين والفرنسيين ، فأخذ نابليون يعلن ما كان خافيا ، واتخذ إجراءات عنيفة ضد المصريين كانت شديدة الأثر فى دعم سوء الظن بالحملة وأهدافها ، ومن هذه الاجراءات ما يلى :

١ — ألغى نابليون الديوان الذى كان قد شكله من قبل ، وأعلن تشكيله من جديد على وجه لا يتفق مع رغبات المصريين ، فقد ضم له ممثلين من جميع الطوائف والجاليات التى كانت تعيش فى مصر ، وكان بعضها غير حريص على الأهداف الوطنية •

٢ — هدم الفرنسيون الكثير من المبانى والمساجد التى تقف فى طريق الحملة الى الأزهر ، ليسهل على الجنود اقتحام الأزهر الذى أصبح يمثل مركز المقاومة •

٣ — تكوين فرق عسكرية من متطوعى الأروام وبعض العناصر المسيحية التى تعاونت مع العدو ، وكان يعقوب فام من أبرز من مثلوا الخيانة الوطنية آنذاك وسنتكلم عنه بعد قليل •

٤ — زالت الفكرة التى كانت عند الفرنسيين والتى ترى أن المصريين ميالون للمسالمة ، واتضح للعدو أن مسالمة المصريين للعثمانيين كانت باسم الاسلام ، وتعاونهم مع المماليك كان باعتبار المماليك جزءا من المصريين •

٥ — على أن أخطر نتائج ثورة القاهرة هى أن ثورات كثيرة قامت على أثرها بكل المدن والقرى من أسوان الى الاسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها طبقات الشعب جميعا ، وكانت تقمع ثورة لتنبثق أخرى دون مبالاة بالضحايا والخسائر •

يعقوب فام الخائن واللواء القبطى :

فى وسط الصراع الذى قام به المصريون جميعا ضد الحملة الفرنسية كان هناك للأسف انحراف عن المسيرة تمثل فى المعلم القبطى يعقوب فام الذى تعاون مع الفرنسيين وكان يصحبهم فى حملاتهم داخل القطر ، ويسهل لهم مهامهم ، ويدلهم على عورات البلاد ، ويقول الجبرتى عنه : سافر عدة كبيرة من عسكر الفرنساوية الى جهة الصعيد ، وصحبتهم يعقوب القبطى ليعرفهم الأمور ويطلعهم على المخبآت (١) .

إنها خيانة لا يغفرها له التاريخ .

ومما يذكر أن رجال الدين المسيحى لم يكونوا راضين عن الجنرال يعقوب ، وكان بينه وبينهم مشاحنات كثيرة (٢) .

ويقول الأستاذ الصحفى محمد حسنين هيكل فى كتابه « خريف الغضب » (٣) إن يعقوب شكل ما عرف باسم « اللواء القبطى » الذى عمل فى خدمة الفرنسيين ، ومنح يعقوب لقب « جنرال » وأصبح فيما بعد قائدا مساعدا للجنرال « دوسيه » على رأس القوة التى اتجهت للصعيد لتقاوم بعض صور النشاط العسكرى فى الصعيد .

ويذكر محمد حسنين هيكل أن البطريرك عارض الدور العسكرى الذى قام به يعقوب ورفاقه .

وكانت نتيجة الخيانة طبيعية ، فإن الفرنسيين الذين استعانوا بالخائن كانوا فى داخلهم يحتقرونه ، وقد كان الخائن يظن أنهم سيكافئونه

---

(١) تاريخ الجبرتى : أحداث شهر ربيع الأول سنة ١٢١٣هـ (١٧٩٨) .
(٢) انظر وثائق للتاريخ بقلم الأنبا غرغوريوس ص ١٧ وما بعدها .
(٣) لم نحدد صفحات الكتاب لأنى قرأت صورا لصفحات جريدة « الوطن » التى نشرت الكتاب وهذا الموضوع نشر يوم الجمعة ٦ مايو سنة ١٩٨٣ .

على خيانته فانسحب معهم عندما انسحبوا من مصر سنة ١٨٠١ ومعه بعض رفاقه من الخونة ، وتذكر الرواية أنه مات على الباخرة التى كانت تقله الى فرنسا ، وأغلب الظن أن الفرنسيين دبروا نهايته .

أما باقى الخونة الذى بقوا فى مصر ، فقد انماعوا فى الشعب وأخفوا خيانتهم حتى تنوسيت هذه الخيانة المريرة بسبب تسامح الشعب وطيبته .

رابعا — تركيا والحملة الفرنسية :

كان تدمير الأسطول الفرنسى وثورة القاهرة الأولى من أهم الدوافع التى دفعت تركيا لأخذ نصيب فى مقاومة الحملة الفرنسية ، وقد وجدت تركيا ألا مناص لها من دخول المعركة لترد على ادعاءات نابليون التى قال فيها إنه على وفاق مع السلطان العثمانى ، ثم لتستعيد مكانتها فى مصر بعد أن أوشك الزمام أن يصبح فى أيدى المصريين .

وتنفيذا لهذا الاتجاه أعلنت تركيا الحرب على فرنسا فى أواخر سنة ١٧٩٨م وتحالفت مع انجلترا لهذا الغرض ، وأعد السلطان جيشا للزحف على مصر .

ووجد نابليون أن سياسة الهجوم أنسب من سياسة الدفاع فزحف على الشام ليهاجم القوى العثمانية التى تحاول أن تندفع الى مصر ، وليواجه الأتراك الذين أرادوا الهجوم عليه ، وقد بدأت حملة نابليون على الشام فى فبراير سنة ١٧٩٩ ، فاستولى فى طريقه على العريش ثم غزة ويافا واستسلمت له الحامية التى كانت بتلك المناطق إذ لم تكن قادرة على المقاومة ، ولم يتم الاستسلام الا بعد أن أمنها نابليون ، وتعهد بسلامتها ، ولكن نابليون خان هذا العهد وأعمل السيف فى هؤلاء المستسلمين ، فحمل بذلك مسئولية هذا العمل الاجرامى أمام الله والتاريخ .

وبعد ذلك يتقدم نابليون الى عكا ، وقد صمدت هذه لقوات نابليون

صموداً رائعا ولم يستطع فتحها ، كما لـم يستطع التفاهم مـع قوتها لتستسلم اذ أن خلق الغدر حال دون هذه المفاوضة ، وكان لجهود أحمد باشا الجزار أثر كبير فى صمود عكا •

واتجه نابليون الى حصون عكا ودورها فسلط عليها مدافعه فدمرت الكثير من مبانيها ولكنه عجز عن اقتحامها فاكتفى بهذا متظاهرا بالنصر وقرر العودة الى القاهرة ولكن قواته تعرضت لصراع الطبيعة فأصابها الطاعون فى طريق العودة فقضى على الكثير منها ، كما أرهقت هذه القوات بالحرارة عندما دخل موسم الصيف فنال ذلك من نابليون ومن قواته •

موقعة أبى قير البرية :

اتجهت تركيا لضرب الحملة فى مصر فأرسلت جيشا كبيرا بقيـادة مصطفى باشا وقد استطاعت هذه القوة أن تحتل قلعة أبى قير ولما علم نابليون بذلك سار الى القلعة وجرت معركة برية هائلة انتصر فيها الجيش الفرنسى وأسر القائد العثمانى •

❋ ❋ ❋

وبعد أن ذكرنا التحركات التى أحاطت بالحملة الفرنسية ، ووضعت الأساس لفشلها ، نتيجة لرصد الأحداث التى وضعت نهاية لهذه الحملة المسـعورة •

عودة نابليون الى فرنسا :

أدرك نابليون أن آماله فى مصر قد انهارت وأنه لا يستطيع أن يحقق أحلامه بين ثورات الشعب ومهاجمة تركيا وحصار بريطانيا ، ويبدو أنه لم يستطع أن يتحمل آثار الهزيمة فآثر الفرار والعودة الى فرنسا متنكرا بعد أن أناب عنه كليبر ليصبح قائدا للحملة وذلك فى أغسطس سنة ١٧٩٩ •

الحملة البحرية التركية (نوفمبر ١٧٩٩) :

اتجهت تركيا الى الصراع البحـرى بعد أن فشـلت حملتها البرية

فأرسلت أسطولا فى نوفمبر سنة ١٧٩٩ بقيادة السيد على بك ومساعدة السير سيدنى سميث الأدميرال الانجليزى ، وقد هزمها الفرنسيون عند عزبة البرج •

المفاوضات واتفاقية العريش « يناير ١٨٠٠ » :

كانت أكبر المهام التى عُنِىَ بها كليبر هى حراسة الجنود الفرنسيين ريثما يفاوض للانسحاب ، وقد جرت مفاوضات بين فرنسا وتركيا وانتهت هذه المفاوضات بمعاهدة العريش فى يناير ١٨٠٠ وهى تقضى بجلاء الفرنسيين عن مصر بأسلحتهم وأمتعتهم فى مدى ثلاثة أشهر على سفن فرنسية وتركية ، ولكن انجلترا رفضت هذه الشروط وأصرت على أن يعامل الفرنسيون معاملة أسرى الحرب فيما يتعلق بالأسلحة والعتاد ، فلا بد من تسليم هذه الأسلحة لضمان خروجهم سالمين بأنفسهم : وقد كانت انجلترا تتجه هذا الاتجاه لما كانت تدركه من حرج موقف الحملة الفرنسية ، ذلك الحرج الذى عبر عنه تقرير كليبر الى حكومة فرنسا عقب هرب نابليون وكانت انجلترا قد استطاعت أن تعرف مضمون هذا التقرير •

وهكذا عادت الأمور الى جو الصراع بعد أن توقف تنفيذ اتفاقية العريش •

معركة عين شمس (مارس ١٨٠٠) :

عاد العثمانيون الى القتال البرى فأرسلوا حملة لمحاربة الفرنسيين وقد أسرع كليبر لمواجهتهم عند عين شمس ، وقد انتصر الفرنسيون فى هذه المعركة وأرغموا الأتراك على الانسحاب للحدود الشرقية •

ولكن هذه المعركة كانت لها نتائج خطيرة اذ أنها أشعلت ثورة القاهرة الثانية التى سنتحدث عنها فيما يلى :

ثورة القاهرة الثانية (مارس وأبريل ١٨٠٠) :

انتهز المصريون — كما قلنا آنفا — خروج كليبر وأكثر جيشه من القاهرة وقاموا بما يسمى ثورة القاهرة الثانية ، وقد حاصر الثائرون ما تبقى للفرنسيين من جيش داخل المدينة ، وسرعان ما انضم للثائرين أعداد كبيرة من المماليك والأتراك العثمانيين ، وكانت هذه الثورة أطول وأقسى من ثورة القاهرة الأولى ، فقد أقام الثائرون المتاريس وحفروا الخنادق وأنشأوا معامل للبارود فى الخرنفش وأسهم الأغنياء بالأموال الواسعة ، واشترك كل الأهالى من المسلمين والأقباط فى هذه الثورة الهائلة ، ومن أبرز الشخصيات التى ينبغى أن تذكر هنا السيد المحروقى كبير التجار ، والسيد عمر مكرم نقيب الأشراف وجرجس الجوهرى من زعماء الأقباط •

وقد احتاج كليبر الى جهد واسع لإخماد هذه الثورة ، وبذل تضحيات واسعة ليستعيد القاهرة من القوات المصرية الهائلة التى سيطرت عليها حوالى شهرين ونصف شهر •

نهاية كليبر :

ولما تم النصر للقوات الفرنسية لم يقف كليبر من المصريين ذلك الموقف القاسى الذى وقفه نابليون عقب إخماد ثورة القاهرة الأولى ، بل اتجه كليبر الى التظاهر ببعض الاصلاحات كتنظيم المجمع العلمى ، وإنشاء بعض المصانع ، ولكن الزمن لم يسعفه فقد سقط بطعنة من سليمان الحلبى فى ١٤ يونيو سنة ١٨٠٠ وآذن ذلك بمزيد من ضعف الحملة وعسر حياتها •

كلمة عن سليمان الحلبى :

وينبغى أن نورد كلمة عن سليمان الحلبى ، فهو من مواليد حلب بسوريا سنة ١٧٧٧ ، وقد رحل الى القاهرة والتحق بالأزهر الشريف ،

وكان ذلك إبان وجود الحملة الفرنسية بمصر ، وقد أخذ على عاتقه أن يغتال كليبر دفاعا عن مصر وعن الاسلام ، وشجعه بعض العلماء على ذلك ، وقد استطاع أن ينفذ خطته وقبض عليه عقب ذلك وحكم بإعدامه ونفذ الحكم فيه ، وأحرقت يده اليمنى ، وترك بعد موته طعاما للطيور الجارحة كما حكم بالإعدام على ثلاثة من رجال الأزهر تعاونوا معه هم : عبد الله الغزى ومحمد الغزى ، وأحمد الوالى ، وقد ذهب هؤلاء ولكنهم تركوا ذكرا طيبا فى مجال الوطنية والدفاع عن الاسلام .

عهد الجنرال مينو :

عقب قتل كليبر تولى مينو قيادة الحملة ، ولم يكن فى كفاءة سلفه ، وكانت الأمور حول الحملة تسير فى انحدار ، وقد واجه مينو تصميما من انجلترا وتركيا للقضاء على قواته ، وقد نزلت حملة انجليزية عند أبى قير فى مارس ١٨٠١ واتجه مينو لمواجهتها ، ولكنه هزم وارتد الى الاسكندرية وتحصن بداخلها ، أما الانجليز المنتصرون فقد اتجهوا للقاهرة ، والتقوا فى الطريق بالقوات العثمانية ، وقطعت القوات الانجليزية والعثمانية الطريق بين مينو فى الاسكندرية وباقى قواته بالقاهرة .

واتجهت القوات الفرنسية فى هذا المأزق الى طلب الصلح ، ووافقت عليه انجلترا وتركيا حقنا للدماء ، وإدراكا أن الفرنسيين فى هذا المأزق قد يتصرفون تصرف اليائس فتكثر الضحايا ، وقد وافق قائد الحامية الفرنسية بالقاهرة (بليار) ثم وافق مينو فى الاسكندرية على الخروج تبعا لشروط اتفاقية العريش .

ومما دفع فرنسا الى الاتفاق موت الأمير الخائن مراد بك الذى كان قد تحالف مع الفرنسيين ، وكان موته فى مايو سنة ١٨٠١ .

وتم جلاء الفرنسيين عن مصر فى أغسطس سنة ١٨٠١ .

الخداع والزيف

حول نتائج الحملة الفرنسية

توشك المراجع المصرية والعالمية أن تجمع على أن الحملة الفرنسية كانت لهـا نتائج حضارية باهرة ، والذى لا شك فيه أن خديعة فرنسية وأوربية كانت خلف هذا الاعتقاد الخاطىء ، لقد كانت أوربا تتطلع الى الزحف الى الشرق ، وكانت تحاول أن تصبغ حملاتها بخديعة حضارية ، كأنما خطط الأوربيون للقدوم الى بلاد الشرق الاسلامى والى افريقية يحملون مشاعل النور •

والحق إن فرنسا وسواها من دول الاستعمار الأوربى أو الأمريكى لم تأت الى الشرق الا لمحاربة الاسـلام من جانب ، ولسلب ثروات الشرق من جانب آخر ، ومن العبث أن يفكر انسان أن هؤلاء كانوا حملة إصلاح أو دعاة حضارة لبلاد الشرق •

وعلى الرغم من أن انجلترا اشتركت بنصيب كبير فى تدمير الحملة الفرنسية ، فانها اشتركت بنصيب كبير أيضا فى نشر هذا الوهم وهذه الخديعة بأن الحملة حققت لمصر تقدما حضاريا ، فمثل هذا الوهم يعين الزحف الأوربى الذى كان يتأهب للانسياب نحو الشرق •

وأذاعت أوربا هذه الخديعة ، واهتمت فرنسا بوجـه خاص بنشر هذه الفرية ، وللأسف وقع بعض المصريين والشرقيين فى الفخ ، وصدقوا تلك الأكذوبة فراحوا يروجونهـا ويكتبون عنهـا ودخلت المـدارس والجامعات ، وتلقاها التلاميذ والطلاب الأبرياء واعتقدها الكثيرون منهم ، ونحن هنا نحاول أن نحق الحق وأن نبرز بطلان هذا الادعاء بالحقـائق التـالية :

١ — قالوا ان الحملة كتبت كتابا مهما عن مصر عنوانه « وصف مصر » وهذا صحيح ، ولكن هذا الكتاب لم يترجم حتى الآن للغة العربية ، وكل ما ترجم منه هو أجزاء قليلة ترجمها الأستاذ المرحوم زهير الشايب فى السبعينات من القرن العشرين أى بعد حوالى قرنين من انتهاء الحملة ، وبعد أن تغيرت معالم مصر بدرجة كبيرة ، ثم بعد أن كتب المصريون ما يغنى عنه .

٢ — ويقولون إن مصر تطلعت بسبب الحملة الى التغير الهائل الذى حدث فى أوربا ، وبدأت مصر تقتبس من المدنية الغربية بعد ذلك .

ولكن الباحث فى تاريخ مصر بعد الحملة يجد أن مصر عادت لحياتها الحافلة بالفوضى بسبب صراع السلطات ، ولم تتجه لاقتباس أية مدنية ، وكانت السنوات التى تلت الحملة حتى عهد محمد على سنوات حالكة ، وأن التغير الذى طرأ على حياة مصر بدأ مع محمد على الكبير ، فهو وحده صاحب العقلية الجديدة التى قضت على القديم وفتحت أبواب الجديد ، فانفتحت مصر به على العالم .

٣ — تحدثوا عن « الديوان » وهو أسلوب الدعاية لجذب بعض المصريين لصفهم عن طريق الوظائف اللامعة ، ولم يظهر لهذا الديوان أى أثر ، وقد وضحنا أن نابليون ألغاه بعد ثورة القاهرة الأولى وأعاد تشكيله على نمط لا يرعى مصالح البلاد .

٤ — تحدثوا عن تخطيط لمصانع وقناطر وجسور ، واذا صح ذلك فهو تخطيط لم يدخل أبداً إلى حيز التنفيذ .

٥ — يتحدثون عن حجر رشيد ، مع أن العثور عليه كان مجرد مصادفة ، ولم تفك رموزه الا بعد نهاية الحملة بحوالى ثلاثين عاما .

٦ — وهناك أشياء كالشورى والوعى الصحى .... والشورى فى

الحقيقة كانت خداعا والوعي الصحي كان إحياء للوعي الاسلامي المصري ، وليس فيه أي جانب للابتكار ، ويؤكد الأستاذ محمد حسنين هيكل ذلك بقوله : إن كثيرا من أفكار الحملة الفرنسية كانت أقرب الى روح الاسلام (١) •

ويتحتم على الباحث المنصف أن يتذكر ما يلي وهو يدرس هـذا الموضـوع •

أولا : دخل الفرنسـيون مصر في يوليو سـنة ١٧٩٨ ، وفي أوائل أغسطس أي بعد حوالي شهر واحد كان الأسطول الفرنسي قد قضي عليه ، وبذلك انتهت آمال الفرنسيين في مصر وأصبحوا سجناء لا هم لهم إلا الوصول إلى وسيلة العودة الى بلادهم ، وأسرع نابليون بالهرب متنكرا ، ••••• وكل هذا يوضح أنه لم يكن هناك وقت للاصلاح ، ولا جهد للأعمال الحضارية إن كانت خطرت بالبال ، وبتدمير الأسطول الفرنسي توقفت الصلات بين الحملة وبين فرنسا تقريبا ، وأصبح على قادة الحملة أن يعتمدوا على السلب والنهب والضرائب لتغطية نفقات الجيش ، وهذا زاد الأمور حدة وتأزما •

ثانيا : ادعى نابليون الاسلام وكذلك ادعى مينو وهو من أكبر قواده ، وهذا يوضح سهولة الادعاء بأنهم جاءوا لرعاية الحضارة أو أنهم أسهموا فعلا في خـدمة الحضـارة وكلها دعاوى باطلـة •

ثالثا : لقد كانت سنوات الحملة الفرنسية بمصر ثلاثا وهي مـدة قصيرة جدا ، ثم إن الحروب كانت خلالها مشتعلة ، اشترك فيها المصريون بكافة طبقاتهم وبلادهم ، واشتركت فيها بريطانيا وتركيا ، وكل هذا يجعل من العبث الاعتقاد بأن اتجاها حضاريا قد بدأ لهذه الحملة •

رابعا : ذكرنا من قبل أن صراعا مريرا دار بين هذه الحملة وبـين

---

(١) خريف الغضب المنشـور بصحيفة « الوطن » يوم الجمعة ٦ مـايو سـنة ١٩٨٣ •

المصريين ، وأن آلاف المصريين قتلوا ، ولا يمكن فى مثل هـذا الجو أن تقوم أى اتجاهات حضارية ، فطبيعة الحضارة تحتاج الى استقرار وثقة .

خامسا : لم يكن هدم البوابات نوعا من الترقى ، وانما كان لتمكين السيطرة على الشـوارع والأزقة التى كانت دائما مصدر خطر عـلى المسـتعمر .

سادسا : لقد أحضر نابليون معـه مطبعة ولعل استعمالها كـان مقصورا على بيانات التخدير والتحذير للشعب المصرى ، وقـد أخذتها الحملة معها عند انسحابها ، مما يدل على أن المظاهر الحضارية كـانت لخدمة الحملة لا لخدمة مصر .

سابعا : وهو شىء مهم جدا ؛ لقد استعمرت فرنسا عدة أقطار فى آسيا وأفريقية ، وامتد هذا الاستعمار أحيانا عدة قرون ، ولم تشهد هذه الأقطار تقدما حضاريا تركه المستعمر ، بل ترك دائما الخراب والدمار .

ثامنا : وضحنا من قبل أن الأوامر صدرت للجيش الفرنسى بتدمير الأزهر الذى اتخذ منه المجاهدون مركزا لجهودهم وأن الجنود الفرنسيين ضربوه بالقنابل والمفرقعات حتى زلزلت أركانه ، ثم دخلوه بخيولهم ... وواضح جدا أن هذه الأفعال قمة الغوغائية ، فان الفرنسيين بذلك حاربوا حضارة الاسـلام وحضارة مصر متمثلة فى الأزهر الشريف الذى كـان ولا يزال منارة فكر للعالم الاسـلامى كله ، وبهـذا نقرر أن الفرنسيين كانوا ضد الحضارة وليسوا بناة حضارة .

تاسعا : وأبو الهول الذى يقف شامخا منذ آلاف السنين لم يسلم من عدوان الغوغائية والفوضى ، فقد وجّه له هؤلاء الأوغاد ضرباتهم ، حتى كسروا أنفه ، وهذا يدل على سوء تقديرهم للحضارات ، وأنهم لم يحضروا لمصر لتنمية حضارة أو بناء مدنية .

الاستعمار الانجليزى نتيجة من نتائج الحملة الفرنسية :

عاشرا : إن الباحث المنصف يجد الحملة الفرنسية فتحت على مصر باب المتاعب والاستعمار ، فقد لفتت أنظار الانجليز الى أهمية مصر كطريق للهند ، فأدركت انجلترا خطر قيام دولة كبيرة كفرنسا فى مصر ، فاشتركت فى تدمير الحملة لهذا الغرض ، بل اتجهت الى ضرورة السيطرة على مصر بطريق أو بآخر منذ ذلك الحين ، وقد بدأ ذلك فى وقت مبكر ، فقد انتهزت انجلترا وجود قوات فرنسا بمصر ودخلت البلاد عند أبى قير فى مارس سنة ١٨٠١ ، وسارت هذه القوات تجاه القاهرة ودعت بعض زعماء المماليك للانضمام لها ضد الفرنسيين ، وقد حدث ذلك فعلا ، فوصلت قوات انجلترا الى القاهرة فى يونيو ١٨٠١ ، وخرج الفرنسيون عقب ذلك فى أغسطس من العام نفسه ، ولكن الانجليز توانوا فى الجلاء عن البلاد ، ولم يخرجوا الا فى سنة ١٨٠٣ بعد مفاوضات صعبة ، وعاود الانجليز محاولاتهم ، فأرسلوا حملة فريزر التى سنتحدث عنها بعد قليل ، ولكنها أيضا منيت بالفشل ،

والحركة التبشيرية أيضا :

ولم تقنع انجلترا بالمحاولات العسكرية ، فسرعان ما اتجهت لنوع جديد يكسبها النفوذ فى مصر ، وكان هذا النوع مرتبطا بالحركة التبشيرية التى كانت لها أهداف سياسية ودينية ، وقد وصلت الى مصر أول ارسالية بريطانية تبشيرية سنة ١٨١٥ ، وتبعتها إرساليات متعددة الأجناس ، وكان الغرض من هذه الحركات التبشيرية كسب النفوذ من جانب ، وإحداث فجوة بين المسلمين والأقباط من جانب آخر ،

ما أشق ما حملت الحملة الفرنسية الى مصر والى الشرق من نتائج وقد كان الاحتلال الانجليزى لمصر سنة ١٨٨٢ هو أحد النتائج المشئومة للحملة الفرنسية ،

الأقباط المصريون يعانون من الاستعمار الغربى ، لماذا ؟

وبمناسبة محاولة إيقاع خلافات بين المسلمين بمصر وبين الأقباط نقرر أن أقباط مصر كانوا فى الغالب يبرهنون على وطنية عالية ، ويتفقون مع المسلمين فى التصدى للمحاولات الاستعمارية الغربية ، وبخاصة أن تجربة المسيحيين المصريين مع المسيحيين الغربيين كانت مريرة وشاقة ، فلم يحدث أن حمل الرومان أو الاغريق أو الصليبيون أى نوع من الحرية أو الخير للمسيحيين فى مصر ، فقد كان مسيحيو الشمال يدينون بالمذهب الكاثوليكى ، وكان المسيحيون المصريون يتبعون المذهب الأورثوزكسى ، ومن هنا فان المسيحيين الغربيين كانوا يعدون المسيحيين المصريين هراطقة يجب القضاء عليهم ، وقد منعهم الصليبيون عندما كانت لهم السلطة على القدس من زيارة المدينة المقدسة ، كما منعوا المسلمين سواء بسواء ، وعندما حقق الصليبيون بعض الانتصارات فى دمياط فى الحملات الصليبية المتأخرة ، خطفوا أولاد الأقباط وباعوهم الى أسقف عكا لتعميدهم تبعا للعقائد الكاثوليكية ، وعندما استطاع الملك بطرس ملك قبرص قبيل نهاية الحروب الصليبية من احتلال الاسكندرية بعض الوقت أسرع جنوده بالقيام بحركة نهب وسلب لكل الأموال دون تفرقة بين مسلم وقبطى ، كما راح هؤلاء يقتلون دون وازع كل من عارضهم ، وكثيرا ما كان الأقباط من ضحاياهم كما كان المسلمون ، دون تفريق .

وقد أدرك المسيحيون الغربيون هذه النتيجة ، فعدلوا من سلوكهم ومن كراهيتهم للمذهب الأورثوذكسى ليكسبوا لهم أنصارا من الأقباط ، وكان ذلك تضحية بالعقيدة من أجل السياسة ، ولكن نتائج هذا الاتجاه ليست موضع الحديث الآن .

إن زحف الغرب على الشرق سمى « استعمارا » وهى كلمة مدلولها اللغوى متصل بالعمران ، ولكن هذا المدلول فقد تماما ، وأصبح مدلولها هو الخراب والحرمان والضغط والظلم .

ويبدو أن فرنسا أرادت كلمة خداعة جديدة ، فتحدثت عن التطور الحضارى الذى قدمته لمصر ، وتلك أكذوبة تشبه كلمة « استعمار » .

حجر رشيد :

وبمناسبة الحديث عن حجر رشيد نذكر أنه حجر من البازلت يحمل نصا مكتوبا بثلاث لغات هى الهيروغليفية والديموطيقية واليونانية ، والنص عبارة عن شكر الكهنة للملك بطليموس الخامس على مساعداته التى قدمها للمعابد .

وقد عثر جنود الحملة الفرنسية على هذا الحجر سنة ١٧٩٩ على مقربة من قلعة سان جوليان قرب رشيد ، وأهمية هذا الحجر ترجع الى أن اللغة اليونانية كانت معروفة آنذاك ، وبمقارنة اللغة الهيروغليفية بها أمكن فك رموز الهيروغليفية ، وبالتالى أمكن التعرف على كثير من الأفكار والعلوم المصرية القديمة التى كانت مكتوبة بالهيروغليفية ولم تكن فى متناول المعرفة حتى ذلك التاريخ .

ومنذ عثر على حجر رشيد حاول الباحثون اجراء هذه المقارنة وحل الرموز الهيروغليفية ، ولكن قدر أن يتم ذلك على يد العالم « شمبليون » الذى كان بمصر سنة ١٨٢٨ — ١٨٢٩ وبواسطته اتضحت اللغة الهيروغليفية لغة مصر القديمة ، واستطاع هذا أن يترجم كثيرا من نصوصها وأن يضع لها أول أجرومية لقواعدها .

مصر بعد الحملة الفرنسية

خلّفت الحملة الفرنسية بمصر قوة إنجليزية تحتل الاسكندرية وبعض مناطق بالقاهرة ، وخلفت الأتراك الذين طمعوا فى استعادة سلطانهم ، وخلفت المماليك بقيادة زعيمين كبيرين هما عثمان بك البرديسى ومحمد بك الألفى (١) ، وخلفت قبل كل شىء وبعد كل شىء شعبا يتوق الى الحرية ، ويريد أن ينالها بنضاله وكفاحه •

مؤامرات للتخلص من المماليك :

فأما الانجليز فقد أخلوا البلاد بعد أن ثبتوا حكم الأتراك ، وأمـا الأتراك والمماليك فقد وقعوا فى خلاف مستمر ، قصد العثمانيون التخلص من المماليك وأراد المماليك التخلص من العثمانيين ، ومن الوسائل التى استعملها العثمانيون ضد المماليك تلك المؤامرة التى دبرها القبطان حسين باشا إذ دعا زعماءهم للاجتماع به على إحدى سفن الأسطول للتشاور فى شئون البلاد ثم أطلق القذائف على زورقهم : وقد قتل فى هذه المؤامرة عدد منهم وجرح آخرون ، وفى القاهرة جرت مؤامرة أخرى ضدهم قبل جلاء الانجليز ، ولكن الحامية الانجليزية حمت كثيرين منهم ممن لجئوا إليها ، وعلى كل حال فقد أكلت الحملة الفرنسية بعض المماليك ، وقضى العثمانيون على بعض ما تبقى منهم ، ولم يبق من المماليك بعد ذلك إلاّ قلة ضئيلة يتزعمها محمد بك الألفى وعثمان بك البرديسى ، وكان أولهما مؤيّدا من الانجليز وأكثر حنكة وذكـاء ، ولكن دولة المماليك عـلى أى حال كانت على وشك الأفول فلم يستطيعوا مقاومة الأحداث ، وقد قضت عليهم نهائيا المؤامرة التى دبرها ونفذها محمد على بالقلعة ، والذين نجوا من المماليك بعد ذلك اندمجوا فى غمار الشعب ولم تقم لهم بعد ذلك قائمة •

---

(١) مات مراد بك كما سبق ، وكان ابراهيم بك قد وصـل الى الشيخوخة فلم يعـد له ذكر .

ضعف النفوذ العثمانى :

وأما العثمانيون فقد مثلهم بعد جلاء الفرنسيين خسرو باشا الذى عيّن واليا سنة ١٨٠١ ، ولكن سرعان ما دبّ الخلاف بينه وبين الجنود العثمانين بسبب تأخر مرتباتهم ، وتحوّل الخلاف الى مشادة وعنف ، فحاول طاهر باشا أركان حرب خسرو باشا أن يتوسط لحل المشكلة ، ولكن خسرو اتهمه أنه يمالىء المتمردين ، فانضم طاهر باشا فعلا الى المتمردين ، واضطر خسرو باشا أن يهرب بأسرته الى دمياط ، وعيّن طاهر باشا قائم مقام الوالى حتى ترد تعليمات الأستانة بشأن الوالى الجديد ، غير أن طاهر باشا سرعان ما لقى نفس المصير الذى لقيه خسرو باشا ، إذ ثار عليه الجند أيضا لنفس الأسباب وقتلوه ، وعين الباب العالى بعده على باشا ، ولكنه لـم يتمكن مـن الوصول الى القـاهرة وبقى محاصرا فى الاسكندرية حتى قتل سنة ١٨٠٤ ، وعيّن بعده أحمد خورشيد باشا ولكنه لم يستطع أن يكبح جماح الجند ولم يُرض الشعب المصرى كما سنرى .

بروز القوة المصرية :

ونجىء الآن الى القوة التى كانت تتربص بالأحداث ، وهى قوة الشعب المصرى التى استردت كيانها وتصدت لمقاومة الفرنسيين ، وأصبحت تحس أن من حقها أن تجنى ثمار هذا الانتصار ، فرفضت هذه القوة أن تعود الأمور الى ماكانت عليه قبل الحملة وإلى هذه القوة مال ضابط كان يقود فيلقا من الفيالق العثمانية بمصر ذلك هو محمد على ، وقد حصل عـلى ثقة الشعب فى النضال الذى كانت البلاد تخوضه ، وعندما هوت قـوى المماليك واضطرب أمر الدولة العلية فى مصر اندفع الشعب يفرض إرادته فخلع خورشيد وعين محمد على ، وبدأت بذلك فتـرة جديدة أسميناها « الفترة الاستقلالية » وسنعرض لها بالحديث بعد قليل .

وقبل أن نــدع العثمانيين (١) يجدر بنا أن نقتبس بعض تعليقات المؤلفين عن هذه الحقبة القاتمة .

تركيا تنحدر للنهاية :

يقول محمد صبرى : إن تركيا مـا كان يعنيها أن تسود الوحـدة والنظام فى مصر أو فى أية ولاية من ولاياتها ، وإنما كل ما كان يعنيها هو الخراج الذى تجبيه من هنا وهناك ، ولما ضعفت تركيا حركت ضعفها الأطماع من الداخل والخارج ، وأثر ذلك على الولايات الخاضعة لها ، وكانت كثرة التغييرات فى عاصمة الخلافة ، من العوامل التى دفعت الجيش بمصر فى القرن السابع عشر الى العبث بالنظام وقتل الولاة ، ففى سنة ١٦٠٤ قتل الجيش التركى ابراهيم باشا الوالى ، وعلقت رأسه على باب زويلة ، ففقد الولاة هيبتهم فى أعين المصريين ، وأتاح ذلك الفرصة لنشاط قوة المماليك (٢) .

والمماليك ينحدرون كذلك :

ولمـا عاد النفوذ للمماليك كان هؤلاء فى هـذه الفترة غـيرهم فى الفترات السابقة للفتح العثمانى ، ويصف « فولنى » المستشرق الفرنسى حياة الفرد منهم بأنها أصبحت سلسلة من جرائم القتل والغدر والمؤامرات والدسائس ، وقـد انقطعت بينهم وبين الناس وبـين بعضهم والبعض الآخر ، أسباب المحبة والعطف وصلات القرابة والرحم ، ومن هنا انتشر الغدر بين الرجل ووليه ، وبين العتيق ومعتقه ، وفقد المماليك النظـام والطاعة ، وبذلك لم يبق لهم شيء من الروح الحربية التى هى أهم مـا يحتاج لها الجندى : وأصبحت بيوت البكوات من المماليك مواخير تغمرها القذارة وتزخر بالدعارة ، بعد أن كانت فى الماضى مثالا للطهارة والاستقامة ،

---

(١) نتصور هنا أن العهد العثمانى قد انتهى ، لانه فى الحقيقة لـم يعدله نفوذ يـذكر .

(٢) تاريخ العصر الحديث ص ٢٢ .

وتورط المماليك فى الرذيلة ، ومعاقرة الخمر والفسق ، والسلب والنهب ، والترف ، وكانوا من قبل أكثر ميلا للنزاهة والبساطة والتزهد .

بؤس الشعب المصرى وضرورة التغيير :

أما الشعب فقد كان فى أتعس حال [illegible] وشقاء ، انصرف الى العرافة والتنجيم والسحر والخرافات والبطالة ، وانقطع ما بينه وبين العالم الخارجى من صلات ، كما انقطع ما بينه وبين ماضيه من صلات ، ولم يكن أحد يأمن على أملاكه إلا بصعوبة وشدة ، وكانت العقوبة تحل بالواحد منهم دون محاكمة ، ولو كانت عقوبة الإعدام ، وكان الغنى يعد جريمة حتى أن الأغنياء لم يروا وسيلة للاحتفاظ بما لديهم من المال ، إلا بالتظاهر بالفاقة والمتربة (١) .

مقارنة بين العثمانيين والمغول :

ويقول غوستاف لوبون (٢) : وعلى ما بين الترك والمغول من شبه فى الهمجية كان المغول أكثر استعدادا للثقافة ، فالمغول ، وإن لم يكونوا أهلا لإبداع حضارة جديدة كما أبدع العرب ، استطاعوا أن ينتفعوا بحضارة العرب الذين ، وإن زال ملكهم فى الشرق ، ظلت حضارتهم تهيمن عليه . ولكن الترك كانوا أهل حرب وقتال ، ولم يكونوا أهلا ليصمدوا فى سلم الحضارة ، ولم يقدروا على الانتفاع بتراث العرب فضلا عن إيمانه ، ويروى غوستاف لوبون قول العرب « لا ينبت العشب على أرض يطؤها الترك » ويعلق عليه بقوله : والحق أنه لم ينبت .

---

(١) نقلا عن محمد صبرى ص ٢١ — ٢٢ .

(٢) حضارة العرب ص ١٤٦ و ١٤٧ .

ونتيجة لهذه الأحوال المضطربة حل الجدب فى البلاد ، فأصبحت أخصب البقاع فلوات جرداء ، وشلت حركة التجارة والزراعة والصناعة وهى حال يئول إليها كل بلد زراعى لا توجد فيه حكومة تسهر على مصالحه ، وتكفل الأمن وتنشىء الطرق والجسور والقناطر وتتعهدها ، وقد عبَّر نابليون عن ذلك أدق تعبير حين قال : **إن الإدارة الحسنة فى مصر تكفل للنيل الغلبة على الصحراء ، والإدارة المعتلّة تكفل للصحراء الغلبة على النيل .**

مصر مركزا للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى

مقدمـــة :

فى ابريل سنة ١٩٧٤ أقامت الجمعية التاريخية المصرية مهرجانا حافلا عن :

« عبد الرحمن الجبرتى وعصره »

بمناسبة مرور ١٥٠ عاما على وفاة المؤرخ العظيم .

وقد اشترك فى هذا المهرجان عدد كبير من المؤرخين والباحثين من مصر ومن أقطار العالم ، وأسندت لى الجمعية التاريخية الكتابة فى هذا الموضوع « مصر مركزا للدراسات الإسلامية فى عصر الجبرتى » كجانب مهم من جوانب عصر الجبرتى ، وقد قمت بذلك ، واختير هذا البحث ضمن البحوث التى ألقيت ونوقشت فى المهرجان ، ويمكن القول إنه لاقى كثيرا من التقدير ، ويسرنى أن أثبت هذه الدراسة هنا ، فهذا هو مكانها الطبيعى فى سير التاريخ بالنسبة لمصر .

وقد كان الشيخ عبد الرحمن الجبرتى المركز الرئيسى الذى أشع نور المعرفة حول هذه الفترة ، ولهذا كان كتابه « عجائب الآثار فى التراجم والأخبار » أهم مرجع قدم المادة العلمية لهذا البحث وأمثاله من البحوث التى تدور حول هذه الفترة ، وبدون كتاب الجبرتى كانت معارفنا عن هذه الحقبة ستظل ناقصة .

وفى تقديرى يمتد عصر الجبرتى حـــوالى قرن من الزمان ليشـــمل شيوخه ومعاصريه وبعض تلاميذه ، وذلك من حوالى منتصف القـــرن الثانى عشر الهجرى إلى منتصف القرن الثالث عشر تقريبا (١٧٣٧ — ١٨٣٤م) ، وتلك هى الحقبة التى ستدور حولها دراستنا فى هذا البحث .

المدرسة المصرية المبكرة للدراسات الإسلامية :

وفى التقديم لدراستنا عن عصر الجبرتى ، وكيف كانت مصر مركزا للدراسات الإسلامية خلاله ، ينبغى أن نعود الى الوراء هنيهة لنرى المدرسة المصرية وهى تنشأ وتتطور فى خدمة العلوم الإسلامية بوجه خاص ، والعلوم العامة بوجه عام :

لقد جذبت مصر إلى رباها منذ مطلع الإسلام مجموعة من المحدثين والفقهاء الأفذاذ ، وأنتجت مصر مجموعة لا تقلّ عن الوافدين موهبة وكفاءة ، ومن هؤلاء وأولئك تكونت بمصر مدرسة للدراسات الإسلامية ضارعت المدارس الأخرى فى مختلف العواصم الإسلامية ، وقد تحدثنا عن هذه المدرسة بشىء من التفصيل فيما سبق (١) .

ثم حملت مصر أكثر العبء فى خدمة الفكر عندما اضطربت الأمور فى بغداد بعد العصر العباسى الأول ، ثم استقلت مصر تقريبا بخدمة العلم وأصبحت ملجأ العلماء عندما اجتاح الصليبيون قلب العالم الإسلامى فى سوريا ، وزحف التتار على الجناح الشرقى ، وزحف الأسبان والبرتغاليون على الجناح الغربى (٢) .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكرى فى العالم الإسلامى كله ، وشاع ذلك المثل الذى يتردد فى كثير من الأقطار الإسلامية والذى يقول : من لم ير مصر لم ير عزّ الإسلام .

وحملت مصر مسئوليتها الاسلامية بكفاءة وجدارة ، على الرغم من أن المماليك آلت لهم السلطة بعد الدولة الأيوبية ، وكان أكثر هؤلاء

---

(١) انظر ص ٦٧ — ٧١ من هذا الكتاب .

(٢) سنذكر تفاصيل ذلك عند حديثنا عن « مصر والحضارة الاسلامية » .

لا يستمتعون بعقلية علمية غالبا ، أو عبقرية تشييد وتعمير ، ولكن العلماء أقاموا سلطانهم غير مبالين بالحاكم .

وجاءت الدولة العثمانية بعد المماليك ، وكان عهدها عهدا حافلا بالصراع الداخلى والصراع الخارجى ، ولم تكن عقلية القادة العثمانيين بناءة أو خلاقة ، فمثلوا فى المجال الثقافى الدور الذى مثله المماليك قبلهم ، أو قل بتعبير أدق إن المماليك والعثمانيين امتزجوا معا وكانوا فى مستوى متقارب من حيث الثقافة والفكر ، ولكن الشعب المصرى حمل مسئوليته الفكرية بنجاح على الرغم من انحراف القادة ، وقد عاصر الجبرتى هذه الفترة التى سنحاول أن نعرض أشعة الفكر الاسلامى خلالها ، لنراها وهى تثبت جذورها وتنمو فروعها على الرغم مـن الاضطراب السياسى الذى كان سائدا آنذاك .

ملامح عصر الجبرتى

لقد عاصر الجبرتى فترة من أخطر الفترات فى تاريخ مصر ، عاصر الصراع بين المماليك والعثمانيين عـلى الحكم ، وعاصر الحملة الفرنسية وهى تقتحم البلاد ، وتتخذ صورا مختلفة لتخدع المواطنين ولتنسيهم دون جدوى مرارة الاستعمار ، وعاصر الفترة الكالحة التى تلت خروج الحملة الفرنسية من مصر حيث بدأ صراع جديد ضد أرض الكنانة كان المماليك والعثمانيون والانجليز أبرز أطرافه ، ولكن الجبرتى عاصر شيئا أهم من ذلك كله ، ذلك هو بروز الشخصية المصرية واستقلالها استقلالا كـان شديد الدوى فى التاريخ ، فإن مصر ارتبطت بتركيا باسم الإسلام ، ولذلك لم تعمل مصر بحماسة للتخلص من العثمانيين على الرغم مما عانته منهم .

أما صلة مصر بالمماليك فكانت صلة تنبعث من الاعتقاد السائد بأن المماليك ليسوا أغرابا عـن البلاد ، وهم فى مصر لا وطن لهم سـواها ، ولا يستغلون البلاد لصالح أى بلد آخر ، كما ذكرنا من قبل ومن هنا يسميهم

الجبرتى « الأمراء المصريين » ومن هنا كذلك كان لفيف من العلماء يعمل على تصفية الخلافات التى تنشأ بين بعضهم والبعض الآخر .

وجاء الفرنسيون وقد أساءوا فهم هذا التصرف المصرى الذى أشرنا اليه ، فاعتقدوا أن المصريين ميالون للسلم ، وأنهم سوف يرحبون بأية سلطة تحل محل العثمانيين والمماليك وبخاصة إذا كانت أحسن من هؤلاء وأولئك ، وكانت هذه غلطة كبرى دفع الفرنسيون ثمنها غاليا ، لأنهم لم يدركوا الأسباب الحقيقية لمسالمة المصريين للعثمانيين والمماليك .

ولكن الاحتلال الفرنسى فتح عيون المصريين على شىء مهم فيما يتعلق بعلاقتهم بالعثمانيين ، فإن هؤلاء تركوا مصر وحدها فى الصراع ضد المستعمر الفرنسى ، وحمل المصريون وحدهم كل العبء فى هذا الصراع ، ولم يكن معهم سلاح يؤبه به ، ولكن كانت معهم العقيدة الراسخة والدماء التى تزلزل قوى المستعمرين ، والأمل الذى لا يعرف الحدود ، واشتركت كل مدن مصر وقراها فى هذه الثورات ضد الفرنسيين من أسوان الى الاسكندرية ورشيد ، واشتركت فيها كل طبقات الشعب ، وكانت تقمع ثورة لتفور أخرى غير مبالية بالدماء والضحايا كما ذكرنا من قبل ، وعندما حقق المصريون آمالهم ، وحمل الاستعمار الفرنسى عصاه وأخلى البلاد لم تهدأ ثورات المصريين بعد ذلك ضد أولئك الذين خدعوهم من قبل فظلت صرخة المصريين تدوى ضد العثمانيين من جانب ، ومن جانب آخر ضد المماليك الذين كانت أخلاق الكثيرين منهم قد ساءت كما ذكرنا من قبل ، وتم التخلص عمليا من السلطتين ، وأصبح أمر مصر بيد المصريين وأصبحت الشخصية المصرية محددة المعالم ، وكان العلماء المسلمون قادة هذا التحول الكبير ، وقد آن لنا أن نعيش مع هؤلاء العلماء ونرى مصر وهى مركز مهم للدراسات الاسلامية خلال هذا العصر .

المراكز الثقافية بمصر فى عصر الجبرتى

والمراجع التى بين أيدينا تصور لنا مدى النشاط الفكرى الذى كان موجودا بمصر فى تلك الفترة ، فتتحدث عن مراكز ثقافية تقف معالم شامخة لخدمة الدراسات الاسلامية هنا وهناك ، كما نتحدث عن الباحثين والطلاب ، ونتصورهم نحلا يسعى ليجتنى الرحيق من الأزهار .

الأزهر :

وقد تنوعت المراكز الثقافية فى هذا العصر ، فمنها المدارس ، ومنها المساجد والزوايا ، ومنها بيوت العلماء التى نافست هذه وتلك فى اشعاعاتها ، ويُعَدّ الأزهر قمة المراكز الثقافية بمصر ، فمن الواضح أن الأزهر واصل رسالته العظمى خلال هذا العصر كما واصلها عبر العصور المختلفة ، ووقف جامعة شاهقة ترعى كل العلوم الاسلامية ، وتحرس الاسلام والوطن الاسلامى ولن نطيل هنا حديثنا عن الأزهر ، فالأزهر جامعة الشرق الأولى منذ أسس حتى اليوم ، ولنترك الأزهر لشهرته لنعايش بعض المراكز الثقافية الأخرى .

ولكننا نذكر عن الأزهر شيئا ليس شائعا هو ما ذكرته صحيفة الوطن القبطية فى ٥ مايو سنة ١٩١٦ من أنه كان للأقباط قديما رواق بالأزهر يتلقون فيه العلوم المنطقية والشرعية ، وأن ممن درسوا بالأزهر قديما أولاد العسال وهم من كبار مثقفى القبط ، ولهم مؤلفات مهمة ، وممن تعلم بالأزهر حديثا من الأقباط ميخائيل عبد السيد صاحب صحيفة الوطن ، وقد أنتقل الى دار العلوم عندما أنشئت ، ومنهم وهبى تادرس الشاعر الذى كان يحفظ القرآن ويكثر الاقتباس منه ، وفرنسيس العتر الذى كان يحضر دروس الشيخ محمد عبده سنة ١٩٠٢ (١) .

---

(١) انظر هذه الصحيفة وكتاب « المسلمون والأقباط » للأستاذ طارق البشرى ، ص ٤٣ .

المدارس :

بعد الأزهر تقف مدرسة أبى الذهب عملاقة بين مدارس هذا العصر ، ويذكر الجبرتى (١) أن أبا الذهب (١٧٧٥ — ١٨٨٩) بناها تجاه الجامع الأزهر ، وكان محلها خرائب اشتراها أبو الذهب من أربابها ، وأمر ببناء مدرسته فيها ، ورتب لنقل الأتربة وحمل الجير والرماد والطين عددا كبيرا من قطارات البغال والجمال ، واستعمل فى بنائها الأحجار العظيمة ، فكان الجمل لا يستطيع أن يحمل إلا حجرا واحدا ، وتم بناؤها سنة تسع وثمانين ومائة وألف ، وقد نقشت هذه المدرسة بأجمل الألوان والأصباغ ، وأعدت لها نوافذ عظيمة كلها من النحاس الأصفر الجيد الصنع ، وكان للمدرسة فناء فسيح مفروش بالرخام والمرمر ، فى وسطه نافورة بديعة ، وحول الفناء مساكن للمتصوفة والطلاب ، وأعدت فيها أمكنة للمفتين الكبار ليجلسوا بها حصة من النهار لإفادة الناس بعد إملاء الدروس ، وفرشت المدرسة بالحصر ، ومن فوقها الأبسطة الرومية فى الداخل والخارج حتى فتحات النوافذ ودرجات السلم ، وعملت بها دواوين للدراسة كانت غاية فى الروعة والابداع ، كما بنى معها مسجد عظيم أسس تأسيسا عظيما ، وقرر أبو الذهب فى مدرسته الشيخ أحمد الدرديرى مفتى المالكية ، والشيخ عبد الرحمن العريشى مفتى الحنفية والشيخ حسن الكفراوى مفتى الشافعية ، وكان هؤلاء يقومون بالتدريس إلى جانب الإفتاء ، وعين معهم مجموعة كبيرة من المدرسين الذين كانوا يعملون بالأزهر مثل الشيخ على الصعيدى والشيخ محمد الأمير ، والشيخ حمد يونس ، والشيخ أحمد السمنودى ، والشيخ على الشنويهى والشيخ محمد الحفناوى ، والشيخ محمد الطحلاوى والشيخ حسن الجداوى ، والشيخ أبو الحسن القلعى ، والشيخ البيلى ، والشيخ محمد الحريرى ، والشيخ منصور المنصورى ، والشيخ أحمد جاد الله ، والشيخ محمد المصيلحى وعين فى وظيفة التوقيت الشيخ محمد الصبان ، وجعل بها خزانة عظيمة للكتب وعيّن محمد أفندى حافظ خازنا لها ، وعين الشيخ محمد

---

(١) تاريخ الجبرتى : ج٤ ص ٤١٨ وما بعدها .

الشافعي نائبا له ، ورتب المدرسين الرواتب السخية التي تتفاوت بحسب أقدارهم ، كما رتب للطلبة رواتب طيبة ، وقد افتتحت المدرسة بصلاة الجمعة في مسجدها ، وعقب انقضاء الصلاة ألقى الشيخ الصعيدي درسا ، ولما انقضى منه ، قدم الأمير لكبار الشيوخ الخلع الثمينة ، كما أنعم على الخدم والمؤذنين بقطع الذهب والمساعدات الكبيرة .

ومن المدارس الشهيرة بهذا العصر المدرسة الصلاحية التي بناها الملك الصالح نجم الدين أيوب ونسبت له ، وكانت المدارس الصلاحية منتشرة في أنحاء شتى بالبلاد ، ومنها المدرسة الصلاحية المجاورة لضريح الإمام الشافعي ، وكان يتولى التدريس بها الشيخ الصاوى ، الذى رُشح لمشيخة الجامع الأزهر عقب وفاة الشيخ أحمد العروسى وكان ينافسه في هذا الترشيح الشيخ عبد الله الشرقاوى ، واستقرت الوظيفة للأخير وبقى الصاوى مدرسا بالمدرسة الصلاحية مما يدل على مكانة هذه المدرسة ، ويقول الجبرتى (١) إن شيخ الأزهر لا تتم له مكانته إلا إذا كان مدرسا بالصلاحية ، وقد لعبت الصلاحية دورا كبيرا في خدمة الفكر الإسلامى وتخرج منها كثير من الشيوخ والقادة والمفكرين .

ومن مدارس ذلك العصر مدرسة الأشرفية التي كان يعلم بها الإمام محمد ابن أحمد الخالدى الشهير بابن الجوهرى (١١٨٢ = ١٧٦٨) ، ويذكر الجبرتى (٢) أنه كان يميل الى التعفف والانجماع عن خلطة الناس والتزهد عما بأيديهم فأحبه الناس لذلك وصار له أتباع ومريدون كانت المدرسة تمتلىء بهم ، وكان منهم مجموعة كبيرة من علماء العصر الذين نهلوا من فيض علمه ، ثم راحوا يعملون هنا وهناك ، خالقين امتدادا فكريا لشيخهم في عدد من الأماكن والمعاهد .

ولا يزال للشيخ الجوهرى صيت ذائع في مصر والعالم العربى

---

(١) الجبرتى : جـ٤ ص ١٦٠ — ١٦١ .

(٢) الجبرتى جـ٣ ص ١٦٤ .

والإسلامى لعلمه وفضله ، وجهده فى خدمة الثقافة الإسلامية ، وقد اعترفت الدولة حديثا بمنزله مكانا من الآثار الجديرة بالرعاية .

وهناك مدارس كثيرة على هذا النمط تحدث الجبرتى عن نماذج كثيرة منها ، فلندعها الآن لنتحدث عن طائفة أخرى من المراكز الثقافية وهى المساجد والزوايا .

المساجد :

وعن المساجد نذكر حقيقة كثيرة التردد هى أن القاهرة كانت تعرف بأنها مدينة الألف مئذنة ، ومعنى ذلك أن المساجد كانت بمصر فى عصر الجبرتى كثيرة كثرة بالغة ، كما لا تزال حتى اليوم ، وكان أكثرها يتبع الفكر الاسلامى الأصيل عن المساجد ، وهى أنها ليست دور عبادة فقط وانما يمكن أن تسمى مجمعات فكرية ودينية ، فكان يتم فيها التقاضى والتعليم ، وفى بعض زواياها مكاتب لتعليم الأطفال ، كما كان يوجد بها منازل للطلاب الغرباء ، والدارس لعصر الجبرتى يجد صعوبة كبيرة لاختيار نماذج لهذه المساجد ، فإنها كانت كلها مصادر فكر وإشعاع ، جلس بها العلماء ، وتحلق حولهم الطلاب ، وكان التعليم يدور بها كل يوم من وقت مبكر يبدأ بعد صلاة الفجر وأحيانا قبل الصلاة ، ويستمر طيلة اليوم تقريبا ، وفى بعض المساجد كانت هناك حلقات متعددة مختلفة المناهج والعلوم ، ولذلك كان يطلق على كل شيخ من شيوخ هذه المساجد لقب « شيخ عمود » فبجوار الأعمدة المتعددة كان يجلس عدد من العلماء .

على أن هناك مساجد كان لها صيت أوسع فى مجال التعليم ، وكانت تمثل جامعات علمية بجوار مكانتها كمساجد ، ومن هذه جامع عمرو وجامع شيخون ، ومسجد الامام الشافعى ، وجامع المحمودية ، ونعطى فيما يلى نموذجا لواحد من هذه المساجد هو جامع المشهد الحسينى ، ففى هذا المسجد تصدى للإقراء والتدريس مجموعة عظيمة من شيوخ العصر ، وفطاحل المفكرين ومن هؤلاء الشيخ سليمان بن عمر العجيلى المعروف بالجمل (١)

---

(١) الجبرتى : جـ٢ ص ١٨٣ .

(١٨٠٤ — ١٧٨٩) وينسب العجيلى الى منية عجيل إحدى قرى محافظة الغربية حيث تلقى مبادىء العلوم الاسلامية ، وقد جاء الى القاهرة لمزيد من التعمق فى الدراسات الاسلامية فلازم الشيخ الحنفى فشملته بركته ، وأخذ عنه فكره واتجاهاته الصوفية ، كما تفقه على غيره من فقهاء العصر ، حتى بــرع وعظم شأنه ، فنوه به الشيخ الحنفى وجعله أماما وخطيبا بالمسجد الملاصق لمنزله على الخليج ، ثم علت به همته فجلس للتدريس بالمشــهد الحسينى ، وكــان يعلم الفقــه والتفسير والحــديث ، وكثر عليه الطلبة يدونون مــن إملائه وتقريراته ، وقرأ المواهب والشمائل ، وصحيح البخارى وتفسير الجلالين بهذا المشهد بين المغرب والعشاء وكان يحضر دروسه أكابر الطلبة وتوفى سنة ١٢٠٤هـ = ١٧٨٩م وبعد الشيخ سليمان جلس أخوه الشيخ عبد الرحمن مجلسه يعلم أيضا على نمط مــا كان أخوه يفعل وقد جذبت حلقته كثيرين من مجاورى الأزهر والعامة وكان خير خلف لخير سلف [١] ومن هؤلاء أيضا الشيخ عبد الوهاب الشبراوى (١٢١٣ — ١٧٩٨) الذى تفقه على علماء العصر ، وحضر دروس الشيخ عبد الله الشبراوى والحنفى والبراوى والأجهورى وغيرهم ، ثم تصدر للإقراء والتدريس والإفادة بالمشهد الحسينى ، وكان يحضر دروسه جمع غفير من الناس ، وكان شديد الميل لتدريس كتب الحديث كالبخارى ومسلم وكان — كما يقول الجبرتى [٢] — حسن الإلقاء ، سلس التقرير ، جيد الحافظة ، جميل الســيرة ، مقبلا على شــأنه ، ويذكر الجبرتى كذلك **أن الرجل لم يعط جهده كله للعلم وانما اتجه كذلك لخدمة الوطن عن طريق السياسة فحرك المظاهرات ضد الفرنســيين إبان احتلالهم للبلاد حتى أصبحت مجالسه منابع للثورات ومصــادر قلق للمستعمر ، ولم يجــد الفرنسيون بدا من القبض عليه وقتله ، كما أخفوا قبره حتى لا يكون ذلك القبر مصدر ازعاج لهم كما كان صاحبه فى حياته ، ولكن روح الشــيخ**

---

(١) الجبرتى : جـ٤ ص ٢١٦ .

(٢) الجبرتى جـ ص ٦١ .

ظلت تدفع تلاميذه ومريديه ليقاوموا المستعمر الأثيم حتى كتب للمصريين النصر .

ومن المساجد الشهيرة كذلك مسجد كتخذا بالأزبكية ، وقد جلس فيه مجموعة كبيرة من العلماء والمفكرين يعلمون العلم وينشرون المعرفة ، ولعل فى قمة هؤلاء الشيخ محمد عبد المعطى الحريرى (١٢٢٠ = ١٨٠٥) ، ويذكر الجبرتى (١) : أنه اشتهر فى مطلع حياته بجودة الخط ، فكان ينسخ بعض الكتب لكبار الشخصيات ، ويأخذ على ذلك أجرا عاليا ، وكان شافعى المذهب ثم تحنف وحضر على أشياخ المذهب مثل الدلجى والعدوى ولازم الشيخ حسن المقدسى ملازمة كلية ، وانتسب له وعرف به ، وتلقى عنه الكتب المشهورة فى المذهب ، كما تلقى باقى العلوم على الملوى والحفنى والشيخ على العدوى ، وكان يكتب الأجوبة عن الفتاوى على لسانه ، ولما توفى الشيخ العدوى أخذ مكانه بجامع كتخذا بالأزبكية وسكن بالدار المخصصة للمدرس ، وكانت فى رحاب الجامع المذكور ، وكان شديد التأثير فى دروسه حتى كان وعظه شديد الوقع على الناس لخلوه من التصنع ، وقد قصده الناس للفتوى والافادة من كل مكان وأقبلت عليه الدنيا ، وكان مرتبه عاليا من وقف عثمان كتخذا ، وانحصرت فيه وظائف الحنفية كالتدريس فى مدرسة المحمودية والمحمدية وغيرها فكان يجلس فى بعضها بنفسه وينيب عنه من يعلم فى المدارس الأخرى ، وكان مسموع الكلمة لدى الأمراء ، عظيم الهيبة بينهم ، ولذلك نرى عتقاء أحمد أغا يتفقون على اختياره ليكون حكما بينهم عندما دبت المنازعات بينهم بعد موت سيدهم .

الزوايا :

ومن المراكز الثقافية فى هذا العصر الزوايا وهى مكان كان ينشأ بجوار المساجد غالبا ، وكانت الدراسة فى الزوايا تميل للاتجاهات الصوفية بالإضافة الى الدراسات الإسلامية العامة ، وقد حفلت مصر فى عصر الجبرتى بمجموعة كبيرة من الزوايا من أهمها زاوية الخضرى التى جلس

---

(١) الجبرتى : ج٣ ص ٣٥٤ — ٣٥٥ .

فيها الشيخ أحمد الحماص الشافعى (١١٨٦ = ١٧٧٢) الذى تتلمذ على الشيخ البراوى حتى مهر وتفقه ، ثم التحق بحلقة الشيخ الشمسى الحنفى، والشيخ على الصعيدى وغيرهما ، ثم تصدى للتدريس والافتاء فى حيـاة شيوخه ، متخذا من زاوية الخضرى مركزا علميا توافد عليه فيه طلابـه ومريدوه (١) ومنها كذلك الزاوية التى كانت قريبة من المشهد الحسينى وكان يجلس فيها كثير مـن العلماء من أهمهم الشيخ أحمـد بن شاهين الراشدى (١١٨٨ = ١٧٧٤) الذى ينسب الى بلدة راشدية بالغربية ، وكان بارعا فى الحساب والفرائض وهو من تلاميذ الشيخ حسن الجبرتى ، وكان حسن التلاوة للقرآن الكريم ، حاو الأداء ، مـع معرفته بأصول الموسيقى ولذلك ارتبط به كثير من الأمراء ، ويقول عنه الجبرتى (٢) إن قراءته كانت مثل سلاسل الذهب فى حسن السبك ، وقد انتفع به كثير من الأعلام وكان يمتاز بكمال العفة والوقار ، وكان الناس يتمنون أن يسمعوا تلاوته ،وقلّ من كان يحصل على مكان حوله بسبب الزحام الذى كان يحيط به .

ومن الزوايا الشهيرة الزاوية الملحقة بالجامع الكبير بالمنصورة ، وقد أنشأها الشيخ الوافى الشافعى السندوبى (١١٩٩=١٧٨٤م) وجلس بها حيث تجمع حوله عدد كبير من المريدين ، وعقب وفاته جلس ابن أخيه عبد الله بن ابراهيم مكانه ، وقد تلقى هذا مختلف المعارف عن عمه ، وعن الشيخ أحمد الجالى ، وكان يميل للابتعاد عن الناس ، فلا يقوم لأحد ولا يدخل دار أحد ، ويذكر الجبرتى (٣) أنه نزل ضيفا على الشيخ وهو فى طريقه الى دمياط سنة (١١٨٩ = ١٧٧٥) ويقول الجبرتى أنه دخل على الشيخ فى حجرته فوجده نيرا بشوشا ، رحب بضيوفه من العلماء ، وقدم لهم ألوانا من الحلوى والشراب ، ويختتم الجبرتى كلامه عنه ، أنه مات ولم يخلف بعده مثلـه .

---

(١) تاريخ الجبرتى : جا ص ٣٧٥ .
(٢) تاريخ الجبرتى : جا ص ٤٠٩ .
(٣) تاريخ الجبرتى : ج٢ ص ٩٩ .

ولعل من أبرز الزوايا بالقاهرة زاوية الشيخ الدرديرى (١٢٠١ هـ = ١٧٨٦م) الذى كان أوحد وقته فى الفنون العقلية والنقلية كما يقول الجبرتى(١) وكان شيخ الاسلام وبركة الأنام ، وقد أسس زاوية بخط الكعكيين وسبب انشائه لهذه الزاوية أن مولاى محمد سلطان المغرب كانت له صلات وهبات يرسلها لعلماء الأزهر وأهل الحرمين من حين الى حين وفى سنة ١١٩٨ = ١٧٨٣ أرسل هبة من هذه الهبات للشيخ الدرديرى وتصادف عندما تلقاها الشيخ الدرديرى أن كان بمصر ابن لمولاى محمد سلطان المغرب وكان هذا عائدا من الحج ونفد ما معه من النفقة والأموال ، ولما عرف الشيخ الدرديرى ذلك أسرع الى ابن السلطان وقدم له العطية التى أرسلها أبوه وقال : كيف لنا أن نتفكه فى مال الرجل وابنه يعانى من الحاجة ، ولما عرف السلطان ذلك أرسل للشيخ عشرة أمثال الهبة مجازاة للحسنة بعشرة أمثالها فبنى الشيخ الدرديرى بها هذه الزاوية .

المنــازل :

وهناك مركز ثقافى كان واسع الانتشار كبير الفائدة ، وهذا المركز هو بيوت العلماء والأمراء ، فعلى الرغم من أن المسلمين لم يعدوا المنازل مكانا صالحا للتعليم العام ، لأن السكان والطلاب جميعا لا يجدون الراحة واليسر فى التوفيق بين هدوء المنزل وجلاله وبين حلقة الدرس وما تستدعيه من حركة ونشاط (٢) ، على الرغم من ذلك اقتضت الضرورة أحيانا أن تقام الحلقات العلمية بالمنازل ، لأن ذلك كان مفخرة لأصحاب البيوت من العظماء الذين لــم يستطيعوا أن يجمعوا المريدين حولهم ، لقلة بضاعتهم مــن العلم فجمعوهم فى بيوتهم حول شيوخ العصر ، وهناك كذلك بعض العلماء منعتهم ظروف الصحة أو غيرها من الظروف مــن الانتقال الى المراكــز الثقافية الأخرى بالمدارس والمساجد والزوايا : فاندفع طلابهم نحوهم ، يأخذون عنهم فى بيوتهم ، وكانت متعة العلماء بالتعليم واسعة فرحبوا

---

(١) تاريخ الجبرتى : جـ٢ ص ١٤٧ ـــ ١٤٨ .
(٢) تاريخ التربية الاسلامية للمؤلف ص ٦٧ .

بمريديهم فى بيوتهم ، وبذلك لعبت المنازل دورا كبيرا فى مختلف العصور والبلدان ، وسنعطى فيما يلى نموذجين أحدهما من بيوت العظماء والآخر من بيوت العلماء :

ويتحدث الجبرتى (١) عــن منزل الحاج أحمد بن محمد الشرايبى (١١٧١ = ١٧٥٧) وكان من أعيان التجار ومشاهيرهم ، وهو ينحدر من بيت مجد وعز ، وكانت أسرته فى غاية الغنى والرفاهية ومكارم الأخلاق ، وكان يتردد على منازلهم العلماء ، وكانت هذه المنازل مشحونة بكتب العلم النفيسة للإعارة وانتفاع الطلبة ، وكان آل الشرايبى لا يكتبون على هذه الكتب ما يفيد أنها وقفية ، ولا يدخلونها فى مواريثهم مع أنهم كـانوا يشترونها بأغلى الأثمان ، وكان من عادتهم أن يضعوها على الرفـوف المفتوحة ولكل من دخل الى بيتهم من أهل العلم أن يأخذ ما يشاء مـن الكتب بالاعارة ، ولو لم يكن معروفا لديهم ، وكان يترك للمستعير أمر رد الكتاب ، فان رده أعاده الى مكانه ، وإن استبقاه أو بـاعه لا يسأل عنه ، وفى بعض الأحيان كان يباع الكتاب لهم مرة أخرى ، بل عدة مرات دون أى تأفف ، وكانوا يقدمون طعاما فى غاية الجودة لزواد مجالســهم العلمية ، وكان الأمراء بمصر يترددون على منازلهم دون دعوة ، ودون تحديد وقت ، وعلى هذا خدمت هذه البيوت الفكر ، وكانت منارات عالية الشأن كثيرة المآثر .

أما بيوت العلماء فكثيرة وشهيرة ، ولعل بيت الشيخ حسن الجبرتى يمكن أن يعد نموذجا لهذه البيوت ، فقد كان بيته فسيحا مفتوحا للشيوخ والعلماء ، وكانت حلقات الفكر فيه لا تكاد تتوقف وهناك طائفة من الشيوخ كـانوا لا يكادون يبرحون منزل الشيخ ، منهم الشــيخ محمود الكردى والشيخ عبد الرحمن البشبيشى ، والشــيخ محمد الفرماوى والشــيخ العزيزى ، والهاباوى ، وهناك جماعات من غير الشيوخ كانوا كذلك يرتادون

(١) جـ١ ص ١٠٤ .

بيت الشيخ حسن بانتظام ، ومنهم محمود النيشى والتونسى وهناك عدد من المهاجرين كان يرى فى بيت الشيخ حسن مثابة علمية يتحتم عليهم أن يرتادوها ، ومن هؤلاء ابن السويدى البغدادى ، وابراهيم الصورى ، كما كان هناك عدد وفير مـن المريدين تجذبهم خزانة الكتب التى يملكها الشيخ للاطلاع أو النسخ ، والى جانب هؤلاء جميعا كان يفد لزيارة الشيخ عدد جم من الأمراء والأعيان والتجار ، امـا للتبرك وأما للاستئناس ، وبيت الشيخ مفتوحة رحابه للجميع ، مبذول خيره لهم على السواء (١) •

وهناك منزل آخر ينبغى أن نشير اليه بايجاز هو منزل الشيخ مصطفى الريس البولاقى (١١٩٤ = ١٧٨٠) وهو مريد للشيخ حسن الجبرتى ، وكان ملازما له ، وكان الشيخ حسن يحبه لنجابته ، وعينه مدرسا بجامع السنانية وجامع الواسطى ، والمهم هنا أن بيته أصبح مثل بيت أستاذه ، ويصفه الجبرتى (٢) بقوله : وصار بيته مثل المحكمة فى القضايا والدعاوى والخصومات ، وكان فيه شهامة وقوة جنان وصلابة •

أسر تهتم بالعلم جيلا بعد جيل

وننتقل من بحثنا عن المراكز الثقافية الى موضع آخر هو أن كثيرين من العلماء وجدوا فى العلم خير الدنيا والآخرة فنشأوا أولادهم فى نفس الطريق الذى سلكوه ، وتكونت بذلك بيوت علم بمصر كـانت تتوارث الدراسات الاسلامية كابرا عن كابر ، ومن الأسر العلمية التى ازدهرت فى عصر الجبرتى نذكر بعض النماذج :

ولعل فى مقدمة ما نذكر من بيوت العلماء بيت إمام السنة عبد الخالق ابن أبى بكر الأشعرى الزبيدى (١١٨١ = ١٧٦٧) ، ويقول الجبرتى (٣)

---

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ٢١ •
(٢) الجبرتى : جـ ٢ ص ٦٠ •
(٣) الجبرتى : جـ ١ ص ٢٨٧ •

عنه إنه من بيت عام وتصوف ، جده الأعلى محمد بن محمد بن أبى القاسم وحفيده عبد الرحمن بن محمد ، وكان الشيخ عبد الخالق تلميذا لشيوخ عصره بمصر وبالحرمين حيث وفد الى مكة حاجا وطالبا وزار المدينة كذلك حيث تلقى عن الشيخ محمد الكردى ، ولما عاد الى مصر التف حوله طلابه فأخذوا عنه كثيرا من الفكر فى مختلف العلوم الإسلامية .

ومن هؤلاء الشيخ عيسى بن أحمد الزبيرى (١١٨٢ = ١٧٦٨) وقد برع فى الدراسات الفقهية براعة فائقة حتى سمى بالشافعى الصغير ، وله مؤلفات كثيرة وشروح واسعة على متون العصر ، وكان يملى ويفيد ويدرس ويعيد حتى توفى فاستقر ابنه العلامة الشيخ أحمد مكانه فى التصـدير والتدريس وتحلق حوله تلاميذ أبيه ، فواصل رسالته على أحسن وجه .

ومن هؤلاء الشيخ مصطفى بن محمد الطائى (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذى تفقه على والده وتخرج على يديه ، وبعد وفاة والده تصـدّر فى مجالسه ودرس وأفتى ، وكـان أماما ثبتا متقنا مستحضرا مشـاركا فى العلوم والرياضيات وله مؤلفات كثيرة فى فنون شتى (١) .

ومن هؤلاء عبد الرحمن الحسينى العيدروسى التريمى ، نزيل مصر وهو من أسرة عريقة فى العلم والمعرفة ، يعُدّ الجبرتى منها عددا ، ويصفهم جميعا بعمق الفكر واتساع المعرفة ، ولا غرو فهذا الامام ينحدر مـن جعفر الصادق فأسرته عريقة الجذور طيبة الفروع ، ويقول الجبرتى (٢) عنه انه طوّف البلاد ثم جاء مصر بعياله ، فألقى بها عصاه واستقر بـه النوى وهرع اليه الفضلاء للتلقى ، وخضع له أكابر الأمراء على اختلاف طبقاتهم ، وصار مقبول الشفاعة عنـدهم لا ترد رسائله ، ولا يحـرم سائله ، وطار صيته فى المشرق والمغرب وتعددت رحلاته الى مختلف بلاد

---

(١) الجبرتى : جـ ٢ ص ٣٤ .
(٢) الجبرتى : جـ ٢ ص ٣٥ .

القطر ، ثم خرج من مصر حيث زار كثيرا من بلاد العالم الاسـلامى ، وأخيرا عاد الى مصر حيث توفى بها سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

ومن هؤلاء الامامُ العلامة الشيخ أحمد بن عيسى تلميذُ والـده عيسى بن أحمد الزبيرى ، وتلميذ رفاق هذا الوالد ، ويقول الجبرتى عنه : إنه لمـا توفى أبوه جلس مكانه فى الجامع الأزهر واجتمع عليه طلبة أبيه واستمرت حلقة درس والده على ما كانت عليه من العظم والجلالة والرونق حتى توفى سنة (١١٩٢ = ١٧٧٨) .

وهناك بيوت علم كثيرة تُصادِف الباحث فى هـذا العصر الملىء بالمكرمات والحافل بالدراسـات كبيت الحريرى والحفناوى والطهطاوى والزبيرى والسجاعى ، والجناحى وغيرهم كثيرون .

العلماء الوافدون

فى مطلع هذه الدراسة ذكرنا أن مصر استقبلت الوافدين والمهاجرين من الشرق ومن الغرب فحطوا بها عصا التسيار ، واتخذوها وطنا لهم ، ومنذ ذلك الحين أصبحت مصر وطنا للدراسات الاسلامية لا يستغنى باحث فى هذه الدراسات عن ارتياده والارتباط به ، والذى يدرس عصر الجبرتى يجد أن مصر استقبلت خلال هذا العصر كثيرا من الباحثين الذين جاءوا يستزيدون من الدراسات الاسلامية ، وكثيرا من العلماء الذين أرادوا أن ينشروا العلم ولم يجدوا كمصر مكانا يحقق لهم هذا الأمل ، ولا يكاد يوجد قطر من أقطار العالم الاسلامى لم يَفِدْ طلابهُ وعلماؤه الى مصر فى هـذا العصر ، ومن مدارسـة تاريخ الجبرتى يـرى البـاحث أن وفودا من العلماء جاءوا من بغداد ومن دمشـق والحجاز وبلاد الروم والحبشة وغزة وخان يونس والقدس واليمن ، كما جاءوا من فارس والمغرب والجزائر وتونس ، وأن كثيرين من هؤلاء ذاع صيتهم فى مصر واستوطنوها وعاملتهم مصر كما تعامل أبناءها ، ومنهم من أسندت لهم أرقى المناصب ،

ومنهم من لقى الغنى والجاه فى مصر ، وسنتحدث فيما يلى عن بعض نماذج من مشاهير العلماء الذين وفدوا الى مصر واستقروا بها وذاع منها صيتهم ، وتعمقت فيها جذورهم ، ولعل فى قمة هؤلاء أسرة الجبرتى التى يتحدث عنها الشيخ عبد الرحمن الجبرتى (١) فيقرر أن جده السابع عبد الرحمن الذى اليه ينتهى علم الجبرتى بالأجداد ، هو الذى ارتحل من بلاد جبرت فى الحبشة ، فذهب الى « جُدَّة » ثم الى مكة حيث جاور بها فترة من الزمن ، ثم انتقل الى المدينة المنورة فجاور بها سنتين ولقى بالحرمين عددا مـن الأشياخ ، ثم عاد الى جدة ومنها جاء الى مصر عن طريق بحر القلزم ، فدخل الى الجامع الأزهر وجاور برواق الأحباش ، ولازم حضور الأشياخ ، واجتهد فى التحصيل ، وتولى شيخا على الرّواق ثم تزوج بمصر واستوطنها ، ويتسلسل الجبرتى متحدثا عن أجداده حتى ينتهى الى والده الشيخ حسن الجبرتى (١١٧٩ = ١٧٦٥) فيطنب فى الحديث عنه ، وفى ذكر أوصافه وكراماته ودراساته (٢) ، وقد اتسعت الحياة للشـيخ حسن الجبرتى وأفسحت له الدنيا بمصر ، فعاش بها فى نعيم وغنى ، ويذكر المؤرخون (٣) أنه كانت له ثلاثة منازل أحدها على شاطىء النيل والثانى ببولاق تجاه جامع ميرزه جوربجى والثالث فى خطة الصناديقية شمال الجامع الأزهر ، وله فى كل واحد من هذه المنازل زوجة وسرارى وخدم ومماليك وعبيد ، وكان يتنقل بين منازله يحف به أصحابه وتلاميذه ومريدوه ، فيعقد لهم حلقات التدريس ، ويملى عليهم ما شاء مـن العلوم الدينية والوصفية والعقلية والنقلية حتى اذا فرغ من املائه انفضَّ البعض عنه ، وانتشر البعض الآخر فى الحجرات أو خزانة الكتب ، وقد يبقى منهم من يحضر الطعام معـه أو يبيت عنـده .

ومن العلماء الوافدين على مصر الشريف على بن موسى (١١٨٦ =

---

(١) جـ ١ ص ٣٨٨ .

(٢) جـ ١ ص ٣٨٥ .

(٣) الاستاذ خليل شيبوب . عبد الرحمن الجبرتى ص ٥ وما بعدها .

١٧٧٣) ويتصل نسبه بالامام زيد الشهيد بن الامام على زين العابدين بن الامام الحسين ، وقد ولد ببيت المقدس ونشأ بها ، وقرأ القران الكريم على شيخ مصرى هو الشيخ مصطفى الأعرج المصرى ، فغرس فى نفسه حب مصر ، ولذلك طاف الشريف عدة بلاد واكنه اتجه الى مصر فى النهاية ، فجلس للتدريس بالمشهد الحسينى وعلا ذكره وانتشر صيته ، وكانت لـه فى النثر طريقة رائعة فكان لا يتكلف الاسـجاع ، ويصف الجبرتى (١) أساويه بأنه أحسن من الروض جاد به الغمام ، وأنه فى الترسل يسـير على سجية بادرة ، وفكرة قادرة ، كما يصفه بأنه كان ذا جود وسخاء ، وكرم ومروءة ووفاء لا يدخل فى يده شيء من متاع الدنيا إلا بذله لسائليه ، وأغدق به على طالبيه ، وكان منزله بقرب المشهد الحسينى موردا للآملين ، ومحطا ارحال الوافدين ، وكان يحب الخيل المنسوبة ، وكان اصطبله دائما لا يخلو من اثنين أو ثلاثة ، كما كان يجيد الفروسية وركوب الخيل واللعب بالرمـاح .

ومما ينسب لهذا الشريف أنه كان يبرز انحراف اليهود وتضليلهم ، وبعدهم من شريعة موسى ، ولذلك يقال إن وفاته جاءت على يـد رجل يهودى تقرّب منه ، وأظهر الولاء له ، فلما مرض الشريف فصده اليهودى بسلاح مسموم فمات فى أثر ذلك .

ومن العلماء الوافدين ذوى الشـهرة الواسعة محمد بـن محمد السنباوى الأزهرى الشهير بالأمير (٢) (١٢٣٢ = ١٨١٦م) وهو رجل مغربى الأصل ، نزلت أسرته بمصر ، وقـد عنى الشيخ الأمـير بتلقى الدراسات الاسلامية على شيوخ العصر ، فدرس عقائد النسفى والأربعين النووية وموطأ مالك ، كما درس الهيئة والهندسة والفلكيات والحكمة ، ولمـا علا شأنه تصدر لإلقاء الدروس ، وشاع ذكره فى الآفاق وبخاصة

---

(١) جـ ١ ص ٢٧٣ .
(٢) جـ ٤ : ٢٨٤ .

ببلاد المغرب التى كانت تفخر به ، وكان سلطان المغرب يواليه بالصلات والهبات كل عام .

وقد وصل من علو ذكره أنه كان يلقى بعض محاضراته بدار السلطنة وصنف الشيخ الأمير عدة مؤلفات اشتهرت بغاية الدقة ، منها كتابه فى الفقه المسمى « المجموع » وعدد كبير من الحواشى على الشذور ، والأزهرية والرحبية فى الفرائض ، وله مؤلف اسمه مطلع النيرين فيما يتعلق بالقدرتين .

ومن الشيوخ الوافدين على مصر ذوى الشهرة الواسعة السيد محمد مرتضى الزبيدى (١) وهو وافد من اليمن هبط الى مصر سنة (١١٦٧ = ١٧٥٣م) وسكن بخان الصاغة ثم راح يحضر دروس شيوخ وقته كالشهابين الملوى والجوهرى ، والشمس الحفنى وغيرهم كالبليدى والصعيدى والمدابغى وأخذ عنهم جميعا وأجازوه وسافر ثلاث مرات الى الصعيد ووضع رسالة عن رحلاته تلك ، ثم تزوج واتخذ مسكنا آخر له بعطفة الغسال وانصرف الى التدريس والتأليف ، وكان التأليف فى تلك الأيام لا يعدو حاشية على متن ، أو تعليقا على حاشية تدور موضوعاتها على بعض المسائل الفقهية المتعارفة ، ولكن مرتضى الزبيدى سلك طريقا آخر غير هذه الطريق فوضع معجمه الشهير المعروف بتاج العروس فى أربعة عشر جزءا ، وسلخ فى وضعه عدة سنين ، ولم يشأ أن يخرجه للناس كما تخرج المؤلفات العادية ، بل أقام مأدبة عظيمة يوم إخراجه دعا إليها المشايخ والطلاب وأبرز لهم تلك العروس وطلب منهم أن يذكروا محاسنها ومباهجها فتهافتوا عليها جميعا يقرظونها نثرا وشعرا فكانت هذه الدعوة سببا فى إذاعة خبر هذا الكتاب والتعريف به ، حتى أن محمداً أبا الذهب لما فرغ من بناء مسجده المعروف باسمه أمام الأزهر وأضاف اليه

---

(١) ج ٤ ص ٢٨٤ — ٢٨٥ .

خزانة كتب كبيرة أفهموه أنها لا تستكمل نفاستها إلا إذا ازدانت بهـذا المعجم فاشـتراه بمـائة ألف درهم (١) •

وقبل أن نطوى الحديث عن الشيوخ الوافدين نبرز ما سبق أن أشرنا اليه من قبل ، وهو أن هؤلاء الوافدين كانوا يجدون فى مصر كل إجلال وتقدير ، ولم يخطر بالبال قط أنهم غير مصريين ، وقد وصل بعضهم الى أسمى المناصب فى مصر ، فالشيخ حسن العطار (١٢٥١ = ١٨٣٥) وهو مغربى الأصل ، فقد أصبح شيخا للأزهر ، والشيخ أحمد اليونسى (١٢١٨ = ٨٠٣) الذى جاء الى مصر من خان يونس ثم أصبح كبير القضاة بالمحكمة العليا ، وكان عضوا فى الديوان الذى عينه الفرنسيون ابان وجودهم بمصر ، كما حظوا جميعا برخاء العيش وبألوان من الثراء اتضحت فيما أوردناه عنهم من أحاديث •

المصريون بالخارج :

وقبل أن ننتهى من الحديث عـن العلمـاء الذين وفـدوا الى مصر واستوطنوها يجدر بنا أن نقرر أن العكس حصل أيضا ، أى أن كثيرين من المصريين خرجوا مـن مصر لينشروا العلم خارجها فحملوا تلك الرسالة الفكرية الى أماكن شتى فى العالم الاسلامى ، واستهانوا بالغربة ليحملوا للمسلمين أفانين الفكر الاسلامى ، واذا كنا الآن نرى المصريين يعارون الى مختلف الجامعات والمـدارس بأقطار متعددة يحملون اليها رسـالة الفكر من القاهرة ، فإن ذلك امتداد للعصور الماضية حيث كـان العلماء المصريون يندفعون للخارج هنـا وهناك ناقلين الى الأقطار الاسـلامية إشعاعات من الدراسات الاسلامية التى تربت فى القاهرة ، وسنعطى هنا نماذج قليلة لهذا اللون من العلماء الذين كانوا من الكثرة بحيث لا يمكن حصرهم •

---

(١) جـ ٢ ص ١٩٦ وما بعدها ، وانظر خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ٣٩ — ٤٠ .

وأول من نذكر من هؤلاء الإمام الثبت الشيخ عمر الطحلاوى المالكى (١١٨١ = ١٧٦٧) الذى تلقى معارفه على سلسلة طويلة مـن شيوخ العصر ، وتمهر فى الفنون والعلوم ، وجلس يعلم بالجامع الأزهر وبالمشهد الحسينى ، واشتهر أمره وطار صيته ، فاتسعت حلقته اتساعا كبيرا وكان مشهورا بعذوبة البيان وجودة الالقاء ، وكانت له هيبة عالية ووقار وجلال ، وكان لكلامه وقع فى القلوب ، ومن أجل هذا اختاره الأمراء المماليك ليكون رسولهم الى الآستانة كوسيط بينهم وبين الخلافة العثمانية ، وقد استقبل هناك أحسن استقبال ونجحت وساطته ، ولكن المهم هنا أن الطلاب هناك والشيوخ انتهزوا فرصة وجود الشيخ بينهم فأحاطوا به ، وطلبوا اليه أن يجلس منهم مجلس المعلم ، وأن يفيض عليهم من معارفه ، فجلس فى مسجد أيا صوفيا وألقى هناك دروسا فى الحديث ، وتلقى عنه أكابر العلماء ، ووفد الى حلقته طلاب العلم من مختلف بلاد الروم كما يسميها الجبرتى (١) •

وطالت مدته هناك ، ولولا أنه كان من الضرورى أن يعود الى مصر لينقل للامراء نتائج وساطته لكان من الممكن أن تدوم اقامته هناك أو أن تطول أكثر مما طالت •

وإذا انتقلنا الى نموذج آخر والتقينا بالمحدث الفقيه الشيخ على بن عمر القناوى ، فإننا نلتقى بما يمكن أن نسميه جامعة متنقلة فلقد كـان الشيخ واسع المعرفة فى المعقول والمنقول وكأنما أحس بالتزامه أن ينشر ما عنده من فكر فى نطاق واسع فنظر الى العالم الاسلامى كله كأنه قطر واحد ، ووضع خطته بأن يتخطى المسافات والبلدان ليجلس هنا وهناك معلما وأستاذا ، وعندما ينظر الانسان الى الأقطار التى زارها ، ويتذكر أن وسائل المواصلات كانت آنذاك بسيطة متوانية ، تعتريه الدهشة مما حققه الشيخ من أسفار وأفضال ، حيث شملت رحلاته الحرمين • وجدة والبصرة ، وبغداد ، وخراسان ، وكابول ، وقندهار ، وبنارس ، وبلاد

---

(١) جـ ١ ص ٢٨٨ •

جاوه ، وصنعاء وزبيد ، وغيرها من البلاد الاسلامية وكان فى كل منها يجلس معلما ، ويفيض من معارفه على الطلاب والمفكرين ، وقد استقبله الملوك والأمراء بكثير من هذه البلاد ورحبوا به وأكرموه ، كما احتفت بـه الشعوب الاسلامية حينما نزل ، ويذكر الجبرتى (١) أنه لـم يعن بالمال ، كان يمكن أن يجمع منه الكثير فى أسفاره تلك ، ولكن ذلك لم يكن هدفا لـه ، وقد مات بمصر سنة (١١٩٨ = ١٧٨٣) وليس له ميراث يذكر ٠

ومن العلماء الذين حملوا العلم والمعرفة من القاهرة الى سواها من البلاد الاسلامية الشيخ محمد الحسينى (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذى تعمق فى الدراسات الاسلامية فبرع براعة فائقة ، ويذكر الجبرتى (٢) أنه ورد الى اليمن ، وجلس بها وعلم فيها ، واتخذ من زبيد مركزا لـه حيث تجمعت حوله أعداد كبيرة من الطلاب الراغبين فى العلم ، وانتقل الى بيت المقدس وهناك جلس معلما كما جلس فى الخليل ونابلس ، ومن فلسطين عاد إلى مصر فجال فى بلادها وبخاصة مدن الصعيد وقراه ثم سافر الى الخارج مرة أخرى فزار نابلس ثم دمشق وهناك تجمع حوله علماؤها ، واعترفوا بفضله ونالوا من علمه وفكره ، ومن دمشق عاد مرة أخرى الى نابلس ومرض هناك ، ولما حاولوا نقله الى مصر ليلفظ بهـا أنفاسه الأخيرة قال لهم أن بلاد الاسلام كلها وطن لـه لا يفرق بين دار ودار ٠ وهكذا لقى ربـه هنـاك ٠

العلماء بين الترف والزهد

كثير من علماء عصر الجبرتى جمعوا مع العلم ترف العيش وحياة الرخاء ، فكانت لهم قصور شاهقة وأرض زراعية شاسعة ، وخدم وحشم ، وعناية كبيرة بالمظهر واللباس ، وكانوا بذلك يمثلون الفكر الاسلامى الذى

---

(١) جـ ٢ ص ٨١ — ٩٠ ٠

(٢) جـ ٢ ص ١٢٦ — ١٢٧ ٠

يرى أن لا رهبانية فى الاسلام ، والذى يحث على أن الاسلام لا يتنافى مع المتع الحلال تبعا لقوله تعالى : « قل مَنْ حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق (١) •

ومن أجل هذا الاتجاه وجد من العلماء من اشتهر بالأناقة وحسن المنظر وجمال السمت ووجاهة الطلعة وجمال الهيئة ، كالشيخ على العزيزى (٢) (١١٩٩ = ١٨٨٤) والشيخ محمد المهدى الحفنى (١٢٣٠ = ١٨١٤) (٣) ومن جذبت حاقته كثيرا من النساء بسبب ما امتازت به هذه الحلقة من ترف مع تعفف وبراعة فى الفكر ويسر فى التأتى (٤) •

وسنعيش فترة مع أغنياء العلماء ، وقد اتجهوا جميعا الى استعمال غناهم فى خدمة العلم والانفاق على الطلاب ، ورفع قيمة العلم والعلماء وبخاصة عند أولئك الذين يهتمون بالغنى ويجلّون الثراء •

فأول من نذكر من هؤلاء الامام الزبيدى الذى تحدثنا عن كتابه فيما سبق ، ويطيل الجبرتى حديثه عن الزبيدى (٥) فيذكر فيما يذكر عنه أنه بعد أن ترك مسقط رأسه زبيد ارتحل الى مكة ومنها سار الى الطائف ، وتعمق هنا وهناك فى الدراسات الاسلامية والعربية ، ويروى الجبرتى عن الزبيدى قوله أن أحد شيوخه شوّقه الى دخول مصر بما وصفه له من علمائها وأمرائها وأدبائها ، وما فيها من المشاهد الكريمة ، فاشتاقت نفسه لمصر ، ثم جاءها سنة ١١٦٧ = ١٧٦٠م ، وسكن بخان الصاغة ، وسرعان ما علا فضله وانتشر صيته واتسع ثراؤه ، فراج أمره ، وترونق حاله ولبس

---

(١) سورة الأعراف : الآية ٣١ •
(٢) الجبرتى : جـ ٢ ص ٩٥ •
(٣) الجبرتى : جـ ٤ ص ٣٣٣ •
(٤) الجبرتى : جـ ٢ ص ٥٣ و ٢٠٠ •
(٥) الجبرتى : جـ ٢ ص ١٩٦ وما بعدها •

الفاخر وركب الخيول المسوّمة ، ثم أخذ يطوف بلاد مصر ، وكـان الناس يتلقونه بالترحاب والإجلال ، ولما عاد من رحلته انتقل الى منزل جديد بسويقة اللالا بالقرب من جامع محرم أفندى القريب من مسجد شمس الدين الحنفى وكانت تلك الخطة آنذاك عامرة بالأكابر والأعيان ، فأحدقوا به واستأنسوا ، والتف حوله التلاميذ وكانوا يجدون فى قصره الكبير نزهة ومتعة بالاضافة الى مـا يحصلون عليه مـن علم ومعرفة ، واستمر صيته فى ذيوع حتى عرفه ملوك الاسلام فى مختلف البلدان ، وترادفت عليه منهم الهدايا والصلات كما بعثوا اليه طيور الببغاء وطرائف الهند ، وأنواع العود والعنبر والعطر ، حتى أصبح بيته يضاهى بيوت الأمراء أو يزيد عليها ، واتسعت حلقته ، وعمل المآدب للضيوف وأكرم الوافدين اليه من الآفـاق البعيدة والقريبة ، وتعهد كثيرا من الطلاب ، وكان يجيد التركية والفارسية الى جانب العربية ، ولذلك دعاه خلفـاء العثمانيين لزيارة بلادهم والقاء الدروس بها .

ومن هؤلاء الشيخ ابراهيم محمد الشرابى (١١٧١ = ١٧٥٧) الذى يصفه الجبرتى بأنه أعز الأخوان وأخلص الأصدقاء والخلان ، وأنه من أهل بيت عرف بالثروة والمجد والعز والكرم ، ويوضح أن من أبرز صفاته حرصه على فعل الخير ومكارم الأخلاق ، وتقـديم الزاد ليوم المعاد ، والصدقات الخفية التى كان يتفقد بها طلبة العلم المنقطعين للدراسة ، كما كان يشترى المصاحف والألواح ويوزعها على الأطفال المسـلمين ، وكان يتفقد على العلامة عبد العليم الفيومى فكان ينفق عليه وعلى عياله بسخاء وكرم ، وهكذا تجدنا مع عالم فاضـل تعهد شيوخه كما تعهد تلاميذه ، واتخذ ماله وسيلة لخدمة العلم والمعرفة (١) .

ومن العلماء الذين كثر غناهم وامتد ثراؤهم الشيخ أحمد بن الحسن الشهير بالجوهرى ، وقد جاءت له هذه التسمية لأن والده كان يبيع الجوهر

---

(١) جـ ٢ ص ٢١٣ .

فعرف به ، وقد اشتغل الشيخ الجوهرى بالعلم ، وجدّ فى تحصيله حتى أصبح من أئمة العصر ، ويورد الجبرتى عددا هائلا من شيوخ الجوهرى الذين علموه وأجازوه ، كما يتحدث عن حلقاته العلمية التى تجمع بها عدد كبير من الطلاب كانوا ينالون من علم الشيخ ومن ماله ، وظل كذلك حتى توفى سنة (١١٨٢ = ١٧٦٨) •

وهكذا حفل هذا العصر بنخبة مـن الشيوخ كان لهم ثراء عريض ضمن لهم رفاهية العيش ، كما ضمن لتلاميذهم يسر الحياة وطلب العلم •

ومع هذا الغنى الذى نعم به بعض علماء هذا العصر ، نجد طائفة أخرى من العلماء اتجهوا الزهد وأعرضوا عن المال ، وكأنما رأوا فى المال مشغلة لهم فآثروا التفرغ للعلم وخدمته قانعين من الحياة بأبسط طعام وأخشن لباس ، وسنعطى فيما يلى بعض نماذج لهذا النوع من علماء العصر ومفكريه •

أول من نذكر من هؤلاء الشيخ الناسك أسـتاذ الجبرتى محمود الكردى الخلوتى (١) (١١٩٥ = ١٧٨٠) وكان أبوه واسع الثراء ، ولكن الشيخ كان متعففا عن المال يميل الى التجرد والمجاهدة والزهد ، وكان أخوه كثير اللوم له على ما يفعله من مجاهداته وتقشفاته ، ولكنه لم يكن يصيخ لأخيه ، وظل فى اتجاه الزهد والحرمان دون اكتراث بلوم أو توجيه ، ولما مات والده ترك ما يخصه من إرث لإخوته ، وواصل زهده وتفرغه لنيل العلم وتقديمه للطلاب •

ومن هؤلاء العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد الشنوانى (١٢٣٣ = ١٨١٧) الذى تلقى العلم عن جلة الشيوخ فى عصره كالشيخ فارس والدردير والفرماوى ، وتفقه على الشيخ عيسى الداوى ، وأجازه هؤلاء الشيوخ فأقام حلقته بالجامع المعروف بالفكهانى بالقرب من مسكنه ، وكان الشيخ

---

(١) جـ ١ ص ٦١ — ٦٢ •

مهذب النفس كثير التواضع ، معرضا عن الدنيا اعراضا تاما ، خشن الثياب ، يخدم نفسه ، ويعنى بنظافة الجامع حتى أنه كان يكنسه بنفسه ويسرج قناديله بيده ، ولما توفى الشيخ عبد الله الشرقاوى اختاروه لمشيخة الأزهر ، ولكنه امتنع وهرب الى مصر العتيقة زهدا فى المظاهر والأضواء ، ولكن علمه كان يرشحه لهذا المنصب فلاحقه أولو الأمر حتى أحضروه قهرا عنه ، وعينوه شيخا للأزهر ، ولكنه ظل ملازما للتواضع والزهد ، ولم يقطع حلقته بجامع الفكهانى (١) .

ومن العلماء الزهاد كذلك الشيخ محمد بن شاهين الراشدى الذى برع فى الحساب والفرائض وعلوم الشريعة ، وكان كثير الشيوخ ، ومن أخص شيوخه الشيخ حسن الجبرتى ، وفى ذلك يقول الجبرتى : إن الراشدى رافق الشيخ الوالد وعاشره مدة طويلة ، وتلقى عنه وهو أحد أصحابه من الطبقة الأولى وظل محافظا على وده ومؤانسته ، ولما جلس ليعلم تحلق حوله عدد كبير من الطلاب ، مأخوذين بسعة اطلاعه منتفعين بحسن عرضه للموضوعات حتى طبقت شهرته الآفاق ، ولكنه مع هذا كان حريصا على الزهد ، وصيام الدهر ، وقيام الليل بين عابد ومعلم ، ولما بنى أبو الذهب مدرسته أراده أن يكون خطيبا بها ، فامتنع ، فألح عليه وأرسل له صرة فيها دنانير ، فأبى أن يقبل ذلك ، ورد هذا المال الوفير ، فلم يكن للمال فى دنياه حساب ، ولكن أبا الذهب داوم إلحاحه حتى ألزمه بأن يخطب فيها أول جمعة بها ، وألبسه فروة سمور وأعطاه صرة دنانير ، ولكن الرجل كان بعيدا عن هذا الاتجاه زاهداً فى الأضواء والأموال ومن أجل هذا دعا الله ألا يخطب بعد ذلك ، فنزل به مرض أقعده عن الذهاب ، فتفرغ لتلاميذه من جديد حتى توفى سنة (١١٨٨ = ١٧٧٤ م) (٢) .

---

(١) جـ ٤ ص ٢٩٤ .

(٢) جـ ١ ص ٤٠٨ .

وهناك عدد وفير من هذا اللون من الشيوخ كان الواحد منهم يقنع بأن يكسب رزقه عن طريق تجارة صغيرة يزاولها أو كتب ينسخها أو صناعة يدوية يقوم بها غير مكترث بمال ولا ساعيا لجاه ، ولعلنا نذكر من هؤلاء الشيخ أحمد السنبلاوى (١١٨٠ = ١٧٦٦) (١) ، والشيخ محمد زين (١١٨٦ = ١٧٧٢) (٢) والشيخ على حجازى (١١٨٢ = ١٧٦٨) (٣) ، وسواهم كثيرون .

مواقف سياسية وعسكرية للشيوخ

كان التمزق السياسى يغمر مصر فى عصر الجبرتى ، فالامبراطورية العثمانية كانت تعانى ألوانا من الاضطراب فى مختلف الانحاء ، فلم تكن يدها قوية بمصر ، وتطلعات الدول الأوربية كانت واضحة تجاه مصر ، وكانت هذه الدول ترى فى مصر درة الشرق ، ومفتاح أفريقية ، وهمزة الوصل الى قارة آسيا ، وكان المماليك يتقدمون وينكصون ، يتقدمون ويتأخرون ، وكان الصراع يدور بينهم وبين العثمانيين ، ويدور صراع بين بعضهم والبعض الآخر ، وكانت مواقفهم فى مواجهة قوى الغرب مواقف غير قوية ولا باسلة .

وكل ذلك ترك فراغا كبيرا فى قيادة الشعب ، فتقدم العلماء لملء هذا الفراغ ، وأصبح العلماء ملجأ الناس فى الشدائد وممثليهم الذين ينطقون باسمهم ، وقادتهم فى الصراع ضد القوى التى تناهض البلاد ، وأصبح الأزهر لا يمثل مركزا علميا فقط ، بل يمثل كذلك دارا الشورى ومحرابا للسياسة ، كما أصبح ثكنة عسكرية تربّى الأبطال المغاوير ، وهكذا نجد العلماء هم الذين يهددون المماليك اذا انحرفوا أو جاروا ويلزمونهم بالعودة للصواب ، كما نجدهم يتصدون للحملة الفرنسية ولحملة فريزر ويقودون

---

(١) جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٢) جـ ٢ ص ٧٢ .
(٣) جـ ١ ص ٣٣٧ .

الشعب ، ويقدمون الضحايا لرد الأعـداء ، ويعزلون الولاة الجائرين ويعينون من يشاءون لحكم البلاد ، والحديث عن دور العلماء فى هـذا المجال طويل وممتع ، ونكتفى بأن نعود الى الجبرتى لنقتبس سطورا قليلة فى هـذا الشأن •

ذكر الجبرتى (١) أن الحاكم حسين بك المعروف بـ « شفت » بمعنى يهودى كان رجلا طاغيا جبارا يصادر أموال الرعية ، ويتهجم على البيوت ، وأنه ذهب بجنوده الى بيت أحمد سالم الجزار شيخ دراويش البيومى فنهب ما فيه حتى الفراش وحلى النساء ، فحضر أهل الحسينية الى الجامع الأزهر ومعهم الطبول والتفت حولهم العامة بأيديهم العصى وتفرقوا فى أنحاء الأزهر وأغلقوا أبوابه وصعد بعضهم الى مآذنه يصيحون ويضربون الطبول وانتشر فريق منهم فى الأسواق القريبة من الأزهر ثم قابلوا الشيخ الدردير فذكروا له مـا حدث ، فغضب لحرمات الله وقال لهم فى غد نجمع أهل الأطراف والحارات وبولاق ومصر القديمة وأركب معكم ، وننهب بيوت المماليك كما ينهبون بيوتنا ونموت شـهداء أو ينصرنا الله عليهم ، فارتاع المماليك وأوفدوا رسلهم الى الشيخ الدردير نادمين طالبين اليه أن يرسل قائمة بما نهبه حسين بك وجنوده ليردوه اليه ، وفعلا ردوا اليه جميع ما اغتصبوه •

وكثيرا ما كانوا يلفتون نظر الحكام الى أن طاعة الحاكم واجبة اذا لم يخالف الشرع ، وأن قاعدة الحكومة الاسلامية هى أنه « لا طاعة لمخلوق فى معصية الخالق » وفى أحد المواقف صب الشيخ على الصعيدى غضبه على الأمير يوسف بك الكبير فى وجهه ، ولعن من باعه ، ومن اشتراه ، ومن جعله أمير ، فاسترضاه الأمير ونزل على مشورته وأخذ بآرائه (٢) •

وكان الشيخ الدردير شجاعا مقداما لا يخشى فى الحق لومة لائم ،

---

(١) جـ ٢ ص ١٠٣ •

(٢) جـ ١ : ٤١٦ •

وقد حدث يوما والشيخ فى مولد السيد البدوى أن صادر أحد الحكام أموال بعض الرعية فطلب من بعض أتباعه أن يذهب الى هذا الحاكم ليطلبوا اليه رد الأموال المغصوبة ، ولكنهم خشوا أن يذهبوا اليه ، فركب الشيخ بنفسه وتبعه كثير من العامة حتى دخل مقرّ هذا الحاكم وهو راكب دابته ، وأغلظ له القول فاضطر الى ارضائه وارجاع ما اغتصبه من أموال .

وفى سنة ١٢٠٩ = ١٧٩٥ ، حدث عدوان من أحد زعماء المماليك على بعض فلاحى مدينة بلبيس ، فحضر وفد منهم الى الشيخ عبد الله الشرقاوى ، فغضب وتوجه الى الأزهر فجمع شيوخه وأغلقوا أبوابه وأمروا الناس بترك الأسواق والمتاجر ، وركب الشيوخ فى اليوم التالى وتبعهم كثير من الناس الى بيت الشيخ محمد السادات ، واحتشدت جموع عديدة من الشعب فأرسل اليهم الأمراء أحدهم وهو أيوب بك الدفتردار فسألهم عن أمرهم فقالوا : نريد العدل ورفع الظلم والجور وإقامة الشرع وإبطال الحوادث والمكرات « أى الضرائب » وخشى إبراهيم بك زعيم الأمراء مغبة الثورة فأرسل إلى العلماء وكانوا يقضون ليلتهم داخل الأزهر قائلا لهم : إنه يؤيدهم فى غضبهم ويبرىء نفسه من تبعة الظلم ويلقيها على كاهل شريكه مراد بك ، وأرسل فى الوقت نفسه إلى مراد بك فردّ ما اغتصبه من أموال ، وأرضى نفوس المظلومين .

واستطاع الشعب تحت قيادة علمائه أن يرغم الخليفة العثمانى على عزل واليه المستبد بمصر خورشيد باشا ، فقد قاد السيد عمر مكرم ومعه طائفة من العلماء جموع الشعب وحاصر هذا الوالى بالقلعة ، وأعلن عزله ، فأرسل اليه خورشيد باشا رسـولا يقول له : كيف تعزلون مـن ولاه السلطان عليكم ؟ وقد قال الله تعالى « وأطيعوا الله وأطيعوا الرسـول وأولى الأمر منكم » فأجابه عمر مكرم بقوله : « أولو الأمر هم العلماء وحملة الشريعة ، والسلطان العادل ، وأنت رجل ظالم ، وللناس أن يعزلوا

الحاكم الظالم ، وأن يخلعوه حتى الخليفة نفسه ، فالسلطان إذا سار فى الناس بالجور كان من حق الرعية أن يعزلوه ويخلعوه » .

ولم يلبث السلطان العثمانى أن نزل على حكم العلماء فعزل هذا الوالى الجبار ، وهنا تتجلى سماحة السيد عمر مكرم حيث أرسل مائتين من الإبل حملت متاع الوالى والمحاصرين معه ، وأنزلهم فى ضيافته بضعة أيام ليحميهم من غضب الشعب وييسر لهم سبيل النجاة .

وعندما غزا الفرنسيون مصر بقيادة نابليون قاومهم الشعب مقاومة عنيفة تحت قيادة علماء الأزهر حتى اضطر نابليون الى أن يعود الى فرنسا فى أواخر أغسطس سنة ١٧٩٩ تاركا خليفته كليبر قائدا للحملة الفرنسية بمصر فاغتاله طالب أزهرى هو سليمان الحلبى فى يونية سنة ١٨٠٠ ، وقد أعدم هو وأربعة آخرون من شيوخ الأزهر وطلابه ، وكان نابليون قد أعدم من قبل ثلاثة عشر عالما من علماء الأزهر سنة ١٧٩٨ ، وبعد كفاح مرير خرجت الحملة الفرنسية من مصر سنة ١٨٠١ وفتحت أبواب الأزهر بعد أن ظل مغلقا زهاء عام .

ولما جردت انجلترا حملتها على مصر تحت قيادة الجنرال فريزر سنة ١٨٠٧ ثار الشعب تحت قيادة علماء الأزهر ، وقام السيد عمر مكرم بحشد المقاومة وإقامة الاستحكامات الدفاعية ، وحفر الخنادق حول القاهرة ، وكان يذهب صباح كل يوم مع الجماهير المحتشدة حيث يقوم العمال بعمل الاستحكامات الحربية ويظل سحابة نهاره بينهم ، وكان أحيانا يشاركهم إقامة هذه الاستحكامات ، فيثير فيهم طاقات من الحماسة والوطنية ، وحب الاستشهاد وباءت هذه الحملة بالفشل والخسران (١) .

ولقد استطاع علماء الأزهر أن يفرضوا على الخليفة العثمانى الوالى

---

(١) جـ ٤ ص ٥٠ .

الذى ارتضوه وهو محمد على باشا بعد أن أخذوا عليه العهود والمواثيق وأغلظ الأيمان .

* * *

وبعد هذا الموجز السريع عن نشاط العلماء فى المجال السياسى والعسكرى ، نقتبس من الجبرتى لقطات سريعة من طائفة أخرى من العلماء ارتبطت بهم مواقف رائعة ، فالعالمان الكبيران الشيخ أحمد الشرقاوى (١٢١٣ = ١٧٩٨) والشيخ يوسف المصيلحى (١٢١٣ = ١٧٩٨) قتلهما الفرنسيون لتزعمهما المقاومة (١) . وكان الشيخ محمد بن عبد الكريم (١٢١٥ = ١٨٠٠) مهيب الجانب بحيث كانت شفاعته لا ترد (٢) ، وكان محمد بك الألفى يستغيث بالفقهاء (٣) وكان محمد على يطلب من عمر مكرم أن يجمع مالا للجند كلما حزبه أمر (٤) ، وتصدى العلماء لمحمد على باشا يعارضون بعض آرائه ، ويطلبون رفع المظالم (٥) ، وكان العلماء يزورون البلاد ويتعرفون على مشاكل كل الناس ، كما كانوا إذا اشتد الغلاء يعملون تسعيرة للمواد الغذائية ويفرضونها على الحكومة والتجار (٦) .

الجبرتى ينقد الحاكم بصراحة :

أما الشيخ عبد الرحمن الجبرتى نفسه ، فيبرز لنا جلال العلماء وهيبتهم فيما كتبه عن حكام العصر غير هياب ولا خائف ، فهو ينتقد **الديوان الذى أقامه محمد على باشا نقدا مرا ، ويلوم سياسة الباشا الذى أبقى دار الضرب على ذمته ، وجعل خاله ناظرا عليها ، كما يلومه لأن نفسه طمحت إلى مصادرة بعض الأموال حسدا منه لبعض الناس الذين رآهم يتجملون فى ملابسهم ومراكبهم** ويقول عنه بالحرف الواحد : لأنه

---

(١) جـ ٣ ص ٦١ .
(٢) جـ ٢ ص ١٦٤ .
(٣) جـ ٤ ص ٣ .
(٤) جـ ٤ ص ٥١ .
(٥) جـ ٤ ص ٨ و ٩ .
(٦) جـ ٢ ص ١٣٦ .

من طبعه داء الحسد والشره والطمع والتطلع لما فى أيدى الناس وأرزاقهم (١) ويثور الجبرتى مدافعا عن الفلاح الذى تؤخذ منه الغلال بأسعار رخيصة وتباع لحساب الحكومة بأسعار مرتفعة (٢) كما يعارض استمرار غلاء الأسعار وبخاصة فى الأوقات التى لا يستغنى عنها الفقير ولا الغنى ، ويورد نماذج لهذه الزيادات الخيالية ، كما يشهر بالباشا لأنه وضع يده على بعض الأراضى المملوكة للناس ليزرعها لحسابه (٣) ، ويعيب على الباشا ظلمه فى تحصيل بعض الجمارك المرتفعة التى يتسبب عنها ارتفاع الأسعار على المستهلكين (٤) .

المكانة الاجتماعية للعلماء

كان للعلماء فى عصر الجبرتى مكانة اجتماعية عالية تفوق مكانة الساسة والحكام ، ويذكر الجبرتى عن الشيخ على أحمد بن مكرم الله العدوى (١١٨٩ = ١٧٧٥) أنه كان يستقبل كل من تعسر عليه قضاء حاجة ، ويكتبها فاذا تجمع لديه قائمة طويلة بمطالب الناس ذهب الى الأمير وأخرج القائمة من جيبه ، وأخذ يقص ما فيها واحدة بعد واحدة ويأمر الأمير بقضاء حاجات الناس ، والأمير لا يخالفه ، ولا ينثنى عنه ، ويضيف الجبرتى عن هذا الشيخ أنه كان لا يشرب الدخان فى مجلسه تعظيما للعلم ولآله ، واذا دخل منزلا من منازل الأمراء توقف هؤلاء عن شرب الدخان ، فان رآى آلة من آلته كسرها ولو كانت فى يد كبير الأمراء (٥) .

وحدث مرة أن كان الشيخ حسن الجبرتى راكبا دابته وعائدا الى بيته فالتقى بموكب الأمير أحمد البارودى ، وحاول الشيخ أن يفسح لموكب

---

(١) جـ ٤ ص ١٣٨ .
(٢) جـ ٤ ص ١٤٠ .
(٣) جـ ٤ ص ١٤٢ .
(٤) جـ ٤ ص ١٥٦ .
(٥) جـ ٤ ص ١٥٧ .

الأمير وينحرف فى جانب من الشارع ولكن الأمير عندما رآه نزل عن فرسه وخف الى الشيخ يقبل يده ويلاطفه (١) .

من الإمارة إلى العلم :

ولعل هذه المكانة التى كان يحظى بها علماء المسلمين هى التى دفعت بعض الأجناد والأمراء ليتخلوا عن الجندية والامارة ، وينضموا فى سلك الطلاب والفقهاء ، ومن هؤلاء الشيخ حسن المعروف بابن الكاشف (١٢٢٩ = ١٨١٣) الذى انخلع عن طبقة الأمراء ، وأخذ يحفظ القرآن ويجوده ، والمتون ويتدارسها ، وتزيا بزى الفقهاء ، والتحق بحلقات شيوخ عصره حتى أصبح من خيرة العلماء المصريين ، وكان يقول إن ما حصل عليه من العلم وجاهه أرفع بكثير مما تركه من وجاهة الامارة ، ومكانة الأجناد (٢) .

من المسيحية للإسلام :

وفى هذا النطاق كذلك نذكر إن بعض الطموحين من غير المسلمين دخلوا الاسلام ، وتعمقوا فى الدراسات الإسلامية ، ولعبوا دورا كبيرا فى حياة مصر فى هذا العصر ، ومن هؤلاء الشيخ محمد المهدى الحفنى (١٢٣٠ = ١٨١٤) (٣) ووالده كان من الأقباط ، وأسلم هو على يد الشيخ الحفنى ، واهتم هذا بـه حتى منحه اسمه ، ولازم دروس أشياخ العصر ،كالشيخ العدوى والأجهورى والدرديرى والبيلى والجمل والشرقاوى واجتهد فى التحصيل ليلا ونهارا ، حتى مهر وأنجب ، وتصدر للتدريس بالأزهر ، فكانت لـه حلقة واسعة ويروى عنه أنه لما حضر الفرنسيون إلى مصر قام بدور إيجابى فى حماية الناس من عسفهم ، فكان يبعث الأمان للفارين والهاربين ، ويطلب منهم العودة للبلاد ، كما يقدم الضمانات للمختفين من الأجناد والناس ليظهروا ويباشروا أعمالهم فى أمن ، وكان يحمى دورهم وحريمهم ويدافع عنهم فى غيابهم ، ويقول الجبرتى عنه أنه

---

(١) خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى ص ٢١ .

(٢) جـ ٤ ص ٢١٥ — ٢١٦ .

(٣) جـ ٤ ص ٢٣٣ — ٢٣٤ .

سد بعقله ثقوبا واسعة ، وداوى برأيه جروحا وفتوحا عميقة ، فكان بذلك حصنا للناس وحمى للخير •

وهكذا كان للعلماء فى عصر الجبرتى مكانة سامية دونها كل مكانة وكل رياسة •

علماء فى الدراسات الاسلامية

برزوا كذلك فى الآداب والعلوم والفنون

كانت الدراسات الإسلامية طيلة عصر الجبرتى أساسا لكل الدراسات الأدبية والمدنية ، فكان الطبيب والرياضى والفلكى والأديب يعرفون الدراسات الاسلامية ويجيدونها قبل أن يصلوا الى الدراسات الأدبية أو المدنية ، وقد ظل الحال على ذلك حتى عصر محمد على الذى اختار من بين الأزهريين من يرسلهم للتخصص فى الدراسات العلمية فى أوربا ، وسنعيش فيما يلى مع بعض علماء المسلمين الذين برعوا فى الدراسات الاسلامية ولكنهم أجادوا معها ألوانا من الآداب والعلوم والفنون :

وأول من نذكر من هؤلاء العالم الأديب محمد بن رضوان السيوطى الشهير بابن الصلاحى [1] (١١٧٨ = ١٧٦٤) ، وقد تلقى ابن الصلاحى العلوم الاسلامية عن الشيخ محمد الحنفى وغيره من علماء العصر حتى حقق فى الدراسات الاسلامية مكانة عالية ! ولكن أكثر شهرته اتضحت فى الدراسات الأدبية فكان له شعر رائع مختلف الاتجاهات والصور وقد روى الجبرتى منه ما يزيد عن عشرين صفحة يمكن أن تكون ديوانا مهما ، ويذكر الجبرتى : أن له مقامة بديعة فى مدح سيدنا رسول الله ، وغرَرَاً من الشعر فى أغراض متباينة ونقتبس من شعره ما يلى :

هات لى قهوة الشفا من شفاهك   واسقنيها على فخامة جاهك

---

(١) جـ ١ ص ٢٦٥ وما بعدها .

عاطنيها يا أوحد العصر لطفاً وبديع المثال فى أشباهك
يا غزالا لو صوّر البدر شخصاً ليضاهيك فى البها لم يضاهك

وكتب الى بعض الاخوان وقد أهدى اليه منديلا :

يا كاملا أحيت مكارمه الندى فغدا لأمراض القلوب طبيبا
وردت هديتك التى كانت لنا كقميص يوسف إذ أتى يعقوبا
منديل سرك حين جاء مبشرا بالود سر خواطراً وقلوبا

ومن هؤلاء العلامة أبو العرفان الشيخ محمد بن على الصبان (١٢٠٦ = ١٧٩١) الذى حفظ القرآن والمتون واجتهد فى طلب العلم وحضر أشياخ عصره ، وجهابذة مصره ، وقرأ عليهم علوم العصر ، وبرع فيها براعة فائقة ، ثم مال مع ذلك الى الأدب والعروض ، فألف فى العروض رسالة مهمة ، واهتم بالمناظرات الأدبية ، وكان له فى النثر كعب علىّ : وفى الشعر كأس ملىّ كما يقول الجبرتى (١) ، ومن شعره نقتبس المقطوعة التالية :

أثيم جنى ذنباً ورحبُ الحمى حلا فهل من رضا عنه تجود به فضلا
إليك أبا الأنوار قد أبت مخلصاً ومن ذا الذى يا سيدى قط مازلا
أعيذك أن يسعى لبابك عائذ وتكسوه من أجل ذنب له ذلا
إذا أنت بالغفران والصفح لم تجد فمن منه نرجو العفو والصفو والبذلا

ومن العلماء الأدباء قاسم بن عطاء الله المصرى (٢) (١٢٠٤ = ١٧٨٩) الذى قرأ العلوم الإسلامية وتضلع فى الأدب والتواشيح والزجل ، وكان سريع الارتجال فى الشعر ، وكان شعره فى غاية الجودة وقد برع كذلك فى فن التاريخ وكان فيه معروفا بالدقة والوضوح والسلامة .

---

(١) ج ٢ ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٢) ج ٢ : ١٨٤ .

ومن فقهاء العصر الذين برعوا فى الأدب والشعر الشيخ محمد السنباوى (١) الأزهرى (١٢٣٢ = ١٨١٦) الذى انتهت له الرياسة فى العلوم فى الديار المصرية وشاع ذكره فى الآفاق ، ووفد له الطلاب من كل صوب ، وكان له مع ذلك شعر جميل نقتطف منه ما يلى فى الغزل :

أيها السيد المدال ضاعت فى الهوى هيبتى وأنسيت نسكى
يا لك الله لا تمل لسوائى وتحكم ولو بما فيه فتكى

وإذا اكتفينا بهذا القدر من العلماء الأدباء واتجهنا شطر العلماء الذين برزوا فى الدراسات العلمية والفنية نجد عددا وافرا حقق كبيرا من التقدم فى هذه الدراسات ، وأول من نذكر فى هذا المجال الشيخ أحمد بن عبد المنعم الدمنهورى (١١٩٢ = ١٧٧٨) الذى تولى مشيخة الأزهر سنة ١١٨٢ = ١٧٦٧ ، وهو يذكر سندا طويلا ، ودراسات واسعة نقتبس منها ما يلى : أخذتُ عن أستاذنا الشيخ محمد الريحانى متن اكنز والأشباه والنظائر وشيئا من المواقف فى بحث الأمور العامة ، وأخذت عن الزعترى الميقات والحساب والمقنطرات ، كما درست معه منظومة الياسمين فى الجبر والمقابلة ، والمنحرفات السبط المردينى فى وضع المزاول ، وأخذت عن سيدى أحمد القرافى الحكيم كتاب الموجز واللمحة العقيقية فى أسباب الأمراض وعلاقاتها ، وبعضَها من قانون ابن سينا ، وقرأت على أستاذنا الشيخ سلامة الفيومى أشكال التأسيس فى الهندسة ، وكذلك علم الهيئة والمساحة ، وقرأت على الشيخ محمد الشحيمى منظومة علم الأعمال الرصيدية وروضة العلوم ، وبهجة المنطوق والمفهوم لمحمد بن ساعد الأنصارى وهو كتاب يشتمل على سبعة وسبعين علما ، كما قرأت عليه رسالة فى علم المواليد تشمل دراسة الحيوانات والنباتات (٢) .

---

(١) جـ ٤ ص ٢٨٤ .

(٢) الجبرتى جـ ٢ ص ٢٥ — ٢٧ .

وفى الفلك والهيئة نقابل الشيخ رضوان الفلكى [١] (١١٢٢ = ١٧١١) وهو صاحب الزيج الرضوانى الذى حرره على أصول الرصد الدقيق ، وهو مؤلف كتاب أسنى المواهب ، وكتب أخرى كثيرة فى الحسابات والتحقيقات وله جداول حسابية بارعة ، وقد استطاع أن يرسم الأرض على شكل كرة من النحاس الأصفر ، ونقش حولها الكواكب المرصودة ومن تأليفه النتيجة الكبرى ، والنتيجة الصغرى ، وكانتا فى عهده مشهورتين متداولتين بأيدى الطلبة بآفاق الأرض ، وله كتاب عن طراز الدرر فى رؤية الأهلة والعمل بالقمر .

ومن العلماء الذين اشتهروا بالبراعة فى الفلك كذلك الشيخ عبد الله ابن خزام الفيومى [٢] (١١٩٥ — ١٧٨٠) الذى تولى الافتاء فسار فيها بالدقة والتحرى ، وكان له معرفة تامة بالفلك والهيئة والميقات وعنده لذلك آلات كثيرة دقيقة .

وقد برع فى الموسيقى الشيخ حسن ضيائى [٣] (١١٨١ = ١٧٦٧) أحد أعيان عصره فى الدراسات الإسلامية ، وكان مع ذلك له براعة فى الخط العربى ، واجادة له ، كما كان له معرفة واسعة بعلم الموسيقى وأوزانها ، ويجيد استعمال كثير من آلاتها .

ومن العلماء الذين برعوا فى علم الحساب والرياضيات الشيخ محمد بن اسماعيل (١١٨٥ = ١٧٧١) ، وكان له باع واسع فى الدراسات الإسلامية مستحضرا للمسائل الفقهية والعقلية ، ويقول عنه الجبرتى [٤] أنه لما بلغ المنتهى فى العلوم المشهورة تاقت نفسه للعلوم الحكمية

---

(١) جـ ١ ص ١٧٤ .
(٢) جـ ٢ ص ٧١ .
(٣) جـ ١ ص ٢٨٥ .
(٤) جـ ١ ص ٣٦٧ — ٣٦٨ .

والرياضية فاتجه لتعلمها ، فبرع فيها براعة عظيمة ، وأصبح فى الرياضة والحساب والهندسة لا يشق لـه غبار .

وقد برع فى الحساب والرياضيات كذلك الإمام العلامة محمد بن يونس الطائى (١) (١١٩٢ = ١٧٧٨) كما برع فيها كذلك الشيخ محمد بن موسى الجناجى (٢) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذى دفعته الرغبة فى التعرف على قسمة المواريث الى إجادة الحساب ، ثم أحب الرياضيات ، فأجاد الجبر والمقابلة وألف فى الرياضيات رسائل مهمة ، وكان لـه فى تحويل النقود بعضها إلى بعض رسالة نفيسة تدل على براعته وغوصه فى علم الحساب كما كان بارعا فى حساب الكسور والقسمة والجذورات ، ممـا انفرد به بين علماء عصره .

وممن برع فى الطب من العلماء الشريف العفيف الشيخ محمد بن زين (٣) التاريمى الأصل (١١٩٦ = ١٧٨١) نزيل مصر ، وكان واسع المعرفة بالمعقول والمنقول ولـه معرفة دقيقة بدقائق علم الطب ، وكانت وصفاته الطبية تهب الشفاء للمرضى ، وتزيل عنهم وصب الآلام .

ومن الشيوخ الأفاضل الذين كان لهم معرفة بالطب الشيخ حسن الجبرتى (٤) الذى كان يحتفظ فى بيته بألوان من الدهون يعالج بها كثيرا من الأمراض والجراح ، كما كان له معرفة بكثير من الآلام وعلاجها .

وهكذا حمل رجال الدراسات الاسـلامية عبء الفكر فى اتجاهاته المختلفة ولم يتركوا مجالا علميا إلا طرقوه بمقدار ما أتيح لهم من جهد وطاقة .

---

(١) جـ ٢ ص ٢٧ .
(٢) جـ ٢ ص ١٢٥ .
(٣) جـ٢ ص ٧٢ .
(٤) جـ٢ ص ٤ .

ملامح أخرى عن علماء عصر الجبرتى

لغـات أجنبية :

لا يزال عندنا أفانين من الفكر أجادها علماء الدراسات الإسلامية فى هذا العصر فقد كان منهم من أجاد اللغات الأجنبية ، وكان خطه فيها غاية فى الجودة ، ومن أجل هذا كان هؤلاء سفراء مصر الى الخارج اذا حزب أمر ، ومن هؤلاء الشيخ على بن محمد الجزائرى الأصل والمصرى الثقافة والفكر (١١٨٥ = ١٧٧١) ويقول عنه الجبرتى (١) إنه زاحم العلماء بمناكبه فى تحصيل أنواع العلوم وأجازه كثير من شيوخ العصر ، وكان يعرف اللسان التركى ، وقد جعله هـذا على صلة وثيقة ببعض أمـراء الأتراك وبخاصة الأمير أحمد أغا .

ومن هؤلاء محمد بن اسماعيل السكندرى (١١٨٣ = ١٧٦٩) الذى كان يعرف الألسنة الثلاثة ، العربية والفارسية والتركية ، مع ميل الى المحاورات واللطائف الأدبية ، ويقول عنـه الجبرتى (٢) ان رسائله فى الألسن الثلاثة كانت غاية فى الفصاحة مع حسن خط ووفور حظ ، ومهابة عند الأمراء وكان والده اسرائيليا ، فأسلم وحسن اسلامه ، وكان يزور الشيخ حسن الجبرتى فى أخريات حياته ، ويقول الشيخ عبد الرحمن الجبرتى انه رأى كتاب بهارستان لمولانا جامى مكتوبا بخط يد السكندرى ، وقد أحسن فى كتابته وأتقن فى سياقه ، كما رأى للسكندرى كتابا آخر فيه بعض النوادر ومجموعة من الشعر بالألسن الثلاثة ، ويطنب الجبرتى فى مدحه والثناء عليه إطنابا طويلا ، ويقتبس من كلامه مـا يدل على إبداع وعمق وروعة .

ومن هؤلاء كذلك حسن الدرويش (١٢٣١ = ١٨١٥) الذى كانت له مشاركة فى كل فن من الرياضيات والأدبيات ، والمعقول والمنقول كما

---

(١) جا ص ٣٦٩ .

(٢) جا ص ٣٣٩ .

كانت له معرفة بلغات كثيرة حتى كأنه خالط أهلها وعاش فى ديارها وكان يعلّم هذه اللغات لمن أراد أن يتعرف عليها ، ويعلم اللغة العربية للأعاجم الذين يفدون الى مصر (١) .

ولا يمكن أن نطوى صفحة الحديث عن العلماء الذين أجادوا اللغات الأجنبية دون أن نتحدث عن الشيخ حسن الجبرتى الذى كان يعرف اللغة الأمهرية ويجيد اللغة التركية ويخاطب بها الأمراء حتى كأنه منهم ، بل يضيف مترجم حياته أن جماعات من الافرنج قصدوا بيته ، وأخذوا عنه علم الهندسة وذهبوا الى بلادهم ونشروا بها ذلك العلم ، وأخرجوه من القوة الى الفعل ، واستخرجوا به الصنائع البديعة مثل طواحين الهواء وجر الأثقال واستنباط المياه (٢) .

وظيفة المعيد :

وقد عرفت المدارس المصرية فى ذلك العصر وظيفة المعيد ، وكان المعيد يجلس فى حلقة أستاذه أقرب ما يكون الى الأستاذ ، ويتلقى الدرس مع الطلاب ، فاذا انتهى الشيخ من القاء درسه وغادر المكان بدأ المعيد يشرح ما غمض من ذلك الدرس على الطلاب ، ويجيب على أسئلتهم ، ومن الممكن أن يعود الى أستاذه إذا سئل سؤالا لم يعرف الجواب عنه ، وهكذا عرفت حلقات التدريس بمصر فى عصر الجبرتى تلك الوظيفة التى تهتم بها الجامعات فى العهد الحاضر ، لتكوّن أساتذة المستقبل ومن المعيدين الذين تحدّث عنهم الجبرتى الشيخ عبد القادر بن خليل (١١٨٧ = ١٧٧٣) الذى لازم الشيخ ابن الطيب ملازمة كلية حتى صار معيدا لدروسه : وهو رومى الأصل ، وقد جاء الى مصر ، ثم خرج منها طوّافا معلما ، وعاد لها — كما يقول الجبرتى (٣) بالفوائد الغزار وبما حمل فى طول غيبته من النوادر والأسرار .

---

(١) جـ٤ ص ٢٦١ — ٢٦٢ .
(٢) جـ١ : ٣٩٧ .
(٣) جـ١ ص ٣٧٨ — ٣٧٩ .

ومن هؤلاء الشيخ محمد بن موسى الجناجى (١) (١٢٠٠ = ١٧٨٥) الذى كان معيدا للشيخ الصعيدى ، ومنهم كذلك الشيخ الجداوى وسليمان العجيلى والسمنودى والأجهورى والعدوى والصاوى والدسوقى .

ومن الواضح أن كلا من هؤلاء تخطى بعد حين وظيفة المعيد ، وأصبح قمة من قمم الفكر وعالما عظيما من علماء العصر ، وقد تحدثنا عن أكثرهم فيما سبق مـن لدراسـات .

علماء معمرون :

ومن الناس مـن يعتقد أن الانكباب على العلم ، والسهر لنيله ، والجلسة لتعليمه تضر بالصحة وتضعف الجهد ، لما تسببه من ارهاق ، ولكن الباحث فى عصر الجبرتى يشاهد كثيرين من العلماء المعمّرين الذين طعنوا فى السن على الرغم من جهودهم الكبيرة فى خدمة العلم والمعرفة ، فالإمام العالم الشيخ عـلى بن محمد الشناوى (٢) (١١٨٦ = ١٧٧٢) الذى انتهت اليه الرياسة فى زمنه عاش حتى جاوز المائة ، وكان طيلة عمره متمتعا بالحواس ، ثاقب الفكر ، وممن جاوزوا المائة كذلك الشيخ سليمان بن محمد البحيرى (٣) (١٢٢١ = ١٨٠٦) الذى ظل يملى على تلاميذه حتى ليلة وفاته ، ومن الشيوخ المعمّرين كذلك الشيخ خالد بن يوسف الديار بكرى (٤) (١١٩٣ = ١٧٧٩) وأصله من ديار بكر ، وفد الى مصر ولازم حضور الأشياخ بها ، وزامل الشيخ عبد الرحمن الجبرتى فى حلقة السيد محمد مرتضى بجامع شيخون حيث تلقيا دروس الصحيح ، وزامله كذلك فى جامع أبى محمود الحنفى حيث تلقيا « الأمانى والشمائل » ثم اتجه الشيخ خـالد للوعظ والتدريس ، وطال عمره حتى أصبح من المعمّرين ذوى الشهرة فى ذلك العصر .

---

(١) جـ٢ ص ١٢٥ .

(٢) جـ٤ ص ٢٤ .

(٣) جـ٤ ص ٥٧ .

(٤) جـ١ ص ٤١١ .

ومن الشيوخ المعمّرين كذلك الشيخ أحمد بن عبد السلام (١١٨٨ = ١٧٧٤) (١) والشيخ زين الدين القاسم العبادى (٢) (١١٨٨ = ١٧٧٤) والشيخ محمد أبو السعود المكتّنى (٣) (١٢٠٢ = ١٧٨٧) وقد تجاوز التسعين ، والشيخ أحمد البرماوى (٤) (١١٣٨ = ١٧٢٥) .

وهكذا نجد فى عصر الجبرتى شيوخا تخرج على أيديهم عـدة أجيال وطالت أيامهم فى خدمة الفكر والاسلام ، وكان عمرهم الطويل مصدر يمن وبركة على الدراسات الاسلامية .

وفرة المؤلفـات :

وقد دون علماء هذا العصر مجموعة من الكتب والمؤلفات فى مختلف العلوم والفنون ولو قدر لهـذه المجموعة أن تبقى مخطوطة أو مطبوعة لكانت ثروة هائلة ، ومكتبة رائعة ، ولكن ما بقى منها — على كل حال — يصور مدى الجهد الذى بذله رجال هذا العصر فى خدمة العلم والمعرفة ، وقد أورد الجبرتى صفحات طويلة عدّد فيها مؤلفات علماء عصره وكنموذج من هذا الجهد نقتبس ما كتبه عن مؤلفات الشيخ الدمنهورى (١١٩٢ = ١٧٧٨) فمنهـا حلية اللب المصـون بشرح الجـوهر المكنون ، ومنتهى الإرادات فى تحقيق الاشعارات ، وإيضاح المبهم فى معانى السّلم ، وايضاح المشكلات فى متن الاستعارات ، ونهاية التعريف بأقسام الحديث الضعيف ، والحذاقة بأنواع العلاقة ، وكشف اللثام عن مخدرات الأفهام على البسملة ، وحسن التعبير فى القراءات العشر ، وتنوير المقلتين بضياء أوجه الوجهين بين السورتين،والفتح الربانى بمفردات ابن حنبل الشيبانى، وطريق الاهتداء بأحكام الإمامة والاقتداء على مذهب أبى حنيفة ، وإحياء

---

(١) جـ١ ص ٤١١ .
(٢) جـ٤ ص ١٦٥ .
(٣) جـ٤ ص ٧٦ .
(٤) جـ٢ ص ٢٦ — ٢٧ .

الفؤاد بمعرفة خواص الأعداد ، والدقائق الألمعية على الرسالة الوضعية ، ومنع الأثيم الحائر على التمادى فى فعل الكبائر ، وعين الحياة فى استنباط المياه ، والأنوار الساطعات على أشرف المربعات ، وخلاصة الكلام على وقف حمزة وهشام ، والقول الصريح فى عالم التشريح ، وإقامة الحجة الباهرة على هدم كنائس مصر والقاهرة ، وفيض المنان بالضرورى من مذهب النعمان ، وشفاء الظمآن بسر قراءة القرآن ، وإرشاد الماهر إلى كنز الجواهر ، وتحفة الملوك فى علم التوحيد والسلوك ، والزهر الباسم فى علم الطلاسم ، ومنهج السلوك إلى نصيحة الملوك ، والمنح الوفية فى شرح الرياض الخلفية فى علم الكلام ، والكلام السديد فى علم التوحيد ، وبلوغ الأرب فى اسم سلاطين العرب •

ويختم الجبرتى حديثه عنها بقوله إنه اطلع على أكثرها وانتفع بما ورد فيها •

وبعد ، لقد كان عصر الجبرتى عصرا حافلا يبدو فيه اضطراب الساسة ونشاط العلماء ، وقد استطاع الجبرتى أن يصور لنا هذا العصر أدق تصوير ، فجعل القارىء يحس — وهو يقرأ ما كتبه الجبرتى — كأنه يعيش هذا العصر من جديد ، ينفعل بالأحداث فيه ، وتبهره مواقف العلماء وما بذلوه من جهد لخدمة مصر بوجه عام ، وخدمة الدراسات الإسلامية بوجه خاص ، وقد استطاع العلماء أن يدفعوا عن مصر كثيرا من الضر ، وأن يجعلوا مصر فى هذا العصر مركزا للدراسات الإسلامية ، فكان عصرهم بذلك امتدادا للنشاط العلمى الذى مارسته هذه البلاد عدة أجيال من قبل ، وكان عصرهم أيضا مهيئا لنهضة عظمى بدأت بعد حين ، ولا تزال تخطو وتحاول أن تحقق لمصر وللعالم العربى والاسلامى المكان اللائق فى دنيا الفكر والعلوم •

٣ ـ الفترة الاستقلالية

من « محمد على » الى الاحتلال البريطانى

طال بنـا الحديث عـن الفترة السـابقة التى أسميناها « الفترة المملوكية » لأنها حوت الحملة الفرنسية بما قدمناه عنها من دراسات مهمة فيها الكثير من الجديد ، ولأنها شملت كذلك دراسات رائعة اقتبسناها من الجبرتى عن هذه الفترة •

وننتقل الآن للحديث عن « الفترة الاستقلالية ، ونطلق عليها الفترة الاستقلالية » لأن نفوذ تركيا فى الواقع قد تقلص فى مصر ، حتى لـم يعد يُحْسَب له حساب ، ثم إن المماليك الذين كانوا يأتون من الخارج فوجا بعد فوج ضعف شـأنهم أو زال ، والجيش المصرى تطور ليكون مصريا حقيقة ، وتغلب كبار ضباطه بمرور الزمن على العقبات التى كانت فى طريقهم أو على أكثرها ، وبدأت العناصر المصرية فى الميادين المختلفة تظهر وتفرض نفسها ، فسلسلة الأبطال المصرين لم تنقطع طيلة هـذه الفترة التى نتحدث عنها ، من عمر مكرم الى عرابى • ومحمد على وأولاده وافدون على مصر ، ولكنهم بعد قليل لم يجدوا سـواها وطنا ، وقـد منحتهم مصر ألوانا من الجاه فحرص بعضهم عليها ليستمر له هذا الجاه والنفوذ ، وخانها بعضهم ليستمر لـه الجاه أيضا ، ولكن مصر فى الموقفين لم يكن يدفعها نفوذ يذكر من الخارج ، الى أن جاء الاحتلال أو ظهرت معالمه ، ومن أجل هـذا كان جديرا بنا أن نسمى هذه الفترة « الفتـرة الاسـتقلالية » •

محمد على وأولاده

الزيف فى تدوين التاريخ :

إن الحديث عن محمد على وأسرته فى عصرنا حديث ليس سهلا ، فقد اتجهت الجهود منذ قيام عصابة ٢٣ يوليو إلى التقليل من قيمة الأسرة العلوية،

بل إلى الطعن فيها والنيل منها ، وأصبح هذا التاريخ الظالم هو المادة التى تقدّم للتلاميذ فى المدارس الابتدائية والإعدادية والثانوية وهو المادة التى تتكلم بها وتنطلق بها ألسنة وسائل الاعلام الأخرى [1] ولم تكن هذه الأسرة وحدها هى التى ظلمها كتّاب عصر الثورة ، بل إن أكثر عظماء التاريخ المصرى الحديث أسْدل ستار من الضباب فوق تاريخهم ، وحجبت جهودهم وأعمالهم عن الجيل الحاضر ، فلا تكاد تسمع كلمة حق عن مصطفى النحاس الذى كان زعيم الشعب والناطق بلسانه حوالى ربع قرن ، ولا تكاد تسمع كلمة عن الدكتور محمد حسين هيكل ، وهو مفكر وسياسى مصرى عظيم ، ولا تسمع عن الرائد الدينى الكبير حسن البنا الا ما يمسه ويشين دعوته ، ولم ينج من كتّاب عصر الثورة الا قلة من القادة الأوائل كمصطفى كامل ومحمد فريد ، أما القمم السياسية ، والفكرية التى لها جماهير شعبية غفيرة ، فقد اتجهت كل المحاولات لطمس تاريخها والهجوم على كل تصرفاتها ، وسأقتبس فيما يلى لقطات سريعة مما يُقَدّم لأبنائنا فى مدارس الحكومة :

الزيف مقرر على التلاميذ

من كتاب التاريخ المقرر على الفرقة السادسة الابتدائية :

— كان فى الحامية العثمانية الموجودة بمصر ضابط ألبانى يدعى « محمد على » (أرأيت هذا التعبير الذى ينمّ عن جهل وخشونة) .

— رفض محمد على أن يشاركه زعماء الشعب فى حكم البلاد ، وانفرد بشئون الحكم دون أن يشاركه الشعب فى ذلك ، وبدأ فى فرض الضرائب على المصريين ، ونقض بذلك عهده للمصريين .... وأصبح حاكما مستبدا بشئون مصر . (كتب هذا لإرضاء عبد الناصر ، كأنّ عبد الناصر هو الذى أشرك الناس معه فى حكم البلاد !!) .

---

(1) بهذه المناسبة نستنكر الاسفاف الذى يظهر فى التمثيليات التليفزيونية مثل التمثيلية الغنائية « اوبريت الليلة العظيمة » التى تصور الخديوى اسماعيل فى صورة لا يرسمها الا جاهل بالتاريخ أو منافق .

— بسط محمد على النفوذ العثمانى على أنحاء الجزيرة العربية وعلى السودان (للأسف نسى المؤلف بعد لحظة هذا الكلام حينما تحدث عن حرب محمد على للعثمانيين) .

— لم يكن محمد على يهدف الى تحقيق الوحدة العربية ، بل كان همه أن يكوّن لنفسه ملكا عريضا له ولأسرته ، ولذلك لم يعمل محمد على ما فيه الخير للبلاد ، بل كان همه استغلال ثروات البلاد العربية لمصلحته الخاصة فسئم الناس حكمه وتمنوا القضاء عليه . (ما رأى المؤلف فى ثراء أشرف مروان وأسرة عبد الناصر وعصمت السادات ؟؟) .

— كان اسماعيل مسرفا بطبيعته فتوسع فى القروض الأجنبية لإقامة قصوره ورحلاته واستراحاته وحروبه ، ولتقديم الرشاوى إلى السلطان العثمانى بين الحين والآخر ، وكانت هذه القروض من أهم الأسباب التى نتج عنها الاحتلال البريطانى .

(نسى المؤلف قروض مصر فى عهد الثورة ، كما نسى أن أوربا احتلت كل أفريقية وآسيا فى هذه الفترة الحالكة من التاريخ ، وكأن الاحتلال يتم لسبب أو لآخر أو بدون سبب) .

— كانت الأحزاب فاسدة ومتنافسة على الحكم ، وتخضع لرغبات الملك والإنجليز .

— حديث طويل ورائع عن مصطفى كامل يثنى عليه ويذكر أن أسرته مصرية كريمة ، وجهوده ميمونة فى الداخل والخارج ، ومثل ذلك فيما يتعلق بمحمد فريد ، فاذا وصل الأمر الى ثورة ١٩١٩ لا نجد كلمة ثناء على سعد زغلول ، ولا على دستور ١٩٢٣ الذى انبثق فى عهد مبكر ، والذى قيل عنه إن البلاد لم تحظ بدستور مثله حتى الآن ، واذا جئنا الى معاهدة ١٩٣٦ نجد أن المؤلف لم يستطع ذكر اسم النحاس الذى عقدها ، وقال « وتفاوضت مصر مع انجلترا ... » ونجده يبرز ما أسماه عيوب هذه المعاهدة

ويختتم كلامه بقوله : ••• حتى قـامت ثورة ٢٣ يوليو بقيـادة الزعيم الراحل جمال عبد الناصر فأنقذت الموقف وحققت الجلاء والاستقلال • (يلاحظ أنه كتب هذا بعد وفاة جمال عبد الناصر ، وإسرائيل تحتل سيناء وقد دمرت مدن القناة وللروس فى مصر قواعد خطيرة ، ومع هذا يتحدث المؤلف عن الجلاء والاستقلال) •

ذلك هو الزيف التاريخى عن أسرة محمد على ، كما نراه فى مقرر الفرقة السادسة الابتدائية وهذا الزيف ينمو مع نمو التلميذ المصرى ، فنجده مضاعفا فى المرحلة الاعدادية ، والمرحلة الثانوية ، ونجد صورا منه فى التليفزيون والاذاعة •

كتابة تاريخ هذه الحقبة من جديد :

ومن أجل هذا الزيف علت الأصوات بأن تاريخ هذه الحقبة ينبغى أن يكتب من جديد ، وقد حاولتُ بإصرار أن أكون أمينا كل الأمانة فيمـا أكتب ، إذا أن إحساسى عميق كل العمق بمسئولية المؤرخ أمام الله وأمام الناس ، ولذلك أَعِدُ أن أكون منصفا كل الإنصاف ، فأثنى على مـن يستحق الثناء ، وأهاجم من خان البلاد أو سبب لها كارثة من الكوارث وسنرى فى محمد على وأسرته مواقف تستحق التقدير والثناء ، وتلك سنبرزها ونثنى عليها ، وسنرى من بعض السلاطين والملوك انحرافا بل خيانة ، وتلك سنبرزها أيضا ونهاجمها ، ومثل هذا ما سنفعله فى عصر مـا بعد أسرة محمد على ، فالعرض التاريخى سيتخذ الأمانة الدقيقة دستوره ، والخوف من الله نهجه مع كل الناس وبخاصة مع أولئك الملوك والرؤساء الذين عاصرنا عهدهم وعشنا الحياة معهم ، ورأيت بنفسى تصرفاتهم ، تلك التصرفات التى أَلْقِى على كاهلى مع قلة من المؤرخين مسئولية تدوينها لهذا الجيل ولما يأتى من أجيال •

ذلك عهدى أخطو فى ظله نحو تدوين تاريخ هذه الفترة ومن الله ألتمس العون والسداد •

محمد على والطريق للرياسة

ولد محمد على فى قوَلَة ، على الساحل المقدونى ببلاد اليونان سنة ١٧٦٩ ، وكان عمه يشغل منصب « نائب الوالى » وهو منصب عظيم آنذاك ولم يحظ محمد على بتربية مدرسية يُعْتَدُّ بها ، ولذلك آثر الاشتغال بالتجارة ، فعمل فى تجارة التبغ ، وكان التبغ من أهم السلع فى تلك المنطقة •

وخلال الحملة الفرنسية أرسل السلطان سليم الثالث حملة بحرية الى مصر سنة ١٧٩٩ ، وكلف عمُّ محمد على أن يرسل كتيبة مؤلفة من ثلاثمائة شخص الى مصر ، فأرسلها بقيادة ابنه الصغير يساعده ابن عمه محمد على ، وسرعان ما تولى محمد على القيادة الفعلية ، واشترك فى بعض المعارك ضد الفرنسيين ، وسار فى سلم الترقية حتى أصبح الشخص الثالث بين قادة العثمانيين بمصر ، فلما تمرد الجند على خسروباشا وقتلوا طاهر باشا بدأ نجم محمد على يتألق ، وعيّنت الأستانة خورشيد واليا على مصر ولكن محمد على استطاع بحيله أن يرتبط بالمماليك ، واتخذ البرديسى بوجه خاص تكأة له ، وكان البرديسى طموحا فى قسوة وجهل ، فوجده محمد على مركبا سهلا ، وطالب الجندُ بمرتباتهم فخلّى محمد على بينهم وبين البرديسى ، وراح هذا الأحمق يفرض الضرائب بعنت ويجمعها بقسوة ، مما أثار عليه الشعب والجند ، واضطر أخيرا أن يهرب الى الشام •

ولم يبق أمام محمد على إلاّ خورشيد الوالى الجديد ، وقد جاء هذا الى البلاد بعنجهية الأتراك وشغبهم ، وكان محمد على فى الوقت نفسه حريصا على التقرب من زعماء المصريين وشيوخهم ، وارتكب جند الوالى الجديد بعض المفاسد مما زاد فى ثورة الشعب ، ونتيجة للسياسة المملوكية والعثمانية ، اجتمع زعماء الشعب ، وأعلنوا عزل الوالى خورشيد باشا واختيار محمد على واليا عليهم فى مايو سنة ١٨٠٥ ، وألبسه السيد

عمر مكرم والشيخ الشرقاوى خلعة الولاية ، ولم يخضع خورشيد لقرار العزل الصادر من « الفلاحين » (على حد قوله) وتحصن بالقلعة ، ولكن الحكومة العثمانية وجدت من الحكمة أن توافق على ما ارتآه الشعب المصرى ، وصدر بذلك فرمان فى يوليو سنة ١٨٠٥ .

ولم تكن تركيا مخلصة فى هذا التصرف ، وانما أرادت به تهدئة الأحوال مؤقتا ، بدليل أنها بعد عام واحد أرسلت لمصر واليا جديدا اسمه موسى باشا بدلا من محمد على الذى قررت نقله الى سلانيك ، ولكن الشعب المصرى أجهض هذه المحاولة فثبت ضعف تركيا أمام العزيمة المصرية .

مشكلات فى طريق الوالى الجديد :

لم تضع هذه العوامل حداً لمتاعب محمد على ، فالمماليك لا يزالون يهددون مركزه ، وبخاصة أنه لم يعد ممثلا لتركيا فقط ، وانما لأنه أصبح أيضا ممثلا للشعب المصرى الذى اختاره ، وتركيا لم تكن راضية عن محمد على ، وانما أرغمت على تعيينه ، ولذلك كانت تتحين الفرص للتخلص منه ، والانجليز كانوا يحتضنون محمد الألفى زعيم المماليك ، وقد وضعوا معه مخططا إبان زيارته لانجلترا ، ليعملوا على وضعه فى مكان القيادة ، وليضمن لهم تيسيرات اقتصادية وسياسية فى البلاد . والشعب المصرى ممثلا فى شيوخه كان أيضا عقبة فى طريق الوالى الجديد الذى يرى فيهم منافسين له فكان ينوى التخلص من سيطرتهم حتى يخلو له الأمر .

وساعدت الظروف محمد على فتخلص من هذه المشكلات واحدة واحدة ، فمن جهة تركيا استطاع أن يصل إلى اتفاق معها : على أن يدفع جزية سنوية قدرها عشرون ألف جنيه ، وقد رضيت تركيا بذلك إذ أيد مستشاروها إبقاءه فى منصبه ، وأما المماليك فقد ساعده الحظ إذ مات البرديسى سنة ١٨٠٦ والألفى سنة ١٨٠٧ وأعمل محمد على الحيلة أو

الرشوة بالمال أو المناصب مع باقى المماليك حتى سنة ١٨١١ ، فقام بمذبحة القلعة التى أشرنا لها من قبل وسنتحدث عنها بعد قليل ، والتى قضى بها محمد على على ذلك العنصر قضاء مبرما .

حملة فريزر :

أما الانجليز فقد هالهم ميل محمد على تجاه فرنسا ، وكانوا قد أعدوا حملة بقيادة الجنرال فريزر لمؤازرة حليفهم محمد بك الألفى ، ولكن هذا مات قبل وصول الحملة بيد أن الحملة لم تتوقف وسارت تجاه مصر وفى مارس سنة ١٨٠٧ احتلت الاسكندرية بدون مقاومة ، إذ آثر حاكمها التركى « أمين أغا » أن يبيع المدينة برشوة حصل عليها من الانجليز ، واتجهت الحامية الى رشيد فحاصرتها ، ولكن الشعب هب يناضل فى حماس وقوة ، فانتصر على المعتدين وردهم على أعقابهم ، وطلب الانجليز مفاوضة محمد على للجلاء ، وتم جلاؤهم سنة ١٨٠٧ ، وينبغى أن نوضح أن فريزر لقى الهزيمة على يد أبناء الشعب فى رشيد والحماد ، قبل أن يصل محمد على من الصعيد ، ولما وصل محمد على الى الميدان قابله طلب الانجليز بالتفاوض للجلاء ، فأتمه وجنى بذلك نتائج جهود الشعب المكافح .

والتف الشعب المصرى حول محمد على ، ولما اختلف هذا مع عمر مكرم أبعده الى دمياط ، وتلك عقوبة بسيطة جدا اذا قورنت بما انزله عبد الناصر بمخالفيه حتى من رفاقه الذين قاموا معه بما يسمى « الثورة » (١) .

والحكام من أسرة محمد على هم :

١ — محمد على سنة ١٨٠٥م : تخلى عن الحكم ١٨٤٨ وتوفى سنة ١٨٤٩ .

٢ — ابراهيم بن محمد على سنة ١٨٤٨ م ، توفى فى نفس العام .

٣ — **عباس الأول (ابن طوسون بن محمد على) سنة ١٨٤٨ م .**

---

(١) اقرأ عن الصراع بين عبد الناصر وزملائه فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

٤ — سعيد بن محمد على سنة ١٨٥٤ م .

٥ — اسماعيل (ابن ابراهيم بن محمد على) ١٨٦٣ م (اتخذ لقب خديوى — ثم عزل سنة ١٨٧٩) .

٦ — توفيق بن اسماعيل سنة ١٨٧٩ م .

٧ — عباس (الثانى) حلمى (ابن توفيق) سنة ١٨٩٢ م (عزلته انجلترا سنة ١٩١٤ م) .

٨ — حسين كامل بن اسماعيل سنة ١٩١٤ م (اتخذ لقب سلطان سنة توليته) .

٩ — أحمد فؤاد الأول بن اسماعيل سنة ١٩١٧ (اتخذ لقب ملك سنة ١٩٢٢) .

١٠ — فاروق بن فؤاد سنة ١٩٣٦ (عزلته الثورة فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢) .

١١ — أحمد فؤاد الثانى (طفل ، ابن فاروق عزلته ثورة يوليو وأنهت حكم أسرة محمد على وأعلنت النظام الجمهورى فى ١٨ يوليو سنة ١٩٥٣) .

وسنورد اهم الأحداث التى جرت فى عهد كل من هؤلاء عند حديثنا عن الفترة التى وُجِدَ فيها ، وسنعتمد أكثر الاعتماد على المراجع المحايدة فى هذه الدراسة .

محمد على وبناء الدولة الحديثة

اهتم محمد على اهتماما كبيرا بأن يجعل من مصر دولة حديثة تلحق بركب التقدم الأوربى الذى كان محمد على على صلة بنهضته ، وفيما يلى أهم معالم هـذا الاتجاه مع بيان أبرز ما شاب ذلك من عيوب :

اولاً — الجيش والأسطول

من الواضح أن الحياة فى مصر منذ مطلع عهد محمد على ، كانت تحتاج إلى جيش ، لضمان الاستقلال فى الداخل ، ثم لتحقيق الأطماع التى بدأت فى تصرفات محمد على من يوم الى يوم .

وقـد حاول محمد عـلى أن يُحِدَّ مـن سلطة الجنود الآرناءود « الألبانيين » ولكن هؤلاء حاولوا الفتك به ، ولذلك عمل على تشتيتهم ، ثم وكل للكولونيل سيف (سليمان باشا الفرنساوى) أن ينظم الجيش المصرى تنظيما حديثا •

وسليمان باشا الفرنساوى (١٧٨٨ — ١٨٦٠) أحد الضباط الفرنسيين الذين كانوا ضمن جيش نابليون الذى زحف الى مصر ، وقد بقى بمصر عقب انسحاب الجيش الفرنسى ، وتمصر واعتنق الاسلام ، فألحقه محمد على بالجيش المصرى سنة ١٨١٩ ، وعينه مدربا للمشاة بأسوان ، ثـم تدرج فى مناصب الجيش حتى أصبح رئيسا للأركان ، ووكل له محمد على مهمة تكوين جيش مصرى يضارع الجيوش الحديثة وقد اشترك فى أغلب الحملات العسكرية التى شنها محمد على ، وتوفى بالقاهرة ودفن بمصر القديمـة •

وكان جيش محمد على فى أول الأمر من مماليكه ، ومن مماليك آخرين قدمهم أعيان القطر ، ولكن هؤلاء لم يألفوا النظام وحاولوا الاعتداء على قائد الجيش ولذلك تخلص منهم فى الحروب السودانية ، وجنّد بدلاً منهم جنوداً من السودان ، من أهالى كردفان وسنار ، ولكن هؤلاء لـم يحققوا آمال محمد على ، ولم تلائمهم الأجواء خارج السودان ، فبدأ محمد يتخذ جنوده من المصريين ، وأثبت هؤلاء كفاءة ممتازة ، فى حمل المسئوليات التى نيطت بهم ، وعنهم يقول « كلوت بك » فى تقرير له : إنه حدث فى معركة قونية أنْ تَرَكَ جميع المرضى الذين كانوا يستطيعون حمل السلاح أَسِرَّتهم فى المستشفى قاصدين الى ميدان القتال ليشاركوا اخوانهم شرف الانتصار أو شرف الموت ، وان فتوح الشام وانتصارات حمص وقونية ، أثبتت للأتراك ، سموّ المصريين الذاتى عليهم باعتبارهم أفرادا ، كما أثبتت شوكتهم بـاعتبارهم جموعا تسوقها قواعـد خطط القتـال وتدابيره •

ومع هذه الكفاءة الممتازة فقد ظل الجنود المصريون يخضعون للقيادات الأجنبية من الأتراك وكان ذلك إجحافاً بهم ، كما كان من الأسباب التى أحدثت الثورة العرابية .

وبنى محمد على لهذا الجيش القلاع والحصون كما أدرك أن قوة الجيش المصرى لابد أن يدعمها أسطول يحمى الشواطىء الطويلة التى تطل عليها مصر ، ومن أجل هذا اتجه الى انشاء أسطول كبير اشترى بعض سفنه من الخارج ، وبنى سفنا أخرى بالداخل ، وقد استلزم ذلك أن ينشىء « دار صناعة » عند بولاق لصناعة الأجزاء التى تتكون منهـا السفن ، وكانت هذه الأجزاء تنقل بطريق البر إلى السويس ثم تجمّع هناك وتنزل إلى البحر الأحمر ، كمـا أنشأ « دارا للصناعة البحرية » بالأسكندرية ، وكان رئيس الصنّاع اسمه « الحاج عمر » وقد أصبحت دار الصناعة المصرية ترسانة تضارع دور الصناعة الكبرى آنذاك وألحق بها مدرسة لتخريج الضباط البحريين ، ورغبة فى مزيد من التقدم أرسل بعثات إلى أوربا لدراسة أحدث العلوم البحرية ، ومن أجل هذا سرعان ما أصبح لمصر أسـطول حربى كبير يشـمل ثلاثين قطعة ، ويعمل عليه الآلاف من البحارة والضباط والجنود .

وقـد استلزم الجيش والأسـطول ألوانـا من الصناعات ألحقت بالترسانة ومنها أقسام لعمل البوصلات والنظارات وسبك الحديد ، ومادة الطلاء ومخازن الذخيرة والمهمات .

ثانيا — التعليم والنهضة الفكرية

فتحت الحملة الفرنسية العيون تجاه العلم ، واحتاج الجيش الذى أنشأه محمد على إلى ألوان من الثقافات العسكرية والمدنيّة ، ومن هنا اتجه محمد على إلى انشاء المدارس والجامعات لتخريج المئات من المثقفين لشـئون الحكومة والدواوين وحاجات الجيش ، وبخاصـة أن توظيف المتخصصين الأجانب كان يكلف الدولة نفقات ضخمة .

وقد أرسل محمد على سنة ١٨٢٦ أول بعثة مصرية الى فرنسا ، وكانت تتكون من أربعين شابا زيد عددهم فيما بعد ، وكان مسـيو « جومار » مديرا لهذه البعثة .

ولما عاد أعضاء البعثات اعتمـد عليهم محمد على ، وأحلهم محل الأجانب الذين كانوا يشغلون مناصب كبرى فى الدولة ، وقد نجح أعضاء البعثات المصريون فى مهمتهم أكبر نجاح ، ولا تزال أسماؤهم تتردد كرواد للفكر والحضارة فى البلاد ، ومن أهمهم : رفاعة رافع الطهطاوى وعلى مبارك .

وأنشأ محمد على بمصر مجموعة من المدارس العليا مثل مدرسـة الطب التى أنشأها كلوت بك ، ومدرسة الهندسة ، ومدرسـة الصيدلة ، ومدرسة الزراعة ، ومدرسة الألسن ، والمدارس الحربية المختلفة ، كما أنشأ عددا من المدارس الابتدائية والثانوية ، وقد وجه محمد على عنايته كذلك إلى الأزهر ، فقد وَجَدَ فيه معينا يستمد منه حاجاته من الطلاب لتغذية المدارس العالية وليكونوا أعضاء للبعثات .

ومن منشآت محمد على الثقافية المطبعة الأميرية فى بولاق ، كما أنه أصدر أول صحيفة رسمية « الوقائع المصرية » باللغـة العربية ، واللغة الفرنسية سنة ١٨٢٨ .

ثالثا ــ ملكية الأرض

كان الاقطاع سائدا فى عهد المماليك ، وأحلّ السلطان سليم محله نظام الالتزام ، فلما انهار نفوذ العثمانيين وعاد النفوذ للمماليك عـاد سلطان المماليك على أكثر الأرض الزراعية ، وبجانب ذلك كان شطر من الأراضى موقوفا على المساجد ومعاهد العلم والتكايا ، وكان المشـايخ والعلماء يديرون هذه الأوقات ، وبقى جزء ضئيل من الأرض يسير على نظام الالتزام الذى فرضه العثمانيون فى أول عهدهم ، وكانت هذه هى

الحال فى أول عهد محمد على ، فلما قضى عـلى المماليك حـل محلهم فى السيطرة على الأرض التى كانت خاضعة لهم ، ثم ألغى الأوقاف وملتزمى الأرض ، وعلى هذا أصبحت كل الأرض الزراعية مملوكة للدولة يستغلها محمد على لحساب الدولة • وأصبحت العلاقة مباشرة بين الحكومة والفلاحين•

واستثناء من هذا النظام حقق محمد على الملكيات الآتية :

— الوسايا : والوسية قطعة أرض كانت تمنح للملتزم نظير قيامه بأعباء الالتزام عندما كان الالتزام موجودا فى أول عهد محمد على ، وهذه الأرض غير أرض الالتزام وكانت معفاة من الضرائب ، وقد أبقاها محمد على هبة للذين كانوا ملتزمين •

— الأبعاديات : سميت الابعاديات بهذا الاسم لأنها استبعدت من مجموع الأراضى الممسوحة ، وقد وهب محمد على كثيرا من الأبعاديات لكبار الموظفين ورجال الجيش ، وكانت كذلك معفاة من الضرائب •

— الجفالك والشفالك : وهى الاقطاعات الواسعة التى منحها محمد على لأفراد أسرته وكبار حاشيته ، وكانت أيضا معفاة من الضرائب •

وكانت ضرائب الأرض تتبع خصوبتها ، وكانت الضريبة تتراوح بين أربعة قروش ونصف وتسعة وأربعين قرشا للفدان •

رابعا — الاقتصاد

اصلاحات زراعية مهمة :

فى عهد محمد على حدثت مجموعة كبيرة من الإصلاحات الزراعية التى قصد بها تنمية الزراعة ، ومن أهم الإصلاحات التى أتمها محمد على بناء القناطر الخيرية على رأس الدلتا ، فقد أفادت فى تنظيم توزيع المياه على فرعى النيل ، وكان من أغراضها أن تعود بالفائدة على أرض الصعيد •

ومن اصلاحاته كذلك انشاء ترعة ((المحمودية)) بالبحيرة وقد نسبت الى السلطان محمود ، وترعة المنصورية بالدقهلية كما أنشأ مجموعة أخرى من الترع والجسور والقناطر ، واستلزم انشاء بعض الجسور اقامة مدن ، أصبحت فيما بعد مدنا كبيرة ، ومن هـذه مدينة الزقازيق التى أنشئت بمناسبة إنشاء قناطر بحر مويس • وقد زادت رقعة الأرض الصـالحة للزراعة زيادة كبيرة بسبب هذه المنشآت •

ومن الاصلاحات الزراعية التى تنسب الى محمد على أنه أدخل للبلاد حاصلات جديدة كالقطن والدخان وأشجار الزيتون وغيرها •

ولكن الفلاح المصرى لـم ينعم بهـذه النتائج كمـا ينبغى وذلك لانتشـار الاحتكار الـذى يقول عنـه المؤرخ عبـد الرحمن الرافعى :
إن احتكار الحكومة للحاصلات الزراعية عمل ينطوى على الظلم والإرهاق ، وفيه مصادرة لحق الملكية ، وحرمان للمالك من الاستمتاع بحقه ، ومن الانتفاع بتراحم التجار عـلى الشراء ، ذلك التراحم الذى ينجم عنـه مضاعفة الثمرة للبـائع (١) • **وتلك للأسف سياسة اتبعت مضـاعفة فى عهد الثورة الناصرية •**

الصناعـة :

وفى مجال الصناعة أدخل محمد على للبلاد مجموعة الصناعات المهمة بالاضافة الى مصانع الأسلحة وذلك مثل مصانع الغزل والنسيج ومصانع سبك الحديد ، ومصانع السكر والورق والصابون والزجاج •

وقد سرى مبدأ الاحتكار من الزراعة الى الصناعة لمـا كان يدره الاحتكار من الأرباح الطائلة ، وقد شـمل الاحتكار كل شىء . يقـول الجبرتى : شمل الاحتكار كل ما يصنع بالمكوك وينسج على نول ، مـن

---

(١) تاريخ الحركة القومية جـ٣ .

جميع الأصناف ، من ابريسم وحرير وكتان إلى الخيش والحصير ، فى سائر الإقليم المصرى طولا وعرضا من الاسكندرية ودمياط إلى أقصى بـــلاد الصعيد (١)

(وقد مر الزمن وانتهت أسرة محمد على ، وأوشكنا أن نطوى القرن العشرين ، ومع هذا فالاحتكار الزراعى الذى شكا منه عبد الرحمن الرافعى يوجد بمصر الآن منذ فرضه جمال عبد الناصر ، والاحتكار الصناعى قائم كذلك فيما يسمى القطاع العام الذى خلقه جمال عبد الناصر ، وجعله يملك أكثر الصناعات أو كلها) .

التجـــارة :

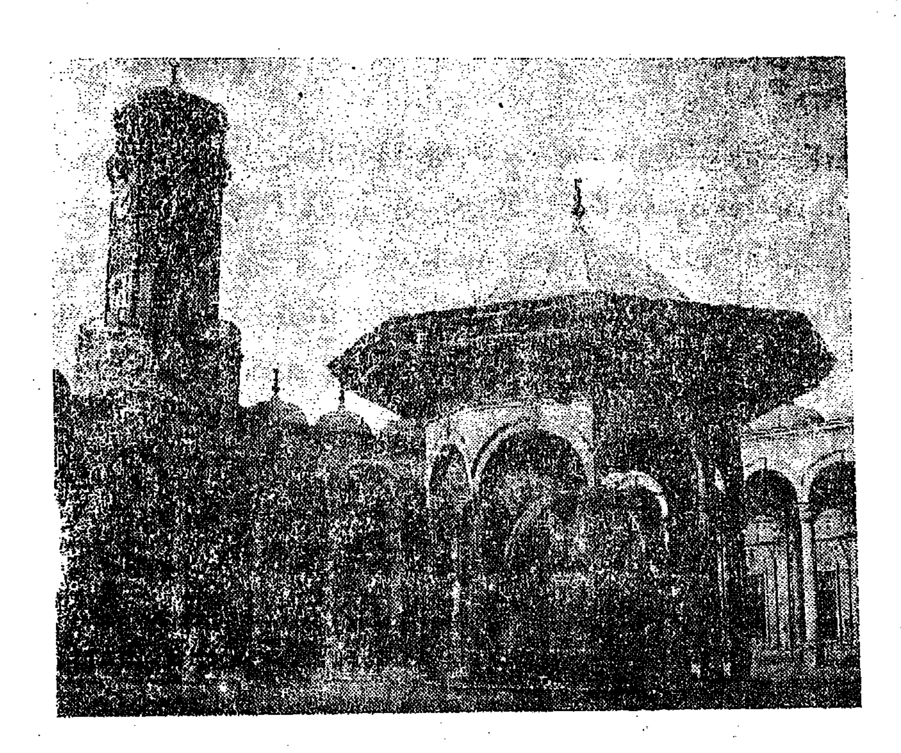
أما فى مجال التجارة فقد حقق عهد محمد على انتعاشا واسعا لهـــا وذلك بسبب التطور الذى شهدته الزراعة والصناعة ، وما تحقق من تغطية مطالب الشعب ، ثم ما تحقق من فائض للتصدير ، وقد ساعدت الطرق البرية التى مهدها محمد على من انتعاش التجارة الداخلية ، كما ساعد الأسطول التجارى وإصلاح ميناء الإسكندرية على انتعـــاش التجـــارة الخـــارجية :

المنشآت المعمارية :

ومن أهم منشآت محمد على جامعه فى القلعة ، وهو تحفة فنية رائعة . وسنعرض فيما يلى بعض صور حديثة لأجزاء منه ، وهى تدل على قدر عظيم من التطور فى مجال هذه المنشآت .

---

(١) الجبرتى جـ٢ ص ٤٧ .



مسجد محمد على بالقلعة تحفة فنية رائعة



مئذنة مسجد محمد عـلى بالقلعة

حـروب محمد على

خاض محمد على مجموعة من الحروب قام بها أحيانا ليظهر ولاءه للباب العالى ، وقام بها أحيانا أخرى ضد الباب العالى ، إذ كان ينوى أن يحقق بها طموحا واسعا ، ولكن الظروف كانت أقوى منه ، فحالت دون تحقيق أحلامه كاملة ، وفيما يلى كلمة قصيرة عن أهم هذه الحروب :

مذبحة المماليك سنة ١٨١١ :

ترتبط مذبحـة المماليك بحروب نجـد التى سنتحدث عنهـا عقب هذا ، فان محمد على أحس أن من الخطر أن يبعث بجيشه إلى الخارج ، ويترك المماليك يكوّنون سلطة كبيرة بالداخل ، فقد خاف أن ينتهزوا هذه الفرصة ويثوروا عليه ، وكانت شوكة المماليك — كما ذكرنا من قبل — ضعيفة بسبب ما نالهم أيام نابليون وبعده ، ولذلك استقر رأى محمد على أن يقضى عليهم حتى تتحرك جيوشـه بالخـارج وهو فى مأمن مـن الأحداث والانقلابات ، وقد انتهز فرصة إعداد الجيش للسفر إلى الجزيرة العربية ، فدعا الأعيان والكبراء ومن بينهم المماليك لتوديع هذا الجيش ، واحتشد الناس فى القلعة ورحب بهم محمد على ، ثم بدأت الجموع تتحرك حتى وصل موكب المماليك الى مضيق تَصْعُب الحركة فيه ، وهنا استدار من سبقوهم واستعد من لحقوهم ومن كانوا كامنين فى الجانبين ، وهطل الرصاص من كل جانب ، وعملت السيوف عملها ، ولم ينج منهم أحـد تقريبا ، ثم صـدرت التعليمات بالقضاء على من تبقى ممن لـم يحضر الاحتفال ، وكان ذلك نهاية العهد بالمماليك ؛ فقد قُتِلَ أكثرهم ونجت قلة ضئيلة انماعت فى الشعب فلم يعد لها أثر .

ومثل هذا التصرف حدث كثيرا فى التاريخ كنكبة البرامكة فى عهـد هرون الرشيد . وكحادثة الخندق أو الحفرة فى عهد الحكم بن هشـام

بالأندلس ••••• ويرى مرتكبوها أنهم بها ينقذون الشعب من الصراع ويتحاشون ثورات خطيرة النتائج •

الحرب مع السعوديين سنة ١٨١١ — ١٨١٨ :

ظهر الشيخ محمد بن عبد الوهاب فى الجزيرة العربية بفكر اصلاحى رائع (١٦٩٦) وخلاصة مذهبه القضاء على التوسل بالأنبياء والأولياء ، وهدم مزاراتهم وقبابهم ، ومحاربة التدخين والموسيقى ، وقد تحدثنا عن حركة التوحيد التى يسميها البعض الحركة الوهابية بكثير من التفصيل فى الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الكلام عن تاريخ الجزيرة العربية ، والذى نريد أن نقوله هنا ، أن هذا الفكر عظم فى مطلع القرن التاسع عشر بمعرفة محمد بن سعود أمير نجد ، فاحتل هذا مكة والمدينة سنة ١٨٠٣ ومنع حجاج مصر والأتراك من الحج لوجود قباب فى بلادهم ، وصار بذلك خطرا على نفوذ الدولة العلية ، فطلب العثمانيون من محمد على القضاء عليهم ، وانتهز محمد على هذه الفرصة ليعيد صلة مصر بالحجاز ، ثم ليتخلص من الجنود الألبانيين الذين كانوا يثيرون المتاعب ضده ويتمردرن من حين الى آخر ، فأعد حملة كبيرة ووضع على رأسها ابنه طوسون ، ولما تعثر هذا فى الانتصار ، خرج محمد على بنفسه فلحق به ، وحقق بعض النصر ثم عاد ، وعقد طوسون صلحا مع السعوديين ، ثم مات عقب عودته الى مصر ونقض السعوديون الصلح ، فأرسل محمد على ابنه ابراهيم الذى استطاع أن يدمر « الدرعية » عاصمة السعوديين سنة ١٨١٨ وجاء اليه أميرهم عبد الله وسلم نفسه ، فأرسله ابراهيم الى الآستانة حيث أعدم ، وكانت المروءة تقضى ألا يفعل ذلك (١) •

---

(١) اقرأ أحاديث مفصلة عن هذه الأحداث فى الجزء السابع من هذه الموســوعة •

وعلى كل فقد عادت أفكار محمد بن عبد الوهاب الى الانتعاش ، ولا تزال سائدة فى المملكة العربية السعودية حتى اليوم ، ومنها تنتشر الى كثير من البقاع .

ومما يذكر أن المؤرخين العرب والأجانب كانوا يعتمدون على الجبرتى فى تصوير هذه الحروب وفى ذكر أسبابها ونتائجها ، وكانوا يدينون محمد على تبعا لرأى الجبرتى ، ولكنى عثرت على كتب كتبها مؤرخون سعوديون هم عثمان بن بشر (١) ومحمد بن عبد الله الأنصارى (٢) والشيخ ابراهيم بن صالح (٣) وهى تذكر أن السعوديين هم الذين نقضوا العهد وهاجموا المصريين وحلفاءهم ، وهم يلقون تبعة هذه الحروب على الجانب السعودى .

وفى عهد الملك العظيم عبد العزيز آل سعود قرر الملك فتح بلاد الحجاز للحجاج وإن وجدت القباب فى بلادهم ، ورأى أن تسير دعوة الإصلاح سلمية ، أحسن الله جزاءه (٤) .

حرب السودان سنة ١٨٢٠ :

ربط النيل بين مصر والسودان برباط مقدس ، وعلى مر التاريخ حرص حكام مصر من وطنيين أو فاتحين على أن يسيروا مع النيل جنوبا لاعتقادهم أن حوض النهر يكوّن وحدة واحدة ذات عناصر مشتركة اقتصاديا وجغرافيا ، وهناك كذلك عناصر تاريخية بين سكان الوادى شماله وجنوبه ، جاءت نتيجة للروابط التى نمت بين هؤلاء السكان فى عهد الفراعنة والفرس والرومان والبطالسة والعرب وبخاصة العرب المسلمون ،

---

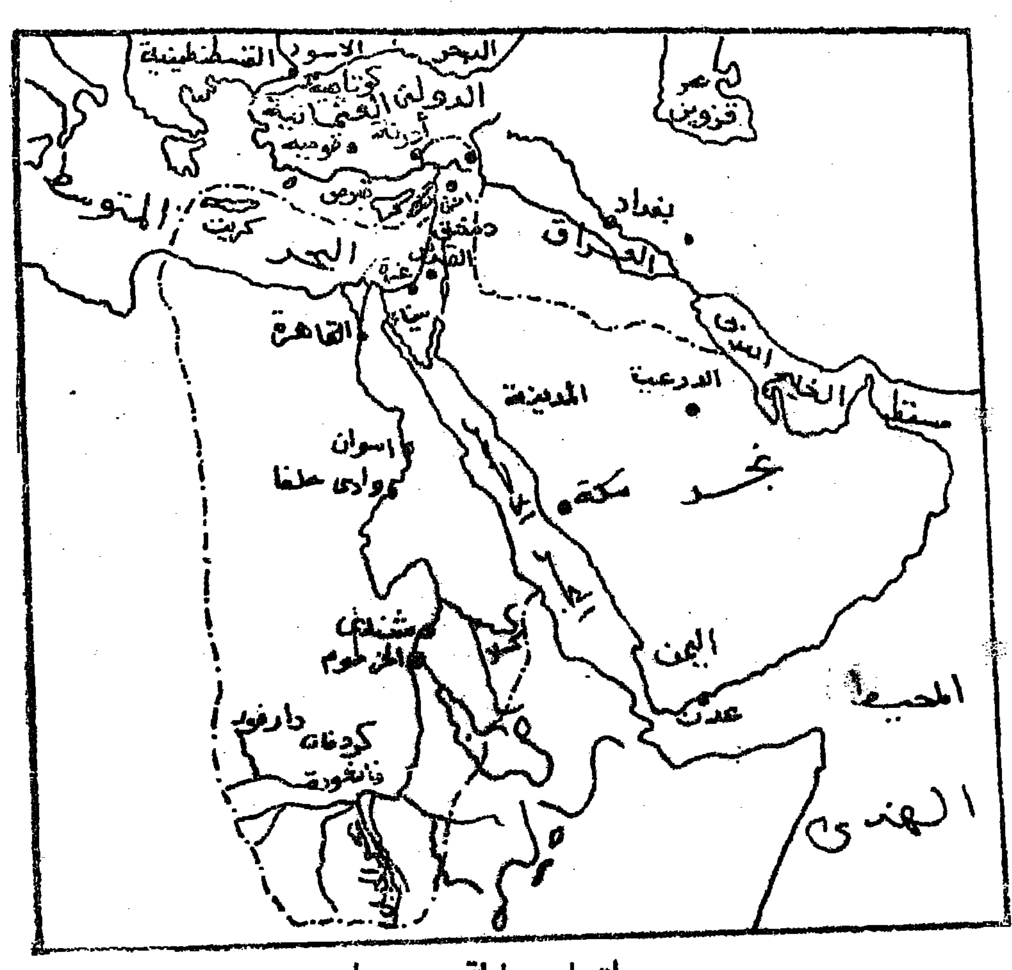
(١) عنوان المجد فى تاريخ نجد ص ١٨٢ — ١٨٣ .
(٢) تحفة المستفيد ص ١٤١ .
(٣) تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد ص ١٤١ .
(٤) اقرأ تفاصيل ذلك فى الجزء السابع من هذه الموسوعة ص ١٢٨ — ١٣٨ .

ولعل هذا كان السبب فى زحف محمد على الى السودان : هذا بالاضافة الى رغبته فى القضاء على المماليك الذين فروا الى بلاد النوبة ، ورغبته فى القضاء على من بقى بجيشه من الجنود الألبانيين كثيرى الشغب وإحلال السودانيين فى الجيش محلهم ، ومن أطماعه فى السودان كذلك البحث عن الذهب لينفذ مشروعاته الواسعة .

وعرض محمد على رأيه على مستشاره العسكرى محمد بك لاظوغلى ، وأعدت الحملة برا وبحرا بقيادة اسماعيل بن محمد على وتقدمت الى الجنوب ، وكان مع الحملة مجموعة من علماء الشريعة الإسلامية ليدعوا المسلمين بالسودان الى الوحدة والمؤاخاة وليدعوا غير المسلمين الى الدخول فى دين الله ، وحقق اسماعيل مجموعة من الانتصارات ، ففتح بربر وشندى وسنار ، ثم أرسل محمد على جيشا ثانيا بقيادة ابنه ابراهيم فسار محاذيا للنيل الأبيض ، وسار اسماعيل محاذيا النيل الأزرق ، ثم عاد ابراهيم لمرض أصابه ، وقفل اسماعيل بعده عائدا ، فلما بلغ شندى حصل خلاف بينه وبين نمر ملك شندى فدبر هذا مكيدة أحرق فيها اسماعيل وبعض خاصته فى أثناء وليمة أقامها لهم .

واتجه محمد بك الدفتر دار صهر محمد على الى شندى للانتقام من الملك نمر ، وقد استطاع هذا أن يدمر شندى ، ولكن الملك نمر فر منه تجاه الحبشة وأسس الدفتردار مدينة الخرطوم سنة ١٨٢٢ عند ملتقى النيل الأزرق بالنيل الأبيض .

ومن الواضح أن حملة السودان لم تحقق الكثير من أغراضها : ولكنها وصلت بين القطرين الشقيقين بهذه الصلة السياسية ، ولم يمعن محمد على فى حرب السودان بل توقف عند الخرطوم اذ استدعاه الباب العالى لإخماد ثورة اليونان ، وقد تحدثنا حديثا مستفيضا عن التوسع المصرى فى السودان وفى افريقية بالجزء السادس من هذه الموسوعة .



اتساع سلطة محمد على

حرب اليونان سنة ١٨٢٣ :

كانت تركيا فى مطلع القرن التاسع عشر فى منتهى الضعف ، وقد تركها موقف السلطان محمود الثانى من القضاء على الإنكشارية بدون جيش تقريبا ، وفى هذا الوقت ثارت اليونان متأثرة بالثورة الفرنسية التى نادت بمبادىء الحرية والمساواة ، ولم يجد الباب العالى وسيلة لإخماد هذه الثورة إلا محمد على .

وفرح محمد على بهذا الموقف الذى يجعله منقذا ونداً للباب العالى بعد أن كان تابعا ، وعيّن الباب العالى محمد على واليا على جزيرة إقريطش سنة ١٨٢٣ وأمره باخماد الثورة هناك ، فسار لها ابراهيم باشا وهزم الثوار ، ثم عينه الباب العالى واليا على بلاد المورة وأمره باخضاعها ، فسار اليها ابراهيم باشا وأخضعها بعد جهد كبير ، وبعد تضحيات واسعة ولكن روسيا وانجلترا وفرنسا تحركت لمساعدة اليونان وقررت إرسال عمارة بحرية تحت قيادة القائد الانجليزى « كدْرِ نجتون » ودخلت هذه العمارة خليج « نوارين » حيث كانت ترسو البحرية المصرية التركية ، وحدث بعد ذلك احتكاك بين بعض الزوارق والبعض الآخر فهبت المعركة (أكتوبر سنة ١٨٢٧) وكان القائد الانجليزى يتحين الفرص للقضاء على البحرية المصرية التى بدأت تتخذ مكانها فى البحر المتوسط ، واستمرت المعركة ثلاث ساعات دمرت فيها البحرية المصرية والتركية تماما وقتل عدة آلاف من البحارة المصريين والأتراك . وكانت خسارة الطرف الآخر قليلة .

ولم يعد لمصر بقاء فى اليونان بعد تدمير الأسطول ، وقد هدد كدرنلجتون بتدمير الإسكندرية اذا لم ينسحب ابراهيم من اليونان ويتعهد برد الأسرى .

وانسحبت مصر من اليونان ووافقت تركيا على استقلال اليونان فى معاهدة أدرنة فى سبتمبر سنة ١٨٢٩ ، وخسرت مصر فى حرب اليونان

حوالى ثلاثين ألفا من الجنود ، ونفقات باهظة ، وعمارتها البحرية الكبيرة ، ويمكن القول إن مصر لم تربح شيئا •

حروب الشام والأناضول من سنة ١٨٣١ :

كانت خسارة مصر فى حرب اليونان فادحة كما رأينا ، وطمع محمد على فى تعويض من الباب العالى ، واتجهت أطماعه للشام فطلبها من الباب العالى نظير جزية كبيرة ، ولكن الباب العالى كان يعمل لهدم محمد على وانتقاص سلطانه ، لا لبنائه ومد ملكه ، فرفض ملتمسه •

وراح محمد على يدبر الأمر لينال ما يريده معتمدا على القوة ، واتخذ لذلك عدة أسباب :

— أن حدود مصر الطبيعية من ناحية الشمال هى جبال طوروس الفاصلة بين الأناضول وسوريا •

— أن الاستيلاء على سوريا سيمد النشاط المصرى بطاقة بشرية ، وطاقة اقتصادية تتمثل فى الأخشاب والفحم والنحاس والحديد :

— سوريا كانت كثيرة القلق تحت نير العثمانيين •

— فتح والى عكا بلاده للمهاجرين من مصر ، ولم يستجب لنداء محمد على بردهم •

وبدأت الحملة من البر ومن البحر فى أكتوبر سنة ١٨٣١ فاحتلت غزة ويافا وحيفا دون مقاومة تذكر ، ثم حاصرت عكا وأسقطتها وسلم قائدها « عبد الله باشا الجزار » نفسه فى مايو سنة ١٨٣٢ ، ودخل الجيش المصرى دمشق فى يونيو سنة ١٨٣٢ وانتصر المصريون انتصارات حاسمة على الأتراك فى موقعة حمص (٩ يوليو) ودخلوا حلب (٢٦ يوليو) ، وانتصروا فى بيلان (٣٠ يوليو) وتم بذلك فتح الشام ، وسقط آلاف الأتراك قتلى وجرحى وأسرى ، وفقد الأتراك ذخائر هائلة •

وتخطى جيش مصر حدود الشام الى آسيا الصغرى فدحر جيشا كبيرا يقوده الصدر الأعظم رشيد باشا فى موقعة قونية (ديسمبر ١٨٣٢) ووقع الصدر الأعظم أسيرا ، وتوغل الجيش متطلعا الى آسيا الصغرى والعراق وتركيا الآسيوية •

معاهدة كوتاهية :

وهرعت تركيا تطلب مساعدة روسيا ودول أوربا فاستجابت هذه للنداء ، ففى هذه الاستجابة تدمير لتركيا ولمحمد على جميعا ، وهو هدف أوربا ، وانتهى هذا التدخل بمعاهدة كوتاهية (مايو ١٨٣٣) التى قضت بضم سوريا وولاية أدنة الى محمد على وبأن يتشبث على كريت والحجاز بالإضافة الى مصر ، على أن يجلو عن الأناضول ، وكان هذا انتصارا لمصر •

بيد أن تركيا بدأت تفيق من كبوتها ، وعقدت معاهدات مع دول أوربا وبخاصة روسيا وانجلترا ، وكانت الأخيرة حريصة على إضعاف قوة محمد على لأنه فى طريقها الى الهند ، ثم إن ثورات داخلية بدأت تهب ضد ابراهيم فى سوريا بتأييد تركيا وبزعامة رجال الاقطاع الذين أُخذت اقطاعاتهم أو زيدت عليهم الضرائب ، وقد قضى ابراهيم على أكثر هذه الثورات بتأييد حليفه بشير الشهابى ، ولما أحس محمد على بأصبع تركيا فى دفع هذه الثورات بدأ يفكر فى اعلان استقلاله عنها ، بل أعلن ذلك فى مايو سنة ١٨٣٨ ، وبدأت الحرب من جديد •

موقعة نصيبين واندحار جيش الترك :

وفى موقعة نصيبين (يونيو سنة ١٨٣٩) اندحر جيش الترك ووقع أكثره بين قتيل وأسير ، ومات بعدها السلطان محمود وتولى بعده السلطان عبد المجيد وعيّن خسرو باشا صدرا أعظم ، فدفع ذلك التغيير فوزى باشا قائد الأسطول التركى والعدو اللدود لخسرو أن يلجأ بالأسطول الى مصر ويسلمه لمحمد على •

تدخل أوربا ومعاهدة لندن :

وتدخلت أوربا من جديد واتفقت دول أوربا فى معاهدة لندن (يوليو ١٨٤٠) ، على شروط أهمهـا أن يردّ محمد على لتركيا كريت والأمكـنة المقدسة وأدنة والشام وتبقى مصر ولاية وراثية له ولأسرته ، وأن تكون لـه عكا والجزء الجنوبى من الشام مدى حياته على أن يدفع جزية للباب العالى ويظل تابعا لـه ، على أنه اذا لم يقبل ذلك فى مدى عشرة أيام ، فقد ولاية الشام وأجبرته دول أوربا على الانسحاب والقبول .

ورفض محمد على فى بادىء الأمر هذه الشروط القاسية فتقدمت انجلترا لارغامه بالحيلة وبالقوة وقدمت المساعدات للثائرين ضـده ، واحتلت أهم المواقع بالشام وهددت الاسكندرية ، فأكره محمد على على الاستجابة وانسحب من الشام كله ومن جزيرة العرب ، ولم يبق لـه الا مصر وراثية بضمان الدول ، وفقد الجيش المصرى آلاف الرجال وهـو ينسحب من الشام كما فقد كثيرا من المعدات .

نهاية محمد على

كانت السنوات الباقية من عمر محمد على مريرة ، فآثار الحرب وآثار الجهد ، وهبوط النيل : كل ذلك خيم على الشعب ، بل أثر فى أعصاب محمد على فاضطربت صحته واعتزل فى أبريل سنة ١٨٤٨ ثم مـات فى أغسطس سنة ١٨٤٩ .

محمد على فى الميزان

لا شك أن محمد على أنقذ مصر مما كانت تعانيه من أمراض فتاكة قبل عهده ، فقد خلصها من فوضى المماليك ومن ظلام العثمانيين ، ووضع بذلك نهاية لقرون مريرة مرت بها مصر خلال هذين العهدين الكالحين .

ودفع محمد على الضوء الى مصر عن طريق البعثات العلمية التى أرسلها الى أوربا وعن طريق المدارس والمعاهد العليا التى أنشأها بمصر ، وكوّن محمد على لمصر قوة عسكرية هائلة جعلت العدو والصديق يحسب حسابها ، واهتم محمد على بالزراعة اهتمام عارف خبير ، ولا تزال القناطر التى أنشأها على النيل خير دليل على جهده •

ويمكننا أن نعرف قَدْرَ محمد على وقدر بعض خلفائه من بعده لو قارنا حالة مصر بعد الحرب العالمية الثانية بحالة سواها من الدول العربية التى ظلت تحت سلطان العثمانيين حتى الحرب العالمية الأولى ، ثم تسلمها الاستعمار الأوربى من العثمانيين حتى تحقق لها الاستقلال بعد الحرب العالمية الثانية ، ويقول المطلعون ان من أسباب السبق الذى أحرزته مصر هو استقلال محمد على بها عن العثمانيين فى عهد مبكر ، وما حققه من انجازات لم يكن لها مقابل فى البلاد العربية الأخرى •

ويقول أحد الباحثين : ان محمد على هو مؤسس مصر الحديثة الذى بنى جيشها الوطنى ، وحرر ارادتها من التبعية التركية ، وأنشأ صناعتها ، وشيّد معاهد العلم والتكنولوجيا فيها ، ونظم زراعتها ورقّاها ، وجعل منها أقوى دولة فى الشرق الأوسط ، وبنى كثيرا من جسورها الحضارية مع أوربا (١) •

ذلك هو الجانب المضىء عن محمد على وما أكثر الجوانب المضيئة فى حياته ، ولكن هناك جانبا آخر ليس مضيئا فان محمد على بنشاطه وطموحه ازعج الدنيا حوله ، فتركيا لم تكن ترضى أن يكون لها تابع فى مثل قوتها أو أكثر منها قوة ، ودول أوربا لا ترضى أن تستبدل « بالرجل المريض » على ساحل الشام وعلى ضفاف النيل دولة ناهضة فتية ، وكان محمد على يزج بأتباعه الألبانيين فى حروب الوهابيين والسودان ليتخلص منهم ،

---

(١) بحث بصحيفة الاهرام الصادرة فى ١٩٧٥/٨/١٥ •

والعجيب أنه لم يفطن الى أن الدولة العلية تعامله بنفس السلاح فتزج به فى حرب إثر حرب لتضعف قوته وتدمر نشاطه ، وساعدتها دول أوربا لتحقيق نفس الهدف ليس فقط فى اليونان الأوربية المسيحية ، بل أيضا فى الشـام الآسيوية المسلمة ، ولعل محمد على جهل هذه الحيلة عبـر السنين الطويلة ، ونتيجة لذلك لاقى محمد على ولاقت مصر كثيرا من عنت الأعـداء .

ونقطة أخرى نثبتها هنا هى أن جيلنا لا يرضى عن موقف محمد على من الحجاز ، وإلا عما أنزله بالدرعية من دمار ، ولعل الإحساس العربى آنذاك لم يكن قويا ، يحول دون هذا العدوان الذى نستنكره الآن ونستهجنه وللأسف نواجه حتى اليوم صراعا يدور بين عربى وعربى أو بين مسلم ومسـلم .

إبراهيم وعباس

كان ابراهيم جزءا من حياة أبيه ، وقد رأيناه يقود أكثر جيوشه وينفذ خططه ويجنى ثمار انتصاراته وأعباء هزائمه ، ولهذا ليس هناك ما نضيفه عند الحديث عنه ، على أن فترة حكمه كانت قصيرة للغاية وكانت كلها فى حياة أبيه ، فقد تولى فى أبريل سنة ١٨٤٨ وتوفى فى نوفمبر مـن العام نفسه .

وجاء بعده عباس بن طوسون بن محمد على ، (١٨٤٨ — ١٨٥٤) وتتلخص أعماله فى أنه كان يرى أن تقدم الشعب ليس من مصلحة الوالى ، فراح يعمل على العودة بهذا الشعب الى الوراء ، فأقفل المدارس والمصانع وقضى على كل معالم النهضة ، وراح يساعد تركيا فى حروبها رجاء أن تغير نظام العرش ليصبح لأكبر أولاد الحاكم بدلا من أكبر أفراد الأسرة ، ولم ينجح فى ذلك ، وقد قتل سنة ١٨٥٤ فى قصره ، ويقال ان مسألة ولاية العهد كانت السبب فى هذا المصير . وسميت « العباسية » باسمه وكانت من قبل تسمى « الريدانية » .

(سعيد ١٨٥٤ — ١٨٦٤)

هناك اصلاحات جديرة بالذكر تنسب الى سعيد ، فقد أصدر قانون الأراضي المعروف باللائحة السعيدية في أغسطس سنة ١٨٥٨ وهي تبيح ملكية الأرض ، وقد أقبل المصريون على شراء الأراضي اقبالا عظيما حتى أصبح بعض المصريين من كبار الملاك ، وأصدر سعيد كذلك قرارا بقبول المصريين في الوظائف الكبرى ، فأصبح ثلث مأموري المراكز منهم ، وكذلك ثلث المعاونين ، ومن أبرز الحكام المصريين الشريعي بك مدير الجيزة وسلطان بك مدير بني سويف ، وألغى سعيد الاحتكار الزراعي ، وأتم الخط الحديدي بين الاسكندرية والقاهرة الذي بدأه عباس ، وفي نظام الجيش جند أبناء المشايخ والعمد بعد أن كان التجنيد مقصورا على أبناء الفلاحين (١) .

ومن أغلاط سعيد أنه أرسل حملة لمساعدة فرنسا في حربها بالمكسيك لا لشيء الا لصداقة شخصية بينه وبين نابليون الثالث وأكثر من منح الامتيازات للأجانب ، تلك الامتيازات التي بدأت في عهد المماليك ومطلع عهد العثمانيين ، وبدأ سعيد في الاستدانة ، وهو الذي منح امتياز شق قناة السويس بشروط مجحفة لمصر ، وقناة السويس سلاح — كما يقولون — ذو حدين ، فاذا استطاعت مصر حمايتها واستغلالها كانت لمصر خيرا وبركة ، أما اذا كانت بابا نفتحه للأجانب ونجلب بسببه استعمار مصر والسيطرة عليها لصالح الدول القوية التي تستعمل القناة ، فلا كانت القناة .

وقد أعطت مصر للقناة كل شيء : الأرض ، والمال ، والرجال ، نظير ١٥ ٪ من الأرباح ، ولكن سرعان ما فقدت مصر هذه الأرباح بسبب الديون التي تراكمت عليها ، وهكذا أصبحت القناة عبئا على البلاد ما كانت تستطيع حمله ، وكانت تكاليفها ١٨ مليونا من الجنيهات دفعت مصر منها حوالي

---

(١) مذكرات عرابي ص ١١ .

١٧ مليونا ، وكان امتيازها لمدة ٩٩ سنة تنتهى سنة ١٩٦٨ ، ولكن مصر أممتها فى يوليو سنة ١٩٥٦ ، وقد تسبب عن هذا حرب وصراع (١) .

ومات سعيد فى يناير سنة ١٨٦٣ .

الخديوى اسماعيل

(١٨٦٣ — ١٨٧٩)

يعتبر الخديوى اسماعيل مشكلة أمام المؤرخ المنصف ، فللرجل أعمال مجيدة حقا سنراها مجددة وزاهية فيما بعد ، وله كذلك أخطاء صنعها بنفسه ، أو نسبت له وفرضت عليه فرضا بسبب الزحف الاستعمارى الذى كان عنيفا آنذاك ، والذى اتخذ افريقية هدفا له فى وقت كان الخديوى اسماعيل يمد نفوذه وسلطانه بافريقية بنجاح عظيم ، فوجد الاستعمار أن القضاء على اسماعيل خطوة ضرورية لتحقيق النصر للقوى الأوربية الزاحفة ، فرسم الاستعمار الخطط ليشوه سمعة الرجل واصطنع قصة الديون ليزعزع أركانه .

وكان السلطان العثمانى يخاف أن يتمرد اسماعيل عليه كما تمرد من قبل جده محمد على ، فلما ضيق الاستعمار الأوربى الخناق على اسماعيل اتجه الخديوى الى السلطان العثمانى ليقوى به ضد المستعمر المسيحى ، فانتهز السلطان فرصة ضعف اسماعيل ، وبدل أن يقف معه وقف مع أعدائه وكتب وثيقة عزله التى كان يعمل لها الأوربيون .

وبعد عهد اسماعيل أشرف أعداؤه على كتابة تاريخه فتنوسيت أعماله المجيدة وأبرزت أخطاؤه ، ولكن الحق لن يموت وسنحاول كتابة تاريخ اسماعيل بكل الدقة والانصاف ما استطعنا لذلك سبيلا :

---

(١) عن تأميم قناة السويس ونتائجه اقرأ الجزء التاسع مع هذه الموسوعة .

شهادة باحث انجليزى :

فى سنة ١٨٦٩ أى فى عهد اسماعيل زار مصر وليام راسيل وكتب يصف القاهرة بقوله : أنها أكثر تحضرا من القسطنطينية ، وهى غنية بالمناظر الشرقية والتقاليد الاسلامية ، وكان قد تمَّ تجفيف مستنقعات الازبكية فى عهد محمد على ، ولكن اسماعيل كانت فى جعبته خطط أكبر ، فقد أصبحت الازبكية فى عهده حديقة رسمية فينانة مليئة بالنوافير والأشجار والمقاهى ، وأقيم فيها ناد للمبارزة يديره فرنسى ، وقامت الفنادق حول مربع الازبكية مثل شبرد والفندق الشرقى الكبير وغيرهما من الفنادق الحديثة ، وفتح اليونانيون والاوربيون محلاتهم فى الشوارع المجاورة وملأوها بالمأكولات الاوربية وكافة وسائل الراحة التى يبحث عنها السياح قبل صعودهم فى النيل ، وأقيمت دار للأوبرا كتب « فيردى » خصيصا لافتتاحها أوبرا عايدة ، وهكذا أصبح فى مقدور زوار الشتاء أن يمتعوا أنفسهم فى القاهرة كما لو كانوا فى الريفييرا •

عهد إسماعيل وقائمة منجزاته

اذا استعرضنا عهد اسماعيل فاننا نواجه قائمة حافلة بجلائل الأعمال ، ويمكننا أن نقسم هذه الأعمال ثلاث مجموعات :

١ — توسع وامتداد •

٢ — تطور ثقافى واجتماعى •

٣ — تطور سياسى وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة •

وسنذكر فيما يلى القائمة الخاصة بكل مجموعة ثم نتتبع ذلك ببعض الدراسات والتفاصيل عن هذا العهد :

١ — توسع وامتداد

١٨٦٦ ضم سواكن ومصوع لولاية مصر .

١٨٧١ رفع العلم المصرى على غندوكرو عاصمة مديرية خط الاستواء .

١٨٧٢ اعلان دخول مملكة أونيورو بالسودان فى أملاك مصر .

١٨٧٤ بسط الحماية المصرية على مملكة أوغندا .

١٨٧٤ فتح سلطنة دارفور .

١٨٧٥ فرمان بضم زيلع وبربرة لولاية مصر .

١٨٧٥ فتح هرر .

١٨٧٥ حملة مكيلوب باشا للصومال .

٢ — تطور ثقافى واجتماعى

١٨٦٣ تشكيل ديوان المدارس وانشاء المدارس التجهيزية والابتدائية بالقاهرة والاسكندرية ، واصدار أول لائحة للتعليم فى مصر .

١٨٦٣ انشاء خمس مدارس بالسودان .

١٨٦٣ افتتاح دار الآثار المصرية .

١٨٦٥ انشاء مدرسة أركان حرب .

١٨٦٥ احياء جريدة الوقائع المصرية وظهور الجريدة العسكرية المصرية .

١٨٦٥ انشاء مدرسة المهندسخانة .

١٨٦٥ ضم نظام البريد الى الحكومة .

١٨٦٦ انشاء مدرسة الطب البيطرى .

١٨٦٧ نظام الاصلاح القضائى .

١٨٦٧ انشاء مدرسة الادارة والقانون (الحقوق) .

١٨٦٧ وقف جفلق الوادى لنشر التعليم .

١٨٦٨ افتتاح مدرسة العمليات ببولاق والمدرسة البحرية بالاسكندرية .

١٨٦٨ انشاء مدرسة المساحة والمحاسبة .

١٨٦٩ تكليف صموئيل بيكر بمقاومة النخاسة فى السودان وابرام معاهدة مع انجلترا فى هذا الشأن بعد ذلك .

١٨٦٩ انشاء المدرسة المصرية بباريس .

١٨٦٩ « دار الأوبرا المصرية .

١٨٦٩ « مدرسة اللسان القديم « اللغة الهيروغليفية » .

١٨٦٩ « دار الآثار العربية .

١٨٧٠ « دار الكتب .

١٨٧٠ الأمر بجعل اللغة العربية اللغة الرسمية بالدواوين .

١٨٧١ انشاء مدرج المحاضرات العامة بدرب الجماميز .

١٨٧٢ « مدرسة دار العلوم .

١٨٧٣ انشاء مدرسة السيوفية ثم مدرسة القربية للبنات .

١٨٧٤ قانون داخلية المدارس المصرية ولائحة دار المعلمين .

١٨٧٥ افتتاح مدرسة العميان والخرس .

١٨٧٥ تأسيس الجمعية الجغرافية .

١٨٧٨ انشاء مدرسة الألسن .

٣ ـ تطور سياسى وانتقال من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة

١٨٦٦ انشاء مجلس شورى النواب وصدور لائحته وافتتاحه .

١٨٧٨ انشاء مجلس النظار .

١٨٧٩ توسيع اختصاصات مجلس شورى النواب .

.... ظهور الصحافة وتطورها ، وظهور الرأى العام وتهيئة .

والآن نتجه الى دراسة فيها شيء من التفصيل عما حققه عهد اسماعيل لمصر ، وبعد ذلك نتدارس عيوب اسماعيل وما ارتبط بها من غفلة واهمال لنستطيع أن يكون حكمنا منصفا أو أقرب الى الانصاف :

شخصية مصر الدولية :

كان عهد الولاة العثمانيين عهد تخلف واضطراب وظلم ، وكان الوالي — كما وصفناه من قبل — لا يهتم الا بالاستيلاء على ما تصل اليه يده من الأموال ليستعيد ما دفعه من رشاوى وليجعل حظه من الثراء عظيما قبل أن يُبْعَد عن الحكم وعن البلاد ، وابتداء من عهد محمد على تخلصت مصر من هذا البلاء ، فلم يعد ولاة مصر يجلبون لها من الخارج ، ويدفعون الرشا لينالوا الولاية ، بل استقر الحكم لمحمد على وأولاده ، صحيح أن محمد على ينحدر من أرض غير مصرية ، ولكنه لم يعد له وطن غير مصر ، وارتبط مجده بأمجاد مصر ، حتى أنَّ مَنْ كان من هذه الأسرة يموت خارج البلاد كانت وصيته تحوى فى أهم بنودها أن يوارى جثمانه فى تراب مصر ، وصحيح أن آخر ملوكهم هرَّب الى بنوك أوربا كثيرا من الأموال ، ولكن كثيرين من الذين تولوا السلطة بعد هذه الأسرة ارتكبوا نفس الخيانة .

وعلى كل حال فقد ضمنت العهود والمواثيق التى أشرنا لها عند الحديث عن محمد على أن تكون مصر له ولأولاده من بعده ، ولم ينل محمد على هذه الخطوة الا بحد السيف بعد أن أوقع الهزائم المتكررة بجيوش العثمانيين ، وبعد أن استولى على أسطولهم ووقف على أبواب عاصمتهم ، وكان معنى هذا أنه يقف منهم موقف الند للند ، وليس تابعا كما كان غيره من الولاة .

وبناء على ذلك ظهرت شخصية مصر وأصبح لها كيان يكاد يكون مستقلا . ولم تعد تربطها بالعثمانيين الا روابط هزيلة لا تهز الاستقلال ولا تنال منه .

وفى عهد اسماعيل حصلت مصر على مزيد من النفوذ الذى قوّى مركزها الدولى وأثبت لها كيانا أقرب الى الاستقلال عن العثمانيين ، فقد حصل عـلى فرمان سنة ١٨٦٦ يجعل وراثة العرش لأكبر أبنائه من بعده ثم لأكبر أبناء هذا الابن وهكذا بدلا من أكبر أبناء أسرة محمد على كمـا كان ينص فرمان سنة ١٨٤١ وقد ضمن هذا مزيدا من الاستقرار مـن جانب كما حدد من يئول له السلطان من جانب آخر دون تدخل السلطان العثمانى .

وفى سنة ١٨٦٧ حصل اسماعيل على فرمان يخوّله هو وخلفاؤه لقب خديوى بدلا من الوالى أو الباشا مـع رفعه الى مرتبة الصـدر الأعظم العثمانى ، وبموجب هذا الفرمان أصبح للخديوى الاستقلال فى الادارة والتشريع والشئون المالية ، ومنح الحق فى عقد الاتفاقات الخاصة بالبريد والجمارك ومرور البضائع والركـاب فى داخل البلاد وشـئون الضبط للجاليات الأجنبية .

وفى سنة ١٨٧٣ استصدر الخديوى « الفرمان الكبير » الذى جمع المزايا التى حصلت عليها مصر فى الفرمانات السابقة منذ عهد محمد على ، وقد نص فى هذا الفرمان على حق مصر فى عقد المعاهدات التجارية ، وحقها فى زيادة الجيش الى أى عدد ، وبناء السفن الحربية (١) .

وهكذا نجد أن اسماعيل عمل على تحقيق غرضين كبيرين .

أولهما : تحرير مصر من الأغلال التى كان ينوء بها استقلال البلاد ، ولم يكتف اسماعيل بما حققه فى مجال الاستقلال عن تركيا ، بل أعاد النظر فى الامتيازات التى كان سعيد قد منحها لشركة قناة السويس ، كما خلص مصر من مساوىء التشريع القنصلى ، وفاوضت مصر دول العالم مباشرة دون وساطة تركيا .

---

(١) من بحث للدكتور محمد حامد فهمى نشر فى كتاب عن « اسماعيل » .

ثانيهما : رفع اسم مصر بين الدول ، باشتراكها فى كثير مـن وجوه النشاط الدولى ، كالاشتراك فى حركة تحرير الرقيق ، واقامة قسم خاص بمصر فى معرض عالمى عقد بباريس سنة ١٨٦٧ ، واشتراك مصر سنة ١٨٧٤ مع الدول المؤسسة لمؤتمر البريد الدولى وعددها ٢٢ دولة (١) .

توسع وامتداد :

يقولون عن اسماعيل انه أراد أن يجعل مصر قطعة من أوربا وهذا صحيح ، ولكن إسماعيل لم ينس قط أن مصر جزء من إفريقية ، ومـن هنا اتجه إسماعيل فى فتوحاته الى افريقية وامتد فى هذا المجال امتدادا واسعا فحقق الحلم الذى كان يراود جده « محمد على » وتقدم بفتوحاته بوادى النيل حتى ضم منابعه العليا وارتفعت رايات مصر على كل بقعة فى شاطئيه .

ومما يروى عن اسماعيل أنه وضع أخشاب السفن بعد اعدادها على ظهور الإبل ، وسارت الإبل بها حتى تخطت منطقة الشلالات ثم تم تركيب السفن لتسير فى النيل سنة ١٨٦٩ وبذلك فتح غندوكرو سنة ١٨٧١ وسميت الإسماعيلية ورفعت عليها الراية المصرية .

وتقدم الجيش المصرى الى « ما سندى » فعاهده ملكها « كابريقة » على اطاعة أمير مصر ، ثم نقض عهده وحارب الحامية المصرية فهزمته وأقامت على عرشه منافسه « ريونجا » فبقى هذا على عهد الطاعة بقية حياتـه .

وبلغت أنباء الفتح ملك أوغنده فأرسل الوفود بالهدايا الى قائد جيش مصر ، معلنا ولاءه لصاحب الأريكة المصرية ، معترفا بسلطانه من مجرى النيل الى الشاطىء الشرقى من إفريقية .

---

(١) من بحث للاستاذ محمد رفعت عـن مكانة مصر الدولية بالكتـاب السـابق .

وفى أثناء ذلك كانت الحملات المصرية تتقـدم فى إقليم البحيرات فأطلقت على إحداها اسم « بحيرة ابراهيم » ونزلت بسفينة بخارية فى بحيرة « ألبرت » ركبت هناك بعد أن حملت أجزاؤها مـن الخرطوم فكانت أول سفينة شهدها الناس فى أواسط القارة الإفريقية ، وكان للعلم المصرى المرفوع على ساريتها شأن عظيم مقترن فى نفوس الأهلين بشأن البلاد التى تصنع هذه الأعاجيب .

وقد أبلغت وزارة الحربية المصرية دول أوربا ضم إقليم البحيرات الى مصر ، ونشرت النبأ فى الوقائع المصرية سنة ١٨٧٦ .

وكانت سلطنة دارفور من البلاد التى تذكر فى فرمانات التولية التى تصدر من سلطان الدولة العثمانية الى ولاة الديار المصرية ، ولكنها كانت فى الواقع بمعزل عن مصر وعن تركيا معا فى الادارة والشئون العسكرية ، ففتحها اسماعيل باشا أيوب بمعاونة الزبير باشا أواخر سنة ١٨٧٤ .

وفى الوقت الذى كانت حملات اسـماعيل توالى الكشف والارتياد بأقليم البحيرات كانت عينه لا تغفل عن التخوم الشرقية بين مجرى النيل والبحر الأحمر ، فاستأجر سواكن ومصوع وزيلع وبربرة مـن الدولة العثمانية ثم تملك هذه البقاع ، وأرسل الى هرر سنة ١٨٧٥ حملة بقيـادة محمد رءوف باشا تمكنت من فتحها بغير كبير عناء .

وسير فى تلك السـنة حملة بحرية قوية لإتمـام فتح الصـومال فتقدمت فيه تقدما سريعا ، ثم عاقها عن المضى فى فتحه الى النهاية قيام مشكلة سياسية بين الخديوى وبريطانيا حول مناطق النفوذ على المحيط الهندى ، فاكتفى بما وصل اليه ، وتفاهم الفريقان على الاعتراف بنفوذ مصر فى شمالى الصومال .

---

(١) سطور من مقال للاستاذ عباس محمود العقاد بالكتاب السابق .

وقد تفرد عصر اسماعيل فى التاريخ القديم والحديث بمزية لا يضارعه فيها عهد من العهود منذ قيام الدولة المصرية على أيدى الفراعنة الى اليوم ، فقد مضت على قيام هذه الدول المصرية آلاف السنين ، فلم يتوحد مجرى النيل قط خلال تلك الأحقاب الطوال فى ظل راية واحدة الا فى عهد واحد هو عهد اسماعيل ، وكفى بذلك تنويها باهرا يذكر لصاحبه المجيد فى صحائف الفتوح (١) .

وقد ادخلت مصر فى هذه البقاع ألوانا من العمران والمدنية ، حتى كان الزحف المصرى يوصف بأنه زحف النور والحضارة على تلك البقاع ، فقد فتحت مصر المدارس والمستشفيات ، ومهدت الطرق ونظمت التجارة ونشرت الأمن والقوانين وقضت على تجارة الرقيق ، وانطلق علماء الأزهر الذين كانوا يرافقون الحملات يدعون للاسلام وينشرون مبادئه وأخلاقه ، حتى كان اقبال الناس على التبعية لمصر شرفا وكسرا لحائط الجمود بين المدنية والتخلف .

وسنرى فيما بعد أثر هذه الانتصارات فى اثارة أوربا ضد اسماعيل وضد مصر .

خيانة أمريكية لمصر :

وقد نزلت بمصر هزيمة وحيدة فى افريقية ، ولم تكن هذه الهزيمة بسبب ضعف وانما بسبب خيانة ؛ ففى أثناء الحرب بين الأحباش ومصر سنة ١٨٧٥ — ١٨٧٦ ارتكب أركان الحرب الأمريكيون الذين كانوا موظفين فى الجيش المصرى خيانة عظمى وبخاصة الجنرال (لورنج) ، الذى وضع اسماعيل ثقته فيه ، ولكنه كان ينقل أسرار الجيش المصرى الى الأحباش بواسطة أحد المبشرين الفرنسيين ، وعندما بدأت المعركة ، أعلن خيانته هو ومن معه من الضباط الأجانب ، فأخلوا الطريق للعدو ، ومنعوا الجنود

---

(١) من مقال للاستاذ الدكتور عبد الرزاق السنهورى فى الكتاب السابق .

المصريين م نأداء واجبهم ، وتقهقر هؤلاء والمعركة تدور ، وكان الخونة يلبسون شارة اتفق عليها حتى لا يمسهم الأحباش بسوء ، وقد ذكر الزعيم أحمد عرابى ألوانا من المخازى والخيانات عن هذا الموضوع بكثير من التفصيل (١) •

تطور ثقافى واجتماعى واصلاحات داخلية :

شهدت مصر فى عهد اسماعيل تطورا عظيما فى مختلف الشئون بالداخل واتجهت يد الاصلاحات الى شتى المرافق ، وقد أوجز القنصل الأمريكى فارمن فى تقريره الرسمى المؤرخ فى ٢٧ يونيو ١٨٧٨ أعمال اسماعيل ونتائجها بقوله : **« ومهما يكثر القول ضد اسماعيل يبق شىء واحد لا جدال فيه هو أن مصر تقدمت فى أعوام حكمه الستة عشرة فى جميع نواحى المدنية الحديثة أكثر مما تقدمت فى مئات السنين التى سبقت حكمه ، ومصر مدينة بهذا التقدم كله تقريبا لاسماعيل »** •

وسنورد فيما يلى موجزاً سريعا لما تحقق لمصر فى ذلك العهد من منجزات ثقافية واجتماعية معتمدين على الحقائق الملموسة وعلى الأرقام ، حتى نظل فى نطاق الإنصاف والدقة •

إلغاء السخرة :

وأول ما نذكره أن اسماعيل عُنِىَ عناية كبيرة بالمصريين ، فقرر إلغاء السخرة التى كان سعيد قد التزم بها ، اذ كان هذا قد التزم فى عَقْدِه مع شركة قناة السويس بتقديم أعداد وفيرة من المصريين ليعملوا بطريق السخرة فى أعمال الحفر ، ولكن اسماعيل توقف عن تنفيذ هذا المنكر ، وشب خلاف بين اسماعيل وبين الشركة من أجل هذا الموضوع ، وانتهى هذا الاختلاف بالاحتكام الى نابليون الثالث امبراطور فرنسا

---

(١) مذكرات عرابى : ص ٢٥ — ٢٨ .

الذى حكم بأن تدفع مصر لشركة القناة ثلاثة ملايين ومائة وستين ألفاً من الجنيهات ليعفى المصريون من هذه السخرة ، ودفعها اسماعيل •

نصف الحكام من المصريين :

ومن عناية اسماعيل بالمصريين أنه جعل نصف الحكام منهم ، بعد أن كان المصريون لا يشغلون إلا ثلث المناصب فى عهد سعيد كما ذكرنا من قبل ، وعندما ظهر مجلس النظار فى عهد اسماعيل كان أكثر النظار من المصريين •

المدارس والمعاهد والكليات :

فإذا جئنا الى التعليم وجدنا أن اسماعيل أعطى التعليم جهداً واسعاً ، وأنفق عليه بسخاء ، وقد عُنِيَ عناية كبيرة بالتعليم فى مختلف مراحله ، ونالت البنت عناية واسعة من اسماعيل ، فأنشأ لها مدرسة السيوفية ومدرسة القربية اللتين اندمجتا فيما بعد فى المدرسة السنية •

ومما ينسب الى اسماعيل أنه أعاد ديوان المدارس الذى يعتبر نواةً لوزارة التربية والتعليم ، وأصدر لائحة التعليم الابتدائى فى المدن والقرى فقد أنشىء فى عهد اسماعيل ٤٨١٧ مدرسة وكان عدد المدارس قبله ١٨٥ فقط وربط بين الكتاتيب وبين المدارس الابتدائية وأكثرَ من المدارس التجهيزية والفنية والعالية ، فأقام بذلك نظاماً قومياً للتعليم المصرى •

وكان نشاط اسماعيل فى التعليم الفنى والعالى نشاطاً مزدوجاً ، أعاد من جانبٍ المدارس العالية والفنية التى كان محمد على قد أنشأها ثم أهملت من بعده مثل : مدرسة الطب ، ومدرسة المهندسخانة ، ومدرسة العمليات ، وأنشأ من جانب آخر طائفة جديدة من المدارس العالية

كمدرسة الإدارة التى أصبحت فيما بعــد مدرسة الحقوق ، ومدرســة الألسن التى تحولت الى مدرسة المعلمين العليا ، ودار العلوم وسنتكلم عنها فيما بعــد ، هــذا بالاضــافة الى مدارس حربية وبحرية كثيرة .

وعني اسماعيل بالبعوث ، فاختار مجموعة من الشبان أوفدهم الى فرنسا وانجلترا وايطاليا وغيرها لدراسة الطب والهندسة والقانون والفنون الجميلة ، وبلغ عــدد أعضاء البعوث فى عهــده مائتى شخص . كما نال الأزهر عناية اسماعيل واهتمامه .

المخطوطات والفنــون :

وعنى اسماعيل بجمع المخطوطات النفيسة من منازل العلماء ، ومن المساجد والأضرحة ، وأنشأ لذلك دار الكتب التى أودعها هذه المخطوطات كما أودعها عشرات الآلاف من الكتب فى الفنون والعلوم المختلفة .

وعنى اسماعيل بالآثار المصرية ، وأنشأ لذلك : دار الآثار وأمــر بتشييد دار الأوبرا ، واستخدم فى تجميلها عــدداً كبيراً من المصــورين والفنانين والرسامين [1] .

وقبل أن نترك نشاط اسماعيل فى مجال التعــليم الى ســواه من المجالات الأخرى ينبغى أن نتكلم كلمة عن إحــدى منشــآت اسماعيل العملاقة ، عن « دار العــلوم » .

دار العـــلوم :

أنشأ الحاكم بأمر الله دار الحــكمة سنة ٣٩٥ هـ بمصر بعد أن قضى الصراع ببغداد على بيت الحــكمة الذى أنشأه هرون الرشــيد أو ابنه المأمون ، وجمع الحاكم فى دار الحكمة خيرة العلماء من جميع المجالات للبحث والدراسة والتأليف ، وكان إنشاؤها بجانب الأزهر الذى كان آنذاك

---

(١) من مقال للأستاذ الدكتور عبد الرازق السنهورى فى الكتاب السابق .

منهمكا فى الدراسة المذهبية الشيعية لتكون دار الحكمة منطلقة من قيود الاتجاهات المذهبية .

ويبدو لى أن التاريخ أعاد نفسه بصورة أخرى ، ففى عهد اسماعيل كان الأزهر مثقلا بالقديم متمسكا بالحواشى والألفاظ على ما شرحنا فى مكان آخر (١) ، فأنشأ على مبارك « دار العلوم » لتدرس بها الدراسات المختلفة منطلقة من كل قيد ، واستعار لها كلمة « دار » من « دار الحكمة » تجديداً لماضى هذه الدار التى كانت جزءا من نهضة مصر الثقافية .

وكانت مصر تابعة — ولو من الناحية الاسمية — لتركيا خلال عهد الخديوى اسماعيل ، وكانت جامعة الأستانة تسمى « دار الفنون » ومن ثَمَّ سميت كثير من المنشآت العلمية والفنية فى عهد اسماعيل بدار ..... فظهرت دار العلوم ودار الكتب ودار الآثار العربية ودار الأوبرا .... وكان المضاف اليه يحدد طبيعة المؤسسة ؛ فدار الكتب مخصصة للكتب ، ودار الآثار مخصصة للآثار وهكذا ، وكانت دار العلوم مخصصة للدراسات العلمية والشرعية والعربية ، فقد كان يدرس بها الحساب والهندسة والكيمياء والطبيعة والعلوم الإسلامية من فقه وتاريخ وحضارة وفلسفة ، والعلوم العربية من نحو وصرف وأدب ، فلا عجب أن سميت « دار العلوم » .

هل كانت هذه التسمية استمرار لدار الحكمة ؟ أو تقليداً واقتباساً من « دار الفنون » بالأستانة ؟ أو كانت جمعاً بين الاثنين ؟ قد يكون هذا أو ذاك .

وارتبطت « دار العلوم » فى أول مراحلها بدار الكتب التى أشرنا اليها من قبل ، ففى نفس البناء بجوار الكتب والمخطوطات خصصت قاعة

---

(١) انظر فصل « دراستى فى الأزهر » بكتابى « المجتمع الاسلامى » .

للمحاضرات فى الأدب واللغة والهندسة وغيرها ، وكان يقوم بإلقاء هـذه المحاضرات كبار الأساتذة المصريين والأجانب فى العلوم الإسلامية والعربية وفى الهندسة وعلوم الطبيعة والكيمياء ، ومن هؤلاء الشيخ حسين المرصفى للأدب ، والشيخ عبد الرحمن البحراوى للفقه ، واسماعيل الفلكى للفلك ، ومن الأساتذة الأجانب هنرى بروكاش للتاريخ العـام ، وفرانس باشـا للهندسة ، ومسيو بكتيت للطبيعة ، وكانت هـذه المحاضرات تلقى لكبار رجال وزارة المعارف ، وكبار الموظفين فى السكك الحـديدية والمساحة وبعض المتفوقين من طـلاب الأزهر والمدارس العليـا (١) .

وقـد أثبتت هـذه المحاولة نجاحا ملحوظاً ، وهذا شجع على مبارك باشا أن يجعل هـذه الدراسة مستقلة عن دار الكتب ، فاستصدر مرسوماً فى يونيو سنة ١٨٧١ بإنشاء مدرسة « دار العلوم » واختير للتدريس بها كبار الأساتذة فى الدراسات الإسلامية والعربية وعلوم الطبيعة والكيمياء والهندسة والحساب ، وأصبح المتخرجون منها يعلمون هـذه المواد فى مدارس الدولة .

دار العلوم والاحتلال البريطانى :

هناك وثيقة خطيرة يتحتم علينا أن نشير اليها هنا ، وهى تبين رأى الاحتلال فى هـذه الدار ، ولهذه الوثيقة قصـة نبدأها من أولها :

عقب الاحتلال البريطانى كان هناك مستشار انجليزى بكل وزارة من الوزارات ، وكانت السـلطة الحقيقية مركزه فى يد هؤلاء المستشارين ، وكان على كل مستشار أن يقـدم للمعتمد البريطانى تقريراً موجزاً عن الأمور المهمة فى الوزارة التى يعمل بها ، وكان هؤلاء المستشارون يتبادلون هـذه التقارير لتوحيد سياسة الاستعمار فى كل الوزارات ، وكانت هذه

---

(١) انظـر تقويم دار العلـوم الذى وضعه المرحوم الأسـتاذ محمد عبـد الجـواد .

التقارير سرية للغاية ، لأن هدفها خدمة الاستعمار مهما كان أثر ذلك على البلاد والسكان .

ولننتقل الآن الى نقطة أخرى فى طريقنا لهذه الوثيقة فقد كان مدير مكتبة وزارة المالية صهرا للأستاذ الدكتور مهدى علام ، وحدث أن زار الدكتور مهدى علام صهره بالمكتبة ، ومن الطبيعى أن حب الاستطلاع دفع الدكتور مهدى للتعرف على بعض ما فى المكتبة من كتب ووثائق ، فراح يطلع هنا ويقرأ هناك .

ويبدو أن مستشار وزارة المالية أخلى منصبه فجأة ، فنسى — وهو يجمع أوراقه — تقرير دنلوب المستشار الانجليزى لوزارة التربية والتعليم الى كرومر ممثل بريطانيا أو المعتمد البريطانى وكان تقرير دنلوب عن التعليم فى مصر ، ووقع هذا التقرير فى يد الدكتور مهدى علام فرأى فيه حديثاً عن دار العلوم ، فأغراه هذا أن يقرأه بدقة ، لأن الدكترر مهدى ابن بار من أبناء دار العلوم ويهمه أن يعرف رأى الانجليز السرّىّ فى هذه الدار .

وخلاصة هذا التقرير التى وعاها ذهن الأستاذ الدكتور مهدى علام وحفظها من طول ما رواها هى :

إن من أخطر الأمكنة على الاحتلال البريطانى فى مصر مدرسة « دار العلوم » لأن طلبتها يقومون بتدريس جميع المواد فى مدارس الدولة ما عدا اللغة الانجليزية ، وهم يتصلون بشباب الأمة ، ولهم عليهم تاثير واسع من طريق الثقافة الدينية والمدنية ، فهم بهذا أشبه ببؤرة نار متّقدة ضد الاحتلال ، وينبغى التخلص من هذه الدار بأى طريق من الطرق .

ويربط الأستاذ الدكتور مهدى علام ومعاصروه بين هذه الوثيقة وبين ألوان العناء التى شهدوها فى هذه الدار وهم طلاب بها .

فيبدو أن قفل الدار لم يكن عملا سهلا ، وأن الاحتلال كان يتحاشى المواجهة الصريحة ، ومن أجل هـذا اتجه الاحتلال الى محاربة هذه الدار بطرق أخرى حتى يقضى على نفوذها أو يجعله قليلا للغـاية ، وكان من آثار هـذا الاتجاه ما يلى :

١ — لم يكن يجوز للطالب أن يرسب فى دار العلوم ، فاذا رسب فصل ، ويجوز له أن يتقـدم من الخارج مرة واحـدة ، وطبيعى أن هذا أخاف الطلاب فتحاشى الكثيرون الالتحاق بها .

٢ — كانت الدراسة تبدأ فى ينـاير وتنتهى فى ديسـمبر ، وكان يقصد بهذا إبعاد طلاب هذه الدار عن الجماهير ، ويقصـد به كذلك مضايقتهم حتى لا يقبل الآخرون على الالتحاق بهـا .

٣ — كان مرتب المتخرج فى دار العلوم ثمانية جنيهات ، ومرتب المتخرجين فى المدارس المناظرة لهـا اثنى عشر جنيهـا .

* * *

ويتضـح من هـذه الوثيقة مقدار العناء الذى احتملته هـذه الدار فى عهـد الاحتلال .

وعانت دار العلوم ألوانا أخرى من الصراع بينها وبين الأزهر وبينها وبين أقسام اللغـة العربية بكليات الآداب ، ولكنها خرجت من هـذه المعارك سليمة وهى تحمل الوسام الذى أضـفاه عليها الإمام محمد عبده عندما قال قولته الشـهيرة :

« تموت اللغة العربية فى كل مكان وتحيا فى دار العلوم » .

ودار العلوم منذ سنة ١٩٤٦ كلية من كليات جامعة القاهرة ويتزايد طلابها وطالباتها بشكل ملحوظ ، والإقبال عليها واضح من كل الدول العربية والإسلامية فيلتحق بها عدد كبير من هذه الدول ، ويقوم المتخرجون

فيهـا والمتخرجات بتدريس اللغـة العربية والدراسات الإسلامية فى كل مكان بالعالم العربى والإسلامى والغربى ، ولأساتذتها دور كبير فى خدمة الدراسات العربية والإسلامية ، بمـا نشروه من كتب فى كل مجـال ، وبمحاضراتهم العامة والخاصة بمصر وبربوع العالم وجامعاته ، وبمقالاتهم التى تغمر مجلات العالم وصـحافته فى مختلف الدراسات الإسـلامية والعربية ، وبمـا يذيعونه على الناس فى أجهزة الراديو والتليفزيون .

وهناك كلمة أخيرة حول تسمية هـذه الكلية ، فإنها حين انضـمت للجامعة اتجهت بعض الأنظار للتخلص من الاسم القـديم حتى لا تتعدد الإضافات ، وحتى تكون تسميتها الجـديدة مطابقة لمـا يدرس بها من مواد ، فاقترح لهـا اسم « كلية الدراسات الإسـلامية والعربية » أو نحو ذلك ، ولكن أكثر المفكرين تمسكوا باسمها القـديم ، فقد رأوا فيه تراثاً ينبغى الحفاظ عليه ، وقـد أصبح له مدلول فى العالم كله هو رعاية الدراسات الإسلامية والعربية تراثاً وتطويراً ، وقـد أطلق اسم « دار العلوم » على ١٤ معهداً من معاهد العالم تقوم بهـذه المهمة فى نيجيريا والهند وماليزيا وغيرها من الدول ، واستلزم ذلك أن تحافظ « دار العلوم » على اسمها ، وأن تسبق هـذه التسمية بكلمة « كلية » التى تسبق أسماء كل كليات الجامعـة .

خريجو دار العلوم فى مختلف المناصـب :

بقى أن نقول إن الاحصائية الرسمية التى صـدرت سنة ١٩١١ فى كتاب « التعليم فى مصر » توضـح أن المتخرجين فى دار العلوم منـذ عهدها المبكر كانوا يشغلون مناصب متعددة فى « نظارة المعارف » كمـا كانوا قضـاة ومستشارين ورؤساء محاكم فى « نظارة الحقانية » واشتغل بعضهم بنظارة الخارجية ونظارة الداخلية والخاصة الخديوية ، وبعضهم اشتغل معلما بجامعة كمبردج واكسفورد بانجلترا واشتغل بعضهم بالمحاماة والأعمال الحرة ولا يزال المتخرجون فى دار العـلوم يعملون فى مختلف

الأعمال وبخاصة فى الاذاعة والتليفزيون والصحافة بجانب مناصب وزارة التربية والتعليم .

والباخرة تسير باسم الله مجراها ومرساها .

* * *

اصلاحات اسماعيل القضائية :

وينسب الى اسماعيل حركة الإصلاح القضائى التى أزالت المحاكم القنصلية وقللت من مثالب الامتيازات الأجنبية ، وكان هذا الإصلاح خطوة فى سبيل انشاء المحاكم الأهلية ، والقضاء على الامتيازات نهائياً .

أعماله الهندسية والزراعية :

أما الأعمال الهندسية التى تنسب الى اسماعيل ، فهى جديرة بالتقدير والإعجاب ، **فقد حفر اسماعيل شبكة من الترع عددها ١١٢ ترعة ، وبلغ طول هذه الترع ١٣٠٠٠ ك ٠ م** ، وأعظم الترع ترعة الابراهيمية وهى من أعظم الترع فى العالم كله ، ويبلغ طولها ٢٦٨ كيلو مترا ، ومتوسط عرضها ١١٤ متراً وهى تبدأ من أسيوط وتنتهى عند أشمنت بمديرية بنى سويف ، فهى تغذى المحافظات الثلاث أسيوط والمنيا وبنى سويف وبفضلها تحول نظام الرى فى هذه المحافظات من رى الحياض الى الرى الصيفى ، وتبلغ مساحة الأرض التى انتفعت بهذه الترعة ٨٥٠٠٠٠ فدان وهناك ترعة ثانية استمدت اسمها من اسمه هى ترعة الاسماعيلية التى تتلقى الماء من النيل عند شبرا ، وتنتهى الى الاسماعيلية ، ثم تتفرع فرعين أحدهما ينحدر الى السويس والآخر يصعد الى بورسعيد ، وقد أخذ منها فرع عَبَرَ الى سيناء ، وقد حملت هذه الترعة عناصر الحياة الى محافظتى القليوبية والشرقية ومنطقة القناة ، وبجانب هاتين الترعتين الكبيرتين أنشأ اسماعيل عدداً من الترع

التى تختلف أطوالها وأعماقها — كما اتجه الى الترع والرياحات القديمة فعمقها وأعاد حفر ما انطمس منهــا ، وقــد ضم اسماعيل بذلك ما يقرب من مليونى فــدان للأراضى المنزرعة .

وأنشأ اسماعيل مجموعة من القناطر والجسور ، ومن أشهر الجسور التى أنشــأها كوبرى قصر النيــل ، والكوبرى المعروف بكوبرى البحر الأعمى ، وقد ربط بهذين الكوبريين بين القاهرة والجيزة ، ووسع اسماعيل ميناءى السويس والاسكندرية وأعــد بهمــا المنارات اللازمة لإرشــاد السفن ، ومهّد اسماعيل آلاف الأميال من الطرق ، ومن هذه الطرق طريق الأهرام ، وأنشأ اسماعيل شبكة واسعة من السكك الحــديدية ربطت بين المدن والقرى بالداخل كما ربطت بين مصر ووادى حلفا وشندى ومصوع ، ومــدّ اسماعيل فى مصر والسودان شبكة من الخطوط التلغرافية ، وأنشأ عــدة مكاتب للتلغراف ، وكان البريد فى مصر يتبــع الجاليات الأوربية ، ولكن اسماعيل اشترى ادارات البريد ، وأنشأ مصلحة مصرية للبريد سنة ١٨٦٥ ، وأنشأ مكاتب لهــا بلغ تعدادها ٢١٠ مكتباً .

واهتم اسماعيل اهتماماً كبيراً بردم البرك والمستنقعات ، ومد أنابيب الميــاه العذبة ، واهتم بالمدن اهتماماً كبيراً فخط بهــا الشوارع ، وأنشأ الميادين والجسور ، وأقام المتاحف والمسارح ، وشيد المساجد والمدارس ، وأنار طرقاتها بغاز الاستصباح ، وفى القاهرة والاسكندرية مجموعة كبيرة من الشوارع والقصــور ارتبطت بحركة الإصلاح التى قام بها اسماعيل .

وبسبب جهود اسماعيل فى القاهرة والاسكندرية لم يحتج الأجانب أن يقيموا لهم أحياء خاصــة بهم كما فعلوا فى أكثر عواصــم آســيا وإفريقية (١) .

وعنى اسماعيل بأن يخطو بالصناعات خطوات ثابتة للأمام فطوّر

---

(١) من مقال للمهندس حسين سرى فى الكتاب السابق .

ما كان موجودا بمصر وأدخل للبلاد صناعات جـديدة ، فطور الطباعة ، وأنشأ صـناعة الطوب والبلاط والورق والنسيج والسـكر •

من سلطة الفرد الى سـلطة الجماعة

من الحق أن نقرر أن العهد كان غالباً عهد سلطة الفرد فى العالم ، وأن الحكم الاستبدادى كان طابع الحياة فى الامبراطورية العثمانية التى كانت مصر تمثل جزءاً منها ، ومن الحق أن نقرر كذلك أن قليلين جداً من الحكام فى التاريخ مَنْ تنازلوا عن سلطاتهم الاستبدادية ، ولجأوا الى الشورى • وقـد شهدت مصر فى عهـد محمد على وعهد اسماعيل خطوة فى الطريق الى الشورى ، وهى خطوة قصيرة المـدى ولكنها فتحت الطريق للسـير الى الأمـام •

وقد جاء محمد على باختيار الشعب ، وقـد حاول الانفراد بالحكم عنهم ولكنه على كل حال لم يكن كباقى الولاة العثمانيين ، لأنه أحس أن مصر بلاده ، وأن شعبها هو الذى اختاره ، وأن سلطات العثمانيين لعزله لم يعـد لها وجود ، ومن هنا أراد أن يوثق صـلته بالمصريين الذين أصبحوا عـدته وعونه ، فأنشأ المجلس المخصوص ومجلس شورى القوانين ، ولكن لم يكن لهـذه سلطان ذو بال ، وسرعان ما ذوت ، بيد أن هذا الاتجـاه ظل ينتظر من يعيد له نبض الحيـاة ، حتى جاء اسماعيل فخطا خطوات الى الأمام فى هـذا السبيل وسنلم فيما يلى إلمامة سريعة بالاتجاهات التى نقلت الكثير من سلطة الفرد الى سلطة الجماعة •

أولا : مجلس الشـورى :

كان محمد على ـــ كما ذكرنا من قبل ـــ قـد أنشأ مجلساً يضم أولى الأمر فى البلاد وذوى الرأى فيها ، وسماه مجلس الأعيان ، وكان مجلس الأعيان ينعقد بالقلعة ويستشيره محمد على فى الشئون العامة ، وتعطل هذا المجلس فى أيام عباس وسعيد ، فلما جاء اسماعيل تقـدم فى هذا المجال

خطوة مهمة ، إذ أصـــدر فى أكتوبر سنة ١٨٦٦ أمراً بتأسيس مجلس شورى النواب ، وانعقـــد المجلس فى أول مـــرة فى ٢٥ نوفمبر ١٨٦٦ وافتتحه اسماعيل بكلمة جـــاء فيها :

« كثيراً ما كان يخطر ببالى إيجاد مجلس شورى النواب ، لأن من القضـــايا المسلمة التى لا يُنْكر نفعُها أن يكون الأمر شورى بين الراعى والرعية ، ويكفينا كون الشارع حثّ عليه بقوله تعـــالى « وشاورهم فى الأمر » وبقوله تعالى : « وأمرهم شـــورى بينهم » ولهـــذا استنسبتُ افتتاح ذلك المجلس بمصر تُتذاكر فيـــه المنافع المفيـــدة ، وتُبْدَى به الآراء الســـديدة » .

وكان أعضـــاء مجلس شورى النواب ينتخبون من الشعب ، ويقرر التاريخ أنهم لعبوا دورا كبيرا فى تطوير الحيـــاة النيابة بمصر ، وأنهم حرصـــوا على أن يكون المجلس أداة فعالة فى الاصـــلاح ، وطالبوا بحرية النشر ، وفرض الضرائب على الأجانب أسوة بالمصريين ، وقد ظهرت فى هـــذا المجلس زعامات مصرية قوية ، من أبرزها عبد الســـلام المويلحى رئيس المجلس الذى استطاع بمعاونة النواب أن يخطو بمجلس الشورى خطوات واسعة كانت الأساس لقيـــام الحيـــاة النيـــابة بمصر ، بل فى الشرق كله .

ولا بد هنـــا أن نذكر أن ممثلى الأمة تمسكوا بالنظام الشورى حتى عندما انحرف عنه رياض باشا ناظر الوزراء وأراد تعويقه ، فقـــد ذهب هـــذا الى مجلس الشورى ليبلغ الأعضـــاء قرار الخديوى اسماعيل بحل المجلس فصرخ فيه عبد السلام المويلحى قائلا : إننا هنا بسلطة الأمـــة ولن نخرج إلا على أسنة الحراب ، وأضـــاف المويلحى :

أن جميع الدول الراقية فى أوربا .. وفى أمريكا لها مجالس نيابية .

فقال رياض باشا : هـل تريد بهـذه العمـائم .. وبهـذه البلغ (الأحذية الريفية) أن تقلد أوربا ؟

فرد المويلحى : أن العبرة بالرؤوس .. لا بالزى !

فصاح رياض باشا : أنتم عصـاة ! أنتم همج !

فنادى المويلحى مصطفى وهبى باشا السكرتير العام لمجلس شورى النواب وطلب أن يقيد فى المضبطة حرفيا كل ما دار من حـديث بين النواب وناظر الوزراء .. وقال : « حتى اذا ما نشر هـذا فى الجرائد ، واطلع عليه القراء علموا من هم الهمج : النواب أم النظـار ؟ » .

وحاول رياض أن يمنع الصحف من نشر هـذه الكلمات ولكن أحدا لم يستجب له ، ونشرت الصحف جميع ما دار فى هـذه الجلسة . واضطر الخديوى للتراجع حتى لا يقابل ثورة الجماهير ، وعزل رياض سنة ١٨٧٩ واستدعى شريف باشـا لتأليف الوزارة .

وقبل أن نترك رياض باشا نذكر أن من مساوئه أنه عطل صـحيفتى « مصر » و « التجارة » لـما كان ينشر فيهما من المقالات الوطنية القوية وأنه كان وثيق الصـلة بالأجانب ، ولكن من محاسنه ما يذكره عنه الأستاذ أحمد أمين أنه كان ذا رغبة إصلاحية فى تنظيم الشئون المالية وتهـذيب العقول ، وتشجيع الآداب ، وأنه أبطل السـخرة والضرب بالكرباج (١) ولكنه على العموم لم يكن زعيما محبوبا لدى الجماهير .

ثانيـا ــ مجلس الوزراء :

كان محمد على قـد أنشأ مجموعة من الإدارات تشرف كل منها على جانب من جوانب ادارة البلاد ، وسميت هـذه الإدارات بالدواوين وقد

(١) زعماء الاصلاح ص ٣٠٠ و ٣٠٢ .

تأسست هـذه الدواوين تبعاً للاحتياجات الادارية ديواناً بعد ديوان ، وأنشىء آخرها سنة ١٨٣٧ ، وحينئذ صدر القانون المسمى « السياستنامة » أى التنظيم السياسى ، وقـد شمل هـذا التنظيم سبعة دواوين هى :

الديوان الخـديوى (الداخلية)

ديوان كافة الايرادات (الماليـة)

ديوان الجهـادية (الدفاع)

ديـوان البحـر (البحرية)

ديوان المدارس (التربية والتعليم)

ديوان الافرنجية والتجارة المصرية (الخارجية)

ديوان الفاوريقات (الصـناعة)

ومن رؤساء هـذه الدواوين يتكون المجلس المخصوص الذى كان يعاون محمد على فى إدارة شئون البلاد ، وهو شديد الشبه بمـا يسمى مجلس الوزراء الآن ، وكان هـذا المجلس أشبه بالمجلس التنفيذى لأن السلطان الحقيقى كان فى يد محمد على .

ثم قضى عباس على هذا المجلس كما قضى على غيره من صور النشاط .

وفى عهد اسماعيل عندما بدأ التدخل الأجنبى فى الشئون المصرية تكونت لجنة التحقيق العليا الأوربية ، وفى ابريل سنة ١٨٧٨ ذكرت هـذه اللجنة فى تقريرها أن كل المفاسد وفوضى الأوضاع المالية فى مصر ناتج أساسا عن السلطة المطلقة التى يمارسها الخديوى فى البلاد .

وتبعا لذلك أوصت هذه اللجنة أن يشترك مع الخديوى مجلس وزراء وادعت أن ذلك يخلى الخديوى من المسئولية ، ورغبة مـن هـذه اللجنة الأوربية فى أن يتحقق لها ما تشاء تدخلت فى تحديد من يرأس هذه الوزارة ،

بل أصرت على أن يكون بها وزير انجليزى وآخر فرنسى ذاكرة أنهما بهذا التكوين تكون أعلى كفاءة وتستطيع أن تقف فى وجه الخديوى ، وبعد حيل كثيرة أصدر الخديوى اسماعيل فى ٢٨ أغسطس سنة ١٨٧٨ أمراً بتشكيل أول نظارة مسئولة بمصر ، وكانت برئاسة نوبار باشا .

وولدت بذلك أول وزارة بمصر ، وكانت آنذاك تسمى « النظارة » إشارة الى تبعية مصر للامبراطورية العثمانية ، فلما انقطعت هذه التبعية سنة ١٩١٤ باعلان الحماية على مصر ، أصبحت النظارة وزارة ، وبمولد النظارة المصرية تغير نظام الادارة الذى كان متبعا من قبل ، وانتقل لها جزء من سلطة الخديوى . وكان خطاب الخديوى الى رئيس النظار يفيد هذا الاتجاه وقد جاء فيه : .... أردت أن أؤكد لكم ما توجه قصدى اليه وثبت عزمى عليه من اصلاح الادارة وتنظيمها على قواعد مماثلة للقواعد المرعية فى ادارات ممالك أوربا ، كما أنى أريد — عوضا عن الانفراد بالأمر — قوة من مجلس النظار بمعنى أنى أروم القيام بالأمر من الآن فصاعدا بالاستعانة بمجلس النظار والمشاركة معه .

ولنعد الى أول رئيس للنظار بمصر وهو نوبار باشا لنقرر أنه رجل أرمنى الأصل مسيحى الدين ، كانت عواطفه وميوله فى جانب بريطانيا (١) ، وقد وصفه جوردون فى مذكراته بأنه أرمنى وضيع ، وكان من بين أعضاء هذه الوزارة وزير انجليزى ووزير فرنسى ومن أجل هذا سميت الوزارة المختلطة ، ولم يطل عمر هذه الوزارة بسبب هذا العنصر الأجنبى فيها ، ولأنها اتجهت فيما اتجهت اليه من مظاهر الاقتصاد الى تعطيل المرافق العامة ، وأحالت ٢٥٠٠ من رجال الجيش الى الاستيداع ، مما هيج الرأى العام والجيش فاضطرت الوزارة الى الاستقالة .

واتجهت الأنظار بعد ذلك الى تعيين الأمير توفيق رئيسا للوزارة ،

---

(١) سافر نوبار الى لندن سنة ١٨٧٧ لتمهيد الطريق لفرض حماية بريطانيا على مصر (مصر المعاصرة للدكتور مصطفى صفوت ص ٥٦) .

ولكن وزارته لم تكن أحسن من سابقتها فأخلت الطريق الى أول وزارة وطنية برياسة شريف باشا ، وقد أبعد شريف العنصر الأجنبى من وزارته ، ولكن الأوربيين تألبوا عليه ، بيد أن الشعب أيده وأيده كذلك الخديوى اسماعيل ، فكان أن عملت الدول الأوربية على خلع اسماعيل ، وتولى توفيق العرش بعد أبيه فقدم شريف استقالته للخديوى الجديد ، ولكن الخديوى توفيق طلب منه اعادة تشكيل الوزارة تهدئة للأحوال ، بيد أن توفيق سرعان ما لاحظ اهتمام شريف بالحياة الدستورية الحقة التى لا تناسب ميوله ولا اتجاهات الدول التى جاءت به الى الحكم ، فعارض ميول شريف مما دفع هذا الى الاستقالة فى أغسطس سنة ١٨٧٩ .

وأراد توفيق أن يعود بالبلاد الى الوراء ، فألف وزارة يرأسها هو ، ولكن ذلك قوبل باستياء عام اذ كان معناه العودة للحكم المطلق ، فاستدعى توفيق رياض باشا من أوربا وطلب منه تشكيل الوزارة فشكلها فى ٢١ سبتمبر سنة ١٨٧٩ ، ولم يكن رياض مرضيا عنه ، وكانت ميوله استبدادية ، وكان ينفذ آراء سادته الانجليز الذين آثروا — كما يقول اللورد كرومر — جر الخيوط من وراء ستار ، وعدم الظهور على المسرح إلا قليلا (١) ، واكتفى رياض بالغاء أنواع من الضرائب الجائرة منها الضريبة الشخصية والجمارك الداخلية ، ولكن ذلك كان أقل كثيرا من أمانى البلاد .

وإذا سرنا بعد ذلك مع الوزارة المصرية نجد أن وزارة رياض قابلت عاصفة الحركة العرابية ، ولم يستطع رياض أن يوفق بين ميوله الاستبدادية وولائه للانجليز وللخديوى وبين الفكر الذى كانت الحركة العربية تتبناه ، فأقيلت وزارة رياض برغبة العرابيين وتولى شريف باشا فى سبتمبر سنة ١٨٨١ ولكن هذا رأى أن يخلى الطريق للزحف العرابى فاستقال وتألفت وزارة عرابية برياسة البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وبعد بضعة شهور تم الاحتلال البريطانى (يوليو ١٨٨٢) كما سنرى فيما بعد .

---

(١) من مذكرات اللورد كرومر .

ومع الاحتلال البريطاني واجهت الوزارة المصرية مشكلات خطيرة أهمها :

١ — تعيين اللورد كرومر في وظيفة الوكيل البريطاني والقنصل العام بمصر عقب الاحتلال ، وقد ظل يشغل هذا المنصب حتى سنة ١٩٠٧ وكان خلال هذه المدة يعتبر مصدر السلطات بمصر ، فموافقته كانت ضرورية لاختيار رئيس الوزراء ، وكان مسموع الكلمة في اختيار الوزراء ، وعندما تخطى الخديوى عباس الثاني هذا التقليد الاستعماري وعين فخرى باشا رئيسا للوزراء في يناير سنة ١٨٩٣ دون موافقة كرومر ، هدده كرومر بالخلع من منصب الخديوى ، فتراجع الخديوى عباس ، واستقالت وزارة فخرى باشا بعد ثلاثة أيام من تشكيلها . ودعما لنفوذ كرومر عين هذا مستشارين من الانجليز للوزارات المصرية المختلفة يتكون منهم برياسته ما يمكن أن يعتبر مجلس الوزراء الحقيقي ، كما عين مفتشين من الانجليز بالمديريات كانوا بمثابة عيون له في تلك المديريات .

٢ — ولكن التاريخ يسجل كثيرا من المقاومة التي أبداها رؤساء الوزارات والوزراء للسلطة الانجليزية ، فقد رفض شريف باشا سنة ١٨٨٤ أوامر الانجليز لاخلاء السودان ، وفضل أن يستقيل على ارتكاب هذا المنكر ، وجاء بعده نوبار فوافق على مطالب الانجليز ، ووقف سعد زغلول موقف شريف من السودان سنة ١٩٢٤ عقب مقتل السردار ، وجاء بعده زيور ليستجيب لمطالب الانجليز ، على أن هناك صراعا مشهورا يرتبط باسم سعد زغلول أيضا حينما كان وزيرا للتربية والتعليم (١٩٠٦ — ١٩١٠) فقد قاوم تعليمات دنلوب دون هوادة .

ويرتبط بالمقاومة كذلك ما يذكره التاريخ عن احجام رجال السياسة عن تأليف وزارات أحيانا حتى لا ينعزلوا عن جماهير الشعب ، وقد ظلت البلاد بدون وزارة سنة ١٩١٩ مدة أربعين يوما حتى أعاد حسين رشدي باشا تشكيل وزارته في ٩ إبريل .

٣ — وتعرضت الوزارات المصرية لألوان من الهجوم مصدره القوى الوطنية التى كانت تتربص بالوزراء الذين يخضعون للمحتل الغاصب ، وقد بلغت هذه المقاومة مداها عندما دفع الحماس الوطنى أحد المواطنين ليقتل بطرس غالى رئيس الوزراء لاتجاهه للموافقة على مد امتياز شركة قناة السويس •

٤ — وحدث بعد تصريح ٢٨ فبراير سـنة ١٩٢٢ تغيير واضح فى تقييم الشخصيات ليتم اختيارهم لمنصب الوزارة ، فقد أصبح ماضـيهم السياسى ومكانتهم الحزبية تعادل أو تزيد عن مكانتهم الادارية أو الفنية التى كانت موضع التقدير من قبل •

ولكن الذى يتتبع اتجاهات حزب الوفد يرى أنه كان يحرص على اختيار شخصيات لها كفاءة ممتازة ليضمها للوزارة وإن لم يكن مكانها واضحا بين شخصيات الحزب ، ومن هؤلاء الدكتور صلاح الدين والدكتور طه حسين •

٥ — اختفت وزارة الخارجية من بين الوزارات المصرية فترة خلال سعار الاستعمار اذ اعتبر الوكيل البريطانى هو المسئول باسم حكومته عن صلات مصر بالدول الأخرى •

٦ — بعد قيام الحكومات الدستورية بمصر بدأ صراع مرير بين فؤاد وفاروق من جانب وبين الوزارات الوفدية من جانب آخر كما سنرى تفاصيل ذلك احصائيا بعد قليل ، وقد ظل الصراع محتدما بـين القصر وحكومات القصر من جانب وبين الحكومات الوطنية من جانب آخر حتى نهاية عهد الملكية بمصر •

ثالثا — الصحافة :

بدأت الصحافة المصرية فى عهد اسماعيل ، وقد شجعها اسماعيل فى أول الأمر ليستعين بها على الانجليز ، بيد أن هذه الصحافة أصبحت فى الغالب تمثل الرأى العام ، وتقاوم ما وسعتها الحيلة تدخل الانجليز أو

محاولة الخديوى العودة للاستبداد ، وكانت جريدة « أبو نظارة » التى أنشأها يعقوب صنوع سنة ١٨٧٧ من أولى الصحف المصرية ، وكانت واسعة الانتشار بين الشعب وشديدة التأثير فيه ، وكانت كثيرة الانتقاد لأعمال إسماعيل .

ومع « أبو نظارة » ظهرت جريدة « مصر » سنة ١٨٧٧ وكان من بين محرريها سليم نقاش وجمال الدين الأفغانى ، وأسس سليم تقلا وبشارة تقلا جريدة « الأهرام » فى نفس الفترة أيضا ، وأصدر ابراهيم اللقانى جريدة « مرآة الشرق » سنة ١٨٧٩ ، كما أنشأ ميخائيل عبد السيد جريدة « الوطن » ، وتوالى ظهور الصحافة بعد ذلك .

وعلى الرغم من انحراف بعض الصحف وتأييدها التدخل الأجنبى أحيانا ، فان أكثر الصحف سارت فى الخط الوطنى وكان الشعب فى منتهى الذكاء ، فقد انفضّ عن الصحافة المنحرفة فقضى عليها ، ولم يجْدها نفعا تأييد الانجليز أو القصر ، اذ لم يعد لها قراء فلم يبق له أى تأثير أما الصحافة الوطنية فقد سارت تؤيد الاصلاح ، وتعمل على حراسة حقوق الشعب ، ورد المعتدين على هذه الحقوق .

رابعا — الجيش :

كان عملا أهوج ذلك الذى أشرنا اليه من قبل وهو احالة ٢٥٠٠ من رجال الجيش الى الاستيداع فى عهد نوبار وقد ثار الجيش لذلك ، وتراجع نوبار واستقال ، وعاد رجال الجيش اليه ، ومنذ ذلك الحين ظهر الجيش قوة من قوى المعارضة الوطنية ، وأصبح وقوفه فى وجه الاستبداد والانفرادية عملا عاديا ، وظلت هذه القوة تنمو حتى تسلم عرابى قمة المعارضة الوطنية كما سنرى فيما بعد .

خامسا ــ الرأى العام :

من الحق أن نقرر أن الرأى العام فى مصر كان دائما موجودا ، ولكن صوته كان يكبت حينا ، وكان حينا آخر يتغلب على الصعاب فيرتفع ويزمجر ، وقد رأيناه مدويا فى عهد الحملة الفرنسية ، ورأيناه بارزا حين عَزَلَ الوالى العثمانى وعين محمد على واليا على مصر ، ورأيناه صاخبا وهو يناضل فريزر قبل أن يصل محمد على من الصعيد بجنوده وعتاده •

وفى آخر عهد اسماعيل ظهرت زعامات قوية من أبرزها شريف باشا الذى أصبح بفضل مواقفه القوية بطل الوطنية المصرية فى عهده ، وانضم **الى شريف ، عمر لطفى وشاهين باشا وراغب باشا وسلطان باشا مكونين** « الحزب الوطنى » وأرسلوا أديب اسحق الى باريس ليصدر جريدة « مصر القاهرة » على نفقتهم ، وكانت توزع سرا فى مصر ، ثم انضم الى هؤلاء عرابى وعبد العال وعلى فهمى والبارودى وسليمان أباظة وحسن الشريعى ومحمود فهمى •

وكان لهؤلاء الزعماء مكانتهم بين الجماهير ، فكانت حركاتهم مؤيدة من الرأى العام ، وكان صوتهم عميق الصدى بين الجماهير ومعبرا عن مشاعر المواطنين •

وفى هذه الفترة الحساسة ظهر بمصر زعيمان من نوع جديد آنذاك ، زعيمان لم تكن السياسة هى كل ما يشغلهما بل أضافا الى ذلك عمقا فى الاتجاه الاسلامى ، ودعوة للتجديد والاجتهاد والانطلاق ، وهذان الزعيمان هما :

١ ــ العلامة جمال الدين الأفغانى •

٢ ــ الامام محمد عبده •

وكل منهما جدير بحديث خاص نقوم به عقب الانتهاء من سيرة اسماعيل •

عيوب اسماعيل

لعلنا فيما سبق حاولنا أن نلم بمآثر اسماعيل ، وألا نغفل شيئا مما قدمه لمصر من أياد وأفضال ، وقد آن الأوان لنتحدث عن عيوبه ونضع فى الكفة الأخرى مثالبه ، لنستطيع بعد ذلك أن نرى أى الكفتين ترجح وأيهما تشيل •

قضية الديون :

ولا شك أن قضية الديون هى أبرز العيوب التى لصقت باسماعيل ، ولا شك أنه كان هناك اهمال وغفلة فى موضوع الاستدانة ، وقد تسبب عن الاهمال والغفلة صور من العناء لبلادنا الحبيبة •

والحديث عن الديون له عناصر :

أولها : ما مقدار هذه الديون ؟ وماذا حصل فى أرقامها من عبث ؟

وثانيها : فيم أنفقت هذه الأموال التى استدانها اسماعيل ؟

وثالثها : هل كانت هذه الديون هى السبب الحقيقى لعزل اسماعيل ؟

وسنتكلم عن هذه العناصر واحدا بعد الآخر •

١ ـ مقدار الديون والألاعيب حولها :

تدل الوثائق على أن القروض التى اقترضتها مصر فى المدة من ١٨٦٢ الى ١٨٧٣ كانت ٦٨٫٤٩٧٫٠٠٠ جنيه ، ولكن المبالغ الحقيقية التى تسلمتها الخزانة المصرية هى ٤٣٫٧٨٧٫٠٠٠ جنيه ، ومن الواضح أن العمولات والسمسرة قد أخذت جزءا كبيرا من هذا الدين يزيد عن الثلث ، ومن الواضح كذلك أن جزءا من هذا الدين عقد فى عهد سعيد باشا ، وكانت فوائد هذه الديون تقرب من أربعة ملايين جنيه سنويا ، مما جعل من الصعب تسديد الفوائد وأقساط الديون فى وقت واحد ، وفكر اسماعيل

فى توحيد أكثر الديون ، فعقد قرضا بمبلغ ٣٢ مليونا من الجنيهات ، ولكن الذى وصل فعلا للخزانة المصرية من هذا المبلغ هو ٠٠٠/٤٠٠/٢٢ بمعنى أن عمولات السماسرة والأتعاب المنوعة استغرقت حوالى عشرة ملايين .

ومن الممكن أن نقرر أن هناك غفلة وتهاونا لا يمكن غفرانهما وتشمل الغفلة مبدأ الاستدانة لغير ضرورة قاهرة ، كما تشمل أضاعة جزء كبير من الدين للوسطاء والعمولات .

٢ — فيم أنفقت هذه الديون :

إن الوثائق تقرر أن ٤٦ مليونا أنفقت فى التزامات مصر تجاه حفر قناة السويس ، والتحلل من الالتزامات التى كان قد ارتبط بها سعيد باشا ، كما أنفق جزء كبير منها فى انشاء الترع النيلية التى أشرنا لها من قبل ، وانشاء الجسور (الكبارى والقناطر) وانشاء مصانع السكر ، وميناء الاسكندرية ، وأحواض السويس ، والسكك الحديدية ، والتلغراف والمنائر ، ويذكر بعض الباحثين المحدثين هذه الحقيقة فيقرر أن الخديوى أنفق أكثر هذه الأموال فى حفر قناة السويس وفى حفر الترع وتوسيع الرقعة الزراعية بمساحة مليون فدان وفى ربط مصر بالسكك الحديدية والتلغراف وفى بناء جيش وطنى قوامه نحو مائة ألف مقاتل ، بعد أن كان ١٨٫٠٠٠ مقاتل وقد بنى به أمبراطورية " إفريقية " نيلية تضارع أمبراطورية محمد على العربية ، فرفع العلم المصرى على أوغندا وألغى تجارة الرقيق حيثما سارت جنود مصر . كذلك نعرف أنه تسلم البلاد وليس فيها إلا نحو ١١٥ مدرسة وتركها بعد ١٦ سنة وفيها ٤٥٠٠ مدرسة بعضها للبنات ، ولم تكن فيها صحيفة واحدة فعرف عهده قرابة ٣٠ صحيفة ومجلة ، ولم يكن فيها نظام قانونى واضح فادخل فيها أحدث قانونى مدنى وجنائى وادارى كان معروفا فى عصره (قانون نابليون) ولم تكن فى مصر هيئة تشريعية فأنشأ اسماعيل فيها أول برلمان مصرى ، بدأ استشاريا صوريا فى ١٨٦٦ ثم نضج واستأسد عبر ١٢ سنة حتى شارك اسماعيل فى ١٨٧٩

فى قيادة الحركة الوطنية ضد النفوذ الأوربى ، ثم ظاهر الثورة العرابية الشعبية فى سنة ١٨٨٢ (١) .

على أنه كانت هناك وجوه انفاق فيها صور من البذخ ، وكان من الممكن تأجيلها أو تقليلها ؛ ومن هذه اقامة القصور الشامخة وتأثيثها بأفخر الأثاث ومنها الاحتفال الباهر بافتتاح قناة السويس وقد تكلف حوالى المليون من الجنيهات مع ملاحظة أن بعض المبالغات تصوّر هذا الحفل وكأنه كان وحده سبب الديون ، ومنها الحملات العسكرية الكبيرة التى دفع بها اسماعيل للخارج لمساعدة تركيا أو غيرها ، وقد تكلفت تكاليف باهظة ، وهذه الأشياء نعيبها وننتقدها بشدة .

٣ — الديون وعزل اسماعيل :

فى الفترة التى كانت مصر تتجه الى افريقية فى عهد محمد على ثم فى عهد اسماعيل كانت قوى أوربا المنسحبة من أمريكا قبيل حرب الاستقلال (١٧٧٦) وبعده ترى فى افريقية أملها بعد أن فقدت الأمل فى أمريكا ، ومن هنا حدث صراع بين أوربا ومصر .

على أن أوربا كانت قَلِقَة منذ عهد محمد على وكانت تخشى أن تصبح مصر دولة عظيمة بافريقية ، وقد عبر مترنيخ عن موقف أوربا بقوله سنة ١٨٢٧ أن نشوء دولة افريقية جديدة ، عظيمة بمواردها ومركزها الجغرافى يُعَدُّ من أكبر الأخطار التى تتهدد أوربا .

وقد كان خطر اسماعيل فى افريقية أوسع من خطر جده لاتساع ملكه وعظم تأثيره ، ومن هنا تكتل الأوربيون ضد اسماعيل ، وقرروا ضرورة إبعاده من الطريق ، واتخذوا الوسائل للكيد له ،وكانت الديون وسيلتهم لذلك، **فادعوا أنه مسرف مبذر ، يستدين لينفق على ملذاته ولهوه فأساءوا بذلك**

---

(١) من بحث بجريدة الاهرام يوم ١٩٧٥/٨/١٥ .

سمعته ، ثم أرادوا تنفير الناس منه وايقاف موجة الاصلاحات التى كان يقوم بها ، فألزموه بانشاء صندوق الدين ، وعيّن فيه مندوب لكل دولة دائنة ، كما ألزموه بتعيين مراقبَيْن أجنبيين لحساب الحكومة ، أحدهما للايرادات والثانى للمصروفات ، واتجه كل هذا النفوذ الأجنبى لسداد الديون بدون نظام ، مما سبب توقف كل الاصلاحات وفصل بعض الموظفين ، ومما أثار الارتباك والفوضى ، فأصبح وجود اسماعيل يمثل عائقا فى تيار الحياة ، وانتهت الأزمة بخلع الخديوى اسماعيل فى يونيو سنة ١٨٧٩ وتولية ابنه توفيق ، ورحل اسماعيل الى أوربا ، وظل يعيش بها حتى سنة ١٨٨٨ ، ثم انتقل الى الأستانة فعاش بها حتى مات سنة ١٨٩٥ ، ونقل جثمانه الى القاهرة ٠

وقد وضّح (فارمان) قنصل أمريكا فى مصر آنذاك مأساة عزل اسماعيل فى تقرير بعث به الى حكومته فى ٨ يوليو ١٨٧٩ ، وقد اقتبسنا فقرات من هذا التقرير فى الجزء السادس من هذه الموسوعة (صفحة ٣٣٧ — ٣٣٨) وضح فيهما أن حكومة الخديوى اسماعيل كانت أفضل حكومات الشرق ، بل كانت هى الحكومة الشرقية الوحيدة التى انفردت بمحاولة التقدم والرقى فى كل ما يتصل بأسباب الحضارة الحديثة ، وأن من يستعرض ما تمّ فى عهده من التقدم يجد أنه كان عظيما جدا ، ويقرر « فارمن » أن المسألة المالية لم تكن الا مجرد أعذار لتجعل من الممكن تنفيذ خطط سياسية معينة ، ولم يسبق أن اعتبر عجز الدولة عن دفع ديونها سببا يخول الدول الأجنبية الحق فى أن تخلع حاكمها أو أن تغير حكومتها ٠

* * *

وقد مر قرن على عصر اسماعيل فماذا على مصر من ديون بعد هذا القرن ؟ وفى أى النواحى أنفقت هذه الديون ؟ إن الاجابة عن هذا السؤال تحتويها دراساتنا التفصيلية عن تاريخ مصر المعاصر فى الجزء التاسع من

هذه الموسوعة ، وهى على العموم توضح السرقات كما توضّح أن طرق الانفاق فى القرن الحالى كانت مآسى تدمى لها القلوب ، وليس بها أى جانب ذي بال من جوانب الاصلاح ٠

اسماعيل فى الميزان :

ليس من العسير بعد هذا الشرح أن نقرر أن اسماعيل كان حاكما عملاقا ، وكان عهده منعطفا هائلا فى تاريخ مصر السياسى والحضارى ، ولا شك أن حسنات اسماعيل ترجح ما ارتكبه من سيئات رجحانا عظيما ، ونضعه فى القمة مع القادة والمشاهير ، ومرة أخرى نقرر أن له أخطاء ، وأن بعضها جسيم ، وقد ذكرنا هـذه الأخطاء وانتقدناها ، ولكن حسناته فى الكفة الأخرى كانت أعظم وأكبر ٠

اسماعيل والتاريخ :

اصطنعت أوربا الوسائل لعزل اسماعيل كما رأينا وأخفت الأسباب الحقيقية التى دفعتها لعزله وهى التخلص منه ليخلو لها الجو بافريقية ، وبعد أن تم لها ما أرادت اتجهت لتزييف التاريخ ، فراحت تصور الديون كأنها شبح مزعج ، وتدّعى أنه أنفقها فى السرف والترف ، غـير ذاكرة نواحى العمران التى اهتم بها ، والمؤسسات العلمية والاجتماعية التى أسسها، فدوّنت عن الرجل تاريخا غير صادق ، وانتقل هذا التاريخ من جيل الى جيل دون تمحيص ، وساعد على ذلك أن معلمى الأجيال التى تلت اسماعيل تلقت ثقافاتها فى انجلترا الدولة المحتلة فتأثر هؤلاء بما قرءوا وما سمعوا عن اسماعيل ، وظل الرجل مظلوما عند الكثيرين حتى راح جيلنا يحقق ويدقق ليكتب كلمة الانصاف لوجه الحق ، ونرجو أن يكون التوفيق قـد حالفنا فى رفع هذا الحيف عن وجه مشرق من وجوه قادة هـذه البلاد ، ولا شك أنه كانت فيه غفلة ارتبطت بهذه الديون وبالوسطاء فيها ، ولكن الديون لم تكن قط سببا فى عزل حاكم البلاد ٠

بعد اسماعيل :

لقد طاب لنا أن ننصف محمد على وحفيده اسماعيل ، فذلك هو حق الأفذاذ من الناس ، ولكن الحال تغير بعدهما وشهدت مصر مجموعة من أحفاد محمد على كانوا الى الخرق والانحراف أقرب ، وسندرس تاريخ هؤلاء فيما يلى ، وسنرى فيهم من خان البلاد مثل توفيق ، ومن خان الدستور يوم أصبح لمصر دستور مثل فؤاد وفاروق ، فقد عاش هؤلاء أعداء للشعب ووضعوا بمواقفهم الآثيمة خيوط النهاية لهذه الأسرة .

وقبل أن نخطو لهذه المرحلة نقدم ترجمة موجزة لكل من جمال الدين الأفغانى والامام محمد عبده ، فالتاريخ الذى ندونه يعنى بالاحداث ، ويعنى كذلك بالمفكرين ، وبالقيم الحضارية التى يرفع هؤلاء المفكرون لواءها :

جمال الدين الأفغانى

أجمل الإمام محمد عبده سيرة جمال الدين الأفغانى اجمالا دقيقا ، فذكر أن الناس اختلفوا فى أمره فكأنه حقيقة تجلت فى ذهن كلٍّ بما يلائمه ، ومن أجل هذا عمد الإمام الى ايضاح حقيقته التى يعرفها من طول العشرة ، وعن محمد عبده وسواه من الباحثين نقل الأستاذ محمود أبو رية نقولا كثيرة لم يؤلف بينها (١) ، ولكنها على كل حال مادة يمكننا أن نقتبس منها ومن سواها صورة واضحة لجمال الدين :

— ينتمى جمال الدين الأفغانى الى أسرة حسينية النسب ، كان لها قدر كبير من السيادة فى بعض مناطق أفغانستان بالقرب من كابول ، وقد ولد سنة ١٢٥٤هـ (١٨٣٨م) وتعلم اللغة العربية والعلوم الاسلامية والعقلية بها ، ثم انتقل الى الهند فاستزاد من العلوم وحج سنة ١٢٧٣هـ (١٨٥٧م) وبدأت بعد ذلك حياته الحافلة على ما يلى :

— فى بلاده اشترك فى بعض الحملات الحربية مؤيدا أحد الأمراء واسمه محمد أعظم ضد اخوته ، وتم لهذا الأمير النصر ، فزاد اقباله على جمال الدين ، ولكن رضا الملوك لا يدوم ، والانتصار تعقبه هزائم ، وهذا ما حصل بالنسبة لجمال الدين مما اضطره للرحيل عن أفغانستان الى الهند ومن الهند وفد الى مصر فبقى بها مدة قصيرة ثم سافر الى الأستانة مركز الخلافة فى عهد السلطان عبد العزيز .

— فى الأستانة لقى ترحيبا واسعا ، ولكن سرعان ما دب صراع محتدم بينه وبين بعض رجال الدين والسياسة ، واشتدت الخلافات بينه وبينهم ، وكان جمال الدين حاد الطبع فأخذت منه الحدة مبلغها ولجَّ فى طلب المخاصمة ، مما سبب صدور الأمر بجلائه عن الأستانة سنة ١٨٧١ .

---

(١) جمال الدين الأفغانى : تاريخه ورسالته ومبادئه .

— حضر من الاستانة الى مصر ، وكان رياض باشا ذا نفوذ فى الادارة المصرية آنذاك فرحب به رياض وعين له مرتبا مناسبا ، وجلس فى بيتـه يعلم ويقرأ لمن وفدوا عليه ، وكان الخديوى اسماعيل يشجع كل الكفاءات العلمية فوجد جمال الدين فى رحابه أمنا واطمئنانا طيلة ثمانى سنوات •

— ولما تولى توفيق الأمر بعد أبيه ساءت ظنونه بالأفغانى ، وبخاصة أن بعض العلماء ثار عليه لانتقاده المذاهب والأفكار المسلم بها ، ولقراءته كتب الفلسفة ، والكتب المنحرفة ، وكان رد الأفغانى أن الثابتين فى ايمانهم لهم النظر فى كل العلوم سواء وافقت مذهبهم أو خالفته ، وعلى كل حال لم تعد مصر أرضا مناسبة له ، فنفى منها سنة ١٨٧٩ ، ومنها سافر الى الهند فأوربا ، وقد أسهم البارودى فى اتخاذ قرار نفى الأفغانى مـن مصر (١) •

— فى أوربا ذهب الى لندن ثم باريس ، ومنها استدعى الإمام محمد عبده وكان هذا منفيا أيضا بسورية عقب الثورة العرابية ، وأصدرا معـا صحيفة « العروة الوثقى » وقد صدر منها ١٨ عددا فى المدة من مارس الى أكتوبر سنة ١٨٨٤ ، ثم توقفت لأنها كانت مثيرة فمنعتها انجلترا من دخول الهند وغيرها من البلاد الواقعة تحت سيطرتها •

— عاد الى ايران سنة ١٨٨٦ بدعوة من الشاه ناصر الدين ، وأدناه الشاه منه ، ولكن العلاقة سرعان ما ساءت بينهما فغادرها الى روسيا ، ولكن الشاه طلبه بعد ذلك وألح فى طلبه ، ولكن العلاقات ساءت من جديد فنفى الى خارج الحـدود (الى البصرة) •

— ومن البصرة سافر مرة أخرى الى لندن واشتد فى محاربة الشاه بقلمه ولسانه •

---

(١) أبو ريه ص ١٠٠ .

— استدعاه السلطان عبد الحميد الى الآستانة وألح فى طلبه فسافر اليها سنة ١٨٩٢ وطلب منه السلطان أن يكف عن الهجوم على الشاه فأجاب الأفغانى قائلا : ما كنت أنوى ترك الشاه حتى أنزله قبره ولكنى لأجلك قد عفوت عنه ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا بقوله : وقد ارتاع السلطان لمثل هذا القول (١) .

على أن الشاه قتل بعد ذلك بقليل بيد رجل أطلق عليه الرصاص وهو يصيح : خذها من يد جمال الدين ، وقد اتُّهم جمال الدين بتدبير هذه الجريمة، ولكنه نَفَىَ ذلك بشدة ، وحساسى أننى أؤيد براءته ، ولكن الشبهة كان لها أثرها فى بلاط الخليفة بالأستانة (٢) .

— وقد ظل جمال الدين بالأستانة حتى توفى سنة ١٨٩٧ ، ويقول الأستاذ أبو ريه أنه مات مسموما ، بل يتجه أنه دعى للاستانة ليتخلص الخليفة منه ، ولا يمكن قبول هذا الرأى لأنه عاش فى الأستانة بعد وصوله اليها خمس سنوات ولو كان القضاء عليه هدفا للسلطان ما انتظر عليه هذه المدة .

اخلاق الأفغانى واتجاهاته الإصلاحية :

يتحدث الإمام محمد عبده عن أخلاق الأفغانى فيذكر « أنه كان فيه حلم عظيم ، ولكنه إن دنا منه أحد ليمس شرفه أو دينه انقلب الحلم الى غضب تنقض منه الشهب فاضحى أسدا وثابا ، وكان عصبيا حديد المزاج ، وكثيرا ما هدمت الحدة ما رفعته الفطنة » وقد كتب له الامام محمد عبده مرة خطابا وأرسله اليه دون توقيع على الأستانة يلمح فيه لبعض الأشخاص والقضايا حتى يأخذ الأفغانى حذره ، فهاج الأفغانى وأرغى وأزبد ، وكتب

---

(١) زعماء الاصلاح ص ١٠٠ .
(٢) أبو رية ص ١٣٨ .

للإمام كتابا قاسيا ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على هذا الخطاب بقـوله : لقد كتب جوابه هذا وقد ملكته الحدة ، وكم ملكته (١) ، وكان طموحا الى مقاصده السياسية يتعجل الوصول اليها اذا لاحت له بارقة ، وكثيرا ما كان التعجل سبب الحرمان ، وكان شديد الزهو بنسبه الشريف ، شديد الوطأة على الحكام يعاملهم بالعجب والخيلاء ، عصبيا دمويا فى مزاجه (٢) .

أما عن اتجاهات الأفغانى الاصلاحية فيقرر الامام محمد عبده أن الأفغانى كان واسع المعرفة ، دقيق التعبير ، مسترسل الأسلوب ، ومن أعرف الناس بالاسلام ، وكان قادرا على النفع بالافادة والتعليم ، ولكنه وجه كل عنايته الى السياسة فضاع استعداده هذا ، ويقول محمد عبده اننى أعجب لجعل نبهاء المسلمين وجرائدهم ، كل همهم فى السياسة واهمالهم أمر التربية الذى هو كل شىء وعليه يبنى كل شىء ، ولو أن جمال الدين صرف قدراته للتعليم والتربية لأفاد الاسلام أكبر فائدة ، وقد عرضت عليه سلوك سبيل التربية ، وأكدت له أن ذلك سيكون الطريق الأمثل لنشر الاصـلاح المطلوب فقال لى : إنمـا أنت مثبط (٣) .

ذلك مجمل سيرته ، وتعريف باتجاهاته وأخلاقه ، وننتقل بعد ذلك الى ابراز نقاط مهمة تتصل بالأفغانى وتساعد على رسم صـورة دقيقة لاتجاهاته حتى يتضح دوره الحقيقى فيمـا ينسب اليه من بعث الحركة الفكرية بمصر ، فقد لاحظت مبالغة هائلة من بعض الكتاب فى ذلك ، وتلك المبالغة تجافى الانصاف ، وتخفى جهود المصريين فى بعث هذه الحركة :

١ ــ كان الأفغانى يقول بالجامعة الاسلامية ، وكان بادىء ذى بدء يرمى الى ايجاد حكومة اسلامية واحدة ، ثم ظهر له استحالة هذا الهدف

---

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ١٠٨ .
(٢) ابو ريه ص ٣٧ .
(٣) انظر الاستاذ محمود ابو ريه ص ٥٠ واحمد امين ص ٨٠ .

فاتجه الى الدعوة للتعاون بين ممالك المسلمين على أن يحكم كل ملك مملكته تبعا للتعاليم الاسلامية ، وعندما نادى بحكومة إسلامية واحدة كان مفهوما أنه يقصد اندماج المسلمين تحت سلطان الخليفة المستبد الجائر ، السلطان عبد الحميد ، ويعلق الأستاذ أحمد أمين على موقف الأفغانى فى الأستانة بقوله انه كان فى عاصمة العثمانيين يعيش فى قفص من ذهب أُحكم بابه (١) .

٢ — ومثل دعوته للجامعة الاسلامية اتجاهه الذى عاش فيه فترة من الزمن ليقيم اتحادا بين الأديان ، وهو يقول انه أخذ يضع لنظريته خططا ، ويخط أسطرا ، ويحرر رسائل وأخيرا عاد عن نظريته والاخفاق ملء إهابه (٢) .

٣ — انتسب الأفغانى للماسونية وانضم الى المحفل الماسونى الاسكتلندى بمصر ، ولما وجد أعضاءه لا يتدخلون فى السياسة ، والأفغانى عمله كله متصل بالسياسة استقال منه ، وانشأ محفلا ماسونيا آخر (٣) .

ومن عجب أن الرجل لم يجد طريقا آخر يخدم أغراضه غير الماسونية التى كانت وما تزال موضع الريبة والشك ، والتى يُعتقد أنها مؤسسة يهودية الجذور .

٤ — ويقول عنه الأستاذ أبو ريه انه كان ينقد المذاهب المسلَّم بها حتى مذهب أبى حنيفة (٤) ويتوسع فى اتيان بعض المباحات (٥) .

٥ — عاش الأفغانى فترة طويلة فى ظل رياض باشا ، وقد رأينا فيما

---

(١) زعماء الاصلاح فى العصر الحديث ص ٨٣ ، ٩٩ .
(٢) الأستاذ محمود ابو رية ص ١٧٦ .
(٣) أبو ريه ص ٩٢ .
(٤) أبو ريه ص ٩١ .
(٥) ابو ريه ص ٤١ .

سبق أن رياض قاوم النظام الدستورى ، كما قاوم حركة الاصلاح التى نادى بها عرابى وزملاؤه ، وأن وزارته أقيلت برغبة العرابيين سنة ١٨٨١ .

وعاش كذلك فترة فى ظل نوبار الأرمنى المسيحى الذى تحدثنا عنه من قبل ، ثم إن قرار نفيه قد صدر من البارودى باشا الذى كان ناظر الأوقاف آنذاك ، ومن الواضح أن البارودى كان قوة هائلة فى الحركة العرابية ، ومن هنا فنحن ندهش من الذين يقولون ان جمال الدين كان من مؤيدى الحركة العرابية ، فقد نفى من مصر قبل أن تبدأ ، وكان نفيه على يد زعيم من زعمائها هو البارودى كما سبق .

٦ — وأبرز شىء فى حياة الأفغانى أن السخط والقلق والثورة كانت دائما فى ركابه أنَّى حل ، وقد رأيناه كذلك فى أفغانستان والهند ومصر والأستانة وايران وكان من الطبيعى للمصلح أن يجيد التأتِّى ، وأن تكون دعوته بالحكمة والموعظة الحسنة كما علمنا القرآن الكريم ، وأن يقيم علاقات طيبة يتخذها وسيلة لتحقيق اصلاحاته ، ولكن الأفغانى غفل تماما عن هذا السلوك .

٧ — كثيرون من الناس يبالغون فى القول ، ويضعون نتائج لا تتفق مع المقدمات التى يوردونها ، وهم لذلك يجعلون جمال الدين الافغانى موقظ الهمم فى مصر ، وباعث النهضة بها (١) ونقول لهؤلاء إن جمال الدين عاش فى افغانستان وفى الأستانة وفى الهند وفى روسيا وفى ايران سنين طويلة ولم تثمر جهوده أية ثمرة ، ولو كان الفضل راجعا اليه لنشر فكره حيث كان ، وقد لاحظ الأستاذ أحمد أمين ذلك فكتب عنه يقول : لقد جرب السيد أن يبذر بذورا فى فارس والأستانة .... فلم تنبت ، ثم جربها فى مصر فانبتت (٢) .

---

(١) انظر ما كتبه عنه الأستاذ الشيخ الباقورى فى تقديمه لكتاب « ابو ريه » .

(٢) زعماء الاصلاح ص ٦١ .

من هنا فاننا نذكر الكتاب بفضل مصر وبالفكر المصرى الذى لم يغب عن الوجود والجهود مهما كانت الأحوال . والأستاذ أحمد أمين ينبه الى أن مصر كانت ثائرة ضد المراقبة الثنائية ، وأن الخديوى اسماعيل كان يشجع أى نقد ضد التدخل الأجنبى ، ويؤيد الصحافة الوطنية مثل « الوقائع المصرية » و « مصر » و « التجارة » ، حتى أصبحت البلاد أشبه بمستودع بنزين ، وجاء جمال الدين فكان أشبه بعود ثقاب ، ولولا هذه الظروف لخابت دعوته فى مصر كما خابت فى الأستانة (١) .

٨ — ومما يؤيد هذا الاتجاه أن الدروس المنتظمة التى كان يعلمها جمال الدين فى بيته بخان الخليلى كانت فى المنطق والفلسفة والتصوف ... وهى علوم كان الشيخ حسن الطويل يقوم بتدريسها فى نفس الوقت ، وكل ما كان من فضل لجمال الدين هو بعض الشروح والتعليقات التى كان يمكن أن تموت لولا الجو الثائر الذى صادفه جمال الدين الأفغانى بمصر .

٩ — عندما أبعد الأفغانى عن ايران وذهب الى انجلترا اتجه هناك لكتابة المقالات العنيفة ضد الشاه وحكومته وكان يستخدم فى ذلك أقسى الألفـــاظ .

ويعلق الأستاذ أحمد أمين على ذلك بقوله « وهذه زلة كبيرة من جمال الدين دعاه اليها حدته ، وحبــه للانتقام ، اذ كيف أجاز لنفســه التشهير بحكومة شرقية اسلامية فى بلاد أجنبية تتخذ من أقواله حجــة للتدخل فى شئوننا الداخلية ، وكيف استباح أن يفضح هذه العيوب ، ويغسل هذه الأثواب القذرة على مشهد من كل الناس » .

« لقد كان مدحت باشا فى موقف كهذا أنبل من السيد وأكرم ، اذ نفاه « عبد الحميد » وأخذه رجاله من دست الوزارة الى السفينة : لا مال ولا ثياب ولا أهل . ومع هذا فما إن وضع قدمه فى أوربا حتى أخذ يسعى فى دفع الشر

---

(١) المرجع السابق ص ٦٩ .

عن أمته ، ويتكلم الكلام الكثير فى فضل الأتراك على أوربا ، ولا ينطق بكلمة فى ذم عبد الحميد ، فى الحق إنها كانت غلطة من غلطات « السيد » دعا اليها حدة مزاجه (١) » .

١٠ — واخيرا فالباحث فى التاريخ يجد ان شباب الجيل الذى عاش فيه جمال الدين ، لم يرفع جمال الدين الى الدرجة التى وضعه فيها الجيل اللاحق ، وكان الشباب فى عهد جمال الدين يعرضون عنه فى أحرج الأوقات ولا يرتضون رأيه ، وأمامنا على ذلك دليل قاطع ، فان الفيلسوف « رينان » القى فى السربون محاضرة أبرز فيها ثلاث نقاط هى :

١ — خطأ المؤرخين فى قولهم علوم العرب وفنون العرب وتمدن العـرب . .

٢ — الاسلام لا يشجع على العلم والفلسفة والبحث الحر .

٣ — العنصر العربى بطبيعته أبعد العقول عن الفلسفة والنظر فيها .

ولما نشرت هـذه المحاضرة تصـدى للرد عليها الأسـتاذ الفرنسى « مسمر » فألقى محاضرة أنصف فيها العرب والاسلام .

وتحمس الشبان المسلمون فى باريس بتعريب هذه المحاضرة ونشرها ، وبعد بضعة أسابيع كتب جمال الدين فى نفس المجلة (الديبا) ردا على رينان ولكنه كان ردا هادئا مدح فيه رينان وأعلن بأنه استفاد من آرائه ولذلك لم يقبله الشبان المسلمون بباريس ، فلم يهتموا بترجمته أو نشره .

* * *

وقد اتُهِمَ العلامة الأفغانى بالإلحاد ، ولسنا نرى ذلك فيه بأى حال من الأحوال ، ولكن تهمة الإلحاد كانت سهلة عند بعض الناس يرمون بهـا من دخن السجاير أو جلس فى المقهى ، ولعل مرجع هذا الاتهام

---

(١) زعماء الاصلاح ص ٩٨ — ٩٩ .

الى ما يقوله الأستاذ أحمد أمين (١) إن الأفغاني كان يدين بعقيدة المتصوفة وهي مبهمة غامضة تنتهي بوحدة الوجود ... وعلى كل حال فجهود جمال الدين لخدمة الاسلام والمسلمين أقوى من أن تدع حياة لهذا الاتهام الباطل .

والآن نستطيع أن نقرر وبخاصة فيما يتعلق بدوره بمصر أن جمال الدين الأفغاني قام بدوره في تحريك الهمم بمصر وبالعالم الاسلامي ، وفي إثارة الشعوب الاسلامية ضد الظلم والاستبداد الذي ينبع من الداخل أو يرد من الخارج ، ولكنا نؤكد أنه كافح مع المكافحين ، وأن الوعي بمصر كان شديدا قبل مجيء الأفغاني بعشرات السنين ، وقد رأينا مظاهر هذا الوعي في مواقف مختلفة وبخاصة مع مطلع القرن التاسع عشر .

كما نقرر أنه كان في جمال الدين حدة في الطبع ، واتجاهات فكرية غير موفقة ذكرناها فيما سبق ، وقد حال هذا وذاك دون نجاحه فيما كان يمكن أن ينجح فيه ، وهذه الأشياء توضع في الحساب وتذكر عند تقويم الرجـــال .

زعامات مصرية سبقت الأفغاني وعاصرته :

وكلمة حق نقررها هي أن زعامات في الوطنية والدين والاسترسال اللغوي كانت موجودة قبل الأفغاني فلما جاء الأفغاني اشترك في تنمية هذه الحركات ، فظهر جيل تلقى عنه وعن سواه من الرواد ثم خرج هذا الجيل يحمل الأعباء في كل اتجاه ، واذا كنا نعرف الرواد في مجال السياسة والدين فإن محمد عبده يذكر بين رواد الاسترسال اللغوي عبد الله باشا فكري وخيري باشا ومصطفى باشا فهمي .

وأخيرا فنحن لا نتجه أبدا لنغمط حق الرجل ، ولكننا نضع المقدمات ونستنتج منها النتائج ، ويدهشنا أن بعض الناس يضعون نفس المقدمات ولكنهم يقتبسون نتائج شاعت وإن كانت لا تناسب المقدمات كما قلنا من

---

(١) زعماء الاصلاح ص ١١٢ .

قبل ، وفى كلمة موجزة نقرر أن مصر عرفت النهضة فى عدة مجالات قبل أن يضع الأفغانى قدمه على تربة هذه البلاد ، ومن الرواد الذين سبقوا الأفغانى أو كانوا فى أوج مجدهم عند مقدمه نذكر الجبرتى (١٨٢٥) وحسن العطـــار (١٨٣٣) ورفاعة الطهطـــاوى (١٨٨٣) ومحمد شريف وعبد الله النديم (١٨٩٦) وعبد اللـــه فكرى (١٨٩٠) وعلى مبـــارك (١٨٩٣) ثم جاءت الحلقة التى ضمت الأفغانى وقد نشأ عن هذه الحلقة جيل ممتاز من أمثال محمد عبده وأحمد عرابى ثم سعد زغلول وعبد الكريم سليمان ••• ولعب هؤلاء ، أدوارا عظيمة فى مختلف المجالات بمصر •

ضعف كتابة الأفغانى :

بقى أن نتكلم كلمة عن الآثار المكتوبة لجمال الدين الأفغانى فنذكر أن أهمها رسالته فى « الرد على الدهريين » و « تتمة البيان فى تـــاريخ الأفغان » ثم مقالات عدة فى الصحف والمجلات •

وكتابه فى الرد على الدهريين عنوانه الكامل « رسالة فى إبطال مذهب الدهريين وبيان مفاسدهم ، وإثبات أن الدين أساس المدنية وأن الكفر يفسد العمران » وقد رد فيه على نظرية داروين فى النشوء والارتقاء ، وعلى المادية التى تقول إن المادة أساس كل شىء ، وليس هناك سوى المادة ، واستطرد ليذكر أهمية الاسلام للانسان ، ومزايا هذا الدين للفرد والمجتمع ، وأن الاسلام احترم العقل واحتكم اليه ، وساوى بين الناس دون تفرقة بسبب الجنس أو اللون أو اللغة • وقد كتب الأفغانى هذا الكتاب باللغة الفارسية ، وترجمه الشيخ محمد عبده الى العربية بمساعدة بعض مـــن يجيد الفارسية •

أما كتابه عن تاريخ أفغانستان فهو كتاب قليل الصفحات قليل الفائدة ، يتحدث بسجع لا تتقبله الأذن وأسلوب لا يستساغ ، وهو يفصل القول فى فترة قصيرة جدا ، ولذلك فمن الخطأ أن يسمى تاريخ أفغانستان لأنه تاريخ

فرد واحد تقريبا من ملوك أفغانستان ، وقد قرأته وأنا أدون الجزء الثامن من هذه الموسوعة ، ولكنى لم أجد فيه فكرة واحدة تستحق الاقتباس .

وفى مقالات الأفغانى كانت تبدو رغبته فى توحيد المذاهب والقضاء على وسائل الخلافات بين المسلمين ، وضرورة الأخذ بنظام الشورى ، والقضاء على الاستبداد وعلى البدع والخرافات .

وعلى العموم فإن جهود الأفغانى فى مجال الكلمة المكتوبة كانت قليلة ، حتى أنه لم تكن له بحوث بقلمه فى مجلة العروة الوثقى كما سنرى فيما بعد ، ويبدو أن الكلمة المكتوبة لم تكن تستطيع أن تحمل الثورة التى كان يفيض بها دائما فى أحاديثه .

رحمه الله وأجزل ثوابه .

الإمام محمد عبده

الحديث عن الإمام محمد عبده محبب الى النفس ، فقد اتسع فكر الإمام لكل ميدان من ميادين الاصلاح ، كتب فى العقيدة ، ومقارنة الأديان ، والتفسير ، واشتغل بالتربية ، والقضاء ، والصحافة ، ويقرأ الانسان اليوم ما كتبه الامام فى القرن الماضى وفى مطلع هذا القرن فيحس أنه سبق جيله بعدة أجيال ، ولنعش مع الامام ، فترة لنرى هذا النموذج الرائع الذى ينبغى أن يحتذى الأفذاذ نهجه •

وأول ما نبدأ به تعريف سريع بالإمام لنرى خطوات حياته :

ولد الإمام محمد عبده سنة ١٨٤٥ بمحلة نصر بمحافظة البحيرة ، وفيها حفظ القرآن ثم التحق بالجامع الأحمدى بطنطا ، ولم يرقه التعليم بالأزهر ومعاهده ، فعاد الى قريته ليشتغل بالزراعة ثم عاد مرة أخرى للجامع الأحمدى ، وبعد أربع سنوات اتجه الى القاهرة والتحق بالأزهر سنة ١٨٦٦ واتصل بجمال الأفغانى سنة ١٨٧٢ عندما كان هذا بمصر سنة (١٨٧١ — ١٨٧٩) •

وفى سنة ١٨٧٧ حصل الإمام على شهادة العالمية الأزهرية ، ثم اشتغل بالتدريس فى دار العلوم والأزهر ومدرسة الألسن •

وفى سنة ١٨٧٩ عُزل عن التدريس بهذه المعاهد وأُمر بالاقامة فى قريته لا يبرحها ، وذلك فى نفس الوقت الذى نفى فيه جمال الدين من مصر وذهب الى أوربا •

وفى سنة ١٨٨٠ اكتُفِىَ بإبعاده عن الطلاب واستدعى ليكون محررا بالوقائع المصرية ، وفى آخر العام أصبح رئيس تحريرها •

وجاءت الثورة العرابية فاشترك فيها وأيدها ، ولما أخمدت حوكم

مع زعمائها وحكم عليه بالنفي من البلاد ثلاث سنوات وثلاثة أشـــهر ، فسافر الى بيروت ، وبقى بها ضعف هذه المدة لسخط الخديوى عليه .

واستدعاه جمال الدين الأفغانى الى أوربا حيث اشتركا فى اخراج مجلة « العروة الوثقى » حتى توقفت كما ذكرنا عند الكلام عن جمال الدين .

وفى سنة ١٨٨٩ أذن له بالعودة الى مصر وعين قاضيا بمحكمة بنها الأهلية ومنها انتقل الى محكمة الزقازيق فمحكمة عابدين ، وفى العام التالى عين مستشارا بمحكمة الاستئناف الأهلية ثم مفتيا للديار المصرية سنة ١٨٩٩ وعضوا فى مجلس شورى القوانين .

وفى سنة ١٨٩٤ عين عضوا فى مجلس إدارة الأزهر .

وتوفى الأستاذ الامام سنة ١٣٢٣هـ = ١٩٠٥م .

وأبرز مؤلفات محمد عبده كتابه « الاسلام والنصرانية مـــع العلم والمدنية » و « رسالة التوحيد » « وتفسير سورة عم » ، وبعض ســـور أخرى من القرآن الكريم .

تلك هى مراحل حياة الامام ومؤلفاته ، ولنا وقفات تحليلية قصيرة مع هـذه المراحل والمؤلفات :

محتده ونشأته الأولى :

كتب محمد عبده عن أبيه بأنه كان واسع النفوذ فى البلدة ، يقصده الناس والحكام ، وأن أمه كانت كثيرة العطف على الفقراء والمحتاجين ، وقد تعلم فى صباه الرماية والسباحة ، وحفظ القرآن فى القرية ، وجوّده بالجامع الأحمدى ، وكان خطة واضحا وأقرب الى الجمال .

الأزهر ومشكلاته :

التحق الإمام بالجامع الأحمدى وهو أحد معاهد العلم الأزهرية ،

وقد رأى الإمام فى هذا الجامع كثيرا من البدع والخرافات التى أرقته ، وهى ترتبط بالنذور وطلب كل شىء من السيد البدوى الذى كان يهرع اليه الناس من كل حدب،وبالاضافة الى هذه البدع التى كانت ترتكب باسم الدين، رأى محمد عبده طريقة التعليم العقيمة بالأزهر من ناحية موضوعاتها وكتبها وأدائها ، فأفزعته ، وهو يصفها ويصف حاله معها بقوله « قضيت سنة ونصفا لا أفهم شيئا لرداءة التعليم ، فأدركنى اليأس من النجاح ، وهربت من الدرس ، واختفيت عند أخوالى هربا من أبى ، ثم عثر على أخى وأخذنى الى المسجد الأحمدى وأراد إكراهى على طلب العلم فأبيت ، وقلت له : قد أيقنت ألا نجاح لى فى طلب العلم ، ولم يبق على الا أن أعود الى بلدى واشتغل بالزراعة « ... وتغلبت عليه وعدت للبلدة وتزوجت على هذا الأساس سنة ١٨٦٥ » .

ويكمل الأستاذ كلامه عن الأزهر بقوله « وهذا الأثر هو الذى يجده ٩٠٪ من الأزهريين ، ولكن أغلبهم تغشهم أنفسهم فيظنون أنهم فهموا شيئا ، فيستمرون على الطلب الى أن يبلغوا سن الرجال وهم فى أحلام الأطفال ، ثم يبتلى بهم الناس ، وتصاب بهم العامة ، فتعظم بهم الرزية ، لأنهم يزيدون الجاهل جهالة ، ويضللون من توجد عنده رغبة فى الاسترشاد ويؤذون من يكون على شىء من العلم ، ويحولون بينه وبين نفع الناس بعلمه » .

والتقى بعد ذلك بخال أبيه واسمه الشيخ درويش ، وهو شخصية مستنيرة فيها جانب من التصوف ممتزج بتعاليم السنوسية والوهابية وكان هذا اللقاء ذا أثر كبير فى محمد عبده ، ومنبع هذا الأثر هو شخصية الشيخ درويش ، وما كان يحظى به فى مجتمعه من اجلال وتكريم ، بسبب علمه ومعارفه ، مما جعل محمد عبده يتمنى أن يكون مماثلا له ، ومن جهة أخرى فقد اتجه الشيخ درويش لتطويع محمد عبده ، ولتوجيهه اتجاهات مختلفة ، فمرة يعطيه كتابا سهلا فى الآداب والأخلاق فيستسيغه محمد عبده

ويقبل عليه ، ومرة أخرى يثبت فى روعه أنه سيقابل فى مستقبله علوما كثيرة جديرة بالتقدير وأن العلوم التى أفزعته ليست كل شىء ، وتأثر محمد عبده على كل حال ، وعاد الى الأزهر من جديد ، ولم يقنع بعلوم الأزهر بل أضـــاف لثقافته ألوانا مـــن الفكر يوما بعد يـــوم •

وتخرج من الأزهر ، وعلّم فيه ، ولكنه لم يقنع بالنظم التى كانت سائدة ، بل اتجه لتربية العقل ، وتهذيب الأخلاق ، والتعرف على الحركات العالمية ، ومن هنا فقد كان يقرأ لبعض طلابه تهذيب الأخلاق لمسكويه ، كما كان يدرس التوحيد وتاريخ المدنية فى أوربا ، وعلم الاجتماع والعمران ، ووثق صلته بالحياة العامة مما جعل شخصيته تتجه اتجاها فريدا فى حينه •

واتجه محمد عبده لإصلاح الأزهر وبخاصة بعد أن أصبح عضوا فى مجلس ادارته ، وبعد أن اختط نهجا جديدا فى التأليف وفى دراسة العلوم الاســـلامية •

ولكن كانت هناك جماعة ترى الاصلاح ضلالا ، فوقفت فى سبيله ، ولم تمكنه من تنفيذ اصلاحاته بالأزهر ، وهاجمته ، ومات هؤلاء وبقى فكر محمد عبده ومنهاجه يصارع الأحداث وسيظل يصارع حتى يتم له النصر •

مع جمال الدين الأفغانى :

حضر جمال الدين الأفغانى الى مصر سنة ١٨٧١ وسمع المثقفون عنه فزاروه وجلسوا اليه ، وجرت فى مجلسه محادثات وبحوث اشترك فيها أكثر الحاضرين ، وأبرز محمد عبده اتجاهاته وشرح خواطره ، ويتجه بعض النـــاس الى جعل محمد عبده تلميذا للأفغانى ، وعندى أن هـــذا الاتجاه لا يستقيم ، فمحمد عبده كانت له شخصيته ، وكان يختلف مع الأفغانى فى نقاط هـــامة هى :

١ ـــ الأفغانى كان يبذل جهده كله فى السياسة ، وقد انتقد محمد

عبده فيه هذا الاتجاه ، وعابه على نبهاء المسلمين ودعاهم الى العناية بالتربية كما ذكرنا من قبل .

٢ ـــ الأفغانى كان يميل للثورة ، اذ كان حاد الطبع كما وصفه الإمام ، أما محمد عبده فيميل للشرح والعرض والبيان .

٣ ـــ اصلاحات محمد عبده كانت نابعة من تجربته التى لم يمر بها الأفغانى وتجربة محمد عبده هى ملاحظاته وحياته بالجامع الأحمدى وبالأزهر .

ومن هنا فمحمد عبده لم يكن تلميذا للأفغانى وانما كان مفكرا عاصره وعمل معه ، انتفع به حيثما أراد ، ولا نقول أنه نفسه ، فالأفغانى كان عازفا عن التلقّى وتغيير برنامجه ، وقد رأيناه عندما دعاه محمد عبده للعناية بالتربية والتقليل من الحماسة فى السياسة يقول له : أنت مثبط .

والذي أكد لنا أن محمد عبده لم يكن تلميذا للأفغانى أن منهاج محمد عبده الاصلاحى معروف وسنورده فيما بعد ، وعندما نقارن هذا المنهاج بجهود الأفغانى لا نجد صلة بينهما ، وهذا يؤكد أن منهاج محمد عبده نابع من تجربته ومن ذاته ، صحيح أن محمد عبده ذكر أنه تعلم من الأفغانى ، ولكن يبدو لى أن ذلك من باب المجاملة من جانب وأنه من جانب آخر كان فى المجال العام ، ولكن لا ريب عندى فى أن لمحمد عبده خطاً خاصا منبثقا من داخله .

• محمد عبده المدرس :

عنى محمد عبده عناية كبيرة بالتدريس ، فوقف مدرسا بالأزهر وبدار العلوم ومدرسة الألسن ، وكان التدريس عنده وسيلة لتربية النشىء وبث روح الوطنية والدين به ، وتعليم الشباب حقوقهم لدى الحاكم وواجباتهم نحوه ، ومحمد عبده بذلك يضع النموذج للمعلمين ألا يقفوا أمام المنهاج

بمدنة ، بل أن يجولوا ويصولوا فى الموضوعات التى تشغل بـال الطالب وتجذب نفسه ، وكان محمد عبده بذلك رائدا عظيما ومربيا كبيرا ، وقـد أدرك أنه يستطيع أن يقيم له مدرسة فكرية بجوار المعـاهد التى يعلم بها ، فجلس بمنزله بذرب سعادة ليؤمه كل طالب معرفة دون ملاحظة سن أو حرص على نيل درجة علمية ، واتجه كذلك لتأليف الكتب فى الموضوعات التى كانت تشغل الأذهان فملأ فراغا واسعا بين المثقفين ، وأصبح بذلك مدرسة متعددة الجوانب ، وقد أدرك الخديوى توفيق خطره فأبعده عن موقف المعلم . وعندما عفا عنه اتجه لتوجيهه للصحافة أو القضاء وليس لمعـاهد العلم .

محمد عبده الصحفى :

اتجه محمد عبده للصحافة منذ مطلعها فى مصر ، فقد كان أحد كتاب جريدة الأهرام من العام التالى لانشائها أى من سنة ١٨٧٦ وكانت آنذاك أسبوعية ، واتخذ فى الأهرام طريق المقال الذى يعالج قضية من القضايا الدينية أو الاجتماعية .

وعندما اتجه الخديوى توفيق للعفو عن محمد عبده أصر على أن يبعده — كما قلنا آنفا — عن التعليم فعينه محررا فى الجريدة الرسمية (الوقائع المصرية) ثم جعله فى آخر العام رئيس تحريرها ، وكان هـذا التصرف وهما من الخديوى ، فقد كانت الوقائع الرسمية مقصورة على نشر البيانات الرسمية والقرارات الحكومية ، وحسب الخديوى أن محمد عبده سيسير بها فى هذا النطاق ، ولكن هذا انتقل بها مسافات واسـعة للأمام فقد جعل منها منبرا ينبعث منه صوت الفكر ، ومدرسة واسـعة النطاق تحرك كلماتها النفوس وتهيج العواطف ، وذلك بأن عقـد بها دراسات عن الاصلاح المنشود ووجوهه ووسائله ، ودعا الى التعاون على الخير ، وحبذ فكرة الحرية ورفع المظالم عن الشعب ، وعاب على الشعب كسله وتواكله ، ونادى بإصلاح التعليم وحمل على الرشوة ، وبين أن الحق

للقانون لا للقوة ، وعالج اصلاح المجتمع والأسرة ، وانتقد الذين يريدون الرقى طفرة ووثوبا ، ودعاهم الى أخذ سبيل الاصلاح بالتدريج .

وتحدث عن تطهير الاسلام من البدع ، وضرورة العودة للاسلام الصحيح ، ومباشرة الاجتهاد فى الأمور التى جدت بعد عصر الاجتهاد .

وحارب السخرة ، ودعا الى السلام والاخاء بين الناس .

وهكذا قدم محمد عبده للصحافة طريقا لم يكن معروفا من قبل ، وخلع على الصحافة من عقله وفكره فذاع صيته وعلا شأنه .

وعند ما نفى من مصر وسافر الى بيروت استدعاه الأفغانى ليصدرا معا « العروة الوثقى » وقد تكلمنا عنها من قبل ، ويقول محمد عبده : كان الفكر للأفغانى والعبارة لى ، وكان الغرض منها السعى لجمع كلمة المسلمين وايقاظهم من رقادهم .

ومن المجلات التى حظيت بعناية الإمام « المنار » التى كان يصدرها رشيد رضا وكان لعلم الإمام فيها جولات عظيمة .

وهكذا كانت الصحافة مدرسة وجد فيها محمد عبده بديلا لما فقده من وقفات فى معاهد التعليم .

محمد عبده والثورة العرابية :

قلنا من قبل إن طريق محمد عبده للاصلاح كان الكلمة والدعوة بالحكمة ، ولم يكن يرى أن تكون الثورة فى يد العسكريين (١) ولكنه مع هذا كان يدخر فى داخله فكرا وطنيا متأججا ضد الظلم والغشم الذى كان يمثله الخديوى توفيق والاستعمار ، ولذلك ما إن هبت الثورة العرابية حتى تناسى خطته الهادئة واندمج فى الثورة ، وزاد من اشتعالها ، وألقى فيها

من عقله ووطنيته مازادها قوة ولهيبا ، ولذلك حوكم مع من حكوموا بعد فشلها وكانت عقوبته النفى ثلاث سنوات وثلاثة أشهر بعيدا عن البلاد فرحل الى بيروت .

ولكن وطن الإمام كان فسيحا ، فراح ينشر فكره حيث حل ، وعمل لتحقيق أهدافه فى كل مكان نزل به ، وكان له فى بيروت منتدى يؤمه كثير من المريدين والمثقفين .

محمد عبده والقضـــاء :

وعندما عاد محمد عبده من المنفى أبعـــده الخديوى عن المعـــاهد والصـــحافة جميعا وعينه فى القضـــاء والافتاء ظنا منه أن ذلك ينأى به عن تربية الأجيال ولكن محمد عبده خطا فى هـــذا المجال خطوات طيبة ، وكان من أهم الأعمال التى قام بها فى هـــذا المجال التقرير الذى قـــدمه سنة ١٨٩٩ عن الحالة التى آل لهـــا القضـــاة الشرعيون (١) واقترح فى نهايته إنشاء مدرسة لتخريج القضـــاة الشرعيين ، وتغلب هذا الاقتراح على تعويق اللورد كرومر الذى كان لا يريد للمحاكم الشرعية قـــوة أو وجودا ، وتكونت لجنة برياسة محمد عبده وقدمت تقريرا بضرورة إنشاء مدرسة للقضـــاء الشرعى وأنشئت هـــذه المدرسة وكان لها مكان محمود فى عالم الفكر والقضـــاء .

ومما عمله الإمام وهو فى مناصب القضـــاء أن أدرك ضرورة اجادته للغة الفرنسية التى كانت تستمد منهـــا أكثر القوانين آنذاك ، حتى يأخـــذ مكانته بين القضـــاة والمستشارين الذين يفخرون بإجادة هـــذه اللغـــة ، وقد استطاع أن ينجح فى هذا المجال فأجاد اللغة الفرنسية قراءة وكتابة وحـــديثا وكان يقول : من لم يعرف لغـــة من لغـــات العـــلم الأوروبية فلا يعد عالما فى هـــذا العصر .

---

(١) انظره فى كتاب « تاريخ التشريع والقضاء فى الاسلام » للمؤلف ص ٣٠٥ — ٣٠٦ .

مؤلفات الإمام :

يعد الإمام محمد عبده من رواد العصر الحديث الذين اتجهوا نوعا ما الى إحياء علم « مقارنة الأديان » بكتابه « الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية » الذى وضح فيه موقف الاسلام والنصرانية من المعرفة والحضارة ، ومن مؤلفاته تفسير « جزء عم » وهو مطبوع متداول وتفسير سور أخرى من القرآن الكريم نشرت له فى مجلة « المنار » وقد نحا نحوا جديدا فى منهاجه فى التفسير فاهتم بفهم الدلالة اللغوية للآيات الكريمة ، وطرح البدع والخرافات والاسرائيليات ، واستخدم العقل فيما انتهى له التقدم العلمى مما له صلة بالقرآن الكريم ، ومن مؤلفاته « رسالة التوحيد » وقد صور فى هذه الرسالة العقيدة الاسلامية تصويرا سليما .

منهاج الإمام الاصلاحى :

كتب الشيخ محمد عبده بقلمه فى ترجمته لنفسه ، ملخصا لمنهاجه الاصلاحى قال فيه : « أرفع صوتى بالدعوة الى أمرين عظيمين : الأول تحرير الفكر من قيد التقليد ، وفهم الدين على طريقة سلف الأمة قبل ظهور الخلاف ، والرجوع فى كسب معارفه الى ينابيعه الأولى ، واعتبار الدين من موازين العقل البشرى التى وضعها الله لترد من شططه ، وتقلل من خلطه وخبطه ، لتتم حكمة الله فى حفظ نظام العالم الإنسانى ، والدين على هذا الوجه يعد صديقاً للعلم باعثاً على البحث فى أسرار الكون ، داعياً الى احترام الحقائق الثابتة .

« وأما الأمر الثانى : فهو إصلاح أساليب اللغة العربية فى التحرير ، سواء كان ذلك فى المخاطبات الرسمية بين دواوين الحكومة ومصالحها أو فيما يكتبه الأفراد فى الصحف أو المراسلات ، أو كان فى

الترجمات من لغات أخرى ، وكانت أساليب اللغـة العربية متعثرة بين أشكال وأنماط غريبة ، وبين سـجع وجناس ردىء .

« وهنـاك أمر آخر كنت من دعاته والناس جميعاً فى عمى عنه ، وبُعْدٍ عن تعقله ، ولكنه هو الركن الذى تقوم عليه حياتهم الاجتماعية ، وما أصابهم الوهن والضعف والذل إلا بخلو مجتمعهم منه ، وذلك هو التمييز بين ما للحـكومة من حق الطاعة على الشعب ، وما للشعب من حق العدالة على الحـكومة .. ، نعـم كنت ممن دعـا الأمـة المصرية الى معرفة حقها على حاكمها .

« دعوناها الى الاعتقاد بأن الحاكم وإن وجبت طاعته ، هو من البشر الذين يخطئون وتغلبهم شهواتهم ، وأنه لا يرده عن خطئه ولا يوقف طغيان شهوته إلا نصح الأمـة له بالقول أو الفعـل .

« جهرنا بهذا القول ، والاستبداد فى عنفوانه ، والظلم قابض على صولجانه ، ويد الظالم من حـديد ، والناس عبيد له وأى عبيد .

« نعم إننى فى كل ذلك لم أكن الإمام المتبع ، ولا الرئيس المطاع ، غير أنى كنت روح الدعـوة ، وهى لا تزال فى كثير مما ذكرت قائمة .

« ولا أبرح أدعو الى عقيدتى فى الدين ، وأطالب بإتمام الإصـلاح فى اللغة ، أما أمر الحـكومة فقد تركته للقـدر يقدره ، وليد الله بعد ذلك تدبّره ، لأننى قـد عرفت أنه ثمرة تجنيها الأمم من غراس تغرسـه ، وتقوم على تنميته السنين الطوال ، فهذا الغراس هو الذى ينبغى أن يعنى به الآن . والله المستعان » .

مآخـذ ومناقشـتها :

عاد محمد عبده من المنفى بعد أن قضى به ست سنوات أى ضـعف

المدة التى حكم عليه بها تقريبا ، وكان ذلك بسبب سخط الخديوى توفيق عليه ، وفى مصر واجه محمد عبده الانجليز وتوفيق فماذا كان رأيه فيهما ؟ .

إن محمد عبده وضح رأيه فيهما إيضاحاً دقيقاً ، فقد سأله وزير الحربية الانجليزى السؤال التالى : ألا يرضى المصريون أن يكونوا فى أمن وراحة تحت سلطة الانجليز ..... ؟ فأجاب محمد عبده بقوة قائلا : إن المصريين يحبون أوطانهم حب الشعب الانجليزى لبلاده ، والنفرة من ولاية الأجنبى من طبيعة البشر ، هذا بالإضافة الى التعاليم الإسلامية فى هذا الشأن .

وعن الخديوى توفيق يقول محمد عبده : إن توفيق باشا أساء إلينا أكبر إساءة ، لأنه مهد لدخول الانجليز بلادنا . ورجل مثله انضم الى أعدائنا أيام الحرب ، لا يمكن أن نشعر نحوه بأدنى احترام ، إننا لا نريد خونة وجوههم مصرية وقلوبهم انجليزية .

ومع هذا فعندما عاد محمد عبده من منفاه ، وجد أن السلطة الكاملة فى يد الإنجليز ، وأن نفوذهم قد امتد الى جميع المواقع ، وأن وسيلة الاصلاح الذى ينشده لابد أن تكون عن طريقهم ، ومن هنا قدم تقريره عن اصلاح التعليم الى اللورد كرومر ، وطلب صوراً مختلفة من الإصلاحات عن طريقه ، وقد أثار عليه هذا الاتجاه كثيرين من الناس ، فالخديوى اتخذها وسيلة ليثأر لنفسه منه ، والحزب الوطنى عارض فيه هذا الاتجاه ، وقادة الأزهر كانوا ينافسون محمد عبده ويضيقون باتجاهاته الإصلاحية التى تهاجم فكرهم وتراثهم فانضموا الى معارضيه ، وفى هذا الجو عانى محمد عبده فترات مريرة وشهرت به الصحف والمجلات ، وكان يقاوم ، ولكن على حساب أعصابه وصحته . ومات

رحمه الله ، واحتفلت الحكومة بتشييع جنازته ، ولكن الخديوى أنّب من اشترك فى تشييع جنازته من رجال الحاشية وأعوان القصر ..

واذا كان محمد عبده قد مات فإن أفكاره لم تمت ، وكيف تموت أفكار حافلة بالأصالة والعمق ؟ لقد أصبح محمد عبده الآن موضع الرضا والتقدير بين أكثر طبقات الأمة .

رحم الله محمد عبده ، فقد كان من خيرة من عرفتهم البلاد فى الوطنية والعبقرية والعمل الدائب لخير الإسلام والمسلمين .

٤ — فترة تعدد السلطات
من الاحتلال البريطانى الى الحرب العالمية الأولى
١٨٨٢ — ١٩١٤

الخديوى توفيق (١٨٧٩ — ١٨٩٢) :

عُزِل اسماعيل وتولى توفيق كما رأينا من قبل وكان توفيق ضعيفاً ، يحس من أول يوم أنه مدين بعرشه الى القوة الأوروبية التى جاءت به الى هـذا العرش ، وكان الوعى العام يقوى ، وثورة الشعب على السلاطين الذين جلبوا له الدَّيْن والنفوذ الأجنبى تشتد ، وكل هذا دفع « توفيق » الى أن يلقى بنفسه فى أحضان الغرب ليتَّقى بهم صـولة المصريين .

توفيق ورياض ورفقى : ثلاثى ردىء :

وكان شريف قد استقال وجاء بعـده رياض ، ولهذا حظـوة لدى الأوروبيين حتى كان يُعَدُّ ممثلا لهم ، ومحققاً لرغباتهم ، فنافس بهذه المكانة الخديوى الذى كان لا يريد أن يشاركه أحـد فى القرب من أولياء نعمته ، ثم كان وزير الحربية فى هـذه الوزارة هو عثمان رفقى ، وهو شركسى متعصب ، تخطى المصريين فى الترقية وقصرها على بنى جنسه ، فقـدم زعماء الجيش المصريون (عرابى وعلى فهمى وعبد العال حلمى) شكوى ضـده وطالبوا بعزله ، وكان نتيجة ذلك أن استدعاهم عثمان رفقى الى ثكنة قصر النيل وهناك قبض عليهم وزجَّ بهم فى المعتقل ، ولما تأخرت عودة هؤلاء الزعماء زحفت قوة من الجند وأخرجتهم بالقوة من المعتقل ، وسار هؤلاء جميعاً الى « عابدين » فيما يعرف بمظاهرة عابدين الأولى مطالبين بالإنصاف والعدل وبسرعة عزل رفقى من الوزارة وتمَّ لهم ذلك فى فبراير سنة ١٨٨١ .

ومن هنا بدأت الأحـداث تدور حول عرابى الذى سرعان ما انتقل

من ممثل للجيش الى ممثل للأمة ، إذ تلقى توقيعات الأمة بتفويضه للحديث باسمها ، وانتقل من قائد يناهض الاضطهاد الواقع على الضباط والجنود الى زعيم يرد الاعتداءات عن المصريين ويناهض أعداءهم ، وبهذا أصبحت ثورة عرابى حركة قومية يتمثل فيها الدم العربى والفكر الإسلامى ، واتجهت هذه الحركة الشعبية لتواجه القوى المختلفة التى تآلفت ضد مصالح الشعب ، فلنبدأ حديثنا بإيجاز عن عرابى وعن الثورة العرابية ونتائجها :

الثورة العرابية والاحتلال

نضع فيما يلى الخطوط العريضة لمجريات الأحداث فى هذه الفترة الدقيقة :

— عُزل رفقى باشا وعين محمود سامى البارودى بدلا منه وزيراً للحربية ، فى فبراير سنة ١٨٨١ وعُدّ هذا انتصاراً لعرابى وزملائه .

— بدأ عرابى يوسع فى سلطانه ، فلم يكتف بأن يكون متحدثاً باسم الجيش ، وإنما أخذ يجمع التوقيعات من الأهالى والأعيان ليتحدث باسمهم ويطالب بتحقيق آمالهم الوطنية كما ذكرنا آنفا .

— عُدّ البارودى مسئولا عن ذلك وعن جرأة رجال الجيش ، فعزله رياض فى أغسطس سنة ١٨٨١ وعين بدلا منه داود يكن وزيراً للحربية وهذا ابن أخى الخديوى فأثار ذلك رجال الجيش .

— قام عرابى بعد ذلك بمظاهرة عسكرية فى ميدان عابدين (سبتمبر سنة ١٨٨١ وهى **مظاهرة عابدين الثانية** ، قدم فيها مطالب الأمة الى الخديوى ، وهذه المطالب هى إقالة وزارة رياض ، وتشكيل مجلس نواب ، وزيادة عدد الجيش ، وإنصاف الضباط المصريين .

— واستجاب الخديوى مكرها لهذه المطالب فعين شريف رئيساً

للوزارة ، وتم تكوين مجلس شورى النواب الذى أصر على فحص الميزانية فأثار بذلك مخاوف انجلترا وفرنسا ، وقررتا ضرورة التدخل الحازم فى شئون مصر ، وأعلنتا مسئوليتهما لحماية عرش الخديوى ، وعد ذلك تدخلا صريحاً فى شئون مصر ، ولكن الخديوى رحب به .

— واستقالت وزارة شريف لعدم استطاعتها التوفيق بين الاتجاهات المختلفة ، وتألفت وزارة البارودى فى فبراير سنة ١٨٨٢ وعين عرابى وزيراً للحربية بها ، وكمل بذلك نفوذ العرابيين ، وزاد قلق الدول الاستعمارية .

— وحدثت مؤامرة جركسية للقضاء على عرابى ، ولكن أحد المتآمرين افشى سرها فقبض عرابى على المتآمرين وفيهم رفقى باشا ، ووقعت عليهم عقوبات تشمل النفى والتجريد من الرتب والأوسمة ، ويبدو أنه كان للخديوى يدٌ فى هذه المؤامرة ، ولذلك حاول التخفيف من الأحكام التى صدرت ضد الذين قاموا بها ، ولكن الحكومة رفضت ذلك ، وظهرت إشاعات باتهام الخديوى ، وبالتفكير فى خلعه ، فألقى هذا بنفسه بين أحضان انجلترا وفرنسا .

— أرسلت انجلترا وفرنسا أسطولا مشتركا الى مياه الاسكندرية لحماية الخديوى ولحماية الجاليات الأوروبية ، وسافر الخديوى من القاهرة الى الاسكندرية ليكون على مقربة من هذا الأسطول ، ثم انسحب الأسطول الفرنسى وانفرد الأسطول الانجليزى بالبقاء .

— خشى عرابى من تدخل الأسطول فأخذ يحصن المدينة ويرمم قلاعها .

— حدث شجار بسيط بين رجل مالطى وبين رجل مصرى ، وتطور هذا الشجار الى خلاف بين المصريين والأجانب ، وساد الهرج والاضطراب .

— طلب قائد الأسطول التوقف عن أعمال الترميم والتحصين ، ولما لم يستجب له عرابي ضرب المدينة في ١١ يوليو سنة ١٨٨٢ ثم احتل الجنود الانجليز المدينة في الثالث عشر من نفس الشهر ، وسارع عرابي لمقاومتهم وأنزل المصريون بهم كثيراً من الخسائر ، ولكن الانجليز استداروا ليدخلوا مصر من الجهة الشرقية عند قناة السويس ، ولم يكن ذلك قد غاب عن عرابي ، فقد حاول ردم القناة ولكن ديليسبس طمأنه بأن حيدة القناة لا تسمح للسفن الانجليزية الحربية بالعبور بها ، وخدع عرابي بهذا الوعد وركز نشاطه في الشمال ، ولكن الانجليز استداروا ودخلوا من القناة ، وأسرع عرابي لمقابلتهم عند التل الكبير ولكنه هزم في المعركة هناك ووقع أسيراً .

— عضد الخديوي الانجليز ودافع عنهم من أول زحفهم ووصف هذا الزحف بأنه مشروع ، وعزل عرابي وعده خائناً ، وكل هذا كان من أسباب هزيمة العرابيين واحتلال مصر ، وفي أثناء الصراع انضمت الدولة العلية الى الخديوي والى الانجليز في هذا العدوان ضد عرابي وضد الشعب المصري .

— وحوكم عرابي وزملائه فصدر الحكم عليهم بالإعدام . ثم خفف الى النفي والتجريد من الرتب العسكرية ومصادرة أملاكهم ، ولم ينفذ حكم الإعدام إلا في سليمان داود الذي أمر بحرق الاسكندرية حتى لا تقع في أيدي الانجليز ، ونفي زعماء الثورة الى سيلان ، ومات منهم في المنفي عبد العال حلمي ومحمود فهمي ويعقوب سامي ، وعاد طلبه عصمت والبارودي وعرابي وعلى فهمي فقضوا آخر أيامهم في الوطن وماتوا به .

عرابي في الميزان :

قبل أن ندع عرابي يجدر بنا أن نقرر ان الحماسة الوطنية عنده كانت أعمق عن الحرص والاستعداد ، لقد كانت كل القوى تقف في وجه

عرابى ، كان الباب العالى يقف ضـده ، وكان الخديوى يعارضـه لأنه عرف أن النهضـة الوطنية سيكون فيهـا قضـاء عليـه ، وكان الانجليز والفرنسيون ودول أوربا بوجه عام تزمجر وتتطلع لالتهام إفريقية ، ولكن ذلك فيما يبدو غاب عن ذهن عرابى ، كان الشراكسة والعناصر الأجنبيـة بالجيش والحـكومة يناهضونه ، والرشوة اللعينة كانت تنساب فى الظلام فتقتل بسمومها بعض الضـباط أمثال الخائن على يوسف الذى أخـلى الطريق للانجليز عند التل الكبير ، وكان بعض ذوى المصالح يطمعون فى إقطاعات الخديوى ومكافأة الانجليز ، فآزروا القوى المعتدية ، ومن هؤلاء عرب الهنادى وعبد الشهيد بطرس وآخرون • ولم يـُعِدّ عرابى لهـذه القوى العـدة اللازمة ، وراح بجيش قليل العتاد والذخائر يواجـه كل هـذه القوى •

وخُدع عرابى أيضـاً بكلمة قالها له ديليسبس بأنه لن يسمح لأية قوى باختراق حياد القناة ، ونسى عرابى أن ديليسبس أكثر حبـاً لبلاده وللخديوى الذى يمثل مصـالح الغرب من حبه لمصر ولشعب مصر •

لقـد كان عرابى رجلا عسكرياً حسن النية ، ولكنه لم يكن سياسياً ، وقد كان من الممكن أن يقنع عرابى ببعض ما حصـل عليه من مطـالب للأمة دون أن يبالغ فيطلب أسمى الأهـداف من غير وسائل كافية لتحقيق مطالبه ، فسلّم المجـد يحسن أن يرقاها الإنسان درجة درجة ، ولكن عرابى أراد الطفرة ، ولم يكن الوقت قـد آن لذلك ولا كانت معه مؤهلاتها فسقط وسقطت معه البلاد تحت الاحتلال •

قضـايا حول عرابى :

بقيت نواح مهمـة تتصـل بعرابى وبالثورة العرابية نشـير لهـا فيمـا يأتى :

أولا ـــ لقد ذكرنا آنفا أن الخديوى توفيق كان خائنا كالح الوجه ، وكان الشعب كله يقف منه موقف العـداء ، لأنه ألقى بنفسه فى أحضان

عــدو البلاد ، ولكنا يجب أن تذكر أن هــذه الخيانة لم تكن طابع الأسرة المالكة كلهــا ، فقــد كان منها عدد كبير فى قمة الشرف والأمانة والوطنية ، فعندما احتاجت الثورة للمال تقدم الشعب بسخاء ليساعد الثوار ، **وتقدم مع الشعب عــدد كبير من الأسرة المالكة فى قمتهم الأميرة « خوشيار » أم الخديوى اسماعيل التى تبرعت بالكثير ممــا تحتاجه الحركة العرابية واقتدى بهــا كثيرات من الأميرات** .

واستمر تأييد المخلصين من الأمراء والأميرات لعرابى بعد هزيمته ، فقدمن له الهــدايا وهو فى طريقه الى المنفى ، وكن يصرحن بأن الحركة كانت لخير مصر والمصريين ، ولذلك كان تأييدها واجبــا على كل مصرى ومصرية .

إننا نحيى هؤلاء المخلصين الأوفياء بنفس القــوة التى نلعن بهــا الخــونة والانتهازيين .

ثانيا ـــ من النقاط غير الواضــحة فى التاريخ أن عرابى عقب هزيمته أسرع للقاهرة وسلم نفسه لسلطات الاحتلال البريطانى والانسان يتساءل : هل فعل عرابى ذلك لثقته فى عــدالة هــذه السلطات وثقته كذلك فى أن حنق الخــديوى لن يرحمــه وســيدفع به للمقصــلة ، فاحتمى عرابى بأخف الضررين ؟

وقد كان من نتائج هــذا التصرف من عرابى أن اتهمه بعض المفكرين بأن الثورة كانت صــناعية ، وأن اتفاقا سابقا حــدث بين عرابى والانجليز ليقوم بثورة يفتح بهــا الباب لدخول الانجليز ، وســاعد على ذلك أن الانجليز عملوا بكل الجهــد حتى لا يحــكم على عرابى بالاعدام .

والذى يعرف خلق الأوربيين يدرك أن نجاح الاحتلال يضع نهــاية للحنق ، ويدفع هؤلاء لإظهار نوع من التسامح لجــذب القلوب نحوهم ، وتهدئة الشعور تجاههم ؛ ومن أجل هــذا نجــد أن الشعب الانجليزى

يسهم فى توكيل محام انجليزى ليدافع عن عرابى ، وعلى الرغم من الصراع بين عرابى والانجليز ، فان شعور الكثير من الانجليز كان يتجه لاحترام المواطن المخلص لبلاده ، ولذلك لا نستبعد أن ينال عرابى احترام الانجليز •

ثالثا — من سياسة الانجليز بعد احتلال مصر أن عملوا على تحقيق بعض آمال المصريين التى كان المصريون شديدى الحرص على نيلها ، لقد حاربوا السخرة والظلم ووضعوا حدا للتفوق الشركسى فى المجتمع وفى الجيش ، وكانوا بذلك يطمعون فى التقرب من المصريين ، وخلق طبقة من المصريين تدين للانجليز بمكانتها الاجتماعية والاقتصادية •

وهذا الموقف يساعدنا كذلك على فهم النقطة السابقة وهى موقف سلطات الاحتلال من عرابى ورفاقه لنفس الغرض الذى ذكرناه وهو خديعة المصريين والتقرب اليهم •

ويرى المؤرخ أن الطبقة الجديدة من المصريين التى تكونت على هذا النحو هى التى ساعدت على قيام ثورة ١٩١٩ وهى التى قادت الثورة ، بعد أن خلا الميدان من الأتراك والشراكسة ، وظهرت طبقة مصرية تماما تعبر عن احساس المصريين •

رابعا — وبالتالى فإن نجاح ثورة ١٩١٩ ووضع الدستور وقيام البرلمان والوزارات المصرية ••••• وما تلا ذلك من تمصير واسع للنظام الاقتصادى وجعل الوظائف المصرية للمصريين ، والاتساع فى امتلاك الأراضى والثراء •••• وإنشاء الجامعات وما تلا ذلك من بروز طبقة عالية الثقافة بمصر ••• كل ذلك مهد لحركة الجيش سنة ١٩٥٢ التى قضت على الحكم الملكى الذى وضع توفيق بذور فساده ، ولم يتوقف فيه هذا الفساد حتى اختفى •

وعلى العموم فإن فشل عرابى استتبع الاحتلال المرير ، الذى قاومته

مصر أكثر من سبعين عاماً ، قدمت خـلالها أغلى الدماء لتنزاح أقـدام العـدو اللعين عن الوطن المقدس •

فى أعقاب الاحتـلال :

كان من الخِدَع التى قامت بهـا بريطانيا بعد الاحتلال أن أذاعت أن احتلالها للبلاد احتلال مؤقت ريثما تسـتقر سـلطة الخديوى ويتم الاطمئنان على سلامة الرعايا الأجانب ومصـالحهم ، ولكن أعمالها كانت تنم عن إصرار على تطويل الاحتلال ، فقـد اتجهت لفحص شامل لحالة مصر ، وعهدت بذلك الى اللورد « دوفرين » فاقترح إنشاء جيش صغير جـديد يرأسه ضـباط من الانجليز وتكون المواد والأسلحة اللازمة له من إنجلترا ، ولذا أغلقت المصانع التى كانت موجودة بمصر ، كما أزيلت البحرية المصرية وعطلت ترسانة الاسكندرية ، وأصبحت مهمـة الجيش المحافظة على الأمن الداخلى ، واقترح دوفرين كذلك إلغاء الحكم النيابى كمـا اقترح بعض الإصـلاحات مثل تنظيم الرى وتخفيف الضرائب عن الفلاحين واصلاح الشرطة ، وقنع بعض الناس بهذه الاصلاحات ، وبالهدوء الذى أعقب العاصـفة ، وراح آخرون لا يشغلهم شىء عن تحرير بلادهم من العـدو أو من الأعـداء الذين تألبوا عليها ، ولئن فشلت ثورة عرابى فينبغى أن نتذكر أنهـا كانت تمثل حلقة فى سلسـلة الثورات التى هبت لتحـرير مصر من العثمانيين والمماليك الطغـاة ومن الخـونة من أسرة محمد على ، واذا قُضِى بالفشل على حلقة من سلسلة الثورات فلم يكن ذلك فى الواقع إلا نقلا لقوتهـا الى الحلقة التالية ، وهـذه هى طبيعة الثورات فى كل الأزمنة وكل الأرجاء •

تعدد السلطات :

ترك فشل ثورة عرابى البلاد خاضعة لعدد من السلطات : كان فى قمتها الانجليز ، وكان منها العثمانيون الذين كان لهم السلطان الشرعى ، ومنها الخديوى الذى كان الحاكم المباشر ، ومنها الشعب الذى سرعان

مـا بدأ ينفض عن نفسه غبار الهزيمة ويهب من كبوته ، ومن أجل هذا سمينا هذه الفترة بفترة تعدد السلطات .

على أن سلطة الانجليز أصبحت فوق كل السلطات ، وكان اللورد كرومر — الذى يمثل انجلترا — هو الحاكم الفعلى لمصر ، وقـد دامت سطوته ٢٤ عاما بدأت بالاحتلال وانتهت عقب مأساة دنشواى ، ومـن الناحية المالية صدر مرسوم بالغـاء الرقابة الثنائية ، وأصبح المستشار المالى الانجليزى هو صاحب الأمر والنهى فى الشئون المالية .

تثبيت الاحتلال :

أما العلاقة بين انجلترا والباب العالى فقد بدا واضـحا فى أول الأمر أنه لا بد من تسويتها بطريق أو بآخر ، فقد استغلت انجلترا الباب العالى فى احتلالها لمصر ، ولو بدأ الاحتلال بدون تأييد الباب العالى وبدون تأييد الخديوى لصادفت انجلترا ألوانا من المتاعب ، ومن أجل هذا أرادت انجلترا من حين الى آخر أن تظهر للبـاب العالى حسن نواياها واسـتعدادها للجلاء ، ولكن ذلك كان مغلفاً فى نطاق السياسة البريطانية المطاطة ، وفى وسط هذه الاتجاهات عقد اتفاق مبدئى بين انجلترا والباب العالى فى أكتوبر سنة ١٨٨٥ ، وقد نص فيه على أنه اذا تم للدولتين اقرار الأمور فى مصر ، يقدم مندوبا الدولتين فيها تقريرا الى حكومتهما ، وحينئذ تنظر الدولتان فى عقد اتفاقية تنسحب بها الجيوش البريطانية فى فترة مناسبة وفى ١٥ يناير سنة ١٨٨٦ أعلن لورد سولسبرى فى رسالة الى مندوبه فى تركيا : إن حكومة جلالة الملكة عندها كل رغبة فى إرضاء الباب العالى من ناحية الجلاء وان كانت لا تستطيع لظروفها الخارجية تعيين موعد قريب لهذا الجلاء قبل أن تطمئن الى سلام مصر الداخلى والخارجى ، وأن هدف انجلترا هو حيدة مصر ، ولكن انجلترا لا بد عاملة على المحافظة على النظم التى أقامتها فى وادى النيل ، حتى لا تضيع سدى هذه التضحيات التى قدمتها ، وطالما حافظت الحكومة المصرية على مركزها ولم يقع أى اضطراب فان المرغوب فيه ألا يبقى بأرض مصر جندى أجنبى واحد .

وبعد مباحثات طويلة ظهر أن انجلترا تحرص على أن تطول اقامتها بمصر ، وأنها تستعمل جـانب التسويف ، والارضاء بالألفاظ ، وأخذت تتكلم عن حماية الأجانب ، واستخدام ضباط انجليز فى الجيش المصرى ، بل تريد تصريحا بحقها فى العودة اذا جدّ مـا يستلزمها ، واشـترطت انجلترا موافقة الدول ذات الشأن على هذا الاتفاق .

وعلى الرغم من أن السلطان وافق على مشروع هذه الاتفاقية فإن الدول رفضتها اذ رأت فيها اعترافا من السلطان بحق انجلترا فى السيطرة على جيش مصر وفى اعادة احتلالها فى مناسبات كثيرة ، ووضحت روسيا وفرنسا أن هذه الاتفاقية تقضى على حيدة الدولة العثمانية ، وأضافت فرنسا أنها تقضى على التوازن الدولى فى البحر المتوسط ، وصرحت الدولتان بأنه اذا نفذت هذه الاتفاقية كانتا فى حل من احتلال أى جزء من أجزاء الدولـــة .

ومرّ الزمن وزاد تمسك انجلترا بمصر واتضح بعد غموض ، وأرضت انجلترا الدول الأوربية فى المعاهدة السرية التى عقدت سنة ١٩٠٤ بين انجلترا وفرنسا والتى أطلقت يدّ انجلترا فى مصر نظير اطلاق يـد فرنسا فى سوريا ولبنان وفى الشمال الإفريقى كما أرضت روسيا فى معاهدة ١٩٠٧ حيث وافقت لها على بعض مناطق النفوذ ، ووافقت ألمانيا وايطاليا على هذه التسويات نظير أطماع أقرت انجلترا بالموافقة عليها . وعندما أعلنت الحرب العالمية الأولى وانضمت تركيا الى جانب ألمانيا ، أعلنت انجلترا قطع العلاقة بين تركيا ومصر ، كما أعلنت فرض حمايتها على مصر .

ثورة المهدى واخلاء السودان

كانت الثورة العرابية وما اتصل بها من الاحتلال المشئوم أهم حادث فى تاريخ مصر فى عهد توفيق ، وكان الحادث المهم الثانى فى هذا العهد هو ثورة المهدى واخلاء السودان ، وقد تحدثنا عن « السودان » حديثا مستفيضا

خاصا فى الجزء السادس من هذه الموسوعة ، وذكرنا عند الكلام عن محمد على زحفه على السودان ، وأهدافه من هذا الزحف وما تحقق له من هذه الأهداف •

وقد أقامت مصر فى عهد أسرة محمد على بعض الاصلاحات فى السودان كانشاء مدينة الخرطوم ومدينة كسلا ، وتوطيد الأمن ، وادخال بعض المزروعات ، ولكن السودان حملت مع مصر نتائج حروب محمد على الفاشلة ، وعانت مصر والسودان معا نزق عباس وديون اسماعيل ، وبالاضافة الى هذه المتاعب المشتركة كان بعض الباشوات ولاة السودان يسيئون معاملة الأهالى ويقسون فى تحصيل الضرائب أحيانا مما جعل بعض السودانيين يحسون أنهم يعاملون ، لا كجزء من الوطن الواحد ، بل كمستعمرة ترزح تحت ثقل المحتل ، والحق أن المصريين فى مصر كانوا يعاملون نفس المعاملة ويعيشون تحت وطأة هذا العبء نفسه ، ولكن السودانيين كانوا بعيدين عن مركز السلطة بالقاهرة ، فثاروا على أسرة محمد على كما ثارت عليها مصر من حين الى حين •

وشىء آخر حدد الوقت المناسب لثورة السودان ، ذلك هو التدخل الأجنبى فى شئون مصر بسبب الديون ، وامتداد هذا التدخل الى السودان ، ثم الاحتلال البريطانى لمصر ، والخوف أن يمتد هذا الاحتلال الأثيم الى السودان إن لم يتخلص السودان من سلطان مصر تخلصا نهائيا •

كل هذا جعل السودانيين يلتفون حول المجاهد السودانى محمد أحمد الملقب بالمهدى الذى ولد فى دنقلة سنة ١٨٤٣ ودرس فى شبابه الدراسات الاسلامية والتعاليم الصوفية ، واشتهر باللباقة والذكاء ، ثم كاتب علماء السودان ورؤساء القبائل يدعوهم للالتفاف حوله والجهاد فى سبيل الله والوطن ، واستجاب له أكثر السودانيين ، وكانت مصر مشغولة بالثورة العرابية فنظم أمره ، ولم تشأ انجلترا أن تدخل فى حرب مع السودان ، ولذلك نصحت باخلاء السودان وبخاصة بعد هزيمة الحملة التى قادها

« هكس باشا » وإبادتها وقتل قائدها (نوفمبر ١٨٨٣) ، وقد سبقت هذه الحملة حملات أو محاولات قام بها الولاة بالسودان ولكن المهدى انتصر عليها جميعا **وكانت انجلترا تقصد أن تعزل السودان عن مصر ، ثم تعود فتفتحه ليكون لقمة سائغة لها** ، وهذا ما حدث وقد وضحنا ذلك فى الجزء السادس ، ولم يوافق شريف رئيس الوزراء على اخلاء السودان وقال قولته المشهورة « إذا تركنا السودان فالسودان لا يتركنا » ولكن الانجليز كانوا أصحاب الكلمة العليا ، فاستقال شريف ليخلى الطريق الى نوبار الذى قبل الوزارة على أساس اخلاء السودان ، وانتدب الجنرال « جوردون » الذى حكم السودان عدة سنوات فى عهد اسماعيل باشا لينفذ اخلاء السودان وليسحب القوات المصرية منه ، ولكن قوات المهدى حاصرته بالخرطوم وقضت عليه •

وينبغى هنا أن نتوقف قليلا عن السير فى مجريات الأحداث لنذكر أن كتابا صدر حديثا (١٩٦٦) يصور حياة جوردون ونهايته ، ومؤلف الكتاب هو انتونى ناتنج الوزير البريطانى المحافظ الذى استقال من وزارة إيدن استنكارا لعدوانه على مصر ، وعنوان الكتاب هو « جوردون شهيد فى غير محله » ويبرز ناتنج أن جوردون لم يكن كما أشيع قديساً وإن تظاهر بذلك ، فليس قديسا من كان يستأجر لضرب حركات الشعوب فى الصين وفى افريقية ، والحق أنه كانت تؤثر فيه عوامل من الشذوذ ، فتظاهر بالتدين أحيانا ، واندفع أحيانا أخرى يطلب الموت ، فالموت وحده يرحمه مما يحس به من رغبات شائنة ، ومن رسائله التى نشرت بعد موته واستدل بها على جانب الشذوذ فيه قوله : أعجبتنى السيدة « فلانة » انها جميلة ورقيقة ، ولكنى لا أطمع فى الزواج منها لأنى ميت والموتى لا يتزوجون ••• وقد كان الميت فيه هو الرجل ، والذى ليس رجلا لا يتزوج امرأة •

من أجل هذا كان جوردون يريد الموت ، لأن الموت يشبه النار التى يشعلها اللصوص بعد عمليات السطو ، فالنار تمسح بصمات أصابعهم وتخفى معالمهم وتضلل العدالة ، ومن أجل رغبته فى الموت ألقى بنفسه فى عدة

معارك طاحنة ، ولكن الموت كان يتخطاه ، ربما ليطيل تعذيبه ، وقد بلغ به اليأس مبلغه إبان حركة السودان ، فلم يدافع عن نفسه بل أبعد جنوده ، وألقى بنفسه على السرير ينتظر الموت الذى كان فيه نجاته •

ولنعد بعد ذلك الى أحداث السودان لنقرر أن الانجليز أحسوا قبيل نهاية جوردون بسوء الحالة بالسودان وبأن أتباع المهدى طرقوا باب الخرطوم ، فأرسلت الحكومة الانجليزية « اللورد ولسلى » لانقاذ جوردون واسترداد الخرطوم ولكن جوردون قُتِل قبل أن يصل « اللورد ولسلى » فآثر الإنجليز التوقف عن السير فى العمليات الحربية بالسودان وصدرت الأوامر باستدعاء ولسلى وانسحاب القوات المصرية من الجنوب فى يونيو سنة ١٨٨٥ •

تصفية ممتلكات مصر :

وأغلب الظن أن هذه كانت سياسة تنوى بها انجلترا تنفيذ خطتها الاستعمارية لصالحها وصالح أوربا ، فانه بعد سقوط السودان سوّت انجلترا مع ايطاليا وفرنسا ومع بلجيكا وألمانيا أمر الممتلكات المصرية على البحر الأحمر وفى حوض النيل الأعلى ، ولم يبق لمصر الا بعض الموانى القليلة التى ظلت حتى سلمها زيور الى انجلترا عقب مقتل السردار لى ستاك سنة ١٩٢٤ (١) •

وفى هذا العهد (عهد نجاح الحركة المهدية) لم يستطع السودان المحافظة على أطرافه وممتلكاته أمام الأستعمار الأوربى الذى كان يرمى الى تقسيم القارة ، فأخذت انجلترا بربرة وبعض مديرية خط الاستواء ، وأخذت الحبشة هرر ، واستولت ايطاليا على مصوع •

---

(١) انظر تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ٢٣ للأستاذ شفيق غربال •

انجلترا وأطماعها فى السودان :

ولم ينج السودان نفسه من الاستعمار الأوربى ، فان الجلاء عن السودان لم يكن فى الحق لضعف قوة انجلترا أمام جيش المهدى ، ولكن الإخلاء كان وسيلة لعزل السودان عن مصر ليكون ذلك خطوة فى طريق استيلاء انجلترا عليه استيلاء مباشرا وكاملا ، وقد حققت انجلترا ذلك على مرحلتين ، ففى المرحلة الأولى استعادت السودان باسم مصر ولكنها سرعان ما رفعت العلم الانجليزى مع العلم المصرى دليل اشـــتراك فى السلطة ، ثم استولت على السلطة الحقيقية ، ولم تدع لمصر مكانة ذات بال ، وذلك بمقتضى معاهدتى ١٨٩٩ ، **وكان الـــذى وقعهما باسم مصر بطرس غـــالى الرجل المشكوك فى إخلاصـــه للوطن .**

أما المرحلة الثانية فكانت استكمال السلطات لها ، واخراج الجيش المصرى من السودان سنة ١٩٢٤ وكذلك اخراج الموظفين المصريين كمـــا ذكرنا عند الحديث عن السودان فى الجزء السادس من هذه الموسوعة .

نهاية توفيق :

وجاءت بعد ذلك نهاية توفيق ، أو قل نهاية ذلك العهد الحالك الذى خسرت فيه مصر اتساعها وخسرت استقلالها ، ومات الرجل سنة ١٨٩٢م تاركا أمرء الذكريـــات .

عباس حلمى (١٨٩٢ — ١٩١٤)

كان عباس غائبا عن مصر عندما مات أبوه ، اذ كان ملتحقا بجامعات فيينا ، وبعد وفاة توفيق صدر فرمان عثمانى أن يخلف عباس أباه ، على أن تسند أمور البلاد الى رئيس النظار مصطفى فهمى باشا حتى يعود الخديوى الجديد .

وعاد الخديوى من الخارج ، شابا متفتحا كبير الآمال ، وأحسن الشعب استقباله والاحتفاء بمقدمه ، وكانت سنه لم تتجاوز الثامنة عشرة ، فظهر منه اقبال على الشعب ، ورغبة فى تحقيق آمـاله ، وأحس كرومر باتجاه الشاب الجديد ، فحاول أن يوقفه عند حده وأن يضغط عليه ، ولم يستجب الشاب لهذا الضغط ، بل انحاز الى العناصر الوطنية التى بدأت تظهر بزعامة مصطفى كامل ، واتضح بعد فترة أن هوة واسعة أصبحت واضحة بين كرومر ومعاونيه فى جانب ، وبين الخديوى والشعب فى جانب آخر ، وكانت انجلترا تتمسك بأن يكون لها الرأى فى الشئون الكبـرى وبخاصة فى تعيين رؤسـاء الوزارات ، ومن هنا ظهرت مجموعـة مـن رؤساء الوزارات كان اخلاصهم الوطنى مشكوكا فيه ، وكانت سياستهم صدى للرغبات الانجليزية أكثر من أن تكون صـدى للأمانى الوطنية ، ومن هؤلاء مصطفى فهمى سالف الذكر ، ورياض باشا ، ونوبار باشـا ، وبطرس غالى باشا ، أما الجبهة الوطنية فقد شهدت فى مصطفى كامل روحا وثابة ونهضة عظيمة ، وأدركت تركيا أن الانجليز لا ينوون الجلاء عن مصر فانضمت لهذه الجبهة ، وأيدت الخديوى وأنعمت على مصطفى كامل بلقب الباشـوية .

مصطفى كامل ومأساة دنشواى :

وراح مصطفى كامل يزور بلاد القطر ويدعو الأعيان والكبراء لمؤازرة الحركة الوطنية ، فانضم له الوجهاء والمثقفون ، ودوّى صوته فى كـل مكان بمصر وبالخارج يهاجم الانجليز ويدعوهم للجلاء عن البلاد ، وصدرت صحيفة اللواء ، وكان بدء صدورها فى يناير سنة ١٩٠٠ وكتب فيها مصطفى كامل ومحمد فريد وشوقى الشاعر واسماعيل صبرى وغيرهم ، وأصبحت اللواء مدرسة لبث الروح الوطنية ، واهتم مصطفى كامل وأعوانه بتقوية الصلات التاريخية والوطنية التى تربط بين المسلمين والأقباط ، فأضعف النعـرة الدينية التى كـانت انجلترا تعمل عـلى تقويتها ، ثم حـدثت

مأساة دنشواى (١٩٠٦) وتبدّى فيها استبداد المستعمر وفقــدان الجانب الانسانى فيه ، فقد راح ينتقم من فلاحى هذه القرية (بمديرية المنوفية) بقسوة لا يعرفها ضمير الحق ، لأنهم اتهموا بقتل أحد الجنود الانجليز ، وحوكم المتهمون محاكمة صورية ، وصدرت الأحكام باعدام أربعة منهم وجَلْد ثمانية ، وبالأشغال الشاقة على اثنى عشر ، ونصبت المشانق بالقرية ، ونُفّذ حكم الاعدام علنا ، كما نُفّذ كذلك حكم الجلد .

وكانت المحكمة برياسة بطرس غالى ، وتولى الهلباوى الدفاع عن وجهة النظر الانجليزية ضد المصريين ، وهكذا وقف الاثنان ضد مصر . ولم تغفر لهما مصر هذه الخيانة ، أما الأول فسقط بيد فدائى مصرى سنة ١٩١٠ لهذا الموقف ، ولأنه اتجه الى الموافقة على مدّ امتياز شركة قناة السويس كما سياتى ، وأما الثانى فكانت عقوبته مريرة طويلة ، كانت الازدراء والاحتقار ، وامتد به العمر ليرى عيون الناس تقذفه بالشر ، وقلوبهم تلعنه ، وضاع مـاله حتى عرَف الفقر وانفض من حـوله ذووه ، حتى مات ذليلا كسيرا ، ولا تزال اللعنات تنزل على الاثنين وعلى كل خائن لوطنه وبنى جنســه .

لقد كانت هذه الحادثة وبالا عــلى الاستعمار ، فقد أمسك بهــا مصطفى كامل وراح يبرز خلالها بالداخل والخارج طغيان كرومر ودولة كرومر ، واضطر الانجليز أن يتقهقروا ويسحبوا هذا الطاغية من البلاد بعد أن باشر سلطات لاحدود لها حوالى ربع قرن .

ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ فأخذ محمد فريد مكانه ، وفى إبان زعامته أرادت شركة قنال السويس سنة ١٩١٠ أن تمد امتيازها ، وكان بطرس غالى رئيس الوزراء آنذاك يميل الى الموافقة ، ودار نقاش عنيف بين الحكومة وبين أعضاء الجمعية العمومية ، وقاد محمد فريد الجماهير معارضا اتجاه الحكومة والشركة ، وأتُهم بطرس غالى بالخيانة لكثرة ما نسب له من أشياء تتنافى مع الوطنية ، فأطلق عليه ابراهيم الوردانى أحد

الشبان الفدائيين الرصاص فقضى عليه (١٩١٠) وسلم نفسه فحكم عليه بالاعدام ، وبسبب هذا الوعى القومى خمد مشروع الشركة .

سياسة الوفاق وعزل الخديوى :

ومع أحداث الوعى بمصر كان الوعى بتركيا ينمو ويشتد ، فنجحت سنة ١٩٠٨ الحركة الدستورية وأعلن الدستور ، وكان لهذا أثره فى الحماسة المصرية ، وساعد على ذلك أن ممثل بريطانيا بعد كرومر ، وهو « السير إلدن غورست » سار على سياسة تغاير سياسة خلفه ، أطلق عليها « سياسة الوفاق » فاشتدت الحركة الوطنية ، ولكن سياسة الوفاق كانت ترمى قبل كل شىء الى وفاق مع الخديوى بارضائه وتوسيع سلطانه ، وقد جذبت هذه السياسة ذلك الخديوى من جانب الشعب الى جانب المستعمر ، فأصبح هذا يخشى إن انتصر الشعب أن يسلب منه السلطان الذى وضعه الانجليز بين يديه ، فانحاز للانجليز وابتعد عن معاضدة الحركة الوطنية .

وتوفى إلدن غورست سنة ١٩١١ وخلفه كتشنر ، فتوقفت « سياسة الوفاق » بين الانجليز والخديوى ، وآثر اللورد كتشنر أن يتقرب الى الشعب ، فأقام الجمعية التشريعية سنة ١٩١٣ التى جاءت محل الجمعية العمومية ومجلس شورى القوانين ، كما عمل على حماية الفلاح ، وحول ديوان الأوقاف الى وزارة حتى لا يكون للخديوى الاشراف على هذه الأوقاف ، وكانت الحرب العالمية الأولى تطل على العالم ، وكانت تركيا تقف ضد انجلترا ، فانحاز الخديوى للأتراك ، ولذلك ما إن أعلنت الحرب حتى عزل الانجليز الخديوى وأعلنت بريطانيا الحماية على مصر ، وأنهت السيادة العثمانية بذلك الى الأبد ، وانتقلت مصر بهذا من عصر الى عصر .

أسرة محمد على وإنشاء جامعة القاهرة

تحدثنا من قبل عن المؤسسات العلمية التى أنشأها محمد عـلى والخديوى اسماعيل ، فكان لهما الفضل فيما أحرزته مصر من سبق علمى فى المنطقة ، وقد حدث شيء رائع فى هذا المجال فى عهد الخديوى عباس حلمى ، هو قيام جامعة القاهرة أو الجامعة الأم كما نسميها ، وقيامها بهبة مالية ضخمة قدمتها الأميرة فاطمة الزهراء ابنـة الخديوى اسماعيل ، ونثبت فيما يلى خلاصة كلمة تاريخية عن نشأة هذه الجامعة كتبها الدكتور عبد الحميد سلطان ، قال :

فى ١٩٠٦/٩/٣٠ نشر الشيخ على يوسف صاحب جريدة المؤيد خطابا من مصطفى كامل الغمراوى وهو من أعيان بنى سويف يطالب فيه بانشاء « الجامعة المصرية » قائلا أن ارتقاء المعارف فى مصر لن يتم إلا بانشاء مثل هذه الجامعة ويعلن تبرعه بمبلغ ٥٠٠ جنيه لهـذا الغرض النبيل ، فحاز سبق الشرف وكان أول المتبرعين ، وفى خلال أيام معدودة أرسل سعد زغلول وقاسم أمين رسالتين الى الصحف يعلنان استعدادهما للاكتتاب فى هذا المشروع بل إن سعد زغلول خطا خطوة مهمة لتنفيذ هذه الفكرة فقد تولى الدعوة لعقد اجتماع لهذا الغرض ، وفى هذا الاجتماع تشكلت اللجنة التأسيسية لمشروع الجامعة المصرية برئاسته ، وتم الاجتماع الأول لها فى بيته يوم ١٩٠٦/١٠/١٢ وحضر الاجتماع ٢٧ عضوا مؤسسا كان من بينهم مصطفى كامل الغمراوى وقاسم أمين ومحمد فريد وعبد العزيز فهمى وعبد العزيز جاويش وويصا واصف وحفنى ناصف وعبد اللـه أباظة ، وقد بلغت تبرعات الجميع فى ذلك اليوم حوالى خمسة آلاف جنيه .

وفى ١٩٠٦/١٠/٢٨ استقال سعد زغلول من رئاسة اللجنة لأنـه أصبح وزيرا للمعارف وتولى رئاستها قاسم أمين لمدة شهرين فقط ثم تنحى عن الرئاسة للأمير أحمد فؤاد الذى صار فيما بعد سلطانا على مصر ثم ملكا عليها .

ومن أهم التبرعات التى حصلت عليها الجامعة فى عصرها المبكر مبلغ ٢٦ ألف جنيه بالاضافة الى ٣٠٠ فدان أوقفها لصالحها كل من **الأمير يوسف كمال** وحسن شريف باشا وحسن بك زايد بالتساوى .

وفى ١٩٠٨/١٢/٢١ تم افتتاح الجامعة المصرية رسميا فى احتفال حضره الخديو عباس حلمى فى مقرها المؤقت بقصر جناكلس حيث بدأت الدراسة فى نفس اليوم ، وهذا القصر هو الذى كان يشغل مكان الجامعة الأمريكية فى ميدان التحرير وقد تم استئجاره بمبلغ ٤٠٠ جنيه سنويا وكان ذلك يمثل عبئاً كبيراً على موارد الجامعة الوليدة التى بدأت تتعثر مالياً ، وهكذا ورغم كل العقبات فقد تم ميلاد الجامعة وتحول الحلم الى حقيقة ولكنها كانت تحتاج الى دعم مالى كبير فإن إنشاء الجامعة المصرية ثم استمرارها كاد يصبح من الأمور التى يصعب تحقيقها لولا أنه فى عام ١٩٠٩ تقدمت الأميرة **فاطمة الزهراء ابنة الخديو اسماعيل وشقيقة الأمير أحمد فؤاد وأنقذت الجامعة من عثرتها بتبرعاتها التى فاقت كل الخيال فقد أوقفت عليها أربعة آلاف فدان كانت تملكها فى الدقهلية ، كما وهبتها مجموعة كبيرة من الحلى والمجوهرات ، وأهدت اليها الأرض التى اقيمت عليها ادارة الجامعة وكلياتها فى الجيزة ، أى أنها قد تبرعت من مالها الخاص بما يساوى ١٠٠ مليون جنيه بعملة تلك الأيام لمشروع بناء الجامعة وقد تم الاحتفال بوضع حجر الأساس لها فى الأرض التى تبرعت بها الأميرة وذلك فى يوم ٣٠ مارس ١٩١٤ .**

ومن الغريب والمثير للخجل انه فى احتفالات العيد الماسى لجامعة القاهرة تبارى الجميع فى ذكر كل من تبرع للجامعة من الرواد الأوائل ولكنهم كادوا ينسون اسم الأميرة فاطمة اسماعيل الى أن ذكره أحدهم على استحياء وهذا طبعا لأنها أخت الملك فؤاد وعمة الملك فاروق مع انه لولاها لماتت الجامعة بعد مولدها بقليل .

وهكذا نرى الأمير يوسف كمال يقدم للجامعة مائة فدان ،

أمـــا الأميرة فاطمة الزهراء فقد قدمت كل ما كانت تملكه فأنقذت الجامعة من نهاية كان يمكن أن تكون مريرة •

وإننا نتساءل مَنْ مِنْ ورثة عبد الناصر والسادات وأصهارهما يستطيع أن يقـــدم مما ربح ما يعادل أو ما يقرب مما قـــدمته الأمـــيرة العظيمة ؟ وبعض هؤلاء قـــد امتد ثراؤه وشـــغل الناس بأمواله التى تفوق أحيانا أموال دولة بأكملها ، ولنتذكر فى هـــذا المجال أشرف مروان زوج بنت الرئيس وصاحب البلايين ولنتذكر كذلك عثمان أحمد عثمـــان الذى يقرض الدول أحيانا بعض ملايينه ، ويأتى بعـــد هذين كثيرون مثل عصمت السادات وآخرون ، إنها صيحة لعلها تفتح القلوب •

٥ ـ فـترة الصراع

من الحرب العالمية الأولى الى ثورة ١٩٥٢

كسا الإسلامُ ـ كما قلنا ـ الزحف العثمانى على مصر هيبة خدعت الكثيرين من المصريين فترة طويلة ، وطال ـ باسم الإسلام ـ ارتباط العثمانيين بالعرب ، واحتملت الشعوب الإسلامية قسوة الأتراك العثمانيين حفاظاً على وحـدة كلمة المسلمين ، وأملا فى مجىء خليفة صالح ، فلما وضـع الانجليز حـداً للسيادة العثمانية وأعلنوا الحماية على مصر ، لم يعـد هناك ما يخـدع المصريين ، وبدأت مصر تعبر عن نفسها وتتسلم زمام أمرها بعد زوال عهـد العثمانيين . واذا كانت قسوة الحرب وضجيج المدافع ووعود المستعمر قـد أرجأت ثورات المصريين ، فإن انتهاء الحرب كان بدءاً لصراع مرير وثورات متلاحقة ضـد الانجليز ، بسبب احتلالهم للبلاد من جانب ، وبسـبب استبدادهم بالشـعب وسـلب أمواله إبان الحرب من جانب آخر ، ولهذا سمَّينا هذه الفترة « فترة الصراع » وقد مهـد هـذا الصراع للثـورة التى ألغت الملكية ، ولم يبق بعـد ذلك للمستعمر كيان ، فقد كان عصر الاستعمار قـد ولى وجاء للعالم عصر الحرية والاستقلال ، ولم يكن الوقت الذى أمضاه المستعمر بعدها بمصر إلا فترة نَزْع لانزاع ، وكان الاستعمار يبحث عن الوسيلة للنجاة بعد أن ضاعت كل آماله فى البقـاء .

وهناك لون آخر من الصراع فى هـذه الفترة ، ذلك هو الصراع الذى كان الملك والأحزاب أطرافاً فيه ، وهـذا الصراع كان صراعاً على السلطة ، فقـد رأت بريطانيا أن الجبهة الوطنية متحـدة ضـدها بعد قطع علاقة مصر بتركيا ، فحولت النشاط المعارض لهـا الى نشاط داخلى بين الملك والشـعب ، فالملك (١) يريد أن يكون مستبداً ، فراح يلتمس

(١) فؤاد ففاروق ، فقد شغلا كل هذه الفترة فيما عدا ثلاث سنوات للسلطان حسين كامل قضاها والحرب مشتعلة فلم يكن فى يده سلطة .

الوسائل ليتّسم الاستبداد بطابع قانونى ، وهداه تفكيره أو مستشاروه الى أن يتخــذ بعض الأحزاب أدوات فى يده يضرب بها ممثلى الشعب ، وعاشت البــلاد فى هــذا الصراع ذلك الأمــد .

ولنعــد لهــذه الفترة بشىء من التفصيل :

الحرب العالمية الأولى وأثرها على مصر :

هــذه هى أول حرب تشترك فيها كل دول العالم تقريباً ، ومن ثمَّ سميت العالمية ، وقــد اشتركت فيها الدولة العثمانية اشتراكاً مباشراً ، ولهــذا كانت هــذه الحرب شديدة الخطر على العالم العربى الذى كان تابعا قبل الحرب للعثمانيين .

وكانت الشرارة التى أشعلت النار تتمثل فى قتل ولى عهد النمسا وزوجته بيد طالب من الصرب (يوغسلافيا) ، واحتجت النمسا احتجاجاً قاسيا وأملت شروطها نظير ذلك ، ورفضــت الصرب بعض هذه الشروط ، فاجتاحتها جيوش النمسا ، وكانت روســيا تعــد نفســها حامية لدول البلقان فتدخلت ضــد النمسا ، فانضمت ألمانيا الى النمسا ، وانضمت فرنسا الى روسيا ، فالعداوة بين فرنسا وألمانيــا شىء تقليدى وبخاصة بعــد انتصــار الألمــان فى حرب السبعين (١٨٧٠) ، واجتاحت الجيوش الألمانية بلجيــكا فى طريقها الى فرنسا منتهكةً بذلك حيــاد بلجيــكا ، فتدخلت بريطانيا لحماية حياد بلجيكا ، ثم انضمت تركيا وبلغاريا الى ألمانيا ، وانضمت إيطاليا واليابان والصــين وأمريكا والبرتغــال إلى فرنسا وروسيا وبريطانيا فتكوَّن من هؤلاء ما يعرف بالحلفاء .

وقاسى العالم كله أهوال هــذه الحرب ، وبلغ ما دمرته من البشر حوالى ١٥ مليونا بين قتيل وجريح ومشوه ، ولم يكن لمصر ناقة فيهــا ولا جمل ، ولم يكن مأمولاً قط أن تنال أية نتيجة لو انتصر هذا الجانب أو ذاك ، ولكن كان من المؤكد أن يقع عليها الضر على أى حال ، وهو

ما حـدث ، ولم يستطع المؤرخون الغربيون أن يغفلوا ما حملته مصر من متاعب ، فقـد قرر بروكلمان أن حشوداً كبيرة من الفلاحين المصريين جُنّدت للعمل قسراً داخل البلاد وخارجها ، وأن مصر احتملت ألواناً من الآلام فى حرب لم تكن يوماً فى مصلحتها ، وأن الفلاحين اقتُلعوا من بيوتهم وانتُزِعت منهم ماشيتهم وأنعامهم ، وأن المجاعة ثقلت وطأتها على الطبقات الفقيرة ...... (١) .

وإذا ذهبنا الى مراجع إنجليزية أخرى مثـل تقـرير لجنـة ملنر (وسنتحدث عنهـا فيما بعد) ومثل الكتاب الذى نشره الكولونيل ألجود عن « مصر والجيش » نجد تفاصيل مريرة لمـا أصاب الشعب المصرى فى أرزاقه وأمواله ، من استيلاء على المحصولات والدواب ، وتسخير العمال فى الأشغال والحركات العسكرية ، واستخدام المرافق العامة كالسـكك الحـديدية ، واستعمالها حتى تلفت من كثرة الاستعمال ، وتحويل مبانى المدارس الى مستشفيات ، وكالخسارة الفادحة التى نزلت بالمزارعين بسبب التحـكم فى أسعار أقطانهم ، ومزاحمة الأهلين فى غذائهم ، وجمع الأموال منهم فى مناسبات مختلفة .....

ويعلق الأستاذ شفيق غربال على هـذه النكبات بقوله : كل هـذا لا يعـدل الجراح التى أصابت المصريين فى عزتهم وكرامتهم وأمنهم ، فقـد رأى المصرى نفسه غريباً فى بلاده ، ورأى هـذه البلاد تتحول الى معسكر هائل تحشد فيه أخلاط الناس من أحمر وأصفر وأبيض ، ورأى نفسه وما يملك مسخراً لخدمة هـذا المعسكر ، ورأى أن بلاده قـد أصبحت قاعدة للغزو والتسلط ، تحركت منها حملة لاقتحام مضيق الدردنيل والاستيلاء على القاعدة الإسلامية الكبرى « القسطنطينية » ، وتحـركت منهـا حمـلات أقـلام المخـابرات والدعـاة الغـربيين

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية : ج ٥ ص ٤٥ — ٤٦ .

للتأثير على العرب ، كما تحركت فيما بعد الحملات نحو فلسطين والشام شرقاً ، ونحو ليبيا غرباً (١) •

وفى خلال هذه الحرب بدأ الغرب ينفذ سياسته بعيدة العمق والمدى ، فاحتل فلسطين وأسند الانتداب عليها الى بريطانيا التى سرعان ما عملت على تنفيذ وعد بلفور المشئوم الذى مس فلسطين ومصر والبلاد العربية بلظاه •

سلاطين مصر وملوكها فى هذه الفترة :

سلاطين مصر وملوكها فى هذه الفترة ثلاثة هم : السلطان حسين كامل والسلطان فؤاد (الملك فؤاد فيما بعد) والملك فاروق ، وسنتكلم كلمة عن كل واحد من هؤلاء وعن أشهر أحداث عصره :

السلطان حسين كامل

مع مطلع الحرب العالمية ، ومع إعلان الحماية على مصر عزلت انجلترا الخديوى عباس حلمى لأنه أيد تركيا فى موقفها من الحرب ضد الحلفاء ، واتجه الانجليز الى الاستبداد بالسلطة فى البلاد ، وخطر لهم ألا داعى لسلطان يحل محل الخديوى المخلوع ، ثم عدلوا عن هذه الفكرة سيراً مع سياسة الخديعة التى كانت الحرب تدعوهم الى اصطناعها ، فاختاروا للسلطنة رجلا يرضى بالاسم ولا يحفل بمقتضياته ومستلزماته ، ذلك هو حسين كامل وهو عم الخديوى المخلوع وأكبر أفراد الأسرة العلوية سنا ، وقد استهجن المصريون موقفه وعدوه خائنا لأنه وقف مع أعدائهم الانجليز ، وقد وصلت الحماسة ببعض الشبان المصريين الى تدبير القضاء عليه ، فألقى عليه أحدهم قنبلة فتاكة

---

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية : ص ٤٦ •

ولكنه نجـا منها ، ولعل هـذه الوصمة التى لحقت حسين كامل هى التى دفعت ابنه الى أن يرفض منصب السلطنة بعـد وفاة أبيه ، وأن يتخلى تخلياً صريحاً عن حقه فى العرش ، وقنع السلطان حسين كامل بالمنصب دون أن يشترط أى شرط لصالح البلاد التى سيصبح سلطاناً عليها ، ويلوم الأستاذ شفيق غربال هـذا السلطان ووزيره رشـدى لأنهما لم ينتهزا فرصـة حاجة انجلترا الى معونة مصر زمن الحرب ليطلبا منهـا عهـداً بالجـلاء بعد الحرب أو بإعادة حقوق مصر لبنيها (١) .

ولم يطـل عهـد السلطان حسين إذ توفى سنة ١٩١٧ ، وليس هناك من عمل يمكن أن يسند اليه ، فقد كانت السلطة كلها فى يد الحاكم الانجليزى (المندوب السامى) وبخاصـة إذ كانت الحرب المسعورة تدور بقسوة وشراسـة .

السلطان فؤاد والملك فاروق

أورد كارل بروكلمان سطوراً قليلة تمس حسين كامل والسـلطان فؤاد وموقف الانجليز تجاه هـذا وذاك ، قال : خسرت بريطانيا بوفاة حسين كامل سندها الرئيسى فى البلاد ، وبدا لهـا أن تضـم مصر الى إمبراطوريتها ، ولكن البريطانيين آثروا آخر الأمر أن يختاروا سـبيلا أكثر حصـافة ، فداروا عواطف المصريين وأسندوا الأمر الى الأمـير أحمد فؤاد أخى السـلطان على الرغم من أنه كان يحيـا فى الغالب فى ايطاليا ، وكان قـد أصبح غريباً عن البلاد أو يكاد (٢) .

وقـد ظل فؤاد سلطانا على مصر حتى صـدر ما يعرف بتصريح ٢٨ فبراير سـنة ١٩٢٢ فاتخـذ فؤاد لقب « ملك » .

---

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .
(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية ج٥ ص ٤٦ — ٤٧ .

وأبرز الأحـداث فى عهد فؤاد هى الحركة القومية التى أريد بهـا استعادة الحقوق الوطنية من الانجليز الغاصبين ، وقـد تدخل الملك فؤاد فالملك فاروق فيها تدخلا أرجأ نتائجها ، فكل منهما لم يكن يريد أن تتحقق آمال البلاد على يد حزب الوفـد الذى كـان يضـم الممثلين الحقيقيين للشعب خوفاً على سلطانه من هؤلاء الممثلين ، ولهذا خلق أحزاباً يسميها الباحثون أحزاب القصر ليضرب بهـا ممثلى الشعب ، وقد انتفع الملك بهـذا الصراع الذى دار بين الجبهتين ، أما ممثلو الشـعب الحقيقيون فإنهم فى آخر وزارة لهم هدءوا من حماستهم بعض الشىء ضد القصر ولكنهم مع هذا لم ينالوا رضا القصر ، لأن القصر كان يدرك خطر الشعب وممثليه عليه .

ويدافع زعماء الوفـد عن أنفسهم بأن ذلك التسـاهل لم يكن قط تساهلا فى حقوق البلاد ، وإنمـا كان نوعاً من التساهل الشخصى ، ليكون ذلك وسيلة للبقاء فى الحكم رغبة التمكن من خدمة الشـعب وآماله فى الداخل ، وحل قضـيته مع المستعمر ، ولقـد لجأ ممثلو الشعب لهـذه السياسة بعد أن أبعدوا فترات طويلة من الحـكم ، ففسد الحكم بالداخل وهـدأت الحماسة لمقاومة الاستعمار . وهو دفـاع تأخـذ به الأغلبية الساحقة من الوفديين لأنه الوسيلة لتحقق آمال الشـعب فى الداخـل والخارج ، والوسـيلة لقطـع الطريق على أحزاب القصر الذين كانوا يرضون بالفتات على حساب الصالح العـام .

ومات فؤاد سنة ١٩٣٦ فخلفه ابنه فاروق وهو صبى دون سـن البلوغ ، فحكمت مصر بمجلس وصـاية ريثما بلغ الملك هـذه السن ، وكان فاروق صورة من أبيه ، وكل ما بينهما من فرق هو رعونة الصـبا وطيش الشباب فى الابن ، ولنعد الى هـذه القضية بشىء من التفصيل :

الحركة القومية وثورة ١٩١٩ :

قلنـا فيما سبق إن الشعب المصرى احتمل ألواناً من الظلم خلال

الحرب ، وكانت وعود بريطانيا وسيلة من وسائل التخدير ، فلما انجابت الحرب هبّ الشعب يطالب باستقلاله ويدعو المحتل أن يرحل عنـه •

وقلنا كذلك إن الإسلام كان العامل الذى أطال سلطان العثمانيين على مصر وعلى سواها من الدول العربية ، أما أن تخضـع مصر لبريطانيا فشىء لا ترضـاه الوطنية ولا يرضـاه الإسـلام ، وعلى هـذا هبّت ثورة ١٩١٩ •

وشىء آخر نريد أن نضيفه هو أن حركات المقاومة المصرية كانت كثيرة ومتتابعة ، وكانت تتجه ضـد كل الذين اعتدوا على حقوق البلاد ، وقـد رأينا منها ثورة على بك الكبير ، وثورة مصر كلها ضـد الحمـلة الفرنسية ، وثورة مصر ضـد تركيا لصالح محمد على ، كما رأينا الثورة العرابية التى واجهت عـدة قوى ، وبعدها جاءت الحركة الوطنية التى عبر عنها مصطفى كامل ومحمد فريد ، وعلى هـذا فثورة سـنة ١٩١٩ حلقة مهمة فى النضـال الوطنى المتصـل •

وكانت هـذه الثورة التقاطاً من المصريين لحقهم فى تقرير مصيرهم ، فقـد التقط المصريون هـذا الحق وباشروه ، لتسوية مـا بينهم وبين انجلترا من مشكلات ، ولم يخطر ببال انجلترا — كما يقول الأستاذ شفيق غربال — أن التسوية الحقيقية بينهـا وبين مصر سـتكون مع الأمـة المصرية نفسـها (١) :

وقائد الحركة القومية هـذه المرة هو سعد زغلول ، وقد سبق له أن شغل عـدة مناصب ، تُعَدُّ من أرقى المناصب فى الدولة ، ففى سنة ١٩٠٦ شغل منصب وزير المعارف فجعل اللغـة العربية هى لغـة التعليم بدلا من الإنجليزية ، وأسهم فى انشاء الجامعة المصرية وفى سنة ١٩١٠ شغل منصب وزير الحقانية (العـدل) وفى سنة ١٩١٣ انتخب وكيـلا

(١) تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ١ — ٢ •

للجمعية التشريعية ، وقـد اكتسب فى هـذه المناصـب مكانة مرموقة ، وفى خـلال الحرب لم يكن هناك سبيل للمنطق والحرية ، وإنما كان لسان القوة هو الناطق المسيطر ، فلما وضـعت الحرب أوزارها وأعلنت مبادىء الرئيس ولسن الخاصـة بحق تقرير المصير هب سعد زغلول من مكمنه وجمع حوله لفيفا من المناضلين وأعلن تكوين الوفد المصرى فى ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ ، وراح يطلب من المندوب السامى السـير ريجينلد وينجت Reginald Wingate أن يأذن له ولرفاقه فى السفر الى انجلترا ليطالبوا بإعلان استقلال البلاد ، فرفض المندوب السامى ذلك ، فاتجه سـعد وزملاؤه وجهة أخرى هى استعدادهم للسـفر الى باريس ليدافعوا عن قضـية البلاد أمام مؤتمر الصلح ، وعدّت بريطانيا هـذا تمرداً منهم ، كما رأت تغلغل الحركة الوطنية فى نفوس المواطنين ، فأرادت أن تقضى عليهـا ، فألقت القبض على زعماء البلاد : سعد زغلول واسماعيل صدقى ومحمد محمود وحمـد الباسل ونفتهم الى جزيرة مالطـة ، وأشـعلت بذلك لهيب ثورة جارفة يصفها بروكلمان بقوله : أصبحت البلاد كلهـا فى حالة تمرد وثورة ، وقطع كلّ اتصـال مع القـاهرة ، وحاصر الثوار الحاميات الانجليزية الصغيرة فى مصر العليـا ، واستعملت الطائرات لنقل الجنـود المحاصرين ، ووقعت سلسلة من الاعتـداءات على الجنـود البريطانيين (١) ، وبقيت البلاد بدون وزارة فترة طويلة .

وأسهمت المرأة المصرية بنصيب كبـير فى هـذه الثورة ، فخرجت السيدات مطالبات بالحرية لمصر ، وأبدين ضروبا من البسالة والقـوة ، واشترك الفلاحون والعمال بكل شجاعة فى هـذه المظاهرات ، واتجـه بعضهم لقطع السكك الحديدية حتى يصـيب الشلل خطـوط الانجليز داخل البـلاد .

وأنتجت هذه الثورة نتيجتين مهمتين ، إحـداهما تغيير المنـدوب

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٥ ص ٥٠ — ٥١ .

السامى وإسناد هـذا المنصب الى اللورد ادموند أللنبى Edmund Allenby الذى كان قائد حملة فلسطين ، والنتيجة الثانية لجنـة ملنر Milner لدراسة أسباب الثورة •

وأطلق أللنبى سراح المعتقلين وذهبوا الى باريس من مالطة ، ولكن بعد أن دفع النفوذ البريطانى ولسن الى أن يعلن أن تقرير المصير لا ينطبق على الدول المستعمرة ومنها مصر ، ودفع هذا النفوذ أيضا مؤتمر الصلح أن يرفض الاستماع لمطالب مصر ، وهذا مما زاد الثورة اشتعالا ، وجعل المصريين يقاطعون لجنة ملنر التى كانت تباشر عملها فى مصر وسعد ورفاقه فى باريس ، فعادت لجنة ملنر الى انجلترا واستدعى سعد ورفاقه للتفاوض مع ملنر فى انجلترا ، فاستجابوا بعد أن توسط لذلك عدلى يكن ، وظلت المفاوضة حوالى ثلاثة أشهر ولكنها لم تسفر عن أية نتيجة ، واقترحت لجنة ملنر اثر ذلك أن تعترف بريطانيا باستقلال مصر بشرط أن توافق مصر على بقاء قوة عسكرية فى الأراضى المصرية ، كما اقترحت تعيين مستشـار بريطانى فى وزارة الحقانية وآخر فى المالية ، وألا تعقد مصر معـاهدة سياسية مع أية دولة بغير موافقة انجلترا ، وأن تُمْنَحَ بريطانيا حق حماية الأجانب من تطبيق القوانين المصرية عليهم • وقد رفض الشعب المصرى ذلك •

تلك هى أول مفاوضة ، وللحديث عن المفاوضات وعصرها دراسات دقيقة دونها المرحومان الأستاذ شفيق غربال والدكتور محمد حسـين هيكل ، ومنهما نقتبس لقطات قصيرة تناسب الاطار الذى حددته لنـا هذه الدراسة :

— فى فبراير سنة ١٩٢١ سافر عدلى رئيس الوزارة آنذاك للمفاوضة مع كيرزون ، ولكن سعدا أعلن أنه — باسم الشعب — لا يؤيد عدلى فى مفاوضـاته ولا يلتزم الشـعب بنتائجها « لأن رئيس الوزارة عينـه

المندوب السامى ، وهو بذلك ليس إلاّ موظفا من موظفى الحكومة الانجليزية يسقط ويرتفع باشارة من المندوب السامى » وكان من جراء ذلك أن كثرت الاضطرابات ، وفشلت المفاوضات ، فألقت السلطات الانجليزية القبض على سعد وخمسة من زملائه ، هم فتح الله بركات وعاطف بركات وسينوت حنا ، ومصطفى النحاس ، ومكرم عبيد ، ونفتهم الى سيلان ، ومن هناك الى سيشل فى ديسمبر سنة ١٩٢١ ، ثم حوّل سعد الى جبل طارق .

تصريح ٢٨ فبراير :

اتجه الجانب الانجليزى بتوصية اللنبى إلى العمل الفردى دون أن يلزم مصر بالتحفظات التى وردت فى مشروع ملنر ، فصدر تصريح ٢٨ فبراير سنة ١٩٢٢ وفيه أعلنت انجلترا انتهاء الحماية على مصر ، وأن مصر مستقلة ذات سيادة ، وأن انجلترا تتمسك بنقاط أربعة لتسوى فيما بعد فى مفاوضات ودية ، وهذه النقاط هى :

١ — تأمين مواصلات الامبراطورية البريطانية فى مصر .

٢ — الدفاع عن مصر ضد أى تدخل أجنبى .

٣ — حماية الأقليات ومصالح الأجانب .

٤ — السودان .

وأعلن فؤاد (!!) عقب ذلك وثيقة استقلال مصر واتخذ لقب « ملك » .

— ألف عبد الخالق ثروت الوزارة اثر ذلك ، وشكلت لجنة وضعت الدستور الذى يعرف بدستور سنة ١٩٢٣ ، وأفرج عن سعد ورفاقه ، وجرت الانتخابات فحصل الوفد على أغلبية ساحقة ، وافتتح البرلمان فى ١٥ مارس سنة ١٩٢٤ وألف سعد زغلول أول وزارة برلمانية .

الملك والدستور :

وقف الملك فؤاد موقف الحياد خلال الصراع بين الشعب الثائر المطالب بحريته وبين المستعمر الانجليزى ، فلما بدت انتصارات الشعب وحقق بعض النتائج التى سعى لها وضحّى من أجلها ، تقدم هذا الملك ليجنى ثمار كفاح الشعب ، وليأخذ لنفسه السيادة التى انتزعها الشعب من فم المستعمر .

ويبدو أن نتيجة جهود سعد ورفاقه أذهلت الملك فؤاد ، فهو يخاف التجمع الشعبى الذى لا بد سيعمل على الحد من نفوذه طبقا للدستور ، ولذلك كان هذا الرجل حربا على الدستور وحربا على حزب الأغلبية ، وكان موقفه ذاك يمثل السبب الرئيسى فى تأخير حصول مصر على استقلالها التام ، وقد وجد الانجليز فى اتجاهه ضالتهم ، فأيدوه فى حربه ضد ممثلى الشعب وقادته ، وأيدوه فى تزييفه ارادة الشعب ، واذا كان المصريون قد زعزعوا قوى بريطانيا سنة ١٩١٩ فى ثورتهم العارمة ، فانهم الآن اتجهوا ليضرب بعضهم بعضا بتحريض الملك ، وتفرغ الانجليز للفرجة ، وأكبر دليل على ذلك أنه عندما مرض الملك باعث الشقاق وحاميه ، ونصير الاستعمار وراعيه أشار الانجليز باجتماع الأحزاب تحت رياسة النحاس زعيم الأغلبية ، وسلموا بالمعاهدة التى حققت بعض ما كان يطمع فيه المصريون ، ومرة أخرى نقرر أن مرض الملك فؤاد ، وطفولة ولى العهد ، جعلا الانجليز يحسون بفراغ كبير ، فسلموا ببعض ما كانت الأمة تطالب به .

ولنعد الى تصوير سريع للحرب التى شنها الملك على الدستور ، ولنأخذ الأرقام رائدا لنا فى هذا المجال :

— كان يوم ١٥ مارس (سنة ١٩٢٤) عيدا للدستور .

— أوقف الملك هذا الدستور سنة ١٩٢٥ .

— أعيد الدستور سنة ١٩٢٦ ٠

— أوقفه مرة ثانية سنة ١٩٢٨ ٠

— أعيد سنة ١٩٢٩ ٠

— ألغى سنة ١٩٣٠ واستبدل به دستور صدقى العجيب الذى كان ذا طابع رجعى ، إذ جُعِل الدستور منحة من الملك ، وجُعل للهيئة التنفيذية حق التشريع ، وجُعل للملك حق إهمال أى قانون يقره البرلمان ٠

— ألغى دستور صدقى سنة ١٩٣٤ وبقيت البلاد بلا دستور حتى أعيد دستور ١٩٢٣ فى ديسمبر سنة ١٩٣٥ ٠

— ثم استقر رأى الملك على أن يبقى هذا الدستور لكن على أن يكون حبرا على ورق فقط ، لا حياة فيه ولا مدلول له ، وسيتضح ذلك من ملاحظة الفترات القصيرة التى أمضاها حزب الأغلبية فى الحكم ، فقد كانت أحزاب القصر مضطرة حتى سنة ١٩٣٥ أن توقف الدستور أو تلغيه لتحكم ، ورؤى بعد ذلك أن تحكم بأية صورة من صور التحريف والتزوير ، دون اعتبار لهذا الشىء المسطور ، وذلك مزيد من الانحدار والاستهتار ٠

والعجيب أن رجلا اسمه أحمد زيور لا يمثل إلا نفسه بل لا يمثل نفسه ، تولى رياسة الوزارة سنة ١٩٢٤ وأجرى انتخابات ، فلما فاز حزب الوفد واختير سعد زغلول رئيسا لمجلس النواب قرر زيور الأثيم ، بايعاز الملك طبعا ، حل مجلس النواب بعد بدء انعقاده بيوم واحد ٠

الملك والشعب :

وبعد أن أوضحنا كيف كان فؤاد حربا على الدستور ، نلتفت الآن لنبين كيف كان فؤاد وابنه من بعده حربا على الشعب ممثلا فى حزب الأغلبية (حزب الوفد) ، ووسيلتنا الدقيقة لاثبات ذلك أن نورد قائمة

بالوزارات منذ ثورة ١٩١٩ إلى ثورة ١٩٥٢ ليظهر لنـا أن المدة التى قضاها حزب الأغلبية فى الحكم كانت ضئيلة جداً :

رشدى باشا سنة ١٩١٩ رأس لجنة وضع الدستور فيما بعـد فترة بدون وزارة إبان ثورة ١٩١٩ .

محمد سعيد سنة ١٩١٩

يوسف وهبة « ١٩١٩

عدلى يكن « ١٩١٩

عبد الخالق ثروت « ١٩٢٢ أسقطه الملك لتمسكه بمواد فى الدستور

توفيق نسيم « ١٩٢٢

يحيى ابراهيم « ١٩٢٣ صدر الدستور فى عهده

سعد زغلول « ١٩٢٤ أول وزارة انتخابية

أحمد زيور سنة ١٩٢٤ أرضى الاستعمار والملك ، وكان ستارا لحكم القصر ، وحل البرلمان يوم بدء انعقاده

عدلى يكن سنة ١٩٢٦ وزارتا ائتلاف — سعد زغلول رئيس
عبد الخالق ثروت « ١٩٢٧ مجلس النواب

مصطفى النحاس « ١٩٢٨ وزارة وفدية بعد تصدع الائتلاف — أقيلت فى نفس العام

محمد محمود « ١٩٢٨ حكم ديكتاتورى — تعطيل الدستور

عدلى يكن « ١٩٢٩ وزارة انتقالية لاجراء انتخابات — فوز الوفد

مصطفى النحاس « ١٩٣٠ وزارة وفدية

اسماعيل صدقى « ١٩٣٠ استبداد وتغيير الدستور

عبد الفتاح يحيى « ١٩٣٣

توفيق نسيم « ١٩٣٤ ألغى دستور صدقى

[ثورة شباب الجامعات ــ الجبهة الوطنية]

على ماهر سنة ١٩٣٦ وزارة انتقالية لاجراء انتخابات ــ فوز الوفد

مصطفى النحاس « ١٩٣٦

محمد محمود (آخر ديسمبر) « ١٩٣٧ فى عهده تألفت الهيئة السعدية

على ماهر « ١٩٣٩

حسن صبرى « ١٩٤٠ فى عهده ألغى صندوق الدين

حسين سرى « ١٩٤٠

مصطفى النحاس « ١٩٤٢

أحمد ماهر سنة ١٩٤٤

محمود فهمى النقراشى « ١٩٤٥

إسماعيل صدقى « ١٩٤٦

النقراشى « ١٩٤٦

ابراهيم عبد الهادى « ١٩٤٨

حسين سرى « ١٩٤٩ فى وزارتين : ائتلافية يوليو ــ نوفمبر ومحايدة نوفمبر ــ يناير

مصطفى النحاس « ١٩٥٠

على ماهر « ١٩٥٢

نجيب الهلالى « ١٩٥٢

حسين سرى « ١٩٥٢

نجيب الهلالى « ١٩٥٢

ولنا تعليقات على هذه القائمة :

١ ــ كانت المدة قصيرة جدا فى كل مرة من المرات التى تولى رياسة الوزارة فيها سعد أو النحاس ، فكانت أحيانا شهورا قليلة ولم تتخط السنة إلا فى حالات استثنائية ، ففى مرة كان فاروق قــاصرا ، ولــم يستطع مجلس الوصاية أن يقوم بهذه الحماقة ، فما أن وصــل الصبى الى ما سمى بالرشد حتى أقال وزارة النحاس بعد بضعة شهور ، ومرة أخرى كانت ابان الحرب العالمية الثانية ، وقد فرض الاستعمار الانجليزى النحاس فرضا على الملك ، فقد زحف مايلز لامبسون السفير البريطانى بالدبابات وأرغم الملك أن يأتى بحزب الوفد الى الحكم تقربا الى الشعب فى أزمة الحرب وظل النحاس أكثر من سنتين على الرغم من الملك ، فلما بدأت انتصارات الحلفاء ، تخلى الانجليز عن الشعب وزعيم الشــعب فأقاله فاروق ، وفى مرة ثالثة جاء النحاس لينقذ سمعة القصر وسمعة مصر عقب هزيمة فلسطين ، وصفقات الأسلحة الفاسدة ، وسنشرحهــا بإفاضة بعــد قليل .

٢ ــ كان اخراج النحاس ينتهى باقالته دائما ، ولم تعرف الإقالة لأى رئيس من الرؤساء الآخرين .

٣ ــ فى بعض الحالات رأى القصر وأعوانه والانجليز أن تدمير مصر أيسر من بقاء حزب الأغلبية فى الحكم ، وأول حادثة تؤيد هــذه القضية مقتل السردار لى ستاك Lee Stack سردار الجيش المصرى وحاكم السودان العام سنة ١٩٢٤ ، وقد جرى اغتياله فى أحد شوارع القاهرة . واصبع العدالة تشير الى أن قتله مدبر للنكاية بمصر وبحزب الأغلبية الحاكم ، ويتضح هذا من الانذار الذى قدمه اللورد اللنبى الى سعد زغلول ، وفيه يطلب مطالب لا علاقة لها ألبتة بمصرع هذا السردار ، فهى ــ بالاضافة الى الاعتذار ودفع دية ثقيلة (نصف مليون جنيه) وتتبع المجرمين والثأر منهم ــ تحتم ارجــاع الجيش المصرى مــن

السودان ، وتقرر ضرورة الموافقة على أن تنزع السودان أرضا لا حدود لها فى الجزيرة بعد أن كانت المعاهدات تقضى بأن الأرض المنزرعة لا تتجاوز ٣٠٠٠٠٠ فدان ، والموافقة التامة على أن تقوم بريطانيا بحماية المصالح الأجنبية فى مصر . ورفض سعد بطبيعة الحال هذا الانذار ، واحتلت بريطانيا جمرك الاسكندرية ، وجاء القصر بزيور الأثيم ليوافق على كل شىء ، فكل شىء أهون من سعد فى رأى القصر ورجال القصر .

إلغاء معاهدة ١٩٣٦ وحريق القاهرة :

وحادث آخر شهدناه ليس أقل خطرا من مصرع السردار الانجليزى ، ذلك هو حريق القاهرة الحبيبة فى ٢٦ يناير سنة ١٩٥٢ ، فقد جىء بالنحاس الى الحكم عقب كارثة فلسطين كما أشرنا من قبل ، وكانت الكارثة عملا أسهم فيه فاروق بنصيب كبير عن طريق الأسلحة الفاسدة التى كسب فيها القصر وأعوانه عدة ملايين من الجنيهات ، وخسرت مصر كل شىء ، ثم عن طريق نزوات الملك ولذائذه ، وهذا السبب مكن للنحاس هذه المرة ، ومكّن له كذلك موقفه الجرىء من معاهدة ١٩٣٦ فقد صاح فى البرلمان : باسم الشعب وقعتُ هذه المعاهدة وباسم الشعب أعلن إلغاءها ، وترتب على هذا الالغاء أن توقّف المصريون الذين كانوا يعملون فى القاعدة البريطانية عن العمل فأصيبت القاعدة بالشلل ، وتوقف التجار عن امداد القوة الانجليزية بالطعام والمطالب الأخرى ، فأخذت جرعة الماء تكلف الانجليز ثمنا باهظا ، ونشط الفدائيون من الطلاب والشباب نشاطا كبيرا ، فأخذوا يتخطفون الجنود الانجليز وينقضون عليهم ، وأوجد حزب الأغلبية عملا لكل من توقف عن العمل

وشجع الفدائيين ، والمهم أن هذا وسواه مكن لحزب الأغلبية فى النفوس ، فلم يكن فى مقدور فاروق أن يقيل الوزارة فى هذا الجو من النجاح ، فلعبت اصبعه القذرة متضامنة مع الانجليز والخونة ، فأشعلت النار فى عاصمتنا الحبيبة ، ورأى كاتب هـذه السطور القاهرة وهى تحتـرق ، واشترك مع جمع من الشبان المخلصين فى اطفاء النيران وايقاف الشغب ، ويشهد الله أن دموعنا كانت تهطل بغزارة ونحن نعمل فى أطفاء اللهب ، وقد هدأت صرخاتنا من حماسة الغوغاء المخدوعين ، وكانت القاهرة تحترق والملك (يحتفل) كبار رجـال الجيش فى مأدبة أقامها لهم بالقصر حتى لا ينقذوا العاصمة من الدمار ، وعلى حطام القاهرة أقال فاروق زعيم الأغلبيـة .

العلاقات بين بريطانيا ومصر

نعود لاستكمال الكلام عن العلاقات بين بريطانيا ومصر ، وقد شرحنا الجولة الأولى من هذه العلاقات ، تلك الجولة التى انتهت بتصريح ٢٨ فبراير الذى حقق نوعا من الاستقلال وشيئا باهتا من الديمقراطية سبق أن شرحنـــاه •

وجاءت الجولة الثانية التى أريد بها تصفية التحفظات الأربعة التى ذكرها تصريح ٢٨ فبراير ، وبدأت هذه الجولة سنة ١٩٢٤ وانتهت بمعاهدة ١٩٣٦ ، وقد اشترك فيها عدد كبير من الزعمـــاء كما يلى :

سعد ماكد ونالد ١٩٢٤ :

طالب سعد بسحب جميع القوات البريطانية ، وسحب المستشـــار البريطانى القضائى ، والعدول عن دعوى حماية الأجانب والأقليات بمصر ، وعن دعوى الاشتراك فى حماية قناة السويس ، ورفضت بريطانيا هذه المطالب ، وخافت من أن يشغل سعد ثورات ضدها كتلك التى هبت سنة ١٩١٩ ، فقامت بالايعاز بطريق أو بآخر بقتل السردار ، للتخلص من سعد ، ولمزيد من تضييق قبضتها على مصر كما سبق القول •

ثروت ـــ تشمبرلن : ١٩٢٧

(فى وزارة الائتلاف الوفدى الدستورى)

اتفقت فى هذه المفاوضة وجهات النظر على أكثر النقاط السابقة ، ولم يكن هناك خلاف إلا فى نقطتين :

١ ـــ تمسكت بريطانيا بضرورة بقاء بعض الضباط والعاملين من أبنائها بالجيش المصرى ، على أن يكونوا بعثة عسكرية •

٢ ـــ تمسكت بريطانيا بإبقاء عدد من موظفيها فى إدارة البوليس

والأمن لصالح الأجانب ، ريثما يستقر الأمر فى مسألة الامتيازات ، وفى هذه الأثناء تصدع الائتلاف ، وأسندت الوزارة لزعيم الوفد سنة ١٩٢٨ الذى أعلن عدم موافقته على هذا المشروع .

فعاد ثروت دون نتيجة ، وسرعان ما أقيلت حكومة الوفد .

محمد محمود — هندرسون ١٩٢٨ :

أوشك الاتفاق أن يتم على النحو السابق ، ولكن بريطانيا تمسكت بأن يصدق برلمان منتخب انتخابا حرا على هذه المعاهدة فعاد محمد محمود لأنه كان يعرف أن أى انتخاب حر سيقصيه عن الحكم .

النحاس — هندرسون ١٩٣٠ :

كانت المفاوضات السابقة ترجىء الكلام عن السودان ، فلما جاء دور النحاس أثار مشكلة السودان ، وأصر على أن تكون هجرة المصريين اليه غير محدودة الا بشرط الأمن والصحة ، وأن يعود الحكم الثنائى على أن تكون مدته عاما واحدا ، ثم تتم الوحدة بين مصر والسودان . وفشلت المفاوضات على صخرة السودان .

الحرب العالمية الثانية وأثرها على العلاقات

إن الحديث عن الحرب العالمية الثانية يستتبع عودة للوراء لنتذكر نتائج الحرب العالمية الأولى ، فقد خرجت ألمانيا من هذه الحرب جريحة مهزومة ، واستبد بها المنتصرون ، ومن أجل هذا كانت تسعى بجد للنصر ، وتبحث عن الزعيم الذى يثأر لها ، وفى هـذا الجو ظهر هتلر ، والتفت ألمانيا حوله باعتباره القائد والرائد الذى يسترد للبلاد مكانتها ، وفى سنة ١٩٣٣ وصل هتلر الى الحكم فأصبح رئيس الوزارة ؛ وفى سنة ١٩٣٤ أصبح رئيس الدولة بالاضافة الى رياسة الوزارة .

وبينما كانت ألمانيا تتجه نحو القوة كان العالم يعانى من الأزمة المالية الطاحنة التى حلت به ابتداء من سنة ١٩٢٩ ، وقد أعاد هتلر سبب هذه الأزمة الى جشع اليهود واستبدادهم الاقتصادى ، فاتخذ اليهود مختلف الحيل للايقاع به ، وواجه هتلر بجسارة خيانات اليهود ، كما واجه سطوة الحلفاء التى نكلت بألمانيا عقب هزيمتها فى الحرب العالمية الأولى ، فاتجهت سياسته الى التخلص من معاهدة فرساى وبالتالى إلى إضعاف فرنسا وأغضت بريطانيا الطرف عن تصرفاته الأولى ، ولكنها سرعان ما أحست بالتزامها بمواجهته ، فاتجهت الى تسوية أمورها مع مصر حتى تتفرغ الى هذا الصراع الذى بدأ يهدد العالم فى الثلاثينات .

وقبل أن نواصل حديثنا عن أثر التهديد بالحرب العالمية الثانية فى العلاقات بين مصر وبريطانيا نستكمل حديثنا عن أهم الخطوات التى قادت لهذه الحرب وعن أهم معالمها :

— فى سنة ١٩٣٥ أعاد هتلر التجنيد الاجبارى ، واستعاد اقليم السار .

— فى سنة ١٩٣٦ أعاد تحصين منطقة الراين ، وبدأ يطالب باسترجاع المستعمرات الألمانية .

— فى سنة ١٩٣٨ نجح هتلر فى ضم النمسا ، واستعد لمهاجمة تشيكوسلوفاكيا حتى اضطرت الى أن تتنازل لألمانيا عن الأقاليم التى طالب بها هتلر .

— وفى سنة ١٩٣٩ ضمت ألمانيا ما تبقى من تشيكوسلوفاكيا .

— وفى سنة ١٩٣٩ عقد هتلر ميثاق عدم اعتداء مع روسيا فى ٢٣ أغسطس ثم اندفع يغزو بولندا ، وكان ذلك مطلع الحرب ، اذ أعلنت انجلترا وفرنسا الحرب عليه .

وكانت البلاد العربية وبخاصة مصر وليبيا مسرحا من مسارح الحرب العالمية الثانية ، فقد كانت ليبيا خاضعة لايطاليا وكانت ايطاليا تخوض الحرب بجانب ألمانيا ، وكانت مصر خاضعة لانجلترا وقد زحفت الجيوش الايطالية الألمانية بقيادة روميل من ليبيا فاحتلت بعض المواقع المصرية ، وحققت هذه القوات ألوانا من الانتصارات فى سنى الحرب الأولى سواء فى الميدان الأوربى أو فى الشمال الافريقى ، وفى سنة ١٩٤١ بدأت الحرب تأخذ منحنى جديدا ، ففى هذا العام هاجم هتلر روسيا ، وحقق أشواطا من النصر فى الفترة الأولى ، ولكن الميدان الروسى شغله عن استمرار الانتصار فى الشمال الافريقى ، ويعتبر شهر نوفمبر ١٩٤٢ بدء تحول بالنسبة للحرب فى المنطقة العربية ، ففى هـذا الشهر بـدأ روميل فى التقهقر غربا أمام زحف مونتجمرى ، واستمر مونتجمرى فى الزحف حتى استعادت قوات الحلفاء بقيادته مرسى مطروح واتجهت تحتل طبـرق فبنى غـازى ، فمصراته ، فطرابلس ، واستمر تقهقر القـوات الألمانية الايطالية الى تونس ، ومنها أبحرت هذه القوات المهزومة الى أوربا .

وفى نفس الوقت كانت قوات ألمانيا تواجه هزائم متتالية فى الميدان الروسى والميدان الأوربى ، وفى سنة ١٩٤٥ أطبقت قوات الحلفاء على ألمانيا ودمرتها ، وقضت على جيوش النازى وانتحر هتلر .

ولنعد الآن لنتبين أثر التهديد بهذه الحرب على العلاقات بين مصر وبريطانيا :

الجبهة الوطنية — مايلز لامبسون ١٩٣٦ :

(تكونت الجبهة من ٨ وفديين و٦ من الأحزاب الأخرى برياسة مصطفى النحاس)

تكونت هذه الجبهة سنة ١٩٣٥ نتيجة للثورة الوطنية التى قـام بها الشبان واستجاب لهم الزعماء ، وفى الوقت نفسه كانت بريطانيا فى

حاجة لاتمام معاهدة مـع مصر لتضمن نوعا من الاستقرار فى هـذه البلاد ، فقد كانت نذر الحرب العالمية الثانية تظهر ، وكانت ايطاليا فى الحبشة تزأر ، وكان فؤاد يئن من المرض وليس له وريث رشيد يقف عونا للاستعمار بعد وفاته ، وفى هذا الجو تمت معاهدة ١٩٣٦ وأهم نصوصها :

— المادة الأولى : ينتهى احتلال مصر عسكريا •

— المادة السابعة : تقدم مصر لبريطانيا جميع المساعدات اللازمة داخل حدودها فى حالة الحرب أو خطـر الحرب أو قيام حالة دوليـة مفاجئـة •

— المادة الثامنة : موافقة مصر على احتفاظ بريطانيا بقوات عسكرية فى منطقة القناة لا يتجاوز عددها عشرة آلاف جندى و ٤٠٠ طائرة حتى يتفق الطرفان على استطاعة الجيش المصرى حراسة القناة دون عون •

— المادة الحادية عشرة : الحكم الثنائى يعود للسودان وتكـون هجرة المصريين اليه دون قيد •

— المادة الثانية عشرة : المسئولية عن أرواح الأجانب وأموالهم من اختصاص حكومة مصر •

— المادة الثالثة عشرة : نظام الامتيازات لا يلائم روح العصر وينبغى الغاؤه •

— المادة السادسة عشرة : مدة المعاهدة عشرون عاما ، ويمكن اعادة النظر فيها اذا طلب أحد الطرفين ذلك بعد هذه المدة ، كما يمكن اعادة النظر فيها بعد عشر سنوات اذا اتفق الطرفان على ذلك •

وكانت هذه المعاهدة خطوة على الطريق ، ومن مميزاتها البارزة الغاء

الامتيازات الذى تم فى مونتريه فى العام التالى بناء على هذه المعاهدة ، وتخفيف قسوة الاحتلال ، وان ظل جاثما ، وفى مسألة السودان تقرر العودة لاتفاقيتي يناير ويوليو سنة ١٨٩٩ •

بعد الحرب العالمية الثانية :

جاءت الجولة الثالثة للمفاوضات بعد الحرب العالمية الثانية بسبب التغيير العميق فى الحياة العالمية الذى أحدثته هذه الحرب ، فطالبت مصر بالجلاء التام عن مصر والسودان ، واتخذت مصر فى هذا الشأن الخطوات التـــالية :

ـ مذكرة قدمها النقراشى فى ١٩٤٥/١٢/٢٠ الى الحكومة البريطانية ، ولكن هذه تمسكت بمعاهدة ١٩٣٦ •

• ـ مفاوضة بين صدقى الذى تولى الوزارة بعد النقراشى وبـين بيفن ، انتهت الى المشروع الـذى يُعرَف بالدفاع المشـترك ، ولكن الشعب ثار على هذا الارتباط وأسقط الوزارة والمشروع •

ـ قررت الحكومة السعدية التى جاءت بعد صدقى عرض القضية على مجلس الأمن ، **وراح النقراشى الى المجلس حيث صرخ فى وجـه الانجليز قائلا إنهم قراصنة** ، ولكن مجلس الأمن لم ينصف مصر لوقوعه تحت سيطرة الانجليز والأمريكان وأوصى بمفاوضة مباشرة بين الطرفين ، ولعل مما أضعف جانب النقراشى أن حزب الوفد أبرق للمجلس بعـدم شرعية المتحدث **باسم مصر** •

ـ وجاءت حكومة الوفـد للحكم بالانتخابات الحرة التى أجراها حسين سرى ، فبدأت المفاوضات من جديد بين صلاح الدين وبين بيفن ، وطال أمدها دون نتيجة ، فاضطرت الوزارة الوفدية الى اتخاذ موقف فردى ، فأعلنت سنة ١٩٥١ قطع المحادثات وانهاء العمل بأحكام معاهدة ١٩٣٦ وباتفاقيتى ١٩ يناير و ١٠ يوليو ١٨٩٩ الخاصيتين بالسودان ،

وتعديل مواد الدستور بما يتفق ووجهة النظر المصرية ، وبناء على هذا ألغيت جميع الاعفاءات المالية التى كانت ممنوحة للسلطات العسكرية البريطانية ، وامتنعت الجمارك عن بذل التسهيلات الجمركية ، كما توقفت السكك الحديدية عن نقل مهمات الجيش البريطانى ، ومنع هبوط الطائرات العسكرية البريطانية بالمطارات المصرية ••• وقد كان من الممكن أن تنجح هذه الخطوة ، ولكن مما يؤسف له ان الأحزاب الأخرى لم تقف موقفا وطنيا فى هذه الأزمة التى وقفت فيها مصر وجها لوجه أمام المستعمر الغاصب . وعلى اثر الأحداث التى تلت الغاء المعاهدة تأزمت الأمور كما شرحنا من قبل بين الانجليز والمصريين وأقيلت الوزارة بعد حريق القاهرة ، وجاءت وزارات القصر مرة أخرى ، فلم يكن لها من فضل إلا أن قربت قيام الثورة التى حملت عبء المرحلة الأخيرة فى العلاقات بين مصر وبين بريطانيا ، وسنشرح هذا الجزء فى حينه •

الأحـزاب :

هل كانت فى مصر أحزاب ؟

فى الحق أن الانتخابات المتعددة التى جرت بمصر فى جو من الحرية أثبتت أن جماهير الشعب تقف حول حزب واحد هو حزب الوفد ، وقد اتضح ذلك من أول انتخابات جرت عقب صدور دستور سنة ١٩٢٤ وتكرر ذلك كلما أجريت انتخابات حرة سواء تلك التى أجراها عدلى يكن أو على ماهر أو حسين سرى •

وقد بلغ من ارتباط الشعب بحزب الوفد أن مرشحيه كانوا ينجحون ضد رؤساء الوزارات فى الدوائر المختلفة ، بل حدث فى دائرة المراغة شىء جدير بالذكر هو أن هذه الدائرة كان بها بعض الشيوخ والعلماء الأجلاء من غير الوفديين ، وكانوا يظنون أن تكون الدائرة مؤيدة لهم ، فرشح سعد زغلول ضدهم شابا مسيحيا هو « بطرس حكيم » وكان ذلك قمة

التحدى ، ونجح مرشح سعد وسقط منافسه ، فقد قال سعد : ان المسيحيين لا بد أن يكون لهم ممثلون فى البرلمان ، وقد أخترت هـذه الدائرة ليمثلها أحد المسيحيين ، وأيد الشعب اتجاه زعيمه (١) .

وبجوار حزب الوفد كانت هناك جماعات أسمت نفسـها أحزابا وليست فى الحق إلا تكتلات خلقها القصر وأمدها بعونه ، ليصارع بها حزب الجماهير ، وهى عبارة عن أسر وأفراد يجمع بينها كرهها لحزب الأغلبية واتجاهاته وقياداته ، ويجمع بينها خضوعها للقصر واستمداد السلطان منه ، وليس لها حول سوى ذلك ، وكان بعضها أداة فى يد القصر للتنكيل بالشعب ، وكانت هذه الأحزاب تدرك بوضوح أن وسيلتها الى الحكم هى ارضاء السيد الرابض فى « عابدين » ، فاصطنعت الوسائل لارضائه والخضوع اليه ، وكان هذا السيد يدرك أن وسيلته للتنكيل بالشـعب هو اصطناع هذه الأحزاب الزائفة ، ولكن ذلك لم يحتج منه الى جهد ، فهذه الأحزاب كانت نفعية تهرع اليه لتنال من فتاته كلما دعاها .

ونقرر بدقة وعمق من تتبع الأحداث أن أحزاب القصر هـذه لم ينجح فى الانتخابات فيها فرد واحد بحكم انتمائه اليها ، أما القلة القليلة التى كانت تنجح فان نجاحها كان بسبب مكانة شخصية أو نفوذ خاص ، وكان الوفد يرشح أحيانا بعض شبابه فى دوائر باشوات أحزاب القصر ، وكان الباشوات يبذلون أقصى الجهد وأغلى المال لكي ينتصروا عـلى هؤلاء الشبان الذين لم تكن لهم بضاعة إلا الانتماء لحزب الوفد .

وشىء آخر عمد اليه الملك لينال من حزب الأغلبية ، ذلك هو اغراءاته ووسائله المتعددة لإحداث فرقة فيه وخلق عمليات انفصال به ، وربما كان نجاح فاروق فى هذا الميدان أقوى من نجاح أبيه ، ففى عهده انسلخت

---

(١) رواية الأستاذ ابراهيم فرج الوزير الوفدى سابقا .

قوى كبيرة من الوفد متمثلة فى الهيئة السعدية ، وفى الكتلة الوفدية ، وفى نجيب الهلالى ومن التف حوله ؛ وأغرى فاروق مكرم عبيد الذى طالت صحبته للنحاس باشا ، فأخرج « الكتاب الأسود » يشن به حربا على من كان بالأمس زعيمه ورئيسه ، ولكن هذه الحرب كانت فاشلة وانفض عنه الناس .

ويتجه خصوم الوفد الى نقده ذاكرين أنه ضم الى جموعه رجال الإقطاع وأنه من الصعب التوفيق بين أمانى الشعب ومصالح الاقطاع ، ويقولون إن أمجاد الوفد كانت قائمة على موقفه الأبى من القصر ، ولكنه فى السنين الأخيرة عمد — كما قلنا من قبل — الى سياسة الملاينة رجاء أن يرضى الملك ، ولكن الملك ما كان ليرضى عن قوى تدعمها الشعوب ، وأخيرا فأحزاب الأقلية تهاجم استجابة الوفد للدعوة لتولى الحكم فى ٤ فبراير سنة ١٩٤٢ اثر الانذار الانجليزى الذى بعث به مايلز لامبسون للملك ونصه : « إذا لم أسمع قبل الساعة السادسة مساء أن النحاس باشا قد دعى لتأليف وزارة ، فان جلالة الملك فاروق يجب أن يتحمل ما يترتب على ذلك من نتائج » . ويتساءلون : لماذا جاء الوفد الى الحكم فى هذه الظروف ؟

وقد انتهز خصوم الوفد هذه المواقف ليشهروا به ، ولكن رجال الوفـد يردون هـذه الاتهامات ويؤكدون أن الأثرياء لم يكونوا قط عقبة فى طريق أى اصلاح ، وأن الزعامة الوفدية لم تخضع قط للقصر ، وسنرى فيما بعد أن مصطفى النحاس ظل حتى آخر دقيقة قبل الثورة وهو يقف موقف المناضل من القصر وأعوانه ، كما يذكرون أن أحـزاب الأقلية تولت الحكم عدة مرات دون تأييد إلا مـن الانجليز وأذنـاب الانجليز ، فكيف ساغ لهم أن يتكلموا عن هذا الموضوع ؟ ثم إذا طلب ممثل الأمة ليتولى حق الأمة هل كان له أن يتنحى عن واجبه ؟

حـادث ٤ فبراير :

وهذا الحادث جدير بكلمة تفصيلية ، فان أعـداء الوفد لا يزالون يثيرونه ، معتقدين أنهم بذلك قد أمسكوا بسلاح يطعنون به الحـزب الحقيقى الوحيد الذى عرفه تاريخ مصر المعاصر • وأحدث ما نعرفه من ذلك صيحة « جريدة مصر » فى يناير ١٩٧٨ وكانت هـذه الجريدة تمثل حزبا قصير العمر هو حزب مصر العربى الاشتراكى ، وكأن هذه الصيحة كانت لعنة ضد الحزب صاحب الجريدة ، فلم تمض الا شهور قلائل حتى هرول أعضاء الحزب جميعا لينضموا الى الحزب الوطنى الديمقراطى الذى كونه الرئيس أنور السادات فى نفس العام ، ونظر رئيس حزب مصر « ممدوح سالم » حوله فلم يجد أحدا من نوابه وأتباعه وشعبيته التى ادعاها فترة من الزمن ، فاستقال من رياسـة الحزب ، والتف حزبه فى طيات النسيان والظلام ، واختفت « جريدة مصر » الى غير رجعة ، وعلى كل حال فسنتكلم عن أحزاب عهد السادات فى الجزء العاشر من هـذه الموسوعة •

ماذا قالت جريدة مصر ؟

عندما أعلن قيام حزب الوفد الجديد فى يناير سنة ١٩٧٨ كتبت جريدة مصر مقالها الافتتاحى بعنوان : عودة حزب ٤ فبراير •

واحتوى هذا المقال نفس العبارات القديمة التى قيلت سنة ١٩٤٢ مثل : عاد الوفد على أسنة الرماح البريطانية وغيرها من العبارات الجوفاء •

ومن الواضح أن القصر كان قد تردى فى القاع ، وساءت سمعته كثيرا ، وكان يدير الأمر به عصابة من الدمى تستجيب لها وزارات الأقليـات وكان الانجليز فى فترة الاحتلال لمصر ضالعين مع القصر ، فالانجليز ، والملك كانوا أعداء للشعب ويخافون القوى الشعبية ، ولذلك كـان الملك بموافقة الانجليز يلجأ للأحزاب الصناعية ، أحزاب الأقليات ليكون منها

الوزارات ، وكانت هـذه الوزارات بالتالى تعمل بجد لارضـاء القصر والانجليز والضغط على كل الاتجاهات الشعبية •

ولكن الإنجليز فى ظروف الحرب أو التهديد بهـا ، كانوا يحتاجون لتهدئة الشعوب ، ويخافون ثوراتها ، ومن هنا كانوا يختلفون مع الملك فى هـذه الظروف ويحرصون على وزارة ممثلة للشـعب تمثيلا حقيقيا لإرضاء الشـعوب •

وفى يونيو سنة ١٩٤٠ كان على ماهر رئيسا لوزارة مصر ، وكانت ايطاليا قد دخلت الحرب العالمية حديثا ، وكان الانجليز يشكون فى ولاء على ماهر وبخاصة فى تلك الظروف الحرجة ، فتقدم الانجليز يطالبون الملك بمطلبين : أولهما تنحية رئيس وزرائه على ماهر عن الحكم لشكهم فى ميوله مع ألمانيا وايطاليا وثانيهما تشكيل حكومة صديقة لبريطانيا تتولى تنفيذ المعاهدة نصا وروحا ، واستجاب فاروق للإنذار البريطانى فقدم على ماهر استقالة حكومته وبادر الملك بتكليف أحد كبار المستقلين من أصدقاء الانجليز وهو حسن صبرى بتشكيل حكومة جديدة فى ٢٧ يونيو عام ٤٠ كانت تضم ستة من الوزراء المستقلين وعشرة وزراء تمثل أحزاب الأقلية : ٤ من السعديين و ٤ من الدستوريين وممثل واحد لكل من الحزب الوطنى وحـزب الاتحاد •

وهذا الموقف هو الذى تكرر تماما فى فبراير سنة ١٩٤٢ ، فقـد ضعفت وزارة حسين سرى — التى جاءت للحكم سنة ١٩٤٠ عقب وفاة حسن صبرى — ولم تستطع مواجهة الأحداث وبخاصة عندما زحف روميل تجاه حدود مصر ، وهتف بعض الشبان المصريين : « تقـدم يا روميـل » فحينئذ تقدم الانجليز بطلب الى الملك أن يستدعى النحاس باشا لتأليف وزارة شعبية ليستطيع أن يضمن تأييد الشعب وعـدم ثورتهم عـلى النظام القائم •

ولكن الملك رفض ذلك لكراهة شخصية للنحاس باشا ، ولم يقف

الموقف الذى وقفه قبل ذلك بعامين ، وكان من نتيجة ذلك أن ساق الانجليز الدبابات والعربات المدرعة البريطانية لتضرب الحصار حول قصر عابدين فى الساعة التاسعة مساء يوم ٤ فبراير ٤٢ ؛ وبعد أن ألقى السفير على فاروق بيانا حمله فيه مسئولية انتهاك المادة الخامسة من المعاهدة قدم اليه وثيقة تنازله عن العرش كى يوقعها وعندئذ انهار فاروق وطلب من السفير فى ذلة واستجداء أن يمنحه فرصة أخرى وطلب الاجتماع بزعماء الأحزاب ، فاجتمعوا فى القصر ؛ ووضع الملك الأمر بين أيديهم وتركهم ، وطلب زعماء الأحزاب من النحاس أن يؤلف وزارة قومية تمثل فيها كل الأحزاب فرفض النحاس ليقينه أن مثل هذه الوزارات لا تنجح ، وكان عجيبا أن يكون تأليف النحاس باشا لوزارة قومية مقبولا لدى الأحزاب ، أما تأليفه وزارة وفدية فيعد مجيئاً للحكم على أسنة رماح الانجليز ! !

لقد كان عزل الانجليز للملك فرصة لدى الوفد للقضاء على الملك الضال الذى حاول النحاس باشا خلعه سنة ١٩٣٧ ولكن الانجليز حموا الملك الى أن عزلته ثورة ٢٣ يوليو بعد ذلك ، ونعتته بأقذع النعوت ، ولكن الوفد لم يستغل رغبة الانجليز سنة ١٩٤٢ لعزل الملك لسببين مهمين :

أولهما — أن خلع الملك فى تلك الظروف على يد الانجليز والحرب العالمية فى أوج لهيبها كان سيضع مصر فى موقف يخشى منه .

ثانيهما — إن فاروق تضرع للنحاس باشا أن ينقذ الموقف المصرى **ويؤلف الوزارة ، وقال له : إنك الوطنى الوحيد ، وإن قبولك الحكم تضحية منك تضيفها الى تضحياتك السابقة التى يعرفها الجميع . وقد أثبت النحاس باشا هذه العبارات فى كتاب تأليف الوزارة ، ونصها :**

... وقد أعربتم جلالتكم المرة بعد المرة والكرة بعد الكرة عن ثقتكم فى شخصى وأثبتم عنى انكار الذات ، وذكرتم أن هاتين الصفتين الكريمتين يقضيان علىّ أن أتقدم لإنقاذ الموقف وأتحمل مسئولية تطورات لم يكن لى يد فيها .

فلما انكشفت الغمة عن الانجليز وتراجع الألمان ، وانحسر الضغط الانجليزى عاد الملك من جديد الى أحزاب الأقلية التى كانت دائما تتجاهل الشـعب وتعيش فى رحاب القصر والانجليز ، فألفت هـذه الأحزاب الوزارات ، وراح زعماؤها يرمون الأبرياء بما فيهم من عيوب ومثالب .

عود الى الحديث عن الأحزاب :

تحدثنا آنفا عن الأحزاب فى عهد الدستور لنبرز أنها كانت تتمثل فى اتجاهين : اتجاه الأمة ويمثله حزب الوفد ، واتجـاه القصر وتمثله أحزاب متعددة لم يكن لها هم إلا الخضوع للقصر الذى كان بالتالى خاضعا للانجليز .

وإذا عدنا الى ما قبل الدستور وجدنا مصر عرفت الأحزاب أيضا ، ومن أشهر الأحزاب آنذاك حزب الأمة الذى أنشىء سنة ١٩٠٧ برياسة حسن عبد الرازق باشا والذى كان يهادن دولة الاحتلال ويدعو للاستقلال الذاتى ، وكان لهذا الحزب صحيفة تسمى « الجريدة » شغل لطفى السيد رياسة تحريرها .

ومن أحزاب ذلك العهـد كذلك حزب الإصلاح الذى أسسه سـنة ١٩٠٧ الشيخ على يوسف ، وكانت صحيفة « المؤيد » لسان حاله ، وكان ينحاز للخـديوى .

وبعـد هذين الحزبين نورد تعريفاً بأهم الأحزاب الأخرى وهى :

ـ الحزب الوطنى : أسسه مصطفى كامل سنة ١٩٠٧ .

ولمصطفى كامل تاريخ وطنى حافل أشرنا اليه آنفا ، ونضيف هنا أنه كان شابا ثائرا ، ظهر نشاطه السياسى وهو طالب بالجامعة ، وقـد خدمته الظروف فدفعته الى الزعامة وهو فى مطلع الشباب ، فإن العثمانيين كانوا يتطلعون الى عودة نفوذهم بمصر ، ويبحثـون عن قيـادة بمصر

تؤيدهم ويؤيدونها ، وهنا التقى بهم مصطفى كامل فأنعموا عليه برتبة الباشوية ودفعوه الى الزعامة ، وبالتالى كان مصطفى كامل يدعو للتعاون مع الامبراطورية العثمانية ، وفى نفس الوقت كان سلطان مصر (عباس حلمى) شابا يناهض الانجليز ويصارع بقاءهم فى البلاد ، فأيد مصطفى كامل كذلك ، وسقط الاستعمار الانجليزى سقطته الكبرى فى حادثة دنشواى الأثيمة ، فانتهزها مصطفى كامل فرصة وراح بالكلمة المقولة والكلمة المكتوبة يهاجم الاستعمار الانجليزى بمصر ، ومات مصطفى كامل سنة ١٩٠٨ وهو فى مطلع الشباب أى فى الرابعة والثلاثين من العمر وآلت رياسة الحزب الى محمد فريد الذى جاهد جهادا صادقا ضد الاستعمار حتى مات غريبا سنة ١٩١٩ ، وبوفاته أو قبل ذلك بفترة انتهى العصر الذهبى للحزب وإن ظل قائما من الناحية الاسمية ، وقد تعاون زعماء الحزب الوطنى بعد ذلك مع أحزاب الأقلية وقنعوا بالفتات ورحبوا بكراسى الحكم .

بقى عن مصطفى كامل وعن الحزب الوطنى نقطتان مهمتان توضحان بعض زوايا التاريخ .

أولاهما : لولا الظروف التى ساعدت مصطفى كامل ، والتى ذكرناها من قبل ما استطاع أن يصل لما وصل اليه من صيت فى هذه السن المبكرة ، وبخاصة أنه لم توجد نتائج ذات بال لجهوده ، ثم إن عبد الناصر بعد ثورة ١٩٥٢ عمد الى إغفال دور حزب الوفد وزعمائه ، وجماعة الإخوان المسلمين وزعمائهم ، وراح ينفخ فى دور مصطفى كامل والحزب الوطنى ، وكان ذلك تنفيذاً لسياسته التى حاول بها القضاء على كل القوى الحقيقية بالبلاد .

ثانيهما : آلت زعامة الحزب الوطنى الى حافظ رمضان منذ سنة ١٩٢٣ .

ولن نتحدث عن حياة هذا الرجل الشخصية ، مع أن بها ما يمس

حياة مصر ، ولكنا نروى حادثة واحـدة توضح كيف كان الرجل خـالى الوفاض فى مجال الثقافة الإسلامية ، فقـد روى لى الأستاذ نجيب المطيعى حفيد الشيخ محمد بخيت المطيعى مفتى الديار المصرية سابقا أنه سمع حافظ رمضان يقرأ آية من القرآن الكريم كانت ضمن خطاب سيلقية ، وحرّف حافظ رمضان الآية وهو يقرؤها ، فاندفع الأستاذ نجيب يصحح له خطأه ، فضحك حافظ رمضان ضحكة عالية طويلة ، ولمـا سأله الأستاذ نجيب عمـا يضحكه قال له : إنك تردنى فى حماسـة وغضـب كأننى أخطأت فى البخارى !!

يالله !! كيف صلَحَ مثل هذا الرجل لمثل هذه الزعامة فى مصر ؟

— حزب الوفد : تأسس فى ١٩١٨/١١/١٣ مع صحوة الشعب فى ثورته الكبرى بزعامة سعد زغلول فمصطفى النحاس ، وظل يمثل الأغلبية حتى حلت الأحزاب ، وسنتحدث بعد قليل عن شخصية سـعد زغلول وشخصـية مصطفى النحاس .

— حزب الأحرار الدستوريين : أوجده عدلى فى أكتوبر سنة ١٩٢٢ ويقول عنه أحـد الكتاب « كان أعضاؤه فى أكثر مواقفهم يعملون للوصول الى الحـكم بأى ثمن ، وعلى حساب مصلحة البلاد العليا ، وهو الحزب الذى انتهك حرمات الدستور واستباح مقدساته ، وقال أحد رؤسـائه « عبد العزيز فهمى » عن الدستور إنه ثوب فضفاض ، وجاء للحزب رئيس آخر هو محمد محمود الذى مثّل على مسرح السياسة المصرية الدكتاتورية الحمقاء ، فأطلق على نفسه « ذا القبضـة الحديدية » وأوقف العمـل بالدسـتور » (١) .

وقـد تحدث عبد الرحمن الرافعى أحاديث طويلة عن الوفـد وعن

---

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين ص ٦٨ — ٦٩ .

الأحرار الدستوريين ، وكان — كما يقول الأستاذ شفيق غربال — يعامل الوفديين أحيانا بالعتب وأحيانا بالإنكار وأحيانا بالرضـا ، ولكنه لم يغير رأيه فى الدستوريين أبداً ، فكانوا فى نظره دائماً وصوليين ونفعيين ورجعيين (١) .

— حزب الاتحاد : وقد أنشأه القصر سنة ١٩٢٥ برياسة حسن نشأت كبير الأمنـاء بالقصر ، وكان من أعضـائه على ماهر .

— حزب الشعب : وقـد أنشأه صدقى سنة ١٩٣٠ ، وكان عدواً للشـعب على الرغم من هـذه التسمية .

— الحزب السعدى : ألفه أحمد ماهر والنقراشى بعد انشقاقهما على الوفـد سنة ١٩٣٨ .

— حزب الكتلة الوفدية : ألفه مكرم عبيد بعـد انشـقاقه على الوفـد سنة ١٩٤٣ .

وهناك قوى ادعت أنها مستقلة ، وكان معنى الاستقلال عدم الانتماء الى الأحزاب رسمياً ، وإن كانت تميل الى كراهية الوفد والتعـاون مع سواه على تفاوت بين الأشخاص ، وأبرز هـذه القوى على ماهر بعـد استقالته من حزب الاتحاد وحسين سرى وحسن صبرى .

---

(١) عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة فى عدة أمكنة ، وشفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية ص ١٥ .

سعد زغلول ومصطفى النحاس

فى حديثنا عن الحركة القومية ونتائجها ، وعن المنجزات التى حققتها هذه الحركة فى الداخل والخارج ، وفى حديثنا عن الأحزاب وعلاقتها بالشعب وبالقصر يقفز لهذه الدراسة شخصان من العمالقة ، منحا مصر كل الجهد وكل العرق ، ونالا من مصر كل الود وكل الولاء ، هذان هما سعد زغلول ومصطفى النحاس ، ومن عجب أن هذا وذاك لم ينجبا أطفالا وكأنهما استعاضا بالأولاد جماهير الشعب التى أخلصت لهما أكثر من الأولاد والأحفاد ، ومن عجب كذلك أن يموتا فى تاريخ واحد هو الثالث والعشرون من أغسطس (سنة ١٩٢٧ للأول وسنة ١٩٦٥ للثانى) وكأنهما قنعا بذكرى واحدة لهما تظل تجمع بين اسميهما وهما فى عالم الخلود كما جمعت الدنيا بينهما فى ميدان كفاح واحد ، ويلتقى الاثنان كذلك فى ظاهرة قل من قنع بها من القادة والزعماء ، وهى الرضا بالكفاف فى حياتهما حتى اذا ماتا لم يتركا شيئا من المال ظاهرا أو مستترا ، بل أن الزعيم مصطفى النحاس استبدل بجانب من معاشه مالا كان فى مسيس الحاجة اليه كما قال مريده عبد الفتاح حسن (١) .

وكان يقال عن سعد إنه من يوم ١٣ نوفمبر سنة ١٩١٨ حتى وفاته سنة ١٩٢٧ كان تاريخه الشخصى تاريخ مصر (٢) ، وذلك اسمى ما يوصف به زعيم يعترف له الشعب بالتقدير والحب والولاء ، ويمكننا أن نقول عن خليفته الزعيم البطل مصطفى النحاس إنه حمل اللقب بكفاءة نادرة مع سعد ، واستقل بالعبء بعد سعد بنفس النضج والإخلاص والمواهب الممتازة ، وارتبط به تاريخ مصر منذ وفاة سعد سنة ١٩٢٧ حتى قيام الثورة سنة ١٩٥٢ ، وقد بقى هذه المدة الطويلة عملاقا هائلا لم تضعفه الأحداث ولم تنل منه مؤامرات الأعداء ، وظل كالطود الشامخ ، يلتف حوله الشعب كله ، ويعيش هو للشعب كله ، ويصفه الباحثون (٣) أنه

---

(١) الأخبار فى ١٩٧٥/٨/٢٤ .

(٢) انظر ترجمة سعد زغلول فى الموسوعة العربية الميسرة .

(٣) مقال المصور فى ١٩٧٥/٩/١٢ .

كان خلال هذه المدة قائد مصر وضميرها ، وأنه بلغ الذروة فى الشجاعة والاقدام والتضحية بكل شيء من أجل مصر وأبناء مصر .

ومن أوجه التشابه بين الزعيمين أنهما عملا بإخلاص لتقوية الروح الوطنية بين أفراد الشعب ، لا فرق بين مسلم ومسيحى ، وبذلك لم يتيحا فرصة للمستعمر ليتخذ من الدين وسيلة للتفريق بين الأمة ، واذا استعرضنا مريدى سعد ومصطفى النحاس وجدنا نخبة طيبة من المسيحيين كانت تحتل الصفوف الأولى بالحزب مثل سينوت حنا ومكرم عبيد وابراهيم فرج ...

وعندما قامت الثورة واعتزل النحاس الحياة السياسية أو أرغم على ذلك ، بقيت الروابط المتينة بينه وبين مريديه ومؤيديه ، وكانت أحاسيس الولاء تنتظر الفرصة لتعلن عن نفسها ، وللأسف جاءت الفرصة ولكنها كانت مريرة ، كانت وفاة البطل سنة ١٩٦٥ بعد اختفاء زاد عن ثلاث عشرة سنة ، ولكن هذه السنين الطوال ، لم تقو على أن تزرع النسيان فى نفوس الناس على الرغم من أن الأوامر طيلة هذه المدة كانت تمنع ذكر اسمه بالصحف ، وعلى الرغم من المحاولات التى أرادت تشويه اسمه أو النيل من سمعته ، وما إن أذيع خبر الوفاة حتى انطلق الشعب غير مكترث بالوعيد وبقوى الشر التى كانت تحكم البلاد آنذاك ، وراح يحمل الجثمان الطاهر ، ويهتف بالشكوى الى الله مما يعانى بعد أن أبعد الزعيم الحقيقى عن الشعب الذى عاش معه واليه ، وكان مريدو النحاس يفعلون ذلك وهم يتوقعون الضر من قوى الشر ، وقد وقع الضر فعلا فقبض على مئات منهم وظل بعضهم فى السجن لهذا السبب عدة سنوات حتى مات (١) .

وبعد وفاة سعد وجد الشعب الفرصة ليعلن لهذا الزعيم عن العرفان بالجميل ، فإن حزب الوفد حمل باسم الشعب هذه المسئولية ، فأقيم

(١) انظر نماذج من هؤلاء فى كتاب « مصر فى حربين » للمؤلف ص ٦٦ .

للزعيم ضريح عظيم ، وحـُـوِّل منزله الى متحف ، وأقيمت له التماثيل الشاهقة فى أعظم الأمكنــة بالقاهرة والاسـكندرية •

ولكن مصطفى النحاس اختفى عن ميدان السياسة فى عهد عبد الناصر حيث كانت شريعة الغاب هى شريعة مصر ، وحيث غاب القانون وطالت غيبته ، وحيث كان من مظاهر العصر أن يـُعْتَدَى على كل الكفاءات ، وأن يسدل الستار على الماضى ، وأن تظهر مصر وكأنها ولدت من جـديد بدون تاريخ سابق أو جهود قامت بهـا الأجيال الماضـية • وعلى هذا لم ينل مصطفى النحاس حقه ولا جزءا منه ، بل برزت محاولات أشرنا لهـا من قبل لتغمز الرجل ولتنال منه ، وعلى هـذا فحق مصطفى النحاس علينا حق مزدوج أن ننصـفه من الظـلم ، وأن نحيطه بمـا يستحق من أضـواء واعتراف بالجميل •

وبالإضافة الى أوجه التشابه التى أوردناها بين الزعيمين ، هنـاك تشابه فى السلوك ، وهـذا التشابه يرويه لنـا الأستاذ محمد كامل البنا سكرتير مجلس الوزراء فى عهـد مصطفى النحاس ، فهو يقول : سألت النحاس باشا كيف تقابلون الملك وكيف تسلمون عليه ؟ فقال : إن جميع رؤساء الوزرات والوزراء ما عـدا المرحوم سـعد زغلول وأنا يسلمون عليه ويقبلون يده ، أما سعد وأنا فتعودنا مع الملك فؤاد والملك فاروق أن ننحنى انحناءة بسيطة ونسلم عليه دون تقبيل يده وكذلك تعودنا فى كتاب الرد على التكليف بتشكيل الوزارة أن نكتب له (يا صـاحب الجـلالة) بينما يكتب جميع الرؤساء سوانا (مولاى صاحب الجـلالة) •

وكان سعد زغلول شـديد الاعتزاز بالشـعب وبمكانه منـه قائداً وزعيما ، كما كان شديد التمسك بالحقوق التى كفلها الدسـتور ، فعقب الانتخابات البرلمانية الأولى فى يناير سنة ١٩٢٤ التى أجراها يحيى ابراهيم رئيس وزراء تلك الفترة ورسب فيها نفسه أمام أحـد مرشحى الوفد ، وحصـل الوفد على أغلبية سـاحقة ، عقب ذلك أصـدر الملك فؤاد فى ١٧ يناير أمراً لزعيم الوفد سعد زغلول بأن يؤلف الوزارة الجـديدة ،

ولكن الملك لم ينس أن يضع فى أمر التكليف غمزة لا تناسب حقوق الأغلبية ، فذكر أن اختيار سعد لتأليف الوزارة جاء عن صدق ولاء سعد وعظيم خبرته وحكمته وسداد رأيه فى تصريف الأمور . . . . . ولكن سعد فطن للأمر ، ولم تخدعه أساليب المدح فى شخصه ، فكتب فى خطابه للملك الذى ألّف به الوزارة أن الانتخابات العامة أظهرت بكل جلاء إجماع الأمة على التفافها حول الحزب الذى يرأسه وأن تأليفه للوزارة التى عهد له بها قد نبع من إرادة الأمة .

ولما جاء موضوع الشيوخ الذين يعينون نشأ نزاع جديد تمسك فيه سعد كما تمسك فيه النحاس من بعده فقد رأيا أن حق تعيين الشيوخ ليس للملك وحده ، بل له من خلال الوزارة .

وابتداء من وزارة سعد التى أشرنا اليها آنفاً طرأ تقليد جديد على العلاقات بين بريطانيا ومصر ، فقد كان من المتبع قبل ذلك أن يبادر رئيس الوزراء الجديد بزيارة المندوب السامى ، ولكن المندوب السامى بادر بزيارة سعد فى مكتبه عقب تأليف الوزارة .

وفيما يتعلق بالسودان نجد لسعد موقفاً رائعاً ، ففى ١٧ مايو سنة ١٩٢٤ ألقى سعد تصريحا فى مجلس النواب اعترض فيه على وجود السردار بالسودان بل وعلى منصب السردار نفسه قال فيه « لا يتفق مع كرامة الدولة المصرية أن يكون الرئيس الأعلى لقواتها أجنبياً بل ولا الرئيس الأدنى أيضاً ، ولكن هذا كان من قبل ويجب علينا أن نمحوه كما أن إقامة السردار بالسودان لا تتفق مع مصلحة العمل وهذا واقع من قبل ويجب أن نتخذ الوسائل لإزالة ذلك » . وفى الأسبوع التالى قال سعد فى المجلس : « من المحال ترك السودان غنيمة باردة للانجليز » . وفى نوفمبر أبرق اللورد اللنبى الى حكومته بأنه ينتظر الفرصة المناسبة لتحدى الحكومة المصرية ، وجاءت هذه الفرصة بحادثة اغتيال السردار فى ١٩ نوفمبر التى عبر عنها الجنرال ويفل قائلا « إن الأقدار قد أرسلت جثة السردار حلاً لموقف لم يعد محتملا ، فقد تقدم المندوب السامى

البريطانى فى مظاهرة عسكرية بإنذار الى رئيس الوزارة حمل كل المهانة للحكومة المصرية مما كان لا يمكن أن تتقبله حكومة ذات كرامة أو حكومة حريصة على الاستقلال الوطنى ناهيك بحكومة يرأسها سعد •

ولم يكن أمام الوزارة الشعبية فى مواجهة أعمال القوة التى شرع البريطانيون فى القيام بها لتنفيذ الإنذار إلا التقدم باستقالتها الى الملك فى ٢٣ نوفمبر سنة ١٩٢٤ وقبل الملك الاستعفاء فى اليوم التالى وطويت بذلك صفحة من أهم صفحات تاريخ الوزارات المصرية (١) •

وجاء زيور ليستجيب لكل مطالب الانجليز كما ذكرنا من قبل •

مصطفى النحاس :

تحدثنا فيما سبق عن سعد زغلول ومصطفى النحاس معاً ، فقد كان الثانى امتداداً حقيقياً للأول ، ولكنا هنا نضيف للنحاس سطوراً أخرى ، فقد كان العناء الذى قابله النحاس أكثر مرارة من ذلك الذى قابله سعد لطول المدة من جانب ، وللسعار الذى اندفع فيه الملكان فؤاد وفاروق من جانب آخر ، ثم لوجود أحزاب القصر أدوات للتنكيل بالشعب ، وقد ظهرت هذه الأحزاب الوهمية فى عهد النحاس أكثر من ظهورها فى عهد سعد ، ولكن مصطفى النحاس كان جديراً بحمل العبء ، ومقاومة كل هذه القوى الجائرة ، وتذكر الوثائق مواقف كثيرة من التحدى قام بها مصطفى النحاس ، وهى تدل على رسوخ قدم ، وعمق إيمان واتجاه أكيد للحرص على مصلحة الشعب دون سواه •

وأول ما نذكره أن مصطفى النحاس كان من الرعيل الأول الذى حمل المسئوليات مع سعد ، فقد صرخ معه ضد الانجليز عقب الحرب العالمية الأولى ، ونفى مع سعد الى سيشل سنة ١٩٢١ •

---

(١) رحلة وسط الوثائق البريطانية (الأهرام فى ١٩٧٥/٨/١٥) .

وعندما ألّف سعد وزارته الأولى سنة ١٩٢٤ كان النحاس وزيرا للمواصلات بها ، كما كان وزيرا فى الوزارة الأئتلافية التى رأسها عدلى يكن سنة ١٩٢٦ وكان سعد زغلول رئيس مجلس النواب ، وبعد وفاة سعد اختير مصطفى النحاس بالإجماع خلفا لسعد فى رياسة الوفد ورياسة مجلس النواب .

النحاس والملك :

وعاش مصطفى النحاس صلبا فى مواجهة استبداد الملوك ، ويروى أنه طلب مرة من الملك الإنعام على أحد الوزراء برتبة الباشوية ، ولكن الملك رفض ، فصاح النحاس فى الملك : أنا لسانك . وتمّ للنحاس ما أراد ، ويعتبر هذا التعبير « أنا لسانك » أرقى ما تصل له الديمقراطية فى معاملة الملوك .

وفى مرة أخرى حاول الملك أن يتدخل فى الشئون الحزبية الخاصة بالوفد عندما عقّب على قرار الحزب بفصل أحد أعضائه ، ولكن مصطفى النحاس لم يحتمل هذا التدخل وضرب المائدة ضربة احتجاج اهتزت لها كل الأدوات التى كانت على المائدة (١) .

وهذه المواقف وسواها حدثت فى الوزارة الوفدية الأخيرة مما يدل على أن النحاس باشا ظل صامدا على مر السنين حتى آخر لحظة ولم يضعف أبدا أمام طغيان الملك الذى اتخذ عدة وسائل لاضعاف حزب الوفد ، وقد رأى الملك أن الأحزاب لم تغنه شيئا فلجأ للأزهر ، وعن طريق بعض الزعامات فيه اتجه كثير من الأزهريين لمعارضة الوفد ، وراح كثير من هؤلاء يناصرون الأحرار الدستوريين فى الانتخابات ، وصرفت لهم بعض المكافآت المالية لهذا الغرض فأخذوا يخطبون فى الجماهير ويطوفون بالقرى ولكن دون جدوى .

---

(١) من كلمة نشرها المرحوم الأستاذ عبد الفتاح حسن فى صحيفة الأخبار بتاريخ ١٩٧٥/٨/٢٤ .

بقيت نقطة أثارها أحد أعداء مصطفى النحاس ، وقد وجد فيها بعض الحاقدين وسيلة للنيل من الرجل العظيم ، وهذه النقطة هى الادعاء بأن النحاس قَبَّل يد الملك فاروق ، وراوى هذه الحادثة هو حسين سرى ، وقد أخذها موسى صبرى مطعنا فى الرجل العظيم ، ولكن قوى الحق اتجهت لقتل هذه الشبهة الحقيرة ، وفى الحق أن هـذه الشبهة وُلدت ميتـة ، ويكفى أن مصدرها حسين سرى الذى كان منافسا شديد العداوة لمصطفى النحاس ، وكَذِبُه فى هذا الادعاء ظاهر ، وقد رد عليه عبد الفتاح حسن رداً مُفْحماً أثبته بمحاضر جلسات محكمة الثورة فقال إن طرفى الواقعة اثنان : الملك والنحاس ، والملك لم يقل هذا أبدا قبل رحيله أو بعد الرحيل ، والنحاس باشا أنكر ذلك وما كان يمكن أن يقبل ذلك ، وقد ادعى حسين سرى أنه كان وراء ستار وخلف حجاب يتصنت لما يجرى من حديث بين الملك والنحاس ، وموقف التجسس هذا ينحط بالرجل فلا يجعل كلامه موضع اعتبار ، ويؤيد كلامنـا ضـد حسين سرى كتابُ الاستقالة الذى قدمه مصطفى مرعى من الوزارة التى كان يرأسها هذا الرجل ، وقـد جاء فى كتاب الاستقالة أنه (مصطفى مرعى) لا يقبل أن يبقى فى وزارة يرأسها رجل مثله .

ولا يزال موسى صبرى وأمثاله يتشدقون بهذه القصة على أنها نقيصة ارتكبها النحاس ، ونحب أن نصرح أن زعيما كهذا طالت زعامته ، وكثر أعداؤه ، ثم لا يجد هؤلاء فيه مطعنا إلا هذه المسألة لجدير بكـل تقدير ، لقد عجز أعداؤه وما أكثرهم عن أن يجدوا فى الرجل ثلمة تمس وطنيته وجهاده وتضحيته وأمانته ، فراحوا يتغنون بهذه الحادثة الكاذبة ظانين أنها تساعدهم على النيل منه ، ولكن هذا الموقف ينال منهم ويرفع من قدر الرجل الذى لم تعلق به شـبهة ، مع وجوده فى تيار السـلطة والصراع من سنة ١٩١٨ الى سنة ١٩٥٢ .

الزعيم الفقير :

بقيت عن مصطفى النحاس نقطتان سمعتهما حديثا من مريده الأستاذ ابراهيم فرج وزير الشئون البلدية فى وزارة الوفد الأخيرة .

أما النقطة الأولى فيرجع العهد بها الى مطلع الثلاثينات ، ففى سنة ١٩٣٢ كان صدقى رئيسا للوزارة وقد خلق له حزبا وحكومة من هواة الجاه ولو على أشلاء الناس والبلاد ، واتجه صدقى بكل قواه للنيل من زعيم البلاد ، ووصل فى تعسفه إلى حدّ محاولة أن يجّيعه (وليسمح لى القارىء أن أضع هنا بين قوسين حادثة مشابهة هى أن عبد الناصر حاول بإصرار أن يجيع كثيرين من الناس فى عهده ، وكان كاتب هذه السطور واحدا منهم ، فيبدو أنه كان تلميذاً مخلصا لإسماعيل صدقى : انظر تفاصيل ذلك فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة) فأصدر صدقى قرارا يقضى بأن مدة نفى النحاس باشا فى سيشــل لا تحسب فى معاشــه ، وبذلك انخفض المعاش من ١٢٠ جنيها إلى ٧٠ جنيها ، ويقول الأستاذ إبراهيم فــرج إنه فوجىء بهذا الوضع الذى كان لا بدّ أن يُحْدِث أزمة اقتصادية فى حياة النحاس لأن ابراهيم فرج كان وكيله ، وكان يقبض معاشه كــل شهر فيرسل لأخت الزعيم فى سمنود ١٥ جنيها ويرسل لأولاد أخيه بحلوان ٢٥ جنيها ويسلم مدير بيت الرئيس ٦٠ جنيهات لحاجات المنزل ، ويعطى القدر الباقى (٢٠) جنيها للنحاس باشا للمصاريف الخاصة النثرية ، وكان معنى تخفيض المعاش الى ٧٠ جنيها أن يحدث ارتباك واضح فى اقتصاد الزعيم الذى عاش فقيرا ومات فقيرا ، وقد قام ابراهيم فرج برفع دعوى ضد هذا القرار الظالم ووافقه طلعت حرب أن يقدم للزعيم سلفة ريثما يبتّ القضاء فى الدعوى ، وقد حكمت المحكمة بالغاء هــذا القرار وإعادة المعاش إلى ما كان عليه .

ونحن هنا نحيى الزعيم الذى لم يكترث بالمال وآثر الخلود ونشفق على أولئك الذين تطلعوا للمــال لأنفســهم وذويهم فنالوه ، وفقــدوا الخلود إلى الأبد .

مدفن الزعيم :

أما النقطة الثانية فتتصل بخاتمة حياة هذا الزعيم فقد اتجه تلاميذه ومريدوه أن يطلبوا ممن كانت بيدهم السلطة عند وفاة النحاس باشا أن يسمحوا بأن يدفن زعيم مصر مع سلفه سعد زغلول فى نفس الضريح ، ولكن هؤلاء كانوا — فيما يبدو — يرتجفون من أى لقاء يتم بين الزعيمين ولو كان ذلك بعد صعود روحيهما إلى البارىء الأعظم ، ورفض هؤلاء ذلك الطلب العادل وأبعد جثمان الرجل إلى مكان بعيد فى مقابر الجماهير بالبساتين ، وأغلب الظن أن الأجيـال القادمة ستحقق للزعيمين اللقـاء وستنجح فيما لـم ينجح فيه الذين حاولوا هذه المحاولة يـوم وفـاة الزعيم الخـالد .

وبعد ، تلك كلمة قصيرة قصدت بها وجه الله ، وقصدت بها ابراز الوفاء والعرفان بالجميل لمن يستحق الوفاء والعرفان بالجميل ، جزى الله مصطفى النحاس خير جزاء على ما قدم للوطن والمواطنين من جهود وأعمـال ، **وليت خلفاءه فى حزب الوفد يقرءون سيرته بإمعان وينهجون نهجه ، فذلك هو الطريق الأمثل لنجاحهم إن أرادوا النجاح ، وليعلموا أن الشعب مفتوح العينين قوى البصيرة ، وهو لا يؤيد إلا من يستحق التأييد .**

حالة مصر الاجتماعية والاقتصادية فى عهـد الاستقلال

يمكن القول إن أساس تاريخ مصر الحديث وضع فى هذه الفترة ، فقد انقضى الاستعمار العثمانى بكلكله وقسوته ، وأما الاحتلال الانجليزى فقد وَجَدَ صورا من المقاومة فبدأ يتقهقر ويضمحل نفوذه ، ومع تقهقره واضمحلال نفوذه أخذ يظهـر النفوذ المصرى ، وفى هذا العهد ظهـرت الوزارات المصرية الصميمة ومجالس النواب ، وفى ظل هذا وُضعَ أساس نهضتنا الحديثة .

صحيح أن اختلاف الزعماء عاق البلاد عن مزيد من التقدم ، ولكن أسس التقدم وضعت فيه على أى حال .

وسنذكر فيما يلى لمحة سريعة عن صور التطور التى نعمت بهـا البلاد خلال هذه الفترة :

فى مجال التعليم :

فى مجال التعليم نهضت البلاد نهضة واسعة ، فكثرت بها المدارس كثرة هائلة ابتداء من رياض الأطفال حتى التعليم الجامعى ، ومن مفاخر هذه الفترة أنها قضت على الازدواج فى التعليم فلم تعد هناك مدارس أولية ومدارس ابتدائية بل أصبحت جميع مدارس المرحلة الأولى ابتدائية تصب فى المدارس الاعدادية بواسطة امتحان منتظم ، صحيح إن تنظيم هذه الخطة تمَّ بعد الثورة ولكن بذورها ترجع الى السنين التى سبقت الثورة ، ومن مفاخر هذه الفترة أن أنشئت بها جامعات مصر التى لهـا مكانة عظمى فى العالم ، ومن الحق أن الجامعة المصرية القديمة أنشئت فى العقد الأول من هذا القرن ، ولكنها أصبحت جامعة رسمية حكومية بها كل نظم الجامعات ودرجاتها منذ سنة ١٩٢٥ ، وجاء بعدها جامعـة

الإسكندرية فجامعة عين شمس فجامعة أسيوط ، وقد نال الأزهر عناية كبرى فى هذه الفترة فصدرت قوانين إصلاحه ، وأنشئت بـه الكليات وكثرت المعاهد وانتشرت فى عدة بلدان .

فى مجال الزراعة :

وفى هذه الفترة نظم الرى والصرف وتمَّ بناء قناطر نجع حمادى ووجهت عناية كبرى للزراعة وأنشىء المتحف الزراعى وكثر استصلاح الأراضى .

فى مجال المواصلات :

ونالت المواصـلات اهتمام الحكومات ، فكثرت الخطوط الحديدية وخطوط البرق والتليفونات وعمت الطرق المرصوفة أرجاء البلاد .

فى المجال الاقتصادى :

واستمرارا لذكر الإصلاحات الاقتصادية والاجتماعية فى هـذا العهد نقتبس بضعة سطور من كتاب « مصر بين ثورتين » ، يقول المؤلف (١) :

ومن نتائج ثورة ١٩١٩ "اليقظة الاقتصادية" : فإن المصريين رأوا أن مدافعة الاحتلال من شعب أعزل لن تجدى إلا إذا حورب المحتل حربا اقتصادية ، وعمـدت البلاد إلى الاعتماد على نفسها ، والأخذ بنظـام الاكتفاء الذاتى ، وكان أن نجحت فكرة الدعوة إلى إنشاء « بنك مصر وشركاته » على يد طلعت حرب ورفاقه بعد أن أخفقت هذه الفكرة قبل ذلك بسنوات ، فتم تأسيس هذا المصرف سنة ١٩٢٠ .

المرأة : ومن نتائج هذه الفترة الواضحة اشتراك المرأة اشتراكا فعليا

---

(١) محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين : ص ٦٣ . (سلسـلة اخترنا لك) .

٦ ـ فترة الاستقلال التام
من ثورة ١٩٥٢ حتى الآن

هذه الفترة تُعَدُّ من التاريخ المعاصر بالنسبة لى ، فقد بدأتُ عملى مدرسا للتاريخ بجامعة القاهرة من ١٥ مايو سنة ١٩٥١ ومنذ ذلك الحين عنيت بتدوين تاريخ مصر المعاصر ، وأحمد الله أن هذه العناية أثمرت كتابين عن هذه الفترة ، هما :

١ ـ ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد محمد نجيب وعهد جمال عبد الناصر) : عهد المظالم والهزائم وهو يمثل الجزء التاسع من موسوعة التاريخ الإسلامى .

٢ ـ ثورة ٢٣ يوليو من يوم إلى يوم (عهد أنور السادات) وهو يمثل الجزء العاشر .

وقد أصدرتُ قبل ذلك كتاب « مصر فى حربين » وهو يتحدث عن بعض ملامح العصرين جميعا ، ففيه دراسة موثقة عن أسباب الهزائم التى منيت بها مصر فى عهد جمال عبد الناصر ، وأسباب الانتصار الذى حققته مصر فى حرب أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى دبَّر لها وأدارها أنور السادات ، وقد أخرجت هذا الكتاب على وجه السرعة ريثما يتم إخراج الجزء التاسع والعاشر من هذه الموسوعة .

وقد صدر الجزء التاسع الخاص بعصر جمال عبد الناصر ، وصوَّر العصر أدق تصوير ، أما الجزء العاشر الخاص بأنور الساداتى فهو على وشك الظهور إن شاء الله .

وعلى هذا فإن عملى فى هذا الجزء من الموسوعة (الجزء الخامس) يتجه أساسا لتصوير تاريخ مصر الإسلامى كله ، من مطلع الاسلام حتى العهد الحاضر ، وإبراز دور مصر فى خدمة العالم الإسلامى ورعاية الثقافة الإسلامية ، ويتجه بعد ذلك لحديث موجز عن عهدَىْ عبد الناصر والساداتى

تاركا التفاصيل للجزأين التاسع والعاشر المذكورين ، ومن هنا فإننا فى هذا المكان نبرز الحلقة الأخيرة من حلقات العلاقة بين مصر وبريطانيا .

المفاوضات مع الانجليز فى عهد الثورة :

اتسمت المفاوضات مع الانجليز فى عهد الثورة بسمة لم تتوافر لها من قبل ، وأصبح المفاوض المصرى يملك زمام الأمر كله ، فليس هناك ملك يخشى أو أحزاب قصر تتآمر ، وكانت المفاوضة معناها الاتفاق على الجلاء وعلى تحديد المدة اللازمة لذلك .

ووصل الطرفان إلى حل سريع فى مسألة السودان ، فقد عقدت اتفاقية فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٣ كان طابعها الصراحة فى مواجهة الحقائق ، فأعطت الشعب السودانى الحق فى تقرير مصيره بعد انسحاب القوات العسكرية البريطانية والمصرية ، وبعد انتهاء فترة انتقال حدد لها ثلاث سنوات ، وبذلك انتهت أصعب مشكلة فى المفاوضات ، وقد تحدثنا فى الجزء السادس عن تنفيذ هذه الاتفاقية ، وما حدث من تغيير فى الخطة عند التنفيذ .

أما عن المفاوضات فى المسائل الأخرى فقد اتخذت بريطانيا طريقا ملتويا فى أول الأمر ، فتوقفت المفاوضة بسبب ذلك ، وبدأ كفاح الفدائيين ، ذلك الكفاح المنظم الذى وضع حدا للمساومة ، لأنه أقلق المستعمر وأزعجه ، وجعله يدرك أنه فى حاجة إلى من يحميه فى البلاد التى جاء لحمايتها .... وبدأت المفاوضة فى هذا الجو مرة أخرى ، وفى سرعة هائلة وقعت اتفاقية الجلاء فى ١٩ أكتوبر سنة ١٩٥٤ ، وقد وقعها جمال عبد الناصر عن الجانب المصرى وسير رالف ستيفنسون السفير البريطانى عن الجانب البريطانى ، وخلاصة هذه الاتفاقية جلاء قوات الاحتلال فى مدى عشرين شهرا تبدأ من تاريخ توقيع الاتفاقية ، وعندما يتم الجلاء يحتل الجيش المصرى قاعدة القنال ، ويدير المنشآت والورش فى هذه القاعدة مدنيون

مصريون ، وبريطانيون لا يتجاوزون الألف ، ومدة هذه الاتفاقية سبع سنوات من تاريخ توقيعها ، تظل خلالها قاعدة القنال على أهبة الاستعداد والعمل ، وللجيش البريطانى الحق فى العودة لها إذا هوجمت تركيا أو إحــدى الدول العربية خلال هــذه المــدة ، وتمّ الجلاء فى ١٨ يونيو ســنة ١٩٥٦ .

وبعد ذلك بقليل أسفرت بريطانيا عن نواياها الحقيقية ، وعن أن ما نسميه معاهدات الصداقة ليس فى الحقيقة إلا زيفا ، فما كادت مصر تستعمل حقها فى تأميم قناة السويس فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٦ حتى زمجرت بريطانيا وراحت تتحالف مع فرنسا ، ومع إسرائيل أشد الدول عداء لمصر ، وبدأ العدوان الثلاثى فى ٢٩ أكتوبر ، وأغارت القوات الجوية البريطانية والفرنسية على مصر بينما كانت إسرائيل تدخل سيناء ، وسرعان ما قطعت مصر علاقاتها مع إنجلترا وفرنسا فى ٣١ أكتوبر ، ثم نزلت ميدان الجهاد ، وبمساعدة الولايات المتحدة والاتحاد السوفييتى انسحبت القوات التى كانت قد نزلت أرضنا الطاهرة ، فى نفس العام ومطلع العام التالى ، والمهم هنا أن الحكومة المصرية أعلنت فى أول يناير سنة ١٩٥٧ إلغاء اتفاقية الجلاء مع بريطانيا ، واعتبار هذه الاتفاقية منتهية من الساعة السادسة مساء ٣٠ أكتوبر وهى ساعة بدء العدوان البريطانى ، وفى يوم ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ رضــخت بريطانيا لهذا الإجــراء واعتبرت معــاهدة ١٩٥٤ منتهيــة .

وأسدل الستار على هذه العلاقة المريرة بين بريطانيا ومصر .

نقد هذه المعاهدة :

وهناك كلمة عن هذه المعاهدة التى وقّعها عبد الناصر ، وتلك الكلمة هى أن المعاهدة أضاعت السودان ، ولو وافق النحاس أو غيره من الزعماء على ما وافق عليه عبد الناصر لتمت مثل هذه المعاهدة من وقت طويل .

وكان استقلال السودان خطرا على السودان وعلى مصر ، فقد قسم القطر الواحـــد قطرين ، وأحس" القطران بذلك الخطر فـراحت مصر والسودان تعالجانه بما يسمى التكامل ، ولكنه علاج قليل الجدوى ٠

إن بعد السودان عن مصر ، وبعد مصر عن السودان خطر سياسى واقتصادى ضد البلدين ، وقد أدرك الجيل [illegible]ى ذلك ، وتمسك بالوحدة ، ولكن عبد الناصر كان أبعد ما يكون عن فهم حقائق التاريخ ٠

والسماح لألف من البريطانيين بالبقاء فى القناة ، والسماح لانجلترا بالعودة للقاعدة إذا هوجمت تركيا أو احدى الدول العربية ، كل هــذا يجعل هذه المعاهدة عملا أخرق ، كأن" عبد الناصر كان يريد معاهدة بأى شكل من الأشكال ٠

وقد جهل عبد الناصر أن الظروف بمصر وبالعالم قد تغيرت ، ولولا هذا الجهل لانتفع المفــاوض المصرى بنهاية فــاروق الذى كــان يحمى الاستعمار ويحميه الاستعمار ، ولانتفع كذلك ببروز قوة أمريكا والاتحاد السوفييتى وباتجاه بريطانيا للأفول ، ولكن أنى" لعبــد الناصر أن يفهم هذه التغيرات ؟ وقد انتفعت أقطار كثيرة بهذه التغير" العالمى فحصلت على معاهدات اشرف من المعاهدة المصرية كالهند واندونيسيا مع أن هاتين
معاهدات اشرف من المعاهدة المصرية كالهند واندونيسيا مــع أن هاتين

المؤرخ المعاصر وتدوين التاريخ

بقيت كلمة قلتها فى الطبعات السابقة من هذا الكتاب ، ثم تغيرت الأحوال كثيرا ولكنى أبقيها فى هذه الطبعة كما كانت ٠ فذلك حق التاريخ ، وهذه الكلمة ترتبط بتدوين التاريخ المعاصر وموقف المؤرخ منه ، وهذا نصــها :

المفروض أن المؤرخ المعاصر إذا كان مخلصا فطنا من جانب ، وكامل

تاريخ يرتبط بالدين الإسلامى وقواعده وآدابه وسلوكه ، والكذب فيه من أبشع الفجور كما قال رسول الإسلام .

ولكنْ أمامى عقبة صعبة هى قلة الوثائق التى تنير لى السبيل ، فهناك أحداث لم تنشر وثائق عنها حتى الآن ، ومن هذه الأحداث سقطة المحاكمات الجائرة التى قام بها عبد الناصر ورفاقه ، وحرب اليمن ، والهزيمة فى الحرب ضد إسرائيل سنة ١٩٦٧ والمحاكمات التى جرت بعد حركة مايو سنة ١٩٧١ ، إذ جرت هذه المحاكمات وتلك بطريقة سرية فلم تذعْ الحقائق التى ترتبت عليها الأحكام القضائية ، واختفاء مجوهرات أسرة محمد على وقلة الوثائق فى هذه الأحداث ونظائرها لا يلقى الضوء على المشكلات ، فلا يتيح الفرصة لدراستها وإبداء الرأى فيها بدقة .

ومع هذا فسأحاول جاهدا أن أجعل ما سأكتبه أقرب للحق والواقع .

* * *

ثورة ٢٣ يوليو وأسبابها :

الأسباب التى مهدت للثورة ودفعت الشعب لحسن استقبالها هى :

— عبث الملوك بالدستور وبحقوق الأمة ، وعداؤهم السافر لحزب الأغلبية الذى كان يمثل الأمة أقوى تمثيل .

— حرب فلسطين وما كشفت عنه من تهاون وخيانات .

— الاستعمار الطاغى الذى اتخذ من القصر ورجاله ومن سادة الإقطاع عونه ودعاماته .

— حريق القاهرة الذى اتخذ أساسا لإقالة حكومة الوفد (حكومة الأغلبية) ولم تستطع الوزارات أن تستقر بعد هذه الإقالة ، فخلا المكان ولم يوجد من يشغله بنجاح .

برنامج الثورة :

طلع فجر الثالث والعشرين من يوليو على صوت يعلن الثورة على هذه الأوضاع ، ويعلن برنامج المستقبل كالآتى :

— القضاء على الاستعمار وأعوانه .

— القضاء على الإقطاع .

— القضاء على الاحتكار وسيطرة رأس المال على الحكم .

— إقامة عدالة اجتماعية .

— إقامة جيش وطنى قوى .

— إقامة حياة ديمقراطية سليمة .

وهى مبادىء لم تعرف الطريق لتصبح واقعا ، فقد كان قادة الثورة جماعة لا يربطهم ود ولا هدف ، ولم تكن لهم ثقافة أو خطة ، فلم تحقق هذه الثورة لمصر أى كسب ، وجنت على البلاد والعباد ، وسنرى ذلك مفصلا فى الجزء التاسع والعاشر . من هذه الموسوعة .

عهد محمد نجيب

ظهر محمد نجيب قائدا للثورة صباح الثالث والعشرين من يوليو سنة ١٩٥٢ ، وكان محمد نجيب واسع الشهرة بين المثقفين ومعروفا لدى الجماهير ، وكان يحمل رتبة « اللواء » وهى أعلى رتبة يحملها فرد من أفراد « الثوار » وقبل قيام الثورة كان هناك انتخاب لنادى القوات المسلحة ، وكان محمد نجيب مرشح أغلبية الضباط ، واعترض الملك فاروق عليه وأراد أن يكون رئيس النادى من أعوانه ، ولكن محمد نجيب نجح على الرغم من تدخل الملك ، وكانت هذه الأسباب هى التى جعلت الرجل موضــع تقدير الجميع وحبهم ، فلما ظهر قــائدا لثورة الجيش رحب

الشعب بهذه الثورة وأيدها ، والتف الناس جميعا حوله ، فأصبحت ثورة الجيش هى ثورة الشعب .

ومحمد نجيب من مواليد سنة ١٩٠١ بالخرطوم ، تلقى علومه بالسودان ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وتدرج فى المناصب العسكرية حتى نال رتبة « اللواء » سنة ١٩٥٠ وخلال خدمته العسكرية درس القانون ونال ليسانس الحقوق واجازة كلية الأركان ، وفى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ألف الوزارة ، ثم عيّن رئيسا للجمهورية عند إلغاء النظام الملكى بمصر فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ فكان أول رئيس لجمهورية مصر .

على أن الأمور سرعان ما تغيرت كما وضّحنا ذلك بالتفصيل فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، فلم تكد الثورة تطمئن على تأييد الشعب للتغيير بسبب الكراهية التى كانت تغمر نفوس الشعب لفاروق ونزقة ورجاله ، أقول أن الثورة لم تكد تطمئن لهذا التأييد حتى برز شخص لم تكد الجماهير تعرفه ، ذلك هو البكباشى جمال عبد الناصر ، وكانت له خطط شريرة وأعوان من الصف الثانى فى كل مكان ، فقبض على محمد نجيب ، وأصبح رئيسا للثورة ورئيسا للوزارة ثم رئيسا للجمهورية ، وللأسف تم القبض على محمد نجيب وهو يزاول عمله بمكتبه بقصر عابدين .

القبض على الرئيس محمد نجيب :

من المعروف أن الاعتداء على أى موظف أو أى شرطى وهو يؤدى عمله يعتبر عملا فظيعا يحاكم عليه القانون بقسوة ، فما بالك بالاعتداء على رئيس الجمهورية ، وهو بملابسه الرسمية وجالس فى مكتبه بقصر الرياسة ؟

إننا نقدم للقارىء صورة شنيعة توضح رئيس الجمهورية وقد أمسك به جنديان من رجال عبد الناصر ، واقتاداه الى الاعتقال :



الرئيس محمد نجيب ساعة القبض عليه في أثناء تأدية عمله

والصورة تبرز الذعر والدهشة على وجــه رئيس الجمهورية ، وهى بالتالى تتكلم عما نال المواطن العادى من عنت فى ذلك العصر المظلم ، فاذا كان رئيس الجمهورية يقبض عليه على هذا النحو ، ويـقـتاد للاعتقال دون مساءلة ، فكيف كان الحال مع الآلاف من المصريين العاديين ؟

لابد يوما أن يـحاكم هؤلاء الآثمون ٠

وقد ظل محمد نجيب فى الاعتقال عشرين عاما ، وجرت له أحداث فظيعة رويناها عند حديثنا عن عبد الناصر الطاغية فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، ومات أبناه وهو فى الاعتقال ، فلم يسمح له بالخروج للجنازة ، ولا بذكر اسمه فى النعى ٠ يا لها من قسوة بشعة لا تحترم الحياة ولا المـوت ٠

وقد مات محمد نجيب فى ٢٨ أغسطس سنة ١٩٨٤ رحمه الله رحمة واسـعة ٠

عهد عبد الناصر : عهد المظالم والهزائم والضّياع

لم يستطع عبد الناصر أن يحقق شيئا من برنامج الثورة ، فقد كانت تطلعاته كلها لأمجاده الشخصية ولإسعاد أسرته ، وقد ناقشنا ذلك بالتفصيل فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة ، وفى عهده توالت الهزائم على مصر فى حرب سنة ١٩٥٦ وفى حرب اليمن (١٩٦٢ — ١٩٦٧) وفى حرب ١٩٦٧ ، حتى أصبح الناس يتندّرون بأن طائرات الورق يمكن أن تغلب طائرات عبد الناصر ، إذْ لم تعرف مصر الانتصار فى عهده فى أى موقع أو موقعة ، وقد عاش شعب مصر أسوأ فترات التاريخ طيلة هذا العهد المرير ، فعانى الظلم والقلق والسجون والاغتيالات والمصادرات والسرقات ، وقد سئل عبد الناصر من أحد رفاقه هذا السؤال : لماذا هذه المبالغات فى القسوة ؟

فأجاب : إنها لحمايتكم ، وبدونها ستكونون فريسةً للغاضبين من الشعب ٠

وهذا اعتراف صريح ودقيق ٠

أبرز أحداث هذا العهد

فيما يلى نسجل أبرز أحداث هذا العصر :

— إقصاء الملك فاروق فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٥٢ ، ثم إلغاء الملكية وإعلان الجمهورية فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٣ وبذلك استبعد ملك ولكن جلس على عرش مصر ملوك وملوك كانوا أكثر طغيانا من فاروق ٠

قانون الاصلاح الزراعى ومآسيه :

— إصدار قانون الاصلاح الزراعى فى ٩ سبتمبر سنة ١٩٥٢ ، وقد اتضح منه أنه كان يرمى لإذلال الأغنياء وافقارهم ، وقد دمّر هذا القانون الثروة الزراعية بمصر بسبب تفتيت الملكية ، وقد قال الساداتى يصف اشتراكية عبد الناصر : إنها اشتراكية الفقر ٠

وكان ضمن هذا القانون أن يكون ايجار الفدان من الأرض الزراعية سبعة أمثال الضريبة أى حوالى عشرين أو ثلاثين جنيها ، وأن المالك ليس من حقه أن يسترد الأرض الزراعية من زراعها ، حتى لو كان هو نفسه يريد أن يزرعها .

ونسى الثوار الجهلة هذا القانون الذى أصدروه ، فقد تغيرت الأمور المالية تغيرا هائلا بعد حرب ١٩٧٣ وحدث تضخم عظيم ، وغلت الأسعار فتجاوزت عشرين ضعفا أحيانا ، والقانون هو هو ، بمعنى أن الزارع يدفع للمالك ثلاثين جنيها لفدان قصب ايراده عدة آلاف من الجنيهات أو لفدان قطن محصوله يزيد بسهولة عن ألف جنيه .

وشب أطفال كان أبوهم أو أمهم أجرت أرضها الزراعية للغير وعجز الأطفال عن استرداد أرضهم ليزرعوها .

إنها مجموعة من المآسى والمظالم فننها الجهال ونسوها ونسيها من جاء بعدهم حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ .

قانون ايجارات المساكن :

ومثل ذلك يقال عن إيجار الشقق والفيلات حيث توجد شقق ضخمة فى الزمالك والمعادى وجاردن سيتى ايجار الواحدة منها حوالى ثمانية أو عشرة جنيهات ، فى حين نجد حجرة فى البدروم بها سرير وكرسى يصل ايجارها إلى مائة جنيه لأنها تسمى مفروشة .

إنها النتيجة الطبيعية عندما يتولى الأمر جهال ، لا يخافون الله .

وكانت نتيجة ذلك أن توقف القطاع الخاص تماما عن البناء للاستغلال ، وقامت أزمة الاسكان ، التى تزداد من يوم إلى يوم ، واندفع الناس إلى المقابر يعيشون بها ، ومن كثرة الذين يعيشون فى

المقابر أقامت وزارة التربية مدارس من أحواش الموتى ، ولا أحد يعالج المشكلة ، لأن هذه هى الحياة التى لابد أن تنتج عن حكم الجهال .

— فى فبراير سنة ١٩٥٣ تم الاتفاق المصرى البريطانى بشأن السودان الذى اتخذ أساسه حرية تقرير المصير ، وبرقصات صلاح سالم فى الجنوب ، وأموال مصر التى نثرت هنا وهناك اتضح للسودانيين أن ارتباطهم بمصر سيكون حافلا بالضرر فاختاروا الانفصال عن مصر ، وكان ذلك مثار ضرر لمصر والسودان جميعا .

— بعد مسألة السودان كان الطريق ممهدا لمعاهدة بين مصر وبريطانيا فبدأت مفاوضات انتهت باتفاقية الجلاء فى ١٩ أكتوبر ١٩٥٤ تلك الاتفاقية التى ألغاها الجانب المصرى اعتبارا من ٣٠ أكتوبر سنة ١٩٥٦ ووافق الجانب الانجليزى على هذا الإلغاء فى ١٢ فبراير سنة ١٩٥٧ كما سبق القول .

— تم الجلاء فى ١٨ يونيو سنة ١٩٥٦ واعتبر ذلك اليوم عيدا قوميا ، ومما يذكر أن جيوش بريطانيا وفرنسا وغيرهما من الدول الاستعمارية قد جلت عن المستعمرات فى العالم كله ، فلم يعد العصر عصر استعمار بجيوش .

تأميم قناة السويس ونتائجه :

— فى ٢٦ يوليو ١٩٥٦ أعلنت مصر تأميم قناة السويس ، وتلا ذلك أحداث انتهت بالعدوان الثلاثى ثم انسحاب المعتدين كما سبق القول ، وفى الجزء التاسع حديث مفصل عن أهداف التأميم ونتائجه الخطيرة .

الوحدة مع سوريا وفشلها :

— فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ تمت الوحدة بين مصر وسوريا فى « الجمهورية العربية المتحدة » برياسة جمال عبد الناصر بناء على اقتراح

سوريا ، وبعد استفتاء شعبى فى البلدين ، وفى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ تم الانفصال ، ولم تقاوم مصر اتجاه سوريا للانفصال وظلت مصر تحتفظ باسم « الجمهورية العربية المتحدة » حتى جاء عهد أنور السادات كما سنرى فيما بعد ، وقد كانت الوحدة مطلبا شعبيا ، ولكن سوء إدارة جمال عبد الناصر وعبد الحكيم عامر قضى على هذه الوحدة ، بل خلق جوا من الحقد بين السلطتين فى سوريا ومصر ، وعندما عجز عبد الناصر عن مقاومة المنشقين بسوريا اتجه بغيظه وحقده الى المصريين فانزل بهم صنوفا من التعذيب عقب الانفصال .

الاشتراكية التى أفقرت الأغنياء وأجاعت الفقراء :

ـ صدرت القوانين التى عُرِفت بالقوانين الاشتراكية ، وقد وضحنا فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن اشتراكية عبد الناصر أفقرت الأغنياء وأجاعت الفقراء ، وقد وصفها الرئيس أنور السادات فى خطابه فى ٢٦ يوليو سنة ١٩٧٦ بقوله : أنها كانت صنماً بُنِى ليعبد ، ولم يكن يباح لأحد أن يناقشها أو يتدارسها ، وأنها كانت « اشتراكية مزاجية » أى لا يحكمها قانون و لامبادىء .

حرب اليمن وضياع رصيد الدولة :

ـ حرب اليمن من سنة ١٩٦٢ إلى سنة ١٩٦٧ ، وهى مأساة مريرة تحدثنا عنها بإفاضة فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة .

ويرى بعض الناس أن حرب اليمن من ايجابيات عبد الناصر ، لأنه بها نقل اليمن من ظلام العصور الوسطى إلى النور ، ونقول لهؤلاء أن مهمة الرئيس أولا أن يهتم بشعبه ، ولا ينفق ثراء بلاده خارجها إلا إذا اكتفى شعبه ، فالمال مال الشعب قبل كل شىء .

ونقول ثانيا إن ظلام العصور الوسطى كان فى طريقه للانكماش فى

العالم كله ، سواء دخل عبد الناصر اليمن أو لم يدخلها • لقد تركنا عبد الناصر جياعا ، وراح لليمن يبذل الذهب دون حساب فأفنى رصيد العملة ودمَّر الجنيه المصرى •

ونقول ثالثا لهؤلاء ، إن عبد الناصر قتل من اليمنيين الكثير ، ودمَّر الكثير ، ولذلك غرس الحقد فى نفوس اليمنيين ، وقد كانت اليمن من أول الدول التى استجابت لقطع جميع العلاقات مع مصر فى مؤتمر بغداد ؛ ولا تزال على موقفها حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ على الرغم من أن بعض الدول العربية أعادت العلاقات مع مصر •

ونقول رابعا لهؤلاء الذين يعدون حرب اليمن من منجزات عبد الناصر ، ألا تنفقون أيها الكتّاب أموالكم على المحتاجين هنا وهناك وتتركون أولادكم جائعين ؟ إنكم أن فعلتم ذلك — ولستم بفاعليه — تستطيعون أن تمدحوا عبد الناصر لأنه أجاع شعبه وأضاع ثراء بلاده من أجل اليمن والكونغو وغيرها من البلاد •

حرب ١٩٦٧ وانهيار جيش عبد الناصر فى دقائق :

— الحرب مع اسرائيل سنة ١٩٦٧ ، وهذه الحرب كانت الموضوع الرئيسى لكتابنا :

((مصر فى حربين ١٩٦٧ و ١٩٧٣ : دراسة مقارنة))

ولم تكن حربا بالمعنى الصحيح ، وانما كانت نزقا من القيادة ، ومن يوم إلى يوم تنكشف مواقف مخزية من الذين أعلنوها ، أو كان فى يدهم سلطات إدارتها ، ويكفى أن نذكر أن المنافسة بين الرئيس ومشيره كانت من أهم أسباب الهزائم ودوافعها ، وفى الجزء التاسع من هذه الموسوعة تفاصيل واسعة عن هذا الموضوع •

وينبغى أن نذكر أن خليج العقبة والملاحة فيه تعد من المسائل

الحساسة التى سببت الصراع بين مصر واسرائيل . ولهذا فإننا سنشرح بعد قليل قضية خليج العقبة والملاحة فيه .

وتبقى كلمة نطوى بها عهد عبد الناصر هى أنه مات فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٧٠ ويقول الباحثون إن عبد الناصر مات بالهزيمة المدمرة سنة ١٩٦٧ مع الآلاف الذين دفعهم إلى الموت ، ومع الملايين العرب الذين دفعهم بهذه الهزيمة إلى الخزى والعار .

أسرة عبد الناصر وثراؤها :

ومن مخازى عصر عبد الناصر بالإضافة إلى الهزائم المتكررة والى الظلم والتنكيل بالأبرياء والاعتقالات التى ابتدأت برئيس الجمهورية « محمد نجيب » ثم امتدت للشعب كله ، بالاضافة إلى هذا ، هناك مشكلة السرقات التى شملت مجوهرات أسرة محمد على كما شملت قوت الشعب وثراءه ، وقد ظهر هذا الثراء فى أيدى أولاد عبد الناصر وأصهاره ، فقد ذكرت صحيفة الأخبار فى ٢٤ أغسطس سنة ١٩٨٤ أن المهندسين من أولاد عبد الناصر قد وصل حجم أعمالهم العادية بمصر مائتى مليون جنيه ، وأن أشرف مروان زوج ابنة عبد الناصر قد اشترى مجموعة أسهم فى دار نشر كبرى بانجلترا بمبلغ ١١ مليون جنيه استرلينى .

يا ترى كم مائة مليون يملك هذا الشباب ؟ وكم مائة مليون يملك أبناء عبد الناصر الآخرون وأحفاده وكم مائة مليون يملك الآخرون ممن اشتركوا مع عبد الناصر فى الحكم ؟

الانغلاق والانفتاح :

كان عهد عبد الناصر عهد انغلاق اقتصادى ، فلا نستورد شيئًا من الخارج حتى ولا الدواء ، وكان الفقر هو المظهر العام للشعب ، ومع

الفقر الحرمان وشظف العيش . وفى نفس الوقت كان عبد الناصر وأعوانه يجمعون المال ويخزنونه •

وجاء الانفتاح فى عهد السادات ، وكان انفتاحا أهوج ، فأخرج أتباع عبد الناصر مدخراتهم وما اختزنوه مـن أموال باهظة ، وظهـر فى أفق الحياة المصرية اصطلاح جديد ينمى المال بسرعة هو « التصدير والاستيراد » فظهر أصحاب الملايين وأصحاب البليارات •

التوقف بالإضافة إلى المظالم والهزائم :

تعودنا أن نصف عهد عبد الناصر (١٩٥٢ — ١٩٧٠) ومن كانوا معه من رجال عصابته بأنه عهد المظالم والهزائم ، أى عهد هتك الأعراض ، والإذلال ، والاجاعة ، والمصادرات ، والاعتقالات ، وزوار الليل ، والتعذيب والكلاب البوليسية التى تنهش الأجسام ، والفصل من الوظائف ، والقلق وقوانين الاسكان الغبية وكل مـا يستطيع الانسان جمعـه فيمـا يتعلق بالظلم والعربدة والقسوة على الأفراد والجماعات •

ثم الهزائم المتكررة الفتاكة سنة ١٩٥٦ وفى اليمن (١٩٦٢ — ١٩٦٧) ومعركة اليمن أكلت كل شىء الرجال والسلاح والرصيد ، ثم معركة أو خيبة ١٩٦٧ التى مسحت ما تبقى ومسحت الطاغية نفسه •

ولكن ليس هذا كل شىء فيما يتعلق بعصر عبـد الناصر ، وليست السرقات التى أشرنا اليها آنفا هى كل شىء ، بل ان هناك الداء الـذى استشرى وسبب لمصر خسائر جسيمة ، انه الذى نسميه « التوقف » ومعنى التوقف أن كل حركات الاصلاح التى تلزم لكل دولة قد توقفت تماما ، لأن الرجل أسرع فى مطلع عهده يرسل أنور السادات وأمين شاكر إلى الشرق الأقصى ، إلى اندونيسيا ليمد نفوذه الى هذا المدى البعيد ، وهناك قدم المعونات والآمال • وأسرع فأرسل صلاح سالم صغير السن

وقليل الثقافة إلى النائب الزرقاء بالعراق إلى نورى السعيد ، وأرسل أسلحته وجيشه إلى الكونغو وغيرها ..... وكل هذا صرفه تماما عن المرافق بمصر ، ويوما بعد يوم وعاما بعد عام ، توقفت المرافق بل قل أوشكت أن تتوقف الحياة ، فالتليفونات خرست تماما : وكانت مثل قطعة من الحديد ، والمجاري طفحت فى كل شارع ، حتى فى جاردن سيتى والزمالك والمعادى ، والكهرباء بدأت تنقطع ، والمواصلات تعثرت ، والطرق تكسرت ، والمدارس والمعاهد نالها التدمير ، وقل مثل هذا عن المستشفيات والاسكان وجميع أنواع المرافق .

وبينما كان التوقف يصيب بالشلل كل هذه المرافق كان تعداد السكان يزيد ويزيد ، مما كان يستدعى ليس فقط تحسين المرافق بل تطويرها وإضافات واسعة لها .

ولكن الرجل وصحبه كانوا مشغولين عن ذلك أو جاهلين بما يلزم أن يكون ، فلما انقضى عهده ، كانت الأمية قد انتشرت ، والحياة قد توقفت ، ولم يبق فى مصر الا صوت الدعاية الجوفاء التى خلقها الرجل ، وأنفق عليها ما تبقى بالخزانة بعد السرقات والنفقات الخارجية ، وظلت هذه الدعاية ترعى فترة حتى خفت صوتها ، اذ توقف المد الذى كانت تنتهبه من أموال .

اننا نكتب هذه الأشياء ليس فقط لنندد بالماضى ولكن لنحذر زعماء الحاضر والمستقبل من الوقوع فى مثل هذا الباطل ، فتلاحقهم اللعنات إلى الأبد كتلك التى تلاحق روح هذه العصابة ، منبعثة هذه اللعنات من الذين مسهم الضيم أو الذين يسكنون فى المقابر وهم أحياء .

شىء كان يراد بالإسلام :

هذا العنوان وضعته فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة وهو الجزء الخاص بتاريخ عبد الناصر ، وفصلت تحته عدة نقاط ، نوجزها فيما يلى :

١ — حلّ هيئة كبار العلماء •

٢ — كان شديد القسوة على جماعة الاخوان المسلمين ؛ ألقاهم جميعا فى السجون ، وعرّضهم للتعذيب البشع ؛ وأجاع ذويهم ، رغبة أن يدفعهم للرذيلة •

٣ — قتل شنقا صفوة من علماء المسلمين فى قمتهم الشهيد سيد قطب •

٤ — أجرى ما أسماء « تطوير الأزهر » الذى اقتبسنا ما يقوله عنه الأزهريون وسواهم بأنه تدمير لا تطوير •

— الثورة والاحتلال :

قلنا عن هذه الفترة إنها « فتـرة الاستقلال التـام » ونعنى بذلك أننا تخلّصنا من الاحتلال البريطانى ؛ ولكننا لا ننسى أن عبد الناصر جلب بهزائمه احتلالا أخطر على مصر ، ذلك هو احتلال الصهاينة لسـيناء ؛ وهو احتلال كان يدعى ملكية الأرض ، ولا يَعِدُ بالجلاء ، ثم هو احتلال لأقذر وأقسى طائفة عرفهـا التاريخ ، ولم تتحرر هذه الأرض إلا بعـد عبد الناصر ، بل لا تزال هناك ذيول ، منها منعنا من تسليح سيناء كمـا نشاء ، ومنها « طابا » التى لا تزال تحت سلطان العدو ، فليربط القارىء بين عبد الناصر واحتلال جزء من البلاد •

وبعد قليل أى بعد حديث قصير عن « السـاداتى » سنتكلم عـن « ثورة ٢٣ يوليو فى الميزان » حيث يؤمل أن نضيف مجموعة أخرى مـن حماقات أو جهالات هذه العصابة التى حكمت مصر ردحاً من الزمن •

مشكلة الملاحة بخليج العقبة

تاريخ المشكلة وتطورها :

— لم يكن لإسرائيل وجود على خليج العقبة عند توقيع اتفاقية الهدنة المصرية الإسرائيلية فى ٢٤ فبراير ١٩٤٩ ، إلى أن أخلت القوات الأردنية — بدون أى مبرر — منطقة بير قطار وبلدة أم رشرش (إيلات) يوم ٩ مارس ١٩٤٩ واحتلتها القوات الإسرائيلية فى اليوم التالى وأنشأت ميناء إيلات ، وتقدمت مصر وقتها باحتجاج إلى لجنة الهدنة .

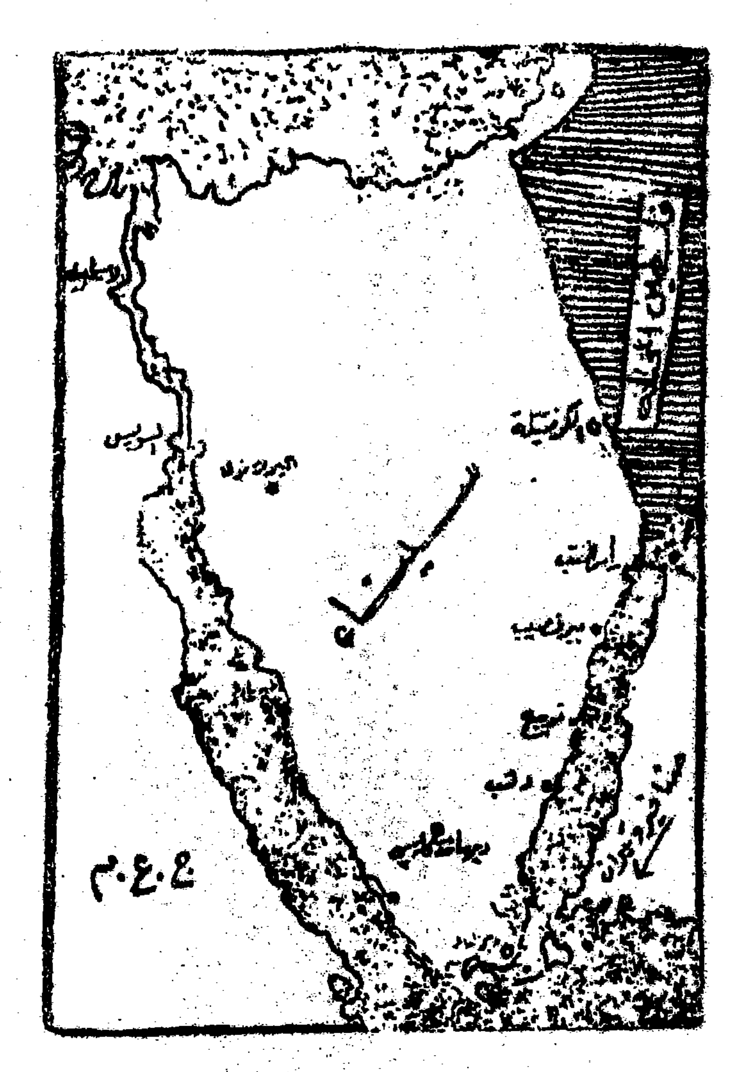
— فى ٣ ابريل ١٩٤٩ تم توقيع اتفاقية الهدنة الأردنية الإسرائيلية دون أن تثير الأردن مسألة احتلال إسرائيل للمنطقة .

— اتفقت الحكومة المصرية مع المملكة العربية السعودية ، على أن تقوم القوات المصرية باحتلال جزيرتى « صنافير » و « وتيران » وهما الجزيرتان اللتان تتحكمان من الناحية الشرقية فى مدخل خليج العقبة .

— قامت القوات المصرية بتركيب مدفعية سواحل فى منطقة « رأس نصرانى » وفى « شرم الشيخ » سيطرت تماما على الملاحة فى الخليج ، وشرم الشيخ تقابل تيران من الجهة الغربية لخليج العقبة .

وأصبح المرور بهذا المضيق خاضعا لإشراف مصر ، ولا يجوز لإسرائيل أن تستعمل هذا المضيق على الاطلاق ، وأخذت مصر منذ ذلك التاريخ تباشر حقها فى تفتيش كل السفن التى تريد عبور مضيق تيران .

— وقد حدث فى شهر يوليو ١٩٥١ خلال حكم وزارة النحاس باشا أن خالفت السفينة الإنجليزية « امبايرروتش(Empire Roach) التعليمات الخاصة بالمرور ، فأوقفتها السلطات البحرية وحجزتها ٢٤ ساعة ، ووضعت حرسا عسكريا على ظهرها ، وقد احتجت السفارة البريطانية على هذا الإجراء فى ١١ يوليو ١٩٥١ دون جدوى ، وكذلك قدم السفير البريطانى بالقاهرة فى ٢٩



(مضيق تيران مياه عربية إقليمية)

يوليو ١٩٥١ ، مذكرة إلى وزير الخارجية المصرية موضحا فيها استعداد حكومة المملكة المتحدة بقيام السلطات الجمركية المصرية فى السويس باجراء التفتيش على السفن غير الحربية التى تبحر إلى ميناء العقبة ، على أن تقوم السلطات الجمركية بها بإخطار السلطات البحرية فى جزيرة « تيران » حتى لا تقوم بزيارة هذه السفن وتفتيشها مرة أخرى ، وقد وافقت وزارة الخارجية المصرية على هذا الإجراء فى نفس اليوم ، وجاء فى كتاب وزير الخارجية أن هذه التدابير والإجراءات « مطابقة لحقوق مصر فى موانيها ومياهها الإقليمية » ، وبذلك تكون المملكة المتحدة قد اعتبرت الإجراءات التى اتخذتها السلطات المصرية بخصوص الملاحة فى خليج العقبة إجراءات مطابقة لأحكام القانون الدولى .

— حاولت إسرائيل سنة ١٩٥٤ أن تحصل من مجلس الأمن على قرار بأحقيتها فى المرور بقناة السويس وخليج العقبة ولكن مجلس الأمن لم يتخذ قرارا فى صالحها .

— وجاء الاعتداء الثلاثى سنة ١٩٥٦ فانسحبت القوات المصرية من سيناء ، وسارعت القوات الإسرائيلية فاحتلت شبه جزيرة سيناء ومنطقة شرم الشيخ بوجه خاص ، وعندما بدأ انسحاب القوى المعتدية رفضت إسرائيل الانسحاب إلا بشروط أهمها :

(أ) مرابطة القوات الدولية فى منطقة شرم الشيخ عقب انسحاب القوات الإسرائيلية فى خليج العقبة .

(ب) أن تكفل القوات الدولية فى منطقة شرم الشيخ حرية الملاحة الإسرائيلية فى خليج العقبة .

ورفض السكرتير العام هذه الشروط وذكر أن القوات الدولية لن تستعمل لحل أية مسألة سياسية أو قانونية ، ولن تتعدى وظيفتها محاولة منع وقوع الأعمال الحربية .

— وبعد مفاوضات طويلة أعلنت جولدا مابر وزيرة خارجية إسرائيل فى اجتماع الجمعية العامة فى أول مارس ١٩٥٧ أنها قد تلقت مذكرة من وزير خارجية الولايات المتحدة بتاريخ ١١ فبراير ١٩٥٧ ، يؤكد فيها أن الولايات المتحدة تعتبر خليج العقبة ومضيق تيران من المياه الدولية ، وهى لذلك ، تعلن عن عزم إسرائيل ، على الانسحاب من شرم الشيخ ومن قطاع غزة .

— ولكن الدكتور محمود فوزى وزير الخارجية أعلن فى نهاية النقاش الذى دار فى الجمعية العامة أن التصريحات التى أدلى بها مندوب إسرائيل وبعض مندوبى الدول الأخرى بشأن انسحاب القوات الإسرائيلية المعتدية لا يمكن أن يكون لها أى أثر على حقوق مصر أو على مشروعية هذه الحقوق ، من غير قيد أو شرط .

وأخذت القوات الدولية — بموافقة مصر — أماكنها على الحدود بين إسرائيل ومصر ، كما تسلمت منطقة شرم الشيخ المطلة على المضيق من جنود إسرائيل ، وفى ستار من القوات الدولية وبموافقة غير مكتوبة من عبد الناصر بدأت إسرائيل تستعمل خليج العقبة دون أى سند قانونى فكان ذلك من أهم الأسباب لنشوب حرب ١٩٦٧ التى تحدثنا عنها فى كتاب خاص . ولعل مما يلقى ضوءا على موضوع الملاحة أن نذكر هنا بعض نصوص اتفاقية جنيف للمضايق ، وبخاصة النصوص التى كان لها صلة أو صدرت خصيصا من أجل مشكلة تيران ، ووجهة النظر المصرية العادلة بهذا الخصوص .

— تنص الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف المنعقدة فى ٢٩ إبريل ١٩٥٨ على ما يلى :

« لن يكون هنالك أى وقف للمرور البرىء للسفن الأجنبية عبر المضايق التى تستخدم فى الملاحة الدولية بين جزء من البحار العليا وجزء آخر من البحار العليا ، أو مياه البحر الاقليمية لدولة أجنبية » .

وتكاد تكون هذه الجملة الأخيرة قد وضعت خصيصا كى تنطبق على حالة مضيق تيران الذى يصل بين مياه خليج العقبة ومياه البحر العالى .

— وقد خالف هذا النص الذى يسوده التحيز لإسرائيل ، الحكم الذى أصدرته محكمة العدل الدولية فى قضية مضيق كورفو عام ١٩٥١ ففى ذلك الحكم أوضحت المحكمة المعيار الذى يميز المضايق الدولية التى لا يجوز تقييد الملاحة فيها وحددت لذلك أساسين :

(أ) أن كون المضيق موصلا بين بحرين من البحار العالية ، وهذا الشرط لا يتوفر فى مضيق تيران ، لأنه يربط بين بحر عال ومياه إقليمية .

(ب) أن يكون العرف الدولى قد تواتر على استعمال المضيق فى الملاحة البحرية الدولية . ومضيق تيران لم يسبق له أن استعمل لهذا الغرض ، ولا يجوز الاحتجاج بما حدث فى أثناء وجود قوة الطوارىء الدولية فى شرم الشيخ .

— بالإضافة الى ذلك فإن تطبيق الفقرة الرابعة من المادة ١٦ من اتفاقية جنيف لا يؤدى إلى إيجاد مبرر لمرور السفن الإسرائيلية فى مضيق تيران لأن شروط هذه الفقرة لا تنطبق على المضيق لما يأتى :

(أ) حكم الفقرة خاص بالمضيق الذى يصل ما بين أجزاء البحار العالية ، أو ما بين البحر العالى والبحر الإقليمى ولا ينطبق هذا على هذه الحالة ، إذ أنه يفصل بين البحرين حوالى ٩٧ ميلا من المياه المغلقة التابعة للسيادة المشتركة لكل من السعودية والأردن ومصر .

(ب) إن مرور السفن الإسرائيلية بمضيق تيران لا يمكن أن يوصف بالمرور البرىء الذى تشترطه الفقرة الرابعة ، إذ أن مرور هذه يعد ضاراً بالسلم وحسن النظام وأمن الدولة الشاطئية وهى مصر .

(جـ) إن أحكام اتفاقية جنيف لا تسرى إلا فى حالة السلم وبذلك لا تسرى على الأوضاع القائمة الآن بين مصر وإسرائيل نظرا لحالة الحرب القائمة بينهما .

كلمة عن سيناء : فى الماضى والحاضر

فى دراستى عن « اليهودية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان حديث طويل عن سيناء يرتبط بالفترة التى اتصل خلالها العبرانيون بالمنطقة من عهد يعقوب (اسرائيل) الى عهد خـروج بنى اسرائيل من مصر وفترة التيـــه .

ولعل من الأفضل أن نقدم كلمة شاملة وموجزة عن تاريخ سيناء ، ويمكن الاعتماد على الكتاب السابق وعلى الكتب التالية :

١ — تاريخ سيناء تأليف نعوم شقير .

٢ — سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والأمل الذى اصدرته دار الهلال : يونيو ١٩٧١ وكنت واحدا من كتابه .

٣ — دير طور سيناء تأليف افانجلوس بابا يوانو وترجمة صليب خورى وفيليب دحابره .

٤ — سيناء أرض المعـارك والقداســة تأليف Burton Bernstein الذى لخصه الأستاذ محمد انعزب موسى .

وفيما يلى هذه الكلمة الموجزة عن أرض سيناء الحبيبة :

سيناء أرض مصرية :

سيناء أرض مصرية منذ قديم الأزل ، وأحداثها لا تنفصـل عـن أحداث مصر ، وتاريخها جزء لا يتجزأ من تاريخ مصر .

وقد كانت سيناء دائما هى العقبة العصية التى ينبغى على أى جيش أن يتغلب عليها ويغزوها من أجل الحصول على جائزة أكبر ، سواء كانت هذه الجائزة فى الغرب (مصر) أو فى الشرق (سوريا وفلسطين) .

وشهدت سيناء ما لا يقل عن ٥٠ حربا كبرى فى تاريخها الطويل ، قديما ووسيطا وحديثا ، كما شهدت مرور عشرات الجيوش شرقا وغربا : مما كان يقطع سلامها الهادىء ، الصامت المستتب .

أهداف الفراعنة فى سيناء :

وقد سيطر الفراعنة على سيناء ، منذ أقدم العصور وجعلوها جزءا من الوطن المصرى المقدس ، وبالاضافة إلى ذلك كان هدفهم ذا ثلاث شعب :

١ — حماية الوادى من الغزاة .

٢ — والسيطرة على طرق الحرب والتجارة .

٣ — واستغلال مناجم النحاس والفيروز فى منطقة سيرابيت الخادم .

وعلى جبال المنطقة نقش المصريون انتصاراتهم على السكان المحليين الساميين . وخلال الأسرات الأولى توسع المصريون فى عملية استغلال مناجم المنطقة ، وفى البداية تأثروا فكريا بالساميين الذين أخضعوهم ، فانهم قبلوا عبادة القمر المستقرة فى المنطقة ، ولكن بدلا من « سين » أصبحت المراسم تقدم الى الاله المصرى « تحوت » وهو أيضا اله « القمر » فى البانثيون المصرى الذى نراه ممثلا على جدران مناجم سيناء فى شكل القرد (البابونى) أو فى شكل الطائر (ايبيس) . وعلى هذه الجدران أيضا نجد صورة الفراعنة الأوائل الذين « سحقوا البرابرة » وحكموا كل مصر من أمثال سنفرو وخوفو اللذين استغلا مناجم الفيروز ، وأقسما أن يحميا قداسة سيناء .

صراع بين المصريين والهكسوس :

وغزا الهكسوس مصر عبر سيناء وحكموا البلاد فى ١٧٠٠ ١٥٨٠ ق.م . وفى عصرهم تدهورت صناعة التعدين فى سيناء ، وهجرت

المناجم ، فقد ركز الهكسوس على اقرار السلام فى الوادى ، أى اخضاع المصريين وتركوا تطوير الحضارة وهى مهنة المصريين ! ولكن فى الأسرة الثامنة عشرة طردهم المصريون من البلاد ، واستأنفوا بعثاتهم الى سيناء ، وفى سيرابيت الخادم أنشأوا معبدا رائعا تكريما لحتحور ، ربة الفيروز ، والحب ، والمرح ، والفرح ، فى شكل بقرة ، وأرسلت هدايا ثمينة من الفراعنة الى معبد « الأم حتحور إلهة الفيروز » بسيناء • وفى المقابل نقل الفيروز السيناوى الى معابد وادى النيل ، وحول معبد حتحور المقدس فى سيرابيت الخادم نشأت مجموعة ضخمة من المؤسسات لا تزال آثارها وأطلالها قائمة •• أفنية وصروح وحجرات وحمامات وأروقة ونصب وعمد ومنصة احراق للاضاحى بالاضافة الى ثكنات كبيرة للجنود المصريين الذين وكلت اليهم مهمة إقرار الأمن وحماية المناجم من الطامعين •

سيناء والحروف الأبجدية :

وخلال هذه الفترة تقريبا وقع حدث ثقافى ذو أهمية بالغة فى سيرابيت الخادم • فقد ظهر على جدران المنجم بعض النقوش ذات الشبه بالرموز الكنعانية ، كانت تحويرا ضخما للهيروغليفية المصرية ، فبدلا من الصور التي تعبر عن كلمات كانت هناك رموز تعبر عن أصوات أساسية يمكن عن طريق اعادة تركيبها أداء كلمات جديدة لا حصر لها • وكانت هذه بداية الابجدية السينائية ، وهى حلقة الوصل بين الهيروغليفية المصرية والابجدية الفينيقية • وأصبحت الابجدية السينائية أم الابجديات التالية كلها •• بما فيها الابجديات الأوربية القديمة والمعاصرة •

سيناء معبر الجيوش المصرية والغازية :

وخلال الألف سنة التالية لذلك ، وحتى أسرة البطالمة قبل المسيح بعدة مئات من السنين ، شهدت سيناء سلسلة طويلة من الغزوات والانسحابات ، فقد احتلت مصر الشرق ، ثم احتلت هي بدورها ، فقد غزتها جيوش الاشوريين والحيثيين والبابليين والفرس والاغريق ، وهزت هذه الغزوات المتلاحقة سلطة الفراعنة المهيبة وسيطرت على طرق التجارة بين الشرق والغرب . والعبرانيون الذين كانوا عبيد المصريين ثاروا عليهم وفروا شرقا من مصر الى سيناء وطبقا للتراث تاهوا فى سيناء أربعين عاما بعد الخروج خلال حكم رمسيس الثانى على الأرجح (١٣٠٠ ق.م.) قبل أن يدخلوا الى أرض الميعاد حاملين رسالة التوحيد وتاركين خلفهم سيناء كاقليم مصرى مهجور سرعان ما عاد الى حياته البدائية ..

البطالمة والرومان :

وابتداء من القرن الرابع ق.م. أبدى البطالمة اهتماما متجددا بشبه الجزيرة ، فأرسلوا البعثات اليها ، وبنوا بعض الموانىء على طول ساحلها المطل على البحر المتوسط ، وهناك واجهوا قوة النبطيين الصاعدة ، وهم شعب سام من شرق نهر الاردن ، كان مقره البتراء ، واحتل النبطيون العقبة ، وفتحوا طريقا من العقبة الى غزة ، وسيطروا على طرق المواصلات فى سيناء ، و«عبر» طرق تجارتهم تركوا على جدران سيناء نقوشهم الآرامية ، واستطاعوا أن يصمدوا فى مواجهة البطالمة ولكنهم فى النهاية انهزموا أمام الرومان عام ١٠٦ ق.م.

وأصبحت مصر محمية رومانية ثم بيزنطية من عام ٣٠ ق.م. الى عام ٦٤٠ م وخلال هذه القرون السبعة زادت أهمية سيناء العسكرية والتجارية والاجتماعية ، فقد أنشأ الرومان سلسلة من المراكز العسكرية الحصينة

على طول الساحل السيناثى للبحر المتوسط تفصل بين الواحد والآخر مسافة ١٤ ميلا (طول مسيرة يوم للفرقة الرومانية) وبعض آثار هذه المراكز لا تزال قائمة الى اليوم •

سيناء فى العهــد المسيحى :

وتدهورت الامبراطورية الرومانية الغربية ليصــعد فى أثرها نجم الامبراطورية البيزنطية الشرقية ، وفى العصر البيزنطى بلغت سيناء قمة جديدة من حيويتها ، وأهميتها ، والسبب فى كلمة واحدة هو : المسيحية ، ففى القرن الرابع الميلادى اعتنق الامبراطور قسطنطين وأمه الامبراطورة هيلانة الديانة المسيحية وقرروا لأسباب تكتيكية ودينية أن يطوروا الأراضى المقدسة وسيناء وهبت رياح النفوذ البيزنطى والثقافة البيزنطية تكتسح شبه الجزيرة ، ففى رينوكولوروم (العريش) مثلا أقيمت كاتدرائية ودير وصوامع للرهبان ، واتسعت المدينة لتغطى ثمانية أميال مربعة ، وظهرت الكاتدرائيات تباعا فى المدن السينائية الأخرى • وكانت سيناء حتى قبل انتصــار المسيحية النهائى قد أصبحت ملاذا للهاربين بالعقيدة الجديدة من وجه الكفرة والطغاة ، فمنذ القرن الثانى الميلادى لجأ الكثيرون من المسيحيين الفارين من فلسطين ومصر الى وادى فيران وهو واد خصب نسبيا ذو ماء وخضرة فى الجنوب الغربى من شــبه الجزيرة ، وهؤلاء قدســوا جبل سربل باعتباره طور سيناء الــذى عليه تجلى الله لموسى ، وازدهرت المنطقة وأصبحت مقرا لابرشية صغيرة • وفى عام ٣٢٧م زارت الامبراطورة العجوز هيلانة الأراضى المقدســة ووصلت الى جبل موسى حيث أعجبت بتلك المستوطنة فى وادى فيران وامرت ببناء كنيسة صغيرة فيهــا للعذراء المقدسة ، وقام الامبراطور جوستنيان فى عام ٥٣٠ م بتوسيع هــذه الابرشية الصغيرة كى تعتبر كنيسة منيعة وقلعة وديرا •

دير سانت كاترين :

وفى القرن التاسع الميلادى سمى هـذا الدير بدير سانت كاترين ، وذلك عندما بدأت شهرة هـذه القديسة السكندرية تزداد وتأخذ الطابع العـالمى .

وقصة هـذه القديسة تبدأ من مطلع القرن الرابع ، فقد دخلت هذه الفتاة المسيحية وهى فى عمر الزهور ، وتقول الرواية إنهـا رأت السيد المسيح فى المنـام يخطبها ويضع خاتما فى أصبعها ، وفى الصباح وجدت الخاتم فعلا ، وقد ذهبت الى الوالى الرومانى تدعوه للمسيحية ، وقد أعجب بهـا الوالى ولكنه أرادها أن تعود للوثنية ليتزوجها ، ولما امتنعت أحضر لهـا خمسين فيلسوفا لاقناعها فاستطاعت أن تؤثر فيهم وتحولهم للمسيحية .

وحينئذ أصدر الوالى قراره باعدامها .

وتستمر الرواية لتقول أن الملائكة حملوا جسم القديسة الى قمـة جبل قريب من الدير السابق ، ورأى أحد الرهبان فى النوم ان جسـم القديسة قريب من الدير ، فلما استيقظ ذهب الى قمة الجبل فوجد الجسم فحمله ودفنه فى الدير ، ومنذ ذلك الحين أطلق على الدير « دير سانت كاترين » .

مسجد وسط الكاتدرائية :

وقد بنى الخليفة الفاطمى « الآمر » (٤٩٥ — ٥٢٤هـ = ١١٠١ — ١١٣٠م) مسجدا داخل دير سانت كاترين ، وكان بنـاء هـذا المسجد رادعا للأعراب الذين كـانوا أحيانا يهـاجمون الدير بعاطفـة دينيـة منحرفة ، ولذلك يقولون ان هذا المسجد حمى الدير كمـا أن الدير حمى المســجد .



المسجد الذى بناه الخليفة الفاطمى الآمر بن المستعلى داخل كاتدرائية سانت كاترين (يحمى الكنيسة وتحميه الكنيسة)

سيناء فى العهد الاسلامى :

ولنعد الى مطلع الاسلام فى مصر لنقرر أن سيناء شهدت دخول قوات الاسلام فى طريقها غربا لفتح مصر وشمال أفريقيا • وقد سارع مواطنو سيناء الى التخلى عن عقائدهم الوثنية واعتناق ديانة أبناء عمومتهم من البدو القادمين عبر خليج العقبة • وقد كوفئوا على ذلك بأن كلفوا بمسئولية حماية طرق الحج عبر شبه الجزيرة الى مكة •

وقد ظل بدو سيناء يقومون بهذه المهمة عدة قرون •

سيناء والحروب الصليبية :

واصطدمت الفتوحات الاسلامية بالمصالح المسيحية وكانت النتيجة اندلاع الحروب الصليبية التى كلفت سيناء مائة سنة أخرى من الغزو

والاحتلال والأذى • كان الهدف الأول للصليبيين الاستيلاء على القدس لتكون مقراً لمملكة مسيحية فى الأراضى المقدسة ، وتحقق هذا الهدف بعد أن سفكت دماء كثيرة فى عام ١١٠٠ م ونتيجة لذلك اقتطعت شريحة من سيناء تمتد من رفح الى العقبة وضمت الى مملكة الفرنج • كما استولى الصليبيون على مدينة أوستراسين الرومانية القديمة وأبقوها تحت سيطرتهم عدة سنين ، وعبر سيناء قدم الصليبيون الى مصر فى أربع حملات كان آخرها فى عام ١١٦٠ ، ووحد المسلمون فى مصر وسوريا قواهم ضد الخطر الداهم وهزموا بقيادة صلاح الدين قوات الصليبيين على مشارف القاهرة وتعقبوهم فى انسحابهم عبر سيناء حتى غزة •

وقرر الصليبيون اغاظة المسلمين بقطع طريق الحجيج الى مكة ، وأقاموا لهذا الغرض قلعتين صليبيتين على رأس خليج العقبة أكبرهما فى جزيرة فرعون (وتعرف أيضا بجزيرة كورال) وتمكنوا بذلك ، ولفترة من الزمن ، من قطع الحج الى مكة بما فى ذلك الطرق البرية والبحرية • وأقام المسلمون من جانبهم قلعة عسكرية لهم فوق جبل سيناء لحماية الطريق الجنوبى الى مصر فى مواجهة الصليبيين • وفى عام ١١٧٠ استولى صلاح الدين على منطقة العقبة ، وما ان حل عام ١١٨٢ حتى كان يقود قواته الغفيرة عبر وسط سيناء فى الحملة الأخيرة والكبرى ضد الصليبيين والتى انتهت بتحرير القدس •

سيناء فى العصر الحديث :

كان عهد ثورة ٢٣ يوليو عهدا مشئوما بالنسبة لمصر بوجه عام ، ولسيناء بوجه خاص ، فقد أبقت الثورة على القيود التى كان الانجليز قد وضعوها على

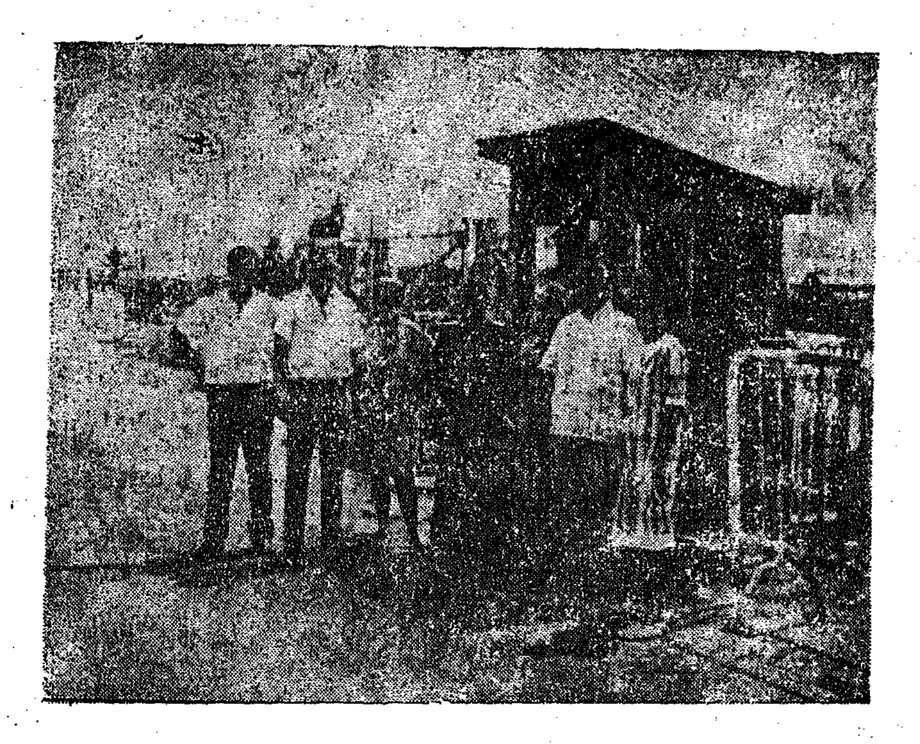
المصريين بحيث لا يكون من السهل دخولهم سيناء ، فعاشت سيناء وكأنها ليست جزءا من الوطن •

ولم تنل سيناء حظا يذكر من الرعاية والتعمير خلال عهد عبد الناصر ، وعلى العكس واجهت وسائل التخريب للأرض والذمم ، فقد اقتحمتها جيوش اسرائيل سنة ١٩٥٦ بمساعدة بريطانيا وفرنسا ، ولم تخرج منها اسرائيل الا بأوامر مشددة من الولايات المتحدة التى لـم يؤخذ رأيها فى هـذا الاحتلال ، وقد تركت اسرائيل ذيولها فى سيناء ، وكانت هذه تتمثل فى قوات طوارىء دولية كانت تعسكر فى شرم الشيخ لتضمن السماح لاسرائيل بالملاحـة فى خليج العقبة •

وفى مايو سنة ١٩٦٧ طلب عبد الناصر مـن السكرتير العام للأمم المتحدة سحب هذه القوات ، وأغلق الملاحة أمام السفن الاسرائيلية فقامت على أثر ذلك كارثة يونيو التي دمرت المعدات وجنود عبد الناصر الذين سيقوا دون نظام الى الكارثة ، واحتلت اسرائيل سيناء من جديد ، وطال احتلالها هذه المرة ، فلم تخرج منها الا فى ابريل سنة ١٩٨٢ بعد حرب أكتوبر ١٩٧٣ وبعد جهد ومفاوضات وتضحيات واسعة •

وكان لحرب ١٩٦٧ نتائج أخـرى خطيرة ، فقـد احتلت اسرائيل خلالها الهضبة السورية (الجولان) وغزة والضفة الغربية •

وقد زرت سـيناء فى سبتمبر سـنة ١٩٨٥ ، وعند الحدود التى تفصل سيناء عـن غزة التقيت بوفود مصريـة كـانت تزور المنطقـة أيضا ، وتطلعنا الى الأرض العربية بغزة ، ولكننا كنا نَمُدُّ لها الطرف ولا نستطيع أن نَمُدَّ لها الخطا ، وتذكرنا هذه الحرب الخـاطفة التى خسرنا فيها كل شىء بسبب ضعف القيادة وجهلها • حسابهم على الله •



تجمعات مصرية على حدود غزة
تنظر للأرض العربية ولا ندخلها

قريةياميت فى سيناء :

وقبل أن نترك سيناء نذكر أن الاتفاق كان قد تم فى عهد الرئيس السادات بين مصر واسرائيل لتجلو اسرائيل عن سيناء ، وقد تنازلت مصر عن كثير من اتجاهاتها لتحصل على هذا الجلاء ، فمثلا اعترفت باسرائيل ، وقررت تبادل التمثيل الدبلوماسى معها ، وخاصمتها العرب من أجل ذلك ، وقبلت مصر شروطا مجحفة فيما يتعلق باعادة تسليح سيناء ، .... ومع هذا لم تكن اسرائيل مخلصة فى هذه المعاهدة ، وانما وافقت عليها لتنتزع اعتراف مصر بها ، ولتعزل مصر عن العرب ، ثم تبدأ بضرب العرب وهم بدون مصر ، فأسرفت فى عدوانها على لبنا ن وعلى الفلسطينيين ، وضربت

المفاعل الذرى فى العراق وضربت بعض قرى تونس وهددت كل الدول العربيـــــة •

وفيما يتعلق بعلاقاتها بمصر لم تسر اسرائيل سيرا محمودا بل كـانت علاقاتها بمصر حافلة بالخديعـة والنكـران والعدوان ، فلـم تسلم « طابا » لمصر وهى جزء لا ينفصل عن سيناء ، ووقفت من ياميت موقفا بعيدا عن روح المعاهـدة ، وياميت قرية هائلة بنتهـا اسرائيل فى المسافة بين العريش ورفح ، وجرت مفاوضات لتتركها اسرائيل عند الجلاء أو لتبيع المبانى لمصر ، ولكن هذه المفاوضات فشلت ، فقد رفضت اسرائيل كل العروض ، وطمعت أن يبقى بها سكان صهاينة تحت سلطة مصر ، وطبيعى أن هذا الطلب رفض رفضا قاطعا ، وكانت النتيجة أن دمرتها اسرائيل تدميرا تاما عقب اخلائها •

وقد زرتها فى أغسطس سنة ١٩٨٥ ، وشاهدت بقايا خراسانة نادرة المثال قوة وصلابة ، وقد تفككت وتساقطت سقوفها بفعل التفجير العنيف ، ولابد أن قدرا كبيرا من أدوات التدمير قد استعمل فيها بحيث لم يترك حجرة واحدة فى هذه القرية الكبيرة ، ولم يبق بها الا المعبد الذى لم يرد الصهاينة هدمه •

ومع هذا بعض الصور التى التقطناها لأنقاض القرية ، وهى تدل على هذه الجريمة ضد العمران وضد العلاقات الودية والانسانية •



أطلال قرية « ياميت » تنطق بالسخط والاشمئزاز



وقفة حزينة بجوار الأطلال



حديث : ستظل هذه الأطلال تذكرنا بقسوة اسرائيل وبـُعدها عن الصفاء والانسانية •

طـابا :

بقى من سيناء جزء لا يزال موضع خلاف بيننا وبين اسرائيل ، ذلك هو « طابا » وهى منطقة تمثل جزءا لا يتجزأ من أرضنا ، ولكن اليهود يمدون جشعهم لهذا الجزء ، وللتعريف بالمشكلة نورد دراسة موجزة وواضحة عن هذه المشكلة :

— طابا هى نقطة على الساحل الغربى لخليج العقبة — تقع داخل الحدود المصرية بثلاثة أو أربعة أميال • وهى على بعد ستة أميال من جنوب ايلات • وترجع أهميتها الى قرب آبار البترول منها — بالاضافة الى تحكمها فى الممرات التى توصل الى سيناء من رأس الخليج فضلا عن تحكمها فى طريق غزة •

ـ نصت المعاهدة المصرية الاسرائيلية على أن تنسحب اسرائيل من سيناء كلها لتمارس مصر سيادتها الكاملة على المنطقة التى تمتد الى الحدود المعترف بها دوليا بين مصر وفلسطين فى فترة الانتداب ، وكانت « طابا » بالتأكيد داخلة ضمن الحدود المصرية •

ـ وعند تنفيذ هذه المعاهدة ادعت اسرائيل أن منطقة « طابا » لا تدخل ضمن الحدود المصرية ، وتمسكت مصر بموقفها وبحقها الثابت ، فتم الاتفاق فى ٢٥ ابريل ١٩٨٢ (أى عند اتمام انسحاب اسرائيل من سيناء) على أن يتم انسحاب اسرائيل من هذه المنطقة وألا تدخلها السلطات المصرية وتوجد بها القوة متعددة الجنسيات الى أن يتم الاتفاق بشكل نهائى •

ـ ومع ذلك قامت اسرائيل ببناء فندق سياحى فى وادى « طابا » توسيعا للاقاليم التى تحيط بميناء ايلات ، وقد تم ذلك دون ابلاغ الحكومة المصرية ، أو تم فى غفلة الحكومة المصرية أو بتساهلها •

ـ ولا يزال الصراع قائما للانتهاء من هذه المسألة بالمفاوضة أو بالتحكيم •

عهد أنور السادات

مقـدمة :

حديثنا عن السادات هنا حديث قصير ، فللسادات جزء خاص من موسوعة التاريخ الاسلامي هو الجزء العاشر يصف السادات وعهده وصفا دقيقا وأرجو أن يوفقني الله لاصداره قريبا ان شاء الله .

اسم السادات :

ان الاسم الحقيقي الثابت فى شهادة ميلاد أنور السادات وفى ملف خدمته هـو :

محمد أنـور الساداتى (١)

ولذلك سنستعمل هذا الاسم الحقيقي من حين الى حـين ، تذكيرا للحق وارتباطا بالأمور الرسمية .

وبناء على التاريخ وقواعد اللغة العربية هناك « الشيخ السادات » الذى كان له جاه عظيم فى عهده ، وكان مع عمر مكرم والشيخ عبد الله الشرقاوى والبكرى ... أعضاء الديوان الذى أنشأه نابليون .

أما « الساداتى » فاسم ينسب الى « السادات » فهو ليس مـن أسرته ولا يحمل اسمه ولكنه قد ينتسب له بسبب من الأسباب .

السادات والسلطة :

كان السادات أحد زعماء ثورة أو حركة يوليو ، ولعله كان من أذكى زعماء هذه الحركة ، وكان بالتأكيد من أكثرهم ثقافة ، ويبدوأنه لاحظ جبروت عبد الناصر وسطوته فتحاشاه ، فمرة يعمل لإرضائه بأن يؤلف

---

(١) فى كتاب الأستاذ عبد الله امام « قضية عصمت السادات » اورد المؤلف هذه القضية التى ذكرناها هنا ، واستند الى صورة زنكوغرافية لتقرير سرى سنوى صادر من وزارة الحربية والبحرية المصرية سنة ١٩٥١ .

كتابا يمدحه فيه ويرفعه الى السماء كما يقولون وعنوان الكتاب هـو : « يا ولدى هذا عمك جمال » •

ومرة كان يفتح له بيته ليكون المكان الوحيد الذي يرتاده ويمضى به سهراته ، وكانت طلاقة السادات وثقافته تهيىء الابتسامة للزعيم •

ومرة كان يجلس مجلس القاضى فى محكمة الثورة أو محكمة الشعب ليصدر الأحكام التى تُرْضِى عبد الناصر ضد من يكرههم ويحقد عليهم •

على أننى أتصور أن ذكاء السادات ساعده ليتخلص من هذا الجو ، فاتجه أو وجهه حسن حظه ليكون الأمين العام للمؤتمر الاسلامى أو أن يكون رئيسا لمجلس الأمة ، وهذا قلّل ارتباطه بالسلطة الطاغية •

على أن عبد الناصر قضى على زملائه تماما الواحد بعد الآخر ، عزل بعضهم ، وسجن آخرين ، وقتل من لم يقو على عزله أو سجنه ، ومن هنا خلا الجو للسادات ، فاستدعاه عبـد الناصر وعينـه نائبا لرئيس الجمهورية سنة ١٩٦٩ عندما كان جمال عبد الناصر على وشك أن يسافر الى الاتحـاد السوفييتى •

ولما مات عبد الناصر أصبح أنور السادات رئيسا مؤقتا للجمهورية تبعا لدستور ذلك العهد ، وواجه السادات بذلك عقارب السلطة ومراكز النفوذ ، وساعده ذكاؤه مرة أخرى فتظاهر بأن أحنى رأسه لهم وتملقهم ، وبدا كأنه سيكون طوع أيديهم ، وفى ١٥ أكتوبر سـنة ١٩٧٠ أجـرى استفتاء لرياسة الجمهورية ، وقد قضى هذا الاستفتاء باختياره رئيسا للجمهوريـة •

وتمكينا للملَق والانحناء للعاصفة دخل السادات مجلس الشعب عقب اختياره رئيسا للجمهورية ، واتجه لصورة عبد الناصر ، وانحنى أمامها انحناءة طويلة جلبت عليه سخط الكثيرين ، ولم تَشْفِ غليل الحاسدين والأعداء ، فالانحناء والركوع لا يكون الا للخالق الأعظم •

مرتبات ومخصصات بدون ضرائب :

ومن وسائل الملق الذى أبداه السادات ليصل الى غايته أن أسرع فى فترة الهلع الذى كان يعم البلاد عقب وفاة عبد الناصر ، أن أرضى أسرة الزعيم وأرضى مراكز القوى ، فاتخذ مجلس الوزراء أول قرار له ، وكان خاصا بمنح زوجة عبد الناصر وأولاده جميع مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ، وأن تظل تعيش فى قصر الدولة الشاسع الفاخر طيلة حياتها ، ويظل لها كذلك قصر الاسكندرية .

لقد كان هذا تصرفا لا يرتضيه عقل ولا ضمير ، وهو تصرف لا تعرفه أية دولة من الدول ، وقد تكلمت الصحف عن زوجة تشرشل الذى قاد بريطانيا فى أخطر معارك التاريخ ، ثم — بعد موته — أخذت تبيع ما عندها من تحف لتستكمل حاجاتها فى الحياة ، ومثل هذا قيل عن الزعيم العظيم شارل ديجول الذى قاد فرنسا واستعاد لها استقلالها بعد أن اكتسحتها جيوش النازى ، وبعد وفاته عاشت زوجته بما عندها من مال وما استحقت من معاش ، ولما مات رئيس جمهورية الولايات المتحدة « هاردنج » كان على زوجته أن تغادر البيت الأبيض فورا ، ولكنها لم يكن لها مسكن خاص فبقيت بضعة أيام ريثما وجدوا لها حجرة فى فندق .

أما مصر فيجرى عليها ما جرى ، ولا تزال مصر حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ تدفع هذه المبالغ الباهظة على الرغم من الضيق الاقتصادى الذى تعانيه ، وعلى الرغم من الثراء الفادح الذى ظهر فى أيدى أولاد عبد الناصر والذى تجاوز الملايين أو البليارات ، ولسنا نعرف الى متى ستظل مصر تدفع مئات الآلاف لسيدة تعيش وحدها بعد زواج أولادها فى هذا القصر المنيف أو تقفله لتعيش متنقلة فى عواصم العالم .

ويبدو أن السادات هيأ ذلك لزوجة عبد الناصر وأولاده حتى يتيح فرصة لتكرار ذلك مع أسرته بعد وفاته ، فقد تقرر مثل ذلك للسيدة جيهان السادات وأولادها منه (وليس لأولاده الآخريات من زوجته الأولى

السيدة اقبال) ولذلك فمصر تدفع الآن (١٩٨٦) مرتبات ومخصصات بدون ضرائب لثلاثة رؤساء وهى البلدة الوحيدة التى تفعل ذلك .

ويلاحظ أن كلمة مخصصات كلمة رهيبة ، فالمخصصات تغطى التزامات الرئيس التى يستلزمها منصبه ، والرئيس قد مات ، ولم يعد يشغل هذا المنصب ، فكيف بالله تدفع هذه المخصصات لزوجة لم تعد تواجه هـذه الالتزامات والمسئوليات .

واذا كانت زوجة عبد الناصر تعيش غالبا فى لندن ، فان زوجة السادات تعيش غالباً فى الولايات المتحدة ، وقد ذكرت الأنباء أنها أرسلت من هناك أطباء متخصصين لعلاج « نستاس » لها بالقاهرة ، وحق لها أن تفعل ذلك فمال الشعب الفقير يدفع لحسابها بسخاء .

وكلمة أخيرة عن هذا الموضوع هى : هل سنظل نفعل ذلك ؟

ومعنى هذا أننا فى يوم من الأيام سندفع مرتبات ومخصصات لأعـداد كبيرة مـن الرؤساء ، وهى نكبة ونزيف لابد من إيقافه .

مصر اقتصاديا فى مطلع عهد السادات :

عندما تولى أنور السادات السلطة كانت مصر تعانى أشـد البلاء من الهزائم التى نزلت بها فى عهد جمال عبد الناصر ، ومن الاضطراب الاقتصادى الذى كان قد أكل كل ثراء مصر ، وتركها على النحو الذى رسمه أنور السادات اذ قال : ان مصر كانت كشخص نزف كل دمه ، وخلت شرايينه من الدم .

وكانت مصر بالاضافة الى ذلك تعانى من سخرية العالم بعد هزيمة ١٩٦٧ وتعانى القطيعة من كثير من الدول ، وأخذ أنور السادات يتحسس طريقه برفق فى الميدان السياسى والعسكرى والاقتصادى حتى انفجرت مشكلة مايو التى سنتحدث عنها فيما يلى :

حركة مايو :

شهور قليلة مرت بين بدء رياسة السادات للجمهورية فى ١٥ أكتوبر ١٩٧٠ وبين حركة ١٥ مايو من العام التالى ، وهذه الشهور كانت حافلة بالتربص والائتمار ، فقد سبق أن أشرنا الى أن السادات لم يكن على وفاق مع المحيطين بعبد الناصر ، وكان يُعْتَبر دخيلا عليهم ، فكانت الكراهية متبادلة بين الطرفين ، ولكن ذكاء السادات جعله يحنى الرأس خلال الفترة الأولى ليظفر بالرياسة ، فلما تمّ له ما أراد ، بدأ يدبر المكائد لينقضّ على هؤلاء .

وفى نفس الوقت كان هؤلاء يدبرون الخطط للتخلص منه ، وكان الأسبق سينال الفوز ، فالضربة الأولى كثيرا ما تكسب النصر لصاحبها ، واستقر رأى السادات على أن يضرب بسرعة قبل أن يتعرض لهجوم أعدائه ، واعتمد فى ذلك على شخصين مهمين أحدهما لقيادة الجيش وهو الفريق محمد صادق ، والآخر لقيادة الشرطة وهو ممدوح سالم ، واتفق معهما سرًا على أن يكون الأول وزيرا للدفاع ، والثانى وزيرا للداخلية وفى لحظة خاطفة استولى كل منهما على السلطة التى أصدر السادات قرارا بتعيينه فيها ، وتمّ القبض على القيادات العسكرية والسياسية المقاومة للسادات ، وفى قمتهم على صبرى وشعراوى جمعة وسامى شرف ومحمد فوزى ولم يكن لأحد من هؤلاء مكان فى نفوس الشعب ، فبارك الشعب نهاية هذه الشرذمة التى طالما نكلت به وامتصت دماءه وأعانت عبد الناصر عليه وقد جرت محاكمة هؤلاء ، فأدينوا وصدرت ضدهم أحكام مختلفة ، وعلى الباغى تدور الدوائر .

ويلاحظ المطلعون أن السادات قبض على أعدائه الذين كانوا ينافسونه ، ليمكّن لسلطانه ، ولم يقبض على باقى أعداء الشعب ، فاللصوص ، وتجار المخدرات ، والذين أثروا بالباطل .... لم يُصبهم منه سوء .

...ة التصحيح :

بقيت كلمة تدعو للسخرية هى استعمال كلمة « ثورة » فلقد قام ...ش بحركته التى دمرت البلاد والعباد وأسموها « ثورة » وهى فى ...طلاح الحقيقى ليست الا انقلابا ، ثم قبض السادات على أعدائه ، ... أخرى استعمل كلمة ثورة فقد طابت له هذه الكلمة فأسمى حركة ...ص من أعدائه « ثورة » أو « ثورة التصحيح » •

...عقب ثـورة التصحيح أعيـد تكوين مجلس الوزراء والاتحـاد ...اكى ومجلس الشعب ومجالس الادارات ، كما أعيد انتخاب مجالس ... والأندية وأصبح للحكم وجه ساداتى جديد •

...يعتبر عهد أنور السادات عهدا يختلف فى قيمه واتجاهاته اختلافا ...ن عهد سلفه ، وقد ظهرت به معـالم من النور ، ووجـدت به ...ذكر فتشكر ، وان ظهرت بجانب ذلك بعض البقع السوداء ، ...م هذا العهد هى :

١ ... عودة اسم مصر ، ففى أول سبتمبر ١٩٧١ صدر اعلان دستورى ... مصر لاسم « جمهورية مصر العربية » •

٢ ... اطلاق الحريات الى حد كبير ، وسيادة القانون فيما لا يناقض رغبات الرئيس ، واعلان الدستور الدائم وهو أيضا دستور غير شعبى وسنعرض عيوبه عند الحديث عن عصر حسنى مبارك •

٣ ـ أنهى عقود الخبراء السوفييت ، واسـتعاد القاعدة الحربية التى كانت قد مُنِحت لهم ، فأنقذ مصر من الشيوعية الملحدة •

٤ ... العبور وهزيمة اسرائيل ، وقد سقط من اسرائيل عدد ضخم

من الجنود والضباط قتلى وجرحى وأسرى ، واستعادت مصر قناة السويس ، واهتزت اسرائيل اهتزازا عنيفا فى كل مجال وتأزمت الأمور عند الأعداء حتى صح أن يقال اننا صدّرنا الى اسرائيل حالات التمزق التى كان يعيش فيها العرب عقب هزيمة ١٩٦٧ •

٥ — أعيد فتح قناة السويس للملاحة الدولية فى ٥ يونيو ١٩٧٥ • واختيار ٥ يونيو لذلك كان من ذكاء من السادات ليداوى جراح هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ •

٦ — اعلان فك الارتباط الثانى فى أواخر أغسطس سنة ١٩٧٥ وبمقتضاه تقرر انسحاب اسرائيل الى ما خلف الممرات فى سيناء ، كما تقرر أن تعود منابع بترول أبو روديس والبلاعيم الى مصر ، وهكذا حاربنا وانتصرنا فاستطعنا أن نستعيد القناة ، وجزءا من سيناء مجاورا لها ، ثم تفاوضنا واستعدنا باقى سيناء ولكن بشروط فيها نوع من انتقاص السيادة ، وعلى كل حال فالحديث عن معاهدتى كامب ديفيد سيأتى بالتفصيل فى الجزء العاشر •

٧ — من أبرز معالم هذا العهد أن عادت الابتسامة لشفاه المصريين ، وأمن الناس على أنفسهم وأعراضهم وأموالهم ، وذلك ما لم يتحقق لهم طيلة العهد القاتم السابق •

٨ — ومن الاصلاحات الداخلية التى برزت فى عصر السادات انشاء المدن الجديدة : العاشر من رمضان ، والسادات ، ومايو ، والسلام ، وانشاء نفق أحمد حمدى والطرق الكثيرة والكبارى العلوية ، واصلاح التليفونات ••••

٩ — حاول أنور السادات أن يخلق فى البلاد جوًّا من الديمقراطية ، ولكنه حرص على أن تكون ديمقراطية مستأنسة أو خاضعة له ، وهذه فى الحقيقة لا يمكن أن تكون ديمقراطية حقيقية ، وعلى كل حال فقد اتجه للاتحاد الاشتراكى ليخلق فيه ما أسماه « منابر » لليمين واليسار والوسط ، ثم اتجه لخلق الأحزاب فكلف « ممدوح سالم » أن يؤلف حزب

مصر ، وكلف ابراهيم شكرى أن يؤلف حزب العمل ، وظهر حزب الوفد الجديد ، وكانت هذه ديمقراطية عرجاء ، ولنا حديث طويل عن الأحزاب والديمقراطية والدستور بعد عبد الناصر ، وسنقدم هذا الحديث ضمن أحاديثنا عن عهد حسنى مبارك بعد قليل .

١٠ ـ كانت زوجة أنور الساداتى تسمى نفسها « سيدة مصر الأولى » ومن الواضح أنها تنحدر من دم ليس عريقا فى المصرية ، ولذلك كان هذا اللقب يؤذى شعور المصريين دون استثناء ، وكنا نهتف دائما بأننا جميعا خدم مصر وليس أحد سيدا لها ، ولكن هذه السيدة عشقت هذا اللقب اللعين الذى جرّ عليها كثيرا من السخط واللعنات ، والذى لم تستعمله زوجة عبد الناصر ولا زوجة حسنى مبارك .

١١ ـ بالاضافة الى ما حققه أنور السادات من انتصارات فى المعركة ، نجده قد حقق نصرا فى المفاوضات مما أتاح الفرصة لاستعادة سيناء واعادة فتح قناة السويس واستعادة بترول المنطقة ،**ولكن الساداتى عقب ذلك تألّه وتكبر وتجبر ، وكان عليه أن يشكر الله وينحنى اليه .**

١٢ ـ وفى عهد السادات ـ للأسف ـ ظهر كثير من الانحراف والاهمال والاثراء على حساب الشعب وكان ذلك نتيجة لما سمى « الانفتاح » فقد ظهرت طائفة مسعورة لكسب المال بأى وسيلة من الوسائل ، عن طريق ما سمى التصدير والاستيراد أو عن طريق تغيير العملة وظهر كثير ممن يملكون الملايين أو البليارات بدون وجه حق .

١٣ ـ وفى الخامس من سبتمبر سنة ١٩٨١ أى قبل نهاية الساداتى بشهر أصدر هذا أوامره باعتقال حوالى خمسة آلاف شخص من المصريين وزج بهم فى المعتقلات ، وكان فيهم الشيخ الكبير والشاب والرجال والنساء والمسلمون والأقباط والشيوعيون والإخوان المسلمون ، فكان التشفّى ظاهرا فى هذا العمل المزرى .

وفى السادس من أكتوبر ١٩٨١ سقط السادات فى حادث المنصة . وسبحان الباقى وسيشمل الجزء العاشر من هذه الموسوعة ان شاء الله تفاصيل ما أوجزنا هنا من أحداث .

الحيدة الكامله فى تدوين التاريخ :

وفى ختام حديثنا الموجز عن أنور السادات نبرز نهجنا فى الدراسة ، ذلك النهج الذى يقوم على الحيدة المطلقة ، فقد مدحنا أنور السادات فى حركة مايو حين خلصنا من بعض أعداء الشعب ، ومدحناه بعمق فى إعداده لمعركة رمضان ، وادارته لها ، واستعادة سيناء ، وإعادة فتح قناة السويس ، واستعادة مصادر البترول المصرى ، وهذه مواقف جديرة بالتقدير ، وانتقدناه فى قضايا أخرى كما مر .

ونريد هنا أن نثنى على صحيفة « الوفد » : فإنها — على الرغم مما عانى حزب الوفد وزعيمه من تصرفات السادات — كتبت فى عدد ١٩٨٦/٥/٢٢ الكلمة التالية وبجوارها صورة السادات :

يومان خالدان فى تاريخ مصر :

يومان عزيزان على المصريين جميعا ، خالدان فى تاريخ مصر وشعبها العريق ، اجتمعا معا فى أسبوع واحد ، واحتفل بهما كل بيت وكل قلب يخفق بحب هذا الوطن . اليوم الأول هو الخامس عشر من مايو ، الذى تحطمت فيه قيود المصريين ، وانهارت دولة الظلم والظلام والارهاب . واليوم الثانى هو العاشر من رمضان ، يوم حرب التحرير الخالدة ، وذكرى استرداد الأرض والكرامة : وصفحة التاريخ المشرقة ، التى سطرها أبناء مصر وأبطالها بدمائهم الطاهرة ، إننا فى هذه الذكرى ، نتوجه بالتحية الى أبطالنا ، ونترحم على شهدائنا ، ونذكر الرجل الشجاع الذى كان صانع القرار الجسور فى اليومين .. الرئيس الراحل أنور السادات .

ثورة ٢٣ يوليو فى الميزان

هذه « القفزة » التى تتسمّى نفسها ثورة ، والتى يسمّيها بعض الناس « عصابة » أو انقلابا ، قامت سنة ١٩٥٢ ، واستغرقت حماستها ونارُها عهدى عبد الناصر والسادات مع خلاف كبير بين العهدين ، وبخاصة بالنسبة للإصلاحات والاضطهادات ، .. أقول أن هذه الثورة انقضت بانقضاء عهد السادات ، ولم يبق لها الا ملامح قليلة فى عهد محمد حسنى مبارك ، ملامح من بقايا هيئة التحرير التى تحركت الى الاتحاد القومى ، فالاتحاد الاشتراكى ، فحزب مصر ، فالحزب الوطنى الحاكم عند كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ .

ومعنى هذا أن الثورة لم تختف بعد ، فلا يزال دستورها هو الدستور المعمول به ، ولاتزال مؤسساتها قائمة ، ولا تزال كثير من القوانين الفاسدة التى أصدرتها معمولا بها ، وعلى كل حال فالأمل أكثر الآن فى أن نطوى صفحات هذه الثورة ، وان نبدأ من جديد حياة جديدة ، سائلين الله أن يعوضنا عن عشرات السنين التى أضاعها الجهل وسوء التدبير ، وأن يساعدنا لنعيد العمران لبلادنا التى دمّرتها هزائم عبد الناصر الساحقة (انظر صورته بعد هزيمة ١٠٦٧) على الصفحة التالية .

وقد كتبتُ عن هذه العصابة كثيرا حتى ظن بعض المتسرعين أننى متحامل ، أو متشدد ، والحق أننى أدوّن التاريخ بكل إنصاف ، وأحس وأنا أدوّنه بالمسئولية الكبرى أمام الله وأمام الناس ، ولأجل أن أزيد الموضوع ايضاحا أنقل فيما يلى آراء صفوة من المفكرين المصريين فى هذه الثورة وبخاصة فى الديكتاتور الظالم عبد الناصر .



منظـــر لصـــانع الهـــزائم

وهو يحاول الهرب من هزيمة ١٩٦٧ فيلاعب نفسه « الشطرنج » ولكن تلاحقه أصداء الهزيمة الساحقة ، وتدق رأسه أرواح الآلاف الذين دفع بهم للموت ، وتركت جثثهم للوحوش والهوام فى سيناء ٠

محمود أبو الفتح والثورة :

يقول الأستاذ محمود أبو الفتح فى أحدى مقالاته يصور ما حدث لمصر خلال هذه الثورة :

« فى مطلع عهد الثورة فقدت مصر أهم العناصر التى تحمى الارادة المستقلة وهى الحرية ، والاكتفاء الغذائى ، والتقدم الانتاجى ، ثم سار الحاكم فى أسلوب حكمه كالآتى :

** ضرب الحاكم كل الحريات واستباح القتل والشنق والتعذيب الوحشى والاعتداء على شرف السيدات .

** اباح الحاكم للانصار كل ما يمكن تصوره من جرائم الاثراء الحرام .

** انقضت الشهوات الجامحة على الثروات كانقضاض الوحوش الجائعة ، وسرعان ما اختفت الثروات وتم احتلال القصور وخطف المناصب .

** انقضاض رهيب وصل الى القمة للبحث عن الرفاهية فى صورة مصايف فى جزيرة الشاى بحديقة قصر المنتزة يمتنع على أى مصرى أن يقربها أو يدخل أرضها ..

** المتاحف والقصور حافظت عليها الثورات الهمجية فى فرنسا وفى روسيا .. اما فى مصر فقد نهبت واختفت المجوهرات والتحف التى كانت فى قصور أسرة محمد على ، وحتى رخام مقبرة أسرة محمد على قد نهب وسرق .. تصوروا بيتا يبنى برخام مسروق من مقبرة !!

** وكل ذلك يتم والويل كل الويل لمن ينقد أو حتى يتهم زيفا بانه ينقد .. فقد أصبح القانون وأجهزة « الأمن » لحماية الجريمة !!

ودفن الحاكم المصرى عزة مصر :

** ولأول مرة فى تاريخ مصر منذ العهد الفرعونى يمد الحاكم

يده يطلب المعونات ·· يطلب الأكل ·· ويمدهــا لمن ·· لأمريكا ·· التى يباهى بانه يعاديها ويحارب امبرياليتها ··

** ويستطيع كل انسان أن يدرك مدى سعادة حكام أمريكا إذ يرون حاكم مصر يطلب الغذاء منهم ·

** افتقرت مصر وضاعت ثرواتها وبدأ حاكم مصر يقترض ويطلب المزيد من المساعدات من الاتحاد السوفيتى والكتلة الشرقية ·

** وتم دفن استقلال الارادة الوطنية المستقلة ، فالجائع الذى يلتمس المعونات والقروض ليس له ارادة وليس له استقلال ·

خبراء وقواعد عسكرية وانكشارية :

** ١٧ ألف خبير روسى يسيطرون على كل أمور مصر وخصوصا جيش مصر ·

** قاعدة بحرية على أرض مصر لاساطيل الاتحاد السوفييتى ·

** الجيش المصرى يتم قتل شــبابه بحجة الدفاع عن لومومبا فى الكنغو وفى سبيل تحرير اليمن ·

** ولا يمكّن الجيش من الدفاع عن أرض الوطن ، بل يقذف به قذفا فى نزق وطيش لم يـُعْرَف تاريخ « نيرون » بمثله ليموت الآلاف وتتدمر أسلحة بآلاف الملايين ويستولى العــدو على بترول مصر ويجلس جنود العدو وقد أدلوا أحذيتهم فى مياه قناة السويس التى كان الحاكم الفاشل يباهى بتأميمها ·

انتصارات ·· وانتفاضات :

** قضى الله امره وتغير الحاكم وحقق الحاكم الجديد بسرعة مذهلة عدة انتصارات ، إذ انهى تغلغل الخبراء الأجانب ، والقاعدة الحربية الأجنبية ، وخفف القيود على الحريات الشخصية للمصريين ، ثم توج الانتصارات إذ أتاح لجيش مصر الباسل فرصة الانتقام من العدو ·

** كان من الممكن أن يقفز بمصر ، ولكن مرة أخرى انقضت الشهوات التى لا تشبع على الثروات ، وكأن الوليمة قد أعيد نصبها للكواسر الجائعة ٠

** وعم الفساد وانتشر وارتفعت أرقام الديون ارتفاعا رهيبا ٠٠ وتضخمت امتيازات « الثوار » والمحاسيب ٠

واصبحت مصر :

** وهكذا أصبحت مصر من دولة تملك ارادتها المستقلة بتأييد شعبها ورخاء اقتصادها الى دولة فقدت ارادتها لأنها فى حاجة الى ٧٠٪ من قوت الشعب ٠

** تحولت مصر من دولة دائنة الى مدينة ٠ من دولة سليمة المرافق الى دولة مدمرة المرافق ومن دولة ينعم شعبها بالقناعة والرضاء الى دولة تعج بالرشوة والفساد وضياع مئات الملايين ٠٠٠

** وأخيرا وليس آخرا تحولنا من دولة كانت لها أحزابها التى تتكون بارادة شعبها وكانت لها صحافتها الحرة وقانون انتخاب مثالى ٠٠ الى ما نحن فيه ٠٠

ومع ذلك يحتفلون :

* رغم كل هذه الحقائق لا تزال الحكومة تحتفل بعيد تلك « الثورة » وتسميه العيد القومى ٠٠ ولكن ليس فى الأمر غرابة فالحزب الذى يحكمنا هو الذى أيد كل ذلك والذى انتفع من كل ذلك ٠٠ ولا يغير الله ما بقوم حتى يغيروا ما بانفسهم ٠

جلال الدين الحمامصى والثورة :

ولنترك الأستاذ محمود أبو الفتح الى كاتب حر آخر ، هو الأستاذ جلال الدين الحمامصى ، وله عن الثورة وعهدها كتب وبحوث ضافية ،

ولكنا نقتبس منه كلمة قالها فى الأخبار يوم ١٩٨٦/٢/٩ عن زعماء الثورة الذين ينشرون مذكراتهم بالصحافة العربية ، قال سيادته :

يعرض أقطاب عهد ما بعد ٢٣ يوليو ١٩٥٢ « فى هذه الأيام » أوراقهم السياسية على شعوب العالم العربى ، إذ لا تخلو جريدة أو مجلة عربية من « حلقات مسلسلة » يكتبها هذا أو ذاك من الشخصيات التى حكمت مصر ، وأمسكت بخيوط سياستها الخارجية والداخلية • ومن مضمونها يمكن أن تحكم على نوعية العقول التى حكمت مصر وقادتها الى هذه التركة المثقلة التى دوخت الشعب وجعلته يفقد اتزانه ويغرق فى ديون خارجية ومشكلات داخلية متراكمة •

ومع هذا ورغم كل ما فعلوا فانهم يطفون الآن على السطح بلا خجل أو حياء ويتكلمون ، ولا يعتذرون بل وتسمح لهم الحريات — التى خاصموها وعطلوا ممارستها لسنوات فوق سنوات — بعودتهم كى يكونوا جزءا يتفاعل مع مجتمع يحاول ازالة آثار عدوانهم على كل شىء •

مصطفى أمين والثورة :

أما الكاتب العملاق الأستاذ مصطفى أمين ، فهو يمثل الآن قلب الحرية الخفاق ، وهو يكتب كل يوم ما يجيش بنفوس المصريين ويعبر عن مشاعرهم ، ولا يتوقف قلمه عن عرض مساوىء هذا العهد الأسود ، ولذلك لا نستطيع أن نقتبس منه شيئا ، فكل ما يكتبه يمكن أن يكون قبسا من النور يبرز أوكار الخفافيش ، ومخابىء الطغاة الذين حكموا مصر فى هذا العهد القاتم ، ونحيل القارىء الى « فكرة » ففيها فى أكثر الأيام تنديد بالطغمة الفاسدة التى أخذت يوما مكان الزعامة ، وكان جديرا أن تختفى فى ركن مظلم مع السفاكين واللصوص •

وفى « فكرة » بتاريخ ١٩٨٦/٣/٢٢ يصف أسباب ما نعانيه اقتصاديا بقوله :

قد بدأت المصيبة عندما بعنا احتياطى الذهب لنصرف على حرب اليمن ، وعندما اشترينا مصانع قديمة نصف عمر على أنها مصانع جديدة ، وعندما خسرنا أسلحتنا فى الحروب التى خسرناها .

وعندما أرسلنا قواتنا الى الكونغو لتسند لومومبا ، وأرسلنا قواتنا الى العراق لتحمى عبد السلام عارف ، وعندما أرسلنا طيراننا الى نيجيريا ليضرب سكان بيافرا بالقنابل ، وعندما أرسلنا جيوشنا لتحمى السلال فى اليمن ، كل هذا وغيره من المغامرات هو الذى أرهق الجنيه المصرى الذى كان فى يوم من الأيام يساوى خمسة دولارات وكان أغلى من الجنيه الاسترلينى بقرشين ونصف قرش ، كنا نصدر القمح وأصبحنا نستورده ، ونصدر الأحذية وأصبحنا نستوردها ، ونصدر مختلف أنواع القطن والحرير وأصبحنا نستوردها !

دكتور نعمان جمعة والثورة :

ويذكر الأستاذ الدكتور نعمان جمعه بعض ما تبقى فى عهــد حسنى مبارك من أسباب الاضطراب الاقتصــادى ويقرر ضرورة الاسراع فى إلغائها والتصرف بشأنها وهى :

مجلس الشورى ، والمجالس القومية المتخصصة ، واكاديمية البحث العلمى ، (اكتفاء بالمركز القومى للبحوث) وهيئة الكتاب الجامعى ، وجهاز المدعى الاشتراكى ، ومحاكم القيم ، وعديد من السفارات والقنصليات ، وبعض الوزارات ، ومخصصات عائلتى رئيسى الجمهورية السابقين ، وبيع أراضى المعمــورة المحيطة بقصريهما ، والمبــادرة الى مراقبة الميزانيات السرية التى ينفق من خلالها على شراء معدات الجيش ونفقات الرئاسة ، ومنع سفر أى موظف رسمى الى الخارج وأداء أى عمل مطلوب بواسطة سفاراتنا ، وتأجير قصور أسرة محمد على فى أنحاء مصر كفنادق عالمية لاقامة أثرياء العالم ، وعلى رأس هذه القصور « المنتزه ، ورأس الحكمة ، وكنج مريوط » .

دكتور ابراهيم عبده والثورة :

وننتقل الى كاتب خامس هو الأستاذ الدكتور ابراهيم عبده الذى كتب فى ١٩٨٦/٢/١٣ يقول :

وأحب أن أبصر أبناءنا الذين أسعدهم الحظ فلم يعيشوا مثلنا أيام عبد الناصر ، فقد سجن عشرات الألوف من المواطنين ، وليت الأمر قد اقتصر على السجون ، فقد صحب السجن تعذيب هؤلاء المواطنين بكى مواضع حساسة من أجسامهم ، وتعليقهم كالذبائح ، وضربهم بالسياط ، ليعترفوا بجرائم لم يرتكبوها ، ومن المضحكات المبكيات أن بعض إخواننا الأقباط قبض عليهم وسجنوا وعذبوا على أنهم من خلايا الاخوان المسلمين ؟ !! ولم يقف الأمر عند هذا التعذيب الوحشى ، بل تعداه الى كفر لا ترضى عنه شرائع الأرض والسماء ، فكان زبانيته يأتون بزوجات وبنات المسجونين ، وكم فسقوا وهتكوا من أعراض ، وكم من ضحاياه ماتوا نتيجة التعذيب ؟ فضلا عن مصادرة أملاكهم وطردهم من بيوتهم والاستيلاء على مقتنياتهم •• وهذا الذى أحكيه لكم يا شباب أسجله نقلا عن أحكام المحاكم التى أدانت عهده ، ووصفته بأحط الأوصاف ، وفى حكم منها صورت المحكمة لنا كيف أمر بتدريب الكلاب مواطأة الرجال وهو ما لم يفعله الفاشيون والنازيون ، ولا مر على سجن الباستيل ؟ !

ثم ماذا يا شباب ؟ أحدثكم عن آخر مآسى عبد الناصر فى سياسته الداخلية ، فقد كان له صديق حميم يدعى عبد الحكيم عامر الذى رقاه من رتبة الرائد فى الجيش الى رتبة اللواء متخطيا فى ذلك جميع زملائه أربع درجات ونصبه قائدا عاما على الجيش ! ثم رقاه الى رتبة المشير وهى ذروة الترقيات ، ثم اختلف معه عقب هزيمة ١٩٦٧ فاعتقله ثم دس له السم وقتله ، ودعنا من حياته الخاصة حين كان فى الجيش فى رتبة الرائد أو فى رتبة المشير •• فقد ذكرت الصحف منذ عدة أيام أن بناته

سُرِقَ قصرُهن ، وأن التحقيق فى أمر السرقة كشف لنا أن خدم البنات قد بلغ عددهم سبعة عشر خادما وخادمة !! وأن المسروقات مجموعة من الجواهر النادرة !! ونجو ألفى جنيه كانت موجودة فى البيت للمصاريف العاجلة ، فمن أين لهن كل ذلك الثراء !!

مَنْ هرَّب الملايين ؟

ويستمر الدكتور ابراهيم عبده فيروى ما يلى :

يقول كاهن الناصرية الأكبر (يقصد محمد حسنين هيكل) أن خمسة وأربعين بليونا (بليارا) من الدولارات ، خرجت من مصر الى حسابات بعض المصريين فى بنوك الخارج ! ومما لا شك فيه أنه يعنى بذلك عبد الناصر وحاشيته وأولاده وأصهاره .

والفساد كله بدأه عبد الناصر فهو الأستاذ فى هذه المجالات : الديكتاتورية ، التعذيب ، سرقة الأموال ، الجهل بالسياسة ..... ثم سار تلاميذه فى طريقه ولا يزالون يسيرون ، وقد ذكرت صحف القاهرة فى فبراير ١٩٨٦ أن ٧٠٠ قضية اختلاس قد حرّكتْها النيابة ، وأن عصابة يتزعمها وكيل أول وزارة الصناعة قد قبض عليها متلبسة برشوة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات لتجيز إقامة مصنع ألمانى للورق فى الصعيد .

إنها آثار الزعيم الذى لا يزال بعض الجهال يصفقون له .

الضعفاء وشبح عبد الناصر :

ومات عبد الناصر ، ووسِّد التراب ، ولكن خياله كان يلاحق الضعفاء ، وسطوته كانت لها سيطرة ، ولهذا انحنى السادات أمام صورته بمجلس الشعب ، وهو تصرف وثنى ما كان يليق ، ثم انطلق مجلس الشعب يقرر منح أسرة عبد الناصر مرتباته ومخصصاته بدون ضرائب ،

ويمنحها قصرين شاسعين بالقاهرة والاسكندرية وما حولهما من الحدائق والمنتزهات ، مع السيارات والتليفونات ٠ ٠ ٠ ٠ ٠

ووافق أنور السادات على ذلك كأنه كان يمهّد لتصرّف مماثل لأولاده من بعده ، وقد نال ذلك أيضا من مجلس الشعب الذى لم يكن فى عهـد عبد الناصر أو السادات يمثّل رأى الشعب على الاطلاق ٠

نقاش حول القصور والحدائق :

وجاءت الأزمة الاقتصادية التى تركزت أسسها فى عهـد عبد الناصر للأسباب التى ذكرناها ، واتجه الناس جميعا للمساهمة فى تسديد ديون مصر ، وفى محاولة الحصول على موارد تساعد على تخفيف هذه الأزمة ، وكان من ذلك ما كتبه الكتاب لتتنازل أسرتا الزعيمين عن مئات الأفدنة بين القصرين الكبيرين بالمعمورة ، وهنا شحذ خالد عبد الناصر قلمــه ليدافع عن هــذه الأرض ، وذكر أنها تــراث الزعيم ، ومنها صــدرت القرارات التى غيرت وجه الحياة فى مصر والعالم العربى ٠ ٠ ٠ ٠ ٠ ويشبّهه ــ للأسف بالأهرام والقلعة ٠ يالله ٠

وعلق الأستاذ وجيه أبو ذكرى فى « الأخبار » يوم ١٥/٤/١٩٨٦ على هذا الرد ساخرا بقوله : **بودى أن أرى البيت الذى أصدر الزعيم فيه قرار دخول قواتنا الى اليمن ، وقرار حرب يونيو ١٩٦٧ بدون استعداد ، وقرار الانسحاب من سيناء الذى ترك الأرض والرجال والآلات لإسرائيل ٠**

والذى صدرت به قرارات التعذيب والاضطهادات وزوار الليل ؟

وانبرى أحد كتّاب صحيفة « الوفــد » وهو المهندس محمد منير يســأل :

ــ اذا كان قصر المعمورة وملحقاته مثل الأهرام والقلعة ، فاخرجوا منه فهو ملك للشعب كالأهرام والقلعة ٠

— واذا كان قد صدرت منه قرارات لصالح الأمة العربية ، فلتسهم الأمة العربية فى شرائه ووقفه للتاريخ .

— ثم انبرى هذا الكاتب يخاطب ابن عبد الناصر فقال له :

واذا كنتم حريصين على التراث والتاريخ !!! لم تقوموا بشراء شقة شارع الجلالى حيث تزوج أبوك وأنجب ولماذا لم تحتفظ بالسرير الحديد الأسود كتراث وذكرى للوالد العظيم ؟ لماذا التحف والرياش فقط لا غير .. **واذا كنت عاشقا للذكرى فأمامك حارة اليهود .. لماذا لا تعودون الى حارة خميس عدس رقم ٣ بحارة اليهود حيث عاش عبد الناصر شبابه .. عودوا الى حارة اليهود فهى الأصل والتاريخ الأول** الواجب الحفاظ عليه .. وليس قصر المعمورة الذى بنى من مال الشعب المظلوم ، لماذا لا تدعو الأسرة والأحباب لجمع خمسين مليون جنيه مثلا — وأنتم القادرون على دفع المليارات — لشراء قصر أو أهرام المعمورة من الشعب المطحون ؟

وتراجعت الأسرتان أمام هذا الضغط الشعبى وتنازلتا عن قصرى المعمورة ، ولكنهما للأسف لم تتنازلا عن قصور القاهرة وعن المرتبات والمخصصات ، ليستمر لهما سيل الترف بينما مصر تئن من الديون التى جلبتها الثورة فأحنت ظهر البلاد .

ماذا عن محاسن الثورة ؟

واذا كانت مساوىء الثورة قد شملت كل شىء ، فاننا نسأل سؤالا مهما هو : أليس لهذه الثورة من محاسن ؟

ان المتسرعين يذكرون أن من محاسنها جلاء المستعمر الانجليزى ، والسد العالى وقانون الاصلاح الزراعى ، وانهاء الملكية الفاسدة ، ومساعدة اليمن والكنغو . . .

أما الاستعمار فقد انكمش من العالم كلــه واختفى ، ولــم يكن محتاجا الى ثورة ليجلو ، وأما السد العالى فمشكلة شديدة التعقيد ، وبعض المهندسين الكبار عارضوه ، ولا يزالون يعارضونه ، وقد عرف النيل أنواعا من السدود على مر التاريخ ، وفى الجزء التاسع أوردنا دراسات مفصلة عنه ، واقتبسنا آراء كبار المهندســين ، وأما الملكية فكــانت فى عهدها الأخير فاسدة فعلا ، ولكننا قضينا على ملك ووضــعنا فى السلطة ملوكا كثيرين لا نزال نعانى من سلطاتهم ، وأما مساعدة اليمن والكونغو بما يحتاجانه فسخرية وجهل ، كأن تطعم محتاجا فى الطريق وتترك أهلك وولدك يتضورون من الجوع ، وقد أقفلت روسيا أبوابها وكانت تعيش خلف ما يسمى « الستار الحديدى » حتى بنت نفسها ، ولكن عبد الناصر كان متعجلا يريد أن يحكم العالم بسرعة ، فخر فى الطريق وخرت معه مصر • وأما قانون الاصــلاح الزراعى فقد فتت الملكية ، ولم يكن قط لهــدف الاصــلاح ، وإنما كان لضرب بعض الناس الذين اعتقدت الثورة أنهم لا يؤيدونها •

وعلى كل حال فاننا نقرر أنه لا توجــد محاسن لدولة حرمت الانسان من حقوقه ، ونكلت به ، فالانسان قمة ما خلق الله ، واضطهاده هو اضطهاد لكل القيم ، وقــد نكل عبد الناصر بالجميع بما فى ذلك من كانوا أقرب الناس اليه كمحمد نجيب وعبد الحــكيم عامر وكمال الدين حسين ، فما بالك بالآخرين •

محاسن الثورة فى رأى رجالها :

فى ٢٩ / ٥ / ١٩٨٦ طالعتنا صحيفة الأخبار بمقال للأستاذ موسى صبرى ، وهو ضليع فى ولائه للثورة ، وفى هذا المقال يوجز الكاتب محاسن الثورة ومساوئها ، ونحن ننقل كلماته عن ذلك فيما يلى :

عبد الناصر غير وجه التاريخ ، من ملكية فاسدة يحميها الاستعمار البريطانى ، الى جمهورية تحكم باسم الشعب • قضى على الاقطاع •

ملك المعدمين • انتصف لحقوق العمال • أعاد قناة السويس الى المصريين • ألهب بثورة مصر حركات التحرير وثورات الاستقلال فى العالم الثالث • هذه الأمجاد تقابلها أخطاء وخطايا أهدرت الحريات فى ظل نظام حكمه •

هذا هو عبد الناصر فى رأى أحد كتابه فلنناقش هذا الرأى مناقشة سريعة :

غيّر وجه التاريخ : كلام عام يقول به من لا يجد حقائق يرويها ، ويمكن أن يُفْهم أنه جعل وجه التاريخ قاتما •

— **الملكية :** كانت فعلا فاسدة ولكن الملوك والأباطرة الذين جاءوا بعد فاروق كانوا طغاة فاقوا فاروق فى كل شىء ، وما كان فاروق بجوارهم شـــيئا •

وألا يتقى موسى صبرى ربّه عندما يقول : إن عبد الناصر حوّل السلطة الى جمهورية تحكم باسم الشعب ؟! وكيف سمّى الديكتاتورية الفاسدة حكما باسم الشعب ؟ حسابه على الله •

— **قضى على الإقطاع :** لم يكن عندنا إقطاع ولكن ملكيات كبيرة ، والفرق عظيم بين الإقطاع والملكيات الكبيرة وبالقضاء على الملكيات الكبيرة أصبحنا نشترى رغيف الخبز من أعدائنا ، واختفت أرضنا الزراعية التى ورثناها من عهد الفراعنة •

— **ملك المعدمين :** المعدمون فى زيادة فقراً وعددا •

— **العمال :** صرخة تدوى بمصر الآن لتحسين الانتاج والجد فى العمل •

— **أعادة قناة السويس :** فى الحق أنه بهزائمه أضاع قناة السويس فقُفِلت من سنة ١٩٦٧ الى سنة ١٩٧٥ •

— **حركات التحرير فى العالم الثالث :** تقابلها حركات الاستعباد فى مصر ، وكيف يهتم بالعالم الثالث ويهمل بلاده ؟

— أما جملة موسى صبرى الأخيرة « أخطاء وخطايا أهدرت الحريات فى ظل نظام حكمه » هذه الجملة صادقة ، وهى تمحو كل محاسن إن كانت هناك محاسن •

عهد محمد حسنى مبارك

(من ١٣ أكتوبر ١٩٨١)

خصصنا جزءا من موسوعة التاريخ للحديث عن عصر عبد الناصر هو الجزء التاسع ، وخصصنا الجزء العاشر للحديث عن عصر أنور الساداتى ، فقد كان كل منهما من صناع ثورة ٢٣ يوليو ، وبانتهاء عصر أنور الساداتى نحس بأن مصر عادت رويدا رويدا الى الحياة الطبيعية ، وأن ظلام هذه الثورة قد زال ، وان كانت آثار هذا الظلام لا تزال باقية كما ذكرنا من قبل ، وكما سنذكر فيما بعد •

ومن أجل هذا لا نخصص جزءا من الموسوعة للحديث عن حسنى مبارك أو من يخلفه ، بل نعود لنرصد تاريخ مصر ، بعد أن زال هؤلاء الذين كانوا لا يمثلون مصر تمثيلا حقيقيا ، وبخاصة عبد الناصر الذى كان بحق عدوا ظاهر العداوة لمصر وتراث مصر •

وقد كان أنور الساداتى قد تخلص نهائيا من بقايا أعضاء مجلس قيادة الثورة ، عقب حرب اكتوبر سنة ١٩٧٣ ، وكان حسين الشافعى عند هذه الحرب لا يزال نائبا لرئيس الجمهورية ، وكان سيادته قانعا باللقب وامتيازاته الأدبية والمادية فى حدود مكتبه الفاخر وسيارته الأنيقة ، ولم يكن له أى نفوذ فى الداخل أو الخارج •

وبعد حرب اكتوبر أنهى أنور الساداتى مهمة حسين الشافعى وعين محمد حسنى مبارك نائبا لرئيس الجمهورية ، وقال إن هذا الرجل يمثل جيل أكتوبر •

ولم يكن لنائب الرئيس نفوذ يذكر طيلة عهد الساداتى اللهم الا رسائل وافكارا يحملها من والى الساداتى •

وكان حسنى مبارك يجلس بجوار الساداتى على المنصة ، وشاهد حسنى مبارك عن قرب مصرع السادات وهو وسط جيشه وفى كامل أبهته ، واعتقادى أن هذا المشهد لن ينساه حسنى مبارك لأنه هز كل من شاهده هزا عنيفا ، فلم يكن الفرق بين الموت والحياة الا شعره بسيطة .

وعلى كل حال فقد حفظ الله حسنى مبارك ، وبعد أسبوع جرى استفتاء اختير بمقتضاه حسنى مبارك رئيسا للجمهورية .

منجزات فى عهد حسنى مبارك :

لقد مضى على عهد حسنى مبارك حوالى خمس سنوات حتى الآن ، وأبرز أحداث هذه الفترة هى :

— اكتمل فى عهده الانسحاب الاسرائيلى من سيناء فى ابريل سنة ١٩٨٢ .

— ألغى قرار الاعتقال الذى كان الساداتى قد أصدره ضد رجالات من زعماء مصر ، وخرج الزعماء من المعتقلات اليه حيث استقبلهم وحادثهم واستمع منهم .

— عادت مصر تواصل نشاطها فى المؤتمر الاسلامى ، وكانت عضويتها به مجمدة ، ومما يذكر ان الرئيس الراحل المرحوم سيكوتورى رئيس جمهورية غينيا والرئيس الباكستانى محمد ضياء الحق كان لهما دور كبير فى استعادة مصر لمكانتها .

ومن الحق أن نقرر أن مواقف متعددة وقفها حسنى مبارك من قضايا افريقية والعرب والعالم رجحت كفته ولفتت الأنظار اليه ، وقربت بينه وبين من كانوا يقفون من مصر ومن الساداتى مواقف العداء .

— حدث فى عهد حسنى مبارك تقارب ملموس بين مصر والعرب ،

وقد كان السادات يساعد العراق فى حربها ضد ايران ، وواصل حسنى مبارك ذلك بكثير من الاهتمام ، كما كانت له مواقف قوية ضد اتجاهات اسرائيل العدوانية على الفلسطينيين وعلى لبنان ، وكل هذا قارب بين مصر والعرب •

— وقف حسنى مبارك وقفة طيبة للسماح للأحـزاب المعارضـة بالظهور ، فسمح لحزب الوفد باستئناف نشاطه ، وأيد الغاء القرار الذى كان يقضى بحرمان رئيسه محمد فؤاد سراج الدين من الحقوق السياسية •

— ظهر فى عهده مزيد من الحريات الصحفية للمعارضة •

— بدأت بعض الاصلاحات الداخلية تظهر للناس مما أحيا الأمل فى حياة أفضل •

آمال يتطلع الشعب لها :

ولكننا نريد أن نقول كلمة للحق والتاريخ ، لقد كانت سياسة عبد الناصر سياسة جور وانغلاق وسرقات أتاحت الفرصة لكثير من الأتباع أن يحصلوا على الثراء بوجه غير مشروع ، ولكنهم أخفوه وتظاهروا بالفقر •

وجاء أنور السادات كما قلنا من قبل فابتكر سياسة الانفتاح ، وكانت هذه فرصة للصوص الماضى أن يظهروا ثراءهم ويعملوا على تنميته بصور خارقة جعلت الغنى مركزا فى أيـد قليلة ، وأضيف لهؤلاء لصـوص العهـد الجديد •

ماذا فعل حسنى مبارك إزاء ذلك ؟ وما هى سياسته فى هـذا المجال ؟

لم يتضح موقفه بعد من هؤلاء اللصوص الذين لم يسألوا قط : من أين لك هذا ؟

ودستور السادات لا يزال معمولا به ، وهو الـذى يتيح لرئيس الجمهورية أن تتجدد رياسته عددا غير محدود أى أن يبقى مدى الحياة ، فهو نظام ملكي مقنع ، أو هو فى نظر التاريخ أسوأ من النظام الملكى لأن الأسر المالكة العريقة تحرص على مكانتها من الشعب وتعمل لخيره ، وتقف أمام اى عضو منها ينحرف عن الغاية أما النظام الجمهورى بهذا الوضع فقد جمع أسوأ ما فى النظم السياسية .

واختفاء" للأيدى العاملة فى جميع الحرف والصناعات تماما ، مـع زحام فى الإدارات وأمام مكاتب القوى العاملة .

ودفع" للمواهب للعمل بالخارج استمرارا لعبودية الدولار مـع توقف النشاط بالداخل فى مجالات متعددة .

وترك" لقرارات طائشة أصدرها عبد الناصر ولم يفكر خلفاؤه فى مراجعتها ، وقد أشرنا لها من قبل كايجارات الأرض الزراعية وايجارات المساكن حتى أصبح ايجار الفدان أقل من ثمن أردب من القمح مع أنه ينتج فى العام الواحد عشرة أرادب من القمح وعشرة من الذرة ، وعدم امكان أخذ الأرض من زارعها حتى اذا كان المالك فلاحا يريد أن يزرعها بنفسه .

وأما ايجار المساكن فقضية لا نظير لها فى العـالم ، ففى الزمالك وجاردن سيتى والمعادى شقق فخمة ايجارها بعد التخفيضات الناصرية ستة جنيهات أى ثمن بطيخة كثيرا ما تكون رديئة ، ويسكن بهذه الشقق أصحاب الملايين ، فكأن النظام يرعى الأغنياء على حساب الفقراء ، وكان هذا سببا مهما من أسباب أزمة الاسكان فمستأجر هذه الشقة لا يتركها وان ملك العمارات والفيلات ، ويـدفع ايجارها الزهيـد ويبقيها مقفلة للظروف أو للترف ، وقد تحدثت عن هذا الموضوع فيما سبق ، ولكنى آثرت التكرار لعل هناك من يستفيد بالتكرار ، حتى نرفع ظلما طال السـكوت عليه ، وأنا فى ذلك أتبع المنهج القرآنى ، ففى القرآن الكريم تكرار لبعض

الآيات أو بعض الأفكار ، ونقول فى تفسير ذلك ان الله سبحانه وتعالى يكرر لعل من فاته الانتفاع بآية أن تقابله مرة أخرى فينتفع بها (١) .

وأشياء أخرى كثيرة ينبغى أن تمتد لها يد حسنى مبارك والا شارك فى المسئولية الخطيرة التى تهز البلاد والعباد .

قرارات ضرورية مرجوّة :

ومن نبض الجماهير ، ومما تذيعه الصحافة الحرة يتضح أن هناك قرارات لا تحتمل التأخير ، وينبغى اصدارها سريعا ، وفى قمتها :

١ — تعديل الدستور ، ولن أخوض هنا فى عرض هذا الدستور ، وعرض ما ينبغى تعديله أو حذفه منه ، وأكتفى بالاشارة بضرورة تعديل المادة (٧٨) والمادة (١٣٩) بحيث يكون انتخاب رئيس الجمهورية ونائبه بالترشيح المطلق والانتخاب الشعبى المباشر ، وأن يكون ذلك لمدة لا تتجاوز أربع سنوات يمكن تكرارها مرة واحدة فالرئيس عندما يطول بقاؤه فى الحكم ينسى الشعب تماما وينسى مشاكله أراد أو لم يرد .

والمادة (٢٢) بحظر انشاء الرتب ، نريدها واقعا لا خيالا ، فلقب الباشا لم يتوقف أبدا عن الذين وضعوا هذا النص ، ولو خاطبهم أى واحد بدون اللقب كان عليه أن يتحمل نتيجة سوء أدبه ، وتقسيم المجتمع المصرى الى عمال وفلاحين وفئات أسطورة يجب القضاء عليها (المادة ٢٦) .

والمادة (٨١) التى تمنع رئيس الدولة من الكسب عن طريق الشبهات والبيع والشراء والايجار مع الدولة يجب أن تشمل أسرته أيضا حتى الدرجة الرابعة مثلا .

---

(١) انظر « المكتبة الإسلامية لكل الأعمار » للمؤلف حـ ٢٥ .

٢ — الغاء مخصصات أسرتى عبد الناصر والسادات والتنبيه الى عدم تكرار هذه المهزلة ٠

٣ — استرداد مجوهرات أسرة محمد على وقصور هذه الأسرة والانتفاع بها لصالح الشعب ٠

٤ — تصحيح كثير من القرارات الطائشة التى أصدرها الديكتاتور وبخاصة ما يرتبط منها بالعلاقة بين المالك والمستأجر الذى تكلمنا عنه آنفا احتراما لحق الملكية الذى كفلته الأديان وكفله الدستور ٠

٥ — تعويض أدبى على الأقل للذين وقع عليهم الضيم فى عهد عبد الناصر بدون أسباب حقيقية ٠

٦ — الحرية الحقيقية لقيام الأحزاب وللانتخابات ، والغاء الانتخابات بالقائمة ٠

٧ — مشكلة التعليم فى مصر :

مشكلة التعليم فى مصر مشكلة خطيرة ، ومن الخجل أن توجد هذه المشكلة فى مصر التى تحاول أن ترعى التعليم فى بلاد المنطقة كلها ، فهى كالمبصر الذى يدل الناس على الطريق ، ولكنه يسير فيه مسيرة العميان ٠

انها مشكلة من بقايا عبد الناصر ، ويبدو أن المسئولين ينظرون الى قرارات عبد الناصر على أنها مقدسة لا يجوز تعديلها أو الغائها ، وقد حكمنا الرجل بأقسى ما يعرف من جهل وجور ، وعندما اختفى ترك قوانينه حية توقع بنا ما أوقعه فى حياته ٠

تعال بنا ندرس معا مشكلة التعليم وما بها من متناقضات ومفارقات :

— يقولون ان التعليم بالمجان ، وهناك اجماع على أن هذه

المقولة أكذوبة أو أسطورة ، فقد أوشك التعليم أن يختفى من المدارس ، وحلت الدروس الخصوصية بالبيوت محل التعليم بالمدارس ، وهـذه الدروس تكلف أضعاف ما كان يتكلفه أولياء الأمور عندما كان التعليم بمصروفات ! !

— يدفع الكثيرون من الأسر **الآف** الجنيهات لأطفالهم ليلتحقوا بمدارس الحضانة ، أما الطالب بكلية الطب والهندسة فلا يدفع شيئا !!

— بعض الحاصلين على الثانوية العامة لا يحصلون على درجـات تؤهلهم للالتحاق بالجامعات بمصر ، أو لا يحصلون على درجات تؤهلهم للالتحاق بالكليات التى يريدونها ، وهنا يلعب المال دوره ، فيلتحق بعضهم بجامعة القاهـرة فرع الخرطـوم ، أو جامعة الاسـكندرية فـرع بيروت ، أو جامعة فى بلغاريا أو العراق أو الباكسـتان، ويتكلف هـذا الوضع آلاف الجنيهات وصورا من العناء ، والانحراف ، فاذا قلنا : افتحوا فى مصر جامعة أهلية بمصروفات ، مُنع ذلك ، وهو منطق غير مفهوم ، أن تَفْتَح مصرُ جامعةً بمصروفات خلف الحدود ولا تفتحها داخل البلاد .

— والتعليم مجانا كما ذكرنا ، وهناك مئـات الطـلاب يذهبون للجامعة بسيارات فخمة ، ويعيشون فى بذخ ظاهر ، ولا أحد يدرك لماذا نعطى من لا يستحق أخْذ العطاء .

— وقد فُتِحَتْ الجامعات بسعة ، فوفد لها كثيرون جدا ممـن لا تؤهلهم مواهبهم للحياة الجامعية ، ونقابل طلابا فى الجامعة كان أجدر بهم أن يتجهوا للصناعة أو الزراعة فذلك أجدى لهم وللوطن . ويتخرج من الجامعات كل عام أفواج وأفواج ، ولا يجدون عملا عدة سنوات ، حتى تمنّ عليهم القوى العاملة بوظيفة يأخذون عن طريقها مرتبا دون أن

يؤدوا عملا ، وينتقل هؤلاء من طابور العاطلين تماما الى طابور الموظفين اسما ، العاطلين حقيقة •

ومرتب خريج الجامعة أربعون جنيها ، ومرتب خادمة من الفيليبين مائتا دولار ! !

— واذا كان هناك عاطلون من هذا النوع ، وكذلك من خريجى المدارس المتوسطة ، فهناك نقص كبير جدا فى الأيدى العاملة فى الزراعة أو الصناعة أو الحرف ••••• وهى معادلة عجيبة لا توجد فى غير مصر ، وقد أوشكت المزارع ألا تجد من يعمل بها ، وأحست الأعمال الحرة بنقص كبير فى كثير من مستويات العمل بها ، لأن كل انسان ينتظر الوظيفة ولا يفكر فى العمل ، وذلك هو جيل الثورة اللعينة ، فطالما كان عبد الناصر يقول : ان الحرية أن نهيىء لكم رغيف الخبز ، وأن نعيّن أبناءكم فى الوظائف •

— فى مصر اثنتا عشرة جامعة ، وكليات تنتشر فى أكثر المدن ، بالاضافة الى جامعة الأزهر وكلياته ومعاهده ، وبالاضافة الى عدد هائل من المدارس بمختلف درجاتها وتخصصاتها •••••• ومع هذا فالأمية تزيد من عام الى عام ، حتى أصبحت مصر فى القاع بالنسبة لازدياد الأمية ، وهو شىء يدعو للخجل والحسرة •

اقتراحات :

ان نظم التعليم واضحة وموجودة فى أرقى دول العالم ، ويتحتم أن نعيد النظر فى أسلوب التعليم فى مصر ، وفيما سمى مجانية التعليم ، وذلك حرصا على التعليم وعلى مستقبل البلاد بوجه عام ، وخلاصة هذه النظم هى :

— التعليم الابتدائى يكون بالمجان ويكون شاملا لكل الأطفال حتى

تقضى على أمّية الجيل القادم اذا كنا عجزنا عن القضاء على أمية جيل الثــــورة •

— بعد الابتدائى تتجه غالبية الأولاد الى الأعمال والحرف فى كل المجالات ويتاح للأولاد المتفوقين أن يدخلوا المرحلة التعليمية التالية التى تكون بمصروفات الا للنابهين الفقراء •

— الفقراء النابهون يتعلمون بالمجان فى كل مراحل التعليم ، وينبغى أن تصرف لهم بالاضافة للمجانية معونات كافية تساعدهم على مواصلة التعليم •

— يُختار لكليات الجامعات اعداد من الطلاب تتناسب مع حاجة الدولة مع زيادة قليلة لاحتمال طلبات اعارة الخارج ، لنستطيع بذلك أن نقضى على طابور الحاصلين على شهادات جامعية ، ويقفون تحت رحمة القوى العاملة •

— وأخيرا فلا بدّ من تحسين حالة المعلم حتى لا يلجأ للدروس الخصوصية التى خرّبت الذمم فى كثير من الحالات •

— وتوجد مدارس ثانوية حرة (أهلية) وجامعة أهلية لمن أرادوا أن يتعلموا ممن لم تسمح لهم مواهبهم بالالتحاق بالمدارس والجامعات ، وتكون هذه بمصروفات تغطى كل التكاليف دون استثناء •

والعجيب أن الذين يدافعون عن مجانية التعليم يستندون إلى ورود ذلك فى الدستور ، كأن الدستور كائن مقدس ، وكم بالدستور من أخطاء وانحرافات •

أحداث خطيرة فى عهد

حسنى مبارك

تحدثنا آنفا بإجمال عن عهد حسنى مبارك ، ولكن هناك بعض القضايا التى رصدها التاريخ خلال هذا العهد تحتاج الى مزيد من التفاصيل ، وهذه القضايا هى :

١ — سفينة وطائرة •
٢ — طائرة مصرية وفخ ليبى •
٣ — أحداث الأمن المركزى •
٤ — الأزمة الاقتصادية •
٥ — الأحزاب السياسية بعد عبد الناصر •

وسنتدارس هذه الأحداث فيما يلى :

١ — سفينة وطائرة :

هناك حادثان متشابهان حدثا فى نهاية سنة ١٩٨٥ ، ووجه التشابه أن كلا منهما يتصل بطائرة مدنية من طائرات « مصر للطيران » •

طائرة مصرية وقرصنة أمريكية :

والحادث الأول ارتبط بسفينة ايطالية — اسمها « اكيلى لاورو » وكانت تحمل مئات الأنفس سيطر عليها وهى فى عرض البحر الأبيض بعض « الارهابيين » ووجهوها الى سوريا ولكن سوريا رفضت قبولها ، ودفعت الشهامة مصر الى التدخل ، وحدث اتصال بين مصر وبين المختطفين ، فطلب هؤلاء زعيما اسمه « أبو العباس » فقد كانوا يعملون بارشاده ، وجاء أبو العباس واستسلم المختطفون ، ونجت السفينة ،

ثم ظهر أن امريكيا عجوزا كان بها وأنه قد قتل ، واتُّهِـم المختطفون بقتله ، اذ اعتُقِدَ أنه لم يكن هناك من يُقْدِم على هذا العمل غيرهم •

ورأت مصر أن تقدم هؤلاء المختطفين الى منظمـة التحرير بتونس لمحاكمتهم ومعهم زعيمهم أبو العباس ، ووضعتهم فى طائرة مصرية طارت بهم تجاه تونس ، ولكن تونس التى كانت قبل ذلك بأيام تعرضت لعدوان اسرائيلى سافر ، رفضت استقبال الطائرة بعد أن كانت قد وافقت على ذلك من قبل •

وأخذت الطائرة طريق عودتها للقاهرة ، ولكن مجموعة من الطائرات الحربية الأمريكية اعترضت طريق الطائرة المصرية وأمرتها بالهبوط فى قاعدة عسكرية بصقلية ، وكان الاعتراض خشنا ومثيرا مما أغضب المصريين جميعا ، وتعرضت العلاقة بين مصر وأمريكا الى أزمة قاسية •

والعجيب أن الزعيم « أبو العباس » أفضى بعد ذلك بحديث قال فيه انه نجح فى تحقيق الهدف الذى أراده ، وهو إساءة العلاقات بين مصر وأمريكا ، وكأنه كان يرى أنه خدعنا بهذا التصرف •

٢ ـ طائرة مصرية وفخٌّ ليبى :

ومرت أيام ليست كثيرة وجاء الحادث الثانى ، وللتقديم للحديث عن الحادث الثانى نذكر أن بعض الليبيين المعادين للنظام الليبى يعيشون فى مصر ، وهم للأسف يزاولون بعض الأنشطة ضد هذا النظام ، وقـد أُوفد الى مصر بعض عملاء النظام الليبى ليفتكوا بهؤلاء المنشقين فى أثناء اجتماع كانوا قد دبروا له فى الاسكندرية •

وقد أفشى واحد من هؤلاء سرَّ هؤلاء العملاء ، فأتاح الفرصة لرجال المخابرات المصريين ليتتبعوا هؤلاء العملاء ويقبضوا عليهم •

وثار النظام الليبى وبدأ يدبر أمرا ضد مصر ، ويبدو أنه رصـد

لذلك مبالغ ضخمة ، وفى اعتقادى أن مصر ثملت بالقبض على هؤلاء العملاء ، ونسى المسئولون أن يأخذوا الاحتياطات اللازمة التى تحميهم من ثأر الزعماء الليبيين ، فكان ذلك أساسا لنكبة الطائرة المصرية الثانية تلك النكبة التى حدثت فى الأيام الأخيرة من شهر نوفمبر •

الثأر الليبى يفتك بالأبرياء :

كانت طائرة ركاب مصرية (للأسف هى نفسها الطائرة السابقة المشئومة) قادمة من أثينا للقاهرة ، وبعد دقائق من طيرانها ظهر بها خمسة من الارهابيين أعلنوا سيطرتهم على الطائرة ، وبلغة أخرى اختطفوها ، وأرغموا قائدها على الهبوط بها فى مطار « لوقا » بمالطة وارتبط الشك بليبيا ، لأن المختطفين طلبوا مقابلة السفير الليبى بمالطة ، وحضر لهم السفير ، ولكنه سرعان ما انسحب وغادر البلاد فورا الى طرابلس •

وتتابعت عقب ذلك الأحداث الأليمة ، فالطائرة كان بها حوالى تسعين راكبا من جنسيات مختلفة ، وكان بها أربعة حراس مصريين ، ولما ظهر المختطفون أطلق الحارس نيرانه على واحد منهم فأرداه قتيلا ، وتعرض عقب ذلك لنيران المختطفين الآخرين الذين جعلوه هدفا للتعذيب ، فكانوا يطلقون نيرانهم على أماكن من جسمه غير قاتلة ازيد من تعذيبه ، وقالت وسائل الاعلام المصرية انهم أخذوا يهددون بقتل راكب كل ساعة ، بل بدءوا يقتلون فعلا ، بل اتجهوا لجعل المدة ربع ساعة •

لم تكن للمختطفين مطالب الا أن يزوّدوا بالوقود ليواصلوا رحلتهم ، ولكن الطائرة كان قد حدث بها عطب نتيجة النيران ، ثم انه لم تكن هناك وجهة معينة لهم اذ رفضتهم كل الدول التى ذكروا انهم سيسيرون اليها •

وتأزمت الأمور ، فرأت مصر أن تهاجم الطائرة بواسطة رجال الصاعقة ، وتمّ ذلك فعلا ، ولكن النتيجة كانت مريرة جدا ، فما ان دخل رجال الصاعقة من باب البضاعة أسفل الطائرة ووجهوا نيرانهم للمختطفين

حتى ألقى المختطفــون بقنابل حارقة (فســفورية) فى مقدمــة الطائرة ومؤخرتها ، وأصبح الموت جماعيا بالنار والدخان والرصاص ، فمات ستون راكبا وقُتِلَ الارهابيون الا واحدا منهم ، وربما جاز القول انه لم ينج أحد من هذا الجحيم ، أما ما يقال عن نجاة ثلاثين أو أربعين من الركــاب ، فأغلبهم من الذين أطلق المختطفون سراحهم أول الأمر من النساء ، يضاف لهم بعض الجرحى والذين عثر عليهم بــين الموت والحياة ، فضــمتهم المستشفيات .

وتعليقنا على هذا الحادث من عدة وجوه :

أولا : كان على مصر ــ بعد أن ازدادت حدة الخلاف بينها وبين ليبيا ــ أن تبذل جهدا كبيرا فى حراسة طائراتها ، وقد يكون من ذلك أن يوجد بمداخل هذه الطائرات احتياطات كتلك التى تستعمل فى المطارات للتأكد من عدم وجود أسلحة مع الركاب ، وألا تكتفى بالاحتياطات فى المطارات المختلفة .

وأذكر بهذه المناسبة أننى كنت مدعوا لحضور حفل افتتاح مؤتمر السيرة والسنة بقاعة الامام محمد عبده قبل هذا الحادث بحوالى أسبوعين وعند مداخل القاعة تعرضت أنا وسواى لأجهزة التعرف على الأسلحة ، وتعرفت هذه الأجهزة على مفاتيح السيارات التى كان يحملها المدعوون .

ليت المسئولين اهتموا بالطائرات على هذا النحو .

ثانيا : إن مطار أثينا بالذات ترتبط به بعض الشبهات ، فمنذ فترة ليست طويلة خطفت طائرة أمريكية بواسطة ركاب صعدوا لها من مطار أثينا ، وعلى هذا فقد كان على المسئولين المصريين أن يوجّهوا عناية أكبر لهذا المطار .

والذى نحس به أن خيانة حدثت ، فلا يمكن أن تتسرب للطائرة كل هذه الأسلحة دون أن تتعرف عليها الأجهزة المستعملة بالمطارات ، ويغال

ان الملايين قد قـُدِّمت رشوة لتيسير دخول الارهابيين وأسلحتهم ، وأنهم دخلوا بطريق غير عادى .

ثالثا : كان رئيس وزراء مالطة فى مستوى المسئولية ، فقد انتقل للمطار وبات به مع بعض الوزراء المختصين ، وكان ذلك مع شدة البرد ، وهدا يدفعنا للعجب أن نذكر أنه فى نفس هذا الوقت حيث الشده قـد بلغت قمنها ، كان الرئيس حسنى مبارك يزور بعض القرى بالقليوبية ، وأُعدت له استقبالات حافلة ، ارتفعت فيها الزغاريد وكثرت الهتافات ، ورقصت الخيول التى كان يركبها رجال الحزب الوطنى ، ووضعوا على صدورها شارات الحزب .

ولم ينس التليفزيون المصرى أن يذيع هذه الاستقبالات مما جعلنا نرى فى وقت واحد طائرة مخطوفة ، رابضة فى أنين وقلق ، عليها ركاب مصريون أو ضيوف على مصر ، يعانون القتل والتعذيب والتهديد ، ورئيس وزراء مالطة يشارك فى الأسى بنفسه وجهده .

وبجانب ذلك أذاع التليفزيون المصرى أخبار زيارة الرئيس للقرى وما أُعِدَّ لهذه الزيارة من هتافات وتصفيق وخيول راقصة ، وتجمعات يملأ المرح قلوب أصحابها .

وكأنما أحس المسئولون بعد فوات الأوان استنكار الناس لهـذا الوضع فأوعزوا لاحدى الصحفيات أن تسأل الرئيس فى المؤتمر الصحفى الذى عقده يوم الثلاثاء ١٩٨٦/١١/٢٧ سؤالا نورده هو واجابته فيما يلى :

يسأل الرأى العام عن قيام سيادتكم بجولة الى قرى الدقهلية فى وقت اختطاف الطائرة فما هو تعليقكم على ذلك ؟

قال الرئيس .. من غير المعقول انه من أجل طائرة مختطفة تقف البلد بأكملها ، هذه دولة لها مؤسسات تعمل وتخطط وكان كل شىء تحت

السيطرة ، وفى كل خطوة أخطوها كان بينى وبين المسئولين اتصال لمعرفة آخر التطورات وكنت أعطى التعليمات من آن لآخر .

وليس هناك من يقول إن البلدة يجب أن تقف بأكملها ، أى ليس هناك من يرى أن تقفل المستشفيات والمدارس والمتاجر .... ولكن تأجيل الزيارة لهذا الحادث كان ممكنا ، وذلك لا يوقف مسيرة البلاد .

وفى اعتقادى أن الرأى العام قد يسمح بالزيارة تنفيذا لتخطيط واستعداد سابق ، ولكن فى صمت يناسب حالة الحداد والجد التى كان ينبغى أن تسود البلاد .

وفى صحيفة الأخبار الصادرة يوم الاثنين ١١/٢٥ رأى القارىء صورتين متجاورتين ؛ احداهما للطائرة المنكوبة والدخان ينبعث منها ، والثانية للجماهير التى حشدت لتغنى وترقص وتهتف .

وعن هذه المفارقة المريرة كتب الأستاذ أحمد أبو الفتح فى صحف ٢٨ / ١١ / ٨٥ يقول :

** وسط الهم والقلق على حياة الركاب والحزن على من قتلوا سمعت الزغاريد ففزعت وصرخت وتصورت أن أصواتها آتية من بعض الجيران ....

** وكانت الفجيعة الكبرى عندما اكتشفت أن الزغاريد آتية من التليفزيون ...

** الزغاريد يذيعها التليفزيون فى الوقت الذى أعلنت فيه صحف

الصباح الحكومية أن الخاطفين للطائرة قد قتلوا سبعة من الركاب ! !
وهددوا الباقين •

** هل انعدم الاحساس الى هذه الدرجة ؟!

ونواصل تعليقاتنا على هذا الحادث فنقول :

رابعا : هل كان إنهاء هذه الحالة بواسطة رجال الصاعقة هو الحل الوحيد لمواجهة الأزمة ؟

وهل طريقة الاقتحام التى حدثت كانت الطريقة الوحيدة ؟ ومن المعروف أن الكوماندوز المصريين الذين اقتحموا الطائرة فى مالطة ينتهون الى فصيلة لمكافحة الارهاب تلقت تدريبات مكثفة فى الولايات المتحدة وألمانيا الغربية وان قنابل الشلل والغاز المسيل للدموع والعصى الكهربائية والأسلحة الأوتوماتيكية الخفيفة هى الأسلحة النموذجية لهذه القوة الخاصة .

ألم يكن من الممكن استخدام هذه الأسلحة النموذجية حتى يحالفنا الحظ فى انقاذ الركاب •

وهل غفل رجال الصاعقة والمسئولون عن احتمال وجود قنابل فسفورية مع الارهابيين ؟

وقد أكد تقرير الطبيب الشرعى فى مالطة عقب تشريح أكثر من نصف جثث ضحايا حادث طائرة الركاب المصرية ان جميع الضحايا تقريبا قد لقوا مصرعهم بسبب الاختناق والحرق نتيجة النيران التى اشتعلت فى الطائرة بعد أن فجر الارهابيون ثلاث قنابل داخلها لحظة اقتحامها بواسطة قوات الصاعقة المصرية •

وأكدت المصادر الطبية التى اشتركت فى عملية تشريح جثث الضحايا ان ثلاثة أشخاص قد ثبت أنهم قتلوا بالرصاص •

والمأمول أن عملية الاقتحام قـد تخيف فى المستقبل من يحاول أن يقدم على مثل هذه الجريمة لأنه سيرى فيها حتفه •

والذى يتابع أقوال قائد الطائرة البطل يدرك أنه فتح المجال عـدة مرات لاقتحام الطائرة بطريقة أيسر ، ولكن أحدا لم يستفد بمحاولاته ، فقد فتح باب الطائرة للطعام وللمضيفة الشهيدة التى خرجت وعادت ، وكان يرجو أن يدخل رجال الصاعقة فى ثوب عمال طعام أو ممرضين •

خامسا : ان الذى يكتب عن هذا الموضوع لا يمكن أن ينسى بطلين عظيمين من أبطال مصر ، هما قائد الطائرة الكابتن هانى جلال وكبيرة المضيفات الشهيدة شادية سلامة ، فبين الدماء والدموع التى كانت تغمر الطائرة أراد الارهابيون أن يرسلوا رسالة الى المسئولين فى المطار ، وطلبوا من قائد الطائرة أن يختار لهم من يحمل هذه الرسالة ، ووقع الاختيار على كبيرة المضيفات « شادية سلامة » ، ويقول رئيس شركة مصر للطيران :

بمجرد هبوط الطائرة على أرض المطار فى مالطة •• طلب الارهابيون تكليف احدى المضيفات لابلاغ رسالة للمسئولين بالمطار •• فاختار الكابتن هانى جلال رئيسة المضيفات للقيام بهذه المهمة • وعندما حذرها المختطفون من عدم العودة الى الطائرة وأبلغوها أنهم سيقومون بنسف الطائرة بركابها وكل من فيها اذا هى رفضت العودة مرة أخرى • أعطاها قائد الطائرة اشارة فهمت منها انه يطلب منها عدم العودة والنجاة بنفسها •• ورغم تكرار نفس الطلب بعدم العودة للطائرة من المسئولين بالمطار لرئيسة

المضيفات •• فانها أصرت على العودة مرة أخرى للطائرة بعد ابلاغ الرسالة • وانتهزت هذه الفرصة لاعطاء صورة مفصلة لكل ما يجرى على الطائرة وعدد المختطفين والقتلى وأماكن تمركز الإرهابيين فى مقدمة ومؤخرة ووسط الطائرة •• وقد استشهدت شادية أثناء عملية الاقتحام واختنقت من الدخان ••• !!

واحتاج الارهابيون الى ارسال رسالة أخرى ، واختاروا هذه المرة قائد الطائرة لحملها ، وذلك بعد أن أطمأنوا الى شخصيات طاقم الطائرة الذين لا يعرفون الأنانية ، وانما يعملون لأداء الواجب على أعلى مستوى ، وخرج قائد الطائرة وبلغ الرسالة وعاد يحمل روحه على كفه •

تحية اجلال لهانى ، ودعاء للشهيدة شادية •



الكـابتن هانى جـلال



شادية سلامة المضـيفة الشهيدة

٣ ـ أحداث الأمن المركزى :

الأمن المركزى أو شبح الذعر والتدمير والعدوان ؟

كان الأمن المركزى حاميا للسلطة ولكنه انقلب عليها ، وأصبح نارا تكتوى به هذه السلطة .

كنا نراه حول الجامعة وفى الأزقة والمنحنيات كأن الدولة تخفيه عن الأنظار لإحساسها أنه ممقوت من المثقفين والجماهير على السواء .

وفى ليلة ظلماء هب هذا الأمن المركزى يضرب مصر ، مما يدل على أنه غير جدير بالثقة التى حملها ، وقد أعلن رئيس الجمهورية بيانا بذلك جـاء فيه :

« فى ساعة مبكرة من مساء أمس الثلاثاء ٢٥ فبراير سنة ١٩٨٦ سرت شائعات مغرضة لا أساس لها من الصحة فى أوساط المجندين بمعسكر قوات أمن الجيزة بأول طريق مصر اسكندرية الصحراوى مفادها انه تقرر مد فترة التجنيد للأفراد الملحقين بقوات الشرطة لمدة عام .. وقد استغلت بعض العناصر المخربة تلك الشائعات الكاذبة لتحريض زملائها الجنود فى المعسكر وأثارة مشاعرهم مما أدى الى خروج مجموعات كبيرة منهم الى الطريق العام تورطت فى ارتكـاب كثير من أعمـال العنف والتدمير اسفرت عن اتلاف عدد كبير من السيارات وأشعلت النار فى الفنـادق والمنشآت السياحية الواقعة بالقرب من المعسكر المذكور .

« وقد أدى هذا التصاعد والشائعات التى صاحبته الى امتداد الشغب الى بعض معسكرات الأمن فى المواقع المجاورة فانطلقت مجموعات منهـا مسلحة بالاسلحة النارية والعصى التى كانت فى حوزتها أثناء عودتها من مواقع خدمتها وانغمست فى عمليات التخريب والاتلاف ضـد المحال العامة

والمنشآت السياحية ووسائل النقل وقتلت واصابت بعض حراس الأمن فى هذه المؤسسات .

« وفى الساعات الأولى من صباح اليوم شهدت بعض معسكرات الأمن بمحافظات القاهرة والجيزة والقليوبية وأسيوط وسوهاج والاسماعيلية احداثا تخريبية مماثلة نجمت عنها اضرار بالغة شملت ثلاثة فنادق سياحية كبرى وتحطيم عدد كبير من سيارات المواطنين وسيارات الاوتوبيس وعربات النقل ووحدات المترو .

« كما امتد التخريب الى مستودع لتعبئة الأرز فى أسيوط ومستودع آخر فى سوهاج ، واقتحام سجن طره ، وإطلاق سراح بعض المسجونين فيه » .

وفى ضوء هذا الوضوح أعلن محافظ الجيزة أن الخسائر بمحافظته هى :

* تم احتراق ١٠٨ سيارات بشارع الهرم وبأماكن انتظار الفنادق ، منها ٩٦ سيارة خاصة برواد الفنادق والعاملين فيها و ١٢ سيارة ميكروباس ونقل عام .

* احترقت أيضا أربع فنادق هى الجولى فيل وهوليداى إن سفنكس وهوليداى إن بيرامدز والفاندوم ومدخل فندق مينا هاوس . وكذلك ٢٨ مطعما وكازينو ومحلا عاما .

* تم احتراق واجهتى قسم شرطة الهرم وقسم شرطة السياحة ومكتب بريد الهرم وكشك تصوير بميدان الجيزة ونقطة شرطة المنيرة بامبابة .

وبالاضافة الى هذا هناك تدمير حدث فى منطقة المعادى وفى بعض جهات أخرى من القطر ، وقد قدم النائب العام حصرا للمنشآت التى

خربها المتهمون وهى ٢٥٦ منشأة منها ٩ فنادق و ٤٢ منشأة سياحية و ٦٥ منشأة قطاع عام أو حكومة و ٢٠ منشأة شرطة و ١٢٠ منشأة خاصة .

اما السـيارات التى خربت واحترقت فقـد بلغ عددهـا ٢٠٠٦ سيارات منها ٢١٩ سيارات حكومية و ٤٦٢ سيارة شرطة ، وسيارات خاصة بالمواطنين عددها ١٣٢٥ سيارة .

وذكر أن عدد القتلى ٥٤ عسكريا و ١٦ مدنيا والمصابون ١٥٨ عسكريا و ٤٨ مدنيا .

وأعلن النائب العام أن تحقيقات النيابة العامة أكدت أنه لا تآمر ولا تحريض على القيام بهذه الأحداث من الداخل أو الخارج ، وليس للمتهمين انتماء سياسى ، وأضاف أنه بالاضافة الى اشاعة المد سنة كانت هناك أسباب مساعدة لإحداث هذه الفتنة هى :

* وسائل الاعاشة لهؤلاء الجنود سيئة .
* أماكن الإيواء حالتها لا تسمح بإقامة مناسبة .
* عدم منحهم اجازات ، وزيادة فترات تشغيلهم .
* سوء معاملة بعض الضباط لهم الى حد التعذيب .
* عدم وجود رعاية صحية مناسبة .
* أماكن المعسكرات غير مناسبة فى مواجهة منشآت سياسية على جانب كبير من الترف .

وأعلن النائب العام أن نتائج التحقيقات تؤكد ان قوات الأمن على مستوى الجمهورية عددها ٣٠٫٠٠٠ لم يتحرك منها الا نفر قليل .

وقد استنكر الشعب المصرى بجميع طبقاته وأحزابه وهيئاته هذا

الشعب وبخاصة من فئة يفترض فيها أن تكون حارسة للأمن لا مثيرة للفزع ، وكان موقف الشعب من الفتنة موقفا محمودا جعل من اليسير القضاء عليها •

واستقال فقط وزير الداخلية « أحمد رشدى » بعد هذه الأحداث ، ويقول المطلعون ان الخسائر كانت أضعاف خسائر حريق القاهرة سنة ١٩٥٢ الذى أقيلت وزارة الوفد بسببه •

٤ — الأزمة الاقتصادية الطاحنة وتسديد الديون :

ورث العصر الحاضر أعباء اقتصادية ثقيلة خلفها العهد السابق ، فالحروب الكثيرة الخاسرة ، والسرقات المتتالية ، والبذخ والإسراف ، ومحاولة شراء الذمم ، والصحافة التى كان يصدرها عبد الناصر فى بيروت لتسبح بحمده ، واللاجئون الذين استقدمهم عبد الناصر •••

ثم القضاء على النشاط الزراعى بحجة تصنيع البلاد ، وضعف ذلك التصنيع الذى كان يسير بصورة ارتجالية ، والوظائف التى استحدثت فى الداخل والخارج ، كل ذلك وسواه مما نعرف ومالا نعرف قضى تماما على ثراءمصر ، وأصبحنا دولة مهيضة الجناح •

وأهمل عبد الناصر المرافق تماما ، فلما انقضى عهده أو قبيل ذلك كانت التليفونات صامتة لا تتكلم ، والمجارى مندفعة لا تتوقف ، والطرق منهارة أخرجت ما فى جوفها ، والاسكان لا نشاط له مما دفع الأحياء للسكنى مع الأموات فى القبور ، • • • • • • وحاول السادات أن يرقع الأمر فلجأ للقروض ، وجاءأوان التسديد فأصبحت أقساط الديون وفوائدها عبئا تنوء به الميزانية المصرية •

وبينما مصر ترزح تحت هذه الأثقال اذ طرأت أحداث اقتصادية ضاعفت المشكلة ووصلت بها الى حافة الخطر ، وهذه الأحداث هى :

ـ هبوط أسعار البترول هبوطا شديدا وصل الى ثمانى دولارات للبرميل أى ما يقرب من تكاليف إنتاجه •

ـ تأثرت بذلك قناة السويس تأثرا شديدا فانخفض عائدها الى درجة كبيرة •

ـ بدأت دول البترول العربية تستغنى عن بعض العاملين بها من المصريين تمشيا مع قلة دخلها فقل ما كان يرسله المصريون من عملة حرة •

ـ نقصان السياحة نقصانا ظاهرا بسبب حركة الأمن المركزى التى حرقت الفنادق وهددت السياح •

واستحكمت الأزمة استحكاما قياسيا ، وأخذت تهدد سمعة مصر •

وأبناء مصر عُرفوا على مر التاريخ بحب بلادهم والتفانى فى الدفاع عن سمعتها ، ولذلك قامت دعوة شعبية بالمساهمة فى تسديد الديون المصرية ، وانتفض الجميع يتحدثون عنها ويستجيبون لها ، فكتب الأستاذ جلال الدين الحمامصى عدة مقالات فى هذا الشأن ، وقاد حركة ضخمة لتحقيق هذا الأمل ، وكان لحديثه أصداء هائلة عند الكثيرين من الكتاب والباحثين ، واستجاب الشعب بكل طبقاته تقريبا لهذه الدعوة •

ولكن الأوضاع الرسمية قاومت بتصرفاتها وأعمالها هذا المشروع العظيم ، فبينما يندفع الشعب ليعين الدولة فى حمل أعبائها ، اتجهت وزارات مختلفة الى نفقات لا توصف فقط بأنها اسراف ، بل يمكن أن توصف بأنها خرق وبعد عن العقل والمنطق ، وعدم ادراك لحالة البلاد التى كانت تستدعى الاتجاه للتوفير فى كل مجال •

فما رأيك فى احتفال بعيد فضى للتليفزيون تنفق فيه مئات الآلاف على مظاهر كاذبة •

وماذا قدم التليفزيون أكثر مما يلزم أن يقوم به •

وما بالك فى مباريات كرة تنقل بواسطة الأقمار الصناعية مما يجعلها تتكلف الآلاف والملايين لتسجيل مشاهدتها بدلا من انتظار عرضها عن طريق شريط سيصل للقاهرة بعد يوم أو يومين .

ومابالك بدعوة وزراء الإعلام الأفارقة لاجتماع غير عادى بالقاهرة مع ما يتكلفه هذا الاجتماع والضيافة والحراسة من نفقات باهظة .

وقبل أن يعود هؤلاء الى بلادهم يدعى وزراء الداخلية الأفارقة لاجتماع فى القاهرة .... . !

ثم يدعى رجال الصحافة الأفارقة ، وعددهم مئات ينتسبون لعشرين دولـــــة !

ثم تقوم وزارة الثقافة بعمل مهرجانات حافلة لرجال الفن وتسخو فى توزيع الأوسمة عليهم ، وتدعو رجال الصحافة لحضور هذه المهرجانات بما يستلزمه ذلك من تذاكر للسفر وفنادق للاقامة وغيرها ، وقد أحس مندوب صحيفة الوفد بما فى ذلك من إسراف فى هذا الوقت فأعاد للوزارة تذاكر السفر واعتذر ، وكتبت صحيفة الوفد فى ٢٨/١١/١٩٨٥ تقول :

* مصطفى شردى رئيس تحرير « الوفد » وسعيد عبد الخالق نائب رئيس التحرير تلقيا « شــنطتين » فاخرتين مــن وزير الثقـــافة واكتشفت « العصفورة » أن كل شنطة بها دعوة من الوزير لحضـــور مهرجان احتفالات معابد فيلة بالأقصر ، وتذكرة ذهاب واياب للأقصر ، وميدالية فاخرة وشريط كاسيت ، وأصيبت « العصفورة » بذهول ، بعد حسبة بسيطة ، اكتشفت خلالها ، ان كل شنطة بمحتوياتها بالإضافة الى الاقامة فى فندق ٥ نجوم طوال أيام المهرجان تبلغ حوالى ١٠٠٠ جنيه ، واقترحت « العصفورة » على رئيس التحرير ونائبه ، التبرع بالشنطتين الى صندوق سداد ديون مصر ، ووافقا بسرعة ، وأكدا رفضهما لهـــذه

الدعوة . والتبذير السافر ، فى وقت اضطرت فيه الدولة الى جمع تبرعات من المواطنين لسداد ديون مصر ، كما أن بلادنا تعيش « محزنة » بسبب حادث اختطاف الطائرة المصرية .

وأعضاء البرلمان يرسلون وفدا منهم الى الولايات المتحدة ليسمعوا لخطاب الرئيس حسنى مبارك هناك ، وربما ليصفقوا لبعض مقاطعه .

ولصوص هنا وهناك من كبـار المسئولين يحكم عليهم بالسـجن

وهكذا وجد المصريون أنفسهم أمام ما يمكن أن يسمّى « القِرْبة المقطوعة » فالشعب يحاول أن يساعد ولكن المسئولين مسرفون بالبعثرة عن اليمين واليسار .

فتوقف مشروع تسديد الديون .

وأخذت الحكومة تبذل الجهـد لتحصل عـلى بعض الأموال مـن المواطنين ؛ فضاعفت الرسوم على رخص السيارات ورسوم استخراج جوازات السفر ، وألزمت الذين يسافرون للخارج أن يدفعوا رسوما لذلك

ولكن هذه الأشياء التى أرهقت الكثيرين لم تأت بأية نتيجة ذات بال .

وبينما كان المواطنون يبحثون عما أصابهم من ضرائب جديدة ، نشرت صحف المعارضة قائمة خطيرة عن أولاد السادة الذين حصلوا على شقق من الدولة ، وفى هذه القائمة ظهرت أسماء كثيرين جدا من علية القوم ، ولم ينل أحد من أبناء الشعب العاديين أى حظ فى هذه الشقق .

ولا تزال البلاد ترزح تحت وطأة هـــذه الأزمة الاقتصـادية ، والله المسئول أن يحمى بلادنا من نتائجها .

ومن العجيب أنه فى وسط صيحات الألم من هذه الأزمة ، وفى وسط محاولات التخفيف منها بالوسائل التى ذكرناها لم يحاول أولو الأمر أن يوقفوا سيل المال الذى تدفعه خزانة الدولة لأصحاب الملايين من أولاد عبد الناصر أو أولاد السادات ، مما جعل الكثيرين يضيقون بفكرة المساهمة فى تسديد الديون ، وإن كنا نصيح بأن تخفيف آلام وطننا واجب بصرف النظر عن عقوق بعض أبنائه أو سوء تصرفهم ، كما يتقدم الابن البار لمساعدة أبيه أو مساعدة أمه ولو كان هذا أو ذاك قد أضاع ثراءه بالإسراف وسوء التصرف .

واتخذت صحف المعارضة قضية الديون وتسديدها مادة لتقترح لها الحلول المناسبة ، وفى مقال طويل نشره الدكتور ابراهيم عبده بصحيفة الوفد ، يقترح سيادته وسائل حاسمة لتسهم فى تسديد الديون ، ومن الوسائل التى اقترحها ما يلى ، وقد ذكرنا أكثرها فيما سبق :

١ — ايقاف دفع المخصصات للرئيسين السابقين

٢ — التقليل من عدد الوزراء ووكلاء الوزارات ومن فى مرتبتهم فقد بلغ هؤلاء عدة آلاف .

٣ — عدم استعمال القمر الصناعى فى عرض المباريات والخطب .

٤ — استعادة مجوهرات أسرة محمد على وهى كافية لتسديد الديون مهما بلغ قدرها .

٥ — وزير الدولة للشئون الخارجية يمضى عمره مسافرا ومعه وفد . لماذا ؟

٦ — اعادة النظر فى ميزانية مجلس الشعب ، وفى مدى الحاجة لمجلس الشورى .

٧ — الحد من الدعوات والاستضافة الا للضرورة القصوى .

٥ — الأحزاب فى عهدى السادات ومبارك :

ذكرنا فى الجزء التاسع من هذه الموسوعة أن الانتفاضة العسكرية التى سمت نفسها ثورة ، ألغت الأحزاب بمصر وصادرت أموالها فى يناير سنة ١٩٥٣ ، وأحلت محلهـا تنظيما مقيتا كريهـا للناس هو ما سـمى « هيئة التحرير » وقد صـدر أول بيان عنها فى ١٥ يناير سنة ١٩٥٣ .

وسرعان ما أحس عبد الناصر بابتعاد الناس عن هـذه الهيئـة واحساسهم إنها جسم مصطنع فحولها الى ما أسماه « الاتحاد القومى » سنة ١٩٥٦ ووضـع دستورا على هواه .

ووقف المصريون من هـذه المؤسسـة موقفهم من الهيئـة التى سبقته فحوله عبد الناصر الى ما أسماه « الاتحـاد الاشتراكى » عقب قوانين المصـادرات التى أسـماها « التحـول الاشتراكى » وكان ذلك سـنة ١٩٦١ .

وعجزت هذه المحاولات أن توجد علاقة بين الحاكم الطاغية ومعـه المنتفعون ومراكز القوى الخطرة وبين الشعب ، وظلت هـذه المؤسسات ذيولا للحاكم وبعيدة عن آمال الشعب وتاييده .

السـادات والمنابر فالأحزاب :

وجاء عصر السادات وأدرك بذكائه بُعْدَ الجماهير عن السلطة ، وأراد أن يحقق نوعا من القرب الديمقراطى ، ولكن محاولته كان يشوبها الحـذر والقلق ، وكانت محاولة عرجاء ، وقد ابتدأ محاولته بأن ابتكر موضـوع « المنابر » فى ظل الاتحاد الاشتراكى ، وكان هـذا ابتكاراً سـقيما لأن الناس كان يكرهون أو يحتقرون الاتحـاد الاشتراكى وكل ما يتصـل به ، وكان السادات قـد عبر عن اتجاه الشعب حين قال إن

البنـد الخاص بالديمقراطية الذى ورد فى البيان الأول للثوار لم يعرف طريقه للنـور •

وقـد زاد ابتكار المنابر بعدا عن الناس عندما أوعز السادات لرجل تربطه به رابطة مصاهرة هو « المرحـوم محمود أبو رية » بأن يؤلف منبرا ، وكان السادات يرمى الى أن يجعل فى الاتحاد الاشتراكى منبرا يميل لليمين ومنبرا يميل لليسار ومنبرا وسـطا •

السادات يعيّن رؤساء الأحزاب :

ووقف الشعب موقف الساخر من هـذه المحاولة ما دامت امتدادا للاتحاد الاشتراكى ، ولذلك كانت هـذه المحاولة قصـيرة العمر ، وأذن السادات بقيام الأحزاب بدل المنابر ، **ومن الغريب حقـا أن يكون قيام الأحزاب بإذن ، فالمعروف أن الأحزاب اتجاهات شعبية يقيمها الشعب ، وتتخذ من نبضـه قوتها ، وخلق أنور السادات حزبا أسماه حزب مصر ،** ووضع على قمته ممدوح سالم رئيس الوزراء وفى غيبة من التعقل والخطط السليمة أصبح ممدوح سالم زعيما ، وكان هـذا عمـلا أخرق ، فالزعماء تخلقهم الشعوب ، ولا يمكن أن يخلقها الرؤسـاء ، وبجوار حزب مصر أوعز أنور السادات الى أحـد وزرائه وهو « ابرهيم شكرى » أن يؤلف حزبا أسماه حزب العمل ، وألف مصطفى كامل مراد حزب الاتحـاد ، وألف خالد محيى الدين حزب التجمع • وبدأت الأحزاب تدب فى حياة مصر ، ولكنها كانت أحزابا من الورق •

وكان قانون الأحزاب يخاف من كلمة « الوفـد » ، حتى لا يُبْعَث من جـديد ذلك العملاق الذى حاربته الثورة دون هوادة حوالى ربـع قرن ، ولذلك كان فى قانون الأحزاب بند" ألا تعود الأسـماء القـديمة للأحزاب للظهور ، وكان هـذا عنتا فهم الناس دوافعه •

وجرت حركة عجيبة فإن أنور السادات تطلع للزعامة الشعبية فخلق

حزبا جديدا أسماه الحزب الوطنى الديمقراطى وأضاف كلمة الديمقراطى حتى يبيح لنفسه قيام حزب يحمل اسم « الحزب الوطنى » وهذا الاتجاه جعل حزب الوفد يعود مرة أخرى للوجود باسم « حزب الوفد الجديد » .

وفيما يتعلق بالحزب الوطنى الديمقراطى نذكر أنه هو حزب مصر وكل ما حدث فيه هو تغيير الرئيس ، وكان أشرف لأنور السادات أن يتزعم حزب مصر ويجعل « ممدوح سالم » نائبا للحزب مثلا ، ولكن السادات أعلن قيام حزب جديد ، وهرول السادة الذين كانوا أعضاء هيئة التحرير فالاتحاد القومى فالاتحاد الاشتراكى فأعضاء حزب مصر ، هرولوا الى الحزب الجديد الذى يرأسه رئيس الجمهورية وتركوا « ممدوح سالم » وحده فى حزبه قصير العمر ، وتوقفت صحيفته « مصر » التى كانت حديثة عمر معه .

أما حزب الوفد فهم تطل أيامه فالحياة العسكرية لا تسمح بالديمقراطية الحقيقية ، وكان عمره مائة يوم ثم جمد نشاطه بسبب التحديات التى واجهها ، وبسبب صدور قرار بحرمان رئيسه « محمد فؤاد سراج الدين » من حقوقه السياسية .

وانتهى عهد السادات على هذا الوضع .

مبارك والأحزاب :

وجاء عهد مبارك فسمح فعلا بصدور الأحزاب ، ونال محمد فؤاد سراج الدين حكما ببطلان حرمانه من الحقوق السياسية ، كما صدر حكم آخر بأن حزب الوفد الجديد لم يحل نفسه بعد المائة يوم وإنما جمد نشاطه ، ومن حقه أن يظهر وقتما يرى الوقت مناسبا .

وظهر حزب الوفد ، وكان معبرا دقيقا وحقيقيا عن اتجاهات شعبية ،

فلم يأخـذ مقرا له من دور الحكومة ، وأصـدر صحيفة « الوفد » دون أن يطلب معونة من الحكومة ، وسرعان ما أصبح له مقار في كل عواصم المحافظات وفى غيرها من المدن ، ونجحت صحيفة « الوفد » نجاحـا هـائلا .

وعنـد كتابة هـذه السـطور فى منتصـف عام ١٩٨٦ كان بمصر الأحزاب الآتيـة :

١ ــ حزب الوفد الجديد ، ومما يذكر أن كلمة « الجـديد » توضع صغيرة الحجم تنفيذا للقانون الذى يمنع أسماء الأحزاب القديمة ويتضح من تصغيرها رغبة الحزب فى استئناف اسمه ونشـاطه ، وحـذف أكثر من ثلاثين عاما عانت مصر خلالها شر عناء من الثورة ورجالها .

٢ ــ الحزب الوطنى الديمقراطى .

٣ ــ حزب العمل الاشتراكى .

٤ ــ حزب التجمع .

٥ ــ حزب الاتحاد .

٦ ــ حزب الأمـة .

ويتطلع المخلصون للوطن الى انتخابات حرة تماما ليعرف كل حزب ثقله ومكانته فى الدولة ، ونرجو ألا يطول انتظارنا لهـذا اليـوم .

تلك هى أهم أحـداث عصر محمد حسنى مبارك حتى منتصف شهر يونيو سنة ١٩٨٦ سجلتها من يوم الى يوم بكل الإنصـاف والدقـة .

الرئيس مبارك بين اهتماماته وآمالنا فيه :

نحن نلحظ بوضـوح اهتمامات الرئيس مبارك بافتتاح كوبرى أو

بمشـاهدة معارض « الأسر المنتجـة » ••• ولا بأس فى ذلك ، ولكن المطلوب من رئيس الدولة أهم وأعظم ، وقد تحدثنا من قبل عن تعديل الدستور لتأخذ بلادنا جـو الاستقرار الحقيقى بأن يكون اختيار رئيس الجمهورية ونائبه بالانتخاب المطلق ، وأن تختفى إلى الأبد بدعة الانتخاب بالقائمة ، فقد أفرزت هذه الانتخابات هياكل لا صلة لها بالناخبين ••• وطالبنـا رئيس الجمهورية أن يوقف النزيف الذى تدفعـه مصر المدينة المرهقة للعائلات المترفة الثرية ، عائلات عبد الناصر والسادات •

ونطـالب رئيس الجمهورية باسترداد أمـوال مصر التى هرّبها أصحاب النفوذ للخارج ، وكان الأستاذ محمد حسنين هيكل قـد قـدّر هـذه الأموال بعـدد من المليارات ، وفى عـدد الأخبـار الصـادر فى ١٩٨٦/٤/٣٠ نقلت الأستاذة مها عبد الفتاح سطورا من تقرير « مؤسسة مورجان الأمريكية » جاء فيها أن مصر من بين الدول الفقيرة التى خرجت منهـا مليارات الدولارات بطريق التهريب أو التحويل للخـارج • نحن نطالب بمحاولة جادة لاستعادة هـذه الأموال ومعرفة الذين خانوا البلاد ، ونقلوا ثراءها ، وتركوها تعانى الأزمات •

وموضوع آخر مهم يتحتم أن ينال عناية الرئيس وحـكومته ، ذلك هو موضوع النقص الغذائى الذى نعانيه ، والذى يجعل لقمة العيش فى أيدى أعدائنا •

وننبّه الى السبق الذى أحرزته دول كثيرة كانت مثلنـا تعانى ، وتستورد ، ولكنها بسرعة حققت الكفاية ، بل اتجهت لتصـدير فائض كبير ، أمـا نحن فى عهـد الثورة القاحلة فاننـا نتراجع من يوم الى يـوم •

تقول التقارير إن الصين استطاعت — بعد أن حققت حاجة الألف مليون نسمة من سـكانها — أن تصـدّر القمـح والقطن وغيرهما من الحاصلات •

وكانت بنجالادش تثير اشفاق العالم لنقص مواردها فى الغذاء ، ولكنها قفزت الى تحقيق الكفاية ومحاولة التصـــدير •

أما الهند التى كانت بلاد مجاعات فقــد أصبحت تصـــدّر كثيرا حاصلاتها بعد أن حققت الكفاية وما فوق الكفاية •

ومثل هــذا يقال عن اندونيسيا وتايوان والفيلبين ، وتحاول تركيا إصـــلاح ثمانية ملايين من الهكتارات للزراعة •

ثم نطـــالب الرئيس مبارك بإزالة آثار الماضى ، تلك الآثار الكئيبة التى سمح لها الرئيس مبارك بالحياة حتى الآن ، وهى لا تستحق الحياة لحظة واحــدة ، ومنها محاكم أمن الدولة ، ومحكمة القيم ، وقانون حماية الجبهة الداخلية ، وقانون حماية الوحــدة الوطنية ••• فليست هــذه القوانين إلا قيودا للشعب لصالح الحاكم •

ماذا فعلت هــذه القفزة التى تسمى نفسها ثورة ؟ إنهـــا بتخلفها يمكن أن تســـمى ثورة على الخير والإصـــلاح ، ولكنها انتهت على كل حال ، والعصر الحاضر لا يمكن أن يستمر دون حراك ، إن العبء ثقيل ، ولكن النهوض به لا يحتمل أى تأخير ، حتى نلحق بركب العـــالم الذى يسرع الخطـــا ، ومن عجب أن تسبقنا دول كانت أكثر منا تخلفا ، ولكنها النتيجة الطبيعية عندما تحــكم البلاد بالأنانيين الجهلاء •

منشــآت حـــديثة بمصر

شهدت مصر فى القرنين التاسع عشر والعشرين نهضة عمرانية عظيمة فى مجال المنشآت العمرانية ، التى أصبح بعضها فى عــداد الآثار المهمة ، وبعضها من علامات النهضـــة الحديثة .

ومن منشآت القرن التاسع عشر نذكر :

— مسجد محمد على بالقلعة ، وهو تحفة نادرة ، أكمل به محمد على بهجة القلعة وجلالها .

— مسجد وضريح أبى الحجاج الأقصرى الذى توفى سنة ٦٤٢ هـ وسنتكلم عنه بعد قليل ، وقــد بنى ضريحه بالأقصر فى القرن التاسع عشر .

ومنشآت القرن العشرين :

أما القرن العشرين فقد شهد مجموعة هائلة من المنشــآت ، أقيم بعضها قبل الثورة ، وأقيم الحشد منها فى عهــد أنور السادات وحسنى مبارك وبخاصـــة فى عهد الأخير ، ولا ينسب لعبد الناصر منها إلا الســد العــالى مع ما حوله من الكلام مدحا أو هجوما أوردناه فى الجزء التاسع من هــذه الموسوعة ، وكانت منشآت السادات وحسنى مبارك لدفع عجلة الحياة التى أوشكت على التوقف أو توقفت فعلا لإهمال المرافق تمامــا خــلال عهــد عبد الناصر .

والمنشآت التى تمت فى القرن العشرين قبل الثورة هى :

— مسجد السيدة زينب التى توفيت بمصر فى القرن الأول وبنتــه وزارة الأوقاف فى القرن العشرين (وبهذه المناسـبة نذكر أن المشــهد

الحسينى أقـــدم من المشهد الزينبى بكثير ، فعندما نقل رأس الإمام من عسقلان للقاهرة سنة ٥٤٨ هـ (١١٥٣ م) بنى له مشهد ، ثم ظل يتطور مع الزمن اتساعا وفخامة حتى العهد الحاضر (١٩٨٦ م)) •

— مسجد السيدة سكينة بالخليفة •

— مسجد السيدة عائشة بالقلعة •

— مســـجد زين العابدين (ابن على زين العابدين بن الامــام الحسين) •

— مسجد وضريح عبد الرحيم القناوى الذى توفى سنة ٥٩٢ وبنى ضريحه فى القرن العشرين •

ومنشآت عهـد الساداات هى :

— نفق أحمد حمدى الذى يمر تحت قناة السويس ، فيصل سيناء بالوطن الأم ، وهو عمـــل هائل من الناحية الوطنية والناحية العمرانية ، وستذكره الأجيال دائما بكل الثناء والتقـــدير •

— الكبارى العلوية وبخاصة كوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو ، وقـــد أنقذا حركة المـــرور بين الجيزة والقـــاهرة وكانت امتداداتهما كبـــيرة الفائدة •

— هذا بالاضافة الى اعادة الحياة للتليفونات وعلاج محدود لمشكلة الصرف الصحى والاسكان •

وأهم منشـــآت عهـــد حسنى مبارك هى :

— امتدادات واســـعة جـــدا فى شرايين الحيـــاة ، أى فى الطرق والكبارى تلك التى اقتحمت الصـــحارى ، وامتدت للريف والحضر ، ومنها

كذلك الامتدادات الهائلة لكوبرى ٦ أكتوبر و ١٥ مايو وكوبرى باغوص وكوبرى مهمشة ، ومترو الأنفاق .....

– الجراجات متعددة الطوابق .

– الأنفاق التى عملت بدل الكبارى العلوية أحيانا مثل النفق فى طريق المطار ونفق شيراتون القاهرة .

– اعادة بناء جامع عمرو بن العاص وتوسيعه ومحاولة جعله مركزا لجامعة إسلامية .

– وبمناسبة الحديث عن إعادة بناء جامع عمرو بن العاص نذكر أن هذا العصر شاهد نهضة شاملة لترميم الآثار وتجميلها ، سواء فى ذلك الآثار الفرعونية أو المسيحية أو الاسلامية ، ويمكن للرائى أن يرى نتائج هذه التحسينات فى مواقع كثيرة ، شكرا للدكتور أحمد قدرى الذى قاد ركب هذه الاصلاحات ، وشكرا للحكومة التى أمدته بالمال اللازم لهذا العمل الكبير .

مصر والحضـــارة الاسلامية

فى ختام الحـديث عن مصر يجدر بنا أن نذكر كلمة عن دور مصر فى خدمة الحضارة الإسلامية ، فالتاريخ يسجل أن مصر أتيحت لها ظروف لم تتح لسواها لتقدّمَ أجلَّ الخدمات لهـذه الحضـارة ، فقـد بدأت المدرسة المصرية للدعوة للإسلام ودراسة علوم القرآن واللغـة العربية مبكرة ، فى نفس الوقت الذى بدأت فيه مدارس العراق بالبصرة والكوفة وبغداد (١) ، ومن الطبيعى أن العصر العباسى الأول منح مدارس العراق وبخاصـة بغداد مزيداً من العناية والاهتمام ، فقـد زها خلال هـذا العصر بيت الحـكمة الذى أنشأه الرشـيد ومنحه المأمون تأييداً يقصر دونه الوصـف ، بيد أن الحركات السياسية والمذهبية بعد العصر العباسى الأول صبغت بغـداد بالدم والقلق ، فقـد جاء عصر الأتراك المماليك ، فعصر بنى بويه ، واختفى خلال هـذه العصور نفوذ الخلفاء وهان شأن الكثيرين منهم ، ولا تزدهر الثقافة فى هـذا الجو الصاخب المضطرب .

تراجُع بغـداد وتقـدُّم مصر :

وبينما كانت بغداد تنحنى أمام هـذه العواصف ، كانت مصر تنال نوعا من الاستقلال وصـل فى أكثر الأحيـان الى اكتمـاله ونضـجه ، فالطولونيون والإخشيديون استقلوا بمصر الاستقلال الذى وصـفناه ، واهتم هؤلاء وأولئك بالعلوم والمعارف وجذبوا الفقهاء والباحثين ليعيشوا فى كنفهم ، وأسبغوا عليهم ألواناً من الخيرات ومنحوهم أسمى مكانة ، ثم جاء من بعـدهم الفاطميون ، ولم يكن هؤلاء تابعين لبغـداد بطبيعة الحال ، بل كانوا منافسين لهـا ، ومحاولين أن يسيطروا عليها أحيانا ، ومن ثمَّ وجهوا عنايتهم الى ألوان من خدمة العلوم والمعارف ، فأنشئوا الأزهر ، وأنشأ الحاكم بأمر الله بالقاهرة دارَ الحكمة ينافس بهـا أو

---

(١) راجع حديثنا عن « حضارة مصر فى عهد الولاة » فى هذا الجزء ص ٧٠ وما بعدها .

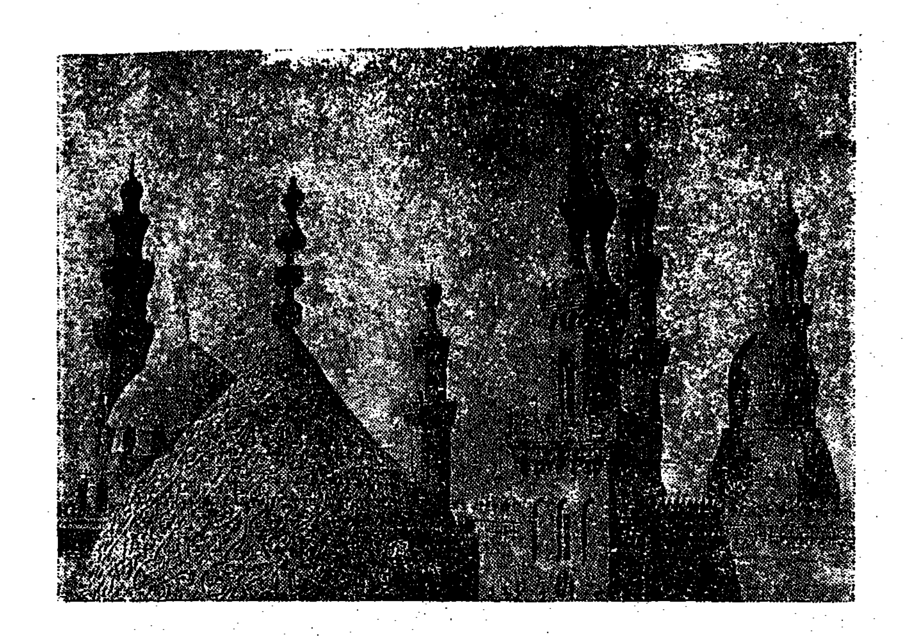
يرث بها بيت الحكمة الذى كان ببغداد ، ولا يهمنا أن الأزهر كان يعلّم التشيع فى وقت ما ، فالذى لا شك فيه أن الأزهر سرعان ما خدم ألوان الثقافات المختلفة فى شتى الميادين ، وظل على مرّ القرون ، المنارة التى يشع ضوؤها على الإسلام والمسلمين فى كل الأنحاء ، وأصبحت القاهرة تسمى « مدينة الألف مئذنة » كما قامت فى حى الأزهر صناعات دقيقة نالت شهرة عالمية واسعة •

مصر عندما زحف الصليبيون على سوريا قلب العالم الاسلامى :

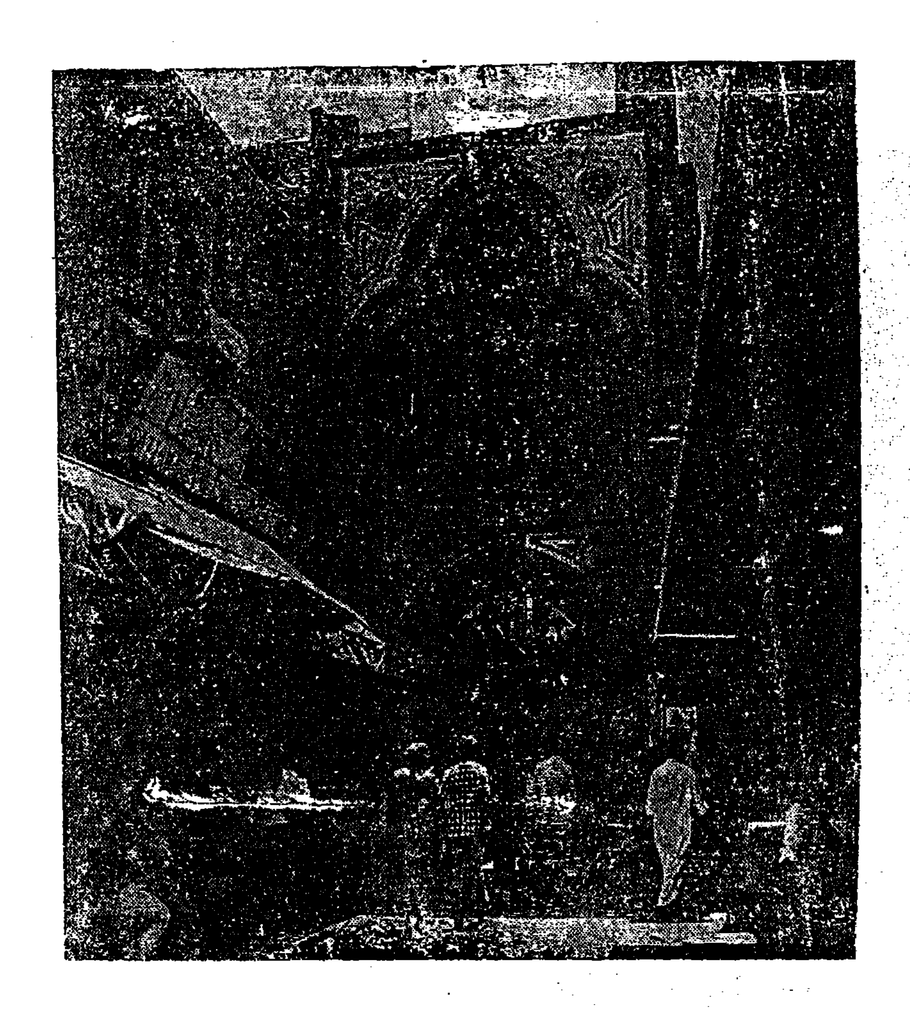
ثم حلّت مجموعة من الكوارث بأكثر أقطار العالم الاسلامى ابتداء من القرن الثانى عشر الميلادى ، شملت قلبه وجناحه الأيمن وجناحه الأيسر ، فسوريا قلب العالم الاسلامى زحف عليها الصليبيون ، واحتلوا الساحل وتعمقوا بالداخل وأقاموا لهم عدة إمارات ، وبقيت المناطق التى لم يصبها الاحتلال مهددة تدافع عن نفسها ، وظلت الحروب حوالى القرنين من الزمان ، وبين قصف المدافع وصليل السيوف ضعف سير الحضارة وتوانى نشاطها ، وقد حاول الصليبيون أن يمدوا نفوذهم الى مصر ولكن محاولتهم كانت قليلة النجاح قصيرة العمر ، فبقيت مصر يتمثل بها جانب النشاط العلمى الذى كان يعم سوريا ومصر قبل هذه الحرب ، وكانت مصر درعا عسكريا قضت على النفوذ الصليبى وأزالته من المنطقة وخلال هذه الأزمة فرّ عدد من علماء الشام لمصر •

مصر عندما زحف التتار على الجناح الشرقى :

وحلت الكارثة الكبرى بالجناح الشرقى ، وهى كارثة زحف التتار على العراق وسوريا ، وقد صحب التتار معهم الدمار أينما حلوا ، وكانوا أعداء للثقافة والحضارة ، فقضوا على كل شىء ، وأزالوا معالم المجد التى كانت بعاصمة الرشيد كما أزالوا كثيرا من معالم دمشق ؛ أما العلماء الذين فروا من هذا السيل الجارف ، ومعهم بعض الكتب فلم يجدوا لهم وجهة إلا مصر ، ولم يستطع إلا جيش مصر أن يوقف زحف التتار



القاهرة مدينة الألف مئذنة



من معالم القاهرة

خان الخليلى والصناعات اليدوية الدقيقة

ويقلم أظفارهم فى موقعة « عين جالوت » ، والمواقع التى جاءت بعدها وحرس جيش مصر بذلك حضارة الإسلام وثقافته وبقية رجاله الباحثين فيه .

مصر عندما زحف الفرنجة على مسلمى الأندلس والجناح الغربى :

وقريبا من الوقت الذى زحف فيه التتار من الشرق ، كان الفرنجة يقضون على البقية الباقية للاسلام بالأندلس ويزحفون على الشمال الافريقى وهو الجناح الغربى ، فيقضون على استقلاله ويحاربون الثقافة الاسلامية به ، وهب جيش مصر بقيادة صلاح الدين الأيوبى فضرب الفرنجة وأنزل بهم أشد الهزائم ، ومرة أخرى فر خلال هذا الصراع عدد كبير من العلماء والباحثين من الأندلس ومن الشمال الافريقى ، ولم يجد هؤلاء موطنا لهم إلا مصر حيث وجدوا الأمن والملاذ الكريم .

الشرق الاسلامى والغرب والشمال هدف للعدوان :

وينبغى قبل أن نورد أسماء نماذج ممن نعرف من العلماء الذين وفدوا الى مصر من العراق والشام والمغرب والأندلس أن نضع تواريخ الهجوم على هذه المناطق حتى ندرك الارتباط بين هذا الهجوم وبين فرار العلماء الى مصر :

— بدأت الحروب الصليبية بالشام سنة ٤٩١ هـ (١٠٩٧ م) وظلت حتى سنة ٦٩٢ هـ (١٢٩٢ م) .

— وبدأ التتار هجومهم على شرق العالم الاسلامى سنة ٦١٦ هـ (١٢١٩ م) ووصلوا الى بغداد ودمروها سنة ٦٥٦ هـ (١٢٥٨ م) ثم زحفوا على الشام بعد ذلك .

— وبدأ انتصار الفرنجة فى الأندلس فالمغرب عقب هزيمة الموحدين فى موقعة « حصن العقاب » سنة ٦٠٩ هـ (١٢١٢ م) .

ومن هذا يتضح أن سنوات القرن السادس والسابع الهجريين (الثانى عشر والثالث عشر الميلاديين) كانت سنوات محن بهذه المناطق ،

وفى نفس الوقت كـانت مصر أحسن حالا فى عهـد الأيوبيين والمماليك ، فتصدى جيشها للجيوش الزاحفة وحقق عليها نصرا عظيما .

وفى ضوء هذا نستطيع أن نذكر بعض أسماء العلماء الذين وفدوا الى مصر خلال هذه الفترة الكالحة .

وفود العلماء من كل الجهات الى مصر

من الشرق : (العراق وإيران)

يوسف بن عبد الرحمن وشهرته أبو الحجاج :

ولد ببغداد ثم رحل الى مصر وجلس يعلم بها ، واتخذ من الأقصر مكانا لحلقته وتوفى سنة ٦٤٢ هـ فى عهد نجم الدين أيوب ، وله ضريح عظيم بالأقصر وله كذلك مسجد فاخر .

ومما يذكر أن المنطقة التى يوجد بها الضريح والمسجد تعتبر منطقة أديان ، اذ كان يوجد بها معبد آمون الفرعونى ثم كنيسة مسـيحية ، وأخيرا مسجد أبى الحجاج الأقصرى .

سليم أبو مسلم :

هو من أحفاد الامام الحسـين رضى الله عنه ، وقد وُلِدَ بمدينة همذان بايران سنة ٥٣١ هـ ، ونبغ فى العلوم والمعارف وحضر الى مصر فى أواخر القرن السادس الهجرى ، وعُرِفَ بين المصريين بعلمه وزهده ، فقلده صلاح الدين الأيوبى خطبة الجمعة بمسجد عمرو ، وطال عمره حتى تجاوز المائة ومات سنة ٦٤٥ ، وله ضريح عظيم بمدينة بحطيط بمحافظة الشرقية .

عبد العزيز عبد القادر البغدادى :

وُلِدَ فى بغداد وتعلم بها مختلف العلوم الاسلامية ، وكانت بغداد آنذاك فى فترة الدمار عقب الاعصار المغولى ، ولذلك لم يطب له المقام فيها ،

فهاجر الى القاهرة ، وأكمل بها ثقافته ثم جلس يعلّم بها ، وظل فيها حتى مات سنة ٧٤٨ هـ •

محب الدين البغدادى :

وهو فقيه ومحدث ولغوى وهو كذلك أحد علماء المستنصرية ، وكان يعلّم بها عندما عادت لها الحياة بعد الاعصار المغولى ، ولكن الحياة فى بغداد لم تطب له فهاجر الى مصر ، ورحبت به مصر ، فأصبح قاضـيا للحنابلة ، ومفتيا للديار المصرية ، وتوفى بالقاهرة سنة ٨٤٤ هـ •

على بن جمعة البغدادى :

ولد فى بغداد ، ونال ثقافته الأولى بها ، ولكن بغداد كانت لا تزال تعيش فى أعقـاب الزحف المغولى ، ومـن جاءوا بعدهم من الجلائريين والتركمان ، الذين لم يكن لهم معرفة بالاسلام ولا تقدير لعلمائه ، ومن هنا هاجر الى القاهرة وجلس يعلّم بها حتى توفى سنة ٨٦٨ هـ •

من الغرب (المغرب والأندلس) :

الطرطوشى (ابن أبى رَنْدَقَة) :

ولد فى طرطوشة بالأندلس ، ودرس العلوم الاسلامية ، وتخصص فى التاريخ ، وقد أحس باضطرابات الأندلس خلال عهد الطوائف ، فجاء الى الحجاز وبغداد والبصرة ودمشق ، وانتهى به المطاف الى مصر ، وظل بها حتى مات سنة ٥٢٠ هـ ومن مؤلفاته « سراج الملوك » و « الحوادث والبدع » •

الفافقى (اليسع بن عيسى) ه

عاش فى بلنسية بالأندلس ، ودرس على شاعرها ابن خفاجة ، ثم سافر الى الاسكندرية والقاهرة ، وخدم فى بلاط صلاح الدين الأيوبى ، وقد شمله السلطان بعناية ورعاية ، وأهداه منزلا على ضفاف النيل ،

وطلب منه كتابة كتاب عن المغرب ، فكتب كتابه « المُغْرِب فى محاسن أهل المَغْرِب » وتوفى بالقاهرة سنة ٥٧٥ هـ .

القاسم الشاطبى :

ولد بمدينة شاطبة بالأندلس سنة ٥٣٨ هـ وحفظ بها القرآن ثم ذهب الى معاهد بلنسية فتلقى القرآن والعلوم الاسلامية حتى أصبح أماما فى مختلف الدراسات الاسلامية .

حضر الى مصر وعمره أربع وثلاثون سنة وذهب الى الاسكندرية ثم رحل للقاهرة فاستقبله القاضى الفاضل عبد الرحيم البيسانى وعينه مدرسا بمدرسته « الفاضلية » وتوفى سنة ٥٩٠ هـ ودفن بمقبرة القاضى الفاضل .

وله ابن هو محمد الشاطبى الذى دفن بالاسكندرية والذى يُنْسَب له حى الشاطبى لوجود ضريحه فى هذا الحى .

عبد الرحيم القناوى :

من اقليم سبته بالمغرب الأقصى ، ولد سنة ٥٢١ هـ ، وحضر الى مصر فى عهد الخليفة العاضد ، وعينه صلاح الدين شيخا لعلماء قنا ، وذلك اعترافا بفضله ، وقد التف حوله العلماء والطلاب واستفادوا منه استفادة واسعة ، وتوفى سنة ٥٩٢ هـ وله ضريح شهير بقنا .

العبدرى (عبد الله بن الحسين) :

اندلسى المولد ، كان فقيها من أعظم فقهاء الأندلس ، وقد وفد الى مصر واستقر بها ، وأنشأ مدرسة ورباطا بالقرب من داره ، وتوفى سنة ٦٢٢ هـ .

أبو الخطاب بن دحية :

هو المحدث الحافظ الأندلسى ، وفد الى مصر فى العهد الأيوبى ، فعيَّنه الملك العادل مؤدبا لابنه الكامل ، وعندما تولى الكامل الملك بنى

لأستاذه مدرسة للحديث فى المكان المسمى « بين القصرين » وتوفى سنة ٦٣٣ هـ •

أبو الحسن الشاذلى :

ينتهى نسبه الى الامام الحسن بن على بن أبى طالب ، ولد بالمغرب بمدينة غمارة قرب طنجة حيث تلقى العلوم الإسلامية ، وطاف بالبلاد الاسلامية حتى وصل الى مدينة « الشاذلة » فبقى فيها فترة حتى نسب لها بعد ذلك •

وهو يقول انه رأى الرسول صلوات الله عليه فى المنام يطلب منه أن ينتقل الى الديار المصرية ، فأسرع بالاستجابة وفى مصر التقى بعلماء العصر : العز بن عبد السلام ، وابن الحاجب ، وابن الصـــلاح ، وابن عصفور ، وتوفى أبو الحسن الشاذلى وهو فى طريقه للحج عند ميناء عيذاب على البحر الأحمر ، وكانت عيذاب وقتها ميناء مصر الى جدة قبل الانتقال للسويس •

السيد أحمد البدوى :

ولد بمدينة فاس سنة ٥٩٦ هـ ، وينتهى نسبه الى الامام الحسين وأمه مغربية ، ورحلت الأسرة الى مكة واستقرت فى طريقها لمكة بالقاهرة مدة خمس سنوات ، بعدها تمت رحلتها الى مكة ، وعاشت بضع سنوات هناك ، وفى سنة ٦٣٤ هـ رحل أحمد الى العراق وفى الموصل التقى أحمد مع « فاطمة بنت برى » فكانت لها مع أحمد قصة شهيرة لأنها كانت فاتنة الجمال فأرادت اغراء أحمد ، ولكنه لم يستجب لها بل نصحها فالتحقت به ودرست اتجاهاته الصوفية •

وقد جاء أحمد البدوى الى مصر سنة ٦٣٧ ويقال أنه ذهب الى طنطا نتيجة لرؤيا رآها •

ومن تلاميذه عبد العال وأخوه عبد المجيد .

وقد توفى بطنطا سنة ٦٧٥ هـ وله بها ضريح عظيم يعتبر من أشهر أضرحة مصر .

محمد بن الشباط :

هو من مدينة « توزر » بافريقية (تونس) انتقل الى مصر واستوطن القاهرة ، وحفيده محمد بن على عاد الى توزر ، وكان يعرف بالمصرى لطول حياة الأسرة بمصر ، وتوفى فى مطلع القرن السابع الهجرى .

ابن حيان :

مؤرخ شهير ولد بغرناطة وتعلم بالأندلس ، ثم رحل الى مصر وعاش بها يتعلم ويعلم حتى مات سنة ٧٤٦ هـ .

ابن خلدون (عبد الرحمن بن محمد) :

ولد فى تونس ، وهو فيلسوف ومؤرخ ، وواضع علم الاجتماع ، ودرس المنطق والفلسفة والفقه والتاريخ ، وشغل عدة مناصب سياسية ، وكان سفير ابن الأحمر لملك قشتالة .

رحل الى مصر ودرس فى الأزهر وتولى قضاء المالكية ، ولما حاصر تيمور لنك دمشق قصده ابن خلدون راجيا انقاذ المدينة ، ولكن الطاغية المغولى لم يقبل رجاءه ، ألف المقدمة التى تشمل فلسفة علم الاجتماع وفلسفة التاريخ توفى بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

من الشام :

عمر بن الفارض :

ينتهى نسبه الى قبيلة حليمة السعدية مرضعة الرسول عليه السلام ، وكان أبوه يعيش فى « حماه » ، ثم جاء أبوه الى مصر وشغل مناصب عالية ،

أما عمر فقد ولد بمصر سنة ٥٧٦ هـ تقريبا ، وعاش فى كنف الدولة الأيوبية ، وتوفى بالقاهرة سنة ٦٣٣ هـ وكان كثير السياحة فى جبل المقطم .

الشيخ عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب :

وفد أبوه الى مصر جنديا فى جيش نور الدين زنكى الذى كان يقوده أسد الدين شيركوه وصلاح الدين الأيوبى واستقر فى مصر ، وقد ولد عثمان فى مدينة اسنا ، ثم انتقل الأب وابنه الى القاهرة فى أواخر عهد الخليفة العاضد ، وتوفى ابن الحاجب بالأسكندرية سنة ٦٤٦ هـ وله فيها ضريح شهير .

العز بن عبد السلام :

كان يعيش فى دمشق فى عهد الملك الصالح اسماعيل الأيوبى ، ولكن هذا الملك باع أسلحة للفرنجة فثار عليه العز ، وأوقف الدعاء له فى خطبة الجمعة ، ثم حضر لمصر خفية ، وقد استقبله الأمراء والعلماء أحسن استقبال ، وعاش فى مصر معززا مكرما حتى مات سنة ٦٦٠ هـ .

الشيخ محمد العتريس وأسرة العتريس :

ينتهى نسب الأسرة الى الامام زين العابدين بن الحسين رضى الله عنه ، وهو أحد عشرة اخوة من الذكور تلقوا جميعا تعليما دينيا وكانت لهم اتجاهات صوفية ، ومن أشهر اخوته الشيخ ابراهيم الدسوقى الذى ولد سنة ٦٢٣ هـ أما الشيخ العتريس فولد بعد ذلك ببضع سنوات ، وللشيخ العتريس ضريح بالركن الشمالى الغربى بجامع السيدة زينب أما أخوه الشيخ ابراهيم الدسوقى فله ضريح بدسوق ، وقد وفد أفراد أسرة العتريس الى القاهرة فى القرن السابع الهجرى .

عمر البلقينى :

كان قاضيا بدمشق ثم جاء الى مصر ، وولى القضاء بها ، كما ولى التدريس فى بعض مساجدها ومدارسها ، وتوفى بمصر سنة ٨٠٦ هـ .

وأصبحت مصر بذلك أزهى مركز فكرى فى العالم الاسلامى كله ، حتى شاع ذلك المثل الذى يقول : من لم ير مصر لم ير عزّ الاسلام .

جهود مصر فى العصر الحديث :

وحدث شىء آخر فى العصر الحديث ، كانت له نفس النتائج تقريبا ، ذلك أن العالم العربى خضع للأتراك العثمانيين منذ مطلع القرن السادس عشر ، وكان العصر العثمانى حافلا بالحروب والقلق ، ولم يكن به استقرار قط ، وكانت العناية بالثقافة فى عواصم العالم العربى ضئيلة أو معدومة ، مما جعل الظلام يجثم على البلاد العربية ، ومما أخفَتَ صوتَ العلم فيها ، وفى مطلع القرن التاسع عشر استقلت مصر ، وبدأ يتكون بها جيل من أبنائها يُحيون الماضى ويوقظون الفكر ، وسبقت مصر بذلك شقيقاتها العربيات بحوالى قرن ونصف قرن ، وخطت مصر خلال هذه المدة الى الأمام خطوات طيبة لخدمة العلوم والمعارف ، وأنشأت بجانب الأزهر أنواعا من المدارس : منها العسكرية والفنية ، ومنها دار العلوم ، ومدرسة القضاء الشرعى ، كما أنشأت دار الكتب ، وفى مطلع القرن العشرين أنشئت جامعة القاهرة ، وتلاها سواها من الجامعات ، ولما أطلّ عهد الاستقلال والتحرر على العالم العربى ، وأرادت الدول العربية أن تحيى الدراسات الاسلامية والعربية وغيرها ، تطلعت لمصر ، فأمدتها هذه بالأساتذة والعلماء والكتب ، وتعاونت معها ولا تزال ، تعاونا كاملا للوصول الى الهدف المشترك ، ودفعت مصر بعلمائها كذلك الى أكثر أقطار الأرض لتعليم اللغة العربية والحضارة الاسلامية ، ولسنا فى حاجة الى أن نورد أرقاما عن عدد الأقطار التى استجابت لها مصر ، ولا عن عدد العلماء الذين أوفدتهم ، لسنا فى حاجة الى ذلك ، فهو من الشيوع والذيوع بحيث لا يحتاج الى دليل .

وهكذا قامت مصر بدور كبير فى خدمة الاسلام وحضارته وكل الدراسات حوله .

تاريخ سوريا من الفتح العثماني

تقسيم :

نستطيع أن نقسم تاريخ سوريا من العهد العثمانى (١) حتى الآن ثلاثة أقسام متميزة هى :

١ — فترة العثمانيين (١٥١٦ — ١٩١٨) والسلطة خلالها كانت للعثمانيين غالبا ، ولكن كان هناك نوع من الاستقلال لبعض المناطق فى جبال لبنان •

٢ — فترة الاحتلال الأوربى (١٩١٨ — ١٩٤٦) وتمتاز بتقسيم سوريا الى عدة دول عادت بعضها الى الاندماج وبقى بعضها حتى الآن محافظا على استقلاله كما سنرى •

٣ — فترة الاستقلال من ١٩٤٦ حتى الآن وتمتاز بالوحدة الكاملة بين سوريا ومصر فى « الجمهورية العربية المتحدة » (١٩٥٨ — ١٩٦١) التى عُدّت آنذاك نواة للوحدة العربية الكبرى •

وسنصف معالم كل فترة من هذه الفترات فيما يلى :

---

(١) من الواضح أننا درسنا تاريخ سوريا قبل العهد العثمانى مرتبطا بتاريخ مصر فى نفس الفترة ، اذ كان البلدان يتبعان حكما واحدا ، ويكونان دولة واحدة •

١ — الفترة العثمانية

١٥١٦ — ١٩١٨

تتفق سوريا مع مصر فى بعض ملامح الحياة فى ظل العثمانيين ، وهناك ملامح أخرى اختلفت هنا عنها هناك ، ومن أبرز الملامح التى اتفقت فيها سوريا مع مصر مكانة الباشا ، ونظام الالتزام ، والنتائج السياسية والاقتصادية والاجتماعية للحكم العثمانى ، ولن نعيد هنا الكلام عن هذه الملامح المشتركة اكتفاء بما أوردناه عنها من قبل ، وسنعنى بالملامح التى انفردت بها سوريا .

الـولاة :

كانت الولاية فى سوريا منصبا دسما للباشا ، إذ لم يكن هناك مماليك كأولئك الذين كانوا فى مصر ينازعون الباشا سلطانه أو ينغصون عليه عيشه ، ثم أن قرب سوريا من تركيا ضمن للولاة الباشوات نوعا من الهيبة ، ومن هنا كان تكالب الولاة على سوريا ملحوظا ، وكان الطامعون فى الولاية مستعدين أن يدفعوا رشوة باهظة لينالوها ، فكثر بذلك عدد الولاة فى كل من ولايات سوريا ، اذ بلغ عددهم فى ولاية دمشق ١٣٣ واليا خلال السنين المائة والأربع والثمانين التى ابتدأت بالفتح العثمانى (١) ، ولم يكن بين هؤلاء من أتم السنتين فى وظيفته ، وكانت الحالة فى حلب مماثلة للحالة فى دمشق ، بل قد توالى تسعة من الباشوات على المدينة خلال ثلاث سنوات ، وكثيرا ما كان الوالى يعزل قبل أن يحصل من الولاية على ما يعوّضه الرشوة الباهظة التى دفعها ، ولذلك نجد بعض الولاة يتمسكون بالولاية على الرغم من صدور فرمان بتولية وال جديد ، بل هبت أحيانا حروب طاحنة بين الباشوات الذين كانوا يتنازعون السلطة ،

---

(1) Lammens : Syria vol I p. 62.

وكانت عاصمة العثمانيين تترك هؤلاء الولاة فى صراعهم لأنها تعرف أنها ستتقاضى الجعل ممن تكون له الغلبة منهم •

تقسيم سوريا ومشكلة لبنان :

يعتبر تقسيم سوريا أضخم ألوان العناء التى نزلت بها بل وبالعالم العربى نتيجة للحكم العثمانى ، صحيح أن الاستعمار فى المرحلة التالية هو الذى أبرز هذه المشكلة ، ولكن أساس التقسيم وضع فى العهد العثمانى ، وسنتكلم هنا عن هذا الموضوع كله سواء ما تم فى العهد العثمانى أو فى العهد الذى جاء بعده •

والعجيب أن يقع التقسيم فى سوريا مع أنها قلب العالم العربى ، وفكرة الوحدة عريقة وأصيلة فى سكان هذه البلاد ، ليس فقط بين أجزاء سوريا بعضها والبعض الآخر ، ولكن بينها وبين الأقطار العربية جميعا كما سجل التاريخ ذلك عدة مرات ، وكما سنرى ذلك فيما بعد •

التقسيم بعيد الجذور :

وقصة تقسيم سوريا بعيدة الجذور ، ربما ترجع الى أيام فتحها ، فقد اشترك فى فتحها عدد من جيوش المسلمين ومجموعة من القواد ، وقد اشتركت هذه الجيوش فى بعض المعارك الكبرى كمعركة أجنادين ودمشق واليرموك ، ثم انقسمت جيوش المسلمين قسمين : اتجه قسم الى الشمال بقيادة أبى عبيدة ومعه خالد بن الوليد ، واتجه قسم آخر الى الجنوب بقيادة عمرو بن العاص وشرحبيل ، وبقى يزيد بن أبى سفيان فى منطقة دمشق ليحمى ما حققه المسلمون من انتصارات بها ، وبعد أن تم للمسلمين فتح الشام ولّى عمر بن الخطاب يزيد ولاية دمشق كما جعل معاوية واليا على الأردن ، وعين عمرو بن العاص واليا على فلسطين (١) •

---

(١) التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ١ ص ٢٥٥ وما بعدها و ج ٢ ص ٢٩ •

ولعله منذ ذلك الحين بدأت سوريا تتشعب الى ولايات ، وربما أمكن القول ان هذا الصدع وضح من جديد خلال العهد العباسى ، فلعله كان ضروريا لدى العباسيين أن تظل سوريا مفككة ، إذ كانت بغداد تخشى وثبات أهل الشام ، وأصبح ذلك شبه تقليد فيما بعد ، حتى انخلعت حلب عن الشام نهائيا وكونت مع الموصل دولة بنى حمدان فى فترة من الفترات سبق ذكرها ، وحتى أن صلاح الدين الأيوبى عندما قسم مملكته جعل دمشق لأحد أولاده وجعل حلب لابن آخر ، وفى عهد المماليك كانت سوريا مقسمة الى « نيابات » ستة ، هى نيابة حلب وحماه ودمشق وطرابلس وصفد والكرك وكان حاكم كل منها مستقلا عن الآخرين ، له قصره الذى هو صورة مصغرة من بلاط القاهرة ، وقد أبقى الأتراك الدوائر النيابية فى سوريا على نحو ما كانت عليه فى عهد المماليك ، ولكنهم بدلوا بعض الشيء فى نظام التسمية ، فدعيت النيابة ولاية ، وأصبح الحاكم يسمى الوالى بدل النائب ، ثم اندمجت هذه الولايات بعضها فى بعض عقب الحركة الاستقلالية التى قام بها « جان بردى غزالى » وسنتكلم عنها فيما بعد ، فأصبحت ولايات سوريا ثلاثة ، هى ولاية دمشـــق وحلب وطرابلس ، ثم جعلت صيدا ولاية سنة ١٦٦٠ م لتكون مركزا للرقابة على لبنان (١) ولم تكن هذه الولايات بطبيعة الحال تقسيما لسوريا ، ولكنها على كل حال وضعت الأساس لتجزئة الوطن الواحد .

لبنان وجماعات الجبل :

والحديث عن لبنان الذى ختمنا به الفقرة السابقة يقودنا الى موضوع يحتاج الى مزيد من التفصيل عن حركات الانشعاب فى الشام ، ففى لبنان كانت تعيش أسر اقطاعية منذ عهد الفاطميين ومنذ عهد الصليبيين ، فقد لجأ الى جبال لبنان الحصينة جماعة الدروز الذين يرتبط تاريخهم بالحاكم

---

(١) فيليب حتى : سوريا ولبنان وفلسطين ج ٣ ص ٢٧٤ و ٣٠٧ — ٣٠٩ .

بأمر الله الفاطمى ، كما كان يعيش هنـاك جماعات الموارنة معتصـمين بالجبال ، وقد ادعت فرنسا مسئوليتها عن الموارنة الكاثوليك ، متخذة الاتجاه بأن فشل الحروب الصليبية ألقى عليها مسئوليات دينية تجاه المسيحيين الذين يعيشون فى هذه المنطقة منحدرين — فى ادعائهم — من التجمع الصليبى الذى كان قد آفل نجمه .

حمايات غربية للطوائف فى لبنان :

وجاء الحكم العثمانى فأدرك قوة الاقطاع فى لبنان ، ولكنه أدرك فى الوقت نفسه أن لبنان ليس مصدر خطر عليه ، فاتجه الى مواطن الخطر فى مصر وفارس ، واكتفى من أمراء لبنان ومن شيوخ قبائله بالتبعيـة الاسمية ، ولعل هذا ساعد فرنسا أن تمد يدها الى الموارنة ما داموا ينعمون بمركز ممتاز فى الامبراطورية العثمانية ، لتقوى بذلك امتيازاتهم ولتدعم سلتطها بهم، فتقدمت الى السلطان العثمانى وهو فى أوج مجده تطلب — باسم الصداقة والدبلوماسية — مركزا لرعاياها داخل الدولة يمتاز عن رعايا باقى الدول ، وقد نجحت سنة ١٥٣٥ فى عقد معاهدة بهذا الامتياز وأضيف فى هذه المعاهدة حقها فى رعاية المسيحيين الكاثوليك فى الدولة ، وكان المقصود من كلمة « رعاية » بعض الخدمات الدينية والثقافية ، ولم يكن هذا يضر الدولة العثمانية لأنها كانت قوية تستطيع فى أى وقت من الأوقات التدخل وايقاف هذه الرعاية ، ولكن تطور الزمن ، وما أصاب الدولة من وهن ، نقل مدلول « الرعاية » الى « الحماية » وجعلها حقا ثابتا لا يمكن التخلى عنه .

وما ان حصلت فرنسا على هذا الحق حتى حصلت روسيا على حق مثيل له بالنسبة للمسيحيين الأرثوذكس .

ولم يكن المقصود من هذا التدخل دينيا ، ولكن ذلك كان — كالعهد بأوربا دائما — استغلالا للدين للحصول على نفوذ سياسى ، وأوضح دليل

على ذلك أن انجلترا عندما رأت تدخل فرنسا وروسيا باسم الكاثوليكية والأرثوذكسية تدخلت هى أيضا مُدافعة عن الدروز ، وهكذا أصبحت جبال لبنان باعتبارها تعجُّ بالمسيحيين والدروز منعزلة من الناحية العملية عن باقى سوريا ، وأتاح ذلك لأصابع الأجانب فرصة التدخل فى شئونها منذ ذلك العهد المبكر .

وفى ظل هذه الامتيازات تقدمت أوربا نحو الموارنة الكاثوليك تساعدهم وتقوى صلتها بهم ، ويقرر الدكتور فيليب حتى أن المؤثرات الثقافية الغربية ممثلة فى بعثات الجزويت وغيرها من الارساليات المسيحية عرفت طريقها الى جبال لبنان منذ سنة ١٦٢٥ م ، وأن دائرة اللاهوت المارونية فى روما أتاحت لنصارى لبنان فرصة نادرة لتحصيل العلم ، فقد اختارت المتفوقين منهم ليدربوا فى تلك الدائرة ، وبعد أن ينتهوا دروسهم ، يعود بعضهم الى الوطن ليشغلوا مناصب اكليريكية رفيعة ، ويبقى آخرون فى روما يكبون على الدرس والتأليف (١) .

وكانت دول أوربا تنتهز الفرص من حين الى آخر لتحصل على مزيد من الامتيازات للمسيحيين ، وبالتالى مزيد من حقوق التدخل باسم حمايتهم ، وكانت هذه الفرص تنمو كلما تدهورت الدولة أو تقهقرت فى معركة ، وطالما حدث ذلك التدهور فى عمر هذه الدولة آنذاك ، وهكذا جُدّدت هذه الامتيازات سنة ١٧٤٠ كما جددت بفرمان الكلخانة سنة ١٨٩٩ عقب حرب القرم ، والذى كون من المسيحيين ما يمكن أن يُعد دولة فى داخل الدولة .

صراع الموارنة والدروز :

ونتيجة لذلك برز الموارنة فى لبنان مؤيّدين بفرنسا ، ووقف الدروز مواجهين لهم مؤيدين بانجلترا ، ومؤيدين كذلك بالزعماء الذين كانوا يعملون

---

(١) المرجع السابق ص ٣٢٠ و ٣٢٢ .

للاستقلال منذ القرن السادس عشر ، (وسنتكلم عنهم عند كلامنا عن أشهر الولاة والأمراء) ، وبعواطف الباب العالى ، الذى — من أجل أن يستعيد نفوذه كاملا فى المنطقة — حرك الدروز للثورة ضد الموارنة سنة ١٨٤٢ م وكان ذلك عقب جلاء ابراهيم باشا عن سوريا ، وقد ترك هذا الجلاء القوتين المتصارعتين وجها لوجه ، وبخاصة أن ابراهيم كان يقرب الموارنة نكاية فى الدروز الذين كانوا يتجهون الى الآستانة ، وتقربا من فرنسا التى كانت ترعى الموارنة .

وهناك موضوع آخر يتصل بهذا الجلاء أيضا وهو أن ابراهيم باشا كان قد انتزع أراضى كثيرة من الدروز وسلمها للموارنة ، فلما تم هذا الجلاء حاول الدروز أن يستردوا أراضيهم من الموارنة .

تقسيم لبنان :

وهكذا تجمعت للثورة أسبابها فاندلعت ، وتحرك الباب العالى متظاهرا بالرغبة فى إخماد الثورة ، ولكن الدوافع الحقيقية كانت محاولته استعادة السلطان المباشر على الجبل كله ، بيد أن دول أوربا تدخلت باسم الامتيازات السابقة ، فتقرر تقسيم لبنان الى منطقتين إداريتين يحكم احداهما عين من أعيان الدروز ، ويحكم الأخرى عين من أعيان الموارنة ، ويحمل كل منهما لقب « قائم مقام » . أما الأماكن المختلطة فانها تحكم بنائبين يعين أحدهما القائم مقام بمنطقة الموارنة ويعين الثانى القائم مقام بمنطقة الدروز ، وهبت الثورة من جديد سنة ١٨٤٥ فعمد الباب العالى الى نزع السلاح من كل من الطرفين وعين مجلسا يتمتع بصلاحيات ادارية وقضائية الى جانب كل قائم مقام ، وكان كل مجلس يتألف من ممثلين لمختلف طوائف الشعب (١) .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٤ ص ٢٦ .

ولكن هـذا النظام الثنائى أثبت فشله لأن القوى المحركة من الخارج كانت دائبة العمل لإثارة الفتنة ، وقد عمـدت الدول الى استصـدار « التنظيمات الخيرية » سنة ١٨٥٦ كما سبق القول ، فزاد هـذا التصرف الأمر حـدة ، وأثار ثائرة الدروز والمسلمين جميعا ، فبدأت فى سـنة ١٨٥٩ مذبحة هائلة كان سببها أن اعتدى بعض الموارنه على الدروز فقتلوا عـددا منهم ، فهب الدروز للثـأر ، وسـقط فى هـذه المجزرة الآلاف الموارنة ، وخربت الدور ، وارتكبت الفظائع ، وامتد لهب المجزرة الى غير لبنان فدخل بعض البلاد السورية ومنها دمشق ، وتدخل بعض من عرف بالحـكمة من المسلمين من أمثال عبد القادر الجزائرى فتوقفت هـذه المجزرة بعد أن سقط فيها ضـحايا كثيرون ، وبعد أن تركت فى جسم الدولة آلاما استعصت على الشفاء ، وقد تدخلت الدولة بعنف لإيقاف هـذه المجزرة ، فحكمت بالإعـدام على عـدد من الدروز ونفت آلافا آخرين خارج الجبل ، ولكن بريطانيا تدخلت لإنقـاذ أنصـارها ، فأوقفت حكم الإعـدام ، وعملت على السـماح للمنفيين بالعودة الى بلادهم .

وفى خلال هذه المجزرة اتفقت دول أوربا أن ترسل فرنسا حملة الى لبنان لحماية أرواح المسيحيين على ألا تزيد مدة احتلالها للبلاد عن ستة أشهر ، وقـد أرسلت الحملة فعلا ، ولكن الاجراءات الصـارمة التى اتخذتها الدولة العلية لم تدع للحملة فرصـة لإطالة مدتهـا بلبنـان بالاضـافة الى أن الدول الأوربية أصرت على أن تخرج فرنسـا حتى لا تستقل باحتلال هـذه المنطقة فجلت الجيوش الفرنسية عن لبنـان فى يونيو سـنة ١٨٦١ (١) .

---

(١) انظر « فى التاريخ الاسلامى الحديث » للدكتور ضياء الدين الريس ص ١١٩ وما بعدها .

الحـكم الذاتي فى لبنـان :

ولم يكن من الممكن أن تترك أحوال الجبل على هـذا الوضـع ، فالحـكم المباشر له يثير ثائر الموارنة ، والبُعد عنه يثير ثائرة الدروز ، ولذلك جرت مداولات طويلة بين الدول وبين الدولة العليـة تقرر على إثرها أن يُمنح لبنـان استقلالا ذاتيا تحت ضمان الدول على أن يكون حاكم لبنان مسيحيا ومن غير لبنان ، وعلى أن تعترف هـذه الحـكومة بالسيادة القانونية للدولة العثمانية ، وصـدر بذلك قانون سنة ١٨٦٤ ، وبذلك انسلخت لبنان رسمياً عن الأم سوريا ، وظلت لبنان تحـكم فى ظل هـذا القانون حتى قيام الحرب العالمية الأولى ، وقـد أتاح استقلال لبنان لفرنسا مزيداً من التدخل فى الميدان الثقافى وميدان المـال فعملت منذ ذلك التاريخ جاهدة ليتم صبغ لبنان بالصبغة الفرنسية .

ولعلنا نستطيع أن نتخطى بضع عقود من السـنين لنضـيف الى حديثنا عن لبنان موضوعا هاماً ، هو أنه بعد الحرب العالمية الأولى وبعد أن حصلت فرنسا على حق الانتداب على سوريا ولبنان ، أصدر الجنرال « غورو » قرارا فى ٣١ أغسطس سنة ١٩٢١ نص على إيجاد « دولة لبنان الكبير » مكوّنةً من سنجق لبنان فى العهد التركى مضـافاً اليه مساحات جـديدة من الأرض السورية القديمة تضاعف مساحته الأصلية ، وتجعل معظم الساحل السورى فى أيدى لبنان الكبير .

لبنان تُنتزع من سوريا وتصبح دولة مستقلة :

وقـد كانت المصلحة التى توخاها الجنرال غورو من ذلك أن يوسع الإقليم الذى يتأثر ثقافيا بفرنسا ، بمـا يجعله دولة تستحق الوجـود المستقل ، إلاّ أنه كان قصـير النظر فى ذلك ، إذ أن معظم الاضافات الجـديدة كان أهلها من المسـلمين وبذلك انكمشت النسـبة المئـوية للمسيحيين ، فبعد أن كانوا كثرة سـاحقة فى سنجق لبنان القـديم ، أصبحوا لا يكوّنون فى الوضـع الجديد أغلبية تستطيع فرنسا المسيحية

الاعتماد عليها ، فكان ذلك — حتى من وجهة نظر الاستعمار — عملا مرتجلا ينبىء عن قصر النظر ، فضلا عن أنه خلق سبباً جديداً من أسباب الخلاف فى بلد يشكو من كثرة الخلافات (١) ، أما الأجزاء التى ضمت الى لبنان هذه المرة فهى لواء بيروت ويشمل بيروت وصيدا وصور وطرابلس ، وأقضية أربعة هى بعلبك وحاصبيا وراشيا والبقاع .

وفلسطين تنتزع من سوريا أيضا :

وكان إخراج لبنان من سوريا أول تقسيم نزل بهذه البلاد ، وتلاه تقسيم آخر تمَّ بعد الحرب العالمية الأولى ذلك هو انتزاع فلسطين من سوريا ، وإخضاعها للانتداب الانجليزى بناء على ما قرره مؤتمر سان ريمو فى ابريل سنة ١٩٢٠ ، وقد نصَّ فى صك الانتداب على أن تعمل انجلترا لتحقيق وعد بلفور بجعل فلسطين وطناً قومياً لليهود .

وقصة المملكة الأردنية :

وكان أول ما اتخذته بريطانيا لتحقيق هذا الوعد أن أضافت جديداً فى سياسة التقسيم ، فاقتطعت من فلسطين المنطقة الواقعة شرق نهر الأردن وجعلتها إمارة ، وكان الذى فعل ذلك هو هربرت صموئيل اليهودى الذى عُيِّن مندوباً سامياً لبريطانيا فى فلسطين وكان هربرت يقصد بذلك أن يحمى الدولة اليهودية التى يُريد إنشاءها من هجمات البدو وثوراتهم بأن يُقيم على حدودها دولة صديقة للاستعمار يخدعها بما يسمِّيه الاستقلال ، وقد اتفق هربرت صمويل مع زعماء البدو فى هذه المنطقة على قيام هذه الإمارة سنة ١٩٢١ ، ثم وفد الى هذه المنطقة الأمير عبد الله بن الحسين فى فبراير سنة ١٩٢٢ وكانت بعض أجزائها تابعة لسلطان أبيه فى الحجاز ، وكان على رأس قوة عربية فى طريقه لمهاجمة

---

(١) محمد حبيب احمد : نهضة الشعوب الاسلامية ص ١٨٦ .

فرنسا فى سوريا انتقاما لأخيه فيصل الذى أزالت فرنسا ملكه وهو فى مطلع العمر ، فأرادت انجلترا أن تصيد عصفورين بحجر واحد ، أى أن تثبت كيان الإمارة التى خلقتها بشرق الأردن من جهة ، ومن جهة أخرى أن تستجيب لفرنسا حليفتها التى طلبت منها إيقاف شغب الأمير عبد الله ، فعينته انجلترا أميراً على شرق الأردن وأعطته سلطة محدودة ، وفى سبتمبر سنة ١٩٢٢ استصدرت انجلترا قرارا من مجلس عصبة الأمم بإعفاء شرق الأردن من أحكام صك الانتداب المتعلقة بإنشاء وطن قومى لليهود .

وتطورت هذه الإمارة وزيدت سلطات الأمير شيئا فشيئاً فى حدود السيادة البريطانية حتى مارس سنة ١٩٤٦ حيث أصبحت الإمارة مملكة والأمير ملكاً عليها .

وعندما شبت حرب فلسطين ضم الملك الى مملكته جزءاً من الأرض الواقعة غرب الأردن واتخذ لمملكته اسم « المملكة الأردنية الهاشمية » .

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) عن هذه الإمارة إنها خلقت لتكون دولة حاجزة ما بين منطقة الانتداب البريطانى وربوع القبائل البدوية الثائرة ، وقد أسهمت بوضعها ذاك فى حماية الدولة الصهيونية التى كانت بريطانيا تنشئها منذ تولت الانتداب على فلسطين .

اسرائيل أيضا فى جزء من فلسطين :

ثم اقتطعت بريطانيا من فلسطين أكثر بقاعها وكونت به دولة اسرائيل .

والآن تعيش فى أرض سوريا دول خمس هى : سوريا الحالية (التى تتكون من البقية الباقية من سوريا الحقيقية بعدما اقتطع منها

---

(١) تاريخ سورية ولبنان وفلسطين ج ٢ ص ٣٥٤ .

من أرض على ما سبق) ولبنسان والملكة الأردنية الهاشمية وبقية الوطن السليب (فلسطين) واسرائيل الدولة الدخيلة التى ينبغى ألا يطول لهـا فى هـذه المنطقة بقـاء •

محاولات أخرى لتقسيم باقى سـوريا :

وليس هـذا كل ما نشأ بسوريا من تقسيم ، فإن السلطة الفرنسية التى وكل لها الانتداب على سوريا عقب الحرب العالمية الأولى عمدت الى مزيد من التقسيم فى هذه الدولة فاقتطعت منها لواء الاسكندرونة وجعلته تحت إشراف حاكم عسكرى ثم تهاونت فيه وأسلمته ظلما الى تركيا كما سترى فيما بعـد وجعلت من باقى سوريا بعد ذلك أربع دويلات هى دمشق ، وحلب ، وجبل العلويين [١] ، وجبل الدروز فى الجنوب على حدود الأردن ، وكان المقصـود من ذلك اتباع سياسة « فرق تسـد » ولكن الثورية السورية قضت على هـذا التقسـيم ، وأعلنت حكومات هـذه الدويلات الأربع رغبتها فى العودة الى الاندماج مكونة الوطن الأصـيل « سوريا الحالية » ونفذت هـذه الرغبة فعـلا •

---

(١) سنتحدث عن العلويين ومذهبهم عند الحديث عن « تركيب المجتمع السـورى » •

أشهر الولاة والأمراء

ظهر فى سوريا إبان العهد العثمانى مجموعة من الولاة والأمراء جديرة بالذكر ، ومن الواضح أن هناك فرقاً بين الولاة وبين الأمراء ، فالأولون تولوا المناصب بكفاءتهم واختيار الباب العالى لهم ، أما الأمراء فكانوا يمثلون أسرهم بلبنان ، تلك الأسر التى كان لها السلطان فترة قصيرة أو طويلة على بقعة صغيرة أو كبيرة من الجبل كما سبق ، وكان الحكم فى هذه الأسر وراثيا ، ولم يكن للباب العالى فى أكثر الحالات من السلطان إلا أنْ يجيز تعيين من آلت له السيادة ، وسنتكلم فيما يلى عن مجموعة من أولئك ومن هؤلاء :

جان بردى غزالى :

سبق أن قلنا إن جان بردى غزالى خان المماليك فى معركتهم ضد العثمانيين ، وفتح الطريق للجيش العثمانى الزاحف ، وقد كفأه السادة الجدد بأن عينوه والياً على دمشق وجعلوا له السيادة على باقى ولايات سوريا ، وقد أخذ غزالى يدعم سلطانه بالقضاء على الزعماء العرب الذين وقفوا بجانب المماليك فى معركة الغزو ، فاجتز رأس بعضهم كابن الحنش وابن الحرفوش ، وألقى بزعماء بنى بحتر فى السجن ، ولما اطمأن الى قوة يده وغلبته على زعماء عصره فى هذه المنطقة استدار لسيده العثمانى وحاول أن يخلع طاعته ، وقد حدث ذلك عقب وفاة السلطان سليم سنة ١٥٢٠ وأعلن نفسه فى المسجد الأموى حاكما مستقلا واتخذ لقب « الملك الأشرف » وضرب النقود باسمه ، ولكن سلطته لم تستمر طويلا فإن السلطان سليمان القانونى أرسل جيشاً لجباً من الانكشارية فأباد المتمردين وقتل غزالى الخائن سنة ١٥٢١ ، وأنزل جيش الانكشارية بدمشق وضواحيها ألواناً من التخريب والتدمير والإبادة (١) .

---

(١) ابن اياس جـ ٥ ص ٣٦٣ و ٣٧١ وما بعدها .

وجان بردى كزميله خير بك من مماليك قايتباى ، اشتراه وأعتقه فعينه الأمير تغرى بردى فى وظيفة مشرف فى ضيعة فى الغربية يقال لها منية غزال فنسب اليها ، ثم ترقى فى الوظائف حتى صار محتسب القاهرة فى عهد الغورى ، ثم أصبح كبير الحجاب فنائب حماة ، وبهذا أصبح فى الخطوط الأمامية مع زميله خير بك ، فدبرا معاً مؤامرة الخيانه ضد المماليك ، وتقاضى ولاية دمشق ثمناً لهذه الخيانة .

فخر الدين المعنى الأول : (يرجع نسبه الى بنى مَعْن) :

عندما اشتعلت الحرب بين المماليك والعثمانيين انضم الأمراء التنوخيون الى المماليك ، أما المعنيون بقيادة فخر الدين فقد استمعوا الى نصح أميرهم بالتريث حتى ترجح إحدى الكفتين فينحازوا لها ، فلما رجحت كفة العثمانيين أسرع فخر الدين الى السلطان العثمانى معلناً ولاءه ودعاءه فى خطبة بليغة أوردها حيدر الشهابى المؤرخ اللبنانى (١) ، وكافأه السلطان على ذلك بأن ثبّته فى إقطاعه ، وأيد امتيازه ، وفرض عليه جزية خفيفة ووسع ملكه ولقبه « سلطان البر » ، واستطاع المعنيون بذلك أن يقضوا على سلطان باقى الزعماء الإقطاعيين ، وأن يكون لهم اليد الطولى على الجبل كله ، وقد ظل فخر الدين يباشر سلطانه زعيما للدروز وللجبل حتى سنة ١٥٤٤ حيث قتل غدرا ، ويُظَن أن بعض عملاء الباب العالى هم الذين تخلصوا منه بهذه الطريقة .

فخر الدين المعنى الثانى :

بعد وفاة فخر الدين الأول أمير جبل الدروز ، قام مقامه ابنه قورقوماز ولكن الباب العالى أوعز الى بعض عملائه فقتلوه بالسم ، ولم يخلّف إلا ابنا فى مطلع الصبا سُمى باسم جده فخر الدين ،

---

(١) تاريخ سوريا ص ٥٦٠ .

وقـــد خافت أم الصبى عليه من اضطهاد العثمانيين فأخفته عند آل الخازن فى كسروان (١) •

ولمـــا شب الصبى وأنس فى نفسه القدرة عاد الى منطقته حيث تولى الحـــكم مكان أبيه سنة ١٥٩٠ ، وقـــد وضع فخر الدين أمامه أهدافا ثلاثة عمل طيلة عمره على تحقيقها بأية وسيلة من الوسائل شريفة كانت أو دنيئة ، وهـــذه الأهـــداف هى :

— توسيع رقعـــة لبنـــان •

— العمل على استقلاله التام عن العثمانيين •

— العمل على جلب ألوان التقـــدم والازدهار الى مملكته الكبيرة المســـتقلة •

وبدأ وسائله لتحقيق هـــذه الغايات ، فكان منها أن حارب جـــاره ووالد زوجته « يوسف سيفه » وانتزع منه إمارته بشمالى لبنان ، وكان منها ألوان من الرشاوى قدمها لزعماء البدو فى البقاع وفى المنطقة الجنوبية حتى الجليل ، ورشاوى أخرى خدر بها حماسة معارضيه بالقسطنطينية ، ولما أحس بأن قوته تزايدت ، ونفوذه عظم ، أعلن الثورة على الباب العالى ســـنة ١٦٠٣ ، وكانت الدولة آنذاك مثقلة بالحروب والمتاعب فعمدت الى تسوية الأمر باللين والمسالمة •

ووصـــل فخر الدين فى وسائله لتحقيق أطماعه الى درجة بها كثير من الشطط ، فقد استعان بأحفاد الصليبيين ضـــد السلطان العثمانى ، فعقـــد معاهدة مع فرديناند الأول أمير توسكانا بشبه الجزيرة الإيطالية ، وعمل على التقرب من البابا ومن أسبانيا ليحصـــل على ما أراد ، وفى

---

(١) دائرة المعارف الاسلامية : مادة : فخر الدين الثانى •

حماية هـذه القوى ، وبمساعدة المـال الذى حصـل عليه من فتح أسواق جديدة ببلاده للتجارة مع فلورنسا ، استطاع أن يكون جيشاً كبيراً استولى به على بعلبك سنة ١٦١٠ وهـدد به دمشق نفسها ، وإزاء هذه الأطماع التوسعية والانفصالية ، أرسلت له الدولة جيشاً برياً من دمشق فأسطولا كبيراً سنة ١٦١٣ فاضطر الأمير الى الفرار الى ايطاليـا مخلفاً إمارته فى أيدى ابنه « على » يساعده أخوه عثمان ، واستطاع هذان مع جدتهما أن يوقفا تدخل الباب العالى وباشا دمشق ، وبعد خمس سنوات عـاد الأمير فخر الدين الى لبنـان وواصـل نضـاله باسم ابنه على الذى آثر أن يبقيه أميراً للامارة ، وقـد استطاع الأمير فخر الدين فى نضاله الجـديد أن يسترد ما كان قـد اقتطع من إمارته فى أثناء غيابه ، كمـا استطاع أن يحقق مزيداً من الانتصارات ، ووجـد الباب العالى نفسه مضطرا أن يعينه حاكما على المناطق التى فتحها ، ووصـل بذلك الى العمل على تحقيق هـدفه الأخير ، فاستقدم من ايطاليا ومن سواها من الممالك الأوربية خبراء ومهندسين نظموا له شئون الرى وحسنوا له مظاهر المدينة وبنوا له أعظم القصـور ، كمـا قرب الإرسـاليات الأوربية وأكثر من المستشارين الموارنة ، ومن أجل هـذا كله كان يتهم فى دينه ، واعتقد بعض الناس أن إسلامه كان فى الظاهر وأنه كان يخفى المسيحية .

وفى ذلك العهد الجـديد أخذت الدولة العلية على « فخر الدين » أنه يحابى النصـارى ويواصـل اتصالاته بالأوربيين ويزيد فى عـدد جيشه وفى عُدَده ، فساورتها المخاوف وبخاصة أن تاريخه مع الدولة لم يكن يدعو الى الاطمئنان اليه والثقة به ، فقررت القضاء عليه نهائياً ، فأمر السلطان مراد الرابع واليه بدمشق كوتشك باشا أن يزحف عليه بجيش لجب ، كما وجه اليه أسـطولا كبيراً بقيادة جعفر باشـا ، وقـد أبلى فخر الدين وبنوه فى الدفاع عن إمارتهم بلاء حسـناً ، ولكن الموالين له من آل سيفا وحرفوش بدءوا ينفضون عنه ، وسقط ابنه « على » فى الصراع ، ولم يجد فخر الدين وسيلة إلا الاستسلام فأخذ هو وبنوه

الى القسطنطينية حيث تم إعدامهم سنة ١٦٣٥ وقد حاول ملحم بن يونس وهو ابن أخى فخر الدين أن يستعيد سلطته ولكنه لم يحصل إلا على سلطان ضئيل تحت رقابة عثمانية حاسمة ، ومن بعده تولى الحكم ابنه أحمد الذى توفى بعد فترة بدون عقب فانقرضت بموته الأسرة المعنية •

أمراء من أسرة العظم :

أنجبت أسرة العظم مجموعة من الأمراء تولوا الإمارة عدة مرات على عدد من إمارات سوريا فكان منهم حكام على دمشق وصيدا وطرابلس وحماة وغيرها ، وكانوا على العموم موضع ثقة سلاطين بنى عثمان ، كما كانوا جديرين بهذه الثقة لشدة ولائهم ووفائهم لهؤلاء السلاطين ، ولكن ذلك لم يجعلهم بمنجاة من سخط هؤلاء السلاطين فى بعض الأحايين ، وبخاصة عندما كان يشتد ثراؤهم أو يبدو فيهم مظهر الغرور ، فحينئذ كان الباب العالى يوعز باغتيالهم أو يقبض عليهم جهرة ويعزلهم ويصادر أموالهم ، ومن أشهر ولاة هذه الأسرة اسماعيل باشا العظم الذى أسندت له ولاية دمشق سنة ١٧٢٤ وابنه أسعد الذى تولى على صيدا ثم على حماة وأخيرا على دمشق والذى يعد عصره أزهى عصور الحكم العثمانى فى منطقة ولايته ، والأسعد هذا قصر فى دمشق بناه سنة ١٧٤٩ يعتبر أروع أثر عربى ظهر فى هذا القرن ، فطرازه الهندسى وما اشتمل عليه من فنون الفسيفساء والحفر فى الخشب تمثل أروع ما بلغه الفن الإسلامى آنذاك (١) •

بشير الشهابى :

إذا أطلق هذا الاسم انصرف الى بشير الشهابى الثانى ، (بشير الكبير) ، وقد سبقه بشير آخر هو بشير الأول وجاء بعده وال يحمل هذا الاسم أيضا هو بشير الثالث •

---

(١) محمد كرد على : خطط الشام جـ ٢ ص ٢٨٩ — ٢٩١ .

وعندما أفل نجم المعنيين فى أواخر القرن السابع عشر ، عادت البلاد الى السلطة التركية المباشرة ، بيد أن نزعة الاستقلال عبرت عن نفسها باجتماع عقده أعيان لبنان سنة ١٦٩٧ وانتخبوا الأمير بشير الشهابى (الأول) حاكماً عليهم وأرسلوا بقرارهم الى والى صيدا معلنين ولاءهم للسلطان العثمانى واستعدادهم لأداء ما يفرضه عليهم عن طريق الأمير الجديد ، وقد استمر بشير الأول فى الحكم الى سنة ١٧٠٧ ، وتوالى بعده أمراء من الشهابيين فى فترة كثيرة القلاقل والاضطراب ، حتى جاء بشير الكبير أو بشير الثانى سنة ١٧٨٨ ، وقد استطاع هذا أن يضع حداً للقلاقل ويقضى على كل المناوئين قضاء حاسماً ، ويبدو أن مفتاح سياسته كان متجهاً نحو كراهية الأتراك بل كراهية الدين الذى استغله الأتراك لينالوا هذه المكانة ، ويقال إنه لذلك قد تنصّر سراً ، وأن هذا هو سبب مساعدته لنابليون عندما زحف لاحتلال الشام ، بيد أنه أرضى العثمانيين عندما أوقف زحف الوهابيين على الشام سنة ١٨١٠ وراح بعد ذلك يقوى سلطانه ، ويوسع إقليمه ، ويمد سلطانه الى الأقاليم المجاورة ، ويبدو أنه بالغ فى هذا الاتجاه ، مما أدى الى إبعاده عن لبنان مدة عام واحد سنة ١٨٢١ — ١٨٢٢ وقد أمضى هذا العام فى مصر حيث عقد صلة وثيقة مع محمد على رأس الأسرة العلوية بمصر ، وكانت هذه الصلة سبباً فى تعاون الاثنين عندما زحف محمد على على سوريا وعبر جبال طوروس موغلا فى بلاد الترك .

وعندما أُرْغِم ابراهيم باشا على الانسحاب من الشام فرَّ الأمير بشير الى مالطة .

وبشير الثانى كبير الشبه فى اتجاهاته الاستقلالية والإصلاحية بالأمير فخر الدين ولكنه يفوقه فى هذه الاتجاهات ، كما كان يفوقه فى حسن السمت والقامة ، فقد كان فخر الدين قزما ذميما ، ولكن بشير كان حسن القامة مهيب الهيئة .

وبعد بشير الثانى جاء بشير الثالث (١٨٤٠ — ١٨٤٢) وكان هذا

يختلف عن بشير الكبير فى براعته ومكانته وميوله ، وكان ممن تزعموا الحركة التى ثارت فى لبنان ضد ابراهيم باشا عندما أراد ابراهيم أن يجرد اللبنانيين من السلاح ويزيد فى الضرائب المطلوبة منهم ، وكوفىء على ذلك بأن أسندت له إمارة الجبل بعد بشير الكبير ، ولكن سياسة الأتراك كانت قد اتجهت نحو إثارة الخلافات بالجبل بين الموارنة والدروز ليتخذوا من ذلك وسيلة لحكم لجبل حكماً مباشراً ، فبدأت سلسلة القلاقل والمذابح التى تحدثنا عنها من قبل .

ظاهر العمر :

ينحدر ظاهر العمر من أصل حجازى ، وقد انتقل أجداده من شمالى الحجاز الى فلسطين إبان عهد صلاح الدين الأيوبى ، حيث كانت القوى الناهضة تتجمع فى منطقة الكفاح ، وأبو ظاهر العمر هو « عمر أبو ظاهر » وكان عاملا على صفد من قبل بشير الأول ، وبعده خلفه ابنه ظاهر العمر حوالى سنة ١٧٣٧ ثم أخذ يمد نفوذه من صفد الى ما حولها وضم منطقة طبرية ونابلس والناصرة ، ثم استطاع أن يضم عكا اليه سنة ١٧٥٠ . وبهذا عَظُم سلطانه وكبر شأنه وأخذ يهدد الدولة العثمانية التى لم تكن ترضى عن توسعاته تلك التى أجراها دون إذن من الدولة ، ومن أجل هذا اتجه ظاهر العمر الى إحياء عكا وإعادة تعميرها وكانت آثار الدمار الصليبية لا تزال واضحة بها ، ثم اتخذها ثغراً يصدر منه الحرير والقمح وغيرها من منتجات فلسطين ، وبذا أصبحت عكا تمثل حصناً سياسياً واقتصادياً ، وكان ظاهر العمر قوياً فى غير تعسف ، مسلماً دون اضطهاد لغير المسلمين ، فنعمت البلاد فى عهده برخاء واطمئنان ظاهرين .

وتحركت الدولة للقضاء على هذه الحركة الاستقلالية ، ولكن حدث فى نفس الوقت أن أعلن على بك الكبير فى مصر استقلاله وزحف الى الشام ، فتحالف معه ظاهر العمر وسار الحليفان يوقعان بجيوش الدولة هزيمة بعد هزيمة ، واستطاع الجيشان دخول دمشق سنة ١٧٧١ ، وكافأه على بك الكبير بأن ضم له مدن يافا وغزة والرملة ، ووصل ظاهر العمر بذلك الى قمة مجده ، ثم بدأ الانهيار على القوتين المتحالفتين عندما غدر محمد أبو الذهب بسيده على بك الكبير وقضى عليه وأعاد اعترافه بالدولة العلية ، وبذلك تفرغت الدولة للقضاء على ظاهر العمر ، ورمته بمملوك آخر لعلى بك الكبير هو أحمد الجزار الذى سنتكلم عنه فيما بعد ، وقد حاصر الجزار عكا ، وظل ظاهر العمر يقاوم الحصار حتى كلت قواه وفرغت ذخيرته ، فحاول الهرب ولكن محاصريه قبضوا عليه ، وقتل عام ١٧٧٥ بعد أن كون دولة مستقلة مدة تزيد على ربع قرن •

أحمد الجزار :

كان أحمد مملوكاً لعلى بك الكبير فى القاهرة ، وقد أنس فيه سيده القوة والصرامة ووجده غليظ القلب قليل العاطفة فعينه جلاداً له ، وقد أظهر من التفنن فى إنفاذ مهمته والرغبة فى القيام بها ما أكسبه لفظ « الجزار » ، وكان شديد الافتخار بهذا اللقب ، بالغ الحرص على أن يظل جديراً به (١) •

وحدث خلاف بينه وبين سيده على بك الكبير ، يقال إن سببه ألوان الغدر التى اشتهر بها على بك الكبير ومحاولة القضاء على مَن

---

(١) فيليب حتى : تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ٢ ص ٣٣٨ •

أمثنهم ، فهرب أحمد الجزار من مصر واتجه الى الدولة العثمانية التى رحبت به ، فلما انهار على بك الكبير أرسلت الجزار الى ظاهر العمر حليف على بك الكبير وزعيم الحركة الاستقلالية فى عكا كما رأينا آنفاً ، وقد استطاع الجزار أن يقضى على ظاهر العمر وعلى حركته ، فعينته الدولة مكانه وامتد سلطان الجزار جنوبا وبنى الحصون وكوّن الجيوش والأساطيل ، وأصبحت عكا قلعة حصينة فى عهده ، وقد بلغ أوج مجده سنة ١٨٩٩ عندما استطاع أن يوقف زحف نابليون ، وأن يصمد فى الدفاع عن عاصمته صموداً قويا ، حتى اضطر نابليون أن يوقف الحصار وأن يسحب جنوده عائداً بأذيال الخيبة ، وقد ظلّ يحكم هذه المنطقة حتى سنة ١٨٠٤ حيث مات وهو ناعم بكثير من الهدوء ورغد العيش •

حضارة سوريا فى العهد العثمانى وأثرها فى الحياة العربية :

يمكن القول إن لبنان كان النافذة التى دخلت منها ثقافة الغرب الحديثة الى البلاد العربية ، وقد رأينا الموارنة فيما سبق يتصلون بفرنسا ، وبدائرة اللاهوت بروما كما رأينا الصلات التى عقدت بين الأمير فخر الدين والأمير بشير الشهابى من جانب وبين الإمارات الأوربية من جانب آخر ، ورأينا كذلك الصلات التجارية التى اتخذت من لبنان معبراً الى الشرق ، وعلى هذا حظيت لبنان بمرحلة متفوقة فى العلوم والمعارف التى ازدهرت فى القرن السابع عشر بأوربا ، وفى لبنان ظهرت أول آلة طابعة فى الشرق العربى فى مطلع القرن السابع عشر وكانت تطبع باللغة السريانية وباللغة العربية مكتوبة بالحروف السوريانية ؛ على أن المطبعة العربية ظهرت فى أوربا فى أواخر القرن السابع عشر ، إذ اتجهت

الرغبة البابوية الى طبع الكتب الدينية والمدرسية لاستخدامها فى المعاهد المسيحية العربية بلبنان ، ثم انتقلت هـذه المطبعة الى الجبل فى القرن الثامن عشر وربما فى مطلعه ..

على أن الجبل لم يتسع لهـذه الثقافات ولا للمثقفين الذين كانوا يعيشون به ، فاندفعت هـذه الثقافات الى الخارج ، ورحـل كثير من المثقفين الى القاهرة ، حيث أصبحت مركزاً ثقافياً واسعاً ، نشر العلوم والمعارف فى كل أرجـاء الوطن العربى عن طريق الصـحافة الكبرى ، والمجلات واسعة الانتشار ، والمطـابع التى أذاعت الفكر والمعرفة على أوسـع نطـاق .

٢ – فترة الاحتلال الأوربى

١٩١٨ – ١٩٤٦

لا يمكن الحديث عن فترة الاحتلال الأوربى لسوريا دون أن نوضح كيف تمّ الاحتلال ، وما المؤامرات الاستعمارية التى سبقته ، وأعدّت له وانتهت به • وسيتضح ذلك من بيان القوى التى تنازعت السلطان فى سوريا •

القوى التى تنازعت السلطان فى سوريا :

أولا — رأينا فيما سبق كيف كانت **فرنسا** تتطلع الى سوريا ، وكيف ناصرت الحركات الاستقلالية فى لبنان ، وكيف احتلت الجبل سنة ١٨٦٠ مدة عام تقريبا ولم تخرج منه الا تحت ضغط الدول ، وكيف نشرت بين الموارنة ثقافتها ولغتها ، وفى سنة ١٩٠٤ عندما عقدت فرنسا اتفاقا سريا مع بريطانيا حرصت على أن ينص هذا الاتفاق على أن تطلق يدها فى سوريا ولبنان مقابل اطلاقها يد انجلترا فى مصر ، وكان ذلك كله تمهيدا لفرصة قد تسنح لاحتلال فرنسا لسوريا ولبنان ، فلا عجب أن أصرت على أن يتم لها ذلك عقب الحرب العالمية الأولى •

ثانيا — تطلعت **إنجلترا** إلى الجزء الجنوبى من الشام (فلسطين) على الأقل ، لحماية قناة السويس ، وتأمين قواتها فى مصر ، وضمان سلامة الطريق إلى الهند •

ثالثا — كان **النفوذ الصهيونى** قد بدأ يتضح فى المجال العالمى ، وقد لعب خلال الحرب دورا عسكريا واقتصاديا وسياسيا أتاح لـه أن

يفرض نفسه على القوى الغربية لاتصير هذه القوى معبرة عن آماله ، عاملة على أن تحقق له أهدافه ، وقد تركزت هذه الأهداف قبيل الحرب وخلالها فى جعل فلسطين وطنا قوميا لليهود .

رابعا كان هناك أيضا **الأشراف** ، وهم طلاب ملك ، ولا يهمهم أين يكون هذا الملك ولا كيف يتحقق ، على أن سوريا كانت أقرب البلاد لمكة حيث كانوا يعملون ولاة منذ عهد طويل ، ومن هنا اتجهت لسوريا أطماعهم مع هؤلاء الذين اتجهوا بالأطماع إلى سوريا .

خامسا — هناك قوة خامسة كان لها السلطان على سوريا حتى الحرب العالمية الأولى وكانت تطمع فى أن يظل لها هذا السلطان ، تلك هى **تركيا** ، بيد أن أحداثا جرت فباعدت بين الأتراك والعـرب ، وقد آن لنا هنا أن نوضح العلاقة بين هؤلاء الأتراك وأولئك العرب :

ماذا كان أساس هذه العلاقة ؟ وكيف تطورت ؟ وإلى أى غاية انتهت ؟

هل كان الأتراك مستعمرين للبلاد العربية ؟

أو تكون منهم ومن العرب دولة اتحادية اسلامية ؟

كان الاتجاه الذى صحب الزحف العثمانى يمثل الوحدة الاسلامية ، وقد اتخذ الترك وسـائل لتبرير هـذا الموقف ، فحمل رؤساؤهم لقب الخلفاء ، وأصبح الدين الاسلامى دين الدولة ، ورفع الخلفاء العثمانيون أفرادا من المسلمين الذين ينتمون الى أقطار عربية مختلفة الى مناصب كبرى فى دولتهم ، مثل أحمد عزت باشا وأبو الهدى الصيادى من سوريا وعزيز على المصرى من مصر ومحمد شوكت باشا من العراق وغيرهم .

وتأكد هذا الاتجاه بالحركات المسيحية ضد الدولة ، تلك الحركات التى أبرزت الجموع المسلمة ممثلة فى الامبراطورية العثمانية فى جانب ، والجموع المسيحية الأوربية فى جانب مضاد ، وتأيد هذا الاتجاه كذلك بالعداء

الذى أعلنه المؤرخين المسيحيون للامبراطورية العثمانية • وعلى العكس من ذلك وقف المفكرون والمؤرخون المسلمون موقف الذود عن هذه الامبراطورية ، واتجهت جمهرة المسلمين الى اعتبار الارتباط بالترك نوعا من التجمع الاسلامى مقتنعين بالوسائل العثمانية التى أوردناها آنفا ، وآملين فى هذا التجمع القوة التى تمكنهم من رد العدوان المسيحى الذى طالما احتشد وتآلف ضدهم ، ومما قوّى عند المسلمين هذا الاتجاه ما كانوا يعانون من ضغط القوى الصليبية الزاحفة على البلاد العربية من الأندلس أو من قلب أوربا وشرقيها ، ومما قواه كذلك أن الانتصارات التركية بأوربا حملت معها الاسلام الى كثير من البقاع ، وكان الدعاة المسلمون يصحبون الجيش أو يتبعونه •

وهكذا انتصر الاتجاه الاسلامى حتى أصبح الانضمام للكتلة الاسلامية عملا مألوفا نفّذه بارباروسا بالشمال الافريقى ، وهدد به قادة أتشيه احدى مناطق جزيرة سومطرة ، أما ما برز فى بعض الخلفاء من عيوب فقد عُدّ خطأ شخصيا لا يَدْفع لفصم التجمع وانما يدعو لمحاولة إصلاح هذا الخطأ أو تغيير هذا الخليفة ، وهذا هو ما حدث عندما استطاعت « جمعية الاتحاد والترقى » بقيادة أنور ونيازى وشوكت أن تنجح فى ثورتها وأن ترغم الداهية عبد الحميد على اعادة الدستور ثم أن تخلعه سنة ١٩٠٩ ، فقد قامت الأفراح فى البلاد العربية وتغنّى شعراؤها بهذا النصر ، وكان مما قاله حافظ ابراهيم الشاعر المصرى فى هذه المناسبة •

ثلاثة آساد يجانبها الردى وإن هى لاقاها الردى لا تجانبه
روت قول بشار فثارت وأقسمت وقامت إلى عبد الحميد تحاسبه
(إذا الملك الجبار صعّر خده مشينا إليه بالسيوف نعاتبه)

ولكن الدولة العلية كانت كثيرة الحروب ، وكان العرب يكتوون بنار الهزائم ولا ينالون أى نصيب من الانتصارات إن كانت هناك انتصارات ،

وتدهورت الحضارة العربية خلال هذه الفترة ، حتى أصبحت البلاد تعيش فى ظلام دامس وجهل مطبق ، وكان الولاة ظالمين فى الغالب ، والاقطاع مسيطرا يضع الثراء فى أيد قليلة ويترك ما سواها تعانى الفقر والجوع ، وكان الشعب يئن من الآلام ويجأر بالشكوى ، ولكن الدولة العلية لم يكن يديها من أمر الرعية شىء مادام الوالى يرسل للاستانة هداياه ، ويواصل دفع الضريبة المقررة عليه •

ثم إن الدولة العلية منيت بهزائم ساحقة بأوربا ، وانعكست هذه الهزائم على الدول العربية لها فتخطفتها الأيدى الاستعمارية القاسية فاحتلت فرنسا الجزائر سنة ١٨٣٠ وتونس سنة ١٨٨١ واحتلت انجلترا مصر سنة ١٨٨٢ وتحفزت ايطاليا لاحتلال طرابلس وأتمت الاحتلال سنة ١٩١١ ووقفت الدولة مكتوفة اليدين إزاء هذه الأحداث •

اتجاه تركيا الى القومية التركية :

وعقب عزل السلطان عبد الحميد تولى الاتحاديون الحكم سنة ١٩٠٩ واتجهوا اتجاها قاسيا نحو ضرورة سيطرة القومية التركية وتطهير اللسان التركى من الألفاظ العربية ، بل راحوا يتنكرون للاسلام ، ويرفعون أسماء الخلفاء الراشدين من المساجد ، وشاعت فى هذه الفترة تلك العبارة التى تمثل اتجاههم تجاه العرب والاسلام وهى قولهم « إن العودة إلى عبادة الذئب الأبيض أجزى لنا من دين العرب » •

واشتط الترك فى هذه المرحلة بقوميتهم فاتجهوا الى نظام المركزية ومحاربة اللغة العربية حتى فى بلادها ، وقاوموا بالعنف كل حركة تنادى بالاصلاح وتحسين الأحوال •

وهكذا تجمعت الأسباب التى تدعو الى انشقاق العرب على تركيا ، واعتبار الخضوع لها نوعا من الاستعمار ، وقد بدأ العرب نشاطهم بالتشكيلات السرية وبالجمعيات العربية ، كجمعية العربية الفتاة التى

أسست سنة ١٩٠٠ فى باريس ثم نقلت الى بيروت ثم الى دمشق ، وكذلك تأسيس حزب العهد سنة ١٩١٣ لمقاومة العنصرية التركية الطورانية ، وقامت كذلك جمعيات أخرى مماثلة ، كجمعية الاخاء العربى ، والمنتدى الأدبى ، والجمعية القحطانية وغيرها .

وظهر مجموعة من الرجال العمالقة الذين بعثوا هذا الاتجاه وغذوه بأقلامهم وخطبهم ، وفى قمة هؤلاء عبد الرحمن الكواكبى وابراهيم اليازجى وغيرهما ، وقد أصدر الأول فى ذلك كتابين هما « أم القرى » و « طبائع الاستبداد » وألقى الثانى بقصائده الوطنية القوية فهيجت العرب وحمستهم نحو التحرر من ظلم الترك ، ومن شعره فى ذلك قوله يخاطب العرب .

لا دولةٌ لكمْ يَشْتَدُّ أزرُكمُ بها ، ولا ناصر للخطب يَنْتَدِبُ
أقدارُكم فى عيون الترك نازلةٌ وحقكم بين أيدى الترك مغتصَبُ

نخلص من هذا الى أن قوة تركيا كانت فى نزعها الأخير ، وأن حرصها على البقاء فى سوريا كان قد أصبح ضئيلا لا أمل فى تحقيقه ، وبهذا يمكن أن تَبْعُد تركيا عن مسرح الطامعين فى سوريا ، بل أن حرصها جلب عليها مزيدا من السخط ، فان جمال باشا قائد الجيش التركى والحاكم العسكرى فى سوريا ولبنان عندما أحس بانصراف العرب عن الأتراك أنزل غضبه القاسى على الزعماء ، وراح يعدم شنقا وينكل بهم تنكيلا فظيعا وضع حدا نهائيا للعلاقة بين سوريا وتركيا .

سوريا من الحرب العالمية حتى الاستقلال :

إذا كانت تركيا قد أُبعدت فان سوريا عند مطلع الحرب العالمية الأولى كانت تتنازعها القوى الأربعة التى أوردناها فيما سبق ، ولكن ينبغى أن يتضح أن هناك قوة خامسة كانت قد عقدت العزم على أن تنتصر مهما كلفها الصراع من دم ونضال ، تلك هى القوة السورية والقوى العربية

على العموم ، وسنرى فيما يلى ماذا تحقق لكل من هذه القوى من أطماع وآمال ، فلنتابع بايجاز مجريات الأحداث من بدء الحرب العالمية الأولى •

— دخلت تركيا الحرب فى نوفمبر سنة ١٩١٤ فى صف ألمانيا ، وكان ذلك منها عملا غير مفهوم ، فلم تكن صلتها بألمانيا أقوى من صلتها بالخلفاء ، وبدخول تركيا الحرب على هذا الوجه ، قررت انجلترا وفرنسا تنفيذ تقسيم الدول العربية حسبما كان مقررا فى الاتفاقيات السرية ، وبخاصة اتفاقية سنة ١٩٠٤ •

— ومنحت الحرب فرصة للدول العربية لتعلن سخطها على تركيا ورغبتها فى الاستقلال عنها ، وقد تجمعت كلمة زعماء جمعية العربية الفتاة وجمعية العهد بالاتفاق مع فيصل بن الشريف حسين على المطالبة باستقلال العرب ، وهكذا أصبح الشريف حسين ممثلا للفكرة العربية •

— وأيدت انجلترا اتجاه العرب ، ولوحت بالاستقلال ، وتعهدت بتنفيذه ، وتبودلت رسائل عن ذلك بين ممثلها بالقاهرة هنرى مكماهون وبين الشريف حسين ، ومجموع هذه الرسائل ثمانية وكان تبادلها فى الفترة ما بين ١٤ يوليو سنة ١٩١٥ و ٣٠ يناير سنة ١٩١٦ ، وقد حددت هذه الرسائل حدود المملكة العربية فى المستقبل ، وضمنت استقلالها ، كما أيدت زعامة الشريف حسين الدينية والسياسية للعرب ، وتعرف هذه الرسائل فى التاريخ برسائل حسين — مكماهون •

وأعلن الشريف حسين الثورة العربية فى يونيو سنة ١٩١٦ وقدمت له انجلترا مساعدات مادية وأدبية كبيرة ، كان من أبرزها عشرة ملايين من الجنيهات الاسترلينية ومقادير كبيرة من الأسلحة والذخائر ، كما قدمت انجلترا للشريف ، الكولونيل لورانس الذى أصبح الرأس المدبر للثورة والعقل المفكر للأشراف ، وقد استطاع هذا أن يكسو نفسه بفروة عربية

خدع بها الشريف وأعوانه ، وداری بها أحاسيس غربية مسيحية صهيونية متطرفة (١) ، وتقدمت الثورة بنجاح تجاه الشمال حتى دمشق وأعلن الشريف حسين استقلال العرب ، ونودى به ملكا على العرب فى ديسمبر سنة ١٩١٦ .

— وفى نفس الوقت الذى كانت بريطانيا تجرى مباحثاتها مع الشريف حسين وتتعهد باستقلال العرب ، كانت تجرى مباحثات أخرى مع فرنسا تقسم بها ثروة « الرجل المريض » وتمت بذلك إتفاقية : سايكس — بيكو سنة ١٩١٦ وقد قبلت روسيا القيصرية هذه الأتفاقية إذ مُنِحت من ثروة الرجل المريض ما أرادت . ويهمنا من هذه الأتفاقية أنها قسمت المنطقة العربية موضع النزاع الى قسمين ، أحدهما يشمل المناطق الآتية :

١ — المنطقة الزرقاء وتمتد على الساحل السورى شمال فلسطين وتخضع لإدارة فرنسا .

٢ — المنطقة الحمراء وتمتد من خليج البصرة بحذاء حدود ايران حتى شمال بغداد وتخضع لإرادة بريطانيا .

٣ — المنطقة السوداء وتشمل فلسطين وقد تقرر أن تخضع لنظام إدارى دولى .

أما القسم الثانى فيشمل المنطقة الواقعة بين المنطقتين الزرقاء والحمراء ، وتقام دولة عربية بهذا القسم تشرف بريطانيا على الشطر المتصل بمنطقتها وتشرف فرنسا على الشطر المتصل بمنطقتها كذلك .

---

(١) انظر مذكرات وايزمان ص ٤٥ — ٤٦ وانظر كذلك كتاب « اليهودية » للمؤلف ص ٩٠ .

وعند نجاح الثورة البلشفية سنة ١٩١٧ فى روسيا ، نشرت روسيا وثائق الأرشيف السرى لروسيا القيصرية ومنها هذه الاتفاقية ، ولكن بريطانيا تنصلت منها مدعية أنها كانت محادثات عامة قد تمت قبل الثورة العربية ، وتقبل الشريف حسين هذا التفسير لشدة ثقته بحلفائه الانجليز .

— وفى نفس الوقت كذلك كانت انجلترا بتأييد الحلفاء تصدر تصريح بلفور فى نوفمبر سنة ١٩١٧ وتتعهد بانشاء وطن قومى لليهود فى فلسطين ، واكتفى الشريف حسين كذلك بتفسير خداع لا يحمل أى معنى الا تهدئة الخواطـر .

— انتهت الحرب فى نوفمبر سنة ١٩١٨ وبدأ الاستعمار يسفر عن نياته الحقيقية ، وكان أول ما حرص عليه تعديل اتفاقية سايكس — بيكو بعد انسحاب روسيا من الميدان ، ويقضى هذا التعديل بما يلى :

١ — يكون انتداب فرنسا على كل سوريا لأن بقاء الجزء الداخلى مستقلا سيسبب لها المتاعب .

٢ — تتنازل فرنسا عن الموصل لبريطانيا مقابل منحها حصة ألمانيا من بترول الموصل .

٣ — توضع فلسطين تحت الانتداب البريطانى لتعمل على تحقيق وعـد بلفور .

— وكان شكرى باشا الأيوبى أحد زعماء الثورة العربية قد أعلن قيام السيادة العربية فى بيروت فى أكتوبر سنة ١٩١٨ ورفع العلم العربى ، وبعد أيام دخلت قوات الاحتلال سوريا وأنزلت العلم ، ثم انتهت الحرب ومرت فترة أدرك العرب فيها خداع الوعود البريطانية ، فاجتمع المؤتمر السورى فى دمشق فى ٨ مارس سنة ١٩٢٠ وقرر اعلان استقلال سوريا

ومعها فلسطين ولبنان دولة ذات سيادة ملكية دستورية ونادى بالأمير فيصل ملكا عليها ، ولكن بريطانيا وفرنسا لم تعترفا بهذا القرار •

— ووسط هذا الخلاف رأى الرئيس ويلسون أن يتعرف على الأحوال فى هذه المنطقة فأرسل اللجنة التى عُرفت بلجنة « كنج كرين King Crane Commission » وقد أخذت اللجنة تتصل بالهيئات والأفراد ، وقررت فى النهاية المحافظة على وحدة سوريا بما فيها فلسطين ، فيما عدا الأماكن المقدسة التى توضع تحت اشراف دولى ، ووضع سوريا تحت وصاية لمدة محدودة على ألا تكون فرنسا هى الدولة الوصية بأى حال من الأحوال والعدول عن فكرة اقامة وطن يهودى بفلسطين ، والموافقة على جعل الأمير فيصل رئيسا للدولة ، ولكن هذه القرارات القريبة من العدالة لم تجد أى صدى عند المنتصرين •

— واجتمع المجلس الأعلى للحلفاء فى أبريل سنة ١٩٢٠ فى سان ريمو وفى هذا المؤتمر تمت تقسيمات المنطقة العربية ، على نحو التعديل الذى أجرى فى اتفاقية سايكس — بيكو •

— وزاد بذلك الخلاف حدة ، فالمؤتمر السورى فى [illegible] مارس يعلن استقلال سوريا ويضع فيصل ملكا عليها ، ومؤتمر سان ريمو يضع هذه البلاد تحت الانتداب ، وقد عينت فرنسا الجنرال غورو مندوبا لها ، وقد أرسل هذا الى فيصل انذارا حاسما بقبول الانتداب دون قيد ولا شرط ، وإلغاء التجنيد الإجبارى ، والسماح للجيش الفرنسى باحتلال حلب ومحطات السكة الحديد ، ومال فيصل الى قبول الانذار بل قبله فعلا ، فخلق هوة بينه وبين الشعب السورى ، ومع هذا فان غورو لم يحفل برد الفعل السورى تجاه الانذار قبولا أو رفضا بل تحرك بقواته الى دمشق وتصدت له القوى العربية الثائرة التى لم يكن معها ذخائر تذكر ، وكان يقودها البطل

يوسف العظمة ، والتقى الجيشان عند ممر ميسلون وهو مضيق جبلى بين سوريا ولبنان ، وانتصرت القوة الغاشمة ودخلت دمشق وأبعدت الملك فيصل عن البلاد ، وبدأ بذلك عهد الانتداب المقيت .

— وقامت ثورات متتالية فى سوريا ضد هذا الانتداب ، من أهمها ثورة البطل ابراهيم هنانو التى قامت فى شمالى سوريا سنة ١٩٢٠ والثورة التى قامت فى منطقة الفرات فى نفس العام واستولت على دير الزور ، ولم يستطع الفرنسيون استردادها الا بعد عام ، وثورة حوران جنوبى دمشق فى نفس العام أيضا ، على أن أعظم الثورات السورية ضد الانتداب الفرنسى هى الثورة الكبرى سنة ١٩٢٥ — ١٩٢٧ ، وقد حدثت فى الجبل بقيادة سلطان الأطرش ، وفيها استطاع الثوار إسقاط طائرة فرنسية ، فتوجهت لهم حملة فرنسية كبيرة ولكن الثوار أبادوها عن آخرها ، وامتدت الثورة من الجبل الى دمشق وغيرها من البلدان ، ولم تستطع فرنسا القضاء عليها الا بعد جهد كبير ، وقد أحست فرنسا بعد ما عانته فى هذه الثورة أن من المحتم أن تغير سياستها ، وأن تعطى للمواطنين حقهم أو بعضه على الأقل ، وبهذا بدأت سلسلة المباحثات التى انتهت بمعاهدة سبتمبر سنة ١٩٣٦ بين سوريا وفرنسا ومعاهدة نوفمبر من نفس العام بين فرنسا ولبنان على أن فرنسا لم تقدم هاتين المعاهدتين للبرلمان الفرنسى وبذلك ظلتا معطلتين ، وضعفت الثقة بين فرنسا وبين سوريا ولبنان ، واضطرب النظام وأهلكت الحرب العالمية الثانية والحالة فى سوريا على هذا الوضع .

— وانهارت فرنسا أمام ألمانيا ، وبقيت سوريا تتنازعها قوة الفرنسيين التابعين لحكومة فيشى الموالية للألمان ، وقوة فرنسا الحرة بقيادة الجنرال ديجول ، وانتهى الأمر بانتصار قوة فرنسا الحرة مؤيدة بقوة جيش بريطانيا ، ودخلت هاتان القوتان سوريا فى يونية سنة ١٩٤١ ، وسرعان ما أعلن الجنرال كاترو القائد العام للقوات الفرنسية الحرة ، بيانا قال فيه : « لقد أتيت لوضع حد لنظام الانتداب ، ولأعلن لكم أنكم أحرار ومستقلون ،

وعلى هذا ستكونون منذ هذه اللحظة شعوبا مستقلة ذات سيادة ، وسيكون فى امكانكم أن تنظموا أنفسكم فى دول مستقلة ، أو أن تتحدوا فى دولة واحدة ، وفى أى من الحالتين سيؤكد استقلالكم وسيادتكم فى معاهدة تحدد فيها علاقاتنا المتبادلة ، وسوف تبدأ المفاوضات حول هذه المعاهدة بين ممثليكم وبينى فى أقرب فرصة .

وفى ٢٧ سبتمبر ١٩٤١ أعلن الجنرال ديجول استقلال سوريا دون قيد ولا شرط ، وفى ٢١ نوفمبر من العام نفسه أعلن استقلال لبنان مشرطا بعقد معاهدة تحدد العلاقات بينها وبين فرنسا .

كما أصدر السفير البريطانى فى مصر السير مايلز لا مبسون باسم حكومته التصريح الآتى : « اننى مخول من قبل حكومة صاحب الجلالة فى المملكة المتحدة أن أعلن أنها تعضد وتشترك فى تأكيد الاستقلال الذى أعطاه الجنرال ديجول لسورية ولبنان » .

— وتحت ضغط الحرب خطت هـذه الوعود نحو التنفيذ ، فقـد أجريت الانتخابات العامة فى سوريا سنة ١٩٤٣ وانتخب شكرى القوتلى رئيسا للجمهورية ، وعين سعد الله الجابرى رئيسا للوزارة ، وفى لبنـان انتخب بشارة الخورى رئيسا للجمهورية وعين رياض الصـلح رئيسا للوزارة ، وخطت الدولتان نحو تحقيق الاستقلال التام ، فأعلنت الحكومة اللبنانية أن اللغة الفرنسية لم تعـد لغـة رسمية ، كما أعلنت استقلالها التام ، فثارت فرنسا لذلك وألقت القبض على رئيس الجمهورية اللبنانية ووزرائه ، فهاج الرأى العام فى سوريا ولبنان وفى العـالم العربى كله ، وانضـمت إنجلترا وأمريكا لهـذا الاتجـاه ، فأعيد رئيس الجمهورية والوزراء ، واتخذت الخطط لتسليم السلطات الى ذويها ، ولكن فرنسـا أبدت الرغبة فى الاحتفاظ بقوات لهـا فى سوريا ولبنان ، ورفضت سوريا ولبنـان هـذه الرغبة .

ــ وتقدمت الحرب نحو النهاية وضمن الحلفاء النصر ، فبدأت فرنسا تعود القهقرى فى اتجاهاتها ، وصدر من ديجول تصريح فى أكتوبر سنة ١٩٤٤ وآخر فى يناير سنة ١٩٤٥ يقرر فيهما ضرورة الاحتفاظ بمركز فرنسا المتفوق فى سوريا ولبنان ، وفى فبراير سنة ١٩٤٥ أدلى بيدو وزير الخارجية الفرنسية بتصريح قال فيه : إن فرنسا مسئولة عن حفظ النظام فى سوريا ولبنان وأنها تدافع عن امتيازاتها بالقوة المسلحة التى تحت تصرفها ، ووضعت فرنسا أسسا للمفاوضات تحتم ضمان استقلال المؤسسات الفرنسية ، وضمان حقوق فرنسا الاقتصادية ، وضمان السماح لفرنسا بانشاء قواعد بحرية وجوية فى الجمهوريتين ، وقوت فرنسا اتجاهها بأن أرسلت إمدادات عسكرية الى بيروت فى مايو سنة ١٩٤٥ ، وإزاء ذلك قررت سوريا ولبنان عدم السير فى إجراءات المفاوضات واشتد التوتر بين القوات الفرنسية والقوات الوطنية وضربت فرنسا دمشق بالقنابل ، فثار السوريون ثورة قوية شملت جميع أرجاء البلاد ، وهددت بريطانيا بالتدخل ، فتوقف العدوان الفرنسى ، ولكن بريطانيا بدأت تعمل أيضا لترسخ قدمها من البلاد .

ــ ورفعت الحكومتان السورية واللبنانية احتجاجهما الى جامعة الدول العربية وهيئة الأمم المتحدة ومجلس الأمن ، وتحتم أن تجرى مفاوضات يمنح فيها صاحب الحق حقه ، وفى ٤ مارس سنة ١٩٤٦ أعلن أن بريطانيا وفرنسا قررتا الجلاء فى وقت واحد على أن يبدأ فى ١١ مارس وينتهى فى ٣٠ ابريل فيما يختص بسوريا وقد تم ذلك فعلا ، أما عن لبنان فقد تم جلاء الجنود البريطانية فى ٣٠ يونية وتم جلاء الفرنسيين فى آخر أغسطس من العام نفسه ، وزال بذلك كابوس الاستعمار عن سوريا ولبنان وبدأتا صفحة جديدة من الحياة الحرة المستقلة .

٣ ـ فترة الاستقلال

من ١٩٤٦ حتى الآن

نحن الآن فى العقد الخامس من القرن العشرين ، وقد أصبحت الشام مقسمة الى سوريا ولبنان وفلسطين وشرق الأردن ، ولما أعلنت العصابات اليهودية قيام دولتهم وفى الوقت نفسه اتسعت مملكة شرق الأردن أصبح بالشام خمس دول ، وليس لنا فى التأريخ لسوريا العربية أن نتحدث عن الدولة التى أعلنتها العصابات اليهودية فذلك وضع مؤقت كبير الشبه بالإمارات اللاتينية التى أقامها الصليبيون بنفس المنطقة فى القرن الحادى عشر ، وكما زال ملك الصليبيين سيزول ملك الصهيونيين ، وسنعود فى يوم من الأيام ـ نرجو أن يكون قريبا ـ لضم هذه البقعة العربية المقدسة الى الوطن العربى ، وبالتالى للتأريخ لها فى مجال التاريخ الإسلامى ، أما الآن فنتوقف أقلامنا مؤقتا عن السير فى التاريخ لهذه المنطقة المنكوبة التى نرجو أن يدفع عنها الشر وتعود الى الوطن الأم ، وفيما عدا هذه المنطقة نواصل حديثنا عن دول الشام •

سوريا :

خرجت سوريا من هذه المعمعة الطويلة جريحة ، فقد فقدت أجزاء عزيزة من كيانها ، وأصبحت بعض هذه الأجزاء عدوة كاسرائيل أو مختلفة معها فى المشرب ، كما حدث ذلك فى فترات طويلة بالنسبة للأردن •

وقامت بسوريا مجموعة من الأحزاب اختلفت اتجاهاتها ، وظهر بها جيل من السياسيين الجدد بالاضافة الى السياسيين القدامى ، وكان كل من الطائفتين يرى أنه أحق بالسيطرة على مقاليد الأمور •

وتعرضت سوريا الى ألوان من الضغط من الاستعماريين أو من أولئك الذين ساروا زمنا فى ركابهم ، فتركيا تهدد حدودها ، وحلف بغداد تدفعه القوى الاستعمارية ليضم سوريا ، والملك عبد الله يعلن فى أغسطس سنة ١٩٤٧ مشروع سوريا الكبرى بقصد تجمع الشام من جديد على أن يكون ملكا عليه ، أو على الأقل قيام دولة اتحادية من سوريا والأردن ولبنان وفلسطين ويبقى لكل دولة من هذه الدول استقلالها ، ويكون هو رئيسا للدولة الاتحادية ، وبسبب هذه الأحداث تعرضت سوريا لانقلابات عسكرية متتالية هى :

— انقلاب حسنى الزعيم فى مارس سنة ١٩٤٩ •

— انقلاب سامى الحناوى فى أغسطس سنة ١٩٤٩ •

— انقلاب أديب الشيشكلى فى ديسمبر سنة ١٩٤٩ • ويقال إنه هو الذى دبر الانقلاب الأول ووضع على قمته حسنى الزعيم ، ثم قضى عليه ووضع سامى الحناوى حتى اشتد عوده فقضى على الحناوى وأعلن زعامته •

الوحدة مع مصر ثم الانفصال :

— انقلاب فيصل الأتاسى فى فبراير سنة ١٩٥٤ وقد أعاد هذا الانقلاب الحياة الدستورية والانتخابات ، فأصبح هاشم الأتاسى رئيساً للجمهورية ، وصار فارس الخورى رئيساً للوزارة ، ثم أجريت الانتخابات فأصبح شكرى القوتلى رئيساً للجمهورية من سنة ١٩٥٥ وصبرى العسلى رئيساً للوزارة ، وقد وصلت سوريا فى هذه الفترة الى قمة التأثر بالاتجاه القومى العربى الذى ذابت فيه كل الاتجاهات والذى انبثقت عنه الرغبة فى الوحدة الكاملة مع مصر ، وقد تمت هذه الوحدة فى ٢٢ فبراير سنة ١٩٥٨ بناء على استفتاء أجرى فى مصر وسوريا ، وأصبح جمال عبد الناصر رئيساً للجمهورية العربية المتحدة ، وقد كانت هذه الوحدة تعبيراً عما يجيش فى صدور العرب منذ فقدوا وحدتهم التى عاشت عدة قرون قبل الزحف العثمانى •

فهذا الانقلاب كان فى الحقيقة عودة للحياة الدستورية السليمة وكان قضـاء على الانقلابات ٠

ويبدو أن الفصـل بين سوريا ومصر من ناحية الأرض مكّن لهواة التفرقة أن ينفثوا سـمومهم ، وقـد حـدثت بعض الأخطـاء خـلال الوحدة ، ولكن الذى نعتقده أن أرض سوريا لو كانت متصـلة بأرض مصر لما استطاعت قوة انفصالية أن تَبْرُز وأن تنجح ، ولاتّجهت القوى الى تصحيح الأخطاء لا الى تقسيم الدولة التى كانت أمل العرب ٠

وعلى كل حال فقـد حـدث الانقلاب ، وفيما يلى حديث عنه وعن الانقلابات التى تلته :

ـ انقلاب الانفصـال فى ٢٨ سبتمبر سنة ١٩٦١ يقوده عبد الكريم النحلاوى ، وموفق عصاصة ، وعبد الغنى الدهمان ، ومهيب هندى وفايز رفاعى وفخرى عمر ، وقـد تولى ناظم القدسى رئاسة الجمهورية ومأمون الكزبرى رئاسة الحـكومة ، ثم جاء بعده عزة النص فمعروف الدواليبى ، وأعلن الرئيس جمال عبد الناصر رأى مصر فى هـذا الانقلاب بقـوله « ليس من المحتم أن تبقى سوريا قطعة من الجمهورية العربية المتحدة ولكن من المحتم أن تبقى سوريا » ٠

ـ انقلاب ٢٨ مارس سـنة ١٩٦٢ الذى أطاح بزعماء الانقـلاب السابق ونفاهم خارج البلاد ، وكان عبد الكريم زهر الدين يقود هـذا الانقلاب وبقى ناظم القدسى رئيساً للجمهورية وتولى رئاسـة الوزارة بشير العظمة ثم خالد العظم ٠

وكان زعماء هـذا الانقلاب يتكوّنون من فريقين رئيسين ، أولهما الفريق الذى يميل الى الوحـدة ويسعى لإعادتها ، والثانى فريق حزب البعث ، ولكن البعثيين استطاعوا أن يتغلبوا على الوحدويين ويتخلصوا منهم ٠

ــ وفى يناير سنة ١٩٦٣ تمَّ انقلاب جديد بقيادة قادة الانفصال الذين كانوا قد عادوا خلسة الى دمشق ، ولكن هذا الانقلاب لم ينجح •

ــ وفى ٨ مارس سنة ١٩٦٣ حدث انقلاب آخر فى سوريا بقيادة اللواء زياد الحريرى واللواء راشد قطينى ، وقبض زعماء الانقلاب على رئيس الجمهورية والوزراء ولجأ خالد العظم الى سفارة تركيا ، وقام مجلس ثورة يرأسه لؤى الأتاسى ، وتولى صلاح البيطار رياسة الوزارة ، وفى هذا العهد بدأت اتصالات جديدة لإعادة الوحدة مع مصر ، بل لتوسيع نطاق الوحدة بضم العراق اليها بعد أن سقط عبد الكريم قاسم ، لكن هذا الاتجاه لم يكمل خطواته الى النجاح ، فقد استطاع البعثيون أن يستولوا على زمام السلطة ، إذ أنه فى يوليو سنة ١٩٦٣ تولى أمين الحافظ السلطة وأمسك بجميع المناصب القيادية باسم حزب البعث متعاوناً مع حزب البعث فى العراق •

ــ فى فبراير سنة ١٩٦٦ هب جناح آخر من حزب البعث بانقلاب جديد فى سوريا قضى فيه على « أمين الحافظ » ، وكان هذا الانقلاب بقيادة يوسف زعين وابراهيم ماخوس ، وفى ظل هذا الانقلاب أصبح نور الدين الأتاسى رئيساً للدولة •

ــ استولى حافظ الأسد على السلطة فى مطلع سنة ١٩٧١ وفى ١٤ مارس انتخب رئيساً للجمهورية وهو الذى يشغل هذا المنصب الآن • (١٩٨٦) •

وفى سبتمبر من نفس العام أعلن قيام « اتحاد الجمهوريات العربية » من مصر وسوريا وليبيا بعد استفتاء شعبى أيَّدت الجماهير فيه قيام هذه الدولة الاتحادية ، ولكن الزمن مرَّ دون أن يظهر لهذا الاتحاد شأن يذكر •

رعا الله سوريا ومنحها الاستقرار والسلام •

لبنان ورؤساؤه من عهد الاستقلال حتى الآن :

عقب استقلال لبنان ظل بشارة الخورى يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى سنة ١٩٥١ ثم انتخب كميل شمعون رئيساً لهذه الجمهورية ، وظل هذا فى منصبه السنوات الست التى حددها الدستور ، وقد حاول قبيل انتهاء المدة أن يغيِّر من مواد الدستور بحيث يصبح له الحق فى أن يعيد ترشيح نفسه لرياسة الجمهورية ، ولكن معارضيه كانوا أقوياء فوقفوا له بالمرصاد ، ووصلت الحالة بلبنان الى نوع من الصدام الداخلى المسلح ، فلم يستطع تعديل الدستور ، وانتخب فؤاد شهاب رئيساً للجمهورية سنة ١٩٥٨ فأزال الخلافات التى كانت موجودة فى لبنان ، ومشى بلبنان شوطاً نحو الاستقرار ، وفى سنة ١٩٦٤ انتخب شارل حلو رئيساً للجمهورية ، وفى سنة ١٩٧٠ انتخب سليمان فرنجية رئيساً للجمهورية ، وفى مطلع سنة ١٩٧٦ انتخب الياس سركيس لرياسة الجمهورية ، وتسلم سلطاته فى ٢٢ سبتمبر من نفس العام .

وقبيل نهاية مدته كان لبنان يشتعل ناراً من الخلافات الداخلية ، ومن الجيوش الخارجية التى كانت تحتل بعض أراضيه ، وبخاصة الجيش الاسرائيلى الذى كان يحتل جنوب لبنان ، ووسط هذه الاضطرابات اختير بشير الجميل رئيسا للبنان فى أغسطس سنة ١٩٨٢ على أن يتسلم سلطاته فى ٢٢ سبتمبر ، ولكن القدر لم يمهله لتسلم هذه السلطات ، فقد لقى مصرعه فى ١٤ سبتمبر من نفس العام ، وكان مصرعه فى انفجار مروع دمر مبنى حزب الكتائب الذى يرأسه ، وكان بشير موجودا فى المبنى الذى انهار على من فيه ، فلقى حوالى ٥٠ شخصا من زعماء الكتائب مصرعهم أيضا ، ويقال إن هذا التدبير كان جزاء له لصلته باسرائيل .

وقـد اختير عقب ذلك أخوه أمين الجميل لرياسة لبنان ، ولا زال يشغل هذا المنصب حتى الآن (١٩٨٦) مع ما يحيط به من عناء وآلام .

الأديان والطوائف فى لبنـان :

ولبنان ينظم حياته السياسية طبقاً للأديان والمذاهب به ، فرئيس الجمهورية ينتمى الى طائفة الموارنة ، ورئيس الوزراء ينتمى الى أهل السنة ، ورئيس مجلس النواب ينتخب من الشيعة ، ومقاعد البرلمـان توزع بين الطوائف والمذاهب ، رجاء أن يخفف ذلك من حـدة التفرقة الدينية والمذهبية به .

وبالنسبة للجيش مثلا نجـد إنه يتعين أن يكون القائد الأعلى ورئيس المخابـرات من المارونيين ، وأن يكـون رئيس الأركـان من الدروز ، وأن يكون ٦٠٪ من الضـباط من المسيحيين و ٦٠٪ من الجنـود من المسلمين .. وعندما وقع صـدام الحرب الأهلية ذاب هـذا الجيش حسب طوائفه وانقسم الى مجموعة انضمت للمسلمين ، ومجموعة انضـمت للكتائب المسيحيين ، وثالثة انضمت للسوريين ، ورابعة وهى أصغر هذه المجموعات ظلت موالية للحـكومة ورئيس لبنان .. وهـكذا انتهى الأمر بأن أصبح لكل طائفة وكل فئة فى لبنان جيشها بينما رئيس لبنان الشرعى لا جيش له ولا قوة ..

الطوائف اللبنـانية :

ولا توجد فى لبنان أية احصائيات رسمية حول التركيب السـكانى للمجتمع بطوائفه وطبقاته الاجتماعية إلا فى حـدود ضـيقة ومحدودة وغير رسمية وذلك منذ بداية الثلاثينات ، وحتى المرحلة الراهنة . غير أنه فى عام ١٩٧٧ أجرت المنظمة الفرنسية لتنظيم الأسرة مسحا شاملا لسكان لبنان وطوائفه ، كانت أبرز نتائجه بالنسبة للتوازن السكانى ما يلى :

١ — الشيعة ٨٥٠ — ٩٠٠ ألف نسمة ٢٨٪ ٠

٢ — الموارنة ٧٥٠ — ٨٠٠ ألف نسمة ٢٤٪ ٠

٣ — السنة ٦٠٠ ألف نسمة ١٩٪ ٠

٤ — الأرثوذكس ٣٠٠ ألف نسمة ٩٪ ٠

٥ — الدروز ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪ ٠

٦ — الكاثوليك ٢٥٠ ألف نسمة ٦٪ ٠

٧ — الأرمن ١٦٠ ألف نسمة ٥٪ ٠

وهناك طوائف مسيحية أخرى قوامها ٥٠ ألفا وهذا التعداد له دلالاته فى التوازن السياسى بين الطوائف المتصارعة فالثابت إن هذه النسب توضح اختفاء التوازن بين الطوائف ، فالطوائف الإسلامية مثلا قد نمت نموا يجعلها تحس بأنه ليس لها نصيب عادل فى الثروة والسلطة ٠

(الأهرام فى ١٨ / ٥ / ١٩٨٤ بتصرف)

ويسمح لبنان بالحرية الثقافية الى أقصى مدى ، فهناك الجامعة الأمريكية ومدراس الإرساليات ، وهناك الكليات التابعة لجامعة الإسكندرية ، الى جانب المدارس والمعاهد اللبنانية ، والى جانب دور النشر والصحافة مختلفة الاتجاهات التى تتخذ من لبنان مقرا لها ٠

الحرية الثقافية بلبنان وأخطارها :

وباسم هذه الحرية الثقافية طالما كانت لبنان أرضا تخرج منها المطبوعات التى تهاجم الإسلام ، وترتفع منها الأصوات المأجورة ، وهذه الكلمات تكتب وفى يدى مجموعة من الكتب المنحرفة التى صدرت بلبنان تحت عنوان « دروس قرآنية » وهى كتب حافلة بالانحرافات الفكرية والدينية مما يجعل فكرة الحرية يساء استعمالها فى كثير من الأحوال ٠

حروب أهلية فى لبنان :

وقد شهد لبنان ابتداء من سنة ١٩٧٥ وحتى كتابة هذه السطور فى شهر ابريل سنة ١٩٨٦ صراعاً دموياً عصبياً ، تارة بين حزب الكتائب والفدائيين ، وتارة بين المسلمين والمسيحيين ، ووقفت طرابلس الشام مواجهة لبلدة زغرتة فترة طويلة ، واستعملت فى هذه الحروب الأهلية مختلف أنواع الأسلحة بما فى ذلك الأسلحة الثقيلة ، والدبابات والصواريخ .

وقد تدخلت سوريا فى هذه الحرب مرة مع الفلسطينين ومرة ضدهم .....

ويرى رئيس جمهورية لبنان أن قوات المقاومة الفلسطينية تكتلت فى لبنان وأنها تكوّن دولة داخل الدولة ، وترى مصر أن حركة سوريا ورئيس جمهورية لبنان مؤيدة بكميل شمعون وبالمسيحيين ترمى الى القضاء على المقاومة الفلسطينية وأن اسرائيل وأمريكا تؤيدان هذه القوى .

وقد سئل مصرى بصحيفة « الأهرام » عن هذه الحرب فأجاب فى عدد ١٩٧٥/١٢/٢٦ إجابة فيها كثير من الحق ، وفيما يلى السؤال والجواب :

هناك تساؤلات : ما نوع هذه الحرب ؟ وما سببها ؟ وهل هى مجرد صراع سياسى أم أنها حرب أهلية طائفية ؟

وأجاب بقوله : « إن الحرب الدائرة فى لبنان هى « مينى » حرب عالمية ثالثة بمعنى أن معظم الدول الأساسية فى العالم لها ضلع فيها ؛ فالولايات المتحدة لها ضلع ، وروسيا لها ضلع ، وبعض الدول الثورية والاشتراكية لها ضلع ، واسرائيل لها ضلع ، وبعض الدول العربية لها

ضـلع ، وكل الضـالعين فى هـذه الحرب يمدون الجماعة المتصـارعة فى لبنان بالمـال والسلاح • ولو أن هـذه الحرب كانت بأموال لبنانية لمـا أمكنها أن تستمر أكثر من أيام قليلة • أسبوع أو أسبوعين أو ثلاثة أسابيع على الأكثر •

« كذلك يمكن تصنيف هـذه الحرب فى بعض أوجهها على أنهـا مثل حرب اليمن التى قاتل فيها اليمنى شقيقه اليمنى بأموال الغير •

« والحرب الدائرة فى لبنان ليست طائفية تمامـاً ، وليست طبقية تماماً ، ولكن الخريطة الاجتماعية للناس تجعل هـذه الحرب تبدو طائفية وطبقية فى الوقت نفسه • وبشىء من التفصـيل إن الحرب دائرة بين فريق من الموارنة وفريق من المسـلمين وليسـت بين كل الموارنة وكل المسلمين » •

وهـذه الكلمات تكتب وقد زادت مشكلة الحرب الداخلية فى لبنان تعقيدا ، ولم تعد الحرب داخلية بل اندفعت لها عناصر خارجية ، وفيما يلى خلاصـة الأحـداث حتى كتابة هذه السطور فى ابريل سـنة ١٩٨٦ •

تطور الحرب الأهلية فى لبنان

قلنا آنفا ان الحروب اتجهت ــ بقصد أو بدون قصد الى أن صارت حربا بين المسلمين والمسيحيين فى لبنان ، ومن الأسباب التى جعلت الحرب تصل الى هذا المدى أن بعض القوات الفلسطينية هناك كانت تمـارس درجة متطرفة فى لبنان مما جعلها تكوّن دولة داخل الدولة ، بل يصفها بعض الصحفيين بأنها وصلت لدرجة أفقـدت السلطة الرسمية اللبنانية شرعيتها ، وأفقدتها احترام الشعب لهـا ، ووقف التقدميون المسـلمون اللبنانيون الى جانب المنظمات الفلسطينية ، فاستنجد الجانب المسيحى بسوريا وتقول الصحافة المصرية ان السوريين رحبوا بالدعوة • وزحفوا بقواتهم داخل الحدود اللبنانية ، واشتركوا فى الحرب الأهلية الى جانب المسيحيين ، ولم تقبل سوريا التدخل فى الحرب ، حبا فى الجانب المسيحى ، ولا كرها للجانب الفلسطينى الاسلامى ، وانما تدخلت لا لشىء الا لتضع لها قدما فوق الأرض اللبنانية ، التى ما زال السوريون يعتبرونها أرضهم التى انتزعها منهم الاستعمار الفرنسى وأطلق عليها اسم « دولة لبنان » ولا شك أن هذا الاحساس جدير بالتقدير •

ورحب حافظ الأسد بالدعوة ليضرب عصفورين بحجر واحد ، فهو لا يكتفى باحلال التواجد السورى المسلح داخل لبنان ، وانما يضيف اليه توجيه ضربة عنيفة الى المنظمات التى تمردت عليه ، •

وتحقق لحافظ الأسد ما أراده تماما •• !

فقواته احتلت لبنان ، بتأييد معظم العواصم العربية ، وبدعوة من الجانب المسيحى اللبنانى ! وبنادقه ، نجحت فى « تأديب » المتمردين •

سوريا تتخلى عن المسيحيين وتنضم للمسلمين :

وبعد أن حققت سوريا أغراضها بضرب الفلسطينيين وتأديبهم ،

وتثبيت أقدامها فى لبنان صححت موقفها ، فقرر الرئيس حافظ الأسد توجيه فوهات بنادقه ، ودباباته ، الى صدور رجال الميليشيا المسيحية المعتدية ، وأن يمد يد التحالف ، والتعاون ، الى رجال المنظمات الفلسطينية التى أعلنت ولاءها له وإلى التقدميين المسلمين !

المسيحيون يطلبون العون من اسرائيل :

ونظر لبنان أول ما نظر الى الدول الغربية المسيحية ، ولكنه لم يجد منها سوى المواساة ، والكلمات الطيبة ، والمعونات الغذائية ، والطبية .

واضطر المسيحيون اللبنانيون الى التحالف مع الشيطان . وكانت اسرائيل هى الشيطان المقصود . وتمت إتصالات بين الجانبين . ورحب الشيطان بالدعوة المفتوحة التى قدمت اليه . وقامت اسرائيل بتقديم السلاح للمسلحين المسيحيين . وذهب رجال الميليشيا المسيحية الى داخل اسرائيل للتدريب فى معسكرات الجيش الاسرائيلى . كما تعود قادة من القوات المسلحة الاسرائيلية علـى الذهاب الى داخل لبنان ، لتفقـد استحكامات الميليشيا ، وتقديم النصح ، والخبرة .

اسرائيل تدخل لبنان :

ولم تقنع اسرائيل بأن تعيش بلبنان فى الظل ، ولم يقنع الموارنة بالأسلحة والتوجيه من اسرائيل ، فطلب حزب الكتائب من اسرائيل أن تدخل لبنان بجيشها لاخراج العدو المشترك وهو الفلسطينيون والسوريون ، ودخلت اسرائيل لبنان .

الولايات المتحدة تدخل لبنان :

عندما دخلت اسرائيل لبنان اتجهت لضرب الفلسطينيين وحاصرتهم

فى بيروت ، وألزمتهم مغادرة لبنان ، ولكن الفلسطينيين رفضوا الخروج الا اذا جاءت قوة تحمى ظهورهم فى أثناء الخروج ، وقاوموا مقاومة شديدة ، فدخلت أمريكا لبنان لهذا الغرض ، ولكنها سرعان ما خرجت من بيروت •

اغتيال بشير الجميل :

كان بشير الجميل الذى انتخب رئيسا لجمهورية لبنان كما سبق ، قائدا من قواد الكتائب ، وشديد التعصب للموارنة ، واحست الجماعات الأخرى فى لبنان أن الرئيس ليس رئيسا للشعب كله ، وأنه منحاز لأحد طرفى الخصومة فى لبنان ، واتجهت المقاومة لمصارعته فسقط صريعا فى الانفجار المروع الذى أشرنا له من قبل ، والتهبت لبنان نارا ، ثم اختير أمين الجميل ، وهو أكثر هدوءا من أخيه ، ويقولون انه شخصية غير دموية •

مجزرة صبرا وشاتيلا :

انتهزت اسرائيل فرصة قتل بشير الجميل وتعاونت مع الكتائب لانتقام مثير وغادر ، بأن دبرت لحدوث أعظم مجزرة عرفها العصر الحديث ، وهى مجزرة مخيمى صبرا وشاتيلا ، فقد خططت القوات الاسرائيلية للقضاء على هذين المخيمين قضاء تاما بواسطة رجال الكتائب ، وكان بيجين وشارون يمثلان التدبير وحركة التدمير بالغة الأسى •

وقدمت القوات الاسرائيلية للكتائب السلاح وحرست الزاحفين ، وأيدتهم بكل الوسائل فاتجه هؤلاء فى المدة من ١٦ الى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٨٢ • وهاجموا المخيمين وذبحوا الآلاف من الرجال والنساء والأطفال واستولوا على ما كان يملكه الضحايا من أموال وثروات •

وقد فزع الضمير العالمى لهذا العدوان وهذه المجزرة فألفت لجنة

تحقيق دولية للنظر فيها ، وقد جاء فى تقريرها أن الأدلــة التى تجمعت لديها تؤكد أن القوات الاسرائيلية قدمت مساعدة جوهرية للمجرمين الذين اجتاحوا مخيمى صبرا وشاتيلا فى بيروت وذبحوا المئات من الفلسطينيين .. بل أن هؤلاء المجرمين كانوا يتحركون تحت قيادة اسرائيلية .

وأوضح التقرير أن اسرائيل قدمت المساعدة فى التخطيط لمذبحــة تستهدف الابادة كما قدمت امدادات وتسهيلات فى عمليات القتل الفعلية ، وذكر التقرير أيضا ان الهدف الرئيسى لاسرائيل من غزو لبنان لــم يكن القضاء على المقاومة الفلســطينية بل تدمير شخصــية الشـــــعب الفلسطينى وتحطيم موجة الاعتــراف المتزايد بحقه فى اقامة دولته فى الضفة الغربية وقطاع غزة وكذلك تشتيت السكان الفلسطينيين عن طريق نسف مخيماتهم وارتكاب المذابح ضدهم ، وذكر أربعة من أعضاء اللجنة ان « التدمير المتعمد » للحقوق الوطنية والثقافية للفلســطينيين يمثل « أحد أشكال جريمة الابادة » .

وكانت اسرائيل قد رفضت التعامل مع هذه اللجنة الدولية وحظرت على أى مواطن اسرائيلى الادلاء بشهادته أمامها ، وتذرعت بانها قامت بتشكيل لجنة اسرائيلية ..

وشهد شاهد من أهلها :

أما اللجنة التى كونتها اسرائيل لدراسة هذه المجزرة فقد نشرت تقريرها فى أوائل فبراير سنة ١٩٨٣ ، وفيما يلى خلاصة ما أذاعته وكالات الأنباء عن هذا التقرير :

اذاعت لجنة التحقيق الاسرائيلية تقريرها عن نتائج تحقيقاتها بشأن مذابح مخيمى صبرا وشاتيلا فى سبتمبر الماضى ، وأوصت اللجنة باستقالة أو اقالة اريل شارون وزير الدفاع وعزل الجنرال يهوشوا ساجى مدير المخابرات الحربية . وأعلنت اللجنة أن شارون ارتكب أخطاء جســيمة

بسماحه للميليشيات اليمينية بدخول المخيمات الفلسطينية رغم علمه بالنتائج التى قد تترتب على هذه الخطوة وهى ارتكاب المذابح ضد الفلسطينيين •

وقد اتهمت اللجنة مناحم بيجين بأنه اتخذ موقف اللامبالاة من القرار العسكرى بالسماح للميليشيات بدخول المخيَّمَيْن ، وهو لهذا يتحمل قدرا من المسئولية •

وأدانت اللجنة بعض المسئولين الإسرائيليين ، وعلى رأسهم أريل شارون وزير الدفاع واسحق شامير وزير الخارجية •• ••

المظاهرة الديمقراطية مفتعلة :

ومن الغريب أن هذه المظاهرة الديمقراطية المفتعلة •• لم تنتج اثرا •• فقد ظل شارون وزيرا بلا وزارة لمدة ١٨ شهرا •• ولكنه عاد مرة أخرى وزيرا للتجارة والصناعة فى الحكومة الجديدة •• وكوفىء شامير بأن وجد نفسه بعد هذه المذبحة بعام واحد •• رئيسا للحكومة •• ويتولى ايتان منصبا أكبر فى الجيش الاسرائيلى •• وهكذا •• والأغرب أن الشعب الاسرائيلى الذى ثار فى ذلك الوقت •• عاد لينتخب الحاخام المتطرف مائير كاهن — زعيم حركة كاخ — عضوا فى الكنيست •

عدد القتلى ودور اسرائيل :

وقد أذاع رالف شوينمان سكرتير الفيلسوف البريطانى الراحل « راسل » فى مؤتمر صحفى عقد فى نيويورك فى أول أكتوبر سنة ١٩٨٢ أن المعلومات الوثيقة تؤكد أن القوات الاسرائيلية اشتركت بالفعل فى مذابح صابرا وشاتيلا فى بيروت الغربية ، وأن أربعة مبعوثين فلسطينيين كانوا قد توجهوا لمراكز القيادة الاسرائيلية لاعلان استسلام المخيمين قد عثر عليهم قتلى ، وأن عدد الضحايا فى هذه المذبحة كان عدة آلاف •

نحن نحذر :

الليل لا يظل ليلا ، والنهار لا يبقى نهارا ، وسيجيء يوم يصبح المغلوب غالبا كما حدث فى الحروب الصليبية ، وويل للطغاة مما يرصده التاريخ ، ونحن نرصد هذه الأحداث حتى لا يلام العرب ان هم فى يوم من الأيام ثأروا لأنفسهم .

القوة متعددة الجنسيات :

وازاء تفجر الموقف بعد مجزرة صبرا وشاتيلا طلب الرئيس اللبنانى الجديد (أمين الجميل) من أمريكا أن تدخل للمساعدة فى حفظ الأمن ، فقبلت أمريكا ، وعادت قواتها فدخلت لبنان مع بعض القوات الفرنسية والانجليزية والايطالية باسم « القوة المتعددة الجنسيات » .

عملية فدائية ضد الولايات المتحدة :

تعرض مقر القيادة الأمريكية بلبنان الى عملية انتقامية بالغة الخطورة لم يتضح بالضبط من الذى قام بها ، فهناك سيارة كانت تحمل قدرا هائلا من المتفجرات ، وكان الذى يقودها يلبس الملابس الأمريكية ، واندفع بها الى مقر القيادة فحوله الى كومة من التراب ، وراح المئات من الأمريكيين وبعض الفرنسيين ضحايا هذا الحادث .

وقد اختلفت الآراء حول من قام بهذا الحادث ، هل هم الفلسطينيون الذين أرادوا الانتقام من الأمريكان الذين يساعدون اسرائيل والذين قتل ضحايا صبرا وشاتيلا بأسلحتهم ؟

هل هم الكتائب الذين يرون أن الأمريكان جاءوا الى لبنان للحد من نشاطهم والانتقام منهم ؟

هل هى اسرائيل التى لا صاحب لها والتى يهمها أن تثير فى المنطقة كل المتاعب ، ويهمها إسالة الدماء ، أى دماء ؟

هل لايران أصبع فى هذه المؤامرة ؟

لم تتحدد التهمة حتى الآن ، وربما لن تتحدد أبدا .

اتفاق لبنانى اسرائيلي والفاؤه :

فى مايو سنة ١٩٨٣ تم توقيع اتفاق لبنانى اسرائيلى كمعاهدة صلح : ولكن اسرائيل اشترطت أن تجلو كل القوات من لبنان ، وكانت تقصد بذلك اخراج القوات السورية ، ولكن سوريا لم تستجب طبعا لهذا الأمر ، ودافعت عن نفسها وعن اتجاهاتها أروع دفاع مما هزّ القوات الأمريكية وهددها .

وكان هذا الاتفاق على كل حال قصير العمر .

ان المشكلة اللبنانية لا تزال معقدة ، لأن جذورها قديمة ومتجددة كما رأينا ، وقد خسرت لبنان كثيرا بسبب هذه الحروب ، وخسر العالم العربى مركزا فكريا كان يشع نورا على المنطقة بأسرها .

مواكب الشهداء اللبنانيين ضد اسرائيل :

فى ابريل سنة ١٩٨٥ قادت فتاة اسمها « سناء مهيدلة » عمرها ١٦ سنة عملية انتحارية خطيرة ضد الجيش الاسرائيلى بلبنان ، وقد سجلت البطلة حديثا للاذاعة قبل قيامها بالعملية قالت فيه أنها قررت الانضمام لموكب الشهداء الذين استشهدوا وهم يقاومون الاحتلال الاسرائيلى للبنان ، وكانت هذه الفتاة قد قادت سيارة ملغومة من طراز بيجو ٥٠٤ تحمل ٤٠٠ ك ج من المتفجرات وهاجمت بها قافلة عسكرية اسرائيلية ، وقد أسفرت هذه العملية عن مصرع واصابة خمسين جنديا اسرائيليا .



سناء مهيدلة : فى موكب الشهداء

اتفاق ونقضـــه :

وفى ديسمبر سنة ١٩٨٥ تمّ توقيع اتفاق السلام بين الميليشـــيات اللبنانية الرئيسية الثلاث « اليمينية والدرزية والشيعية » فى دمشق وقد وقع الاتفاق الذى يستهدف انهاء الحرب اللبنانية كل من : ايلى حبيقة رئيس اللجنة التنفيذية للقـــوات اللبنانية (عن الميليشيات اليمينية) ووليد جنبلاط زعيم الدروز ورئيس الحزب التقدمى الاشتراكى ونبيه برى زعيم حركة « أمل » الشيعية • وقد تمّ التوقيع فى مكتب عبد الحليم خدام نائب الرئيس السورى وفى حضوره • وقد عقد اجتماع قصير قبلُ التوقيع على الاتفاق ضم لأول مـــرة زعماء الميليشيات الثلاثـــة وحضره خدام • وبعد توقيع الاتفاق تصافح الزعماء الثلاثة بينما أخذ مساعدوهم يتبادلون التهنئة •

وكان زعماء الميليشيات الثلاثة قـــد وصلوا إلى دمشـــق لتوقيع

الاتفاق لإنهاء الحرب الاهلية التى راح ضحيتها ١٠٠ ألف قتيل على الأقل خلال ١٠ سنوات وأدت الى خسائر قدرت بـ ٢٠ مليار دولار . ووصل كل من برى وجنبلاط فى الصباح بينما وصل حبيقة بعد الظهر مما أدى الى إرجاء التوقيع الذى كان مقررا أن يتم فى العاشرة صباحا .

ولكن هذا الاتفاق سرعان ما ضاع أثره قبل أن يجف حبره .

والله ندعو أن يرعى بلادنا العربية ، وأن يعيد للبنان هدوءه واستقراره ، ويبعد عنه شياطين الانس وفى مقدمتهم العدو الأصيل للعرب والمسلمين والانسانية : اسرائيل .

المملكة الأردنية الهاشمية :

تحدثنا من قبل عن المملكة الأردنية الهاشمية حتى وصلنا بها الى ضم الأرض الواقعة غرب نهر الأردن فى أثناء الحرب التى قام بها العرب لتحرير فلسطين من عصابات اليهود ، ولقد ورث الملك عبد الله طموح أبيه الشريف حسين عند ما ضم هذه المنطقة ، وقد ظل الطموح يدفعه فأعلن مشروع سوريا الكبرى ليضعها بطريق أو بآخر تحت سلطانه ، وليكون منها ومن العراق حيث كان يجلس أخوه فيصل مملكة اتحادية .

وقد قتل الملك عبد الله فى القدس سنة ١٩٥١ ، وتولى الحكم بعده ابنه طلال ولكنه اتجه اتجاها عربيا عارض به خطط بريطانيا الاستعمارية ، فاتهم بالجنون ، وأبعد عن العرش سنة ١٩٥٣ وتولى العرش بعد إبعاده ابنه الملك حسين ولا يزال يشغل هذا المنصب حتى كتابة هذه السطور سنة ١٩٨٦ فهو بذلك أقدم الملوك والرؤساء العرب الموجودين الآن ، أما الملك السابق طلال فقد عاش فى تركيا بعد عزله حتى مات سنة ١٩٧٢ .

والأردن يعيش فى جو من القلق لسبب بسيط هو قلة موارده ، واعتماده على الهبات والمساعدات التى يحصل عليها من دول الغرب ، وفى

خلال وزارة سليمان النابلسي ١٩٥٦ — ١٩٥٨ ، رأت مصر وسوريا والمملكة العربية السعودية أن تدفع للأردن ما يكمل ميزانيته وما يجعله فى غنى عن مساعدات الغرب ، وعلى الرغم من توقيع اتفاقية بذلك فى يناير سنة ١٩٥٨ تنص على أن تدفع هذه الدول ١٢ مليونا من الجنيهات للأردن كل عام لمدة عشر سنوات ، فان الاتفاقية لم توضع موضع التنفيذ • لأن مؤامرات الغرب تدخلت — فيما يبدو — فباعدت بين الأشقاء •

وقد رأى مؤتمر القمة السابع الذى عقد بالرباط فى أكتوبر سنة ١٩٧٤ أن يعود للفلسطينيين كل جزء يتحرر من فلسطين ، ووافق الملك حسين على ذلك واتخذ الاجراءات الدستورية لتنفيذ ذلك ، وهذا موقف يحمد للملك •

موقف للأردن جدير بالتقدير :

قررت أكثر الدول العربية مقاطعة مصر عقب معاهدة « كامب ديفيد » وحلت القطيعة محل الإخاء ، ولم ترفض هذا الاجراء الا عمان والسودان والصومال ، ومرت السنوات على هذا النحو ، ثم ارتفع صوت الملك حسين يعلن عودة العلاقات مع مصر ، وعودة تبادل السفراء ، فكان موقفا جديرا بالتقدير من المصريين الذين تشتد رغبتهم على دوام الصلة بين الأشقاء ، ويرون أن ما بين مصر والدول العربية يعلو على القطيعة • شكرا للأردنيين على هذا الموقف العظم •

فلسطين :

نجا من فلسطين فى الجولة الأولى جزء نرجو أن يكون المركز الذى ستنطلق منه القوة التى تحرر الوطن السليب ، وذلك الجزء هو قطاع غزة ، وكذلك الجزء الذى ضمته الأردن اليها ، ومنذ النكبة سنة ١٩٤٨ ساح الفلسطينيون فى البلاد العربية يحيطون بأرضهم المغتصبة ويترقبون ساعة الزحف لتحرير هذه الأرض ، وقد بدأت الاتجاهات لابراز الكيان

الفلسطيني ، وكان مطلع هذه الاتجاهات أن منحت غزة الحكم الذاتي تحت اشراف جمهورية مصر ، وأعلن الدستور المؤقت للشعب الفلسطيني في مارس سنة ١٩٦٢ ، كما بدأ تكوين جيش فلسطيني كبير العدد قوي العدة ، وفي دورة الجامعة العربية التي عقدت في سبتمبر سنة ١٩٦٣ وافقت الدول العربية على مشروع يقضي بالمحافظة على الشخصية الفلسطينية والعمل على تجميع قوى الشعب الفلسطيني المشتت استعدادا لانطلاقة العودة ، وأصبح السيد أحمد الشقيري ممثلا لفلسطين في المجامع الدولية ، وقد اتصل بالفلسطينيين في جميع البلاد العربية واستطاع بعد الزيارات والمشاورات أن يقترح مشروع الميثاق القومي الفلسطيني ومشروع منظمة التحرير الفلسطينية ، وقد عرض المشروعان على المؤتمر الفلسطيني الذي عقد بمدينة القدس في مايو سنة ١٩٦٤ وأصدر المؤتمر توصيات أهمها :

١ — اقرار الميثاق القومي الفلسطيني وهو يتكون من ٢٩ مادة .

٢ — انشاء منظمة تحرير فلسطين على أساس تنظيمين أحدهما شعبي والآخر عسكري .

٣ — انشاء الصندوق القومي الفلسطيني لتمويل منظمة التحرير ، واصدار سندات تحرير فلسطين بكفالة الجامعة العربية .

٤ — يخصص أسبوع باسم أسبوع فلسطين يبدأ في ١٥ مايو من كل عـــام .

واتخذ الفلسطينيون شعارا لهم هو « اننا عائدون » وقد بدءوا فعلا في اقلاق مضجع اليهود بفلسطين اقلاقا يكاد يكون متصلا ، فان الفدائيين يتسللون الى بلادهم وبلاد أجدادهم ، وهم أعرف الناس بمسالكها ومساربها فينشرون الرعب والذعر بين الغاصبين .

وقد اختير ياسر عرفات مكان أحمد الشقيرى ، وبذل جهدا كبيرا فى ابراز قوة المعارضة ، وان كانت لم تصل بعد الى ما يرجى لها من مكان •

وقد شهد عام ١٩٧٥ تصاعد العمل الفدائى الجرىء وأنزل بالعدو كثيرا من الضربات ، وبعث الخوف والقلق فى كل منزل ونادٍ •

والصراع الآن يدور ، ويشترك فيه كل عربى وكل مسلم ، وينبغى ألا يقصر أحد من هؤلاء فى دفع نصيبه بسخاء وحماسة وأمل ، وهذا المطلب يتطلب الجهود من كل الفئات ، يتطلع الى براعة الساسة ، وعقول المفكرين ، وأقلام الكتاب ، كما يتطلع الى مال الغنى ، وبسالة الجندى ، ويقظة المشرفين •

وقد تحدثنا من قبل عن جولة يونيو سنة ١٩٦٧ وعن النكسة التى خلفها الاهمال والانحراف ، وقد ساعد ذلك اسرائيل على ابتلاع غزة والضفة الغربية لنهر الأردن ولكن العرب يعرفون أن الحرب الصهيونية لن تكون سهلة يسيرة ، ولذلك فان العرب ينبغى أن ينتفعوا بالنكسات كما ينتفعون بالانتصارات ، ولا بدَّ مما ليس منه بدٌّ •

وقد تحدثنا فى كتاب خاص (مصر فى حربين) عن انتصارات أكتوبر سنة ١٩٧٣ التى استعاد بها العرب مكانهم فى التاريخ السياسى والعسكرى ، والتى فتحت الباب لتسوية سليمة للمشكلة الفلسطينية •

وفى مؤتمر القمة الذى عقد بالرباط فى ٢٦ أكتوبر سنة ١٩٧٤ اجتمعت كلمة القادة — كما سبق — على الاعتراف بمنظمة التحرير الفلسطينية ممثلا وحيدا للشعب الفلسطينى ، وعلى أن أى جزء يتحرر من فلسطين يعود للفلسطينيين بزعامة منظمة التحرير ، وقد وافق الملك حسين على ذلك ، وهذا فتح الباب لعودة حميدة لفلسطين الحبيبة •

ووافقت الأمم المتحدة على بحث قضية فلسطين من جديد فى نوفمبر

سنة ١٩٧٤ وعلى دعوة منظمة التحرير لتمثيل فلسطين فى هذه الدورة ولتتحدث باسم فلسطين ، وكانت قضية فلسطين قد شطبت وحلت محلها قضية اللاجئين ، ثم تنوسيت قضية اللاجئين ، ولكن انتصار أكتوبر سنة ١٩٧٣ بعث الحياة من جديد فى قضية فلسطين .

وفى الأمم المتحدة ألقى ياسر عرفات رئيس منظمة التحرير خطابا خطيرا نقتطف منه بعض الفقرات :

« ان الأمم المتحدة قامت وسط تحركات حربية عام ١٩٤٧ بتقسيم ما لا يجوز لها تقسيمه وهو أرض الوطن الواحد . وحين رفضنا هذا القرار فاننا كنا مثل أم الطفل الحقيقية ، التى رفضت أن يقسم سليمان طفلها . حين نازعتها عليه امرأة أخرى .

« ومع ذلك ... فقد منح قرار التقسيم المستوطنين الاستعماريين ٥٤٪ من أرض فلسطين وكأن ذلك لم يكن كافيا بالنسبة لهم فشنوا حربا إرهابية ضد السكان المدنيين العرب واحتلوا ٨١٪ من مجموع مساحة فلسطين وشردوا مليون عربى . مغتصبين بذلك ٥٢٤ قرية ومدينة عربية ، دمروا منها ٣٨٥ مدينة وقرية تدميرا كاملا ومحوها من الوجود ، وحيث فعلوا ذلك أقاموا مستوطناتهم ومستعمراتهم فوق الأنقاض ، وبين بساتيننا وحقولنا ، ومن هنا تكمن جذور المشكلة الفلسطينية .

« ولم تكتف اسرائيل بذلك ، بل شنت حربين للتوسع سنة ٥٦ و ٦٧ ضمت فيهما سيناء والجولان وباقى فلسطين حتى نهر الأردن .

« وجاءت حرب ١٩٧٣ لتؤكد للعدو عقم سياسته الاحتلالية واعتماده على شريعة القوة ولكن العدو لم يتعظ بذلك .

« ويقولون اننا ارهابيون ، والحق أن الجانب الذى يقف فيه حامل السلاح هو الذى يميز بين الثائر والارهابى فمن يقف فى جانبه

قضية عادلة ومن يقاتل من أجل حرية وطنه واستقلاله ضد الغزو والاحتكار والاحتلال والاستعمار لا يمكن بأى حال أن تنطبق عليه صفة ارهابى والا اعتبر الشعب الأمريكى حين حمل السلاح ضـــد الاستعمار البريطانى ارهابيا •• واعتبر كثيرون منكم فى هذه القاعة ارهابيين •• واعتبر نضال الشعوب فى آسيا وأفريقيا وأمريكا اللاتينية ارهابا •

« إن الارهاب الصهيونى هو الذى استلب حق الشعب الفلسطينى لاجلائه عن وطنه •• واقتلاعه من أرضه •• ومدون لديكم فى وثائق رسمية وزعت فى الأمم المتحدة أن العدو ذبح الآلاف من أبناء الشعب فى قراهم •• ومدنهم ، وأجبر عشرات الألوف تحت نار البندقية وقصف المدافع والطائرات •• أن يتركوا بيوتهم وما زرعوا فى أرض أجدادهم •

« ولقد قدم شعبنا فى السنوات العشر الأخيرة من نضاله آلاف الشهداء ، وأضعافهم من الجرحى والمشوهين والأسرى والمفقودين من أجل ألا يفنى أو يذوب •• ومن أجل انتزاعه حقه فى تقرير مصيره على وطنه وفى عودته الى هذا الوطن •

وتعيش جماهير شعبنا الآن تحت الاحتلال الصهيونى تقاوم بكل الكبرياء المناضل فيها ، وبكل الشموخ الثورى الملازم لها •

« إننى كرئيس لمنظمـــة التحرير الفلسطينية •• وكقـــائد للثورة الفلسطينية أتوجه اليكم أن تقفوا مع نضال شعبنا من أجل تحقيق حقه فى تقرير مصيره •• هذا الحق الذى قرره ميثاق منظمتكم وأقرته جمعيتكم الموقرة فى مناسبات عديدة ، واننى أتوجه اليكم أيضا أن تمكنوا شعبنا من العودة من منفاه الاجبارى •• الذى دفع اليه تحت طلقات البنادق •• وبالظلم •• ليعيش فى وطنه ودياره وتحت ظلال أشجار مزارعه حرا سيدا متمتعا بكافة حقوقه القومية ليشارك فى ركب الحضارة البشرية وفى مجالات الابداع الانسانى بكل ما فيه من امكانيات وطاقات وليحمى قدســة

الحبيبة كما فعل دائما عبر التاريخ ويجعلها قبلة حرة لجميع الأديان بعيدا عن الارهاب والفقر كما فعل عبر القرون الطويلة .

« أتوجه اليكم لأن تمكنوا شعبنا من اقامة سلطته الوطنية المستقلة ..

« لقد جئتكم ياسيادة الرئيس بغصن الزيتون فى يد وبندقية الثائر فى يدى الأخرى فلا تسقط الغصن الأخضر من يدى .. » .

وفى ٢٢/١١/ ١٩٧٥ وافقت الجمعية العامة بأغلبية ساحقة على قرار بالاعتراف بحق الشعب الفلسطينى فى الاستقلال والسيادة الوطنية ، وعلى قرار آخر يقضى بمنح منظمة التحرير الفلسطينية وضع « مراقب » فى الأمم المتحـدة .

ويدعو القرار الأول الى منح الشعب الفلسطينى حق تقرير المصير والاعتراف بحقه فى الاستقلال والسيادة الوطنية ويعلن القرار :

— أن الفلسطينيين طرف رئيسى فى أية تسـوية للأزمة فى الشرق الأوسـط .

— تأكيد حق الفلسطينيين فى العودة الى ديارهم وممتلكاتهم التى انتزعوا منهـا .

— أن هـذه الحقوق أمر لا غنى عنه لتسـوية المشكلة الفلسطينية ومن حق الشعب الفلسطينى أن يستردها بكل الوسائل بما يتمشى مع مبادىء الأمم المتحـدة .

— على جميع الدول والمنظمات الدولية أن تسـاعد الفلسـطينيين فى نضـالهم .

— ينبغى استشارة منظمـة التحرير الفلسطينية فى جميع المسـائل المتعلقة بفلسـطين .

وكانت الدول التى عارضت هـذا القرار هى الولايات المتحـدة واسرائيل وشيلى وكوستاريكا وايسلندا ونيكاراجوا والنرويج •

وينص القرار الثانى على منح منظمة التحرير الفلسطينية الحق فى الاشـتراك كمراقب فى دورات الجمـعية العـامة وجميع المؤتمرات التى تعقدها أية هيئة من هيئات المنظمة الدولية •

وتحـدث يوسف تيكواه مندوب اسرائيل بعد صدور القرارين فقال إن هـذه أيام حزينة بالنسـبة للأمم المتحـدة ، واتهم المنظمة الدولية بالاستسلام •

مذبحة جديدة فى « عين الحلوة » بلبنان :

وقـد تعرض الفلسطينيون فى فلسطين وفى لبنان الى مذابح مروعة قام بها الجيش الاسرائيلى ، وقـد تحدثنا من قبل عن مذبحة صـبرا وشاتيلا ، ونتحدث هنا عن مذبحة أخرى فى معسكر « عين الحـلوة » وقـد وقعت فى ١٦/٥/١٩٨٤ وقالت عنهـا وكالات الأنبـاء ما يلى :

اقتحمت القوات الاسرائيلية مخيم « عين الحلوة » للاجئين على بعد حوالى ٤٠ كيلو مترا جنوبى بيروت فى ساعة مبكرة من صـباح أمس مستخدمة الدبابات والبلدوزرات والعربات المدرعة •

أسفرت عملية الاقتحام التى بدأت فى منتصـف ليـلة أمس الأول (الثلاثاء) واستمرت حتى الساعة الخامسة من صباح أمس عن تدمير أكثر من ٣٠ منزلا ومصرع واصـابة حوالى ٤٠ شخصا كانوا بداخلها كما ألقت السلطات الاسرائيلية القبض على ١٥٠ شخصا آخرين من سكان المخيم •• وذكرت وكالة غوث اللاجئين أن القوات الاسرائيلية نسـفت ٨ منازل بالديناميت بسكانها وهم نيام ••

وقـد وقع الحادث بعد يوم واحـد من المظاهرة التى وقعت فى

المخيم وصدور بيان معاد لاسرائيل احتجاجا على ذكرى (وعد بلفور) ٠

وكانت كلمة « الأخبار » عن هذه المذبحة هي :

مذبحة « عين الحلوة » ٠٠ مذبحة جديدة تضاف الى التاريخ الأسود للمذابح الاسرائيلية ضد الأبرياء العزل من أبناء الشعب الفلسطيني ذلك التاريخ الذي يبدأ بمذبحة دير ياسين وينتهي بمذابح صبرا وشاتيلا ٠

ولا يختلف سيناريو المذبحة الجديدة كثيرا ٠٠ ففي حوالي منتصف ليلة الثلاثاء حاصر الجيش الاسرائيلي مستخدما سبع عشرة دبابة ومدرعة مخيم عين الحلوة الذي يسكنه ٢٥ ألفا من الفلسطينيين ٠ وبعد قليل اقتحم الجنود الاسرائيليون المخيم ثم انتشروا في المخيم ونسفوا بالديناميت دون هوادة ١١ مسكنا وأتلفوا عشرة أخرى ٠ وأسفرت العملية عن اصابة العشرات واعتقال العشرات ٠ كانت الانفجارات تدوي داخل المخيم بمعدل انفجار كل خمس دقائق ٠ وأصيب السكان بالهلع وتذكروا ما حدث في صبرا وشاتيلا ٠ ومما يثير الأسى والحزن في هذه المذبحة إن هذا المخيم بالذات كان قد أبيد عن آخره خلال الغزو الاسرائيلي عام ١٩٨٢ ٠٠ ولكن سكانه الفلسطينيين استطاعوا في زمن قياسي اعادة بنائه ٠

إن استمرار القوات الاسرائيلية في هذه العمليات التي تستهدف التصفية الجسدية للشعب الفلسطيني يستدعي من الأمة العربية كلها أن تتصدى لها لكي تكف اسرائيل عن المضي في جرائمها فإن حماية الوجود

المدنى للفلسطينيين الخاضعين للاحتلال الاسرائيلى هى مهمة كل عربى .. وكل انسان حر شريف ومهمة كل المنظمات والهيئات الدولية .

وعلى اسرائيل أن تعلم إن العنف لن يولد الا العنف .. وإنها مهما حاولت فلن تستطيع أن تبيد الشعب الفلسطينى .. فالشعوب لا تموت أبداً .

وسيظل العدوان من جانب والثأر الفلسطينى من جانب آخر حتى يعود الحق الى نصابه فى المستقبل القريب أو البعيد ولن ينال اليهود الأمن فى فلسطين بسبب هذه السياسة التى تولد الذعر لا الأمان .

النضال الفلسطينى داخل فلسطين فقط :

أعلن السيد ياسر عرفات رئيس اللجنة التنفيذية لمنظمة التحرير الفلسطينية فى ١٩٨٥/١١/٨ شجب المنظمة وادانتها لجميع عمليات الارهاب سواء تلك التى تتورط فيها الدول أو التى يرتكبها أفراد أو جماعات ضد الأبرياء والعزل فى أى مكان .

وأكد ياسر عرفات إن المنظمة سوف تتخذ ابتداء من اليوم كافة الاجراءات الرادعة ضد المخالفين ، ودعا عرفات — فى بيان باسم المنظمة أعلنه فى القاهرة — المجتمع الدولى بأن يلزم اسرائيل بوقف جميع الأعمال الإرهابية فى الداخل والخارج .

وأعلن عرفات فى بيانه أن الأحداث تؤكد اقتناع منظمة التحرير الفلسطينية بأن العمليات الارهابية التى تتخذ فى الخارج تسىء الى قضية الشعب الفلسطينى وتشوه كفاحه المشروع فى سبيل الحرية .

ولكن عرفات أكد مجددا تمسك المنظمة بحق الشعب الفلسطينى فى

مقاومة الاحتلال الاسرائيلى لأراضـيه بكل السبل المتاحة بهدف تحقيق الانسحاب من هـذه الأراضى •

وناشد رئيس منظمة التحرير الفلسطينية كافة الشعوب المحبة للسلام فى جميع أنحاء العالم الوقوف الى جانب المنظمة وهى تتخذ هذه الخطوة للاسهام فى تخليص العالم من ظاهرة الارهاب وتحرير الأفراد من الخوف ووقايتهم من الخطر •

وأكد ياسر عرفات أن المقاومة الفلسطينية لن تباشر نشاطها إلا فى الأرض الفلسطينية المحتلة حتى يتم جلاء العدو عنها •

تركيب المجتمع السورى

هناك عوامل خطيرة ساعدت على ما شاهدناه من حركات الانقسام فى سوريا ، ولا تزال هـذه العوامل موجـودة فى سـوريا الحالية وفى لبنان ، ولعلها أسهمت أيضـاً فى الحركة الانفصالية بين سوريا ومصر ، ولدينا بحث خطير كتبه عالم سورى هو الأستاذ محمد المبارك يتبين عناصر المجتمع السورى الحالى والاتجاهات فيه ، وعنه نقتبس بعض المعلومات التى توضـح لنـا هـذه العوامل :

فمن ناحية الجنس يوجد فى سوريا الأجناس الآتية :

١ — العرب : والجنس العربى بسوريا يختلف بعضه عن بعض ، فمن عرب سوريا من وصـل فى الحضـارة والمدنية درجة كبيرة ، ومنهم البدو الرحل بالجزيرة وحلب وجبـل الدروز وغيرهما ، ومنهم جمـاعة يقفون بين البـداوة والحضـارة يرعون الإبل ويمارسون شـيئاً من الزراعـه ٠

٢ — الأكراد : ويكثرون فى مناطق الحدود التركية والعراقية وعددهم حوالى ٣٥٠ ألفاً ، وأكثرهم مسـلمون سنيون ، ولهم ماض ناصـع فى الحركات الوطنية ، ولكن حركة القومية الكردية تغزوهم ٠ كما أن الشيوعية تجـد طريقها لهم ، وبخاصـة أن الأكراد يكوّنون جمهورية كردستان إحدى جمهوريات الاتحاد السوفييتى ، ومنهم خالد بكداش أهم مؤسسى الحزب الشيوعى فى سـوريا ٠

٣ — الجركس والداغستان والشاسان : وهم مهاجرون من قفقاسيا

فى أواخر القرن التاسع عشر الى ما بعد الثورة الشيوعية بالاتحاد السوفييتى ويسكنون جنوب سوريا ، وهم مسلمون سنيون •

٤ — التركمان : ويكثرون فى محافظة اللاذقية ، وهم أقلية تركية أو تركمانية أصبحوا من سوريا نتيجة لتنظيم الحدود بين سوريا وتركيا وهم مسلمون سنيون •

٥ — الأرمن : هاجروا الى سوريا خلال الحرب العالمية الأولى ويكثرون فى الجزيرة وبعض قرى اللاذقية ، ولهم نشاط واسع فى الصناعة والأعمال الحرة ، وهم مسيحيون ؛ أكثرهم يتبع طائفة الأرثوذكس ، والباقى يتبعون المذهب الكاثوليكى •

٦ — السوريان : وقد هاجر السوريان الى سوريا من تركيا إبان عهد الانتداب الفرنسى وعددهم حوالى ٣٠ ألفاً ، وهم مسيحيون •

٧ — الكلدان والآشوريون : وقد هاجروا الى سوريا من العراق عقب الحرب العالمية الأولى ، وعددهم ليس كثيراً (بضعة آلاف) •

ومن **ناحية اللغة** : يلاحظ أن كل جنس من هذه الأجناس يتكلم لغته ، وقد يعرف بجانبها اللغة العربية ، ولكنها أحياناً شبه رطانة ، ولغته الأصلية عنده هى اللغة القومية ، ولبعضهم صحافة خاصة كالأرمن ، وأندية يلتقون بها ، ومدارس خاصة لأبنائهم •

ومن **ناحية الأديان والمذاهب** نجد فى سوريا عدداً كبيرا له أثر عميق فى المجتمع ، وذلك لميل أكثر هذه الجماعات الى الطائفية ، والتوزيع الطائفى حسب إحصائية سنة ١٩٥٦ هو :

١ ـ المسلمون :

السنيون	٣٫٨٧٠٫٠٠٠
العلويون	٤٢٩٫٠٠٠
الإسماعيليون	٤٠٫٠٠٠
الجعفريون وسنتكلم عنهم فيما بعد	١٥٫٠٠٠
الدروز	١٢٥٫٠٠٠

وقد مرّ حديث طويل عن الدروز عند الكلام عن الحاكم بأمر الله .

٢ ـ المسيحيون :

الأرثوذكس	٣٥٠٫٠٠٠
الكاثوليك	١٢٧٫٠٠٠
بروتستانت، كلدان، نسطوريون	٢٩٫٠٠٠

٣ ـ اليهود	٣٢٫٠٠٠
٤ ـ اليزيدية (يقدسون الشيطان)	٣٫٠٠٠

وفيما يلي لمحات عن هذه الأديان والمذاهب .

ـ يدخل في السنيين أكثر العرب والأكراد والجركس والتركمان .

ـ بعض الإسماعيلية الأغاخانية والدروز بعدوا عن الإسلام بعدا شاسعا .

ـ الفرقة المعروفة بالعلويين يكثر بينها الغلو في التشيع وتنتشر الخرافات ، ولكن بدأت أحوالهم العلمية والدينية تتحسن ، نوعا ما . وسنتحدث عنهم بشيء من التفصيل فيما بعد .

— تكثر الشيوعية فى المسيحيين الأرثوذكس لصلة روسيا بهذا المذهب • كما توجد بين قلة من الأكراد والأرمن •••

— يتجه الكاثوليك الى الغرب بعواطفهم ويكرهون الشيوعية •

ومن ناحية **العقائد الفكرية** يتضح لنا ما يأتى :

— يميل أكثر السوريين الى دعم الحركة العربية والاسلامية ، واعتبارها حركة واحدة قائلين بعدم إمكان الفصل بين الفكرتين والاتجاهين •

— يوجد حزب البعث العربى وهو يتجه بكل قواه للجانب العربى ويتناسى الجانب الأسلامى •

— توجد جماعة الإخوان المسلمين وهى تتجه للجانب الإسلامى •

— الحزب القومى السورى ويرمى لعزل سوريا عن العرب وعن المسلمين ، وتكوين قومية خاصة بسوريا ، ومؤسس هذا الحزب « انطون سعادة » •

الجعفرية :

تحدثنا فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة عن مدعى التشيع وادعاءاتهم ، وكيف تقولوا الأكاذيب عن الامام جعفر الصادق رضى الله عنه ، وقد بالغ بعض هؤلاء وقالوا ان الامامة وقفت عند جعفر الصادق السادس فى سلسلة الإمامة ، ولم تتركه الى سواه لأنه لم يمت ، وانما استتر وسيعود ، وينسبون للامام آراء منحرفة هو منها برىء ، وذلك مثل الغيبة والرجعة والتناسخ والحلول وغيرها من الاتجاهات الشاذة الوافدة ، وقد ظهرت بعض هذه الآراء فى أثناء حياة جعفر ، وتبرأ منها الإمام ، ولعن القائلين بها •

العلويون أو النصيرية :

طائفة من غلاء الشيعة يعتقد الكثيرون منهم أن الامام عليا له طبيعة إلهية ، وهم يعرفون بالنصيرية ، نسبة الى محمد بن نصير الكوفي ، وهو أحد متطرفى الشيعة (أواخر القرن الثالث الهجرى) أو الى نصير مولى الإمام على ، وهم يسكنون المنطقة الجبلية ، تسمى باسم « جبال العلويين » ، وقد كونوا دولة خاصة بهم سنة ١٩٢٢ تسمى جبل العلويين وكانت اللاذقية عاصمة هذه الدويلة ، ولكنها سرعان ما اندمجت فى الدولة الأم (سوريا) .

ومع الشطط فى الناحية الدينية ، فقد وجد من العلويين بعض الزعماء السياسيين والعسكريين ، ومن هؤلاء صالح العلى الذى قاد ثورة ضد الغزو الفرنسى سنة ١٩١٩ .

ويذكر الأستاذ محمد عبد الله عنان أن النصيرية طائفة من الباطنية ، وهم يتظاهرون بالاسلام ولكنهم يدعـون أن عـلى بن أبى طالب إله ، وأفكارهم شديدة الاتصال بأفكار الدروز ، ولهم تشريعات لا يقرها الاسلام وبخاصة فيما يتعلق بالمرأة ، والمحرمات فى الزواج (١) .

ويقول عنهم الدكتور فيليب حتى ان النصيرية لهم مذهب لـه طابع السرية ، كهنوتى النظام ، باطنى التعليم ، وهو فى الحقيقة رواسب من ملل سورية وثنية متخلفة بغشاء من التعليم الشيعى المنحرف ، مع بعض مظاهر المسيحية السطحية كاحتفالهم مع النصـارى بعيد الميلاد وعيد القيامة ، واستخدامهم أسماء انفرد بها النصارى مثل يوحنا وهيلانـة ويبلغ عددهم حوالى نصف مليون وأكثرهم من المزارعين (٢) .

والذى أعتقده أن هذه المعتقدات تضعف الآن وتتجه للأفول ، فحب على ابن أبى طالب لا يمكن أن يدفع المحبين الى الاعتقاد بألوهيته ، فإن ذلك كان من اتجاهات فترات الظلام ، وهذه الفترات هى ونتائجها فى الطريق للزوال .

---

(١) الحاكم بأمر الله ص ٣٢٢ .

(٢) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين ﺟ ٢ ص ٢٢٠ – ٢٢١ .

الحروب الصليبية

دوافعها - أدوارها - نتائجها

٤٩١ - ٦٩٢ هـ = ١٠٩٧ - ١٢٩٢ م

هبّت الحروب الصليبية حوالى نهاية القرن الحادى عشر الميلادى ، وظلت مائتى عام تقريبا ، أكلت خلالها ملايين البشر واستنفدت الكثير من جهد الغرب وجهد الشرق ، وسنحاول فى هذه الدراسة تصوير الأحداث فى هذه الحروب تصويرا سريعا وشاملا .

أسباب الحروب الصليبية

اتخذت الحروب الصليبية تسميتها من الصليب دلالة على أن الدين كان أهم أسبابها ، ولكنْ مع حقد الصليب وحماسته فى هذه المعارك ، فقد كانت هناك أسباب أخرى تدْعَم روح الشر الصليبى ، وسنحاول هنا أن نلم بأسباب هذه الحروب سواء فى ذلك الأسباب الدينية وغير الدينية ، ولكنا نسرع فنشير على القارىء أن يطالع الكتاب الجديد الذى أصدره المؤلف مرتبطا بالحروب الصليتية وعنوانه :

الحروب الصليبية : بدؤها مع مطلع الاسلام وامتداداتها حتى الآن

أما الأسباب الأخرى التى دفعت الصليبيين للزحف على الشرق الاسلامى فهى :

١ — الأسباب التاريخية :

يرى الدكتور فيليب (١) أن الحروب الصليبية فى وضعها الصحيح فصل متوسط من فصول تلك القصة الطويلة ، قصة الخلاف بين الشرق والغرب ، مبتدئة بحروب طروادة وفارس فى الأزمنة الغابرة ، ومنتهية بالتوسع الاستعمارى الأوربى فى العصر الحديث ؛ فالحروب الصليبية حلقة من هذه السلسلة ، وقد شنتها أوربا ليس على سوريا وآسيا الصغرى فحسب ، بل على الشرق الأوسط كله .

وهذا الصراع التقليدى القديم الذى ظهر بوضوح فى النزاع بين

---

(١) History of the Arabs pp. 751-752.

الفرس واليونان ، ثم بين الفرس والروم ، لم يكن مرتبطا بأى عامل دينى ، حيث أنه بدأ عندما كان هؤلاء وأولئك وثنيين ، ولكنه كان مرتبطا بالعامل الحضارى ، فبدا صراعا بين حضارتين مختلفتين وعقليتين متباينتين ، وقد ظل هذا الصراع بين الشرق والغرب يهدأ ويثور كالبركان فى هدوئه وثورته ، فلما جاء القرن الحادى عشر اشتد غليان البركان فثار متخذا الصليب فى هذه المرة أداة له ، ومظهرا لغليانه •

٢ — أسباب ترتبط بالديانة المسيحية :

ترعرت المسيحية فى أوربا ، بعد أن وجهها بولس وجهتها الجديدة وأبعدها عن رسالات السماء (١) ، وانتشرت الديانة الجديدة بين كنائس أوربا وجامعاتها ، مع أن الشرق كان المهد الحقيقى لدين المسيح •

وهناك أديان زاحمت المسيحية فى عصور مختلفة ، وذلك مثل اليهودية والبوذية والكونفوشية والاسلام ، ولكن الاسلام كان الدين الوحيد الذى زحف بقوة جارفة على المستعمرات الأوربية المسيحية فى سوريا ومصر وشمالى افريقية وضمها اليه ، ولم يكتف الاسلام بهذا بل اقتحم على أوربا المسيحية أبوابها من الغرب عن طريق الأندلس ، ومن الشرق عن طريق القسطنطينية التى دق المسلمون أبوابها منذ العهد الأموى ، وكان الاسلام فى الحالتين متجها نحو قلب أوربا ، ومتخذا حول البحر المتوسط حركة تشبه ما يسمى فى الحروب الحديثة بحركة الكماشة •

ولا غرو إذن أن تخاف أوربا من الاسلام وتعلن عليه العداء ، على نحو ما تفعل حتى الآن ، وأن تتلمس الوسائل لتقليم أظافره والتغلب عليه •

وقبيل قيام الحروب الصليبية كانت الكماشة التى فرضها الإسلام بدأت تنفك وأعقب المد جزر" ، وبدأت قوى المسلمين تتراجع وتتقهقر ،

---

(١) انظر البحث العلمى الدقيق الذى كتبه المؤلف فى كتابه « المسيحية » ضمن سلسلة « مقارنة الأديان » .

وأميل الى القول بربط أحداث الشرق بالغرب ؛ فسقوط الخلافة الأموية بالأندلس ، وقيام ملوك الطوائف بها ، وما تبع ذلك من هزائم متلاحقة منيِِ بها المسلمون ، وتقهقر مستمر نزل بهم فى الميدان الغربى (الأندلس) ، كل هذا شجع المسيحيين أن يقوموا بضربة من جهة الشرق لمحاولة تدمير قوى المسلمين من الطرفين ، ثم للقضاء على المحاولات التى كانت تظهر من حين لآخر فى القسم الشرقى من العالم الإسلامى ، تلك المحاولات التى كانت ترمى الى مساعدة المسلمين بالأندلس ، ومدّ يد العون إليهم حتى يستردوا قوتهم أمام العدو المسيحى .

والناظر الى تاريخ هذه الحقبة يجـد صراعا فى الشام ، ومحاولات لاحتلال مصر ، كما يرى زحفا مطردا فى الأندلس يعقبه محاولات لاحتلال شمالى إفريقية صادف بعضها نوعا من النجاح .

فلا غرو بعد هذا أن نؤكد أن نشاطا دينيا اتضح فى تاريخ المسيحية فى هذه الأثناء كان يرمى الى القضاء على الاسلام الذى مثل خلال فترة من الزمن اشارة الخطر ضد المسيحية الأوربية .

ومن الأهداف المحددة لليقظة الدينية المسيحية فى أوربا آنذاك ، الاستيلاء على الأماكن المقدسة فى فلسطين ، لتتولى الكنيسـة البابوية بروما حماية هـذه الأماكن المقدسة وادارتها .

ومن الأهداف المحددة كذلك أن الكنيسة الغربية رأت أن تنتهز هذه الفرصة لتحاول بها توحيد الكنيسة المسيحية ، وجعل قيادة المسيحيين جميعا فى يدها ، وقد كانت الكنيسة المسيحية قد انشقت الى كنيسة شرقية وكنيسة غربية عقب مجمع رومـة الذى عقـد فى سـنة ٨٦٩ م ، ومجمع القسطنطينية الذى عقد سنة ٨٧٩ ، إذ قرر الأول انبثاق الروح القدس من الآب والابن ، وقرر الثانى انبثاق الروح القدس عن الآب فقط ، وأصبحت لكل كنيسة عقب ذلك مجامعها الخاصة ، ولم تعد أى منها تخضع لقرارات الكنيسة الأخرى (١) .

(١) اقرأ مقارنة الأديان للمؤلف : الجزء الثانى الخاص بالمسيحية .

ولهذا كله أسرعت الكنيسة الغربية بتلبية نداء البيزنطيين الذين هالهم ما حققه المسلمون ضدهم من انتصارات ، ولذلك يعتبر بعض المفكرين أن الحروب الصليبية كانت امتدادا للحروب بين البيزنطيين والمسلمين فى الشام والأناضول وشمالى إفريقية خلال السنوات والقرون التى سبقت الحروب الصليبية .

ويدخل فى الأسباب الدينية كذلك ما يذكره المؤرخون من أن البابا رأى فى الحروب الصليبية وسيلة يحوّل بها الى الشرق وجوه البارونات والفرسان الذين يعكرون أمن القارة الأوربية بالحروب والمغامرات وأعمال اللصوصية ، ويسيئون الى رجال الإكليروس منكرين عليهم ما يحرصون عليه من إكرام واحترام ، ثم ان انسياق هؤلاء فى الحروب الصليبية استجابة لنداء البابا ، معناه خضوع الملوك والإقطاعيين لسلطان البابوية (١) .

٣ — الأسباب التجارية :

وهناك أسباب تجارية عظيمة الشأن جعلت التجار المشاهير بالساحل الشمالى للبحر المتوسط وبخاصة فى البندقية وجنوا وبيزا يبذلون المال والسلاح للتشجيع على الحروب الصليبية ، وتلك الأسباب هى الرغبة فى امتلاك بعض الموانى على الساحل الشرقى والجنوبى للبحر المتوسط لتكون هذه الموانى مراكز لتجارة الغرب فى الشرق ، ولتتصل تجارة أوربا عن طريق هذه المنافذ بالخطوط التجارية بالشرق ، ويُعْزَى للتجار اليهود التشجيع على هذا الاتجاه ومساعدته ماديا وأدبيا مما يجعل اليهود أسبابا مستترة خلف إثارة الحروب الصليبية (٢) .

---

(١) قدرى قلعجى : صلاح الدين الايوبى ص ١٦ — ١٧ .

(٢) See : «The Jews» by James Hosmer p. 137

See also Modieval Europe by Ephraim Emerton p. 395 f.

٤ — أسباب تتصل بالنظام الاقطاعى بأوربا :

كان النظام الاقطاعي سائدا فى أوربا قبيل الحروب الصليبية فكان لكل أمير اقطاع ، وكانت العلاقة بين أمراء الاقطاع بعضهم والبعض سيئة للغاية ، فالحروب توشك ألا تنقطع ، والتدمير سمة العصر ، وقد تسبب عن ذلك ما يلى :

(أ) رغب أمراء أوربا فى الحصول على أرض جديدة فى الشرق أكثر خصوبة وأمنا من أرض أوربا التى خضبتها الدماء ، واستوطن بها شبح الحـرب •

(ب) كانت قوانين الوراثة الاقطاعية قد خلفت طائفة عظيمة العدد من الشبان المعدمين الذين حجبهم عن الميراث والتملك إخوتهم الأكبر سنا منهم ، فهؤلاء وغيرهم من الأفاقين ذوى الآمال العريضة طمعوا فى الثراء واقتناء الأملاك عن طريق النزوح الى بلاد جديدة (٢) •

(ج) وَجَدَ رقيقُ الأرض تحت النظام الاقطـاعى ، فرصـة فى الحروب الصليبية للتحرر من الرق وفكّ رقابهم ، فانضموا للصليبيين بنشاط وحماسة •

(د) كثرة الحروب بين أمراء الاقطـاع أنتجت فئة من الأبطـال والشجعان الذين احترفوا الحروب ، حتى أصـبحت ضروب الشـجاعة هوايتهم ، وقد دفعهم ذلك الى الرغبة فى اشعال نار الحروب فى أرض جديدة حتى يُظهروا قوتهم ويصبحوا بذلك أبطالا عالميين •

(هـ) تعطلت الزراعة أو ضعفت فى أوربا بسبب استمرار الحروب ، فتسبب عن هذا مجاعات طاحنة فى أوربا ، وقـد دفعت هـذه المجاعات الأوربيين الى التفكير فى الهجرة للشرق حيث الأمن والخصوبة والاستقرار •

(١) Wells : A Short History of the Middle East p. 70.

(و) تسبب عن كثرة الحروب ظهور ألوان من الأوبئة بأوربا نتيجة الجهد والجوع وأجسام الموتى التى قد يتأخر دفنها ، وكان ذلك من أسباب الميل للذهاب للشرق فرارا من هذه الأوبئة .

٥ ــ أسباب تتصل بالجبهة الاسلامية :

شجعت الجبهة الاسلامية المغامرة الأوربية على هذه المجازفة الخطيرة ، وذلك للدواعى الآتية :

(أ) قبيل الحروب الصليبية كان العالم الاسلامى يعانى من الانحلال والضعف ، فدولة السلاجقة قد ذهبت شوكتها وانحلت الى عدة دول بعد أن مات (ملكشاه) سنة ١٠٩٢ ، واقتسم أبناؤه الأربعة محمود وبركياروق وسنجر ومحمد مملكته بعد حروب طويلة استنزفت قوى السلاجقة ، فظهرت سلطنات الفرس ، وكرمان ، والعراق ، والشام مستقلا بعضها عن بعض ، كما أنكر حكام المدن والولايات المعروفون بالأتابكية سيادة حفدة سلجوق .

وكان سلاجقة الشام أكثر تنازعا ، فقد استولى عليها تتش بن ألب أرسلان ، ولكن ابنيه رضوان ودقاق تنازعا السلطة بعد مقتل أبيهما ، وقد اتخذ رضوان (٤٨٨ ــ ٥٠٧) مدينة حلب عاصمة له ، واختار أخوه دقاق (٤٨٨ ــ ٤٩٨هـ) دمشق عاصمة له ، ودارت رحى الحرب بين الأخوين منذ سنة ٤٩٠ هـ (١٠٩٦ م) وشغلت جزءا كبيرا من عهديهما (١) .

(ب) كانت الخلافة الفاطمية تترنح مما نالها من ضعف حوالى ذلك التاريخ ، فقد خلف الاضطراب الذى حدث فى عهد الحاكم بأمر الله كثيرا من البلاء والفوضى لم يصلحه عهد ابنه الظاهر الذى تولى الخلافة

---

(١) ابن الأثير : الكامل (حوادث سنة ٤٩٠) وانظر سديو : تاريخ العرب العام ص ٢٥٥ ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامباور ص ٣٣٣ ــ ٣٣٥ .

وهو صبى ، ومات الظاهر فآلت الخلافة الى ابنه الطفل « المستنصر » ، ووُضع زمام الأمر فى يد أمه ويد الوزراء حتى شب فتسلم مقاليد الأمور ، ولكنْ كان عهده مليئا بالكوارث التى نشأت عن المجاعات والوباء حتى أكل الناس الجيف ، وقد ظل المستنصر فى الخلافة ٥٨ عاما (١٠٣٦ — ١٠٩٤) ، ولما مات قبيل الزحف الصليبى كانت مصر ظاهرة الضعف .

(جـ) كانت بلاد الشام منطقة نزاع بين الفاطميين والسلاجقة منذ وطئتها أقدام السلاجقة فى عام ٤٦٣ هـ (١٠٧٠ م) ، وقد استطاع السلاجقة انتزاع فلسطين من الفاطميين ، ثم استولوا على دمشق واستقر نفوذهم فى الشام فى عهد تتش بن ألب إرسلان ، وبسطوا سيطرتهم على حلب والرها والموصل ، غير أن الفاطميين تمكنوا بفضل أسطولهم القوى من الاستيلاء على جميع مدن الساحل ومنها عسقلان وعكا وصور حتى جبيل شمالا فى عام ٤٨٢ هـ ، كما عادوا الى القدس سنة ٤٨٩ هـ (١٠٩٦ م) وظلوا فيها الى أن سقطت فى أيدى الصليبيين سنة ٤٩٢هـ [1] ومعنى هذا أن استيلاء المصريين على بيت المقدس كان قبل سقوطها فى أيدى الصليبيين بفترة قصيرة ، ولهذا لم يكن تحصينها قويا ولا الدفاع عنها راسخا مما يسَّر سقوطها فى أيدى الصليبيين الغزاة .

وتقول بعض المصادر أن الصليبيين حاولوا الاتصال بالفاطميين فى القاهرة للاتفاق معهم لعل ذلك يُيَسّر حصول الصليبيين على بيت المقدس وكان ردُّ القاهرة حاسما ، هو السخرية من هذه المحاولة التى أرادت استغلال الخلاف المذهبى ، وتقدم المصريون لأخذ القدس للدفاع عنها بدل السلاجقة الذين كانوا قد أفل نجمهم .

وهكذا كانت بلاد الشام مسرحا للمنازعات بين السلاجقة والفاطميين ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ جـ ٨ ص ١٨٩ .

وكان السلاجقة كما أشرنا على مذهب أهل السنة ، والفاطميون على مذهب الشيعة ، وكانت أجزاء الشام التابعة للسلاجقة موضع نزاع بين الأمراء من أولاد تتش كما سبق القول (١) .

(د) وبجانب السلاجقة الذين يسيطرون على الشمال والفاطميين الذين يسيطرون على الجنوب ، كانت البلاد السورية فى الداخل مجزأة الى مقاطعات عليها عدة زعماء من العرب يتمتعون باستقلال محلى ، ولم يكن للشعب فيها صبغة واحدة تتسم بها عناصره المختلفة فهناك الدروز فى جنوبى لبنان والنصيرية فى جبالهم الشمالية ، وجيرانهم الاسماعيلية (الحشاشون فيما بعد) قد انقسموا فرقا ثلاثا تختلف كل واحدة منها عن الأخرى ، وتختلف جميعها عن مذهب أهل السنة ، أما الطوائف النصرانية بالشام فكان الانقسام بينها عظيما على نفس المنوال الذى انقسمت له طوائف المسلمين بهذه المنطقة (٢) .

(هـ) كان سلطان المسلمين بالأندلس يميل الى الأفول ، فقبيل بدء الحروب الصليبية كان عهد ملوك الطوائف (٤٢٢ — ٤٨٤ هـ) سائدا بالأندلس ، وهو عهد — كما وصفناه فى الجزء الرابع من هذه الموسوعة — حافل بالانحلال والهزائم والخيانات ، ولم تجْدِ إسعافات المرابطين والموحدين التى عبرت لانقاذ الأندلس من زحف المسيحيين ، وكل ما استطاعت أن تفعله هذه الاسعافات أن أجلت المصير المؤلم بضع سنوات ، وقد شجع هذا الوضع فرسان أوربا الى الزحف على العالم الاسلامى ، إذ زال خطر المسلمين بأوربا ، فاتجهت كل القوى المسيحية للعدوان على المسلمين فى بلاد الاسلام .

---

(١) انظر سلاجقة ايران والعراق للدكتور عبد النعيم حسنين ص ١٠٥ — ١٠٦ .

(٢) Hitti : History of the Arabs p. 748.

(و) كانت مواكب الحجاج المسيحيين تَفِدُ من أوربا إلى بيت المقدس مكوّنة شبه مظاهرة أو فيلق حربى ، فكان الحجاج عبارة عن فوج كبير من الناس يحمل بعضهم المشاعل ، ويلعب آخرون بالسيوف ، وحولهم الطبول والزمور ، ويحيط بهم حرس مدججون بالسلاح ، وعندما كان السلطان فى يد العرب قبل العهد السلجوقى لم يكن هناك اعتراض على هذه المواكب ، فقد كان التسامح الدينى من أظهر صفات العرب فلما انتقل النفوذ على بيت المقدس الى السلاجقة سنة ١٠٧٠ لم يستطع هؤلاء أن يتسامحوا مع هذه المواكب الى هذا الحد ، وبخاصة أن هذه الجموع مارست فعلا أعمال استفزاز واعتداء ، ويذكر غوستاف لوبون أن رئيس أساقفة ما بانس وأربعة أساقفة قادوا قافلة من سبعة آلاف حاج تشتمل على بارونات وفرسان ، فحاربت هذه القافلة الأعراب والتركمان (١) ، ولهذا السبب منع السلاجقة السلاح والمشاعل والطبول والحرس المدجج بالسلاح ، وأعلنوا أنهم هم المسئولون عن سلامة الحجاج الأوربيين وأمنهم ، وقد أثار هذا التصرف ثائرة الغرب واعتبر تضييقا على الحجاج ، ومقاومة للمشاعر الدينية ، وقضاء على تقاليد أصبحت لدى المسيحيين حقوقا لم يستطيعوا التنازل عنها .

(ز) وقد دفع التوتر رجال الدين بأوربا أن يشجعوا بعض الشجعان والقساة ليصحبوا ركب الحجاج ليدافعوا عنه عند اللزوم ، ووجد رجال الدين فى المجرمين والعصاة طلبتهم ، فأعلنوا أن الحج وحده هو الذى يكفّر عن الكبائر والمنكرات ، وقد نتج عن ذلك أن وفد للأمكنة المقدسة عدد كبير من المجرمين المفطورين على ارتكاب أخطر الجرائم ، وقابل المسلمون هذا التصرف بتشديد الرقابة ، فنتج عن ذلك مزيد من الحدة والتوتر بين الجانبين (٢) .

---

(١) حضارة العرب ص ٣٢٠ .

(٢) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبون ص ٣٢١ .

(ح) مرت على المسيحيين فى مصر فتـرة اضطهاد فى بعض سنى خلافة الحاكم بأمر الله ، وقد استغل الأوربيون هذه الحركة للدعاية ضد الاسلام ، وللعمل لانقاذ المسيحيين والأماكن المقدسة من اضطهاد الحكام المسلمين .

٦ — موقعة ملازكرد (مانزيكرت Manzikert) وما تسبب عنها :

فى سنة ١٠٧١ حدثت موقعة ملازكرد بين المسلمين والبيزنطيين ، وكان ألب أرسلان قائداً لجيش المسلمين ، وكان الامبراطور رومانوس الرابع قائداً للبيزنطيين ، وتعتبر هذه الموقعة من المواقع الحاسمة فى التاريخ ، فقد هزم البيزنطيون هزيمة ساحقة ، فقتل منهم عدد لا يحصى حتى امتلأت الأرض بجثث القتلى كما يقول ابن الأثير (١) ، ووقع الامبراطور فى الأسر ، ويروى ابن العبرى أن ألب أرسلان عندما رأى الامبراطور الأسير وبخه وقال له : ألم أرسل اليك فى المهادنة فأبيت ؟

— فأجاب الامبراطور : دعنى من التوبيخ وافعل ما تشاء .

فقال السلطان : ماذا كنت تفعل لو أسرتنى ؟

فأجاب الامبراطور : القبيح .

قال السلطان : فما تظن أننى أفعل بك ؟

فأجاب الامبراطور : إما أن تقتلنى ، وإما أن تشهر بى فى بلادك ، والأخرى بعيدة وهى العفو وقبول الأموال واصطناعى .

قال ألب أرسلان : ما عزمت على غير هذا (٢) .

أما صدى كارثة ملاز كرد فى القسطنطينية فكان أن أعلن ميخائيل

---

(١) الكامل فى التاريخ : حوادث سنة ٤٦٣ .

(٢) ابن العبرى : تاريخ مختصر الدول : ص ١٨٥ .

السابع امبراطورا (١٠٧١ — ١٠٧٨) ، ولما أطلق سراح رومانوس الرابع ألقى الامبراطور الجديد القبض عليه واعتبره مفرطا فى حقوق البلاد فحكم عليه بأن تسمل عيناه ويقتل .

وفى أواخر عهد ميخائيل السابع شهدت بيزنطة ألوانا من الثورات الداخلية ، مما عرّض البلاد الى اضطراب داخلى بالاضافة الى الهزائم الخارجيـة .

وكلّ هذا جعل الدولة البيزنطية غير قادرة على حماية المسيحية من ضغط المسلمين ، وغير قادرة على حراسة الباب الشرقى لأوربا من الغزو الاسلامى ، وبذلك صار على الغرب الأوربى أن يقوم بدوره فى حماية هذا الباب بدلاً من اعتماده على الامبراطورية البيزنطية .

دعوة البابوية للحروب الصليبية

وفى سنة ١٠٨١ اعتلى الكسيوس كومنين الأول عرش الامبراطورية البيزنطية ، وقد شغل هذا العرش حتى سنة ١١١٨ ، وبذلك يكون هـذا الامبراطور أهم انسان عاصر الفترة الخطيرة التى تشمل مطلع الحروب الصليبية ، وهو يعتبر أول من وضع الاستعدادات السابقة موضع التنفيذ ، فقد أدرك أن لا قبل لجيوشه بمواجهة المسلمين فأرسل استغاثته الى البـابا .

استغاثة بيزنطة بالبابا :

وقد تلقى البابا جريجورى السابع هذه الاستغاثة ، فرأى فيها اعترافا ضمنيا بسلطانه المسيحى العام ، وقد كان جريجورى السابع من أعظم البابوات وأكثرهم نشاطا ، وهو الذى جعل اختيار البابوات يتم بطريق الكرادلة وكان الأباطرة قبل ذلك يعينون البابوات ، وأراد جريجورى أن يتوج انتصاراته بأن يخضع لسلطانه الكنيسة الشرقيـة ، فأعلن أن الكنيسة الغربية ستقود المعركة ضد المسلمين ، انتصارا لبيزنطـة

وللمسيحيين على العموم ، ولكن جريجورى مات قبل أن ينفذ هذا الوعد ، فجاءت استغاثة جديدة مـن الامبراطور اليكسيوس الى البابا الجـديد « أوربان الثانى » ، وسرعان ما تحرك هذا البابا للاستجابة لهذا النداء ، فقد ذهب الى فرنسا وعقد هناك اجتماعا فى كليرمونت فى ٢٦ نوفمبر سنة ١٠٩٥ م وألقى خطابه الشهير الذى أعلن به بدء الحروب الصليبية ، وقد جاء فيه :

Let the truce of God be observed at Home, and let the arms of the Christians be directed to conquering the infidils.

« بأمر الله تتوقف العمليات الحربية بـين المسيحيين فى أوربـا ، ويتجه هؤلاء بأسلحتهم الى هزيمة الكفرة (يقصد المسلمين) » .

وصاح البابا يخاطب الجماهير : لقد كنتم تحاولون من غير جدوى إثارة نيران الحروب والفتن فيما بينكم ، فالآن اذهبوا وأزعجوا البرابرة وخلصوا البلاد المقدسة من أيدى الكفار ، وامتلكوها لأنفسكم فانها كما تقول التوراة تفيض لبنا وعسلا .

وأعلن البابا أن كل من يشترك فى هذه الحروب تغفر له ذنوبه ويدخل فى حماية الكنيسة .

ولعل هذه الخطبة كانت أشد الخطب فى التاريخ وقعا وأبعدها أثرا ، هذا ولم يكن اختيار البابا جنوبى فرنسا مكانا لخطابه من قبيل المصادفة ، إذ كانت تلك البقعة من القارة الأوربية قـد اكتسحتها جموع المسـلمين الزاحفة من أسبانيا ، ولذلك كان سكانها أشد استجابة لدعـوة البابا لمحاربة المسلمين .

وما ان فرغ أوربان الثانى من خطابه حتى تقـدم الألوف مـن سامعيه وحملوا الصلبان رمزا للاستجابة لحامل الصليب الأكبر وبهذا عرفت هذه الحروب بالحروب الصليبية .

ولم يكتف أوربان الثانى بما قاله فى كلير مونت وانما أخذ ينتقل بين المدن والبلدان داعيا للحروب الصليبية ، فعقد مجمعا فى ليموج (ديسمبر ١٠٩٥) لهذا الغرض ، وكرر الدعوة نفسها فى أنجرز ومان وتورز وبواتية وبوردو وتولوز وغيرها (يناير — يونية ١٠٩٦) ، وأخيرا اصطحب البابا معه الأمير ريموند الرابع إلى مجمع نيم (يولية ١٠٩٦) ، مما يثبت أن هذا الأمير قام مع البابا بدور جذرى فى الأعداد للحملة الصليبية الأولى ، وان لم يعين رسميا قائدا لتلك الحملة (١) ، ثم ان ريموند هو الذى نبه البابا الى ضرورة الاعتماد على مساندة قوة بحرية لتنفيذ مشروع الحرب الصليبية ، فأرسل أوربان الثانى بعثة الى جنوة لتدفعها للمشاركة فى المشروع الصليبى الكبير • ولم يلبث تجار جنوة أن استجابوا لدعوة البابا ، فأعدوا اثنتى عشرة سفينة حربية لمساندة الحملة ، فضلا عن ناقلة كبيرة ، وبذلك حققت جنوة لنفسها سبقا كبيرا مكنها من اكتساب حقوق فى بلاد الشام ، وهى حقوق لم يستطيع للبيازنة أو البنادقة الظفر بها إلا بعد جهد طويل •

وأقبل الأمراء وكثير من الناس على المشاركة فى الحركة الجديدة ، ليس فقط من البلدان القريبة ، مثل فرنسا وايطاليا وأسبانيا ، بل أيضا من البلدان البعيدة مثل اسكتلندا والدانمرك وغيرها (٢) •

وكان ضمن الجموع التى استجابت لحمل الصليب عدد وافر من أرباب الخيال البعيدة ، والنفوس المضطربة ، وعشاق المغامرات ، فهؤلاء كانوا على قدم الاستعداد دائما للانضمام الى كل حركة بارزة ، وكذلك المجرمون وأصحاب الخطايا الذين أملوا الغفران بالحج الى الأرض المقدسة التى لمستها قدما المسيح ، ومثلهم من منّوا بالشفاء الاقتصادى

---

(١) Cambribge Mid History vol 5. p. 273.

(٢) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور جـ ١ ص ١٢٥ .

والاجتماعى ، فكان حمل الصليب راحة وتفريجا لهمومهم أكثر منه تضحية (١) .

وقد أناب أوربان عنه فى قيادة المتطوعين أحد الأساقفة واسمه ادهمار Adhamer ليكون للكنيسة السيطرة على الحركة الصليبية ، وحدد أوربان يوم ١٥ أغسطس سنة ١٠٩٦ بدءا لتحرك قوات الصليبيين ، كما حدد القسطنطينية مكانا لالتقاء الجيوش الأوربية الزاحفة الى الشرق ، وبعد أن أتم أوربان هذا التنظيم غادر فرنسا عائدا الى ايطاليا فى أواخر سنة ١٠٩٦ .

ومن الملاحظ أن فرنسا كانت الأرض التى شهدت أول صيحة تعلن الحروب الصليبية ، ولهذا ، ولأن البابا الذى أعلنها ينحدر من أصل فرنسى ، فان الحروب الصليبية تعتبر مشروعا فرنسيا ونشاطا حربيا فرنسيا ، وكانت الانتصارات التى حققها هذا النشاط انتصارات لها الطابع الفرنسى ، فالامارات التى انشئت فى الشرق عقب نجاح هذه الحروب كانت امارات فرنسية اللسان والعادات والمظاهر ، وكما يقول الأوربيون انها كانت امارات فرنسية الحسنات والسيئات ، ولعل فرنسا كانت أقدر من سواها على تغذية هذه الحروب بالقادة والأبطال والأمراء والمحاربين وما تتطلبه هذه الحروب من أعباء .

ويرى Barker (٢) أن انتداب فرنسا على سوريا بعد هزيمة تركيا فى الحرب العظمى الأولى يعد أثرا من آثار الحروب الصليبية .

الجهاد الاسلامى يواجه الحروب الصليبية :

ويجدر بنا أن نذكر أننا سنستعمل هذا التعبير « **الحروب الصليبية** » عندما يشن المسيحيون حربا على المسلمين ، أما الحروب المضادة التى يشنها

---

(١) August Krey : The First crusade pp. 24-25.

(٢) The Legacy of Islam p. 14.

المسلمون ضـد المسـيحيين فسنطلق عليها التعبير العـربى الاسلامى « الجهاد » وعلى هذا فان الحروب الصليبية السبعة التى سنذكرها هنا كانت حملات مسيحية ناجحة أو فاشلة ضد المسلمين ، أما حملات المسلمين المتكررة التى انتهت بالقضاء على الصليبيين فلا تُعد من الحروب الصليبية فى الاصطلاح الذى اتّبعه أكثر الباحثين وجريْنا عليه فى هذه الدراسة ؛ على أن الحملات المسيحية كانت فى الواقع أكثر من سبع حملات ، بل ان حملات الصليبيين على الوطن العربى لم تنقطع تقريبا طيلة هذين القرنين ، ولم ينقطع الجهاد كذلك الا ليهبّ من جديد ، ويبدو أن السرّ فى تمييز الحملات السبع بالذكر يرجع الى ما حصلّت عليه من شهرة ؛ بسبب مـا حققته من نجاح فى الأراضى المقدسة كالحملة الأولى ، أو لخروجها تحت زعامة ملوك الغرب كالحرب الثانية والثالثة والسادسة والسابعة ، أو لاتجاهها اتجاها غير مألوف كالحرب الرابعة التى اتجهت الى القسطنطينية ؛ أو الخامسة التى اتجهت الى مصر ، ومن العجيب أن تسمى الحرب الرابعة حربا صليبية مع أن الصليب كان فيها يحارب الصليب .

أما الجهاد فلم يحفل المسلمون باخضاعه الى عَدَدٍ أيا كان الملك أو الزعيم الذى قاده ، إذ اعتَبر المفكرون المسلمون جميع الملوك والمجاهدين وحدةً متكاملة ، وتناسوا أشخاص هؤلاء ولم يذكروهم الا فى سياق التاريخ ، دون أن يجعلوا كلاً منهم وحدة قائمة بذاتها كما يفعل المؤرخون الغربيون ، وكان ذلك الاتجاه هو أيضا اتجاه الملوك والسلاطين أنفسهم واتجاه الشعب الاسلامى أيضا ، اذ اعتبروا الجهاد سلسلة متصلة الحلقات يحملّ كل من المسلمين عبأه فيها ؛ ويترك ما تبقى منها ليحمله الجيل الذى يليه .

مطلع الزحف الصليبى

بدأت حملات الحروب الصليبية بقوى شعبية هيجها بطرس الناسك وأمثاله من الدعاة المسيحيين الذين أخذوا يطوفون بأوربا ويخطبون الناس ويدعونهم لإنقاذ الأماكن المقدسة من أيدى المسلمين ، وكان بطرس الناسك أشد هؤلاء حماسة ونشاطا ، وهو جندى قديم قد ترهبّ وأصبح مجذوبا شـديد التعصب (١) ، ويقول عنه Wells (٢) انه طراز من الرجال جديد فى أوربا وإن كان يذكرنا بعض الشىء بالأنبياء العبرانيين ، قام هـذا الرجل يبشر بالحروب الصليبية لعامة الناس ، وكان يقص عليهم إن صـدقا وإن كذبا ، قصـة حجه الى بيت المقدس ، ويحـدثهم عن التدمير المنطوى على الاستهانة البالغة الذى أنزله الأتراك السلجوقيون بالقبر المقدس ، ويحدثهم عن ضروب الغصـب والابتزاز الجائر والفظائع الوحشية والقساوات المتعددة التى ينزلونها بالحجاج المسيحيين الوافدين الى الأماكن المقدسـة ، وطوّف هـذا الرجل حافى القدمين وفى ثياب خشنة وممتطياً حماراً وحاملا صليبا ضـخما ، بأنحاء فرنسا وألمانيا وهو يخطب فى كل مكان به جماهير حاشدة ؛ فى كنيسة ، أو شارع ، أو سوق .

وقـد استجاب لبطرس الناسك وأمثاله من الدعاة آلاف الناس وتكوّن من هذه الآلاف خمسة فيالق يطلق عليها فى التاريخ «الحملة الصليبية الشعبية » ، وقد سارت هذه الفيالق متجهة الى القسطنطينية ، وكان من مميزاتها أنها جموع شـعبية تحركها فكرة دينية ، ولكن ليست لهـا قيادة عسكرية تجيد فنون الحرب ، ولا قيادة ادارية مسـموعة الكلمة ، وقـد لقيت هـذه العصابات الزاحفة الى الشرق كل إكرام فى البلدان الأوربية التى كانت تمرّ بهـا فى بدء الأمر ، ولكن لم يكد الفيلقان اللذان

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٠١ .

(٢) A Short History of the Middle East p. 71.

كانا فى المقدمة يصلان الى بلغاريا حتى التقيا بأناس أقل تعصباً فأبوا أن يضيفوهم مجانا ، وساء هذا الرفض الصليبيين ، ولم يحجموا عن اغتصاب ما منعوه ، وعن نهب قرى تلك البلاد وذبح أهلها ، ولم يصبر الأهلون على ذلك ، فأخذوا ينتقمون لأنفسهم ويقتلون فريقاً كبيرا من الصليبيين أو يغرقونه حتى قضوا على الفيلقين (١) ، وجاء فيلق ثالث ابتدأ عمله بمذبحة أعملها فى يهود أرض الراين — ذلك أن الدم المسيحى كان ثائراً ، وكان يريد العدوان على كل من يتبع ديناً آخر وبخاصة اليهود الذين كانوا أول من حاول القضاء على المسيحية وهى فى أول عهدها ، ثم تمزق ذلك الجمع أيضا فى هنغاريا ، واخترق الفيلقان الأخيران أوربا بقيادة بطرس ووصلا الى القسطنطينية ، وكم كانت دهشة الامبراطور أليكسيوس وجزعه بالغين ، ذلك أنهم دأبوا على طول الطريق ينهبون وينتهكون الحرمات ، فحملهم الإمبراطور آخر الأمر عبر البسفور الى أرض السلاجقة بآسيا الصغرى ، وهناك أفناهم السلاجقة عن آخرهم ، ولم يكن لهم أى أثر اللهم إلا تقوية حماسة الأوربيين وسخطهم على المسلمين .

والآن نمشى مع الحروب الصليبية السبعة الشهيرة ، خطوة خطوة ، مع ما تخللها من جهاد قام به المسلمون ، يردون العدوان عن أنفسهم وعن ديارهم :

---

(١) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٢٣ .

الحرب الصليبية الأولى

(١٠٩٧ — ١٠٩٩)

الحروب الحقيقية التي تمثل الزحف الصليبي الأول ، كانت بقيادة الأمراء ، وكان هـذا الزحف يتكون من ثلاثة فيالق كبيرة تضم نحو مائة وخمسين ألفاً يقودهم الأمراء : جودفرى وبوهيموند وريموند ، وسارت هـذه الفيالق تجاه القسطنطينية فوصلتها فى نهاية سنة ١٠٩٦ ومطلع العـام التالى ، وكان الفيلق الذى يقوده جودفرى ومعه أخوه بولدوين أسبق الحملات فى الوصـول الى القسطنطينية ، ولقد تردد هذا القائد من بادىء الأمر فى أن يقسم يمين الولاء لامبراطور القسطنطينية ، لأنه تابع للامبراطورية الغربية وهو فى الوقت نفسه أمير كاثوليكى جـاء على رأس حملة دعا لهـا بابا الكنيسة الكاثوليكية ، فهو لا يستطيع أن يكون تابعاً للامبراطور البيزنطى راعى الكنيسة الأورثوذكسية وكان هذا الموقف من جودفرى سببا فى تأزم العلاقة بينه وبين الامبراطور لدرجة أدّت الى حـدوث نوع من الصـدام المسلح بين القوتين ، أدرك جودفرى بعـده أن لا طاقة له بحرب الامبراطور فقـدم الولاء الذى طـلب منه .

أما الفيلق الثـانى فكان بقيـادة بوهيموند النورماندى ، وسرعان ما قـدّم هـذا القائد ولاءه للامبراطور وأعلن تبعيته له ، وجاء بعـده الفيلق الثالث وافداً من إقليم بروفانس بقيادة ريموند ومعه الأسـقف أدهمار مندوب البابا ، وقـد تردد ريموند طويلا من أن يقسـم يمين الولاء للامبراطور ، وقال أن ولاءه للسيد المسيح فقط ، ولكن وسـاطة مندوب البابا حسّنت العلاقة بين الأمير والامبراطور ، واكتفى الامبراطور بأن يقسم ريموند على احترام حـيـاة الامبراطور وشرفه (١) ، وتعهـد

---

(١) Cambridge mid History vol 5 p. 283.

الجميع أن يردوا أملاك الامبراطورية إليها عقب استردادها من المسلمين ، وباركهم الامبراطور وسلمهم علم القديس بطرس ، وقدم لهم المؤن والذخيرة ، وأمدهم بفرق من جيشه للارشاد والمساعدة .

سير الحملة ونتائجها :

فى مطلع عام ١٠٩٧ عبر الصليبيون مضيق البوسفور كالسيل العرم ، ونزلوا آسيا الصغرى وهى آنذاك إمارة كلج أرسلان ، وأول عمل حربى قاموا به كان حصار نيقية ، وقد سقطت المدينة فى أيديهم فى ١٨ يونيو ١٠٩٧ بعد حصار شهر ، واستردت بيزنطة بذلك ما فقدته فى شمال الأناضول ، وتقدم الصليبيون بعد ذلك حيث دارت معركة حربية عند ضوريليوم الى الجنوب الشرقى من نيقية فى نهاية هذا العام ، وقد انتصر فيها الصليبيون انتصارا حاسما استطاعوا بعده أن يتقدموا فى عدة اتجاهات دون مقاومة تذكر ؛ فاستولوا على جنوب الأناضول وعلى منطقة طوروس .

الأرمن يساعدون الصليبيين :

ثم اتجه بولدوين **الى الرها : وكان سكانها من الأرمن المسيحيين** وقد استنجدوا بالصليبيين وتعاونوا معهم ، وتبنى ملكهم « توروس » بلدوين ليصبح وريثاً له بعد وفاته ، **وهذا سهل لبلدوين أن يستولى على الرها سنة** ١٠٩٨ ، واستولى فليق آخر بقيادة بوهيمند على **أنطاكية** فى الثالث من يونيو سنة ١٠٩٨ بعد حصار استمر تسعة شهور (١) .

بوهيمند يتمرد على الامبراطور :

وفى أثناء هذا الحصار الذى قاسى الصليبيون فيه أهوالا وشدائد

---

(١) ابن الأثير : حوادث سنة ٤٩١ ، وابن خلدون : العبر ج ٥ ص ١٨٤ .

رهيبة ، تحوّل بوهيموند من ولائه للامبراطور الى اتجاهه لخدمة أهدافه الخاصـة ، فقد أبدى فى الحصار ضروبا من الشجاعة جعلت المحاصرين يدركون أهميته لهـذه الأعمال الحربية ، بيد أنه فجـأة أعلن رغبته فى الانسحاب والعودة الى ايطاليا معللاً ذلك بأنه لم يكن يتوقع كل هذا العناء ، ولا يستطيع أن يصبر على رؤية رجاله وفرسانه وخيوله تتساقط صرعى من الجوع أمام أسوار انطاكية ، وقـد هزّ هـذا التهديد جموع الصليبيين فتوسلوا له أن يبقى معهم ، ووعدوه بأن يسلموه الولاية عقب سقوطها ، وسار بوهيموند مزيداً من الخطا فى هـذا الشوط فاتهم القائد البيزنطى الذى كان معهم فى الحصـار بأنه يتآمر مع المسلمين سراً ضد الصليبيين ، وخـلا بذلك الجو لبوهيموند وأسفر العـداء بين الصليبيين وإمبراطورية بيزنطة (١) .

وعقب سقوط أنطاكية استولى بوهيموند على أكثر قطاعاتها واحتل ريموند القطاع الجنوبى الغربى ، ولم يقبل أن يسلمه الى بوهيموند طمعاً فى أن تكون أنطاكية إمارة له ، ولم تنحل هـذه الأزمة إلا عندما بدأ الزحف نحو بيت المقدس ونزعمه ريموند ، وقنع بوهموند بالبقـاء فى أنطاكية ، وأخـذ ريموند يتطلع الى إمارة أوسع فى الأماكن المقدسة (٢) .

والموارنة يساعدون الصليبيين :

وتحركت جموع الصليبيين بعد أنطاكية تجـاه بيت المقـدس وفى الطريق اتصل الصليبيون بالموارنة ، وهم قوم أشداء ، ومقاتلون بواسل ، فاسدى هؤلاء اليهم خدمات جليلة لمعرفتهم تلك المنطقة فكانوا الأدلاء

---

(١) انظر الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور ج ١ ص ١٩٥ — ١٩٦ .

(٢) المرجع السابق ص ٢٢٤ .

لهم (١) ، أما أمراء طرابلس وبيروت فقــد خانوا بلادهم وقدموا للجيش الزاحف المؤن والهدايا لينالوا السلامة لهم ولذويهم (٢) .

القــدس تقاوم ثم تســقط :

وقــد قاومت المدينة المقدسة ــ وقد كانت آنذاك فى أيدى المصريين كما ذكرنا من قبل ــ مقاومة دامت حوالى أربعين يوما ، حققت خلالها ألوانا من الانتصارات على الصليبيين ، حتى أن الصليبيين اعترفوا بأن ضحاياهم خلال فترة الحصار كانوا أكثر من ضحايا المسلمين ، ثم سقطت بيت المقدس فى يد المهاجمين فى ١٥ يوليو سنة ١٠٩٩ .

المجازر والتنكيــل :

بعد سقوط بيت المقدس حــدثت مجزرة أليمة وحشية ، ذُبِح فيها الرجال والنســاء والأطفال من المســلمين واليهود والمسيحيين الذين لم ينضموا للصليبيين ، ويصف غوستاف لوبون (٣) هــذه المجزرة بقــوله : لقــد أفرط قومنا فى سفك الدماء وبخاصة فى هيكل سليمان حيث لجأ كثير من المسلمين والنصارى واليهود ، وكانت جثث القرى تسبح فى محيط من الدماء ، ولم يكتف قومنا الصليبيون الأتقياء بضروب العســف والتدمير والتنكيل التى اتبعوها ، بل عقدوا مؤتمرا أجمعوا فيه على إبادة جميع سكان القدس من المسلمين واليهود وخوارج النصارى الذين كان عددهم ٦٠ ألفــاً ، فأفنوهم عن آخرهم فى ثمانية أيام ولم يستثنوا منهم امرأة ولا طفلا ولا شيخا .

ويقول ابن خلدون (٤) : استباح الفرنجة بيت المقدس وأقاموا فى

---

(١) William of Tyre vol. 2 p. 429.

(٢) Ibid. p. 331.

(٣) حضارة العرب ص ٢٨٧ .

(٤) العبر : جـ ٥ ص ١٨٤ .

المدينة أسبوعا ينهبون ويدمرون وأحصى القتلى بالمساجد فقط من الأئمة والعلماء والعبّاد والزهاد المجاورين فكانوا سبعين ألفاً أو يزيدون •••••

ويقول : Wells (١) حدثت ببيت المقدس مذبحة رهيبة ، وكان دم المقهورين يجرى فى الشوارع ، حتى لقد كان الفرسان يصيبهم رشاش الدم وهم راكبون ، وعندما أرخى الليل سدوله جاء الصليبيون وهم يبكون من فرط الفرح ، وخاضوا الدماء التى كانت تسيل كالخمر فى معصرة العنب ، واتجهوا الى الناووس ورفعوا أيديهم المضرجة بالدماء يصلون لله شكرا •

ويقول الأستاذ نقولا زيادة : والحملة الصليبية الأولى ، والفظائع التى ارتكبتها فى طريقها وفى احتلال القدس ليست مما يشرف ، وقد تظهر لنا اتجاهات الصليبيين من خلال تصرفهم السيىء مع مسيحيى فلسطين أنفسهم ، فقد استولوا على أديرتهم وطردوهم من الكنائس والبيوت ، فتبعثر المسيحيون فى جهات فلسطين وشرق الأردن ، وسار البطريرك الى القاهرة ليعيش فى حماية الفاطميين •

وبجوار القتل قام الصليبيون بعمليات سلب ونهب كثيرة شملت ما بالبيوت من ذهب أو فضة أو متاع أو حيوان كما أخذوا قناديل الذهب من المسجد وكانت مائة وخمسين قنديلا ، وغنموا من المساجد ما لا يقع عليه الإحصاء (٢) •

ولم يسلّم الصليبيون المنتصرون لامبراطور القسطنطينية كل

---

(1) A Short History of the Middle East p. 74.

(٢) الكامل فى التاريخ لابن الأثير جـ ٨ ، ص ١٨٦ •

ما تغلبوا عليه وعدلوا العهد الذى قطعوه على أنفسهم خاصا بآسيا الصغرى فقط ، فسلموه ما اقتحموه من بلاد الأناضول ، واستقلوا بما سوى ذلك فكونوا فى الشرق الامارات الآتية :

١ — إمارة الرها سنة ١٠٩٨ ويحكمها بلدوين .

٢ — إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ ويحكمها بوهيموند .

٣ — مملكة بيت المقدس سنة ١٠٩٩ وقد اختير جودفرى حاكما لها ، ويلاحظ أن حلم ريموند لم يتحقق فلم يقع عليه الاختيار ليكون حاكما لبيت المقدس ، على الرغم مما كان يتمتع به من مزايا ، إذ اتهم ريموند بالإفراط فى التودد لامبراطور بيزنطية ، واختير جودفرى حاكما لبيت المقدس فى يوليو سنة ١٠٩٩ ، وقد رفض أن يتخذ لقب « ملك » وأن يضع تاجاً على رأسه من ذهب حيث حمل السيد المسيح تاجا من الشوك ، واختار أن يلقب « حامى القبر المقدس » (١) ، وعيّن لبيت المقدس بطريرك كاثوليكى ، وسرعان ما توفى جودفرى ، فاختير أخوه بلدوين حاكما لبيت المقدس بلقب « ملك » سنة ١١٠٠ ، ولم ينافسه أحد فى ذلك لأن بوهيموند كان فى هذه الأثناء أسيراً فى يد الملك الغازى كمشتكين التركمانى (٢) .

وقد اعتبر انتصار المسيحيين فى معركة بيت المقدس واستيلاؤهم على الأماكن المقدسة نجاحاً للحروب الصليبية ، إذ أنها حققت أهم أهدافها .

---

(١) Agiles p. 654. نقلا عن تاريخ سوريا للدكتور فيليب حتى ج ٢ ص ٢٢٩ .

(٢) ابن القلانسى ص ١٣٨ .

٤ ـ امارة طرابلس سـنة ١١٠٩ :

لم تتوقف حروب الصليبيين بالشام بعد سقوط بيت المقدس ، فقد عهـد ملك القدس الى ريموند سـنة ١١٠١ أن يفتح طرابلس الشـام لتكون إمارة له وهى تقع بين امارة أنطاكية ومملكة بيت المقدس ، وقـد قاومت المدينة حصـار الصليبيين ثمانى سنوات ولم تسقط إلا سـنة ١١٠٩ ، وكان ريموند قـد توفى سنة ١١٠٥ وهو يحاصر المدينة ، وقـد قاد الحصـار بعده وليم جوردان ، فلما مات هـذا سنة ١١٠٨ قـاد الحصـار برتراند وفى عهده سقطت طرابلس .

ومما يذكر أن الذى حـدث فى بيت المقدس حدث مثله فى طرابلس ، فقـد كانت طرابلس آنذاك خاضعة لبقايا السلاجقة ، فلما أحس سكانها بضعف حكامها عن مواجهة الصليبيين اتصلوا بالأفضـل بن بدر الجمالى بمصر ليضم طرابلس الى سلطانه ، واستجاب الأفضـل وأرسل جيشا كبيرا استولى على طرابلس ، بيد أن الصليبيين شددوا من حصارهم على المدينة ، وسار أسطول مصرى لجب ليقاوم هـذا الحصـار ، ولكن ـ للأسف ـ قاومت الريح هـذا الأسـطول فتأخر وصـوله وسـقطت المدينـة (١) .

وقبل طرابلس كان الصليبيون قـد استطاعوا الاستيلاء على عكا سنة ١١٠٤ ثم صـور سنة ١١٢٤ (٢) .

الصراع حول صـور وتعاون المسلمين :

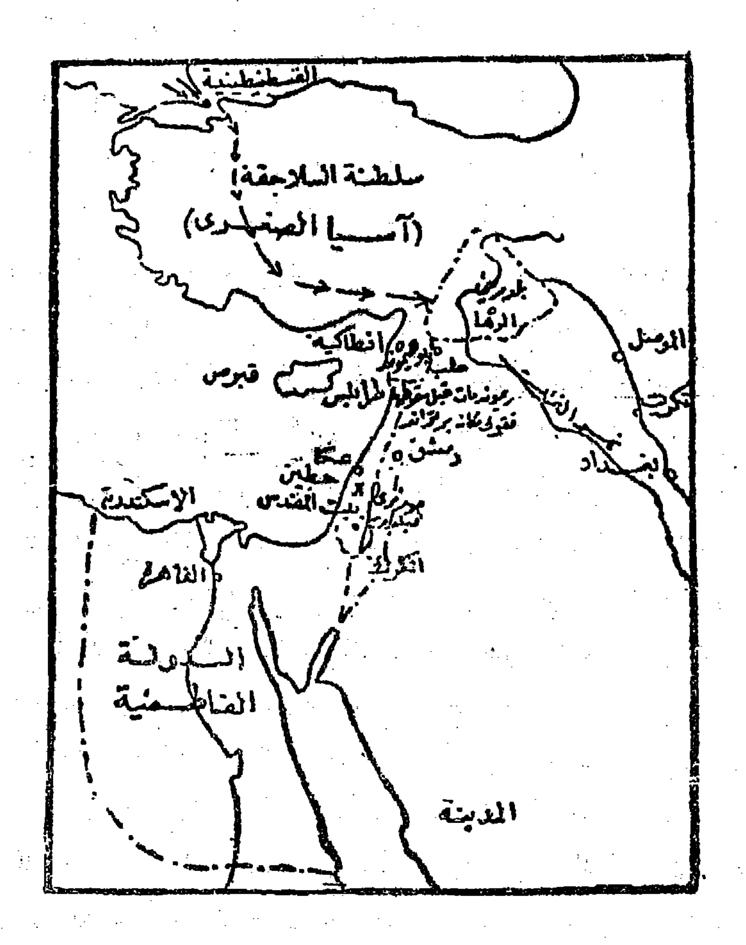
واتجه الصليبيون لحصار صور ، وحول صور ظهر تعاون المسلمين على الرغم من الخلافات التى كانت موجودة ، فقد تعاون طغتكين صاحب دمشق الذى كانت تتبعه صور مع الأفضل بن بدر الجمالى صاحب النفوذ فى مصر

---

(١) ابن الاثير : الكامل فى التاريخ ٨ : ٢٥٩ .

(٢) ابن خلدون : البر جـ ٥ ص ١٩١ ـ ١٩٢ .

آنذاك لرد الصليبيين عن « صور » مما جعلها تصمد وقتا طويلا أمام الزحف الصليبى ، ويعبر طغتكين عن سبب تعاونه مع مصر بقوله : **إنما فعلت ما فعلت لله تعالى وللمسلمين غير ناظر فى مال ولا مملكة**[1] .



وكانت هـذه الفتوح أهم نتائج الحروب الصليبية الأولى وقـد تحققت مع هذه الفتوحات نتائج أخرى ، مثل نشأة الجمعيات العسكرية ، وتأسيس أهل البندقية وجنوة للمراكز التجارية فى موانى سورية ، ونمو

---

(١) ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق ص ١٨١ .

العلاقات التجارية ببقية أجزاء آسـيا ، والاتصال بها لأعمال التبشـير الدينى (١) •

عوامل ضعف صليبى عقب انتصار الصليبيين :

وما إن تأسست هذه الامارات حتى أسرع الأمراء الى التخلص من الجنود الذين جاءوا لهدف الحرب الدينية ، فقد اعتقد الأمراء أن هـذه المهمة قـد انتهت ، وأسرعوا متجهين لتكوين اقطاعات استغلالية لهم ، وهـكذا تركت هـذه الامارات فى أيدى الأمراء الذين اتخذوا الدين وسيلة لتحقيق الأطماع الدنيوية ، وكانت الأرض الزراعية التى قامت بها الإمارات خصـبة للغاية ، ولكن اليد العاملة أصبحت قليلة بعد أن عاد المحاربون ، وقتل السـكان الأصـليون أو هربوا ، ومر الأمراء بفترة يأس عندما وجدوا إمارات لا وسائل لاستغلالها ، فاتخذوا طريقين لجلب العمال المزارعين ، يتمثل أحدهما فى السماح لمن بقوا أحياء من السـكان الأصـليين بالعودة لديارهم وبالتسامح الدينى معهم ، وتشجيعهم على العمل ، أما الطريق الثانى فكان بالتآمر مع بحارة البندقية وجنوة بأن يجلبوا لهم من أوربا وفودا كبيرة باسم الحج ويغروهم برخص التكاليف وتيسير الرحلة وجمالها ، واتخذت مع هؤلاء وسائل كثيرة لإبقائهم أو لإبقاء أكثرهم فى الامارات المفتوحة ، وعلى كل حال فقد أخـذ الطابع الدينى الذى قامت عليه هـذه الامارات ينهار وبرز الطابع الدنيوى ، مما كان له أعظم الأثر فى فشل الحروب الصليبية ، ومن جهـة أخرى فقد أصبح واضـحاً أن هذه الامارات لم تكن بها وسائل كافية للدفاع عن نفسها ضـد أية هجمات يقوم بهـا المسلمون (٢) •

---

(١) Barker : The Legacy of Islam p. 82.

(٢) Emerton : Midiaeval Furape pp. 368-309.

بين الحملة الصليبية الأولى والثانية

(الجهاد بقيادة عماد الدين زنكى)

تغيرات فى المعسكر الصليبى :

جدت ظروف خطيرة فى الفترة التى وقعت بين الحرب الصليبية الأولى والحرب الثانية ، وكان لهذه الظروف أثر كبير فى قيام الحرب الثانية وفى نتائجها ، فمن جهة الجبهة المسيحية ضعفت جبهة الدفاع بعودة رجال الحروب كما ذكرنا آنفاً ، ثم حل الشقاق محل الوفاق بين الجبهات المسيحية ، فامبراطور القسطنطينية لم يكن يتوقع أن الصليبيين قدموا لينشئوا لأنفسهم امارات وممالك مستقلة بسوريا ، وقد بدأ الخلاف عقب إنشاء إمارة أنطاكية سنة ١٠٩٨ فإن الكسيوس أعلن تبعية هذه المنطقة لإمبراطوريته وأيده ريموند فى ذلك ، ولكن بوهيموند تمسك بامارته واستقلالها •

وقد أراد امبراطور القسطنطينية أن يضيق على بوهيموند فلا يدع له فرصة للتوسع فساعد هذا الامبراطور ريموند على أن يفتتح طرابلس لتكوين إمارة له وبذلك يقف فى طريق توسع بوهيموند •

وساءت كذلك العلاقات بين هذه الامارات بعضها والبعض الآخر ، فقد كان بوهيموند وهو أبرز العباقرة الذين قادوا الصليبيين فى حروبهم الأولى يطمع أن تكون أنطاكية عاصمة للمملكة وأن يمتد سلطانه الى بيت المقدس ، ولكن جودفرى قفز لمركز السيادة ببيت المقدس ، فأثار حقد بوهيموند والنورمانديين على العموم ، وزاد من هذا الحقد أن نفوذ مملكة بيت المقدس أخذ يزداد وينتشر فى كل الامارات . حتى فى أنطاكية نفسها •

وهكذا كانت الجبهة المسيحية تضعف بسبب ضعف التعاون بينها ، وبسبب الحقــد بين الامارات الصليبية من جهة وإمبراطور القسطنطينية من جهة أخرى ، وبسبب التنافس بين الإمارات الصليبية بعضها والبعض الآخــر •

وتغيرات فى الجبهة الاســلامية :

وبينما كانت الجبهة المسيحية تضعف ، كانت الجبهة الاسلامية تشتد وتقوى حول الصليبيين فقــد أفاق المسلمون من هول الضربة ، وأحسوا بالنكبة الخطيرة ، فهبوا من سباتهم ينفضون الغبار ويعملون لاســتعادة ما فقدوه ، وقــد رأوا تحالف المسيحيين على اختلاف بلادهم ولغاتهم وأصــولهم فتجمعوا هم كذلك حول قائد واحــد وشعار واحــد سواء فى ذلك العرب والتركمان والأكراد والدروز •••• ولم يشذ منهم إلا بعض إسماعيلية الساحل الذين كانوا يعملون لتكوين دولة خاصة بهم (١) •

جهــود علماء المســلمين :

وقام العلماء بدور كبير لتجميع كلمة المسلمين ، فقــد سارت وفود منهم الى الخليفة العباسى ببغــداد تطلب منه التدخل لصــد المسيحيين ، وعلى الرغم من الصراع بين الخلافة العباسية والخلافة الفاطمية فإن الخليفة العباسى تناسى ذلك الخلاف الداخلى وكلف أمير الموصــل بحمل هــذه الأمانة باسم الخلافة العباسية واسم المسلمين ، وسار العلماء كذلك يندبون السلاطين والرؤساء والمسلمين لإنقاذ الأرض المقدسة فاستجاب الجميع لهم ، وسرعان ما وجــد الصليبيون أنفسهم أمام قوة إسلامية كبيرة لم يحسبوا حسابها عندما اندفعوا نحو الأرض المقدسة •

---

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٣٠١ .

مصر تستعيد الرملة :

وبهذا تعرضت المنطقة المسيحية الى هجوم من الجنوب قامت به مصر فاستولت على الرملة سنة ١١٠٢ بعد موقعة انتصر فيها المسلمون وقتل من الصليبيين مقتلة عظيمة (١) .

وعماد الدين زنكى يسقط امارة الرها :

كما تعرض المسيحيون الى هجوم من الشمال أكثر قوة قامت به دول الأتابك التى تكونت فى آسيا الغربية على أنقاض السلاجقة ، وكان من أهم الدول أتابكية الموصل التى آل حكمها سنة ١١٢٧ لعماد الدين زنكى ، وعلى يد هذا البطل الشهير حل الجزر محل المد فى الحروب الصليبية ، فقد أخذ يغير على إمارة الرها ، ويستعيد البلدة تلو البلدة حتى استطاع أن يُسْقِط الإمارة كلها سنة ١١٤٤ (٢) ، وقد اغتيل عماد الدين زنكى سنة ١١٤٦ فتولى ابنه نور الدين مكانه ، واتخذ حلب عاصمة له (٣) .

غارات مصرية خطيرة على الصليبيين :

وجعلت مصر دورها فى بعث القلق والاضطراب فى جموع الصليبيين فى هذه الفترة ، وقد شهد عهد الصالح طلائع بن رزيك وزير الفاطميين غارات كثيفة على أمكنة متعددة وبلاد كثيرة كان الصليبيون قد احتلوها ، ففى سنة ٥٥٠ هـ (١١٥٥ م) فتك جيش مصر بحامية صور ، واستولى على سفن الصليبيين فى الميناء بما بها من رجال وعتاد ، ودخل الجيش المصرى (صور) عقب ذلك ، فحرّق مؤسسات الصليبيين بها ،

---

(١) ابن الأثير : الكامل فى التاريخ حوادث سنة ٤٩٦ .
(٢) عماد الدين الاصفهانى :تاريخ آل سلجوق ص ١٨٦ .
(٣) المرجع السابق ص ١٩٠ .

وخرّب كل ما بنوه ، وبقى الجيش المصرى فيها ثلاثة أيام ثم خرج قبل أن تأتى نجــدة صليبية لمحاربته .

وفى أثناء عودة الجيش المصرى قابل بعض سفن الحجاج الصليبيين فهاجمها وقتل منهم وأسر .

وفى سنة ٥٥٢ هـ (١١٥٧ م) هاجم الجيش المصرى غزة وعسقلان وحقق انتصارات كبيرة .

وأرسل طلائع بن رزيك حملات بحرية الى بيروت فقتلت وأسرت واستولت على مجموعة من الغنائم .

وهاجم الأسطول المصرى مدينة عــكا ، وأسر من حاميتها أكثر من سبعمائة شخص .

أبو الغــارات :

وهــكذا لم تتوقف هجمات مصر على المرافىء والبلدان المختلفة فى البر والبحر طيلة عهــد الصالح طلائع بن رزيك مما أضفى عليــه لقب (أبو الغارات) وقد كان موقف طلائع شديد الخطورة على الصليبيين فقد جعلهم فى حرب دائمة لا يحسون بالأمن ، ولا ينعمون بالاستقرار .

الحرب الصـــليبية الثانية

بقيادة ملك فرنســا وامبراطور ألمانيــا

(١١٤٧ — ١١٤٩ م)

الدوافع لهـــذه الحـــملة :

كان سقوط الرها فى أيدى المسلمين ، وما تبـع ذلك من إحساس الامارات الغربية بضعفها أمام قوى المسلمين التى أخذت فى النهوض ، سبباً دعا الى الحرب الصليبية الثانية ، فقد أحس الصليبيون أن بقاءهم بالشرق رهن بالعون الذى يصلهم من الغرب ، فتوالت أصوات الاستغاثة الى البـابا والى ملوك الغرب ، واختار البابا أوجانيوس الثالث داعيـة يتحدث باسمه ويثير الرأى العـام الأوربى لمساعدة الصليبيين بالشرق ، وهـــذا الداعية هو القديس برنارد ، وقد استطاع هـذا القديس أن يؤثر على لويس السابع ملك فرنسا ، وكنراد الثانى إمبراطور ألمانيا لقيادة حملة جـديدة لإنقاذ الامارات المسيحية بسوريا •

فشـــل الملكين وتدمير جيوشهما :

وبدأ الزحف فى صــيف سنة ١١٤٧ ، وكان الألمـان أســبق من الفرنسيين فى التحرك تجاه الشرق ، فعبروا نهر الدانوب الى القسطنطينية ، وهناك قابلوا الامبراطور مانويل الذى كان شــديد الحرص على سرعة التخلص منهم من غير تفكير فى الطريق الذى يحقق الهدف الذى جاءوا من أجله ، وما إن وصـل الألمـان الى آسيا الصغرى حتى قابلهم المسلمون فقضــوا على الأغلبية العظمى منهم ، وجـاء الفرنسيون بعـدهم الى القسطنطينية فدفعهم الامبراطور الى آسيا الصغرى كذلك ليلقوا نصيبهم ، وفنى أكثر الجيشين قبل أن يصلا الى سوريا ، أفناهم المسلمون فى آسيا الصـــغرى أو قضى عليهم الجـوع والمرض اللذان فتـكا بهم فتـكاً ذريعاً على طول الطريق •

وبالاضافة الى عدم التعاون بين الامبراطور والمسيحيين الأوربيين ، والى ما أنزله الجوع والمرض بالجيشين ، فانه لم يكن هناك وفاق بين هـذا الجيش وذاك ، ولم تكن الثقة متبادلة بينهم من جانب وبين حكام الامارات اللاتينية بالشرق من جانب آخر .

واتجهت الشراذم التي وصلت سوريا الى دمشق فحاصرتها ، ولكن نور الدين زنكي سار بجيشه تجاه دمشق فأسرعت القوات الغربية تفك الحصـار ، ونجت دمشق من الصليبيين وعـاد الملكان الغربيان يجران أذيال الخيبة بعـد فشلهما فى حصـار دمشق ، وكان ذلك نهاية الحرب الصليبية الثانية ، وليس لها من أثر يذكر إلا الأسلحة التى خلفها الجيشان ليستعملها حكام الولايات فى الدفاع عن أنفسهم (١) .

الجهاد بين الحرب الصـليبية الثانية والثالثة

عصر نور الدين زنكي وصـلاح الدين الأيوبى

استعادة بعض مدن إمارة أنطاكيـة :

أغرت هزيمة الصليبيين فى الحرب الثانية نور الدين زنكى ليواصل هجومه ضـد الامارات الصليبية فى سوريا ، وقد استطاع نور الدين أن يهزم أمير أنطاكية سنة ١١٤٩ وقتل هـذا الأمير فى نفس العام ، فأفسح بذلك المجال لنور الدين ، مما مكنه من إخضـاع عـدة مدن من هـذه الامارة ، كما استطاع نور الدين أن يخضـع باقى مدن الرها التى لم تكن قـد خضعت من قبل ، وحمل أميرها أسيراً سنة ١١٥١ ، وفى سنة ١١٦٤ تقـدم نور الدين خطـوات أخرى داخل أنطاكيـة وقبض على أميرها بوهيموند الثالث وحليفه ريموند الثالث صـاحب طرابلس ، ولم يطلقهما

---

(١) Emerton : Midiaeval Europe pp. 375-376.

إلا بعـد دفع فدية كبيرة ، وقـد أطلق الأول بعد سنة والثانى بعـد تسع سـنين (١) .

هـذا من جهة ، ومن جهة أخرى فإن نور الدين لم يشأ أن يترك دمشق فى يد حاكمها الضعيف معين الدين أنر ، الذى خاف على سلطانه من نور الدين فآثر الخيانة وحالف الصليبيين ، ولكن رجال دمشق الأبرار ثاروا على هـذا الحاكم الخائن ، واتصلوا بنور الدين وسلموه دمشق لتكون حلقة من حلقات الحصـار حول الصليبيين .

وهكذا أحاط نور الدين بالصليبيين من الشمال والشرق فلم تبق لهم وسيلة للتوسع ولتقوية أنفسهم إلا بالاتجاه الى الجنوب حيث تقع مصر ، ذلك القطر الغنى ، ذو التاريخ الطويل المجيد ، والذى آل أمره آنذاك الى يد ضعيفة مرتعشة هى يد خلفاء العهد الأخير من الدولة الفاطمية .

ولكن نور الدين زنكى كان محيطا بالأحـداث مدركاً سير الأمور ، فقدّر من جانبه ضرورة حماية مصر والتدخل فى شئونها لصـد تيارات الصليبيين ، وساعده على ذلك نداء استغاثة جاءه من أحد المتنازعين على الوزارة بالقاهرة ، فأرسل نور الدين أحـد قواده الأبطال وهو شيركوه حيث حقق انتصـارات حربية كبيرة كما ذكرنا من قبل ، وعينه الخليفة الفاطمى الأخير « العاضد » وزيرا له سنة ١١٦٩ ، ولكن العمر لم ينفسح لشير كوه فمـات وتولى مكانه ابن أخيه صـلاح الدين الأيوبى الذى أصـبح وزيرا للعاضـد (٢) .

وهكذا طوق نور الدين الصليبيين ، وهزمهم ، وزعزع حياتهم ولم يحقق الصليبيون أى نصر فى هـذه الفترة إلا ضم عسقلان سنة ١١٥٣ لمملكة بيت المقدس ، وكانت عسـقلان على الساحل تلعب دورا كبيرا فى صـد غارات الإفرنج ، ولكن انشغال نور الدين بالجبهات الشـمالية

---

(١) عماد الدين الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق ص ٢٠٥ — ٢٠٦ .

(٢) ابو شامة : تاريخ الدولتين ج ١ ص ١٥٥ وابو الفدا ج ٣ ص ٤٧ .

والشرقية والجنوبية أتاح الفرصة لضياع عسقلان التى قاومت الإفرنج أكثر من نصف قرن قبل أن تستسلم •

وجرت الأحداث بمصر بعد ذلك تباعاً على نحو ما شرحنا عند الحديث عن الدولة الأيوبية ، فقد وضع صلاح الدين نهاية للخلافة الفاطمية وأعاد مصر الى رحاب السنة ، ثم مات بعد ذلك نور الدين زنكى فابنه اسماعيل ، وسيطر صلاح الدين على مملكة نور الدين خطوة بعد خطوة ، ثم ضم لسلطانه أملاكاً أخرى لم تكن خاضعة لنور الدين •

والمهم هنا أنه بقيام صلاح الدين انتقل مركز النضال ضد الصليبيين من الشمال الى الجنوب ، وأصبحت مصر عاصمة الكفاح ضد الغاصبين ، ولهذا اتجهت أكثر الحملات الصليبية بعد ذلك الى ضرب هذا المركز ، ومحاولة السيطرة عليه كما سنرى •

ولنعد الى صلاح الدين لنقرر أن خطته بدأت بالعمل على توحيد العالم العربى ، والقضاء على كل صراع داخلى فيه ، وقد استجاب له العالم العربى أو أكثره ، فلم يمض وقت طويل حتى أضاف الى مملكته الفسيحة بلاد النوبة والسودان واليمن والحجاز •

مصر تحارب الفرنجة والصليبيين :

ثم اتجه بعد ذلك الى الدخلاء الغاصبين فوجه لهم صراعه وقوته ، وكان هؤلاء يحتلون مركزين خطيرين فى العالم العربى ، أحدهما فى الشمال الإفريقى الذى كان قد احتله النورمانديون والثانى فلسطين التى اغتصبها الصليبيون كما سبق القول ، وقد استطاع صلاح الدين أن يقضى على النورمانديين بسرعة ، فاستولى على طرابلس الغرب وتونس حتى مدينة قابس سنة ٥٦٨ هـ واتجه بعد ذلك الى الجهاد الأكبر ضد الصليبيين •

ولنأخذ الآن فى تتبع مواقف البطولة والشهامة التى وقفها صلاح الدين فضمنت له إجلال الصديق والعدو على مر السنين :

صلاح الدين والصليبيون

يقدم Emerton مقارنة دقيقة بين صلاح الدين ومعاصريه من حكام الامارات اللاتينية ، ويجدر بنا أن نوجز هذه المقارنة فهى اعتراف مؤرخ غربى كبير يضع صلاح الدين فى مكانه العظيم من التاريخ .
يقول Emerton (١) :

« بعد الحرب الصليبية الثانية مرت فترة لم تقم أوربا خلالها بأى نشاط عسكرى ضد المسلمين ، وفى هذه الأثناء حدث أكبر حادث فى تاريخ الحروب الصليبية ، وهو ظهور صلاح الدين الأيوبى ، وبينما كان المعسكر الإسلامى يقوى بهذا البطل كان معسكر المسيحيين ينهار ، فقد كانت الامارات اللاتينية تعيش فى أتعس الظروف التى يخلقها النظام الإقطاعى ، ومال المحتلون الى الدعة يوما بعد يوم ، ونسوا ما تتطلبه حياتهم كغاصبين من مهام ومسئوليات ، أما المعسكر الاسلامى فقد حصل فى هذه الأثناء على مكانة حققها له القائد الجديد الذى كان أعظم شخصية عرفها عصر الحروب الصليبية ليس فقط فى بطولته الحربية بل فى صفاته الشخصية التى تضعه فى القمة بين العظماء والمصلحين ، لقد كان صلاح الدين يعرف أهدافه الحربية ويجيد التخطيط لها ، وكان من رعاة العلوم والمعارف ، وكان مثالا طيبا فى الوفاء بالوعد والشهامة والكرم ، وعلى النقيض من كفاءته ومن صفاته ، كان يتسم معاصروه من حكام الولايات اللاتينية ، الذين كانوا همجا وبرابرة » .

وفى مطلع عهد صلاح الدين كانت المشكلات جمة حوله (تلك التى أشرنا اليها من قبل) ولذلك اتجه صلاح الدين الى مهادنة الصليبيين ،

---

(١) Midiaeval Europe p. 376.

فظهر فى سياسته معهم نوع من المسالمة ، ولكن هـذه السياسة قوبلت من الصليبيين بالتحـدى وبروح متعصـبة ، وفى حالات كثيرة نقضـوا المعاهدات بينهم وبين صلاح الدين ، وكأنما كان صلاح الدين فى انتظار هـذه الأحـداث التى كان يُعِدُّ لهـا العدة منذ أمد طويل ، فانقلبت العلاقة السلمية الى حرب ضروس بدأها الفرنجة ، وقـد كان هجومهم الأول قوياً عاتياً حاولوا خلاله الاستيلاء على بعلبك وغزو دمشق ، وقد حقق الفرنجة فى هـذه الجولة بعض الانتصارات ، فهزموا جند صلاح الدين وأسروا قائده وأسرع صـلاح الدين من مصر لمعاونة جيشـه فى فلسطين ، ولكن ملك بيت المقدس قابله عند الرملة ودارت معركة عنيفة بين الجيشين سنة ١١٧٨ م هزم فيها جيش صـلاح الدين ، وكاد نفسه يقع أسيراً ، وعاد صـلاح الدين الى مصر ليعد نفسه من جـديد ، وانتهز الفرنجة فرصـة الانتصارات ، فراحوا يبنون القلاع والحصون وينظمون المؤن والذخيرة ، والرجال ، كما اشتدت حماستهم واتحد زعماؤهم ، ولكن صـلاح الدين أخـذ يعد للأمر عدته فكون جيشاً كبيراً حشد له المؤن والذخيرة ، كما كوّن جيوشا اضافية عين لهـا كبار القواد والأبطـال ، وسارت هـذه الجيوش تدك الأرض ، وسار جيش صلاح الدين فحاصر قلعة يعقوب فى سهل بانياس ، وهى من أقوى قلاع الفرنجة ، ومنهـا كانت المؤن والذخائر ترسـل الى جيوش الفرنجة ، هنـا وهناك ؛ فكان حصارها معناه إيقاف الإمدادات عن جيوش الفرنجة ، وسار أحد جيوش صلاح الدين بقيادة فروخ شاه ابن أخيه لمقابلة بلدوين الرابع الذى حاول دخول دمشق ، وقـد أنزل فروخ شاه بجيش الفرنجة هزيمة ساحقة ، وسقط بلدوين جريحاً وكان على وشك أن يقع أسيرا ، وأرسل صلاح الدين جيوشا أخرى لتهاجم الفرنجة فى بيروت وصـيدا ، ثم اشتد صلاح الدين

فى حصاره لقلعة يعقوب ، وضيق عليها الخناق حتى أسقطها وأسر من فيها وأمر بهدمها ، وأدرك الفرنجة ألا أمل فى هذا الصراع ، فراحوا ينشدون الهدنة من جديد ، وقد وافق صلاح الدين على مهادنة بعضهم ، وظل فى صراع مع البعض الآخر ليفرق بين جموع الفرنجة من جهة ، وليردع الذين خانوا الهدنة السابقة من جهة أخرى .

ومما دفعه الى قبول الهدنة مع بعض الفرنجة ، أن أحداثاً جدت بالعالم العربى آنذاك ، وكان لابد أن يتفرغ لها صلاح الدين ، وقد أشرنا الى هذه الأحداث من قبل ، ومن أهمها أن يضم الموصل وحلب بعد وفاة الملك الصالح اسماعيل بن نور الدين ، ولما انتهى صلاح الدين من تحقيق أهدافه فى العالم العربى عاد من جديد الى النضال مع الفرنجة ، وساعده على ذلك أن رجلند أمير الكرك الصليبى نقض المعاهدة التى كانت بين إمارته وبين صلاح الدين ، والعجيب أن يحافظ الجانب القوى على شروط الهدنة ، ولا يحافظ عليها الجانب الضعيف ، فقد قام الصليبيون ببعض الأعمال الطائشة وبخاصة رجلند هذا ، إذ جرد أسطولا يعبث بشواطىء الحجاز ويهاجم الحجاج المسلمين ، كما دأب على مهاجمة القوافل وسلب متاعها وأسر أفرادها ، وحدث فى إحدى هذه الغارات أن أسر هذا الأمير أخت صلاح الدين وكانت مسافرة فى إحدى القوافل ، وقد كان ذلك بمثابة الشرارة التى أضرمت النار وأدت الى موقعة حطين الشهيرة .

موقعة حطين :

تعتبر موقعة حطين من أشهر المعارك فى تاريخ العالم ، وقد وقعت فى الثالث والرابع من يوليو سنة ١١٨٧ م وحطين سهل جبلى بالقرب من بحيرة طبرية المجاورة لبيت المقدس ، وكان عسكر الإفرنج يتكون من عشرين ألفاً ، بقيادة ملك المقدس غى ده لوسينيان ، ورجلند (أرناط) أمير قلعة الكرك وقد قضى المسلمون على هذا الجيش كله ، فسقط بعض

رجاله قتلى ووقع الباقون فى الأسر ، وكان ملك بيت المقدس وأمير قلعة الكرك بين الأسرى .

وتتحدث المصادر العربية عن موقعة حطين فتصور بأسلوب طلى مواقف البطولة التى وقفها صلاح الدين والمسلمون فى هذه المعركة ، وفيما يلى مقتطفات من هذه المصادر .

— فى يوم السبت ٢٥ من ربيع الآخر سنة ٥٨٣ هـ — ٤ من يوليه سنة ١١٨٧ م ، التقى الناصر صلاح الدين بجيوش الصليبيين غربى بحيرة طبرية فى موضع يعرف باسم اللوبيا ، وحال بجيشه دون وصول الصليبيين الى ماء بحيرة طبرية ، وطاف صلاح الدين على جيوش الاسلام ، يحرضهم على القتال ، وكلما توجه فريق من الصليبيين نحو البحيرة كان مصيره القتل أو الأسر .

— ورنت القسى وغنت الأوتار ، وبرزت السيوف فى الملأ عارية ، واشتعلت الحرب ، فرَجَا الفرنج فرجاً ، وهيهات أن ينالوا مخرجاً ، فكلما خرجوا جرحوا ، وبرح بهم الحرب فما برحوا ، وكلما ساروا وشُدّوا أسِروا وشُدّوا فعادت أسودهم قنافذ ، وضايقتهم السهام فوسعت فيهم الخرق النافذ .

— ولما اشتد القتال والفناء بصفوف الصليبيين ، لجأ من استطاع منهم الفرار الى جبل حطين ، وحطين قرية عندها قبر النبى شعيب عليه السلام .

— آوى هؤلاء الى جبل حطين رجاء أن يعصمهم من طوفان الدمار ، فأحاطت بحطين بوارق البوار ، ورشفتهم الظبا ، وفرشتهم على الربا ، ورشقتهم المنايا ، وقرشتهم البلايا (١) .

---

(١) ابن جبير : الرحلة ، وابن شداد .

— ويصف الأفضل علي بن الناصر صلاح الدين موقعة حطين فيقول :

كنت الى جانب أبى فى ذلك المصاف ، وهو أول مصاف شاهدته ، فلما صار ملك الفرنج على التل فى تلك الجماعة ، حملوا حملة منكرة على من بإزائهم من المسلمين حتى ألحقوهم بوالدى ، فنظرت اليه وقد علته كآبة ، واربدّ لونه ، وأمسك بلحيته وتقدم وهو يصيح : كذب الشيطان فعاد المسلمون على الفرنج ، فرجعوا ، فصعدوا على التل ، فلما رأيت الفرنج قد عادوا ، والمسلمون يتبعونهم ، صحت من فرحى : هزمناهم هزمناهم : فعاد الفرنج فحملوا حملة ثانية مثل الأولى ، حتى ألحقوا المسلمين بوالدى ، وفعل هو مثل ما فعل أولا ، وعطف المسلمون عليهم فألحقوهم بالتل فصحت أنا : هزمناهم هزمناهم ، فالتفت الى والدى فقال : اسكت ، ما نهزمهم حتى تسقط تلك الخيمة — أى خيمة الملك — فهو يقول ذلك واذا الخيمة قد سقطت ، فنزل السلطان وسجد شكراً لله تعالى ، وبكى من شدة فرحه » •

— وقد حدث أن استسلم من نجا من القتل من الصليبيين ونزلوا عن دوابهم وجلسوا على الأرض ، فصعد المسلمون اليهم ، واستولوا على خيمة الملك ومن بها ، وأسروا الجنود الأحياء عن بكرة ابيهم •

— فمن شاهد القتلى فى ذلك اليوم ، قال ما هناك أسير ، ومن عاين الأسرى قال ما هناك قتيل ••• وتمت هذه النصرة يوم السبت ، وضربت ذلة أهل السبت على الأحد » •

— استعرض الناصر صلاح الدين بعد ذلك كبار الأسرى بعد أن صلى الله تعالى صلاة الشكر على نعمة النصر ، وأجلس ملك القدس الصليبى بجانبه وأذن له بشربة ماء مثلوج ، وأجلس ارناط =

ارنولد = رينالد أمير الكرك بجانب الملك ، وهو ينوى تنفيذ نذره فيه لمساءاته السابقة وشدة عناده فلم يكن فى الفرنج أشد عداوة منه للمسلمين .

ولما ناول الملك كأس الماء الى رجلند ، قال له صلاح الدين : لم آذن لك فى سقيه الماء (حتى لا يوجب ذلك أماناً له) .

وأخذ الناصر يذكّر ارنولد بجرائمه : ويسأله كم تحلف وتنكث ؟ ثم أمر بنقل الأسرى الى موضع عينه لهم . واستحضر أرناط (ارنولد) وقال له : « هأنذا أنتصر لمحمد صلى الله عليه وسلم » فقد كان أرنولد عندما غدر بالقافلة القادمة من مصر الى الشام قال لها : قولوا لمحمد يخلصكم ..

وعرض صلاح الدين الاسلام على أرنولد فأبى ، فاستل التمنجاه (خنجر مقوس يشبه السيف القصير) من وسطه وضربه بها فحل كتفه وأجهز عليه من كان عنده من الخدم . وقال الناصر : كنت نذرت دفعتين أن أقتله إن ظفرت به ، إحداهما لما أراد المسير الى مكة والمدينة ، والثانية لما أخذ القافلة غدراً (١) .

ويعلق Emerton (٢) على هذه الموقعة بقوله : إنها وضعت سلطة الحياة والموت فى يد صلاح الدين ، ولكنه استعمل هذه السلطة فى أضيق الحدود . وظهر الفرق جلياً بين معاملة صلاح الدين للفرنجة ومعاملة الفرنجة للمسلمين التى حدثت قبل ذلك بثمان وثمانين سنة ؛ والموقف الصارم الوحيد الذى وقفه صلاح الدين كان مع أرنولد الذى يصفه المؤرخون بأنه كان مغامراً أهوج ، حتى لقد أنزل قواه مرة على أرض الحجاز المقدسة ، وشاع أنه ينوى نقل جثمان الرسول محمد

---

(١) مقتطفات من الفتح القسى فى الفتح القدسى لعماد الدين الأصفهانى ومن مفرج الكروب لابن واصل ومن الكامل لابن الأثير .

(٢) Midiaeval Europe p. 377.

(ﷺ) الى الكرك ، وأن يفرض رسوماً فادحة على حجاج المسلمين ، ولم يصده عن هذا إلا فرقة مصرية نُقِلَتْ الى هناك على جناح السرعة فى أسطول جُهِّزَ بعجلة ؛ ولهذا ولسواه أقسم صلاح الدين أن ينحره بيده ، وقد حان آنذاك الوقت للبر بالقسم ، وقد حاول أرنولد أن ينال النجاة فشرب الماء فى خيمة صلاح الدين معتقداً أن التقليد العربى يؤمِّن مَن أكل طعام المضيف أو شرب ماءه ، ولكن صلاح الدين أجاب بأن هذا لا يؤمِّنه لأن الماء طُلِب ولم يقدَّم ، وهوى صلاح الدين بالسيف على عنق هذا الطاغية ، وقد ارتعد ملك بيت القدس آنذاك ، ولكن صلاح الدين رد الأمان الى نفس الملك بقوله : إن الملك لا يقتل الملك (١) .

بعد موقعة حطين :

كانت موقعة حطين المعركة الحقيقية التى دمرت قوى الصليبيين ، وتركت أجسامهم دامية وعقولهم خاوية ، وكانت نتائجها بعيدة المدى ، فقد سقط فيها أكثر الأمراء والنبلاء والقادة ما بين قتيل وأسير ، حتى أصبحت جيوشهم لا تكاد تجد من يقودها أو من يدبر أمرها ، كما أن من مآثر هذه المعركة أن اسم صلاح الدين أصبح شديد الرهبة ، وأصبح يحمل معنى الموت الزؤام للصليبيين ، فلم يعد سهلا على جيوشهم أن تقابله ، ولم يعد عيباً أن تستسلم الجيوش اليه ، وقد انتهز صلاح الدين هذه الفرصة فراح يجنى ثمار جهاده الناجح فى موقعة حطين .

اتجه صلاح الدين الى حصن طبرية فاستسلم اليه ، وسار الى عكا فاحتلها وأقام بها قليلا ، ومنها أرسل الجحافل فاستولت على

---

(١) أبو شامة : الروضتين جـ ٢ ص ٧٥ وما بعدها — وبهاء الدين ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ٦٠ — ٦٥ .

الناصرية وقيسارية وحيفا ، ثم اتجه صلاح الدين الى صيدا فاستولى عليها ، وواصل سيره الى بيروت فاستسلمت له بعد حصار قصير ، وهكذا سقطت كل المدن الكبرى وكل القلاع فى يد صلاح الدين (١) ، فاتجه الى بيت المقدس ليتوج بفتحه انتصاراته •

تحرير بيت المقدس :

حاول صلاح الدين أن يدخل المدينة المقدسة صلحا لما لها من مكانة روحية فى نفوس المسلمين وحرصا على أن تسلم من دمار الحرب لو هبت بها الحرب ، ولكن القدس كانت قد أصبحت أقوى حصون الفرنجة ، إذ هرب اليها كل من نجا من المعارك السابقة ، أو أفلت من حصار ، أو خرج من المدن والقلاع التى استسلمت أو فتحت عنوة ، ثم إن أمير الرملة (باليان دى ايبالين) كان أسيراً فى يد صلاح الدين منذ سقوط الرملة ، وكانت أسرته فى القدس ، فاستأذن باليان أن يذهب للقدس لاحضار أسرته ، وأقسم أن يبر بوعده وألا تطول بالقدس إقامته ، ولما وصل باليان استقبله جند الفرنجة وأحاطوا به ، فقد كان باليان طلبتهم وكان القائد الذى ينشدونه ليقودهم فى الدفاع عن العاصمة المقدسة ، وأغراه الفرنجة بحنث عهده مع صلاح الدين فاستجاب لهم ، واستكملت المدينة به عدتها للصراع •

وأحاط صلاح الدين بالمدينة واتخذ جبل الزيتون مركزاً لجيوشه وهناك نصب المجانيق وأخذ يلقى على أسوار المدينة وابلا من الحجارة ، ففر المدافعون واحتموا بالأسوار الضخمة ، وبذلك تقدم المسلمون من الأسوار وأخذوا ينقبونها تحت وابل من السهام المتبادلة بين المهاجمين والمدافعين ، وقد اتضح للفرنجة أن النصر سيحالف العرب كما حالفهم

---

(١) ابو شامة : الروضتين ج ٢ ص ٧٥ .

من قبل ، وييئســوا من تحقيق أي انتصار فى ضــوء ما رأوه من استماتة العرب والمسلمين ، وبهذا مــال هؤلاء للصــلح وطلبوه ، واتفق الطرفان على أن يخرج الفرنجة سالمين من المدينة فى مدى أربعين يوماً ، وأن يدفع الرجل منهم عشرة دنانير والمرأة خمســة ، والصــبى دينارين ، ووفى المسلمون بهــذا الوعد متناسين الدمــاء الغزيرة والأرواح الكثيرة التى أزهقها الفرنجة يوم انتصارهم فى بيت المقدس منذ حوالى تسعين عاما ، وكان ضمن من خرجوا طبقا لهذه الشروط البطريرك الأكبر يحمل أموال البِيَع وذخائر المساجد التى كان الصليبيون قــد غنموها فى فتوحهم ، وقال بعض المسلمين لصــلاح الدين : إن هــذا البطريرك يقوى بهذا المال على حرب المسلمين ، فأجاب صلاح الدين : الاسلام لا يعرف الغدر ، لقد



تقلص ملك الصليبيين في عهد صلاح الدين

أمنئاه وعلينا الوفاء • وخرج الرجل بهذا الثراء ويروى أن مجموعة من النبيلات والأميرات قلن لصلاح الدين وهن يغادرن بيت المقدس : « أيها السلطان ، لقد مننت علينا بالحياة ، ولكن كيف نعيش وأزواجنا وأولادنا فى أسرك ؟ واذا كنا ندع هذه البلاد الى الأبد فمن سيكون معنا من الرجال للحماية والسعى للمعاش ؟ أيها السلطان هب لنا أزواجنا وأولادنا فإنك إن لم تفعل أسلمتنا للعار وللجوع » فتأثر صلاح الدين بذلك ، وكأنما أحس أن من واجبه أن يحمى هذه الأعراض من قسوة الطغاة ، فوهب لهن رجالهن وأضاف بذلك جديداً على شهامته وعلو نفسه •

ويقرر Stanley Lane Poole (١) أن كثيرين من الفرنجة الذين سقطت قلاعهم وبلادهم راحوا يطرقون أبواب المدن التى كانت لا تزال فى أيدى الفرنجة ، ولكن هذه المدن أقفلت أبوابها فى وجوههم ، وقد عبر بعضهم البحر الى أوربا وكثيرون منهم اندمجوا فى غمار الحياة فى ظل الاسلام فوجدوا رعاية طيبة وترحيباً كريماً ، أما المسيحيون العرب فقد عادوا فى ظل صلاح الدين للعيش الهنىء الذى ضمنه لهم الاسلام فيما ضمن من حقوق لغير المسلمين فى المجتمع الاسلامى •

وعاد بيت المقدس الى أحضان الاسلام ، ودوى صوت المؤذن فى المسجد الأقصى ، وسكت ناقوس المسيحيين ، وأنزل رجال صلاح الدين الصليب الذهبى من فوق قبة الصخرة •

صلاح الدين والصليبيون فى رمضان :

ومما يذكر أنه عندما حل رمضان سنة ٥٨٤ هـ كان صلاح الدين

---

(١) Egyut in the Middle Ages.

الأيوبى قـد أحرز الانتصارات الكثيرة التى أشرنا اليها واستخلص من الصليبيين معظم البلاد التى كانوا قد استولوا عليها ، فلما دخل رمضان أشار رجال صلاح الدين عليه أن يرتاح فى شهر الصوم ، ولكنه تخوف من انقضـاء الأجل قائلاً :

« إن العمر قصير ، والأجل غير مأمون وإبقاء أعداء الإسلام فى أرض المسلمين لحظة مع القدرة على طردهم منكر لا أرتكبه » وواصل زحفه حتى استولى على مزيد من الأرض حول بيت المقدس فى منتصف رمضـان .

الحرب الصليبية الثالثة

حرب الملوك الكبار

(١١٨٩ — ١١٩٢)

بسقوط بيت المقدس عادت الأحوال الى ما كانت عليه قبل الحروب الصليبية ، فإن بيت المقدس كان الهدف الرئيسى الذى سعى الغرب للسيطرة عليه ، وقد عاد بيت المقدس للمسلمين فلتبدأ المعركة من جديد •

ومع التشابه فى الهدف بين الحرب الصليبية الأولى والثالثة فإن هناك خلافاً واضحاً بين الحربين فى عدة نواح أخرى نذكرها فيما يلى :

١ — كان البابا هو رائد الحرب الصليبية الأولى ولكن الحرب الثالثة كانت منبعثة عن العلمانيين ورجال السياسة •

٢ — تقابلت فى الحرب الأولى جيوش متحدة من الغرب مع قوى متخاذلة متفككة فى الشرق ، أما فى الحرب الثالثة فقد كان الأمر بالعكس •

٣ — كان الدين من أهم الدوافع التى بعثت بالغربيين الى الحرب الأولى ، أما فى الحرب الثالثة فقد حمل بعض الغربيين السلاح واشتركوا فيها هرباً من الضريبة التى فرضت على كلّ من لم يأخذ فيها بنصيب •

ضرائب باسم الحروب الصليبية :

فابتداء من الحملة الصليبية الثانية فرض لويس السابع ضريبة بمقدار العشر على جميع المنقولات ، يدفعها من لم يسهم فى الحروب الصليبية ، وفرض فيليب أوغسطس وريتشارد قلب الأسد ضريبة عشور

على رجال الدين والعلمانيين جميعاً للمساعدة فى الحروب الصليبية ، ولذلك سميت هذه الضريبة « عشور صلاح الدين » (١) .

واتجهت الكنيسة كذلك لجمع ضرائب باسم الحروب الصليبية ، ففى أواخر القرن الثانى عشر أعلنت البابوية أنه يجوز لمن لا يقوى على المشاركة بنفسه فى الحروب الصليبية أن يتبرع بمبلغ من المال يسهم به فى سير هذه الحروب ، والمتبرع بذلك تغفر ذنوبه كالذى شارك بنفسه فى الحروب ، وكانت البابوية تمنح لدافع المال صكاً بذلك ، وقد تطورت هذه الصكوك فأصبحت « صكوك الغفران » التى ظلت البابوية تعتمد عليها كمورد هام من مواردها المالية ، بعد فشل الحروب الصليبية (٢) .

وقد تولى قيادة الحرب الثالثة ملوك أوربا الكبار وهم : فردريك بربروسا امبراطور ألمانيا ، وريتشارد قلب الأسد ملك انجلترا ، وفيليب أغسطس ملك فرنسا ، وكان فردريك أكثرهم نشاطا وحماسة ، وقد أخذ طريق البر ، فغرق وهو يعبر نهرا بأرمينيا بالقرب من الرها ، وانتهز جيشه هذه الفرصة فعاد من حيث جاء ، ولم يتبع ابنه الى المعارك الا عدد ضئيل ليس له غناء . أما الجيشان الانجليزى والفرنسى فاتخذا من أوربا طريق البحر ، وتقابلا فى صقلية حيث أمضيا الشتاء ، وفى خلال هذا الاجتماع دب الشقاق بين القيادتين ، فأبحر كل منهما وحده ، واتجه ريتشارد الى قبرص حيث استولى عليها فى طريقه الى فلسطين ، واتجه فيليب مباشرة إلى فلسطين حيث حاصر عكا بمساعدة من تبقى من جنود فردريك ، وانضم الى الحصار اللاتين المقيمون فى سوريا بقيادة الملك « غى » مع أنه كان قد أقسم لصلاح الدين ألا يعود الى شهر السلاح فى وجهه ،

---

(١) Cambridge Midiaeval, History Vol. 5. p. 324.

(٢) Ibid 323. وانظر كتاب « المسيحية » من سلسلة مقارنة الاديان للمؤلف .

صراع حول عكا وسقوطها :

واتجه صلاح الدين الى المعركة ، وظهر أن كفته سترجح ، فاستنجد الصليبيون بريتشارد فهرع اليهم ، وشهدت معركة عكا أقوى هجوم من الصليبيين وأقوى دفاع من البطل صلاح الدين ، وأظهر المسلمون ألوانا من التضحيات والبطولة ، كما أظهر الصليبيون صورا من النجاسة ، إذ عدّ الملوك الكبار هزيمتهم ضربة تهدد أوربا بالفناء ، وقد رجحت كفة الصليبيين بسبب بحريتهم القوية وسيطرتهم على المرفأ ، مما أدى الى استسلام المدينة مقابل شروط أهمها ألا يتعرض الصليبيون لقوة الدفاع بسوء ، مقابل فدية باهظة ، ولما توانى المسلمون فى تقديم الفدية فتك النصارى بأسراهم (١) ، فدل هذا التصرف على أن أسلوب أوربا هو هو لا يتغير فى كل زمان ومكان .

ولم يكن سقوط عكا كافيا لتثبيت أقدام النصارى بفلسطين ، وظهر أنه ليس فى مقدورهم الحصول على فتوحات أخرى ، ومل ريتشارد الحرب ، وخاف على ملكه البعيد ، فجرت مراسلات ومشاورات بين الطرفين أوردها ابن شداد ، ونقتبس منه أهم ما جاء بهذه المراسلات (٢) :

مراسلات :

كتب ريتشارد الى صلاح الدين يقول : ان المسلمين والفرنج قد هلكوا وخربت ديارهم ، وتلفت الأموال والأرواح ؟ وليس هناك حديث سوى القدس والصليب ، والقدس متعبّدنا ما ننزل عنه ، والصليب خشبة عندكم لا مقدار له ، وهو عندنا عظيم ، فيمنّ به السلطان علينا ونستريح من هذا العناء .

فأجاب صلاح الدين : القدس لنا كما هو لكم ، وهو عندنا أعظم

(١) ابن شداد : سيرة صلاح الدين ص ١٦٤ .
(٢) سيرة صلاح الدين .

مما هو عندكم ، انه مسرى نبينا ومجتمع الملائكة ، فلا يتصور أن ننزل عنه ، وأما البلاد فهى لنا واستيلاؤكم كان طارئا عليها لضعف المسلمين ، وأما الصليب فهلاكه عندنا قربة عظيمة فلا يجوز أن نفرط فيه الا لمصلحة أوفى منه ٠

صلح الرملة :

وقد ظلت المراسلات والمشاورات مدة طويلة وأنتهت بعقد صلح الرملة فى الثانى من تشرين الثانى سنة ١١٩٧ تترك للنصارى فيه قطعة ضيقة من الساحل بجوار عكا تمتد من صور حتى حيفا ، وتسمح لحجاجهم بزيارة الأماكن المقدسة عزلا من السلاح ، واحتفظ صلاح الدين بفتوحاته فى اللد والرملة وعسقلان كما احتفظ بداخل البلاد وانتهت بذلك الحرب الثالثة ٠

ويذكر Emerton (١) أن السبب فى فشل الحرب الصليبية الثالثة أن الملوك الثلاثة لم يحملوا السلاح كرجال يدافعون عن الدين وانما كملوك يعملون لأمجادهم الخاصة ، أما ريتشارد الذى يعد أحد أبطال الحروب الصليبية فانه لا يمكن أن يحمل هذا اللقب الا فى حدود تفكير العصور الوسطى ، فلقد كان الرجل من البرابرة الذين لا يحترمون القوانين ولا يتخلقون بسجايا رفيعة ، ولذلك فإن ريتشارد إن صلح كقائد عسكرى لا يصلح قط حاكما لأمة أو مديرا لمعركة خطيرة من هذا النوع ٠

نهاية صلاح الدين :

مات صلاح الدين بعد هذا الصلح بفترة وجيزة وعمره خمس وخمسون سنة ، ويقول عنه كارل بروكلمان ما يلى (٢) : والحق أن حروب صلاح الدين ضد الصليبيين قد جعلته من أشهر ملوك الشرق فى أوربا ،

---

(١) Midiaeval Europe p. 378.

(٢) تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٢٣٢ ٠

أما فى الذاكرة الشرقية فلا يزال خالدا الى جانب كبار الخلفاء والسلاطين كرمز لحقبة من أسعد حقب التاريخ وأهنئها ، وليس من شك فى أن قلة ضئيلة من أمراء المسلمين كانت تضارعه من حيث تجرده عن أية نزعة للكسب الشخصى ، ومن حيث انصرافه الى خدمة دولته ورعاياها ليس غير ، ولم يستطع أعداؤه أنفسهم الا الاقرار له بالشهامة والنبل فى معاملة الخصم المغلوب ليس هذا فحسب ، بل كان صلاح الدين بالاضافة الى ذلك نصيرا للعلم ، وقد عاش فى رحابه نفر من خيرة العلماء كابن العماد الأصفهانى الذى أرخ لفتح القدس ، وكالقاضى بهاء الدين بن شداد الذى كتب سيرة صلاح الدين ، وكالقاضى الفاضل .

رحم الله صلاح الدين ، لقد كان قائدا موهوبا تمثلت فى شخصه كل المعانى التى كانت تدور فى نفوس العرب والمسلمين ، فأبرزها باسم العرب والمسلمين .

بين الحرب الصليبية الثالثة والرابعة

(فترة اضطراب فى المعسكرين)

تمتاز هذه الفترة لدى الصليبيين بالصراع المتصل حول النفوذ بين الكنيسة والسلطات المدنية ، وقد حاولت الكنيسة أن تستعيد مكانتها فى الإشراف على الحروب الصليبية وتوجيهها ، ولكن شخصية الملك هنرى السادس حالت دون ذلك ، فقد كان هنرى السادس أعظم رجال السياسة فى عهده ، وأعظم إمبراطور بعد شرلمان ، وقد دان له بالولاء والتبعية ملك قبرص وملك أرمينيا مما مد نفوذ هنرى الى الشرق ، ودفعه لاستعادة قيادة الحروب الصليبية الامبراطورية التى قادها أبوه .

وفى معسكر الفرنج كذلك كان هناك خلاف آخر بين بقايا الصليبيين

بالشام بعضهم والبعض ، وقد ضعفت قوتهم بسبب هذا الخلاف ، وبسبب الحسد ، ورغبة كل فريق فى أن يكون له السلطان والغلبة على الآخرين .

ولم يكن المعسكر الاسلامى أحسن حالا ، فإن صلاح الدين كان قد قسم الدولة بين أولاده ، فجعل دمشق وجنوبى سوريا لابنه الملك الأفضل وجعل له السلطة العامة ، وجعل مصر للملك العزيز ، وجعل حلب وشمالى سوريا للملك الظاهر ، أما الملك العادل أخو صلاح ادين فقد منح بعض الممتلكات فى الجزيرة الفراتية ، وقد شب نزاع بين أولاد صلاح الدين ، وتدخل الملك العادل فأثار بعضهم ضد البعض الآخر ، وقد شجعت هذه الاضطرابات الامبراطور هنرى على العزم على الزحف للشرق .

الملك العادل يقود معسكر المسلمين :

وحدث بعد قليل تغيير فى معسكر الفرنج ومعسكر المسلمين ، أما الأول فإن الامبراطور هنرى قد مات وهو يستعد للزحف ، وقد أعطى موته الفرصة للكنيسة لتعيد سيادتها وقيادتها للحروب الصليبية ، أما معسكر المسلمين فقد آل أمره الى نوع من الوحدة ، إذ استطاع الملك العادل أن يقضى على أولاد أخيه الواحد بعد الآخر - وان يتولى السلطة (١١٩٩ — ١٢١٨) فى أغلب ملك صلاح الدين ، ولم يبق لأولاد صلاح الدين ، الا قطاع حلب الذى استمر تحت سلطانهم حتى زحف المغول سنة ١٢٦٠ .

وفى وسط هذا الجو جاءت الحرب الصليبية الرابعة .

الحرب الصليبية الرابعة

تتحول الى حرب داخلية بين المسيحيين

(١٢٠٢ — ١٢٠٤)

دفعت الكنيسة جماعات المسيحيين للقيام بهذه الحروب ، وكانت هـذه الحروب قريبة الشبه بالحروب الصليبية الأولى من ناحية أنهـا كانت فرنسـية القـادة والروح ، ولكن هـدفها هـذه المرة كان مصر للسببين الآتيين :

١ ــ أصبح واضحا أن نجاح الحروب الصليبية لن يتم إلا اذا سيطر الصليبيون على مصر فقد أصبحت مصر مركز القوة الاسلامية •

٢ ــ السيطرة على مصر ستحقق الكسب التجارى المنشود ، فعن طريقها سيمكن الاتصـال بالبحر الأحمر والأخذ بنصيب فى تجارة الهند وجزر الهند الشرقية « اندونيسيا الآن » •

الاتجاه ضد القسطنطينية :

ولكن حـدث شىء لم يكن فى الحسبان وجّه هـذا الزحف وجهـة أخرى فقد انحرف الغزاة تجاه القسطنطينية وقرروا الاستيلاء عليها ، وهـذا يبين لنا الى أى حـد انحرف الصليبيون ونسوا أهدافهم التى من أجلها زحفوا على الشرق ، وهى الاستيلاء على بيت المقدس ، وأصبحت السياسة والتجارة هى المحرك الحقيقى لهذه الجموع ، وقد اتضح لنـا مما سبق أن القسطنطينية لم تعـد تتعاون مع الصليبيين ، وأن الصليبيين لم يفوا بوعودهم مع امبراطور القسطنطينية بأن يعيدوا الى سلطانه كل ما يفتحون أو على الأقل يدفعون جزية له ويعترفون بسيادته العليا •

هـذا من الناحية السياسية ، أما الناحية التجارية فيوضـحها أن

المدن التجارية بايطاليا وبخاصة فينيسيا قد نعمت بالغنى العظيم عن طريق تجارتها مع الشرق ، وكانت هذه المدن لذلك لا تريد تدمير خطوطها التجارية بالحرب ، ومن أجل هذا حرصت هذه المدن على أن تكسب السلم لهذه الخطوط ، وحرصت فى الوقت نفسه على توجيه النشاط الصليبى ضد القسطنطينية لأن هذه كانت سيئة العلاقة مع العواصم التجارية بأوربا ، ويقول (١) Emerton إن العواصم التجارية بايطاليا لم تُرِدْ أن تقتل الإوزة التى تبيض لها بيضة الذهب .

وبالاضافة الى الأهداف التجارية ، رحبت الكنيسة الغربية بهذا الاتجاه ، إذ وجدت به فرصة إسقاط الكنيسة المنافسة لها فى الشرق .

كما اعتقد الصليبيون أن السيطرة على القسطنطينية ستجعل السيطرة على سوريا سهلة ويسيرة .

الاستيلاء على القسطنطينية :

وهكذا تحولت الحروب الصليبية الى حرب ضد المسيحيين ، ووصل الغزاة الى القسطنطينية فى يوليو سنة ١٢٠٣ وأسقطوها فى ابريل ١٢٠٤ بعد مقاومه هزيلة ، وعُيِّن (بالوين) أول امبراطور لاتينى على القسطنطينية ، وقد ظلت القسطنطينية خاضعة للاتين مدة ستين عاما ، وهكذا كانت النهاية غير المتوقعة للحروب الصليبية الرابعة (٢) .

واقتسم الغزاة الغنيمة كما كانوا قد اتفقوا قبل الزحف ، فأخذت فينيسيا ٣/٨ المنطقة التى استولى الغزاة عليها ، وأخذت الحق فى تعيين البطريرك ، أما الفرنجة فكان التاج نصيبهم مع مسئولية الحكم (٣) .

(1) Midiaeval Europe p. 379.
and Mombert : A Short History of the Crusades p. 201.
(٢) Bears, Edwin : The Fall of Constantinople p. 187.
(٣) Ibid. p. 192.

بين الحرب الصليبية الرابعة والخامسة

(زحف الأطفال ونهايتهم)

لا تزال الأسباب التى دعت للحرب الصليبية الرابعة قائمة ، فبيت المقدس لا يزال فى أيدى المسلمين ، ولا يزال واضحا أن أى حرب مقدسة لابد لنجاحها أن يستولى الصليبيون على مصر ، وبينما كانت الحماسة تشتد فى أوربا لهذا الغزو كان الملك العادل يعقد سلسلة من المعاهدات مع المسيحيين كان من شأنها تخفيف الحدة وتقليل الحماسة ، وقد عقدت هذه المعاهدات فى السنوات التالية : ١٢٠٢ ، ١٢٠٤ ، ١٢١٠ ، ١٢١١ ، ١٢١٧ ، وكان أهم ما فى هذه المعاهدات تيسير الحج ، وعدم الاعتداءات بين الجانبين ، وتعديل قليل فى الحدود .

وعلى الرغم من ذلك فقد حدثت أحداث فى هذه الفترة هيجت النفوس ودفعت الى الحرب الخامسة ، وأهم هذه الأحداث زحف الأطفال الفرنسيين سنة ١١١٢ بقيادة طفل من الرعاة اسمه ستيفن لتخليص الأرض المقدسة ، وزحف الأطفال الألمان بقيادة طفل اسمه منغولا لنفس الغرض ، وقد خطف تجار الرقيق هؤلاء الأطفال وباعوهم فى أسواق النخاسة ، مما أثار أهليهم وذويهم ، ودفع البابا نفسه الى أن يتخذهم وسيلة للاثارة ، فقد كتب عقب هذا الحدث يقول : لقد سجل الأطفال علينا الخزى والعار ، فبينما نغرق نحن فى النوم يهب الأطفال لتحرير الأرض المقدسة (١) .

وفى سنة ١٢١٥ انعقد المجلس الأوربى فانتهز البابا فرصة هذا الاجتماع ، وحرك النار الكامنة ، ووجد استجابة لذلك ، فحدد سنة ١٢١٧ موعدا للزحف الصليبى الجديد .

---

(١) Gray G. Z. : The Children Crusades p. 71.

الحرب الصليبية الخامسة

اتجاه الحروب الصليبية الى مصر

(١٢١٨ — ١٢٢١)

اتجهت القوى الصليبية بزحفها هـذه المرة تجـاه مصر ، تنفيذاً للخطة التى سبق شرحها ، وكانت مصر آنذاك تحت سلطان الملك العادل الذى لم يلبث أن مات فى مطلع هـذه الحملة وآل السلطان على مصر من بعده لابنه الملك الكامل (١٢١٨ — ١٢٣٨) ولكن الملك الكامل قابل فى مطلع عهـده ألواناً من المصاعب كان لها أثر كبير فى إضـعاف قوة المسلمين ، ثم إن المغول كانوا قد بدءوا زحفهم تجاه العالم الاسلامى فاستسقطوا خوارزم ، وبلاد ما وراء النهر ومعظم بـلاد فارس سـنة ١٢٢٠ ، وبدءوا يوغلون تجـاه بغـداد ، مما قسم الجهود الاسلامية وفت فى عضـد المسلمين ، يضاف الى ذلك أن الصليبيين اتصلوا بنجاشى الحبشة المسيحى ليتعاون معهم فى ضرب الاسلام والمسلمين عن طريق غزو الحجاز وهـدم الكعبة (١) .

أما جيش الصليبيين فكان فى حالة طيبة ، إذ تلقى جموعاً ضخمة من أوربا جاءت تلبية للدعوة التى وجهها البابا إنوسنت الثالث ، ثم البابا هونريوس الثالث من بعده ، وكان يقود جموع الصليبيين الملك يوحنـا دى برين ملك ما تبقى من مملكة بيت المقدس ومعه المندوب البابوى بلاجيوش ، وتقدمت الحمـلة تجاه دمياط التى كانت تعتبر بابا لمصر ، وكان بهـا برج السلسلة الذى يعد « قفل الديار المصرية » (١) ،

---

(١) Coulbeaux : His, d, Abyssinie pp. 259-266.
نقلا عن الحركة الصليبية للدكتور سعيد عاشور جـ ٢ ص ٩٦٥ .

(١) ابو شامة : ذيل الروضتين جـ ٢ ص ١٠٩ .

وقــد استطاعت الحملة أن تستولى على هــذا البرج فى أغسطس سنة ١٢١٨ ، وأن تستولى على دمياط عقب ذلك ، ولكن بعد أن قاومت دمياط مقاومة صــلبة ، وأرغمت المهاجمين على دفع أغلى ثمن لسقوطها .

ولم يسرع الصليبيون بالزحف تجاه القاهرة بل انتظروا الامبراطور فردريك الثانى الذى أذيع أنه فى الطريق للانضمام للمهاجمين ، كما أن المصريين لم يمنحوهم فرصــة الزحف للقاهرة بســبب الاستعدادات الهائلة التى تدفقت من كل صــوب لتحيط بالصليبيين فى دمياط ، وقــد أسهم فى هــذه الاســتعدادات الخليفة العباسى والملك الأشرف موسى ابن الملك العادل والملك المعظم عيسى والمنصور صــاحب حماة ، ..... كما تدفق الأبطال من شتى النواحى المصرية والاسلامية لمواجهة الصليبيين ، وتمكنت القوة الاسلامية من إنزال كثير من الخسائر بالصليبيين فقتلوا منهم وأسروا واستولوا على كثير من المعدات والسفن الحربية والعتاد .

ولكن الملك الكامل كان حريصا على أن تنجو مصر من التدمير الصليبى ، فاتجه الى التضحية ببعض الانتصار الضخم الذى حققه عمه صــلاح الدين ، رجاء أن يجلو الصليبيون عن دمياط ، فعرض عليهم شروطا سخية هى أن يمنحهم بيت المقدس ، ويطلق أسراهم ، ويعيد الصليب الذهبى الذى كان صــلاح الدين قــد أنزله من فوق قبــة الصــخرة عقب استردادها .

وكان المســلمون قــد خربوا حاميات القــدس حتى اذا استعادها الصليبيون لا يستطيعون الانتفاع بهــا .

ولعــل الملك الكامل كــان يظن أن بيت المقــدس هــو هــدف الصــليبيين ، وأن منحــه لهم ســيضع حــداً لهذه الحــرب التى طالت وشقى بها الناس فى الشرق والغرب ، ولكن الصليبيون أعلنوا عن

أهدافهم عندما رفضوا هـذا العرض متطلعين الى الاستيلاء على سوريا ومصر جميعا ، وتقدموا فعلا تجاه القاهرة .

ولم يبق أمام الملك الكامل إلا النضـال ، بيد أن فكرة ذكية خطرت ببال المصريين فجعلت الحرب تسير فى جانبهم ، فقد قطع المصريون جسور النيل فأغرقوا الأرض بالمـاء وعجز الصليبيون عن الاستمرار فى الزحف بل أصبحوا مهددين بالجوع والهلاك ، فطلبوا الصـلح على أن يتركوا دمياط دون مقابل ، وقـد رفض بعض أمراء الأيوبيين ذلك وأصروا على القضاء على الصليبيين ، وأسرعوا فأحاطوا بهم من الشمال ومن الجنوب ، ومنعوهم من العودة الى دمياط . ولكن الملك الكامل كان يريد أن يتفرغ لمشكلاته الداخلية ، ثم إنه كان قـد أذيع أن الإمبراطور فردريك على وشك الوصول ، فأراد الملك الكامل أن يطهر مصر من الصليبيين قبل وصـوله ، مخافة أن ينضم لهم وهم محاصرون بدمياط . وتم الاتفاق على الجلاء دون قيد ، وجلا العدو مكللا بالخيبة والعار .

وانتهت بذلك هـذه الحملة القاسية وتطهرت أرض الوطن بعون الله والنيل الذى طالما قدم ألوانا من العون للمقيمين على ضفافه .

الحـــرب الصـــليبية الســـادسة

امتـــداد" للحرب الصـــليبية الخامسة

(١٢٢٨ — ١٢٢٩)

تعتبر الحرب الصليبية السادسة تكملة للحرب الخامسة أو ذيلا لها ، فان فردريك جاء الى سوريا ومعه حامية قليلة ، ولم يضرب ضربة واحدة ولكنه حاول أن ينتفع بالعرض الذى كان الملك الكامل قد عرضه على الصليبيين ابان احتلالهم دمياط ، وكانت هناك مشكلات داخلية كثيرة تحيط بالملك الكامل ، فأرسل فردريك الثانى يطلب المفاوضة معه عـلى أساس تسليم بيت المقدس ، ولكن الملك الكامل رفض المفاوضة على هذا الأساس ، فقد كان مستعدا أن يضحى بها لتنجو مصر ولكن مصر نجت بدون هذه التضحية الباهظة ، بيد أن فردريك اتخذ جانب الاستعطاف واللين مع الملك ، وفى بعض المراجع أنـــه أرسل له رسالة جـــاء فيها : « أنت تعلم أنى أكبر ملوك البحر ، وقد عـــلم البابا والملوك باهتمامى وطلوعى فان رجعت خائبا انكسرت حرمتى بينهم ، وهذا القدس هـــو سبب ضجرهم والمسلمون قد خربوا المدينة فلم يعد لها طائل ، فان رأى السلطان أن ينعم على بقبضة البلد والزيارة ، كان ذلك منه صدقة ورفع رأسى بين الملوك (١) » ولا يستبعد الباحثون أن يستعطف فردريك الملك الكامل على هذا الوجه ، فقد نشـــأ فردريك فى صـــقلية وتربى فى كنف الحضارة الاسلامية ، وشب على حب المسلمين وحضارتهم (٢) .

اتفاقية يافا والتنازل عن بيت المقـــدس :

هذا من جانب ، ومن جانب آخر فـــان الملك الكامل كـــان يميل الى

---

(١) الوافى بالوفيات : ذيل الباب الثانى والسبعين .

(٢) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ٢ ص ٩٩٦ .

التسامح ، وكان يريد أن يتم اتفاق على بيت المقدس ، إتفاق يـُرضى المسلمين والمسيحيين ، وقد رأى أن العلاقة الطيبة بالامبراطور فردريك الثانى تتيح الوصول الى حل وسط ، فسار فى المفاوضـة وتمت اتفاقية يافـا سنة ١٢٢٩ وجـُعلت مدتها عشر سنوات ، وبمقتضاها سـلم الملك الكامل لفردريك الثانى بيت المقدس وبيت لحم والناصرة مع شريط يصل هذه البقاع بعكا التى كانت قد صارت عاصمة مملكة بيت المقدس ، منذ استولى صلاح الدين على بيت المقدس التى كانت عاصمة المملكة من قبل ، وقد نـُصّ فى الصلح « على أن تبقى بيت المقدس على مـا هى عليه من الخرائب ولا يـُجدد سورها وأن تكون سائر قرى القدس للمسلمين لا حكم فيها للفرنج ، وأن الحرم بما احتواه من الصـخرة والمسـجد الأقصى يكون بأيدى المسلمين لا يدخله الفرنجة الا للزيارة فقط ويتولاه قوّام مـن المسلمين ، ويقيمون فيها شـعائر الاسلام مـن الأذان والصـلاة (١) » .

وبهذا بقيت عكا عاصمة المملكة اذ كانت أكثر حصانة وتسليحا .

والنظرة السريعة ترى فى هذا الصلح خسارة ، وقد هاجمه المسلمون فى حينه وبكوا على ضياع بيت المقدس ، ودافع الكامل عن نفسه بقوله : « إنا لم نسمح للفرنج إلا بكنائس خربة ، والمسجد على حاله ، وشعار الاسلام قائم ، ووالى المسلمين متحكم فى الأعمال والضياع (٢) » .

ولم يـَعُدّ المسيحيون هذه الاتفاقية كسبا واضحا ، وهاجمها كثيرون منهم ، **ولسنا نستطيع أن نوافق على تسليم شبر من الأرض الاسلامية طوعا** ، وربما رأى الساسة ما لا نراه ، وقدّروا عواقب أخرى فضحّوا بالقليل ليحموا الكثير ، وهؤلاء سيساعدهم ما عـُرِف عن الملك الكامل

---

(١) المقريزى : السلوك جـ ١ ص ٢١٠ .
(٢) المرجع السابق .

من الصفات الطيبة ، فقد ذكر أبو الفدا (١) ، أنه كان ملكا جليلا مهيبا حازما حسن التدبير ، وذكر المقريزى (٢) أن الأمن كان مستتبا فى عهد الملك الكامل لهيبته ويقظته ، حتى كان الواحد يمر بالذهب الكثير والأحمال من الثياب من العريش الى مصر فلا يحس بخوف .

وفى نفس العام عاد فردريك الى أوربا اذ كان البابا قرر حرمانه لأسباب كثيرة منها تباطؤه فى السير لسوريا مما سبب ضياع دمياط ، فلما استعاد فردريك بيت المقدس أخذت البابوية تقلل من قيمة استرداده على الوجه الذى تم عليه ، على أن صلحا تم بين فردريك والبابا سنة ١٢٣٠ رفع على أثره قرار الحرمان .

ونقطة أخرى تتصل بفردريك وكانت ذات أهمية عظمى بالنسبة لمستقبل مملكة بيت المقدس آنذاك ، تلك أن الامبراطور تزوج سنة ١٢٢٥ من الأميرة يولاند ابنة يوحنا دى برين ملك بيت المقدس ، وكانت الأميرة هى الوريثة الوحيدة للملكة عقب موت أبيها فى نفس العام (١٢٢٥) وبهذا الزواج أصبح الامبراطور ملكا لملكة بيت المقدس ، وظلت هذه المملكة تابعة للامبراطورية الرومانية المقدسة حتى سنة ١٢٦٨ ، وسنرى بعد قليل أثر هذا الوضع على مستقبل بيت المقدس .

بين الحرب الصليبية السادسة والسابعة

(صراعات داخلية)

إن الفترة التى مضت بين الحرب الصليبية السادسة والحرب الصليبية السابعة أى بين ١٢٣٨ ، و١٢٤٨ تعتبر فترة حاسمة فى تاريخ الشام وتاريخ الاسلام على العموم ، وفى كلمة موجزة نقرر أن اضطرابا

---

(١) المختصر فى اخبار البشر : حوادث ٦٣٥ .

(٢) السلوك : جـ ١ ص ٢٥٩ .

قاسيا هزّ المجتمع الاسلامى آنذاك ، فبعد أن أسقط المغول دولة الأتراك الخوارزمية هاج الخوارزمية وساروا فى أرض الاسلام يعيثون فسادا ، فكانوا فى تدميرهم يسيرون على أسلوب المغول أو أشد ، ثم كان الأيوبيون فى تفكك وانحلال وصراع ، والسلاجقة بينهم خلاف جعل لهم فى الأحداث والحروب الداخلية نصيبا كبيرا ، وفى هذه الفترة توفى الملك الكامل سنة ١٢٣٨ ، وتولى بعده ابنه الملك العادل الثانى (١٢٣٨ — ١٢٤٠) ولكنه كان ضعيفا فلم يستطيع أن يقاوم أخاه الصالح نجم الدين أيوب فأخلى له عرش مصر (١٢٤٠ — ١٢٤٨) .

ولم يكن المعسكر الصليبى أحسن حالا من معسكر المسلمين ، وقد رأينا عند الحديث عن الحرب الصليبية السادسة بذور الاضطراب والقلق التى نمت من يوم الى يوم ، فالامبراطور فردريك الثانى أصبح ملكا لملكة بيت المقدس ، ولكن مصالحه فى الغرب كانت بطبيعة الحال أهم من مصالحه فى سوريا ، ولذلك سرعان ما عاد الى أوربا تاركا مكانه خاليا ، وتاركا المملكة التى لها الاشراف على الصليبيين فى الشام دون ملك مقيم يدبر شأنها بطريق مباشر وحاسم وسريع ، ثم ان اتفاقية يافا ألزمت — كما قلنا آنفا — ألا يحصّن بيت القدس ، ومن هنا فقدت هذه المدينة أهميتها الحربية ، وكان من السهل أن يقتحمها المسلمون فى أى وقت ، لولا ما كان بينهم من خلاف ، وكان للخلاف بين الامبراطور والبابا أثر لم ينته بانتهاء الخلاف ، بل ظلت له آثار بعد ذلك .

وكان الصليبيون بالشام فى اضطراب وتفكك ، وقام صراع مرير بين أمراء الاقطاع الامبراطورى النورماندى .

وهكذا وقف بيت المقدس — وهو المركز الذى كانت تدور حوله

الأحداث العسكرية آنذاك — بين القوى المتمادلة ضعفا وخورا ، وأخذ بيت المقدس يترنح مستجيبا لمن يحاول أن يتسلمه .

الصالح اسماعيل يستولى على بيت المقدس :

في سنة ١٢٣٩ حدثت معركة قوية عند غزة اشتركت فيها جيوش الصالح اسماعيل ملك دمشق (١) وجيوش العادل الثانى ملك مصر ، وقد مزقت هذه القوة جيش الصليبيين وقتلت ألفا وثمانمائة وأسرت عددا كبيرا ، وكان كثير من الزعماء والأمراء بين القتلى والأسرى ولم يقتل من المسلمين غير عشرة (٢) ، وقد استولت جيوش الصالح اسماعيل على بيت المقدس عقب هذه الموقعة (٣) .

الصالح اسماعيل يعيد بيت المقدس للصليبيين :

بيد أن استيلاء الصالح نجم الدين أيوب على السلطة بمصر

---

(١) كان ملكا لدمشق بضعة شهور خلال سنة ١٢٣٧ ثم اخلى الطريق لاخيه الملك الكامل ، وبعد الكامل جاء ابنه العادل سنة ١٢٣٨ ملكا على مصر والشام ، بيد ان الصالح نجم الدين ايوب استولى على دمشق من اخيه العادل ١٢٣٩ ثم ذهب الى مصر فاستولى عليها سنة ١٢٤٠ ، ولكنه بعد ان ترك الشام الى مصر تنز الصالح اسماعيل للسلطان مرة اخرى بالشام ، وقد استمر هذه المرة ست سنوات ١٢٣٩ — ١٢٤٥ ثم عاد فانهزم أمام الصالح ايوب .

(٢) ابو شامة : ذيل الروضتين ص ١٧٠ .

(٣) ابو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٧ وترى بعض المراجع ان الناصر داود صاحب الأردن هو الذى استولى على بيت المقدس دون ان تربط هذا الاستيلاء بموقعة غزة ، ولكننا نؤثر الراى الذى قلنا به لأن الصالح — وليس الناصر — هو الذى عاد فسلم بيت المقدس للصليبيين سنة ١٢٤٠ باجماع المراجع ، وليس طبيعيا أن نفترض ان الناصر داود سلم بيت المقدس للصالح اسماعيل وهذا سلمه للصليبيين .

من الملك العادل أثار الصالح اسماعيل الذى خاف على ملكه فتحالف مع الصليبيين ضد نجم الدين وأعاد لهم بيت المقدس سنة ١٢٤٠ ، فاستهدف غضب المسلمين وشنعوا عليه وأكثروا عليه السخط (١) ، وفى اللقاء الذى أعد للصدام بين الصليبيين والصالح اسماعيل من جانب وبين الجيوش المصرية من جانب آخر سنة ١٢٤٠ استدار جند الشام المسلمون وانضموا الى القوات المصرية ومالوا جميعاً على الفرنج فهزموهم عند غزة وأسروا منهم خلقا لا يحصون (٢) ، ولكن المسلمين لم يعودوا للسيطرة على بيت المقدس .

الخوارزمية يستعيدون بيت المقدس :

وبعد ذلك بأربع سنوات أى فى سنة ١٢٤٤ ، انتزع الخوارزمية حلفاء الملك الصالح نجم الدين أيوب آنذاك ، بيت المقدس من الصليبيين ، وقد تتبع الخوارزمية الصليبيين الفارين من المدينة المقدسة الى يافا فقضوا على الكثيرين منهم ، أما كنيسة القيامة وغيرها من الأماكن الدينية المسيحية داخل بيت المقدس فقد اعتدى عليها الخوارزمية ودمروا وأتلفوا معظمها ، وأعادوا بيت المقدس نهائيا الى المسلمين ، ولم يقدر لجيش مسيحى أن يقرب من هذه المدينة بعد ذلك حتى الحرب العالمية الأولى (٣) .

حطين الثانية وتدمير الصليبيين والخوارزمية :

وحدثت بعد ذلك موقعة غزة الثانية فى أكتوبر سنة ١٢٤٤ بين الملك الصالح نجم الدين وحلفائه الخوارزمية وبين الصليبيين ومعهم الاسبتارية والداوية وبعض المنحرفين المسلمين ، ودارت الدائرة على الصليبيين

---

(١) ابو الفدا : المختصر حوادث سنة ٦٣٩ والسلوك للمقريزى ج ١ ص ٣٠٤ ، ٣٠٨ .

(٢) ابو المحاسن : النجوم الزاهرة ج ٦ ص ٣٢٣ .

(٣) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية ج ٢ ص ١٠٤٥ .

وحلفائهم وخر منهم أكثر مـن ثلاثين ألفا وسيق المئات مـن الأسرى الى مصر ، وتسمى هذه الموقعة لهذا « حطين الثانية » ، وعـلى أثرها استولى الصالح أيوب على دمشق ، ولما واجه أطماع الخوارزمية وعبثهم حاربهم وقضى عليهم سـنة ١٢٤٦ ثم استولى على خصن طبرية سـنة ١٢٤٧ من الصليبيين وعلى عسقلان فى نفس العام من الاسبتارية ، وقد أحدثت هذه الانتصارات ذعرا فى أوربا ودفعت لحرب صليبية جديدة هى الحرب الصليبية السابعة .

الحرب الصليبية السابعة

لويس التاسع وأسره في مصر

(١٢٤٩ — ١٢٥٠)

كان هدف هذه الحرب أن يعود الصليبيون مرة ثالثة الى بيت المقدس ، ولكن أصبح من المتأكد لديهم أن بيت المقدس من غير مصر لا يمكن أن يبقى فى أيديهم ، ولذلك اتجهت هذه الحرب الى مصر كما اتجهت حروب مثلها من قبل ، وكانت هذه الحرب بقيادة لويس التاسع ملك فرنسا ، وقد حمل لويس الصليب عند سقوط بيت المقدس سنة ١٢٤٤ وأخذ يدعو الى حرب صليبية جديدة ولكنه تأخر فى البدء بها لأنه كان مشغولا بمحاولة الاصلاح بين البابا وامبراطور المانيا ، ولم تنجح هذه المحاولة ، فاصطحب اخوته وحاشيته وبدأ رحلته الصليبية فى أول الشتاء سنة ١٢٤٨ وأمضى الشتاء فى قبرص ثم استأنف سيره موجها حملته الى مصر كما قلنا .

لويس التاسع فى دمياط :

وكان سلطان مصر (الصالح نجم الدين الذى سبق الكلام عنه) موجودا بالشام يزاول بعض الحركات العسكرية التى يحاول بها أن يثبت ملكه ، فانتهز الصليبيون هذه الفرصة ونزلوا دمياط واحتلوها سنة ١٢٤٩ ومرض الملك الصالح فعهد لولده المعظم توران شاه بالسلطنة على مصر وكان آنذاك أميرا على حصن « كَيْفَا » (١) وجعل الأمير حسام الدين بن على نائبا للسلطة بالقاهرة والأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ قائدا عاما على الجيوش المصرية التى عسكرت فى جديلة والمنصورة لمواجهة

---

(١) بلدة تاريخية على دجلة الاعلى ، وهى الآن داخل الحدود التركية المجاورة للعراق ، ويطلق عليها حاليا اسم محرف هو « حسنكيف » .

الزحف الصليبى ، ومات الملك بعد ذلك فأخفت زوجته شجرة الدر خبر وفاته وأخذت تصدر باسمه الأوامر الى المماليك ، وفى الوقت نفسه أرسلت تستدعى توران شاه .

الصليبيون يصلون الى ضواحى المنصورة :

ولم تستطع حملة لويس التاسع أن تواصل سيرها الى الجنوب من دمياط بسبب أنواع العقبات المائية والطينية التى تخلفت عن مياه الفيضان فى هذه المنطقة المعروفة باسم جزيرة دمياط ، وذلك فضلا عن العمليات التعويقية التى قامت بها الخيالة الأيوبية المصرية خير قيام (١) وأخيرا وبعد جهد جهيد استطاعت الحملة الصليبية أن تصل الى معسكر يقابل المعسكر المصرى الموجود فى جديلة احدى ضواحى المنصورة ، ولم يبق من فاصل بين القوتين الا البحر الصغير ، وقد أخذ لويس التاسع يعد العدة لعبور هذا النهر ، ولكن القوى المصرية قضت على كل الوسائل التى اتخذها ، وأخيرا اهتدى الصليبيون الى مخاضة سلمون حيث يمكن للخيالة أن يعبروا النهر راكبين خيولهم ، وفى أمسية من أيام فبراير سنة ١٢٥٠ قفز الخيالة بقيادة روبرت كسونت أرتوا أخى الملك لويس ومعه طائفة الفرسان الداوية وفرق أخرى عن الفرسان ، واستطاعوا أن يصلوا الى الشاطىء الآخر وأن يفاجئوا المصريين فى معسكر جديلة فسقط تل جديلة فى أيديهم وقتل الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ وهو يناهض المعتدين ، وانسحبت القوة المصرية متراجعة الى المنصورة ، ووقعت أخبار هذا الزحف المفاجىء وقع الصاعقة على المصريين فى المنصورة والقاهرة .

معركة عنيفة بالمنصورة :

غير أن روبرت لم يكتف بهذا الانتصار بل أصر على أن يتعقب القوات المنسحبة الى مدينة المنصورة دون أن ينتظر القوات البرية التى كان

---

(١) دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس على مصر ص ١٢٨ .

يقودها أخوه الملك والتى كانت تنتظر عون الفرسان لاقامة جسر تعبر عليه ، وكان هذا غرورا دفع روبرت ثمنه غاليا ، فان الظاهر بيبرس قائد القوات المصرية بالمنصورة أفسح الطريق للمهاجمين ، وأكمن فرقا من جنده فى مناطق خاصة ، وأمر الأهلين بالاختفاء فى بيوتهم مؤقتا ، وفى لحظة مفاجئة صدرت الأوامر بالانقضاض على الصليبيين ، واذا بهؤلاء بين وابل ينصب عليهم من الجنود ومن الأهلين جميعا ، حتى أصبحت البيوت والأزقة مقابر لعدد كبير منهم ، وسقط روبرت نفسه قتيلا فى أحد شوارع المنصورة .

على أن الملك لويس استطاع بين صخب المعارك أن يقيم الجسر المطلوب ويعبر بالمشاة الى معسكر جديلة ، وهكذا وقف الجيشان وجها لوجه ، وقف الصليبيون فى جديلة ، ووقف المصريون فى المنصورة .

ولم يثمل الظاهر بيبرس بالنصر الذى أحرزه مع الفرسان ، بل راح يهاجم معسكر الملك فى جديلة ، وقد أحرز نصرا مؤزرا فى هجماته ، وفى احدى معاركه الضارية أوشك شارل كونت آنجو الأخ الثانى للملك لويس أن يسقط فى أيدى المصريين ، لولا أن الملك غامر فانقض اليه وأنقذه ، ويعرف هـذا اليوم بيوم جديلة الكبرى ، وقـد حـدث فى ٢١ فبراير سنة ١٢٥٠ .

توران شـاه يقود المعركة الفاصـلة :

وحضر الملك توران شاه عقب ذلك ، وتغيرت خطة المعركة فأدارها توران شاه بَحْرِيَّةً ، وقد اسـتطاع أن يقطع التموين عـن الجنود حتى عـزّ عليهم الطعـام ، وحـاول الملك لويس التاسـع أن يلجـأ لوسيلة المفاوضات ، ولكن أحـدا لم يصـغ اليه ، وحاول أن ينسحب بجيشه الى دمياط ، ولكن المصريين سدوا عليه المنافذ ، وحدثت عـدة معارك بحرية انتصرت فيها القوى المصرية انتصارات باهرة ، وسقط أكثر جنود الصليبيين قتلى وجرحى ، كما مرض كثيرون منهم بسبب الأوبئة

التى انتشرت والمجاعة التى تفشت ، ولم يقبل المصريون الا التسليم دون قيــد ولا شرط .

الاستسلام وأسر الملك وصحبه :

وعــلا فجــأة صــوت جاويش فرنسى اسمه مارســيل بأن الملك لويس أصدر أوامره بالتسليم العام للقوات الأيوبية ، ولم يعرف بالضبط الدافع الذى دفع ذلك الجاويش لهذه الصيحة ، على أن الأحوال كانت مهيأة لهذا التسليم ، ولم يقبل الملك على أى حال أن يستسلم ودافع عنه جمع من الخيالة الصليبية بقيادة كونت شاتيون ، ولكن القوى المصرية دكت هذا الدفاع وقبضت على الملك وعلى أخويه شارل كونت آنجو وألفونس كونت بواتييه وجماعة كبيرة من باروناته وحاشيته ، وسـيق الملك الى دار ابن لقمان حيث سجن ، أما مجموعة الأسرى وعدتهم عشرة آلاف من الفرسان يضاف اليهم كبار البارونات وعددهم كبير فقد وضعوا فى خيمة كبيرة تحت حراسة مشددة ، ودارت المباحثات بعد ذلك للجلاء دون قيد ولا شرط على أن يدفع الصــليبيون فدية كبـيرة لتحرير الملك السجين . ودفع الملك الجزيةوأفرج عنه ، وانسحب الجيش من دمياط خائبا (١) .

وعــد ونكث :

وقــد تعهد لويس التاسع فى اتفاقيته مع المماليك الا يقصد شواطىء الاسلام مرة أخرى ، ولكن شــق عليه عقب إطلاق سراحه فى مايو سنة ١٢٥٠ أن يعود الى بلاده مباشرة وقد لطخت سمعته فضيحة الهزيمة وعار الأسر ، واختار أن يقصد بلاد الشام أولا عسى أن يتمكن من القيام ببعض الأعمال الصليبية التى تعيد اليه ماء وجهه ، وكان الصليبيون فى بلاد الشام وقتئذ أحوج ما يكون الى زعيم قوى ينظم صفوفهم ويحل

---

(١) المقريزى : جـ ٢ ص ٢٢٦ — ٢٢٧ .

مشكلاتهم ويبث فيهم روح الأمل والثبات، ولذلك فرحوا بمقدم لويس التاسع اليهم ورحبوا به ترحيبا كبيرا (١) . وقد قضى لويس التاسع بالشام أربع سنوات (مايو ١٢٥٠ ـ ابريل ١٢٥٤) عمل فيها جاهدا لتصفية الخلافات بين أمراء الصليبيين بعضهم والبعض الآخر من ناحية ، والاحتفاظ بكيان الصليبيين وسط الخلافات التى تأججت بين بنى أيوب فى الشام والمماليك فى مصر من ناحية ثانية ، ثم القيام بمباحثات هامة مع التتار من ناحية ثالثة ، ولكن كل ذلك لم يأت بطائل ، فغادر الشام وهو مدفوع بعصبية مجنونة ضد المسلمين ، فهاجم تونس قبل أن يصل الى بلاده ومات بها ودفن فى احدى مدنها وهى مدينة قرطاجنة (٢) .

---

(١) الدكتور سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام ص ٥٦ .

(٢) التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية للمؤلف ج ٤ ص ١٧٢ .

ومن الكتب المفصلة الدقيقة عن الحرب الصليبية السابعة ينبغى أن نذكر كتاب « حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة » للأستاذ الدكتور محمد مصطفى زيادة ، وهو مرجع حافل ، انتفعنا به كثيرا فيما اوردناه عن هذه الحرب .

الحروب الصليبية تقرب من نهايتها

قلت في مكان آخر من كتبي (١) إن أوربا قد توقفت عن مد ّ يد العون للأمراء الصليبيين في فلسطين وتركتهم يهوون تحت أقدام المسلمين ، لسبب ظاهر هو ظهور المغول في التاريخ ، وقيامهم بحركة التدمير للعالم الاسلامي ، وإراقتهم دماء المسلمين ، وتنكيلهم بالمفكرين والعلماء ، ولهذا أحست أوربا أن المغول يقومون بالدور الذي كانت أوربا قد اضطلعت به ، وهو القضاء على الاسلام والمسلمين بشكل يشبه في بشاعته وقسوته اتجاهات الغربيين •

ولهذا توقفت أوربا عن مساعدة الصليبيين بالشرق ، واذا كان المسلمون سينتصرون عليهم فان هذا ليس كبير خطر ، فالمهم هو القضاء على الاسلام والفكر الاسلامي •

وعلى هذا كانت حملة لويس التاسع آخر عون ذي بال قدمته أوربا لحملة الصليب ، وتترك هؤلاء المساكين تحت رحمة المسلمين ، ولما حقق المسلمون النصر ضد المغول في عين جالوت وفي المعارك التي تلتها يئس الصليبيون من الانتصار على المسلمين الذين أوقعوا الهزائم بقوة المغول الرهيبة التي كان الصليبيون يعتقدون أنها لا تهزم •

الجهاد حتى النصر :

وهكذا اذا كانت حملات أوربا للشرق قد توقفت ، فانه كان على المسلمين أن يباشروا « الجهاد » كي يحرروا البلاد التي كانت لا تزال في أيدي المسيحيين الأوربيين ، وحدث بعد موقعة المنصورة أن قتل توران شاه فكان آخر سلاطين الأيوبيين ، وانتقل السلطان الى شجرة الدر

---

(١) المجتمع الاسلامي ص ٢١٢ •

التى كانت زوجة أبيه الملك الصالح نجم الدين يعاونها عز الدين أيبك ، وبهذا انتقل السلطان الى المماليك ، وتم لهم السلطان عقب التخلص من شجرة الدر ، وتحمل المماليك بذلك عبء القضاء على بقايا الغاصبين ، وكان فى المماليك سلاطين جديرون بحمل هذا العبء الكبير •

وقد كان فى وسع المماليك أن يعجلوا بطرد الصليبيين ، ولكن عاملا مهما ، أتاح لهم البقاء بالشـام حوالى أربعين سـنة بعـد سـقوط بيت المقدس ، ذلك أن المغول كانوا قد بدءوا زحفهم على العالم الاسلامى كما قلنا من قبل ، ثم أسقطوا الخلافة العباسية سنة ١٢٥٨ م وراحوا يحرقون المدن ويدمرون الحضارة الإسلامية ، ووصلوا فى زحفهم الى الشام متجهين الى مصر ، وكان المماليك يعدون العدة لاستقبالهم فى معركة حياة أو موت ، لا بالنسبة لمصر فقط بل بالنسبة للعالم الاسلامى كله ، ومن ثم فقد أجل المماليك صراعهم مع الصليبيين ،وكان هؤلاء مشغولين فى خلافتهم الداخلية فلم يستثيروا حقد المماليك ، وتقابل الجيش المصرى بقيادة البطل السلطان قطز وبجواره « الظاهر بيبرس » فى ٢٥ مـن رمضان سنة ١٢٦٠ بالمغول فى عين جالوت ، فاندحر المغول وانهزموا هزيمة ساحقة ، وأتيحت الفرصة للمماليك ليستديروا للصليبيين ويصارعوهم للقضاء عليهم ، •

وفيما يلى أبرز السلاطين الذين قادوا الجيوش الاسلامية وخاضوا معارك حاسمة ، قضوا فيها على بقايا الصليبيين المعتدين •

الظـاهر بيبرس

بطل عظيم من الأبطال الذين أنجبتهم مصر ، وسلطان من خيرة سلاطين المماليك ، له فى كل جانب موهبة ، وفى كل مجال قدرة ومكانة ، فأياديه واضحة فى الصراع ضد الصليبيين ، وضد المغول واصـلاحاته الداخلية ناطقة بجهده ومكانته •

ويقول عنه ابن خلكان : كان ملكا عالى الهمة ، شديد البأس لم نر فى هذا الزمان ملكا مثله فى عزمه وهمته (١) •

ويقول عنه صاحب كنز الدرر : إن بيبرس كان ملكا هماما شجاعا مقداما لا يرهب الموت كثير الحيـل ، حسن السياسة ، جميل التدبير ، ميمون الحروب ، مؤيد العزم (٢) •

ويقول عنه استانلى لين بول : كان شجاعا يطمح فى أن يكون نظيرا لصلاح الدين (٣) •

ويقول عنه بروكلمان : ان عهـد بيبرس كان كعهد الرشيد وصلاح الدين أحـد عصـور الاسلام الذهبية (٤) •

ماذا فعل بيبرس مع الصليبيين ؟

سنورد فيما يلى لمحات عن معاركه الكثيرة الرائعة :

قيسارية :

— فى سنة ٦٦٣ هـ = ١٢٦٥ م خرج بيبرس الى قيسارية الشام ، وضربها ضربا استسلمت عقبه ، ودك ما بها من حصون •

وكان لويس التاسع قد حصنها عندما كان بالشام ، ولكنها لم تستطع الصمود أمام قوة مصر ، فسقطت فى أيدى جنود بيبرس •

حيفـا :

وبعد فترة وجيزة هاجم حيفا وقلعتها وأمر بتدميرها ، وقتل الكثيرين من حراسها ، وفر الآخرون الى السفن الراسية بالميناء •

---

(١) وفيات الأعيان جـ ٤ ص ١٥٥ .
(٢) كنز الدرر : جـ ٨ ص ٢١٤ .
(٣) The Story of Gairo p. 214
(٤) تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٣ ص ٢٣٥ .

ارسوف :

ثم سار بيبرس الى قلعة أرسوف البحرية ، وهى الى الجنوب من قيسارية ، وبعد حصار طويل استسلمت القلعة له •

صفد :

ثم سار بيبرس الى صفد ، وحاصرها قرابة شهر ، واستولى عليها ، وخرّب قلعتها ، وطلب الفرنجة منه الأمان على أن يخرجوا بدون سلاح أو مال عائدين الى أوربا ، فوافقهم السلطان على ذلك • وكان كل من يخفى منهم مالا أو سلاحا يدفع دمه نظير هذا الغدر ، وبعد أن استولى على القلعة أعاد بناءها ، وكتب على الجدران عبارة تصور مدى سروره بانتصاره على الصليبيين فيها ، وهذه العبارة هى :

> **عماد الدين الظاهر بيبرس الذى حوّل الكنائس الى مساجد ، وزنين النواقيس الى أصوات المؤذنين ، والهمهمة بالأناجيل الى ترتيل القرآن •**

يافا :

وسار بيبرس بعد ذلك الى يافا ، وكانت شديدة التحصين ، وقد بدأ مسيرته ليلا فلما أصبح الصباح كان الظاهر بجيشه يدقّ أبوابها وعجز جنودها على المواجهة بعد هذه المفاجأة الخطيرة ، وأخذوا يولون الأدبار ، فاندفع جنود بيبرس الى المدينة ودخلوها ، وطلب سكانها الأمان فوافق السلطان على ذلك ، وخرجوا من يافا الى سفنهم التى حملتهم الى عكا ، وأمر الظاهر بهدم قلاع يافا •

حصن الكرك :

ثم استولى بيبرس على حصن الكرك ، ولهذا الحصن فى تاريخ النضال أهمية عظمى من عهد صلاح الدين الأيوبى :

امارة انطاكيــة :

وقــد هيأت له هــذه الانتصارات أن يتجه بضربة شديدة ضــد امارة أنطاكية ، وكانت أقوى الامارات الصليبية الباقية بالشام إذ كانت تتلقى امدادات من أوربا ، ثم لأنها كانت قــد عقدت معاهدة حربية مع المغول ضــد المسلمين ، وقــد حاصرها الظاهر بيبرس واستنفد حصارُها جهدا كبيرا ووقتا طويلا ، ولكن بيبرس تغلب عليها ، وأحال مدنها أطلالا ، وكان لسقوطها صــدى ضــخم ، إذ أدركت الجيوب الباقية للصليبيين عــدم استطاعتها البقاء فى وجــه المصريين ، فطلبت عقد صــلح مع السلطان ، وكان ذلك الصــلح بمثابة راحة واستعداد لجولات أخرى قام بها السلاطين المصريون بعد بيبرس •

ومما يذكر لبيبرس أنه كان يستعمل الرعب النفسى ليقلق أعــداءه بالاضــافة الى قوته العسكرية ، ومن ذلك أنه كتب الى بوهيمند أمير أنطاكية ، وكان هــذا عند سقوط امارته مقيما في طرابلس ، فأراد الظاهر أن يدمر نفسيته حتى لا يفكر فى استرداد امارته ، فكتب له خطابا طويلا جــاء فيه :

> **نزلنا أنطاكية فى مستهل رمضــان وخرج عساكرك للمبارزة فكُسِروا ، وتناصروا فمــا نصرُوا ، وفتحناها بالسيف رابع شهر رمضان ، وقتلنا كل من اخترته لحفظها والدفاع عنها ، فلو رأيت خيالتك وهم صرعى تحت أرجل الخيول ، وديارك والنهاية فيهــا تصــول ، وأموالك وهى توزن بالقنطــار ، وجواريك وكل أربع منهن تبعن بدينار ، ولو رأيت كنائسك وصلبانها قــد كُسرت ، وقبورَ البطارقة قــد بُعثِرَت •••• لتيقنت أن قوة الله أعادت أنطاكية الى أهلها الى الأبد ، وتركتك بدون عون أو مــدد •**

وبالاضافة الى البلاد التى فتحها الظاهر بيبرس كانت هجماته هنا وهناك لا تنقطع ، فلم يخل يوم من أيامه من ضربة للصليبيين وتدمير لسلطانهم ، وكان أحيانا ينال النصر كاملا ، وأحيانا يثير الخوف والرعب ، تمهيداً لهجوم آخر تكون فيه النهاية لأعدائه ، وقد وصف الظاهر بيبرس هذه السياسة بقوله : **أجيء عاما لأرعى زرعكم وأخرب دياركم ، ثم أعود فى العالم التالى اليكم لآخذ أرواحكم .**

ولا شك أن الذى يقرأ من المسلمين سيرة الظاهر بيبرس فى عصرنا الحاضر ، يتجه الى الله خاشعا متضرعا أن يمنحنا قائداً فى صلابته وموهبته ، ليستعيد الأرض السليبة ، وليقضى على أعداء الله الذين فجروا فى فلسطين محاولين الاستقرار فى أرض غير أرضهم ، وديار ليست بديارهم .

قلاوون

بعد الظاهر بيبرس جاء ابناه بركة خان وسلامش ، ولكن عصرهما كان قصيراً للغاية ، كان عصر الأول سنتين والثانى سنة ، ثم جاء الى الحكم واحد من أبطال السلاطين هو قلاوون . وفى عهده أغار المغول على حمص فى أول عهد قلاوون ، فزحف لهم السلطان وأوقع بهم هزيمة ساحقة مما جعلهم ينكمشون طيلة عهده ، وبهذا تفرغ قلاوون للصليبيين ، وكانت أولى معركة ضدهم **معركة اللاذقية** التى حاصرتها جيوش مصر حتى استولت عليها ، ثم جاء بعد ذلك دور امارة طرابلس وهى آخر امارات الصليبيين فى الشرق .

امارة طرابلس :

كانت طرابلس محصنة تحصينا قويا مكنها من أن تصـــمد حتى ذلك الوقت ، ومما مكّن لطرابلس أن البحر يحيط بها من أكثر الجهـات ، وبالتالى تتلقى فيض المعونات من أوربا ، ولكن قلاوون اختـــار الوقت المناسب للهجوم ، وفاجأ حراس طرابلس مفاجأة كانت شديدة التأثير عليهم ، فقـد جاءهم من طرق لم يتوقعوها ، وبعـدد وعدة لم يحسبوا لهـا أى حســاب •

وحاصر الجيش المصري طرابلس ، وبدأ يضربها بالمجانيق ، وأخذ بعض الجيش فى نقب الأسوار ، ولم تستطع طرابلس أن تصمد أكثر من شهر ، ثم سقطت بعد أن دمرتها قوات قلاوون وخربت حصونها ، ودخل المصريون المدينة وأسروا عددا كبيرا من جنودها واستسلم السكان •

وعقب سقوط طرابلس أرسل الســلطان قلاوون الى الملك المظفر صاحب اليمن رسالة توضــح فزع الصليبيين من هجوم جيش مصر ، وقـد جاء فيها : **قد تركناهم مسلوبى المزايا ، مشغولين بالرزايا ، أذلتهم عدم النصير ، وأصار هم الخوف بدون نصير** •

ولم يبق للصليبيين إلا صـور وبيروت وعكا ، وقد حاول قلاوون أن يستولى على هذه المدن ولكن المنية عاجلته وهو فى الطريق •

الأشرف خليل ومفخرة إسقاط عكـا

قاد الأشرف خليل الجيش الكبير الذى كان أبوه قد أعـده وزحف على عكا آخر مدينة محصنة بأيدى الصليبيين ، وقد تركز بها المنسحبون من الصليبيين من كل مكان ، ولذلك كانت منيعة وقوية ، وقد حاصرتها جيوش الأشرف خليل وألقت عليها وابلا من أسلحة الدمار ، ويقص شاهد عيان من المؤرخين صراع المسلمين حول عـكا بقوله : حارب المسلمون

مرة بالأبراج وأخرى بالمنجنيقات ، ورادفة بالدبابات ، وأحيانا بالكباش وآونة باللوالب ، وطورا بالنقب وآنا بطمّ الخنادق وآونة بالتسرب أو نصب السلالم بالاضافة الى الزحوف فى الليل والنهار من البر أو من فوق السفن (١) حتى ظنوا أن القيامة قد قامت ، ولم تجد عكا بدًّا من الخضوع للقوة فاستسلمت ، ودخلها جنود المسلمين ودمروا حصونها وأسروا أكثر رجالهـا .

وباستسلام عكا استسلمت صور وبيروت دون مقاومة فسلمتا من التخريب ، ودالت بذلك دولة الصليبيين فى الشام ، وانتهت فصول هذا الصراع الطويل .

ملاحقة الصليبيين خارج الحدود

الناصر محمد بن قلاوون :

وفى عهد الناصر حاول الصليبيون المطرودون والفارّون من الشام الهجوم على الساحل الاسلامى متخذين بعض الجزر فى البحر المتوسط مراكز لهم ، وقـد تصدى الناصر لهذا العدوان وأعد أسـطولا بحريا قويا ، لم يكتف بالدفاع عن الساحل الاسـلامى ، وإنما هاجم مراكز العدوان حتى أسكت صـوتها .

برسـباى :

وقـد حدث فى عهد برسباى حـدث كبير هو استيلاء المماليك على جزيرة قبرص وتهديد جزيرة رودس ، وكانت جزيرة قبرص قـد خضعت لسلطان ريتشارد قلب الأسد ، وأصبحت قاعدة لإمداد الصليبيين بالمعونة العسكرية ، وبعد طرد الصليبيين من الشام أصبحت جزيرة قبرص ملجأ

---

(١) نقلا عن « الاسلام والحضارة العربية » للأستاذ محمد كرد على جـ ١ ص ٣٠٢ .

للشراذم الآخيرة من الصليبيين الذين طردوا من الأرض الاسلامية ، كما أصبحت الجزيرة ملجأ للقراصنة ولأعداء العرب والمسلمين ، ومن هنا بدأ التوتر يظهر بين قبرص ودولة المماليك ، وهاجم القبرصيون سواحل مصر والشام عدة مرات فى مطلع القرن الخامس عشر الميلادى ، وقد اضطر برسباى أن يفكر فى احتلال قبرص ، فأرسل لها بضع سفن لجس نبض القوة بالجزيرة ، فعادت هذه السفن بالغنائم والأسرى مما شجع برسباى على الزحف للاستيلاء على الجزيرة ، وقد تم ذلك سنة ٨٣٠ — ١٤٢٦ م وخربت الجزيرة أمام قوى المصريين وأسر ملكها وجىء به الى القاهرة ، وظل بها حتى افتدى نفسه بفدية كبيرة ، وبقيت الجزيرة تحت سيطرة المماليك ، وظلت تدفع جزية سنوية حتى دخل العثمانيون مصر •

أما رودس فقد حاولت مناصرة جزيرة قبرص ، ولكن قوى مصر تصدت لهـا فى عهد السلطان جقمق وغزتها ثلاث مـرات حتى أسكتت صـوتها •

أسباب فشل الحروب الصليبية

أعلنت أوربا كلها العداء للشرق ، واختارت الوقت المناسب لتعلن العداء وأهدافه ، ووضعت أوربا كل إمكانياتها وكل شبابها فى خدمة هذا الهدف ، ولكن الفشل كان نصيبها وآبت من هـذه الجولة الطويلة بخفى حنين كما يقول المثل العربى ، ويختلف الكُتّاب الفرنجة فى ذكر الأسباب التى أدت لهذا الفشل الذريع لتلك الحروب التى قضت دون نتيجة على مئات الآلاف من القتلى ، والتى دمّرت الكثير من العمران طيلة قرنين حالكين من الزمان ، وسنقتبس فيما يلى خلاصة ما يذكرون من أسباب :

ســوء سياسة الكنيسة :

فيرى بعض الكتاب أن الفشل كان نتيجة لسياسة **الكنيسة** التى كانت تضـع مصلحتها فوق كل مصلحة ، وكان لا يهمها النصر بمقدار ما يهمها أن تجنى هى نتائجه ، ومن هنا لم تبارك النصر العجيب الذى حصل عليه فريدريك الثانى ، وأعلنت حرمان الامبراطور المنتصر ، وحاصرت روحيا الأماكن المقدسة فتوقف سيل الحجاج اليها طيلة إقامة فريدريك بهـا .

أمراء الإقطـاع :

ويلقى بعض الكُتّاب اللوم على **أمراء الإقطاع** الذين اهتموا بمصالحهم الخاصة وتكوين إمارات يحكمونها ويورثونها أولادهم ، أكثر من اهتمامهم بالصـالح العام الأوربى والمسيحى ، فلم يكن الصليب إلا وسيلة للتغرير بالجماهير ، كأنه غطاء يخفون به أطماعهم الشخصية ، ولكن هذا الإحساس اتضـح لكثير من المسيحيين فقلل من حماستهم للحرب .

التجـار الأوربيون اتجهوا للمـال :

وجماعة ثالثة من الكتاب تنسب الهزيمة **للتجار الأوربيين** الذين أقدموا فى كثير من الحالات على عقـد معاهدات تجارية مع المسلمين ، إذ كان

الهدف الاقتصادى هو أهم باعث لهم على خوض هذه الحروب والتشجيع عليها ، فلما رأوا الهـدف يتحقق بطريق المعاهدات مع المسلمين آثروا السلامة وخذلوا ذويهم من المسيحيين .

الصليبيون يكتفون بزحف التتار :

ومن أسباب فشل الحروب الصليبية زحف التتـار المدمر الذى بدأ على العالم الاسلامى فى مطلع القرن الثالث عشر ، وراح يهدم المـدن ، ويلهب السيوف فى رقاب المسلمين . ويدمر الحضـارة الاسلامية ، فقد كان الصليبيون يعملون لنفس الغاية ، فلما رأى الأوربيون زحف التتار يحقق لهم نفس الهدف أغناهم ذلك عن مواصـلة بذل الجهد من جانبهم ، وقنعوا بهـذا السيف الحاد الذى تسلط على رقاب أعدائهم المسلمين . فلم يقدموا مزيدا من العون للصليبيين بالشرق (١) .

وقـد عقد الصليبيون حلفا مع التتار ليتعاونوا معا ضد المسلمين ، ولكن التتار كانوا يؤدون المهمة التى أرادها الصليبيون ولو بدون حلف أو مسـاعدة من أحـد ، ولذلك رأى الصـليبيون أن التتار وحـدهم يوفون بالغرض ، فتركوا الميـدان لهم ، وتوقف عـون أوربا لفتيانهـا المعتدين (٢) .

تجمع المسلمين وقت الشـدة :

ومن أسباب فشل الصليبيين تجمع المسلمين من مختلف الأنحـاء لمواجهتهم ، وسرعان ما اتضـح للصليبيين أنهم ليسوا فقط أمام مصر وسوريا ، بل أمام القوى الاسلامية من مختلف البقاع .

ومن أسباب فشل الصليبيين فى هذه الحروب تلك الحماسة التى

---

(١) انظر المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ٢٩١ — ٢٩٢ .

(٢) انظـر : Kirk : A Short History of the Middle East p. 79.

أظهرها المسلمون ولم تكن فى حسبان المسيحيين • فلم يكد المسـلمون يـهزمون فى الشوط الأول من هـذه الحروب حتى تناسوا الى حد كبير مـا بينهم من خصـومات ، وتجمعت كلمتهم لاسـتعادة الأرض التى افتقدوها ، ويتضح هذا من ميل المصريين الى نور الدين زنكى وترحيبهم بصلاح الدين الأيوبى ، وميل حاكم دمشق لنور الدين وتسليمه المدينة اه ، كما يتضح فى ظروف كثيرة تغلب الجانب العام فيها على المصالح الخاصة ، ووقفت الجماهير تنصر من يعمل لتجميع الكلمة ، وتخذل من يسعى لمصالح ذاتية كما رأينا من قبل •

نتائج الحروب الصليبية

فشل الصليبيون فى استعمار الشرق خلال العصور الصليبية ، ولكنهم على العموم كسبوا الحرب مع المسلمين ألوانا من الفوائد الثقافية والدينية والاجتماعية ، وقد دون مؤرخو الفرنجة هذا الكسب ، ومنهم نقتبس العبارات الآتية :

اقتباس الثقافة الاسلامية :

يقول Kirk إن للحروب الصليبية أهمية لا تقدر فى تاريخ الثقافة بأوربا ، بسبب ما كان لها من عظيم الأثر فى تفتيح أذهان الناس الى مستوى الحضارة فى الشرق الأوسط ، ذلك المستوى الذى كان يفوق حضارة الغرب بكثير ، ولم تفد بلاد شرق البحر المتوسط من معارف الصليبيين شيئا يذكر اللهم إلا فى بعض المنشآت والخطط الحربية (١) ٠

ويقرر Emerton (٢) أن الثقافة التى حصل عليها الصليبيون من المسلمين انتزعت الصليبيين من الحياة البربرية ودفعتهم قدما الى عالم الحضارة ، ويرجع هذا الباحث تاريخ اقتباس الأوربيين من المسلمين الى عهد شرلمان مقررا أنه منذ ذلك العهد أخذت حضارة المسلمين الأصيلة ، وحضارة اليونان التى أعاد المسلمون ابرازها فى حلة جديدة ، أخذت طريقها الى أوربا ، ولم ينقطع اقتباس الأوربيين من المسلمين طيلة القرون التى سبقت الحروب الصليبية ، وكان هذا الاقتباس عن طريق لقاء المسلمين بالأوربيين فى صقلية وأسبانيا ، فلما جاءت الحروب الصليبية كانت سوريا ميدانا لهذا اللقاء ، وبخاصة فى فترات السلم والمعاهدات ، حيث زاد الاختلاط وكثر التعامل ، وبالتالى كثرت الاقتباسات العلمية ٠

---

(١) A Short History of the Middle East p. 71.

(٢) Midiaeval Europe p. 393. f.

وفى الناحية الأدبية كان اقتباس الصليبيين أكثر وأوسع ، فلقد أصبح الصليبى واسع الخيال كثير الحساسية ، فالبعد عن الوطن ، والتحرر الذى حصل عليه العبيد لأول مرة ، والمخاطرات التى شهدوها فى الطريق وفى المعارك ، كل هذا انعكس شعرا جميلا وأقاصيص ممتازة ٠

تصحيح فكر الغربيين عن المسلمين :

وكان الأوربيون يسمعون من القسس أشياء كثيرة عن المسلمين ، ولكن هاهم المسلمون أصبحوا فى مرأى العين بالنسبة للصليبيين فوجدوا فيهم انسانية عالية ، وشرفا وشجاعة ووفاء بالوعد ، وغير ذلك من الصفات التى لم يكونوا يسمعون بها وهم فى ديارهم ، وقد ساعد ذلك على تكوين الناحية الانسانية فى الأوربيين ولم تكن هذه الناحية من قبل ذات بال عندهم ٠

أخلاق جديدة عاد بها الصليبيون :

وعندما عاد الصليبيون الى أوربا لم يعودوا الى مباشرة حياتهم على النحو الذى كانوا عليه قبل هذه الرحلة ، بل عادوا بأخلاق جديدة ، وثقافة جديدة ، وتفكير جديد ، وأكثر من ذلك ، لقد ألفوا التجوال والرحلات ، ولم تعد حدود الاقطاع تقف حائلا أمامهم ، فراحوا فى كل ربوع أوربا ينشرون هذا الفكر الجديد ، حتى أن كثيرين منهم كان يمكن أن يُعَدّوا مدارس متنقلة فى ربوع أوربا ٠

تقليد المسلمين فى التجارة والصناعة :

ومن الناحية التجارية كانت هناك علاقة كبيرة بين المسلمين والصليبيين ، اذ وضع الصليبيون أيديهم على كثير من موانى المسلمين بسوريا ، فأصبحت هذه الموانى مفتوحة للتجارة حتى يحصل الأوربيون على حاجياتهم ، ومن الملاحظ أن الأوربيين عجزوا عن تطوير الصناعة

بالشرق الأوسط ، بل عجزوا عن تقليد جيرانهم فيما وصلوا له من إتقان فى هذا المجال ، وذلك لأن حكـام الامارات لـم تكن لهم خبرة بالأمور الصناعية ، فقد جاءوا من عالم الإقطاع فلم يكن الواحد منهم يصلح الا كمالك للأرض ، وكان كل منهم حريصا على أن يحصل على الربح دون كثير عناء ، وهكذا أصبح الصليبيون فى حاجة الى كثير من منتجات المسلمين وبخاصة الى الأسلحة والخيول والملابس والحبوب •

ســك النقــود :

واضطرهم ذلك الى صك النقود ، ولم تكن النقود ضرورية لهم من قبل ، اذ أن النظام الاقطاعى لم يكن يمنح الموظفين به نقودا ، ولا مرتبات منتظمة ، بل كان يمنحهم شيئا ماديا يمكنهم استبداله بما يحتاجونه ، ولكن هذه الحال لم تكن ممكنة فى سوريا ، فالبائعون لم يكونوا ليمنحوا حاصلاتهم دون أثمان يتقاضونها عند التسليم •

الإلهام والأساطير :

ويختم Emetron (١) حديثة عن نتائج الحروب الصليبية بقوله ان حياة أوربا اغتنت خلال الحروب الصليبية ، لأنها اقتبست من حيـاة المسلمين ألوانا من الفكر والثقافة ، ولا شك أن أفق أوربا اتسع بارتباطها ببلاد الشرق ذات الإلهـام والأساطير ، ولئن فشـلت أوربا فى تحقيق هدفها فقد كسبت ما هو أعظم منه ، فالحقيقة أنه ليس مهما أن تسيطر أوربا على الأماكن المقدسة ، وانما المهم أن هذا الهدف حقق مالم يكن فى الحسبان وهو النهضة الأوربية ، ولم تغفل أوربا ، ولا عيون الأوربيين بعد أن تفتحت هذه العيون فى الشرق •

---

(١) Midiaval Europe p. 397.

جهل الصليبيين قلل استفادتهم :

ويرى غوستاف لوبون أن استفادة الصليبيين من علوم العرب كانت أقل مما يجب ، ويعلل ذلك بقوله : ان الجيوش الصليبية كانت جاهلة ، ولم تكن لتبالى بالمعارف ومن أجل هذا كانت عنايتها أكثر فى ميدان البناء والعمران والصناعة أكثر منها فى ميدان الفكر والفن (١) .

تلاميذ أمام علماء المسلمين :

ويقول هرنشو المؤرخ الانجليزى . . . . وقد خرج الصليبيون من ديارهم لقتال المسلمين ، ولكنهم سرعان ما جلسوا عند أقدامهم يأخذون عنهم أفانين العلم والمعرفة . ولقد بهت أشباه الهمج (الصليبيون) عندما رأوا المسلمين ينعمون بحضارة علمية ترجح حضارتهم رجحانا لا تصلح معه المقارنة بينهما (٢) .

مقـــارنة :

ويقول الدكتور فيليب حتى (٣) : ان الافرنج قصدوا الأراضى المقدسة وهم يحسبون أنفسهم أرفع منزلة من أهلها ، وكانوا يظنون أن أهلها وثنيون يعبدون محمدا ، ولكن ما كادوا يتصلون بهم حتى زالت الغشـــاوة عن عيونهم .

أما الأثر الذى تركه الفرنجة فى مخيلة المسلمين فان أســامة بن منقذ (٤) يعبر عنه بقوله : انهم بهائم فيهم فضيلة الشجاعة والقتال لا غير .

---

(١) حضـارة العرب ص ٣٣٨ .
(٢) علم التاريخ لهرنشو تعريب الأستاذ عبد الحميد العبادى .
(٣) History of the Arabs p. 761.
(٤) الاعتبار ص ١٣٢ .

ويقول الدكتور فيليب حتى فى موضع آخر (١) : وغالب الظن أن تدابير الاستشفاء إنما انتظمت فى الغرب بحوافز تسربت من الشرق ، ففى القرن الثانى عشر ظهر فى أوربا عدد من المستشفيات ودور الصحة ، لا سيما محاجر الأمراض السارية ، بحيث يسوغ اعتبار المستشفيات الأوربية وليدة نظائرها فى سوريا .

ويقول كذلك : لقد أبدع الصليبيون حقا فى مجال البطولات والمعارك ، الا أنهم كانوا دعاة لخيبة الأمل فى مآتى الفكر ومآثر الحضارة ، فكانوا من حيث فاعليتهم الحضارية أبعد تأثيرا فى الغرب منهم فى الشرق ، اذ فتحوا أمام بصائر الأوربيين آفاقا جديدة ، صناعية وتجارية واستعمارية ، ولم يخلفوا فى الشرق الا النفور بين المسلمين والنصارى الذى لا يزال باقى الأثر حتى اليوم .

التأثر الاجتماعى :

وتأثر الفرنجة كثيرا بجيرانهم المسلمين فى اللباس ، فقد أقلعوا عن لباسهم الأوربى وتعلقوا بالأزياء الوطنية التى كانت أدعى الى الراحة ، واكتسبوا شيئا من الذوق الشرقى فى الأطعمة والأشربة ، أخصه ما يتعلق بالسكر والتوابل ، وآثروا لمساكنهم البيوت الشرقية الطراز ، وما فيها من إيوانات واسعة ومياه جارية .

ويرى Henne - Am Rhyn's (٢) أن تطورات العصور الوسطى فى شتى النواحى بأوربا معزوة الى هذه الحروب ، فقد عملت فى المحيط الدينى على محو نفوذ البابية ، ناهضت الرهبنة مناهضة لم يمكن أن ترجع بعدها الى عهدها الأول ، وفى المحيط الاجتماعى والاقتصادى أدت الى مساواة أعم بين الطبقات ، والى تقدم الصناعة والتجارة ، وفى ميدان

---

(١) تاريخ سوريا : ج ٢ ص ٢٥٠ — ٢٥١ .

(٢) التاريخ العام ص ٤٩٨ — ٥٠٠ .

السياسة أعقب هذه الحروب قيام الدول والحكومات المركزية ، وفى عالم الثقافة الواسع ظهر كبار المفكرين فى الفلسفة بعد الحروب الصليبية وما تبعها من اتصال بالعرب ، وحتى التصوف تلون بلون العلم ، واتسع نطاق دراسة اللغات القديمة ، وازدادت خصوبتها ، واكتسبت علوم التاريخ والجغرافية نشاطا جديدا .

يرى Hans Pantz (١) أن الحروب الصليبية كانت العامل الوحيد فى تقدم أوربا وانتقالها من عهد الى عهد .

ويرى Oman (٢) أن استخدام الدرع للفارس ولفرسه فى الغرب مأخوذ عن الشرق ابان الحروب الصليبية ، كذلك كان استعمال الحمام الزاجل فى الحروب شيئا جديدا عرفته أوربا من العرب .

نواة الاستشراق :

ووضعت الحروب الصليبية نواة الاستشراق ، اذ اتجه الرهبان لدراسة اللغة العربية والفكر الاسلامى لمعرفة اتجاهات المسلمين فى مختلف الشئون ، وقد أسست كلية للرهبان سنة ١٢٧٦ م . فى ميراما لدراسة اللغة العربية ، كما أنشئت الكراسى للغات الشرقية فى باريس ولوفان (٣) .

الارساليات والتبشير :

ولجأ المسيحيون للاعتماد على الارساليات المسيحية للتبشير بين المسلمين ، فقد اقتنع رجال الفكر بفشل الحروب ، واخفاق الوسائل

---

(١) Kulturgeschichte der Kreuzzuge.
(٢) Oman C. W. The Art of War in the Middle Ages p. 112.
(٣) Barker : The Legacy of Islam p. 125.

العسكرية فى معاملة المسلمين ، فأخذوا يركزون الاهتمام على الوسائل السلمية ، ومن مؤسساتهم فى هذا المضمار مدارس الفرنسيسكان والدومينكان التى أنشئت فى أوائل القرن الثالث عشر فى سوريا وتنسب الأولى الى القديس فرنسيس والثانية الى القديس دومنيك (١) ، وكان المبشر يعد لهذه المهمة قبل أن يرسل لمباشرتها ، ومن أهم وسائل اعداده ، تعليمه اللغة العربية وشيئا من الدراسات الاسلامية ، وأصبح ذلك دستور التبشير الى العهد الحاضر .

نهاية النظام الإقطاعى :

وكان النظام الاقطاعى من أهم الدوافع للحروب الصليبية ولكن النظام الاقطاعى انتهى تقريبا مع انتهاء هذه الحروب ، فقد أدرك الصليبيون أن الدول أبقى وأقوى من امارات الاقطاعى ، وبخاصة أنهم أدركوا أن عدم التجانس فى جيوشهم وقلة الوحدة فى قيادتهم كانت من أسباب هزائمهم أمام الجموع الاسلامية ، ومن ثم بدأت تظهر الدول ، واتجهت هذه الدول الى نوع من الوحدة الأوربية لا يزال واضح الأثر فى حياة أوربا .

تحرر رقيق أوربا :

ومما يتصل بالاقطاع الأوربى كذلك نذكر أن الحروب الصليبية كانت عاملا هاما من عوامل تحرير رقيق الاقطاع ، فالذين التحقوا بالجيوش الصليبية من الرقيق نالوا حريتهم كما ذكرنا من قبل ، وقد أشاع هذا الوضع فكرة امكانية التحرر للعبيد ، وبخاصة أن الصليبيين لم يجدوا أرقاء فى الجيوش الاسلامية ، ووجدوا فكرة التحرر سائدة فى الشرق بوسيلة أو بأخرى ، لمن كان الرق قد فرض عليهم ، ثم إن ملاك الاقطاع باعوا بعض اقطاعاتهم ليعدوا أنفسهم للمساهمة فى الجيوش الصليبية ،

---

(١) فليب حتى : تاريخ سوريا ج ٢ ص ٦٣ .

وباعوا أحيانا لسكان الاقطاع حريتهم ، وبذلك أصبح شراء المدن لحريتها مبدأ عاما ، فقامت مدن مستقلة ، وأصبح ارتباط هذه المدن بملك فرنسا مثلا ارتباطا مباشرا وليس عن طريق مالك الاقطاع (١) .

بروز سلطان الملوك أو امراء الاقطاع :

ولعل مما يتصل بذلك أن نذكر أن أمراء الاقطاع فى فرنسا وايطاليا أسهموا فى الحروب الصليبية أكثر مما أسهم أمراء الاقطاع فى انجلترا وألمانيا ، وقد نتج عن ذلك فيما يتعلق بفرنسا وايطاليا بروز سلطة الملك على حساب انحلال سلطة أمراء الاقطاع ، وحدث عكس ذلك بالنسبة لألمانيا وانجلترا فان ملوكها تورطوا في هذه الحروب دون أمراء الاقطاع ، مما قوي نفوذ الأمراء على حساب سلطان الملوك ، ويرى بعض الباحثين (٢) — كنتيجة لذلك — ان أصول دستور انجلترا السياسى المتين ترجع الى حوادث الحروب الصليبية .

وقد وفد على الشام أمراء الاقطاع لتكوين ثروات لهم عن طريق الزراعة فى أرض الشرق الخصبة الواسعة ، ولكن الحروب المستمرة حالت دون تطور الزراعة وكسب المال عن طريقها ، ولذلك لجأ كثير من الصليبيين الى انشاء المدن والاشتغال بالتجارة لكسب المال عن طريق التجارة ، فكان إنشاء المدن التجارية من نتائج هذه الحروب ، وقد ظهرت عملة مشتركة يمكن أن تستعمل فى البلاد الاسلامية ، وفى امارات الصليبيين ، بل فى أوربا نفسها ، وكانت هذه العملة من عمل الصليبيين وتحمل بعض آيات قرآنية كما تحمل التاريخ الهجرى (٣) .

---

(١) انظر حضارة العرب لغوستاف لوبون : ص ٣٣٥ .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٦ .

(٣) The Legacy of Islam p. 621.

عداء سافر من القسطنطينية :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين رأوا فى القسطنطينية عدوا يجب التغلب عليه وازالته من الطريق ، فالقسطنطينية هى التى استعانت بالصليبيين ضد المسلمين ، وهى التى مهدت لهم الطريق وأمدتهم بألوان من العون فى معمعة هذه الحروب ، وعلى هذا بدأت حماسة المسلمين التى انتهت باسقاط العاصمة الكبيرة على يد الأتراك العثمانيين بعد ذلك بحوالى قرن ونصف (سنة ١٤٥٣ م) وانتهت بذلك الحروب حول القسطنطينية ، تلك الحروب التى استمرت حوالى ثمانية قرون •

نواة التجسس :

ومن نتائج الحروب الصليبية أن المسلمين أدركوا أن هزائمهم الأولى كانت بسبب جهلهم بمعرفة أخبار عدوهم ، فى حين كان العدو يعرف أخبارهم بدقة ولذلك عمل المسلمون على تلافى هذا النقص فأصبحوا أكثر عناية باستقصاء أخبار الصليبيين بحيث لا تفوتهم صغيرة ولا كبيرة من أحوالهم ، فلم يعد يخلو مكان من صاحب خبر وبريد ، بحيث لم تعد تخفى على المسلمين أخبار الأقاصى والأدانى ، وكان ذلك من الأسباب التى حققت انتصارات المسلمين فيما بعد (١) •

أضرار لحقت بالمسلمين

تدمير الكثير من المدن الإسلامية :

ولكن وجود الصليبيين بهذه البلاد مدة قرنين من الزمان عاد عليها بأبلغ الأضرار لما اقترن به اجلاؤهم النهائى عنها من تدمير بعض المدن العظيمة أمثال أنطاكية وطرابلس وعكا •

ويعيد بعض الباحثين الى هذه الحروب مسئولية الانهيار الذى

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية ج ١ ص ٣٠٦ •

تعرضت له البلدان العربية فى أواخر العصور الوسطى بعد أن استنفدت هذه البلدان جهودها فى الدفاع عن كيانها ، وكرست مواردها ونشاطها للقضاء على الأخطبوط الصليبى الذى ثبت أقدامه فى بقعة بمثابة القلب من الوطن العربى ، وأخذ يسعى من ذلك المركز المتوسط الى تهديد بقية الشام والعراق ومصر والحجاز ، فضلا عن المغرب والأندلس (١) .

الاستعمار :

ومن النتائج القاتمة للحروب الصليبية أنها فتحت عيون الأوربيين للاستعمار ، فقد كانت هذه الحروب أول تجربة من الاستعمار الغربى قامت بها الأمم الأوربية خارج أوربا لتحقيق مكاسب اقتصادية واسعة النطاق ، وقد بقيت الأطماع الاستعمارية حتى اليوم .

عدم التسامح :

ومن أشأم نتائج الحروب الصليبية أن ساد عدمُ التسامح العالم عدة قرون ، وان صبغته هذه الحروب بصبغة القسوة والجور وهو مالم تعرفه ديانة من قبل خلا اليهودية ، أجل ، كان العالم قبل الحروب الصليبية يعرف الشيء الكثير من عدم التسامح ، ولكن نَدَرَ أن كان عدم التسامح يصل الى هذا المدى من الجور والطغيان ، وان ما نعانيه الآن من نفرة بين الشرق والغرب ليس الا نتيجة لعدم التسامح الذى خلقته الحروب الصليبية ، ثم ان رجال الدين المسيحى بعد أن حرضوا على القتل والتعذيب فى الشرق عادوا الى الغرب وقد تأصلت فيهم هذه الروح ، فمارسوا هذه الفظائع مع كل من خالفهم فى دين أو مذهب ، وقد نتج عن سريان روح عدم التسامح ، مذابحُ اليهود ، والفظائع التى أرتكبت فى الحروب السياسية ومحاكم التفتيش وأمثال هذه مما ضرَّج أوربا بالدماء على مر السنين (٢) .

* * *

---

(١) دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية جـ ١ ص ٣ .

(٢) غوستاف لوبون : حضارة العرب ص ٣٣٤ — ٣٣٥ .

نماذج لبطولات اســـلامية

وفى ختام هذا البحث نورد بعض نماذج قليلة لأعمال البطولة والشرف التى قام بها المسلمون والتى شهدها عصر الحروب الصليبية ، فقد أبرزت هذه الحروب صورا ينحنى أمامها القلم مأخوذا بما بها من شرف الإسلام ومجد العروبة ، وبطبيعة الحال كان هناك أشباه رجال آثروا أمجادهم الشخصية وفضلوا الدنيا الزائلة على خلود الذكر وثناء التاريخ ، ويروى لنا المقريزى وابن تغرى بردى صورا تحمل هذين الاتجاهين نورد منها صورة عبقة ، سبق أن أشرنا لها آنفا ، ففى سنة ١٢٤٠ تحالف اسماعيل صاحب دمشق مع الصليبيين على غزو مصر ، وجمع هذا جيشا من أهل الشام سار به متعاونا مع الجيش الصليبى لتحقيق هذا الهدف ، ولما أشرف الجيش الشامى على غزة وأصبح عليه أن يتخذ موقفه ضد الجيش المصرى مؤيدا للصليبيين ، حدثت المفاجأة التى لـم يتوقعها الحـاكم الخائن ، ولم يتوقعها الصليبيون ، تلك أن عساكر الشام استداروا فى لحظة سريعة ، وانضموا الى الجيش المصرى ، ومالوا جميعا على الجيش الصليبى فهزموه شر هزيمة (١) .

* * *

بطولات خلقية :

وعندما دخل صلاح الدين الأيوبى بيت المقدس ظافرا وضع شروط الصلح ، وكان منها أن يؤدى الفرنجة مالا يفتدون به أنفسهم ، ولكن كثيرين من فقرائهم عجزوا عن تأدية ما فرض عليهم ، فأخلى صـلاح الدين سبيل ألف منهم نزولا على رغبة أخيه ، وتوسط البطريرك لفريق آخر منهم فأطلقه السلطان ، ثم قال صلاح الدين : لقد زكى كل من أخى والبطريرك عن نفسيهما وانه ينبغى ألا يفوتنى أن أزكى عـن نفسى ، وأطلق سراح الباقين دون فدية .

---

(١) السلوك جـ ١ ص ٣٠٥ والنجوم الزاهرة جـ ٦ ص ٣٢٣ .

صراع لوجه الله :

وفى أثناء حصار عكا كان هناك رجل من دمشق يشرف على آلات النفط وتحضير المواد اللازمة للمفرقعات ، فأحرق ثلاثة أبراج للعدو ، فأمر صلاح الدين بأن يمنح جائزة ، ولكن الرجل رفض قبولها وقال انما فعلته لله ولا أريد الجزاء الا منه (١) .

* * *

أدّى الأمانة وهو ميت :

وكان هذا الحصار محكما ، وكانت وسيلة صلاح الدين للاتصال بحامية عكا هى الحمام الزاجل والسباحون ، وفى احدى المرات غرق سباح شد على وسطه أكياس المال وعدة رسائل للجند ، وغاصت الجثة فى الماء وحملها التيار حتى قذف بها البحر عند الحامية المحاصرة ، فتعرف المسلمون على الجثة وأخذوا المال والرسائل ، وأوحت هذه الحادثة لابن شداد أن يقول : فما روى من أدى الأمانة فى حياته وبعد مماته الا هذا الرجل (٢) .

* * *

عطف :

وفى أثناء الصراع حول عكا غنم المسلمون فيما غنموه طفلا رضيعا ولما عرفت أمه ذلك صاحت باكية مستغيثة ، وأمضت ليلة مريرة ، ولما يئس قادة الفرنجة من تهدئتها ، حاولوا التخلص منها فأوعزوا لها أن تذهب الى معسكر المسلمين تطلب استعادة الطفل ، وكانوا يريدون دفعها الى

---

(١) ابن خلدون ج ٥ ص ٣٢١ .

(٢) سيرة صلاح الدين ص ١٢٠ .

حتفها ، ولم تفكر المرأة فى مصيرها ، ولكنها اندفعت نحو هذا المعسكر تطلب مقابلة صلاح الدين ، وقادها جند صلاح الدين الى معسكره ، وهناك وجدته راكبا فى طريقه الى الميدان ، فاعترضته واستغاثت به ، فَرَقَّ لها قلبه وسألها عن حاجتها ، ولما عرف قصة طفلها لم يبرح المكان حتى أعيد اليها ، فاحتضنته وأرضعته ساعة ، وصلاح الدين واقف يظهر السعادة بهذا المنظر ، ثم أمر بها فحملت على فرس وألحقت بمعسكر الفرنجة مع طفلها .



جهود المرأة :

ولم تقتصر الشجاعة التى أبداها المسلمون فى الحروب الصليبية على الرجال ، بل أسهمت المرأة بنصيب كبير فى هذه المعارك ، ويروى أسامة ابن منقذ أن عجوزاً يقال لها فنون ، أخذت سيفا وخرجت الى القتال وأبلت فيه .

وأن امرأة من شيزر استطاعت أن تأسر ثلاثة من الصليبيين واحدا بعد الآخر ، وكانت كلما أسرت واحدا حبسته فى بيتها ، ثم استدعت جيرانها ليتسلموا الأسرى ويأخذوهم الى معسكر القائد .

وقد أشرنا من قبل الى أن الباطنية (الحشاشين) تعاونوا أحيانا مع أعداء صلاح الدين ، كما تصدوا الى حربه ومحاولة الاعتداء عليه ، وفى النضال بين قوات صلاح الدين وبين قوات الباطنية حول حصن شيزر ارْتَدَتْ أمُّ ليث الدولة يحيى خوذة وزردا ، وتسلحت بسيف وتُرْس وشاركت فى القتال .

ويروى أسامة كذلك أن أَمَةً زودتْ ابنتها الكبرى بالسلاح وأمرتها بالخروج للقتال ، وفى معمعة المعركة كشفت هذه الفتاة عن نخوة أشد من نخوات الرجال ، كما يروى أسامة ذلك .

* * *

الوطن اغلى مـن الولـد :

ولم تأخذ الناسَ ولا قادتهم هوادة فيمن كانوا يفتّون فى عضد المسلمين ، أو يتهمون بأن هواهم كان مع الصليبيين حتى أن صفوة الملك (خاتون) عندما علمت أن ابنها شمس الملوك متعاون مع الصليبيين دبّرت من يقتله ، فقد كانت بلادها أغلى عليها من ابنها الخائن (١) .

---

(١) محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية جـ ١ ص ٣٠٢ .

الإمبراطورية العثمانية

«تركيا»

الأتراك العثمانيون : نشأتهم وتطورهم

آسيا الصغرى مفتاح لتاريخ طويل :

انتهى الزحف الاسلامى الأول شمالى الشام عند حافة آسيا الصغرى ، وأصبحت الحدود بين المسلمين والبيزنطيين فى هذه المنطقة مثار معارك متصلة تقريبا ، ولكن هؤلاء وأولئك اكتفوا بالغارات التى لم يقصد بها الاحتلال والاقامة وانما قصد بها التخويف والاستيلاء على الغنائم والأمتعة • وظل الحال كذلك حتى عهد السلاجقة ، وفى هذا العهد اقتحم السلاجقة آسيا الصغرى ، وخاضوا معارك كان يقصد بها القضاء على البيزنطيين فى تلك البقاع وطرد سكانها الروم من آسيا نهائيا ، وقد نجح السلاجقة فى ذلك فأوقعوا سنة ١٠٧١ م هزائم حاسمة بالجيوش البيزنطية فى موقعة ملاز كرد التى سبق أن تحدثنا عنها ، واستولوا فى أثرها على معظم آسيا الصغرى التى لم يتح للعرب فتحها قط ، وجعلوها مقرا لنزول الأتراك فيها (١) •

وقد كان هذا التصرف مثيرا لأوربا فكان من العوامل التى سببت الحروب الصليبية كما رأينا من قبل •

هذا من جهة ومن جهة أخرى كان الأتراك العثمانيون من بين الطوائف التى اشتركت فى هذه المعارك وأقامت فى آسيا الصغرى واضعة بذور الدولة العثمانية التى ستظهر فى الأفق فيما بعد •

---

(١) Kirk ; A Short History of the Middle East p. 67.

وانظر سلاجقة ايران وفارس للدكتور عبد النعيم حسنين ص ٥٧ •

أصل الأتراك العثمانيين :

والأتراك العثمانيون ينسبون الى عشيرة قابى احدى قبائل الغزو التركية ومَنْشؤها بلاد تركستان ، وأقدم زعيم معروف لهذه العشيرة اسمه سليمان ، وكان يهيم بقبيلته فى آسيا الصغرى بعد موقعة ملازكرد ، وقتل سليمان عند مشارف حلب ، وترددت فـروع القبيلة بين العودة لموطنها الأصلى أو مواصلة المغامرة ، وانقسمت القبيلة فى ذلك ، فاختار ابنه أرطغرل مواصلة السير ، فدخل آسيا الصغرى والتحق بخدمة الأمير السلجوقى (علاء الدين الثانى) الذى كان يواصل الحرب ضد البيزنطيين وساعده فى هذا الكفاح ، وأبلى فى ذلك بلاء حسـنا ، فأقطعه السـلطان السلجوقى المستنقعات الواقعة على الحدود البيزنطية ، وترك له توسيع ممتلكاته على حساب البيزنطيين ، فاتخذ « شكود » عاصمة له ، وولد له ابنه عثمان سنة ١٢٥٨ ، ونشأة أبوه تنشئة حربية ، وأصبح خير عون لأبيه فى حروبه وفى أعماله الادارية ، وفى هذه الأثناء كانت الحروب الصليبية تدور وشغلت جانبا كبيرا من نشاط البيزنطيين مما أتاح فرصة الاستقرار للعثمانيين •

عثمـان :

توفى أرطغرل سنة ١٢٨١ متجاوزا التسعين من عمره فتولى عثمان مكان أبيه بموافقة علاء الدين السلجوقى ، وسار عثمان سيرة أبيه فى مساعدة السلجوقيين وتأييدهم فى حروبهم ، فزاد علاء الدين فى اكرامه ، ومنحه نوعا من الاستقلال ، وأقطعه كافة الأراضى والقلاع التى فتحها ، وأجاز له ضرب العملة باسمه ، كما أجاز أن يذكر اسمه فى خطبة الجمعة مقرونا باسم السلطان السلجوقى ومنحه لقب (بك) ، وهكذا قرب عثمان من الاستقلال التام ، وصار زعيم امارة من أهم الامارات ، واستمر فى التوسع حتى استولى من دولة الروم الشرقية على مدينة « قرة حصار » فاتخذ هذه المدينة عاصمة له •

السلطة العثمانية :

زالت دولة السلاجقة من آسيا الصغرى سنة ٦٩٩ = ١٢٩٩ بمداهمة المغول ، وتوفى السلطان علاء الدين فى نفس العام ، فأعلن عثمان استقلاله التام مكونا السلطنة العثمانية التى أخذت تسميتها من اسمه ، ووفد له أمراء البيت السلجوقى وأعيانه ليعيشوا فى كنفه وحمايته ، ووفدت له أيضا جماعات المجاهدين ضد التتار ، كما وفد له الصوفية والمغامرون وبعض العلماء ، اذ لم يبق فى هذه البقاع الا العثمانيون ملجأ للمسلمين بعد زحف التتار وطغيانهم ، ولم يبق الا العثمانيون يرفعون السيوف ضد أعداء الاسلام البيزنطيين • ووفد كذلك على الدولة العثمانية الجديدة عناصر تركية ترفد الأتراك العثمانيين •

وانتهز عثمان فرصة انشغال المغول بحروبهم مع سلاجقة قونية فسار فى فتوحاته ووسع مملكته •

وانتهى الطوفان الأول للمغول ، ذلك الطوفان الذى قاده جنكيزخان وهولاكو ، ولم يصل منه شر يذكر للعثمانيين •

التوسع العثمانى فى آسيا الصغرى :

بعد وفاة عثمان جاء ابنه أورخان سنة ١٣٢٦ ففتح مدينة بروسة وفى العام التالى سقطت أزمير ، وفى ١٣٣٠ استولى على طاوشانلى ، وفى سنة ١٣٥٤ استولى على أنقرة بقيادة ابنه سليمان ، وفى عهد أورخان تم تكوين أول فرقة من طوائف الانكشارية (العسكر الجديد) وسنتكلم عنها فيما بعد •

الدولة العثمانية تقفز الى أوربا :

توفى أورخان سنة ١٣٥٩ فخلفه ابنه مراد (الأول) فتخطى المضيق متجها نحو أوربا وهاجم شبه جزيرة البلقان بعد أن أقر النظام وتغلب على

بعض العصاة فى آسيا الصغرى ، وكانت البلقان خاضعة لعدد من صغار الحكام فتسلقطوا واحدا بعد واحد فى قبضة العثمانيين ، وفى سنة ١٣٦٢ استولى العثمانيون على أدرنه ثم اتخذوها عاصمة لهم ابتداء من سنة ١٣٦٦ وظلت عاصمة العثمانيين حتى سقوط القسطنطينية ، وتوالت انتصارات مراد فأتم فتح مقدونية وصوفيا وسالونيك وجميع القسم الشمالى من اليونان ، وفى سنة ١٣٨٩ وقعت معركة عنيفة فى قوصوه بين العثمانيين بقيادة مراد نفسه وبين أحلاف النصارى التى تكونت من القوات الصربية وقوات من البشناق والمجر والبلغار والألبانيين ، وانتصر مراد فى المعركة ولكن صربيا كان بين القتلى طعنه غدرا فقتله ، وتولى بايزيد (الأول) بن مراد مكان أبيه سنة ١٣٨٩ وثأر له فقبض على ملك الصرب وقتله وقتل أعوانه .

وفى سنة ١٣٩٠ فقد البيزنطيين آخر ممتلكاتهم فى آسيا الصغرى وهى مدينة آلا شهر وفى سنة ١٣٩٤ منح الخليفة المتوكل بالقاهرة بموافقة السلطان برقوق سلطان مصر ، لقب سلطان الروم لبايزيد بناء على طلبه ، وكان سبب موافقة برقوق على هذه المنحة أن الخطر المغولى كان يهدد كلا من المماليك بمصر والعثمانيين بآسيا الصغرى وشرق أوربا ، وكان برقوق يأمل أن يكون العثمانيون حلفاءه ضد هذا الخطر الذى يهدد الاثنين .

حروب صليبية ضد العثمانيين :

عم الهول والفزع معظم الأوربيين ، من كثرة فتوح العثمانيين وسرعة تقدمهم فى أوربا ، وقامت ضجة دينية للحض على حربهم ، فقام البابا يدعو الناس باسم الدين الى مقاتلتهم ، وخرج لذلك جيش أوربى عظيم بقيادة « سجسمند » ملك المجر ، ضم بين كتائبه كثيراً من فرسان فرنسا والمانيا ، وكان بايزيد إذ ذاك غائبا فى آسيا ، ففاز الأوربيون فى بادىء الأمر ، واستردوا من الترك كثيرا من المدن ، ثم

شرعوا فى حصـــار مدينة « نيقوبولس » وهى من أمنع المدن على نهـر « الطونة » فلما عـلم بايزيد بذلك أسرع للقائهم فهزمهم هزيمة تعد من أنكر الهزائم التى دوّنها التاريخ ، بحيث لم ينج من جيوشهم إلا النزر اليسير ، وكانت هـذه الموقعة سنة ٧٩٩ هـ (١٣٩٦ م) (١) •

الخطر المغولى يعترض الزحف العثمانى :

فى ذلك الحين كان خطر المغول يشتد فى دورهم الثانى تحت قيادة بطل عسكرى شهير هو تيمورلنك الذى ولد سنة ١٣٣٦ واستولى سـنة ١٣٦٩ على خراسان وما وراء النهر واتخـذ سمرقند عاصمة له ثم خطا خطوة أخرى نحو استعادة ملك جنكيزخان (١١٥٥ — ١٢٢٧) وهولاكو (١٢١٧ — ١٢٦٥) الذى امتد من موسكو الى الصين فسوريا •

أدرك بايزيد أنه لابد من نزول معركة فاصـلة بينه وبين تيمورلنك فأخـذ يعد نفســه لها ، فقوّى جيشـه ، واستولى على بعض مناطق استراتيجية متاخمة لآسيا الصغرى كانت خاضـعة لبعض الأمراء ففر هؤلاء الأمراء ولجئوا الى تيمورلنك طالبين عونه •

وقامت المعركة الأولى بين القوتين الهائلتين سنة ١٤٠٠ عند سيواس وانتصر فيها المغول وقتل القائد أرطغرل أكبر أبناء بايزيد •

وفى سنة ١٤٠٢ بدأت المعارك الحقيقية بين المغول والعثمانيين عند جبوق آباد فانتصر فيها المغول واتجهوا نحو أنقرة ، وكان المغول قـد دخلوا الاسلام ، ولهذا كانت جيوش العثمانيين تنقصها الحماسة الدينية التى كانت من قبل عاملا مهما فى انتصاراتهم ضـد البيزنطيين ، وكان بايزيد نفسه يقود المعركة ، وقد صـمد صموداً باسلا أمام الزحف المغولى

---

(١) عمر الاسكندرى وسليم حسن : تاريخ مصر من الفتح العثمانى ص ٢٠

ولكنه هزم فى النهاية ووقع فى الأسر فى « أنقرة » هو وابنه موسى ومات بايزيد سنة ١٤٠٣ ٠

الدولة العثمانية تحت سلطة المغول :

تولى سليمان بن بايزيد مكان أبيه ، ووافق تيمورلنك على ذلك على أن يحكم سليمان البلاد كتابع للسلطان المغولي ، ولكن هذه الفترة كانت قصيرة ، فقد مات تيمورلنك سنة ١٤٠٥ وتقسم أبناؤه مملكته ووقعت خلافات بين بعضهم والبعض الآخر وبينهم وبين بعض جيرانهم ، مما أضعف سلطانهم فى آسيا الصغرى وفي أكثر ممالكهم ، فأخذ سلطان العثمانيين يعود لهم مرة أخرى ، وبدءوا يتخلصون من سلطة المغول ٠

صراع بين أمراء العثمانيين :

ولكن العثمانيين عندما تخلصوا من القوة الخارجية ظهر بأسهم بينهم ، فكثر الخلاف الداخلي على السلطة بين أبناء بايزيد (محمد جلبي وعيسى وسليمان وموسى) وكان لسليمان بعض النصر ولكنه لم يكن مستقيما فى خلقه بل كان مستهتراً خليعا فلم يحتفظ بالنصر الذى أحرزه وهزمه أخوه موسى ، فهرب سليمان فقبض عليه بعض الفلاحين وقتلوه سنة ١٤١٠ ٠

أما محمد جلبى فقد رجحت كفته بعد ذلك ، إذ استطاع أن يتغلب على أخيه عيسى ، ثم استدار الى أخيه موسى فقتله سنة ١٤١٣ ٠ وبذلك آلت أمور العثمانيين للسلطان محمد ، فأخذ يستعيد ما فقدته الدولة من أملاك خلال خضوع العثمانيين للتتار ، وخلال الخلاف بين امراء العثمانيين بعد التتار ٠

وفى سنة ١٤٢١ توفى محمد فى أدرنة فخلفه مراد الثانى الذى وضع قواعد الأمن والاصلاح ثم اتجه للفتوحات فاحتل سالونيك عنوة من البنادقة سنة ١٤٣٠ ، ولكن تكتلا مسيحيا جديدا قام فى وجهه بقيادة « هونيَاد » القائد المجرى العظيم ، وقد حقق هذا القائد كثيراً من النصر فى البلقان ، ثم عقدت معاهدة إزجدن سنة ١٤٤٤ وفيها تنازل العثمانيون عن بلاد الصرب وأعطوا الأفلاق للمجر ، ولكن المسيحيين نقضوا المعاهدة واستأنفوا القتال فالتقى بهم مراد الثانى مرة أخرى وأنزل بالمسيحيين هزيمة شاملة (نوفمبر سنة ١٤٤٤) وقتل فى المعركة بعض ملوك أوربا وأمرائها وتم إخضاع البوسنة والصرب ، ووصل العثمانيون بذلك الى ما يعرف بعصر القسوة .

عصر القــوة

فتــح القسطنطينية :

مات مراد الثانى سنة ١٤٥١ فتولى مكانه ابنه محمد الفاتح أو محمد الثانى وأخذ يخضع الثوار فى آسيا الصغرى ، فانتهز الامبراطور البيزنطى (قسطنطين التاسع) فرصـــة انشغاله بهذه الحروب ، وأرسل اليه يهدده بأنه اذا لم يضــاعف مبلغ الجزية السنوية التى كان يدفعها والده الى البيزنطيين لقــاء احتفاظهم بالأمير أورخان حفيد سليمان ، فإنه سيدفع بالأمير للمطالبة بالعرش ويؤيده فى ذلك وقــد غضب محمد من هــذا التهديد ، فعمــد الى إقامة حصــار حــول القسطنطينية ، فلمــا بعث الامبراطور بسفرائه للاحتجاج على هــذا التصرف ، قطع محمد رءوسهم وكان ذلك بمثابة إعلان للحرب ، وهاجم العثمانيون القسطنطينية ســنة ١٤٥٣ وكانوا قــد أحاطوا بها من جميع الجهات ، وقــد تم لهم النصر فخضــعت لهم المدينــة ، وقتــل الإمبراطور فى المعركة ودخل محمــد القسطنطينية ، ثم اتجه الى كنيسة أياصــوفيا الشهيرة فدخلها وحوّلها مسجدا ، وبفتح القسطنطينية انمحت البقية الباقية من بيزنطة ، وأصبحت القسطنطينية تسمى « استانبول » أو دار السعادة ، وأصبحت عاصــمة الامبراطورية العثمانية ، حتى نقل اتاتورك العاصــمة الى أنقرة سنة ١٩٢٣ م .

القسطنطينية : لمحــات من تاريخها :

كانت روما هى عاصــمة الدولة الرومانية حتى عهـد قســطنطين الأكبر (١) الذى أصبح إمبراطوراً من سنة ٣٠٦ الى سنة ٣٣٧ ، وفى سنة ٣٣٠ اختار قسطنطين مدينة « بوزنطة » الواقعة على شاطى البوسفور

---

(١) قسطنطين هذا هو الذى أعلن حرية الدين المسيحى سنة ٣١٣ فى قرار ميلانو ثم دخل المسيحية بعد عشر سنوات ولم يعمد الا وهو على فراش الموت .

لتكون عاصـمة للامبراطورية وأطلق عليهـا اسـمه فأصـبحت تعرف بالقسطنطينية ، (ظلت تعرف بهذا الاسم حتى استولى عليها العثمانيون فاشتهرت باسم قديم هو « استانبول ») وعندما قسّمت الامبراطورية الرومانية قسمين سنة ٣٩٥م بقيت القسطنطينية عاصمة للامبراطورية الرومانية الشرقية ، وعادت روما عاصمة للامبراطورية الرومانية الغربية (١) ، بيد أن هذه سقطت سنة ٤٧٦ فى أيدى القوط بعد غارات المتبربرة الطويلة عليها ، وظهرت على أثر ذلك سلطة الكنيسة الغربية التى أعلنت أن لهـا دوراً سياسياً وأن لها سلطاناً على الملوك •

واذا كانت الدولة الرومانية الغربية قد سقطت فإن الدولة الرومانية الشرقية ظلت تصـارع بعد ذلك حوالى ألف عام ، وقد تصـدت لها قوة الفرس فالعـرب من الشرق ، كما هاجمتهـا الأمم المتبربرة من القـوط والسلاف من الغرب ، وقد استطاعت أن تحمى نفسـها من المتبربرين ، ولكنها تقهقرت أمام العرب المسلمين الذين حرروا من سلطانها سـورية وفلسطين ومصر وشمالى إفريقية وجـزر البحر المتوسـط الشرقية ، وبالاضافة الى ذلك التقلص فقـد جـدّت أحـداث أخرى أضـعفت الإمبراطورية ، وأهم هذه الأحـداث ما يلى :

١ — اقتحام الصليبيين للقسطنطينية فى الحرب الصليبية الرابعة كما شرحنا من قبل وبقاؤهم بها ستين عاما ، وكان الامبراطور يتخذ من نيقية بآسـيا الصغرى عاصمة له خلال هـذه الفترة ، وعندما ضـعف الصـليبيون واستعاد الامبراطور القسطنطينية وجـدها مملوءة بالفتن والانحلال وما يترتب على ذلك من فساد وفقر •

---

(١) حدث انشقاق بعد ذلك (سنة ٤٣١) فى الكنيسة قامت على اثره الكنيسة الشرقية (الأرثوذكس) والكنيسة الغربية (الكاثوليك) .

٢ — أراد أباطرة القسطنطينية — وقد أحسوا بقوة البابوية فى روما — أن يوحدوا الكنيسة المسيحية تحت سلطة بابا روما فأثار ذلك رجال الدين بالقسطنطينية وتمّ توحيد الكنيستين على أى حال سنة ١٤٣٩ دون موافقة عامة من قساوسة الشرق ، بيد أن ضعف البابوية بعد ذلك قوّى جانب المعارضين للتوحيد ، فكثرت الاضطرابات فى القسطنطينية .

٣ — ويضاف الى ذلك خلافات على السلطة ، وغارات من شعوب البلقان لم تنقطع ، والوباء الأسود الذى اجتاح أوربا والذى بدأ ظهوره سنة ١٣٣٧ م .

٤ — وهناك قوة دقت باب القسطنطينية عدة مرات ، وكانت تتربص لها وهى قوة المسلمين ، وجدير بنا أن نخصص فراغاً أوسع لنتحدث عن تاريخ هذه القوة التى آل لها النصر فى النهاية على يد الأتراك المسلمين .

ومن تتَبّع التاريخ يتبين لنا أن المسلمين حاربوا خلال عهدى أبى بكر وعمر فى جبهتين كبيرتين هما جبهتا الفرس والروم ، وكانت انتصاراتهم فى الجبهة الأولى حاسمة وسريعة ، وأما الجبهة الثانية فقد طال أمد الحرب فيها واستمر عدة قرون ، ويعد المؤرخون أن من الأسباب الهامة التى أدت الى سرعة انهيار الفرس سقوط العاصمة (المدائن) ، والعاصمة دائما مكان الذخيرة والمال والجاه ، فسقوطها يسبب اضطراباً وارتباكاً ، أما جبهة الروم فقد حقق المسلمون فيها انتصارات كبيرة ولكن الحروب طالت بها لأن العاصمة (القسطنطينية) كانت بعيدة المنال ، وظلت تدبر الأمر ، وتجدد العدة كلما هزمت الدولة فى أية موقعة من المواقع : وكان المسلمون يدركون هذه الحقيقة ، ولذلك بذلوا غاية الجهد رجاء الاستيلاء عليها ، ولكن موقع المدينة أخَّر

هـذا الحـدث الجليل ، وقضى أن تظل محاولات المسلمين قائمة عـدة قـرون .

وقد شهد القرن الهجرى الأول حملتين كبيرتين وجهتهما دمشـق عاصـمة المسلمين للاستيلاء على القسطنطينية ، وكانت الأولى فى عهـد معاوية بن أبى سفيان وقادها ابنه يزيد سـنة ٤٩ هـ وكان من أبطالها الصحابى أبو أيوب الأنصـارى الذى استضاف الرسول صـلوات الله عليه فى دار الهجرة ، وقد استعمل المسلمون فى هذه الحملة ما غنموه من سفن ومعدات حربية وبحرية فى موقعة ذات الصوارى التى حدثت سنة ٣٤ هـ ، وقد أحس أبو أيـوب الأنصارى بدنو أجله ، كمـا أحس بأن النجاح فى فتح القسطنطينية لا يزال بعيدا ، ولذلك أراد أن يسهم — حتى بعد موته — فى إثارة حماسة المسلمين ليعيدوا الكرة مرة أخرى ، فكان أن أوصى وصـيته الشهيرة إذ يروى أنه قال ليزيد بن معاوية :

« اذا مت فاركب بى ، ثم سـغ بى فى أرض العـدو ما وجـدت مساغا ، فاذا لم تجـد مساغا فادفنى ثم أرجع » .

وتوفى أبو أيوب سنة ٥٢ وحصـار المسلمين للمدينة لا يزال قائما ، فأنفذ يزيد وصـيته ، ودفنه تحت أسوار القسطنطينية ، وفشلت الحملة وعادت أدراجها ، ولكن المسلمين ظلوا يحسون بهتاف أبى أيوب بهم ، ودعائه لهم أن يعاودوا الكرة حتى لا يظل جثمانه غريبـا عن الأهـل والعشيرة .

أما الحملة الثانية فقد كانت فى عهد سليمان بن عبد الملك ، وكان قائدها مسلمة بن عبد الملك ، وهو رجل شجاع مشهود له بالصرامة ، وقد حققت الحملة فى طريقها صـوراً من النجاح ووصـلت القسـطنطينية

وحاصرتها ولكنها لم تحقق هدفها الرئيسى ، وجـاء عمر بن عبد العزيز فأمر بفك الحصـار (١) •

وفى خلال العصر العباسى قامت محـاولات لاسقاط القسطنطينية خلال عهدى المهدى والرشيد ، ولكن النجاح لم يحالفهما (٢) •

وهكذا قاومت العاصمة العتيدة محاولات المسلمين حـوالى ثمانية قرون حتى تم فتحها على النحو السابق سنة ١٤٥٣ (٨٥٧ هـ) ويعتبر فتح القسطنطينية أهم نجاح حققه الأتراك العثمانيون ، وبـه أصبحت مملكتهم تعد من الامبراطوريات الاسلامية العظيمة ، إذ حققت مـا طمع فيه المسلمون عدة قرون ، وقد هيأ لهم ذلك ألوانا من الانتصارات الأخرى فى العالم الاسلامى ، اذ اعتبر الانضمام اليهم نوعا من الوحدة الاسلامية لا من الخضوع لمستعمر غريب كما سبق القول ، وهكذا دانت لهم مصر وسوريا والعراق فيما بعد دون مقاومة تذكر •

الاسـلام والتسامح الدينى :

وبعد فتح القسطنطينية عاد محمد الفاتح الى أدرنة وأمر ببناء جميع الحصون المخربة ليجعل من هذه المدينة عاصمة لامبراطوريته ، وعمل السلطان على تنظيم أحـوال اليونان (الـروم) المغلوبين للتو والساعة ، والواقع أنه أبقى على استقلال البلغار الكنسى ، فعل أسلافه من قبله ، واعترف — وفقا للفكرة الاسلامية المعززة بالتقاليد الدينية — بجميع السلطات الدينية اليونانية ، بل إنه زادها قوة بأن وكل اليها أمر القضاء المدنى وتطبيق أحكامه على أتباعه (٣) •

---

(١) اقرأ تاريخ هذه المحاولات مفصلا مع المراجع الأساسية لهـا فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة •

(٢) اقرأ تاريخ هذه المحاولات فى الجزء الثالث من هذه الموسوعة •

(٣) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٤٢ •

ويصف فولتير الفيلسوف الفرنسي الشهير موقف المنتصر المسلم من المهزوم المسيحي بقوله : ان الأتراك لم يسيئوا معاملة المسيحيين كما نعتقد نحن ، والذى يجب ملاحظته أن أمة من الأمم المسيحية لا تسمح أن يكون للمسلمين مسجد فى بلادها بخلاف الأتراك فانهم سمحوا لليونان المقهورين بأن تكون لهم كنائسهم ... ومما يدل على أن السلطان محمد الفاتح كان عاقلا حليما تركه للنصارى المقهورين الحرية فى انتخاب البطريرك ، ولما انتخبوه ثبته السلطان وسلمه عصا البطارقة وألبسه الخاتم ، حتى صرح ذلك البطريق عند ذلك بقوله : إنى خجل مما لاقيته من التبجيل والحفاوة ، الأمر الذى لم يعمله ملوك النصارى مع أسلافى (١) .

ولعل من الخير أن نشير هنا الى الفرق بين هذا التصرف وتصرف غير المسلمين مع المسلمين عندما يحظى غير المسلمين بأية انتصارات ضد المسلمين ، كانتصارات المسيحيين المدمرة فى الحرب الصليبية الأولى ، وكانتصاراتهم فى أسبانيا على المسلمين فى عهودهم الأخيرة ، وكالانتصارات الزائفة لليهود ضد العرب فى فلسطين ، فقد كانت دائما انتصارات فيها حقد وغل ودماء ودمار .

بعد القسطنطينية

استمر العثمانيون يسيرون بنجاح فى فتوحاتهم بأوربا ففتحوا بلاد الصرب وشبه جزيرة المورة وبلاد ألبانيا الى حدود البندقية ، وحاول محمد أن يفتح ايطاليا ليرفع علم الاسلام على روما كما رفعه على القسطنطينية ، ولكنه نكص عن ذلك لمشاغله الكثيرة ، ولم يستول من ايطاليا الا على مدينة « أترنتو » سنة ١٤٨٠ ومات محمد الفاتح سنة ١٤٨١ فأخلى خلفه هذه المدينة .

---

(١) نقلا عن دائرة معارف القرن العشرين للاستاذ فريد وجدى ج ٢ ص ٥٦٦ — ٥٦٧ .

وكان محمد قد أوصى بالملك لابنه الأصغر « جم » ، ولكن الابن الأكبر بايزيد (الثانى) تغلب عليه واستولى على الملك بعد مناوشات استمرت حتى سنة ١٤٨٨ ، وفى آخر عهد بايزيد أوصى هذا بالعهد لابنه أحمد ولكن الابن الثانى (الأصغر) واسمه سليم ثار فى وجه أبيه وأخيه ، وقام صراع مرير انتصر فيه سليم سنة ١٥١٢ ويقال انه دس السم لأبيه ليتخلص منه كما سيأتى .

وأراد سليم أن يؤدب الأسرة المالكة الجديدة فى فارس وهى أسرة الصفويين لمساعدتها لأخيه خلال الصراع بينهما ، وبالتالى أراد أن يمد سلطانه الى آسيا ، ولكن حال دون ذلك منافس آخر هو المماليك بمصر الذين كان سلطانهم ممتدا الى سوريا ، وكان نفوذهم يشمل الأماكن المقدسة بالحجاز ، فوجد سليم أن لابد من البدء بسوريا ومصر قبل أن يدخل المعركة مع فارس .

فتح سوريا ومصر :

كانت الدولة المملوكية بمصر وسوريا قد أصيبت — كما سبق — بانهيار اقتصادى فى نهاية القرن الخامس عشر عندما استطاع البرتغاليون كشف طريق رأس الرجاء الصالح ، فارتبطت تجارة أوربا بالهند دون المرور بالموانى المصرية والعربية ، وقد بدأ هذا الكشف بواسطة هنرى الملاح (١٣٩٤ — ١٤٦٠) الذى استطاع أن يصل الى سيراليون (Sierra Leoni) ، وتلاه برتولوميو دياز (Bartholomew Diaz) الذى دار حول رأس الرجاء الصالح سنة ١٤٨٨ ، وبعد ذلك بعشر سنين استطاع فاسكودى جاما (Vesco de Gama) أن يسير من شواطىء افريقية الشرقية الى شواطىء الهند ، وبذلك اتصلت البرتغال بالهند وبجزر الهند الشرقية عن طريق البحر مباشرة دون الحاجة للموانى العربية وللخطوط البرية العربية ، وقد حاول المماليك الوقوف فى وجه البرتغاليين منعهم من سلوك هذا الطريق ، ولكن محاولاتهم ذهبت هباء إذ استطاع

البرتغاليون احتلال جزيرة سوقطرى قرب مدخل البحر الأحمر وجزيرة هرمز عند مدخل الخليج العربى بأمل حبس الاساطيل الاسلامية داخل البحر الأحمر والخليج العربى (١) ٠

ومن الواضح أن اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح لم يقض على التجارة عبر الخطوط العربية قضاء تاما ، ولكنه أضعفها بشكل ظاهر ، وبقيت الخطوط العربية تباشر نشاطها المحدود بجوار الخط البحرى الجديد الذى اجتذب أكثر النشاط ٠

وكان الضغط الاقتصادى الذى طرأ على الجبهة المملوكية من الأسباب التى يسرت على العثمانيين التغلب على المماليك فى سوريا ومصر ٠

فى ضوء هذه الأحداث قامت معركة بين المماليك والعثمانيين فى مرج دابق (شمالى حلب) سنة ١٥١٦ م انتصر فيها العثمانيون وسقط قنصوه الغورى (سلطان مصر) قتيلا فيها ، وضم العثمانيون بذلك سوريا لممتلكاتهم ، وتقدم سليم الى مصر فجرت معركة بينه وبين السلطان المملوكى الجديد طومان باى ، وهى معركة الريدانية على أبواب القاهرة سنة ١٥١٧ ، وانتصر فيها الأتراك أيضا وعقب ذلك اعترفت الأماكن المقدسة للعثمانيين بالنفوذ والتبعية ، وقد سبق أن أوضحنا أن العثمانيين خطوا هذه الخطوات باسم الاسلام مما يسر الطريق أمامهم ، ومات السلطان سليم سنة ١٥٢٠ فتولى ابنه سليمان العرش ، وهو المعروف بسليمان القانونى ٠

نشاط سليمان فى أوربا وآسيا :

وبلغت الدولة أقصى قوتها فى عهد سليمان القانونى أو العظيم كما يسميه الأوربيون ، وقد شمل بنشاطه الميدانيين الغربى والشرقى ، ففى

---

(١) انظر مزيدا من الدراسة حول هذا الموضوع فى الجزء السابع من هذه الموسوعة عند الحديث عن عمان ٠

أوربا استطاع السلطان الجديد أن يستولى على بلغراد سنة ١٥٢١ وجزيرة رودس سنة ١٥٢٢ .

وفى سنة ١٥٢٦ حصلت موقعة مهاج الأولى بينه وبين ملك المجر ، وقد انتصر السلطان سليمان انتصارا كبيرا فيها ، فقتل الملك الشاب لويز وصفوة رجاله ، ولما تنازع أمير ترانسلفانيا وملك النمسا حول تاج المجر تدخل السلطان سليمان وناصر أمير ترانسلفانيا واحتل بودابست .

حصار فينا :

وقد حاصر العثمانيون العاصمة الساحرة (فينا) عدة مرات كانت أولاها عقب الانتصار السابق وتمت سنة ١٥٢٩ ، وكانت الثانية سنة ١٥٣٣ ، وفى سنة ١٦٨٣ حاصر العثمانيون العاصمة للمرة الثالثة بقيادة الصدر الأعظم عمر مصطفى ولكن تحالف ألمانيا وبولنده أنقذ العاصمة من السقوط .

وقد طهّر سليمان البحار من أعدائه ، وكان للقباطنة الأتراك السيطرة الكاملة على البحر الأبيض والبحر الأحمر .

فتح العراق والصدام مع الفرس :

وفى آسيا حارب سليمان القانونى الفرس ، اذ أن عامل بغداد من قبل الصفويين تمرد عليهم لتشيعهم وانحاز الى سليمان القانونى لأنه سنى ، ليحمى نفسه وأتباعه السنيين بالعراق من ضغط الشيعة ، فجهز الشاه الصفوى حملة ضده وأخضعه ، فهبّ سليمان يدافع عن حليفه وانتصر له سليمان ضد الفرس ، وتقدم حتى وصل « تبريز » عاصمتهم ولكنه رجع اكتفاء بسيطرته على العراق ولحدوث تمرد فى جيشه ، وكان فتح سليمان للعراق سنة ١٥٣٤ .

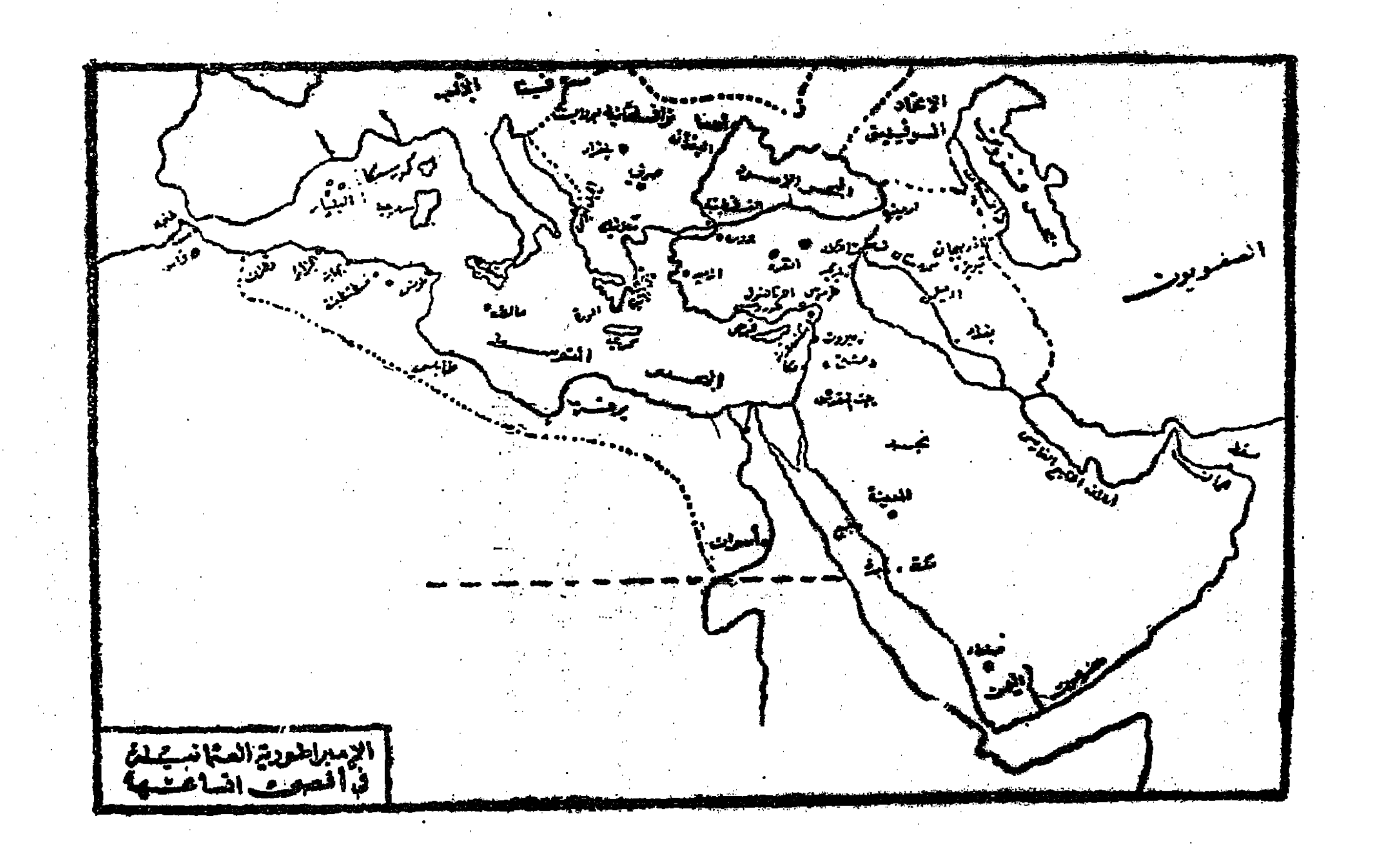
الشمال الإفريقى وباقى البلاد العربية :

وكانت دول الشمال الإفريقى مضطربة بسبب محاولة أسبانيا الاستيلاء عليها عقب هزيمة المسلمين بأسبانيا وانسحابهم منها ، وقد انتهز الأتراك هذه الفرصة فتدخلوا فى شئون هذه البلاد ، واستولوا على الجزائر بواسطة خير الدين بربروسا سنة ١٥١٨ ، واستولى خير الدين على تونس باسم الباب العالى سنة ١٥٣٤ من بنى حفص ، واستولى سنان باشا على طرابلس وطرد فرسان القديس يوحنا المالطيين سنة ١٥٥١ ، وهكذا دخل الشمال الافريقى تحت سلطان العثمانيين ما عدا المغرب الأقصى ، وقبيل منتصف القرن السادس عشر قامت حملة تركية بحرية بقيادة « بيرى رئيس » أخذ الأمراء البحريين ببعض الأعمال البحرية على شواطىء الجزيرة العربية الجنوبية والشرقية ، فاحتلت عدن سنة ١٥٣٨ ثم واصلت زحفها باليمن حتى احتلت صنعاء سنة ١٥٤٧ ثم احتلت مسقط سنة ١٥٥١ ووصلت حتى رأس الخليج العربى وسارت حملة من مصر فأكملت احتلال اليمن سنة ١٥٦٨ (١) ، وبذلك بلغت الامبراطورية العثمانية أقصى مداها ، فقد امتدت من بودابست على نهر الطونة الى أسوان بالقرب من شلالات النيل ، ومن نهر الفرات وقلب ايران الى باب المندب جنوبى الجزيرة العربية .

وفى النصف الثانى من القرن السادس عشر توقف نشاط العثمانيين على أثر خلاف بين أبناء السلطان سليم على السلطة ، وتجمعت عوامل متعددة أوقفت تقدم العثمانيين ، ثم جعلتهم هدفا لهجمات الآخرين ، فانتقلوا من الهجوم للدفاع ، ثم تقهقروا أمام زحف أعدائهم وأخذت الامبراطورية تتقلص وتنهار على ما سنوجزه فيما بعد .

---

(١) للحديث عن نشاط العثمانيين بالجزيرة العربية اقرأ الجزء السابع من هذه الموسوعة .


الإمبراطورية العثمانية في أقصى اتساعها
الصفويون
البحر الأسود
البحر المتوسط
كورسيكا
سردينيا
تونس
الجزائر
طرابلس
برقة
أسوان
القاهرة
بيروت
دمشق
بيت المقدس
المدينة
مكة
جدة
بغداد
تبريز
أذربيجان
أرمينيا
صنعاء
عدن

جدول نسب سلاطين آل عثمان

(أولا) دور القوة :

سليمان

|

أرطغرل

|

١ ـ عثمان الأول ١٢٩٩ م

|

٢ ـ أورخان ١٣٢٦

|

٣ ـ مراد الأول ١٣٥٩

|

٤ ـ بايزيد الأول ١٣٨٦ ـ ١٤٠٣

فترة خلافات بين أولاد بايزيد ونفوذ أجنبي (مغولي)

(١٤٠٣ — ١٤١٣)

|

سليمان	محمد الأول	موسى
١٤٠٣ ـ ١٤١٠	٥ ـ ١٤٠٣	١٤٠٣ ـ ١٤١٣

ثم ضاع سلطان الدولة وانفرد محمد بالسلطة من سنة ١٤١٣

|

٦ ـ مراد الثاني ١٤٢١

|

٧ ـ محمد الثاني (الفاتح) ١٤٥١

|

٨ ـ بايزيد الثاني ١٤٨١ — منازعات استمرت سبعة أعوام ضد أخيه الأصغر جم الذي كان أبوه ولاه العهد

|

٩ ـ سليم الأول ١٥١٢

|

١٠ ـ سليمان الأول (القانوني) ١٥٢٠

|

١١ ـ سليم الثاني ١٥٦٦

|

١٢ ـ مراد الثالث ١٥٧٤

(ثانياً) دور الضعف :

١٢ ـ مراد الثالث ١٥٧٤

١٣ ـ محمد الثالث ١٥٩٥

١٤ ـ أحمد الأول ١٦٠٣
١٥ ـ مصطفى الأول ١٦١٧
(مرة ثانية سنة ١٦٢٢ بعد عثمان الثاني)

١٦ ـ عثمان الثاني ١٦١٨
١٧ ـ مراد الرابع ١٦٢٣
١٨ ـ إبراهيم ١٦٤٠

١٩ ـ محمد الرابع ١٦٤٨
٢٠ ـ سليمان الثاني ١٦٨٧
٢١ ـ أحمد الثاني ١٦٩١

٢٢ ـ مصطفى الثاني ١٦٩٥
٢٣ ـ أحمد الثالث ١٧٠٣

٢٤ ـ محمود الأول ١٧٣٠
٢٥ ـ عثمان الثالث ١٧٥٤
٢٦ ـ مصطفى الثالث ١٧٥٧
٢٧ ـ عبد الحميد الأول ١٧٧٤

٢٨ ـ سليم الثالث ١٧٨٩

٢٩ ـ مصطفى الرابع ١٨٠٧
٣٠ ـ محمود الثاني ١٨٠٨

٣١ ـ عبد المجيد الأول ١٨٣٩
٣٢ ـ عبد العزيز ١٨٦١

٣٣ ـ مراد الخامس ١٨٧٦
٣٤ ـ عبد الحميد الثاني ١٨٧٦
٣٥ ـ محمد رشاد ١٩٠٩
٣٦ ـ محمد وحيد الدين ١٩١٨

٣٧ ـ عبد المجيد
١٩٢٢ ـ ١٩٢٤
(الغاء الخلافة)

وقد تحدثنا بشىء من التفصيل عن دور القوة ، وسنشرح فيما بعد ظروف انهيار الدولة وأسباب ذلك الانهيار ، ولكنا هنا نبادر فنضع أمام السلاطين الذين لم نتحدث عنهم أهم الأحــداث التى شــغلت عهودهم وأدت بالدولة الى الانحدار ، وهى كالآتى :

سليم الثانى : — فتح قبرص

— هزيمة تركيا فى موقعة ليبانتو ضد الحلفاء ثم عودة النصر الى تركيا فى البحر .

— استعاد تونس من دون جوان

مراد الثالث : هزم البرتغال والفرس

محمد الثالث : بدء تدخل نساء القصر فى شئون الدولة

أحمد الأول : — صمدت النمسا لأول مرة فى حروبها مع الترك فاستمرت الحروب خمسة عشر عاما ، مما قلل من هيبة الترك فى نظر الأوربيين ، وحولت الجزية الى هدية غير ثابتة المقدار .

— انتصارات للفرس .

مصطفى الأول : ساذج خليع أصدر شيخ الاسلام فتوى بخلعه .

عثمان الثانى : غلام فى الثالثة عشرة .

مراد الرابع : — كان لا يخرج من السراى الا نادرا ، واشتد سلطان نساء القصر .

— ثورة للانكشارية عزلت السلطان .

محمد الرابع : — اتمام فتح كريت .

— قيام اتحاد ضد الترك من البنادقة وبولونيا والبابا ورهبنة مالطة وروســيا والقوزاق وتوسكانه

والنمسا باسم « الاتحاد المقدس » .

— موقعة مهاج (١) الثانية التى هزم فيها الأتراك على يد شارل الخامس ملك لورين .

— أسرة كوبريلى .

سليمان الثانى : كوبرينى زاده يحقق للدولة بعض الانتصارات

أحمد الثانى : حروب عادية

مصطفى الثانى : — عاد يقود الجيوش بنفسه أملا فى اصلاح الأحوال .

— صلح كارلوويج

— مقتل شيخ الاسلام واستقالة السلطان .

أحمد الثالث : — انتصارات على روسيا فى عهد بطرس الأكبر

— قبول الصدر الأعظم رشوة من زوجة بطرس الأكبر لينجو الامبراطور الروسى وجيشه من أسر محقق .

محمود الأول : حروب عادية مع الفرس والروس والنمسا .

عثمان الثالث : عهد سلام لانشغال أوربا بحربه السبعة أعوام

مصطفى الثالث : انتصارات روسية .

عبد الحميد الأول — حروب مع الروس والفرس

— معاهدة قينارجة

---

(١) — مهاج أو موهاج مدينة على الدانوب .

— موقعة مهاج الأولى حقق فيها سليمان القانون سنة ١٥٢٦ نصرا ساحقا ضد لويس الثانى ملك المجر .

سليم الثالث : — هزائم الدولة من الروس
— ظهور فساد الانكشارية
— محاولة للاصلاح الداخلى فى الجيش والادارة
— حروب انجلترا ضد فرنسا لاحتلالها مصر
— عزل السلطان

مصطفى الرابع : — نكسة للاصلاحات الداخلية التى قدمها سليم الثالث
— عزل السلطان

محمود الثانى : — القضاء على سلطان أمراء الاقطاع
— ثورة اليونان وتدخل مصر
— موقعة ناورين
— إبادة الانكشارية

عبد المجيد الأول : — فرمان الوراثة لأسرة محمد على
— اصلاحات داخلية (المدارس الحديثة — تنظيم الميزانية — استقلال المحاكم)
— هزائم فى الخارج وثورات فى الداخل (ثورة بين الموارنة والدروز)

عبد العزيز : — هزائم فى الجبل الأسود والصرب والأفلاق والبغدان
— الثورة الوهابية وتدخل مصر
— تذمر عام ضد السلطان
— خلع السلطان
— انتحاره أو قتله بعد خلعه بأربعة أيام وسنشرح ذلك عند الكلام عن عبد الحميد الثانى

مراد الخامس : عزله بعد فترة قصيرة لتخليطه أو اتهامه بالجنون

عبد الحميد الثانى : ــ مشكلة الدستور

ــ مدحت أبو الدستور

ــ الثورات الداخلية والاستبداد الحميدى

ــ هزائم خارجية

ــ معاهدة سان استفانو ومعاهدة برلين •

وسنقدم عن عبد الحميد الثانى ومدحت دراسات مهمة وواسعة فيما بعــد •

محمد رشــاد : ــ السير نحو النهاية •

ــ الحرب العالمية الأولى وهزيمة تركيا •

محمد وحيد الدين : ــ تركيا الفتاة

ــ الحد من سلطان الخليفة

ــ مصطفى كمال يتسلم السلطة المدنية

ــ عزل السلطان وتولية بدله سنة ١٩٢٢

عبد المجيد : ــ اعلان الجمهورية سنة ١٩٢٣ وجعل الخلافــة للشئون الدينية فقط •

ــ انهاء الخلافة وطرد بيت السلاطين سنة ١٩٢٤

حضـــارة العثمانيين

مقدمـــة :

لعل من الأفضل أن نتحدث هنا عن حضارة العثمانيين وألوانها ، قبل أن نصف الدولـة وهى تنهار وتتحمش ، وذلك لأن الحضـارة التى سنتكلم عنها الآن هى فى الحقيقة وليدة عصور القوة ، وقد طرأت ظروف على عصور الضعف جعلت بها اتجاهات من نوع آخر ستكون موضوع حديثنا عند الكلام عن هذه العصور •

مصادر الحضارة العثمانية :

يقول الدكتور فيليب حتى : إن ثقافة العثمانيين كانت مزيجا من العناصر المتنوعة ؛ فقد أخذ الترك عن الفرس كثيرا من الأفكار الأدبية ، كما أخذوا منهم بعض الأفكار السياسية كتعظيم الملك ، وقد اقتبس الترك هذه الموضوعات عن الفرس لصلتهم بهم قبل هجرتهم الى غربى آسيا وبعد هذه الهجرة ، وكان مما منحته بداوة آسيا الوسطى للترك النزعة للحرب والفتح والميل للاختلاط بالآخرين والامتزاج بهم ، وقد انتقل الى الترك أيضا من البيزنطيين بعض المؤسسات الحربية والنظم الحكومية ، ولكن **العرب كانوا قبل الجميع معلمى الأتراك كما كان اليونان معلمى الرومان** ، فقد أخذ الترك عن العرب علومهم ودينهم بما فيه من المبادىء الاقتصادية والاجتماعية والتشريعات المقدسة ، وأخذوا أيضـا الحـروف العربية للكتابة ، فظلت شائعة حتى سنة ١٩٢٨ ، وباعتناق الترك دين الاسلام واقتباسـهم الحروف العربية انتقل اليهم مـن اللغة العربيـة ألوف الاصطلاحات الدينية والعلمية والشرعية والأدبية ، ولا يزال كثير مـن هذه الاصطلاحات فى قلب اللغة التركية على الرغم من المحاولات القومية الأخيرة لإخراجها منها (١) •

---

(١) فيليب حتى : تاريخ العرب جـ ٢ ص ٤٨٢ — ٤٨٣ •

ولكن المطلع على حضارة العثمانيين التى سنلم بها يرى ألوانا منها بعيدة عن الفكر الاسلامى وعن الشهامة العربية كالنزعة للغدر ومصادرة الأموال والانهماك فى اللذات أحيانا ، ولذلك فنحن نرى أن الأتراك تعلموا من الاسلام ومن العرب الكثير ولكنهم لم يعملوا بها فى كل الأحوال ، وغلبت عليهم أحيانا نزعة البداوة والهمجية فى سلوكهم السياسى والعسكرى .

الهيئة الحاكمة

السلطان وحكمه المطلق :

كان السلطان العثمانى يحكم حكما مطلقا فى أغلب الأحوال ، وكان هذا الاتجاه مخالفا للاسلام وسببا من أسباب الكوارث ، وقد قامت محاولات دستورية ولكنها كانت عقيمة ، وكان السلطان يحس أنها حرمته من اكتمال السلطة فكان يحاول التمرد عليها والعودة لحكم الفرد ، مع أن الشورى اللازمة فى الاسلام تخفف العبء عن الرؤساء ، وتشرك معهم فى المسئولية بعض أولى الأمر ، ولكن متعة السلطة كثيرا ما أعمت الرؤساء المستبدين .

ويعتذر بعض الباحثين عن السلاطين العثمانيين بأن الحكم المطلق كان أسلوب العصر ، ولم تكن الغالبية العظمى من دول أوربا يمارس فيها الحكم النيابى الذى هو من معالم الديمقراطية ، وكان أكثر ملوك الأرض يتبعون الحكم المطلق ... (١) .

ولكننا لا نوافق هذا الباحث فيما قال ، فملوك أوربا لم يكن عندهم كتاب الله الذى يلزم بالشورى ولم يكن عندهم التاريخ الشامخ للرسول وصحبه الذين كونوا حولهم مجالس للشورى قبل العثمانيين بمئات السنين

---

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها ص ١٠٧ .

وعلى كل حال فقد كانت الشريعة الاسلامية تحول دون انطلاق الديكتاتورية وتخفف من غلوائها ، فهناك كثير من الأحكام وردت نصوص واضحة فيها ، وكان على الخلفاء العثمانيين أن يمتثلوا لهـا ، وان كان الواقع يقرر للأسف أن السلاطين العثمانيين كانوا يجدون فى جميع الحالات — الا ما ندر — استجابة فورية لرغباتهم من كبار علماء الدين : شيخ الاسلام وأمين الفتوى وقاضى العسكر ، اذ كانوا يصدرون فتاوى تحقق مآرب الخلفاء ، وتضفى على تصرفاتهم طابع الشرعية ، ونخلص من هذا كله الى أن الاستبداد الذى مارسه السلاطين لم يكن استبدادا مقيدا بل كان استبدادا مطلقا (١) ٠

ويجب أن نوضح أن الاستبداد المطلق كان يوجد اذا كانت هناك رغبة خاصة للسلطان ، أما فى الأمور التى لا دخل لرغبات السلاطين فيها ، فان الشريعة الاسلامية تأخذ مجراها الطبيعى ، فمشروعات القوانين العادية كانت تعرض على شيخ الاسلام ليقرر مدى مطابقتها للشريعة الاسلامية ، وأحكام الاعدام على المتهمين فى القضايا الجنائية كانت تعرض على شيخ الاسلام قبل تنفيذ حكم الاعدام للتأكد من سلامة السير فى القضية ٠

ألقاب السلطان :

وكان للسلطان التركى سلسلة من الألقاب لعلها اكتملت فى عهد القوة ابان حكم سليمان القانونى ، وقد كتبها سليمان فى مطلع رسالة منه الى فرنسيس ملك فرنسا ، ونحن نقتبسها من Roger Mirreman (٢) ٠

أنا سلطان السلاطين ، وملك الملوك ، مانح التيجان للملوك على وجه البسيطة ، ظل الله فى الأرض ، سلطان البحرين الأبيض والأسود :

---

(١) المرجع السابق ص ١١٠ .

(٢) Suleiman the Magnificent p. 130.

وخاقان البرين ، وملك الرملى والأناضول ، وبلاد الكرمان وبلاد الروم ، وديار بكر وكردستان ، وأذربيجان وفارس ، ودمشق وحلب والقاهرة ومكة والمدينة والقدس واليمن وكل البلاد العربية وبلادا كثيرة أخرى افتتحها آبائى الأشراف وأجدادى الأمجاد نور الله مراقدهم بقوة سلاحهم ، وجعلتها جلالتى المهيبة تابعة لسيفى الملتهب ومؤيدى المنتصر .

لقب « الخليفة » :

أما لقب « الخليفة » فكان الأتراك يضمنونه لألقابهم منذ عهد مراد الأول (١٣٥٩ — ١٣٨٩) ، ويقول كارل بروكلمان (١) : ان ما يقال من أن سليما الأول حمل الخليفة العباسي بالقاهرة على أن يتنازل له عن هذا اللقب سنة ١٥١٧ لم يرد الا فى رواية متأخرة . ويؤيد سير توماس أرنولد اتجاه كارل بروكلمان ويعطى الأدلة ليبين أن هذا التنازل لم يتم (٢) .

ويبدو أن الأتراك العثمانيين لقبوا أنفسهم بلقب الخلافة قبل دخولهم مصر بزمن طويل حتى ليقال ان مرادا الأول (١٣٥٩) اتخذ لنفسه هذا اللقب عقب الانتصارات التى حققتها فى آسيا الصغرى وفى أوربا ، ومن الواضح أنه لم يكن بسلطان العثمانيين حاجة لينتظروا حتى يتنازل لهم الخليفة العباسى عن هذا اللقب ، فقد عرف المسلمون قبل ذلك بأمد طويل فكرة تعدد الخلفاء ، ففى آخر القرن الثالث الهجرى وأوائل الرابع (العاشر الميلادى) اتخذ الفاطميون لقب الخليفة لقبا لهم بالشمال الافريقى اذ كانوا شيعة لا يعترفون بالخلافة السنية ببغداد ، وبعد ذلك بقليل أعلن عبد الرحمن الناصر بالأندلس أن هذا اللقب حق له امتدادا لآبائه وأجداده بدمشق ، ولام من سبقوه بالأندلس الذين اكتفوا بلقب الأمير ، وعلى هذا فما حاجة العثمانيين للانتظار اذا كانوا يريدون حمل هذا اللقب ؟

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٢ ص ٩٣ .
(٢) انظر : The Caliphate p. 139.

ويقول فيليب حتى : وسواء أصحت الدعوة القائلة ان الخليفة العباسى بالقاهرة أوصى بالخلافة للسلطان العثمانى أو لم تصح ، فالواقع أن أمير القسطنطينية التركية اكتسب تدريجيا امتيازات الخلافة ، ثم اتخذ أخيرا لقب الخلافة لنفسه ، وأول وثيقة دبلوماسية معروفة أشير فيها الى السلطان العثمانى بلقب الخلافة ، واعترف فيها بسلطته الدينية على المسلمين خارج الولايات العثمانية هى المعاهدة الروسية التركية الموقع عليها فى كوتشوك كينرجى سنة ١٧٧٤ (١) .

السلاطين بين القوة والضعف :

كان سلاطين العثمانيين قسمين :

١ — قسم يمكن تسميتهم « السلاطين العظام » وعددهم عشرة ، يبدأون بعثمان أول السلاطين وينتهون بالسلطان سليمان القانونى وقد حكموا ٢٦٧ سنة من سنة ١٢٩٩ الى سنة ١٥٦٦ م وقامت على سواعد هؤلاء عظمة الدولة من حيث التوسع الاقليمى فى آسيا وأوربا وافريقية ، ومن حيث النظم والمنشآت الحضارية .

٢ — والقسم الثانى هم السلاطين الضعاف وعددهم ٢٦ سلطانا أولهم السلطان سليم بن سليمان القانونى وآخرهم محمد السادس آخر الخلفاء وقد حكموا حوالى ٣٥٧ من سنة ١٥٦٦ الى سنة ١٩٢٤ ، وفى عهد أكثر هؤلاء تدخلت سيدات القصور فى ادارة الدولة ، كما مال الخلفاء للترف وطالت اقامتهم بين الجوارى والمغنيات ، وأصبح الصدر الأعظم فى كثير من الأحوال صاحب السلطة فى الدولة ، وقد بلغ من هوان سلاطين هذا العصر ان سمى بعضهم باسم « السلاطين التنابلة » وكان بعضهم فيه لوثة عقلية ، وعدم قدرة على السيطرة .

---

(1) History of the Arabs vol. 3 p. 831.

ونتيجة لهذه الأوضاع أعقب المد جزر ، وتراجعت الدولة فى كثير من الميادين وكثير من النظم (١) .

ولاية العهـد وآثارها القاتمـة :

لم يكن هناك قانون ينظم ولاية العهد فى الامبراطورية العثمانية ، وهذا فتح الباب لصراع دائم لشغل منصب السلطان عقب خلوه لسبب من الأسباب .

وكانت القصـور خلاية جذابة ، والمطامع فى شغل هـذا المنصب قوية وواضحة ، وبخاصة أن من يتولى السلطنة كان يمكنه أن يتخلص من منافسيه بالقتل ، ومعنى هـذا أن المنصب كان هو الذى يحمى الانسان من القتل ، ومن هنا نشط الكثيرون لنيله حتى يحظوا بمتع القصـور من جانب وبالسلامة من جانب آخر .

وفى فترة من الفترات جعلت ولاية العهد للابن الأكبر وذلك لوضع حـد للمنافسة والصراع ، ولكن أحمد الأول (١٦٠٣ — ١٦١٧) اختار أخاه مصطفى وليـا لعهده ، وتخطى ابنـه عثمان ، ولكن هـذا كافح حتى أخـذ السلطنة من عمه سنة ١٦١٨ وبقيت معه أربع سـنوات ثم أصبح مصطفى الأول سلطانا مرة أخرى ، وكان الباب يفتح على مصراعيه للقتال كلما خلا منصب السلطان ، وان كان الصراع على المنصب كان قد بدأ قبل ذلك بعهد طويل كما اتضح ذلك من الدراسات التى قدمناها فيما سبق والتى سنوردها هنا بعد قليل .

وقـد وصلت مشكلة إراقة الدماء من أجل هـذا المنصـب قمتها وفظاعتها عنـدما أصـدر محمد الفاتح (١٤٥١ — ١٤٨١) قانونا يتيح لمن يتولى العرش أن يقتل من يرى من اخوته تأمينا لسـلامة الدولة ،

---

(١) انظر كتاب الدكتور الشناوى سالف الذكر ص ٣٤٥ وص ٦٧٢ .

ولم يقف الأمر عند قتل الإخوة بل تعداهم الى قتل الأبناء ومن يحتمل أن ينافسوه بوجه عام . ويقول كارل بروكلمان (١) إن محمـدا الفاتح استهل عهده بأن أمر بقتل أخيه أحمد ، ومن ذلك الحين صـار قتـل السلطان إخوته عادة شبه مطردة ، فلما جاء محمد الثالث (١٠٩٥ هـ = ١٦٠٣) أمر بقتل إخوته الذكور وكان عددهم تسعه عشر أميرا ، وأمر بإغراق نساء أبيه وجوارى أبيه الحوامل ، وكان عددهن عشر نسـاء (٢) ويقول الأستاذ محمد كرد على ما يلى :

ولا شك أنه من أعمال العنف والوحشية أن يبتدع العثمانيون ذلك القانون باسم اقرار الأمن ، وقد نشأت عن ذلك سلسلة من الفجائع ، ورأى الزمان لهذا النوع من القتل مبررا ، فوُضِعَ فى قالب الحرص على سلامة الأمن العام ، ولم يقف الأمر عند الإخوة ، بل تعداهم الى غيرهم ، فأصبح قتل السلطان إخوته وأولاده وأحفاده وبناته والحاملات من نساء السلاطين مما لا يستنكر ، وظلت هـذه العادة القبيحة جاريا حكمها حتى عهد محمد الرابع (١٦٤٨) إذ حاول قتل شـقيقه فمنعته أمـه ، وصـحا المفتى الأكبر فأورد للسلطان كلام الله وحـذره عقابه ، وبذلك انقضى دور قتل أبناء الملوك بعـد أن دام فترة طويلة ، وأخـذ كل سلطان بعد ذلك يراقب أولياء العهد مراقبة شديدة ويقيمهم بمعزل من الناس لا يختلطون بهم (٣) .

وأكثر من ذلك ، لقد كان العقوق واضـحا بين الأب وابنه والابن وأبيه ، ويرجح أكثر المؤرخون أن سليما الأول هو الذى دس السـم لأبيه بايزيد الثانى ليحصـل على السلطة لنفسه بدلا من أخيه الأكبر « أحمـد » الذى كان يرشحه الأب ، ومن أجل هذا كان سليم يخاف

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ٢ : ٤٠ .
(٢) محمد فريد وجدى : دائرة معارف القرن العشرين ٢ : ٥٩٣ .
(٣) الحضارة العربية جـ ٢ ص ٢٨ و ٥٢٩ .

ابنه سليمان وينظر اليه نظرة شك وريبة ذاكراً حداثته هو ، ومن أجل هـذا عاش سليمان طيلة حياة أبيه مستكينا خوفا من نقمة أبيه الذى كان يمكن أن يأمر به فيلقى للفناء •

وأحيانا كان يدور الصراع بين أبناء السلطان فى حياته كما حـدث فى حياة بايزيد ، إذ اقتتل ابناه أحمد وسليم ، أو بعد وفاته كما حـدث فى حالات أخرى كثيرة من أهمها ما وقع بين بايزيد الثانى سالف الذكر ، وبين أخيه « جم » الذى كان أبوه محمد الفاتح ولاه عهـده ، وقـد بدأت هـذه الحرب بعد وفاة محمد الفاتح سنة ١٤٨١ ، وظلت حتى تغلب بايزيد على أخيه سنة ١٤٨٨ •

تحـديد الإقامة :

وعندما توقفت إراقة الدماء استجابة للاستنكار الاسلامى وللشعور العالمى ، اتجه السلاطين اتجاها جـديدا لحماية أنفسهم من منافسيهم ، وكان ذلك الاتجاه هو أن يحددوا إقامة الإخوة والأبناء ، بأن يوضـع كل منهم فى قصر صـغير ، تحيط به حديقة ، وتكثر به الجوارى والقيان ويكون له سور مرتفع صـامت ، بحيث لا يراه أحـد من الخـارج ، ولا يرى هو أحـداً بالخارج ، وتوضع مع هـذا المسكين بعض الكتب الدينية وبخاصـة التى تحث على طاعة ولى الأمر •

وكانت هـذه القصـور الصغيرة تسمى « أقفاصـا » (١) ، وطالما تحول السجين فيها الى معتوه أو أصـابته علة صحية أو نفسية •

وعلى العموم فكل جوانب القسوة التى ذكرناها كانت رد فعـل للثورات العنيفة التى قام بهـا الطامعون فى السلطة من حين الى حين •

---

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية .. ص ٣٥٠

أعوان السلطان :

وبجانب السلطان كان يوجد الصدر الأعظم ، وهو يعادل منصب رئيس الوزراء فى العهد الحاضر ، وكانت الرشوة الباهظة ، والتعهد بتلبية مطالب السلطان وسد حاجة بلاطه من أهم الشروط للترشيح لهذا المنصب الخطير ، ويجىء بعد هذا المنصب الولاة (الباشوات) وهم حكام الولايات ، وكان الوالى لا يعين إلا اذا أجزل العطاء للصدر الأعظم ، بل لقد فرض على باشوات الولايات أن يجددوا مراسيم تعيينهم كل عام لتتكرر الرشوة التى يدفعونها ، وكلما كان يخلو منصب وال كانت المساومة تظهر ، فلا تمنح الولاية إلا لمن يدفع أكثر من سواه ، وطبيعى أن الوالى يسترد ما دفعه وأضعاف أضعافه من السناجق أو الألوية ، التى كانت تنقسم لها الولاية ، إذ كان تعيين حكام الألوية من اختصاص الوالى ، وكان ذلك يتم بعد دفع الرشوة الكافية ، ويسترد حكام السناجق ما دفعوه من الملتزمين أو من الرعية مباشرة .

الباب العالى :

ومن الواضح أن الصدر الأعظم كان هو المنصب التالى لوظيفة السلطان ، وابتداء من عهد السلطان محمد الرابع بنى مبنى فخم يقيم به الصدر الأعظم وأعوانه ، وكان درويش محمد باشا أول صدر أعظم سكن هذا المبنى ، وسمى هذا المركز الذى تصدر منه أعظم الأحكام « الباب العالى » .

غير الترك فى الوظائف الكبيرة :

كان عنصر الأتراك فى الامبراطورية الشاسعة أقلية صغيرة وكانت المناصب الكبيرة تسند اليهم عادة ، ويقول Kirk إن الأتراك فتحوا الباب لكفاءات أخرى للترقى ، فكان لكل رجل مهما كان مولده مجال لتقلد مناصب الدولة بشرط مراعاته للتقاليد المرعية فى الدولة

واصطباغه بالصبغة الثقافية العامة فيها ، وبشرط مراعاة مذهب أهل السنة ، وتعلم الفنون الحربية مع التدرب عليها ، وإجادة اللغة التركية ، تلك اللغة التى — مع اقتباسها لكثير من العبارات والألفاظ العربية والفارسية — قد ناصرها العثمانيون حتى صارت اللغة الرسمية فى الحكومة وتغلبت على اللغتين العربية والفارسية اللتين تمتت كل منهما الى حضارة أعمق وأرقى من الحضارة التركية (١) •

ولسنا نتفق مع Kirk فى هذا الإطلاق ، فحقيقة كان عدد الأتراك أقل من عدد المناصب الكبرى ، ومن ثم احتاج الترك الى عناصر أخرى لتشغل لها هذه المناصب ، ولكنهم اتجهوا فى الكثير الغالب الى الأوربيين ، واكتفوا منهم بالتظاهر بدخول الاسلام فأسندوا لهم أرقى المناصب ، ويدلنا الإحصاء الذى أورده جلزر (٢) على أن الصدور العظام الذين تعاقبوا على الحكم خلال ازدهار الامبراطورية العثمانية (١٤٥٣ — ١٦٢٣) كانوا ثمانية وأربعين ، خمسة منهم فقط يجرى فى عروقهم الدم التركى أما الباقون فكان توزيعهم على الشكل التالى :

١١ البانيا كانوا حديثى عهد بالإسلام •

١١ صقليا (سلافيا) •

٦ من اليونان كانوا حديثى عهد بالإسلام •

١ جركسى واحد من القوقاز •

١ إيطالى واحد حديث عهد بالإسلام •

١ أرمنى واحد •

---

(١) A Short History of the Middle East p. 90.

(٢) H. Gelzer : Geistliches und Weltiches aus dem griechisch. Turkischen orient p. 179.

١ كرجى من جورجيا (بلاد الكرج) .

١٠ من أصول غير معروفة (١) .

وهكذا ليس من بينهم عربى واحد أو مسلم عميق الأصول فى الإسلام ، ولم يسند للعرب إلا أتفه الوظائف ، وكانت الطبقات الفقيرة من العرب والمصريين تعامل معاملة مزرية (٢) .

الإقطاع

وكانت الدولة تقوم على أساس النظام الإقطاعى الذى نظمه الحكام الأولون على الغرار البيزنطى ، وكان الإقطاع الأصغر يدعى (تيمار) ويمنح لبعض الطموحين ، ويظل الفلاحون بالإقطاع يزرعون لصاحب التيمار ويقدمون له المحاصيل (الإيجار أو الحاصلات فيما عدا ما يمسك حياتهم) ، وعلى المقطع اليه نظير هذا الإقطاع أن يقدم للدولة عددا من الفرسان يتراوح بين اثنين وأربعة أو عدداً من البحارة لخدمة الأسطول ، بالاضافة الى بعض الضرائب المالية .

وهناك إقطاع أكبر يدعى (زعامت) ويمنح ان يقدمون خدمة شخصية للخليفة أو للدولة ، ويقدم (الزعيم) وهو لقب صاحب هذا الإقطاع ، مالا للسلطة المركزية وجنوداً للجيش يتزايد عددهم تبعا لإيراد الإقطاع .

والتيمار والزعامة كانا يخضعان لتفتيش رجال الإدارة المركزيين .

وهناك إقطاع أعلى هو (الخاص) ويمنح للولاة ولا يخضع للتفتيش .

---

(١) يلاحظ أن المجموع ٤٧ لا ٤٨ كما ذكر فى الأصل .

(٢) انظر موجز تاريخ الشرق الأوسط لكيرك ص ٩١ .

ولما اتسعت الإمبراطورية كثر الباشوات الذين كانوا يعينون حكاما للأقاليم ، وكان الإقليم كإقطاع لكل منهم يتولى هو توزيعه إقطاعات صغيرة على أتباعه وعبيده ، وظل الحال كذلك حتى أصدر سليمان (قانون نامه) سنة ١٥٣٠ الذى جعل حق منح الإقطاع فى يد الباب العالى (ديوان الصدر الأعظم) وأصبح الباشا يقترح من يستحقون الإقطاعات وتصدر البراءات لهم من ديوان الصدر الأعظم ، ولكن كثيرين من الباشوات احتالوا على (قانون نامه) وظلوا يباشرون سلطاتهم الكاملة .
ولم يكن هناك قانون واضح للوراثة فى الإقطاع ، فكان ابن صاحب الإقطاع أحيانا يكتفى بتيمار ليبدأ به ، وأحيانا كان يقسم الإقطاع بين الأولاد ، وفى آسيا كانت الوراثة جائزة فى الإقطاعات حتى للنساء .

وطالما حاول ملتزمو الإقطاعات أن يتهربوا من الالتزامات العسكرية والمالية التى يفرضها عليهم النظام الإقطاعى .

الالتزام

وبجوار الاقطاع وُجد فى الامبراطورية العثمانية نظام الالتزام فى الأقاليم والمناطق التى لا تتبع نظام الاقطاع ، وبمقتضى هذا النظام تسلم مساحة من الأرض المملوكة للدولة لمن يديرها ويشرف عليها ، ويجبى هذا خراجها ويلتزم بتسليم الدولة مقدارا معينا منه يتفق عليه ، وقد شرحت نظام الاقطاع والالتزام بكتابى « الاقتصاد فى الفكر الاسلامى » وبينت رأى الاسلام فيه (١) .

والمقريزى يصور الالتزام (٢) تصويرا دقيقا حين يقول : إن متولى الخراج فى مصر كان يجلس فى مسجد عمرو بن العاص فى الوقت الذى

---

(١) الاقتصاد فى الفكر الاسلامى ص ٢٠٢ — ٢٠٤
(٢) الخطط للمقريزى ج ١ ص ٨٢ .

تتهيأ فيه قباله الأرض (أوائل شهر سبتمبر) ويجتمع الناس من القرى والمدن ، ويقوم رجل ينادى على البلاد صفقات صفقات وكتاب الخراج يكتبون ما تنتهى اليه المزايدة ، وعلى مَنْ يرسو الالتزام .

ويلاحظ أن الذين يدخلون المزايدات كان يجامل بعضهم بعضا فى الغالب ، وكان لكل منهم منطقة يندر أن يقتحمها غيره ، وكان هذا يجعل المزايدة صورية فى أكثر الأحوال .

تكوين الجيش التركى ونشأة الانكشارية :

اعتمد الأتراك العثمانيون فى إقامة دولتهم على كفاءتهم الحربية ومقدرتهم كفرسان بارعين فيهم جراءة الى حد التهور ، ولكنهم كان ينقصهم التنظيم الفنى ، غير أن هذا النقص لم يتضح فى الفترة الأولى ، فقد كان التنظيم الفنى ناقصا عند أكثر الجيوش ، ولكن صدام العثمانيين بالغربيين اضطرهم الى تكوين جيش يستكمل مقدرته الحربية والفنية ، إذ كان الأوربيون قد تعلموا من صراع الحروب فى العصور الوسطى ألوانا من التنظيمات التى خلقتها التجارب العسكرية ، وعلى هذا كوّن الأتراك لهم جيشا نظاميا من رجالهم الأشداء ، ولكن هؤلاء الجنود كانوا لا يحسون بإحساس الجند ، وكانوا يرون لأنفسهم الحق فى أن يكونوا سادة ، فبالغوا فى مطالبهم المالية مما دعا أورخان (١٣٢٦ — ١٣٥٩) الى حل هذه التنظيمات .

ولجأ الأتراك بعد ذلك الى تكوين جيش من غير الترك ، ومالوا الى تكوينه من النصارى الذين كانوا يألفون التنظيمات العسكرية ، غير أن الترك كدولة إسلامية لم يكن فى إمكانهم أن يكون جيشهم من النصارى ، فلجأوا الى حيلة هى أخذ أولاد النصارى منذ طفولتهم ، ودفعهم الى الدخول فى الإسلام ، وتنشئتهم تنشئة إسلامية ، وتعليمهم

فنون الحرب ، وقد أقبل هؤلاء الغلمان على هذه الوجهة بشغف أملا فى الجاه والسلطان ، ومن هؤلاء تكونت نواة الانكشارية ، وكان الغلمان النصارى الذين يختارون لهذا العمل ينشئون فى قصور خاصة بأدرنة واسطنبول ، وكانت تقطع صلتهم بأهليهم تماما ، وبدلاً من ذلك تعقد الصلات بينهم وبين السلطان ، فيرون فيه كل شىء لهم ، وكان تدريبهم يسير فى صرامة وشدة . وكانوا يختارون كل خمس سنوات ثم تقاصرت المدة حتى أصبحت عامين فعاما واحدا ، وكان بعض غلمان الأسرة يؤخذون ويترك الباقون للأسرة ، ولكن بسبب كثرة الحروب أخذت الدولة فى بعض الأوقات جميع الغلمان الذين يتراوح سنهم بين العاشرة والخامسة عشرة ، وهناك مناطق كانت تتمتع بالإعفاء ، كما كان نظام البدل معروفاً وهو عبارة عن دفع مقدار من المال لإعفاء بعض الغلمان ، وكان الغلمان يظلون فى معسكرات التدريب حتى سن الخامسة والعشرين ، وأحيانا كانت تنقص هذه السن فى ظروف الحرب ، وكانت التنظيمات العسكرية من هذا اللون تعرف بالانكشارية ، ولم يسمح لجنود الانكشارية بالزواج إلا فى نهاية القرن السادس عشر ، فكان ذلك سبباً فى أن أصبح الالتحاق بهذه الفرق بالوراثة بصرف النظر عن المقدرة العسكرية .

وبجوار الانكشارية كان يقوم جيش من جنود الإقطاع الذين كان أصحاب الإقطاع يقدمونهم للحكومة المركزية كما سبق ، ومن هؤلاء كان يتكون جيش « الطوبجية » .

وبواسطة الانكشارية حقق الأتراك العثمانيون كثيرا من ألوان النصر فى الميادين المختلفة وبخاصة فى الفترة الأولى ، ولكن سرعان ما أصبح الانكشارية مصدر قلق واضطراب فى الدولة ، وبخاصة عندما سمح لهم بالزواج وعندما أتيح لهم أن يعملوا فى التجارة والصناعة ويسرد لنا الأستاذ محمد فريد مؤلف « تاريخ الدولة العثمانية » صوراً من هذا العصيان العنيف نقتبس بعضها فيما يلى :

— فى سنة ١٥٢٥ تآمر الانكشارية بعـد عودة السلطان من مدينة أدرنة التى كان قـد توجه للإقامة بهـا فى فصـل الشتاء ، ونهبوا سراى ابراهيم باشـا الصدر الأعظم الذى كان إذ ذاك بمصر ، ونهبوا محـل الجمرك ، وعـدة أماكن أخرى من منازل الأعيان ، وحارة اليهود ، ولولا أن تدارك السلطان الخطب بنفسه لامتد العصـيان ، لكنه أسكتهم عن السلب والنهب بتوزيع العطايا عليهم ، ثم بعـد ذلك عزل بعض رؤسائهم الذين كانوا سبب هـذا العصـيان وقتل بعضهم (١) .

فى سنة ١٦٣١ أصدر السلطان أمره بعزل خسرو باشا واعادة حافظ باشا للصدارة ، فسعى المعزول لدى الجند وأفهمهم أنه لم يعزل الا لمساعدته لهم ، فثاروا وأرسلوا الى الاستانة يطلبون ارجاعه ، ولما لم يجب السلطان طلبهم ساروا الى القسطنطينية وقاموا بثورة شديدة خيف فيها على حياة السلطان ، اذ دخلوا السراى السلطانية سنة ١٦٣٢ وقتلوا حافظ باشا ، فاغتاظ السلطان وقتل خسرو باشا محرك هذه الفتنة ، وأزمع السلطان العزم على مجازاة رءوس الانكشارية وغيرهم ممن كان يهيج الخواطر (٢) .

— فى سنة ١٧٢٧ ثار الانكشارية على السلطان وحاشيته لميلهم للصلح مع ملوك العجم ، وأهاج الانكشارية الأهالى ، وطلب زعيم هذه الثورة من السلطان قتل الصدر الأعظم ، والمفتى ، وقبودان باشا أميرال الأساطيل البحرية ، بحجة أنهم مائلون لمسالمة العجم ، فامتنع السلطان عن اجابة مطالبهم ، ولما رأى منهم التصميم على قتلهم طوعا أو كرها سلّم لهم بقتل الصدر الأعظم والأميرال دون المفتى ، فقتلوهما وألقوا جثتيهما فى البحر ، ولم يكتفوا بذلك بل نادوا باسقاط السلطان نفسه ، وأعلنوا ذلك واختاروا للدولة سلطانا جديدا (٣) .

---

(١) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ٨٣ — ٨٤ .
(٢) المرجع السابق ص ١٢٦ .
(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٤٦ — ١٤٧ .

وهكذا أصبحت الانكشارية خطرا على الدولة ، ولذلك حاول السلاطين محاولات متكررة أن يتغلبوا على هؤلاء العصاة الذين وجهوا خطرهم للدولة والسلطان وأصبحوا يعصون الأوامر اذا صدرت لهم بالتصدى لأعداء الدولة أو الاشتراك فى الحروب ، كما كانوا يعصون الأوامر التى تتصل بالتطور الحربى والعسكرى . ولذلك أجمعت الاتجاهات على التخلص من هذه الفئة الباغية ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية ما يلى (١) .

لما تحقق السلطان محمود أفضلية النظامات العسكرية المستعملة فى جيوش أوربا ، وسمع بما أتته الجنود المصرية المنتظمة من الأعمال الباهرة فى شبه جزيرة المورة نتيجة للتنظيم العسكرى الحديث الذى يسيرون عليه ، زاد تعلقه باصلاح العسكرية ، وأراد اتمام المشروع الذى لم يتمكن السلطان سليم الثالث من اتمامه ، فجمع أعيان المملكة وكبار ضباط الانكشارية فى بيت المفتى سنة ١٨٢٦ ، ولما تكامل الحضور خطب فيهم الصدر الأعظم مظهرا ما وصلت اليه حالة الانكشارية من الضعة والانحطاط وعدم الانقياد لرؤسائها حتى صارت من أكبر دواعى تأخر الدولة العلية بعد أن كانت هذه الفئة من أكبر عوامل تقدم الدولة وامتداد فتوحاتها ، ثم أبان لهم ضرورة ادخال النظام العسكرى الأوربى فى فرق الانكشارية ، إذ لا يمكنها بحالتها هذه الوقوف أمام الجيوش الأوربية المنتظمة ، ووافق الجميع على ذلك ، ووقعه جميع الحاضرين ، وأصدر المفتى فتواه بجواز ذلك ومعاقبة من يعارضه .

ولكن موافقة الانكشارية كانت ظاهرية ولذلك سرعان ما ثاروا عندما بدىء فى تنفيذ هذه الاصلاحات بتدريبهم حسب التعليمات الجديدة ، وأعلنوا أن هذه التنظيمات ستفقدهم امتيازاتهم وأنهم يعارضونها واستعدوا للثورة وتبعهم بعض الغوغاء .

---

(١) المرجع السابق ص ٢١٩ — ٢٢٠ .

وفى يونية سنة ١٨٢٦ بدأت الثورة ، فاستدعى السلطان مستشاريه ، فأعلنوا ضرورة مقاومة الانكشارية هذه المرة ، واستدعى السلطان فرق الطوبجية ونزل بهم يتبعه العلماء والطلبة ميدان معركة ضد الانكشارية ، وأطلقت مدافع الطوبجية نيرانها على الانكشارية الثائرين فأخذت تحصدهم ، وصدرت الأوامر بقتل الفارين منهم وبنفيهم الى الاطراف على الأقل ، ولجا بعضهم الى الثكنات فدمرتها المدفعية عليهم ، وانتهت بذلك هذه الطائفة ، التى كانت مصدر تقدم الدولة يوما ومصدر تخلفها فيما بعد (١) •

البحرية العثمانية :

كانت أهم عناية العثمانيين متجهة الى الجيوش البرية ، ولكن سرعان ما أرغمتهم الظروف على العناية بالقوة البحرية ، فقد خاضوا غمار حروب مع اليونان والبنادقة ، فكان على الأسطول أن يلعب دورا هاما فى هذه الحروب ، كما كان عليه أن يلعب دورا هاما فى ضم الشمال الافريقى للدولة ، وقد بلغت قوة البحرية التركية غايتها فى أواخر القرن السادس عشر حتى لم يكن من الممكن لأية بحرية أخرى أن تجول فى البحر الأبيض المتوسط بدون اذن من سلاطين الأتراك ، ولما أعطى السلطان محمد الثالث امتيازا لفرنسا بحرية جولان أسطولها فى البحر المتوسط اغتاظ الانجليز وعملوا لدى السلطان حتى حصلوا على مثل هذا الامتياز لأسطولهم •

الموقف تجاه تكوين الانكشارية :

قبل أن نترك الانكشارية ينبغى أن نوضح موقف أتباع الديانات المختلفة تجاه أخذ أبناء النصارى ليتكون منهم جيش الانكشارية •

---

(١) انظر تاريخ الدولة العلية وتاريخ الشعوب الاسلامية لكارل بروكلمان . والمنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب ، للاستاذ احمد النائب الانصارى ج ١ ٢٣٣ — ٢٣٤ .

وكان من الواضح أن النصارى كانوا يضيقون بهذا التصرف وبأخذ أولادهم منهم ، ويرون ذلك حرمانا لهم من أولادهم من جانب والزاما لهؤلاء الأولاد بدخول الاسلام وهو شيء لا يقبلونه من جانب آخر ، ومن أجل ذلك كانت أسر كثيرة من أسر النصارى تحتال لينجو أولادهم من الانضمام للانكشارية ، فكانوا يدفعون فديات واسعة ، أو كانوا يزوجونهم وهم فى سن مبكرة لأن قانون الجيش كان يحتم أن يكون الملتحقون بالانكشارية غير متزوجين ٠

ومرّ الزمن واتضح ما يستمتع به الانكشارية من تربية عظيمة ، ونفوذ كبير ، فبدأت الأنظار ترنو لهذه المناصب فى شغف ، حتى أن بعض المسلمين واليهود كانوا يدفعون أبناءهم لأسر النصارى لتدفع هذه الأسر بهؤلاء الأولاد الى الانكشارية ، كما أن النصارى أحسوا بالقوة فى أيديهم اذ كانت الانكشارية من أولادهم ، فلم يكن خافيا على الأولاد تحقيق أنسابهم وأديانهم الأولى ، وكان هذا من الأسباب التى أدّت لثورات الانكشارية وكثرة هياجهم ٠

الآثار المعمارية

يعتبر المسجد الذى تحولت له كنيسة القديسة صوفيا عقب الفتح أهم مساجد العاصمة ، وقد بذل مهندسو السلطان محمد الفاتح جهدا كبيرا لجعل هذه الكنيسة مسجدا ، فغُطيت صور الكائنات الحية بطبقة من الكلس ، اذ كان معروفا أن الاسلام يعارض التصوير ، وأدخل فى وسط جناح الكنيسة الجنوبى محراب للقبلة ، والى يمين المحراب شيد المنبر ، وابتدعت مساحات واسعة كتب فيها الخطاطون بعض أسماء الله الحسنى واسم الرسول وأسماء الخلفاء الراشدين ٠ وفى خارج الكنيسة شيدت مآذن شاهقة ، أولاها فى عهد السلطان محمد وباقيها بعده ٠

ولم يكتف السلطان الفاتح بهذا المسجد ، بل بنى مسجدا آخر بدأ

فيه سنة ١٣٦٣ وسماه المحمدى أو جامع السلطان محمد الفاتح ، كما بنى مساجد أخرى هنا وهناك ، وبالاضـافة الى ذلك فقد بنى السـلاطين العثمانيون مجموعة كبيرة من المـدارس والربط والمستشفيات ومطـاعم للفقراء ، ومجموعة من الخانات والحمامات والآبار والملاجىء وغيرها .

ومن الآثار المعمارية العظيمـة التى تنسب للسـلاطين العثمانيين مسجد أبى أيوب الأنصارى الذى سبق الحديث عنه . وقد شُيِّد فى عهد محمد الفاتح ، وكان هذا المسجد موضع اجلال سلاطين العثمانيين ، فكان الخلفاء الجدد يذهبون اليه حيث يتقلدون سيف عثمان اشعارا ببدء خلافتهم ، وبالقرب من هذا المسجد كان مدفن السـلاطين وكبـار رجـال الدولة .

ومن أهم آثار العثمانيين مسجد بايزيد الذى يمتاز بفخامة مواده البنائية وبزخرفته على الطريقة الفارسية ، ومسجد سليمان القانونى الذى تضاءلت أمامه جميع مساجد العاصمة لضخامته وجلاله ، وألوان الابتكار فى تصميمه ، والارتفاع فى مآذنه ، والسخاء فى الانفاق عليه .

وكان كثير مـن الوزراء وولاة الأقـاليم يبنون الربط والمسـاجد والمدارس ، وكان يدفعهم لذلك تهريب الأموال أو محاولة التخلص منها بطريق يخدع ولاة الأمور ، اذ كانت الرشوة منتشرة وكان هؤلاء ينالون منها نصيبا كبيرا ، فاذا أحس الواحد منهم بأن مصادرة مالية ستقرر عليه بادر بأن يعلن أنه سيقوم ببعض الأعمال الخيرية ، ويبدأ فعـلا فى تشييد المدارس والربط والمساجد وما ماثلها .

إهمال المؤسسات الزراعية والصـناعية :

ويلاحظ فى الآثار المعمارية أنها ذات صلة بالدين بين مساجد ومدارس دينية وربط وزوايا فى أكثر الأحوال ، وليس فى الآثار المعمارية التركية شق طرق أو اقامة سدود ، فان الأتراك لم يبذلوا عناية تذكر بالزراعة والصناعة وغيرها مما يرفع شأن الرعية ويكسب لها الرفاهية .

المؤسسات الدينية للتمويه :

كانت بعض المؤسسات الدينية تعبيرا عن روح الاسلام وخدمة المسلمين ، ولكن فى كثير من الحالات شيدت هذه المؤسسات للتمويه والتضليل ، فكثير من السلاطين الذين عرفوا بالمجون وادمان الخمور أنشئوا مساجد شامخة بلغت غاية الروعة فى الجمال ، وكانوا يقصدون بذلك تضليل الناس ، وصرفهم عن الحديث عن المجون والخلاعة التى كانوا يعيشون فيها ، ومن هؤلاء الذين فعلوا ذلك : السلطان سليم الثانى ، والسلطان أحمد الثالث .

سيدات البلاط وانشاء المساجد :

وقد اشتركت كثيرات من سيدات البلاط فى انشاء المساجد الضخمة فى أمكنة متعددة ، وكان ذلك مظهرا من مظاهر التقوى ، كما كان يصرف النقاد عن تدخل النساء فى الحياة السياسية .

تعالى الترك على ملوك أوربا :

قبل أن نتحدث عن ضعف الامبراطورية العثمانية وانهيارها ينبغى أن نورد لمحة عن عظمة السلاطين إبان قوتهم ، تقول المصادر ان سلاطين العثمانيين كان من شأنهم الاستعلاء على الملوك المعاصرين لهم بالدول الأوربية ، بل كانوا يعدون هذه الدول كأنها امارات تابعة لهم ، ويتضح ذلك لمن ينظر فى اتفاقية الهدنة التى وقعت بين العثمانيين والنمسا ، فقد وردت العبارة التالية فى مقدمة الاتفاقية :

منحت هذه الاتفاقية عن تفضل من السلطان
أبدى" الانتصار الى ملك النمسا المغلوب دوما

وقد ظل سلاطين العثمانيين أمدا طويلا يرفضون تعيين سفراء لهم لدى الدول الأوربية ، اعتقادا منهم أنهم فى غنى عن سائر العالم ، أما الدول الأخرى فكان لها تعيين سفراء فى استانبول باعتبارها عاصمة العالم ، .

وكانت مقابلة السفراء للسلطان تتم وسط مراسم وتقاليد مزرية لهؤلاء السفراء . . . » (١) .

وعندما انتصرت أوربا المسيحية أنزلوا القصاص الظالم بالامبراطورية العثمانية ، وبالدول العربية جميعا

---

(١) انظر الدولة العثمانية للدكتور عبد العزيز الشناوى ص ٣٢١

الخلافة العثمانية فى الميزان

لماذا لم ينتفع العثمانيون بالفكر الاسلامى أو بالفكر الغربى ؟

لقد اتضح لنا مما سبق أن العثمانيين لم تكن لهم ثقافة الا فى الشئون العسكرية ، ثم انهم عاشوا عصرهم فى نضال عسكرى ضد أوربا وضد روسيا وضد الصفويين بايران ، ومن هنا لم يجدوا الوقت الكافى ليجلسوا مجلس المريد أمام الفكر الاسلامى الذى كان العرب يحملون لواءه ، ولا أمام الفكر الحديث الذى كان الأوربيون يقودون آنذاك نهضته ، وظلوا يعيشون فى صراعهم العسكرى دون الاهتمام بالاتجاهات الفكرية .

وتعرفوا أحيانا على بعض الأفكار الصالحة أو التقوا ببعض المصلحين ، ولكن طبيعتهم العسكرية لم تكن خصبة تحسن استقبال بذور الاصلاح وتنميتها ، فكانت هذه البذور تذوى فى رحابهم وتضمحل .

وبسبب ذلك وقعوا فى كثير من الأخطاء فى مجالات متعددة كما أشرنا من قبل .

ولكن ، ألم تكن لهم حسنات تذكر فتشكر ، وتوضع فى الكفة الأخرى من الميزان ؟

فى الحق ان الخلافة العثمانية كانت ولا تزال هدفا للهجوم وللحراب ، وان قارىء تاريخهم يواجه سلسلة من الأخطاء تنسب لهم ، ولا يكاد يقابل حسنات ذات بال . هل ما نقرؤه يمثل الحق ويعطى صورة صادقة للذى حدث أو أن أقلام المؤرخين انحازت ضدهم ، فأهملت جانب الخير وأبرزت جانب الشر وضخمته ؟

فى الاجابة عن هذا السؤال نقرر أنه لا يمكن أن تخلو دولة كالامبراطورية العثمانية من الحسنات ، وما كان من الممكن أن تعبر هذا

الزمن الطويل وهى تعيش فى سلسلة من الظلام والتخلف ، ولابد أن لها بعض الحسنات ولكنها ضاعت فى ضجيج الأخطاء من جانب ، وبسبب تحيز المؤرخين من جانب آخر .

ولهذا فمن الأفضل هنا أن نعرض لموضـوع مهم سيسـاعدنا فى التعرف على أهم الأسباب التى زرعت الضباب حول تاريخ العثمانيين ، وهذا الموضوع هو :

تدوين تاريخ العثمانيين :

يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية من التاريخ الغامض الذى تحيط به الشبهات ، وذلك راجع الى الإنحراف فى تدوينه ، فمن الذى دوّن تاريخ العثمانيين ؟

ان المحايدين الذين دوّنوا تاريخ العثمانيين قليلون ، وقد اعتمدنا عليهم فى هذه الدراسة ، ومع رغبتهم فى الحيدة فان عناصر غير منصـفة دخلت دراساتهم من المصادر البعيدة عن الحيدة .

ان الغربيين كانوا أكثر اهتماما بتدوين تاريخ العثمانيين ، وهؤلاء كانوا بعيدين عن الانصاف ، وشديدى العداء للدولة العثمانية ، وبالتالى ظهر فى كتاباتهم اتجاه التعصب ضد العثمانيين الذين كانوا خلال فترة طويلة ممثلين للاسلام وعاملين على نشره بأوربا ، وذلك شىء يضـايق الغربيين الذين لم يستطع التقـدم العلمى أن يقتلع جـذور الصليبيين القديمة من رءوسهم (١) .

ودُوّن التاريخ العثمانى بواسطة العـربة ، ولكن العرب حينمـا دوّنوا التاريخ العثمانى كانوا يعيشون فترة صراع مع العثمانيين بسبب

---

(١) شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامى حـ ٢ ص ٢١٧

العناء الذى لاقوه من هزائم العثمانيين ومن بعض ولاتهم ، ثم ان العرب كانوا آنذاك قد ساد فى حياتهم الثقافية أثر الفكر الغربى الذى كان يمقت العثمانيين ، وقد جاء الفكر الغربى الى مصر عن طريق الاحتلال الانجليزى ، ووفد الفكر الغربى الى سوريا ولبنان مع النفوذ الفرنسى الذى بكر فى غزو الشام ، ثم أن العرب تأثروا بالصحافة العربية المبكرة ، تلك التى كان محرروها من المارونيين غالبا ، وكان هؤلاء مسيحيين تربوا فى معاهد الارساليات التى كانت مركزا لعداء الاسلام والمسلمين .

ودون تاريخ العثمانيين كذلك بواسطة الأتراك بعد سقوط الخلافة ، ومن الواضح أن مدونى التاريخ من الأتراك آنذاك كانوا واقعين تحت نفوذ النظام الجديد المعادى للخلافة وللاسلام .

من أجل هذا ولسواه يعتبر تاريخ الخلافة العثمانية غير دقيق ، وقد حاول الدكتور عبد العزيز الشناوى أن ينصف هذا التاريخ ، وبدأ كتابه بروح فيها و"د" ، وسمى كتابه :

الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها

وهو كتاب جاء فى ثلاثة أجزاء ، ولكنك تقرؤه فتجد أن المؤلف يقدم القضايا التى تدين العثمانين أكثر مما تنصفهم ، ويمكن أن يلتمس له العذر للأسباب التى أوردناها .

وعلى كل حال هناك حسنات ومساوىء لا يمكن تجاهلها ، وفيما يلى أهم ما يمكن تدوينه منها :

حسنات العثمانيين :

إن الدارس لحياة العثمانيين يستطيع أن يسجل لهم مجموعة كبيرة من الحسنات ، ويمكن إيجازها فيما يلى :

أولا — توسعات عسكرية فتحت مجالا للاسلام :

يوضع فى القمة فى هـذا المجال اسـقاط القسطنطينية العاصـمة البيزنطية التى قاومت المسلمين عدة قرون واستعصت عليهم ، وكان سقوط هذه العاصمة فى نفس القرن الذى سقطت فيه أسبانيا فى أيدى الفرنجة فاندمل بذلك جرح المسلمين بعض الشىء ، وعند ما حـدث الانكمـاش الاسلامى فى غرب أوربا كان هناك زحف إسلامى يخطو من جهة الشرق •

ومن الواضح أن العثمانيين لو اتجهوا بفتوحاتهم الى مناطق آسيا لكان الطريق أكثر يسرا ، فان هناك مناطق فى الهند وفى جنوب شرقى آسيا كانت ترحب بالعثمانيين وتهدّد بهم الأعداء ، ولكن زحف العثمانيين على أوربا حقّق ثأرا للضيم الذى أنزلته أوربا بالمسلمين فى الأندلس منذ وطئت أقدام المسلمين هذه البلاد ، وسواء قصدت الخلافة العثمانية ذلك أو لم تقصده ، فان ذلك كان أمرا واقعا لا يمكن تجاهله •

ومن أبرز ما ينسب للعثمانيين كذلك أنهم استطاعوا الاستيلاء على عدد من جزر البحر المتوسط ، فدخلوا رودس سنة ١٥٢٢ وقبرص سنة ١٥٧١ ، وكريت سنة ١٦٦٩ ، وجذبوا لهـذه الجزر دين الاسـلام عن طريق الهجرات التركية اليها وبخاصة الى قبرص وعن طريق دعوة غير المسلمين الى الاسلام •

وحرص العثمانيون على أن يجعلوا البحر الأحمر منطقة اسلامية ومن هنا مدوا نفوذهم فى عهـد سليمان القانونى الى مصـوّع وسـواكن سنة ١٥٥٧ •

وكان امتداد الاسلام بأوربا واسعا فى عهد العثمانيين فقد وصلوا الى فيينا عاصمة النمسا ، وقد حرص العثمانيون عـلى نشر الاسـلام بالبقاع التى دخلوها بأوربا ، اذ كانت حملاتهم العسكرية يصحبها الوعاظ والمعلمون الذين يقومون بنشر الاسلام فى الامتدادات التى وصلت لها

الدولة ، كما أن السلاطين والأمراء والأثرياء العثمانيين اهتموا اهتماما كبيرا باقامة المساجد والمعاهد والخوانق لتعليم الاسلام والدعوة له مما جعل عددا كبيرا من الأوربيين يعرفون الاسلام ويرتبطون به حتى الآن .

ثانيا : الدفاع عن الأرض الاسلامية ضد الزحف الأوربى :

وبذل العثمانيون جهودا مشكورة فى مجال الدفاع عن الأرض الاسلامية التى تعرضت لمحاولات غربية للسيطرة عليها ولعل من أقدم المحاولات التى قام بها الغرب للتضييق على العالم الاسلامى هذا الكشف الذى قامت به البرتغال حين دارت حول افريقية واكتشفت طريق رأس الرجاء الصالح وحاولت أن تسيطر على الامارات العربية الساحلية وعمان وقد حققت البرتغال بعض النجاح ، ولكن جهود السكان العرب بهذه المناطق وجهود العثمانيين ، قضت على المحاولات البرتغالية التى كانت سياسية ودينية فى نفس الوقت .

ومن أهم ما قدمته الدولة العثمانية لخدمة الاسلام أنها وقفت فى وجه الزحف الصليبى الذى اتجه بخططه للمساس بالأماكن المقدسة بالحجاز فى أوائل القرن السادس عشر حيث كان الزحف البرتغالى يجعل من خططه اجتياح الحجاز عن طريق السيطرة على البحر الأحمر ، ولكن الأسطول العثمانى وقف لهم بالمرصاد وأرغمهم على التراجع عن هذا العدوان .

ومن المعروف فى التاريخ أن الشمال الافريقى تعرض لزحف من الفرنجة عقب انتصار هؤلاء على المسلمين بالأندلس واتجه الصليبيون الغربيون الى احتلال أجزاء واسعة من الشمال الافريقى وبخاصة الجزائر وطرابلس ، وقد لجأ سكان الشمال الافريقى للدولة العثمانية يطلبون عونها ضد المعتدين فاستجابت الدولة العثمانية لهذا الطلب ، وكان فى

ذلك حماية للشمال الافريقى ، أوضحناها بشىء من التفصيل بالجزء الرابع من هـذه الموسوعة .

ومن الواضح للمؤرخين أن الصليبيين عندما طُرِدوا من الشـام لم يستسلموا استسلاما تاما أمام المسلمين وأخذوا يُعِدُّون العدة لزحف جـديد وأرادوا فى هـذه المرة أن يكون زحفهم أوسع ، وغير متجه الى الشام فقط ، ولكن وجود الدولة العثمانية قاوم هذا الاتجاه ، مما يمكن معه أن نقرر أن الوحدة الاسلامية فى ظل الامبراطورية العثمانية قـد أخَّرت الزحف الاستعمارى الى الدول العربية ، وقاومته بشدة ، ولم تنجح الدول الاستعمارية فى تحقيق غاياتها الا بعد أن ضعفت الامبراطورية العثمانية .

ثالثا : الامبراطورية العثمانية تواجه الصهيونية :

اتجه الصهاينة منذ عهد بعيد للسيطرة على فلسطين وبخاصة المناطق المقدسة بها ، وكانوا يزعمون فى هـذا النطاق أنهم يستعيدون أرضهم التى عاش فيها أجدادهم الأبعدون فترة من الزمن ، وكان مولد الحركة الصهيونية الجـديدة معاصرا للنشاط العثمانى فى الأرض العربية ، ولكن الصهاينة لم يحققوا أى مأرب لهم فى ظل العثمانيين .

وقد تجددت محاولة الصهاينة فى عهد السلطان عبد الحميد الثانى (١٨٧٦ — ١٩٠٩) ولكنـه رفض بقوة السـماح باقامة وطن يهـودى للصـهاينة بفلسـطين ، ويُروى أنه بعـد عَقْـدِ مؤتمـر بـال بسـويسرا سـنة ١٨٩٧ الذى قـرر اقـامة وطن لليهـود بفلسطين ذهب أحـد قـادة التنظيم الصـهيونى واسـمه « قره صـو » الى الخليفة عبد الحميد وذكر له أن الحركة الصهيونية مستعدة أن تقـدِّم قرضـا للدولة قدره خمسون مليونا من الجنيهات وأن تقدِّم هدية لخزانة

السلطان الخاصة قدرها خمسة ملايين من الجنيهات نظير منح اليهود الحق فى اقامة وطن قومى لهم بفلسطين ، وكان رد السلطان أن صرخ فى حاشيته قائلا « مَنْ أدخل علىّ هذا الخنزير ؟ » وطرده من البلاد وأصدر أمرا بمنع هجرة اليهود الى فلسطين ، ويقال ان هذا الصهيونى كان ضمن الذين أعلنوا اقصاء الخليفة من السلطة سنة ١٩٠٩ مما يزعزع الثقة فى الاتحاديين ، وبخاصة أن حكمهم سرعان ما انقلب الى عنف وطغيان .

رابعا : الدولة العثمانية وحماية سيناء من اليهود :

اتجه اليهود الى سيناء لتكون مهجرا لهم ، وبخاصة أن منطقة الطور هى المنطقة التى تلقى فيها موسى رسالة ربه ، وقد اتّجه اليهود الى الهجرة نحو هذه المنطقة ، واتخاذها مكانا لهجرة يهودية واسعة الى سيناء ، وقد أحس سلاطين العثمانيين منذ فتح مصر بهذه المحاولات اليهودية ، ولذلك أصدر السلطان سليم الأول وابنه السلطان سليمان القانونى فرمانات تمنع اليهود من الهجرة الى سيناء ، ولكن فى عهود ضعف الخلفاء العثمانيين بدأ اليهود يهاجرون سرا فرادى وجماعات الى هذه المنطقة ، بيد أن رهبان دير سانت كاترين أحسوا بالخطر يهدد المنطقة ، فشكوا الى الوالى العثمانى بالقاهرة من أن اليهود سيكونون مصدر خطر على الدير وعلى مصر ، واستجابت الدولة العثمانية لهذا النداء ، وأمرت باخراج اليهود وأسرهم من منطقة الطور ، وعدم السماح فى المستقبل بهجرة اليهود الى سيناء جميعها .

خامسا : الدولة العثمانية ومحاربة التشيع :

ذكرت فى الجزء الثانى من هذه الموسوعة خطر من أسميناهم (مدعى التشيع) هؤلاء الذين لم يتعمق الاسلام فى قلوبهم ولم يعرفوا التشيع الصحيح لآل البيت ، وانما ادّعوا الاسلام ، وادّعوا التشيع ليحدثوا بالعالم الاسلامى صورا من الصراع والتدمير ، وذكرنا أن هؤلاء ينحدرون من الأصول اليهودية التى كانت قد بقيت ببلاد فارس منذ عهد الأسر

البابلى ، كما ينحدرون من حاشية الأباطرة التى روّعها انتصار المسلمين وسلب سلطانها .

وذكرنا كذلك أن مبادىء هؤلاء انسابت بين الشيعة الحقيقيين فى فترات ضعف الشيعة أمام أعدائهم الأمويين حتى أصبح من العسير التمييز بين المبادىء المنحرفة لمدّعى التشيع ومبادىء الشيعة الحقيقيين ، فقد أصبح موضوع الامامة موضوعا رئيسيا عند أكثر الشيعة أو كلهم ، ويتبعه الاعتقاد بأن عليا خير البشر ، وأنه قد تم تعيينه اماما بعد الرسول ، وأن استبعاده عن السلطة كان اغتصابا لها . . .

والمهم أن شيعة الفرس الذين أصبحوا يمثلون التشيع الجديد حرصوا على نشر مذهبهم فى الأماكن المتعددة ، وبخاصة فى العراق وبلاد الخليج لاتصالها بايران ، بيد أن هذه البلاد كانت تدين بالسلطة للعثمانيين ، وقد استطاع العثمانيون أن يوقفوا المد الشيعى الفارسى ، ولولا العثمانيون لكان من الممكن أن تنساب أفكار مدعى التشيع الى عدة مناطق بالعالم الاسلامى .

وبهذه المناسبة نذكر أن الشيعة الحقيقية تتمثل فى حب آل البيت وتقديرهم ، وفى مظاهر الاجلال الكامل لعلىّ بن أبى طالب رضى الله عنه لقربه من الرسول ، ومصاهرته له ، ولعلمه وفضله وخدماته للاسلام ثم لأولاده كذلك . وذلك شىء يتضح تماما لدى كثيرين من المسلمين ، ولدى المصريين بوجه خاص .

أما التشيع بمعنى الامامة اللازمة لعلىّ وأولاده ، ومعنى الظاهر والباطن فلا يميل لها أكثر المسلمين .

ذلك حديث موجز عن حسنات العثمانيين ، أما الحديث عن المآخذ فقد تناولناه عند حديثنا عن أسباب « ضعف الامبراطورية العثمانية » ولكننا هنا نستطيع أن نضيف بعض المآخذ التى لم يشملها كلامنا فيما سبق :

مآخذ على العثمانيين

هناك مآخذ خطيرة تؤخذ على العثمانيين ، وقد ورد أكثرها فى وثيقة مهمة هى « الخط الهمايوني » أى الاعلان السامى الذى أصدره السلطان عبد الحميد محدداً أمراض الدولة ، وواعدا بإصلاحها •

الحكم المطلق :

ويقف فى قمة السيئات نظام الحكم المطلق وقد تحدثنا عنه من قبل ، وكان هذا النظام يضع مقدرات هذه الامبراطورية الفسيحة فى يـــد شخص واحد هو السلطان ، فيجعله مصدر القوانين ، ويجعل سلطانه بدون حدود ، وطبيعى أن الاستبداد والحكم الفردى المطلق كانا مــن الانحطاط وأسباب ضعف الدولة ، وقد عبَرَت الامبراطورية أكثر عمرها فى ظل هذا النوع من الحكم ، وكانت النتيجة اضطرابا فى الداخل وهزائم فى الخارج ، وقد تحدثنا من قبل عن الهزائم التى منى بها العثمانيون فى الميدان الخارجى ، ونريد هنا أن نقول كلمة عن صور الاضطراب الداخلى :

تدخل خارجى باسم الأديان :

كانت الدولة خليطا من أجناس غير متماوتة : وكان هذا يحدث فيها نفورا واضطرابا دون انقطاع ، وكانت الدولة كذلك خليطا من الأديان ، فاليهود لا يعرفون الولاء للدولة وهم ينتهزون الفرص للاثراء ولاهم لهم سواه ، والمسيحيون يوثقون صلاتهم بالدول الأوربية التى تدعى أنها مسئولة عن حمايتهم ضد التعصب الدينى الذى كانت ترمى به زوراً الدولة العثمانية ، والمسلمون مغلوبون على أمرهم ، ليس لهم نصير فى الداخل ولا لهم عون خارجى •

اضطرابات اقتصـادية واجتماعية :

ومالية الدولة فاسدة ، فلا ميزانية ، ولا اصلاحات ، والرشوة تملأ كل مكان كأنها قانون لا يعترض عليه ، والحرية مفقودة ، والمصادرات

تهدد كل مالك ، حتى لـم يعد أحد يحس بالاطمئنان لغـده ، والدولة تستدين من الخارج حتى بلغت ديون الدولة فى عهد السلطان عبد العزيز ٥٣٠ مليون ليرة . والفقر الشائع والجوع المنتشر يدفعان الناس للسرقات وقطع الطرق .

وصحة أبناء الشعب تتدهور ، والجهل يتفشى ، والذكاء يضر صاحبه ، والثقافة ينظر اليها عـلى أنها تدفع للتمرد والعصـيان ، والجواسيس ينتشرون فى كل مكان ، حتى أصبح أهل البيت يخشى بعضهم بعضا ، والشعوذة والدجل تسيطر على أكثر العقـول ، وصـاحب « الجلالـة الشاهانية » وبخاصة فى بعض الفترات كما سنرى بعد قليل ، لا يهمه غالبا الا هواه ، والا الموسيقى والبذخ والنعيم ، وأما العدالة فليست كاملة ، فالمحاكم كثيرا ما تحكم فى القضايا المهمة كما تريد شهوة الحكام لا كما يشاء القانون .

صور من طغيان الســلاطين :

وتوالى السلاطين المنحرفون على الحــكم ، واشــتدت أزمات الدولة فى الداخل والخارج ، ولكن هؤلاء ظلوا فى طريقهم ، وظلوا يهيمون بالمتع ينعمون بهـا على حساب الشعب المحتاج ، وشهد القرن التاسع عشر مجموعة من أشد الخلفاء استبدادا وأعنفهم بطشا ، بدأت بمصطفى الرابع (١٨٠٧) فمحمود الثانى (١٨٠٨) فعبد المجيد الأول (١٨٣٩) فعبد العزيز (١٨٦١) فمراد الخامس (١٨٧٦) فعبد الحميد الثـانى وليس فى هؤلاء واحـد يفضل الآخرين ، وكان كل منهم عندما يتولى يَعـدُ بإصــلاح الحال ، ولكن سرعان ما تصبح كلمة الإصلاح أبغض الكلمات اليه وأكثرها لإثارته ، بل صــارت كلمة إصلاح أو مصلح فى كثير من الأحيان تهمـة ينكرها أكثر الناس خوفا من عواقبها ، كتهمـة الشيوعية والإلحاد فى بعض الدول فى العهد الحاضر . وبلغ عبد العزيز فى التعسف مـداه ، فاحتال عليه هواة التجـديد ودبروا مؤامرة عزلوه

بها ثم قتلوه ، وتولى بعده مراد ولكن سرعان ما ظهر اختلاط عقله فعزل ، وجاء بعده عبد الحميد الثانى الذى سنتكلم عنه فيما بعد .

وهناك مآخذ اقتصادية يمكن أن يسجلها الباحث على الدولة العثمانية ولكنا نبادر فنقرر أن أكثر هذه المآخذ راجع الى الصراع الطويل القاسى الذى دار بين العثمانيين ، وبين الصليبيين الغربيين ، فلقد استنفد هذا الصراع المال والسلاح والجهد ، ، ولم يكن للدولة خيار فيه فالعدوان صليبى يعتبر امتدادا للحروب الصليبية بالشرق .

صراع مدمر مع الصفويين :

ثم كان هناك صراع آخر بين العثمانيين والصفويين وكم أريق فيه من دماء ، وضاعت فيه من أموال .

حالة العرب :

وكان طبيعيا أن تؤثر هذه الحروب وتلك على الجانب الاقتصادى للدولة ، وبالتالى على مستوى معيشة الفرد فى الامبراطورية العثمانية بوجه عام والشعوب العربية بوجه خاص ، فمن الثابت تاريخيا أن العالم العربى عانى اقتصاديا خلال تبعيته للعثمانيين فقد كانت العاصمة العثمانية تتطلب من الضرائب أكثر مما يطيقه الشعب ، ولم تكن تقدم خدمات ذات بال فى المرافق نظير هذه الضرائب ، ومن هنا فإن مستوى معيشة الفرد فى العالم العربى أصبح هابطا للغاية ، بل إن كثيرين من القادرين اضطروا أن يخفوا أموالهم حتى لا تتعرض للمصادرة أو السلب وتظاهر هؤلاء بالفاقة مما جعل الفقر يسيطر على القادر والمسكين على حد سواء .

مذابح باسم الدين :

وقد حدثت فى الدولة مذابح بين المسلمين والمسيحيين ، وكان المسيحيون يبدأون بهذا العمل الوحشى ، ولكن الانتقام يجىء عقب

ذلك ، ويكون من باب معالجة الخطأ بخطأ مثله مما زاد الدولة اضطرابا وصراعاً .

ويأخذون عن الدولة العثمانية أنها منذ عهدها المبكر فى مصر صدرت أوامرها بترحيل أعداد كبيرة من علماء الفكر الاسلامى ورجال الإفتاء ، والنوابغ فى الحرف ، ورجال الأعمال ، وقد بلغ عددهم زهاء ألف وثمانمائة رجل ، أنزلتهم السلطات العثمانية تباعاً فى سفن نيلية شقت طريقها الى الاسكندرية ومنها استقلوا السفن العثمانية الى استانبول (١) .

ويعلق ابن إياس(٢) على هذا التصرف بقوله : تعطل فى مصر نحو خمسين صنعة .

ويمكن أن نقول : إن هذا العدد لا يمكن أن يكون شديد التأثير على الحياة الفكرية والصناعية بمصر ، هذا بالاضافة الى أن السلطان سليمان القانونى عندما جاء الى الحكم سنة ١٥٢٠ بعد ثلاث سنوات من فتح مصر ، أصدر فرمانا بعودة المصريين الى مصر (٣) .

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى أن كثيرين منهم رفضوا العودة وآثروا البقاء فى استانبول (٤) .

وهكذا عندما نضع فى الميزان حياة الامبراطورية العثمانية نجد الميزان متأرجحاً ، وبخاصة إذا لاحظنا المساوىء التى سنردها فيما يلى عند حديثنا عن أسباب ضعف الإمبراطورية .

---

(١) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية دولة مفترى عليها ص ٦٩٠ .

(٢) تاريخ مصر حـ ٥ ص ٢٧ حوادث شعبان سنة ٩٢٣ .

(٣) ابن اياس : تاريخ مصر حـ ٥ ص ٣٩٤ .

(٤) المرجع السابق .

ضعف الامبراطورية العثمانية

تهاوت الامبراطورية العثمانية كما أشرنا من قبل وكما سنرى فيما بعد ، حتى انتهى أمرها الى دولة صغيرة فى الأناضول مع شريط ضيق فى الجانب الأوربى لبحر مرمرة ، ما العوامل التى هدمت هذا الوحش الكاسر وحطمت أنيابه ؟

إن الإجابة عن هذا السؤال ستحمل المزيد من مساوىء الحياة العثمانية ، وهاك هذه الإجابة :

اتساع الرقعة مع سوء الادارة :

يقول الدكتور أحمد السعيد سليمان (١) إن ادارة بلد واسع الى هذا الحد أمر صعب جدا ، وبالاضافة الى ذلك فقد كان فقدان العدالة وفساد الادارة والرشوة والسرقات كان كل ذلك من العوامل الداخلية التى ساعدت على التدهور ، ولقد كان من الممكن أن يتأخر الانهيار لو قنع العثمانيون بمساحة صغيرة من الأرض دون هوس الفتح الذى وسع مملكتهم وأدخلهم حروبا كثيرة دمرتهم ، وجعل امبراطوريتهم محاطة بالأعداء من كل جانب .

ضعف السلاطين المتأخرين :

ابتداء من حكم سليم الثالث سنة ١٧٨٩ بدأ ضعف السلاطين يتضح ، فلم يعودوا يقودون الجيوش ، أو يرأسون جلسات الديوان السلطانى ، وتركوا تلك المهام للصدور العظام ، وانجذب السلاطين لأجنحة الحريم مما جعل بعض الحريم يطمعن فى السلطة واصدار الأوامر ، وهان الخلفاء بذلك فصدرت قرارات عزل بعضهم ، بل قتل بعضهم على يد الانكشارية وغيرهم .

---

(١) تاريخ الدول الاسلامية جـ ٢ ص ٤٤٤ .

تخلف بالنسبة للأوربيين :

كانت الامبراطورية على صلة بأوربا منذ تعمقت فى القارة ، ولكنها عجزت عن تطوير حياتها عسكريا وسياسيا واقتصاديا بالنسبة للدول الأوربية المحيطة بها ، وهذا أبرز عجزها وضعفها .

تعدد الأجناس والأديان :

ويقول الدكتور فيليب حتى (١) . « إن دولة يوضع نظامها لغرض حربى دون الالتفات الى مصلحة الشعب ، وتتسع رقعتها فتمتد الى حدود بعيدة وتشمل مساحات غير متشابهة دون أن ترتبط بوسائل منظمة للنقل ، فيها خليط من السكان غير متجانسين ، بل مختلفون شيعاً وأحزابا دينية وطائفية وعنصرية ... إن دولة مثل هذه لتحمل فى طيات كيانها بذور الانحلال والفساد » .

مساوىء القسطنطينية تنعكس على الدولة :

ويقول Sir Mark Sykes (٢) : كان فتح القسطنطينية تاجا يزين مفرق الترك ولكنه كان لهم — الى جانب ذلك — ضربة قاصمة ، فلقد ورث الترك فيها مفاسد بيزنطة ، ومساوىء أبنائها ، من الخصيان وحراس القصر ، والجواسيس ، والمرتشين ، والوسطاء ، إذ ظل هؤلاء جميعاً كما كانوا ، لقد حسب العثمانيون أنهم وجدوا كنزا ، ولكنهم فى الحقيقة ترديوا فى وباء .

الزواج من الأوربيات :

وتزوج السلاطين من بنات أمراء الغرب المغلوبين ، ففتح هذا الزواج الطريق الى خلق عيون للغرب فى بلاط الخلفاء المسلمين ، وطالما

---

(١) تاريخ العرب ج ٣ ص ٨٤٤ .
(٢) The Turkish Impire p. 185.

أفشت هؤلاء الزوجات من أسرار السلاطين ما تسبب لهم الهزائم في حروبهم وسبب كشف خططهم ، كما أدى نظام الحريم الى صور دنيئة من الفتن والاغتيالات والمؤامرات فهد ذلك من كيان الدولة وأضعف الناحية الروحية بها .

انحدار الانكشارية :

وانحدر الانكشارية كما رأينا من قبل الى المساوىء والمفاسد ، فكانوا معولا يقوض بناء الدولة بعد أن كانوا دعائم لقوتها وانتصاراتها .

نبوع الرشوة :

وأسرف الولاة وكبار الموظفين الترك فى سوء السيرة ، وكانت الرشوة تمارس كشىء مشروع لا غبار عليه ، ومن أعجب صور الرشوة ما تقاضاه الصدر الأعظم من الروس أعداء الدولة ليهيىء لبطرس الأكبر وجيشه أن يفلتوا من أسر كاد يكون أمرا لا مفر منه فى المعارك التى جرت بين الروس والعثمانيين سنة ١٧١١ على نهر البروت (١) . ويحكى الأستاذ محمد فريد وجدى خبر هذه الحادثة فيقول : « إن الصدر بالطة جى محمد باشا تقدم على رأس جيش كثيف ليرد زحفا قام به الروس بقيادة بطرس الأكبر متتبعين شارل ملك السويد الذى كان قد هزم فى معارك ضد الروس ولجأ الى البلاد العثمانية ، ونجح الصدر فى تقدمه فعبر نهر الدانوب وأحاط ببطرس الأكبر وبجيشه ، ونفدت المؤن من الروس كما نفدت الذخائر ، وأوشك الجيش والامبراطور أن يقعوا أسرى فى أيدى الترك ، ولكن كاترين امرأة بطرس جمعت جميع حليها وحلى من معها من الأميرات

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية جـ ٣ ص ١٥٥ . ونهر بروت يصب فى الدانوب ويفصل بين الاتحاد السوفيتى ورومانيا .

وأرسلتها هدية الى الباشا فقبلها وأبرم صلحا مع بطرس الأكبر أنجاه وأنجى جيشــه من الأسر (١) .

انحلال القصور :

وانتشرت المفاسد فى القصور وأصبح بعض الخلفاء يحيون حيــاة غريبة عن روح الاسلام وعن العقل السليم ، ويقول الأستاذ محمد كرد على(٢) . إن مراد الثالث كان مظهراً من مظاهر الافراط فى كل شىء ولا سيما فى الاسترسال فى مساوئه ، وقد سهلت له أمه وزوجته الطريق للحصول على شهواته ، وخلف ١١٨ ولدا . وكــان ابراهيم الأول متهتكا سيىء السيرة ، قيل إنه قتل ١٠٠,٠٠٠ إنســان ، منهم ٢٥,٠٠٠ أمام عينيه ، وكان يبنى كل أسبوع ببكر وتقام له الأفراح ، وكان بايزيد الثانى على جانب من السفاهة ، فانتشرت المفاسد والمنفرات فى أيامه فى كل مكان بين الخاص والعام ، ونسى الناس الشرع وعبثوا بأحكام الدين ، وكانت تحمل اليه أطيب المسكرات وألطف المغنين والمغنيــات والموسيقيين والموسيقيات ، ولا شأن للكبراء الا أن يأتوه بما ترغب فيه نفسه مــن الجوارى والغلمان .

الحروب ومواجهة أقوى دول العصر :

ومن عوامل الضعف أيضا تلك الحروب التى طال أمدها فى ميادين مختلفة وما تأكله من أرواح وما تطلبه من أسلحة وأموال ، وبخاصة مع امتداد خطوط القتال والابتعاد عن مراكز الامداد ، والتوغل فى جهــات مختلفة من العالم ، فحروب فى المجر ، وحصار لمدينة فيينا ، ومعارك فى الجزائر ، وحملات الى اليمن ، وصراع فى فارس ، ولا شــك أن هــذه الحروب تنهك الجند وتستنزف الأموال (٣) .

---

(١) دائرة معارف القرن العشرين جـ ٢ ص ٦٠٩ .

(٢) الاسلام والحضارة العربية جـ ٢ ص ٥٠٠ — ٥٠١ .

(٣) انظر تركيا والسياسة العربية ص ٤٢ .

على أن من أهم عوامل ضعف الدولة اصطدامها بدول ثلاثة كبيرة في الشرق والغرب هي الروس والألمان والصفويون ، ويوضح Kirk أثر الحروب التركية الفارسية في اضعاف الأتراك فيقول (١) :

قد كانت دولة الأتراك العثمانيين ، كسابقتها الدولة البيزنطية مضطرة الى توزيع عناصر قوتها الفعالة ما بين الشرق الأوسط وبلاد البلقان ، التي ربما أربت مصالحهم فيها على مثلها في الشرق الأوسط ، وقد كان المركز الرئيسي لكل من الدولتين الشطر الشرقي من البحر الابيض المتوسط ، ولكنهما جميعا طرحا بمواردهما في حروب مستمرة ضد خصم قوي هو دولة فارس التي تبعدها عن حظيرتهما اختلافات دينية (أو مذهبية) شديدة ، كما أن الحروب البيزنطية الفارسية كانت غير حاسمة وأضعفت من شوكة الدولتين المتحاربتين وعرضتهما لغزو العرب وفتحهم لبلادهما ، كذلك كانت الحروب العثمانية — الفارسية التي دامت من القرن السادس عشر الى القرن الثامن عشر غير حاسمة أيضا . وأضعفت الدولتين معا ، وعرضتهما لسطوة التجارة الأوربية التي أفضت في القرن التاسع عشر الى تدخل الدول الأوربية في شئونهما رغم أنفهما ، وفي عهد العثمانيين ، كما في عهد الدولة البيزنطية ، كان امتلاك العراق مثارا للمقاومة من هذا الجانب أو ذاك .

القروض :

لجأت الامبراطورية العثمانية للقروض ، وللأسف كانت تقترض من أعدائها الأوربيين ، فأتاح هذا الوضع الفرصة لهذه الدول وبخاصة انجلترا وفرنسا للتدخل في الشئون الاقتصادية للدولة ، واضطرت الدولة لانشاء البنك العثماني برياسة فرنسي ، وكان له نائب انجليزي ، وكان ذلك سنة ١٨٣٦ م وبعد ذلك بحوالي عشر سنوات أعلنت الحكومة عجزها عن سداد فوائد الديون فأساء ذلك لحقها اساءة كبيرة .

---

(١) A Short History of the Middle East p. 88.

إغفال مصالح الشعب :

ومن أسباب الانحلال والضعف فى جسم الدولة العثمانية ما يقرره كل الباحثين من اغفال الحكومة للخطط الانشائية ، واغفالها التام لمصالح الشعب . ويقرر Kirk أن تشكيل الدولة فى جوهره كان حربيا يرمى فى صراحة الى المحافظة على قوة العاهلية ورعاية مصالحها الممثلة فى شخص الجالس على عرشها ، دون اعتبار يذكر لمصلحة رعاياها ، فالحكم العثمانى لم يسفر عن انشاء شيء يذكر من الطرق أو المستشفيات أو المدارس ، وقد كان أحد السياح يمر بمدينتى حلب ودمشق عام ١٨٣٨ أى بعد طول عهدها بالحكم العثمانى فلم يجد فيهما متجرا واحدا للكتب ، كذلك لم يبد الأتراك اهتماما يذكر بتحسين حال الزراعة والرى أو صيانة مرافقها .. وقد هجر الفلاحون الكثير من القرى ، وانكمشت رقعة المدن حتى انتقلت الاسكندرية من مدينة زاهرة عامرة بالسكان الى بلدة لا يكاد يبلغ سكانها ١٠,٠٠٠ من الأنفس .

وكان الفلاح لا يفلح من أرضه سوى ما يكفى لانتاج محصول يستطيع جنيه على عجل وإخفاءه عن أعين جامع الضرائب ، وفى سوريا هجر الزراع حقولهم ، وهرع بعضهم الى المدن يلتمسون فيها العيش ، ولجأ آخرون الى أودية الجبال الوعرة الوصول ، وفى مصر أهمل الرى حتى تدهورت حالة الزراعة واختل نظام نوبات المياه ، فكانت القرى يقتتل بعضها مع بعض على مورد الماء ، ولما اشتد الحرمان بالفلاحين ، وضاقوا بما يلاقونه من الملاك ، هجر الكثير منهم الأرض وتحولوا الى طوائف من اللصوص ، وقطاع الطرق ، ومرتكبى الاجرام فى الخلاء المحيط بالقرى (١) .

ونتيجة لكل ذلك كثرت المجاعات والأوبئة ، وكانت أحيانا تشتد حتى

---

(١) G. P. Grant : The Syrian Desert p. 14.

تقضى على مئات الآلاف من البشر وتدع بعض القرى خالية تماما ، وفى أواسط القرن السابع عشر كانت شركات الأراضى الواقعة بين حلب وأقرب أطراف الفرات اليها ، خصبة وفيرة الحاصلات فاستحالت الى صحراء مقفرة بعد قرن من الزمان (١) .

القوميات والأحلاف المقدسة :

ومن عوامل الضعف كذلك أن القوميات المختلفة التى كان يضمها نطاق الدولة أخذت تستيقظ ، فاتجه المسيحيون منهم كالأرمن واليونان الى الدول الغربية يستعدونها على الدولة ، وانتفض الأكراد فى جبالهم ، والعرب فى صحاريهم ووديانهم ، وساعد على ذلك فقدان الكفاءة وانتشار روح التمرد بين الجند ، وتفشى الفساد والرشوة بين الموظفين فى مختلف نواحى الدولة ، وإهمال الدولة للشئون العامة ، من تعليم وأمور الصحة وأمور المواصلات ، فقد كانت نسبة التعليم أقل من ١٪ ووصلت نسبة وفيات الأطفال ٨٠٪ وكانت السكك الحديدية بالدولة قليلة ومضطربة (١) .

وهكذا تجمعت كل هذه العوامل وسواها على الامبراطورية فأخذت فى الضعف والانكماش والانهيار ابتداء من القرن السادس عشر ، وقد اتخذ الصراع الأوربى ضد تركيا شكلا دينيا واضحا ، اذ تكون ضدها « حلف مقدس » من امبراطور النمسا ومن بولنده والبندقية ، وكان لهذا الحلف أثر كبير فى التغلب على تركيا وضعضعة قوتها ، ثم دخلت روسيا باسم الدين أيضا هذه الحرب تؤيدها جميع الدول المسيحية ، وأنزلت بالخلافة الاسلامية ضربات قاصمة وخسائر فادحة ، وكانت نتيجة هذه الأحداث أن هوت تركيا من شاهق ، وهان أمرها حتى أصبحت تعرف « بالرجل المريض » ، وكان من الممكن القضاء على « الرجل المريض » بسرعة لولا اختلاف دول أوربا على تركته ، فمن الذى يرث بوغازى الدردنيل

---

(١) Ibid p. 161.

والبوسفور ؟ إن ورثتهما روسيا امتد نفوذها الى البحر المتوسط وهددت مصالح انجلترا وفرنسا ، وإن ورثتهما انجلترا خنقت روسيا فى البحر الأسود ، وحلا لهذه المشكلة اتفقت الدول على ألا تجهز على « الرجل المريض » وأن تبقيه على قيد الحياة لا حرصا عليه ولكن كراهة لما ينجم من خلاف حول ميراثه (١) . وموقف أوربا من الامبراطورية العثمانية سواء إبان امتدادها وزحفها أو ابان انكماشها وانهزامها يعرف فى العرف السياسى بـ (المسألة الشرقية) وسنتحدث عن هذه المسألة الشرقية فيما يلى :

المسألة الشرقية :

هل المسألة الشرقية مسألة سياسية أو مسألة دينية ؟

يدعى أكثر المؤرخين الغربيين أن المسألة الشرقية مسألة سياسية ، ويقولون انها ليست الا تحركات للحدود ضمانا للأمن ، وهذه التحركات تحصل بين المسيحيين بعضهم والبعض الآخر .

والذى نراه أن المسألة الشرقية مسألة دينية ، وأنها تعبير يساوى التعبير الذى استعمله المسيحيون من قبل وهو « الحروب الصليبية » ، وقد أراد المسيحيون باستعمال التعبير الجديد التمويه وعدم اثارة المسلمين ، ويقول الأستاذ محمد فريد مؤرخ الدولة العثمانية معلقا على معركة ليبانتو البحرية ما يلى (٢) : واشتراك البابا فى هذه المعركة يدل على أن المحرك الأول لهذه التألبات ضد الدولة الاسلامية هو الدين كما أيدته الحوادث والحروب فيما بعد لا السياسة كما يدعون ، وكان لفوز المسيحيين رنة فرح فى قلوب المسيحيين أجمع ، حتى أن البابا خطب فى

---

(١) المجتمع الاسلامى للمؤلف ص ٢٢٧ — ٢٢٨ .
(٢) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١١٢ .

كنيسة مارى بطرس برومة وشكر دون جوان قائدها على انتصاره على السفن الاسلامية ، وذلك مما لا يجعل عند المطالع أقل ريبة أو شك فى أن المسألة الشرقية مسألة دينية لا سياسية كما ادعاه ويدعيه الأوربيون ويغتر به السذج غير المطلعين »

وعندى أن مفهوم « المسألة الشرقية » قد تغير لدى الأوربيين من عصر الى عصر ، ففى القرن الخامس عشر والنصف الأول من القرن السادس عشر كانت الامبراطورية العثمانية قد وصلت الى مدى واسع واحتلت جانبا كبيرا من جنوب أوربا الشرقى يشمل القسطنطينية وأملاك الدولة البيزنطية وأملاك امبراطورية الصرب وامبراطورية البلغار فى البلقان ، كما استولت على ولايتى الأفلاق والبغدان (رومانيا الحالية والقرم) فأصبح البحر الأسود بحيرة تركية ، واستولت كذلك على دولة المجر وهددت مدينة فيينا أكثر من مرة • وقد أزعج هذا الزحف دول أوربا ، وبدأت هذه الدول تتعاون للوقوف فى وجه ما أسموه « المسألة الشرقية » ، وهنا كان مدلول هذا التعبير التصدى للأتراك ، والتعاون لإضعاف شوكتهم • والصراع هنا أقرب للاتجاه الصليبى •

ثم بدأ الضعف والهزال يظهران فى جسم الدولة للأسباب التى سبق ايرادها ، من اضطرابات فى صفوف الجيش التركى ، وإهمال للرعايا ، وحرب ضد الفرس ، وثورات داخلية قادها فى البلاد العربية بعض القادة والمفكرين ، ومن ظهور النمسا وروسيا كدولتين وأخذهما فى مهاجمة الدولة ، وكذلك ظهور انجلترا وفرنسا كدولتين تتأثران بما ستئول اليه أملاك الأتراك العثمانيين وتتنافسان فى هذا المجال ، وهكذا أصبح تطلع دول أوربا لما ستئول اليه أملاك الامبراطورية العثمانية يعرف فى القرنين الثامن عشر والتاسع عشر بـ « المسألة الشرقية » ، ويمكن أن يعد الصراع هنا صراعا سياسيا •

واذا كانت « المسألة الشرقية » بمعناها الأول وحددت أو قاربت بين

وجهات نظر الأوربيين للوقوف فى وجه القوة الشرقية الزاحفة بدينها وعاداتها على أوربا ، فان « المسألة الشرقية » بمعناها الثانى أثارت ألوانا من الخلافات والحروب والمؤامرات بين دول أوربا بعضها والبعض الآخر ، فلكل منها أطماع تتعارض مع أطماع الأخرى ، ولذلك أدت هذه الخلافات — كما ذكرنا من قبل — الى اطالة عمر « الرجل المريض » ريثما يحل الزمن أهم المشكلات المتصلة بتراثه .

وفيما يلى أبرز أطماع الدول الأوربية فى ممتلكات الامبراطورية العثمانية :

روسيا : تطلعت روسيا باهتمام الى الوصول للبحر الأسود الذى كان يعتبر بحيرة تركية لأن أملاك الترك تحيط به ، فلما وصلت روسيا الى البحر الأسود تطلعت الى السيطرة على المضايق التى تصله بالبحر الأبيض المتوسط لتكون على صلة حربية وتجارية بجنوب أوربا وببلاد الشرق ، كما تطلعت الى أن تصبح وريثة للدولة البيزنطية لتكون لها حماية المسيحيين وبالتالى تستعيد عاصمة الدولة المسيحية الغابرة .

النمسا : كان يهمها تأمين حدودها باضعاف العثمانيين الذين طالما هددوا هذه الحدود ، ولذلك عملت النمسا على الحصول على أجزاء كثيرة من الأملاك المتصلة بها والتى كانت خاضعة للأتراك العثمانيين كالبوسنة وطريق سالونيك ، وقد تم لها ذلك ، وأخذت تعمل على تحرير المناطق الأخرى المجاورة لها والتابعة للعثمانيين كالمجر والبلقان .

انجلترا : خافت أن تتصل روسيا بالبحر الأبيض المتوسط فيسبب ذلك خطرا على مصالحها السياسية والاقتصادية فى الشرق ، وتطلعت انجلترا الى الخليج العربى ، كمنطقة لها نفوذ فى الخطوط الملاحية بين انجلترا والهند ، ولما حفرت قناة السويس زاد اهتمام انجلترا بمصر كطريق رئيسى بين أجزاء الامبراطورية البريطانية .

فرنسا : كانت تتطلع الى الشمال الافريقى المواجه لحدودها الجنوبية ، كما كانت تحاول السيادة على مصر والشام لتضرب بذلك انجلترا ، وكانت المنافسة بينها وبين روسيا قوية حول رعاية شئون المسيحيين بالامبراطورية العثمانية •

وهكذا ضمنت هذه الخلافات عمرا أطول للأمبراطورية العثمانية ، بل كانت تركيا أحيانا تنال مساعدات وتشجيعات من بعض الدول لايقاف نشاط دول أخرى مما حقق لها بعض الانتصارات حتى فى فترة الوهن والانحلال ، كما مدّ فى عمرها أيضا فرصة ظهور أسرة كوبريللى على مسرح السياسة وتوليهم الوزارة (١٦٥٦ — ١٦٩٠ م) ، وكان لكفاءة أفراد هذه الأسرة واخلاصها أثر ظاهر فى اعادة القوة التى تفوق العثمانيين حينا من الزمن ، ولكن هذا كله لم يكن دواء ناجحا ، وانما كان أشبه بحقنة تبعث نشاطا صناعيا وسرعان ما يختفى النشاط مع اختفاء أثر الدواء ، لتعود الدولة الى وهنها وضعفها •

إضعاف العرب ونتائجه على الأتراك :

وللدول العربية دور سلبى هام أثر فى المسألة الشرقية ، فلو أن الدول العربية اتيحت لها الفرصة لتقوم بدورها الايجابى لكان من الممكن أن تتغير نتائج المسألة الشرقية ، وسنشرح هذا الرأى فيما يلى :

أثبت العرب فى أزمات كبيرة من أزمات التاريخ أنهم أبطال مغاوير ، وأنهم يصمدون أمام الأحداث ولا يهنون أمام المشكلات ، وحسبك أن نتذكر اكتساح الجيش العربى لدولتى الفرس والروم فى مطلع الاسلام ، وأن نتذكر كذلك موقف الجيش العربى المصرى من المغول حيث دحرهم وهزمهم شر هزيمة فى عين جالوت سنة ١٢٦٠ م ، ومنح النجاة والسلامة للثقافة العربية والاسلامية بل و للانسانية من شر هؤلاء البرابرة ، وحسبك أن نتذكر كذلك موقف مصر والشام من الصليبيين حيث ناوروهم ونازلوهم

طيلة قرنين من الزمان حتى كتب لهم النصر ، ومن أجل هذا كان المسيحيون يحسبون ألف حساب للبطل العربى قبل أن يقدموا على الهجوم عليه .

وجاءت الدولة العثمانية واستطاعت باسم الاسلام أن تشق طريقها للنصر فى الصفوف العربية ، ولما تم لها النصر جردت المارد العربى من أسباب القوة ، فحرمته الأسلحة والتدريب ، كما حرمته الثقة والتقدير ، بل حرمته الأمن ولقمة العيش .

ولقد كانت فرصة المسيحيين أن يخلو الجيش العثمانى من الرجل العربى الذى كان يبعث الرعب فى قلوبهم بتاريخه الطويل ونضاله القوى .

ومما زاد الأمر سوءا فى هذا المجال أن الدول العربية كانت تقف موقف العداء من تركيا عندما كانت هذه تناضل فى أوربا ، فقد هبت بمصر والشام والعراق حركات استقلالية وقفت وجها لوجه أمام العثمانيين وحققت أحيانا كثيرا من الانتصارات ، حتى أن دول أوربا أرجأت أحيانا نضالها ضد الأتراك العثمانيين بل ساعدت الأتراك العثمانيين ليكبحوا انطلاقة المارد المصرى والمارد العربى على العموم .

انهيار الإمبراطورية العثمانية

والآن ، بقى علينا أن نصف واقع الأحداث كما جرت لنرى ما آل اليه أمر الامبراطورية ، مع ملاحظة أن انكماش الدولة لم يكن مطردا ، بل أثرت العوامل التى سبق ذكرها على هذا الانكماش ، فاذا الدولة بين مد وجزر تفقد بلدا اليوم وتعود فتسترده غدا ، وقد أورد Harry Hazard (١) صورة سريعة لحركات هذا المد والجزر فتحدث عن إحدى وسبعين مقاطعة

(١) Atlas of Islamic History p. 38.

من المقاطعات التركية تناولتها هذه التحركات ، ونحن نورد منها بعض النماذج لترينا مدى هذا الاضطراب الذى طال ولم يصل الى نهايته الا خلال الحرب العالمية الأولى وبعدها :

الصرب وتبعيتها للامبراطورية العثمانية : تبعية وجزية ١٣٨٦ — ١٤٠٢ ، خروج على السلطة ١٤٠٢ — ١٤٣٩ ، تبعية وجزية مرة أخرى ١٤٣٩ — ١٤٤٤ ، ضمها للامبراطورية لتكون ولاية ١٤٥٦ — ١٨٧٨ ، فى فتنة ١٨٠٤ — ١٨١٣ ، ١٨١٥ — ١٨١٧ ، شبه مستقلة ذاتيا ١٨١٧ — ١٨٢٩ ، مستقلة ذاتيا ١٨٢٩ — ١٨٧٨ استقلال تام بعد ذلك — بلغراد العاصمة تبعت الامبراطورية فى السنوات التالية : ١٥٢١ — ١٦٨٨ ، ١٦٩٠ — ١٧١٧ ، ١٧٣٩ — ١٧٨٩ ، ١٧٩١ — ١٨٦٧ وانشقت بعد ذلك حتى استقلت سنة ١٨٦٧ •

البوسنة : تبعية ١٣٨٩ — ١٤٠٢ ، ١٤٦٣ — ١٩٠٨ : وتفصيل هذه المدة كالآتى : تابعة ١٣٨٩ ١٤٠٢ ، فى فتنة ١٨٢١ — ١٨٥١ ، ١٨٧٥ — ١٨٧٨ ، فى حكمهم بالاسم ١٨٧٨ — ١٩٠٨ •

ألبانيا : ١٤٣٠ — ١٤٤٣ ، ١٤٦٧ — ١٩١٢ — فى حكمهم وان كانت قبضتهم عليها متراخية •

فلسطين : ١٥١٦ — ١٧٩٩ الحملة الفرنسية ١٧٩٩ — ١٨٠١ العثمانيون مرة أخرى ١٨٠١ — ١٨٣٢ ، مصر (محمد على) ١٨٣٢ — ١٨٤٠ — العثمانيون ثالثا ١٨٤٠ — ١٩١٧ — الاحتلال الانجليزى ١٩١٧ •

هذه أمثلة موجزة لتحركات الحدود العثمانية ، وهى تحركات طبيعية اقتضتها العوامل التى سبق شرحها ، ومن هنا لم يكن من الممكن أن نورد حديثا منتظما عن تقلص الدولة وانكماشها ، وكل ما يمكن ايراده هو بعض المواقع الحربية الهامة وبعض المعاهدات التى دفعت حدود الدولة نحو الانقباض والانحسار •

فى أوربا والأناضـــول

موقعـــة ليبانتو :

موقعة بحرية هامة تنسب الى خليج ليبانتو اليونانى ، حدثت سنة ١٥٧١ بين الأسطول العثمانى وأسطول مسيحى مؤلف مـن البحريـة الاسبانية وبحرية البنادقة وبحرية البابا وبعض سفن رهبنة مالطة ، وكان يقود أسطول المسيحيين دون جوان الاسـبانى ، وقد انتصر أسطـول المسيحيين على أسطول الأتراك انتصارا حاسما ، فأسر آلافا من رجال البحرية العثمانية ، وضاعت أكثر السفن الحربية العثمـانية بين غـرق واحتراق ، وكان لهذه الموقعة صدى كبير فى نفوس المسلمين والمسيحيين ، ومن العجيب أن دون جوان لم ينتفع بانتصاره ولـم يهاجم أية بلـدة عثمانية ، واكتفى باحتلال تونس عند عودته من هذه الموقعة سنة ١٥٧٢ . وقد تم له احتلالها دون مقاومة نظرا لهزيمة أسطول العثمانيين الذى كان يحمى الشاطىء الافريقى ، ولكن هذا الاحتلال لم يدم طويلا ، فقـد جددت الدولة اسطولها واسترجعت تونس سنة ١٥٧٥ بمعرفـة سـنان باشا (١) . وهـكذا كانت هذه الموقعة الضخمة قليلة النتائج .

صـلح كارلوويج :

فى أواخر القرن السابع عشر منى العثمانيون بهزائم متتالية أمـام القوات الألمانية وقوات البندقية ، وبولندا وروسيا وختمت هذه المعارك بمعركة مهاج الثانية (٢) فى المجر سنة ١٦٨٧ حيث كانت هزيمة العثمانيين قاصمة فى الميدان وتلاها اضطراب داخلى ، وهزيمة أمام الجيش الروسى

---

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العثمانية ص ١١١ — ١١٢ .

(٢) مهاج الأولى حدثت سنة ١٥٢٦ وكانت القيادة للسلطان سليمان القانونى ومعه الصدر الأعظم ابراهيم باشا وقد حقق الترك فيها انتصارات كبيرة ، وامتد سلطانهم الى المجـر .. وقد سبق الحديث عنها .

أدت الى أن يستولى القيصر بطرس على آزوف ، وكان من نتائج هذا كله أن عَقْدَ صلح يصفه كارل بروكلمان (١) بأنه « صلح غير مجيد » بالنسبة للعثمانيين ، هو صلح « كارلوويج » سنة ١٦٩٩ ، وفى هذا الصلح تخلى الباب العالى عن ترانسلفانيا (مقاطعة نمسوية) لآل هابسبورج ، وعن المجر برمتها تقريبا ، وعن القسم الأعظم من سلاودنيا وكرواتيا ، وتنازل للبولنديين عن أوكرانيا وغيرها من المناطق التى فتحوها ، وتنازل البنادقة عن المورة .

معاهدة قينارجـة :

شهد النصف الثانى من القرن الثامن عشر معارك طاحنة بين الروس وبين الأتراك العثمانيين ، وكان النصر للروس فى أغلب هذه المعارك ، وقد استطاع الروس سنة ١٧٧٠ أن يجتاحوا البغدان والأفلاق وأن يصلوا الى نهر الدانوب ويأخذوا يمين الولاء للملكة كاترينا (١٧٩٦) أرملة بطرس الثالث (٢) التى كانت تعتبر نفسها وريثة القيصر بطرس الأكبر (١٧٢٥) وأداةً لتحقيق أحـلامه ، وفى نفس العـام (١٧٧٠) أضرم الروس النار فى الأسطول العثمانى المرابط فى خليج جشمة مقابل جزيرة ساقِز بالأرخبيل اليونانى ، ولما توالت هزائم العثمانيين عقدوا صلحا مع الروس سنة ١٧٧٤ يعرف بمعاهدة قينارجة ، وقد أورد الأستاذ محمد فريد نص المعاهدة (٣) ، وأهم ما جاء فيها أن تتنازل تركيا لروسيا عن بعض الموانى بالبحر الأسود من أهمها آزوف ، فصار لروسيا قواعد حربية على هذا النحو ، ومَنحَ أسطول روسيا حق عبور المضايق التركية الى البحر الأبيض المتوسط ، ومنها الاعتراف باستقلال تتار القرم ، وأن

---

(١) تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٣ ص ١٥٣ — ١٥٤ .

(٢) كانت احب الى القادة من زوجها بطرس الثالث فتقرر خلعه وجعلها قيصرة روسيا ، ثم مات زوجها عقب ذلك ، واتخذت بطرس الاكبر مثالا لها .

(٣) تاريخ الدولة العلية العثمانية ص ١٦٠ — ١٧١ .

تبنى روسيا كنيسة بالأستانة ، ويكون لها حق حماية جميع المسيحيين التابعين للمذهب الأرثوذكسى من رعايا الدولة العلية ، واعفاء الرعايا الروس الذين يذهبون للحج من دفع أية ضرائب ، وتسهيل الحياة لمن يفضل من الرهبان أو الرعايا أن يبقى بالدولة العلية ، وجاء فى الملحق السرى لهذه المعاهدة أن الأتراك ملزمون بدفع غرامة حربية كبيرة مقسطة على ثلاث سنوات ١٧٧٥ ، ١٧٧٦ ، ١٧٧٧ .

ومن الملاحظ فى هذه المعاهدة أنها لم تكتف باقتطاع أجزاء من الدولة العثمانية ، بل تعدت ذلك الى اعطاء الروس حق حماية المسيحيين من رعايا الدولة ، وذلك يفتح الباب لتدخل الروس فى الشئون الداخلية للامبراطورية ، وهو انتقاص كبير لسيادتها .

موقعة نوارين ومعاهدة لندن :

وفى القرن التاسع عشر كانت قوة نابليون ترعب أوربا وترعب العالم كله ، وأصبحت فرنسا بذلك عدوا كبيرا للأتراك العثمانيين ، وقد رسمت فرنسا خططها على اقتحام الدول العربية التى كانت تابعة لتركيا ، وعلى اثارة الاضطرابات فيما تبقى لتركيا فى أوربا من أملاك ، وساعد على ذلك رغبة هذه الدول فى التحرر منتهزة فرصة الضغط على تركيا من جهات متعددة ، ولكن الصراع بين الدول الأوربية بعضها وبعض لمواجهة قوة نابليون أطال حياة تركيا ، ولما انتهى نابليون بدأت الثورة فى جزيرة كريت سنة ١٨٢١ ثم عمت شبه جزيرة المورة ، وقد استعان السلطان بواليه على مصر انذاك محمد على فأرسل هذا ابنه ابراهيم على رأس جيش كبير استطاع به أن يخضع الثوار ، وهنا تدخلت دول أوربا ، اذ عقد حلف بين روسيا وانجلترا وفرنسا ، وانضمت له بروسيا فيما بعد ، للتدخل بين تركيا واليونان على أساس استقلال اليونان . وكانت هذه الدول تتوقع أن ترفض تركيا ومصر . ولذلك أرسلت أسطولا مشتركا بقيادة كورنجتو الى المياه اليونانية ، وكان من أهداف هذا الأسطول القضاء على القوة

المصرية النامية ، ولذلك تلمس القائد الأسباب للاصطدام بالأسطول التركى المصرى واستطاع أن يضربه ضربة قاصمة فى موقعة نوارين سنة ١٨٢٧ وتلا ذلك أن أعلنت روسيا الحرب على تركيا ، وفى ضوء هذه الأحداث تم فى لندن فى نوفمبر سنة ١٨٢٨ اتفاق بين محمد على والدول المتحالفة على جلاء المصريين عن اليونان ، وفى ٣٠ مايو سنة ١٨٣٠ اضطر الباب العالى أن يصدق على « معاهدة لندن » التى قضت باستقلال اليونان •

معاهدة سان استيفانو ومعاهدة برلين :

وجاءت نهاية الأتراك فى أوربا بمعاهدتى « سان استيفانو » و « برلين » ففى سنة ١٨٧٧ هبت الحرب بين روسيا وتركيا ، واجتاحت روسيا الأراضى العثمانية بأوربا وبالأناضول ، وأدركت تركيا ألا قبل لها بمواصلة الحرب فطلبت الصلح ، وعقدت بينها وبين روسيا معاهدة سان استيفانو فى مطلع سنة ١٨٧٨ ، وبمقتضاها خسرت تركيا الولايات الأوربية جميعها ، وأنشئت دولة بلغاريا تابعة للروس بحيث تكون منفذا لهم على البحر المتوسط ، كما أذن للروس فى احتلال قارص وباطوم فى أرمينية ، وفرض على الأتراك غرامة حربية كبيرة (٢٤٥ر٢١٧ر٣٩١) جنيها تركيا •

وثارت أوربا لهذه المعاهدة التى أخذت فيها روسيا نصيبا كبيرا من تركة تركيا ، وكان الانجليز والألمان أكثر أوربا ثورة على هذه المعاهدة أما الانجليز فعارضوا وصول الروس الى البحر المتوسط خوفا على طريق الانجليز الى الهند ، وأما الألمان فاحتجوا باضطراب ميزان القوى بسبب ما حصل عليه الروس من مناطق فى آسيا وفى أوربا ، ودعا دزرائيلى رئيس وزراء انجلترا لعقد مؤتمر جديد لإعادة النظر فى معاهدة سان استيفانو ، واقترح بسمارك أن تكون برلين مكان الاجتماع ، وعلى هذا عقد مؤتمر برلين فى يونيو سنة ١٧٧٨ الذى اشتركت فيه

ألمانيا والنمسا والمجر وفرنسا وبريطانيا وايطاليا وروسيا وتركيا ، وأرسلت بعض الدول الأخرى مندوبين لهـا لتقديم طلباتها الى المؤتمر ، ولم يصرح لهذه الدول بحضـور الجلسات إلا اذا استدعيت لإيضـاح نقطـة ما تخص دولهم ، وهـذه الدول هى رومانيا ، والصرب ، والجبل الأسود ، واليونان ، وفارس ، كما أرسل الأرمن واليهود مندوبين لنفس الغرض .

وعقـد هـذا المؤتمر جلسات بدأت فى ١٣ يونيـو واختتمت فى ١٣ يوليو وقـد اشترطت فرنسا ألا يناقش المؤتمر مسألة مصر والشام مما يدل على أن نيـة كانت تدبر للانقضاض على الدول العربية ، ويعتبر هـذا المؤتمر خطوة هامة نحو تصـفية « المسألة الشرقية » ومن أهم قرارات هـذا المؤتمر ؟ منح الاستقلال التام لرومانيا والجبل الأسـود والصرب ؛ ومنح البوسنة والهرسك للنمسا وتوسيع حـدود اليونان ، وضم ميناء (بارى) على بحر الأدرياتيك للجبل الأسود ، هـذا بالاضافة الى بعض الشروط الخاصة بالاصلاحات الدينية لغير المسلمين (١) .

ومن الواضح أن هـذه الخسارة الكبرى حلت بالعثمانيين فى مطلع عهد السلطان عبد الحميد الثانى ، وقد تسبب عن هـذه الخسارة ، وعن تردد السـلطان بين الاصـلاح والحفاظ على القـديم أن هبت حركة « تركيا الفتاة » وجماعة « الاتحاد والترقى » وسنراهما فيما بعد تضعان نهاية للخلافة العثمانية وتتجهان بتركيا اتجاها جـديدا .

العثمانيون يخسرون أملاكهم فى أوربا

والمهم هنا ان الدولة أخذت تخسر أملاكها بأوربا جزءا بعد جزء ، ولكن بين شد وتراخ حتى أفلتت جميع أملاكها بهزيمتها مع ألمـانيا فى الحرب العالمية الأولى ، وتكون من أملاك الدولة بأوربا الدول التى تعرف

---

(١) اقرا هذه المعاهدة فى تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ٣٨٧ — ٤٠٦ .

الآن بالأسماء الآتية : اليونان ، رومانيا ، بلغاريا ، يوغسلافيا ، ألبانيا ، والمجر ، ويمكن إيراد بيان موجز عن استقلال الأجزاء الأوربية عن الدولة العثمانية فيما يلي :

المجر : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٦٩٩ وكسبتها النمسا .

القرم وجنوب روسيا : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٧٧٤ ثم ضمت الى روسيا سنة ١٧٨٤ .

صربيا(جزء من يوغسلافيا) : فقدتها الدولة العثمانية سنة ١٨١٥ إذ استقلت جزئيا ، ثم استقلت استقلالا ذاتيا سنة ١٨٢٩ واستقلالا تاما سنة ١٨٧٨ .

رومانيا : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ بزوال الحماية التركية عنها واستقلت استقلالا تاما سنة ١٨٧٨ .

اليونان : فقدتها الدولة سنة ١٨٢٩ ثم استقلت استقلالا تاما سنة ١٨٣٠ وبعد ذلك أضيف اليها بعض مقاطعات عثمانية فى الأعوام ١٨٨٢ ، ١٩١٣ ، ١٩٢٠ .

القوقاز : فقدتها الدولة سنة ١٨٨٢ ثم ضم بعض أجزائها إلى روسيا .

بلغاريا : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذا أصبحت الحماية اسمية ، ثم ضم إليها الروميللى الشرقى سنة ١٨٨٥ وتم استقلالها سنة ١٩٠٨ .

قبرص : فقدتها الدولة سنة ١٨٧٨ إذ ضمتها بريطانيا لمستعمراتها .

البانيا : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ .

مقدونية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وتم تقسيمها بين صربيا واليونان وبلغاريا .

تراقية : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وقسمت فيما بعد بين بلغاريا واليونان .

جزائر بحر إيجه وكريت : فقدتها الدولة سنة ١٩١٣ وضمت الى اليونان (١) .

فى آسيا وإفريقية

الدولة الصفوية فى مواجهة تركيا :

قامت الدولة الصفوية الشيعية فى فارس (١٥٠٢ — ١٧٣٦) بعد فترة من الاضطراب تلت الحكم المغولى ، وكان العراق — كما أشرنا آنفا — مثار الحروب بين الدولتين الكبيرتين ، فكان كالكرة تلتقطه هذه الدولة أو تلك من حين الى آخر ، ولم تقف الأطماع عند العراق بل كان المنتصر يحاول أن يتجاوز حدود العراق ، وقد نص صلح سنة ١٦١٢ الذى تلا انتصارات الشاه عباس ، على أن تترك الدولة العلية لملكة العجم جميع الأقاليم والبلدان والقلاع والحصون التى فتحها العثمانيون من عهد السلطان سليمان القانونى بما فيها مدينة بغداد (٢) .

الدول العربية فى مواجهة تركيا :

أما الدول العربية فقد قامت بعدة انتفاضات ، والحقيقة أن الدول العربية كانت تقع بين عاملين كبيرين أحدهما يجذبها الى تركيا وهو

---

(١) محمد فريد : تاريخ الدولة العلية ص ١٢٠ وما بعدها .

(٢) انظر : « الشرق الأوسط » للدكتور عبد الرحمن زكى ص ١١٥ — ١١٦ .

العامل الاسلامى فقد كان معروفا أن الامبراطورية العثمانية وريثة الامبراطوريات الاسلامية الكبيرة كالأمويين والعباسيين ، وكان ارتباط الدول العربية بها لا يُعد من الاستعمار والتبعية كما سبق القول ، وانما كان نوعا من الوحدة الاسلامية ، أو هكذا كان يذيع الأتراك من حين الى آخر ، أما العامل الثانى فهو رغبة الدول العربية فى الاستقلال وبناء نفسها بعيدا عن الدولة العلية التى اتضح أنها تستغل الاسلام لاخضاع الدول العربية ، ولا تدين بهذا الدين الا بقدر الانتفاع به فى عالم السياسة • وعلى هذا هبت حركات استقلالية من حين الى آخر ، وكانت هذه الحركات تنتكس أحيانا بسبب انتعاش العامل الأول ، أو بسبب ضربات قاسية يسددها الأتراك العثمانيون لزعماء هذه الحركات ، وأخيرا بسبب تدخل الدول الأوربية التى لم تشأ أن ينطلق الأسد العربى من القفص الحديدى الذى صنعته له تركيا •

على أن القومية العربية زادت قوة واصرارا ابان الحملة الفرنسية وهبت فى كل قرية وكل مدينة ثورة طاحنة ضد المستعمر الفرنسى ، واشترك الشعب العربى فى غير مصر مع مصر فى نضالها ضد الاستعمار الفرنسى ، وانسحب جيش نابليون ولكن الصيحة الاستقلالية لم تتوقف ، فاشتدت الحركات الاستقلالية ضد تركيا فى كل البلاد العربية تقريبا ، ومن أبرز هذه الحركات ما يلى :

فى مصر : حركة على بك الكبير فى القرن الثامن عشر وحركة محمد على فى القرن التاسع عشر •

فى فلسطين : حركة الزعيم البدوى ضاهر العمر الذى كان معاصرا لعلى بك الكبير •

فى لبنان : حركة الأمير فخر الدين المعنى الثانى فى القرن السابع عشر وحركة الشهابيين فى القرن التاسع عشر •

فى العراق : حركات الباشوات المماليك وفى قمتهم سليمان باشا (أبو ليلى) فى القرن الثامن عشر •

فى اليمن : حركة الزيدية التى نجحت فى فصل اليمن عن سلطان العثمانيين فى القرن السابع عشر (عاد العثمانيون لليمن فى القرن التاسع عشر) •

فى الجزيرة العربية : قيام الدولة السعودية مع فكر الشيخ محمد عبد الوهاب •

فى شمالى افريقية : حركات استقلالية فى ليبيا والجزائر وتونس انتهت بنجاح جزئى ، فقد استبد بالسلطة فى كل منها زعماء مواطنون أو مستوطنون ولم يبق الا خيط دقيق يربط بين هذه الدول وبين العثمانيين فى تركيا ، وقد لعب السنوسيون دورا كبيرا فى مصير بعض أجزاء الشمال الافريقى •

وهناك أحاديث مفصلة عن هذه الحركات ترتبط بهذه الأقطار العربية ، وردت مع كل قطر عربى عند الحديث عنه [١] ، فلن نتكلم عنها هنا ، بل سيظل حديثنا الآن مرتبطا بالامبراطورية العثمانية التى نحكى قصة انحلالها ، وهذه الحركات الاستقلالية دفعت أوربا للتفكير فى أمر الدول العربية ، وكان واضحا أن « الرجل المريض » لم يعد يستطيع أن يحتفظ بسلطانه على هذه الدول ، كما أصبح واضحا أن استقلال هذه الدول معناه عودة المارد العربى الى النشاط ، وبخاصة أن مصر حققت انتصارات فى اليونان ، وامتد سلطانها الى سوريا وأخذت فى أوائل القرن التاسع عشر تتوسع فى الجزيرة العربية عقب انتصاراتها فى الدرعية ، واتصلت بأمير

---

(١) رصدنا أحاديث مفصلة عن حركات سوريا ومصر بهذا الجزء وعن الحركات بالشمال الافريقى بالجزء الرابع وعن الحركات بالجزيرة العربية والعراق بالجزء السابع .

البحرين ، وأصبح هذا يعنى أن نفوذ مصر ونشـاطها سيهدد مصـالح بريطانيا ويحف بالخطر طريقها البحرى الى الهند • كما أن سيطرة مصر على الشام (١٧٣٢ — ١٨٤٠) هدد مصالح فرنسـا ونفوذهـا الثقافى والاقتصادى فى هذه المنطقة •

هذا وأمثاله دفع أوربا الى التدخل للسيطرة على العالم العربى ، فأخذت تنتهز الفرص لاحتلاله دولة بعد دولة ، ولـما جـاءت الحرب العالمية الأولى وهزمت تركيا مع ألمانيا ، أتيح للحلفاء أن يستكملوا احتلال البلاد العربية ، وهكذا وقعت هذه البلاد فريسة الاستعمار الأوربى على النحو التالى : —

الجزائر : احتلتها فرنسا سنة ١٨٣٠ •

تونس : احتلتها فرنسا سنة ١٨٨١ •

مصر : احتلتها بريطانيا سنة ١٨٨٢ •

المغرب : احتلتها فرنسا سنة ١٩١١ •

ليبيا : احتلتها ايطاليا سنة ١٩١١ •

العراق : احتلته بريطانيا سنة ١٩١٧ •

الشـــام : تم تقسيم الشام الى الدول الآتية : سوريا — لبنان — فلسطين — شرق الأردن ، وقد احتلتها قوات الحلفاء فى أثناء الحـــرب العالمية الأولى ثم تم توزيعها سنة ١٩٢٠ — فوضعت سوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسى ووضعت فلسطين والأردن تحت الانتداب البريطانى كما سبق القول •

جنوب الجزيرة العربية : احتلت بريطانيا جزيرة بريم المواجهة لباب المندب سنة ١٧٩٩ ومكنت لنفوذها فى لحج بمعاهدة عقدتها مع سلطانها سنة ١٨٠٢ ، ثم احتلت عدن وهى من أملاك هذا السلطان سنة ١٨٣٩ ومكنت

لنفوذها كذلك مع سلطان مسقط والبحرين والكويت بسلسلة من المعاهدات تمت فى القرن التاسع عشر ، وكانت كل معاهدة منها تضيف جديدا للنفوذ البريطانى الذى رأى فى ذلك حماية لطريق بريطانيا للهند .

وهكذا كان مصير الدول العربية التى خضعت عدة قرون للامبراطورية العثمانية ، والعجيب أن تركيا أعلنت فى مؤتمر لوزان الذى عقد سنة ١٩٢٣ تنازلها المطلق عن السيادة العثمانية على مصر والدول العربية من غير أن تحدد المتنازل اليه أو تذكر استقلال هذه البلاد ، وقد أصبح مفهوم هذا الاعلان اعتراف تركيا بالأمر الواقع ، وبالاحتلال الذى نزل بالدول العربية نتيجة انهيار السيادة التركية المقوتة .

معاهدة سيفر سنة ١٩٢٠ ونتائجها

ولنعد الى الأناضول لنرى أنه أيضا قد مسته الهزائم التى وقعت بتركيا فى الحرب العالمية الأولى . فاتجهت له أنظار المنتصرين وبخاصة روسيا التى استولت على بعض ممتلكات الدول الواقعة شرق البحر الأسود ودفعت حدود تركيا تجاه الجنوب ، واحتل اليونان كذلك أزمير سنة ١٩١٩ ثم جاءت معاهدة سيفر التى عقدت سنة ١٩٢٠ بين السلطان محمد السادس سلطان تركيا وبين الحلفاء (بدون روسيا وأمريكا) وكانت هذه المعاهدة بمثابة تصفية نهائية للامبراطورية العثمانية ، وقد أرغم الحلفاء فريد باشا رئيس الوزراء على قبول هذه المعاهدة ، وبمقتضاها لم يبق للعثمانيين الا ما تبقى من الأناضول بعد ما اقتطعته روسيا منه ، والا استانبول وما حولها فى أوربا ، وفصلت أرمينية وأصبحت جمهورية ، ومنحت تراقيا لليونان ووضعت أزمير تحت الادارة اليونانية حتى يجرى استفتاء حول وضعها ، ودولت منطقة المضايق ، ومنحت ايطاليا منطقة الأناضول الجنوبى وأصبح للحلفاء الاشراف الفعلى على اقتصاديات تركيا .

وعلى العموم فقد اتجهت هذه المعاهدة الى استعمال القوة لتحقيق أطماع المنتصرين والى تمكين اليونان من سلب أكبر قسط من الممتلكات العثمانية •

انحراف المسيرة :

ولكن الأمور لم تسر فى هذا الطريق ، بل ظهر فى تركيا قائد جديد نال فى مطلع ظهوره ثقة مواطنيه وثقة أوربا جميعا ، فتغيرت على يــده الأمور ، ثم سرعان ما اتجه بتركيا اتجاها مجافيا للاسلام ، فزاد قرب أوربا المسيحية منه ، ذلك القائد هو مصطفى كمال « أتاتورك » الــذى اضطربت عنه الأخبار حينا ، ثم أخذت الأضواء تبرز صداقته للصهيونية وبُعْدَه عن الاسلام ، وسنتتبع فيما يلى حركات هذه الفترة وانعطاف « جماعة الاتحاد والترقى » وزعيمها أتاتورك بالامبراطورية العثمانية من حال الى حال •

ثورة الأناضول وظهور مصطفى كمال

ثار الأناضول ثورة عنيفة ضد اليونان وضد معاهدة سيفر سالفة الذكر ، وتلقى الثائرون ألوانا من العون المــادى والأدبى مــن الدول الاسلامية ، وانضم للثوّار فيلق من الجيش العثمانى بقيــادة مصطفى كمال ، وكان لمصطفى كمال وصحبه صلات مشبوهة ، سنتحدث عنها فيما بعد ، فانتهزت أوربا المسيحية هذه الصــلات ، وأرادت أن تجعل منــه صنيعة لها ، فتراخت قبضتها فى معركة أزمير ، وأتاحت له بعض الانتصارات العسكرية والسياسية لتخدع جماهير الأتراك والمسلمين حتى يُسلِّموا له القيادة ، ويستطيع أن ينفّذ خطط أوربا عقب ذلك ، وسنشرح فيمــا يلى بعض الانتصارات التى حققها أتاتورك وجيشه بعد أن تخلت أوربا عن مصارعته ، وتركت اليونان وحــدها لمقابلته :

انتصارات مزيفة :

استطاع أتاتورك أن يحصل على انتصـار عظيم فى معركـة « إين أوكى » فى يناير سنة ١٩٢١ ، وعلى اثر ذلك عقد الحلفاء مؤتمرا فى لندن فى فبراير سنة ١٩٢١ لتعديل معاهدة سيفر التى اتضح أنها لن تضع حدا للحروب والمشكلات ، وقرر المؤتمر ايفاد هيئة الى أزمير وتراقيا ، ولكن اليونان رفضت هذا القرار ، فاستمرت الأعمال الحربية فى الأناضول ، وانهزمت اليونان مرة أخرى فى « إين أوكى » أيضا فى مارس سنة ١٩٢١ ، ثم دعيت الجمعيـة الوطنية للانعقاد بأنقرة فانعقدت فى ابريل سـنة ١٩٢١ وانتخبت مصطفى كمال رئيسا لها •

واستعد اليونانيون استعداداً كبيرا لمواجهة هذا الخطر واستطاعوا أن يحققوا بعض النصر فى قرة حصار وكوتاهية فى نفس العام ، وأخذوا يستعدون للزحف الى أنقرة ، ولكن الجيش التركى قرر أن يخوض المعركة ضد اليونان باستماتة وصمود هائلين ، وبدأت ملحمة كبرى فى سقاريا بين الدولتين فى أغسطس سنة ١٩٢١ واستمر النضال حتى منتصف سبتمبر ، ونزلت باليونان هزيمة قاصمة جعلتهم يتقهقرون بدون نظام ، ولم تفلح بعد هذه المعركة محاولات اليونان ، ولم يأت أغسطس سنة ١٩٢٢ حتى كان جيش اليونان الذى كان تعداده يزيد عن مائتى ألف رجل قد انتهى بين قتيل وأسير وهارب ، وبناء على هذا النصر منحت الجمعية الوطنية لقب « غازى » لمصطفى كمال ، وأصبح سلطان تركيا مستقرا فى يـده دون منافس •

وعلى هذا عقد مؤتمر لوزان (١٩٢٣) الذى سبق أن أشرنا اليه وتمت فيه معاهدة بسطت تركيا بمقتضاها سلطانها من جديد على جميع آسـيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراقيا الشرقية ، وتعيّن على اليونانيين الذين كانوا يقيمون بآسيا الصغرى أن ينتقلوا الى وطنهم على أن يعود الأتراك المقيمون باليونان الى الأناضول •

وقد فرح المسلمون فرحا عظيما بهذه الانتصارات ، وحسبوا أنها انتصارات اسلامية سيتلوها ازدهار للاسلام والمسلمين ، ولكن أتاتورك سرعان ما أعلن ما كان يضمر ، فأعلن عداءه للخلافة وعداءه للاسلام والمسلمين ، وقد عبر الشاعر المصري أحمد شوقي عن فرح المسلمين بانتصارات تركيا ، وحزنهم لموقف أتاتورك من الخلافة ومن الاسلام بقصيدة رائعة ينم مطلعها عن أفكارها وهذا المطلع هو :

عادت أغاني العرس رَجْعَ نواحِ
ونُعيتِ بين معالم الأفراح

أوربا وأتاتورك ومراحل إلغاء الخلافة :

وفت أوربا بعهدها لمصطفى كمال ، فأتاحت له أن ينتصر على اليونان وتوقفت عن صراعها ضده ، ووفّى الرجل بوعوده المقابلة ، فأسرع بالغاء الخلافة التي كانت رباطا بين دول العالم الاسلامي ، ولم يفكر في تصحيح وضعها ، أو اختيار خليفةٍ صالحٍ ، بل اتّجه للعقد فقرّر أن يقضيَ عليه وأن يبعثرَ حيثاته ، واتجه للخلفاء بالعزل والتنكيل ثم بالغاء الخلافة ، وعلمانية الدولة ، وكل ذلك تمّ بسرعة حتى يرضى انحرافه الخاص وسادته الجدد .

ففي سنة ١٩٢٢ عزل محمد السادس (وحيد الدين) واختار بدله عبد المجيد بن عبد العزيز .

وفي أكتوبر سنة ١٩٢٣ أوعز الى الجمعية الوطنية التي ألّفها فاتخذت قرارا بإعلان الجمهورية واختيار مصطفى كمال رئيسا لها ، وكان معنى هذا أن يصبح منصبُ الخليفة منصباً دينياً ، وليست له سلطات سياسية .

وللمبالغة في التقليل من مركز الخلافة أعلن أتاتورك اتّخاذ أنقرة عاصمةً للدولة ، واكتفى بارسال ممثّل لحكومة أنقرة الجمهورية لدى

الخليفة بالاستانة ، وسنرى فيما بعد أنه عـرض على الانجليز الغـاء الخلافة ليضمن صـداقتهم •

وفي مارس سنة ١٩٢٤ أصدرت الجمعية قرارا بالغـاء الخلافـة واخراج الخليفة وأسرته من البلاد •

وتهيأ لمصطفى كمال بذلك أن يحقق باقى وعوده لأوربا وأن يقف بتركيا بعيدا عن الاسلام والمسلمين كما سنرى •

ثورات ضـد أتاتورك وقمعها :

كان من نتائج إلغاء الخلافة وابعاد الدولة عن الفكر الاسلامى أن هبت ثورة الأكراد سنة ١٩٢٥ بقيادة الشيخ سعيد شيخ مشايخ الطريقة النقشبندية ، وشملت الثورة الولايات الشرقية التى يكوّن الأكراد أغلبية فيها ، ولقيت هذه الثورة تأييدا ظاهرا أو خفيا من منافسى مصطفى كمال الأتراك ، وقد ضرب مصطفى كمال هذه الثورة بيد من حديد ، وانتهزها فرصة للقضاء على كل منافسيه السياسيين فألغى أحزاب المعارضة بحجة أنها ساندت ثورة الأكراد ، وأقام محاكم الاستقلال حيث حكمت على الكثير من منافسيه بالاعدام والسجن المؤبد والنفى ، وهكذا لم ينج من حكم المحاكم كل من نجا من معارك القتال ، وانتهت هذه الحركة باطلاق يد مصطفى كمال واطلاق فكره واتجاهاته التى سنشرحها بعد قليل [1] :

---

(١) من المقارنة التاريخية نذكر أن جمال عبد الناصر إقتدى بأتاتورك فى الغاء الأحزاب والسيطرة على الصحف واقامة المحاكم للتنكيل باعدائه .

أسماء وهيئــات

أسهمت فى التحركات بتركيا بدءاً من عهد عبد الحميد الثانى :

ان الدارس لتاريخ الامبراطورية العثمانية بدءا من العقود الأخيرة فى القرن التاسع عشر الى الآن يتحتم عليه أن يقف وقفات طويلة عند الأسماء والهيئات التالية :

١ — السلطان عبد الحميد الثانى ٠

٢ — مدحت (أبو الدستور) (١٢٢ — ١٨٨٣ م) ٠

٣ — جماعة الاتحاد والترقى ٠

٤ — أتاتورك (أبو الأتراك) الذى لم يخلّف لوطنه الا الآلام ٠

٥ — تركيا الحديثة والعودة للاسلام والثقافة الاسلامية ٠

وفيما يلى حديث عن هذه الموضوعات :

السلطان عبد الحميد (الثانى) (١٨٧٦ — ١٩٠٩)

هو السلطان الرابع والثلاثون من سلاطين الدولة العثمانية ، وهو ابن السلطان عبد الحميد ، وأمه من أرمينية ، ولد باستانبول سنة ١٨٤٢ م وتوفيت أمه وهو فى الثامنة من عمره ، ثم توفى أبوه عام ١٨٦١ وهو فى مطلع الشباب ، فتبنته احدى زوجات أبيه ٠

أجاد اللغة العربية والفرنسية ، كما أجاد الفروسية واصابة الهدف ، وكان بعيدا عن اللهو والخمر ، ولكنه كان مولعا بالتدخين ٠

تولى عمه عبد العزيز الخلافة بعد أبيه فكان عبد الحميد من خواص عمه ، وصحبه فى زياراته للقاهرة سنة ١٨٦٣ وهى أول زيارة يقـوم بها

أحد خلفاء العثمانيين لمصر ، وكانت فى عهد اسماعيل باشا بن محمد على ، وبمقتضى الصـلة الطيبـة بين الخليفة ووالى مصر منح اسماعيل لقب خديوى كما منح امتيازات أخرى .

وقد جرت أحداث خطيرة فى اسـتانبول تقرر فيها عزل السـلطان عبد العزيز فى مايو سنة ١٨٧٦ ولم يمض عـلى عزله بضعة أيـام حتى أعلنت وفاته ، وقد اتهم مدحت باشا بأنه كان وراء اغتياله .

وبعد عبد العزيز تولى ابن أخيه (مراد الخامس) ولكن اضطراب الأحوال أثر فى نفسية الخليفة الجديد ، فاتهم بالجنون وعزل ، وتولى عبد الحميد الثانى السلطة بعد نهاية مريرة لسلطانين قبله ، واتخذ قصر « يلدز » مقرا له ، وكان ذلك فى سبتمبر سنة ١٨٧٦ .

ويعتبر عبد الحميد الثانى من أشهر سـلاطين العثمانيين ، ومـن أطولهم خلافة ، ويعتبر عهده مفترق الطرق ؛ ففيه اتجاهات الى الاصلاح ثم نكوص عنها وعودة للتشبث بالماضى ، وقـد بدأ عهده باعـلان « خط همايونى » سجل فيه الأخطاء والمفاسد التى أشرنا اليها ، وقد جاء فيه :

« ... وقصارى آمالى ومقاصدى معطوفة بالحصر لتأييد أساس شوكة دولتنا ومكانتها ، بحيث تنال صفوف رعيتنا — بلا استثناء — الحرية ، وينعمون جميعا بنعمة العدالة والرفاهية ، وقد عرف الناس أجمع أن حال الاغتشاش الملم بدولتنا له جهات وأسباب متنوعة يمكن أن تجمع فى نقطة واحدة هى عدم جريان القوانين والنظامات المؤسسة على الأحكام الجليلة والشرعية ، واتباع كل فرد أهواء نفسه فى ادارة الأمور ، واتساع ميدان عدم الانتظام الطارىء على ادارة دولتنا ملكا ومالا ، وتعذر وصول المحاكم الى الدرجة المتكفلة بتأمين حقوق الناس ، وتأخر استفادة دولتنا من وسائل العمران والتقدم فى الزراعة والصناعة والتجارة ...

« وأول ما يلزم لاصلاح الحال هو أن نبدأ بنقطة مهمة هى أن يكوّن مجلس عموم تكون أفعاله وآثاره مستوجبة لثقة العموم واعتمـادهم ، ويكون موافقا لقابلية مملكتنا وأخلاق أهلها ... يَنْظُر كذلك فى موازنة واردات الدولة ومصاريفها ... »

« ثم لما كانت مسألة توديع المأموريات الى غير أهلها من المأمورين وتبدلاتهم المتوالية من غير سبب مشروع هى من جملة الأمور الباعثة على ايقاع القوانين والنظامات فى حيز الاشكال ، فينبغى أن يتعين من الآن فصاعدا مسلك مخصوص لكل نوع من الخدم والمأموريات وتتخذ قاعدة ثابتة ليستخدم بمقتضاها فى كل عمل من يكون أهلا له ، ولا يعزل أحد أو يبدل من مأموريته بلا موجب .

« ومن المعلوم أن ترقيات ملل أوربا المادية والمعنوية انما حصلت لهم بقوة الفنون والمعارف ، ولما كان استعداد كافة رعيتنا وما فطروا عليه من الذكاء — والحمد لله — يؤهلهم من كل وجه للترقيات ، وأهم ما لدينا من الأمور الاسراع بتعميم المعارف ، فأخص ما نتمناه والحالة هذه أن يحصل الاجتهاد بابلاغ تخصيصات المعارف الى الدرجة الكافية : حسبما يساعد الامكان ، وأن تستحصل الوسائل الموصلة لتعميم نشر المعارف على الفور ، ويبادر عاجلا باصلاح أصـول الملكية والمالية والضـبط فى الولايات بحيث توضع ضمن دائرة الانتظام فى صورة مناسبة للقاعدة التى تتخذ فى المركز » (١) .

ومن هـذه الفقرات التى اقتبسناها من هـذا المنشـور الذى بدأ السلطان عبد الحميد به عهده يتبيَّن لنا أن أمراض الدولة كانت معروفة ، وأن وسائل العلاج كانت معروفة كذلك ، وفى قمتها الحياة الدستورية حيث

---

(١) اقرأ المنشور كله فى تاريخ الدولة العلية لمحمد فريد ص ٢٢٦ — ٣٢٨ .

يمكن أن تكون الأعمال المالية والادارية وغيرها تحت رقابة ممثلى الأمة ، وسنعود للحديث عن الدستور والحياة الدستورية بعد قليل •

متاعب فى طريق السلطان :

واجهت السلطان عبد الحميد مجموعة من المتاعب من أول عهده ، فقد سقط قبله سلطانان عبد العزيز الذى خلع ثم قتل ، ومراد الذى جن ، وقد شارك كبار ضباط الجيش ورجال الدولة وبخاصة مدحت باشا فى الحدثين •

وتسلم عبد الحميد دولة مثقلة بالديون ، وكان الجيش والأسطول فى عهد عمه السلطان عبد العزيز قويين مما أرهب الروس والفرنسيين والانجليز فحاولوا بواسطة عملائهم اسقاط السلطان عبد العزيز بالشائعات ، ونجحوا فى ذلك ، وتمزق الجيش والأسطول عقب ذلك (١) •

واقترنت السنتان الأوليان من حكمه بهزائم عسكرية أليمة ، نزلت بالدولة التى واجهت تكتلات دولية أوربية مسيحية لم تستطع الدولة لها دفعا ، وفقدت الدولة بهذه الهزائم شطرا لا يستهان به من ممتلكاتها فى أوربا وآسيا وافريقية ، ووصل الجيش الروسى الى ضواحى العاصمة •

واستغل خصوم الخلافة فرصة هذه الهزائم ، وقاموا بمحاولات عزل السلطان ، ولما فشلوا فى محاولاتهم عمدوا الى إحراق الباب العالى ، فقابل السلطان هذا التصرف بوسائل قمع عنيفه •

وهكذا قابل السلطان فى مطلع عهده مشكلات خارجية وداخلية قاسية (٢) •

---

(١) شيخ الاسلام مصطفى صبرى : الاسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ص ٩٩ •

(٢) دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية .. ج ٣ ص ١١٥٣ — ١١٥٥ بتصرف •

وحفل عهده بهزائم دولية واسعة ، فقد احتلت بريطانيا قبرص سنة ١٨٧٨ واحتلت فرنسا تونس سنة ١٨٨١ ، ثم احتلت بريطانيا مصر سنة ١٨٨٢ بالاضافة الى فرض الرقابة المالية الدولية على الدولة سنة ١٨٨١ وضم الروملى الشرقى الى بلغاريا سنة ١٨٨٥ ، وفرض المراقبة الدولية على مقدونيا سنة ١٩٠٣ ، وهذه النقطة الأخيرة أتاحت لضـادة الجيش العثمانى فى مقدونيا مزيدا من الحرية والحركة والاتصال بالأوربيين .

قصته مع الدستور :

ذكرنا أن الخط الهمايونى الذى أصدره السلطان عبد الحميد كانت فيه اشارة الى ضرورة الحكم النيابى ، والتقى السلطان بمدحت باشا ، واسندت له الصدارة العظمى ، وكان هذا قد أعد العدة خـلال عهدى عبد العزيز ومراد لمثل هذا اليوم المشهود ، ولم يمض عليه فى منصبه الا أربعة أيام حتى جعل السلطان يعلن مجموعة من القوانين الهامة ، ويعلن كذلك الدستور المؤسس على الشورى ، وعلى اشتراك جميع الرعايا فى شئون تحسين الدولة من غير تفرقة بين عنصر ودين ، ونظم الدولة مجلسين مجلس ينتخب من الأهالى ويسمى « مجلس المبعوثان » ومجلس تعين الدولة أعضاءه ويسمى « مجلس الأعيان » ، وتُلى هذا الدستور المشتمل على ١١٩ مادة بالأستانة فى محفل عام فى ٢٣ ديسمبر سنة ١٨٧٦ ، وأمر السلطان بأن يكون العمل بمقتضاه فى جميع أنحاء المملكة العثمانية ، وأطلقت المدافع من القلاع البرية والبحرية واستبشر الناس خـيرا ، وأقيمت الأفراح ، والليالى الملاح ، وكان هذا الدستور يتضـمن حقوق الدولة وواجبات الوزراء ، ورجال الادارة ، واختصاص كل مجلس مـن المجلسين ، وتنظيم المحاكم ، والديوان العالى ، والمالية ... وغيرها من الشئون الرئيسية (١) . ومن أهم ما جاء به من تفصيلات أنه ضمن لجميع

---

(١) المرجع السابق ص ٤٤ .

رعايا الدولة الحرية والمساواة أمام القانون ، وأباح حرية التعليم مع جعله اجباريا على جميع أفراد العثمانيين ، وضمن حرية المطبوعات وبيّن حق الانتخاب وكيفيته ، وأن جميع الرعايا يطلق عليهم اسم عثمانى ، وأن الدين الرسمى هو دين الاسلام ، واللغة الرسمية هى اللغة التركية ، وقرر ابطال المصادرة فى الأموال ، والتعذيب فى التحقيق ، وابطال السخرة ، ووضع ميزانية سنوية تعرض على هيئة المبعوثان ثم الأعيان ، واذا أقرها المجلسان تكون واجبة التنفيذ ، ونص على عدم جواز عزل القضاة الا بسبب شرعى ... (١) .

وجرت انتخابات عامة عقب ذلك ، واجتمع مجلس النواب ، كما اجتمع مجلس الأعيان وكان أعضاؤه يعيّنون مدى الحياة .

إيقاف الدستور :

ولكن قبل أن يتمّ المجلس دور انعقاده الأول أصدر السلطان عبد الحميد قرارا فى ١٤ فبراير سنة ١٩٧٨ بفضّ المجلس وتأجيل اجتماعاته الى أجل غير مسمى . وقيل فى أسباب ذلك ان الدولة كانت تواجه حروبا وصراعات تستلزم أن يكون بيد السلطان تصريف الأمور حتى لا تتعطل حاجات الدولة فى هذه الحالات الخطرة بين المؤيدين والمعارضين ، على أن السلطان فى الحق اندفع بسبب تقييد سلطاته الى تعطيل هذا المجلس وظل الدستور معطلا احدى وثلاثين سنة ، مما يؤكد أن تعطيله لم يكن لمواجهة حالة طارئة ، بل لتحقيق رغبة السلطان فى الحكم المطلق ورغبة أعوانه الذين يستفيدون من انطلاق الحكم وعدم الرقابة .

ويجب هنا أن نذكر أن الدستور ضايق دول أوربا ، لأن وجود الدستور معناه انتظام الحياة ووجود المراقبة ، وهذا سيصيب بالشلل

---

(١) فى محفوظات قصر عابدين صورة فوتوغرافية للدستور ممهورة بتوقيع السلطان عبد الحميد .

طموح أوربا أو على الأقل سيقلل من نشاطها الذى كانت ترمى به الى افساد الحياة فى الامبراطورية العثمانية ، ولذلك أثاروا السلطان بطريق غير مباشر ضد الدستور ، وعندما أحس السلطان بأن أوربا لا تريد الدستور اتخذ من ذلك قوة فأوقف العمل به ، ووقع بذلك فى قاع الخديعة .

ونجحت جمعية الاتحاد والترقى فى ابراز كيانها ، واتخذت من سالونيك مركز قوة لها ، وكان على رأسها الفريق شوكت باشا والاميرلاى صادق بك والضابطان أنور بك ونيازى بك ، وأعلن هؤلاء الدستور فى سالونيك وما حولها سنة ١٩٠٨ عندما أحسوا بالقوة .

إعادة الدستور :

ولما بلغت هذه الأخبار للسلطان انزعج لها ، وحاول التغلب على هذه الجماعة المتمردة ، ولكنه عجز ، وبدأت هذه الجماعة تتحرك للزحف على العاصمة ، فأسرع السلطان وأعلن اعادة الدستور ، وكان ذلك فى ٢٤ من يوليو سنة ١٩٠٨ وأصدر أمره باجراء الانتخابات ، وأطلقت المدافع مرة أخرى كتلك التى أطلقت منذ احدى وثلاثين سنة ، وأجريت الانتخابات العامة ولكن نفوذ جماعة الاتحاد والترقى كان واضحا فيها فنجح فى الانتخابات كثير ممن ارتضتهم هذه الجماعة .

الايقاف الثانى للدستور :

وبعد تسعة شهور من الاعلان الثانى للدستور اندلعت ثورة بالعاصمة ، أغلب الظن أنها كانت ثورة مصطنعة ، وكانت تنادى بإلغاء هذا الدستور والعودة للشريعة الاسلامية ، وعدم التدخل فى سلطة السلطان الذى يمثل السلطة التشريعية بالبلاد . وكانت هذه الثورة بقيادة الدراويش وانضم لهم بعض الجنود ، وأريقت فيها كثير من الدماء ، وقتل فى هذا الشغب وزير الحقانية وجرح وزير الحربية ، فتظاهر السلطان بعاطفة التوفيق بين المجلس النيابى والجنود الثائرة ،

فعدل الوزارة التى كانت قد اقترحتها جماعة « الاتحاد والترقى » وعين توفيق باشا صدراً أعظم ، وعهد اليه إعادة الشريعة أو القانون المقدس الى حيز التنفيذ ، وفر آنذاك الأعضـاء البارزون فى مجلس المبعوثان ؛ وأصبح واضـحاً أن السلطان قـد تم له التسلط على مجلس المبعوثان وعلى الحـكومة ، ولكن جيش سالونيك كان بالمرصاد فزحف الى الأستانة بقيادة محمود شوكت باشا وأوقع الهزيمة بالجيش الموالى للسلطان ، وأمن الحياة الدستورية ، وعاد الفارون من مجلس المبعوثان .

عزل السـلطان :

وانعقدت جلسـة أجمع فيهـا جميع الأعضـاء على وجوب خلع السلطان عبد الحميد ، فخلع بناء على فتوى من شيخ الاسلام ، وأخرج من سراى يلدز الى سالونيك ، وصودرت جميع أمواله ومجوهراته لمصلحة بيت المـال ، وكان ذلك فى أبريل سنة ١٩٠٩ .

تركيـا الفتـاة :

قلنا من قبل إن السلطان أوقف العمل بالدستور فى فبراير سـنة ١٨٧٨ بعد إصداره بمـدة وجيزة ، وقلنا إنه أعاد العمل بالدستور بعـد حوالى إحـدى وثلاثين سنة تحت ضغط جمعية الاتحاد والترقى ، والذى نريد أن نقوله هنا أن أحـداثا خطيرة جرت خلال هـذه المـدة ، ومن أهم هـذه الأحـداث تكوين جمعية « تركيا الفتاة » .

وقـد كان قيام جمعية « تركيا الفتاة » نتيجة لإيقاف الدسـتور من جانب ، وللهزائم التى نزلت بالدولة من جانب اخر ، وهـذا وذاك دفـع مجموعة من الأتراك بالمنفى الى تأليف جماعة « تركيا الفتـاة » واتخذت الجماعة من باريس وجنيف مركزا لهـا ، وانضـم لهـا بعض القادة العرب ، وكان من أبرز ما قصـدته وضـع حـد للتدخل والهزائم الخارجية ؛ وإصـلاح الأحوال بالداخل ، وأخـذ هؤلاء الأحرار يكتبون

ويخطبون ليثيروا الرأى العام بتركيا معهم ، كما حاولوا أن يوصلوا أصواتهم للجيش التركى لينضمّ اليهم . ونجحوا أخيرا فى عقد رباط بينهم وبين الجيوش التركية فى مقدونيا حيث تألفت جمعية « الاتحاد والترقى » كما سنرى بعد قليل .

الجامعة الاسلامية :

وننتقل هنا من الحديث عن « تركيا الفتاة » للحديث عن الجامعة الاسلامية ، فان السلطان عندما أحس بصوت المجاهدين الأحرار من أبطال « تركيا الفتاة » يثير الناس عليه ، أراد بذكائه ودهائه أن يقوم بعمل مضاد يرعب به أوربا ويتظاهر به أنه راغب فى الإصلاح ليؤجل بذلك العاصفة أو يقضى عليها ، فكان أن هب يدعو للجامعة الاسلامية معلنا أنه يرمى لربط المسلمين فى شتى البلاد بآصرة قوية هى آصرة الدين ، متخلياً عن عصبية الجنس واللغة ، وأنه ينوى أن يهيىء للبلاد الاسلامية صنوف الحرية والرخاء ، ووجد هذا الاتجاه صدى كبيراً فى نفوس المسلمين ، وحسبوا أنهم يستطيعون به أن يردوا اعتداءات الأوربيين التى بدأت تأخذ شكل الاحتلال لأكثر أقطار الاسلام ، فانجلترا مدت نفوذها فى جنوب الجزيرة فى أوائل القرن التاسع عشر واحتلت مصر سنة ١٨٨٢ وأطبقت بنفوذها على الهند ، واحتلت فرنسا الجزائر فتونس وأخذت تتدخل فى شئون سوريا ولبنان ، كل هذا دفع المسلمين الى الاستجابة لنداء الجامعة الاسلامية .

والجامعة الاسلامية فكرة قريبة الصلة بنفوس المسلمين ، وقد عاشوا فيها أنضر أيامهم فى ظل الخلفاء الراشدين وغيرهم من خلفاء المسلمين ، وهى حلم لذيذ يرجو كل مسلم أن يتحقق ، وأن يبنى على على أساس سليم ، وقد هتف بها حديثاً دعاة الوهابيين والسنوسيين ، فجذورها عميقة فى التاريخ عمقها فى نفوس المسلمين ، والدعوة اليها متجددة من حين الى حين .

وقد بدأ السلطان نداءه للجامعة الاسلامية باتجاه ذكى ماهر ، هو أن أحاط نفسه بلفيف من المفكرين المسلمين فى طليعتهم العلامة السيد جمال الدين الأفغانى الذى استدعاه السلطان لينزل ضيفا عليه فى الأستانة ، وقرّبه اليه ، وأغدق عليه المال ، وأفسح له من صدره ليتكلم ويقترح وينقد ، وكان السلطان بذلك يرمى الى إبعاد جمال الدين عن جماعة تركيا الفتاة إذ كان جمال الدين قد اجتمع بهم فى باريس ، وعرف خطتهم فى الاصلاح وأيّدها ، كما كان السلطان يرمى أن يضع هذا الثائر العالم قريبا منه ليسيطر على حركاته شاء أو لم يشأ ، ويقول الأستاذ أحمد أمين (١) : « إن جمال الدين ما أن وضع قدمه فى الاستانة حتى كان فى قفص من ذهب أحكم بابه » ، ولم يكن جمال الدين الأفغانى هو وحده الذى افتتن بالدعوة للجامعة الاسلامية بل افتتن بها كثيرون من زعماء العرب ، وروج لها الدعاة الذين كانوا ينتشرون فى الولايات العربية ، يحاولون إقناع الناس بأن الخلافة هى أملهم الوحيد فى النجاة من أطماع الغرب ، وأن الجامعة الاسلامية هى السبيل لإنقاذ الشرق من براثن الغرب (٢) .

وهتف كثير من الناس للدعوة الحميدية ، وأمّلوا أن تتحقق الجامعة الاسلامية ليتحقق بها إيقاف الزحف المسيحى وإعادة القوة الى معسكر الاسلام ولاقت الدعوة الى الجامعة الاسلامية نجاحا كبيرا فى العالم الاسلامى ، واستقبلتها الشعوب المسلمة التى كانت ترزح تحت عبء الاستعمار الأوربى بالحماسة والابتهاج ، وكان لها فى مصر صدى بالغ تمثّل فيما كتبه المجاهد مصطفى كامل عندما قال : « الخلافة الاسلامية هى لكل مسلم السلطة العالية التى يستمد منها القوة والنور والهداية ، وهى الحصن الحصين الذى يصان به الاسلام ويعتز به المسلمون ...

---

(١) زعماء الاصلاح ص ٩٩ .

(٢) دكتور عبد الحميد البطريق : الامة العربية ص ٨٥ .

ولقــد أدرك الأوربيون قوة الخلافة الاســلامية ومعنى ســلطتها على المسلمين ، فسعوا لحل عقدها ، وتقويض أركانها وتدمير بنائها ، ليسهل لهم استعباد مناطق العالم الاسلامى ، وامتلاك بلاده وربوعه » (١) .

وهكذا استغل السلطان عبد الحميد شعور المســلمين بالحاجة الى التضامن والتكتل ، فجعل نفسه زعيما للدعوة للجامعة الاسلامية ، ليدعم مركزه فى الداخل ، ويرهب الدول الأوربية فى الخارج ، واســتطاع أن يخفى عن رعاياه حياته الخاصــة فى قصر « يلدز »(٢) وأن يظهر للناس أنه متدين وأنه يسعى لخدمة المسلمين .

اصــلاحات عبد الحميد :

هناك اصــلاحات مهمة تنسب للســلطان عبد الحميد الثانى ، وفى مقدمتها الاهتمام بالتعليم ، فقد كانت الجهود متجهة للتعليم العسكرى وحده ،، فاهتم السلطان بالتعليم المدنى أيضــا ، فأنشأ جامعة استانبول وكانت تعرف باسم « دار الفنون » ثم أطلق عليها « جامعة استانبول » وكانت تضم أربع كليات هى : كلية العلوم العالية الدينية وكلية العــلوم الرياضــية وكلية العلوم الطبيعية وكلية العلوم الأدبية (كلية الآداب) ، واعتُبرت مدرســتا الحقــوق والطب كليتين ملحقتين بالجامعــة .

كما أنشأ مدرسة الفنون الجميلة ومدرسة التجارة ومدرسة الهندسة المدنية ومدرسة الطب البيطرى ومدرسة الشرطة والمدرســة الســلطانية للشئون الماليــة (٣) .

---

(١) المرجع السابق ص ٨٤ .
(٢) كان سكانه فى عهد السلطان عبد الحميد ...ر١٢ نسمة .
(٣) د. عبد العزيز الشناوى ص ١١٥٩ نقلا عن :
Bernard Lewis : The Emergence of Modern Turky p. 182.

وأنشأ كذلك عددا من دور المعلمين وعـددا من المكتبات العـامة والمجلات ، وخطت الصحافة والمجلات فى عهـده خطـوات واسـعة ، ومن إصلاحاته جهوده لاصـلاح القضـاء وتنظيم المحاكم .

ومن إصلاحاته الاهتمام بالسـكك الحديدية من ناحية النوع ومن ناحيـة الزيادة فى الخطوط ، كمـا اهتم كـذلك بالطرق البرية وبالبريد والاتصالات البرقية (١) .

* * *

وعلى العموم فالرجل كانت له حسناته وسيئاته ، وأخطر سيئاته هو حرصه على الحكم المطلق الاستبدادي ، ولكن الرجل واجه تكتلا مسيحيا ضـده ، لم يكن ينفض حتى يجتمع ، كما واجه الصـهاينة الذين وقفوا مصـارعين له لأنه رفض مطالبهم ، وواجه كذلك جيشا يقوده جمـاعة انحرفت ذممهم وأخلاقهم كما سنرى ، وخلف سيرة لا تزال بين مادح ومهاجم ، ولكن الذى لا شك فيه أن الذين جاءوا بعـده كانوا أشرارا هاجموا الدين ودمروا الدنيا ، جاءوا لمقاومة الاستبداد ولكنهم كانوا فى مجال الاستبداد أقسى مئات المرات من السلطان المعزول ، وقد عاشوا فترة من الزمن خلف ستار من الكذب والوهم ، ولكن الستار قـد سقط فظهرت انحرافاتهم للعيـان .

مدحت باشـا (١٨٢٢ — ١٨٨٣)

ولد مدحت باشـا باستانبول سنة ١٨٢٢ م وحفظ القرآن الكريم ، وتعلم بالديوان الهمايونى وجاور بمسجد الفاتح .

---

(١) المرجع السابق ص ١١٦٠ وما بعدها .

ثم درس العلوم السياسية ، واتصل بالثقافة الغربية وشُغِفَ بها ، وتقلب فى الوظائف العالية حتى أصبح صدرا أعظم .

كان زعيم حزب الاصلاح الذى خلع السلطان عبد العزيز ، وكان متزعما حركة المطالبين بالدستور ، وقد ذكرنا من قبل أنه كان قد أعدّ الدستور ، فلما اختاره السلطان عبد الحميد الثانى صدرا أعظم حثّ السلطان على إعلان الدستور ، فوافق السلطان ، وأعلن الدستور بعد بضعة أيام من توليه منصبه .

ظن مدحت باشا (أبو الدستور) أن آماله تحققت ، وأن البلاد ستستقبل عهداً جديداً ، ولكن سرعان ما ظهر له ولرفاقه المجددين أن آمالهم قد بنيت على غير أساس ، وأن السلطان أقرّ رأيهم ريثما يثبّت عرشه ويقوّى شأنه ، وأن حول السلطان قوًى كثيرة تجد فى الحكم المطلق بغيتها ، وفى الاضطراب فرصتها ، وأن كثيراً من رجال الدين اشتريت ذممهم بالمال ، فهم يذيعون فى الناس أن كل تجديد بدعة وكل بدعة ضلالة ، وحول السلطان كذلك محترفو السياسة الذين روجوا لأفكارهم المضادة للدستور مدعين أن الحكم النيابى لا يصلح للدولة العثمانية لاختلاف العناصر فيها ، ولميل كثير من المسيحيين الى خدمة مصالح الأمم الأوربية .

أما الجواسيس وتجار الرشاوى الذين كسدت سوقهم أو كادت فلم يخلدوا للسكون ، بل راحوا يدبرون المؤامرات ضد مدحت ورفاقه ، ووجدوا من السلطان أذناً واعية ، فسكبوا فيها سمومهم منذرين أن مدحت يسعى لاقامة الجمهورية ولفصل الدين عن الدولة ، ولاعادة مراد الى الحكم ... وغير ذلك مما أزعج السلطان وأثاره .

ولم يكظم السلطان غيظه ، فسرعان ما عزل مدحت وألقى القبض عليه ونفاه قبل أن يتم شهران على إعلان الدستور ، وضاعت كل المشروعات

التى كان مدحت قد بدأ بتنفيذها ، وكذر للرماد فى العيون سمح باتخاذ الاجراءات الخاصة بالانتخابات ، ولكن حياة المجلس كانت قصيرة لم تتجاوز بضعة أشهر فقد أصدر السلطان قرارا فى ١٤ فبراير سنة ١٨٧٨ بإرجاء اجتماعه لأجل غير مسمى ، وأوقف الدستور كما ذكرنا من قبل •

ولنسر مرحلة أخرى مع مدحت لنذكر أن السلطان سجنه بتهمة قتله أو اشتراكه فى قتل السلطان عبد العزيز ، وحوكم مدحت فحكمت عليه المحكمة بالإعدام ولكن السلطان عفا عنه ونفاه الى الطائف ، وتقول بعض الروايات أن السلطان دبر قتله هناك ، ونفذ تدبيره •

ويدفع شيخ الاسلام مصطفى صبرى هذا الاتهام ، ويقدم بعض الأدلة لذلك ، ونحن نقتبس بعض كلامه فى هذا الموضوع (١) ، ولنا بعد ذلك تعليق على ما يقول :

١ — ينقل شيخ الاسلام من مذكرات السلطان عبد الحميد أن مدحت ارتكب بعض الأخطاء الجسيمة مثل تعيين ولاة من الأقليات فى مناطق أكثرها مسلمون ، وأنه قبل طلبة من الأروام فى المدرسة الحربية ، وهذا وذاك خطأ كبير •

٢ — كان مدحت من الماسونيين ، وبالتالى كان متعاونا مع الانجليز •

٣ — قبل بعض الأموال والرشاوى من الانجليز •

٤ — لم يثر الشعب لعزل مدحت باشا ، ولكن الذى ثار هو انجلترا مما يدل على صلة بين مدحت وساسة الانجليز •

---

(١) الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية ص ١٠٣ — ١٠٨ •

٥ — عندما حوكم مدحت وأُدين وعفا عنه السلطان ، لجأ الى قنصلية انجلترا حتى يخرج من البلاد ، فلما وجد القنصل فى اجازة لجأ الى القنصلية الفرنسية ، وكانت هذه خيانة وطنية منه .

وينتهى الشيخ مصطفى من ذلك الى تبرئة السلطان من قتل مدحت أو الإيعاز بقتله ، ويقول : لو أن السلطان أراد أن يقضى عليه لترك حكم المحكمة ينفذ .

والناظر فى هذه الاقتباسات لا يثق تمام الثقة فيها ، فمصدرها السلطان المتهم . ثم إن التهم التى نسبت لمدحت باشا عامة لم تتضح ، فمن هو الوالى من الأقليات الذى عيّن بولاية أكثرها مسلمون ؟

ومن هم الطلبة الأروام الذين قبِلهم بالمدارس العسكرية وما عددهم ؟

واذا كان الشعب لم يثر لعزل مدحت باشا فذلك كان نتيجة لسلوك طويل تعوّد عليه الشعب تجاه أعمال السلاطين .

ولجوء مدحت للقنصلية الانجليزية أو الفرنسية عمل لا نقرّه ، ولكنه كان الوسيلة الوحيدة لسلامته .

ويبقى بعد ذلك أن يترك الأمر فى غموضه ، أو أن نرجّح تورط السلطان فيه .

جماعة الاتحاد والترقى

قلنا من قبل أن بعض الأتراك الذين كانوا بعيدين عن تركيا ألّفوا جماعة أطلقوا عليها « تركيا الفتاة » واتخذوا من العواصم الأوربية مراكز لهم ، وأخذوا يكتبون المقالات ، ويخطبون فى المحافل لمقاومة الحكم المطلق الذى لجأ له السلطان عبد الحميد بعد أن ألغى الدستور أو أوقف العمل به ، وكذلك لمقاومة الهزائم التى نزلت بالدولة تباعا .

وكان رجال « تركيا الفتاة » حريصين على توصيل نداءاتهم للجيش لعلهم يجسدون القوة التى تهيىء النجاح لأفكارهم ، وقد وجد زعماء « تركيا الفتاة » طلبتهم فى مقدونيا ، ففى هذه المنطقة كان يوجد نظام الرقابة الدولية على الشئون المالية وأجهزة الأمن ، وكان قوام هذه الرقابة خمس دول هى : بريطانيا وفرنسا وروسيا والنمسا وايطاليا ، وكان معنى هذه الرقابة ضعف سلطة استانبول على المنطقة من جانب ، ومن جانب آخر إمكان الاتصال بالقوى الأجنبية الموجودة بها ، وهذا هيأ الفرصة لزعماء « تركيا الفتاة » للاتصال بالجيش التركى بهذه المنطقة ، وهيأ الفرصة كذلك لعقد تفاهم بين قيادة الجيش التركى وبين ممثلى أوربا المسيحية لتحقيق الأغراض المشتركة » ....

وفى هذا الجو تكونت جماعة « الاتحاد والترقى » بقيادة شوكت باشا وأنور بك ونيازى بك من قادة الجيش ، وهى التى أعلنت إعادة الدستور كما ذكرنا من قبل .

وقد انضم أتاتورك الى جماعة الاتحاد والترقى .

الصهيونية والاتحاديون :

ويذكر الدكتور عبد العزيز الشناوى أن جماعة الاتحاد والترقى كانت على صلة بالصهاينة ، وأن الصهيونيين كانوا يتعاونون مع بريطانيا فى تأليب أعضاء جمعية الاتحاد والترقى ضد السلطان عبد الحميد ، لأن السلطان كان حازما فى منع الهجرة اليهودية لفلسطين ، وكان متعاونا مع الألمان فى مواجهة الانجليز ، وكان مكروها من جمعية الاتحاد والترقى ، وعندما تلاقت أهداف الجماعات الثلاثة (الصهاينة والانجليز والاتحاديون) تعاونت ضد السلطان ، ولهذا عمل الصهيونيون للوصول الى الانقلاب الدستورى سنة ١٩٠٨ والانقلاب العسكرى الذى عزل السلطان سنة ١٩٠٩ ، وأيدوا حدوث هذا وذاك بحماسة .

وكان من نشاطهم لأحداث هذين الانقلابين أن أصدروا في العاصمة العثمانية صحيفة باسم « التركي الشاب » وكانت تساند رجال الاتحاد والترقى •

وقد وجد الصهاينة فى قرار عزل السلطان فرصة نادرة فاشتركوا للأسف فى حمل قرار العزل للسلطان ، فقد كان الوفد الذى حمل هـذا القرار مكوّنا من ثلاثة أفراد أحدهم يهودى اسمه « قره صو » وكـان السلطان قد طرده من قصره عندما عرض على السلطان أن يتساهل فى أمر هجرة اليهود الى فلسطين ، وها هو الآن يحمل قرار طرد السـلطان من سلطته ومن قصره بل من الامبراطورية كلها (١) •

ديكتاتورية رجال الاتحاد والترقى :

وبعزل السلطان عبد الحميد انتهى نفوذ السـلاطين من الناحيـة العملية ، فأخوه السلطان الجديد كان طاعنا فى السن من جانب ، وكان مُشَاهِداً للأحداث التى غُلِبَ فيها عبد الحميد من جانب آخر ، ولهذا ترك السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقى ، وكان يقول انه سلطان دستورى ، والحق أنه لم تكن له وسـيلة لتغـيير هـذا الموقف ، وكان مِثْلَه أو أقلّ منه فى السلطة السلطانان الأخيران اللذان جاءا بعده وهما وحيد الدين وعبد المجيد ، وكان هـذا آخر السلاطين •

والمهم أنه عندما آلت السلطة الفعلية لرجال الاتحاد والترقى باشر هؤلاء حكما مطلقا غير مبالين بالدستور والمجالس الدستورية ، وأسرفوا اسرافا شديدا فى الاستبداد حتى أن الأتراك آنذاك كانوا يترحّمون على حكم السلطان عبد الحميد (٢) الذى كان يوجد فى التشريع الاسـلامى

---

(١) الدولة العثمانية : حـ ٣ ص ١٠٢٣ — ١٠٢٧ بتصريف .
(٢) محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى ص ١٧٨ •

ما يوقفه فى كثير من الأحوال عند حدٍّ لا يتجاوزه ، ولكن رجال الاتحاد والترقى لم يحترموا الدستور ، ولم يخضعوا للتشريع الاسلامى ، فكان حكمهم مطلقا بدون حدود ، وجـاء على شـاكلتهم بعد قليل « كمـال أتاتورك » الذى سنتحدث عنه فيما يلى :

مصطفى كمـــال

الغازى ــ أتاتورك (أبو الأتراك)

(١٨٨١ ــ ١٩٣٨)

زعيم تركى ، ولد فى سالونيك ، والتحق بالمدرسة الحربية ، وأصبح ضابطا بالجيش العثمانى ، اشترك فى « تركيا الفتاة » التى تحدثنا عنها من قبل ، وأُبْعِد من أجل ذلك الى دمشق ، ثم اشترك فى حرب طرابلس ضد ايطاليا ، وبرز اسمه سنة ١٩١٥ عندما استطاع رد هجوم الحلفاء على الدردنيل ، وفى عام ١٩١٩ نظم الحزب الوطنى التركى الذى حل محل جماعة الاتحاد والترقى .

ومن أشهر أعماله حروبه ضد اليونان وضرب جيشهم الذى احتل أزمير وانتصاراته العظيمة فى سقاريا وقد اشرنا لها من قبل ، واستطاع بذلك أن يطرد اليونان من الأناضول فمُنح لقب « الغـازى » وكانت له ميول غربيّة غير متمسكة بالروح الاسلامية مما وثّق علاقاته بالغرب وسهّل حياته معهم فعقدوا معه معاهدة لوزان (١٩٢٣) التى بسطت تركيا بمقتضاها سلطانها من جديد على جميع آسيا الصغرى وعلى القسطنطينية وتراقيا الشرقية ، وقد أشرنا لها من قبل .

مهادنة أوربا وصداقة الصهيونية :

وتدل الدراسات والبحوث المختلفة التى سنشير اليها أن أتاتورك أدرك أن تكتّل أوربا ضد تركيا كان لأنها تمثّل الاسلام وتدافع عنه ؛

وتأكد له كذلك أن الصهاينة سيوقفون الصراع ضد تركيا لو أنه ألغى الخلافة ، وهكذا أدرك الرجل أن إبعاد بلاده عن الاسلام ، وإلغاء الخلافة الاسلامية سيضمن له تأييد الغرب والهدنة مع الصهاينة ، كما يضمن له النفوذ الكامل ولو باسم الديكتاتورية التى تظاهر بمحاربتها ، فألغى الخلافة وأصبح رئيسا للجمهورية ولكنه رئيس مدى الحياة فهى رياسة ديكتاتورية فقد انتخب سنة ١٩٢٣ رئيسا للجمهورية ، ثم جدد انتخابه سنة ٢٧ و ٣١ و ٣٥ وكان كل مرة ينتخب بالاجماع ولم ينقذ الناس منه الا موته سنة ١٩٣٨ وقد أحيا عبد الناصر بعده هذا النظام بمصر .

وابتعد أتاتورك تماما عن الاسلام ، وحاول — عبثا — أن يبعد تركيا عنه . وسنعطى فيما يلى بعض التفاصيل عن حياة مصطفى كمال ، تلك الحياة التى دفعت تركيا الى ما يسمى « علمانية الدولة » :

الكماليون :

تحدثنا من قبل عن جماعة « الاتحاد والترقى » وتلك الجماعة كانت تسمى « الاتحاديين » وكان لمصطفى كمال صلات بها ، ولكنه لم يلبث أن كوّن لنفسه جماعة نُسِبَتْ له فسميت « الكماليين » فهل الكماليون امتداد للاتحاديين ؟ أو أنهم جماعة متغايرة ؟

يقول شيخ الاسلام (١) : ان المجموعتين تمثلان شرذمة مختلفة العروق والأجناس حرصت على اختلاس السلطة واحتكارها بقصد المنافع الذاتية ، مهما سبَّب ذلك من خراب للدولة ، وقد تسمَّوْا الى نهاية الحرب العالمية الأولى باسم « الاتحاد والترقى » وانساقوا خلف جمال وأنور وطلعت (من العجب أنها نفس أسماء جمال (عبد الناصر) وأنور (السادات)) وبعد الهدنة جمعوا شملهم تحت قيادة القائد

---

(١) الأسرار الخفية ص ٢١١ و ٢١٢ (الهامش) .

الجديد مصطفى كمال وسمّوا « الكماليين » وهم هم بأعيانهم وميولهم المنحرفة وأهدافهم الخطرة ، وقد يوجد من بين الكماليين من يشنّع على الاتحاديين كما فعل « فالح رفقى بك » الذى نشر مقالا طويلا فى صحيفة « اقشام » فى ١٩٢٣/١٢/٢٨ ضد الاتحاديين ، اتهم فيه قادتهم بأنهم فروا بمدمرة أجنبية بعد أن سلموا الأمة الاسلامية الى الأعداء الأوربيين وأن الاتحاديين لهذا ولسواه كانوا مجرمين فى حق الدين والوطن ، وهم الذين دفعوا الأمة للحرب العالمية الأولى بجهلهم وحماقتهم ، فغرقت الأمة وفرّوا هم .

ويضيف شيخ الاسلام أن الكماليين لم يدينوا الاتحاديين بل ساروا فى نفس الطرق ، فهم جميعا فى الشر سواء .

جذور يهودية :

يقول شيخ الاسلام أن مصطفى كمال عميق الصلة بطائفة « الدونمة » اليهودية ، بل هو منها (١) وينقل الدكتور يوسف القرضاوى عن هربرت ابرى أنه لم يكن أحد من الناس يجرؤ على أن يتنبأ أن هذه الفئة المغمورة المعروفة بالدونمة ستلعب دورا رئيسيا فى ثورة كان لها نتائج خطيرة فى سير التاريخ (٢) ، واستمرارا مع هذه الصلات العرقية يذكر شيخ الاسلام أنه لم يسلم من اعتداء الاتحاديين والكماليين الا اليهود ، وفيما عداهم فقد وقع الاضطهاد على كافة العناصر من الألبان والعرب والأكراد والروم والشراكسة والأتراك (٣) .

صلة بالماسونية :

ينقل شيخ الاسلام عن بعض الوثائق التى نشرتها الحكومة البريطانية أن أعضاء جماعة الاتحاديين والكماليين تابعون جميعا لمحفل

---

(١) الأسرار الخفية ص ١٦ و ٤٩ .

(٢) د. يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة ص ١٥٣ .

(٣) الأسرار الخفية ص ٤٦ — ٤٧ .

الشرق الماسونى ، وعند هزيمة الامبراطورية العثمانية فى الحرب العالمية الأولى اتفقت أحزاب ايطاليا جميعها على أن تحتل ايطاليا طرابلس الا جماعة الماسونية الايطالية التى أعلنت قولها : لا يجدر بنا أن نصول على الأتراك حال كون حكومتهم فى أيدى الماسونيين (١) •

سوء صلة مصطفى كمال بأسرته وبأتباعه :

يروى كتاب الأسرار الخفية لشيخ الاسلام أن مصطفى كمال عُرِف بأساليب المذابح والغدر والكذب والحيل اللا أخلاقية التى لم يسلم منها حتى زوجته وأقرب المقربين اليه من أصحابه وزملائه ومعاونيه الذين استخدمهم للوصول الى أغراضه ثم لفظهم فى النهاية (٢) • ولم يُبْقِ على زميل أو صديق علاوته ، بل كان مصيرهم جميعا القتل غيلةً •

تضحيات مصطفى كمال لإرضاء الغرب :

فى تقديمنا لهذا الموضوع نذكر أن الغرب كان يصارع التجمع الاسلامى ويخشى الخلافة الاسلامية لأنها ملجأ المسلمين ، وبخاصة أن بعض الدول المسيحية كانت تحكم أجزاء من العالم الاسلامى ، وترى فى الخلافة تهديدا لها ، وقد جاء فى مذكرات عبد الحميد الثانى ما يلى عن هذا الموضوع « ولكن الدول الكبرى التى تحكم شعوبا مسلمة فى آسيا مثل انجلترا وروسيا ترتعد من سلاح الخلافة الذى أحمله ، ولهذا اتفقوا على إنهاء الدولة العثمانية » (٣) •

وكان من وسائل الغرب لإنهاء الدولة العثمانية تلمسُ الأسباب لإعلان الحرب على هذه الدولة ، وكان الخليفة يتحاشى الحرب بقدر الامكان ، ولكن الاستفزاز والعدوان المباشر كان يقع من الأعداء •

---

(١) شيخ الاسلام : الأسرار الخفية •
(٢) المرجع السابق ص ٦٠
(٣) مذكرات السلطان عبد الحميد ، ترجمة الدكتور محمد حرب ص ٦٧ •

الغرب يتطلع إلى مصر والقسطنطينية :

واتجه الغرب الى الأقطار الحساسة ليأخذها من الدولة العثمانية وقد كتب الفيلسوف الفرنسى « ليبنتز » سنة ١٦٧٢ الى لويس الرابع عشر ملك فرنسا يقول : **« انه اذا انتزعت مصر من يد الأتراك آل أمرهم الى البوار »** (١) **ويعلل لذلك بقوله « انها وكر الدين الاسلامى ، وملاذ المسلمين »** (٢) واتجه الغرب كذلك الى القسطنطينية وعنها يقول نابليون : **« من ملك القسطنطينية أمكنه أنه يسود الدنيا » ووصفها مرة أخرى بأنها « مفتاح العالم »** (٣) .

هكذا كان طموح الغرب للقضاء على الامبراطورية العثمانية ، فماذا قال مصطفى كمال لارضاء الغرب ؟

يقول الشيخ محمد الصواف (٤) :

إن مصطفى كمال أوفد زميله عصمت اينونو الى لندن برسالة يقول فيها :

لماذا تقاتلوننا مرة أخرى ؟ لقد كنا امبراطورية كبيرة وكنتم تخشون جانبنا فانسلخت عنا أكثر البلاد ، ولم يبق الا العنصر التركى فى الأناضول ؟

وبعد محادثات طويلة اشترك فيها حاييم ناحوم حاخام اليهود الأكبر فى تركيا ، قال الانجليز : اننا نخشى أن تعودوا مركز تجمع للمسلمين ونواة لوحدتهم .

---

(١) شكيب ارسلان : حاضر العالم الاسلامى ح ٣ ص ٢٦٣ .
(٢) المرجع السابق .
(٣) المرجع السابق ص ٢٩١ .
(٤) المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام ص ١٧٤ .

وهنا عرض مصطفى كمال الشروط الأربعة الآتية لإرضائهم :

١ ــ الغاء الخلافة الاسلامية نهائيا فى تركيا .

٢ ــ أن تقطع تركيا كل صلة لها مع الاسلام والدول الاسلامية .

٣ ــ أن تضمن تركيا تجميد وشل حركة جميع العناصر الاسلامية بتركيا .

٤ ــ أن تستبدل الدستور العثمانى القائم على الاسلام بدستور مدنى بحت .

وهكذا كان موقف مصطفى كمال من الخلافة ومن الاسلام والمسلمين .

خيانة وطنية :

نشرت صحيفة Sunday Times برقية السفير البريطانى فى أنقرة الى وزارة الخارجية البريطانية التى ذكر فيها أن أتاتورك استدعاه وهو مريض ورجاه أن يخلفه فى منصب الرئيس ، وقد نقلت صحيفة الأهرام المصرية نص هذه البرقية فى عددها الصادر فى ١٩٦٨/٣/١٥ (١) .

مخالفاته للاسلام :

كان مصطفى كمال مدمنا لشرب الخمر ، وكثير السخرية بالمقدسات الاسلامية ، وأباح زواج المسلمات من غير المسلمين ، وترك الحلف باسم الله فى الأيمان الرسمية ، وعرقل سفر الأتراك لأداء فريضة الحج ، ومنع حجاب المرأة ، وأزال الفواصل التى كانت تفصل بين الرجال والنساء فى وسائل المواصلات .

ومن أجل هذا كان الأتراك يتهمون الحكام الجدد بالالحاد واعتناق

---

(١) انظر كذلك كتاب الفكر الصهيونى للاستاذ مصطفى السعدنى ص ٢٢٠ ــ ٢٢١ .

المبادىء الهدامة ، ويقولون عنهم : إنهم يهود وماسونيون وليسوا أتراكا ولا مسلمين ، وكل ما يهدفون اليه هو القضاء على الاسلام والخلافة (١) .

ويقول السيد رشيد رضا فى مجلة المنار (٢) : ان ملاحدة الترك هم الذين يبثون الدعوة الى تشويه الدولة العثمانية ويبثــون الدعوة الى الإلحاد ويحرضون الزنادقة على ترك الاسلام واحتقار تشريعه وآدابه ، ولبس قلانس الافرنج وإثارة النعرة القومية والعصبية الجنسية ، وقلما ثبت لهؤلاء الملاحدة نسب صحيح فى الشعب التركى الذى كان عريقا فى الاسلام ، بل هم أوشاب ، منهم الروسى والرومى والبلقانى ، واليهودى الأصل ، وان السواد الأعظم من الترك يمقتون هؤلاء الكماليين أشد مما كانوا يمقتون اخوانهم الاتحاديين .

اتاتورك وعلمانية الدولة :

اتجهت جمــاعة الاتحــاد والترقى فى سياستها اتجاها محليــا ، واستبعدت منذ سنة ١٩٠٩ الاسلام والوحدة الاسلامية ، ووجهت كل عنايتها الى تركيا والى الأتراك ، فى حدود نظرتهم العادية للاسلام وكان مصطفى كمال صوت هذه الأفكار والاتجاهات ومنفذها ، ولهذا دفع تركيا الى العلمانية عندما آلت له السلطة .

وما المقصود بالعلمانية ؟

لعل المقصود الدقيق بالعلمانية هو الا يتدخل دين الشخص أو مذهبه الدينى فى تقدير قيمته أو يقف حائلا دون نيله ما تستحقه مواهبه ، ولكن المعنى الشائع للعلمانية يكاد يعادل معنى اللادينية ، وذلك المعنى هو الذى اتبع بالنسبة لتركيا آنذاك ، وقد آن لنا أن نستكمل ذكر أهم صور الانقلاب

---

(١) ارمســترونج : مصطفى كمال ص ٣٨ .

(٢) نقــلا عن كتاب « تاريخ الصــحافة الاسلامية » للاستاذ انور الجندى ص ١٤٩ .

الدينى والاجتماعى الذى أحدثه أتاتورك (أبو الأتراك) فى حياة تركيا فى عهد الكماليين امتدادا لاتجاهات جماعة (الاتحاد والترقى) : ففى الجلسة التى عقدتها الجمعية الوطنية فى مارس سنة ١٩٢٤ ، وقررت فيها الغاء الخلافة ، وافقت الجمعية الوطنية أيضا على قانون بالغاء وزارتى الشرعية والأوقاف ثم سارت خطوات مصطفى كمال دون توانٍ لإكمال الصورة التى رسمها لتركيا الحديثة بابعادها عن الدين ابعادا تاما أو قريبا من التمام ، فأعلن الغاء المحاكم الشرعية واضافة أعمالها الى المحاكم المدنية ، وألغى المؤسسات والمدارس الدينية ، وجعل انشاء المدارس مقصورا على وزارة المعارف .

أتاتورك يناهض الإسلام :

وألغى الغازى من الدستور النص على أن دين الدولة الاسلام ، وألغى التشريع الاسلامى الذى أطلق العهد الجديد عليه « شريعت عتيقت » أى القانون البالى واستبدل بـه القانون المـدنى السويسرى والقانون الجنائى الايطالى ، وأصدر الغازى قانونا يجعل العطلة الأسبوعية يـوم الأحد بدلا من يوم الجمعة ، وألغى التقويم الهجرى ، وغيَّر أحكام المواريث فسوى بين الذكر والانثى ، وجعل أصحاب الحق فى الارث هم الفروع دون غيرهم (١) .

وخطت حكومة أتاتورك خطوات أخـرى فى سبيل التخلص مـن الاسلام أو اضعافه ، **فحددت عدد المساجد** ولم تسمح بغير واحد منها فى كل دائرة من الأرض يبلغ محيطها خمسمائة متر ، كذلك **خفض عدد الوعاظ** الذين تدفع الدولة أجورهم الى ثلثمائة واعظ ، وفرض عليهم ألا يقصروا خطبة الجمعة على الأمور الدينية فحسب ، بل أن يضموا اليها فوائد عملية فيما يتصل بالشئون الزراعية وغيرها أيضا ، وأوصدت حكومة أتاتورك

---

(١) انظر تركيا والسياسة العربية للاستاذ سـعيد العريان وآخرين ص ١٠٢ — ١٠٥ .

أبواب جامعين من أشهر جوامع اسطنبول فى وجه المصلين ، ليحوّل أولهما (أيا صوفيا) الى متحف ، وثانيهما (مسجد الفاتح) الى مستودع .

وأصبح تعدد الزوجات — بسبب اقتباس القانون السويسرى — محرّما وقد كان من الوجهة العملية مقتصرا على الطبقات الموسرة .

وهكذا أدارت تركيا ظهرها للاسلام واتجهت لأوربا ، ويؤثر عن هذه الجماعة جملة فى هـذا المعنى وهى : « شرقت وداع » أى **وداعا أيها الشرق** . واكمالا لهذا حرم مصطفى كمال الزى الدينى (الجبة والعمامة) الا على رجال الدين ، وفرض الزى الأوربى والقبعة ذات الحافة ، وأصدر قانونا يقضى باحداث اسم الأسرة ولم يكن ذلك معروفا من قبل فى تركية ، وحرّمت جميع الطرق الصوفية وأغلقت زوايـا الدراويش ، وقضـت الحكومة فى قسوة وعنف على كل نقد دينى لتدابيرها ، ونزلت المرأة التركية ميدان العمل ، **وألغيت الحروف العربية واستبدلت بها الحروف اللاتينية ، وأمر الغازى نفسه أن يظهر أمام الناس بمظهر المعلم لهذه الأحرف ، وأنشئت المدارس فى طول البلاد وعرضها لتعليم الناس عـلى اختلاف أعمارهم الحروف الجديدة التى أصبحت « وطنية » وحذف من مناهج** الكليات تعليم اللغـة العربية والفارسـية ، وهما اللتـان كان الأتراك يعتبرون دراستهما ضرورية لفهم الأدب التركى ، وحرم استعمال الحرف العربى لطبع المؤلفات التركية ، أما الكتب التى سبق لمطابع استانبول أن أخرجتها فى العهود السابقة — وهى كثيرة لا تكاد تُعَدُّ — فقـد صُدِّرَتْ الى مصر وفارس والهند .

والواقع أن هـذا الانقلاب أدى الى قطيعة صعبة بين تركيا وماضيها الاسلامى من جهة ، وبينها وبين اخـوان الأتراك فى الدين فى سـائر الأقطار الاسلامية من جهة أخرى ، وهى قطيعة قاسية النتائج (١) .

---

(١) كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية ج ٢ ص ١٧ — ٢٠ .

ومن أبرز اتجاهات تركيا الحديثة اتجاهها نحو الغرب فى ميولها السياسية والاقتصادية والاجتماعية ، وتقليل علاقاتها مـــع الشرق الاسلامى ، وقد دفعها مصطفى كمال فى هذا الطريق بقوة وعنف •

خلفـــاء مصطفى كمـــال

وانتهى مصطفى كمال الذى لقب نفسه (أبو الأتراك) ولكنه لم يخلف للأتراك الا الفقر والضياع وقد ظل مصطفى كمال يشغل منصب رئيس الجمهورية حتى توفى سنة ١٩٣٨ فخلفه عصمت اينونو الذى ظل رئيسا للجمهورية حتى مات سنة ١٩٥٠ وجاء بعده جلال بايار فى رياسة الجمهورية وشغل عدنان مندريس معه منصب رئيس الوزراء • •

ثورة عسكرية :

وفى مايو سنة ١٩٦٠ حدث انقلاب عسكرى قاده جمال جورسيل وقد جمع زمام الأمور فى يده بصفته العسكرية ، ثـم رشح نفسه لرياســة الجمهورية ، دون منافس فاختير لهذا المنصب فى العام التالى ، وقــد أدانت الثورة رجال العهد الماضى بألوان من الرشوة واستغلال النفوذ واهمال مصالح البلاد تحقيقا للمصالح الشخصية وحكمت بالاعدام على عدد كبير من كبار الرجال من بينهم عدنان مندريس نفسه ، وقد نفذ فيه حكم الاعدام •

وهــذه الأحكام دليل على انحراف القــادة انحرافا قضى باعدامهم ولم تغير ثورة جمال جورسيل من اتجــاه تركيا ، بل ســارت فى نفس السياسة الغربية التى كانت طريق تركيا منذ عهد مصطفى كمال •

وقد ظل جمال جورسيل فى الحكم حتى مرض فى أوائل سنة ١٩٦٦ ، وفى مارس اشتد عليه المرض وفقد الأمل فى شفائه فأنهى البرلمان رياسته

واختار لرياسة الجمهورية « جودت سوناى » • وبعد جودت سوناى اختير فخرى كورتوك سنة ١٩٧٣ •

انقلاب عسكرى جديد :

وفى سبتمبر سنة ١٩٨٠ هب انقلاب عسكرى آخر بقيادة الجنرال كيناى ايفرين فأطاح بحكومة سليمان ديميريل ، وأعلن مجلس الأمن القومى الذى تشكل من العسكريين أن هدف الانقلاب هو منع نشوب حرب أهلية وايقاف موجة العنف السياسى التى تجتاح تركيا منذ ٤ سنوات والتى يروح ضحيتها حوالى عشرين شخصا كل يوم •

وقد تم حل الحكومة والبرلمان التركى وتعطيل الدستور ، وتم القبض على كثير من الزعماء ، وهذه الانقلابات أكبر دليل على أن ثورة أتاتورك كانت مدمرة ولم تؤد للبلاد شيئا ذا بال •

وبعد استقرار الأمور عاد الحكم المدنى الدستورى للبلاد •

رؤية شاهد عيان :

وقد زرت تركيا سنة ١٩٥٠ أى بعد إعلان الجمهورية وبعد سيرها فى ركب الغرب أكثر من ربع قرن ، ولكنى وجدت تركيا كما لا تزال حتى الآن شرقية الشعب غربية الحكم ، ولا يزال شعبها يعيش فى مستوى اجتماعى متدهور ، وقد حسب قادة الأتراك حينا أن الاسلام كان سبب تخلفهم ، فاطرحوا الاسلام ولكن تخلفهم لم يعالج وربما زاد ، وقد عثرت الثورات على بعض الأسباب الحقيقية لتخلف هذه الدولة من رشوة واستغلال نفوذ •••• وليتها تعثر على باقى الأسباب ، ثم ليتها تحاول أن تعالجها ، وربما كان من أنجح الأدوية أن توقظ الاتجاهات الروحية التى تمد فى الشرق دافعا قويا نحو الخلق الصالح وحارسا أمينا على الأهداف السامية •

تركيا فى العهد الحاضر

تبلغ مساحة تركيا الآن ٧٦٧٫٥٣٦ ك ٠ م ، منها ٢٣٫٤٨٥ ك ٠ م بأوربا والباقى بآسيا ، وأهم المدن التركية أنقرة واستانبول وأزمير وأدنة وبورسة واسكي شهر ، ويبلغ عدد سكان تركيا حوالى ٣٠ مليون نسمة تقريبا منهم ١٤ مليون من الأتراك والباقون ينحدرون من أجناس متعددة أهمها الأكراد والتركمان والأرمن ، والمسلمون من سكان تركيا هم ٩٨٪ وهم يتبعون مذهب السنة .

نشاط اسلامى بعد أتاتورك :

وابتداء من سنة ١٩٤٠ نشط الفكر الاسلامى واستعاد قوته ، بعد وفاة أتاتورك ، وبعد أن زالت الأسباب التى كانت تدعو الى التزمت والشدة ، فعيِّن وعاظ وأئمة وانضموا للجيش التركى ، كما كان متبعا فى عهد الخلافة ، ويقول الدكتور برنارد لويس انه قد ظهر اتجاه جديد فى الحكومة التركية التى جاءت فى أعقاب أتاتورك ، وهذا الاتجاه أزال كثيرا من مظاهر الدكتاتورية التى اتصف بها عهد مصطفى كمال ، فانتهزت العناصر الاسلامية هذه الفرصة وجددت حماسها لبعث الحياة الدينية من جديد فى تركيا (١) ".

ومن الواضح أن الدكتور برنارد لويس ينبه بذلك من يهمهم الأمر وبخاصة من دول الغرب ليوقفوا هذه الحماسة الدينية قبل أن تعود جذورها الى ما تخشاه هذه الدول من تعمق وأصالة .

وقد بدأ تحول الاتجاهات الدينية بواسطة كلية الدراسات الدينية التى أنشئت فى جامعة أنقرة ، والتى وضعت مناهجها لتخرج عالما غربى النزعة ، مسلم العقيدة عارفا بمقارنة الأديان وبالدراسات المختلفة بجيد

---

(١) من مقال فى مجلة الشئون الدولية عن البعث الاسلامى بتركيا .

عـددا من لغـات الغـرب ، يدين بالولاء لتركيـا الديمقراطية ويعتنق الاسـلام (١) •

مؤتمرات اسلامية فى تركيا :

ولكن الحق أن تركيا اتجهت بعد ذلك نحو ماضيها الاسلامى دون توقف ، وفى سنة ١٩٧٦ عقد بها مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية وكان أول مؤتمر اسلامى يعقد بتركيا منذ الخلافة سنة ١٩٢٣ ، وقد كان العنوان الرئيسى بصحيفة :

Turkish Daily News هى :

Istambul Again Heart of Islam

أى « استانبول تعود مرة أخرى لتصبح قلب العالم الاسلامى » •

وتقول صحيفة الأهرام الصادرة ١٩٧٦/٥/٢١ عن هذا المؤتمر ان الحكومة التركية طبعت بمناسبة المؤتمر كتابا عن الدول المشتركة فى مؤتمر وزراء خارجية الدول الاسلامية اسمته « الأقطار السائرة فى طـريق الصـواب » •

وتلك كانت مفاجأة المؤتمر الحقيقية •

وثمة حماس شديد للاسلام فى تركيا تفجر بعد طول كبت وخوف ، بل أن هذا الكبت دفع الناس الى مزيد من التمسك بالاسلام لا التحول عنه ، وهذه ظاهرة اكتشفها الساسة الاتراك قبلنا فى انتخابات عام ١٩٧٣ • عندما تأسس فى ذلك العام حزب السلامة الوطنى الاسلامى النزعة ، وخاض المعركة الانتخابية ، وفوجىء الجميع بأن هذا الحزب الوليد قد جاء ترتيبه الثالث من بين ٨ أحزاب فى تركيا •

---

(١) The Muslim World p. 182 (July and October 1954).

وقد فرض الحزب نفسه داخل الحكومة ، وعين زعيمه الدكتور نجم الدين اربكان نائبا لرئيس الوزراء . مشتركا فى الائتلاف الوزارى الذى حكم البلاد عقب هذه الانتخابات .

ومنذ ذلك الوقت — عام ٧٣ — تنبه الجميع الى أن الاسلام لا يزال مزدهرا فى تركيا ، وأن قرار إلغائه ظل حبرا على ورق .

وتقول مجلة « ديانة » التركية : ان معالم المنظر الدينى بتركيا تحددها الأرقام والحقائق التالية : فى تركيا الآن ٤٤ ألف مسجد ، تتزايد بمعدل يتراوح بين ٨٠٠ وألف مسجد كل عام — والمسائل الاسلامية من اختصاص هيئة الشئون الدينية التى يعمل فى فروعها ستة آلاف من الأشخاص ، بينهم ٤٣٩ مفتيا ، و٨٨٠ واعظا ، و ١٤٠٠ مدرس لتعليم القرآن ، و٤٣٣ اماما وخطيبا — أما مدارس تعليم القرآن فعددها ألفان تضم ٥١ ألف طالب وطالبة — ومدارس الأئمة والخطباء عددها ١٧١ وفى جامعة أنقرة كلية للالهيات ، وفى جامعة أرضروم كلية للعلوم الاسلامية .

وتهتم تركيا اهتماما كبيرا فى العهد الحاضر بالمؤتمرات الاسلامية وبرعاية القرآن الكريم وعلومه .

بلاد زراعية :

وتركيا بلاد زراعية عموما اذ أن أكثر سكانها يشتغلون بالزراعة ، والملكيات الزراعية الآن موزعة بين المزاعيين ، وأهم حاصلات تركيا الحبوب والتبغ ، والحركة الصناعية بها ناشئة ونشيطة ، وبتركيا بعض المعادن أهمها الفحم والحديد والنحاس .

تركيا والعالم العربى الآن

مرت السنون ، واستطاعت الدول العربية أن تحصل على استقلالها بعد صراع طويل ، كما استطاع الشعب التركى أن يسترد أنفاسه بعد المسيرة المجهدة التى عاناها ابان الخلافة وبعدها ، والمخلصون يتوقعون أن تزدهر الصلات الطيبة بين تركيا والدول العربية ، احتراما وتقديرا للدين والتاريخ والجوار وغيرها من الصلات التى ربطت الترك بالعرب ، وان معرفتى الشخصية بجماعات من المثقفين الأتراك تجعلنى أحس بتفاؤل عميق نحو مستقبل العلاقات بين الترك والعرب ، وقد عبر لى صديق تركى عن عتب بعض المفكرين الاتراك عما يقوله العرب عن الامبراطورية العثمانية ، وأجبته بأنه ليس سهلا أن ينسى العرب مالاقوه من عناء ، ولكن من اليسير أن نتعاون لنخلق مستقبلا أجمل وأنصع ، يضع على الماضى غلالة أو ساترا حتى يوشك أن يحجبه عن الفكر ، واتفقنا على الدعاء مخلصين أن يتجه الساسة الترك الى الشرق بوجه عام والى العرب بوجه خاص لنعيد رباط الود ، متناسين مشكلات الماضى ومؤملين فى مستقبل أحسن وأنفع ، وأنا أقول كلمة « الساسة » وأعنيها ، أما الشعب التركى فقد عانى معنا قسوة الخلافة ، والكماليين وسخط مثلنا بسبب الانحراف عن هدى الدين ، وأنا أعرف هذا الشعب فى داره ، وأعرفه فى بلادى العربية ، متعلما وزائرا ، وأكثر هذا الشعب يبادلنا ونبادله الأحاسيس الطيبة ويبارك نهضتنا ويؤيد جهادنا ، ونحن بالتالى نحس بأحاسيسه ، ونرجو له كل تقدم ورقى .

مشكلة الموصل والاسكندرونة

بقيت مشكلتان عربيتان تستحقان مزيدا من الشرح والايضاح ، وهاتان هما مشكلة الموصل ومشكلة الاسكندرونة ، وذلك أن المؤتمرات التى عقدت لتصفية أملاك « الرجل المريض » لم تضع حلا لمشكلتى الموصل والاسكندرونة ، وتنازعت العراق وتركيا الموصل ، كما تنازعت سوريا

وتركيا الاسكندرونة ، وكان مصدر النزاع فى نظر تركيا مبنيا حول عنصر السكان ، فأكثر سكان منطقة الموصل من الاكراد ، وهم من عنصر سكان الأقاليم التركية الشرقية ، ومنطقة الاسكندرونة يبلغ عدد الاتراك فيها ٤٠٪ من السكان ، ومن هنا ادعت تركيا أن المنطقتين تابعتان لها • ولم تكن العراق وسوريا مستقلين آنذاك ، وكانت انجلترا تتكلم باسم العراق وفرنسا تتكلم باسم سوريا ، وكان الاحتلال البريطانى للعراق يطمع فى أن يثبت قدمه فى هذه البلاد وبخاصة أن البترول كان قد بدأ يتفجر فى هذه المنطقة ، ولهذا تمسك بالموصل على أنها جزء من العراق ، وفى معاهدة لوزان اتفق على أن تبقى الموصل تحت الاحتلال البريطانى رجاء أن يمكن الوصول الى حل فى خلال عام ، فاذا لم يتفق الطرفان المتنازعان على حل فى خلال العـــام رفع الأمر الى عصبة الأمم • ولم يصل الطرفان الى حل خلال الفترة المحددة فرفعت بريطانيا الامر لعصبة الامم التى ألفت لجنة لدراســـة المشكلة ، وقررت اللجنة ضم الموصل للعراق على أن يبقى العراق تحت الوصاية البريطانية مدة لا تقل عن ٢٥ عاما ، ووافق مجلس عصبة الامم على هذا القرار فى ديسمبر سنة ١٩٢٥ •

ولكن تركيا عارضت هـــذا القرار ، بيد أنها أحست بأن الأمل ضعيف فى الحصـــول على الموصل ، فآثرت الاتفاق مـــع بريطانيا اتفاقا وديا فعقدت معها معاهدة فى يونيو سنة ١٩٢٦ نالت بمقتضاها ١٠٪ من انتاج البترول فى الموصـــل لاستعمالها الخاص نظير تنازلها عن معارضـــة قرار مجلس عصـــبة مجلس الأمم •• وبهذا انتهت مشكلة الموصـــل وعادت جزءا من الوطن العربى •

أما مشكلة الاسكندرية فقـــد انتهت على نمط آخر جعل الخـــلاف لا يزال قائماً حتى الآن ، وقصـــة ذلك أن فرنسا التى كانت تتكلم باسم سوريا وقفت موقفاً مضطربا فى هـــذه المشكلة ، فنراها تعقد اتفاقية مع تركيا سنة ١٩٢١ تنص فيها على إيجاد نظـــام ادارى خاص يتحكم به هـــذا اللواء ، وكان معنى هـــذا النص خلع هـــذه المنطقة من الوطن الأم

(سوريا) ، ثم نراها تعقد معاهدة مع سوريا سنة ١٩٣٦ تَعِدُ فيها بمنح سوريا استقلالها بما فى ذلك لواء الاسكندرونة .

وثارت تركيا ضد هذه المعاهدة التى تناقض الاتفاق الذى أجرى معها بشأن المنطقة المتنازع عليها ، ورفعت شكوى ضد ذلك الى عصبة الأمم سنة ١٩٣٧ ، وقضى مجلس العصبة بعدم تسليم اللواء إلى سوريا وبحكم ثنائى له ، وبضمانات خاصة للسكان الأتراك ، وأطل شبح الحرب العالمية الثانية عقب ذلك ، واتجهت فرنسا الى الاستعداد ضد تحركات النازيين واستعداداتهم ، ومن أجل هذا تساهلت فى الاتفاق مع تركيا حول هذه المشكلة ، فعقدت معها اتفاقاً فى يوليو ١٩٣٨ يقضى بحكم ثنائى للمنطقة وأن تقوم دوريات فرنسية تركية بحراسة اللواء الى أن يُبَت فى مصيره بانتخابات عامة .

ودخلت القوات التركية اللواء ، وأجريت الانتخابات فى هذه الظروف التى لم تتكافأ فيها القوى ، فأدت الى فوز تركيا بأغلبية المقاعد التى كانت المنافسة تجرى عليها ، إذ حصلت على ٢٢ مقعدا من ٤٠ مقعدا ، وفى ٢ سبتمبر أعلنت أغلبية المجلس المنتخب الحكم الذاتى تحت اسم « جمهورية هاتاى » وأرسلت وفداً الى أنقرة يطلب الانضمام الى تركيا .

وتم لتركيا ما أرادت تحت ضغط تهديد الحرب العالمية الثانية ، فسرعان ما اعترفت فرنسا رسمياً بسيطرة تركيا على لواء الاسكندرونة ، وكان ذلك ضمن معاهدة عدم الاعتداء التى عقدت بين فرنسا وتركيا فى ٢٣ يونيو سنة ١٩٣٩ .

وانتهت المشكلة بالنسبة لفرنسا ، ولكنها لم تنته بالنسبة لسوريا وبالنسبة للوطن العربى ، فهذه المنطقة عربية والناظر الى الخريطة يجد أنها زاوية انحدرت بها تركيا الى ما وراء حدودها الطبيعية ، وليس من حق فرنسا أن تمنح من أرض سوريا ما تشاء لتركيا أو لغيرها ، ومن هنا فإن سوريا لا تزال ترى أن اللواء جزء لا يتجزأ من أراضيها وأن احتلال الترك له ليس مشروعا .

تركيا والمشـكلة القبرصـية

وبمناسبة الحديث عن مشكلة الموصل والإسكندرونة ، هناك مشكلة مهمة يجدر بنا أن نتحدث عنها هى المشكلة القبرصية •

والناظر لخريطة البحر الأبيض المتوسط يجد بين جزره جزيرة تعتبر جزيرة آسيوية فهى تقع فى شرقى البحر المتوسط وتحتضنها تركيا ، لأنها تقع الى الجنوب منها وعلى مسافة غير بعيدة من حدودها ، والمسافة بين هـذه الجزيرة وبين اليونان طويلة جـداً اذا قيست بالمسـافة بين الجزيرة وتركيـا ، وكان من الطبيعى أن تتبع هـذه الجزيرة تركيـا ، كالجزر الكثيرة التى تتبع الأقطـار التى تقع هـذه الجـزر قريبة من حدودها ، ولكن السياسة دفعت الكثيرين من اليونانيين لسكنى هـذه الجزيرة فكونوا بهـا أغلبية تصـل الى حوالى ٨٠٪ من السـكان ، أما الأتراك فيمثلون حوالى ٢٠٪ فقط من السـكان يعيشون فى شمال الجزيرة ، وهـذا الوضع خلق مشـكلة لتركيا لا تزال مشـكلة قوية وحساسـة •

وجزيرة **قبرص** (Cyprus) جزيرة جبلية ، بهـا سلسـلة جبال « سرين » شمالا و « كرودس » جنوبا ، وبينهما سهل « نيكوسيا » وهو سهل زراعى خصب تجود به الحبوب والفاكهة والزيتون ، وعاصمة الجزيرة « نيكوسيا » أو « **نيقوسيا** » •

ومن الناحية التاريخية نذكر أن معاوية بن أبى سفيان استولى على هذه الجزيرة وهو والٍ على الشام سنة ٢٨هـ (٦٤٨م) فى عهد عثمان بن عفان رضى الله عنه ، وذلك لأن هـذه الجزيرة قريبة من حـدود سـوريا من جهة الشرق ، ونقل لها معاوية كثيراً مـن الأسر الإسـلامية ، ثـم تناقلتها أيدى العـرب والرومان واليونـان • • • خلال الصراع على

جزر البحر المتوسط ، ثم استولى عليها الأتراك سنة ١٥٧٠ م وظلت تحت سلطة الأتراك أكثر من ثلاثة قرون ، وفى خلال الصراع بين الامبراطورية العثمانية وأوربا الصليبية استولت بريطانيا على قبرص سنة ١٨٧٨ وظلت الجزيرة خاضعة لسلطاتها حتى سنة ١٩٣١ وفى خلال هذه المدة دفعت بريطانيا الكثيرين من اليونانيين للحياة بها ، فاليونان أقرب الدول المسيحية للجزيرة ، ولهم بها صلات تاريخية ، وبدأت بذلك المشكلة الموجودة الآن •

وفى سنة ١٩٣١ أعطى للجزيرة نظام الحكم الذاتى ، ولكن السكان اليونان طالبوا سنة ١٩٤٧ بالاتحاد مع اليونان •

وظهر الاسقف مكاريوس وكان أميل للاعتدال ، فوقعت اتفاقية سنة ١٩٥٩ بين بريطانيا وتركيا واليونان لإقامة جمهورية قبرصية مستقلة ، ذات مجلس تشريعى ثلثه من القبارصة الأتراك وثلثاه من القبارصة اليونانيين ، واختير الأسقف مكاريوس رئيسا للجمهورية ، ونالت الجزيرة استقلالها سنة ١٩٦٠ •

وفى الستينات اشتد التنافس بين الطائفتين ، ووقعت معارك دموية ، وأحست تركيا أنها مضطرة لحماية الأتراك بالجزيرة فأرسلت قوة تركية قوامها ٣٠ ألفا احتلت شمال الجزيرة فى يوليو سنة ١٩٧٤ ، وزادت المشكلة بذلك تعقيدا •

وفى نوفمبر سنة ١٩٨٣ أعلن القبارصة الأتراك تأسس جمهورية خاصة بهم فى شمالى الجزيرة ، وسارعت تركيا فاعترفت بالجمهورية الجديدة ، وكان ذلك ردا على بعض المحاولات التى اتجهت لضم الجزيرة لليونان ، واختير رءوف دنكتاش رئيسا لهذه الجمهورية التى تسيطر على حوالى ٤٠٪ من أرض الجزيرة •

وقد اقترح السكرتير العام للأمم المتحدة حلولاً لهذه المشكلة قوامها إعادة توحيد الجزيرة في ظل حكومة اتحادية بين طائفتين ومنطقتين ، على أن يكون رئيس الدولة من القبارصة اليونانيين ونائبه من القبارصة الأتراك ، مع منح الجانبين سلطة الاعتراض على أية قرارات يصدرها البرلمان الذى يتكون من مجلسين . واقترح أن تشكل الحكومة الاتحادية من عشرة وزراء سبعة منهم من القبارصة اليونانيين وثلاثة من الأتراك ، مع تطبيق نفس النسبة على أعضاء مجلس النواب ، أما مجلس الشيوخ فيكون مناصفة بين الطائفتين ، مع كفالة الحريات الأساسية لكل المواطنين على السواء ..

ومع ان رؤوف دنكتاش قد أعلن قبوله للمقترحات التى قدمها السكرتير العام للأمم المتحدة مؤخراً لتكون أساساً لمفاوضات بين زعيمي الطائفتين اليونانية والتركية ، فقد رفضها الرئيس القبرصي سبيرو كبريانو الذى يُصر على انسحاب قوات الاحتلال التركية ومعهم المستوطنون الجدد من الأتراك ، وتقديم ضمانات دولية لاستقلال قبرص ووحدة أراضيها . وعودة حوالى ٢٠٠ ألف قبرصي يونانى الى منازلهم التى طردوا منها ابان الاحتلال التركى وذلك قبل الجلوس أمام مائدة المفاوضات حول مقترحات السكرتير العام للأمم المتحدة .

ولا تزال المشكلة قائمة حتى كتابة هذه السطور فى أواخر عام ١٩٨٦ م .

نظرة الدول الاسلامية للامبراطورية العثمانية

اتجاه المسلمين الى الوحدة :

كان الاتجاه العام فى الدول الاسلامية هو الوحدة والتكتل ، وهذا الوضع عميق الجذور فى تاريخ الاسلام ، فقد نشأ الاسلام وامتد مكونا دولة واحدة ، وهو كذلك عميق الجذور فى الفكر الاسلامى الذى يرى أن المؤمنين إخوة ، ويحث المسلمين على التعاون والتآزر ، ويتفق فى هذا كل الدول الاسلامية على السواء .

عجرفة لبعض القادة الترك :

هذه هى الفكرة العامة ، ولكن موقف أكثر الأتراك من الدول التى خضعت لهم كان موقفا مشينا ، فقد رأينا أن الاسلام لم يكن إلا هدفاً يحاول العثمانيون أن ينتفعوا به كلما اشتدت عليهم الخطوب ، أما روح الاسلام ، وآداب الاسلام ، واتجاهات الاسلام ، فلم يكن لها صدى فى قصور الخلفاء الذين حكم الكثيرون منهم هذه الدول باسم الاسلام دون أن يدينوا بفلسفاته وتعاليمه .

واتجه الفكر التركى فى أواخر عهد الخلافة العثمانية الى « تتريك » العرب ليكون ذلك ضمانا لاستمرار سيطرتهم على العالم العربى ، وفى ذلك يقول جلال نورى أحد كتاب الترك المشهورين فى كتابه (تاريخ المستقبل) :

« ومما لا مندوحة لنا عنه للدفاع عن كياننا أن نحول جميع الأقطار العربية الى أقطار تركية ، لأن النشء العربى الحديث صار يشعر اليوم بعصبية جنسية ، وهو يهددنا بنكبة عظيمة يجب أن نحتاط لها من الآن » .

ويقول أحد كبار الصحفيين فى جريدة (طنين) : إن العرب لا يزالون يلهجون بلغتهم ، وهم يجهلون اللغة التركية جهلا تاماً ، كأنهم ليسوا تحت حكم الترك . فمن واجبات الباب العالى فى هذه الحال أن ينسيهم لغتهم ويجبرهم على تعلم لغة الأمة التى تحكمهم ، فاذا أهمل هذا الواجب كان كمن يسعى الى حتفه بنفسه ، لأن العرب إن لم ينسوا لغتهم وتاريخهم وعاداتهم فإنهم سيعملون عاجلا أو آجلا على استرجاع مجدهم الضائع وتشييد دولة عربية على أنقاض الترك (١) .

وبالاضافة الى ذلك ذاقت الدول التى تبعت تركيا صوراً من المرارة والحرمان المادى والأدبى ، وطالما تصور قادة المسلمين أن الاضطراب والطغيان يصدران عن شخص الخليفة فوجهوا بغضهم نحوه فقط وعملوا على خلعه وتغييره ، ولذلك ظل الكثيرون منهم تحت ضوء هذه الفكرة يدين بالولاء للخلافة والوحدة الاسلامية كما رأينا فى ميل جمال الدين الأفغانى ومصطفى كامل وغيرهما .

فريقان :

ومرت الأيام وجاءت الحملة الفرنسية الى مصر ، وفتح المصريون عيونهم على التقدم والمدنية والعرفان التى حرمهم الترك منها ، وهب المصريون يناضلون الاستعمار الفرنسى وهتفوا بالاستقلال ونالوه ، واستمر هتاف الكثيرين يدوى ضد تركيا ويسعى للتبشير بالقومية العربية كما كانت جماعة الاتحاد والترقى تبشر وتعمل للقومية التركية ، وهنا ينشطر المسلمون فى تفكيرهم ، فيتجه المسلمون الذين ذاقوا الآلام تحت سلطان الترك الى التخلص من هذه الخلافة ، ويبقى المسلمون الذين لم يخضعوا للأتراك على ما كانوا عليه من ولاء للخلافة وعمل على تأييدها واستهجان لمناوأتها ، وكانت هذه المجموعة من الدول الاسلامية ترى فى الترك حماة من الاستعمار ، ومما يدل على اتجاه هذه الدول

---

(١) نقلا عن الأمة العربية للدكتور عبد الحميد البطريق ص ٩٥ — ٩٦ .

أن سلاطين آتشة بسومطره تقدموا — عندما هددهم الهولنديون — الى سلاطين آل عثمان بالولاء ، وهددوا بهم المستعمر الهولندى ، وطلبوا من الترك العون لدفع الخطر عن الوطن الاسلامى •

ومثل موقف سلاطين آتشة موقف مسلمى الهند الذى نقتبسه من الباحث الكبير الأستاذ عباس العقاد (١) فيما يلى :

« والمسألة التى تضاءلت الى جانبها كل مسألة من مسائل العالم الاسلامى فى حساب مسلمى الهند ، هى مسألة الخلافة الاسلامية ، التى كانت فى آل عثمان بالقسطنطينية • فقد كان أمراء الهند أنفسهم يستقبلون تلك الخلافة فى الشدائد ، وينظرون اليها نظراتهم الى البقية الباقية من الاسلام ودولته الدنيوية •

« ومنذ عهد الاحتلال البريطانى ، توجهت الأنظار الى سلاطين آل عثمان ، وكان فى طليعة المتوجهين اليه سلطان « ميسور » على مقربة من سلطنة حيدر آباد ، فإنه كتب الى الخليفة يبلغه حقيقة الخطر على الديار الآسيوية ، ولم يكن فى وسع الخليفة أن ينجده بالعون الذى أراد ، فكتب الى نابليون يطلب منه العون ، وجاءه الجواب منه بانتظار المدد فى جيش جرار يضرب الدولة البريطانية فى مقتلها ، ويخلى الطريق الى الهند من شباكها •

« ولم يزل أمراء الهند — فضلا عن سوادها — يتطلعون الى الخلافة فى القسطنطينية حتى زالت وانتهت بخاتم الخلفاء السلطان عبد المجيد ، فسعى سلطان حيد آباد الى التزوج من إحدى بناته ، وقيل فيما قيل من أسباب هذا الزواج إنه « زواج سياسى » يمهد به السلطان الى إمامة المسلمين فى الهند على الأقل ، إن لم تنعقد له الإمامة على العالم الاسلامى بأجمعه •

---

(١) القائد الأعظم محمد على جناح •

« ولم يتفق لمسلمى الهند ما يضعف مكانة الخلافة بينهم ، كما اتفق للمسلمين الذين حكمتهم الدولة العثمانية فتمردوا على حكمها ، وتغلبت فى نفوسهم دفعة الوطنية على الولاء لحكومة ساءت سياستها ، وخرجت فى رأى الأكثرين عن أحكام دينها ، فقد كان مسلمو الهند يزدادون عطفاً على دولة الخلافة كلما اشتدت بهم المحن من داخلها وخارجها ، وينسبون الثورات عليها أحيانا الى دسائس الاستعمار ، وغواية الدول الأجنبية بالرشاوى والوعود الكاذبة » .

وهكذا عاشت الامبراطرية العثمانية أربعة قرون ثم سقطت ، وكان عهدها فى الغالب عهد ظلام ، وقد أسلمت العالم العربى الى الاستعمار الأوربى ، بعد أن ضعف بنيانه وانهار كيانه ، وعندما تخلت تركيا عن مكانها القيادى اتجه قادتها الاتحاديون والكماليون الى الغرب متناسين هذا التاريخ الطويل الذى ربطها بالشرق وبالاسلام ، ومن المؤكد — **كما قلنا من قبل — أن أى صوت ينبعث فى تركيا لإبعادها عن الاسلام وعن الفكر الاسلامى سيكون صرخة فى واد ، فالشعب التركى عريق فى إسلامه وفى تمسكه بسواه من الشعوب الاسلامية .**

* * *

ولنختم حديثنا عن تركيا بالدعاء أن تزدهر الحياة فيها ، وأن يحقق شعبها ما يطمح له من مجد وسؤدد ، فى ظل الاسلام والتعاون الشامل مع الدول العربية والاسلامية .

مراجع البحث

ملاحظتـان :

١ ـ الكتب التى ستذكر فى هذه القائمة هى فقط الكتب التى وردت فى ذيل صفحات الكتاب ، اما الكتب التى اسهمت فى هذا البحث بطريق غير مباشر فلم تثبت فى هذه القائمة لكثرتها .

٢ ـ نظمت المراجع فيما يلى حسب الترتيب الأبجدى للاسم الذى اشتهر به المؤلف مع صرف النظر عن الملحقات (ابن ـ الـ) .

١ ـ Encyclopaedia of Islam فى عدة مقالات .

٢ ـ Encyclopaedia Britannica فى عدة مقالات .

٣ ـ صحف ومجلات كثيرة .

٤ ـ وثائق رسمية ومعاهدات .

٥ ـ مقابلات شخصية لزعماء اسهموا فى صنع التاريخ .

٦ ـ لقطات مما اذاعه الزعماء بالراديو أو بالتليفزيون .

ـ سيناء : الطبيعة والتاريخ والانسان والأمل (دار الهلال يونيو ١٩٧١) .

٧ ـ الكتاب المقدس (العهد القديم والعهد الجديديد) .

٩ ـ Cambridge Midiaeval History

١٠ ـ ابراهيم بن صالح : تاريخ بعض الحوادث الواقعة فى نجد .

١١ ـ ابراهيم طرخان : مصر فى عهد دولة المماليك الشراكسة .

١٢ ـ أبو شامة : كتاب الروضتين فى تاريخ الدولتين .

١٣ ـ أبو شامة : ذيل الروضتين .

١٤ ـ أبو الفدا : المختصر فى اخبار البشر .

١٥ ـ ابو المحاسن بن تغري بردى : النجوم الزاهرة .

١٦ ـ أبو يوسف : الخراج .

١٧ ـ ابن ابى اصيبعة : عيون الأنباء .

١٨ ـ ابن الأثير : الكامل فى التاريخ .

١٩ ـ Armstrong : مصطفى كمال : الذئب (الترجمة العربية) .

٢٠ ـ انالجلوس بابا يوانو : دير طور سيناء (الترجمة العربية) .

٢١ ـ ابن ايلس : بدائع الزهور فى وقائع الدهور .

٢٢ ـ أحمد أمين : زعماء الاصلاح فى العصر الحديث .

٢٣ ـ دكتور احمد شلبى : موسوعة التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية « الأجزاء الأخرى » .

٢٤ ـ دكتور احمد شلبى : السياسة والاقتصاد فى الفكر الاسلامى

٢٥ ـ دكتور احمد شلبى : المجتمع الاسلامى .

٢٦ ـ دكتور احمد شلبى : تاريخ التربية الاسلامية .

٢٧ ـ دكتور احمد شلبى : تاريخ التشريع والقضاء فى الاسلام .

٢٨ ـ دكتور أحمد شلبى : اليهودية «من سلسلة مقارنة الأديان»

٢٩ ـ دكتور أحمد شلبى : المسيحية «من سلسلة مقارنة الأديان»

٣٠ ـ دكتور أحمد شلبى : الاسلام «من سلسلة مقارنة الأديان»

٣١ ـ دكتور احمد شلبى : مصر فى حربين .

٣٢ ـ دكتور احمد شلبى : المكتبة الاسلامية لكل الأعمار(١٠ اجزء)

٣٣ ـ دكتور أحمد الصاوى : الصقالبة فى أسبانيا .

٣٤ ـ أحمد عرابى : مذكرات لحمد عرابى .

٣٥ ـ الشيخ أحمد كاتب الشونة : تاريخ ملوك السودان

٣٦ ـ احمد النائب الأنصارى : المنهل العذب فى تاريخ طرابلس الغرب

٣٧ ـ انور الجندى : من اعلام الحرية فى العالم العربى .

٣٨ ـ أنور الجندى : تاريخ الصحافة الاسلامية .

٣٩ ـ Midiâeval Europe : Emerton

٤٠ ـ A Short History of the Fatimid Caliphate : O' Leory

٤١ ـ The Art of War in the Middle Ages : Oman C. W.

٤٢ ـ The Frist Crusade : August Krey

٤٣ ـ The Legacy of Islam : Bsrker

٤٤ ـ The Fall of Constantinople : Bear Edwin

٤٥ ـ The Origin of Ismailism : (Dr.) Bernard Lewis

• The Emergence of Modern Turkey : Bernard Lewis

٤٦ ـ Religions of the World : Berry G.

٤٧ — Burton Bernstein : سـيناء أرض المعـارك والتداسـة (الترجمة العربية) .

٤٨ — بـل : مصر من الاسكندر حتى الفتح العربى (الترجمة العربية) .

٤٩ — البلاذرى : فتوح البلدان .

٥٠ — البلوى : سيرة احمد بن طولون .

٥١ — History of Ethiopia, Nubia and Abyssinia : Budge. F. A.

٥٢ — The Arab Conquest of Egypt : Butler

٥٣ — The Caliphate : Thomas Arnold

٥٤ — الثعـالبى : يتيمة الدهر .

٥٥ — Turkistan Orient : Gelzer H.

٥٦ — The History of the Decline and Fall of the Roman Empire. : Gibbon E.

٥٧ — الجبرتى : عجائب الآثار فى التراجم والأخبار .

٥٨ — ابن جبير : الرحـلة .

٥٩ — The Syrian Desert : Grant C. P.

٦٠ — Ghildren Crusade : Gray G. Z.

٦١ — The Jaws : James Hosmer

٦٢ — جورجى زيدان : تاريخ التمدن الاسلامى .

٦٣ — جورجى زيدان : تاريخ مصر الحديث .

٦٤ — ابن حجر : الدرر الكامنة فى علماء المائة الثامنة .

٦٥ — دكتور حسن ابراهيم : الفاطميون فى مصر .

٦٦ — دكتور حسن ابراهيم : عمرو بن العاص .

٦٧ — دكتور حسن ابراهيم : تاريخ الاسلام .

٦٨ — دكتور حسن ابراهيم ودكتور طه شرف : المعز لدين الله الفاطمى .

٦٩ — حسن عبد الوهاب : تاريخ المساجد الأثرية بمصر .

٧٠ — دكتور حسن محمود : مصر فى عهد الطولونيين والاخشيديين .

٧١ — حسين سرى : بحث عن « الأعمال الهندسية والمنشآت العامة فى عهد اسماعيل » نشرته وزارة المعارف المصرية فى كتاب عن « عهد اسماعيل » سنة ١٩٤٥ .
٧٢ — حنا النقيوسى : تاريخ حنا النقيوسى .
٧٣ — ابن حوقل : صورة الأرض .
٧٤ — ابن خلدون : المقدمة .
٧٥ — ابن خلدون : العبر وديوان المبتدأ والخبر .
٧٦ — ابن خلكان : وفيات الأعيان .
٧٧ — خليل شيبوب : عبد الرحمن الجبرتى .
٧٨ — ابن الداية : سيرة أحمد بن طولون .
٧٩ — الذهبى : دول الاسلام .
٨٠ — Suleiman the Magnificent : Roger Merriman
٨١ — زامباور : معجم الأنساب والأسرات الحاكمة فى التاريخ الاسلامى .
٨٢ — دكتور زكى حسن : كنوز الفاطميين .
٨٣ — زكى شنودة : تاريخ الأقباط .
٨٤ — ساويرس « ابن المقفع » : سير الآباء البطارقة .
٨٥ — Histoire Gènèrale des Arabes : Sédilot L. B.
٨٦ — Muhammadan Dynasties : Stanley Lane -- Poole.
٨٧ — السخاوى : الضوء اللامع فى علماء القرن التاسع .
٨٨ — Egypt in the Middle Ages : Stsnley Lane -- Poole
٨٩ — ابن سعيد «على بن موسى» : المغرب فى حلى المغرب والمشرق فى حلى المشرق .
٩٠ — دكتور سعيد عاشور : العصر المماليكى فى مصر والشام .
٩١ — دكتور سعيد عاشور : الحركة الصليبية .
٩٢ — دكتور سعيد عاشور : السيد أحمد البدوى : شيخ وطريقة .
٩٣ — سعيد العريان وآخرون : تركيا والسياسة العربية .
٩٤ — دكتورة سيدة كاشف : مصر فى عهد الولاة .

٩٥ — دكتورة سيدة كاشف : سيرة أحمد بن طولون .
٩٦ — السيوطى : حسن المحاضرة فى أخبار مصر والقاهرة
٩٧ — السيوطى : بغية الوعاة فى طبقات اللغويين والنحاة
٩٨ — السيوطى : غزوات قبرص ورودس .
٩٩ — شاهنشاه بن أيوب : ذيل النوادر .
١٠٠ — ابن شداد « بهاء الدين » : سيرة صلاح الدين .
١٠١ — شكيب أرسلان : حاضر العالم الاسلامى .
١٠٢ — الصفدى : الوافى بالوفيات .
١٠٣ — طارق البشري : المسلمون والأقباط فى السياسة المصرية
١٠٤ — الطبرى : تاريخ الأمم والملوك .
١٠٥ — عباس العقاد : القائد الأعظم محمد على جناح .
١٠٦ — عباس العقاد : بحث عن « الفتوح فى عهد اسماعيل » بالكتاب الذى نشرته وزارة المعارف عن « عهد اسماعيل » .
١٠٧ — عثمان بن بشر : عنوان المجد فى تاريخ نجد .
١٠٨ — ابن عبد الحكم : فتوح مصر والمغرب .
١٠٩ — عبد الحميد البطريق : الأمة العربية .
١١٠ — عبد الرحمن الرافعى : تاريخ الحركة القومية .
١١١ — عبد الرحمن الرافعى : مصر من عهد اسماعيل .
١١٢ — عبد الرحمن الرافعى : فى أعقاب الثورة .
١١٣ — عبد الحميد العبادى : علم التاريخ (مترجم) .
١١٤ — دكتور عبد الرحمن زكى : الشرق الأوسط .
١١٥ — دكتور عبد الرازق السنهوري : بحث عن «التعليم فى عهد اسماعيل» .
١١٦ — دكتور عبد العزيز الشناوى : الدولة العثمانية : دولة اسلامية مفترى عليها .
١١٧ — عبد اللطيف البغدادى : الافادة والاعتبار .
١١٨ — دكتور عبد النعيم حسنين : سلاجقة ايران والعراق .
١١٩ — دكتور عبد الوهاب عزام (ناشر) : مجالس السلطان الغورى .
١٢٠ — ابن العبرى « أبو الفرج » : مختصر تاريخ الدول .

١٢١ — ابن عربشاه : عجائب المقدور فى تاريخ تيمور .
١٢٢ — ابن عساكر : تاريخ دمشــق .
١٢٣ — دكتور على ابراهيم : مصر فى العصور الوسطى .
١٢٤ — دكتور على ابراهيم : جوهر الصقلى .
١٢٥ — عماد الدين الأصفهانى : تاريخ آل سلجوق .
١٢٦ — عماد الدين الأصفهانى : الفتح القسى فى الفتح القدسى .
١٢٧ — عمر الاسكندرى وميجر سفدج : تاريخ مصر الى الفتح العثمانى .
١٢٨ — عمر الاسكندرى وميجر سفدج : تاريخ مصر من الفتح العثمانى .
١٢٩ — العينى : عقد الجمان فى تاريخ أهل الزمان .
١٣٠ — الأنبا غرغوريوس : وثائق للتاريخ .
١٣١ — غوستاف لوبون : حضارة العرب .
١٣٢ — قدرى قلعجى : صلاح الدين الأيوبى .
١٣٣ — القفطى : اخبار العلماء بأخبار الحكماء .
١٣٤ — ابن القلانسى : ذيل تاريخ دمشق لهلال الصابئى .
١٣٥ — القلقشندى : صبح الأعشى .
١٣٦ — ابن القيم : زاد المعــاد .
١٣٧ — كارل بروكلمان : تاريخ الشعوب الاسلامية .
١٣٨ — Caulbeaux : Hist. d' Abyssnie
١٣٩ — Kirk : A Short History of the Middle East
١٤٠ — كرومر : مذكرات كرومر .
١٤١ — الكندى : كتاب الولاة والقضاة .
١٤٢ — Lammance : Syria
١٤٣ — Sir Mark Sykes : The Turkish Impire
١٤٤ — مجير الدين : الأنس الجليل .
١٤٥ — محجوب زيادة : الاسلام فى السودان .
١٤٦ — دكتور محمد حامد فهمى : بحث عن « مركز مصر الدولى فى عهد اسماعيل » .
١٤٧ — محمد جميل بيهم : فلسفة التاريخ العثمانى .
١٤٨ — محمد حبيب احمد : نهضة الشعوب الاسلامية .

١٤٩ — محمد حسنين هيكل : خريف الغضب .
١٥٠ — محمد حسنين هيكل : مذكرات فى السياسة المصرية .
١٥١ — محمد الحسينى زخا : خلاصة تاريخ مصر الحديث .
١٥٢ — د. محمد حرب : مذكرات السلطان عبد الحميد (تحقيق) .
١٥٣ — محمد رفعت : بحث عن « مكانة مصر الدولية فى عهد اسماعيل » .
١٥٤ — محمد شفيق غربال : تاريخ المفاوضات المصرية البريطانية .
١٥٥ — محمد صبرى : تاريخ العصر الحديث .
١٥٦ — الشيخ محمد الصواف : المخططات الاستعمارية لمكافحة الاسلام .
١٥٧ — دكتور محمد ضياء الدين الريس : تاريخ الشرق العربى والخلافة العثمانية .
١٥٨ — دكتور محمد ضياء الدين الريس : فى التاريخ الاسلامى الحديث .
١٥٩ — دكتور محمد عامر : المماليك المصريون الذين لمعوا فى ميدان الفكر .
١٦٠ — محمد عبد الجواد : تقويم دار العلوم .
١٦١ — محمد بن عبد الله الانصارى : تحفة المستفيد .
١٦٢ — محمد عبد الله عنان : الحاكم بأمر الله .
١٦٣ — محمد فريد : تاريخ الدولة العلية العثمانية .
١٦٤ — دكتور محمد فؤاد شكرى : مصر والسودان .
١٦٥ — محمد كرد على : خطط الشام .
١٦٦ — محمد كرد على : الاسلام والحضارة العربية .
١٦٧ — دكتور محمد المبارك : تركيب المجتمع السورى .
١٦٨ — دكتور محمد مصطفى زيادة : حملة لويس التاسع على مصر وهزيمته فى المنصورة .
١٦٩ — محمد مصطفى عطا : مصر بين ثورتين .
١٧٠ — محمود ابو رية : جمال الدين الأفغانى : تاريخه ورسالته ومبادئه .
١٧١ — محمود الشنيطى : قضية ليبيا .

١٧٢ ــ مصطفى السعدنى : الفكر الصهيونى .

١٧٣ ــ مصطفى صبرى (شيخ الاسلام) : الأسرار الخفية وراء الغاء الخلافة العثمانية .

١٧٤ ــ دكتور مصطفى صفوت : مصر المعاصرة .

١٧٥ ــ دكتور مصطفى مسعد : الاسلام والنوبة .

١٧٦ ــ المعلوف : تاريخ الأمير فخر الدين الثانى .

١٧٧ ــ المقريزى : السلوك .

١٧٨ ــ المقريزى : الخطط .

١٧٩ ــ المقريزى : اتعاظ الحنفاء (تحقيق الدكتور محمد حلمى) .

١٨٠ ــ A Short History of the Crusades : Mombert

١٨١ ــ ابن الميسر : تاريخ مصر .

١٨٢ ــ نعوم شقير : تاريخ سيناء .

١٨٣ ــ النعيمى : الدارس فى تاريخ المدارس .

١٨٤ ــ النويرى : نهاية الأرب .

١٨٥ ــ History of the World : Hall H. R.

١٨٦ ــ Kulturgeschichte der Kreuzzuge : Hans Prantz

١٨٧ ــ Atlas of Islamic History : Harry Hazard

١٨٨ ــ His. Générale : Henne - am Rhy's

١٨٩ ــ History of the Arabs : Hitti Ph.

١٩٠ ــ History of Syria : Hitti Ph.

١٩١ ــ هرنشو : علم التاريخ (الترجمة العربية) .

١٩٢ ــ هلال الصابى : تاريخ دمشق .

١٩٣ ــ ابن واصل : مفرج الكروب فى أخبار بنى أيوب .

١٩٤ ــ وايزمان : مذكرات وايزمان .

١٩٥ ــ Outline of History : Wells

١٩٦ — William of Tyre : History of William al Tyre

١٩٧ — ياقوت : معجم الأدباء .

١٩٨ — ياقوت : معجم البلدان .

١٩٩ — يحيى بن آدم : الخــراج .

٢٠٠ — يحيى بن سـعيد : تاريخ يحيى بن سـعيد .

٢٠١ — د. يوسف القرضاوى : الحلول المستوردة .

فهـرس الأعـلام

ملاحظتـــان :

١ — تحاشيا للاطالة لم أضمن هذه الفهارس أسماء المؤلفين اكتفاء بورودها فى ذيل صفحات الكتاب وفى قائمة المصادر والمراجع .

٢ — رتبت هذه الأسماء ترتيبا أبجديا مع عدم اعتبار الملحقات (ابن — الـ) ومع عدم اعتبار الألقاب (الملك — الخديوى — باشا — بك ...) .

٣ — حرف (م) يوضع بعد الرقم للدلالة على ان الاسم تكرر فى الصفحة أكثر من مرة .

حرف الألف

حرف الباء

حرف التاء

حرف الثاء

حرف الجيم

حرف الحاء

حرف الخاء

حرف الدال

حرف الذال

حرف الراء

حرف الزاى

حرف السين

حرف الشين

حرف الصاد

حرف الضاد

حرف الطاء

حرف الظاء

حرف العين

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف النون

حرف الهاء

حرف الواو

حرف الياء

فهرس الأمكنة

لم أضمن هذا الفهرس الكلمات الآتية : مصر — القاهرة — سوريا ، لكثرة ورود هذه الكلمات فى أكثر الصفحات بما لا يجعل ذكرها مفيداً للكاشف .

حرف الألف

حرف الباء

حرف الغين

حرف الفاء

حرف القاف

حرف الكاف

حرف اللام

حرف الميم

حرف النون

حرف الهاء

حرف الياء

رقم الايداع ٥٠٨٥ لسنة ١٩٨٦

مطـابع سـجل العرب

HISTORY and CIVILIZATION of ISLAM

A study, in Ten Volumes, on History and Civilization of Islam in All Muslim Ages and Lands

- 5 -

- **Egypt and Syria from the Beginning of Islam up to the Present Time.**
- **Crusades: Reasons, Evolution, Results.**
- **Ottoman Impire (Turkey) from its Rise up to the Present Time.**

By

AHMED SHALABY,

B.A. (Hon.) Cairo University,
Ph. D. Cambridge University,

Professor and Head of the Department of Islamic History and Civilization

Faculty of Dar El Ulum, Cairo University

Seventh Edition (1986) Revised

Published by :

THE RENAISSANCE BOOKSHOP
9 Adly Street, Cairo.



دكتور أحمد شلبى

- تلقى دراساته فى الأزهر وفى كلية دار العلوم (جامعة القاهرة) وفى جامعة لندن وجامعة كمبردج .
- زار الولايات المتحدة الامريكية كما زار أكثر دول أوربا وآسيا وافريقيا ، ومثّل مصر فى عدة مؤتمرات دولية .
- درس مجموعة من اللغات الأجنبية ويجيد الانجليزية والاندونيسية .
- اشتغل بالتدريس بجامعة القاهرة حتى وصل الى درجة أستاذ ورئيس قسم التاريخ الاسلامى والحضارة الاسلامية ، وقد حاضر - منتدبا وزائرا ومُعارا - فى جامعة الأزهر ، وعين شمس ، واندونيسيا ، والسودان ، وماليزيا ، والمملكة العربية السعودية ، وليبيا ، وفى معهد الدراسات الاسلامية ، ومعهد البحوث والدراسات العربية ، ومعهد الدراسات الدبلوماسية .
- مؤلفاته تزيد عن خمسين كتابا ظهرت الطبعة الثامنة عشرة من بعضها وأهم هذه المؤلفات :

١ - موسوعة التاريخ الاسلامى فى عشرة أجزاء .
٢ - موسوعة الحضارة الاسلامية فى عشرة أجزاء .
٣ - مقارنة الأديان فى أربعة أجزاء .
٤ - كيف تكتب بحثا أو رسالة .
٥ - المكتبة الاسلامية لكل الاعمار : ١٠٠ جزء من السّيَر والتاريخ وقصص القرآن للأولاد والشبان والسيدات والرجال .
٦ - ISLAM: BELIEF, LEGISLATION, MORALS
٧ - HISTORY OF MUSLIM EDUCATION

- كتب بعض كتبه بالانجليزية والاندونيسية ، وتُرجمت أكثر مؤلفاته الى الأوردية ، والتركية ، والاندونيسية ، والماليزية والفرنسية ، والفارسية .